نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الخامس

الطبعة الأولى
1436 هـ ـ 2015م

ISBN: 978-9938-14-192-4

مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.darte@tunet.tn

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (58)

بيان معاني الألفاظ :

الفاحشة : الفعلة القبيحة (اللواط)

وأنتم تبصرون : معلنين.

تجهلون: تأتون فعل الجاهلية.

يتطهرون: يتنزهون على طريقة الاستهزاء بهم.

الغابرين : المهلكين الباقين مع من قُدِّر استئصالهم.

بيان المعنى الاجمالي :

و اذكر ما ختم به أمر قوم لوط، لما أنذرهم رسولهم لوط عليه السلام، منكرا عليهم إتيانهم للفعلة القبيحة المنكرة، وفسادهم إلى درجة أنهم أصبحوا يتجاهرون بها بدون حياء. قال لهم: عجبا لكم كيف ترغبون في قضاء شهوتكم الجنسية من الذكور أمثالكم وتعرضون عن النساء مع ما أودع الله فيهن من خصائص بها يتم التكامل بين الجنسين، من رقة ومن لطف وجمال. حقا إنكم قوم انغرس الفساد فيكم وانحرفتم انحرافا بالغا.

كان موقف قومه من موعظته تصلبهم على الفساد، وهددوه بإخراجه ومن آمن معه، وسخروا منهم بأنهم قوم بالغوا في الطهارة.

إنه لما بلغ بهم التصلب في الفساد إلى هذا الحد، قدر الله إنجاءه من كيدهم، ومن العذاب الذي سيستأصلهم. وأن امرأته التي كانت مقرة لهم على فسادهم سينالها ما

بنالهم من العذاب. ونزل عليهم من السماء عذابا مثنا بعا كالمطر. فما أسوأ ما انتقم الله به منهم

بيان المعنى العام:

54-55: ولوطا إذ قال لقومه...بل أنتم قوم تجهلون.

واذكر تاليا عليهم قصة لوط عليه السلام، في ذلك الظرف الذي قال فيه لقومه منبها لهم منكرا عليهم أمرين قبيحين جمعا بينهما لتجذر الفساد في نفوسهم: أنكر عليهم شيوع الفعلة البالغة أقذر حد في الفساد والقبح: العلاقة الجنسية بين الذكور، وزادها قبحا أنهم يعلنون بذلك ولا يستترون. مما يدل على انقلاب القيم عندهم بحصول الرضا العام عن الشذوذ الجنسي، تشتهون الرجال دون النساء. وأضاف إلى الإنكار الأول توبيخهم على جهلهم بالعواقب، فنبههم إلى أن الشهوة العارمة غطت على ما في فعلهم من القبح ومناقضته للفطرة، وشدة الفساد.

اهتز سلم القيم اهتزازا كبيرا، إن لم نقل إنه تحطم، على أيدي الطغاة الذين مسكوا بزمام القيادة حسب أهوائهم، فالعدل هو ما يمكن لسلطانهم والتسلط على من لم يبلغ قوتهم فأرضخوه ليكون تابعا لهم. والميزان مختل ترجح فيه كفة ما ينفذون به مصالحهم. وخير مثال على ذلك في عصرنا حق النقض في مجلس الأمن، والطريقة التي تم بها استخدامه وتعطيل العدل ونصر الظلم. خدروا البشر بشعارات تستقطب الرضا العام، وغالطوا الناس على أنها مثال للقيم التي جاهدت البشرية في تاريخها الطويل لتبلغها، وما قاربت بلوغها إلا اليوم. ومن ذلك ميثاق حقوق الإنسان الذي جندوا له وسائل الإعلام، ورسخوه بالمؤتمرات والقرارات المفصلة لمضامينه. والتوقيع عليه من الحكومات الفاعلة والمضللة، والحكومات المغلوبة على أمرها. وبلغ التضليل أن مكنوا الشذاذ جنسيا من إعلان شذوذهم، والدفاع عن فسادهم واعتبروه حقا من حقوق الإنسان.

56. فما كان جواب قومه...أناس يتطهرون.

تبع إنكار لوط وتقريعه قومه على ما انغمسوا فيه من الشذوذ الجنسي، أنهم تصلبوا في الثبات على إشباع شهواتهم على ما اختاروه لأنفسهم، ورأوا أن هذا التذكير والإنكار من لوط، صوت يفسد عليهم متعتهم، فأجمعوا أمرهم على إخراج لوط ونفيه خارج قريتهم. تآمروا بهذا، وأضافوا إلى ذلك أن سخروا من تمسك لوط بقيمه على أنه وأتباعه أناس يتطهرون من الشذوذ. قالوا هذا استهزاء بهم.

57-58: فأنجيناه وأهله..فساء مطر المنذرين.

قدم القرآن إنجاء الله لوطا وقومه لأنه هو المهم في القصة، التي تهدف إلى تأنيس الرسول، أن الله منجيه كما أنجى لوطا وأهله، وتهديد مشركي مكة أن قدرة الله تأخذ الظالمين أخذا يكونون معه خبرا بعد عين. كما تم بالنسبة لقوم لوط فقد أهلكهم وأنجى لوطا وأهله إلا امرأته. وذلك أن الله أنزل عليهم من السماء مطرا متتابعا لم ينج منه أحد من المنذرين. وما أسوأ مطر العذاب النازل عليهم المبيد لهم!

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

سلام: تحية يقصد بها التلطف والتكريم.

الإنبات: تكوين النبات.

الحدائق: جمع حديقة وهي البستان الذي حوله حائط يحميه.

البهجة: حسن المنظر الذي يسر به الناظر.

القرار: من قر إذا ثبت وسكن.

يكشف: يزيله.

بيان المعنى الإجمالي:

خطاب من الله لرسوله يأمره أولا: أن يتوجه بالحمد لله والثناء على الطائفة التي أعان بها رسله، مما يدل على أن النبوة وحدة مسائرة في الكون، فكل ما أسعد الله به رسله وأنبياءه من العون والنصر، جدير بأن يتوجه خاتم رسله بالحمد له والثناء على تلك الأيادي الكريمة.

وأمره ثانيا: أن يدعو الله بأن يكتب للذين اصطفاهم من عباده التكريم والمقام العلي. فإنهم قد شرعوا لمن بعدهم المسالك التطبيقية للهدى. وأمره ثالثا: أن يوجه

سؤال لوم وتوبيخ للمشركين ليقول لهم: هل إن الله الذي تفضل عليكم ببعث رسله، وما سيرد في الآيات اللاحقة من ضروب فضله هو خير أو ما تعبدون من دون الله من أصنام وعباد وكواكب لا تنفع ولا تضر؟

ثم أخذ القرآن يتابع توجيه الأسئلة الجامعة بين بسط دلائل الألوهية وبين توبيخ المشركين فكان أول سؤال : من خلق السماوات والأرض، وربط بينهما فأنزل من السماء ماء، قدر بحكمته أن ينبت لكم به جنات من مختلف الزروع والثمار، تجمع بين الجمال والنفع .انتبهوا فإنكم عاجزون عن إنبات شجرها. ولكن المشركين بسبب تصلبهم في الكفر يجعلون لله عديلا مساويا، مع أنه عاجز عن التأثير.

و السؤال الثاني: عن نظام الأرض العجيب. هذه الأرض، أما انتبهتم إلى أنكم تعيشون على ظهرها ولا تشعرون بحركة ولا ارتجاج، مع أنها تسير بسرعة كبيرة، تتخللها الأنهار الجارية، وبجانب الأنهار جبال راسية، وبحار ماؤها ملح، وأنهار عذبة تتصل بالبحر الملح دون أن يجور أحدهما على الآخر. فهل يوجد إله مع الله رتب هذه الأمور ونظم الكون هذا النظام العجيب؟ ولكن أكثر الكفار جهلة بالقوانين وبالمؤثر، وحتى الذين أوتوا نصيبا من العلم لا يربطون تلك المظاهر بموجدها.

و السؤال الثالث: عن التصرف في أحوال البشر. كل فرد منكم إذا ضاقت به السبل ولم يجد من يسعده بالعون والوقوف معه عند الضيق الشديد، يتجه إلى الله بما ركز في الفطرة من ارتباطه بالله. والله هو المتصرف يجيب من يشاء ويمنع من فضله من يشاء، وكذلك إذا أحاط بأحدكم ما يسوءه في ذاته، أو في ماله، أو في أسرته وأعزائه، فمن يكشف السوء غير الله .و من قدر أن يخلف بعضكم بعضا، الخلافة التي بفضلها يتواصل التطور. من رتب كل ذلك غير الله ؟ ما لكم لا تستحضرون كل هذه الأمور وتوحدون الله تبعا لذلك !

بيان المعنى العام :

59.قل الحمد لله ...أما تشركون.

تتابعت قصص الرسل في هذه السورة مثبتة للنبي ﷺ بأنه يلاقي ما لاقاه الرسل عليهم السلام من قبله، لما جهروا بدعوتهم، ومفصلة ثباتهم أمام عناد أقوامهم، وتصلب الكافرين منهم، ومبينة أن الله ناصر رسله.

أمام هذه الأرسال من مشاهد صراع الكفر للإيمان، وفوز الرسل وأتباعهم في النهاية بحسن العاقبة، أمر الرسول ﷺ أن يتوجه لربه بالحمد على ما قدره لإخوانه الذين سبقوه، وعلى ما تلقاه من بشارة وتأييد من ربه. وفي ذلك إيماء إلى أن

الرسل تربطهم رابطة الأخوة في المقامات العليا التي رفع إليها الله من اختارهم لحمل رسالته ، وأن الألطاف التي حفت بهم جديرة بأن يحمد محمد ﷺ ربه عليها. ومعنى الحمد لله سبق في سورة الفاتحة ما يشرح بعض أبعاده. فهو سبحانه الحقيق بالثناء على ألطافه وعدله.

وتلا الأمر بالحمد الأمر بالسلام على عباده الذين اصطفاهم من بين خلقه وقربهم منه، ومنهم الأنبياء والمرسلون، والعلماء العاملون الذين بهم يتواصل نشر الدين، وإيقاظ الأمة لحماية أرض الإسلام، والصالحون من عباده الذين يكونون قدوة لغيرهم في التعلق بالخير، وأسوة في نظافة السلوك والأمانة. ومعنى السلام عليهم أن يكرمهم، ويعلي مقاماتهم عنده، وفيه تعليم لصورة من صور الوفاء للذين مضوا وخلفوا من سنن الخير ما شرع لمن أتى بعدهم طريق الصلاح.

وأمر ﷺ أن يواجه المشركين بهذا السؤال" ءالله خير أما تشركون" تحريكا لعقولهم الذاهلة، المأخوذة بحجاب التقليد. أفيقوا من غفلتكم فإننا ندعوكم إلى توحيد الله الذي سيتابع في الآيات التالية سند أحقيته بالألوهية، وأن ما تدعون من دونه من الآلهة عاجز عن تحقيق أي أمر من الأمور التي اختص بها الله. إن من له أدنى حظ من العقل والفهم لا يترك عبادة القادر الذي شمل بفضله كل كائن في الوجود، ويتبع من لا يستطيع نفع نفسه ولا نفع عابده. فمن هو خير مستحق للعبادة، الله أم الأصنام والعباد والكواكب التي تتوزعون عبادتها ؟

60.أمن خلق السماوات والأرض...بل هم قوم يعدلون.

تحول من السؤال العام إلى أسئلة خاصة تؤكد ما سبقت له الآية السابقة. فكان أول سؤال ما تضمنته هذه الآية. سؤال عن الكون الذي هم جزء منه؛ السماوات بما تحويه من كواكب ومن نظام بديع، والأرض التي يعيشون على ظهرها، والارتباط بين السماء والأرض، هذا الارتباط الذي تتوقف عليه الحياة، فمن أنزل من السماء ماء؟ به تتمكنون من الحياة، وبه أخرجنا النبات من باطن الأرض فأزهر وأثمر، وتكونت منه جنات من نخيل وعنب وأشجار مثمرة، إن نظرت إليها امتلأت نفسك بها بهجة وسرورا ، وإنكم رغم ما أو تيتموه من ذكاء وقدرات لا تستطيعون إنبات شيء من أشجارها. إن الذي يجعل الماء مؤثرا في التربة وفي البذور، وتخرج منه الجنات، هو الله سبحانه. انتبهوا فإنه قد تنزل الأمطار بقوة فتجرف التربة وما نبت فيها، أو تتأخر الأمطار عن مواعيدها فتيبس الأشجار وتموت. إنكم إذا حققتم في دوركم في الزراعة تجدون، أنه لا يتجاوز الأسباب الظاهرية. أفيقوا هل إله مع الله يؤثر التأثير الحقيقي؟ ولكن المشركين من غباتهم أو تصميمهم على الكفر

ومكابرتهم يجعلون لله عديلا مساويا له في الألوهية، مع أن عجزه ظاهر لا يخفى. فهم أهل بذلك لتوبيخهم على إنكارهم للمحسوس، وتصلبهم في ذلك.

61. أمن جعل الأرض قرارا...بل أكثرهم لا يعلمون

هذه الآية تضمنت السؤال الثاني: من الذي جعل الأرض تبدو ساكنة لا اضطراب فيها، ولا اهتزاز، مما مكنكم من القرار فيها، ويسر لكم بذلك السفر في أرجائها، وإقامة المباني والمصانع ؟من الثابت أن الأرض تسير بسرعة كبيرة جدا، ومع ذلك لا يحس من عليها بحركتها. إن هذا التدبير العجيب الجامع بين الرحمة والنعمة صوت ينادي محركا الفطرة لتتأمل فيما حولها، وتنفي ما للرتابة من قوة على جعل الغفلة مسيطرة حاجبة للقدرة المهيمنة وراء هذا النظام السائر من الآماد البعيدة إلى المستقبل الذي لا يعلم تاريخ انتهائه إلا مبدعه.

كل شيء في هذه الأرض يحرك العقل للتوحيد ونفي الشرك. إنه بجانب قرار كوكب الأرض، تشاهد الأنهار تتخلل القارات، وبجانب المجاري النازلة عن سطح الأرض الحاضنة للمياه، تقوم الجبال الشامخة تقوم بدورها في نظام الكون، يتم بها التوازن، والتعديل في سير الأرض. ارتفاع شاهق ومجار تختلف عمقا؛ وبجانب ذلك مياه عذبة تسير بها الأنهار، ومياه ملح تضطرب بها أمواج البحار. ومع ذلك لا يسطو ماء البحر بملوحته على مياه الأنهار، ولا تسطو مياه الأنهار على مياه البحار . الكل يسير بقوانين أحكمت، وبتقدير لا يختل أجراه عليها خالقها. فهل لغير الله، ممن تدعون أنهم آلهة أي دخل في هذا النظام المحكم؟ ولكن أكثرهم أعماهم الجهل، وأضلهم التقليد، فهم لا يعلمون شيئا من أسرار ما يجري أمام أبصارهم. والتعبير "بأكثرهم " تدقيق حسب السنة في التعبير القرآني. فإن بعضهم وإن تعلم وأدرك ما وراء الظواهر، إلا انهم يشتركون في الضلال عن إسناد ذلك إلى الله. وفي ذلك ما يشير إلى أن المؤمنين مستقلون، لفت الوحي أنظارهم فهم يعلمون.

62. أمن يجيب المضطر ...قليلا ما تذكرون.

هذه الآية هي التي تضمنت السؤال الثالث: عن المتصرف في الانسان في أحواله المختلفة .

أولا : حالة الاضطرار - يسير الإنسان على نمط لا يفجأ بما يغلق الأبواب كلها أمامه. وهو في تلك الأحوال لاه، وقد يكون مستكبرا، حتى إذا نفذ سابق القدر، تجده يقف في لحظة وقد ذهبت كل الأسناد، وعجز كل الأعوان والخلان والأقارب عن إغاثته في كربته، وانسد كل باب للفرج، في تلكم اللحظة تستيقظ فطرته، وترتفع الغشاوة التي كانت على بصيرته، ولمن يعود ؟ يعود إلى الله ويجأر إليه. حتى

الوزير الأول عن مشهد حضره، بعد منتصف الليل وقد أصيب رئيس الدولة بجلطة قلبية، وتضاعفت آلامه وهو يتقلب من شدة ما يحس به ويستغيث: يا رب يا رب! كان يرمي من حديثه: أن يقنعني بأن الرئيس مؤمن بالله، وهذا الطاغية كان كثيرا ما يسخر من الدين ويستهزئ بالقرآن الكريم، فهذه الآية تقوم دليلا على أن الإنسان في الأوقات الحرجة جدا التي يتكشف له ضعفه فيها وأنه مضطر، يحيا في باطنه صوت الفطرة، وأنه لا ملجأ إلا لله. ومن المعلوم أنه سبحانه يجيب من يشاء، ويمنع من غوثه من يشاء، ولا تقوم الاستجابة دليلا على صلاح الداعي، ولا الحرمان على غضب الله عليه .

الحالة الثانية: حالة اختلال وضع الإنسان، وما يصيبه من سوء، ومن الذي يرفع عنه السوء، ويعيده إلى وضعه السليم السابق ؟ اختص الله بالتأثير في إزالة السوء، من كل ما يلم بالإنسان في دينه، أوفي بدنه وملكاته، أو في ماله.

الحالة الثالثة: انتفاع الإنسان بتسخير الأرض له التسخير الذي مكنه من الحياة ومن الرفاه. فهو سبحانه الذي طوع له الأرض، وألهمه ما يمكنه من عمارتها بأنواع الزروع والأشجار، وباتخاذ المسكن. ملكه إياها في الظاهر، تأتي أمة وتذهب فتخلفها أمة، ويرث النسل والأقارب ما ملكه مورثهم. ولو كتب للإنسان الخلود لتوقف التطور على استعدادات ذلك الجيل. ففي جعل الخلافة قانون الحياة الإنسانية يعمل كل جيل على الانتفاع بما تحقق من قبل ويضيف إليه إضافات جديدة، يتواصل التطور المستمر المتعالي الذي هو سر استخلاف الجنس البشري في الأرض.

ثم حركهم القرآن بسؤال إنكاري متضمن التعجب من غفلتهم عن استحضار تلكم الحالات الثلاث، التي تتكرر عليهم، وهم رغم وضوحها وحضورها لا يتذكرونها تذكرا يفضي بهم إلى الاعتراف بأن مدبر الكون هو الله لا شريك له. وقوله تعالى: قليلا ما تذكرون، خرج على أن هذا التعبير يقصد منه أنهم فاقدون للتذكر أصلا. ولعل الأولى في نظري: أن تذكرهم، وإن حصل قليلا فهو تذكر مقطوع عن غايته التي هي اليقين بأن الله وحده هو المالك المتصرف.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

البرهان : الحجة.

أيان : اسم للزمان، أي الوقت.

عمون : فاقدون للبصر.

بيان المعنى الإجمالي:

السؤال الرابع: من الذي يتولى هدايتكم في ظلمة الليل، وأنتم سائرون في البرية، أو أنتم تمخرون البحر ؟ إما بواسطة النجوم أو بواسطة ماهداكم إليه من الأجهزة بمعرفة الاتجاه، ومن تفرد بإرسال أرزاقكم إليكم من السماء، أمطارا مخصبة للأرض، ومن يرسل الرياح فتثير السحب وتجمع شتاتها ثم تغذيها حتى تنزل المياه منها وتنشر رحمته للعالمين . هل يوجد إله مع الله يحقق ذلك ؟ تقدس الله في كماله أن يكون له شريك. إذ الشركة ظاهرة احتياج وضعف.

السؤال الخامس: من هو المتصرف في الإنسان التصرف الذي ابتدأ بخلق الإنسان على الصورة التي هو عليها من الإتقان ؟ ومن يعيد كل فرد من الأفراد التي خلقها؟ ثم من يرزقكم من خيرات السماء ومن خيرات الأرض ؟هل يشترك مع الله أحد في تحقيق ذلك؟ قل لهم: اعرضوا حجتكم إن كنتم صادقين في دعواكم الشركة ولا برهان لهم فيكون ما دعوا إليه صادرا عن الخيال وهوى النفس.

قل لهم بصفة واضحة: إنه لا يعلم الغيب في السماوات والأرض أحد إلا الله. وهم لا يعلمون متى سيبعثون من قبورهم للحساب الذي هو من الغيب

الحقيقة أنهم قلدوا اباءهم في حكمهم على الأخرة، فسدوا بضلالهم في ضلال من سبقهم. إنهم عُمْيٌ أغبياء، فالأعمى الغبي ينكر وجود ما لم يره. وكذلك هؤلاء في إنكار أمر البعث.

بيان المعنى العام:

63.أمن يهديكم..تعالى الله عما يشركون.

الحالة الرابعة: يقطع المسافرون البراري والبحار، ولا تتوقف حركة سيرهم طيلة الليل والنهار. وإذا كان ضوء الشمس يكشف لهم الطريق الذي يسيرون فيه، فمن الذي يمكنهم من السير في ظلمات الليل وهم واثقون بأنهم مهتدون إلى الأماكن التي يقصدونها ؟ أقدر الله الإنسان على ضبط مواقع النجوم التي تقوم بتحديد

لتجاهه في المفاوز أو في البحار، كما أقدره على اختراع الآلات وهداه إلى طرق استعمالها لتثبته بالاتجاه الصحيح لغايته. من الذي أودع في الكون هذا النظام الذي لا يختل في مواقع النجوم، ومن الذي فتح للإنسان باب المعرفة للآلات الضابطة للاتجاه ؟ ومن هداه إلى طرق استعمالها بحيث يأمن أن يضل في طريقه ؟

ومن الذي يؤثر في حركات الرياح ليجعلها جامعة للسحب مؤثرة فيها الرطوبة التي بفضلها تنزل منها الأمطار، وتنشر رحمته سبحانه للعباد والنبات والحيوان؟ لا يقدر أحد أن يضيف إلى السحب العناصر التي بها ينزل منها الماء. أخبروني هل يوجد إله يشارك الله في هذا التصرف الحكيم المقدس ربنا أن يكون له شريك في هذه التصرفات. وكل ما عبدوه من دون الله، لا يقدرون إلا أن يعترفوا بأنه ليس له دخل في نظام الكون، ولا في هداية الإنسان لما فتح له من علوم، ولا في إنزال الماء.

64أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ،إن كنتم صادقين

الحالة الخامسة والأخيرة التي هز بها القرآن السامعين ليزيحوا عن بصائرهم غشاوة الرتابة التي يبدو بها الواقع وكأنه أمر طبيعي لا سر وراءه. السؤال من يبدأ الخلق؟ اللفظ يدل على عموم الخلق، إلا أن المتفق مع النص في خاتمته، هو خلق الإنسان. فمن يبدأ خلق الإنسان؟ إن الدقة التي عليها خلق الإنسان، وما تم اكتشافه في الجينوم البشري من اشتماله على جميع خصائص الكائن والتحولات التي تطرأ عليه. لا يمكن أن يفهم ذلك إلا على أنه من فعل مدبر عليم، أحكم كل جزئية . والقول بالمصادفة التي لا تكون إلا عمياء وفوضوية قول بما لا يقبله العقل. وأدمج سبحانه في آية الخلق آية الإعادة . ذلك أن خلق الإنسان كان على مستوى يستطيع معه أن ينفذ إلى الحاضر والماضي والمستقبل، وآثاره كلما ارتقى في سلم الإنسانية تتجاوز حياته إلى ما بعد الموت. وينحل الجسد وأفعاله تتجاوز الأيام التي عاشها في الدنيا، فيكون من غير المعقول أن الأيام التي يعيشها في الدنيا هي الوجود كله. ومن أفعاله ما هو خير ومنها ما هو شر، والجزاء لا يتحقق دائما في الدنيا، فقد يموت الخيرون وهم مضطهدون من قبل الأشرار، ويموت الأشرار وهم إلى آخر لحظة من حياتهم يفسدون. فدقة الخلق وما أودع في العقل البشري من التناقض بين الصالح والفاسد، والخير والشر، يقضي بأن العدل إن لم يظهر في الدنيا لا بد أن تظهر آثاره في الحياة الأخرى. عندما يعيد الله البشر كما خلقهم أول مرة.

ومع الخلق فإنه لا يتم بقاء الإنسان في الحياة المقدرة له، إلا إذا توفر له الهواء والماء والقوت والسكن، فمن الذي يرزق الإنسان من خيرات السماء والأرض. هل

يوجد مع الله إله اخر يعطي الحياة، ثم يبعث الأحياء، ويرزقهم الرزق الحافظ لحياتهم؟ إن عقيدتكم المبنية على الشرك وعدم التوحيد، عقيدة زائفة وغير صادقة. قدموا برهانا وحجة يقبلها العقل على وجود إله مع الله يفعل ذلك.

65. قل لا يعلم من في السماوات... وما يشعرون أيان يبعثون.

هذا من الأمور المهمة التي تعلق بها كثير من الناس، وتطلعوا الى معرفة ما يأتي به المستقبل، وما يظهره الغيب. وزعم الكهنة والعرافون أن في مقدورهم أن يعلموا الغيب، وتعلق بهم عدد غير قليل من ضعاف الإيمان. ولهذا توجهت عناية القران إلى نفي ادعاءاتهم، وتكذيبه الناس إلى أنهم لا يعلمون شيئا من الغيب، ولا يوجد أحد عنده علم الغيب إلا الله سبحانه. يستوي في ذلك العالم الأرضي والعالم السماوي، فلا أحد من الملائكة ولا من الجن ولا من البشر يدرك ما سيحدث في المستقبل على التعيين، إذا اعتمد على ملكاته، ولكن الله قد يتفضل على بعض المقربين باطلاعه على الغيب في قضية محصورة، وتكون معرفته بالغيب مستندة إلى اطلاع الله له على ذلك.

وقد يكون مما تنطبق عليه الآية تطلع المشركين لمعرفة تاريخ قيام الساعة، وجعلوا ذلك معيارا لصدق النبي ﷺ، وسألوه عنها. فتكون الآية ردا قاطعا عليهم، مبينة لما عطف من قوله تعالى: وما شعرون أيان يبعثون. نفت الآية في مفتتحها علمهم بالغيب مصرحة بأن ذلك من خصائص الذات الإلهية لا يرقى إليه أحد. ثم واصلت الآية نفي أن يكون لهم علم بالوقت الذي يبعثون فيه من قبورهم. ونهيا بذلك نسق القران لما سيأتينا في خاتمة الآية التالية بل منها عمون.

66. بل ادارك ...منها عمون.

تفتح الآية بكلمة بل التي هي للإضراب الانتقالي الارتقائي من مستوى المضمون السابق إلى مضمون أعلى منه. فأثبتت أن علمهم متدارك ومعنى تدارك علمهم، أن علم المشركين الحاضرين بالاخرة، قد تدارك علم من سبقهم من أهل الجاهلية، فكان ركاما من الجهل والإنكار، بعيدا عن النظر والتفكر. كما يمكن فهم الاية، على أن علمهم بالبعث يحصل عند بعثهم فهم يدركون عندها أن البعث حق.

ثم عطف بكلمة " بل" الثانية، بأن القران قد هزهم هزا، جعلهم يفكرون في الآخرة، ولكن تصلبهم في الكفر، ولحوق جيلهم بمن سبقهم تقليدا، جعلهم لا يخرجون من الشك إلى اليقين، ومن التردد إلى الجزم. ثم عطف بكلمة "بل" الثالثة ليرتقي في تجسيم ضلالهم وعدم إدراكهم لحقيقة الاخرة يوم القيامة، بتشبيههم بمن فقد بصره،

فهو لا يرى ما هو موجود أمامه، فيسرع إلى إنكاره، وكان سبب عماه هو الآخرة ذاتها.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تكن في ضيق: لا تتأثر بما يعدونه من مخططات.

ردف: تبع بصفة قريبة.

بيان المعنى الإجمالي :

أثّر الكفر في عقول المشركين فقالوا: إنه لأمر عجيب: أنه بعد تحولنا إلى تراب وتحول آبائنا من قبلنا كذلك، أن نعود إلى الحياة وتخرج من قبورنا. ثم بالغوا في رفض عقيدة البعث، فقالوا: خروجنا من القبور أسطورة وحكاية، لا أساس لها من الصحة، وُعدنا بها نحن، وتم في التاريخ وعدُ آبائنا بها، ولم يقع شيء من ذلك.
أجابهم القرآن بأن عليهم أن يسافروا في أرض الله ويتأملوا، عاقبة المكذبين بالبعث المجرمين كيف أبادهم الله، ولم تبق إلا مساكنهم، شاهدة بسوء مصيرهم ونفاذ القدرة الإلهية فيهم.
حولوا نقاشهم من إنكار البعث إلى السؤال عن تاريخه؟ وهم يرومون من وراء ذلك: التهكم والاستبعاد. ومن وقاحتهم شككوا في صدق الرسول ﷺ . قل لهم: أرجو أن يكون ما وعدتم به قريبا أجله غير بعيد، وعندما يحل بكم ما تستعجلون بحدوثه، فهو القضاء المبرم الماحق، وفعلا فقد تمت سيادة الإسلام في جزيرة العرب وقطع دابر الكفر والحمد لله رب العالمين.

بيان المعنى العام :

67←68 وقال الذين إذا كنا...إلا أساطير الأولين.

يكرر الذين تأصل فيهم الكفر، الإعلان عن إنكارهم للبعث والحساب، بل تراهم يزعمون أن البعث مما لا يمكن إقامة الدليل عليه، إذ هو مخالف للمشاهد المحسوس. بنوا رفضهم على أربعة أمور:

الأمر الأول: عقيدة البعث تلجم شهواتهم، وتلزمهم باستقامة ليتعدوا عنها وأصبحت عليهم شاقة ثقيلة. وإنكارها يوافق هواهم.

الامر الثاني: ان تحول الميت بعد أن يطول عليه الزمن إلى تراب، لا يمكن أن يتصور معه، في دعواهم، أن يعود كما كان حيا في الدنيا، ليحاسب عما قدم، وعطفوا آباءهم للإشارة إلى عمق البعد التاريخي .

الأمر الثالث :ان الإنذار بالبعث ليس أمرا جديدا، فقد تقدم المرسلون السابقون، وأنذروا به وروي لنا. ولمّا لم يتم في الوجود، فذلك دليل على بطلانه.

الأمر الرابع: أصروا على الإنذار بالبعث تقييم الأحاديث الزائفة، وقالوا: هو أسطورة كررها الخيال، وأعادها الخلف عن السلف، ولا شيء من ذلك حق.

69. قل سيروا في الأرض...عاقبة المجرمين

أمر الرسول ﷺ أن يعلن سامعيه لهم : تنقلوا في جنبات الأرض متدبرين متأملين، وانظروا الحالة التي انتهى إليها، والعاقبة التي آل إليها أمر المجرمين السابقين أمثالكم. لقد عجل لهم في الدنيا جزاؤهم فأبيدوا، وسيلقون جزاءهم في الآخرة.

70. ولا تحزن عليهم ...مما يمكرون.

ذكّرهم القرآن بسنن الله التي تقوم شواهدها في الكون، وما عليهم إلا أن يسيروا في أرض الله حتى يجدوا الآثار ناطقة بمصائر المجرمين المكذبين. إن هذه السنن لا تتخلف أبدا، وإن أمر قريش أقل لما سلط على من كانوا قبلهم .وقد امتلأ قلب رسول الله ﷺ رحمة وشفقة . فثبّته ربه وقوى قلبه حتى لا يفعل الحزن فيه أفاعيله عندما يلقون مصائرهم.

و عطف على دعوته لمقابلة ما ينزل بالمجرمين برباطة جأش، أن لا يضيق صدره بما يعدون ويدبرون من مكر به وبالنبي وبالمسلمين. وضيق الصدر تعبير مجازي، أصله أن الإنسان عند ما يصدم بما يدخل عليه الهم قد يحس كأنه لا يقدر على التنفس بسهولة، وهو يفيد أن عليه أن لا يكترث بما يعدّونه من مخططات في الخفاء، فإن الله ناصره ومؤيد دينه، ومعز المؤمنين .

71. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

لاشك أن التهديدات القرآنية أزعجتهم، وانهم يريدون أن يظهروا التجلد وعدم الخوف، فتوجهوا للنبي ﷺ مستهزئين في الظاهر بما وعدهم، فقالوا: متى سيحل الوعيد الذي تذكره ؟ صورة كلامهم توحي بأن تأخره أمارة على عدم حصوله، فليضرب لهم موعدا لذلك، وأردفوا بقولهم: إن كنتم صادقين، بصيغة تفيد الشك في الصدق.

72. قل عسى أن يكون... بعض الذي تستعجلون

كان الجواب: إنه في علم الغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن المؤكد أنه قريب ما توعدون، سيتبع تكذيبكم، ولا يبطئ كثيرا. وحمله المفسرون على ما حل بهم يوم بدر من انكسار شوكتهم، وقتل صناديدهم رؤوس الكفر، وعبر عنه ببعض الذي يستعجلون من العذاب، إشارة إلى أن عذاب الدنيا قليل بالنسبة للعذاب السرمدي الأبدي الذي قدر لهم جزاء كفرهم ومكرهم يوم القيامة. ويمكن حمل التهديد، على ما حل بالشرك من ذل، إذ قد تم استئصاله من الجزيرة العربية، قبل أن ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ

تكن : تخفي.

يعلنون : يظهرونه.

غائبة : اسم للشيء الغائب.

الكتاب : علم الله.

مبين : مفصل.

التوكل: إسناد الأمر لمن يعتمد عليه في تسييره وتدبيره.

المبين: الواضح وضوحا كاملا.

بيان المعنى الإجمالي :

من الحقائق التي يجب على المؤمن أن يعتقدها: أن فضل الله يشمل المؤمن والكافر، والتقي والفاجر، فهو سبحانه لا يعجل العقوبة، ويمهل تبعا لفضله لعل الإنسان يستيقظ ويعود إلى طريق الهدى فيغفر له. وفضل الله يحتضن الإنسان من تاريخ ولادته ويصحبه كامل أيام حياته. ولكن أكثر الناس يتمردون ولا يشكرون الله على فضله ونعمه. وإنه من فضل الله وسعة عفوه عدم مؤاخذة المذنب بمجرد ما يذنب.

ضل الكافرون فظنوا أن الله لا يعلم ما تخفيه صدورهم وما يدونه مخططات لإذاية الرسول وأصحابه والكيد للدين الإسلامي. إنهم مخطئون، فعلم الله واحد لا يختلف، سواء ما يخفونه ويظهرونه. كل ما غاب عن مدارك البشر فخفي عليهم، فإن الله يعلمه سواء أكان في السماء أو في الأرض، هو موثق في علم الله كأنه دوّن في كتاب لا يفلت منه شيء. فعلى المؤمن أن يعتقد أن علم الله شامل لكل كلية ولكل جزئية في السماوات أو في الأرض، يستوي في ذلك ما كان منها حاضرا يعلمه الناس، وما كان مطويا خافيا عنهم. ومن مظاهر هذا العلم الصادق الشامل، أن بني إسرائيل اختلفوا فيما هو مدون بالتوراة، وليس لهم معيار يكشف الحقيقة، فجاء القرآن مبينا للحق، مظهرا له، نافيا لما تعلق به بعضهم من الأباطيل في العقيدة أو التاريخ أو التشريع. ثم إن الاختلاف الظاهر في البشر، سيحكم ربك يا محمد بين المختلفين الحكم العادل الذي يجزي كل فرد عما فعل واعتقد، وكيف لا يكون حكمه عادلا، وهو الموصوف بالعزة التي لا يمكن معها أن يصانع أحدا، وهو الحكيم فلا تخرج أحكامه عن العدل المطلق. وبناء على ذلك فإن عليك أن تتوكل على الله وتسند إليه أمورك، فهو المتولي لأمورك لا يخذلك، وكن واثقا من أن العاقبة لك بتوكلك هذا، وبأن الدين الذي أنت متمكن منه وكلفت بتبليغه من طبيعته أنه واضح أشد الوضوح لا يقبل الطعن في مضامينه، ولا التشكيك.

بيان المعنى العام.

73. وإن ربك لذو فضل ...أكثرهم لا يشكرون.

إن فضل الله، بكل تأكيد شامل، لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، فكل فرد من أفراد البشر يناله حظه من الفضل الإلهي ما قدره الله له .والناس من هذا الفضل نوعان:

نوع مشغول بما أوتيه من الفضل، فهو يستهلكه فيما يرضي شهواته.

و نوع معترف ومقر بأنه ما كان له أن يحصل على ما رزقه من فضل لولا رحمة من الله نالته وحصته بما وصل إليه.

و لكن الشيطان قد استولى على عقول الناس فألهاهم عن المنعم وشغلهم بالنعم، ولهذا تجد أكثرهم لا يذكرون الله ذكرا يتبعه الشكر .

74. وإن ربك ليعلم...وما يعلنون.

و بكل تأكيد أيضا فإن الله عليم بما تكنه صدور الكافرين، فهو إذ يرحمهم بفضله ويغدق عليهم خيراته، فذلك ليس تابعا لغفلة عن حقيقتهم، فإن الله يستوي علمه بما يخفونه في نفوسهم، وبما يصرحون به ويظهرونه للناس. وفي هذا فصل ما يناله الإنسان من خيرات الدنيا، وبين حظه من رضوان الله. وما يخطئ فيه كثيرون هو

ربطهم بين تيسير أوضاع البشر في الدنيا وبين صفاء نفوسهم فالله يرزق البر والفاجر ، ومر ذلك عنده.

75. وما من غائبة ...إلا في كتاب مبين .

إن علم الله بالخفايا علم يتجاوز خفايا صدورهم، وما يكشونه ولا يبوحون به لأحد من الناس، يتجاوز ذلك إلى علمه العلم الدقيق بكل أمر غائب غير مشاهد، فإن علم البشر لما كان علما غير ذاتي فإن حصوله يتوقف على حصول أسباب العلم، أما العلم الإلهي فإنه علم ذاتي لا يتوقف على أي شيء، شامل لما هو كائن في السماوات والأرض، وهو علم ثابت لا يقبل التغيير كأنه موثق في كتاب مضبوط، وبهذا استوى ما يخبر به رسول الله ، عما يتعلق بالدنيا، وعما سيتحقق يوم القيامة من وصف للعذاب أو النعيم.

76. إن هذا القرآن ...هم فيه مختلفون .

لما كان القرآن منزلا من عند الله فإن كل ما تضمنه حق، فهو يقضي على الكتب الأخرى، وغيره من الكتب يصحح بعرضه على القرآن. وبنو اسرائيل اعتمدوا ما وصلهم من التوراة التي تغيرت لغتها عن لغة موسى، فهي ترجمة لا يستطيع أصحابها أن يقتنعوا ولا أن يقنعوا غيرهم بأن الترجمة سليمة وامينة، وارخت التوراة أحداثا لأحقاب بعيدة في التاريخ، وادخلت التأويلات والأوهام البشرية في صلب النص، واعتبر الجميع مقدسا، ولتعلق الناس بمعرفة أطوار البشرية في تاريخها غير الموثق، اعتبروا أن ما تضمنته التوراة علما، وأن أدرى الناس به هم أحبار يهود، فشاع عودة المستطلعين لهم. واضافوا من خيالهم وروجوه على أنه من العلم الموثوق به. والمتتبع للتوراة يجد فيها ما لا يمكن أن يقبل صدوره من رسل الله الذين اختارهم لهداية الناس، لوثقهم التوراة وجعلت سلوكهم سلوك الفسقة المنحرفين، فإسرائيل أبوهم وصل إلى النبوة بالحيلة، وزنى بزوجه ابنه، وأنه لقوته صارع الله ليلة كاملة، ولوط اسكرته ابنتاه حتى ذهب عقله وضاجعته كل واحدة منهما، وحملت منه. وبناء على ذلك رفض بعض علماء يهود التوراة جملة وتفصيلا، واعتبرها بعضهم مقدسة كل ما فيها حق يجب الإيمان به. ولم يكن بأيديهم معيار يفصل بين الحق والباطل، فاستمر الخلاف بينهم إلى أن جاء القرآن بالحق المبين فما ذكر في التوراة مما لا يكذبه القرآن ولا ينفيه هو مقبول على الجملة، وما صدقه القرآن هو حق لا شك فيه، وما خالف القرآن محكوم ببطلانه، وأنه من الإضافات التي ادخلها الربيون في النص التوراتي .

77. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين.

وبكل تأكيد فإن القرآن قصد به أن يكون هدى للمؤمنين يجدون فيه الطريق المؤمّن لهم حسن الحاضر والمصير، وقد قام بدوره هذا، فكان رحمة للذين آمنوا به، أخرجهم من الحيرة والشك إلى البيان الواضح واليقين، وهو رحمة لهم باعتبار أنه يضمن لهم النجاح في الحياتين، به جرت أمور حياتهم الدنيا على استقامة، وبه يتحقق بفضل الله أملهم في نعيم الجنة.

78. إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم.

تفيد هذه الآية أن الاختلاف الجاري بين البشر، المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب وفرق بني إسرائيل مما تعرضت له الآيات السابقة، هذا الاختلاف لا يستمر هكذا، دون أن يتم الفصل بين المحق والمبطل، بل إن ربك يا محمد سوف يقضي بين الطوائف المختلفة بحكمه المعروف بالعدل والحكمة، وهو الموصوف بالعزة فلا يتصور منه حيف ولا يصانع أحدا، وهو الموصوف بالحكمة فلا يحكم بباطل ولا تخرج أحكامه عن الحق ولا يخدع.

79. فتوكل على الله إنك على الحق المبين.

خطاب للنبي ﷺ يزرع في نفسه الثقة بالتأييد الذي لا يتصور معه خذلان. أسند أمورك إلى الله، هو المتكفل بنجاحك. هذه الآيات نزلت على رسول الله ﷺ وقد اشتد ضغط المشركين، ونفذوا كثيرا من مخططاتهم المعطلة لنشر الدين، فثبته الله بأن عليه أن يواصل مهمته، وأن العاقبة له بأمرين: توكله على الله المتكفل بتأييده، وأنه متمكن من الحق الواضح الذي لا يقبل أي طعن أو تشكيك. ويعتبر مدلول الآية قاعدة من قواعد الدين الإسلامي.

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ

الإسماع: إبلاغ الكلام إلى حاسة السمع.

وبيان المعنى الإجمالي:

إنك متمكن من الحق الواضح، وإن إعراض المشركين عن اتباع الهدى الذي جئت به هو بسبب أنهم قصدوا إلى تعطيل جميع مداركهم، هم كالأموات، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات، أو هم كالصم الذين لووا رؤوسهم وفروا من مخاطبيهم فهم لا يسمعون، وإنك لا تستطيع أن تهدي ببيانك العمي فتخرجهم من الضلال الذي هم فيه إلى طريق الهدى.
لا تضجر من تصميمهم على الكفر، فإنك قد نجحت في التأثير على الذين فتحوا بصائرهم وأسماعهم على الآيات النازلة من عند الله، فأسرعوا بإسلام وجوههم لله.
إنه لتصلّبهم في الكفر ستبعث لهم يوم يحين أجل البعث، دابة من الأرض تكلمهم، فتنتفي كل تعلة لهم، ولكنهم في ذلك اليوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. إن الكافرين كانوا رافضين للآيات البينة، ولا يؤمنون بها. فتكون الدابة ملجئة لهم دون أن ينتفعوا من إيمانهم بسببها.

بيان المعنى العام:

٨٠- إنك لا تسمع الموتى...إذا ولوا مدبرين.

نعم إن ما أتيت به هو الحق الواضح كما دلت عليه الآية السابقة، ولكنك لا تستطيع أن تصل إلى من عطل كل مداركه من قوة إعراضه عما جئت به، فهو بذلك والميت سواء؛ إلا أن الميت معطل بالطبع وهؤلاء معطلون بإرادتهم. وكذلك لا تستطيع أن تسمع الأصم الذي فر في خط معاكس للداعي. وهو مبالغة في تصوير المعرضين: أن حالتهم كفاقدي السمع الذين قطعوا صلتهم بالمتحدِّث إليهم، فهم قد انصرفوا عنه فلا ينفذ إليهم صوت ولا أي معنى لألسنتهم، فلا هم يرون المتكلم وقد أدبروا عنه، ولا هم يسمعون شيئا من كلامه لصممهم.

٨١- وما أنت بهادي العمي...فهم مسلمون.

إنك على الحق المبين الذي لا شك فيه، فلا تبتئس. فالمشركون المتصلبون في الكفر، هم كالموتى الذين تعطلت جميع قوى إدراكهم، والصم المولين ظهورهم الفارين من السماع، وإن شئت فهم كالعمي الذين لا يدركون الطريق السالك إلى المقصد إذا تشابهت الطرق واختلطت. إنهم قد صمموا على الكفر، فهم لا يفكرون في أي حقيقة ولا يسمعون أي صوت ولا يبصرون فيدركون أي نور، غمر ما هم عليه من الضلالة.
فالعيب في المشركين لا في ما تبلغه، ولا في طريقتك في الدعوة إلى الله؛ إنك تؤثر في مسامع وقلوب الذين تفتّحوا للحق، وأحسوا بما هم عليه من ضلال، فاشتاقوا

لمعرفة طريق الهداية، ولذا اتبعوك مسلمين لله متعلقين بدينه، شاعرين بأنهم ظفروا بالحقيقة التي تستجيب لفطرتهم.

82. وإذا وقع القول عليهم...بآياتنا لا يوقنون.

نتتبع هذه الآية جزءا جزءا، نظرا للصعوبة التي تواجه الناظر فيها للكشف عن المراد منها.

إذا وقع القول عليهم: الظاهر أن الضمير يعود على المشركين الذين وصفوا في الآية السابقة بأنهم فقدوا الإدراك كالموتى، وبأنهم صم ولوا مدبرين، وبأنهم عمي لا يرجى لهم اهتداء. اهتمت الآيتان السابقتان بوصفهم والتشنيع عليهم في الدنيا، وتكون هذه الآية تتحدث عن أمور تقع لهم في المستقبل. حدد هذا المستقبل بأنه الوقت الذي يقع عليهم فيه القول. ولما كان القول يسمع مضمونه ولا يقع في الخارج كفعل من الأفعال، فإن المعنى المناسب هنا، حل أجل البعث الذي وعدوا به. فتكون الآية مهددة بنوع مبهم في الخارج يتحقق به ما وعدوا به من البعث الذي لجّوا في إنكاره واستبعاده.

ما هو هذا الأمر الذي يتحقق به الوعيد؟ قال تعالى: أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم. الدابة كل حيوان يتحرك على الأرض، وهي دابة خاصة تخرج عند حلول أجل البعث الذي يعقبه الحشر والجزاء. وقد أكثر الناس في وصفها وتعيينها واختلفوا اختلافات تجعل الأخذ بأحدها متقضا لبقيتها. ولا يوجد دليل يرجح واحدا منها، فيكون الأخذ به نوعا من التحكم والقول في كتاب الله بالظن.

كما فرضوا أماكن مختلفة تخرج منها. ولا يقبل تعيين أي مكان أيضا، استنادا إلى ظن ليس له ما يرجحه سوى الفرض.

تُكلِّمُهم: أيضا الكلام الذي يحمل عليه النص القرآني هو الكلام بالأحرف المنطوق به والمسموع الذي يفهمه المخاطبون به. أما تعيين اللغة فلا دليل عليه أيضا.

إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون: هذه الخاتمة هي التي تهدينا إلى أن المقصود بفاتحة الآية المشركون. إن المشركين صمموا على الكفر ولم تجد في هدايتهم ما هو طبيعة مضمون الرسالة بأنه الحق المبين الواضح. فقد استمروا على الكفر وفي آخر المطاف ستخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم. فإذا حل أجل البعث واستمروا على الرفض لآيات الله، فإن الله يخرج لهم دابة تكلمهم، وفي ذلك تحقير لهم، فبعد الرسل الذين هم خيرة البشر يكون الذي يكلمهم ويلحنهم دابة من الأرض. ونقف عند هذا الحد ولا نقول في كتاب الله بغير علم .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿83﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿84﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿85﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿86﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفوج : الجماعة الكبيرة من الناس.

يوزعون: يزجرون إغلاظا وإهانة.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر لهم منذرا يوم نجمع من كل أمة من الأمم التي أرسلنا إليهم رسلنا فوجا من أئمة الكفر وقادة الضلالة الذين واجهوا رسلنا بالتكذيب، فيساقون حشدا واحدا لا يخرج عنه أحد، سوقا فيه غلظة؛ إلى أن يبلغوا جهنم، فيسألون سؤال تقرير وتقريع حاصله : أكذبتم بآياتي البينة الهادية عنادا، من قبل أن تتدبروا في مضامينها ؟ فإن كنتم لم تكذبوا بها فما ذا كنتم تعملون في خطاباتنا لكم ؟ وهنا ينفذ فيهم الوعيد بسبب ظلمهم، وتخرس ألسنتهم فلا يستطيعون النطق.

بيان المعنى العام

83-ويوم نحشر من كل أمة...فهم يوزعون.

واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة أرسلنا إليها رسولا، نجمع في هذا اليوم من بين أعضائها جماعة كثيرة من الذين كانوا رؤوس التكذيب والعناد بآياتنا البينة، نجمعهم ويساقون سوقا فيه غلظة وشدة كما يساق الأسرى. لا يتخلف منهم أحد ولا يخرج عن الحشد، فيدفعون دفعا إلى الغاية المعلومة للموكلين بهم .

84- حتى إذا جاؤوا ...ما ذا كنتم تعملون.

يسيرون على تلك الحالة إلى أن يبلغوا المكان المعين الذي لم تحدده الآية والظاهر أنه جهنم لقوله تعالى في آية أخرى : حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها[1] في ذلك المكان يفجؤهم سؤال إنكار وتقرير من رب العزة يسمعونه مباشرة أو من الموكلين بهم حاصله: أكذبتم بما بلغه إليكم المرسلون من آياتي الواضحة والأدلة المستقيمة البينة قبل أن تتأملوا فيها؟ فالسؤال الأول يقررهم مفرعا على ما صدر منهم من

[1] سورة الزمر آية 71.

التكذيب والرفض بمجرد ما سمعوا الآيات دون تمحيص وتحريك لعقولهم، التي تم بها تشريفهم وتكليفهم، تحريكا يكشف لهم الحقيقة. والسؤال الثاني المعادل لهذا السؤال هو قوله: أما ماذا كنتم تعملون؟ فلو فرضنا أنكم لم تكذبوا بآياتي فماذا كنتم تعملون بما أنزلته إليكم. ولاشك أنه ليس إلا جواب واحد لهذا الترديد؛ وهو أنهم كانوا يكذبون بالآيات قبل أن ينظروا فيها.

85 ووقع القول عليهم ...لا ينطقون.

نفذ فيهم العذاب فبعد أن كان العذاب في الدنيا تهديدا لهم ليقلعوا عما هم عليه من الكفر والعناد، تحقق واقعا ونفذ فيهم.

ثم تبكيتهم، وحلّهم الخزي، خرست ألسنتهم التي كانوا يجادلون بها، فهم لا يستطيعون النطق. إنهم لا يستطيعون المراوغة ولا الكذب، تجلى لهم الواقع بأسبابه ومسبباته، فلم يترك لهم قدرة على الكلام.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (90)﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفزع: شدة الخوف.

داخرين: صاغرين أذلاء.

جامدة: ساكنة.

الصنع: الفعل المتقن.

كبه على وجهه: قلبه على وجهه وألقاه.

بيان المعنى الإجمالي:

يوقظ القرآن الناس حتى لا يمروا على آيات الله في الكون غافلين. إن في تتابع الليل والنهار بصفة منتظمة، الليل مظلم يسكن فيه البشر ويستجمون نشاطهم، والنهار ضياء تمتد فيه أبصارهم إلى المشاهدات تلتقطها، ثم تقوم بمتنوع النشاط في

الكون. تبدو من هذه الظواهر في الكون وفي الإنسان أدلة بينة على القدرة والحكمة الإلهية.

لحذروا فإنه يوم تعود الحياة لكل ميت " بسوء نفخ الصور" يحل الفزع والخوف الشديدان في المبعوثين بعد الموت من عوالم السماوات والأرض. إذ يشمل البعث جميعهم، فيأتون إلى موعد الحساب صاغرين أذلاء، واستثنى القرآن من شاء الله أن تحل الطمأنينة في نفوسهم من بين المبعوثين.

نلحظ من آثار علم الله الواسع الذي لا يغيب عنه صغيرة ولا كبيرة، أن بصرك يريك الجبال ساكنة، ولكن الحقيقة هي متحركة بحركة الأرض في الغلاف الجوي. هي في انتقالها كالسحب الكثيفة تخالها ثابتة وهي في الحقيقة متحركة. وما كان ذلك ليتم إلا تبعا للعلم الدقيق لله سبحانه، إنه لاشك أن الله يعلم ما تبطنونه.

ويوم القيامة يظهر عدل الله وفضله معجلا. فمن جاء يصحبه سجل حسناته، يجزى جزاء أوفر وأفضل مما جاء به. ولا يفزع عند البعث إذ يسكب الفضل الإلهي في روحه الأمن والطمأنينة.

وأما من جاء يصحبه سجله المسودّ بالسيئات، إما لأن حسناته محبطة بالكفر، أو لأنه كان من الأشقياء الذين غمرت سيئاتهم حسناتهم، فإنهم يكبون على وجوههم في النار، وإمعانا في النكال يقال لهم: ما جوزيتم إلا جزاء وفاقا لما كنتم تعملون في الدنيا.

بيان المعنى العام.

86. أولم يروا أنا جعلنا...لقوم يؤمنون.

افتتحت الآية بسؤال فيه إثارة وتعجيب: أعقلوا الم يعلموا أننا نصرفنا في الكون هذا التصرف المشاهد منهم البالغ غاية الحكمة في التدبير. يتكرر على أنظارهم كل يوم مرتين حاصله : أننا قدرنا أن يتعاقب على الكون الليل والنهار، والظلمة والنور. وأنا ربطنا بين الإنسان وهذه التحولات، فجعلنا الليل ليسكن فيه البشر ويستريحوا من عناء العمل، بما يجدد نشاطهم ليواصلوا تعمير الكون والعمل فيه. وجعلنا النهار نورا يتمكن فيه البشر من رؤية ما حولهم من الموجودات، وبذلك يستطيعون إخضاعها لتجاربهم، ولفعلهم، والاستفادة مما أودع فيها من حكمة.

إن في اختلاف الليل والنهار لآيات تتجاوز الحصر تدل على أن الله هو الخالق للكون، وأنه المجري له على نظام لا يختل، وأنه هو الذي ربط بين الإنسان وبين تلكم التحولات مما يساعده على الخلافة في الأرض، وتطبيق شرعه المساعد على النجاح.

إن هذه الأدلة القائمة في نظام الكون لا ينتفع بها إلا من فتح قلبه للإيمان الذي يصل به إلى الربط بين كل ظاهرة وبين مبدعها، فينفي بها الشرك، ويثبت بها الألوهية المتصفة بالكمال المطلق .

ومن الدقة في التعبير القرآني قوله تعالى: "لآيات" فإن هذا التتابع بين الليل والنهار لا يمكن إدراك جميع أسراره، والإشارة إلى بعضها يبرز ما أشار إليه القرآن بقوله: لآيات .فحركة الأرض، وموقعها من النظام الشمسي، وموقع الشمس من بقية الكواكب المسيرة في فلكها، وقوانين الضوء، والأجهزة البشرية ونشاطها، وتأثرها بالنور والظلمة، وغير ذلك مما هو مرتبط بحركة الليل والنهار مما هو أوسع من قدرات البشر وأعمارهم، والذي تتوالى فيه الاكتشافات العلمية، ومما تزال الآفاق العلمية منادية بالتأمل والتعمق، مما يؤكد أنها أدلة محققة لقوله تعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

87- ويوم ينفخ في الصور... وكل أتوه داخرين.

هذا منهج القرآن في التأثير على البشر ليحولهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ذكرهم مهددا بحشر كبرائهم ذلك الحشر الذي فصلته الآيات السابقة-83/84/85- ثم حركهم للنظر في آيات اختلاف الليل والنهار باعتبارهم بشرا يهديهم النظر في آيات الله إلى الإيمان. ثم عاد مهددا لهم بمشهد من مشاهد يوم القيامة. واذكر لهم مذكرا لهم باليوم الذي ينفخ في الصور. والنفخ في الصور هو تقريب للأذهان في حدود ما تسمح به اللغة كما سبق بيانه في سورة الأنعام آية "73" هو اليوم الذي تعود فيه الحياة لجميع الأموات، فيقومون وقد علت حواسهم تنقل إليهم كل ما يقع في نطاقها، واستيقظت مداركهم يقظة لا يشوبها خيال ولا أوهام. سجل القرآن أنه في هذا اليوم قد حل في قلوبهم خوف شديد من المرحلة القادمة، إذ هم لا يدرون ما الله فاعل بهم. لا ينجو من هذا الفزع أي مبعوث من السماء أو من الأرض إلا من شاء الله، من الذين رزخ الأمن والطمأنينة في كيانهم كما ذكر في قوله تعالى: وهم من فزع يومئذ آمنون [89] إن الفزعين سينتهي بهم المسار إلى الموقع الذي يفصل فيه بالقضاء العادل، يرهقهم الذل والصغار، بما تبين لهم من ضعفهم وفقد كل سند، وانكشاف الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك ولا للمغالطة.

88 وترى الجبال تحسبها... إنه خبير بما تفعلون.

يخاطب الله رسوله ﷺ فيكشف له عن حقيقة كانت مغيبة عن البشر جميعا، إذ أن العلم لم يبلغ المستوى المعرفي الذي يمكنه من إدراكها. كان الناس يعتقدون أن الشمس متحركة، وأن الأرض ثابتة في مكانها. ولما كان الكون الذي خلقه والكلام

الذي أنزله ينبعان من نبع واحد لا يختلفان، فإنه قد تغيب بعض أسرار الخلق تبعا للمستوى المعرفي الذي وصلت إليه البشرية إلى أن يفتح عليها بالتوفيق إلى كشف الحقيقة الكامنة، وقد يعبر كلامه على تلك الحقيقة ويلجأ البشر إلى التأويل، حتى اذا تجلى الأمر والكشف ما كان غائبا، يكون ذلك الكشف أحد الأدلة المصدقة لقرانه. وبما أن المشاهدة تثبت أن الجبال ساكنة في مقرها حمل معظم المفسرين الآية على انها تتعلق بمشهد من مشاهد يوم القيامة. ولكن الحذاق وعلى رأسهم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله جعل الآية من الإعجاز العلمي المنبث في القران. فإن قمم الجبال تراها بالنسبة للشمس متلقية لضوئها تمتد ظلالها في الجهة المقابلة، ثم تنحسر تلكم الظلال شيئا فشيئا وتسير في الجهة المقابلة؛ في حركة تشبه السحب عندما تتكاثف، يظنها الرائي ثابتة وهي تمر متنقلة. تأملوا ان وضع الأرض في مدارها حول الشمس، تظهر حركتها بصفة أجلى في جبالها، ودورانها مرتبط بالجاذبية التي بنيت على أوضاع مضبوطة، لو اختلت لما كان لهذا الكون أن يتواصل وجوده، وما كان للإنسان ان يعيش على هذا الكوكب. إنه من صنع الله الذي أحكم وأجاد في خلق هذه المجموعة الشمسية، ولما كان التذكير بالآيات المنبثة في الكون من أدلة العلم الكامل الذي لا يغيب عنه كبيرة ولا صغيرة، ختمت الآية بالتذكير بذلك ليفيق البشر من غفلتهم ويعلموا أن الله الذي صنع العالم بهذه الدقة لا يتصور أن يغيب عنه شيء من مقاصدكم في فعالكم .

89→90، من جاء بالحسنة...إلا ما كنتم تعملون

تفيد هذه الآية حكما عاما عرفنا بفضل الله وعدله في الجزاء. قسم الناس يوم القيامة الذي تحدثت الآيات السابقة عن بعض ما يحدث فيه؛ قسمهم إلى فئتين .

الفئة الأولى: الذين جاءوا مصحوبين بالحسنة. فما المراد بالحسنة؟ حملها بعضهم على أن المراد بها: لا اله إلا الله محمد رسول الله، أو لا إله الا الله وحده لا شريك له، ورويت في ذلك اثار . وحملها النظار على أن المقصود بها: الأفعال الحسنة عند الله. أي الذين خلصت أعمالهم من الذنوب، ومثلهم الذين نقوا أنفسهم بالتوبة ورد المظالم إلى أصحابها وأخلصوا لله. وهؤلاء أثبت القران أن لهم خيرا من الحسنة التي جاؤوا بها. والخيرية بالنظر إلى أن الحسنة فعل العبد، والجزاء عطاء الله وفضله. وكما يقول السهيلي :

حاشا لفضلك أن يقنط عاصيا **** الفضل أجزل والمواهب أوسع

ومع الثواب الكريم الذي هو من فضل الله الذي ينعمون به الجنة، هم امنون من الفزع، فهم الذين استثنتهم الآية 87 ففزع من في السماوات والأرض إلا من شاء الله

الفئة الثانية: من جاء يوم القيامة تصحبه السيئة، وهم الذين حبطت صالحات أعمالهم بالكفر، فقدموا على ربهم وصحيفتهم خالية من الحسنات، وكذلك الأشقياء الذين فاضت سيئاتهم وقبائح أعمالهم. ومما ينبغي أن يتذكره المتأمل في الآية ما جاء في قوله تعالى: **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا**[1]

ومع ذلك يعجل لهم العذاب فتكب وجوههم في النار أي يلقون في النار. وفي ذلك إشارة إلى الهوان الذي قصد أن يحمموا به، باعتبار أن الوجه هو أشرف أجزاء الجسم، وتسلط الإهانة عليه أقسى على صاحبه من بقية الأعضاء. ثم يضاف إلى كب وجوههم في النار، أن يخاطبوا: لا تسألوا عن النهاية التي انتهيتم إليها، فإنكم لا تجزون إلا جزاء وفاقا لما كنتم تعملون في الدنيا، أي إنكم آثرتم الشر، فجزاؤكم كان شرا على وزان أفعالكم في الدنيا.

و يمكن أن يخاطب بهذا القول فريق الناجين المنعمين، فيكون هذا الخطاب زيادة تكريم. وذلك فضل الله الذي لا يحد.

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

حرمها: التحريم المنع.

التلاوة: القراءة. تابع بقراءتك بين آياته.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم يا محمد معرفا بمهمتك التي حددتها لك، والمتمثلة:

أولا: في أني لا أعبد إلا رب هذه البلدة مكة، التي خصصها بتحريم كل ما ينافي صلاحها وصلاح من حل بها. وأن ربي ليس رب مكة وحدها بل هو رب كل كائن أينما وجد، يملكه ملكا حقيقيا لا يشاركه في ملكه أحد. وأمرت أن أكون واحدا من هذه الأمة التي أسلمت وجهها لله.

ثانيا: أن أبلغكم القرآن فأقرأه عليكم وأبين لكم مضامينه.

---

1 سورة الأنبياء آية 47

ثالثا: اني منذر كبقية المرسلين، لا ألجئ احدا ليؤمن، فإن من قبل رسالتي وامن بالله موحدا وعمل صالحا، فإن ثواب ذلك ينتفع به هو وحده، وأما من تصلب في الضلال فإنه هو الخاسر. ولا أقسر احدا على قبول ما جئت به.

وقل يا محمد ختاما: الحمد لله على ما هداني إليه وأكرمني به. قل لهم: إن الله سيظهر لكم الأدلة على صدق القران، فتعرفون تلك البراهين مما يزيل كل ريبة. ولا تكتئب من عنادهم فإن ربك لا يخفى عليه، ولا يغفل عن شيء مما يعملونه.

بيان المعنى العام:

91. إنما امرت ان اعبد...وان اكون من المسلمين.

انتهت السورة بختامها، فتوجه الخطاب للنبي ﷺ أي يصرح قائلا للمشركين المعاندين بعد ما بسط في السورة من أصول العقيدة، وما أيدت به من قصص الرسل السابقين مع أقوامهم. قل لهم: ما انا إلا مبلغ عن ربي ما يأمرني بتبليغه إلى الناس ومطبق لما يطلبه مني. ما امرني إلا ان أعبده ولا اشرك به غيره مخلصا له الدين؛ أمرت ان اعبد رب هذه "البلدة" مكة التي حرم ان يقصد إليها احد بما ينافي صلاحها وصلاح من يسكنها. وفي إسناد مكة لرب العزة اظهار لما أولاه الله لها من التشريف. إذ كان ابراهيم ﷺ أول من عمرها وأقام فيها بيتا لعبادة الله وقدر أن يكون محمد ﷺ خاتم الرسل خيرة من سكنها وانطلقت منها دعوته. وأضاف إلى ذلك ما يقتضيه هذا التكريم فجعله منسحبا على أرضها والبشر الساكنين بها وعلى حيواناتها وشجرها، فحرم أن يقصد إلى ما يصاد صلاح من دخل في دائرتها. فهي بشرع الله افضل بلاد الله أمنا. وإذ علقت الآية عبادة محمد برب هذه البلدة مكة، فذلك قصد تشريف مكة من ناحية، وللإشارة الى ضلال المشركين بتنكرهم لرب البيت الذين يفاخرون بالانتساب إليه وعبدوا الأصنام من دونه، وأن محمدا هو الذي أعطى للبيت حرمته الحق. ومن ناحية أخرى لتقضي بخضول الكون كله في مربوبيته لله التصريح إثر قوله "رب" هذه البلدة بأنه رب كل شيء، وعطف على توحيده لله ومخالفة ما عليه مشركو مكة أن الله امره ايضا أن يكون داخلا في زمرة الذين أسلموا وجههم لله، وفي هذا تشريف لأمة محمد ان الرسول واحد منهم.

92.وان اتلو القران...إنما انا من المنذرين.

تلاوة القران قراءته مع حسن اداه كما أنزل عليه. وتشمل تلاوته قراءته على الناس تبليغا لنصه المنزل إليهم، وتلاوته عبادة يأنس بها وتزيده رفعة في مقامه بما يترتب عليه من أجر. وقراءته على الناس، ثم بيانه لهم هو القدر المكلف به، وما وراء ذلك مما تقترحونه من اطلاع على الغيب ونحو ذلك، او معرفة موعد البعث،

فما أنا بمكلف به، ومن قبل ما دعوته إليه واهتدى في تصوره وسلوكه فإنما نفع نفسه؛ ومن واصل طريق الضلال والابتعاد عن الحقيقة فإنه هو الخاسر، وأقول له كلمة خاتمة قاصمة للجاجه: الذي كلفني به ربي هو عين ما أوكله للمرسلين الذين سبقوني، أن أنذركم سوء العاقبة إذا لم تؤمنوا بما أنزل إلي.

93/ وقل الحمد لله ...وما ربك بغافل عما تعملون.

وتختم السورة بأمر رسول الله أن يصرح بالقول: الحمد لله والثناء له، على ما والى علي من نعمه وشرفني برسالته، وأن ختم بي هدايته للعالمين، وأفرغ في قلبي اليقين. إن ربي سيريكم الآيات والأدلة في الدنيا وفي الآخرة، فتعرفون أنها براهين تثبت لكم صدق القرآن. في الدنيا كآية الدخان ودخول النبي ﷺ لمكة، وما يكشفه العلم كما سبق في آية سير الجبال. وفي الآخرة عندما تلقون جزاءكم فينكشف لكم ما أنذرتكم به، إن ربك يا محمد يرصد كل ما يفعلونه في الجهر أو في الخفاء، ولا يفلت عن علمه ما ظهر وما بطن. وفي ذلك مزيد تحذير للمعاندين، وبشارة للمؤمنين الصالحين.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير سورة النمل ليلة الجمعة 06 صفر الخير 1434 -20 ديسمبر 2012 أعانني الله على إتمامه.

سورة القصص

هذا هو الاسم الذي عرفت به السورة في المصاحف، وفي كتب السنة، ووجه تسميتها بذلك ذكر لفظ "القصص" فيها عند قوله تعالى: **فلما جاءه وقص عليه القصص**، واوعب القران تفصيل ما أجمله في سورة الشعراء في تربية موسى بقصر فرعون، وهي سورة مكية ،ورتبتها حسب ترتيب السور في المصحف الثامنة والعشرون، وحسب ترتيب النزول التاسعة والأربعون. نزلت بعد سورة النمل وقبل سورة الإسراء، عدد آياتها ثمان وثمانون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ: الخبر المهم العظيم.

الحق: الصدق.

العلو: الكبر، علا استكبر.

شيعا: فرقا تتناصر فيما بينها، وتعادي غيرها.

نمن: ننعم.

ائمة: يقتدي بهم غيرهم.

نمكن: نثبت لهم ملكهم.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بما افتتحت به سورة الشعراء، فالكلام فيهما واحد. نقرأ عليك يا محمد بواسطة جبريل الخبر المهم الصادق المتعلق بموسى وفرعون، وذلك لتبلغه وتقرأه على المؤمنين الذين ينتفعون بما تضمنه من عبر .

يبدأ عرض القصة ببيان ملامح فرعون. إن سمته الغالبة عليه هي التعالي والاستبداد الذي عم أرض مصر. هذا الاستبداد الذي جعله يفرق بين من كانوا تحت سلطانه فجعلهم فرقا، علاقة ما بين كل شيعة وغيرها علاقة متوترة، مما مكن من ضعفهم ويسر له التحكم في حظوظهم.

بيان المعنى العام

1 ــ 2 طسم تلك آيات الكتاب المبين .

الآيتان مساويتان لما افتتحت به سورة الشعراء، فالكلام فيهما واحد.

3 نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون.

نبلغك قراءة عليك خبرا عظيما مهما، هذا الخبر متعلق بموسى وفرعون، وهو خبر صدق بين، لتبلغه لقوم من صفتهم الإيمان، إذ هم الذين يفصل إيمانهم يتلقونه فيستفيدون منه. أما المعرضون فهم غير مقصودين بما يتلى عليك، لأنهم بإعراضهم لا ينتفعون بما فيه من عبر. ونبه على أن ما سيرد في هذه القصة لا يستوعب كل ما حدث، بل بعضه فقط كما يفيده قوله: [من] نبأ.

شمل هذا النص ضروبا من الاهتمام:

أسندت التلاوة إلى الله بنون العظمة والحضور "نتلو" مع أن التالي هو جبريل بإذن من الله.

نوه بمضمون القصة، بالتأكيد على كونها حقا صدقا.

تخصيص القوم الذين يجمعهم الإيمان بكونهم المقصودين بهذه القصة ليتأملوا في تفاصيلها، وينتفعوا بالعبر المستخلصة منها.

أن القصة لم تفتتح بسرد الأحداث، ولكن بلفت الأنظار إلى الربط بين الأسباب والمسببات.

4 إن فرعون علا في الأرض ...من المفسدين .

تبدأ القصة بعرض العنصر الرئيس فيما يتلو من أحداث، صورة فرعون ملك مصر المتكبر الطاغي الجبار. علا في أرض مصر من ناحيتين، سعة ملكه واستكباره. والناحية الثانية هي التي وجه إليها القرآن عنايته؛ وهي من أقوى الجوانب للاعتبار .

فصلت الآية ما انجر عن استكباره، فذكرت أنه أقام سياسة الذين هم تحت سلطانه على تفريقهم إلى مجموعات بشرية تعادي كل مجموعة المجموعة الأخرى. وهذه

سياسة كل الجبارين في الأرض "فرق تسد". كما أنه عمل على إذلال طائفة من تلك المجموعات "الشيع" وهم بنو اسرائيل فكان يكلفهم القيام بالأعمال الشاقة، وخطط لوقف تكاثرهم، فكان يقتل الذكران من مواليدهم، ويبقي على الإناث، وبذلك يفسد أخلاقهم. فكثرة الإناث، وتقلص عدد الذكور تقلصا كبيرا، وقوة الغريزة الجنسية تدفع إناثهم للزنا، وتنحل بذلك الرابطة القوية الجامعة بين بني إسرائيل بانحلال الأسرة محضنها الأول.

إن فرعون بسياسته تلك، قد استولى عليه الفساد وتمكن من عقله. وتلك صورة من المفسدين من ولاة الأمور في التاريخ البشري، الذين يخونون الأمانة، ويقيمون سلطانهم على ما يتصورونه مصلحة، والمصلحة هي ما يمكن لاستبدادهم.

5-6. ونريد أن نمن...ما كانوا يحذرون.

شأن الطغاة أنهم يظنون أن المستقبل يحقق لهم مخططاتهم، وأنه ليست هناك قوة تفسد ما خططوا، وتحبط ما دبروا. وينسون إرادة الله وما قدره. وتعلو إرادة الله في النهاية، وما قدره للمستضعفين؛ فيحقق نعمته على بني إسرائيل ويحولهم من وضع المهانة والاستعباد إلى وضع يكونون فيه أئمة يقتدى بهم وينظر إليهم غيرهم نظرة الإكبار ويتخذونهم مثالا، ونعطيهم ما ملكه غيرهم، ونجعل سلطانهم ثابتا في الأرض التي نملكهم إياها. وفي الختام نبقي على المتسلطين عليهم حتى يشاهدوا انتصار بني إسرائيل، وبوادر عزهم باجتماع كلمتهم على موسى ﷺ . نبقي على الملك فرعون وعلى وزيره هامان وعلى جنوده الذين كانوا اليد التي يبطش بها فرعون وهامان. وظهرت هذه الإرادة الإلهية لما أطبق البحر على فرعون ووزيره وجنده.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ

اليم: نهر النيل.

الخوف: توقع أمر مكروه.

ليلتقطه: الالتقاط أخذ الشيء دون طلب.

فؤاد: عقلها ومداركها.

لربطنا على قلبها: ثبتناه، وذهاب الشك منه.

قصيه: اتبعي أثره.

بصرت: رأته رؤية واضحة.

عن جنب: عن بعد.

بيان المعنى الإجمالي

كانت أم موسى تحس بحركة جنينها وتحس إحساسا بلغ درجة اليقين، أن عليها أن ترعاه وترضعه، وتحتفظ به عندها، حتى إذا أحست بخطر أخذه من جنود فرعون، أن تتشجع وتلقيه في النيل وأن لا تخاف عليه، ولا تحزن لفراقه. فإنه سيعود إليها سالما، وأنه سيكون له شأن. هو مختار ليكون رسولا من رب العالمين.

وفعلا نفذت ما أحست به، وألقته في النيل لما شعرت بالخطر. مر التابوت أمام جمع من أسرة فرعون، فحملهم حب الاستطلاع على أخذ التابوت وفتحه. ولما فتحوه وجدوا طفلا رضيعا، هجم حبه والرأفة به على قلوبهم. أخذوه بأيديهم وكان القدر قد هيأ ذلك الرضيع ليكون في النهاية عدوا لهم وموجب حزن. إن فرعون ووزيره هامان كانا مغرقين في الخطيئة والإثم، فأعمى الله بصيرتهما عن موسى.

دخل موسى عليه السلام قصر فرعون، فتعلقت به امرأة فرعون، وألقى الله في قلبها حبه والسرور به. عرضت الأمر على زوجها أن تتم تربيته في القصر. إنه ذو شخصية جذابة كلما نظرنا إليه امتلأنا منه سرورا. ومن ناحية أخرى لعله يكبر برعايتنا وتربيتنا فيتعلق بنا، ونجد منه ما يجده الآباء من أولادهم عند الحاجة. اقتنع فرعون بكلامها، وهم لا يشعرون بما خبأه القدر.

وفي المقابل، فإن أم موسى لما ألقته في النيل كانت واثقة مما حل في قلبها من أنه سيعود إليها سالما. إنها حسب العاطفة الفطرية للأمومة قارب أن يصدر منها ما يلفت الأنظار إليها. ولكن الله قوى يقينها وأزاح الشكوك من فكرها، لتكون بإقدامها ثابتة على ما أقدمت عليه، لتكون من المؤمنين. وذلك لم يمنعها من تتبع ما يحصل له، فطلبت من ابنتها أن ترقب تنقله، فتيقنت برؤية واضحة من مكان بعيد أنه وقع في أيدي أتباع القصر الفرعوني.

بيان المعنى العام .

7. واوحينا إلى أم موسى...وجاعلوه من المرسلين.

تفتح الآية بأن الله أوحى إلى أم موسى، وأمه لم تكن نبية بإجماع العلماء، ومعنى الوحي في نظري إحساس وجدته في قلبها تيقنت أنه ليس من حديث النفس، ولا مما يصوره الخيال وأنه حقيقة كإدراكها بأنها موجودة. ارتسم في عقلها أنها مأمورة بأن ترضع وليدها، وأن تواصل إرضاعه إلى الوقت الذي تحس فيه بالخوف عليه من زبانية فرعون تنفيذا لأمره العام بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل. وعندها هي مأمورة بأن تلقيه في النيل. وأحست بمناد يناديها في باطنها: كوني مطمئنة ولا تخافي عليه الغرق ولا الموت، تشجعي واطردي عنك الحزن لفراقه. إن الله سيرده عليك وسيرفعه إلى مقام الرسالة فيختاره هاديا لبني إسرائيل معصوما بعصمة الله.

وطوى القرآن الجزئيات التي لا أثر لها فيما تهدف إليه القصة من عبر. من أنها حملته وما صحب حملها، وولدت طفلا ذكرا، وأنها وضعته في تابوت، وأقفلته بمفتاح ربطته به.

8. فالتقطه آل فرعون...كانوا خاطئين .

مر التابوت يطفو على سطح النيل أمام أعين آل فرعون. حملهم حب الاطلاع على أخذه والتعرف على ما يحويه. فتحوه فإذا صبي في المراحل الأولى من الحياة. رقوا له ونفذ حبه إلى قلوب الذين التقطوه، والقدر الإلهي ينفذ ما سبق أن سطر. هذا الصبي الملتقط سبق القدر أنه سيكون عدوا لآل فرعون وجالب حزن لهم. دخل قصر فرعون في الوقت الذي كان فيه فرعون يبعث بعيونه في كل مكان ليخنق أنفاس كل مولود ذكر من بني إسرائيل. تمكنت الخطيئة والإثم من الطاغية فرعون ووزيره الذي كان يساعده على ظلمه واستبداده؛ فكان من شأنهما أن تحداهما القدر، وانهار ما دبراه لإنقاذ ملكهما وامتداد سلطانهما.

9. وقالت امرأة فرعون....وهم لا يشعرون.

موسى عليه السلام صبي رضيع في قصر فرعون، تعلقت به امرأة فرعون، وغمر حبه قلبها، وكلما عاودت النظر إليه زادت تعلقا به. ولابد في حدث كهذا أن تعرض الأمر على زوجها. كانت لطيفة في عرضها فابتدرته بقولها: هذا الطفل يدخل السرور علي وعليك، فكلما نظرنا إليه نود أن نتابع التأمل في قسمات وجهه، وجمال محياه. أبقوا عليه ولا تقتلوه لتوهم أنه من بني اسرائيل. وبعد أن وقفت في إثارة عاطفة زوجها، حركت عقله بلفت نظره إلى ناحية فطرية مغروسة في البشر،

وهي رغبة الزوجين في أن ينجبا ولدا يكون لهما سندا مخلصا عند الكبر. والظاهر أن امرأة فرعون لم تنجب منه. ولعل هذا الرضيع يكبر ويشتد ساعده فنتخذه ولدا، بعد تمتن العلاقة بيننا وبينه، بعيشه معنا. كان كلامها مقنعا لفرعون، فأبقى عليه، لما يدخله وجوده بينهما من البهجة، ولما يمكن أن ينفعهما عند كبره. ووراء هذه الظنون وتقليب الرأي، القدر الإلهي يتصرف دون أن يشعر أحد بما سيكون عليه الأمر، هل تتحقق تلك الآمال أو تنقلب إلى الضد؟

10. وأصبح فؤاد أم موسى... لتكون من المؤمنين

تعرضت الآية السابقة لوضع موسى وهو في بيت فرعون، وتحدثت هذه الآية عن أمه بعد أن ألقته في النيل. تنص الآية أن عقلها ومداركها استقر فيها الفراغ. ويمكن فهم الآية على أحد الاحتمالين التاليين:

أحدهما: أن يراد منه أنها كانت وهي تلقيه في اليم واثقة مما ألقاه الله في روعها من أنه سيعود إليها ولا يلحقه أذى. فقلبها فارغ من الخوف. وليس معنى هذا أنها جمدت عاطفة الأمومة فيها، فإنها وهي تلقيه كانت يتنازع في باطنها عامل الحنو الفطري وعامل الثقة بما اقتنعت به من نجاته وهي ترمي به في النيل. وعامل الفطرة عامل قوي جدا فهي قاربت أن يظهر منها من الجزع ما يلفت الأنظار إليها ويفضح أمرها. ولكن الألطاف الإلهية أحاطت بها فجعلت قلبها متعلقا بوليدها دون أن يصدر منها ما يلفت أنظار زبانية فرعون لها ولوليدها، لتكون بهذه الألطاف من المؤمنين بقدر الله إيمانا جازما لا يدخله الشك.

ثانيهما: أن عاطفة الأمومة كانت قوية جدا وهي تلقيه في اليم، وبلغت حد أن قاربت التفجر بما يلفت الأنظار إليها، ولكن الله شد على قلبها في ذلك الظرف فلم يصدر منها ما يكون سببا في هلاك ولدها. ولتكون من المؤمنين الواثقين بفضل الله.

11. وقالت لأخته قصيه ...عن جنب وهم لا يشعرون

إن اليقين الحاصل في قلب أمه لم يمنعها من التحري عنه، فاستعانت بمريم أخته، وطلبت منها أن تتبع بحذر سير التابوت، فرأته رؤية واضحة، كما يفيده بناء بصر من قوة النظر بمقدار أوفى من أبصر. كانت حذرة فرأته من مكان بعيد، دون أن يشعر بها أحد من أتباع فرعون.

• وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞

بيان معاني الألفاظ:

يكفلونه: يتعهدون بحفظه.

ناصحون: يخلصون له ولا يقصرون.

أشده: شدة البدن، واستحكام قوته.

استوى: تكامل عقله.

الحكم: الحكمة.

بيان المعنى الإجمالي:

سبق في التقدير الإلهي أن يُفض لموسى قبول أي مرضع تعرض عليه. وأمام هذا الإشكال والولد في حاجة إلى الرضاع والصرافه عن قبول أي مرضع، تقدمت أخته عارضة خدماتها على الموكلين بحفظه، وقالت لهم: هل أعرفكم ببيت لهم من المؤهلات ما يمكنهم من كفالة الولد، ومعاملته أفضل معاملة. صحبوها إلى بيت أمها وبمجرد ما عرضوه على ثديها أقبل عليه وبدا عليه الأنس بها. فسلموه لها، ورد الله ولدها عليها، فسرت به أيما سرور، ولم يجد الحزن لفراقه سبيلا، والأهم من كل ذلك ان كان في هذا التقدير، ما علمت به أن وعد الله حق لا يخلف. وتميزت عن الكثرة الكاثرة من الناس الذين لا يعلمون هذه الحقيقة. ويعطينا القرآن صورة موسى وقد اكتملت قواه الجسمية والمعرفية، وأنه كان راشدا في سلوكه فجازاه الله بتمكينه من الإدراك الصحيح للأشياء، وأثبت في نفسه علما صحيحا، وهي السنة التي يجري عليها العطاء الإلهي، فعلى هذا النحو يجزي المحسنين.

بيان المعنى العام:

12. وحرمنا عليه المراضع...وهم له ناصحون.

موسى صبي رضيع أحبه ملك مصر وزوجه. وأول ما يحتاج إليه هذا الوليد الرضاعة، فأتوا له بمراضع كثيرة، كلما عرضوه على واحدة منهن أعرض عنها، وذلك تبعا لما غرس الله في نفسه من عدم قبول أي منهن. إنه تحريم أزلي ظهر في هذا الظرف لسابق القدر. وتقدمت أخته عارضة خدمتها على آل فرعون، وقد شاع أن الأسرة المالكة تبحث عن مرضع، عرضت عليهم أنها تعرف أسرة لها من المزايا العالية: أنها تقوم بكفالة هذا الرضيع خير قيام من إرضاع وعناية فائقة، مع نصح له كأنه ابن لها، لا تقصر في أي أمر، ولا تقوم به الا على أحسن الوجوه.

13.فرددناه إلى أمه...ولكن أكثرهم لا يعلمون

نجحت أخته في إقناع الموكلين بحفظ الصبي أن يجربوا ما نصحتهم به الفتاة. صحبوها إلى المرضعة، وبمجرد ما قربته من ثديها التقمه وبدا منه الأنس بها، سلموه لها فقرت عينها به، وانقشع ما كان يمكن أن يدخل على عواطفها من الكمد والحزن لبعده عنها، وفي النهاية تأكدت أن ما أحست به من التوجيه الرباني قد تحقق، وأن كل ما يعد الله به المؤمنين حق لا شك فيه، ولكن أكثر الناس جاهلون بهذه الحقيقة، قصروا نظرهم على الواقع المحدود كمحدودية قواهم الفكرية .

14.ولما بلغ أشده واستوى....نجزي المحسنين.

طوى القرآن تفصيل مراحل نموه، وتعرض هذه الآية علينا موسى عليه السلام رجلاً قد اكتملت قواه الجسمية، والعقلية؛ عبر عن ذلك بقوله "وبلغ أشده" ونقل الزبيدي عن التهذيب قوله تقرن بلوغ الأشد بالاستواء، وهو أن يجتمع أمره وقوته، ويكتهل وينتهي شبابه[1]. ثم إن الله جازاه على استقامته واختياره الطريق الأحسن، جازاه بفتح عقله وقلبه للفهم الصحيح، وإدراك الأمور على حقيقتها لا ينخدع بالظواهر فآتاه الحكمة، وشحن قواه المعرفية بالعلم الصحيح . وعلى هذا النحو من الجزاء نجزي المحسنين من عبادنا، لا نضيع من أحسن عملا.

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

---

[1] تاج العروس ج8ص243

بيان معاني الألفاظ

على حين غفلة من أهلها: الوقت الذي تضعف فيه حركة الجولان من شيعته من بني إسرائيل.

عدوه الجماعة التي يبغضها موسى.

استغاثه : طلب تخليصه من شدة.

الوكز : الضرب بجمع اليد.

فقضى عليه : مات.

ظهيرا معينا.

الاستصراخ : الصراخ القوي.

الغوي: الضال.

يبطش: يعنف بقوة.

الجبار : المنفذ لإرادته بعنف.

بيان المعنى الإجمالي

دخل موسى مدينة رمسيس في وقت قلت فيه الحركة، ولفتت نظره تقاتل بين شخصين، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي. شعر الإسرائيلي بالضعف فاستغاث بموسى. غضب موسى فضرب بجمع يده ضربة على قلب القبطي فمات. وشعر موسى بعظم ما صدر عنه. ورأى أن الشيطان قد هول عليه الأمر وحركه لتأديب القبطي وهو مغضب. والشيطان عدو للإنسان يضله، وإضلاله بين يمكن التوقي منه، لمن يتريث ولا يسرع للاستجابة لعواطفه. وبعد هذه المحاسبة لنفسه عن عمله، اعترف بأنه ظلم نفسه، وطلب من الله أن يغفر له ما فعل. واستجاب الله لموسى وغفر له ذنبه. والله غفور يرحم من تاب وإليه أناب.

أثارت هذه الحادثة في نفس موسى ﷺ يقظة، فتبين من حسابه لنفسه أنه يعمل في قصر فرعون المستبد الظالم. فتوجه إلى ربه ملتزما: أن لا يعمل عملا فيه عون للجبارين. معترفا أن قلبه انشرح لذلك بفضل ما غمره به من الحكمة والعلم.

والقتل ليس أمرا هينا. أصبح موسى من الغد خائفا من عاقبة فعلته يتحسس الأخبار، يترقب أن يعرف حديث الناس. بينما هو كذلك يفجأه إسرائيلي الأمس يصرخ ويستغيث لينقذه من قبطي. تحرك موسى ليسعف الإسرائيلي، بعد أن أنكر عليه كثرة مشاكساته والدخول في مشاكل كان يمكنه أن يبتعد عنها. وخشي القبطي على نفسه لعلمه بأنه لا يستطيع أن يصارع موسى الشديد البنية القوي العضلات فقال له: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا يوم أمس؟ إنك تبغي أن تتسلط

على الناس بقوتك، وتخضعهم لإرادتك، وما تريد أن تسير في حياتك على أنك أحد المصلحين.

بيان المعنى العام :

15 ودخل المدينة على حين غفلة...عدو مضل مبين

دخل موسى مدينة منفيس في وقت قلت فيه الحركة وضعف النشاط، وكادت المدينة تخلو من الناس . شد نظره خصومة شديدة بين رجلين، كان أحدهما اسرائيليا من جماعة موسى وقومه، والآخر قبطي من شيعة فرعون. طلب الإسرائيلي من موسى أن يسعفه ويخلصه من يد عدوه الذي يظهر انه كان أقوى منه. فاستجاب موسى للاستغاثة، وضرب القبطي بجمع يده على قلبه، (وكزه) فكانت القاضية ومات القبطي.

ما كان موسى قاصدا قتل القبطي، بل كان يريد أن يخلص المستغيث من القوي المتسلط عليه. ندم موسى على اختياره الصورة العنيفة لتخليص الذي من شيعته. ورجع إلى نفسه، وهو الحكيم، ليقوم العمل الذي قام به أهو من الخير أم من الشر؟ قتل النفس في غير دفاع عن النفس مرفوض، ولذلك أدخل فعلته تحت معيار وسوسة الشيطان الذي لا يدل على خير. هو متمحض للعداوة، ولإخراج الإنسان من طريق الهدى إلى طريق الضلال. وإن إضلاله لواضح بين .

16 قال رب إني ظلمت ...هو الغفور الرحيم .

تقدم موسى عليه السلام ضارعا إلى ربه، وقد أدرك ما جره إليه الشيطان : فاعترف أولا بأنه ظلم نفسه بإقدامه على الانتصار للإسرائيلي قبل أن يعرف البادئ بالإساءة، وثانيا لأن الغضب حمله على رد الفعل بعنف، وكان من حقه أن يعمل على الفصل بينهما دون ضرب على القلب. ومحاكمته لنفسه تكشف عن قوله تعالى: آتيناه حكما وعلما وأتبع الاعتراف بالذنب بسؤال المغفرة والتجاوز عن ذنبه. واستجاب الله لتوسله، وغفر له ذنبه فمحا كل أثر سيء تابع له. ومن صفات الله انه كثير المغفرة قوي الرحمة.

17. قال رب بما أنعمت علي...ظهيرا للمجرمين

قتل القبطي كانت حدا فاصلا في حياة موسى عليه السلام، ابتدأ بمحاسبته لنفسه حساب المسؤولية، بما يتبعه من الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة . ثم قوم حياته كلها، فوجد نفسه منغمسا في حاشية فرعون. وأنه بما آتاه الله من الحكمة والعلم والنظر في الأمور بعين العقل الصحيح الطارد للأهواء والعواطف، تبين له أن نشاطه وذكاءه كان يصرفهما لعون فرعون الظالم المستبد. وأنه لا يقبل أن يواصل حياته

على هذا المنهج مشاركا مساعدا للظلم والفساد. فتوجه إلى ربه ضارعا: رب! بسبب ما أنعمت علي من الحكمة والعلم، وما كنت لأحظى بذلك لولا فضلك علي، فإني أعاهدك ربي على أن أقطع صلتي بالمجرمين ولن أكون عونا لهم أبدا. وقد استنبط بعض العلماء الصالحين من الآية: عدم جواز خدمة الظلمة، وإن كان في نشاط لا يتصل بظلمهم.

١٨. فأصبح في المدينة خائفا يترقب...إنك لغوي مبين.

من ذلك اليوم الذي قتل فيه القبطي، وفي صباح الغد كان موسى خائفا من أخذه بدم القتيل، يراقب ما يتحدث به الناس. لأن قتله للقبطي يوم أمس كان في حين غفلة من أهلها لم يشاهده أحد. يمضي موسى متحسسا، فيفجأ بالإسرائيلي الذي نصره يوم أمس يصرخ مستغيثا به لينقذه من يد قبطي أقوى منه. كان رد فعل موسى الأولى: أنه أبدى تذمره من الإسرائيلي المشاكس، وقال له : إنك مضل بين الضلالة، تشاكس من لا تقدر عليه، وتوقع نفسك في المضائق.

١٩. فلما أراد أن يبطش...أن تكون من المصلحين.

موسى وإن قام بواجب الإنكار على الإسرائيلي لتتابع خصوماته، ولامه على ذلك، فإنه هم أن ينصره لأنه مكروب في شدة، والقبط يذلون بني إسرائيل ويظلمونهم، وتقدم نحو القبطي الماسك بتلابيب الإسرائيلي، وخشي القبطي على نفسه والمغيث رجل قوي البنية لا يستطيع أن يصارعه؛ فتوجه إلى موسى قائلا: أتريد أن تقتلني كما قتلت أخي القبطي يوم أمس ؟ إنك ياموسى بتقويك على هذا النحو، تريد أن تكون متسلطا عنيفا على الناس تنفذ فيهم إرادتك وليس هذا شأن المصلحين الذين تريد أن تكون واحدا منهم.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

يسعى: يسرع خطاه

يأتمرون بك: يتشاورون فيما يضر بك.

الملأ: الجماعة أصحاب الشأن.

يترقب: يحذر.

ورد: بلغ.

الأمة: الجماعة الكثيرة العدد.

تذودان: تطردان.

ما خطبكما؟: ما شأنكما؟

يصدر الرعاء: يتم الرعاة سقي مواشيهم وينصرفون بها.

بيان المعنى الإجمالي:

بينما كان موسى مستعدا لنصر المستغيث به، إذا برجل قادم يسرع في خطاه، يناديه لينجو بنفسه. إن الخبر قد بلغ فرعون وأن أهل مشورته يدبرون الأمر لقتله. أسرع بالخروج من المدينة قبل أن يلحقوا بك ويأخذوك. إني ناصح لك حريص على سلامتك.

خرج موسى من المدينة خائفا، حذرا من أن يتفطن له من يدل عليه. داعيا أن يكتب له ربه النجاة من فرعون وقومه. وسلك طريقه راجيا أن يهديه ربه لاختيار الطريق المستقيم المأمون.

ساقته الألطاف الإلهية إلى أرض مدين على البحر الأحمر؛ فدخلها من الناحية التي يجتمع فيها الرعاة لسقي مواشيهم. لفتت نظره امرأتان انتحتا جهة مستقلة عن الناس، تحرصان على منع ماشيتهما من ورود الماء. توجه موسى إليهما سائلا عن شأنهما؟ أجابتا بأنهما تنتظران الوقت الذي ينتهي فيه الرعاة من سقي مواشيهم ويرجعون بها حتى لا تزاحما الرعاة. وأن أباهما شيخ كبير، ولا يوجد في الأسرة رجل يقوم بهذه المهمة.

حمله طيب نفسه وشهامته، وما آتاه الله من قوة بدنية أن يتولى سقي ماشيتهما ويأخذ له مكانا في زحمة الرعاء. ثم عاد إلى ظل الشجرة ليستريح من السفر ومن السقي، وشعر بطمأنينة عامرة. انطلقت أشواقه الروحية إلى ربه مبتهلا شاكرا على ما أولاه من نعم تتابعت، من إنجائه بعد إلقائه في النيل، إلى التربية الناعمة في قصر فرعون، إلى حمايته من آثار الضلال الذي كان سائدا في تلك البيئة، إلى سلامته من القتل بعد أن قضى على القبطي، إلى هدايته لسلوك الطريق الموصل

إلى أرض مدين، فقال: رب إني فقير لما أنزلت علي فبفضلك وحده تيسرت لي كل تلكم الخيرات.

بيان المعنى العام:

20. وجاء رجل من أقصى...إني لك من الناصحين.

تسارعت الأحداث، فقبل أن ينصر المستغيث يدخل في المشهد رجل جاء يسرع في سيره قاصدا موسى عليه السلام فناداه : ياموسى! إن أهل الرأي من حاشية فرعون بصدد التشاور في أمرك والرأي أنهم سيقررون قتلك، فرّ بجلدك، واخرج من المدينة قبل أن يقبضوا عليك، فإني لك ناصح حقيق.

21. فخرج منها خائفا... نجني من القوم الظالمين.

شعر موسى بالخطر، وخرج من المدينة تحت عاملي الخوف والحذر، داعيا ربه أن يكتب له النجاة من القوم الظالمين قوم فرعون. الذين لا يفرقون بين قتل العمد وقتل الخطأ، ولا يسمعون من المعروض على المحكمة حجته.

22. ولما توجه تلقاء مدين...سواء السبيل.

سار في طريقه وكله رجاء في ربه أن يهديه إلى الطريق الذي يحقق له الأمن، فإن الطرق متساوية أمامه، والطريق المنجي لا يعلمه إلا الله. وأن يُوفّق إلى اختيار الاتجاه الذي يصل به إلى المكان الآمن. استجاب له ربه فهداه إلى أن يسلك الطريق المودي إلى مدين، تجاه مدين، جهة مدين. وهي أرض واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، وتبلغ المسافة بينها وبين منفيس ثمانمائة وخمسين ميلا تقريبا. مما يستدعي مواصلته خمسة وأربعين يوما سيرا على الأقدام. كما قدر ذلك الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله.

23. ولما ورد ماء مدين...وأبونا شيخ كبير.

بلغ موسى عليه السلام أرض مدين فدخلها من الناحية التي فيها الماء الذي يسقي منه الرعاة مواشيهم. ووجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون الإبل والمواشي، واستراح تحت ظل شجرة، بعد أن أنهكه مواصلة سفر تلكم المسافة.

لاحظ موسى عليه السلام أن الرعاة يتزاحمون على البئر، وامرأتين همُّهما أن يبعدا ماشيتهما عن الماء ويكبحا اندفاعها إليه. تعلقت إرادته بمعرفة السر الذي من أجله اختارتا جهة بعيدة عن الناس وتذود ماشيتهما عن الماء. توجه إليهما بالسؤال: ما شأنكما؟ أجابتا: لا نسقي حتى يتم الرعاة سقي مواشيهم، وينصرفوا عن الماء. وأردفتا بأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع القيام بهذه المهمة، وتربيتهما على الحياء تمنعهما من مزاحمة الرجال.

4- فسقى لهما ....من خير فقير.

رجل قوي البنية شهم عالي الهمة تبين مما عرضته المرأتان ضعفهما، فاندفع لمساعدتهما في زحمة الرعاة، وسقى ماشيتهما، فارضى نفسه. ثم عاد إلى الظل الذي كان فيه. في هذه الظروف: البدن مكدود، والمستقبل غائم يكتنفه الغموض من جميع الجوانب، فلا هو يستطيع الرجوع إلى منطلقه ليقتل، وليس له صديق في مدين يأوي إليه أو يساعده في غربته، والصفاء الروحي يزيده قربا من ربه وتعلقابه، واعترافا بفضله عليه. وهذا ما تم فعلا، فسجل القرآن ابتهالاته في ظل الشجرة: رب إني فقير لما أنزلت علي من خير، من العلم والحكمة، ومن نجاتي من الطلب الذي كان يأتمر به الملأ، وبما يسرته لي من العيش في حجر النعيم في صباي وشبابي، دون أن أتلوث بما في تلك البيئة من شر وفساد، ومن هدايتي إلى هذا المكان الآمن.

فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

استحياء: مع حياء شديد.

القصص: الخبر.

حجج: سنوات.

أشق عليك: أكلفك عملا شاقا.

العدوان: الاعتداء.

وكيل: يؤاخذ المخل.

بيان المعنى الإجمالي

رجع موسى إلى ظل الشجرة مستغرقا في تأملاته، وإذا بإحدى المرأتين اللتين سقى لهما، تقف أمامه تبلغه دعوة من أبيها: أن يقدم عليه ليكرمه عما قام به. ولاحظ موسى الحياء الذي كان يجللها.

لم يتردد موسى في استجابة الدعوة، وسار نحو الشيخ ، أنس كل منهما بصاحبه، وقص موسى عليه خبره، من حياته في قصر فرعون إلى قتله القبطي الظالم خطأ، إلى خروجه ووصوله أرض مدين. وبدا من موسى الذي كان يعرف بطش فرعون واستبداده، أنه كان خائفا. طمأنه الشيخ بأنه لا سلطان لفرعون عليه في مكان إقامته هذا. فهذه أرض العمالقة لا سلطان لفرعون عليها، فاطرد عنك الخوف وكن مطمئنا فقد نجوت.

كانت إحدى الفتاتين تتبع بانتباه ما يجري بين موسى ووالدها. تنبهت إلى أن كلا منهما في حاجة إلى الآخر، وأن موسى جمع من الخصال ما يساعد العائلة في مهامها، فهو رجل قوي البنية على خلق نبيل وأمين. فاقترحت على والدها أن يستأجره ليساعد العائلة. وفي الحين عرض الشيخ على موسى أن يزوجه إحدى البنتين على أن يقوم بالخدمة ثماني سنين. وأنك إذا اخترت المقام معنا عامين آخرين في الخدمة، فذلك فضل منك. وكن واثقا أني سأعاملك معاملة إنسانية لا أكلفك ما يعسر عليك أو ما يكون شاقا.

رضي موسى بالعرض وربط بين موافقته وبين كل ما جاء في كلام الشيخ، من العمل ومن الأجل ومن الزواج. وأشهد الله على ما عقدا عليه، وهو الوكيل الذي يؤاخذ من أخل منهما بتعهداته.

بيان المعنى العام

25: فجاءته إحداهما ...نجوت من القوم الظالمين

بينما كان موسى مستغرقا في تأملاته في هذا الظرف الذي يشع منه نور الطمأنينة والثقة في فضل الله، إذا بإحدى المرأتين تطلب منه أن يتبعها إلى أبيها الذي يريد أن يكرمه على عونه لهما. لم يتردد في الاستجابة للطلب. ويظهر أن من مرجحات المبادرة بالقبول، ما لاحظه في الداعية، لأنها كانت على حظ وافر من الحياء والأدب، مما يدل على أنها تنتسب إلى أسرة نبيلة صالحة. ولأن غربته تدعوه ليكون روابط مع سكان تلك الأرض تيسر له الإقامة فيها. وأن الداعي شيخ مجرب قد تفيده تجاربه في حل الأزمة التي هو فيها.

وصلت به إلى بيت أبيها وقدمته له .لا تدخل القصة القرآنية في تفاصيل اللقاء، وإن كان يفهم منه أن الصورة التي حصلت عند الشيخ أنه يقبل رجلا شهما، وصورة الشيخ عند موسى صورة رجل كريم. أنس كل منهما بالآخر، ومن الجلسة الأولى فتح موسى قلبه له، وقص عليه خبره، وانه يخشى بأس فرعون، ومن زبانيته الذين يلاحقونه. استمع الشيخ لما قصه عليه وطمأنه: اطرد عنك الخوف، قد تحققت نجاتك من القوم الظالمين. إن منطقتنا لا سلطان لفرعون عليها، هي تحت سلطان العمالقة. ووصفه لفرعون ومساعديه بكونهم قوما ظالمين استند فيه لما يبلغه من أخبار عن الأرض المجاورة لهم، ولما قصه عليه موسى من الحكم عليه بالقتل دون أن يعرضوا عليه التهمة أو أن يمكنوه من الدفاع عن نفسه، ولتسويتهم بين قتل العمد وقتل الخطأ.

26. قالت إحداهما .....القوي الأمين.

أنس كل منهما بالاخر، وأكرم الشيخ ضيفه. وما كان حديثهما في سر، بل كانت الأسرة تسمع لما يدور بينهما. وكانت إحدى البنتين فطنة حاضرة البديهة، فعرضت على أبيها أن يعقد معه عقد إجارة على الخدمة، لما فهمت أن هذا الرجل النبيل الغريب يهمه جدا أن يستقر في مكان يأوي إليه يجد فيه الراحة والأنس، وأن الأسرة في حاجة لمن يساعدها على تنمية ثروتها الحيوانية التي عجز أبوها لتقدمه في السن عن القيام بهذه الوظيفة، ولاحظت ثالثا : أن هذا الرجل جمع بين صفتين هما معيار الاختيار : القوة على القيام بما يكلف به والأمانة على ما يكلف به. وكأنها جمعت تجربة الإنسانية كلها في قولها" إن خير من استأجرت القوي الأمين " فذهبت مثلا.

27. قال إني أريد أن أنكحك..إن شاء الله من الصالحين.

صادف العرض قبولا من الشيخ، واستنبط من الوضع العام أن كل واحد منهما في حاجة إلى الأخر، فعرض الأمر على موسى قائلا: أعرض عليك يا موسى، أن أزوجك إحدى ابنتي، ويكون مهرها أن تعمل عندي ثماني سنين، وإن أردت أن تبقى معنا عامين اخرين، فذلك فضل منك وإن أردت أن تغادرنا بعد الثماني سنين فذلك هو موجب العقد. وإني سأستعين بك ولا أكلفك من الأعمال ما يشق عليك ويصعب، سيتبين لك من العيش معنا ومخالطتنا أني رجل متخلق بأخلاق الصالحين، أميل إلى الكرم واللين في المعاملة، بعيد عن الظلم والجفاء.

28. قال ذلك بيني وبينك...على ما نقول وكيل.

شرط الشيخ لنفسه وعليها، وكان واضحا في عرضه، يطمئن له مخاطبه. فأجاب موسى عليه السلام بقبول العرض الذي به يستقر حياته : لا يبحث عن مسكن، ولا

من زوج يسكن إليها وتسكن إليه، جامعة بين الحياء والذكاء، تقوم بشؤونه، والشيخ يدل سمته ومنطقه على صلاحه؛ فأتى جواب موسى بالإيجاب للعرض، وأكده بربط جوابه بكلام الشيخ، ذلك العرض الذي عرضته علي، كل منا ملتزم به، وإني مخير فيما زاد على الثماني سنوات، فلا تتجاوز ما اتفقنا عليه فتتعدى علي. والله هو المتولي حفظ عقدنا، فمن لم يوف به فالله مؤاخذه.

• فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

جذوة: العود الغليظ المشتعل.

اسلك يدك: أدخل يدك.

من غير سوء: لا عيب فيها.

برهانان: حجتان يقينيتان.

بيان المعنى الإجمالي :

أكمل موسى عليه السلام سنوات الإجارة حسب الاتفاق، واشتاق لأهله في مصر فأخذ أهله معه، وسار بهم، وأظلمت الصحراء عليهم ووجدوا لسع البرد، فأبصر بجانب الجبل نارا . أعلم أهله بما رأى، وطلب منهم أن يمكثوا حيث هم، لعله يجد قوما لهم خبرة بمسالك الصحراء فيدلوه على الطريق الأفضل المبلغ قصده، أو يقتبس من نارهم ما يشعل به حطب التدفئة الذي أعدوه ولم يجدوا نارا يوقدونه بها.

فلما وصل إلى مصدر النور، ثم دنا من الجانب الغربي للوادي في البقعة التي باركها الله وكثرت خيراتها الروحية، نودي من الشجرة : أني الله رب العالمين

لخاطبك. ألق العصا التي بيدك، ولشد ما كان خوفه إذ انقلبت العصا حية متحركة نشيطة، فرجع القهقرى إلى الخلف. فناداه ربه مطمئنا له :يا موسى اقبل وابعد الخوف عن نفسك، إنك من القوم الآمنين. ثم أمره أن يدخل يده في جيبه، ثم يخرجها، فإذا هي بيضاء نقية كأشد ما يكون البياض والجمال، لا عيب فيها، وهدئ روعك وكن واثقا ولا ترتجف من الرهبة .هذان دليلان يعنيان العصا وبياض اليد، مصدرهما ربك، فاذهب مؤيدا بهما إلى فرعون وأهل مشورته ورؤساء أعوانه، فادعهم إلى الإيمان، إنهم قوم متصلبون في الكفر.

بيان المعنى العام

29. فلما قضى موسى الأجل...لعلكم تصطلون.

بمجرد ما أتم موسى أجل الخدمة، أخذ أهله معه وتوجه إلى مصر. واختلف المفسرون في الأجل الذي قضاه .ورجح كثير منهم أنه مكث أطول الأجلين. والقرآن لم يعين، واعتمدوا على أخبار لم تبلغ درجة الصحة، أو على أن هذا هو الوفاء الأليق بمن سيكون رسولا. ولكن الذي فهمته من جواب موسى عليه السلام أنه أكد على عدم التزامه بما زاد على الثماني، لقوله فلا عدوان علي إذ اعتبر أن إلزامه بالعشر عدوان فهو متحلل منها مقدما. كما اختلفوا هل إن كلمة أهل في الآية أريد منها امرأته فقط؟ والظاهر من التعبير القرآني أنه سار بزوجه وبولديه أو أولاده، وذلك لقوله "امكثوا" "آتيكم" "لعلكم تصطلون" فتكرر الخطاب جمعا اربع مرات.

هذا المقطع من القصة تقدم في سورة النمل آية7-وتغيير أسلوب العرض بما يخرج به النص عن التكرار المساوي.

30. فلما أتاها نودي...أنا الله رب العالمين.

هذه الآية مساوية في المعنى أيضا للآيتين 8/7 في سورة النمل. وأضيف إلى وصف الله في سورة النمل "العزيز الحكيم" أضيف هنا: إني أنا الله رب العالمين مما يفيد أن الله وصف نفسه بالأوصاف الثلاثة، وتوزعت بين السورتين في تسجيل المشهد الواحد. وأن مكان النداء كان من جانب الوادي الأيمن في سفح الطور، وهو الجانب الغربي كما تدل عليه الآية 44 من هذه السورة: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) والبقعة المباركة القطعة من الأرض التي اختارها الله ليتلقى موسى فيها وحي الله، ويشرفه الله بالرسالة .والشجرة لم يعينها القرآن، فلا تعتمد التوراة في تعيينها، إلا أن الآية عنيت بتحديد الموقع من نواح أربع 1) جانب الوادي 2) من الناحية اليمنى منه 3) في بقعة مباركة 4) من الشجرة. فيكون موسى سمع صوتا من الشجرة وعاه، وحفظ محتواه.

31ـ وأن ألق عصاك...إنك من الآمنين .

وكذلك هذه الآية مساوية للآيتين 10و 12 من سورة النمل، وهي تتضمن المعجزة الأولى: انقلاب العصا حية، وخوف موسى وتطمين الله له بأنه آمن، لأن الخوف بعيد عن الرسل عندما يتلقون الوحي من ربهم.

32ـاسلك يدك في جيبك...كانوا قوما فاسقين.

تتضمن هذه الآية أمرين :

1)المعجزة الثانية: إشراق لون جلد يده عندما يخرجها بعد أن يدخلها في جيبه، فتنقلب بيضاء نقية منيرة لا عيب فيها.

2) قوله :اضمم إليك جناحك من الرهب دعوة لموسى أن يتجلد ويتشجع للقيام بما سيؤمر به. هو تصوير كما يقول ابن عطية نقلا عن أبي علي بمعنى شمر في أمرك ودع الرهب. وقريب منه ما رجحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطيران، أو عن الدفاع، فإنه يضم جناحه إليه. بمعنى أبعد عنك الخوف وشد عزمك في القيام بأمر الرسالة.

وختمت الآية باستحضار المعجزتين العظيمتين، فأشار إليهما مستحضرا بقوله: فذانك برهانان، حجتان قاطعتان لا جدال فيهما، بهما أيدتك، لتقرع فرعون وكبار رجاله. إنهم قوم تأصل الكفر فيهم، وخرجوا عن المعقول والحق إلى الهوى والباطل.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ

ردءا : ردء وردى العون.

سلطانا : مهابة.

لا يصلون إليكما : لا يمكنون من إذايتكما.

بيان المعنى الإجمالي :

غمر الرضا والأنس قلب موسى عليه السلام، فعبر عن مخاوفه وسأل ربه وهو في مقام القرب. هو يخشى أن يقتله فرعون قصاصا قبل أن يبلغ الرسالة. أجابه سبحانه

بأنه سيجعل لهما مهابة وقوة تبهر فرعون وملأه، فلا تحدثهم نفوسهم بالإذاية. وعرف من نفسه أن قواه الفكرية تقصر عن فصاحة لسانه، فسأل ربه أن يقويه بأخيه هارون فيحمله الرسالة معه. وأجاب سؤله فكان هارون بمثابة الوزير لموسى يفصح عما يريد أن يقوله موسى. ثم وعده النصر فسينهزم أعداؤه ويفوز عليهم .

بيان المعنى العام .

33-34 قال رب إني قتلت...أخاف أن يكذبون.

أحس موسى بشرف المهمة وبثقلها في آن واحد. وهو يريد أن ينجح في القيام بها، وحصر في ذهنه أن أول مشكلة تعترضه، وقد تحول بينه وبين نجاحه في أداء المهمة، أنه مطلوب لفرعون لينفذ فيه القتل قصاصا من القبطي. والمشكلة الثانية أنه ذكي الفؤاد غير فصيح اللسان، إنه يخشى أن يقصر في إقامة الحجة على ما كلف به، أو أن لا يفصح بما يقطع جدل المجادلين. وهو مطمئن إلى أن أخاه هارون جامع بين الصلاح والفصاحة. فسأل ربه في هذا الموقف أن يؤيده بأخيه هارون ليتحمل معه عبء تبليغ الرسالة. فيحسن مجادلة الملأ الذين خبر موسى قدراتهم لما كان معهم في قصر فرعون.

35 قال سنشد عضدك...ومن اتبعكما الغالبون.

أجاب الله سؤله فيما طلبه منه، ونفله.

أجابه عن السؤال الثاني : بأنه قرر أن يؤيده بأخيه هارون ليكون قوة له، كما يشد الإنسان على عضده عند العمل ليقوى على المواصلة.

وأجابه عن سؤاله الأول بقوله : (ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما) ونجعل لكما مهابة في النفوس، وقوة في عيون أعدائكما، فيضعفون عن إذايتكما، لأن آياتنا التي أيدناكما بها ستبهرهم . وبهذا تكون هذه الحصانة آية أخرى داخلة تحت قوله: بآياتنا .

ونفله بقوله: (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) وهو وعد يضاعف ثقتهما في أن قوة أعدائهما ستنهزم أمام ما معهما من التأييد. وأن خاتمة أمرهما النصر المحقق.

وفيما سبق عرضه تأييد لرسول الله ﷺ بأن شأنه كشأن الرسل من قبله. فالرسالة فيض إلهي يفيضه الله في الوقت وفي المكان الذي يختاره. الوادي بجانب جبل الطور والغار بجبل حراء .نزل عليه الوحي فخاف كما خاف موسى . ثبت الله قلبه بعد ذلك كما ثبت موسى. أمره إلى الظهور والنصر كما تم لموسى.

فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن

تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المفترى: المكذوب.

عاقبة الدار: خاتمة الخير بعد المشقة.

الطين: الآجر.

الصرح: القصر المرتفع.

أطلع: أتكلف الرقي إلى الأعلى.

نبذناهم: طرحناهم كما تطرح النواة.

بيان المعنى الإجمالي:

توجه موسى إلى فرعون وقومه داعيا لهم أولا إلى الإيمان بالله وحده، وقدم لهم المعجزة تلو المعجزة، وكلما دمغهم بمعجزة كان ردهم ما هذا إلا سحر. وما تدعو إليه من التوحيد أمر مختلق لا أصل له لأن اباءنا ما سمعنا عنهم بشيء مثل هذا. وكان رد موسى دائما إنكم تستندون إلى أوهام وحجج باطلة، والله وحده هو الذي يعلم من هو على هدى منه، ومن هو مغرق في الضلال، ومن يفوز في الدار الآخرة. والظالمون بشركهم وتعديهم على حقوق الناس مآلهم الخسران ولا يفلحون أبدا.

خطب فرعون في أعوانه وكبراء قومه معلنا لهم: أنه نظر فيما يدعو إليه موسى، وأنه ما علم بوجود إله غيره. والتفت إلى وزيره هامان فطلب منه أن يوقد مطابخ الطين لصنع الآجر حتى يبنوا له قصرا عاليا يصل به إلى السماء أين يوجد إله موسى. وإني أظن أنه كاذب فيما يدعيه. فإني أؤكد لكم سلفا أنه غير موجود في السماء. وانتفخ مع جنوده كبرا، وظنوا أنهم في منعة لا يعودون لحكم الله ولا يبعثون. ويظهرهم القرآن في صورة من الهوان والضعف كقبضة من حصى أخذها القدر فرمى بها في اليمّ ولم يبق لها أثر. انظر واعتبر كيف كان مآل المكذبين بالحق الرافضين لدعوة الرسل.

بيان المعنى العام:

36. فلما جاءهم موسى...في آبائنا الأولين.

طوى القرآن الأحداث بين تكليفه بالرسالة وقدومه على فرعون، فيأتي هذا المقطع كاشفا عن مشهد موسى عليه السلام بحضرة فرعون، وهي في الحقيقة مشاهد متتابعة، في كل مشهد يقدم موسى معجزة من المعجزات التي تأيد بها من انقلاب العصا إلى الضفادع والدم، وكان جوابهم في كل مرة جوابا معبرا عن تصلبهم في العناد، يقولون: ما هذه الآيات التي أتيت بها إلا ضرب من السحر وما الرسالة الداعية للتوحيد إلا أمر مكذوب. وحجتهم: ما سمعنا من آبائنا ولا من أسلافنا أنه قد جاءهم مثل ما تدعونا إليه.

37. وقال موسى ...إنه لا يفلح الظالمون.

يبدو من هذه الآية قوة استناد موسى إلى ربه، ردوا عليه بما لا يقبله منطق ولا يعتمد على معقول مما يظهر ضعف تفكيرهم. قال لهم موسى مرجعا الأمر إلى ربه: إن الذي يعلم ما هو حقيق بالاتباع المبلغ للهداية، وما حقه الرفض لكونه مفضيا للضلال والضياع، هو ربي، وهو الذي يعلم من تتحقق له العاقبة الطيبة، ومن يكون خاسرا في المآل، وهو الذي ضبط المعيار: فكل ظالم ماله الخسران، وهو مآلكم تبعا لظلمكم بالكفر والفساد.

38. وقال فرعون يا أيها الملأ...لأظنه من الكاذبين.

تتحدث الآية عن مشهد يدل على أن دعوة موسى زعزعتهم، وأنه كلما حصل اتصال بينهم وبينه عقدوا المجالس للنظر في الطريقة التي يردون عليه بها.

قال فرعون مستكبرا، وقد خشي أن تكون دعوة موسى ربما أخذت طريقها إلى الضمائر، فخاطب حاشيته وكبراء قومه قائلا: يا أيها الملأ! نظرت وقلبت الرأي، فما وجدت لكم إلها حقيقيا غيري. وحسبما أقره في عقول قومه، أنه لا يخطئ، شأنه شأن المستكبرين في الأرض يعتقدون في نفوسهم العصمة. وقاده قصور تفكيره: أن الإله الذي دعا إليه موسى مكانه في السماء، وأنه ليس بينه وبين إبطال دعوة موسى إلا أن يصعد إلى السماء باحثا عنه، وهو غير موجود فيكون كذب موسى ثابتا لا محالة. ولتحقيق هذا التصور الساذج، أمر وزيره أن يجمع العملة، وأفران طبخ الطين آجرا، وأن يوقد عليها النار ليطبخها، ثم يبني له بها قصرا عاليا يبلغ عنان السماء فيصعد إلى أعلاه للتحقق الفعلي من عدم وجود الرب الذي يدعو إليه موسى. لفعل هذا وإني لأظنه من الكاذبين. يقدم للنتيجة قبل حصولها لكيلا يكون قومه في لحظة من اللحظات متعلقين بما أثبته موسى.

39. واستكبر هو وجنوده...أنهم إلينا لا يرجعون.

أخذ القرآن يحلل نفسية فرعون التي كانت سبب ضلاله. كان فرعون قد استولى عليه التكبر كأعتى ما يكون، وسرى هذا الاستكبار إلى جنوده إذ كانوا أعظم جند في ذلك الزمان. واستكبارهم هذا لا وجه له ولا مستند. هو انتفاخ كاذب، وكل استكبار لا يكون إلا بدون حق . وقادهم هذا الاستكبار إلى زيغ عقيدتهم فظنوا أن لا بعث بعد الموت، وأنهم لا يرجعون إلى الله الذي خلقهم أول مرة لكفرهم بوجوده.

40. فأخذناه وجنوده...كيف كان عاقبة الظالمين.

صورت الآية ضعف فرعون وجنوده، وحقارتهم. هم كحفنة من حصى يلقيها جامعها في اليم فلا يبقى لها أي أثر. وقابل بين صورة الاستكبار الفرعوني، وظنهم أنهم أقوى من أن يقعوا في قبضة الله، وبين صورتهم وقد أخذوا كقبضة من حصى ألقي بها في اليم مهينة لا قيمة لها.

ما جرى هو محل للاعتبار، فانظر متأملا الحالة التي كانت عليها عاقبة الظالمين بشركهم المتجاوزين لموازين العدل التي أنزلها على لسان رسله. وسيكون مآل قريش الظالمين المستكبرين على وزان مآل فرعون وجنده.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإمام: المقتدى به في خير أو شر.

المقبوحين: المشتومين.

القرون: جمع قرن والمراد به الأمة.

بصائر: أدلة كاشفة عن الحق.

تطاول العمر: تطاول امد انقطاع الوحي.

ثاويا: مقيما.

بيان المعنى الاجمالي:

تصلبوا في الكفر فجزاهم أن جعلهم أئمة متبوعين يقودون أتباعهم الى النار، ولا يجدون نصيرا يوم القيامة. تلحقهم بعد إغراقهم في البحر الأحمر اللعنة ممن يذكرهم، ويوم القيامة يضاف إلى عذابهم الشتائم.

بكل تأكيد قربت موسى ومكنته من الكتاب، الذي انزلته عليه بعد ان اهلكنا الأمم الكافرة الغابرة في الزمن الماضي. وهذا الكتاب يفتح بصائر الناس بما تضمنه من هداية وآيات بينات، هي هادية لهم ورحمة.

عرفت أخبار موسى وهو يتلقى اول وحي منا بالجانب الغربي من الطور، مع انك لم تكن من الحاضرين في ذلك المشهد. ولكننا قدرنا ان نمسك الوحي عن امم كثيرة بينك وبين عيسى، فتطاول زمن فترة الوحي على قومك، وجعلوا من هذا الطول طعنا في نبوتك. وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم أياتنا بناء على ما سمعته وشاهدته، ولكنا كنا مرسلين لك فعلمناك من أمرهم ما لم تكن تعلم. وكذلك لم تكن حاضرا بالجانب الغربي من الطور في الوقت الذي نادينا فيه موسى وتلقى منا الألواح. ولكن علمته رحمة منا بك ليكون ذلك لك حجة على صدقك، فتنذر قوما لم يأتهم نذير قبلك يوقظهم. إن ما أكملناه بواسطتك ليحصل لهم الرجاء في ان يكونوا على ذكر مما أنزلناه عليهم بواسطتك

بيان المعنى العام:

41-وجعلناهم أئمة...لا ينصرون.

إنهم بتصلبهم في الكفر والفساد، وإعراضهم عن هداية موسى إعراض من أصم سمعه، وأعمى بصره، قد كونوا في بصائرهم حجابا يحول بينهم وبين التأثر بالحق، وجاوزوا ذلك إلى مستوى اصبحوا فيه يؤثرون في غيرهم تأثيرا جعلهم يتبعونهم به في كفرهم وفسادهم، وأصبحوا قادة للعمل الموصل إلى النار. وأكدت الآية سوء عاقبتهم بأنهم يوم القيامة لا يجدون نصيرا يدفع عنهم عذاب النار. يوم لا يغني أحد عن أحد شيئا.

42- وأتبعناهم في هذه الدنيا ...من المقبوحين.

أهلكوا في اليم مهانين، وانقطع ما بنوه من أمجاد، ولم يبق لهم ذكر إلا ذكر مقرون باللعنة المتواصلة من المؤمنين. وكما لحقهم في الحياة الدنيا اللعن والدعاء

بإبعادهم شأن الأشياء القذرة، هم يوم القيامة من المقبوحين، تتوالى عليهم الشتائم إمعانا في اهانتهم بمقدار ما تطاولوا على الله وعلى عباد الله، واستكبروا وظلموا.

43-ولقد اتينا موسى الكتاب...لعلهم يتذكرون.

سنة الله في هداية الخلق سنة واحدة، هي سنة العالم بما خلق. فكما أرسل موسى إلى بني إسرائيل بعد فترة من الرسل، ومرور أزمنة عم فيها الجهل بشريعة الله وفشا الإلحاد، فكذلك أرسل الله محمدا بعد فترة من الرسل. إن الله أعطى موسى الكتاب، التوراة، بعد ما أهلك القرون السابقة لعهده، كقوم نوح وعاد وثمود، بسبب تكذيبها للرسل. ونوه بالتوراة فوصفها بقوله "بصائر" جمع بصيرة، فكما تنكشف المحسوسات بالبصر فتتجلى، فإن التوراة كذلك تتجلى بها الحقائق للعقل، وجمعها لتنوع أدلتها. والناس مراد بهم بنو إسرائيل والقبط، وكذلك من تهود وأخذ بتعاليم التوراة. وإذا انكشفت الحقيقة للبصيرة تبعتها الهداية فكانت التوراة هدى، وكذلك رحمة للقلوب والمشاعر بما يحل فيها من الرضا . انه يحصل لهم بذلك الرجاء في أن يكون ما جاء فيها حاضرا في القلوب والسلوك. وفي هذا تنظير بما أوتيه محمد ع ، فإن ما أوتيه سيفتح بصائرهم، ويسمو بهم فيجدون في القرآن كل هداية، ورحمة، ويوقظهم ليكونوا قوما على ذكر من الخير الذي أنزل إليهم.

44-وما كنت بجانب...وما كنت من الشاهدين

تصريح بما هو مضمن في الآيات السابقة، إن ما تقصه من خبر موسى وهو يتلقى الوحي من ربه مكانا وزمانا بدقة وضبط، هو دليل دامغ لعناد مشركي مكة ،فحديثك عن موسى بهذه الدقة مع أنك لم تكن حاضرا في الجانب الغربي من الطور، وما كنت من الذين أشهدهم موسى على التوراة ليحفظوها، يدمغ المشركين الذين يشككون في صدقك .

45-ولكنا أنشأنا...ولكنا كنا مرسلين.

تمسك المشركون بأن القرون تتابعت، ولم يحمل الله وحيه أحدا من الرسل، فرد الله عليهم بأن الله أنشأ بعد الوحي إلى موسى أمما تتابعت واختلط الوحي السابق بما أضيف إليه من البشر الحاملين له، وانقطع المدد، فأحس قومك الذين بعثت إليهم أنه تطاول أمد انقطاع الوحي، فمن لطفنا أنا أرسلناك إليهم لتقيمهم على العقيدة الصادقة، والشريعة الصالحة.

ومن ناحية أخرى فإنك عندما تقص على قومك أخبار موسى في مدين، مع أنك لم تكن مقيما بها، هذه الأخبار التي هي آياتنا على صدقك، بعلمك ما لم تكن تعلمه، لفقد أسباب العلم وهو المشاهدة بالاقامة، ولم تكن مقيما، ولكنك مستند إلي. إنا كنا مرسلين لك منزلين عليك الوحي الذي علمك ما لم تكن تعلم.

46. وماكنت بجانب الغربي...لعلهم يتذكرون.

هو مقام اخر أكرم الله فيه موسى، عند الطور في الجانب الغربي منه . وقد أكرم الله موسى مرتين في هذا المكان عند الطور :إحداهما عند عودته من مدين، وثانيتهما عندما تلقى الألواح عقب مناجاته. وهو ما فصل في سورة الأعراف. يمتنّ الله على نبيه بما عرفه من أحوال موسى. وما كان لك أن تحصل على هذه المعرفة الدقيقة لما طواه الزمن البعيد، والحال أنك لم تكن حاضرا بجانب الطور تشهد ما حدث. ولكن رحمناك رحمة من ربك، لتنذر بفضلها قوما لم يتوجه لهم اي نذير من قبلك يبين لهم العقيدة الصحيحة والسلوك الصالح، ويكشف لهم عن سوء المصير إذا هم لم يلتزموا طريق الهدى. رجاء أن تستيقظ عقولهم وأرواحهم فيدركوا ما هم عليه من الفساد العقدي والاجتماعي فيقلعوا ويسيروا في طريق الرشد.

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

مصيبة : عذاب في الدنيا على كفرهم.

الحق: هو ما في القران من الهدى.

بيان المعنى الإجمالي:

إن تجديدنا لبعثة الرسل تقطع عليهم الحجة إذا أصابهم عذاب في الدنيا بسبب ما ارتكبوا من موبقات، أن يقولوا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يوقظنا من غفلتنا، فنخرج من صف المشركين إلى صف المؤمنين.

ومن لجاجهم أنهم لما جاءهم محمد الرسول الحق والقران الكتاب الحق، نازعوا وقالوا هلا تأيد بمثل ما تأيد به موسى من قبل كانقلاب العصا حية وبياض اليد

وإنزال الكتاب جملة واحدة. إن ما قدموه لا يعدو أن يكون جدالا بعيدا عن الحق. لأن موسى لما أتى بهذه الآيات لم يذعن المرسل إليهم بها، فما جاء به كفروا به. وقالوا عن موسى وأخيه بأنهما تعاونا على السحر. وقال المشركون من قبل: إنهم يرفضون أن يبعث الله رسلا من البشر.

قل لهم يا محمد قولا يقطع لجاجهم: ائتوني بكتاب يهدي البشرية أفضل من التوراة والقرآن إن كنتم صادقين في محاجتكم، فإن جئتموني به فأنا أتبعه، وهو فرض محال لإظهار عجزهم.

إنهم لا يأتون به قطعا. وبذلك فاعلم وكن واثقا أنهم مقودون بأهوائهم لا بعقولهم ولا بالحقائق الثابتة. وإنك لا تجد أشد ضلالا وأقبح فعالا من الذين أسلموا قيادهم لهواهم معرضين عن هداية الله. إن الله بحكمته وعدله لا يحيط بألطافه القوم الذين ظلموا بالشرك في عقيدتهم وبالتعدي في علاقاتهم الحياتية.

بيان المعنى العام:

47.ولولا أن تصيبهم...وتكون من المؤمنين.

لولا إصابتهم بمصيبة بسبب ما انحرفوا عن العقيدة الحق وبما اقترفوا من ظلم ومن معاص، يجأرون إثرها بقولهم: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا ويرفع حجاب الجهل عن أعيننا، فنؤمن به ونتبع ما دلت عليه آياتك، لولا ذلك ما جددنا بعثة الرسل ولعاجلناهم بالعقوبة. فإرسال الرسل إزاحة لكل عذر يصدر منهم وليدركوا أن ما حل بهم من عذابنا هو العدل.

48. فلما جاءهم الحق من عندنا...وقالوا إنا بكل كافرون.

إن كانوا يعتذرون بعدم بعثة رسول إليهم، فها هو قد جاءهم الرسول الحق المؤيد بالقرآن الذي هو كله حق. لاشك أنه من عندنا لما تأكد فيه من الإعجاز بالتحدي؛ رفضوا اتباعه وقدموا اقتراحا يبرر رفضهم، وقالوا لولا تأيد بما تأيد به موسى، كانقلاب العصا حية وبياض اليد من غير سوء. هل إن آيات موسى التي اقترحوا أن يصحبها محمد توجب الإذعان لها إيجابا لا يتصور معه نكرانها ؟ لقد كذبوا موسى وقالوا: هو وأخوه ساحران تعاونا على ما قدماه، وما أتيا به ليس حقيقة وإنما من تخييل السحرة المهرة . كما أنه سبق من المشركين أن صرحوا برفضهم للرسالات جميعا. فقد قالوا:(ما أنزل الله على بشر من

شيء)[1] وبهذا يظهر انهم ليسوا طلاب معرفة ولكنهم قوم خصمون كما قال الله فيهم : (ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)[2].

49.قل فأتوا بكتاب...إن كنتم صادقين.

تنوعت طرق التأثير القرآني في الناس، بالبيان، وإقامة الحجة، وسرد ما تم في الوجود المعبر عنه بالقصص القرآني، والإلزام بما يسقط للمعاندين كل متمسك. ومنه هذه الآية؛ يأمر الله نبيه أن يتحدى المشركين الذين كفروا بمحمد وبموسى وبما تأيدا به: القرآن، والتوراة. فيلقن نبيه أن يقول لهم: ابذلوا كل طاقاتكم، واجمعوا أمركم، وائتوني بكتاب جامع للهداية في العقيدة وفي العمل أفضل منهما، فإن أتيتم به فأنا أتبعكم، وهذا من تعليق الكلام على ما هو ممتنع؛ ولكن المقصود منه إظهار عجزهم .

50.فإن لم يستجيبوا لك...إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

إن ظهر عجزهم عن الإتيان بكتاب هو أبلغ هداية من التوراة والقرآن، وهو ما سيحصل فعلا لا محالة، فاعلم أن المشركين ليس لهم منهج فكري، ولا يتمسكون بأي دليل منطقي، وغاية ما يعتمدون عليه وينطلقون منه شهواتهم وأهواؤهم. وكفى بذلك ضلالا.

إنهم أشد الناس ضلالا وضياعا وبعدا عن الحق. انك لو نظرت في الضالين، فإنك لا تجد أشد ضلالا، وأبعد عن طريق الحق والرشد، ممن جعل القائد الذي يقوده في حياته هواه وشهواته منفصلا عن هدى الله الذي أرشد إليه عن طريق أنبيائه، فعطل عقله وضميره. وقاده اختياره هذا إلى الظلم في العقيدة بالشرك وإلى الظلم في المعاملة لتغلب دواعي شهواته على الإنصاف. إنهم بتصلبهم في اتباع الهوى لا يمكنهم الله من ألطافه ولا يمن عليهم بالهداية.

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

---

[1] سورة الانعام اية 91

[2] سورة يونس اية97

بيان معاني الألفاظ

القول : القرآن.

يدرءون : يدفعون.

اللغو : الكلام الباطل.

لا نبتغي الجاهلين : لا نريد أن نكون في زمرة الجاهلين.

بيان المعنى الاجمالي

تابعنا إنزال القرآن عليهم بمتنوع هداياته، من عقيدة، ومن الأعمال الصالحة، ومن الحكمة، ومن القصص، عسى أن يحصل في مداركهم ما يوجب التذكر لتلكم الهدايات والعمل بها.

ثم ذكر القرآن بالذين أوتوا الكتب السابقة للقرآن، من اليهود والنصارى، الذين أقبلوا على تصديقك وآمنوا بكتابك وأخذوا بهداه، تسمع قولهم عندما نتلوه عليهم: آمنا بما سمعنا، إنه الحق النازل من عند ربنا، وبيننا وبين ما جاء فيه صلة قديمة فإنا نشأنا على إسلام الوجه لله الذي جاء به القرآن مؤكدا. ثم نوه من نواح سبعة 1) كتب الله ثواب إيمانهم بنبيهم قبل مجيء الإسلام كما كتب لهم ثواب دخولهم في دينك فتضاعف أجرهم.

2) أنهم ترفعوا عن اللجاج والخصام.

3) يدفعون ما يؤذيهم بالإحسان في القول والعمل فيشفوا أنفسهم من الغضب ويعطون درسا عمليا للآخرين.

4) أن مواساة إخوانهم أصبحت خلقا لهم فهم ينفقون عن حب من الأموال التي يشعرون أنها رزق الله.

5) أنهم إذا مروا بمجالس اللغو أعرضوا عنها وعما يجري فيها.

6) يذكرون أنفسهم والآخرين: إنا مجزيون بأعمالنا، وأنتم مجزيون بأعمالكم نحن نتارككم ولا نندمج فيكم، تبعا لما انقدح في نفوسنا .

7) إننا لا نريد أن نكون مع الجاهلين.

ثم نفى عن رسوله ﷺ بأن كرم نفسه الذي جعله يحب نشر الإيمان نشرا يهتدي به كل البشر ليس ذلك له، فإن الهداية بيد الله يحيط من يشاء بألطافه فيقبل على الإيمان، ويمنع تلك الألطاف عمن يشاء ؛ لأنه سبحانه أعلم بمن يهتدي بألطافه ومن هو مصمم على رفضها، لا ينتفع بها.

بيان للمعنى العام

51وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

بكل تأكيد كما يشهد به الواقع قد بلغهم القرآن باجتهاد محمد نصا وبيانا. وصلنا لهم : أي إن القرآن كلام الله النفسي ما كان لأحد أن يطلع عليه، فلما أراد إظهاره،

وصله محمد توصيلا متتابعا، لا ينفصل التشريع فيه عن العقيدة ولا عن القصص الملهم للعبر، ووصل الترغيب فيه والبشارة بالترهيب والإنذار، فقرع به آذان المشركين، رجاء أن يتم به التذكر، ويخرجهم من الغفلة إلى اليقظة.

52- الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون

هذا القرآن يتطابق في العقيدة، وثوابت التشريع مع الكتب المنزلة من قبله، ولذلك تلقاه كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالقبول في مكة كورقة بن نوفل وصهيب، وفي المدينة ممن وفدوا على النبي ﷺ فأعلنوا إيمانهم، وممن كتموا إيمانهم حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ومن نصارى الحبشة.

53- وإذا يتلى... إنا كنا من قبله مسلمين

سجل القرآن هذه الصورة الوضيئة لأهل الكتاب الذين فرحوا إيمانهم بالقرآن عندما يتلوه عليهم النبي ﷺ، بقولهم:

أولا: آمنا بالقرآن. إعلان عام شامل، وعللوا ذلك بأنهم تيقنوا أنه حق بعيد كل البعد عن الباطل. وأنه منزل من عند ربهم الذي بشرهم بألطافه وببعثة الرسول الخاتم.

وثانيا: إنا لم نجد في القرآن غرابة، فإنا كنا من قبل إنزاله مسلمين وجوهنا لله، فلما سمعنا القرآن تمكن الإسلام في قلوبنا بصفة أوضح.

54-55: أولئك يؤتون أجرهم... لا نبتغي الجاهلين

نوه القرآن بأهل الكتاب الذين أعلنوا إيمانهم وعللوه بما ذكر في الآية السابقة، وفصل التنويه بهم في سبع خصال:

1) أنهم فازوا بمضاعفة الأجر: أجر لتعلقهم بدينهم قبل ظهور الإسلام، وأجر لتمسكهم بالقرآن، ودخولهم في الإسلام.

2) أنهم من الذين قويت عزائمهم فثبتوا على الحق، وصبروا على إذاية قريش، وإذاية قومهم، وقد حفظت كتب السيرة أنواعا من التعديات على أموالهم وعلى أجسامهم فما ضعفوا وما استكانوا. تحدوا في شمم رإباية. وبصبرهم تكونت منهم مع إخوانهم الكتلة التي مكنت لظهور الإسلام، فهم من السابقين الأولين.

3) ترفعوا عن جلافة المشركين، واعتزوا بما عندهم، فقابلوا سيئات المشركين بنقيض ما صنعوا، وبذلك حصنوا أنفسهم من أن تتزعزع بالإذاية، وقدموا مثلا حيا من الحلم في المعاملة.

4) اندمجوا في المجتمع اندماجا، كان من آثاره أنهم قلعوا داء الشح من نفوسهم، وقوي توكلهم، فهم ينفقون أموالهم في مساعدة الجماعة الإسلامية التي كان عدد المحاويج فيها غير قليل تبعا لمقاطعة المشركين لهم.

5) نفذ التأديب الإسلامي إلى عقولهم ومشاعرهم، فهم يستنكفون من سماع اللغو الذي لا فائدة فيه من الكلام الذي يعاند الحكمة، ومن باب أولى لا يصدر منهم اللغو والعبث.

6)عبروا باللفظ عن متاركة المشركين، وعدم رضاهم بالاندماج معهم في اللغو، نبهوا إلى أنهم يصدرون في سلوكهم هذا تبعا لعقيدتهم أن الأعمال يتبعها جزاؤها؛ فنحن آملون في جزاء ما قدمناه، وبالمقابل فإنكم ستجزون عن أعمالكم، فلا لغو.

7)لا نريد مخالطة المجرمين الذين يصرفون أوقاتهم في التعدي على الأعراض وفيما لا يفيد. نحن نتطلب العلم ومكارم الأخلاق. وهي تعليل لانفصالهم عنهم . ويحتمل أن يكون هذا الكلام كان يدور في ضمائرهم دون أن يصرحوا به. وسجله القرآن عليهم إتماما للتنويه بهم، واستئناسا بقوله تعالى في الآية: ويدرؤون بالحسنة السيئة.

56إنك لا تهدي من أحببت وهو أعلم بالمهتدين

تكرر في القرآن ذكر ما يفيد أن النبي ﷺ كان حريصا أشد الحرص على إيمان البشر، وإنقاذ أنفسهم من الكفر، ومما يتبعه من غضب الله. وكان القرآن يسليه بطرق متنوعة، ومن ذلك ما دلت عليه هذه الآية. يقول الله لنبيه: لا تحزن ولا تتكدر لامتناع من امتنع من تصديقك والإيمان بما جئت به. إنك لا تبلغ هداية كل من أحببت هدايته من الناس. وخاصة شدة أساه ﷺ لما كرر الدعوة لعمه أبي طالب إلى آخر لحظة من حياته، وامتنع من النطق بالشهادتين. وبعض رجال التفسير يجعلون الآية واردة على هذا السبب، وإن كان مؤداها عاما شاملا. فإن الله وحده هو الذي يساعد من يشاء هدايته، فيحيطه بالألطاف في محيطه وفي أسرته، وفي فتح عقله ليتأمل ويتعظ ويتقصى عنه دواعي الشرك والإلحاد، فينساق للإيمان والعمل الصالح. وهو سبحانه أعلم بمن رزق تفتحا للخير وانتظاما في عقله ومواهبه.

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا

ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ

نتخطف : أصله أخذ الشيء بسرعة، أي يأسروننا.

نمكن لهم حرما : نيسر لهم حرما هم ثابتون فيه.

يجبى : يجلب.

كل شيء : كثير مما به صلاح حالهم، وقوام أمرهم من الثمرات.

بطرت : سفهت، وطغت، وكفرت بنعمة معيشتها.

أم القرى : القرية الكبيرة فيها، وهي مكة في جزيرة العرب.

المتاع: ما ينتفع به زمنا ثم يزول.

زينتها: يجملها.

بيان المعنى الإجمالي :

من تعلاتهم الواهية قولهم : إنا نخشى إن اتبعنا ما بلغتنا إياه من الهدى، أن تهجم علينا القبائل لإنكارنا آلهتهم، وعددنا قليل، وعدتنا لا تقاس بما عندهم، فنقع في أسرهم. رد عليهم القرآن بقوله : ما لهم لا يتأملون في الواقع ؟ لقد حميناهم بالحرم الآمن فوقر في نفوس العرب احترام ساكنيه، ويسرنا لهم الأرزاق تأتيهم مع أن أرضهم واد غير ذي زرع. ولكن قسوة الجهل جعلتهم لا يعلمون. لقد أهلكنا قرى عديدة كفرت بنعمة الله وتمردت، فأبدناهم إبادة ماحقة، فانقلبت مساكنهم إلى خراب دائم فلم يسكنها أحد بعدهم إلا بعض المسافرين يمرون بها على عجل. والأرض عندما يفنى سكانها جميعا كبارا وصغارا تعود إلى باريها، وينتهي استخلافه الإنسان فيها. إنه من عدل الله أنه لا يهلك قرية من القرى إلا بعد أن ينذر الناس في القرية الأم التي هي ملتقاهم، بواسطة رسول يبين لهم ويدعوهم إلى الإيمان. والسنة أنا لا نهلك القرى إلا بسبب ظلمهم. لقد اختل عندكم أيها المشركون سلم القيم. فكل نوع من أنواع متاع الحياة الدنيا لا يعدو أن يكون مؤقتا فانيا، وقيمته في جماله الظاهري. وإن ما أعده الله للمؤمنين خير من كل ما في الدنيا، وهو باق لا يلحقه الزوال. فأين عقولكم ؟

بيان المعنى العام:

57.وقالوا إن نتبع الهدى... ولكن أكثرهم لا يعلمون.

تتضمن الآية نوعا من التعلات التي يزعم فيها المشركون أنها تحول بينهم وبين الدخول في الإسلام. قالوا إن عددنا قليل وتجهيزاتنا الحربية تضعف عن رد المعتدين علينا الذين يتغلبون علينا ويأسروننا لو اتبعنا دينك، وأظهرنا انفصالنا عن الشرك الذي هو قدر مشترك جامع بيننا وبينهم.

بين القرآن زيف ما تعللوا به: ووجه لهم سؤال إنكار وتوبيخ : ألم ييسر لكم :أن كان الحرم الذي تأوون إليه وتمكنون فيه، قد أنزلنا الأمن فيه، وأحللنا مهابته في قلوب جميع القبائل العربية، وبذلك وقر فيها حرمته. ألم تنظروا إلى النعمة الأخرى التي تنعمون بها: أن حرمكم بواد غير ذي زرع، ومع ذلك يسّرنا أن يجلب إليه كثير من الثمرات والخيرات. إن ذلك كله هو رزق قدرناه ويسرنا عواطف الناس له. ولكن إنكارهم وما تعللوا به أمارة جهل بالحقائق من أكثرهم، وإن كان بعضهم يدركه، ولعلهم الذين سيدخلون في دين الله إثر تأملهم في ذلك.

58.وكم أهلكنا من قرية...وكنا نحن الوارثين.

هددت هذه الآية المشركين وخوفتهم من غضب الله، مبالغة في نفي تعلاتهم. فقرى كثيرة كانت قبلكم تكبرت وطغت فأنكرت نعم الله عليها، فعاقبناها عقابا كان من آثاره أن خربت مساكنهم خرابا أبديا. انقرضوا ولم يبق لهم عقب. ولا مسكنها إلا قليل من المسافرين عندما يمرون بها طلبا للكنّ. دام خرابها لتكون عبرة للمارين والمستمعين للحديث عنها. وانقطعت السكنى فيها نهائيا لأن الله قد اشتد غضبه عليهم، وحرم كل الناس من سكناها لشدة غضبه على أهلها. فليحذر المشركون غضب الله.

59.وما كان ربك مهلك...إلا وأهلها ظالمون.

بينت هذه الآية سنة الله في إهلاك القرى وإنزال العذاب بهم. فقال تعالى إن سنتنا الدائمة :أن لا نهلك القرى إلا بعد أن ننذرهم ببعثة رسولنا في القرية الكبرى من المجمعات، التي يأوي إليها سكان بقية القرى، ويبلغهم الحق بما يتلوه عليهم من آياتنا. ثم إنهم بعد سماعهم آياتنا وبيانها لهم يواصلون تصلبهم في الشرك الذي هو أعظم الظلم، والذي هو سبب الإهلاك. فالله عادل لا يظلم أحدا، ولكن الناس بإعراضهم عن الهدى يظلمون أنفسهم.

(٦٠) وما أوتيتم من شيء ... أفلا تعقلون

تعللوا بخوفهم من ذهاب ما هم فيه من أمن وما مكنهم من أرزاق تجبى لهم من الأماكن القريبة والبعيدة. فبين لهم أنهم مخطئون في سلم القيم، إنهم لا يقدرون الأشياء تقديرا ينظر إلى المآل البعيد، فجميع ما أوتوه لا يعدو أن يكون مما يُستمتَعُ به زمنا قليلا ثم يذهب، ولا يبقى منه شيء متواصل، وما هو إلا بهرج ظاهري وجمال وزينة. إن ما أعده الله للمؤمنين هو خير من كل متاع الدنيا ولا يقاس بها. وأخص مميزاته أنه نعيم دائم في ذاته وفي الإحساس به. ثم سألهم سؤال استفهام توبيخي أليست لكم عقول تنظرون بها فتقدرون الفرق الكبير بين الوقتيّ والدائم، والكامل والناقص؟ .

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

من المحضرين: مسوقون يجرون إلى العذاب.

التبرؤ: التنصل من التهمة.

الأنباء: جمع نبأ وهو الخبر عن أمر مهم.

عميت: خفيت من الحيرة.

التوبة: الإقلاع عن الشرك والندم عليه

بيان المعنى الإجمالي:

مقارنة بين الفائزين، والهالكين، أما الفريق الأول فقد وعدهم الله وعدا حسنا من الرضا وحسن الجزاء، فانشرحت له صدورهم واطمأنت به قلوبهم، وهم سيحصلون عليه قطعا. وأما الفريق الثاني فقد متّعهم في الحياة الدنيا بما قدر لهم، ولكنهم كفروا به، وسيكونون يوم

القيامة حاضرين لنيل العذاب ولا يجدون منه مهربا. ثم فصل القرآن أنواعا من العذاب النفسي والجسمي، يناديهم الجبار نداء التبكيت والتوبيخ:

أولا: أين شركائي المزيفين الذين زعمتم أن لهم القوة والقدرة على كشف الضر عنكم فعلقتم آمالكم بهم؟ تقدم زعماء الشرك لفهمهم أنهم المعنيون بالسؤال: ربنا إن هؤلاء الكفرة الذين أضللناهم، يتحمل مسؤولية ذلك الذين أضلونا نحن من قبل، فنحن لا نعدو أن نكون قد نقلنا لهم ما أضلنا به من قبلنا، وإنا نتبرأ لك منهم، فإنهم ما كانوا يعبدوننا.

ثم بكتهم ثانيا: إمعانا في التوبيخ والإذلال: استعينوا بشركائكم. فاستغاثوا ونادوهم ولكن لا مجيب. وانكشفت لهم منازلهم من العذاب. ولو كانوا يهتدون بإنذار الرسل ما كانت هذه عاقبتهم.

وثالثا: ذكرهم بموقفهم الحائر، يوم يناديهم فيقول لهم: ماذا أجبتم المرسلين الذين بعثتهم إليكم لإيقاظكم وإنذاركم؟ وتتضاعف الحيرة فيتعطل فكرهم وألسنتهم، ولا يجدون جوابا، تتملكهم الدهشة فلا يسأل أحد منهم غيره.

ويفتح القرآن لهم باب الفرج لينقذوا أنفسهم من الفضيحة والعذاب يوم القيامة. يعلمهم أنه هو التواب، وأنه لا يرد خائبا من آمن به وقرن العقيدة الحق بالعمل الصالح. فمن آمن وعمل صالحا يرجو رجاء مؤكدا أن يكون في زمرة الناجين الفائزين.

بيان المعنى العام

61.أفمن وعدناه وعدا ...من المحضرين .

مقارنة عامة بين المؤمنين والكافرين، تؤكد مضمون الآية السابقة. الفريق الأول من وعدهم ربهم وعدا يتضمن الخير والكمال والحسن، بما لا يلحقه أي نقص، ومؤكَّدٌ أنه سيناله وينعم به فهو مطمئن إلى التحصيل عليه . والفريق الثاني في الموازنة من متعتَّهُ متاع الحياة الدنيا الموصوف بأنه عاجل زائل، ثم يؤتى به يوم القيامة مسوقا مجرورا مهانا إلى العذاب الشقيم. فأي شبه بينهما؟

62.ويوم يناديهم...الذين كنتم تزعمون

ذكرهم باليوم الذي ينادي أئمة الكفر المشركين فيسألهم، أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم آلهة يستحقون العبادة، شركائي في ملكي؟ إنه لا وجود لهم.

63.قال الذين حق عليهم القول...ما كانوا إيانا يعبدون

يأتي الجواب من هؤلاء القادة المضلين، عرفوا أنهم هم المقصودون بالسؤال، والذين حق عليهم ووجب أن يقولوا ما يعرف بالجواب عن السؤال. فماهم قائلون؟

افتتحوا جوابهم بنسبة أنفسهم إلى الرب استعطافا وإقرارا بالحقيقة ربنا ثم أشاروا إلى الذين كانوا معهم في المحشر من العامة الذين اتبعوهم في الحياة الدنيا وأغروهم فيها بالتصلب في الشرك، فاعترفوا بأنهم أغووهم، هؤلاء الذين أغوينا.

ثم حاولوا التنصل من تبعات إغوائهم فأضافوا: إن إغواءهم للتابعين لهم من العامة إنما كان بسبب أن من تقدمنا أغوونا فنحن لقناهم ما استقر في أذهاننا من الغواية. ظنوا أن ذلك يرفع عنهم تبعة نشر الضلالة والمنع من الإيمان، وزادوا: تبرأ إليك وننتصل ونثبت براءاتنا من شركهم فما كانوا يعبدوننا، وما كنا شركاء.

64.وقيل ادعوا شركاءكم...لو أنهم كانوا يهتدون.

يواصل القرآن تفصيل مشاهد المشركين يوم القيامة رؤساء ومرؤوسين. يقال لهم والقائل هو الله أو من يكلفه بسؤالهم: ادعوا شركاءكم الذين كنتم تستنصرون بهم في الدنيا، اطلبوا منهم أن ينجدوكم اليوم. استغيثوا بهم كما كنتم تستغيثون. واستغاثوا بشركائهم في المحشر. وكانت النتيجة أنهم ما سمعوا منهم ردا ولا جوابا. وهو أمر طبعي جدا لأنه لا وجود لهم. وأحضر أمام أعينهم العذاب وتيقنوا أنه سينطبق عليهم. لو كانوا يهتدون في الدنيا بما أرسلنا إليهم من الرسل، وما مكناهم من قوة العقل التي تنفذ إلى الحوادث فتستخلص العاقبة لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي، ولكنهم ما كانوا يرغبون في الهداية؛ فحق عليهم اليأس في هذا الموقف.

65.ويوم يناديهم ...ما ذا أجبتم المرسلين.

هذا نداء آخر يجري فيه ما قلناه في سابقه قصد به التقريع، والتعذيب النفسي، محصله أن المشركين يسألون: ما كان جوابكم للرسول الذي بلغكم ما أنزل عليه من ربه وحذركم سوء عاقبة الإعراض، وبشركم بالرضا والجنة إن آمنتم واهتديتم؟

66.فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون.

وقعوا في حيرة من أمرهم، عجزوا عن الجواب، لم يجدوا تعلة كما قالوا قبل ذلك إنهم كانوا متأثرين بمن كانوا قبلهم" أغويناهم كما غوينا"، لم يجدوا جوابا معقولا ولم يهتدوا إلى أي جواب حتى ولوكان فيه مغالطة؛ لأن التبكيت كان حاصرا لهم. هم كالأعمى الذي اختلطت عليه السبل فما أبعده عن الاهتداء! واستووا في الحيرة، فلا يسأل أحد منهم غيره.

67.فأما من تاب ...من المفلحين.

هكذا شأن القرآن كلما زعزع المشركين وقتلهم، اتبع ذلك بفتح باب الفرج، فيحث على الإيمان والاستقامة . فأما من تاب فأقلع عن الشرك ورفضه رفضا قاطعا، وآمن بالله وما جاء به محمد ﷺ، وقرن الإيمان بالعمل الصالح كما بينه الكتاب والسنة، فإنه يرجو رجاء مؤكدا أن يكون في زمرة المفلحين الفائزين بحسن العاقبة.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخيرة: التخير.

بيان المعنى الإجمالي:

وربك يا محمد هو المتفرد بالخلق، خلق الكائنات كلها، وقدر من الطاقة ما أعان به بعضهم وحرم منه بعضهم فأوكلهم إلى نفوسهم. وهو وحده الذي يختار من يشاء لما يشاء تبعا لحكمته، فيسمو به إلى مقام تحمل أعباء الرسالة وهداية العالمين لمنهج ربهم. إنه لا دخل للبشر في اختيار ما يحدث في الوجود. إن اختيارهم وحبهم أو بغضهم لا يؤثر شيئا. تنزه ربنا عن تصورات المشركين، وتعالى عما ينسبه له المشركون الجاهلون بحقيقة الربوبية.

ومما يحقق ذلك أن الله وحده هو الذي يعلم ما تخفيه الصدور من خير أو شر، وإيمان أو كفر، كعلمه سبحانه بأعمالهم المعلنة الظاهرة وما يخفونه منها. ويحاسبهم على ذلك.

والحقيقة التي يجب أن تكون حاضرة في العقول والأفئدة أن الله واحد لا شريك له، كل ما يدعونه من دونه زيف وباطل. تفرد بالحكم للحق في الدنيا، فأحكام غيره سبحانه أحكام ظاهرية ينفذ الله منها ما يشاء، ويسألون عنها. ولما يوم القيامة فلا حكم إلا لله، فجميع الخلائق تعود إليه ليحاسبهم عما قدموا وبذلك يظهر تفرده بالحكم سبحانه.

بيان المعنى العام

68. وربك يخلق... وتعالى عما يشركون

افتتحت الآية بما يفهم منه مقام قرب النبي ﷺ من العناية الربانية، إذ خاطبه بقوله: وربك، تأنيس له ورفع لمقامه بإبراز الصلة الوثيقة بينه وبين رسوله، وأنه يتقلب في الحياة تحت رعاية ربه.

أعلمه بالحقيقة التي ترد على المشركين ما ادعوه باطلا، وتثبت أن الله متفرد بالخلق، يخلق ما تتعلق به إرادته من الذوات ومن المفاهيم. فهو الخالق لكل إنسان، وهو الخالق لما يصدر عنه. وخلقه الشامل يصدر عن اختياره سبحانه، الاختيار التابع من الحكمة البالغة. فالله يختار من بين البشر من يعهد إليه بإبلاغ رسالته

للناس، ويصطفي لهذا المقام السامي من يستطيع تحمل الوحي الثقيل، ومن زكت نفسه وطهر عمله حتى يكون تطبيقا حيا لما تضمنه الوحي. كان مما شغب به المشركون: لماذا لم يرسل الله من له مقام رفيع في المجتمع الجاهلي كالوليد بن المغيرة، واختار محمدا مع أنه لم يكن من أصحاب الثراء وصاحب القول النافذ في الدهماء ؟ فكان الرد على تصورهم هذا بقوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالته، وبهذه الآية "وربك يخلق ما يشاء ويختار"، فهو الذي خلقهم جميعا وهو الذي يختار من بين خلقه من هو أقوم بأداء مهمة الرسالة ويختاره وحده، وليس لأحد من خلقه القدرة ولا حق الاختيار حتى يرشح لشرف الرسالة من يختاره، هم معزولون عن الاختيار عزلا كاملا. تنزه سبحانه عما يقوله المشركون من تصورات يستحيل أن يتصف بها سبحانه .فإنه في سموه وكماله أرفع من تصورات المشركين الهابطة من التجسيم ومن نسبة ما لا يليق به كالولد والبنات، والشريك والشفيع من الأصنام، أو أن يرعى من كانت قيمته فيما ملكه إياه من متاع الدنيا وزخرفها.

69 وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

تأكيد لما تضمنته الآية السابقة، فهو الخالق وهو المتفرد بالاختيار. وهو سبحانه العليم بما انطوت عليه صدورهم من خير أو شر، ومن كفر أو إيمان. وبأفعالهم سواء ما بالغوا في التخفي به وما أعلنوه.

70 وهو الله لا إله إلا هو ...وإليه ترجعون.

تمثل الآية حاصل ما تقدم من إبطال للشرك، وتبكيت للفرق الضالة، وما أعلن من حقائق ونفي زيف المفترين، وتفرد الله بالخلق والاختيار، والعلم الشامل. فتعلن في وضوح أنه هو الله تفرد بالألوهية، ولا يشاركه فيها أحد. هو الحقيق وحده بالحمد والثناء في الدنيا، فما من نعمة إلا بفضله ومن رزقه. وهو وحده المختص أيضا بالحمد في الآخرة. يحمده كل لسان على عدله ورحمته، وعلى كمالاته التي تتكشف لجميع الخلائق في ذلك اليوم، فلا يجحدها الكافرون كما كانوا يجحدونها في الدنيا.
تفرد سبحانه بالحكم النافذ في الدنيا والأخرة، حكمه لا يرد ولا مثنوية فيه. وأما أحكام الناس في الدنيا فهم مسؤولون عنها. وإلى الله وحده المصير. تعودون إليه جميعا يوم القيامة. ولا يفلت واحد من الجزاء المقدر له يوم القيامة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

السرمد: الدائم الذي لا ينقطع.

ضياء: نور.

الابتغاء من فضله: العمل لتحصيل الرزق.

نزعنا: أخرجنا من كل جماعة.

هاتوا برهانكم: قدموا حجتكم ودليلكم.

ضل عنهم: غاب عنهم غيبة الشيء الضائع.

يفترون: من الكذب والباطل.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن هدم الشرك بالدليل وبالتناقض العقلي، عطف القرآن لإثبات تلك المفاهيم بمشاهد الكون. فسألهم سؤال توبيخ وإلزام: من الذي تعتقدون أنه يستطيع أن يخرجكم من ظلام الليل، لو قدر الله أن يكون الليل متواصلا إلى يوم القيامة لا يخترق ظلامه ضياء؟ إن لم تنتبهوا إلى هذه الظاهرة الدالة على تفرد الله بالتصرف فما لكم لا تسمعون لما يوقظكم به القرآن؟ وفي المقابل لو جعل الله النهار متواصلا لا يقطع نوره ظلام ما دامت الحياة الدنيا، أتعتقدون أنه يوجد إله غير الله يأتيكم بليل تجدون فيه راحتكم، ما لكم لا تبصرون هذه الظواهر التي تثبت لكم تفرد الله بالخلق والتدبير.

إن من رحمة الله الشاملة، هذا التدبير المحكم الذي جعل لكم به الليل لتسكنوا فيه وتجددوا قواكم بعد أن امتصها المجهود العملي في الحياة. وجعل لكم النهار لتسعوا فيه وتطلبوا تحصيل ما يتفضل الله به عليكم من رزق. وفي كليهما يرجى أن يبعثكم فضله على الشكر. نذكرهم يوم يناديهم نداء التوبيخ والتعجيز: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أن لهم حظا من الأمر؟ وهذا المشهد الذي يوجه فيه هذا السؤال

هو مشهد يحضر الله فيه شهيدا صادقا ينزعه من كل أمة لا يستطيعون مغالطته، ويقول الله لهم قدموا حجتكم على ما كنتم تعبدون. لا حجة لديهم، وتيقنوا أن الحق لله وحده، وضاع عليهم كل ما كانوا يفترونه من الكذب عن قدرات معبوداتهم.

بيان المعنى العام:

71-72، قل أرأيتم إن جعل.. أفلا تبصرون.

بعد أن أثار عقول البشر وحركها، وأثبت تفرده سبحانه في التصرف، بالحكمة في الدنيا والأخرة ليقروا بالوحدانية والبعث وصدق الرسول؛ لفت أنظارهم ليتأملوا في مشاهد الكون التي تمر متكررة على أسماعهم وأبصارهم، وأرتابتها غفلوا عن دلالاتها.

أيقظهم يا محمد بتوجيه سؤال لهم، وقل لهم: ما تعتقدون أنه سيحدث إذا واصل الله الليل يلفكم بظلامه بصفة دائمة إلى يوم القيامة، فلا ينقشع سواده ولو لحظة من عمر الدنيا. فهل يوجد إله غير الله قادر على أن يأتيكم بضوء يبدد الظلمة الدائمة؟ إذا بلغت بكم الغفلة فلم تتنبهوا إلى ما يجري عليكم متكررا كل يوم، وما يهدي إليه من دلائل على وجود الخالق وحكيم تصرفه، أفلا تحرككم الآيات القرانية التي تخترق أسماعكم منبهة؟

و بالمقابل ما تعتقدون أنه يحصل إذا جعل الله النهار مضيئا بدون انقطاع في كل لحظة من عمر الكون؟ فهل تتصورون أنه يمكن لإله غير الله أن تكون له القدرة والتأثير فيأتيكم بالليل الضروري لعيشكم. ما لكم لا تدركون حكمة تقلب الزمان المتتابع على أنظاركم بتعاقب الليل والنهار، كأنكم عمي؟

73 ومن رحمته جعل لكم الليل..ولعلكم تشكرون.

صرحت هذه الآية بما تضمنته الآيتان السابقتان. فأفصحت بأن ما ينفع الناس من تقلب الليل والنهار هو من رحمته التي شملت كل شيء، راعى سبحانه ما ييسر للناس حياتهم بذلكم النظام الذي أجرى عليه حركة الكواكب، وما يتولد عنها. راعى سبحانه حاجتكم فجعل الليل لتجدوا فيها راحة وسكونا، وجعل النهار لتنشطوا فيه وتعملوا راغبين أن يمدكم الله بما قدر لكم من أرزاق وييسرها لكم. وعسى كل ذلك أن لا يحجب عنكم شعوركم بفضل الله فتنطلق ألسنتكم بشكره.

74.ويوم يناديهم..كنتم تزعمون.

يتواصل يوم القيامة تقريع للمشركين كلما تحول المشهد، فيتجدد نداؤهم بصوت بين يسمعونه ترعد له فرائصهم، ويقال لهم أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أن لهم حظا مع الله في الكون؟

75 ونزعنا من كل أمة...وضل عنهم ما كانوا يفترون

صرحت الآية أن الله يخرج من كل أمة شهيدا يميز بينه وبين بقية الناس، ينزعه منهم يعرفهم ويعرفونه، يشهد عليهم شهادة صدق بما كانوا عليه في الدنيا. والظاهر أنه رسول كل أمة. ثم يخاطبون خطاب التعجيز والتقريع والإلجاء فيقال لهم: قدموا حجتكم ودليلكم على ألوهية ما كنتم تزعمونه من أصنامكم التي اتخذتموها شركاء لله .

هم لا يستطيعون التبرؤ من الشرك لأن الشهيد حاضر أمامهم ما غاب عنه شيء من مواقفهم، وما كانوا عليه من شرك، وهم يعلمون ذلك. ويوجه السؤال التعجيزي من رب العزة بقوله: قدموا دليلكم الذي كنتم تستندون إليه في إعراضكم عن الذكر والتعلق بالشركاء. وقد أحيط بهم فلا مفر ولا مخرج، ولا برهان ولا شبهة. وحصل لهم العلم اليقيني في ذلك اليوم بعد أن كابروا فيه طيلة حياتهم الدنيا. تيقنوا أن الحق لله، وكل ما نسب لغيره باطل. وضاع عنهم كل ما تمسكوا به في الدنيا من أوهام، فلم يجدوا حجة تنقذهم.

• إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ

يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ

بغى: اعتدى.

لتنوء: تثقل.

العصبة: الجماعة من الناس.

نصيبك: حظك.

القوة: ما يستعان به على إنجاز الأعمال الصعبة.

الجمع: الجماعة من الناس.

زينته: ما يتجمل به ويتباهى به من المراكب والثياب والأتباع.

ويل: صيغة تطلق للتعجل المشوب بالزجر.

الخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها.

الفئة: الجماعة الناصرة التي يعود إليها الطالب للنصرة.

البسط: السعة والكثرة.

يقدر: يقلل ويضيق.

بيان المعنى الإجمالي

عرض القرآن في قصة قارون نموذجا آخر من المستكبرين الضالين. هو نموذج الذين غرهم وفرة المال، وسعة الرزق. قارون رجل من قوم موسى خلصه من ظلم فرعون، وعظمت ثروته، ووسع الله عليه في الرزق، ولكنه اعتدى على قومه، واستخف بهم. اختزن من المال الشيء الكثير وشح به، وملأ به خزائن أحكم إقفالها. وقد تجمع له من مفاتيح تلكم الخزائن ما لا يستطيع حمله العصبة القوية، أي ما يقارب خمسة عشر رجلا. أعلن عن سعادته بما جمعه من أموال وازدرى كل شيء غير المال الذي ملك عليه حياته. نصحه فريق من قومه وقالوا له: يا قارون لا تجعل السعادة محصورة في المال فيستولي عليك الفرح به وتنسى كل ما أنت مطالب به من الكمالات. فإن الله يبغض الفرحين بالمال على هذه الصورة. يا قارون اجعل نصيبا مما آتاك الله ذخرا لك تجده يوم القيامة. ولا تحرم نفسك مما يخوله لك المال من متاع الحياة الدنيا. والتزم الإحسان في كل ما تقوم به في عباداتك وعلاقاتك الاجتماعية وفي صلتك بالكون. واحذر من التصرف الذي يترتب عليه فساد في الكون، إن الله يبغض المفسدين ويحرمهم رحمته.

انتفخت أوداجه لسماع هذا النصح، فأجابهم في صلف وكبرياء: ما حصلت لي الثروة التي جمعتها إلا بفضل مواهبي وقدراتي على تنمية الأموال.

ما أشد جهله: ألم يعلم أن الله قد سلط عقابه على من سبقه ممن كان أقدر منه، وأكثر أموالا؟ فلو لم يحطه الله بألطافه لضاع دیناره الأول بمجرد ما حصله. إن الله عندما تتعلق إرادته بعقاب المجرمين لا يوقفهم للسؤال عن جرائمهم، ولكن يعاجلهم بالعقوبة الماحقة.

تحدى الناصحين وخرج في موكب جمع من ضروب الزينة ما يلفت الأنظار. وتأثر بعض الذين كان حظهم من الإيمان ضعيفا وتعلقهم بالدنيا قويا، وقالوا مكبرين لقارون متمنين أن يبلغوا ما بلغه من الثراء. إن حظ قارون وتوفيقه في جمع المال لعظيم.

ويتحقق القضاء المبرم. فإذا قارون، ومن كان في موكبه، وداره، تنفتح الأرض فمها فتبتلع الجميع. وإذا هم أثر بعد عين. وتحول المعجبون بثرائه الذين كانوا يودون أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، إلى وضع من الندم شديد. استيقظوا من غفلتهم وقالوا : إنه لأمر عجيب

إن التصرف في الأرزاق هو بيد الله وحده، يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء. إن المهم أن يكون الإنسان في رعاية ربه ولطفه، فلولا أن الله لطف بنا ومن علينا فلم نتشوق لقارون لكنا معه في باطن الأرض . إنه لأمر عجيب يوجب الرضا بما قسم الله وأن الكافرين خاسرون في النهاية.

بيان المعنى العام.

76. إن قارون مكان...إن الله لا يحب الفرحين

عرضت السورة نموذجين من البشر الذين اغتروا بالقوة التي كانوا يتصرفون بها في الحياة. أما الأول فهو نموذج المتحكم بالسلطان الذي يستهين بحقوق البشر، ويخضعهم لطاعته، ويسلبهم الحرية والعزة. وعرضت السورة صورة لهذا في فرعون. وأما النموذج الثاني فهو الذي يطغى بما جمع من أموال، ويستهين بالقيمة البشرية للناس، ويختزل عنده سلم القيم في أمر واحد، هو المال. فالفقير لا قيمة له، والثراء مسوغ ومبرر لكل ما يريد. وعرضت السورة هذا النموذج في قارون. وقارون اسم أعجمي هو 'قورح' في التوراة

اعتنت الآية بعرض ملامح قارون من ثلاث نواح:

الناحية الأولى نسبه: أنه كان من قوم موسى، يجمعه بموسى نسب. فحسبما تذكره التوراة هو ابن عمه، وقيل هو عمه، وقيل ابن خالته. وهي فروض لا تستند لنص

يقيني. والحكمة في الوقوف في حدود ما ذكره القرآن: أنه من قومه نشأ في وسط بني إسرائيل، وأنقذه الله معهم من ظلم فرعون بقيادة موسى، وذلك مما يفرض أن يكون مخلصا لما جاء على لسان موسى ﷺ، متعاونا مع الجماعة التي قاست من استبداد فرعون ما قاست، ولكنه كان على نقيض ما يفرضه الوفاء .

الناحية الثانية نفسيته :استولى الكبر على قلبه ومشاعره، الأمر الذي سوغ له أن يظلم قومه، فاستخف بحقوق قومه، وسخر من ضعفائهم، وتجاوز ذلك إلى ضروب من الاعتداء توهن قومه، بعد الاضطهاد الفرعوني لبني إسرائيل، وإذلالهم حسبما فصلت السورة شيئا منه، فأعزهم الله بموسى. وعمل قارون بما أوتيه من مال على تكوين خلية مناوئة لموسى، شأن المال القذر في شراء الضمائر، وحبك الدسائس، وخرق الشريعة.

الناحية الثالثة ثراؤه: فتحت له أبواب الرزق، فنمت ثروته نماء كبيرا، وكان يكتنز ماله، ويشح به، ولا يجعل منه نصيبا للمحاويج، ومصالح الأمة. يدل لذلك تعبير القران عن ماله بكنوز" جمع كنز" المال المحفوظ المخزون. وجسمت الآية كثرته بأن الخزائن التي كان يحفظ فيها ماله، ويقفل عليه بمفاتيح؛ أن الجماعة القوية من الناس "العصبة" ما بين عشرة وخمسة عشر يثقل عليها حمل مفاتيح خزائنه، فما بالك بالمحتويات من الذهب والفضة والنفائس .

هذه الشخصية التائهة بمالها المعتدية بثرائها، المنعزلة عن الأمة بشحها، قد استولى عليها حب المال. فكان قارون يشعر بأنه جمع السعادة من أطرافها، هو مزهو بماله، كل القيم تافهة في نظره، بريق المال أخذ عليه فكره، وروحه، وعلاقاته الاجتماعية، هو أشد ما يكون الإنسان فرحا بوضعه لما يمكنه المال من تحقيق شهواته، والتحصيل على ملذاته.

تقدم إليه الصالحون من قومه بالنصح والإرشاد، لما أهمهم أمره، وخافوا عليه الهلاك من الانحراف الذي تمكن منه وأعماه عن المصير السيء الذي سينتهي إليه أمره ،قالوا :لا تفرح فرحا ينسيك ربك وواجباتك، وحقوق أمتك عليك، ، يحجب نفسك عن الكمالات، وينزل بك إلى حضيض الشهوة واللذة العاجلة. إن حصر همك في المال والإمكانات المتاحة منه وفرحك بذلك يعرضك إلى بغض الله لك. فإن الله لا يحب المفرطين في الفرح.

77. وابتغ فيما آتاك الله ...إن الله لا يحب المفسدين.

وصل الناهون عن المنكر الذي كان عليه قارون، وصلوا ذلك بأمره بالمعروف: اطلب فيما آتاك الله من أموال وثروة، ثواب الدار الآخرة. لا نقصد أن تتخلع عن

الاستمتاع بنصيبك المقدر لك من مباهج الحياة ونعيمها. ولكن اجمع بين التنعم بما آتاك الله من خيرات، والاستعداد ليوم القيامة.

هؤلاء الذين سجل القرآن موعظتهم لقارون هم يمثلون الصورة التي على الواعظين أن يأتسوا بها، فالجمع بين ما هو حلال يلائم الإنسان لتكون حياته الدنيا أرفق وأمتع، وبين ما يدخر ليوم القيامة من القربات. هو منهج الوسط والاعتدال الذي جاءت به الشرائع السماوية ويرضى الله عنه.

و أضافوا إلى موعظتهم التذكير بالقاعدة التي تسمو بالأعمال[الإحسان] الذي كتبه الله على كل شيء. أرشدوه كي يراعي في نشاطه الإحسان في العبادة وفي علاقاته بالناس، وفيما يقوم به من أعمال، وفي التزاماته. ليكون شاعرا أن عليه إنجاز ما ينجزه على أفضل ما يمكنه أن يجزه. وكما قرنوا في موعظتهم الأولى بين الدنيا والآخرة فكذلك ألحقوا بموعظتهم أن يحذر من الفساد في الأرض، باستحضاره أنه مستخلف فيها مسؤول عما يحدثه. وأكدوا نصحهم بقاعدة عامة: إن الله لا يحب المفسدين. ومن شأن المؤمن أن يحذر مما يبغضه الله، البغض الذي يترتب عليه الحرمان من الرحمة والتعرض للعقاب.

78.قال إنما أوتيته على علم. عن ذنوبهم المجرمون .

ازدادت شخصية قارون وضوحا من جوابه لواعظيه. بدا مغرورا كأشد ما يكون الغرور. مزدهيا بملكاته ونباهته في تصريف الأمور . قال لهم: إن ما جمعته من أموال، ما حصل لي ذلك إلا لأني أوتيت من الذكاء والفطنة، والعلم بطرق التنمية، ما فتح لي أبواب الثراء مشرعة .يرد قولهم "ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة".

يعلق القرآن على موقفه: لقد كشف جوابه عن جهله، وعجبٌ منه ذلك. أجهل ولم يعلم أن الله قد دمر تدميرا مهلكا فيما مضى من التاريخ من كان أشد قوة من قارون، في الفكر والتدبير، وفي المحيط المساعد بكثرة الأتباع والأشياع. ومن ذلك ما انتهى إليه أمر فرعون، رغم ما كان تحت سلطانه من ملك مصر بأرضها وأنهارها، والجيوش والأعوان التي كانت رهن إشارته. وكان قارون حاضرا لما ابتلعهم البحر في لحظة وأصبحوا أثرا بعد عين. وختمت الآية بتهديد كل المجرمين المتمردين على الحق .إن الله يسلط عليهم عقابه الماحق في لحظة، دون أن يوقفهم لسؤالهم عما اقترفوه.

ذكر القرآن في عديد الآيات أنه يسأل المذنبين والكافرين يوم القيامة، يوم يقفون بين يديه يسألهم عما قدموا في الحياة الدنيا، وذلك سؤال توبيخ وتعذيب نفسي وإهانة. وأنه سبحانه عندما تتعلق إرادته بإهلاك المجرمين واستئصالهم، فإنه يأخذهم بغتة ولا يسألهم.

79 فخرج على قومه...إنه لذو حظ عظيم.

بلغ به التحدي والزهو أنه أعقب ما سمعه من المواعظ، بما ذكر من رده المتعالي، وأضاف إليه أنه قام باستعراض أمام الناس جمع فيه ما يخلب الأنظار من ضروب أنواع الزينة، من اللباس الفاخر، والخيول المطهمة، والخدم والأتباع. وسار موكبه يسحق المحرومين المستضعفين ويعقدهم. وسجل القرآن أثر ذلك في نفوس المتعلقين بزخارف الحياة الدنيا، المتلهفين على النيل من مباهجها من ضعاف الإيمان. عظم في عيونهم جمال وبذخ الموكب القاروني، انبهروا فجمعوا بين تمني أن يبلغوا من الثراء ما بلغه قارون، لم يسألوا من أين حصل على هذا المال، ولا عن تصرفه فيه، وقالوا : إنه صاحب بخت إن ما قسم له من المال حظ عظيم.

80 وقال الذين أوتوا العلم...ولا يلقاها إلا الصابرون.

ويظهر في المشهد من الجانب الآخر في مقابلة هؤلاء الذين استهوتهم زينة الحياة الدنيا، من كانوا على حظ من العلم يكشف لهم الحقائق، ويسمو بهم عن الظواهر الخادعة. سمعوا تعليق المستضعفين على الموكب الذي كله تفاخر وكبر، فقالوا لهم: ويلكم تعجبا من إكبارهم لقارون وحظه، وزجرا لهم حتى يستفيقوا ولا ينخدعوا، اعلموا أن ثواب الله الذي أعده للمحافظين على شرعه الملتزمين بتطبيق ما بلغهم رسوله، الذين استقر الإيمان في قلوبهم وجرت أعمالهم على منهج الصلاح، هو خير لأنه دائم. ولأن رضا الله أجل ما تسعى إليه همم الناس. وما يفوز بذلك إلا الصابرون الذين يواصلون المسيرة بعزيمة ثابتة يتغلبون بهما على الشر، وعلى دواعي الشهوة.

81 فخسفنا به وبداره وما كان من المنتصرين.

إثر هذا الاستعراض الذي فتن المستضعفين، وتجلت به قوة أهل العلم ونفاذ بصيرتهم عوجل قارون بالعذاب، دون أن يوقف للسؤال .ففي لحظة تفتح الأرض بطنها فتبتلع قارون وأتباعه، وداره وأمواله. وختمت الآية مصرحة بالفراغ الذي أحاط بقارون في النهاية؛ إنه لم يجد أحدا من الذين كانوا يلوذون به، الذين أعدهم لينتصر بهم على موسى. فلم تنفعه شيعته، كما أن الهزيمة أطبقت عليه، وما كان من المنتصرين.

82 وأصبح الذين تمنوا مكانه...ويكأنه لا يفلح الكافرون

ابتلعت الأرض قارون وتوابعه، ويعرض النص القرآني مشهد الذين كانوا معجبين بثرائه المتمنين اللحاق به، وقد رأوا ساعتهم هوان قارون وعاقبته الخاسرة. ندموا

على فترة الضعف التي جعلتهم يتمنون لو كانوا على المستوى الذي عليه قارون. ثم عبر القرآن عما قالوه بلغتهم والذي مؤداه بالعربية: ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وكلمة "ويكأن" صيغة عربية غير شائع استعمالها. وردت في هذه الآية كما حفظت في بعض النصوص العربية.

ولعلماء اللغة في توضيح تركيبها ثلاث طرق:

الطريقة الأولى: طريقة سيبويه والخليل بن أحمد والزمخشري، أنها مركبة من كلمتين [وي] -[كأنه] وي- اسم فعل كلمة تنبه على الخطأ وتندم. شعر المأخوذون بزينة قارون وبما صرحوا به فتبين لهم خطؤهم وندموا. وكأن أداة تشبيه: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح. والتشبيه مستعمل بمعنى اليقين.

الطريقة الثانية : أنها مركبة من ثلاث كلمات[وي]:أعجب[ك] أداة خطاب، تنبه على من قصد المتكلم توجيه الكلام إليه، كالكاف اللاحقة بأسماء الإشارة- ذلك تلك أولئك. أن الموول ما بعدها بمصدر. أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء.

الطريقة الثالثة: أنها مركبة من أربع كلمات: [وي] وأصلها ويل حذفت اللام- [ك] كاف الخطاب، و فعل[أعلم] مقدر، و[أن] ويلك أعلم أن الله يبسط الرزق.

إنه وإن اختلفت التخريجات الثلاثة في التفصيل، فإن المعنى واحد أن المنبهرين بموكب قارون ندموا على ما جرى في نفوسهم، وانتبهوا إلى حكمة التصرفات الإلهية، مما يحتم الرضا بما قدره الله. فوراء الظواهر خفايا لا يعلمها إلا هو.

إن الله يجري بحكمته التي تفوق قدراتنا العقلية، أمر التوسعة في الأرزاق، أو التضييق فيها. والكل عبيده فلا تدل السعة على القرب والرضا، ولا يدل التضييق على الإقصاء والغضب. فعلى العبيد الرضا بما قسمه لهم. الذي يظهر بالصبر عند الضيق، وبالإنفاق الراشد مع التوسعة. وسؤال الله من فضله في جميع الأحوال. والمهم أن لا يترك الإنسان لنفسه، ويحرم ألطاف ربه. عبروا عن هذا بقولهم : لولا أن من الله علينا بألطافه فحفظنا من التشيع لقارون، لابتلعتنا الأرض معه .إنه لأمر عجب كيف ينتهي الكفر بأهله إلى الخسران المبين . فقارون جمع بكفره ومناوأته لموسى بين ضياع ماله وما ملك، وبين سوء العاقبة وغضب الله.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ

لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

بيان معاني الألفاظ :

الدار : محل السكنى.

الآخرة : التي لا دار بعدها فهي الدائمة.

لا يريدون : لا يفعلون.

العلو : التكبر.

العاقبة: النهاية الخيرة. وتطلق على يوم القيامة.

يلقى إليك الكتاب : يوحى إليك القرآن.

ظهيرا: معينا.

وجهه: ذاته العلية المنزهة عن كل تشبيه.

بيان المعنى الاجمالي :

ميز القرآن موطن استقرار المنعمين، تلك الدار الآخرة فأشار إليها كأنها حاضرة مشاهدة، رفيعة المستوى يفوق نعيمها كل تصور، وحدد المستحقين للخلود فيها بأنهم الذين طهروا أنفسهم من الكبر، وأفعالهم من الفساد. إن العاقبة الصالحة يوم القيامة يختص بها الذين تمكنت التقوى من قلوبهم.

يأتي الناس يوم القيامة معهم سجل أعمالهم، فمن كان معه سجل الحسنات، فإن الفضل الإلهي يوفر له أضعاف ما قدم، ومن جاء مصحوبا بالسيئات فعدل الله يجزيه على نحو ما قدم.

إن الله الذي أوجب عليك يا محمد تلاوة القرآن وتبليغه للناس وتبيينه وشرفك بذلك، سيبعثك يوم القيامة فتعود إليه لتتفرد بجزاء لا يعلم حدوده إلا الله. إن كل ما دعوت إليه هو الهدى بشهادة الله الذي تفرد بالعلم الصادق. وهو العالم أيضا بمن تمكن منه الضلال البين. الله هو الذي يختار من يحمّله الرسالة وليست بالتمني، فأنت يا محمد ما كنت منتظرا أن تتلقى الوحي وأن تنزل عليك آيات القرآن. ولكن

هي رحمة ربك باختيارك لهذه المهمة، وهي رحمة ربك فيما انزل عليك من الهدى المنقذ للناس من الحيرة والشك والضلال، وباختيارك لتبين لهم الحق والطريق المستقيم. ولذا فلا تكونن عونا للكافرين ولو بمصانعتهم أو السكوت عن ضلالاتهم. وتحصّن من مكرهم وما يروجونه، حتى لا يستطيعوا أن يحولوا بينك وبين ما أنزل عليك من العمل بآيات القرآن وتبليغه وتبيينه للناس. وواصل دعوة الناس إلى التوحيد الخالص، وواصل جهادك لمقاومة كل ظاهرة شرك، وتحصّن من مسار المشركين ولاتكن معهم لا في صغيرة ولا في كبيرة من عقائدهم وفعالهم.

ليكن أمرك واضحا يا محمد فلا تتقرب ولا تعبد ولا تتوسل ولا تدع إليها آخر غير الله، فإنه لا يوجد إله حق إلا هو وما عداه زيف وباطل. ذاته تفردت بالبقاء، وما عداه فان، هالك زائل. هو الذي تفرد بنفاذ أحكامه لا راد لحكمه ولا معقب. إنكم جميعا ستعودون يوم القيامة إليه، ليجزيكم عما كنتم تعملون بالقسط، مع واسع الرحمة للمتقين.

بيان المعنى العام:

83.تلك الدار الآخرة نجعلها... والعاقبة للمتقين.

بعد عرض الحالة المضطربة في قصة قارون، وماله، واستفاقة المأخوذين بمظاهر ترفه وزينته، ينتقل القرآن إلى عرض صورة الاستقرار والأمن والفوز. فيفتتح الآية باستحضار الصورة المتميزة الرفيعة: الدار الدائم نعيمها" تلك الدار" في مقابلة الدار التي ابتلعتها الأرض سريعا فهوت في القاع ما تركت أثرا. تلكم الدار قد هيأها الله وجعلها سكنا يقيم فيه الذين من صفاتهم، أنهم كانوا لا يتكبرون، ولا يفسدون في الأرض.

ينطلق داء الكبر من تصور خاطئ يظن معه المتكبر أنه على مرتبة عظيمة هو بها أعلى من غيره، إما بجاهه أو بماله أو بجماله، أو بعلمه وذكائه، ونحو ذلك من الأوهام التي تتفاعل في النفس فتحجب عن النظر النقائص وتضخم ما يظنه صاحبه كمالا، ثم يبرز ذلك التصور في الحياة ترفعا على الآخرين واحتقارا لمن يظن أنهم أدنى منه .جمع القرآن بين الدافع الداخلي، وبين الموقف العملي، فعبر عنهما معا بالإرادة. الذين لا يريدون في الأرض علوا، لا تتحدث بها نفوسهم لصفاء عقيدتهم، ولا يتصرفون تصرف المتكبرين.

والذين يستحضرون دوما أنهم مستخلفون في هذه الأرض، مسؤولون عن عمارتها وتطويرها إلى ما هو أحسن. ولا يتم عمران الكون إلا بالحفاظ على القيم التي بها يتم التعاون بين البشر، من صدق وأمانة وجد والتزام بما شرعه الله في التعامل بين الناس.

إن النهاية الصالحة السعيدة مقصورة على الذين حلت التقوى قلوبهم، فطوعوا نشاطهم لما يحققها.

84 من جاء بالحسنة...إلا ما كانوا يعملون.

فصلت هذه الآية العاقبة التي يفوز فيها المتقون. إن من يقدم على ربه، وسجله عامر بالأفعال الحسنة بميزان الشرع يمكنه الله من جزاء هو خير مما قدم.
إن فعل الخير في الدنيا تترتب عليه آثاره صلاحا في الكون ونفعا للمحسن ولغيره.
إن هذه الآثار الطيبة مقومة عند الله بميزان العدل، وحقق أن جزاءها سيكون خيرا منها. إذ هو جزاء الكريم،
الرؤوف الرحيم . وفي المقابل فإن من كان سجله عامرا بالسيئات وبالشر، فمن المحقق أنه يلقى جزاءه مساويا لما قدم من أعمال. فيجري عليه الحكم العادل لرب العالمين وبرحمة الله يكون الجزاء بمقدار السيئة دون زيادة.

85 إن الذي فرض عليك القرآن...ومن هو في ضلال مبين.

أعلنت الآية السابقة أن تقدير الله للحياة الدنيا ليس عبثا، بل ستنتهي الحياة إلى جزاء من جنس ما قدمه الإنسان، وفضل الله يثيب عن الحسنة ما هو خير منها، وعدله يجزي عن السيئة جزاء مساويا. والحسنات لا تدرك إدراكا عاما إلا بالشرع. وبالمقابل فإن السيئات بصفة عامة متوقفة على الوحي. وبهذا يكون فضل رسول الله ﷺ على البشرية فضلا يجمع بين الأمر والبيان للمعروف، وبين النهي عن المنكر وتقبيحه. فخاطب الله نبيه منوها بشرف دوره في تحمل القرآن وتبليغه، خاطبه بقوله إن الذي حملك وعي القرآن وتبليغه والعمل به وتلاوته على ما في ذلك من صعوبة وثقل، ليجزينك جزاء يسمو عن التحديد ويتجاوز الوصف، وإنه لرادك بعد أن تكمل مهمتك إلى معاد[يوم القيامة] تتفرد فيه بالجزاء الذي لا يرقى إليه أحد غيرك. وعقبت الآية على التكريم الذي اختص به النبي ﷺ، بأمره أن يجهر بذكر الحقيقة التي ينازع فيها المشركون، قل لهم :إنه في هذا اليوم سيظهر الله علمه، فيتبين من حمل معه الهدى للناس، وفتح بصائرهم وألف بينهم، ومن هو منغمس في الضلال، مغمور في مسالك الضياع، ومع وضوح ضياعه هو سادر في ضلاله. وفي ذلك تعريض بالمشركين ليقلعوا عما هم عليه.

86 وما كنت ترجو...فلا تكونن ظهيرا للكافرين

إن الاصطفاء لحمل الرسالة، هو أمر من سر القدر الحكيم فالذين تطاولوا لحمل الرسالة مخطئون بعيدون عن تصور مهمة الرسالة، فإنك يا محمد ما كنت منتظرا

أن يشرفك الله بوحي كتابه إليك، ويحملك القول الثقيل. ولكن تم ذلك برحمة من ربك. كيف تم ذلك؟ هو مما لا تبلغ العقول إدراكه. ولما كنت بهذه المنزلة عند ربك فإياك إياك أن تكون عونا للكافرين، تصانعهم أو تسكت عن أي شيء من باطلهم.

87. ولا يصدنك عن آيات الله ...ولا تكونن من المشركين.

تضمنت الآية نهيا وأمرا. أما النهي، فهو نهي مسلط على الكافرين لا يصدنك الكافرون، فيقيمون من المعوقات والحواجز ما يصرفونك به عما أنزل إليك من القرآن، تبليغا وعملا. وهذا الظاهر غير مراد قطعا، والمقصود نهي النبي ﷺ أن يتأثر بما يدبره المشركون وما يصنعونه ليصرفوه عن آيات القرآن بعد أن أنزلها الله عليه. وهذا لا يتصور أن يقع من النبي ﷺ حتى يتوجه إليه النهي، فتكون الآية تبعا لذلك مثبتة له ﷺ على المضي في طريقه، تيئس المشركين من كل تأثير عليه. وأما الأمر فهو أمره أن يواصل إبلاغ الوحي ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له . واقطع كل صلة مع المشركين فليس بينك وبينهم مع شركهم ما يقربك منهم.

إن هذه الآيات قد تلاها النبي ﷺ وأذاعها في الناس، وسمعها المسلمون فاستبان لهم أن القطيعة مع المشركين أمر جازم واضح لا اجتهاد فيه وسمعها المشركون ففهموا منها أن كل جهودهم لصرف المؤمنين عن كتابهم فاشلة فأدخلت اليأس في قلوبهم من أن يميل إليهم المؤمنون أو يصانعوهم.

88. ولا تدع مع الله... وإليه ترجعون.

ما أخذ من الآية السابقة باللوازم تم التصريح به في هذه الآية الخاتمة للسورة التي تضمنت نهي النبي ﷺ ومن ورائه جميع البشر ممن يصح أن يتوجه له الخطاب، النهي عن الشرك البلية الكبرى التي يتبعها كل شر وفساد. لا تتوجه إلى إله آخر لا بالعبادة ولا بطلب العون، فإنه لا إله بيده التصرف والفعل إلا الله فهو وحده المستحق للعبادة، ومن سواه عاجز ،و هو الله الباقي لا يلحقه فناء ولا عدم، وما سواه من الكائنات هالك، فان. تفرد بالحكم الذي لا يرد ولا ينقض. وستعودون إليه كما أوجدكم من عدم.

كملت بحمد الله وحسن عونه

يوم الأربعاء 04 ربيع الأول 1434 2013/01/16

سورة العنكبوت

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به، ووجه تسميتها بذلك اختصاصها بذكر مثل العنكبوت الآية 41-واختلف العلماء في كونها مكية أو مدنية، أو بعضها مكي وبعضها مدني. وعلى كونها مكية فإنها من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة. وهي السورة التاسعة والعشرون حسب ترتيب المصحف. وهي السورة الخامسة والثمانون حسب ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المطففين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ

أحسب : أظن.

أن يتركوا: غير مفتونين.

يفتنون: بالتعدي والأذى.

السيئات: الأعمال التي تسوء المؤمنين كالتعذيب والتنكيل.

يسبقونا: أنهم ينفلتوا من العقاب، وينجوا منه.

يحكمون: يظنون.

جاهد: بالغ في بذل المجهود وتكلف ما فيه تعب.

بيان المعنى الإجمالي

ألف لام ميم - تفهم على نحو ما سبق بيانه في نظائرها.

ما بال الناس يظنون أن الإيمان يحميهم من تسلط الكفار عليهم بمتنوع الإذايات ليفتنوهم عن دينهم. هذا ظن باطل، فإن سنة الله جرت على أن المعركة بين الكفر والإيمان ماضية منذ القدم. فقد فتن أتباع الرسل في الأمم الماضية، وبفتنتهم تميز المؤمنون الذين صدقوا في إيمانهم فكانت الفتن تتكسر على صلد عزائمهم؛ عمن كان إيمانهم رداء ظاهريا كاذبا فيعودون إلى الكفر.

أظن الذين يتسلطون على المؤمنين بالأعمال السيئة قصد فتنتهم. أنهم إذا أمهلوا ولم يعاجلوا بالعقاب، أنهم قد انفلتوا من العذاب؟ هذا ظن خاطئ وحكم فاسد وباطل؛ وإن الله يمهل الظالمين ولا يهملهم فيحقق وعيده فيهم.

من طابت سريرته وحسن عمله، فتعلقت آماله بنيل ثواب الله، فليكن مطمئنا فإن الأجل الذي حدده لينال الصالحون فيه ثوابهم، هذا الأجل آت لا ريب فيه، وسينعمون بجزاء ما قدموا من خير أحصاه الله لهم، فهو السميع لأقوالهم الحسنة العليم بأفعالهم الطيبة.

من جاهد فتغلب على نفسه وشهواته، وصبر على الأذى، وأسهم في الدفاع عن الدين في السلم والحرب. فليعلم أن نفع جهاده يناله نفعه بصلاح روحه، ويعتز بعزة أمته. والله لا ينتفع بشيء، فهو الغني الغنى المطلق عن الحاجة.

إن الذين استقر الإيمان في قلوبهم، وطوعوا أعمالهم لمقتضيات عقيدتهم فصلحت، سيتفضل عليهم بمحو سيئاتهم وتطهيرهم من أدران الخطيئة، ثم يقدر لهم ثواب ما عملوا من خير، بميزان أحسن أعمالهم فيلحق الناقص بالكامل.

بيان المعنى العام:

ألف. لام. ميم.

افتتحت السورة بحروف التهجي على النحو الذي بيناه في سورة البقرة. وتتوسط هذه السورة السور الثلاث التي لم يتبع فيها الحروف المقطعة بالإشارة إلى القرآن أو الكتاب. فقبلها سورة مريم، وبعدها سورة الروم.

2.أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.

افتتحت الآية بسؤال إنكاري، ينكر القرآن على الناس ما ارتسم في أذهانهم، فظنوا أنهم عندما ينطقون بكلمة الإيمان، أنهم حصنوا بذلك أبدانهم وأرزاقهم وحياتهم كلها من كل ضر أو مكروه. وأن الكفرة لا يتعرضون لهم بأذى، بتحولهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان. إن هذا ظن خاطئ، بل هو وهم من أوهام النفوس الضعيفة المسترخية. إنه من سنن الخلق أن الكافرين يحملون الضغينة والعداء لمن خرج من صفهم، ويصرفون بغضهم بضروب من الأذى المادي والنفسي بالاحتقار، والمقاطعة، والتجويع، والتعذيب.

يذكر القرآن على الناس، ويعني بذلك المؤمنين، والغالب أن القرآن يطلق كلمة الناس على الكافرين، ولعل في إطلاق كلمة الناس على المؤمنين في هذه الآية مراعاة لتحذيرهم من تراخي عزائمهم وضعف صمودهم، بسبب ما يفتنهم به أعداؤهم، تحذيرهم أن يحقق الكفر هدفه فيضيع منهم الإيمان. إن ما ينبغي أن يسمو إليه المؤمن هو أن يكون الإيمان مقويا لعزيمته، مثبتا لصموده، معدا له لتحمل كل أذى، يعمل الكفر على زرعه في طريقه ليثنيه عن المضي على ما يقتضيه الإيمان منه من عقيدة وسلوك.

ليتظروا في سنن الله في التاريخ، بعث الله رسله إلى الناس، وكلما جاء رسول اهتدى به وآمن فريق من الناس، وتسلط الكافرون على المؤمنين يؤذونهم بمختلف أنواع الأذى ليفتنوهم عن دينهم، فيضعفوا ويرتدوا إلى الكفر.

إن الله لم يمنع الكافرين من تنفيذ مكرهم بالمؤمنين، ولم يحل بين المؤمنين وبين أسباب الضعف المسلطة عليهم، وهو معنى نسبة الفتنة إلى الله "ولقد فتنا" إن حدوث هذا التسلط بالفتنة للمؤمنين ليس أمرا مفاجئا، بل هو أمر معلوم ثابت في العلم الأزلي. إن مما ينبغي أن يستيقنه المؤمنون أن علم الله الأزلي أحاط بما كان وبما يحدث الآن، وبما سيحدث في المستقبل علما واحدا لا يتبدل ولا يتغير. وينكشف في الوجود المعلوم على حسب ما ثبت أزلا في علم الله زمانا ومكانا، دون أن يحدث تغير في علم الله. فعبرت الآية عن هذا الانكشاف لما ثبت في الأزل، بتحقق علمه الأزلي. وينقسم المؤمنون المفتونون كما سبق في علمه، إلى:

1) مؤمنين صادقين في إيمانهم، ثابتين على ما عاهدوا الله عليه، لا يؤثر في ثباتهم ضروب الفتن والأذى، فالذين صدقوا هم من كانت صلابتهم في الدين لا تتزعزع، وصدرهم لا يغلب.
2) وإلى كاذبين، ويفتضح من كان إيمانهم متقلقلا، الذين يرتدون إلى الكفر إذا مسهم أي أذى ولا يصمدون، فإيمانهم الأول هو إيمان كاذب لا حقيقة له.

وفي هذه الآية وعد للصادقين وتنويه بهم، ووعيد للكاذبين وتوبيخ لهم.

أم حسب الذين يعملون ... ساء ما يحكمون

إضراب عن الكلام السابق قصد الانتقال منه إلى أمر جديد، يتضمن الإنكار على ما علق بذهن الذين يؤذون المؤمنين، بظنهم أنهم لما حققوا جولات آذوا فيها المؤمنين، دون أن يحصل لهم مكروه، ظنهم أنهم قد أفلتوا من العقاب وتسنى لهم

الغلبة في النزاع بين الكفر والإيمان. فبين بطلان ظنهم بقوله ساء ما يحكمون، ظنوا ظنا سيئا وباطلا .

و الآية وإن كانت دالة على وعيد الفاتنين للمؤمنين دلالة أولية وأنهم لا يفلتون من العقاب، فإنها من ناحية ثانية تحذر المؤمنين من اقتراف السيئات استخفافا بالإثم تبعا للاغترار بالإمهال.

5. من كان يرجو لقاء الله ...وهو السميع العليم.

في مقابلة الذين مضوا لشأنهم لإيذاء المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم حتى ظنوا أن الوعيد لا يلحقهم، ينوه القرآن بالمؤمنين الذين ينتظرون في شوق يوم الجزاء، تبعا ليقينهم أن وعد الله لا يخلف .فالتعبير بالرجاء له وقع بديع باعتبار أن الرجاء هو تعلق الآمال بتحقق شيء محبوب، فالرجاء في الآية يقصد منه ما استقر في نفوسهم من شوق إلى الحياة الأخرة، التي ستكون حسب ما تلقوه من الوحي أفضل وأتم وأكمل وأسعد من حياتهم الدنيوية. ويبشرهم الله بأن هذا الوقت المحدد للجزاء والتكريم سيتحقق لا محالة. هم على عكس الفريق الهالك الظان أن الوعيد لا يلحقهم، ووقعوا في الظن الباطل. يؤكد الله لهم أن ما ينتظرون نوله هو لا شك فيه سيحصلون عليه قطعا وعدا من الله "لآت" إنهم بالمنزلة التي رضي فيها ربهم عما تنطق به ألسنتهم، وما يجري في مجالسهم، إنه يسمعهم في خلواتهم وهم يدعون: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة[1]. وهو العليم بما يجري في ضمائرهم من شوق للقاء ربهم.

6. ومن جاهد فإنما ...لغني عن العالمين.

من بذل جهده، ولم يتراخ في القيام بما يضمن له الثبات على الإيمان الذي يعظم به رجاؤه في ثواب الله يوم لقائه، بما يشمله من صبر على الأذى، صبر يجعله يستهين بكل ما يصيبه في سبيل الثبات على ما آمن به، ومن جهاد الدواعي التي ترتخي بها العزيمة لتنقاد إلى المتعة العاجلة، ومن جهاد التأثيرات المتنوعة من دوافع الغريزة التي تريد أن تشبع بلا حدود، ويجاهد جوانب العواطف المسترخية لرغبات الأزواج والأولاد . كما يشمل الذين ينضمون لجيش الإسلام لحماية الأمة وإزالة معوقات انتشاره. هذه كلها ضروب من الجهاد من يبذل فيها طاقته وفعله، فإن النفع يعود له أولا وبالذات متمثلا بصفة خاصة في تقوية عزيمته، وفي توازنه النفسي، وفي صفائه الروحي، وفيما يتفتح له من أبواب الرجاء عند لقاء ربه. وبهذا

---

[1] سورة آل عمران193

تتصل الآية بسابقتها. فلا يُدلّ أحد بجهاده، والحال أن النفع يعود إليه. والله سبحانه غني الغنى المطلق عن جهود البشر، وما حصل لهم من التوفيق إلى الخير فإنما نالوه بفضله ورحمته.

7. والذين آمنوا وعملوا... الذي كانوا يعملون.

تتأكد مضامين الآيات السابقة بما أفادته هذه الآية التي تدل على أن الراجين لقاء الله، والباذلين جهودهم في الخير، وبصفة عامة الذين تركز الإيمان في قلوبهم وثبت، وطوع أعمالهم للخير فكانت صالحة، سنحقق لهم جزاء يشمل جناحين:

الجناح الأول: يتمثل في تطهيرهم مما تلوثوا به من فعل السيئات. ذلك أن عمل السيئات يتبعه ظلام في النفس، ويترك الأثر المناسب له في الروح. ويقرب من الشيطان. وكل ذلك انزلاق إلى السقوط وسوء العاقبة. فإذا اجتمع الإيمان وعمل الصالحات فأول ما يجنيه هو محو تلك الآثار السيئة جميعها.

الجناح الثاني: يتمثل في تفضل الله عليه بتقدير صالح أعمالهم وجرانهم عنها، هذا الجزاء الذي يظهر فيه الكرم الإلهي وسعة الفضل، فيقدر سبحانه جميع أعمالهم على ميزان أحسن الأعمال، فيلحق الناقص بالكامل، والذي فيه بعض التقصير بما لا تقصير فيه.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿8﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿9﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿10﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿11﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿12﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿13﴾

بيان معاني الألفاظ

وصينا: فرضنا و عهدنا.

جاهداك: ألحا لتشرك.

حمل الأثقال: تحمل تبعات الذنوب.

بيان المعنى الاجمالي :

فرض الله على البشرية رعاية علاقة الفرد بوالديه والبر بهما، وأن تكون معاملتهما على الطريقة الأحسن والأفضل. وبرهما إن تعارض مع الثبات على الإيمان، فالإيمان مقدم ولا يطيع أبويه ليبقى كافرا أو يرتد بعد إيمانه، وإذا أذن في معصيتهما ليثبت على الإيمان فطاعتهما والقيام بحقوقهما فيما وراء ذلك واجب، واعلموا أنكم ستبعثون يوم القيامة فيعرف كل واحد حقيقة عمله من خير أوشر، ويلقى جزاءه.

إن الذين ثبتوا على الإيمان وصلحت أعمالهم، ليلحقنهم الله بالصالحين من عباده المكرمين يوم القيامة بالجنة.

بعض الناس يصرحون أنهم من أمة الإسلام مؤمنين بالله، وإذا لحقتهم إذاية بسبب إيمانهم شبهوا ما لحقهم بعذاب الله على الكفر، فقدموا سلامتهم في الدنيا على تعرضهم إلى عذاب الله يوم القيامة. هم يتظاهرون بالإيمان حتى إذا فتح الله عليكم نصره يقولون: إنا مؤمنون معكم. إن الله يعلم سرائرهم وحقيقة ما هم عليه، وهو سبحانه العليم بما تخفيه الصدور، إنه سبحانه العليم العلم الكامل بحقيقة إيمان المؤمنين وما شع في بواطنهم وظواهرهم من نور الإيمان، وهو العليم بما يجري في نفوس المنافقين مما يبالغون في إخفائه، ولا يتأثر علم الله بذلك.

من المحاولات الغبية التي قام بها المشركون ما اختلقوه لتحويل المسلمين عن دينهم بقولهم لهم: اتبعوا طريقنا وكونوا أولياء لقومكم. وما أنذر به عليكم محمد من سلامتكم يوم القيامة، هذا نضمنه لكم فنحن نتحمل تبعات أفعالكم وعقائدكم. رد القرآن عليهم مؤكدا أنهم لا يستطيعون حمل أي خطيئة عنهم لا كبيرة ولا صغيرة، لا في العقيدة ولا في العمل. بكل تأكيد هم كاذبون فيما ادعوه.

و من ناحية أخرى فإنهم سيحشرون وهم يرزحون تحت ثقل ما فعلوه من خطايا، وما ارتكبوه من آثام؛ ويضاف إلى أحمالهم آثام إفسادهم لغيرهم. ويوقفون للسؤال عن الأكاذيب التي كانوا يروجونها للتضليل. وينتهي بهم ضلالهم إلى العذاب المقيم في جهنم.

بيان المعنى العام

8 ووصينا الإنسان ...بما كنتم تعملون

قاعدة من قواعد الدين نستنبطها من هذه الآية، حاصلها أن الإسلام لا تناقض فيه، وأن على المكلف في استجابته لما أمر به الدين، أن يقدم الأهم على المهم، دون أن يمحق هذا الترتيب كل ما يتعلق بالمقدم عليه. إذ مما أمر به الدين وكرر الوصاية به وفاء الفرد لأسرته، وخاصة لوالديه إذ جعل طاعتهما والقيام بأمرهما مقدما حتى على الجهاد. وفاتحة هذه الآية تؤكد تلك الحقيقة. إذ يوصي رب العزة الأولاد بأن يكون تعاملهم مع والديهم على أحسن ما يكون التعامل، وإدراك ما هو حسن وما هو بخلافه فطري في الإنسان، وهو مراتب تعلو أو تسفل من طريقة الخطاب إلى توفير ما يجعل حياتهما أسعد، إلى تنفيذ مطالبهما.

ومن ناحية أخرى فإن طاعة الفرد لربه مقدمة حتى على حفظ النفس، فإذا تعين الجهاد وبذل النفس مثلا في حماية الدين كان ذلك واجبا لا اختيار فيه.

و بناء على ذلك فإن طاعة الأبوين إذا تعلقت بالثبات على الكفر أو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، فلا طاعة لهما في ذلك، دون أن يتحلل الفرد من البر بهما فيما عدا ذلك. ولا تتأثر أيها المؤمن من شدة إلحاحهما، أو غضبهما حتى تشرك بي ما ليس له أي حقيقة إلهية. ولما انتفت حقيقته في الوجود تبعه انتفاء العلم به؛ فقوله تعالى ما ليس لك به علم في قوة ما لاوجود له، وما لا وجود له العلم به منفي .

وتتصل الآية بصورة من صور الفتنة التي افتتحت بها السورة. وختمت بما يفيد نفي الحرج عن المؤمن الذي فتنه أبواه على الكفر، فإنكم ووالديكم ستعودون يوم القيامة إلى حكمنا العادل، وينكشف صلاح العاصين لوالديهم الثابتين على الإيمان فيلقون حسن الثواب، وما يكنه الآباء من تصلب في الكفر فيكون جزاؤهم سوء العذاب.

9.والذين آمنوا وعملوا...لندخلنهم في الصالحين

تصريح بما أشار إليه قوله تعالى في الآية -8-: إلي مرجعكم. فالذين ثبتوا على الإيمان واستقاموا في حياتهم والتزموا بما هو صالح حسب المعايير الشرعية، لنعوضنهم من علاقة الأسرة المنكرة للإسلام بعلاقة أمتن وأرفع فيكونون جزءا من زمرة الصالحين المرعيين بالتكريم

10.ومن الناس من يقول...بما في صدور العالمين

تتعرض هذه الآية إلى نمط آخر من صراع الكفر للإيمان، وما يفرزه من مشاكل في عصبة المؤمنين. ذلك أن بعض الناس أعلنوا إسلامهم، واطمأن المؤمنون لهم

فعاملوهم بما يعامل المؤمن لخاه في العقيدة، ولكنهم ضعفوا أمام لاذية الكافرين وتهديداتهم، فرجعوا إلى الكفر وأعلموا بذلك من فتنهم، وأخفوا كفرهم عن المؤمنين، فتمكنوا بذلك من الاطلاع على أسرارهم. فكان ضررهم أشد. ان هؤلاء لما اذاهم الكافرون وفتنوهم، قدروا أنهم بين أن يثبتوا على ايمانهم ويفتنهم الكافرون بالإذاية، وبين ان يطيعوهم فتسلم لهم حياتهم الدنيا وشبهوا فتنه الكافرين بعذاب الله. وشان التشبيه أن يكون المشبه به أقوى من المشبه ،إنهم قدروا أن فتنه الكفر حاضرة مشاهدة، وعذاب الله الموعود به هو من امر الغيب، والمشاهد أقوى، فانهزموا شر هزيمة.

ثم كشفت الاية عن امر يبطنونه علمه الله: أنهم يعدون أنفسهم ليوهموا المؤمنين انهم كانوا معهم على الإيمان عندما يفتح الله على الأمة أبواب النصر، فإنهم سيقولون مؤكدين كلامهم: انا كنا مؤمنين معكم.

ما أشد غباءهم ! من يخادعون؟ إن الله أعلم بما تحويه الصدور، وما يجري في باطن النفس، وإن الله قد أطلع نبيه على من اتخذ النفاق قناعا. هم مكشوفون عند رسوله لا يروج كلامهم عليه. والنبي ﷺ يتلو هذه الآيات فيسمعونها مع المؤمنين فكانت أول قمع لهم.

11.وليعلمن الله الذين امنوا وليعلمن المنافقين.

يكل تأكيد إن علم الله ثابت ونافذ. هو سبحانه مطلع على ما داخل قلوب المؤمنين من نور الإيمان، وما أثر في مداركهم من استقامة ووضوح. وهو عالم أيضا علما محيطا بالمنافقين وما يجري في سرائرهم وما يصدر عنهم من أعمال. وفي التصريح بذلك ما يفيد أنه سيجزي المؤمنين بالحسنى ويجزي المنافقين على وزان شرهم الباطن والظاهر.

12.وقال الذين كفروا...إنهم لكاذبون.

يتواصل في السورة كشف بعض طرق الكافرين في فتنة المسلمين ليتحولوا من الإيمان إلى الشرك. عرض رؤوس الشرك الذين كانوا مطاعين في مكة على المؤمنين الأمر التالي، قالوا لهم: إنكم تحولتم عن عبادة الأصنام إلى الدين الذي جاء به محمد، تحصينا لأنفسكم من عذاب يوم القيامة، فإن كان ما يقوله محمد حقا فإنا نعرض عليكم أن تعودوا لديننا وأن تتابعوا حياتكم مع قومكم، واطمئنوا إلى أننا يوم القيامة نحمل عنكم خطاياكم التي يحذركم محمد منها بعذاب ذلك اليوم. لقد كانوا لمكانتهم في قومهم ومنزلتهم من الرئاسة إذا تقدموا لتحمل أي شيء قبلوا ولا ترد عليهم حمالتهم. وبلغ بهم الغرور أن ظنوا أن منزلتهم يوم القيامة لا تختلف

عن منزلتهم في الدنيا. فسفه القرآن أقوالهم، ونفى أن يحملوا لا القليل ولا الكثير من خطايا غيرهم، وبكل تأكيد هم كاذبون، واهمون. فتبعات انحراف المنحرفين يتحملها المنحرفون، ولا يحمل أحد تبعة وزر غيره، وهذا لا ينفي مؤاخذتهم عن تضليلهم للناس، إذ هو من تبعة أفعالهم.

وأضافت الآية إلى بطلان ما ادعوه، إثبات الكذب لهم في قولهم: ولنحمل خطاياكم، فهذا كلام مخالف للواقع كذب قطعا.

13 بعد أن سفههم القرآن في الآية السابقة وكذبهم فيما حاولوا ترويجه من تحمل تبعات من يكفر بالإسلام، دقق في هذه الآية أنهم سيأتون يوم القيامة يحملون ثقل الآثام التي فعلوها في الدنيا، وثقل آثام من كانوا سببا في إضلاله، والتأثير عليه ليحولوه من الصلاح إلى الفساد ومن الخير إلى الشر ومن الإيمان إلى الكفر. وأكثر من ذلك أنهم يوقفون في المحشر لسؤالهم سؤال التقرير الإنكاري عن مفترياتهم التي اختلقوها ليضلوا بها الدهماء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الوثن: صورة لحيوان أو إنسان منحوتة .

تخلقون: تختلقون ما لا أصل له.

الإفك : الكذب

بيان المعنى الإجمالي:

كرر القرآن قصة نوح عليه السلام ليعيد التذكير بما تم للمكذبين من غرقهم جميعا بسبب ظلمهم، ومن إهلاكهم حتى يرتدع المشركون عن رفضهم. وأضاف تحديد المدة

الطويلة التي قضاها في دعاء قومه ليسلي النبي ﷺ عن أساه من تكذيب قومه ويقوي عزيمته للمضي في التبليغ. وبينت الآية أيضا أن الله أنجى نوحا ومن آمن به ليكون ذلك آية من آيات الله يتعظ بها البشر .

، أعقب قصة نوح بقصة إبراهيم، وكما أنجى الله نوحا في السفينة من الغرق، فكذلك أنجى الله إبراهيم من النار .

دعا إبراهيم قومه أن يفردوا الله بالعبادة، وأن يحصنوا أنفسهم من عقابه بطاعته، فإن ذلك هو الذي يحقق لهم النتائج الأفضل، وحرضهم بأن ذلك هو اللائق بأهل العلم.

ثم أخذ يهز ما استقر عندهم من عبادة الأوثان. فلفت أنظارهم إلى أن هذه الأوثان لا أصل لها هي شيء اختلقتموه أنتم، تتقربون إليها رجاء أن تساعدكم على سعة الحياة وتحصيل الأرزاق، إنكم واهمون فهي لا تملك شيئا حتى تعطيكم منه. الأولى بكم أن تطلبوا الرزق من مالك الأرزاق الله رب العالمين، فاعبدوه واشكروا له ما أفاضه عليكم من نعمه، فإنكم ستعودون إليه ليجزيكم عن شكركم ثوابا، وعن الكفر به عقابا. واعلموا أن عاقبة تكذيبكم لا يعود ضررها إلا عليكم، فقد كذبت أمم من قبلكم فما أضروا إلا أنفسهم، وفاز الرسل برضوان ربهم لأنهم أدوا أمانة التبليغ والبيان، وما كلفوا بأن يحصل الاهتداء لجميع المبعوث إليهم.

بيان المعنى العام:

14 –15 ولقد أرسلنا نوحا...آية للعالمين.

يحقق القرآن ويؤكد مجموع ما دخلت عليه "ولقد" الذي يتضمن ثلاثة أمور :

أ-أن الله أرسل نوحا إلى قومه. ونوح عليه السلام هو أول رسول أوحي إليه، بعثه الله إلى قومه لما تفاقمت الضلالات فأفسدت الفطرة، وتصلب البشر في الشرك.

ب -كان قوم نوح لما أرسل إليهم، قد أضافوا إلى الضلالات التي ورثوها من أسلافهم ضلالات أخرى وتراكمت واستقرت في أفكارهم وعاداتهم حتى تحولت إلى طبيعة ثانية. فصبر على بيان الحق، ومواصلة الدعوة، وإقامة الحجة، تسعمائة وخمسين عاما، دائبا دون كلل، لم تثبطه قوة تصلب قومه في الشرك، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به إلا عدد قليل .

جـ : بعد أن نفدت كل الطرق لينقذهم عن عبادة الأوثان، وأيس من اهتدائهم، تأهلوا للنقمة فعم عليهم طوفان الماء وأغرقوا، وهم ثابتون على ظلمهم للحق، بالشرك وتكذيب نوح رغم ما قدم لهم من الأدلة المقنعة.

و قدر الله أن ينجي نوحا ومن آمن به، وهم الذين أخذهم معه في السفينة التي هداه الله لصنعها. ثم قدر أن تكون سفينة نوح، وإنجاءه ومن آمن معه واستئصال الكفرة،

واهتداءه لبناء السفينة، التي طورها البشر إلى البواخر العملاقة تتصل بواسطتها الأمم عبر البحار والأنهار، جعل كل ذلك آية تهدي العالمين لتؤمن بسالله من التأمل في سننه التي يتصرف بها، ويبنى عليها أمر هذا الكون.

ملاحظة: تكررت قصة نوح ﷺ في القرآن، وتكرارها ليهز كل مسرة تصلب قريش في الشرك، وينذرهم سوء العاقبة إذا هم واصلوا مقاومتهم للإسلام كما أهلك المكذبين قبلهم. وأضاف في هذا العرض الأمد الطويل الذي قضاه في دعاء قومه.

أما ما يتوقف فيه بعض الناس من بقاء نوح وتعميره أكثر من ألف سنة، فمبناه توهم أن الجنس البشري لم يتطور في بنائه الجسمي من يوم وجوده على سطح الأرض إلى اليوم. وهذا تصور يقوم على النفي لعدم العلم. وعدم العلم لا يصح أن يكون دليلا يقينيا على نفي الوجود. وقد أخبرنا الله في قرآنه أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما زيادة على عمره قبل أن يوحى إليه، وبعد أن غرق قومه. ولا تقاوم العادة الحقائق القرآنية .

16-17 وإبراهيم إذ قال ..إليه ترجعون

أعقب قصة نوح بقصة إبراهيم ﷺ ، وفي كل من القصتين ما يقوم شاهدا على القدرة التي تنفذ ما تعلقت به الإرادة، مع ما يبدو من الاختلاف. أنجى الله نوحا من الغرق في الماء. وفي قصة إبراهيم أنجاه الله من النار.

واذكر للناس قصة إبراهيم في الظرف الذي توجه إلى قومه داعيا لهم، أن يخصصوا الله بالعبادة فلا يعبدوا غيره، وأن يحصنوا أنفسهم ليحموها من مقت الله، وذلك بالتقوى. إن ما دعوتكم له هو الأفضل لكم إن كنتم من أصحاب العلم والنظر.

ثم أضاف ما يزيد كلامه وضوحا وإقناعا بلفت أنظارهم إلى أن ما يعبدونه من دون الله أوثان: خشب أو حجر نحتوه بأيديهم، وصوروه على صورة إنسان أو حيوان. إنكم اختلقتم أشياء زعمتم أنها آلهة. رغم أنه لا يوجد فيها أي شيء من حقيقة الألوهية. والفرق بين الوثن والصنم أن الوثن شيء منحوت على صورة إنسان أو حيوان أو صورة تخيلية. وأما الصنم فهو ما ينصب للعبادة دون أن يكون مصورا.

انتبهوا! إنكم تعبدون هذه الأوثان تبتغون منها العون لتتيسر لكم الحياة وتدر عليكم الأرزاق، وتنتج لكم فلاحتكم وتجارتكم. إن ما ترجونه من أوثانكم وهي عاجزة عن تحقيقه لكم سفه في الرأي. فخير لكم أن تتوجهوا إلى مالك الأرزاق إلى الله الذي عنده وحده الرزق فهو القادر على منحكم ما ترجونه منه. خير لكم أن تعبدوه، وتشكروه على ما ينيلكم من نعمه. إنكم مستعودون إلى حكمه يوم القيامة ليجزي الصالحين ويعذب الكافرين المكذبين.

18 - وإن تكذبوا فقد... إلا البلاغ المبين

إنكم إن كذبتم ما بينته لكم ورفضتموه، فإن الخسران عليكم، ولستم بدعا من الناس، فقد جاءت رسل قبلي إلى أممهم وبينوا لهم ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم فكذبوهم، وعاقبهم الله على كفرهم ،وفاز المرسلون بثواب الله وتكريمه، لأنهم أدوا مهمتهم التي هي البلاغ الواضح لما أوحي إليهم من ربهم، ولم يكلفوا بأن يتحقق الاهتداء فعلا.

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

بيان معاني الألفاظ:

بدأ : أوجد بعد عدم.

الخلق : المخلوقات.

النشأة: الإيجاد.

تقلبون : ترجعون للجزاء.

معجزين: غالبين غلبة تفلتون بها من العذاب.

بيان المعنى الإجمالي:

ما لهم لا يعتبرون بما يشاهدونه، كيف يتصرف الله فيخرج إلى الوجود ما كان معدوما، ثم يفنيه ويعيده مرة أخرى، يظهر ذلك جليا في عالم النبات، وسوف يتم على ذلك النحو بالنسبة للبشر. فإن قدرة الله تنفذ دون أن يعوقها شيء، كل ما تعلقت به القدرة يطيعها في يسر. قل لهم: سيروا في الأرض متأملين، واكتشفوا كيف أنشأ الله الخلق الأول، ومن قدر على الخلق أولا قادر على إعادة المخلوقات ليوم القيامة. إن الله قادر على كل شيء، ومن مظاهر قدرته العامة أنه ينفذ حكمه في البشر فيعذب من شاء تعذيبه ويرحم من قدر رحمته، وستعودون إليه جميعا ليجزيكم الجزاء العادل عما قدمتم، ولا تستطيعون الانفلات من قبضته، فليس لكم

ملجأ لا في ظاهر الأرض ولا في باطنها، ولا في أي موقع من السماوات. ولا تجدون شفيعا يشفع فيكم فيخفف عنكم ما قدر لكم من الجزاء، ولا تجدون نصيرا يحرجكم من العذاب. إن الذين عرفوا بكفرهم بآيات الله وإنكارهم للبعث، يحل فيهم اليأس من رحمة الله، فيضاف إلى ما يقاسونه من الآلام الجسمية، العذاب النفسي بالقنوط من تخفيف العذاب..

بيان المحشر العام:

19. أولم يروا كيف...إن ذلك على الله يسير

استفهام إنكاري ممزوج بالتعجب من غفلتهم. أحالهم على ما هو مشاهد متكرر لديهم، يرونه بأعينهم، أن الله يظهر المخلوقات بعد عدم، وينشئها بعد أن لم تكن. يظهر ذلك في عالم النبات وفي الإنسان وفي الحيوان، وهذه الحقيقة المشاهدة لفت القرآن إليها الأنظار كثيرا، وهي من المشاهد التي تؤكد أن الله وحده هو المتفرد بالخلق.

ثم يعيده: وكمال القدرة والتصرف تظهر في إعادة ما خلقه بعد أن يفنيه، تنتهي الزروع إلى حطام. ثم تعود الحياة إلى بذورها التي تولدت منها، ويفنى الإنسان ويستمر وجوده في نسله الذي يحمل في جينومه خصائص أصوله. وهذا ما ظهر بعد المستوى الذي بلغ إليه العلم.

وهذا التفسير للآية مستند إلى اعتبار الرؤية بصرية، ولما إذا حملنا المراد منها على العلم، ألم يروا، ألم يعلموا إذا أعملوا فكرهم وتدبروا في مظاهر الكون الماثلة أمامهم، أن الله القادر على إظهار الموجودات قادر على إعادتها بعد فنائها. إنهم لا يستطيعون نسبة الإيجاد لغير الله! وحسب ما جرت به العادة فإن إعادة الشيء بعد إيجاده أيسر على الفاعل الأول. وعلى أقل تقدير هما سواء، والمقصود هو إثبات البعث الذي هو أحد الثوابت من العقيدة التي تولى الرسل بيانها للناس.

20. قل سيروا في الأرض...على كل شيء قدير.

من مضامين الرسالة هذا التوجيه العام للبشرية، قل لهم يا محمد، من كان حاضرا وقت نزول الآية، وكذلك كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة، ولتطلب منهم أن يسيروا في أرض الله سير المتأمل النافذ ببصيرته إلى ما وراء الظواهر. ذلك أن رتابة العيش في المحيط الذي ولد فيه الإنسان يغطي ما في المظاهر المختلفة من خصائص، فيمر عليها دون أن يتعمق في أسرارها؛ فإذا سار في الأرض أثار فيه جدة ما يمر عليه تأملات ومقارنات، تفضي به إلى انبلاج حقيقة نسبة الخلق إلى الله. ويؤديه ذلك إلى الإيمان بالبعث. ذلك أن مشاهد الكون الحاضرة، وما فيها من

دقائق الصنع، وآثار الأمم الغابرة الدالة على أن لله سننا في الإيجاد وفي الإهلاك؛ كل ذلك يفضي بالناظر أولا إلى أن التصرف المتنوع من ناحية في صور الإيجاد، وسوق الموجود إلى نهايته، ثم ظهور دورات جديدة مما يحتم أن يكون صادرا من القادر العليم. ويفضي به ثانيا إلى أنه لا يقبل عقلا أن يكون هذا الإحكام من قبيل العبث. إنه إذا كان الإنسان يخرج إلى الحياة ويعمر في الدنيا ويؤثر فيها، ثم يموت وينتهي الأمر، مع أن كثيرا مما قام به البشر تبقى آثاره سائرة بعد الموت. وتنتهي الحياة دون أن يجازى الصالح على صلاحه، والخبيث على فساده وظلمه. فالنظر مفض إلى أن الله سيعيد الخلائق إلى الحياة لينالوا جزاء ما قدموا. والله على كل شيء قدير، لا يعطل نفاذ قدرته حائل.

21. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون.

صرحت الآية بما فهم من سابقتها. فالنشأة الآخرة ليست عودة على غرار النشأة الأولى. النشأة الأولى نشأة تكليف، والنشأة الثانية نشأة حساب وجزاء، فيتصرف في خلقه حسب مشيئته، يعذب من يشاء تعذيبه، ويرحم فينعم على من يشاء، وإليه سبحانه يكون مصيركم.

22.وما أنتم بمعجزين...من ولي ولا نصير.

هذه الآية تحقق ما تضمنته الآية السابقة، وتجسمه، إنكم مأخوذون بيد القدرة الإلهية لا مفر لكم مما قدر لكم من الجزاء، إنكم لا تعجزون الله النافذة قدرته، فيسلط عليكم عقابه ولا تجدون ملجأ في الأرض، لا في جبالها ولا في كهوفها وأنفاقها، ولا في صحرائها ولا في بحارها. وحتى إذا تصورتم أن تنفلتوا في السماء، فأنتم في قبضته في أي موقع من مواقع السماء، هو الأمر الذي سيطبق عليكم، إنه مع عجزكم عن الانفلات بأنفسكم، فإنكم لا تجدون وليا يتقدم للشفاعة فيكم، ولا نصيرا ينصركم، إذ الأمر يومئذ كله لله .

23.والذين كفروا بآيات الله ولقائه...لهم عذاب أليم .

تتابع هذه الآية ما دلت عليه الآية يعذب من يشاء-21- فبعد أن أوضحت الآية 22 أن العذاب ينالهم ولا مفر منه، أكدت هذه الآية تهديدهم، وأنهم استحقوا هذا العذاب لكفرهم بآيات الله، وإنكارهم للبعث "ولقائه"، وأن هاتين الجريمتين أهلتهم لليأس من رحمه الله. إنهم يجزون الجزاء العادل ولا مطمع لهم تبعا لذلك في رحمة الله التي تخفف عنهم شيئا مما قدر لهم من العذاب، ولا أن يلحقهم عفو الكريم، هم مميزون باستحقاقهم للعذاب الذي يكون الإحساس بآلامه قويا.

من الآية 19 إلى هذه الآية يمكن حملها على أنها من كلام إبراهيم عليه السلام، كما يمكن أن تكون فاصلة بين أجزاء القصة من كلام رب العزة موجه لمن يتناولهم خطاب النبي ﷺ.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ

مهاجر مفارق ديار الكفر.

الكتاب الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والقران.

بيان المعنى الإجمالي

بعد احتجاج إبراهيم على قومه، وإظهار فساد عقائدهم، وإفحامهم حتى لم يبق لهم دليل عقلي مقبول، التجأوا إلى القوة المادية، فاتفقت كلمتهم على تصفيته جسديا بقتله أو إحراقه. ورجحت كفة الذين أرادوا إحراقه، فرموا به في النار، فتحولت بإذن ربها إلى برد وسلام، وخرج إبراهيم منها دون أن يمس بأذى. فكان ذلك جامعا لأدلة ربانية ينتفع بها القوم المؤمنون. وقال لهم إبراهيم: لقد سقطت جميع شبهاتكم ولا يوجد لكم متمسك فيما أنتم عليه إلا أمر واحد، هو أنكم عقدتم فيما بينكم، وفيما بينكم وبين الأوثان، مودة وحبا لا يتجاوز الحياة الدنيا. إنه عندما تحشرون يوم القيامة يتبرأ كل فرد منكم من الآخرين، ويدعو عليه بالخزي والمقت، ولا تجدون أي ناصر يشفع فيكم أو يخفف عنكم شيئا من العذاب.

لم يؤمن بإبراهيم إلا لوط ابن أخيه ﷺ، وأمام تصلبهم في الكفر ويأسه من اهتدائهم، أعلن أن سيفارقهم إلى مكان آخر يعبد فيه الله. إن الله عزيز حكيم.

جازاه الله عن إخلاصه بأن وهب له ولزوجته على الكبر إسحق رسولا، وحفيدا نبيا يعقوب، وجعل في نسل إبراهيم من سما إلى قبول الوحي، ومن أنزل عليه الكتاب السماوي كموسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل.

كان فضل الله على إبراهيم عظيما، جمع له بين ثواب الدنيا كالذرية الصالحة، واستمرار النبوة في نسله، وختم الرسالة بمحمد ﷺ، وحسن ثناء الناس عليه، وبين حسن ثواب الآخرة فهو من القوم الصالحين المجزيين بالمقامات العلى في الجنة.

بيان المعنى العام:

24- فما كان جواب قومه.. لقوم يؤمنون.

كان إبراهيم ؑ قويا في حججه، واضحا في بيانه، وأسقط كل ما قدموه من الشبهات والتشكيك، فلجأوا إلى استعمال القوة، فتآمروا بينهم على تصفيته ليستريحوا منه، قال بعضهم لنقتله، وقال آخرون وهم الأشد حقدا لنحرقه بالنار مبالغة في النكال به، وأوقدوا له النار اللاهبة وقذفوه فيها؛ فأنجاه الله من أن تتسلط النار على جسمه أو تؤلمه، إذ النار لا تفعل فعلها من الإحراق إلا بما أودع الله فيها من ذلك التأثير، وهو يسلبه منها متى شاء فتطيع.

تحدث الآيات الدالة في هذا المشهد على التصرف الإلهي وكمال القدرة، ففيه آية على أن الأسباب مفضية إلى مسبباتها بما أودع الله فيها من التأثير، لا لذاتها، وأن الله ينصر رسله، ويخذل أعداءهم، وأن تسجيل القرآن للمشهد يجعله آية للقوم الذين عاهدوا على الإيمان والتزموا به، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

25. وقال إنما اتخذتم...وما لكم من نصري.

توجه إبراهيم عليه السلام لقومه مؤنبا لهم على اتخاذهم الأوثان آلهة، كاشفا عن ضعف عقولهم، وقصر نظرهم فقال لهم: لقد شاهدتم سلامتي من النار، وكفى بذلك آية على أن المتصرف في الكون وفي ترتيب المسببات على أسبابها هو الله وحده، وقد ارتفعت الشبه التي كنتم تتعلقون بها، ولم يبق لكم وجه تستندون إليه في عبادتها إلا أنكم اتخذتموها مؤلفة بينكم، تجتمعون حولها وتقيمون لها الحفلات، وتتأكد تبعا لذلك أواصر الود والمحبة بينكم وبين الأوثان. إن تعلقكم بها وحبكم لبعضكم وللأوثان هي عواطف قاصرة على الحياة الدنيا زائلة بزوالها. وافتحوا أبصاركم على العاقبة، فإن ودكم هذا سينقلب إلى كراهية وبغض، سيتحول هذا الود إلى نكران كل فرد منكم لمن كان يأنس به، وإلى نكران للأوثان، ويحس كل فرد أنه خدع من الأوثان ومن عابديهم، فيصب لعنته عليهم ويدعو عليهم بالطرد والاحتقار من شدة تغيظه. وستتحدد علاقة اللاعنين والملعونين، فيكون المكان الذي يعودون إليه نار جهنم، ولا تجدون ناصرين يخرجونكم من النار.

26. فآمن له لوط وقال...إنه هو العزيز الحكيم.

أعلن إبراهيم مقاطعته لقومه، وخروجه من بلده الذي ساد فيه عبادة الأوثان. ورغم ما آتاه الله من قوة الحجة، ومن طلاقة اللسان في بيان ما أوحي له به، تصلب قومه في الكفر وأيس من اهتدائهم للتوحيد، ولم يؤمن من قومه إلا ابن أخيه (هاران) لوط ، فقرر أن يرحل عنهم، وأعلن ذلك قائلا: إني مهاجر إلى ربي، إني قطعت صلتي بكم وسأخرج لبلد يوحد أهله رب العالمين. إن ربي هو المتفرد بالعزة، الحكيم في كل ما يأمر به وينفذه.

27. ووهبنا له إسحاق...لمن الصالحين.

تعلق إبراهيم بربه العزيز الحكيم، فأعزه بأن وهب له على كبر سنه إسحق رسولا وحفيده منه يعقوب النبي، ثم تسلسل في ذريته النبوة والكتاب. فكان أبا للأنبياء والمرسلين الذين جاءوا بعده، الذين تعززت رسالاتهم بالكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل، وكان مسك الختام بمحمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن.

وتختم الآية بأن الله أكرمه فآتاه أجره الدنيا، بانتصاره على أعدائه، وحسن الثناء عليه، واستمرار الرسالة في ذريته حتى ختمت بمحمد ﷺ، ومما سنه النبي ﷺ يقرن الصلاة عليه بالتذكير بصلاة الله على إبراهيم. وهو في الآخرة محشور في زمرة الأنبياء، مجزي معهم في الدرجات العلى في الجنة.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاحشة: الفعلة البالغة الغاية في القبح.

قطع السبيل : قطع الطريق بالتسلط على المسافرين.

النادي : المجلس الذي يجتمع فيه الناس نهارا.

البشرى: الإخبار بما فيه مسرة.

القرية : قرية سدوم موطن المبعوث إليهم لوط.

ضاق بهم ذرعا: وقع في ضيق وحرج.

الغابرين : الهالكين.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكر لهم خبر لوط، حاصل هذا الخبر: أن لوطا أهمه ما كان عليه قومه من الفساد، فأوحى الله إليه أن ينذرهم سوء عاقبة قبيح فعالهم فقال لهم: إنكم تفعلون فعلا شنيعا جدا لم يسبق أن فعله أحد قبلكم :إنكم تقضون شهوتكم الجنسية بإتيان الذكران في أدبارهم، وتتعرضون المسافرين في طرقهم لتعتدوا عليهم وعلى أموالهم، وترضون بكل منكر في أماكن اجتماعاتكم. تحدوه قائلين: إن كنت تزعم أن الله بعثك بهذا، وأنه سيسلط علينا عذابه إن عصيناك، فنحن نتحداك أن يسلط علينا عذابه، إن كنت من الصادقين فيما تدعيه من أنك مرسل منه.

لما أيس من اهتدائهم توجه مبتهلا إلى الله أن ينصره على هؤلاء القوم الذين تمكن الفساد من عقولهم حتى أصبح عادة لهم. ولما بعث الله ملائكة لسيدنا إبراهيم كي يبشروه بما سيرزقه الله من الولد، وبقاء العقب، أخبروه بأنهم سينتقلون من عنده إلى قرية لوط لإهلاكها بسبب ظلمهم. خشي على ابن أخيه الرسول لوط، فقال لهم إن لوطا مقيم بينهم. أجابوه نحن أعلم منك بمن فيها، فقد تلقينا من الله علما يقينيا واضحا عرفنا بكل من يسكن القرية. وكلفنا بإنجاء لوط وأهله إلا امرأته التي ستكون من المتخلفين بعده وتهلك مع أهل القرية.

انتقلت الملائكة إلى قرية لوط، ودخلوا عليه. فوقع في شدة، فهم من ناحية ضيوف يجد لذة في إكرامهم، ومن ناحية أخرى يعلم أن قومه لا يفلت من اعتدائهم أي وافد على قريتهم. كان يظن أنهم بشر ضيوف. نفسوا عليه ضيقه وقالوا له: لا تخف علينا، ولا تحزن لما سيصيب قومك وامرأتك. كلفنا ربنا أن ننجيك وأهلك إلا امرأتك، وأن ننزل على سكان هذه القرية عذابا من السماء يشملهم جميعا، ولا يستطيع أي أحد أن يحمي نفسه منه، وذلك بسبب فسقهم. نفذوا فيهم العذاب، وكانت نهايتهم اية باقية على مال المفسدين يتدبرها الناس ليتعظوا.

بيان المعنى العام

28. ولوطا إذ قال...بها من العالمين

وأرسلنا لوطا إلى قومه ففاتحهم بقوله: إنكم ترتكبون فعلا بلغ من القبح أبعد غاية، تسفلتم فأحدثتم حدثا منكرا جدا ما عرف في تاريخ البشرية.

29. أئنكم لتأتون الرجال...من الصادقين.

واصل مقت ماهم عليه، فشهر بأنواع الفساد الذي استشرى فيهم، وعم مجتمعهم، فواجههم بتعداد قبائحهم: إنكم تقضون شهوتكم الجنسية مع ذكور أمثالكم، فأفسدتم الرجال بانحراف فطرتهم، وأفسدتم النساء بحرمانهن من طرق الاشباع الفطري للجنس. ثم إنكم اعتديتم على طرق التواصل التجاري، باعتدائكم على المسافرين للاستيلاء على أموالهم أو اغتصاب ذكرانهم. ثم إنكم تجتمعون في نواديكم فتجاهرون بالمنكر من القول والفعل، مما يجعل هتك الفضيلة معتادا شائعا، وبالتالي انقلب معروفا.

يفهم من جوابهم أنه هددهم بأنه سيحل عليه عذاب الله إذا لم يقلعوا عن الفساد الذي انغمسوا فيه. ولذا قالوا له لما ألح عليهم: تخوفنا بعذاب الله فنحن لا نصدق ادعاءك أنك مرسل من عنده، ونحن نتحداك أن تطلب من ربك أن يسلط علينا عذابه.

30. قال رب انصرني على القوم المفسدين.

يئس من امتدائهم فتوجه مبتهلا إلى ربه أن ينصره على قومه المتصلبين في الكفر، الذين فسدت أخلاقهم، وسفلت طباعهم، وألفوا الفساد والإفساد، فلا تفيد فيهم الموعظة.

31. ولما جاءت رسلنا...إن أهلها كانوا ظالمين

استجاب الله دعاء لوط، وقدر إنجاز إهلاك قومه المفسدين. وأعلم بالخبر عمه إبراهيم. أتته الملائكة مبشرة أن الله يمنحه، على تقدمه في السن، وكبر زوجه، ولدا نبيا وحفيدا. وأتبعوا بشارتهم بأن الله كلفهم بإهلاك قرية سدوم وذلك بسبب ما فشا فيهم من الظلم، ظلموا الأخلاق فداسوها، وظلموا المسافرين فبدلوا الأمن خوفا، وظلموا رسولهم فكذبوه. تلك القرية التي كان لوط نازلا فيها، ودعا أهلها إلى الإقلاع عما تعودوا القيام به من الفواحش فتحدوه معرضين.

32. قال إن فيها لوطا... كانت من الغابرين.

خشي إبراهيم على ابن أخيه لوط أن يناله العذاب، وهو الذي بذل كل جهوده لتعلو الفضيلة، فنبه الملائكة أن لوطا مقيم فيهم ليستثنوه من الهلاك. كان جوابهم أن الله أطلعهم على من يسكن القرية من الصالحين الذين ما فسدوا ولا رضوا، وصرحوا

بأنهم تبعا لذلك أعلم من إبراهيم. وقالوا : نحن عازمون عزما أكيدا على إنجائه، وإنجاء أهله، ما عدا امرأته فإنه سينالها من العذاب ما ينال سدوم.

33. ولما أن جاءت رسلنا لوطا ـ كانت من الغابرين.

توجه الملائكة بعد أن بشروا إبراهيم، وأخبروه بمهمتهم في قرية لوط، توجهوا إلى سدوم .

دخلوا على لوط، فظن أنهم ضيوف قصدوا بيته، فوجد نفسه مقسما بين الابتهاج بهم ليسعد بإكرامهم، وبين ما يعلم من فساد قومه، وتعديهم على الغرباء. وقع في كرب نفسي وضاق به الأمر، إذ كان يظن أن الوافدين بشر ضيوف، إذ قدموا عليه في صورة إنسانية، ولم يخبروه بأنهم ملائكة. بدا عليه التضايق، فنفسوا عنه بإخباره أنهم ملائكة، وطمأنوه تطمينا يزيل ما عراه من خوف، وقالوا له: لا تخف علينا، ولا تحزن على مصير قومك الذي جئنا لتنفيذ العذاب عليهم. كلفنا ربنا بأن ننجيك أنت وأهلك من العذاب، إلا امرأتك التي حق عليها القول: أنها من الهالكين.

34. إنا منزلون على أهل هذه القرية ـ بما كانوا يفسقون

وكشفوا له أن العذاب الذي وكلوا بتسليطه، هو عذاب مؤلم ينزل عليهم من السماء لا ينجو منه أي أحد منهم. وقد فصلته الآية 82 من سورة هود.

35. ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون

لم يعف النسيان على مصير قرية لوط، فقد بقيت بعض من آثارها، شاهدة على مصير أهلها، كما حفظ التاريخ هلاك قوم لوط، ولم يمحها من ذاكرة الإنسانية. ليكون مصيرهم دلالة لمن يعقل على نكال الله بهم، وتهديدا لمن يكون على شاكلتهم.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿36﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿37﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿38﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿39﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿40﴾

بيان معاني الألفاظ

ارجاء : الترقب عن اعتقاد.

منهم : منعهم.

السبيل : الطريق المبلغ للمطلوب الحق.

مستبصرين : أصحاب بصر بالأمور وعقل مساعد.

استكبروا :بلغ منهم الكبر حدا بعيدا.

سابقين:منفلتين من العقاب.

الأخذ: الإهلاك.

بيان المعنى الإجمالي:

أرسل الله إلى مدين رسولا منهم أخاهم شعيبا، دعاهم إلى تخصيص الله بالعبادة، وأن يوقنوا بالبعث وأن يصلحوا في الأرض التي استخلفوا فيها ولا يفسدوا. فكان موقفهم من دعوته تكذيبه أن يكون رسولا من عند الله. فهزتهم بالليل رجفة عظيمة، فدخل عليهم الصباح وهم جثث هامدة.

وأهلكنا عادا وثمودا؛ وقد أبقينا على مساكنهم عبرة للناس. لقد تمكن الشيطان من جعلهم يظنون: أن أعمالهم السيئة، حسنة صالحة، فمنعهم ذلك من اتباع طريق الهداية، رغم أنه كان لهم حظ من الفهم.

وكذلك أهلكنا قارون وفرعون وهامان، بعد أن جاءهم موسى مؤيدا بالمعجزات البينة. صرفهم عن اتباعه تعاظمهم وكبرهم البالغ؛ وما استطاعوا الانفلات من العذاب . كل واحد منهم أخذناه بالعذاب المناسب لإجرامه. فأرسلنا على عاد حاصبا ريحا شديدة دمرتهم، وعلى ثمود صيحة مزقت أنسجتهم، وخسفنا بقارون وأتباعه وأمواله الأرض، فما بقي منهم أثر ، وأغرقنا فرعون وهامان وأتباعهما وجنودهما. لقد كان الجزاء من جنس فاسد أعمالهم، فما ظلمهم الله بتسليط عذابه عليهم بعد أن نبههم وأرسل إليهم رسله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والكبر .

بيان المعنى العام

36 -وإلى مدين... ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

أرسلنا إلى مدين رسولا منهم هو شعيب عليه السلام. ابتدأ دعوته لقومه بأن يفردوا الله بالعبادة، وأن يتيقنوا بأنهم سيبعثون للحساب والجزاء، الأمر الذي يجعلهم يراقبون الله في أعمالهم منتظرين ثوابه يوم القيامة. ونهاهم عن الفساد في الأرض بتذكر أنهم مستخلفون فيها ومسؤولون .

37. فكذبوه...في دارهم جاثمين.

قابلوه بالتكذيب أن يكون الله بعثه بما طلبه منهم. فعاجلهم زلزال شديد ارتجفت بهم الأرض ليلا زلزالا شديدا يتجاوز طاقة احتمالهم فهلكوا. وطلع الصباح عليهم وهم جثث هامدة لا حراك لها.

38. وعادا وثمودا...وكانوا مستبصرين.

جرى الأمر في تتابع القصص على نفس نسق الذكر في سور القران، في التذكير بقصتيهما بعد قصص ابراهيم ولوط وشعيب. أهلكنا عادا وثمودا، ولم تعف على آثارهم، فما تزال آثار مساكنهم ناطقة بما كان فيها من عمارة شاهدة على وضعها يوم كانت عامرة بأهلها وعلى مصيرهم.
لقد زيّن وحسّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة، فانقلب عندهم سلم القيم. فمنعتهم وسوسته من اتباع طريق السعادة، رغم أنهم كانوا أصحاب عقول قادرة على الفهم والنظر.

39. وقارون وفرعون وهامان ...وما كانوا سابقين.

ثم ذكرهم القرآن بعاقبة رؤوس الكفر، فرعون وهامان وقارون الذين بلغهم موسى هداية ربه، وأيدها بالمعجزات الظاهرة، فرفضوا قبولها، تبعا لاعتقادهم أنهم أعلى وأعظم من أن يتبعوه. وما أشد غباءهم فإنهم لا يستطيعون الانفلات من عقاب الله. وفي هذا تهديد لرؤوس الكفر من قريش، المستكبرين: أنه سينالهم العذاب والنكال.

40. فكلا أخذنا بذنبه...كانوا أنفسهم يظلمون.

فصلت هذه الآية نوع العذاب المسلط على كل واحد. منهم من أرسل الله عليه ريحا مزقتهم شر ممزق كعاد. ومنهم من أهلكتهم الصيحة الشديدة التي مزقت كيانهم وهم ثمود. ومنهم من ابتلعته الأرض وهم قارون وأتباعه وماله. ومنهم من ابتلعه اليم وهم فرعون وهامان وأتباعهما وجنودهما. إن كل واحد جوزي جزاء مناسبا لما قدم. وهو العدل الذي تنادي به الفطرة السليمة. وتحقق أن الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالعناد والاستكبار.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ

الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوهن: أضعف البيوت مقاومة.

العزيز: النافذ مراده لأنه لا يغلب.

وما يعقلها: يفهمها على الوجه المراد منها.

الحق: يؤدي ما خلق له دون نقص أو اختلال.

الفحشاء: تجاوز الحد الذي حدده الإسلام.

المنكر: ما ينكره الشرع، وهو شامل للأفعال والنوايا.

تصنعون: ما جرى في نفوسكم قبل العمل، وما نفذتم.

بيان المعنى الإجمالي:

ضرب الله مثلا يصور عُبّاد الأصنام، مثلهم كمثل العنكبوت تجهد نفسها لبناء بيت يحميها وتأوي إليه، ولكنه بيت واه ينهار لأي حركة فينقلب هباء. وهكذا أصنامهم لا تفيدهم شيئا وكل ما بذلوه من جهد لتقديسها، وتعليق الآمال بها، ينهار ولا يجدون شيئا. ولكنهم جهلة لا يعلمون المآلات. والله يعلم أن ما تدعون من دونه لا حقيقة له بل هو أوهام. والله يضرب الأمثال للناس تقريبا للحقائق العالية، وما يستفيد منها إلا العالمون، أما الجهلة المشركون فلا تفيدهم شيئا. وإذ زيف القرآن ما يعبدونه من دون الله، لفت الأنظار إلى النظام الكوني الذي يقوم دليلا على أن الله خالق السماوات والأرض خلقا ملتبسا بالحق، تؤدي وظيفتها حسبما قدره لها. وفي هذا التقدير المحكم آيات للمؤمنين فتتضاعف طمأنينتهم أنهم على الحق.
أمر الله محمدا ﷺ أن يواصل تلاوة القرآن الذي أوحاه إليه كتابا منزلا، وأن يقيم الصلاة بأدائها على أتم وجه يحقق الصلاح النفسي. إن الصلاة إذا أقيمت مستجمعة للشرائط والأركان والفضائل، واستحضر المصلي موقفه بين يدي الله، فإن صلاته تساعده على الاستقامة وتنهاه عن فعل المحرمات وعن إتيان المنكر، وإن ذكر الله شيء عظيم جدا فهو يجعل الذاكر قريبا من ربه. والله يعلم أعمالكم الظاهرة، وحقيقة الدوافع الباطنية لها.

بيان المعنى العام:

1 - مثل الذين اتخذوا...لو كانوا يعلمون.

تجسيم بديع يظهر وضع الكافرين، وهم يتحركون حول الأصنام، ويستنبطون لها شعائر من التقديس، ويجعلون لها طقوسا ومواسم، ويتقربون إليها بما أملته عليهم

أخيلتهم، وأحاطوها بهالة من التعظيم، واتخذوها آلهة من دون الله. قارن القرآن بينهم وبين الحشرات، فكانت الصورة القريبة من نشاطهم الديني، العنكبوت الذي يجهد نفسه ويخرج من ذاته خيوطا يواصل التأليف بينها ويربطها ليكون له منها بيت يأويه ويحفظه، ولكنه بيت ضعيف واهن كأشد ما يكون الضعف، والوهن، فما إن يصدمه جسم عن قصد أو غير قصد، حتى يتهاوى وينهار، وعلى وزان بيت العنكبوت من الضعف والوهن وعدم الغناء، ما نسجوه من أوهامهم حول آلهتهم، إذ تنهار رابطتهم بتلكم الأصنام وتتبخر آمالهم فيها كلما لجأوا إليها لتحميهم. فهم أقرب ما يكون إلى العنكبوت؛ ولكن جهلهم جعلهم لا يدركون شبههم بها.

42.إن الله يعلم ...وهو العزيز الحكيم

بعد أن ضرب القرآن المثل لوهن آلهتهم وعدم غنائها ببيت العنكبوت، أكد ذلك بأن الله يعلم: ما تدعون من دونه من شيء. فما نافية أي إنكم لا تدعون من دون الله شيئا. يعني أن الذين تدعونهم من دون الله أوهام وخيالات لا تستحق أن تسمى شيئا. فتكون من الثانية "من شيء" ليس لها فائدة إلا تأكيد النفي المستفاد من "ما تدعون". وختمت الآية بأنه تعالى هو العزيز، وعزته توجب خضوع الكائنات له؛ وهو ما يؤكد زيف معبوداتهم. وهو الحكيم ومن حكمته كشف الأوهام بمختلف الطرق التي منها ضرب الأمثال.

43. وتلك الأمثال نضربها...وما يعقلها إلا العالمون.

المثل المضروب هنا "بيت العنكبوت" يذكر التالي بالأمثال التي عرضها القرآن، فلفت النظر إليها وأشار إليها، باعتبار المفهوم الجامع بينها، على أن تكون كاشفة موضحة، ومقربة للمعاني البعيدة، المساعدة على قبول العقل للحقائق التي ربما تخفى عليه لأول الأمر. ولكن لا يفهمها إلا من صقل عقله بالمعارف والعلوم، ويضل في إدراك غاياتها الجهلة، وخاصة الذين ضربت التقاليد حجبا على مداركهم.

44.خلق الله السماوات ...لآية للمؤمنين.

بعد أن زيف الآلهة المعبودة من دون الله بالدليل والمثال، لفت الأنظار إلى النظام الكوني، الذي يقوم شاهدا على أن الخالق الإلهي بلغ غاية الإحكام، فهو يؤدي ما خلق له على النحو الذي قدر له دون اختلال. وأسرار الخلق هذه تقوم دليلا للمؤمنين، ولا تنفع المشركين.

45. اتل ما أوحي إليك من الكتاب...والله يعلم ما تصنعون.

هذه أوامر من الله لرسوله :

1)الأمر الأول: أن يواصل تلاوة القرآن: الكتاب الذي أوحى الله به إليه، يتلوه على المشركين ويتلوه على المؤمنين، إذ هو كلام رب العالمين الجامع للعقيدة والتشريع والأدب ومتنوع المعارف، وأن لا يصده تمادي المشركين على الكفر به أو تشغيبهم، وهو أمر للمؤمنين أيضا باعتبار أن كل أمر خوطب به النبي ﷺ ينسحب على أمته، فالقرآن بالنسبة إليهم المعين الذي لا ينضب يمسق إيمانهم، ويحيي أرواحهم، ويصلهم بالمعارف العقلية والكونية والتاريخية، على منهج فريد تميز به،لا يشاركه في ذلك أي كتاب اخر من الكتب الدينية المنزلة، ولا مما ألفه البشر.

2)الأمر الثاني: أن يقيم الصلاة، وهو أمر يتشعب إلى شعبتين:

أ-المواظبة عليها وعدم التراخي في أدائها في أوقاتها المحددة.

ب - إقامتها بما يتجاوز أداءها كيفما اتفق، إلى أدائها على الطريقة المثلى في الظاهر والباطن. ولذا كان الأمر أقم الصلاة، دون صل أو أد الصلاة. وتحقيقا للعناية بالصلاة عناية خاصة عميقة، أتبع الأمر بالتعليل الكاشف عن أثر الصلاة المترتب على إقامتها في إصلاح المؤمن. فجمعه في أمرين؛ تنهى المقيم لها عن الفحشاء، وتنهاه عن المنكر. فكيف يفهم هذا التعليل؟

الذي فهمته: أن الصلاة إذا أقيمت على الوجه الأكمل ظاهرا، بجميع شروطها وأركانها وآدابها، وباطنا، باستحضار المصلي أنه واقف بين يدي ربه كما يقول الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد رحمه الله: والمصلي يناجي ربه. انه إذا قام بهذه المناجاة على أقل تقدير خمس مرات في اليوم والليلة على هذا النحو من الاستعداد والاستحضار حصلت في نفسه ملكة، أجتنها في أن خيط النور الواصل بينه وبين خالقه يكون متوهجا، لا تستطيع ظلمة الشهوة أن تحجب أنواره، وكلما حدثته النفس الأمارة أو اغتنم الشيطان فلتة من فلتات الضعف، وجد النفس بإقامة الصلاة يقظة، تبعده عن قذارة الخطيئة. كما سبق أن بيناه في قوله تعالى: إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [1]

و الفحشاء والمنكر ليسا شيئا واحدا، وإن كان مفهومهما متقاربا. فالفحشاء تطلق على القبح الظاهر، والمنكر ما ترفضه النفس النقية.

ولذكر الله اكبر :ذكر الله يمكن أن يفهم على أنه الصلاة، فتكون هذه الجملة زيادة تأكيد لإقامة الصلاة ووجهه : أن الله يقول في سورة الجمعة : فاسعوا إلى ذكر الله (صلاة الجمعة) سورة الجمعة اية9 كما يمكن أن يفهم على الأمر بذكر الله أي، الل

[1] سورة الاعراف اية201

القرآن، وأقم الصلاة، واذكر الله بقلبك ولسانك، ولما كان الذكر يصحب المؤمن مصاحبة أكثر من الصلاة، إذ يكون في الصلاة وفي غيرها كان أمرا عظيما وتأثيره في الروح عميقا. يقول ابن عطية رحمه الله: والانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له، وثواب ذلك الذكر: أن يذكره الله تعالى، كما في الحديث (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم - البخاري في التوحيد ومسلم في الذكر) والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله تعالى، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه، قال تعالى: فاذكروني أذكركم[1]

ونختم الآية بالإعلان عن الحقيقة التي يجب أن يكون الإنسان ذاكرا لها دوما: أن الله عالم العلم الكامل بكل ما تعملون، وبما رتبتم في نفوسكم من مقدمات وغايات لأفعالكم.

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ

المجادلة: المناقشة بالحجة.

أهل الكتاب: اليهود والنصارى، والصابئة.

ارتاب: شك.

المبطلون: المكذبون مع انتفاء الشبهة

[1] سورة البقرة آية 152

بيان المعنى الاجمالي:

علّم الله هذه الأمة كيف تقدم الإسلام بصفة حضارية إلى أهل الكتاب، من اليهود والنصارى والصابئة. أمرهم ربهم أن يثبتوا الإسلام بالحجج والبراهين، على أحسن وجه دون عنف مع مخاطبيهم، إلا الذين ظلموا منهم كالذين حرفوا ثوابت دينهم، أو المستكبرين الذين آذوا النبي ﷺ أو آذوكم . وقولوا لغير المستكبرين من أهل الكتاب: إنه يجمعنا بكم أننا نؤمن بأن الله أنزل وحيه على رسلكم وعلى رسولنا، ونتفق أن إلهنا وإلهكم واحد، ونتفق على إسلام وجهنا له والانقياد لتشريعه.

و على هذا النحو من الدقة والبيان أنزلنا إليك الكتاب: القرآن. فالذين آتاهم الله الكتاب ولم يفسدهم الحسد، ولا غلبة حظوظ الدنيا، يؤمنون بما أنزل إليك، كما أن فريقا من المشركين اهتدوا به وآمنوا، و انحصر رفضه وإنكار كونه من عند الله، في المتعصبين المتصلبين في الكفر .

إنك أمي ما عرف قومك الذين كانوا يعلمون كل دقيقة عن حياتك قبل أن يوحى إليك، ما عرفوا أنك كنت تكتب أو كنت تجلس لمن يعلم الأديان فتقرأ عليهم ما يلقنونك. إذ لو حصل أحد هذين الأمرين لكان لهم شبهة. لما وأنت أمي فإنه يستحيل أن تأتيهم بهذا الوحي المعجز الذي أنزلناه عليك. فانتفاء أي شبهة، يحقق أن المكذبين على باطل. إن آيات القرآن أدلة تثبت أنها معجزة لك، تميزت بوضوحها، فقبلتها عقول العلماء فاستقرت فيها. إنه لا يرفض القرآن ويجحد أحقيته إلا المتصلبون في الكفر الذين لا ينقادون للحق.

بيان المعنى العام :

46- ولا تجادلوا أهل الكتاب...ونحن له مسلمون.

ناقشت الآيات السابقة المشركين، وكشفت عن جهلهم وتعصبهم، وأغلظت عليهم. ولما كان القرآن دعوة عامة، وجه القرآن الرسول والمؤمنين به إلى الطريقة التي تتم بها دعوة أهل الكتاب ومناقشتهم. إن البون شاسع بين المشركين الذين تعلقوا بالأصنام وعبدوها من دون الله، وبين أهل الكتاب الذين رفضوا الأصنام وآمنوا بالله. لذلك نهت هذه الآية الرسول والمؤمنين عندما يعرض لهم مناقشة أهل الكتاب، من اليهود والنصارى والصابئة على ما بيناه سابقا من أنهم أهل كتاب. أن يناقشوهم بالطريقة التي هي أحسن، الطريقة التي لا تثير فيهم المعاكسة والعناد. إنهم بمخالطتهم لما بقي بين أيديهم من الوحي، ولإيمانهم بالله، استقر في عقولهم كثير من الحقائق التي يتحدون فيها مع المسلمين. وتكون قاعدة الحوار هذه عامة إلا بالنسبة للذين ظلموا منهم. وأنواع ظلمهم كثيرة، منها ما يعود إلى التحريف الكبير

الذي أدخله بعضهم على ثوابت الدين وانحرفوا به عن أصوله. ومنها ما يعود إلى الديانات السابقة. كانت قريش ترقبه وتعلم الشيء الكثير من حياته قبل النبوة؛ وأنه ما كان في تلك الفترة يتلو شيئا من الكتب السابقة، كما أنه ما كان يعرف الكتابة حتى يتهم بأنه خط القرآن بيده وجوده ثم عرضه عليهم. إنه لو كان تاليا للكتب أو كاتبا غير أمي، إذن لكان للمبطلين المكذبين الذين لا شبهة لهم في تكذيبه، لكان لهم وجه لحصول الشك فيما أتى به. أما وقد تيقنوا جميعا أن موجبات الريبة منفية يقينا، فاتهامه بأن القرآن من عند غير الله تهمة باطلة لا أساس لها.

49. بل هو آيات بينات...إلا الظالمون.

بل: إبطال لحصول أي ريبة في كون القرآن منزلا من عند الله، وإذ انتفى أن يكون مما خطه النبي ﷺ بقلمه، أو تلقى علمه من أي بشر، ثبت أنه منزل من عند الله. ومما يزيد ذلك تحقيقا أنه آيات معجزات واضحة في نصه، الذي وقع به التحدي فعجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله، أو في النواحي العلميه التي تزداد ثباتا كلما تقدم المستوى العلمي للبشرية، أو فيما أخبر به من الغيب. أو في كون المنزل عليه أميا ما كان له أن يعرف ما قصه من أخبار الأمم الماضية. هذه الآيات البينة استقرت في صدور الذين أوتوا العلم، كلما تعمقوا في معارفهم ازدادوا لطمئنانا لكونه حقا منزلا من عند الله. وما ينكر آيات ربنا وينفون أن تكون منزلة من عنده، إلا الظالمون الفارغون من الإنصاف.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ

كفى بالله : الله كاف لي في إظهار الحق.

يستعجلونك : طلبوا تعجيل العذاب استخفافا به.

بيان المعنى الإجمالي

اقترحوا أن ينزل الله على رسوله معجزات حسية، قل لهم إن الله يؤيد رسوله بما يشاء لا بما تقترحون. تفرد سبحانه بإعطاء السنن في الكون، وهو الذي يخرقها بما شاء في الوقت الذي يشاء، واعلموا أن دوري قاصر على إنذاركم حلول العذاب بكم إن أعرضتم.

والعجب من تصلبهم في الكفر، ألم يكفهم القرآن المنزل عليك من عند الله، تتلوه عليهم وقد اشتمل على الرحمة للبشر بتوضيح ما يسعدهم في الحياتين، وإنه ليحرك ضمائر المؤمنين وأرواحهم للخير.

قل لهم: كفاني الله شهيدا بيني وبينكم، يظهر من هو على الباطل ومن هو على الحق، إن ربي لا يخفى عليه شيء، كيف لا وعلمه يشمل السماوات والأرض ومن فيهما. والنتيجة التالية لذلكم الاحتكام واضحة، فالذين آمنوا بما لا حقيقة له، وأنكروا ألوهية الله تفردوا بالخسارة.

يطلبون منك أن تعجل نزول العذاب الموعود عليهم. وهذا من جهلهم، فإن العذاب مقدر في علم الله نوعه وأجله، فلا يتقدم عن موعده لسؤالهم حلوله، ولا يتأخر لو طلبوا تأخيره. وليكونوا واثقين أن العذاب سينزل عليهم لا محالة فيبغتهم، في الوقت الذي هم فيه غافلون، غير شاعرين أنه حل أجله. يستعجلونك بالعذاب ظنا منهم أنه لا عذاب إلا عذاب الدنيا، وجهلوا أن العذاب الذي يشملهم ولا يفلت منه أحد منهم هو عذاب جهنم، في ذلك اليوم يحيط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويسمعون صوتا أذن الله أن يخترق أسماعهم يقول : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من سوء في الدنيا.

بيان المعنى العام

50- وقالوا لولا أنزل عليه آيات...إنما أنا نذير مبين

سجلت الآية تعنت المشركين، وحسب الظاهر فإن الآية تتحدث عما يدور بينهم في مجامعهم ليشككوا أتباعهم في صدق الرسول، كما يفهم من إسناد القول إلى ضمير الغائب دون مواجهة الرسول، فلم يقل وإذ قالوا لك، وآية من ربه دون ربك. فهم قد دبروا هذا في خلوتهم، ثم تحدوا الرسول أن يأتي بآية يؤيده بها ربه من النوع

الخارج عن قدرة البشر (من ربه) يقصدون من تحديهم هذا أن تكون الآية من المحسوسات المشاهدة كعصا موسى.

أجبهم جوابا قاطعا لهذا النوع من التشغيب: إن الآيات بيد الله لا تأتي حسبما تقترحون وتتصورون، وقد عرض موسى آيات محسوسة مفصول بينهما بوقت تارة غير قليل، ومع ذلك فكلما انقضت مشاهدة المعجزة عاد الكافرون إلى ضلالهم. ومن ناحية أخرى فإن الآيات المعجزة تكون حسب طبيعة الرسالة فإذا كانت موجهة لقوم معينين جاءت الآية بما يشاهدون، وإذا كانت الرسالة عامة لمن حضر ولمن لم يحضر، كان التأييد بمعجزة يدركها من حضر ومن غاب، مما يقتضي أن تكون عقلية لا محسوسة.

وقل لهم: إن مهمتي تقتصر على إنذاركم ما يترصدكم من عذاب، وأبين لكم مضمون رسالتي بوضوح كامل.

51. أو لم يكفهم أنا أنزلنا ...و ذكرى لقوم يؤمنون

عجب من اقتراحهم آيات، ألم يكتفوا بالمعجزة العظيمة أننا أنزلنا عليك الكتاب. وهو الكتاب المحفوظ من التغيير والتبديل، المعجز بمجموعه، والمعجز بكل ثلاث آيات منه. وفي التعبير بالكتاب إشارة إلى أنهم يستدلون على مضامين دياناتهم بما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، ولا يستطيعون ادعاء أن النص الذي بين أيديهم هو النص المنزل من عند الله، فمن البديهي تبعا لذلك أن يكون القرآن المحفوظ من التبديل آية باقية . ثم أضاف مبرزا مزايا القرآن :

أ: أن نصه ميسر للحفظ يتلوه القارئ والأمي، ويحفظه العالم والجاهل، والرجل والشاب والصبي. وهذا من أسرار بقائه حجة مدى الدهر.

ب- أن نصه معجز، وما قدر الله أن يكون غير القرآن معجزا، ولذلك لا فرق عندهم بين اللغات العديدة التي يروج ويقرأ بها نص التوراة والإنجيل.

جـ -أنه رحمة، يفتح للإنسان أبواب حل مشاكله وتساؤلاته الدينية والحياتية. وقد فهم هذا الوصف بصفة عامة شاملة صحابة رسول الله ﷺ، فاعتمده أبو سعيد الخدري ورقى به الملسوع فشفي[1].

د- أن التدبر في نصه يرقق القلوب، ويحيي في النفس خشية الله ومراقبته، ويساعد على تذكر الآخرة، وبالتالي يصلح المجتمع كله بما له من أثر مباشر في المؤمنين.

---

[1] فتح الباري ج5 ص262

52. قل كفى بالله بيني وبينكم..أولئك هم الخاسرون.

أرشدت هذه الآية النبي ﷺ، أن يعرض عليهم أمرا فيه الانتصاف ولا يستطيعون رده، وهو ملزم لهم: قل لهم إن الله يكفيني في إظهار الحق، فيشهد من هو المحق ومن هو المبطل. إنه وحده العليم بما في السماوات وما في الأرض فلا يغلت من علمه ما تدبرونه وما تتآمرون به لتوقيف المد الإسلامي. إن الذين آمنوا بالباطل، أي ما ليس بحق فمشركو مكة آمنوا بأصنامهم، واليهود الذين تبرروا هذا التحدي انحرفوا أولا عن التوحيد الذي أكدته التوراة، وكذلك النصارى، وثانيا عن التعاليم التي لم ترضهم فتجاوزوها بالتأويل الباطل.

و هددهم بأنهم خاسرون للعاقبة، لأنهم وثقوا بالباطل واعتمدوه، وكفروا بالله وما أنزله على رسوله. ونتيجة هذا الواقع هو تفرد الفريق المؤمن بالباطل الكافر بالله بالخسران.

53. ويستعجلونك بالعذاب ...وهم لا يشعرون.

واصل القرآن عرض صور من تحدي المشركين لرسول الله ﷺ . طلبوا منه أن يعجل عذابهم إنكارا للوعيد الذي أوعدهم به، واستخفافا به. أجابهم القرآن بأن حلول العذاب بهم هو من جهة أمرٌ محقق فسيحل بهم بغتة دون تجديد إنذار، ومن جهة أخرى هو مقدر عند الله نوعه وأجله، وأنه عند حلول أجله سيأتيهم ما أوعدهم به. إن الله حكيم لا يستفزه استعجالهم فيقدمه عن أجله. وهو حليم حكيم فلا يعاجلهم بالعقوبة لأنه سبق في علمه أن من المشركين ومن ذريتهم من يؤمن بالله ورسوله، ويكون قوة لجند الإيمان، وهذا ما تم فعلا في الوجود.

54.يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين.

من غفلة المشركين استعجالهم حلول العذاب بهم، وظنهم أن العذاب مقصور على النكال بهم في الدنيا، وسيوزع العذاب عليهم، فمن لم ينله في الدنيا نصيبه من العذاب، فإن جهنم ستحيط بالكافرين جميعا، من عذب في الدنيا بالهزيمة والقتل، ومن انفلت من عذاب الدنيا، إنها ستحيط بهم فلا يفلت أحد منهم من عذابها.

55. يوم يغشاهم العذاب..ذوقوا ما كنتم تعملون.

صورت الآية هول العذاب، وأنه سيصل إلى كل جزء من أجزائهم فيحيط بهم، هو عذاب ينزل عليهم من فوقهم، ويصعد إليهم من تحت أرجلهم.

ويضاف إلى العذاب الجسمي، عذاب نفسي هو الاحتقار والإذلال والشماتة، فيسمعون ممن أذنه الله بإبلاغهم: ذوقوا ألم العذاب على وزان ما كنتم تعملون في الدنيا، فآثامكم مسجلة عليكم، وعذابكم مقدر بمقدار كل سيئة صدرت منكم.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ

لنبوئنهم: لنسكننهم.

الغرفة : البيت المعتلي على غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية وما تلاها فيه إعداد المؤمنين للهجرة، يناديهم ربهم بقوله: يا عبادي الذين آمنوا، تأنيسا لهم بما يذهب عن نفوسهم الأسى والخوف من المستقبل: إني خلقت الأرض واسعة تأويكم ولا تضيق عن توفير أسباب الحياة حيثما كنتم، خصوني بالعبادة . لا تخافوا في سبيل الثبات على عقيدتكم أي قوة، كل نفس ستموت لامحالة، يتلو الموت رجوعكم إليّ لتجدوا الجزاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد تقدم جزاء الكافرين فأعلنت الآية جزاء المؤمنين؛ أن يسكنهم بيوتا عالية تتخلل أراضيها المياه المتدفقة في الأنهار، ولا ينقطع نعيمها. ما أحسنه من جزاء لمن عمل صالحا. هم الذين صبروا على الثبات على الحق، ووثقوا بعون الله ورعايته.

بيان المعنى العام:

56-يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون.

الذي ذكره معظم المفسرين أن هذه الآية تفيد الإذن لمسلمي مكة، الذين بالغ المشركون في إذايتهم ليفتنوهم عن دينهم، أن يتحولوا عنها إلى المدينة. والذي أفهمه أنه إعداد لهم للتحول عن مكة إلى المدينة. هيأ نفوسهم للهجرة بأن أرض الله واسعة، لا تضيق بالبشر. وهو متضمن لوعد بعونهم وعدم إهمالهم .فالمهم أن لا يتعلقوا بالأرض تعلقا يقدمون معه البقاء فيها، على هوان وفتنة، عن القيم التي آمنوا بها. وإن الأسى الذي يتحرك في الباطن مثبطا عن مفارقة الموطن، تتقدم إليه الآية لتحوله إلى رضى ورغبة بدعوتهم: يا عبادي ! وبفسح الآمال: إن أرضي واسعة، وبتذكيرهم بأن رأس القيم إفراد الله بالعبادة. أفردوني بالعبادة ولا تعبدوا غيري.

57: كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون

تذكير بالحقيقة التي قد تختزن في باطن الشعور فيضعف ظهور أثرها في التفكير والسلوك. هي حقيقة الموت الذي يترصد كل كائن، وأنه لا خلود في الدنيا. وأن بعد الموت عودة للخالق بما يصحب النفس من أعمال، عليها يكون الجزاء. بما يهون مفارقة الموطن، والهجرة حيث يستطيع الإنسان عبادة الله غير مفتون.

58: والذين آمنوا وعملوا... نعم أجر العاملين.

ترتبط الآية بقوله تعالى في الآية 52: والذين امنوا بالباطل فهما نهايتان متقابلتان. الذين امنوا وقرنوا صلاح العقيدة بصلاح العمل، قررنا أن يكون جزاؤهم السكنى في بيوت عالية تتخلل أراضيها المياه المتدفقة في الأنهار. لا ينقطع نعيمها ولا يشوبه كدر ولا خوف من الزوال. ما أحسن أجر العاملين العمل الصالح. هم الذين كان الصبر خلقا لهم. يثبتون على دينهم رغم ما يلاقونه من الحرمان والأذى، ولا يضعفون. وتعلقوا بربهم تعلقا فتح لهم باب الأمل.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدابة: كل نفس تحركت على وجه الأرض عاقلة أو لا.

تسخير الشيء: إلجاؤه لعمل معين.

بسط الرزق وتقديره: سعته وضيقه.

بيان المعنى الإجمالي:

الآيات التالية تظهر تناقض المشركين، واعترافهم بما هو حجة عليهم. إنك إن سألتهم من خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر فجعلها تسير في مسارها وتؤدي وظائفها حسبما قدر لها؛ جوابهم واحد كل ذلك من فعل الله. فكيف ينصرفون عن توحيد الله؟ فهذا تناقضهم الأول. إن الرزق بيد الله، فهو الرزاق، ويعترف المشركون أن آلهتهم لا ترزق، وأن الرزق يتم حسب إرادته فيوسع على

من يشاء ويضيق على من يشاء. ومع ذلك فإنهم يطلبون من أصنامهم تيسير أمر رزقهم. وهذا تناقض ثان.

وإنك إن سألتهم من تصرف في السحب فأنزل منها الماء على الأرض التي كانت حية فماتت ثم عادت لها الحياة بما نزل عليها من الماء، فإنه ليس لهم إلا جواب واحد: الله الذي فعل ذلك. ومع ذلك يعبدون الأصنام ويتقربون إليها فأكثرهم لا يعقلون. وهو تناقض ثالث.

بيان المعنى العام:

(60) وكأين من دابة ... وهو السميع العليم.

إنك إذا نظرت في عالم الحيوان، تجد أن معظم أنواع الحيوانات لا تتكلف ادخار أقواتها وجمعها لوقت الحاجة. ومع ذلك هي باقية لم يلحقها الفناء، والحيوانات التي تدخر أقواتها لم يعرف منها إلا النمل والنحل والفئران، وبعض الطيور. إن المتكفل برزقها هو الله خالقها. وكما يرزق الدواب يرزقكم. وهو السميع لدعائكم، واستغاثاتكم. وهو أكرم من أن تهتفوا به ولا يجيبكم. وهو العليم بأحوالكم وإن لم تمدوا أيديكم إليه ولم تطلبوا. وحاشاه وهو الرؤوف الرحيم أن يحرمكم ما تتواصل به حياتكم.

(61) ولئن سألتهم من خلق... ليقولن الله فأنى يؤفكون

هذه الآية تلجئ المشركين إلى الاعتراف بتفرد الله بالخلق والتأثير، وتبرز تناقضهم، ومحدودية تفكيرهم، إنك إن سألتهم عن الظواهر الكونية من خلق السماوات والأرض؟ ثم سألتهم من ضبط الشمس والقمر مسارهما، من سخرها ليؤديا دورهما في الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية، من الليل والنهار ومن ترتيب الفصول، ومن المد والجزر في البحر؟ يجيبونك خلقها الله وسخرهما الله. فاعجب لتناقضهم، كيف يعترفون بأن الله هو الخالق والمسخر، كيف يصرفون مع ذلك عن توحيد الله إلى عبادة الأصنام!

(62) الله يبسط الرزق ... إن الله بكل شيء عليم.

هذه الآية عامة لا تتناول المشركين وحدهم، ولكن الخطاب بها عام، فيه تقوية للمؤمنين الذين تعدهم هذه الآية لله للهجرة وترك أموالهم، وللمشركين الذين يحتقرون المستضعفين من المؤمنين؛ فتقرر قاعدة تطمئن المؤمنين أنهم إن تركوا ديارهم وأموالهم، فإن الرزق بيد الله يعوض عليهم ما ذهب منهم، فلا تقعدهم أموالهم عن الهجرة بدينهم. وتظهر تناقض المشركين فإنهم قد اعترفوا بأن الرازق

هو الله كما ورد في سورة يونس{ قل من يرزقكم من السماء والأرض... فسيقولون الله}[1] ثم هم يحتقرون المستضعفين.

وأكملت الآية التصور الإسلامي في الرزق، فعلى المؤمن أن يعتقد:

1) بان الله هو المتفرد بالرزق.

2) وأنه يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء بناء على علمه الشامل للحاضر والمستقبل . وبناء على ذلك فإن حكمه بسط الرزق وتضييقه لا يمكن أن تحيط بها البشر .

وقوله تعالى:{يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر} يفهم على وجهين :

الوجه الأول: يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويضيق على آخرين .

الوجه الثاني : أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده في حال، ثم يضيق عليه في حال أخرى.

63:ولئن سألتهم من خلق...بل أكثرهم لا يعقلون.

عود إلى إلجاء المشركين للاعتراف بتناقضهم، بإيراد أسئلة عليهم يقرون بها، وينفون مقتضياتها. إنك إن سألتهم من تصرف في السحب فسيرها، ثم أنزل منها الماء في الأماكن التي كان حبسه عنها فماتت وتجردت أرضها من كل نبات، فرتب على إنزال الماء بعث الحياة فيها. إنك إن ألقيت عليهم هذا السؤال لا يستطيعون أن يجيبوا إلا بجواب واحد: الله فاعل ذلك.

تتابعت الأسئلة وكلها ملزمة للمشركين، ملجئة لهم أن يعترفوا بعجز أصنامهم عن تدبير الكون في عمومه، أو في بعض مظاهره كما تبين ذلك في الآيات السابقة.

توجه إلى الله بالحمد أن هداك إلى معرفة الحقائق التي يقر بها المشركون، وجعلها مفضية بك إلى الإيمان، فجعل عقلك مستقيما سائرا على الصراط المستقيم، ونفعك فجعل النظر فيها مؤكدا للتوحيد نافيا للشرك، بينما كانت هذه المظاهر الكونية موقعة للمشركين في التناقض مفسدة لعقولهم. ومن بديع التعبير القرآني ختم الآية بأن أكثر المشركين ليس لهم عقل مستقيم، يقرون بالشيء ثم ينفون ما يترتب على إقرارهم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ

[1] سورة يونس ، آية31

يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ

اللهو: ما يقوم به الإنسان مما لا يتعب عقله ويجلب له متعة لما فيه من لذة ملائمة الشهوة.

اللعب: عمل هدفه تقصير الوقت، أو إراحة العقل بعد تواصل الجد.

الحيوان: الحياة الحق.

مخلصين له الدين: مفردين الدعاء له.

الباطل: الشرك.

التخطف: الأخذ بسرعة.

المثوى: مكان الثواء: الإقامة الطويلة.

سبلنا: المسالك المقربة من الله والمفوزة بالجنة.

بيان المعنى الإجمالي

المقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى تنتج نتيجة بينة: إن الحياة الدنيا إذا انفصلت عن اعتبارها طريقا إلى الحياة الآخرة، واستقلت فكانت الوسيلة والغاية لا تعدو أن تكون لعبا ولهوا، يستمتع بها لفترة قصيرة الصبيان واللاهون، دون أن يحصلوا من ذلك على نفع. والحياة الحقيقية التي كلها خير هي الحياة الآخرة. ولكن الجهل هو الذي يغطي هذه الحقيقة.

كانت التجارة أكبر مورد للرزق لأهل مكة، وكانوا يحسون بالأمن إذا سافروا في طرق الصحراء، لأنهم يسيرون في قوافل ويحملون معهم السلاح والمدربين على الدفاع، ومعرفتهم بالمسالك تكسبهم أمنا آخر، لكنهم إذا ركبوا في الفلك وساروا في البحر فإنه إذا هاجت الأمواج وفوجئوا بزوبعة شديدة وكاد اليأس من الحياة يستولي عليهم، في هذا الظرف يتوجهون إلى الله وحده بالدعاء لينجيهم، فلما نجاهم ووصلوا إلى البر عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك، ليكون فضل الله عليهم كفرا بالنعمة، وتمتعا بما يقيمونه حول آلهتم من لهو وتآلف. هددهم القرآن: إنهم سوف يلاقون جزاءهم فيعلمون عندها عاقبة نكرانهم وشركهم.

ما لمشركي مكة لم ينظروا في النعمة الكبرى التي أنعمنا بها عليهم؟ أمناهم بالحرم، في الوقت الذي كانت فيه جميع القبائل العربية تعيش في خوف من الغارات السريعة عليهم تستولي على الضعفاء منهم أسرى وعلى أموالهم فيستاقون إبلهم ومواشيهم ويأخذون أموالهم. أيؤمنون بالأصنام العاجزة ويكفرون بنعمة الله عليهم.

ابحث في أطراف الكون وفي تاريخ البشرية فلن تجد أحدا أشد ظلما من الذي اختلق أكاذيب على الله فنفى عنه كمالاته، ونسب إليه ما ينافي عزته وصفاته الأزلية، أو الذي جاءه الهدى والحق فرفضه. إن جزاءهم جزاء عادل، ستكون جهنم مستقرا دائما لهم.

والذين جاهدوا في سبيل مرضاة الله، فثبتوا الدين وعملوا بكل ما أوتوا من قوة صبر، وإقناع، وبذل أموال لنصره، وتوسيع دائرة المؤمنين به، فجزاؤهم أننا نحيطهم بألطافنا فيزدادون مضيا في سبل الخير وإلفا للحق. وهذه سنة الله فإنه سبحانه عون للمحسنين، وهذه العصابة حول محمد هم من المحسنين. وكفاهم ذلك سعادة وشرفا.

بيان المعنى العام :

64-وما هذه الحياة الدنيا...لو كانوا يعلمون.

تعلق الكفار بالحياة الدنيا كأشد ما يكون التعلق. وحصروا اهتمامهم فيها، واعتقدوا أنها الحياة وليس وراءها حياة أخرى، فتنبههم هذه الآية إلى خطئهم، وأن هذا الذي استقر في عقولهم وهم من الأوهام، عرفتهم أن حقيقة الحياة الدنيا لا قيمة لها إذا قارناها بالحياة الآخرة، فهي لا تعدو أن تكون لهوا ولعبا . فترة قليلة يلهون فيها كما يلهو الصبيان ويلعبون، دون أن يحصلوا على فائدة باقية. إن متع الحياة الدنيا إن لم نسع بربطها بالله هي متع نزول يتجاوز الظرف الذي وقعت فيه. فتعلقوا بربكم واربطوا منجزاتكم برضاه. فالحياة الحق التي تبقى ولا يكدر صفوها مكدر، والتي ينتهي فيها الصراع بين الخير والشر هي الحياة الآخرة. ولكنهم جهلة ولو كانوا يعلمون لما آثروا الحياة الدنيا.

لا تدل هذه الآية على الإعراض عن الحياة الدنيا كما يُعْرِضُ أصحاب العقول الراجحة عن اللهو واللعب. ذلك أن الله استخلف الإنسان في الأرض ليعمرها، وليكون فاعلا فيها غير واهن ولا قاعد، وبعث له رسله تهديه إلى الخير وتحذره من الشر، وهو مسؤول عن هذه المهمة؛ لا يعفيه ضعفه إذا تراخى عن تطبيق ما شرعه الله .قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ

قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)

فالآية 64 تبصر الإنسان معرفة أن الحياة الدنيا إذا انفصلت عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان واستخلف، تكون كاللعب واللهو اللذين ليس لهما غاية نافعة، واللاعب واللاهي يقضي فترة لعبه أولهوه، ثم هو لا يجد حاصلا من وقته الذي خسره .

65-<66، فإذا ركبوا في الفلك..فسوف يعلمون

هذه الآية تكشف عن الفطرة المغروسة في باطن العقل، تحجبها الشهوات ويمنع ظهورها التقليد. ثم إنه إذا كانت التجربة التي يدخل فيها الإنسان قوية مزقت ذلك الحجاب، فتبرز الفطرة حسب طبيعتها.

اكتسبت قريش ثروتها من التجارة، بما يرتبط بهما من التمرس بالأسفار، فما كانوا يجدون صعوبة ولا خوفا إذا قطعوا الصحاري لا في الليل ولا في النهار. أما إذا اضطروا للسفر عبر البحار، فإن البحر إذ هاج وتلاطمت أمواجه، فإن شعورهم بقوتهم يكاد ينعدم فلا عندهم ولا عندهم منجية لهم، وعندها تنادي فطرتهم ملتجئة إلى الله المتصرف في البحر، أن ينقذهم من هوله ويكتب لهم النجاة والسلامة.

فقوله تعالى: فإذا ركبوا في الفلك: أي إذا كانوا مسافرين في البحر، وهاجت الأمواج وتوقعوا الهلاك، يدعونه وهم مخلصون في دعائهم، لا يشركون به أحدا، ليقينهم أنه لا يغني أحد سواه شيئا عنهم، إذ الأمر بيده وحده،

ما هو موقفهم بعد أن أحاطهم بالطافه وبلغوا ساحل النجاة ونزلوا الى البر سالمين، بعد إحساسهم في بعض الفترات أن الموت أقرب لهم من الحياة، وأن البحر قد تهيأ لابتلاعهم في قاعه البعيد؟ النتيجة مفاجئة غير متوقعة حسب العادة، أنهم عادوا لإظهار طقوس الشرك.

وقوله تعالى : ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا-دخلت اللام على يكفروا، وهي لام العاقبة كقول الشاعر أبي العتاهية : لدوا للموت وابنوا للخراب **

أي إن عاقبة الولادة الموت وعاقبة البناء الخراب، وكقوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا [1]-كانت عاقبة التقاطه أن يكون لهم عدوا وحزنا. فيكون معنى الآية نجاهم إلى البر لتكون العاقبة كفرانهم نعمة الإنجاء، عوض أن يقابلوا النعمة بالاعتراف والشكر. وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها، عوض كفرهم بها لما لم تغن عنهم شيئا وقت الحاجة.

---

[1] سورة القصص آية 8

وقوله تعالى: فسوف يعلمون، تهديد لهم.

67- أولم يروا... وبنعمة الله يكفرون.

قامت العلاقات الاجتماعية في جزيرة العرب وقت البعثة على الوحدة القبلية، كل قبيلة يتناصر أعضاؤها، ولا يرون في الإغارة على غيرهم من القبائل وسلب الأموال وأسر من يمكنهم أسره، إلا مظهرا من مظاهر العزة والبأس والشجاعة. فما كانوا ينعمون بالأمن إلا في الأشهر الحرم، وتميزت قبيلة قريش، نظرا لجوارها للكعبة، وقيامها على كثير من شؤون الحاج، بحرمة خاصة، فلا تتعدى عليها أي قبيلة، ولا يتعرضون لقوافل تجارتها. لم يكتسبوا أمنهم هذا بقوة السلاح، ولا بكثرة في العدد، وإنما هي مهابة أحلها الله في قلوب العرب جميعهم. وإنه بهذا التقدير العام توفرت عندهم الأموال بالتجارة وتيسرت الحياة، مع أنهم كانوا يسكنون بواد غير ذي زرع.

إن نعمة الأمن نعمة يتقلبون فيها كل يوم، ويحسون بها إحساسا أبلغ عندما تحصل لهم الأنباء: الغارات والقتل وطلب الثأر بين القبائل، وهم كما قال الله تعالى في سورة قريش: فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وجهت الآية لهم سؤال إنكار عن غفلتهم عن النعمة الكبرى بهذا الحرم الذي أمنوا فيه على حياتهم، وعلى أرزاقهم، في الوقت الذي يتخطف الناس في الأماكن الأخرى. هذه النعم تستوجب الشكر عليها والاعتراف بفضل مسديها، ولكنهم قابلوها بعكس ما تستحق، فتأهلوا للإنكار عليهم، اختيارهم للشرك على الإيمان، وكفران نعم الله التي توالت، أنجاهم في البحر، وأمنهم والناس يتخطفون من حولهم، وبعث رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم.

68- ومن أظلم ممن افترى على الله... مثوى للكافرين.

كل ما تقدم يحقق أن هؤلاء المشركين أقبح الناس ظلما، وأشدهم تعديا على الحق، ابحثوا في كل زمان وفي كل مكان هل تجدون من هو أظلم ممن اختلق على الله الكامل الكمال المطلق، المتفضل حتى على المشركين بنعم لا تحصى، فكذب عليه، ونسب إليه ما ينافي كماله، ونسب ما أنعم به إلى أصنام عاجزة مخلوقة بأيدي أصحابها. إنه ظلم تناهى في القبح، بمثل الاعتداء بنكران جميل مسدي الجميل ومفيض الخير. وأضاف إلى التعدي على مقام الألوهية، أنه عمد إلى الحق لما جاءه منه ليهديه وينقذه من الضلالة، على لسان من عرف صدقه وتحدى بما أنزل عليه فعجزوا كلهم عن الاتيان بمثله، ووصل إليه بدون أن يحمله عناء، فكذب به أيضا .

إن هؤلاء الظالمين المتوحشين في ظلمهم حقيق بهم أن يكون محل إقامتهم الدائمة جهنم بسبب كفرهم .

٦٩. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين

تزداد الصورة السابقة وضوحا بذكر الصورة المقابلة لها، وهي صورة المؤمنين المجاهدين، الذين جاهدوا في مرضاتنا وصبروا على الأذى، وبذلوا كل قواهم الفكرية في تثبيت أركان الدين في القلوب. وكانت دعوتهم الكبرى وما يعدونه فوزا هو نجاحهم في نشر دين الله. سنتفضل عليهم بزيادة الهداية إلى طرق الخير كشفا لها وثباتا عليها. وتأكيدا لذلك، نظمهم القرآن في سلك المحسنين الذين بلغوا في الطاعة الحد الأرقى (الإحسان) والله معهم يثبتهم ويحسن جزاءهم.

تم تفسير السورة بعون الله 21 ربيع الأنور 1434 · 2013/02/02

سورة الروم

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به، ووجه تسميتها بذلك أنها السورة الوحيدة التي ذكر فيها اسم الروم ؛ كما سنتبينه في الآية الثانية منها. وهي مكية، نزلت بعد أن كثر عدد المسلمين، وهي السورة الثلاثون حسب ترتيب المصحف، والرابعة والثمانون حسب ترتيب النزول، تالية لسورة الانشقاق، وسابقة لسورة العنكبوت.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

بضع : لفظ يدل على معدود بين الثلاثة والعشرة.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي سبق أن ذكرنا شيئا عنها في فاتحة سورة البقرة.

فرح المشركون بانتصار الفرس المجوس عبدة النار على الروم المسيحيين، وروجوا أن هزيمة الروم تقوم دليلا على أن الله الذي يعبده المسلمون والمسيحيون لا يغني عنهم شيئا، فصرح القرآن بأن هزيمة الروم ستنقلب انتصارا بعد سنوات لا تبلغ العشر. كانت هذه الواقعة في الأرض القريبة إلى الجزيرة العربية من أرض الشام، ما بين بصرى وأذرعات. وحققت ذلك بأن الأمر من قبل هزيمتهم ومن بعدها، ومن الأزل إلى الأبد هو لله وحده . وسيكون نصرا مبينا يفرح به المؤمنون بهزيمة الشرك، وبتحقيق الوعد الإلهي، الذي ينصر من يشاء. لا شك في ذلك لأنه العزيز الذي لا يقوم عائق يحول بين تحقيق ما علمه، وما أراده، ورحمته تشمل عباده فالمهزومون لا ييأسون من رحمة الله .

إن هذا الخبر عن الغيب المستقبل، محقق وقوعه لأنه وعد الله القادر. والله لا يخلف وعده لأنه لا يتصور أن يمنعه مانع من تحقيق وعده، ولا حصول أمر جديد يثنيه عن إنجاز وعده. ولكن أكثر الناس: المشركون ومن كان على شاكلتهم لا علم لهم، فاستبعدوا أن ينتصر الروم بعد سنين قليلة لا تبلغ العشر.

أي علمهم لا يتجاوز بعض ظواهر الحياة الدنيا، وهم مع ذلك غافلون عن الأدلة القائمة المثبتة للبعث يوم القيامة.

بيان المعنى العام

1 الم.

هذه السورة هي السورة الثالثة في القرآن التي افتتحت بالحروف المقطعة، والتي لم يصحبها ذكر لفظ القرآن ولا الكتاب. ويقال فيها ما تقدم ذكره في نظائرها.

2←5: غلبت الروم في أدنى الأرض ...وهو العزيز الحكيم.

إمبراطوريتان تقاسمتا السلطان على أطراف الجزيرة العربية: الفرس في الشمال وما يليه، والروم في الغرب، من الشام الى الأناضول. وفي سنة 615 من التاريخ المسيحي غزا الفرس بلاد الشام التي كانت جزءا من الإمبراطورية الرومية، وهزمت الجيوش الرومية هزيمة منكرة.

دولة الروم هي المعبر عنها بالدولة البيزنطية التي كانت عاصمتها القسطنطينية، والتي عرفت بعد ذلك بإسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية التركية. كانت دولتهم تمثل قاعدة الديانة للمسيحيين الأرتودكس، وكانت روما عاصمة الرومان الغربيين وتمثل قاعدة الديانة المسيحيين الكاتوليك. وكان المشركون من قريش يقاومون المد الإسلامي بشراسة، يغتنمون كل فرصة أو شبهة، ليؤثروا بها في الدهماء ليصدوهم عن الدخول في الإسلام. ما كان لهم اعتماد على الحجج العقلية، ولا على ما تقتضيه الفطرة وتدعو إليه، فلجأوا إلى الشبهات ليصرفوا الناس عن الإيمان. ولما انهزم الروم روجوا أن الروم الذين يعبدون الله خذلوا لسوء عقيدتهم، وأن الفرس عبدة النار انتصروا لكفرهم بالله. وبنوا على ذلك أن أمر الإسلام إلى نفس المآل الذي آل إليه الروم، وأن أمر المشركين إلى نصر . وهذا من جهلهم ومن قصور تفكيرهم، إذ النصر والهزيمة مرتبطان بسنن هي سبب الفوز أو الخسران، فمن جمع أسباب النجاح نجح، والعكس بالعكس. ونزلت هذه الآيات الأولى من سورة الروم. تثبت الروايات أن المشركين ابتهجوا أيما ابتهاج بانتصار الفرس، وأن أبا بكر الصديق ﷺ لما سمع الآية خرج متحديا الفرحين، بأن الله أنزل ما يثبت قرب هزيمة الفرس وانتصار الروم. فعمد بعضهم إلى عرض المراهنة على أبي بكر

للرهان مائة من القلائص" وهي الناقة الشابة التي تسمع سنين" وأتم الله وعده، وخسر القرشي الرهان.

تثبت الآية الأولى والثانية أن الروم غلبوا وأنهم من بعد هزيمتهم هذه ستكون الدائرة لهم على أعدائهم فينتصرون عليهم. ومن بلاغة التعبير القرآني اعتباره الغالب مجهولا، فلم يعرفه باسمه "غلبت الفرس الروم" إيماء إلى هوانهم وعدم اعتبارهم.

حدد القرآن المكان، بأنه في أدنى الأرض: أي أقرب الأرض لبلاد العرب، إذ كانت المعركة الحاسمة بين بصرى وأذرعات من بلاد الشام وأذرعات هي التي ذكرها امرؤ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها *** بيثرب أدنى دارها نظر عال

وما كانت في ذلك العهد قوانين للحرب، ولا يقف الغالب في انتقامه من خصمه إلى حد. فكان يبالغ في هدم قواه هدما يجعله مطمئنا إلى أن المهزوم لا يعود إلى ساحة القتال ولا يؤمل في نصر. ولذلك كانت فرحة القرشيين عظيمة، يتعشمون منها أن انتصارهم على المسلمين سيكون ساحقا كانتصار الفرس على الروم.

نزلت الآية تبشر المسلمين وترفع من معنوياتهم، وتعلمهم بأن الروم سينتصرون على الفرس الذين غلبوهم، وأن ذلك سيتم على خلاف التوقعات، كما بيناه في الفقرة السابقة، بعد مدة لا تطول كثيرا هي دون العشر سنوات.

ثم أكدت الآية تحقق هذا الوعد الذي سيكون على خلاف التوقعات، بأن الأمر في الهزيمة والنصر، وفي كل ما يحدث في الكون، هو بيد الله، فهو الذي يؤيد من يشاء فيمكنه من جمع الأسباب الموجبة، ويخذل من يشاء، فيصرفه عن الأسباب المساعدة إلى أسباب الخذلان. إنه في اليوم الذي ينتصر فيه الحق بتوفيق المؤمنين للأخذ بأسباب النصر، وتحقيق سننه في ذلك، في هذا اليوم يحق للمؤمنين أن يفرحوا بنصر الله لهم، وإعلاء كلمته. يؤكد ذلك، ويثبته أن الله يتصرف في الكون بوصفه العزيز الذي لا يوقف تنفيذ إرادته شيء، ومن ناحية أخرى فإنه سبحانه يحدد الوقائع زمانا ومكانا، ونوعا تبعا لرحمته، التي تعم الخلائق جميعا. فليكن كل معتقد أملا في رحمته.

6. وعد الله لا يخلف الله وعده..لا يعلمون

هذه الآية تأكيد للآيات السابقة، فقد ثبتت مضامينها:

أولا: بأنه وعد من الله، وشأن وعد الكامل أن ينجز بدون شك، بما يطمئن الموعود، إذ هو مالك الملك، الغني القادر، فلا يوجد أي سبب لإخلافه ما وعد.

ثانيا: ابرز ما فهم ضمنا فصرح به" لا يخلف الله الميعاد. وهو وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

ثم استدرك القرآن، بان ذلك وإن كان بديهيا من شأن العقلاء ان يعلموه ولا يشكوا فيه، إلا أن الجهل المتمكن فيهم، وبُعد أغلب الناس عن العلم الكاشف بأن المتصرف في الكون هو الله وحده، كل ذلك مما غم عليهم الحق فجعلهم لا يدركونه.

7-يعلمون ظاهرا من الحياة...هم غافلون .

ولما كان من شأن القرآن الإنصاف والتدقيق، عقب قوله أكثر الناس لا علم لهم لا يعلمون" بتوضيح المقصود من نفي العلم عنهم، فبين ذلك، بالتفرقة بين العلم القاصر الذي يقف بالمعلومات في الحدود التي لا تكاد تبعد عن الإدراك الحيواني: إدراك الحواس وما تنقله للدماغ من الظواهر المحسوسه للموجودات، وبين العلم المستند إلى الإيمان الذي لا يقصُرُ فهم الوجود على الظواهر .

وفي موضوع الوعد بان الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين، الذي أخبر به القرآن، وجزم المشركون ومن كان على شاكلتهم بنفيه اعتمادا على: أن الروم قد هزموا وتتبع الفرس مراكز قوتهم العسكرية فحطموها، وأن تجديد قواهم لا يتم إلا بعد أجيال، إن صحبهم التوفيق في ذلك. ولذلك فإنهم كانوا مقتنعين بأن هزيمة الروم ستصحبهم إلى أمد طويل. وهذا ما جعل تفكيرهم قاصرا، لأن الاحتمالات التي فرضوها بنوها على ما نقلت لهم الحواس، وظواهر الحياة الدنيا، وغفلوا عن التصرف الإلهي الذي يهيء الأسباب لتنفيذ ما تعلق به علمه . كما قال أحد العارفين : وفوق تدبيرنا لله تدبير

لتبثت لهم الاية علما لا يتعدى بعض ظواهر الحياة الدنيا، وأنهم لقصر توقعاتهم على تلك الظواهر يكون ظنهم أن أحكامهم يقينية أو مقاربة لذلك ظنا خاطئا، لإسقاطهم القدرة الإلهة المتصرفة، والتي تحدث في سلسلة الوجود ما لا يشون إلا بتعميق النظر، وتجاوز الظواهر التي قد تكون خادعة. وانبنى على وقف تأملاتهم على ظاهر الحياة الدنيا غفلتهم عن الأدلة القائمة في أنفسهم وفي الكون المنادية بأن الحياة الأخرة حق ، ولكنها لم تقدهم لغفلتهم عنها، مع وجودها، لا لشدة خفائها.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠

بيان معاني الألفاظ :

يتفكروا: يعملوا فكرهم فيستنبطوا به الحقائق الخفية.

[illegible]: المعذر.

العاقبة : آخر الأمر من الخير أو الشر.

القوة : مجموع صفات يكون صاحبها دافعا للنقص.

السوأى: حالة موصوفة بأبلغ ما يكون من السوء.

بيان المعنى الإجمالي :

عجيب أمر المشركين، رزقهم الله عقولا ينظرون بها، ومع ذلك هم لم يعملوا تلك الملكة للتدبر والنظر في ذواتهم ! إنهم لو نظروا في ذواتهم لتبينوا من إحكام الصنعة في الخلق ما يدل على أنهم مخلوقون، ولو تأملوا في التحولات التي تجري عليهم من ضعف، ثم إلى قوة ثم إلى ضعف وشيبة مما يقوم شاهدا على الحياة بعد الموت. فيد لك وأنت كهل هي غير يدك وأنت رضيع ذهبت الأولى وخلفتها الثانية في نسيجها وعظامها وخلاياها وشكلها، ثم تذهب تلك الصورة وتخلفها صورة أخرى يرتخي فيها الجلد وتضعف القوة فترتعش ولا تستطيع حملا ولا مسكا. وفي ذلك ما يدل على أن بعث الإنسان بعد موته ممكن لا استحالة فيه. وإذا تحولوا بفكرهم إلى خلق السماوات والأرض وما فيهما من أحكام وجدوا من دقة الصنع والضبط المحكم ما يدل أيضا على وجود الخالق وعلمه وقدرته. ويجدون فيها من ناحية أخرى، أنه تأتي عليها أعراض التحول والتغيير مما يدل على أنها ليست باقية بل لها أجل محدد ستنتهي إليه. ورغم هذه الدلائل نجد كثيرا من الناس كافرين بتلك الآيات، نافين للبعث ولحسابهم عند ربهم على ما قدموا.

بجانب النظر في ذواتهم هم لم يعتبروا بما يشاهدونه في أسفارهم، يمرون على آثار قوم لوط وقوم ثمود وقوم عاد، خرابا تنطق بما كان لساكنيها من قوة أشد من قومهم وعمارة للأرض أكثر من عمارتهم لها. ولما انحرفوا بعث الله لهم رسله، مؤيدين بالمعجزات، ليقيموهم على العقيدة الصحيحة والسلوك الصالح، فقابلوهم بالتكذيب، فدمرهم الله. كان عقابهم جزاء عادلا، ما ظلمهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإقدامهم على الفساد في العقيدة والسلوك.

وهو الدمار الذي لحقهم في الدنيا سيلقى الذين فعلوا السيئات في العقيدة والسلوك، أسوأ الجزاء في الآخرة، في نار جهنم. لأنهم كذبوا بما أنزل الله إليهم من أدلة صادقة هادية، واستهزأوا بالحق الذي جاءهم على لسان الرسل عليهم السلام .

بيان المعنى العام :

[8] أولم يتفكروا في أنفسهم...بلقاء ربهم لكافرون.

وصفت الآية السابقة المشركين بأن الغفلة حجبت عنهم إدراك أن بعد هذه الحياة حياة أخرى. فيفتتح القرآن هذه الآية باستفهام تعجبي مبرزا غفلتهم الناتجة عن عدم إعمال الفكر. عجيب أن بلغت بهم الغفلة أن لا يعملوا ملكاتهم العقلية لينظروا في أنفسهم.

والتفكر في النفس يحتمل تصورين :

التصور الأول: التعجب من عدم تفكرهم تفكرا باطنيا داخليا هادئا. والعجيب هو أن من طبيعة الإنسان أن يعود إلى فكره فيحركه في المشاهد التي أمامه ليرقى من الظواهر إلى ما وراءها. إنهم لو تأملوا هذا التأمل لساقهم إلى أن الله ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، أي ملتبسين بالحق، ومضبوط لهما الأجل المقدر لبقائهما. لا شيء من هذا النظام الكوني بثابت ثبوتا لا يدخله التغير. فالحركة الدائبة في الأرض في كتلتها وفي باطنها وعلى ظهرها. وكذلك ما حوته السماوات من كواكب ونيازك، ومن مجموعات متحركة متنقلة من مكان إلى مكان. كل ذلك يفضي بالعقل المتأمل المتفكر: أن هذا الكون يستحيل أن يكون باقيا بقاء أبديا سرمديا، مع كون الفناء ملازما له. ولما كان الإنسان جزءا من هذا الكون العظيم، فإنه يجري عليه ما يجري على الكون، خاصة وظاهرة التغير أوضح فيه.

التصور الثاني: التعجب من عدم تفكرهم تفكرا متعمقا في ذواتهم. إنهم لو تأملوا في ذواتهم لقامت لهم الشواهد على أن الحياة تعقب الموت في كل لحظة؛ إن الخلايا التي تتكون منها الأجهزة الإنسانية غير باقية، بل هي متجددة، تموت خلايا وتخلفها خلايا أخرى، وهكذا طيلة حياة الإنسان. خذ لذلك مثلا قريبا إذا جرح جلد الإنسان فإن الخلايا التالفة بالجرح تخلفها خلايا أخرى تعمل على وصل الجرح ليعود النسيج على ما كان عليه. أليس هذا النظر المتعمق في ذات النفس الإنسانية يدل دلالة واضحة على أن الحياة بعد الموت له شواهد عديدة في ذات الإنسان ؟

وإنه مع الإمكان الذي استبعد المشركون حصوله بسبب غفلتهم، نجد الآية تنقلنا إلى حقيقة أخرى هي: أن البعث هو الذي جعل الخلق متصفا بالحق بعيدا عن الباطل. لقد استخلف الله الإنسان في الأرض، ومكنه من الاختيار بين الخير والشر، وبين

الإيمان والكفر؛ وقد يموت الأخيار تحت تعذيب الأشرار، وقد يسرق السارق مال الرجل الطيب، ويموت المسروق منه محروما من ماله، ويبقى السارق متمتعا بمجهود غيره. فلو كانت الحياة الدنيا هي كل الوجود على الوصف الذي رأينا، لكانت ضربا من العبث : يستوي فيها الخير والشر، و يهزم الفساد الصلاح ،ويفوز الأشرار ويخيب الأبرار. فكون الحياة الأخرة آتية، المعبر عنها بأجل مسمى محدد، حقا وحتما لا شك فيها، مما يحكم به العقل المفكر. ولكن رغم قيام هذه الدلالات على البعث فإن كثيرا من الناس كافرون به، لا يعتقدون أنهم سيقفون بين يدي ربهم للحساب.

9. أولم يسيروا في الأرض...ـكانوا أنفسهم يظلمون .

تتبع هذه الآية الآية السابقة لتقيم دليلا منظورا شاهده المخاطبون، ولم يتدبروا في دلالاته. يوجه لهم السؤال، كأن الأمر مشكوك فيه، وهو معروف عندهم، ولكنهم لعدم تحريك عقولهم في المشاهد، ناسب أن يوبخوا فيسألوا: هل سافروا ومروا بديار من كان قبلهم من الأمم، كديار ثمود وقوم لوط في طريقهم إلى الشام، وكديار عاد في طريقهم إلى اليمن؟ كيف كانت عاقبتهم، كيف إن ديارهم التي كانت عامرة بهم تحولت إلى خراب .

لقد كانوا أقوياء على مستوى أشد وأنفذ مما عليه مشركو مكة من القوة في المال والعدد، والتمكن في الأرض التي يسكنونها، تصرفوا فيها تصرفا تدبيريا ناجحا، وبلغوا مستوى رفيعا من التحكم فيها، لاستخراج متنوع الخيرات من باطنها، وأنشأوا فيها الضياع المنتجة لمختلف الثمار، وأقاموا عليها المباني الفخمة، ومهدوا الطرق السالكة، ورتبوا فيها من التنظيمات ما تحققت لهم به حضارة تقوم آثارها شاهدة على أن العرب لم يبلغوا مستواهم الحضاري . ولكنهم قصروا نظرهم على الحياة الدنيا، ولم يحصنوا ما تحصلوا عليه بتزكية نفوسهم، وإصلاح عقيدتهم، جاءتهم رسلهم بالأدلة البينة الواضحة، ترشدهم إلى ما يطهر نفوسهم ويصلح عقولهم، ويربطهم بمبدع الكون. فكان موقفهم كموقف أهل مكة فدمر الله حضارتهم وما أنجزوه، وتحول إلى خراب ناطقة بعاقبة الظالمين.

إن تدميرهم وتسليط العذاب عليهم بما أبادهم مع منجزاتهم، كان جزاء تأهلوا له بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسله، وسلوكهم في الحياة سلوكا منفصلا عن الفضيلة . فما ظلمهم الله بتدميرهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بعملهم ما يوجب تدميرهم، فأهلكهم الله بسبب ظلمهم، وفي ذلك أشد التحذير لمشركي مكة، ثم لمن يأتي بعدهم من الأجيال، و أن سنة الله واحدة .

10 - ثم كان عاقبة الذين ... وكانوا بها يستهزئون.

أفادت الآية السابقة أن الأقوام المكذبين من قبلهم قد دمروا وبقيت آثارهم شاهدة على ما حل بهم، وصرحت هذه الآية بمآلهم فذكرت أن عاقبة الذين أساؤوا في أعمالهم وعقائدهم المتحدث عنهم في الآية السابقة هي العاقبة الأسوأ والأقبح من كل عاقبة، وهي جهنم. فافتتحت الآية بـ (ثم) للإشارة إلى أن ما سيحل بهم يوم القيامة هو أسوأ مما حل بهم في الدنيا. وفي ذلك تحذير لمن كان على شاكلتهم : أنهم سيجزون نفس الجزاء في الدنيا والآخرة . كما صرحت الآية بما هو مستهجن وقبيح من موقفهم من آيات الله المحركة للنظر الداعيه للتدبر، كان موقفهم الإسراع بتكذيب المرسلين وتجاوزوا التكذيب إلى الاستهزاء والسخرية بالنذر. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون بتعطيل قواهم الفكرية.

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ

الساعة : الوقت المضبوط لقيام الناس من قبورهم للحشر والحساب.

يبلس الإبلاس الحالة التي تبلغ فيها الحيرة حدا يسكن معه الشخص

يتفرقون: ينقسمون إلى فريقين ليس بينهما اتصال.

روضة أرض نضرة بالماء والعشب والفواكه والزهور .

يحبرون : يسرون بالنعيم الذي هم فيه.

بيان المعنى الإجمالي.

صرحت السورة بما اختص به الله سبحانه من التأثير في الكون .

أولا: هو الذي أخرج الكون وما يحويه من العدم فأوجده، وهذه حقيقة لا يستطيع المشركون نقضها، ثم يفنيه لينتهي أمد الإعدام إلى الأجل الذي يعيدكم فيه، ليقف كل فرد بين يديه للحساب والجزاء. وفي هذا اليوم الذي ترجعون فيه تتملك الحيرة المجرمين فإذا هم واجمون لا يتحركون . وغابت الأصنام التي كانوا يشركون بها

ويعولون عليها لتشفع فيهم، وعندها يتبينون أنها أوهام لا حقيقة لها فيكفرون بها، ولا ينفعهم ذلك.

إنه في يوم البعث تتفرق الخلائق، فريق للذين امنوا وطبقوا في حياتهم ما أمرهم ربهم به، يجزيهم ربهم أنه يسكنهم روضات تتخللها المياه وتكسوها الخضرة ويخرج منها متنوع الزهور والفواكه والغلال. تمتلئ نفوسهم سرورا ورضا بما أوتوه من فضل . والفريق الثاني الذين كفروا بما أنزلنا عليهم من الآيات البينات، وأنكروا البعث والحساب في الآخرة . وهؤلاء يستقرون في العذاب لا يخرجون منه

بيان المعنى العام:

11. الله يبدأ ...ثم إليه ترجعون

جاءت الآيات السابقة منكرة وموبخة للمشركين على ما اعتقدوه وعلى سيء سلوكهم .ثم أعقبها القرآن بالتصريح بما اختص الله به بصفة واضحة جلية .يفتتح كل بيان بقوله تعالى : الله - الله يبدأ الخلق ثم يعيده - الله الذي خلقكم ثم رزقكم - الله الذي يرسل الرياح - الله الذي خلقكم من ضعف.

الاختصاص الأول : أن ابتداء الخلق هو لله وحده. وكون غيره بدأ خلق اي شيء أو أعان عليه منفي قطعا. وربطه بأمرين : أنه يعيده بعد إفنائه، وأنكم ترجعون إلى الله ليحاسبكم عن أعمالكم.

12.ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون.

لما ذكر في الآية السابقة أن رجوعكم إليه، أوضح في هذه الآية وما بعدها بعض ما يلقاه المبعوثون .

أولا: يكون الكرب شديدا، فيقع المجرمون في حيرة، لا يجدون مخرجا مما هم فيه.

13. ولم يكن لهم من شركائهم ....كافرين

هذه الحيرة تبع للخيبة التي صدموا بها، إذ بحثوا عن الشركاء الذين كانوا يتقربون إليهم في الدنيا ليكونوا عونا لهم وشفعاء، ينصرونهم، ويحولون بينهم وبين العذاب، فلم يجدوا شيئا مما أعدوه. وحينئذ يكفرون بشركائهم في الوقت الذي لا ينفعهم ذلك.

14 ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون

ومن خصائص الساعة أن المبعوثين يتفرقون فيها إلى فرقتين كبيرتين.

15–16 فأما الذين امنوا...اولئك في العذاب محضرون.

أما الفرقة الأولى، فهم الذين امنوا بالله وتأصلت في عقولهم أصول العقيدة، وطوعوا سلوكهم لما يقتضيه الإيمان فكانت أعمالهم صالحة ملتزمين بالفضيلة.

هؤلاء قد أعد الله لكل منهم روضة خصبة تتخللها المياه الجارية وتتنوع فيها الزهور والثمار. وضعهم النفسي أن السرور يغمرهم من الرضا بما هم فيه.

وأما الفرقة الثانية، فهي فرقة الذين أنكروا الألوهية، وقابلوا الآيات المنزلة عليهم والمعجزات بالتكذيب، ونفوا أن يكون لهم حضور بين يدي الله للحساب، هؤلاء المذمومون بما قدموا هم في العذاب المقيم لا يخرجون منه .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ

سبحان الله : علم على تنزيه الله عن السوء، والثناء عليه بالخير .

يخرج: ينشئ شيئا من شيء كان مستكنا فيه.

بيان المعنى الإجمالي .

هو الله الحقيق بالتمجيد والتنزيه والثناء على كمالاته وفضله. مستحق أن تذكروه مسبحين في كل الأوقات والأزمنة، في المساء وفي الصباح وعند الزوال وفي العشي .. محمود مثني عليه في الكون كله سماواته وأرضه وما فيها. يتصرف التصرف المطلق كما يشاء ويريد يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، لا يتوقف إنجازه على الأسباب الدنيوية. وعلى هذا النحو من التصرف الذي يطيع به كل شيء لإرادته يتم إخراجكم إلى البعث والنشور .

بيان المعنى العام

17-18 فسبحان الله ... وحين تظهرون

ذكرت الآيات السابقة الخالق المحكم الذي يبلغ به بعثه يوم القيامة للجزاء في روضات السرور للمؤمنين، وفي العذاب المقيم للكافرين. إن هذا التصرف الحكيم الشامل حقيق منفذه بأن يمجد وينزه عن كل سوء، وأن يثنى عليه بكل جميل على ما تفضل، تسبيحا متواصلا "حين تمسون" عند دخولكم في المساء ما بعد غروب الشمس." وحين تصبحون" حين تدخلون في الصباح مع أول النور المؤذن بانتهاء الليل" وعشيا "وقت صلاة العصر" وحين تظهرون " عند الزوال. وبتوسط الأوقات الأربعة التي تعم الزمان الأرضي التسبيحة العامة التي تشمل عالم الأرض والسماء. فالكل يسبح بحمده. وهو إيقاظ للإنسان حتى يكون حضور صلته بربه

مقرونة بكل لحظة من لحظات الحياة، وبهذا التسبيح يكون منسجما مع الكون كله، يهتف التحول الزمني والكائنات التي يرقبها أو يؤثر فيها بجميل فضل الله عليه فينزه ربه ويثني عليه. وحمل بعضهم الآية على الأمر بالصلوات الخمس "تمسون" المغرب والعشاء "تصبحون" صلاة الصبح "عشيا" صلاة العصر "تظهرون" صلاة الظهر. وحملها على المعنى الأول أولى بالقبول.

19- يخرج الحي ...وكذلك تخرجون.

يريد التنزيه الكامل والتمجيد الذي هو أهله ومستحقه، أنه يخرج الحي من الميت، مظاهر هذه القدرة كثيرة، فمنها أن الإنسان يتغذى بأنواع من المأكولات لا حياة فيها، فتدخل الجسم ليتحول أجزاء منها إلى الخلايا فتتغذى بها ليتولد من كل خلية خلايا، ويتكون الحيوان المنوي، وتتغذى ببيضة المرأة لتكون وعاء للتلقيح. ولولا الغذاء الذي لا حياة فيه ما تكونت اللقيحة الحية. وبالنسبة للقدرة سواء إخراج الحي من الميت وعكسه. فتلد الأنثى الحية ميتا. وبنفس القدرة المتصرفة يحيي الأرض بعد أن كانت جرداء قاحلة، لا نبات فيها، يحييها فإذا هي بساط أخضر وإذا الأشجار محملة بالثمار وكما ينشئ الحي من الميت بقدرته التي لا يعجزها شيء، فكذلك وضعكم يوم يريد إخراجكم أحياء من بعد الموت.

ويستروح من الآية أن الله يخرج من أصلاب الكفرة المؤمنين المؤيدين للدين الناشرين لأنواره في الكون. كخالد من أبيه الوليد ابن المغيرة الذي كان أحد رؤوس الكفر المقاومين للإسلام.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ

تنتشرون: تظهرون على الأرض وتتوزعون على ظهرها.

المنام : النوم

ابتغاء الفضل: طلب الرزق

بيان المعنى الإجمالي:

ست آيات عظيمة وأدلة يهز القرآن بها الفكر البشري، ليفضي به التأمل فيها إلى الإيمان بتفرد الله بالقدرة والتنظيم والتأثير، وأن المخلوقات جميعها ستعود إليه للحساب والجزاء.

الآية الأولى: أنكم أيها البشر مخلوقون من تراب سواء أنظرتم إلى أصلكم الأول آدم ، أم نظرتم في أنفسكم . فالخلية الأولى في أصلها وفي العناصر التي تتابعت فنمت بها إلى أن كانت إنسانا مقتدرا، كلها تعود إلى العناصر الأرضية التي مرت من طريق الغذاء إلى مختلف الأجهزة . فمن التراب تحولتم إلى بشر منتشر في الأرض فاعل فيها.

الآية الثانية: أن الله خلق لكم من أنفسكم ما يكون به الواحد زوجا، فخلق الذكر والأنثى، وجعل في طبيعتهما، أن كل جنس يألف الجنس الآخر ويتكامل معه بعاطفة الود والأنس والمحبة، وبالرحمة التي تدوم بها العلاقة .وللمفكرين مجال واسع للتدبر في تلك الأسرار.

الآية الثالثة: في خلق هذا الكون: السماوات بما تحويه من كواكب ونيازك ومجرات لا يعلم تعدادها وخصائصها إلا الله منشئها، والأرض وتركيبها والعناصر التي تتكون منها باطنا وظاهرا، وحركتها والزلازل التي تهزها مما لا يحيط بعلمه إلا الله. وكل ذلك بإحكام وتناسق، وتؤثر في الإنسان . ومن مظاهر ذلكم التأثير اختلاف اللغات والأصوات والألوان. وفي كل ذلك آيات للبشر تهديهم إلى أن الخالق لها هو الله بحكمته، أجراها على ما هي عليه.

الآية الرابعة: ما يجري على الإنسان من قانون النوم الذي يأتي على الحواس فيخدرها إلى أجل معلوم، وبتخديرها يعود للجسم وللعقل عند اليقظة القوة التي استنزفها العمل، فيواصل فعله في الكون ابتغاء للرزق من فضل الله. إنها آيات تثير من يسمع النص القرآني للتأمل.

الآية الخامسة: أقدرناكم على رؤية البرق، الذي يثير فيكم الخوف من الصواعق المحرقة، ويثير فيكم في نفس الوقت الطمع في نزول الغيث. والله هو الذي يجعل البرق خلبا لا يعقبه مطر، وهو الذي ينزل الماء متى أراد من السماء، فيبعث به

الحياة في الأرض بعد أن كانت هامدة. فيما عرض عليكم في هذا اللفت الخامس ايات عديدة للقوم الذين دربوا عقولهم على التذكر، ولا يقفون عند الظاهرة الأولى. فيحصل لهم برد اليقين بقدرة الله وحكمته.

الاية السادسة: القوانين التي أجرى عليها خلق السماوات والأرض فإذا هي تقوم بدورها الذي خلقت من أجله لا يختل ولا يضطرب. وكما تطيع السماوات والأرض لما أراده منها الخلاق العليم، فكذلك أنتم ستستجيبون لندائه فتخرجون من قبوركم للحشر والحساب والجزاء.

بيان المعنى العام:

20. ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون.

أهم الأغراض التي عني بها القران عقيدة التوحيد، ومن شعبها الأدلة التي تثبتها وتفصلها. ومن ذلك الايات المفتتحة بقوله: (ومن اياته). وهي إحدى عشرة اية تتابعت ست منها في هذه السورة، والسابعة الاية السادسة والأربعون منها :(ومن اياته أن يرسل الرياح...) والثامنة والتاسعة الايتان 39/37 من سورة فصلت والعاشرة والحادية عشرة الايتان32/29 من سورة الشورى . وايات الله هي الأدلة المنبثة في الكون التي تقضي بالمتأمل فيها إلى اليقين بأن التصرف لله وحده في الكون، التصرف الدال على الحكمة والقدرة .قال تعالى: سنريهم اياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [1]

الاية الأولى في ترتيب القران التي افتتحت بقوله : ومن اياته هي هذه الاية-20- فهي توقظ الفكر للتأمل في مضمونها الدال على تفرد الله بالقدرة والإحكام .وهي اية منبثقة من نفس الإنسان. تلفت النظر إلى أول مراحل خلقه، سواء نظرنا إلى خلق ادم من تراب كما اخبر به القران والكتب السماوية، أو نظرنا إلى خلق كل فرد من البشر. إن تكون كل إنسان هو من الخلية الأولى(اللقيحة) التي ما كان يمكن لها أن تنمو وتوجد فيها الخصائص المساعدة، لولا ما يصلها من عناصر غذاء الإنسان المتكون أساسا من التراب. تتحول عناصر من التراب إلى الحبوب والخضر والفواكه واللحوم والألبان، ثم تتحول بعد عملية الهضم والتوزيع على مقادير مضبوطة ودقيقة، فيأخذ كل جهاز وجزء ما هو في حاجة إليه . فمن التراب اليابس الميت انبثقت الحياة في الإنسان.

---

[1] سورة فصلت اية 53

كنا نتحدث عن التراب وعن العناصر التي تتحول في صورة النبات والحيوان، ثم في عملية الهضم وسريان الخلاصة موزعة. ويكون الناتج من ذلك شيئا مفاجئا افتتح بإذا: هو أنكم (بشر تنتشرون) على وجه الأرض وتتحركون، وتعمرون.

21-ومن آياته أن خلق لكم...لقوم يتفكرون.

الآية الثانية المرتبطة بالأولى. هي تسلسل البقاء الإنساني، إذ خلق من نفس الإنسان ما يكون به زوجا، وكلمة زوج تدل على ما يكون به الواحد زوجا. فالذكر والأنثى كلاهما زوج للآخر. فقدر أن يتماثل الذكر والأنثى وتتكون منهما الأسرة الحاضنة للتكاثر البشري، وأن يبنى هذا التكامل على المودة والرحمة.

فكانت الحكمة في خلق الذكر والأنثى وأن يكون بقاء النوع بهما معا. وجعله تزاوجا وتجاذبا يجد كل واحد من الجنسين في الآخر ما يجعله يأنس به ويسكن إليه. فانغرس في الفطرة أن العزوبة وضع مخالف للفطرة، يجعل العزب والعزبة معقدين، بما يتراكم من الانعزال من مضاعفات الوحشة. وغرس التقدير الإلهي في النوعين عند التزواج المودة والرحمة .فالود عاطفة نبيلة توجب الاندماج في الآخر وحب الخير له والذي يصل في أعلى درجاته إلى قضاء الشهوة الجنسية والشعور بأن كل واحد منهما مكمل للآخر. وبإنجاب الذرية تزيد هذه الصلة إحكاما وقوة. وأما الرحمة فهي التي تستمر بها تلك الصلة ولا تضعف مع البرودة الجنسية ولا مع الضعف والحاجة .

إن ما غرس في النفس البشرية من المشاعر والعواطف تفاعل بيد القدرة الإلهية، تجد آثاره في بقاء النوع البشري وفي الطاقات التي بها يتم عمران الكون المترتبة عن الزواج المبني على الود والرحمة وفي التقريب بين الأسر بالمصاهرة، وفي التعاون على حمل متاعب الحياة والمضي بها إلى الأمام، وفي التربية على التعاون بين الفرد والمجتمع، وغير ذلك مما عبر عنه القرآن بقوله إن في ذلك لآيات عديدة لقوم يعملون فكرهم في سنن الله في الخلق .

22-ومن آياته خلق السماوات ..لآيات للعالمين.

جاءت الآيتان السابقتان للفت الأنظار لآيات الله في الأنفس، واتجهت هذه الآية لفت الأنظار إلى آياته في الآفاق وفي الأنفس معا. فعرضت أولا خلق السماوات والأرض، الكون كله بما يحويه من كواكب لا يحصيها التعداد ومن مجرات ضخمة تسبح في مساراتها لا يعلم حقيقتها ولا تعدادها ولا ما هو كائن فيها إلا خالقها سبحانه. تبدو الأرض التي نعيش على ظهرها كوكبا ضئيلا تافها بالنسبة لعظمة ما

تركيب منه الكون المترامي الأطراف. الذي يقاس أبعاده بالسنوات الضوئية حسب المستوى الذي بلغته المعرفة الإنسانية. وحتى الأرض مستقرنا وميدان حركتنا وتجاربنا ما يزال بحث المجهول منهما يحث الإنسان لمعرفته. إن ضخامة هذا الكون، والقوانين المحكمة أبلغ ما يكون الإحكام، ليقوم ذلك دليلا وشاهدا على الدقة في التصرف الإلهي، والنظام في تسييره .

ثم عرضت ثانيا ما يلفت أنظارنا إلى الأنفس. البشر الذين خلقوا حسب قوانين واحدة من التراب ومع ذلك تجدهم مختلفين ماديا اختلفوا في الوحدات الكبرى الجامعة بينهم، من الأبيض والأسود والأصفر والأحمر، ومركب من تمازجها. إن موقع كل جنس في ناحية من الأرض، وما يقابله من كواكب السماء، له أثره في اللون. فقد لاحظنا أن الأميركيين الذين انحدروا من أصول إفريقية تغير لون جلدهم من السواد إلى الخلاسية.

وبجانب هذا الاختلاف في الإهاب المادي اختلاف في الفكر الذي يعبر اللسان عما يجري فيه. نجد اختلافا في الوحدات الكبرى في لغات الشعوب، كما نجد اختلافا بين أصحاب اللغة الواحدة في الإبانة عما يجري في نفوسهم ؛ بل يختلف أصحاب اللغة الواحدة والأسرة الواحدة في النبرات وتكييف الحبال الصوتية للأصوات.

إن تمييز كل وحدة كبرى وكل ذات بخصائصها يشهد بأن الطبيعة التي تخيل بعضهم أنها المؤثرة في الكون، ينهار هذا الوهم بالتميز الذي لا يتولد إلا عن إرادة حرة تفعل ما تشاء . إن الآلة التي قامت عليها الصناعة اليوم لا تنتج إلا متماثلا.

و بالتعمق في خلق السماوات والأرض، واختلاف ألسنة البشر وألوانهم على حسب ما ألمحنا إليه يقتنع البشر جميعا بتفرد الله بالخلق. وهذا إذا اعتمدنا قراءة العالمين بفتح اللام . وأما إن اعتمدنا رواية كسر اللام يكون العلماء المتعمقون في ميادين المعرفة مؤهلين لإدراك تلكم الأسرار .

23- ومن أياته منامكم...لقوم يسمعون.

هذه هي الآية الرابعة في الآيات الست تلفت الأنظار إلى ظاهرة النوم التي بسبب تكررها كل يوم تمر على الإنسان دون أن ينتبه لما فيها من أسرار.

حياة الإنسان هدم وبناء متواصل، هو في يقظته يعمل بقواه العضلية وبقواه الفكرية، والعمل وإن كان ضروريا للإنسان إلا أنه يهدم من قواه ما يبلغ معه العامل الشعور بالإعياء والفتور. فليقوم الإنسان بمهمة الخلافة في الأرض، بصفة متواصلة، كانت حياته منقسمة إلى فترتين فترة يجد فيها ويكدح، وفترة يستريح فيها فيتجدد ما ذهب من قواه، ويعود له نشاطه الذهني والعضلي، وذلك بالنوم .وهذا المزج بين

فترات النوم واليقظة على نظام مرتبط بأعصاب الدماغ على قانون يسترد به المتعب قواه ويجدد نشاطه من آيات الله. فالنوم شبيه موت قال تعالى : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى[1] ومن عجيب صنع الله أنه يخدر بعض أجهزة الجسم ليضخ فيها القوة التي فقدتها، ويبقي على بعضها في حالة نشاط، حتى إذا استيقظ تفاعلت كل الأجهزة .

إن تأثير النوم في البشر، والتنظيم المحكم في هذه الظاهرة تشتمل على آيات عديدة تدل على أن التصرف الإلهي في الإنسان يصحبه في جميع لحظات حياته. ولا يلتفت لذلك فيعيه إلا القوم الذين يسمعون القرآن ويتابعون ما جاء فيه بالتدبر للوقوف على أسراره.

24.ومن آياته يريكم البرق... لقوم يعقلون.

هذه هي الآية الخامسة من الآيات الست، وهي من المشاهدات التي مكنكم الله من إدراكها بالبصر "يريكم" وفي ذلك تنبيه إلى أن قوانين النظر من خلق الله، فلا تدرك أبصارنا من القوى المنبثة في الكون إلا في حدود تلكم القوانين. مكننا الله من إدراك البرق وهو يخترق السحب ويلمع منه ضوء يكاد لسرعته وقوته يخطف الأبصار. أقدرنا على مشاهدة البرق ولم يعطنا القدرة على رؤية القوى الكهربائية المشحونة في السحب، كشأن كثير من القوى الكونية التي أدركنا وجودها بآثارها، ولا مطمح في إدخالها تحت الحواس. ومن عجيب صنع الله أن جعل ظاهرة البرق تحدث فينا أرجاعا متناقضة، تخيفنا من ناحية لما يمكن أن يصحبها من الصواعق الحارقة. ومن ناحية ثانية تبعث الطمع لما يعقبها من نزول الغيث. ولما كان الخوف أمرا سلبيا لم يعقبه بزيادة إيضاح. أما الطمع فأضاف إليه ما يبينه. إن تحقق ما يطمع فيه البشر من نزول الغيث هو من تقدير الله، فهو الذي ينزل من السماء الماء الذي قدر أن يكون سر الحياة الذي حول الأرض الميتة اليابسة الجرداء، إلى زهور وأوراق وثمار وأعشاب تكسو سطح الأرض بحركتها ومتنوع ألوانها.

كيف تم ذلك؟ في كل مرحلة من تكاثف السحب، ولمعان البرق، ونزول الماء من السماء، واهتزاز الأرض، وخروج النبات من باطنها، وسريان المياه المشحونة بعناصر من الأرض في الأشجار، وتأثير ذلك في الشكل والمذاق ؛ في كل ما ذكر وما يتصل به آيات تدل القوم الذين من شأنهم إعمال عقولهم على أن المتصرف المدبر للكون هو الله وحده.

---

[1] سورة الزمر آية42

25 .ومن آياته أن تقوم...إذا أنتم تخرجون .

هذه الآية السادسة من مجموعة الآيات التي تتابع عرضها، وإشارة انتباه الإنسان إليها، توجه الأنظار إلى الاعتبار بحفظ نظام الكون. فكما لفت انظارنا إلى خلق السماوات والأرض ذكرنا بهذه الآية لنتأمل في القوانين التي أبقى بواسطتها نظام الكون يتواصل ملايين السنين دون أن يلحقه اختلال، وجسم ذلك في صورة بديعة، شأن المأمور المطيع أن يقف بين يدي امره يسمع الأوامر وينفذها (أن تقوم السماء والأرض بأمره).

وفوق ذلك خروج الموتى من قبورهم إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور اخرجوا كانت هذه الدعوة فوق كل ما تقدم لعظيم اثارها من الخروج من القبور والحساب والجزاء. وخروجهم من قبورهم أمر مفاجئ حقًا إذ يتحقق بسرعة فائقة بعد الموت الذي تطاول أمده.

وبهذا تتم الآيات الست بالانتهاء إلى الوقوف بين يدي الله، وأن إلى ربك المنتهى.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ

قانتون: مطيعون، منقادون.

ضرب لكم مثلاً: وضع لكم نظيرا يقرب لكم الحقيقة ويوضحها.

ملكت أيمانكم : العبيد الذين تملكونهم.

بيان المعنى الإجمالي

كل العقلاء في السموات وفي الأرض، من بشر وجن وملائكة مملوكون لله، وكلهم مطيعون له، ينفذ فيهم ما قدره في تكوينهم، وما يجري عليهم في حياتهم. في تطوراتهم وفي آجالهم ونحو ذلك. وتفرد سبحانه بأنه هو الذي خلق الخلق . والمشركون مقرون بهذا، إذ لا يستطيعون أن ينسبوا لأصنامهم قدرة على الخلق أو

اشتراكا فيه، وهو القادر على إعادة ما خلق .وكيف تستبعدون اعادة الخلق وتقولون: من المستحيل أن تعود الأجساد إلى ما كانت عليه، مع أنكم تقبلون في حياتكم أن الإعادة أيسر من البدء .فاعترافكم بأن الله هو الذي خلق، يقتضي أنه هو الذي يعيد، وهو العزيز الذي لا يعترض إرادته شيء، وهو الحكيم فلم يخلقكم عبثا بل خلقكم لتجزون عما قدمتم .

واستدل على نفي الشريك بضرب مثل؛ حاصله انكم تتقون نفوا قاطعا أن عبيدكم يشاركونكم في أرزاقكم التي رزقناكم اياها، وأن تستووا معهم أو تخافوهم، فكيف يكون لأصنامكم المخلوقة من المواد التي خلقتها يكونون شركاء لي، على هذا النحو نفصل الأدلة ونبينها للقوم الذين يحكمون عقولهم.

دع عنك الأمل في رجوعهم إلى الحق ! فإن الذين حرمهم الله توفيقه، ولم يسعفهم بالألطاف التي تهديهم إلى الحق، واستكبروا متعلقين بأهوائهم وهم مع ذلك بعيدون عن العلم الصادق، إنك لا تجد لهم من ينصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة . وما أضعف الإنسان إذا تركه ربه لنفسه!

بيان المعنى العام

26- وله من في السماوات والأرض كل له قانتون.

تفيد هذه الآية امرين :

الأول: أن كل من يعقل في السماوات والأرض مملوك لله وحده.

الثاني :أن العقلاء كلهم خاضعون لله ممتثلون له .وكونهم ممتثلين لله يحتمل وجهين:

أحدهما أنه امتثال التكوين في الخلق الأول، ثم ما يجري عليهم في حياتهم من صحة أو سقم، ونمو أو ضعف، وكيف تعمل الأجهزة ومتى تتوقف جزئيا أو كليا.

وثانيهما: الطاعة عندما يدعوهم للخروج إلى الحساب.

أما الامتثال فيما كلف به فغير مراد على عمومه لأن إبليس عصى وسار على نهجه ذريته . وذرية آدم منهم القانتون ومنهم الزائغون على نسب متفاوتة

27-وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ...وهو العزيز الحكيم.

تقدم في الآية العاشرة (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) وأكدت هذه الآية مضمونها، وأضافت إليه ما يقطع جدل من ينازع في قدرة الله على الإعادة. ذلك أن العقيدة الإسلامية تقوم على أن الإنسان مسؤول عن أفعاله، مجزي عنها يوم القيامة، والجزاء يوم القيامة يؤرق المسرفين المرتكبين للآثام، المتهاونين بالحقوق والواجبات الشرعية. ويجدون في الإصرار على إنكار ذلك ما يخدر الرقيب

الداخلي المؤنب عن سوء فعالهم. وبرروا ما ذهبوا إليه، بأن عودة الإنسان بعد أن تبلى عظامه ويتحلل جسمه ويتحول إلى ذرات تختلط بالأرض، أمر مستحيل حدوثه. فرد عليهم القرآن: إن ما توهمتموه حجة، خطأ بمقاييس العقل البشري. فإنكم لما لأعدتم إلى الحقيقة الأولى خلق الله للإنسان، فإن إعادة ما خلق على النحو الذي خلق أولا هو أيسر حسب مقاييسكم الدنيوية. فيكون قوله أهون عليه حسب مقاييسكم. ويحتمل أن يكون قوله: وهو أهون عليه، أي هين .

إن تقريبه صدق الإعادة بأنها أهون من البدء، إنما قدم ذلك لكم مراعاة لمستواكم الفكري. والحقيقة التي يقر بها أهل السماوات والأرض، أن كل ما يتعلق بالذات الإلهية هو الأعظم والأكمل المتجاوز لكل تصور. كيف لا وهو العزيز الذي لا يحول بينه وبين تنفيذ مراده أي حائل، وهو الحكيم، ومن حكمته أنه لم يخلق البشر عبثا غير مسؤولين، يستوي الصالح والطالح والخيّر والشرّير.

28. ضرب لكم مثلا ... نفصل الآيات لقوم يعقلون.

يوالي القرآن توضيح العقيدة الصحيحة وإبطال الشرك، فبعد أن هدم معتقداتهم بدليل العقل، ثم بمخالفته لما تقتضيه الفطرة، أضاف في هذه الآية دليلا مستخلصا مما جرى عليه أمر الحياة عندهم . كان المجتمع العربي مكونا من أحرار وعبيد. والعبد لا يملك حتى ذاته، فذاته وما يحوزه هو لسيده. فخاطبهم بما محصله: إنكم أيها المشركون إذا كان لكم عبيد فإنكم لا تشركونهم في أموالكم، ولا في أي شأن من أموركم على حد التساوي معكم، كما أنكم لا تخافون منهم أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها، كما هو الأمر فيما بينكم. فإذا كانت هذه عادتكم تقبلونها وترون أنها الحق وما سواها ظلم، فكيف تعتقدون في أصنامكم التي هي مخلوقة عاجزة أحط منكم، أنهم شركاء الله في سلطانه ؟

على هذا النحو من التوضيح ورفع الشبه، نفصل الآيات تفصيلا يرفع كل لبس وإجمال، للقوم الذين من شأنهم أن يعملوا عقولهم فيما يرد عليهم . فلا يحول بينهم وبين إدراك الحق التقليد.

29. بل اتبع الذين ... وما لهم من ناصرين.

اضراب عن متابعة الضالين المشركين، وفضح لحالهم .إنهم قوم ضالون لا يرجى خروجهم مما هم فيه ؛ ذلك أن الله حرمهم ألطافه وتركهم لأهوائهم وشهواتهم وما يدعوهم إليه الشياطين. وتبعا لذلك لا يجدون نصيرا ينصرهم عندما يواجهون حسابهم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ

أقم وجهك: احصر اهتمامك وأقبل عليه ولا تنظر إلى غيره. وكن قويا جادا في أعمال الدين.

للدين: دين الإسلام.

حنيفا: منصرفا عن الباطل متجها إلى الحق.

فطرة الله: الوضع الأصلي الذي خلق الله عليه البشر.

القيم: المستقيم الذي لا عوج فيه.

منيبين إليه: المنيب الراجع المخلص إلى جهة ما توده نفسه. الملتزم بالطاعة.

شيعا: جمع شيعة الجماعة التي توافق رأيا سبق.

حزب: الجماعة الذين نزعتهم واحدة.

ما لديهم: ما اتفقوا عليه.

فرحون: مبتهجون، مفتونون بآرائهم.

الضر: سوء الحال في البدن أو العيش أو المال.

مس: أصاب

أذاق: أصاب.

الرحمة: تخليصهم من الشدة.

الإيتاء: إعطاء النافع.

التمتع: الانتفاع بالملائم مدة محدودة.

بيان المعنى الإجمالي

أقبل على الدين الإسلامي بعقلك وروحك وبدنك، ولتكن أحكامه ومبادئه هي التي تلتزم بها وتسير عليها. إن الطرق المعروضة في الدنيا متشعبة وكثيرة .انحرف

عنها جميعا، والتزم منهج الإسلام ولا تخلطه بغيره .ميزة هذا الدين أنه متسق مع الفطرة التي خلق عليها الإنسان فعقيدة التوحيد، وما يتصل بها منسجمة مع الطبيعة التي خلق عليها الإنسان .وكذلك التشريع لا يعاكس طبيعة الخلق. فلا تنحرفوا عما شرعنا فتغيروا الفطرة التي خلقتم عليها. هذا الدين هو الدين الرقيع الشأن. ولكن أكثر الناس لم يدخلوا فيه لجهلهم بحقيقته، وعدم تأملهم في منهجه ومضامينه.

لا تبعدوا عن ربكم، وتقربوا إليه، وتحصنوا بالتقوى، وقوموا بأداء الصلاة على الوجه الأكمل، ابتعدوا عن منهج المشركين، الذين مزقوا الدين، وكانوا فرقا مختلفة، مع أن الدين هو الحق والحق واحد. كل جماعة مفتونة بدينها تؤيده وتشوه به، وتطعن في دين غيرها، وهم جميعا على باطل. ذلك أن الباطل متشعب، والحق واحد.

من شأن الإنسان الضعيف أنه إذا شعر بضر أصابه من مرض أو سوء حال أو قحط ونحو ذلك، أن يسرع إلى الاستغاثة بالله والعودة إلى حماه .ولكن بعد أن ينزل الله عليه رحمته فيخرجه من ضره، يفترق الداعون المستغيثون إلى فريقين: مؤمن يشكر ربه على ألطافه، وكافر يتنكر لنعمته .نزلت عليهم النعم ليكفروا بما مكناهم من الخير، إني لا أغفر لهم وسوف ينفذ فيهم جزاء كفرهم. فيعلمون عندها عاقبة كفرهم بنعمي.

بيان المعنى العام :

30. فأقم وجهك للدين..ولكن أكثر الناس لا يعلمون

أمر من الله لرسوله ولكل من آمن به، أن يخلص لهذا الدين إخلاصا يجعله لا ينظر إلى غيره، فيكون قلبه ومشاعره وأعماله مرتبطة بالإسلام، ويكون من ناحية أخرى نشيطا في تطبيق ما جاء به. وأكد هذا المعنى بقوله حنيفا، أي مائلا عن كل الاتجاهات الأخرى منحرفا عنها باعتبار أن كل الطرق الأخرى ملتبسة بالباطل والفساد.

فطرة الله التي فطر الناس عليها دين الإسلام موافق للفطرة، أي النظام الفكري والحياتي للبشر . فكل ما جاء به الدين لا يعكس ما خلق الله الإنسان عليه، عندما تربط العمل بالعقل، وعندما تقيم المفاهيم على قانون العقل غير متأثر بالعادات أو بنوازع الشهوة .وعرف الفطرة ابن عطية بأنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل (يقصد ما كان الإنسان مستعدا له منذ نشأته) لأن يميز بها مصنوعات الله (يقصد بذلك إعماله لحواسه ووثوقه بصدق ما تنقله إليه تلك الحواس ليكون منه رصيدا يعرف به العالم على الوضع الذي خلق عليه) ويستدل بها على ربه جل

وعلا(يقصد أن انطلاق الإنسان من المحسوسات إلى التفكير في صنعها وخصائصها إلى أنها تدل على موجد الكون ومبدعه . فالوصول إلى معرفة الله ووحدانيته من مقتضيات الفطرة . وبقي قسم آخر مستند إلى الفطرة، وهو القسم التشريعي؛ وهو من الفطرة باعتبار أن كل ما أمر به الدين، أو نهى عنه يأتلف مع طبيعة الخلق الإنساني، وكذلك ضوابط المعاملات تجد العقل يقبلها ويجدها منسجمة مع قوانينه .

"لا تبديل لخلق الله" تؤكد هذه الجملة المضمون السابق: أي إنك لا تجد في العقيدة الإسلامية ولا في التشريع ما يبدل الخلقة الأصلية التي خلق الله عليها الإنسان. ويمكن فهمها على أنها نهي في صورة الخبر : أي لا تبدلوا الخلقة التي خلق الله الفطرة عليها.

"ذلك الدين القيم " إشارة مميزة للإسلام بأنه الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو أيضا يقوم على الإنسان يهديه ويستقيم به فكره، وينظم غرائزه، ويؤلف بينه وبين غيره تأليفا تنسجم به القوى المختلفة لتنسجم فيما بينها نحو الخير.

"ولكن أكثر الناس لا يعلمون" بعد هذا البيان لطبيعة الإسلام، الموجب للدخول فيه، وتأييده، لكن الواقع غير ذلك لأن الجهل قد حجب الناس عن إدراك حقيقة الإسلام، وما يحويه من خير للفرد وللبشرية...ولو نظروا نظر من يرغب في معرفة الحق، وتأملوا في تفاصيل هذا الدين لآمنوا. فالكفر نتيجة الجهل.

31←32 :منيبين إليه واتقوه، بما لديهم فرحون.

وكونوا على حال من هو ملازم لطاعة ربه، أفردوه بالطاعة، وكونوا لنفوسكم وقاية من غضبه، وواظبوا على أداء الصلاة على أكمل وجه ولا تشغلكم عنها الشواغل، واحذروا أشد الحذر من الشرك وما يتصل بالمشركين .ثم عقب المشركين بالكشف عن صفتهم التي تدعو إلى البعد عنها لما يترتب عليها من سوء الاختيار، ثم سوء العاقبة .إنه إذا كان المسلمون يعبدون إلها واحدا فإن المشركين يعبد كل فريق منهم إلها، وكل فريق يعتقد ويصرح بأن دين الفرقة الأخرى زيف وباطل. وذلك مما مزق وحدتهم فهم فرق وشيع كل جماعة مبتهجة بما هي عليه

إن الاختلاف قد يكون داعية قوة، إذا كان كل مخالف يتأمل في مباني غيره وينتفع من جانب الحق فيها. أما إذا أدى الاختلاف إلى التعصب، وما يتبعه من التعادي، وعمل كل فريق على هزم الفريق الآخر، فذلك من صفة أهل الشرك وهو ما حذر منه القرآن في غير ما آية قال تعالى : ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم [1]

---

[1] سورة الأنفال آية 46

33←34 وإذا مس الناس ضر...سوف تعلمون.

تكشف الآية عن نفسية المؤمنين والفاقدين للإيمان من البشر، فجميعهم يعودون إليه ضارعين بالدعاء إذا أصابهم ضر في أنفسهم من مرض أو خوف، أو في أموالهم كالقحط، أسرعوا إلى دعاء ربهم عائدين إليه كي يكشف عنهم ما نزل بهم، ثم إنه بمجرد ما يرحمهم ويكشف ضرهم ينقسمون إلى فريقين، فأما المؤمنون فيزيدهم ذلك إيمانا يعبرون عنه بالشكر، وأما الفريق الآخر فإنهم يسرعون إلى العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك. لتكون عاقبة النعمة عليهم الكفر بالنعمة وبما يسرع الله من فضله. يهددهم منذرا وموبخا: تمتعوا زمنا قليلا بما آتيتكم سوف يحيق بكم ما أوعدتكم.

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

السلطان: الحجة والبرهان من رسول أو كتاب.

سيئة: ما يكرهه الإنسان في نفسه أو ماله أو محيطه.

يريدون وجه الله: يبتغون رضاه.

قدمت أيديهم: فعلوه.

القنوط: اليأس.

يقدر: يضيق.

بيان المعنى الإجمالي:

لما نفت الآيات السابقة أن يكون للمشركين سند من العقل مقبول، فهل استندوا إلى برهان من كتاب منزل يصرح بما هم عليه من الشرك؟ شركهم لا دليل عليه لا من العقل ولا من النقل. فهو من هوى الأنفس ومن نزغات الشياطين.

ومن شأن النفوس إذا لم يروضها الإيمان ويسمو بها، أن يستولي عليها الفرح بالنعمة، فتنسى من تفضل بها، وإن يصيبهم مكروه في النفس أو المال أو الأتباع،

ولا يكون ذلك إلا مرتبطا بعصياتهم، ينسون أيضا أن الله مقلب الأحوال ويتبع العسر باليسر، ولا يعودون إلى أنفسهم بالنقد الإصلاحي فيعمر قلوبهم اليأس.

ما أشد غفلتهم ألم ينظروا في أحوال الناس من حيث الفقر والغنى ؟ لو أبصروا لوجدوا أن الله يوسع على من يشاء فيجمع بينه وبين الألطاف التي تجعل نشاطه المالي رابحا. وأنه سبحانه يحجب ألطافه على آخرين فهم في ضيق وفقر. إن في التدبر في أوضاع الناس هذه أدلة على تفرد الله بالتصرف. كن يا محمد سمحا بالمال ولتكن أمتك سائرة على طريقتك، واس أقاربك من المال الذي رزقك الله، وكذلك المساكين المحتاجين، وكذلك المسافرين الذين لا يجدون مأوى، استضفهم وأكرمهم. إن تطبيقك لهذه الهداية يتبعها خير كثير، إذا صحب تنفيذها الإخلاص لوجه الله وابتغاء رضوانه. وهؤلاء الكرماء المخلصون هم وحدهم المفلحون الفائزون برضوان الله.

بيان المعنى العام

35-أم أنزلنا عليهم...بما كانوا به يشركون.

تنقل القرآن بواسطة الحرف (أم) التي هي بمعنى بل للتحول من الطريقة التي كان يهدم بها الشرك، إلى سؤالهم سؤال إنكار، يقصد به أن يقر المسؤول بنفي ما يسأل عنه. هل أنزلنا عليهم برهانا بينا من كتاب، خطه قلم القدرة الإلهية، ينطق بأن الشرك حق . وإذ انتفى أن يكون الشرك مستندا لدليل عقلي، ولا لكتاب منزل من عند الله، لم يبق لهم متمسك فيما اعتقدوه وساروا عليه من الشرك. إن شركهم لا يعدو أن يكون خيالات وأوهاما لا أساس لها.

36←37 وإذا أذقنا الناس ...وأولئك هم المفلحون

هذه الآية تكشف عن طبيعة النفس البشرية إذا لم يروضها الإيمان وتصقلها التقوى، إن الإنسان إذا أنزل الله عليه رحمته فيسر له الصحة والهناء والخصب والرخاء، تستولي عليه النعمة ويفرح بها فرحا ينسيه فضل المنعم، ويغفل عما بنيت عليه الحياة من التقلب فيظن أن ما هو فيه دائم غير منقطع، فلا يقوم بواجب الشكر، وفي المقابل إذا أصيب بما يسوءه من سقم أو جدب أو قلق وخيبة، استقر في ذهنه أن البلاء الذي نزل به دائم لا يرتفع، ويحل القنوط المظلم في قلبه، من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولا يحاسب نفسه حسابا ينكشف له منه: أن ما أصابه من سوء، مرتبط بما صنع، وأنه نوع من الإيقاظ للتوبة والعودة إلى الطريق المستقيم، وحث على التضرع لله .

العجب من الناس أنهم لم يروا تصرف الله في الرزق! إن الله يوسع على من تعلقت إرادته بالتوسعة عليه. مع أن الموسع عليهم ليسوا أشد الناس ذكاء أو أوسعهم علما، أو أقدرهم على تبين الفرص المواتية فدرة ذاتية .وأنه سبحانه يضيق الرزق على من يشاء في رزقه، و ليس ذلك عن غباء شديد، ولا عن كسل معطل، ولا عن جهل حاجب . ولكنه التصرف الالهي لحكم تقصر عقولنا عن إدراك أسبابه البعيدة، وأنه يحول الغني إلى فقير، والفقير إلى موسع عليه مرزوق . إن التصرف الإلهي الذي يمكن من شاء من الطافه فيتسع رزقه وتتعظم ثروته، ويحرم من لم تتعلق إرادته بالتوسعة عليه من تلك الألطاف، فتجده وهو يسعى في الحياة مقطوعة حباله بالتوفيق في جمع المال . فيزداد الذين امنوا إيمانا بأن الخير بفضل الله، وأن الحرمان بما كسبت أيدي الناس، والله حكيم في تصرفه .

38-فآت ذا القربى حقه...وأولئك هم المفلحون.

نبهت الآيتان السابقتان على ما يدخل الناس من انحراف في موقفهم إذا شملتهم الرحمة فاستقامت أمور حياتهم، أو أصابهم السوء والضر فقنطوا. ووجهتهم الى مراجعة سلوكهم عند الضر وعدم القنوط .وإلى شكر الله على ما تفضل به من نعم .

والشكر يكون باللسان فيتصل الشاكر بربه ويكثر من الثناء عليه. وبجانب الشكر باللسان والقلب الشكر بالفعل الذي هدت إليه هذه الآية . فأمرت الرسول ﷺ ومعه المؤمنون بأن يقدم المنعم عليه بالتوسعة في المال عن طواعية، للقريب المحتاج حقه الذي يرفع عنه الخصاصة والحرمان . وقد جاءت صياغة الايه أولا بالأمر (فات) والأصل في الأمر أن يدل على الوجوب، وأنه حق (حقه) وتمكين صاحب الحق من حقه واجب. فتأكد بذلك أن مد يد العون للقريب واجب. ولما كانت الأقارب على درجات مختلفة فهناك علاقة الأبوة والبنوة والزوجية، والنفقة على هؤلاء واجبة حسب الضوابط الشرعية. وأما النفقة على الجوائح على اختلاف منازلهم فقد كانت مواساتهم واجبة قبل الهجرة، أما بعدها وفرض الزكاة، فهو من البر المؤكد دون أن يبلغ درجة الوجوب. ويبقى ما يمتن الصلة بالإهداء مرعيا.

وعطفت الآية على ذوي القربى المساكين، وحقهم باق يتكرر في القران التذكير به. وابن السبيل المسافر، حق استضافته إذ احتاج لذلك. وبذلك يشعر كل مؤمن أن الجماعة تحتضنه عند العوز ولا تضيعه.

وحرضت خاتمتها على تطبيق ما جاء فيها من سماحة بالمال، ووجهت إلى أن تلك السماحة لا ترقى إلى مستوى رضا الله إلا إذا كان المؤتون أموالهم يفعلون ذلك

ابتغاء رضوان الله، لا يمنون بما أعطوا ولا ينتظرون عنه ثناء، أملهم معلق بقبول الله لعملهم. إن هؤلاء هم الذين أفلحوا وفازوا، بقبول الله لعملهم . ومن قبل عمله فقد تحققت سعادته.

وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

بيان معاني الألفاظ

المضعف: الحاصل على أضعاف.

بيان المعنى الإجمالي:

بيان المعنى العام:

39ـ وما آتيتم من ربا ...هم المضعفون.

لما أرشدهم القرآن في الآية السابقة إلى السماحة بالمال عونا لذوي القربى والمحاويج والمسافرين المنقطعين، وأن ذلك هو التجارة الرابحة ثنى في هذه الآية بنهيهم عن الطريق المقابل للسماحة والغيرية، وهي طريقة الأنانية والاستغلال طريقة المرابين. كان الربا فاشيا في قبيلة قريش وثقيف. وشأن المقترض أن يكون محتاجا غالبا، ومن له فضل من المال لا يمكن منه أحدا إلا بزيادة تربط بين المال والزمان، فيزيد المال بالمدة التي يبقى فيها عند المقترض. تقول الآية وما دفعتم من أموال لتزيد من أموال المقترضين، فكونوا واثقين أن الذي يبارك في المال وييسر نماءه هو الله، والله لا يرضى عن هذه الطريقة في التعامل فهو لا ينمي مال المرابي بل يمحقه.

وفي المقابل فما آتيتم إخوانكم من أموال بدافع تزكية المال وتزكية النفس بالسمو بها من خساسة الشح، وإخلاص المزكي عمله لوجه الله، فإن تلك الأموال ستتضاعف من ناحيتين: ثوابها يوم القيامة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[1] التحصين بفضل الله لصاحبها من الكوارث فيكون استثمارها مصحوبا بالربح والبركة.

---

[1] سورة الأنعام آية 160

10 .الله الذي خلقكم ...وتعالى عما يشركون

إعلان للحقيقة يتكرر في القرآن لهدم الشرك الفاشي .افتتح باسم الجلالة "الله" هو المنفرد بما تختص به الألوهية من التصرف في شؤون الكون . (1) هو الخالق خلقكم ولم يخلقكم غيره (2) ثم إنه بعد خلقكم لم يهملكم بل تكفل برزقكم وترتبط الآية بسابقتها فالرزق. الذي بين ايديكم هو مال الله فواسوا به ولا تثمروه بالربا(3) ثم جعل لحياتكم أجلا تنتهي إليه لا تستطيع تأخيره ولا تقديمه (4) ثم يحييكم: البعث والحساب، وهو ما تقتضيه الحكمة وعدم العبث .

ثم أوقفهم على فساد ما يذهبون إليه من اعتقاد الشركاء. هذه خصائص الألوهية، فهل بلغ واحد من شركائكم الذين جاءهم اسم "الشريك" إلا من أوهامكم، ولهذا نسب الشركاء لهم : هل من شركائكم هل يوجد أي صنم تعبدونه يستطيع أن يفعل أي شيء مما اختص به الله؟ ولما كان جواب السؤال مما لا يصرح به لفساده وقبحه، وقع التصريح بما ينفيه مع تقديس الله عن الشريك : سبحانه وتعالى عما استقر في عقولهم من فساد .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿41﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿42﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿43﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿44﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿45﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿46﴾

بيان معاني الألفاظ

الفساد :سوء الحال.

بما كسبت أيدي الناس : جزاء لهم عن أفعالهم.

يرجعون :يقلعون عن المعاصي.

العاقبة : نهاية الأمر.

القيم : الشديد الصواب، لاعوج فيه .

مرد : دفع.

يصدعون : يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير .

يمهدون : يهيئون ما يريحهم.

بيان المعنى الإجمالي :

استشرى الفساد في الكرة الأرضية بسبب انحراف البشر وفعالهم السيئة التي انفكت عن مقتضيات الإيمان ومراقبته في أعمالهم. اتخذوا الربا قاعدة الاقتصاد فانحسرت الأموال بين أيدي فئة قليلة، فوظفوها لما ينمي ثرواتهم، وأخضعوا أصحاب القرار لشهواتهم، فاختل التوازن وانتشر الظلم. وأعرضوا عن الإيمان وعبدوا المادة حتى انقلبت المادة إلى قوة ماحقة للأرض وما عليها، وذلك بتفجير الذرة .

سيجني البشر عاقبة انحرافهم، وفساد سلوكهم، لعلهم يرجعون إلى الطريق المستقيم، فيعمروا الكون ولا يقومون بتخريبه. وتبعه أمر عام للبشرية أن يسافروا في أرض الله معتبرين بما انتهى إليه أمر الأمم الذين سبقوهم، فيتبين لهم من عاقبتهم ما يترصد الناس من تمردهم . فيراجعوا أنفسهم ويستقيموا.

أقبل على هذا الدين بجد، وانصرف عن كل ما يلهيك عنه، فإنه دين كله صواب واستقامة. واستعد لليوم الذي هو آت لا ريب فيه ولا راد له. إنه يوم يتفرق فيه البشر بين سعداء وأشقياء.

المسؤولية شخصية في الإسلام، فمن كفر فإنه يلقى العقاب الذي يستحقه. ومن عمل صالحا في طريقة أدائه مع الإخلاص فإنه يمهد ما يحقق له راحته يوم الجزاء . يوم يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاء من فضله يتضاعف خيره أكثر مما قدموا. ويمقت الكافرين فيحرمهم فضله لأنه سبحانه لا يحب الكافرين .

بيان المعنى العام

41 ظهر الفساد في البر والبحر ..لعلهم يرجعون

إيقاظ للبشرية لتصلح أمرها قبل أن يحيق بها البلاء العام. ظهر الفساد واستعلى في الكرة الأرضية كلها اليابسة والبحر ، لم يكن هذا الفساد وليد الصدفة ولا تابعا لتقلبات المناخ، ولا لعوامل من داخل الكون خفية عن الناس. ولكن هو جزاء انحراف البشر عن الصراط المستقيم . ليحسوا به إحساسا بالغا كإحساس الإنسان عندما يتذوق الطعام الفاسد، يدرك طعمه ثم يسري في كيانه كله فيحربه. إن ما يصيب الإنسانية كلها من سوء فعالهم فيه رجاء أن يتبصروا فيقلعوا عن فسادهم ويعودوا إلى الصلاح. فمعنى ظهر ليس على المضي بمعنى أن هذا شيء ظهر في الماضي والآية تتحدث عنه، بل جيء بالفعل الماضي لإفادة التحقق.

ما هو هذا الفساد الذي عم الكرة الأرضية ؟ تتبعت ما بين يدي من التفاسير فلم أقتنع بما ذكروه. ذلك أنهم قطعوا الآية عن مساقها. نلحظ أن الآية جاءت تابعة لأمرين خطيرين:

أولهما : الربا في التعامل الاقتصادي.(وما آتيتم من ربا لتربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله) المؤذن برفع البركة من الأرزاق .

ثانيهما: الشرك بالله في العقيدة (الله الذي خلقكم ...سبحانه وتعالى عما يشركون)

عم اعتماد الربا في التعامل الاقتصادي فانحسرت الأموال بين أيدي عدد قليل من البشر ، بلغت بهم الأنانية وشراهتهم لجمع المال حدا، جعلهم يتحكمون في العالم بقوتهم المالية، لا يتورعون عن إشعال الحروب إذا كانت الحروب توفر لهم الأرباح وتعظم ثرواتهم. إن استيلاء الصهيونية على فلسطين، ما كان ليتم، وما كان ليستمر إلا بالقوة المالية التي بين أيدي الصهاينة المرابين. الذين اشتروا ضمائر أصحاب القرار في العالم بأموالهم التي تستحكم في الإعلام. فتظهر الحق باطلا والباطل حقا. وتتدخل في الانتخابات بقوتها المالية لتوثق الفائز الذي كان لأموالهم الأثر الكبير في نجاحه ليؤيد اغتصابهم لأرض فلسطين. وكان لشراهة المرابين أكبر الأثر في اندلاع الحربين العالميتين، وما حصدته من ملايين الأرواح، وما حصل فيهما من خراب، وما تبعهما من مؤسسات تمكن لرأس المال من التحكم في مصير البشرية. فانبنى نظام على تسويغ الظلم، والظلم لا يتبعه إلا المتاعب للإنسانية . فكلما انتهت الحرب في منطقة من مناطق العالم اشتعلت نيرانها وتخريبها في منطقة أخرى. ويخدرون العالم : أنه يسير نحو السلام.

أما الشرك، وهو الداء المخرب للضمائر والقيم فقد امتد شره قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[1] تطور الشرك في عصرنا من عبادة أصنام وتقديم قرابين إليها، واعتقاد النفع والضر بيدها إلى عبادة المادة. ألهت البشرية المادة، فللقوة المادية السيادة والريادة . والمادة والأخلاق، لا يجتمعان على أن يكون كل واحد منهما محترما على مرتبة سواء .تأبى المادة إلا أن تطوع الأخلاق لتقبل بتفوقها وإن دمرتها. وتأبى الأخلاق إلا أن تخضع المادة لقيمها. والإنسان بقيمه الروحية لا بقوته المادية. ولكن انقلب سلم القيم في عصرنا فتنزلت الأخلاق إلى الحضيض، وارتفعت المادة إلى أعلى مقام، وهذا ما سوغ للعلماء أن يجروا أبحاثهم في المادة منفصلين عن الأخلاق. ففجروا الذرة وأصبح المخزون من القوة الذرية كافيا لتخريب العالم مرات. وقامت مشكلة النفايات في المؤسسات النووية .درسوا لها مقابر للخزن، ولكن الإشعاع الذي تحتوي عليه، والمهلك للبشرية وللحيوان وللنبات وللبيئة برا وبحرا لا ينتهي إلا بعد مئات السنين. انفجر مولد تشارنوبيل فأهلك ما تسرب من إشعاعه البيئة وأضر بالبشر والكون على بعد مئات الأميال.

[1] سورة يوسف اية116

و فعلا (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون). أترى البشرية تفيق من ضلالها فتعود إلى الطريق المستقيم؟ إن الإسلام هو الشافي للبشرية والمنقذ لها من الهلاك، ولكننا نحن المسلمين عجزنا عن تقديمه للناس.

42-قل سيروا في الأرض..كان أكثرهم مشركين.

يكرر القرآن أمر الناس بالسير في الأرض، والأسفار التي يصحبها تأمل المسافر فيما يقع تحت بصره، فتفتح له منافذ للاعتبار بالعاقبة التي آل إليها أمر الأمم التي عمرت تلك الأماكن. والعرب في أسفارهم إلى الشام وإلى اليمن يمرون على آثار الأقوام الذين أقاموا حضارات، ورفعوا المباني والحصون، ولم يبق من كل ذلك إلا أطلال بالية، تنبئ عن المستوى الحضاري الذي بلغوه، وعن العاقبة التي آل إليها أمرهم بسبب فشو الشرك فيهم، الذي يرتبط به الفساد في العلاقات الاجتماعية، وفي السلوك، فيدمرهم الله عند حلول الأجل المقدر لذلك . وكما ينتفع المسافرون بالاعتبار في أحوال الأمم الماضية ومآلاتهم، فكذلك ينتفع الضاربون في الأرض بالاعتبار بأوضاع الأمم، وما بلغوه من مستوى حضاري رفيع أو متدن ضعيف، فيكون لهم من مشاهداتهم الدرس النافع للسمو بأوضاعهم اقتباسا لموجبات النجاح، أو احتراسا من أسباب الوهن والسقوط .

43-فأقم وجهك للدين القيم ...يصدعون.

أمر النبي ﷺ ومن ورائه جميع المؤمنين أن يقبلوا على الدين بجد دون تراخ، ذلك أن الالتزام بالإسلام يصحبه مقاومة الشهوات، والغرائز الهابطة، ومراقبة الله في علاقة الإنسان بالله وبإخوانه في البشرية، وبالكون عامة . لذا كان الأمر بالقيام بأن شأن من يحتفي بالجاز أمر أن له قيمته يقوم له وينجزه لا متكئا ولا قاعدا. ووصف الدين بالقيم أي الذي كله صواب، مقابل القيم المعوج، والإسلام لا يخرج عما يقتضيه العقل المستقيم. هذا الإقبال على الدين وتطبيقه بجد مجاله الحياة الدنيا، على المؤمن أن يغتنم حياته قبل أن يأتي اليوم الذي لا دافع له.(يوم يقوم الناس لرب العالمين). اليوم الذي يفترق فيه البشر إلى فرقتين: (فريق في الجنة وفريق في السعير).

44. من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون.

اختزنت معاني عديدة في الآية، حتى تأهلت لأن تكون مثلا. هي قاعدة العقاب والجزاء، وارتباطه بذات الفاعل بحيث لا يتجاوزه إلى غيره. فمن اختار الكفر وسار فيه فإنه يتحمل وحده ضرر كفره .وفي المقابل فإن من عمل صالحا مطبقا

لشرع الله ومخلصا لله، فإن نشاطه هذا هو تمهيد للفوز بالراحة التامة في معاده، شأن الذي يمهد فراشه قبل أن ينام عليه

45 ليجزي الذين آمنوا...إنه لا يحب الكافرين.

إن العلة التي جعلتهم يولون عنايتهم بأمر آخرتهم ويمهدون لها، هو انتظارهم الجزاء الذي أعده الله للذين صلحت عقيدتهم بالإيمان وصلحت أعمالهم بإجرائها على منهج الشرع. وفي ربط الجزاء بفضل الله ما يوحي بأنه جزاء يضاعف حسناتهم، فهو واسع الفضل، الكامل كمالا مطلقا. وبمقدار ما يوسع على الصالحين ويكرمهم، يضيق على الكافرين ويهينهم لأنه لا يحبهم: يبعدهم من منازل فضله، ولا يظهر عليهم أمارات رحمته، على عكس المؤمنين الصالحين.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿46﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿47﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿48﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿49﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿50﴾

بيان معاني الألفاظ

المبشرات: المؤذنة بالخير، المطر.
الانتقام: العقوبة لمن يفعل ما لا يرضي.
حقا علينا: وعد ثابت لا نخلفه.
تثير: تحرك.
البسط: النشر المقابل للطي.
كسفا: جمع كسف، قطعة.
الودق: المطر.
خلاله: جمع خلل، ما بين السحب.
مبلسين: يأس مع انكسار.

بيان المعنى الإجمالي :

الأدلة من كتاب الكون على تفرد الله بالخلق والتدبير كثيرة. فمنها أن الله هو الذي يحرك الهواء فينشئ بذلك الرياح المؤذنة بالخير المطر الذي يترقبه البشر. فتبلغكم رحماته وتنعمون بآثارها. ولا يقف الفضل عند هذا الحد، بل إن الريح تجري السفن في البحار، فتتيسر لكم طرق للتجارة عبرها. وهذه نعم لا يرزقكم إياها إلا الله فالرجاء أن يحملكم فضله على شكر نعمه.

ثق بأن الله سينصرك ويعلي دينك على الشرك الطاغي. هذه سنتنا فقد أرسلنا رسلا مضوا في التاريخ، قدموا لأقوامهم الأدلة البينة الواضحة، فكذبوهم فسلطنا عليهم نقمتنا بسبب إجرامهم. وإنه مما قدرناه فكان ثابتا جاريا مدى الدهور أننا ننصر المؤمنين.

تفرد الله بأنه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحب من الرطوبة المخزونة في الجو، فتتجمع وتتبسط على مساحات شاسعة، أو يتكون منها قطع محدودة المواقع، تشاهد أيها الناظر كيف أن الماء ينزل من بين أجزائها. فإذا البشر والسرور يتم قلوب الذين سقاهم الله من فضله، وينحولون عن وضعهم الذي كانوا عليه من الاكتئاب واليأس.

انظر أيها الإنسان إلى آثار رحمة الله التي حولت أوضاع الأرض والبشر. انظر كيف تتحول الأرض من الموت إلى الحياة. إن هذه الصورة تتحدى بأن الله هو محيي الموتى وأن قدرته لا تحد. فالبعث تقوم الشواهد على أنه ممكن وغير مستبعد.

بيان المعنى العام:

46. ومن آياته أن يرسل ...ولعلكم تشكرون

هذه الآية معطوفة على الآية (20) كما بيناه في مقدمة تفسيرها. افتتحت كسابقاتها بقوله: ومن آياته الدالة على حكمته في التصرف العام في الكون، حركة الرياح التي يسيرها الخلاق العليم، فتحدث في الكون آثارا قدرها سبحانه، فمنها أنها تكون مبشرة بنزول الغيث المحيي للأرض، ويترتب على نزول الغيث نعم بينة تحسون بها في حياتكم كما يحس الآكل طعم ما يمر على مذاقه. ومنها أنها تسير السفن في البحر بما هدى إليه الإنسان من صنعها على مقادير وكيفيات خاصة، ومن توجيه قلاعها، فتقطع بكم المسافات لتتمكنوا من التحصيل على أرزاق تأتيكم من فضل الله. وبفضل المسالك البحرية نمت التجارة بين الأقطار، وانتقلت خيرات الأرض إلى مسافات بعيدة، وفي كلا الأمرين ما يثير فيكم التدبر في عظيم صنع الله ويطلق ألسنة الشاكرين بشكره

47 ولقد أرسلنا من قبلك ...حقا علينا نصر المؤمنين

إيناس لرسوله بوعده بالنصر على سنته مع الرسل السابقين. لست يا محمد بدعا من الرسل، ولا تختص بما قابلك به قومك من التكذيب ؛ فقد أرسلنا رسلنا إلى أقوامهم، وأيدناهم بالآيات الواضحة وعرضوها عليهم. وكانت حسب طبيعتها داعية إلى الإيمان، ولكنهم قابلوها بالرفض، والتصلب في الكفر والجمود على التقليد، فعاقبناهم بسبب تماديهم على الإجرام، وكفاكم بالشرك جرما. والبشارة تظهر بختام الآية: بأن الله وهو الكامل الذي لا يخلف وعده قد التزم بأنه ينصر المؤمنين فتكون لهم الغلبة في الخاتمة. فثق بأن الله سينصرك ومن تبعك.

48 الله الذي يرسل الرياح...إذا هم يستبشرون.

تكرر في هذه السورة الآيات التي تذكر صورا مما اختص به سبحانه من التصرف في الكون ،وهي متصلة بالآية(46) التي أفادت أن الله هو الذي يحرك الرياح ويرتب عليها البشارة بالغيث وتسيير السفن في البحر .وفصلت هذه الآية تحريك الرياح للسحب، ودقة الصنع الإلهي الذي اختص به .فهو إذا أراد أن ينشئ به السحب جعل الريح تهب من نواح عديدة، إذ غلب استعمال الريح مفردة على الريح المدمرة. ثم إن تلك الرياح تتحرك فتتفاعل مع الرطوبة الموجودة في الجو، ثم ينتشر السحاب في نواحي السماء حسبما يريده .فهو لا يجري على هيئة واحدة في جميع الظروف، بل يبسطه ويسيره كما يشاء، وتارة يجعل السحب قطعا. ولا يفهم من جعله قطعا التجزؤ الصغير، بل تجد السحاب تارة يمتد على مساحات شاسعة تبلغ مئات الأميال طولا وعرضا، وتارة يجعله قطعا لا يشمل مساحات كبيرة جدا.

ثم تخاطب الآية كل من يلاحظ حركات السحب وتطوراتها، ترى أيها الملاحظ المطر ينزل من خلال السحاب الممتد، ومن السحاب الأقل امتدادا.

ثم لفتت الآية الأنظار إلى الترابط بين السحب الجارية في السماء وما ينزل منها، وبين حالات البشر النفسية. ينزل الله الغيث فيسقي به نواحي من الأرض، فيستبشر الذين أصابهم الغيث، وتنفتح آمالهم وترى الفلاحين يهنئ بعضهم بعضا، ولقد كان اليأس والانكسار قبل نزول الغيث متمكنا منهم لطول المدة التي لم يسقوا فيها من السماء.

50 فانظر إلى أثر رحمة الله ...وهو على كل شيء قدير

فانظر أيها الإنسان، ولا تغفل عن التأمل في ذلك التقدير العجيب، تأمل في الآثار التي أعقبت الرحمة الإلهية التي يمد بها مخلوقاته بما يحول حياتهم إلى ما هو

بالسعد والفضل، ويلغي عتيم الضيق الذي كان يأكل راحتهم. انظر كيف يحيي الله الأرض بعد موتها. بالأمس كانت الأرض قاحلة جرداء موحشة، وبعد نزول الغيث دبت الحركة في باطنها، واهتزت، ثم كسيت ببساط أخضر يسر الناظرين. تأمل فإن تلك صورة من الحياة بعد الموت تتعاقب على الكون ويشاهدها الناس جميعا، أفلا يقوم ذلك دليلا على البعث وأن الله سيحيي الناس بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها. ألا وإن الله قادر لا يخرج عن قدرته شيء، فكل كائن مستجيب لما تعلقت به القدرة. إن الغبي أو المعاند هو من ينكر البعث ويستبعده.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

رأوه مصفرا: رأوا الزروع آخذة في الاصفرار.

بيان المعنى الإجمالي

كما يرسل الله الرياح فتثير السحاب ويحيي بما ينزل منه الأرض بعد موتها، كذلك يرسل الريح التي يصحبها الجدب والقحط، فتأخذ الزروع في الاصفرار. من ضلال الكافرين أنهم إن رأوا هذه الريح وآثارها تضاعف كفرهم، عوض أن يلتجئوا إلى الله.

تصرفات الله في الكون، وما أنزله الله من الآيات البينات في كتابه، لا تهدي الذين صمموا على الكفر. بلغ ببعضهم العناد أن أصم أذنيه فلا يصل إليها شيء من القرآن وتوقع في الكفر فهو كالميت والميت لا يسمع، وبعضهم إذا سمع ما أنزل على الرسول يفر خشية على نفسه أن تتأثر به، وبعضهم لسلم قياده لرؤوس الكفر فهو تابع لهم لا تنفع فيه موعظتك. هذه أنماط الكفرة في مواجهة القرآن. فأنت يا محمد لست مسؤولا عنهم وحالتهم تلك. إن ما جمعته من ناصع الحجة وإشراق البيان، لا ينفع إلا الذين تفتحت أرواحهم لقبول الهداية، فيتلقونه عنك، يسري الإسلام إلى أرواحهم وعقولهم.

تفرد الله بالتصرف في البشر وفي الكون. انظروا إلى أنفسكم فإنكم تنتقلون من مرحلة إلى مرحلة دون اختياركم. كنتم ضعفاء عقليا وبدنيا، ابتدأ أمركم ولا يستطيع أي منكم أن يستقل بنفسه، ثم بلغتم سن الاكتمال الممكن والاقتدار، ثم يأخذ الضعف والوهن يلاحقكم وتظهر أعراض المشيب. كل طور يخلق الله فيكم خلقا تظهر آثاره عليكم، دون أن يكون لكم في ذلك مدخل. يجري كل ذلك بقدرته حسب علمه الشامل لكل الدقائق.

شأن الكفرة أنهم أقفلوا عقولهم عن النظر المتأمل؛ وسيصحبهم ما عاشوا عليه يوم البعث فعلى طريقتهم في النظرة القصيرة، والتصميم على صدق ذلك، يسرعون عندما يبعثون من قبورهم إلى القسم بأنهم ما لبثوا في قبورهم إلا زمنا قليلا، فأخطأوا خطأ فاضحا. كشأنهم في الدنيا عندما جاءتهم البينات، لم يتأملوا فيها ورفضوها مصممين على أنها باطل.

بيان المعنى العام:

51 ولئن أرسلنا ريحا...من بعده يكفرون.

يتصرف الله في الكون كما يشاء وحسبما تقتضيه حكمته، وإن خفيت علينا. إذ يرتبط بكل تصرف نتائج ومسببات تفوق طاقة استيعابنا. فهو سبحانه إذا أرسل الأمطار وأحيى الأرض استبشروا بما يترتب على ذلك من زيادة في مكاسبهم. ولا يقدم الكفار الشكر على ما رزقهم من نعمه. وإذا حجب عنهم الغيث، وأرسل ريحا تذهب برواء الأرض، فرأوا الزروع وقد أخذ لونها إلى الصفرة المؤذنة بالاحتراق والموت، يهيج مكنون صدورهم من الكفر. لا يختلف حالهم مع النعمة، عن حالهم مع الحرمان . قال أحد الأعراب وقد أصاب قومه قحط:

رب العباد مالنا ومالك * قد كنت تسقينا فما بدا لك؟

أنزل علينا الغيث لا أبا لك

52-53 فإنك لا تسمع الموتى ...فهم مسلمون.

عناية الله برسوله متواصلة، ولا شك أن هذه المواقف المعلنة بالكفر، والجراءة على الله كانت تسوءه ﷺ فخاطبه ربه مسليا، منوها بأنه بلّغ وبذل جهده، ليؤمن قومه، ولكن كفر قومه على أنواع :منهم من بلغ به الإعراض حدا جعله لا يحس بالوحي الذي يخترق سمعه، هو كالميت المعطل الحواس. وبعضهم يسمع القرآن ولكنه يفر من مواصلة الإنصات له خوفا على نفسه أن تتأثر به، فهم يولون مدبرين عند سماعه. بعضهم مقلدون لسادتهم يتبعونهم كالعمي لا يهتدون يسيرون حيث يسير قائدهم. هذه أنماط من الكفرة لا تستطيع التأثير فيهم، إنك لا تستطيع هداية من

عطل سمعه وحسه وعقله، ولكنك تستطيع أن تقوم بمهمتك وتهدي للذين تفتحت قلوبهم وعقولهم للحق النازل عليك، وهؤلاء هم المسلمون .

54. الله الذي خلقكم من ضعف ...وهو العليم القدير.

أقام القرآن الحجة على المشركين من كتاب الكون كما أشرنا إليه فيما مضى، وأقام عليهم الحجة في هذه الآية من كتاب الإنسان. وهي حجة لقوتها ووضوحها لا يستطيعون لها ردا ولا نقدا. هي أطوار الإنسان التي ينتقل فيها من طور إلى طور .

الطور الأول : في ابتداء أمره يبلغ به الضعف مبلغا، حتى كأنه مستخلص من الضعف. ضعف في قواه العقلية ومداركه، وضعف في قواه العضلية. هذا إن نظرنا إلى الفترة التابعة للولادة ومررنا بها إلى ما قبل سن الشباب، وكذلك لو سحبنا النظر على فترة الخلق الأول في الخلية الأولى اللقيحة فإن الضعف يكون أبين.

الطور الثاني: عندما يبلغ سن الرشد، تكتمل قواه العقلية وتنمو مداركه، وتبلغ طاقاته الجسمية كمالها من سن الشباب إلى الفترة التي تظهر فيها بوادر التراجع.

الطور الثالث: طور التراجع طور الضعف الذي تتراجع فيه القوى العقلية والعضلية. يخمد العقل بعد بريقه، ويغطي النسيان على النباهة العقلية، وتضعف يداه عن حمل ما كان يستخفه، كما تثقل هامته على رجليه فتضعف عن حمله .

إن هذه الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان، تتم دون اختيار منه، ولا قدرة على استرجاع ما فات منها . فمن الذي أثر في كيانه في المراحل الثلاث ؟ الله هو الذي تفرد بالتصرف. يخلق سبحانه في كل طور أوضاعا خاصة؛ لا تحدث بصفة فوضوية، وليس للمصادفة فيها من سبيل، ولكنها مستندة إلى علمه الذي أعد كل مرحلة لتنتقل إلى المرحلة التالية، وإلى قدرته التي تُخضع الكائن لها .

55. ويوم تقوم الساعة ...كذلك كانوا يؤفكون

بعد أن كشفت الآية السابقة عن ضلال المشركين في الدنيا أعقبت هذه الآية ببيان أن ما فارقوا عليه الدنيا يصحبهم يوم البعث. كان موقفهم في الدنيا من آيات الله الإسراع إلى رفضها، وكلما لفت القرآن أنظارهم إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق لم يتجاوزوا الظاهر إلى سكنون ما دعاهم إليه. ولذا فإن تلك العجلة تصحبهم يوم القيامة ليفتضحوا. فبمجرد ما يقومون من قبورهم يقسمون: ما مكثنا في قبورنا إلا ساعة، زمنا قليلا. هم بعجلتهم وإسراعهم بالقسم يمثلون تركيبهم النفسي الذي كان ملازما لهم في الدنيا فأوقعهم في الكفر، وهو الذي أوقعهم في الخطأ يوم البعث.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المعذرة : ما يقدمه المذنب أو المقصر من عذر لعله يبرر ذنبه أو تقصيره.

ولاهم يستعتبون : لا تزول عنهم المؤاخذة.

ضربنا : ذكرنا ما يعمق البيان.

الطبع : الختم على العقل حتى يفقد قوة الإدراك.

وعد الله حق : وعده ثابت تحققه.

لا يستخفنك : لا يحملنك على ترك الصبر ، فلا تتأثر تأثرا يذهب بما عرفت به من الرسوخ

بيان المعنى الإجمالي :

رد العالمون المؤمنون على الكافرين الذين قالوا ما لبثنا بعد الموت إلا ساعة، فقالوا لهم: ظنكم كاذب، ولقد مر عليكم في قبوركم الأمد الذي قدره الله لبعثكم، وهذا هو الأجل المحتوم. ولكن الجهل .. الذي غم على عقولكم في الدنيا لم يفارقكم. إنه في هذا اليوم يهذي الظالمون بالإشراك وتكذيب الرسول وإيذاء المؤمنين بمختلف المعاذير، ولكنها مرفوضة ولا تنفعهم شيئا. لقد نوعنا الأمثلة التي تقرب المعاني وتثبتها، ولكن تصلبهم في الكفر جعلهم يرفضون كل آية بينة قدمتها لهم، ويقولون بكل وقاحة: إن أنت إلا مبطل. وعلى هذا النحو تنغلق أفهام الجهلة الذين لا علم لهم، وتحرم من الألطاف فلا يستفيدون من دلائل الهداية.

لا تجزع ولا تتأثر بشغبهم وعصيانهم، وواصل ما أنت عليه من الثبات والصبر، وكن متحديا للذين فقدوا اليقين.

بيان المعنى العام :

56. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان...ولكنكم كنتم لا تعلمون.

عبرت الآية السابقة عن خفة عقول الكفرة، وابتعادهم عن التأمل الكاشف عن الحق حتى أقسموا بمجرد خروجهم يوم البعث، أن إقامتهم في القبور كانت قصيرة جدا. ويرد عليهم الذين جمعوا بين المزيتين اللتين يسمو بهما الإنسان، وهما:

1)العلم الحاصل عن التأمل الدقيق، الذي يتعمق به العقل حتى يبلغ إدراك الحقيقة موثقة ببرد اليقين .

2) الإيمان الذي يربط الكون كله بمبدعه، الذي يكون به المؤمن متواضعا، متيقنا أن العلم الكامل لله وحده، وأنه هو الذي يسكب في الروح الطمأنينة، وفي العقل الاهتداء.

يردون عليهم: لقد خدعتم بالنظرة القصيرة العجلى، كل ما ظننتموه خطا. فقد مرت عليكم الأزمان التي قدر الله أن تمكثوا فيها في قبوركم، وقد حضر الأجل المقدر لخروجكم. فأنتم اليوم في يوم البعث، بما يشير إليه مما حذرهم منه الرسل ووصفوا لهم شيئا مما يلقونه إن لم يصدقوهم. ولكن الجهل صحبكم وما يزال يوقعكم في الضلال.

57.فيومئذ لا تنفع ...ولا هم يستعتبون.

إعلان من مالك الملك عن مشهد من مشاهد يوم القيامة. في هذا اليوم الذي تحقق فيه المشركون، أنه سينالهم العقاب الموعود والمهانة المقررة، يحاولون التنصل باختلاق الأعذار، ولكنهم لا ينتفعون بها، ولا تندفع عنهم المؤاخذة بما قدموا في حياتهم الدنيا.

جاء في القرآن: أن المشركين [لا يؤذن لهم فيعتذرون][1] .وأثبتت هذه الآية أنهم يعتذرون. وبالتأمل يتبين أن ما جاء في سورة المرسلات أن الله لا يأذن لهم في الاعتذار، إذ لو أذن لهم لكان ذلك مقدمة لقبول اعتذارهم. وما في هذه الآية هو من عذرهم يقدمون معاذير مرفوضة.

58. ولقد ضربنا للناس...إن أنتم إلا مبطلون.

بكل تأكيد قصدنا أن ننزل في هذا القرآن أمثلة تقرب المعاني، وتزيدها وضوحا وإشراقا، وتنوعت الأمثال حسب المقامات، وذلك لتكون الهداية تبلغ من البيان ما تنفذ به إلى العقول والأرواح، ولتكون حجة على المعاندين الرافضين، إن من شأن الكافرين أنك إن أتيتهم بآية واضحة لا يستطيع المنصف إلا قبولها، لكن الكافرين يقولون: [إن أنتم إلا مبطلون]، وهو تعبير عن ردهم، أكرم الله فيه محمدا بخطابه بصيغة الجمع، وإن كان لفظ المشركين لا يكون: ما أنت إلا مبطل .

[1] سورة المرسلات آية 36

59. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

وعلى هذا النحو من الصرف والحرمان من الألطاف، يختم الله على قلوب المتصلبين في الكفر، كأنه مطبوع عليها لا ينفذ إليها أي شعاع من نور الإيمان.

60. فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

هذه خاتمة السورة التي تعددت فيها أفانين الهداية، لتبلغ دخائل النفوس فتقتلع الشرك، والفساد، وتخلص البشر من الزيغ والضلال .ويواصل المشركون تصلبهم في الكفر والضلال والرفض، فأمر النبي ﷺ أن يصبر على تعنتهم، ويذكره الله بوعده: أن الله سينصره، إن ما يعد به الله ثابت لا يتغير، ولكل أجل كتاب. وواصل ما أنت عليه من الثبات والحزم، والترفع عن إذاية المشركين، واقمعهم بثباتك فلا يستطيع إثارتك، الكفرة الذين فقدوا اليقين، فهم في ريبهم يترددون .

يوم الخميس 11ربيع الثاني1434-21 فيفري2013

ســـــورة لقمــان

هذا هو الاسم الذي عرفت به عند كتاب المصاحف، وفي كتب التفسير، سميت بهذا الاسم لأنها فصلت بعض أخبار لقمان وحكمه ووصاياه التي أدب بها ابنه. والراجح أنها سورة مكية كلها. واختلف المفسرون في بعض آياتها ورتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والثلاثون. وهي السابعة والخمسون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝

بيان معاني الألفاظ:

المحسنون: الفاعلون للحسنات، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

يشتري: يقبل عليه.

لهو الحديث: الحديث الذي يقصد منه تشغيل السامع بكلام لا فائدة منه إلا تقصير الوقت.

الوقر: ثقل في السمع، وشاع في الصمم.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السورة بما افتتحت به سورة يونس. منوهة بالقرآن لجمعه بين خيري الهداية وما يتبعها من الرحمة للذين بلغوا درجة الإحسان. ومن هم هؤلاء المحسنون؟ هم الذين يؤدون صلاتهم على أكمل الوجوه إخلاصا وتطبيقا لشرع الله، ولا يبخلون بأموالهم فيسهمون فيها المحتاجين، وفوق ذلك يقينهم بالبعث بلغ درجة

الكمال، فهم يستحضرون دوما وقوفهم حين يدي الله للحساب.. إنهم هم المفلحون الناجحون الفائزون، ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾.

وفي المقابل، فإن بعض الناس يقابلون هذا القرآن على سمو منزلته، بإلهاء الناس عنه بأحاديث خيالية عن بطولات وهمية، تستهوي الدهماء، تشغلهم عن الجلوس لرسول الله ، ليضلوهم عن الطريق الذي يوصلهم بربهم، الذي يهدي له القرآن. أحاديثهم خيال لا علم فيه، ومع ذلك يستهزئون بالقرآن. هذه الطائفة الفاسدة المفسدة أعددت لهم عذابا يهينهم. وزيادة على ذلك تجدهم يمرون عندما يقرأ عليهم القرآن بعامل الاستكبار والتعالي عن سماعه، مظهرين أنهم لم يسمعوه، كأن آذانهم معطلة بالصمم. ويواجهه القرآن مستهزئا به في مقابلة استكباره، يبشره بعذاب يحس بألمه أشد الإحساس

بيان المعنى العام:

1 ـ 2: الم ،تلك آيات الكتاب الحكيم.

افتتحت هذه السورة بما افتتحت به سورة يونس. فالآية الأولى هي نظير الآيات التي بينا ما يتعلق بها في سورة البقرة وغيرها. والآية الثانية كما ذكرنا في سورة يونس: الكتاب الرفيع الشأن المهيمن على الكتب السابقة، الذي يطبع المخالط له بالحكمة في القول والفكر..

هدى ورحمة للمحسنين.

صرحت الآية بأخص مزايا القرآن. فالمزية الأولى أنه بلغ من الهداية أعلى مرتبة، هو ضامن للمخالط لبيانه، أن يجد فيه الطريق المبلغة إلى الفوز في الدنيا والآخرة، يخرجه من الحيرة ومن الضلال، ويضيء علاقته بالله، وبالناس، وبالكون كله. وأما المزية الثانية، فهي ما يفتحه من أبواب الرحمة وما يقره في النفس من اليقين ومن الرضا.

يقرأ القرآن البرّ والفاجر، والمسلم وغير المسلم، ولكن مزيتاه ينالهما المحسنون فقط الذين يفعلون الحسنات. فمن هم المحسنون ؟

الذين يقيمون الصلاة... وبالآخرة هم يوقنون.

كشفت هذه الآية معرفة المحسنين بصفاتهم الذاتية الثلاث: الذين يقيمون الصلاة؛ إن الخيط الجامع بينهم وبين خالقهم موصول، يذكرونه بصفة مسترسلة، يناجونه مستشعرين الوقوف بين يديه في صلاتهم خاشعين لله. والذين يحسون بما تفرضه وحدة العقيدة من واجب المواساة وخاصة بالمال لمن كان محتاجا من إخوانهم. والذين تلزمهم رقابتهم لأعمالهم، فهم ذاكرون ليوم القيامة، محاسبون مجزيون عما يعملون.

5. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

نوه القرآن بالمحسنين الذين جمعوا الصفات الثلاث، فأشار إليهم إشارة تقدير (أولئك) ثم حقق أنهم متمكنون من الهدى، وهم معتزون به لأنه ورد عليهم من ربهم الذي رعاهم ويسر لهم ألطافه التي بها التزموا الصراط المستقيم. ثم هنأهم بأنه قرر أن يكونوا المنفردين بحسن العاقبة، فهم وحدهم المفلحون الناجحون.

6. ومن الناس من يشتري...عذاب مهين.

قوله (ومن الناس) تجهيل للمتحدث عنه، وأنه مهين لا قيمة له. يقول المفسرون إنه النضر بن الحارث كانت له تجارة في فارس، فاقتنى منها كتبا تتحدث عن بطولات في حروب فارس معظمها من نسج الخيال. فكان يجمع حوله الناس، ويسرد عليهم ترجمة تلكم الخيالات التي يقبل عليها الدهماء، ويتخلل عرضه الطعن في القرآن، يدل على ذلك أن الآية صرحت بأنه يعمل على إضلال الناس وإبعادهم عن الطريق المؤدي للإيمان (سبيل الله) بتلهيتهم بما يقصه من غرائب الأخبار، أو بالتعريض بأن ما يقصه من أخبار الفرسان وبطولاتهم، أحق بالاستماع له والأنس به من القرآن، ومع ذلك هو يقرن طعنه بالاستهزاء بالقرآن. ميزهم القرآن بأن الله أعد لهم عذابا جسديا في جهنم وعذابا نفسيا بما يشعرون به من المهانة والذل في جهنم.
ويرى ابن عطية أن الآية باقية المعنى في الأمة الإسلامية، إذا انصرفوا عن جد الحياة إلى اللهو بقطعهم ما قدر لهم من ساعات في الحياة الدنيا فيما هو مكروه. ثم حلل نفسية المقبلين على أحاديث اللهو، بأن النفوس الناقصة تروم تتميم ذلك النقص بالأحاديث.

7. وإذا تتلى عليه آياتنا...بعذاب أليم.

هذا المهين المتحدث عنه في الآية السابقة يضم إلى فساده السابق، أنه إذا قرئت عليه آيات القرآن، أحسن الحديث، أعرض عن الاستماع وابتعد مدفوعا بعامل الاستكبار، كأنه لم يسمع التوجيه القرآني الذي بلغ من الفصاحة والجاذبية ما شهد به حتى أئمة الكفر، ولهذا فسر إعراضه أنه لا مبرر له إلا أن يكون أصم.
ويتوجه إليه الخطاب بقوله: (فبشره) - استهزاء به على وزان استكباره. وأية بشارة؟ عذاب في جهنم يبلغ الإحساس به أقصى ألم وأدومه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ

رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ.

الرواسي : الجبال .

الميد :التحرك المنافي للثبات.

الزوج : الصنف .

كريم : متقن الصنع، أو نفيس في نوعه.

الظالمون : المشركون .

الضلال المبين : الكفر الفظيع.

بيان المعنى الإجمالي.

وعد مؤكد من الله أن يدخل الجنة، للذين خلصت عقيدتهم من لوثة الشرك، وصلحت أعمالهم بالإخلاص على الوجه الذي يرضيه. ينعمون في مآلهم بما يتجاوز تصور البشر، ومع ذلك هم خالدون في نعيمهم لا يخشون انقطاعا لما هم فيه، هو وعد العزيز الذي لا يخلف وعده، الحكيم في اختيار الذين كتب لهم تحقيق هذا الوعد.

هو الله الذي خلق السماوات مرفوعة ثابتة، وتأملوا فلن تقع أبصاركم على العمد التي تشده. وإذا نظرتم إلى الأرض التي تعيشون على ظهرها تجدون بديع الصنع وكمال التقدير فالجبال الشاهقة راسية في موقعها، وهي تواصل سيرها دون أن تضطرب بكم إلى اليمين أو إلى الشمال. وعمر الأرض بأنواع الدواب، لكل نوع منها نظامه وطريقته في العيش وفي التكاثر، وفي تعامل الإنسان معه. وما كانت لهذه الدواب أن تستمر وتساعد البشر على عمارتها، لولا ما أنزل الله من السماء، فأنبت به سبحانه أنواعا كثيرة تتجاوز التعداد، وكل نوع منها فيه من عجائب التقدير ما يقوم شاهدا على حكمته وعلمه. هذا الخلق أحكم الله صنعه، فأروني أيها المشركون ما ذا خلقت الآلهة التي تعبدونها من دون الله ؟ ولكن المشركين قد استولى عليهم ظلام الشرك الفظيع.

بيان المعنى العام:

﴿ إن الذين آمنوا...جنات النعيم.

تكرر وعد الله بما أعده من جنات ينعم فيها من كتبها الله له، وهم الذين جمعوا بين خصلتين :الإيمان الصادق بكل ما بينه ودعا إليه النبي ﷺ، وبين العمل حسبما

ضبطته الشريعة (العمل الصالح) وفي هذا التذكير إيقاظ للإنسان حتى لا يغفل عما أعده الله للمتقين الصالحين فينجذب لدواعي النفس والشيطان

9-خالدين فيها...وهو العزيز الحكيم.

أكدت هذه الآية النعيم الذي كتبه الله ونفى عنه كل نقص، بإثبات أنه نعيم يصحبه الخلود فلا يخشى المكرمون به انقطاعه. وأنه وعد من الله الموصوف بأنه عزيز، وشأن العزيز أن لا يخلف وعده. وهو الحكيم الذي يجري الثواب على من هو أهل له.

10-خلق السماوات بغير عمد...من كل زوج كريم.

يواصل المشركون تعنتهم وتصلبهم في الكفر، ويعيد القرآن إنزال ما ينقض شركهم. تثبت هذه الآية أن الله هو الذي خلق السماوات، ويلفت أنظارهم إلى الصنع العجيب (بغير عمد ترونها) أي إنكم ترونها مرتفعة إلى ما يتجاوز أقصى ما يصل إليه البصر، ومع ذلك ترون بأبصاركم أنها ليست لها عمد ترتكز عليها لتثبت. كما يصح فهم الآية على أن السماوات لها عمد تحفظها في مكانها، ولكنكم لا ترون تلك العمد. وهذا يمكن أن يشير إلى الجاذبية بين الكواكب التي قدرها الله على نحو تثبت به الأجرام السماوية في مركزها من الكون. ولا يستطيع أحد أن يدعي أن واحدا من آلهتهم شارك الله في تنظيم السماوات، هذا التنظيم العجيب المشاهد. وفي نفس اللحظة يلفت بصرهم إلى خلقه سبحانه للأرض، ويضيف أن في خلق الأرض من الإتقان في الصنع، إذ ركزا الجبال الشامخة بكتلها الضخمة، وقدر أن تكون حياتكم على هذه الأرض، رغم سرعة دورانها في فلكها، لا تتحرك بكم لا يمنة ولا يسرة، بل لا تشعرون بحركتها تلك.

وبعد تحول التأمل سريعا من السماوات بعظيم أجرامها، إلى الأرض بجبالها الضخمة، ينقل القرآن البشر إلى التأمل في جزئيات ما أودع الله في الأرض ليرى بعيني رأسه تفرد الله بالخلق. رغم أن الأرض واحدة فقد خلق الله فيها من أنواع الدواب التي تتحرك على سطحها، وخالف بينها في مظهرها وفي خصائصها وفي طرق تحركها، وفي القوانين الذي تحكم حياتها من البدء إلى الموت، وما يسره للإنسان من ضروب الانتفاع منها.

إن هذه الدواب التي لفت القرآن نظرنا إلى الصنع المحكم فيها، ينقلنا القرآن ليربط بين السماء والأرض وبينها، إنه ما كان لها أن تتكاثر وتحيا لولا أن الله أنزل من السماء ماء فأخرج به مختلف الأنواع، ما يمكن كل نوع وكل فصيلة من فصائل الحيوان من تلبية حاجاتها التي بها تحيى وتتكاثر. ولو منعوا القطر لانقرضوا من سطح الأرض.

11 هذا خلق الله ...في ضلال مبين

استحضرت الآية كل ما لفتت الآية السابقة الأنظار إليه، فأشارت إليه باعتبار أنه تجلى ولم يبق فيه خفاء. هذا الكون أمامكم في مجموعه وفي تفاصيله، فأروني واعرضوا على أبصار الناس، الشيء الذي خلقه غير الله. والأمر للتعجيز لإسقاط كل ما يحتجون به . ثم عقب على عجزهم ووضوح الدليل المستدل به، إن الظالمين المشركين مغرقون في الضلال الفظيع إلى أبعد حد.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل، ثم جودة تعبير عنه.

العزيز :الذي يحقق ما أراده.

الحميد : المستحق للثناء

وهن على وهن : ضعف يزداد شدة.

فصاله : فطامه.

جاهداك: بالغا في الإلحاح.

المصاحبة : المعاشرة

معروفا: على الوجه المعروف المألوف.

من أناب إلي: الراجع للتوحيد وصالح العمل

بيان المعنى الإجمالي :

فتح الله على قلب لقمان وروحه فامتلأ من الحكمة. وأحس بأن واجبه أن يكون شاكرا لفضل الله عليه. والشكر بالقول والفعل لا ينتفع به إلا الشاكر، وفي المقابل فإن من كفر بنعمة الله فضرر كفرانها يعود عليه. إن الله كامل الكمال المطلق، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، غني عن البشر وعن كل شيء، مستحق للحمد وجميل الثناء.

واذكر ذلك الظرف الذي قال فيه لقمان لابنه، وقد كان قاصدا تحريك أوتار قلبه وهز روحه إلى منهج الخير والسعادة، قال له: يا بني إياك أن تشرك بالله، إن الشرك لفظع أنواع الظلم وأعظمها.

وسجل القرآن ما وصى به البشر في بناء علاقاتهم الاجتماعية التي تقوم على الأسرة. فكل فرد مطالب بالبر بوالديه، ووضح منطقية هذا الأمر الموجه، بأن الإنسان ما كان له أن يبلغ قوته التي يحس بها ويفعل بها، إلا بفضل ما عانت أمه في سبيله، فقد حملته وضعفها يتضاعف بحمله، وتقوم على إرضاعه عامين بعد ولادته. فكن أيها الإنسان شاكرا لله الذي أوجدك وغرس في فطرة الوالدين حب والعناية بك، ثم كن شاكرا لوالديك، إن عاقبة الشكر أو الكفر ستجدونها يوم تصيرون جميعا إلى حسابي.

إن طاعتي مقدمة على طاعة أبويك، فإن أعملا معك متنوع أساليب الإلحاح والتأثير لتشرك بي أو تعصيني فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفيما عدا ذلك فأنت مطالب بأن تعاشرهما معاشرة طيبة كريمة حسب العرف الذي لا ينكر. وكن أيها المؤمن متبعا للطريق الذي يسلكه الصالحون الذين رجعوا بفكرهم وعملهم إليّ. وفوق كل هذا فتنبه إلى أن المرجع والمآل، لكم جميعا والدين والأولاد، تابعين ومتبوعين، إليّ أنا الله الذي أعلم حقيقة أعمالكم، وبيدي جزاؤها فأجازيكم عنها جزاء عدلا.

بيان المعنى العام :

12-ولقد آتينا لقمان الحكمة...إن الله غني حميد .

تفتح قصة لقمان بالتأكيد، ليلفت الأنظار إلى ما في خبره من مواطن الاعتبار، وليكون في ذلك إشارة لطيفة إلى الفرق بين الهداية الربانية التي تهدف إلى الإصلاح، وبين القصص الذي يعنى به السمار، ومنهم النضر بن الحارث في الآية 5 الذي يقتصر على إضاعة الوقت وإخراج الإنسان من الحقيقة إلى عالم الأوهام والخيال .

إن أكد القرآن أن الله آتى لقمان الحكمة "ولقد آتينا لقمان الحكمة" وهذه الكلمات الثلاث تدعونا إلى الوقوف عند كل واحدة منها:

1-الإيتاء: تمكين برفق، وأسند إلى ضمير العظمة (نا) للإشارة إلى نفاسة ما مكن الله منه لقمان، فهو عطاء تبعه التنويه بالمعطى له، وتخليد ذكره الجميل في تاريخ الإنسانية.

2-لقمان: علم مختوم بالألف والنون، لا ينون (ممنوع من الصرف) ذُكر اسمه في القرآن مرتين فقط في هذه الآية وفي التي تليها، وقد اختلف الناس في كونه حكيما

أو نبيا. والذي يُطمأن إليه أنه كان حكيما. واختلفوا في ضبط الزمن الذي عاش فيه، وفي العمل الذي كان يقوم به، وفي أصل نسبه، وهل هو من البيض أو من السود؟ اختلافات أطال المفسرون بتأييدها بروايات غير موثقة. والمؤكد أنه كان رجلا صالحا، كفاه أن القرآن تحدث عنه ليتخذ المؤمنون الصالحون من حكمته صورة للطريق الذي يرضي الله عنه.

3. الحكمة: عرفت الحكمة بتعريفات عدة وأفضل تعريف لها لمن نظر إلى الجانب المعرفي: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه. وأما لمن نظر إلى الجانب العملي، فالحكمة هي العمل على مقتضى العلم، وعبادة الله والشكر له.

ولا تتحقق الحكمة إلا بالجمع بين الطرفين: معرفة صادقة لا خطأ فيها، ثم عمل بما علم من الحق. وفي التحلي بالحكمة بهذا التعريف الجامع مراتب، أعلاها ما أوتيه سيدنا محمد ﷺ ثم تنزل في درجات السلم حتى لا نجد للحكمة أثرا واضحا. وهي فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾[1] ومن الحكمة الكلام الدقيق النابع عن عمق في معرفة الأشياء على ما هي عليه والهادي إلى الخير.

فلقمان أعطاه الله عقلا بلغ من صفائه أنه لا تخدعه الظواهر ولا الشهوات. الحكمة التي تولى القرآن بيانها: أنه ألهم : أن مداركه، محصور توجهها نحو الحق الخالص، وأن إحساسه بشكر الله على ما مكنه منه إحساس قوي جدا. فهو يجمع بين أمرين معرفة الحق العميق واليقين بأن ذلك فضل الله عليه يدفعه إلى الشكر.

والشكر باب واسع: يشمل الشكر باللسان، والشكر العملي بتطبيق ما علمه في حياته تطبيقا يشعر فيه بنعمة التوفيق للخير. وبنشر المعرفة والعلم تثبيتا لما علمه في النفوس، وترقيقا للمشاعر حتى تلين للخير الذي علمه.

ثم حثت الآية الشكر للنفوس بالتأكيد على أن الشاكر ينتفع به أولا وبالذات. الشاكر نفسه، وأن الله لا ينتفع بشكر الشاكرين، كما لا يؤثر في عظمته وكماله وفضله كفر الكافرين. وهو الفارق بين المخلوق والخالق، فالمخلوق يعجبه الشكر ويجني منه فوائد سواء قصدها الشاكر أم لم يقصدها. والله غني عن ذلك كله.

وصرحت الآية بهذا المفهوم: إن كفر الكافرين لنعمه لا يعود ضرره إلا على الكافر حسبما تقتضيه المقابلة. والله سبحانه على جميع الوجوه غني عن البشر، وعن

---

[1] سورة البقرة 269

فعالهم وأقوالهم. كماله سبحانه ثابت ومؤكد على نفس المستوى مع الشكر أو الكفر، وهو المحمود على ما اختص به سبحانه من كمال وفضل.

13. وإذ قال لقمان...لظلم عظيم.

واذكر تاليا على البشرية قصة لقمان ابتداء من هذا الظرف الذي خاطب فيه ابنه واعظا له. والوعظ زجر مقترن بتخويف وتذكير بالخير. كان صلب الموعظة نهيه عن الشرك بالله، ويفهم منه أن ابن لقمان كان مشركا بالله، لأنه لا ينهى إلا عما هو متلبس به ليقلع عنه، أو على ما هو متوقع، لكيلا يقع فيه. ويذكر المفسرون أنه واصل موعظته لابنه إلى أن طهر عقيدته من الشرك.

افتتح موعظته بهز مدارك ابنه إلى ما يفضي به إلى الابتعاد عن الشرك، وفيما قصه القرآن ما يشير إلى حكمة لقمان:

أولا: بتوجيه أولا إلى إصلاح عقيدة ابنه، ليبني عليها ما سيأتينا من وجوه الخير التي وعظه بها..

ثانيا: إلى اللطف في الخطاب، إذ ابتدأ كلامه بقوله: (يا بني)، فابنه كان بجانبه فلا حاجة لندائه، ولكن للنداء فيه مزية احضار ذهن المخاطب إشارة إلى الاهتمام بما سيرد عليه. وفي تصغيره: يا بني، عوض يا ابني، إيماء إلى شفقته عليه. ويندمج الواعظ بمقدار ما يفتح القنوات الواصلة بينه وبين من يعظه.

ثالثا: تفخيم خطر الحال الذي كان ابنه غافلا عنه، غير متصور لحقيقته. (إن الشرك لظلم عظيم)، فهو ظلم للحقيقة ولما لله من حق على المخلوق أن يعبده ولا يشرك به، وظلم للمشرك ذاته إذ نزل بقيمته الإنسانية فرضي لها أن يكون عابدا متعرضا لمخلوق مثله بل أقل منه. وهو ظلم لفكره إذ رفع المهين. ومن ناحية أخرى حسبما هو مشاهد تجد المشركين يبطنون عداوة شديدة للمؤمنين، ولا يقصرون في المعاملة بالسوء لمن آمن.

14. ووصينا الإنسان بوالديه ...إلى المصير.

في ربط هذه الآية بما سبقها ما يوجب التأمل المتأني، ذلك أن بعض المفسرين رأوا أن هذه الآية معترضة بين كلام لقمان، ذكر الله بها البشرية. ولكن هذا لا يعدو أن يكون تعريفا بالواقع لا توضيحا للاتصال، والذي أحس به أن موعظة النهي عن الشرك تكون أبلغ إذا ربطت بحق الموجد على من أوجده، حق الخالق على المخلوق. وحق الإيجاد يقربه حقوق الوالدين، إذ بهما وجد الإنسان. ولكن لا تبلغ درجة حقوقهما حقوق الله الخالق للجميع، فإذا ما تعارضا فحقوق الله مقدمة. فكانت

هذه الآية معلنة عن هذا المعنى التفسير والمكمل للنهي عن الشرك، والمعد لما ختمت به الآية.

هذه الآية وصية من الله برعاية حقوق الوالدين، هي حقوق التكريم، والعون بكل أشكاله، وحسن المعاملة. يتواصل هذا البر طيلة حياتهما ويتتابع بعد موتهما بالدعاء لهما، وبالبر لأهل ودهما. فهي وصاية من الله للبشر جميعا تضبط الأسس الاجتماعية التي يجب أن تقوم عليها الأسرة. وأرجع ضابط المعاملة إلى الأعراف الاجتماعية. ولم يفصلها تفصيلا يفقدها المرونة بتغير الأعراف. فمثلا يعد تدخين الولد بحضرة والده تحديا ووقاحة في بعض الأعراف، ولا نسوّل هذا التأويل في أعراف أخرى؛ وعلى ما جرى عليه العرف يقدر قيمة الموقف. ولتركيز ذلك أظهرت الآية المبنى الذي أوجب على الإنسان البر بوالديه. وخص بالتفصيل الأم. فهم منه كثير من الناس أن الأم مفضلة على الأب في البر، وأن حقوقها أكثر من حقوق الأب بثلاثة اضعاف. وهو استنباط غير قطعي، بل هما في وجوب البر بهما على حد سواء، ولكن لما كانت الأم لقوة عاطفتها ولينها لا تفرض شخصيتها على الأولاد، كما يفرض الأب، حسب الأعراف الجارية في كثير من المجتمعات، وبخاصة المجتمع العربي في وقت نزول الآية. أكد النبي ﷺ على رعاية حقوقها قصد عدم التهاون بها لا بقصد التفضيل بينهما.

فصلت الآية مبنى البر بالتذكير بما تحملته الأم، فقال تعالى: حملته أمه وهنا على وهن. والوهن هو الضعف. إن الضعف والإعياء وأعراض الحمل الأولى البدنية والمزاجية تتواصل بعد ذلك بثقل الجنين الذي ينمو ويتغذى من عصارة غذاء الأم، من دمها .حتى إذا وضعته انضاف إلى أتعاب الحمل أتعاب وآلام الولادة، ثم ثقل العناية به في تغذيته من لبنها والقيام على نظافته، وحماية جسمه وحياته .ويستمر هذا الوضع وضع التغذية والقيام على ضرورياته إلى عامين .وهو الفطام: أقصى مدة للرضاع غالبا. فالأم ترعى الجنين ثم المولود، والأب مطالب بالنفقة على الأم، فيوفر لها كل الحاجيات، كما ينفق على المولود نفقة تستمر إلى دخول الزوج بالبنت، وبلوغ الذكر سن الحلم. ورعاية لما ذكرناه ختمت الآية بقوله تعالى: أن اشكر لي ولوالديك. إن نعمة الرعاية الضرورية المكملة لنعمة الإيجاد تتضح من نسج الآية المعجز، فالشكر كله لله أولا على الخلق والتيسير، ثم الشكر للوالدين كليهما. والخاتمة الجامعة تعريف الشاكر بأنه سيلقى جزاءه يوم يصير إلى ربه، الذي تفرد بأن الكائنات كلها تعود إليه كما صدرت عنه.

15. وإن جاهداك على... بما كنتم تعملون.

هذه الآية نظير الآية الثامنة من سورة العنكبوت. وقد بينا ما يتعلق بها. وحاصل هذه الآية أنه لا يوجد أي مبرر للشرك الذي هو أعظم ذنب وأشد ظلم. فلو فرض أن الوالدين ألحا كل الإلحاح، واستعملا متنوع طرق التأثير للحيلولة بين ولدهما وبين الإيمان، أو ليعود الى الشرك فلا طاعة لهما في هذا، كما لا طاعة لهما في هتك ما حرمه الله كقتل النفس والسرقة والزنا ونحو ذلك أو عدم القيام بما أوجبه كترك الصلاة أو الصوم.

ونبه القرآن على أن عصيان الوالدين فيما حرمه الله ونهى عنه، لا يبرر عدم القيام بحقهما فيما سوى ذلك، بل إن المؤمن مأمور أن يحسن عشرتهما وأن يحترمهما حسب العرف الذي لا ينكره المجتمع . فالولد المسلم من أبوين مسيحيين يجب عليه أن ينفق على أبويه حتى إذا طلبا منه الخمر، لأن الخمر غير منكر عندهما.

وإذ أمرت الآية ونهت وفصلت، كان المقام داعيا إلى التنصيص على القاعدة في العلاقات بصفة عامة، فأمر القرآن المؤمن أن يتبع الطريق الذي يسلكه المؤمنون الصالحون، الذين كان منهج الرجوع إلى شرع الله هو طريقهم الذي يسلكونه في الحياة .

وفي الختام فإن مرجعكم جميعا إلى الله. أولادا ووالدين، وأتباعا ومتبوعين، كلكم ستعودون إليه. لا ينفعكم في ذلكم الظرف إلا ما قدمتم من صالح العمل؛ وسيظهر لكم جزاء أعمالكم، ذلكم الجزاء الذي يكشف عن قيمة الخير أو الشر في أعمالكم الدنيوية.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ

مثقال: وزن، ثقل.

خردل: نبت له بزور دقيقة تسمى الخردل.

الصخرة: الحجر العظيم الصلب.

اللطيف: العالم بدقائق الأشياء الرفيق بعباده .

عزم الأمور : التي شدد الله الأمر بها وحذر من التراخي فيها.

تصعير الخد : الانحراف عن النظر إلى الناس تكبرا.

ولا تمش ...مرحا : لا تمش متبخترا مزهوا بما أوتيت.

المختال : المتبختر في مشيته تكبرا.

الفخور : شديد الفخر.

أنكر : أقبح وأوحش.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل لقمان موعظة ابنه، فابتدأ بتجلية الناحية العقدية، فعرفه أن علم الله محيط بكل جزئية في الدنيا وإن ضؤلت. فلو كان الشيء وزن حبة من خردل، كامنا في قلب صخرة صماء، أو كان ملقى في واسع ملكوت السماء، أو مندسا في أي بقعة من الأرض لا دليل عليه، فإن الله يأتي به من مكانه ويكشفه. وكذلك الأعمال مهما خفيت. إن الله عليم بما دق، رفيق بعباده، يعلم كل شيء علما لا يخفى عليه منه شيء.

وثنى بدعوته إلى الناحية العملية، فوعظه بالمحافظة على الصلاة وأدائها على أفضل وجوه الأداء، وأن يكون متعلقا بالخير آمرا به، مبتعدا عن الشر ناهيا عنه. وتحمل في سبيل ذلك ما يمكن أن يلحقك من أذى صابرا على مواصلة طريق الخير. فإن ذلك من الأمور المهمة المعنيّ بها.

وثلث بنهيه عن مظاهر التكبر المؤذية بالفعل، كلفت خده عن الناس احتقارا لهم، أو المشي المتبختر. فإن الله يمقت ولا يساعد كل مختال فخور بنفسه.

وربع ببيان بعض مظاهر السلوك التي تحببه وتحفظ له كرامته. فليكن في مشيه وسطا بين الهرولة والتثبيت، وليكن صوته بين الخفاء المتعب للسامع، والجهر المؤذي. ونفره من الصوت الجهير، بتشبيهه بصوت الحمير الذي يعلو فيزعج.

بيان المعنى العام

16 يا بني إنها إن تك...إن الله لطيف خبير

عُني لقمان في تزكية ابنه بتقديم عقيدة التوحيد، وأتبعها في هذه الآية بتوجيهه إلى التصور العقدي الصحيح والكامل. فوعظه مراعيا طريقة التجسيم التي يكون بها التصور واضحا ودقيقا مما يحقق حكمته. لفت نظر ولده إلى أشد الأشياء خفاء، إلى شيء لا يعدو وزن حبة من خردل، وهو مما ينبه على ضآلة الشيء، إذ الموازين في ذلك العهد ما كانت تتأثر بذلك الوزن، كأنه يقول: مما لا يمكن وزنه. ثم بالغ في خفائه بأنه مخفي داخل حجارة صلبة شديدة، أو هو ملقى في عالم

السماوات الفسيح، أو في داخل كوكب الأرض، إن الله قادر على أن يخرجه من مكمنه ويرتب عليه من الآثار ما تعلقت إرادته به. اعلم يا ولدي: أن الله عالم بدقائق الأمور، وهو الرفيق في إيصال الخير لمن أراد. فكانت الخاتمة كاشفة عن علم الله الكامل والشامل، وعن قدرته البالغة. التوجيه صالح لحمله على الأشياء المحسوسة، كما هو صالح للتنبيه على جزاء ما يقوم به الإنسان من أعمال. فإنه وإن قلت أو ضعفت قيمتها يجد الفاعل جزاءها محفوظا عند الله. فتكون الآية جامعة بين الترجية للصالحين، والتخويف للمذنبين . يؤكد ذلك أن الله عليم العلم الكامل، خبير بدقائق الأمور وما خفي منها

17 يا بني أقم الصلاة...من عزم الأمور

بعد أن أتم توضيح ما يتعلق بالعقيدة، انتقل في وعظ ابنه إلى الناحية العملية. فابتدأ بدعوة ابنه مؤكدا (يابني) أقم الصلاة . والصلاة العبادة التي يتقرب بها الإنسان لخالقه منصرفا عن كل شيء، فهي قمة العبادة، وهي أولى الثوابت في جميع الشرائع، وإن اختلفت طرق أدائها شروطا، وأركانا وآدابا. أمر بأن يؤدي الصلاة بما يوقظ الروح، ولا يتغافل عنها. وثنى بأن يكون قلبه متعلقا بالخير مشمئزا من الشر، بصفة أنه زيادة عن الامتثال يشيعه في الناس، فيدعو غيره إلى الخير: المعروف، وينهاه عن الشر: المنكر، ولا يكتفي بصلاح ذاته، إذا فسد غيره. وثلث بأمره بالصبر على الأذى في قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصفة خاصة، لما يتبع ذلك من نفرة وعداء المأمورين، إذ في ذلك قمع لشهواتهم المصحوبة باللذة العاجلة.

إن هذه الأمور التي أوصيتك بها هي من الأمور التي عني بها الله، وأكد على الناس القيام والالتزام بها.

18. ولا تصعر خدك للناس ...كل مختال فخور .

انتقل لقمان في وعظ ابنه إلى تنبيهه إلى طريقة السلوك مع المجتمع، بما يؤلف بينه وبينهم، ولعل أقوى ما يؤذي الناس التكبر عليهم، وله مظاهر كثيرة: أن يلوي خده عنهم برمز إلى احتقارهم بأنهم في منزلة دون أن ينظر إليهم، أو أن يؤذيهم بلسانه شاتما أو ساخرا، ونحو ذلك .كما نبهه إلى ما في الإعراض عن الناس من سوء خلق، نبهه إلى صور أخرى من الكبر: أن يمشي مشية تخالف الماشين على الأرض، وهو واحد منهم، بأن يمشي مشية تظهر أنه متكبر يخال نفسه أعلى من الآخرين . وزيادة على نقمة الناس عليه نبهه إلى أن الله يقصي عن منازل رحمته ولا يسعف بألطافه، كل من كان مختالا يفتخر على الناس معتقدا أنه أعلى منهم .

19. واقصد في مشيك..لصوت الحمير.

ختمت هذه الآية موعظة لقمان لابنه، إذ هداه إلى بعض الآداب في طريقة مشيه، وفي صوته :كن مقتصدا في مشيتك لا تهرول فتذهب مروءتك، ولا تدب دبيبا يعطيك مظهر العاجز . كن وسطا بين الأمرين. ولا تجهر بصوتك جهرا ينبعث من نفس تبغي الاستعلاء في المجامع، ونفره من هذا المستوى في رفع الصوت بتشبيهه بصوت الحمار، أنكر أصوات الحيوانات. إذ بقية الحيوانات يأنس الإنسان لصوتها إلا صوت الحمير فإنه ينفر منه لأنه قوي مزعج . فليكن صوتك وسطا، لا تخافت به إلى درجة يتعب السامع بعدم وضوحه، فيستوقف المتكلم ويطلب منه الإعادة، ولا يكن جهيرا مظهر عنف .

وقد تتبع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ما ينسب من الحكم إلى لقمان. فبلغ بها ما يقارب سبعين حكمة

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

إسباغ النعم :إكثارها بما يعمّ.

النعمة : المنفعة التي يقصد بها فاعلها الإحسان للمنعم عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه آيات الله في الكون شاهدة على أن الله هو المنفرد بالخلق والتدبير، ألا تشاهدون كيف أن الله أودع في السماوات والأرض من القوانين ما جعلها تحقق للإنسان خلافته، وتسعده في حياته، ولا تعاكسه. وأعطاكم النعم الكثيرة التي لا تحصى منها ما هو ظاهر مشاهد تدركونه بحواسكم، ومنها ما هو خفي كقواكم المدركة والأجهزة المختلفة في الجسم. والعقل والروح ونحو ذلك.

ورغم ذلك فإن بعض الناس ممن لم يدرك هذه النعم إدراكا يربطها بمبدعها، إذا نُبّه لذلك وقيل له اتبع ما أنزله الله من الهدى لتسعد في دنياك وأخراك، أعرض وقدم حجته السخيفة قائلا: إني أتبع ما كان عليه آبائي . وإنه لأمر عجيب أن يتبعوا آباءهم، ولو كان آباؤهم إنما قادهم الشيطان إلى عذاب السعير فانقادوا.

بيان المعنى العام

20. ألم تروا أن الله سخر لكم ...ولا هدى ولا كتاب منير

بعد أن سجل القرآن ما آتاه الله لقمان من الحكمة، ومظهرها في مواعظه لولده، عاد البيان القرآني إلى الاستدلال على تفرد الله بالألوهية، إكمالا لما عني به قبل الحديث عن لقمان. خاطب بهذه الآية كل البشر مؤمنهم وكافرهم. مفتتحا بسؤال تقريري وإنكاري، كيف لم تشاهدوا بأعينكم تسخير السماوات والأرض للإنسان.؟ إن موقع الأرض من الكواكب، والتقديرات العجيبة المحكمة في مقدار ما يصل من الإشعاعات إلى سطحها، وتأثير القمر على حركة المد والجزر، وتداول الليل والنهار، وموقعها المتغير الناتج عنه تحول الفصول. وكذلك الجاذبية التي تيسر معها استقرار الإنسان، وتنقله، وما أقامه من منشآت، إلى البحار والأنهار، والتربة وما احتوته من العناصر التي بها تنمو الأشجار والزروع والثمار. سخر الله السماوات والأرض، بأن أجرى فيها من القوانين ما يتمكن به الإنسان من العيش وتعمير الأرض. وكانت نعمه على الإنسان لا تحصى عديا الظاهر في ذاته، أعضاؤه وجماله وما في الكون مما يلبي حاجاته في معاشه : قوته، ولباسه ومسكنه، من الضروري إلى الجمالي . ونعمه الباطنة من أجهزة متنوعة كالجهاز الهضمي والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، وما ركبه فيه من قوى الإدراك والعقل.

إنه مع هذه النعم التي لا تحصى والتي لا يمكن للمشركين أن ينسبوا أي واحدة منها لأصنامهم، تجد بعض الناس من رؤوس الكفر في مكة يجادلون في تفرد الله بالخلق والتقدير ،لا يستندون في جدلهم إلى وسيلة من وسائل الاحتجاج، إذ ليس لهم علم يقيني صادر عن اجتهاد سالك منهج الاستنباط. ولم يتلقوا مما يجادلون به من عالم موثوق بعلمه، ولا سند لهم من كتاب صادق منزل. وإنما هي المكابرة وتمسك بالأهواء.

21. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ...إلى عذاب السعير

بلغ تصلبهم في الكفر، وتصميمهم على الرفض، أنهم إذا نبهوا بالدعوة إلى اتباع ما أنزل الله على رسوله، إذا كانوا لم يهتدوا بآيات الله في الآفاق التي هي أمام أنظارهم، لم يجدوا تعلة لمواصلتهم الإشراك بالله إلا الاعتماد على التقليد لآبائهم .

والعجب منهم أنهم يقلدون آباءهم، ولو كان آباؤهم وقعوا تحت إضلال الشيطان وغوايته، ليقودهم إلى عذاب جهنم. أيتبعونهم ولو كان ما عليه آباؤهم من إضلال الشيطان، وأنهم خاسرون الخسارة التي هي أعظم خسارة، إحباط الأعمال والتعذيب في نار جهنم المستعرة.

﴿... يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ

إسلام الوجه لله : إفراده بالعبادة.

محسن : قائم بعبادة الله مخلص.

العاقبة : الخاتمة والنهاية .

ذات الصدور : النوايا المستكنة في النفوس.

التمتيع : العطاء الموقت .

بيان المعنى الإجمالي :

طمأنت الآية من أخلص لله فأفرده بالتوجه له، ولم يشرك به غيره، وقرن ذلك بالإحسان في عبادته، حسبما روي عن رسول الله ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. طمأنته: ليكن واثقا من سلامته، وضعه كوضع من تمسك بالعروة التي لا تنقطع ولا تنفصم. وإلى الله وحده يصيرون فيجزيهم بما هم أهل له.

لا تحزن يا محمد لكفر من كفر. فإن مصيرهم إلينا، وسوف نفضحهم بإظهار حقيقة ما كانوا يعملون. إن الله عليم بما تنطوي عليه الصدور. نمكنهم من التمتع قليلا في الحياة الدنيا، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . ثم نلجئهم إلى عذاب النار الشديد، أشد ما يكون العذاب.

من تناقضهم وضعف عقولهم، أنك لو ألقيت عليهم السؤال: من خلق السماوات والأرض؟ فإنهم يعترفون بأن الله هو خالقها. ثم يشركون به غيره. اختص الله بالحمد والثناء والألوهية، ولكن أكثرهم جهلة أعماهم الجهل، وإن كان بعضهم يرجى منه أن يعود إلى الحق..

الحقيقة المطلقة: أن ما في السماوات والأرض ملك لله، هو وحده المالك، وأنه غني الغنى المطلق عن جميع المخلوقات، هو المستحق للحمد والثناء على ما اختص به من كمالات.

بيان المعنى العام

22.ومن يسلم وجهه...وإلى الله عاقبة الأمور.

في مقابل المتصلبين في الكفر ينوه القرآن ويمدح من أعرض عن كل الدواعي الخارجية والداخلية الصارفة عن الله، وصرف قصده لله وحده. وأصل كلمة الوجه أن تدل على الجهة الأمامية من الرأس. أطلقت هنا على القصد، باعتبار أن القاصد للشيء يستقبله بوجهه. ومع إخلاصه لله وحده، فقد جمع إلى ذلك الإحسان، والإحسان أن يقوى في روحه تعلقه بالله، فإذا هو مستحضر لصلته بربه في جميع أوجه نشاطه. وهو معنى قوله ﷺ : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وبهذا يكون الإحسان العبادة لله المتمثلة في أي عمل يقوم به الإنسان رابطا له بربه، فتنقلب جميع الأعمال الصالحة إلى عبادة مجزي عنها. أثنى الله على من أسلم وجهه لله وهو محسن بأنه ناج لا محالة في خضم دواعي الحياة، فهو مستمسك بالمنهج المنجي، شأن الإنسان إذا كان متعلقا بعروة وثيقة لا تنفصم فهي تنجيه من التيارات الجارفة ما دام متعلقا بها.

ولما تعلقوا بالله في كل أمر من أمور حياتهم، فإنهم سيجزون عنده أفضل الجزاء لأن النهاية هي عند الله يوم القيامة.

23. ومن كفر فلا يحزنك...إن الله عليم بذات الصدور .

لما فصلت الآية كريم الوعد للمؤمنين، والرسول ﷺ إمامهم، ثنت هذه الآية بتسلية النبي ﷺ عن حزنه من كفر الكافرين وعدم اهتدائهم، فيخاطبه القرآن قائلا له: لا تهتم بشأنهم وما ستكون إليه عاقبتهم، فإنهم سيعودون إلينا، وتظهر لهم حقيقة أعمالهم الشريرة، ونفضحهم بها، لأن حسابهم سيكون منا، والله لا يخفى عليه ما أبطنه الفاسقون من المكر والفساد، فضلا عما ظهر منهم.

24. نمتعهم قليلا ...إلى عذاب غليظ.

فصلت هذه الآية قوله في الآية السابقة: إلينا مرجعهم- نعطيهم عطاء قليلا لا يطول انتفاعهم به. ثم نلجئهم إلجاء لا خيرة لهم فيه إلى عذاب غليظ، شديد شدة تتجاوز طاقة تحملهم. وكانوا في الدنيا يرفضون طاعة الله ويظنون أنهم يفعلون ما يشاءون، فكان أول مراحل العذاب هو احتقارهم ودفعهم دفعا إلى العذاب .

25. ولئن سألتهم...بل أكثرهم لا يعلمون.

تكشف هذه الآية عن سخافة عقول المشركين، وتناقضهم. إنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض وما فيها، ومن ذلك المواد التي صنعوا منها أصنامهم، فإنهم

يقرون بأن خالقها هو الله. لأنه لا يمكنهم أن ينسبوا لأصنامهم شيئا من ذلك. ومع ذلك هم يعبدون ما سوى الله الخالق. قل لهم إله كما اختص بالخلق فهو الحقيق بالحمد والثناء. ولكن الداء المعضل هو الجهل الحاجب لبصائرهم عن التدبر في خلق الله وما يوجبه.

26.لله ما في السماوات...هو الغني الحميد.

تصريح بالجواب عن السؤال في الآية السابقة وتسجيل للحقيقة من خالق الكون، الذي استند إليه الخلق وحده، فهو مالك لجميع الكائنات في السماوات والأرض التي منها الإنسان. سبحانه المتميز بأنه الغنيُّ الغنى المطلق . كمالاته من ذاته، ومستحق للحمد والثناء، والحمد ثابت له ذلك ثبوتا ذاتيا.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

المداد : الحبر .

يمده : يزيده مدادا.

يولج : يدخل .

الجري : المشي السريع

العلي :العلو بمعنى القدسية والتعالي عن كل نقص .

الكبير : عظيم الشأن.

صبار شكور: عظيم الصبر، قوي الشكر..

غشيهم الموج : فاجأهم الموج، فغطاهم أو كاد.

كالظلل : أمر بالجبال والسحب، في عظمتها وارتفاعها.
ختار : غدار .
بيان المعنى الإجمالي:
علم الله علمٌ أزلي أبدي، ليس له بداية ولا نهاية. فلو بريت أشجار الدنيا أقلاماً، ما وجد وذهب، وما هو موجود عند نزول الآية وما سينبت على سطح الأرض؛ ثم جعلت البحر كله حبرا تغمس فيه تلك الأقلام لتكتب بها علم الله، ونفد البحر، ثم أتيت ببحور كثيرة لتسجل بها علم الله، فإنها لا تبلغ تسجيل علم الله. لأن المتناهي يستحيل أن يكون مساويا لما هو غير متناه. إن الله عزيز لا ترد له إرادة، حكيم فيما يصنع ويخلق. إنه لعزته يستوي خلق فرد واحد من البشر، وخلق البشرية جمعاء. إنه سبحانه لا يغيب عنه صوت وإن ضعف، ولا صورة ومكان أي كائن مهما صغر .ظاهرتان في الكون انتبهوا إليهما :
الأولى: أن الله يدخل الليل في النهار فيبدد النور ظلامه ويكشف الكون بضيائه.
والثانية: أن الله يعكس الأمر فيدخل النهار وضوءه في جوف الظلام فيستر الكون كله. انتبهوا إلى الارتباط بين تحول ظواهر كثيرة على سطح الأرض تبعا لحركات الشمس والقمر، وجريهما في أفلاكهما. هذا السير المنتظم ليس سيرا أبديا ولكنه داخل تحت التقدير الإلهي، فسيأتي الوقت المحدد لتوقفهما عن السير، ولانتهاء الحياة. إن هذا التقدير المحكم العجيب، إذا تأملتموه يفضي بكم إلى العلم اليقيني بأن الله هو الحق، وأن الأصنام والأوثان التي تدعونها وتتقربون إليها باطل لا حقيقة لها ولا سلطان ؛ وأن الله وحده هو المتفرد بالمقام العلي الأعلى، العظيم الشأن.
ألم تعلم أيها الإنسان أنه بنعمة الله وفضله، تجري الفلك على سطح البحر فتنقل البشر والحيوانات والسلع بين أقطار الأرض. إن في القوانين التي تم بها ذلك، وما يترتب على هذا التنظيم من خير كثير للبشرية، في ذلك آيات ناطقة بأن حكمة الله الواضحة وإحكامه، وقدرته يسرت كل ذلك، ولكن لا يتبينها إلا كل من رزق الصبر على البحث والتأمل، وانفتح قلبه لشكر الله على نعمه الجُلّى . وكما يفتح البحر عقول المؤمنين للإيمان والشكر، فإن البحر إذا سارت فيه الفلك يمس فقدوا الإيمان، فإنك تجدهم إذا علت الأمواج كالجبال، وظن الراكبون الهلاك، تجدهم يتضرعون إلى الله أن ينجيهم، فإذا نجوا وبلغوا ساحل النجاة، وجدتهم بين مقتصد في كفره، لم تقتلع منه التجربة جذور الكفر، بل ما زال مترددا بين وضعه عند ابتهالاته ووضعه السابق في التقرب للأصنام، ومنهم من هو متصلب في كفره، لم تحرك التجربة فيه أي تحول للصلاح. وقعلا هنالك من هو مؤمن فإذا التجربة تضاعف شكره، وتقوي إيمانه.
ولا ينكر آيات الله ولا يجحدها إلا فاسد الطبع، الذي تمكن خلق الغدر فيه وكفران النعمة .

بيان للمصير العام ،

27-ولو أنما في الأرض...إن الله عزيز حكيم.

وصف القرآن نفسه في عديد الآيات بأنه بلغ أعلى مراتب الوضوح والبيان. إنه يتحدث عن العقيدة والعمل، وعن الدنيا والآخرة، ويبين ما يجب علمه عن الذات الإلهية، ويتحدث عن أخبار الرسل وما جرى لهم مع أممهم، وعن الصالحين وآثارهم. إن هذا التنوع لا يقصد منه التسجيل، ولكن الهدف الأول هو إصلاح البشرية بواسطة هذا الكتاب. ولذا كان من الواجب أن يكون بينا واضحا حتى ينفذ الى الأرواح فيحييها، وإلى العقول فيفتح لها مناهج الصواب، وإلى المشاعر فيعليها ويسمو بها. إن اللغة مهما بلغت من الدقة تكون قاصرة عندما تتحدث عن الله القديم المتعالي، أو عن الآخرة التي شؤونها غير شؤون الدنيا. ولذلك اعتمد القرآن ضرب الأمثال، والتجسيم بمقارنة المعاني العالية بما هو مجسم يدركه الحس، مع وجوب التنزيه للباري عن كل تحديد. وتعمل القوى العقلية على تصوره بناء على ذلكم التجسيم، فإذا هو واضح في النفس قوي التأثير في التعقل والسلوك. لقد تكرر في القرآن "إن الله بكل شيء عليم"، "إنه عليم بذات الصدور"، (وما من غائبة في السموات والأرض إلا في كتاب مبين)، وفي هذه السورة: (إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله). وتحدث القرآن أيضا عن نعيم الآخرة الذي لا يفنى، والله عليم بكل شيء؛ يشمل علمه المتناهي من أمور الدنيا، ويشمل غير المتناهي من أمور الآخرة. إن هذا المفهوم الواسع جسمته الآية. لو فرضنا أن أشجار الدنيا ما هو موجود الآن وما ذهب، وما سيوجد في المستقبل، ثم حولنا أغصان تلك الشجر إلى أقلام للكتابة، ثم اعتبرنا أن بحار الأرض مداد (حبر) يغمس فيه الأقلام ليلتقط كل قلم من المداد بالتسجيل، ونشف البحر بما يؤخذ منه للتسجيل، ثم يتضاعف البحر بمداد سبعة أبحر، وليس المراد التحديد بالسبعة حتى يقال لماذا حصر القرآن العدد على سبع؟ بل المراد بالسبع في الاستعمال البياني الكثرة. إنه لو كتبت الكلمات المسجلة لعلم الله لنشف الحبر واستهلكت الأقلام، وعلم الله متواصل لا ينقطع. مقارنة بين الدائم الباقي والفاني. إن الله عزيز ينقاد كل شيء لإرادته، وإرادته ليست إرادة الطغيان والاستبداد، ولكنها إرادة الحكيم المجري لما يصدر عنه على أسس الحكمة.

28-ما خلقكم ولا بعثكم ... سميع بصير

أثبتت الآية السابقة سعة علم الله وعدم تناهيه، وتعرضت هذه الآية إلى جزئية من علم الله، وقدرته على إنجاز ما علمه. وهذه الجزئية هي خلق الإنسان أولا، ثم إعادة خلقه ثانيا بعد

الموت. وهذا الثاني يرفضه المشركون لأنه يعكر عليهم شهواتهم. فعرفتهم الآية أن خلق البشر جميعا هو كخلق نفس واحدة، ذلك أن ما في عجائب الصنع في التركيب المادي للإنسان، وعالم العقل والإدراك، والربط بين المادي واللامادي، وعالم الروح الذي يتجاوز نطاق الحس. في ذلك دليل واضح على أن الذي أوجد نفسا واحدة جامعة لهذه النواحي كلها، لا يعجزه إيجاد جميع البشر، وأن ذلك ليس فيه بعد ولا استحالة. ويتبعه أن بعث النفوس بعد خلقها هو جار على ذلكم الميزان العقلي، الذي لا يستطيع الا أن يقربه لجريانهما على نسق واحد.

إن الله كامل ومن صفات كماله أنه سميع بصير، يعلم خصائص الجزيئات علما دقيقا، فهو المقدر لكل حركة تنشأ عن الإنسان وكيف تحدث، وما ينبغي أن يعد لتحقيق ذلك، وهو لا يفوته أي جزء من تركيبه فهو يراه رؤية لا يعونه بواسطتها خلق فينشئه أولا ثم إعادة بدون غفلة عن أي شيء مما سبق في تكوينه الأول، فتبارك الله أحسن الخالقين.

29. الم تر ان الله يولج...بما تعملون خبير

احتجت الآية السابقة على إحياء البشر للبعث بعد الموت، وقربته للأذهان. ثم أخذت هذه الآية ظاهرة من ظواهر الكون تتردد كل يوم، وتدخل تأثيراتها في حياة الناس كلهم. كان عليهم أن يتأملوا فيها ولا يقفوا في حدود الحواس وما تنقله. لذلك ابتدأ الآية بسؤال إنكاري: ألم تعلموا أن تتابع الليل والنهار من خلق الله ؟ ألم تر، خطاب لكل من يصح منه الرؤية العلمية، ألم تعلم أيها الإنسان أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. هي عملية عجيبة كيف يدخل القادر الحكيم ظلمة الليل التي كانت تشمل الكون كله، فيدخل ذلك الظلام في ضوء النهار، فما يزال الضوء يتغلب شيئا فشيئا على سلطان الظلام حتى يذهبه ويشرق الكون بالضوء، ثم يولج النهار في الليل فيدخل فيه شيئا فشيئا حتى يعم الظلام، ويبتلع الكون كله. فهمت من ولوج الليل في النهار أن الليل يدخل في النهار فيذهب النهار بظلامه، وإن كان هذا الفهم مخالفا لما فهمه من اطلعت على كلامهم من المفسرين، وبنيت فهمي هذا :

1)على أن الوالج مغطى بالمولوج فيه، فإذا قلنا ولج محمد في الدار، فإن محمدا قد احتوت عليه الدار، والدار هي الواضحة ومحمد كامن فيها .

و2)أن الله قدم الشمس على القمر، وهي كوكب نهاري فالتناسق في النظم يدعو إلى أن تكون الظاهرة الأولى ذهاب الظلمة بضوء النهار. إن واجب الإنسان ان يتأمل في هذه الظاهرة الواضحة ليحصل له اليقين أن التأثير في الكون كله على تقدير منتظم بيد الله، وأنه كما خلق الإنسان فهو يميته ثم يحييه.

إن الكوكبين المنيرين الشمس والقمر، سخرهما فكل منهما يجري ويتحرك، ويستمر في هذا الجري والحركة إلى الأجل الذي قدره لتوقفهما، فيتوقفان توقفا يحصل معه خراب العالم. جريانهما ترتبط به الحياة، ويؤثر كل منهما في كوكب الأرض، زيادة على الليل والنهار، اختلاف الفصول، وتغير مستويات الحرارة، والنبات والنضج للزروع والثمار، وحركة المد والجزر، وتأثيرات وتأثيرات بعضها وصل العلم لاكتشافه، وكثير ما يزال يدعو العلماء للدراسة والبحث للكشف عن القوانين الدقيقة التي أتقن الله عليها صنع العالم.

ثم، ألم يعلم البشر أن الله بما لفت إليه الأنظار من حكمته في الخلق، وتصرفه فيه بعد خلقه أنه عليم بما يصدر منهم، لا يفلت عنه فعل ظاهر، ولا قصد مبطن في الضمير، وهي قضية كبرى، فإذا كانت جهود العلماء تتجه لتفوز باكتشاف الحقائق الكونية، فإن ما تنطوي عليه نفسية كل فرد في هذا الوجود، وما يجري بخاطره، هو فعلا أعظم من سير الكواكب، وهو مجال لا يصل إليه العلم، وهو لله وحده.

30 ذلك بأن الله هو الحق ... العلي الكبير.

استحضرت الآية ما تقدم في الآية السابقة وأشارت إليه، ووجهت الخطاب لكل شخص مشرك ليعلن بوضوح، ويقر بما ينبني عليه: إن التصرف في نظام الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر إلى الأجل المحدد لهما مسبقا، يدل دلالة بينة على أن الله وحده هو الإله الحق بما له من الخالقية، والتصرف في المخلوق، وأن ما تدعون من دونه من الأصنام باطل، ليس لها من خصائص الألوهية شيء، فلا هي تخلق ولا هي تتصرف. وأن الله هو المقدس عن كل نقص، المتعالي في جلاله وكماله عما يظنه الجاحدون، وأنه هو الكبير عظيم الشأن لا تقاس عظمته بما يتصوره البشر من عظمة.

31 ألم تر أن الفلك ... لكل صبار شكور.

من دلائل إحكام التقدير في هذا الكون، وتسخير الكون للإنسان، الفلك التي تمخر عباب البحار، وتنقل السلع والبشر، وتصل بين أطراف الأرض، ما كان هذا ليتم لولا ما أودعه الله في البحر من قوة تدفع قدرها تقديرا، ومن مواد صالحة إذا ركبت على هيئة مخصوصة أن تطفو على سطحه، ومن هداية البشر لتدرس القوانين والاستفادة منها والتأليف بينها، التحكم فيها، فجريان الفلك في البحر ملتبس بنعمة الله، وحظ الإنسان في ذلك ضئيل جدا كما يظهر بأدنى تأمل. إنكم تشاهدون بأعينكم دلائل القدرة والتصرف المحكم، ولكن لا يبلغ النظر في ذلك ما يفتح

للبصيرة منافذ الإيمان، إلا لمن رزق صبرا قويا، صبرا على ملابسة الحياة، وصبرا على التأمل فيما ترمز إليه كل ظاهرة من الظواهر، وصبرا على طرد الوساوس، وصبرا على البحث بطرد الكسل العقلي. ومع ذلك حمله لنفس طيبة تدرك النعمة وتفي بواجبات المنعم، فكلما تجددت النعمة انطلق القلب والجوارح واللسان بالشكر. فكم من منعم عليه تزيده النعمة كفرانا.

32.و إذا غشيهم موج كالظلل..كل ختار كفور

حركت الآية السابقة الأنظار لنعم الله في البحر، ونوهت بكل صبار شكور، تهديه تلكم النعم وتعمق إيمانه. وفي المقابل إذا هاج البحر وعلت أمواجه، وشبهها بالسحب لارتفاعها واسودادها واضطرابها كالظلل وارتفعت تلكم الأمواج مهددة بالغرق والموت، فإن الضعف الإنساني في أوقات العجز يبرز الفطرة ويرفع عنها غشاوتها، في هذا الظرف يتحد كل الراكبين، من كان مؤمنا قبل ذلك، ومن كان كافرا، في التوجه إلى الله بالدعاء لإنجائهم. فتمر فترة الشدة على النفوس، وقد تطهرت من الشرك وتوجهت إلى خالقها معترفة بأنه وحده المتصرف. ولكن بمجرد ما ينجيهم وتهدأ العاصفة وتصل السفينة إلى شاطئ السلامة، تذوب تلك الصورة الوضيئة النيرة، ويفترقون إلى مقتصد وإلى غير مقتصد. ما المراد بالمقتصد ؟ فسره معظم المفسرين: منهم غير متصلب في الكفر، ما تزال هزة الخوف تلازمه من جانب، ولم ينصح إيمانه من جانب آخر، وبقيت عروق الكفر تؤثر فيه. ومنهم متصلب في كفره كأنه ما دعا ولا ارتجى خالقا مبتهلا . ويثني على مواقفهم، بأنه ما يجحد بآيات الله منكرا لها، إلا كل فاسد طبع غدار للعهود لا وفاء له، جاحد لنعم الله .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

بيان معاني الألفاظ

الخشية : الخوف، احذروا ما سيقع في ذلك اليوم .

يجزي والد: يقضي والد عن ولده، لا يغني، ولا ينفع.

وعد الله : البعث.

الغرور : من يكثر من التغرير.

الدراية: هي العلم الحاصل بعد المعالجة و الكد .

بيان المعنى الإجمالي .

دعوة موقظة من رب العباد تنتشلهم من غفلاتهم.

الأمر الأول : حصنوا أنفسكم بالتقوى، لتكن صلتكم بربكم حية فاعلة في عقولكم وضمائركم.

الأمر الثاني : احذروا، وليكن الخوف ملازما لكم من أهوال اليوم الذي تتحدد فيه مسؤولية كل شخص بما قدم، فلا ينقذ الوالد ولده من كربه ومن جزاء عمله، وكذلك العكس فلا ينتفع الوالدان بمولودهما.

الأمر الثالث: اعلموا يا أيها الناس : أن وعد الله ثابت لا يتخلف، فلا تشغلكم الحياة الدنيا بمباهجها، فتقصروا همكم على ما تنالونه من متاعها الزائل عن قريب، وادفعوا عن أنفسكم ما يغركم به الشيطان وحزبه فيخيل لكم أن الساعة غير آتية، وأنها إن جاءت فإن الأصنام تدفع عنكم.

تفرد الله بعلم تاريخ انقضاء الكون، ومتى يبعث الناس من قبورهم. وهو الذي يتصرف في الكون فيغشي السحب ويسيرها إلى حيث يشاء من الأرض. لينزل منها الماء المحيي للزروع والأشجار. وهو المتفرد بعلم ما تحتضنه الأرحام من تاريخ تلقيح البييضة إلى يوم وضعه، في كل مرحلة من مراحل تكونه، وفي كل جزئية من جزئيات تركيبه البدني والنفسي. ولا يعلم الإنسان ما سيتعرض له في حياته فلا يدري ما ذا سيكون عليه نتائج نشاطه في غده، وهو جاهل بالوقت والمكان الذي ستقبض فيه روحه، وينتهي أمد حياته في الدنيا . تيقنوا أن الله سبحانه واسع العلم، لا يغيب عن علمه شيء، خبير يدرك تفاصيل ما يتعلق به العلم بوضوح لا مزيد عليه.

بيان المعنى العام:

33-يا أيها الناس اتقوا...ولا يغرنكم بالله الغرور .

تتابع في السورة عرض الآيات ومظاهر القدرة، ولفت الأنظار إلى ما في الخلق من شواهد على تفرد الله بالحكمة والخلق والتدبير. واهتداء المتدبرين إلى الحق وفوزهم بالإيمان والحكمة، فتهيأت العقول لتخاطب بهذا النداء العام: يا أيها الناس شاملا للمؤمنين والكافرين، نداء رب رحيم يرضى لعباده الاستقامة، ويهديهم إلى طريق النجاة في حياتهم الدنيا والآخرة دعاهم:

أولا: إلى تقوى الله. وتقوى الله أن تحصن نفسك من الضلال والفساد والخسران. وذلك بالعمل الصالح والبعد عن المناهي والآثام. ومما ييسر التقوى والالتزام، الشعور بارتباطك بالله في كل لحظة، وأنه مطلع عليك. وأن تحبه حبا يكون لك وازعا عن عصيانه.

وثانيا: الخوف مما يحدث يوم القيامة من أهوال. فهو ينبههم إلى أن يوم القيامة يجري على مقاييس تختلف تماما عن مقاييس الدنيا، ففي هذا اليوم لا يتحمل الوالد عن ولده شيئا مما هو مطالب به، ولا يدفع عنه ضررا تأهل لأن يصاب به. إن رقة الأبوين التي جرت عليها أعراف الدنيا، لا يكون لها في هذا اليوم أي أثر ولا اعتبار. وكذلك العكس فالأولاد لا ينفعون آباءهم بشيء ولا يدفعون عنهم أذى. لا قليلا ولا كثيرا.

وثالثا: إن يوم القيامة آت لا ريب فيه، فلا تذهب بكم الشكوك والاحتمالات، وما يضللكم به الفاسقون، من استحالة عود الأموات، بعد أن تحللت، إلى الحياة من جديد. من أنه لم نشاهد في الكون أن فردا بعث إلى الحياة بعد الموت. إياكم أن تتأثروا بتلكم الأوهام، وبمقاييس الحياة الدنيا التي أمرها مختلف عن الحياة الآخرة. وإياكم أن تحجبكم الحياة الدنيا بزخارفها عن الحياة الباقية فتغركم وتصرفون كل همكم إليها، منصرفين عن حمال الطاعة.

ورابعا: احذروا أن يغركم الشيطان. إنه قد التزم إضلال من يستطيع إضلاله، وإنه لا يقصر في ذلك، يوسوس ويعيد الكرة حتى يحصد المقاومة. كونوا يقظين لإغوائه، أن يطمئنكم بأنه حتى لو وقع بعثكم فإن الأصنام تشفع لكم.

34-إن الله عنده علم الساعة...إن الله عليم خبير.

كان التنبيه والتحذير من أهوال يوم القيامة مسجلا في الآية السابقة بأتم بيان، وعنيت بذكره والتخويف منه، وهذا قد يجعل النفوس تتطلع إلى معرفة الوقت الذي سيقوم فيه الناس لرب العالمين، فجاءت هذه الآية مؤكدة أن علم الوقت المحدد لقيام الساعة عند الله وحده، لم يطلع عليه أحدا. والساعة تتحول إلى فناء الحياة أولا، ثم البعث بعد الفناء، كلاهما مما اختص الله بعلم الوقت الذي يحصل فيه. وبناء على ذلك فما يشيعه بعض المرافين بين الوقت والآخر أن فناء الدنيا سيكون يوم كذا، هو كذب، لا يصدقهم فيه المسلم المؤمن بكتاب ربه. وقد كان جواب رسول الله ﷺ لجبريل لما سأله متى الساعة والصحابة يشهدون؟ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. أي إننا (محمد وجبريل) نستوي في الجهل بها..

و ناسب أن يلحق بوقت الساعة الذي لا يعلمه على التحديد إلا الله، أن يلحق به أمورا أخرى لا يعلمها الا الله:

1) التأثير في الكون تأثيرا بنشئ السحب، وبسيرها إلى الأرض المحددة التي سينزل منها الماء. كما أن بعث الحياة في الأموات لا يعلمه إلا الله وقتا وكيفية، فكذلك إنزال الغيث بتفاصيله من كمية ومكان، وتأثير في السحب لتجمع الأسباب التي تلين بها فتروي الأرض وتحييها بيد الله وحده. نعم إن دراسة المتخصصات في الجو قد ترشد إلى توقع نزول الغيث، ولكن ليس هذا هو المقصود بالآية.

2) الناحية الثالثة التي اختص الله بعلمها، هي علمه بما تكنه الأرحام، من الوقت الذي فيه تم التخصيب إلى الوقت الذي ينزل فيه الجنين حيا.

توقف بعض الناس فيما تدل عليه الآية بعد أن تقدم العلم، وأصبح في متناول الأطباء بواسطة الأجهزة الكاشفة أن يتحققوا جنس الجنين، أذكر أو أنثى، وهو في بطن أمه، وهذا التوقف ناشئ عن قصور في التأمل في نص الآية، فالقرآن لم يقل: والله يعلم ما في الأرحام من ذكورة أو أنوثة، ولكنه عمم متعلق العلم، فشمل النواحي المادية، والنواحي العقلية والروحية

ففي النواحي المادية يشمل علم الله الخلية الملقحة في أول مراحل التلقيح وتطوراتها، وما ستؤول إليه من تطورها إلى بلوغها الأمد الذي تنزل فيه بشرا، أو سيقذفها الرحم قبل ذلك، وما هو الوقت المضبوط لأحد الفرضين. ويعلم سبحانه خصائص الجنين من لون البشرة والعينين والشعر، بل هو يعلم عدد شعرات الأهداب والحاجبين والرأس، وضبط طوله وطول يديه وصورة كل عضو من أعضائه، على وضعه الذي هو عليه في الرحم، والكوامن التي ستبدو مع تقدم العمر، ومئات الآلاف من الصور والاحتمالات التي لا يحيط بها إلا علم الله ،وكونه ذكرا أو أنثى جانب تافه بجانب العلم الضخم لأحوال هذا الجنين وما هو مهيأ له. وسع ربي كل شيء علما.

3) الرابع والخامس مما استأثر الله بعلمه ما يجري على الإنسان، وهو يسعى في الأرض. فكل نفس بشرية تجهل أخص ما يتعلق بها في المستقبل. فهي وإن اهتمت وبذلت كل مجهوداتها لتحصل يقين بالأمرين التاليين، فإنهما مفموعة لا تصل إلى معرفته : فلنحلل هذين الأمرين:

نجد البشر المنظمين في حياتهم، يرتبون لكل يوم الأعمال التي سيقومون بها، ولا يهمنا الفوضويين، فهم لا صلة بينهم وبين التخطيط. ورغم ما خططوه ورتبوه فليس لهم يقين بما سيكسبون في المستقبل من نجح أو خسارة، من انحار أومن

حصول معوقات تحول بينهم وبين ما خططوا له، ولا هم على يقين من مقدار الكسب. والأمر كذلك فيما يسعدهم به ربهم من التوفيق أو يحجبه عنهم لتكون أعمالهم صالحة أو سيئة. فظهر بذلك محدودية علم الإنسان بالمغيب في أخص خصائصه: كسبه، وكذلك الأمر تجد الناس يخططون للمستقبل، فيزرعون، ويغرسون، ويبنون، ويقيمون المصانع، ويمضون الاتفاقيات للترويج ومع ذلك، فلا أحد منهم يدري هل يعمر ما بنى وهل يحصد ما زرع، وهل يجني ثمار غرسه، وهل ينفذ اتفاقياته ويحصل على الربح، أو يموت قبل أن يحقق ما أعد. وما هو المكان الذي سيقبض فيه ملك الموت روحه ؟ فقدرة الإنسان على كشف المستقبل ضعيفة إلى هذا الحد، فكيف يتساءل عن موعد يوم القيامة، ويجادل فيه ويرغب في معرفته ؟

إن الله هو وحده العليم بالماضي والحاضر والمستقبل، الذي لا تغيب عن علمه دقيقة في الأرض ولا في السماء، لا في حاضرها ولا في تطوراتها.

يوم الاثنين 22 ربيع الثاني 4 مارس 2013

ســــورة السَجــدة

هذا هو أشهر أسمائها، وهو المكتوب في السطر الأول المعروف بها في المصاحف، وسميت في صحيح البخاري (ألم تنزيل السجدة) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر (الم تنزيل السجدة). وتسمى أيضا سورة المضاجع، أخذا من الآية 16: تتجافى جنوبهم عن المضاجع . وهي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف الثانية والثلاثون. وحسب ترتيب النزول عددها الثالثة والسبعين نزلت قبل سورة نوح، تالية لسورة النحل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

لا ريب فيه : لاشك في كونه منزلا من عند الله.

افتراه : اختلقه من عنده لا أصل له.

ولي : نصير ومدافع.

الشفيع: الوسيط لدفع ضر أو جلب نفع.

تتذكرون : تتدبرون.

يدبر الأمر : يتقنه إتقان من يعلم عواقبه.

العروج: الصعود، صائرة إليه لينصرف فيها.

نسله: الأولاد، وما يلدون.

سلالة: ما انتزع من الشيء برفق، الحيوان المنوي.

مهين: لا يعبأ به.

التسوية: التقويم.

نفخ: أفاض الروح في الجسد.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السورة بالحروف التي يقرأ كل حرف منها منفصلا. وحقق القرآن بعد ذلك أنه لاشك في كونه منزلا من رب العالمين هداية لهم. وانصرف بعد ذكر هذه الحقيقة ليسجل على المشركين جراءتهم وعنادهم؛ فقالوا: إن محمدا افترى هذا الكتاب واختلقه من عنده. كذبوا فيما ادعوا، فإنه الحق الذي لا يأتيه الباطل، منزل عليك من ربك، يهدف إلى إنذار قوم مرت عليهم الأحقاب دون أن يأتيهم نذير من قبلك، ينذرهم ليحصنوا أنفسهم من الخسران في الدارين. رجاء أن يهتدوا بما تبين لهم مما يوقظهم إلى سوء العاقبة إن هم لم يتبعوا هدايتك.

تعالى الله، هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من كائنات في ستة أيام. خلقا متصفا بالحكمة، ولم يهمل ما خلقه بل سيرهما مراقبا لما يجري فيها، نافذة إرادته في كل جزئية من جزئياتها. لا تجدون نصيرا ينصركم، ولا شفيعا يحول بينكم وبين تنفيذ حكمه، إذا تركتم لذواتكم. فما لكم لا تتعمقون في الواقع تعمقا يكشف لكم الحقائق.

سبحانه ينفذ حكمه وتقديره في الكون كله من السماء بعوالمها، إلى الأرض التي تعيشون على ظهرها. ثم ترفع إلى جلالته ما يسجله الملائكة الموكلون بذلك، يتم ذلك في يوم مقداره ألف سنة من السنين التي تعدونها. والألف يصور نهاية العدد عند الناس دون أن يكون الألف المنتهى، بل هو للكثرة.

إن الله هو المتفرد بعلم ما ظهر وما غاب عن إدراك البشر، لا يعاكس في تنفيذ إرادته، وهو الرحيم بعباده. هو الذي خلق كل شيء، فأعطاه قوانينه التي بها يتابع مسيرته في الحياة. ثم اختار الصورة المثلى، وهي خلق الإنسان، فنوه بها وفضلها. ابتدأ خلق الإنسان من الطين صورة واضحة في آدم ﷺ، ثم قدر أن يكون نسل الإنسان من وحدة مأخوذة من مائه الذي في حد ذاته مهين لا قيمة له، إذ يعمل الإنسان على تطهير بدنه وثوبه منه. ثم كان محل عنايته فبلغ به حد الكمال الخلقي، وأكرمه فسرى بحسن تقديره في جسمه القوة الروحية، ومكن الإنسان من إدراك المسموعات والمبصرات، وغرس فيه المشاعر وقوة الإدراك والتوليد.. ورغم ذلك

فالشاكرون من البشر قلة. والشاكرون لا يواصلون الشكر بمقدار ما يصلهم من نعمه.

إبراز المعنى العام:

1 الم.

يقال في فاتحة هذه السورة ما أثبتناه في سورة البقرة وما تلاها من السور التي افتتحت بحروف تقرأ مقطعة.

2 تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين

طرفا هذه الآية المفتتح بها: 1 المبتدأ - تنزيل الكتاب. 2 الخبر - من رب العالمين. وما توسط بينهما "لا ريب فيه" صفة للكتاب.

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ في مكة، ومعظم أهلها مصمم على الكفر رافض لكون القرآن من عند الله وحيا إلى رسوله، وهي نظيرة فاتحة سورة البقرة "الم ذلك الكتاب" واختلف الأسلوب مراعاة لحال المخاطبين. سورة البقرة نزلت في المدينة في مجتمع مؤمن. القرآن إمامهم مُميّز عندهم فلذلك أشير إليه "ذلك" وهو معلوم لديهم أنه من كلام الله. ولما المجتمع المكي فإن الغرض الأول هو تثبيت أن القرآن منزل أوحى الله به لرسوله. فهما أمران اهتم القرآن بتثبيتهما "تنزيل" و "من رب العالمين" ثم أكد صدقه بنفي الريب والشك أن يلحقه. وذلك استنادا إلى طبيعة نظمه وخصائصه التي تحدى بها المشركين فأعجزهم، فانتفى بذلك أن يلحقه شك في كونه موحى به. ونظر إلى المرسل إليه الحامل له والمبلغ لآياته، تبعا لما عرف به من الصدق ومن الاستقامة والأمانة، فانتفى عنه الكذب، وتحقق أنه منزل وحيا إليه. فنفي الشك عنه حسب طبيعته. وأما شك المشركين فيه فهوشك من فساد أنفسهم. إذ هم بين متيقن صدقه في نفسه، ولكن حظوظه الدنيوية منعته من الإقرار، وبين مقلد شك فيه لا عن نظر ولكن عن تقليد. فالعيب الذي تبعه الشك في الناظرين لا في موضوع النظر الذي هو القرآن.

3 أم يقولون افتراه...لعلهم يهتدون.

انتقال من وصف القرآن بانتفاء الشك فيه، إلى موقف المشركين منه، أبرزه في صورة التعجب. عجب منهم أن يقولوا وما كان من حقهم أن يقولوا ذلك لو كانوا يعقلون، قالوا: إنه كلام لا أصل له اختلقه محمد وزوره من عنده! مع أنهم عجزوا عن الاتيان بسورة من مثله لما تحداهم. وعلموا وصرحوا بأن محمدا هو الأمين.

أضرب القرآن عن متابعة تسجيل باطلهم تعجيلا بإظهار الحقيقة التي نوهها. إن القرآن الذي أنزل إليك هو الحق الخالص لا حق غيره، لا صلة بينه وبين الباطل

حتى يرتاب فيه شاك. وهو أكمل حق لأنه نزل عليك يا محمد من ربك. الذي رعاك وهيأك لتحمل الحق منه وإبلاغه. لقد اخترتك يا محمد لتنذر قوما صاحبهم الضلال أمادا طويلة. لم يأتهم رسول قبلك ينذرهم سوء العاقبة إذا هم أشركوا بالله، ولم يستقيموا في علاقاتهم مع الكون ومع أمثالهم. ومما ينبغي أن ينتبه إليه، أن الإسلام دين عام للبشرية موجه لها، فمعنى كونه نذيرا للعرب الذين لم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام ينذرهم، أنهم أنذروا ليستقيموا وينفذوا ما بلغهم رسوله من الدعوة إلى دين الله، وليتحملوا شرف تبليغ ما أنزل إليهم. الذي يتبعه أولا: الأجر على الاهتداء به " لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم" وثانيا ما يحق للهادي من تقدير وتكريم. إنه بفضل الإسلام والقرآن تحول العرب من قبائل متناحرة، إلى أمة نالت زعامة العالم قرونا، واختصت بأن ما حملته من الهداية لم يحرف، ولم يتغير عن الصورة التي نزل بها لا في قليل ولا كثير. فحق أن يكون هذا المنزل يصحبه رجاء الاهتداء به خاصا وعاما.

4. الله الذي خلق السماوات والأرض...أفلا تتذكرون.

ثبت لله سبحانه ما اختص به من العظمة والعزة، فانتفى عن الأصنام الأذلاء صفة الألوهية. الله الجليل: من عظمته أنه خلق السماوات والأرض وما بين السماوات والأرض من فضاءات لا يعلم مقدار أبعادها إلا هو. خلقها في ستة أيام. ما المراد بالأيام الستة ؟ من التحريفات التي أدخلت في التوراة: أن الله بدأ الخلق يوم الأحد، وانتهى منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، وهو من ضلالاتهم التي تقوم شاهدا على أن التوراة التي بين أيديهم لا ثقة بها. ذلك أنه ما تحقق وجود أيام الأسبوع إلا بعد خلق السموات والأرض ودوران الأرض حول نفسها في فلكها التي تسير فيه. فكيف يكون التقدير بشيء لم يخلق بعد؟ وسرى هذا التصور بل الوهم المناقض للحقيقة والمعقول إلى عدد غير قليل من المفسرين، ومنحت اختلافات: هل أن الله خلق آدم يوم الجمعة، وهل أن بداية الخلق كانت بيوم الأحد أو بيوم السبت؟ الذي يسمح أن يفهم من الآية أن الله خلق الكون خلقا مر بأطوار في أزمنة طويلة. قال تعالى: وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)[1] ومرتبة أعلى من خلق السماوات والأرض تسييرها والتحكم فيها وتطويعها لإرادته فلا تخرج عن النظام الذي قدره لها.

---

[1] سورة الحج آية 47

إن الله الذي خلق السماوات والأرض وسخرها مملوكة لجلاله لا تخرج عما قدره لها، لا أحد غيره متصف بالعز أيها المشركون حتى يستطيع أن ينصركم أو يشفع لكم، أو يحول بينكم وبين ما يصيبكم لو ما أنتم مؤهلون له. ما لكم لا تتدبرون ولا تعملون عقولكم لتتبين لكم الحقيقة؟

يدبر الأمر ...ألف سنة مما تعدون

اختص سبحانه بأنه لما خلق السماء والأرض وما بينهما لم يتركهما للمصادفة والتقلبات العشوائية، ولكنه سبحانه لف كل جزئية وكل كائن، ونظم بإحكام صلته بغيره.. وانتظامه في الوجود معه . ليسير الجميع في موكب واحد على نظام دقيق لا يختلف شأن مجرة من المجرات عن أي ذرة ظاهرة أو خفية. ولا يغيب عنه استجابة المتقين الصالحين، ولا تمرد الكافرين والمفسدين. فهذا الجانب التقديري الذي وسعه علم ربنا، ورتب الأسباب، وما يتولد عنها من مسببات.

وبجانب التقدير الأول للكون وما يجري فيه، فإنه سبحانه لم يهمل ما خلقه بعد ذلك. فإنه يرفع إليه أمر ما يتحقق في الوجود -وليس الرفع رفعا ماديا، ولكن ما يجري في الخلق، وما تدونه الملائكة الموكل لهم متابعة التطورات والأفعال، يقدم إليه من الموكَلين .كما يقال حسب العرف اللغوي المراعى فيه الأدب، رفع الأمر الفلاني إلى القاضي أو إلى رئيس الجمهورية. على معنى أن القضية تمت إجراءاتها، وعرضت على المقام العالي في القضاء، أو في المنصب السياسي . فهو رفع معنوي لا رفع مكاني. وتنص الآية على أن هذا الرفع يتم في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ولما عرضت الآية شأنا من شؤون الخالق القديم الأبدي المنضمن. رفع تحقق ما تحقق على النحو المقدر مقدسا، فإن تصوره على التدقيق بواسطة التأويل، لا أراه مستقيما، فأقول : الذي أفهمه من الآية أن الله لا يخفى عليه خافية من حوادث الكون، أو أفعال المكلفين، وأن هذا العرض على جلاله من ملائكته يرفع إليه تباعا ويصل إلى علمه بمجرد ما يحدث، فيكون مجموع ما يعرض عليه مستغرقا لألف سنة حسب حسابكم. ولما كان الألف هو نهاية العدد فهو يطلق على الكثرة غير المحدودة بوحدات الألف. فعلمه أزلي أبدي، وعمل الملائكة رصد ما هو خفي عنهم قبل حدوثه، وتسجيله عند حدوثه، ورفعه إلى جلاله لا ليفيده علما، ولكن الحكمة اقتضته. وهو من المغيبات التي لا نتجاوز فيها ما يدل عليه النص القرآني، إذ الإضافات إسقاط من المخلوق الناقص المحدود على شؤون الخالق الكامل المنزه أن تحيط به حدود.

6. ذلك عالم الغيب و الشهادة العزيز الرحيم.

ذلك، المشار إليه الحاضر الذي لا يغيب، هو المتفرد بعلم ما غاب عن علم المخلوقات، وما هو حاضر مشاهد لهم. فذكر الشهادة بجانب الغيب إشارة إلى أنهما سواء بالنسبة للذات الإلهية، فعلمه بما يجري على الكائن في المستقبل لا يختلف عن علمه بما حدث وصدر للوجود . ويدل دخول كل الكائنات تحت قدرته وخلقه على عزته، وعدم حاجته لعون من أي كان، ولا يحول بينه وبين تنفيذ إرادته أي حائل. وتظهر رحمته في أنه يجزي أفضل مما عمله العامل الصالح، ولا يعاجل بالعقوبة، فرحمته تشمل الصالحين وغيرهم.

7-9، الذي أحسن كل شيء....قليلا ما تشكرون.

تتابع ذكر ما يختص به الله مما هو من مقتضيات الألوهية المتصفة بالعزة. إنه وحده الخالق، وكل ما خلقه لا يعاكسه بل ينقاد إليه، وأودع فيه من القوانين التي كان بها على أكمل وجه في جنسه ونوعه. إن قوانين الخلق الثابتة هي التي مكنت الإنسان من معرفة ما تيسر له من أسرار الخلق، ولو كان الخلق فوضويا بدون نظام وبدون قواعد مضبوطة، ما استطاع الإنسان أن يحقق الخلافة التي أوكلت إليه. فأول مراتب إحسان الخلق هو النظام. ثم إنك تجد في كل نوع ما يستطيع أن يواصل به الحياة ويدافع عن نفسه، ويحفظ استمرار نوعه بالتوالد؛ وهي جوانب ما زال العلم يكتشفها شيئا فشيئا، وكلما تقدم في المعرفة تأكد لدى الباحث والمتابع تفرد الله بالخلق والتدبير .

ويخلص القرآن من هذا الحديث العام إلى الإنسان، فتابع الصنع العجيب فيه .

أولا : خلقه من طين، إن تحول الطين إلى الإنسان السوي، الذي لا تستطيع أن تتأمل في بعض أجزاء خلقه حتى تعترف بحسن الخلق الدال على الخالق العظيم. انظر إلى العيون مثلا في أشكالها، وألوانها، وأهدابها، ونفاذها إلى عمق الناظر والمنظور، وتجاوز ذلك إلى التركيب المادي لها، الذي ما يزال الطب يواصل اكتشافاته وما زال بعيدا عن اليوم الذي يقول فيه: أدركت كل الأسرار. كيف تحول الطين إلى الإنسان الذي تشكل أولا في آدم إلى ذلك الصنع العجيب في كل جزء من أجزاء التركيب الإنساني ؟

ومرتبة أخرى فوق ذلك: إن تواصل الوجود الإنساني، وخلف الأجيال لبعضها تم بما انسل وانتزع من الماء الذي يفرزه الذكر فيفوز واحد من بين مائتي مليون يبعثها الذكر في كل دفقة، بالاستقرار في البييضة التي تفرزها المرأة فيخصبها. هذه هي السلالة المأخوذة برفق من الماء المهين، الذي لا يصان ولا يحتفظ به،

ويقوم الإنسان على تخليص ثيابه وبدنه من التلوث به. فأي فرق بين وضع المخصّب الذي هو مبدأ الإنسان الجميل المكرم، وبين باقي الماء الملوث الذي يتطهر منه ؟

ثم بعد مرحلة التلقيح أتم خلقه بتطورات عجيبة، يظهر في كل طور ما هو كامن فيه إلى أن يتخلله ذلك السر الذي يصبح به قابلا للمعرفة، ومجاوزة المحسوس إلى المجردات مما هو وراء المادة. عبر القرآن عن هذه الطاقة المنبثة في الإنسان بقوله تعالى: ونفخت فيه من روحي- ظلال هذا التعبير أن القدرة الإلهية تجعل الروح سارية في الإنسان مع لطف بالغ، سريان الهواء عند ما ينفخه النافخ. وهو تصوير بديع يقرب المفهوم إلى الإدراك البشري، فإن الروح من أمر ربي، هو الذي يعلم كنهها. فمعنى من روحي: أي من الروح التي هي ملكي. كقوله: رزقي، وليحذر التالي أن يظن أن الروح جزء إلهي، فالله سبحانه منزه عن التجزؤ.

وعطف القرآن على نفخ الروح انه قدر أن يمكن الإنسان من قوى الاحساس التي تصله بالعالم الخارجي: السمع والبصر، وكذلك القدرة على استخلاص المفاهيم من المحسوسات، والمشاعر التي تجمع بين الفعل والانفعال في العلاقات.

وختمت الآية بالتنبيه إلى أن هذه النعم المتتابعة، والمتجددة التي بها سما الإنسان عن بقية الحيوانات، تفرض عليه أن يكون مواصلا لشكر المنعم سبحانه، ولكن المعترفين بفضل الله قلة، كما جاء في قوله تعالى : وقليل من عبادي الشكور)[1] كما أن بعض الشاكرين مقصر في القيام بشكر المنعم قولا وعملا.

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

---

[1] سورة سبا آية 13

بيان معاني الألفاظ:

ضللنا في الأرض: دخلنا في تركيب الأرض فتلفنا فيه وأصبحنا أجزاء لا تعرف.

جديد : المحدث.

التوفي : الإماتة.

المجرمون : الكافرون.

ناكسوا رؤوسهم: مطأطأة مما ينبئ بما هم عليهم من الذل .

الجنة بكسر الجيم: الشياطين من الجن.

ذوقوا: تعذبوا عذابا يقارنه شدة الإحساس به.

النسيان : الأول بمعنى الإهمال. والثاني بمعنى الحرمان من العفو والكرامة.

بيان المعنى الاجمالي:

تسجيل لضلال الكافرين بعد أن أقام عليهم الأدلة المقنعة بقدرة الله وإحكامه للخلق. بعد كل ذلك عوض أن يدخلوا في جماعة الإيمان، أعلنوا أن ما سمعوه لا يقبلونه، ولا يصدقونه. كيف يعودون إلى الحياة من جديد بعد أن تتحلل أجسامهم في الأرض فتضيع فيها. إضراب عن كلامهم وطرح له، فالحقيقة أنهم متصلبون في الكفر، جاحدون للبعث جحدا لا تهديهم الأدلة. قل لهم: إن الحكمة التي بنيت عليها تمرون البشر: أن الله وكل بكل نفس ملك الموت الذي ينتزع كل روح من صاحبها، ثم يعيدها إليه عند البعث.

ومشهد فظيع لو تراه أيها الإنسان، مشهد الكافرين وقد نزل عليهم الذل والصغار فتدلت رؤوسهم على صدورهم، تحت سلطان ربهم، يقولون ربنا : إننا تحققنا ما كنا نشك فيه، رأيناه وسمعناه، فزال كل شك من نفوسنا وحل اليقين بصدق الرسول وبصدق يوم البعث. فارجعنا ربنا إلى الحياة الدنيا حتى نحيا حياة استقامة وصلاح.

اعلموا أن حكمتي اقتضت أن أخلق البشر ليعمروا الأرض، ومكنتهم من العقل، ثبتُ فيهم الغرائز، وأعنتهم على الهدى بالرسل المبلغين والمبينين. ولم نخلقهم مقسورين على الخير، بل هم مختارون مسؤولون مجزيون. وبذلك يتحقق لكل فريق ماله، فللجنة أهلها، وتمتلئ جهنم بالكافرين الفسقة من الإنس والجن.

ويتوجه الخطاب بعد ذلك إلى أولئك الداعين للعودة إلى الحياة الدنيا، يقال لهم خطاب مهانة: واصلوا الإحساس الشديد بالعذاب، بسبب إهمالكم الاستعداد ليوم القيامة. فقد حرمتكم من رحمتي حرمان الشيء المنسي المهمل . ذوقوا عذاب موصولا أبديا لا يرفع عنكم، بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا.

بيان المعنى العام :

10. وقالوا أئذا ضللنا...بل هم بلقاء ربهم كافرون.

بعد أن بينت الآيات السابقة دلائل التصرف الإلهي المحكم في الكون، وفي الإنسان الذي يرفع غشاوة الضلالات، ويدفع الكفر، فإن مما يتعجب منه أن الكافرين تصلبوا في كفرهم، كأنهم لم يسمعوا تلك الأدلة البينة، وقالوا: عجبا لما استمعنا إليه! إنا إذا متنا وتحللت أبداننا أجزاء، وتداخلت في الأرض بصفة لا يمكن أن تتميز، أن نعود والحالة هذه إلى الحياة، فنخلق خلقا جديدا.

لنتحول عن كلامهم وما قالوه، فإن إنكارهم للبعث ليس ناشئا عن دليل، ولكن الداء الذي أفسد تفكيرهم، وبالتالي جميع استنتاجاتهم : أنهم مصممون على الكفر جاحدون جحودا لا خروج منه للبعث ولقاء الله يوم القيامة.

11. قل يتوفاكم ملك الموت...إلى ربكم ترجعون.

تعجبوا من بعث الأجساد بعد تحللها وضياعها في التراب، فأمر النبي ﷺ أن يجيبهم: قل لهم يا محمد: إن نهاية حياتكم ليست كما تظنون أن الإنسان يتحول من الحياة إلى الموت لينتهي من الوجود. إن تصوركم هذا تصور خاطئ، الموت مرحلة قدرها الله تقديرا دقيقا، ووكل ملك الموت بقبض روح ابن آدم. ولما كان الموت ليس ضياعا، ولكنه انتقال الروح من جسم ابن آدم إلى الملك الذي يحتفظ بها إلى الأجل، فإنه يعيدها للجسم الذي أخذها منه لتعودوا إلى ربكم، فيجزيكم عما قدمتم.

12. ولو ترى إذ المجرمون...إنا موقنون.

منظر رهيب، معروض يراه كل راء ويبصره كل مبصر، هو مشهد الكافرين المكذبين، وقد نكست رؤوسهم فتدلت لثقلهم على صدورهم من الذل والخزي .تحت سلطان ربهم وقد سلبوا كل قدرة واختيار. لا تسمع منهم إلا كلاما واحدا يعبر عن الندامة والاعتراف، يقولون: ربنا أبصرنا أن كل ما وعدنا به الرسول حق، وأن البعث حق وإنكارنا له ضلال، وأن الرسول صدقنا ما أنذرنا به. وسمعنا من التقريع، ومن ندامة أمثالنا على ما فرطوا في دنياهم. ربنا إنه حصل لنا اليقين بأنك حق وأن البعث حق، وأن رسولك صادق في كل ما أخبر به، ندعوك أن ترجعنا إلى الحياة لنظهر ما نحن موقنون به، ونقلع عن الكفر والعناد.

13. ولو شئنا لآتينا كل نفس...والناس أجمعين.

بعد أن عرض في الآية السابقة مشهد المجرمين الناكسين الداعين للعودة إلى الحياة ليعملوا صالحا، أعقب ذلك بهذه الآية التي تفيد التقدير الإلهي الحكيم في خلق

الشر. إنه سبحانه لم يخلق البشر مضطرين إلى فعل الخير منصرفين عن الشر من ذواتهم، أو من الأدلة الملجئة، ولكن حكمته تعلقت بتمكين الإنسان من عمارة الأرض، مستعينا في ذلك بما رزقه من قوى العقل، والمشاعر، وما غرسه فيه من غرائز. ثم أعانه على الاستقامة وطرد الشبه، والتعرف على ما هو مغيب عنه مما لا يصل إليه بقواه العقلية وحدها، أعانه بإرسال رسله بالبينات والهدى، وجعله مكلفا باتباع الخير والابتعاد عن الشر مجزيا عن فعله الذي أقدم عليه باختياره، فلم يحمله بالقوة على الخير، ولم يصرفه بالقوة عن الشر. هذه إرادة الله ومشيئته التي خلق عليها الخلق. وقدر بحكمته أن يكون مآل المستقيمين في العقيدة والسلوك إلى دار الكرامة الموافقة للطهارة التي كانوا عليها. كما قدّر أن يكون مآل الكافرين الفاسقين من الجنة والناس إلى مقر العذاب والمهانة المناسب لما كانوا عليه في الدنيا من الشر والفساد.

14- فذوقوا بما نسيتم لقاء...بما كنتم تعملون.

بعد أن قررت الآية السابقة ما بنى عليه خلق الإنسان من التكليف، ومن إعانته على الهدى، وما انتهى إليه كل ذلك من المسؤولية، اتجه إلى مخاطبة الكفار الأذلاء الطامعين في العودة إلى الحياة الدنيا. أجابهم عن دعائهم العودة إلى الدنيا فأسمعهم جوابا ما كانوا ينتظرونه: تحملوا أشد أنواع الإحساس إيلاما ذوقوا بسبب إهمالكم التفكير في ملاقاتكم هذا اليوم، فاطمأننتم إلى عدم تحققه. إنا أهملناكم وحرمناكم من رحمتنا. وأعلنت الآية ما يترتب على حرمانهم من الرحمة حرمان من يُهمل فلا يُتذكر .واصلوا تحمل ما يسلط عليكم من عذاب لا يرفع عنكم أبدا، وذلك جزاء وفاق لما كنتم تعملون في الدنيا، ولما اخترتموه من منهج حياة.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ

عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (22)

بيان معاني الألفاظ:

خروا: هووا من وضعهم نحو الأرض.

سجدا: بوضع الجبهة على الأرض.

المضاجع : موضع الاضطجاع.

الفاسق : في الآية والكافر.

المأوى : المكان الذي سيعودون إليه في الآخرة .

نزلا: النزل ما يقدم للضيف من القرى .

بيان المعنى الإجمالي:

نوه القرآن بالذين آمنوا بآياته وعرض خصائصهم:

1) إن تأثرهم كبير عند ما يذكرون بآيات القران، يصل بهم التأثر أن يخروا على الأرض ساجدين لله.

2) تطهرت نفوسهم من داء الكبر.

3). يتركون مضاجع نومهم ويستيقظون للتقرب إلى ربهم بقيام الليل.

4) يبتهلون إلى ربهم خائفين من أن يكونوا مقصرين، طامعين في عفوه.

5) يُقبلون على الصدقات والإنفاق فيما شرعه، شاعرين بأن ما رزقوه هو من فضل الله.

إن جزاءهم يتجاوز الوصف، ولا يستطيع الإنسان أن يتصوره، إذ كل ما يتصوره الإنسان مؤلف من مشاهداته في الدنيا، وحتى ما يتخيله هو مستخرج منها، وهي مبنية على النقص، والنعيم الأخروي على الكمال. بكلمة واحدة يبلغون درجة الرضا عما جازاهم به ربهم.

لا يستوي المؤمنون والكفرة الفاسقون. ويظهر الفرق بينهم:

أن الذين آمنوا بربهم وبرسوله وباليوم الآخر، وعملوا الصالحات ملتزمين شرع الله، يستحقون أن تكون الجنات مآلهم يوم القيامة، وهي التقدمة الكريمة التي أعدها الله لهم، وهم نزلاء رحمته فتبلغ كرامته لهم أن يغرس فيهم الإحساس بأن ما لاقوه هو جزاء حسن صنيعهم في الدنيا. وأما الذين فسقوا فإن مأواهم النار اللاهبة، ممَا يزيد في النكال بهم، إنهم كلما خيل إليهم أنهم خارجون منها تقمعهم الملائكة

فتعيدهم إلى شر ما كانوا عليه، ويقال لهم: هذه النار التي تحرقكم هي النار التي كنتم تكذبون الرسل إذا أنذروكم بها .

وسنسلط عليهم في الدنيا عذابا قبل عذاب يوم القيامة، لعلهم يتعظون به ويعودون إلى الإيمان. إنه لا ظلم أشد وأقبح من ظلم الذي ذكره الرسول بآيات ربه فلم يعد إلى الحق، بل أعرض عنها كأنه لم يسمعها. إنه مجرم وإنا سننتقم من المجرمين.

بيان المعنى العام :

15-إنما يؤمن بآياتنا ..وهم لا يستكبرون.

تابع القرآن في الآيات السابقة مواقف الكافرين من الهدى، وكشف مستحضرا مآلهم وما يلاقونه من عذاب ومهانة. وشأن القرآن أن يقرن بين آيات الإنذار بالعذاب، وبين آيات البشارة بالنعيم والتكريم. فابتدأ هذا القسم الثاني بتشخيص المؤمنين، وحصرهم حصرا يبوء بهم، ويعرف بمزاياهم .

أولا: أنهم إذا وقع تذكيرهم بما أنزله الله من آيات القرآن، وجدوا من قوة التأثر بما سمعوا أنهم يخرون ساجدين لله. فكلما أعيد على مسامعهم تلاوة آيات القرآن أشرقت أنواره في قلوبهم، كأنهم سمعوه لأول مرة، ويقرنون لوضع جباههم على الأرض تذللا وتقربا، انطلاق ألسنتهم بالتسبيح والتنزيه، والثناء على الله بما أنعم عليهم، من إنزال وحيه لهدايتهم. ثم أثنى عليهم بأنهم تطهروا من رجس الاستكبار، فلانوا لذكر الله، على خلاف الكافرين في مقابلتهم آيات الله بالإعراض، والاستكبار عن قبولها.

تنبيه :هذا موضع سجدة يظهر به المؤمنون أنهم على سنن الصحابة المنوه بهم.

16-تتجافى جنوبهم عن المضاجع...ومما رزقناهم ينفقون.

ثانيا: الصفة الثانية للمؤمنين المنوه بهم. أنهم يستيقظون أثناء الليل، ويفزون من مضاجعهم التي أخلدوا فيها إلى النوم، يتوجهون إلى ربهم بصلاة الليل، خائفين أن يكونوا قصروا فيما يجب عليهم نحو خالقهم من العبادة والتقديس، قامرين الخوف بالرجاء والطمع في عفوه ومغفرته ورضوانه ..

ثالثا: يستهينون بالمال في سبيل مرضاته فهم ينفقونه في التوسعة على المحتاجين وفي الأبواب التي شرعها لهم مستشعرين أن الرزق هو رزقه تفضل عليهم بما أتاهم منه.

17- فلا تعلم نفس ما أخفي ...جزاء بما كانوا يعملون.

وكما عرف القرآن بما ينتظره الكافرون من المهانة والعذاب (وترى المجرمون...) بشرت هذه الآية المؤمنين بأن ما أعده الله لهم من النعيم والكرامة

المادية والروحية، يتجاوز التصور البشري، الذي غاية ما يرسمه هو حاصل ما يستخلصه من مشاهداته ومن تخيلاته المنتزعة من المشاهد. ألمح القرآن إلى أن نعيم الآخرة هو أمر آخر لا تصل أي نفس لكشفه في الدنيا، خفي عليهم لأنه فوق طاقتهم، أفضل تعبير عن ذلك النعيم ما جاء في الحديث القدسي، قال الله عز وجل: أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر اقرأوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين - أي إن المنعمين يشعرون بأن ما تيسر لهم قد بلغ الغاية ينظرون إليه نظرة السرور والإعجاب، الأمر الذي أشبع أشواقهم وأرضى نفوسهم.

18-أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون .

يظهر القرآن الإشارة التي فهمت من العرض القرآني السابق، فيصرح بأن المؤمنين والكفرة الفاسقين الخارجين عن الإيمان بالله وتصديق رسوله، لا يستوون لا في عقيدة ولا في تصور للكون، ولا في سلوك. كل واحد يسير في خط معاكس للآخر، وبالطبع يختلف مآلهم، وما أعد لكل فريق من النعيم أو المهانة.

19←20:أما الذين آمنوا...عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

فصلت الآيتان، المفهوم من عدم المساواة:

نعمت الذين قرنوا إلى العقيدة الصحيحة، العمل الصالح الذي هو رشح تلكم العقيدة الحية المؤثرة في سلوكهم، فنشاطهم في الحياة يتم بتوجيه منها. إنهم تأهلوا لمنازل الكرامة في الجنات .هم ضيوف الرحمن يقدم لهم النعيم الفائق جزاء على أعمالهم الصالحة في الدنيا.

وثنت بالذين كفروا وخرجوا من حصن الإيمان، فالمحل المعد لإيوائهم يوم القيامة، النار اللاهبة، يضاعف لهم العذاب بقمع أطماعهم، فكلما هموا بالخروج منها، وخيل لهم أنهم سينجون من أليم عذابها، يعيدهم ملائكة العذاب إلى ما كانوا عليه، ويخاطبونهم خطاب الإذلال: ذوقوا وليكن إحساسكم بالعذاب بليغا، فهذه طبيعة النار التي كنتم تكذبون الرسل الذين أنذروكم جحيمها.

21. ولنذيقنهم من العذاب...لعلهم يرجعون .

وبكل تأكيد سنسلط عليهم أنواعا من العذاب قبل يوم القيامة في الدنيا، وهو العذاب الأدنى، وسوف لا يكون عذاب استئصال كما سلط على المكذبين الذين أبيدوا من الأمم السابقة. بل عذاب يتضمن تهديدا ينتفع به بعضهم ويرجعون من الكفر إلى الإيمان، ومن ذلك قتل صناديدهم في واقعة بدر، وفتح مكة، وسنوات الجدب والقحط .

22 - ومن أظلم ممن ذكر...من المجرمين منتقمون.

سؤال إنكاري مثير للانتباه: لا أحد أشد ظلما من الذي ذكره الرسول بآيات ربه الذي حباه بنعمه ومكنه من سماع آياته البينة. إنه عوض أن يهتدي بها ارتقى في ظلمه فأعرض عنها، هو ظلم الآيات إذ كذب بها، وظلم الرسول بتكذيبه، وظلم الناس بعمله على نشر الكفر، وظلم حق ربه عليه بطاعته لما دعاه إليه. إنه مجرم، ولا تسأل عن جزاء المجرمين، فهم معرضون قطعا لانتقامنا منهم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

المرية : الشك..

الأئمة : جمع إمام الذي يقتدى به، وأصله خيط البناء.

الفصل : القضاء والحكم..

يهد لهم : يبين لهم.

السوق: الدفع من خلف .

الجرز : التي انقطع نبتها بالجفاف .

بيان المعنى الإجمالي:

تسل يا محمد فقد أعطينا موسى الكتاب، فلقي من فرعون وقومه البلاء الشديد، فلا تكن شاكا أنه يصيبك مثل ما أصابه. وأنه فاز بنصر الله له فجعل الله كتابه هدى لبني إسرائيل. وكذلك الأمر بالنسبة لك فأبشر بأن الله ناصرك ومثبت للدين الذي تدعو إليه.

وإنه قدر سبحانه أن يكون بعض علماء بني إسرائيل أئمة يقتدى بهم، بسبب صبرهم وثباتهم على الحق، وصبرهم على التعلم، وصبرهم على بث العلم في صدور الرجال، ولأنهم كانوا على يقين مما هم عليه، إذ لا ينجع الشاك المرتاب .

ثم إن المختلفين من بني إسرائيل بعد ذلك، سيوقفون بين يدي الله ويحكم بينهم بجزاء الصادقين وعذر المخطئين عن اجتهاد ومعاقبة المبدلين

ما للمشركين لم يعتبروا بما نفذناه من إهلاك القوم الذين كانوا قبلهم ؟ لقد بلغتهم أخبارهم، والمسافرون منهم يمرون على مساكنهم، ففي مشاهد تدميرهم أدلة واضحة على سوء مآل المكذبين لرسل الله، وفي الأخبار المتكررة ما يقوم دليلاً للسامعين فلماذا لم يسمعوا ؟

ومن ناحية أخرى فما بالهم لم ينظروا في التصرف البديع الدال على القدرة والبعث: أن الله يسوق السحاب سوقا يبلغ به الأرض التي أراد إرواءها بعد أن كانت قاحلة، فينبت ما نزل عليها من الغيث الحبوب غذاء للبشر، والكلأ غذاء للحيوان، ثم غذاء للإنسان، فتتم بذلك مواصلة حياته، أفلا يدلهم ذلك على البعث بعد الموت؟ ما لهم لا يبصرون آيات الله في الخلق؟

بيان المعنى العام:

23 ولقد آتينا موسى الكتاب ...لبني إسرائيل.

تؤكد هذه الآية أن الله مكن موسى من تلقي التوراة، وهذه الجملة مؤداها معلوم تكرر في القرآن، فينظر فيها على أساس أنها مقدمة لما يرد بعدها" فلاتك في مرية من لقائه" فتكون جملة ولقد آتينا موسى الكتاب يستحضر معها النبي ﷺ ما لاقاه موسى من فرعون وقومه. ويكون تحمل المرسلين لصنوف الإذاية، والتكذيب، والتصلب في الكفر منهج يتحد فيه جميعهم. وأن ما أنزل عليه من الآيات المادية كقلب العصا، وخروج يده بيضاء، وما تلا ذلك من الطوفان والجراد والقمل والدم والضفادع، كل تلك الآيات لم يبق بعد إظهارها إلا التوراة. كن واثقا أشد ما يكون الوثوق أنك ستلقى أنواعا مثل ما لقيه موسى؛ فلا تكن في مرية من لقائه، أي من لقاء كلقاء موسى من الرفض والتدبير للإذاية. وأن موسى بقيت هدايته بفضل الكتاب الذي أنزل عليه، وأن شريعته استمرت من بعده فكانت هداية للناس بفضل الكتاب الذي أوتيه، وكذلك ستلقى مثل لقيه فسيبقى القرآن هداية للبشرية جمعاء، وسيكتب لك النصر على المكذبين من قريش، كما انتصر موسى على فرعون. وكما كان موسى هاديا لبني اسرائيل فجمع كلمتهم، وكون منهم أمة متميزة بمبادئها وتشريعها، فكذلك سيتحقق لك توحيد كلمة لمتك على الإسلام، وسيكون لهم دولة يرفعون فيها كلمة الله .

24.وجعلنا منهم أئمة...بآياتنا يوقنون.

أتم الله لبني إسرائيل أن جعل من علمائهم من تحمل مهمة الهداية، بنشر العلم ومحاربة الضلال، فكان هؤلاء العلماء أئمة يتأثر بهم الناس ويسيرون على ما يهدونهم إليه، ويحترمونهم. تحقق لهم ذلك لما جمعوا موجبات القيادة العلمية: الصبر على الأذى لالتزامهم بالحق الذي علموه، وعدم المصانعة فيه، والصبر على تلقي العلم وتحمله، والصبر على بثه

في الناس. ولأنهم طردوا الشك من نفوسهم وعمروها باليقين الذي أكسبهم الثبات. وتومئ هذه الآية بالبشارة لرسول الله ﷺ :أنه سيكون من أمته من يحمل العلم الذي جاءه من ربه، وينجحون في مواصلة الهداية للناس .

25.إن ربك هو يفصل....فيما كانوا فيه يختلفون.

التنويه بأئمة الدين الإسرائيليين، الذي سجلته الآية السابقة، يثير سؤالا: كيف ينوه بهم وهم قد اختلفوا اختلافا حذرنا الله من الوقوع في مثله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات﴾[1] أجابت الآية بأن اختلافهم سيلقون جزاءه يوم القيامة، بحكم فاصل من الله، يجزي القائم على الحق، ويعذر المجتهد المخطئ، ويعاقب من غلب هواه فحرف الشريعة أو كتمها. وفي ذلك تنبيه لعلماء الأمة الإسلامية، أن الله سيجزيهم عن اجتهادهم على سنة العدل الإلهي.

26.أولم يهد لهم كم ..أفلا يسمعون.

تفتتح الآية باستفهام إنكاري تعجبي :عجب ! كيف لم يحصل لهم (الكافرون المجرمون) البيان الرافع لكل شك واحتمال، بما عرضه القرآن من أدلة على أحقية البعث، فيؤمنوا به وينتهون عن الجدل فيه، ولم يحصل لهم الإيمان بما تدل عليه مصارع المكذبين، الذين تناقل الناس أخبارهم فاشتهرت بما يفيد اليقين، وانضاف إلى الأخبار أن المشركين يمرون في مساكن المهلكين، فتنطق لهم آثار دمارهم بما حل بهم ؛ فيدلهم ذلك على أنهم مُعرَّضون لمثل ما أصيبوا به. ودلالة الآثار على العبرة لا تتحقق إلا بالنسبة للمسافرين الذين مروا على ديار لوط وثمود. فلذلك ختمت الآية بقوله:﴿أفلا يسمعون؟﴾ للإشارة إلى أن خبرهم عام بلغ كل أذن، فما لهم لا يسمعون السماع الذي يفضي بهم إلى الاعتبار.

27.أولم يروا أنا نسوق الماء..أفلا يبصرون.

إثارة لانتباه المجرمين المكذبين بالبعث ليكون دليلا على تحققه. وهو استفهام إنكاري، ينكر عليهم أنهم لم يشاهدوا مشاهدة تهديهم إلى الاعتبار، هذا التدبير الكوني، أن الله يسوق السحاب سوقا يبلغ به الأرض التي ذهب نبتها وأمحلت، وتجرد أديمها من الخضرة، فينزل عليها الماء من السحاب الذي ساقه، فيخرج به زرعا من القمح والشعير والقطاني، مما يكون قوتا للبشر يحفظ عليهم حياتهم، ويخرج به كلأ تأكل منه أنعامهم فيتولد منه اللبن واللحم الذي يقتاته الإنسان فيحيا

---

[1] سورة آل عمران آية 105

به أيضا. هذه صورة متجددة، ما لهم لا يبصرون صنع الله في إحياء الأرض بعد موتها، ثم في تدخل ما تنبته في الحياة، فيعلموا أن البعث حق ؟

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝﴾

بيان معاني الألفاظ

الفتح : نصر المؤمنين.

الانتظار : الترقب.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن عرّاهم القرآن من جميع حججهم ولم يبق عندهم ما يردون به أنوار الإيمان، التجأوا إلى السخرية والاستهزاء، فقالوا للمؤمنين: أخبرونا متى سيأتي اليوم الذي تنصرون فيه ؟أجبهم يا محمد قل لهم: يوم الفتح هو اليوم الذي لا ينفعكم فيه الإيمان، وتطلبون فيه أن تؤخروا لإصلاح ما أفسدتموه عقيدة وعملا، فلا يستجاب لكم. أعرض عنهم إعراض من لا يتأثر بشغبهم. وانتظر اليوم المحقق الذي سيحاسبون فيه، وإنهم مؤخرون إلى ذلك الأجل ينتظرونه فيحق عليهم الوعيد.

بيان المعنى العام :

28.ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين.

كان الصحابة رضوان الله عليهم، بما هم عليه من يقين يتحدثون الكافرين، بأن الله سينصر دينه، وسيهزم أعداءهم. وكان الكافرون يستهزئون بهم، عاملين على بث اليأس في قلوبهم، فيسألونهم استبعادا: متى سيكون هذا اليوم الذي سيحقق لكم فيه نصره ؟ ومن وقاحتهم تشكيكهم في نصر الله لأوليائه بقولهم: (إن كنتم صادقين). أي إنهم يرجحون أن هزيمة الكفر وأهله بعيدة عن الوقوع).

29. قل يوم الفتح...ولا هم ينظرون.

أجبهم واثقا باعتبار أن هذا الأمر وحي من ربك وأمر لك بقمعهم: يوم الفتح هو يوم الفتح الحق الذي لا شك فيه، خاصته أنه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم، هو اليوم الذي تنكشف لكم الحقيقة واضحة فتدركونها، وتعلنون إيمانكم، وتتطلبون التأخير لإصلاح ما أفسدتموه، وتستقيمون عقيدة وسلوكا. فيرفض إيمانكم كما رفضتموه في الدنيا، ولا تؤخرون ولو يوما ،جهنم تنتظركم .

30. فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون.

تتابعت الحجج البينة المفحمة التي لم تُبق لهم متمسك بما هم عليه من الكفر والشرك. فأمر النبي ﷺ أن يعرض عنهم، إعراض الواثق بنفسه الذي لا يتأثر بشغبهم، لما وصلوا في محاجتهم للمؤمنين، أنه لم يبق لهم في جعبتهم إلا السؤال عن اليوم الذي يتحقق فيه الوعيد. فانتظر يا محمد اليوم الذي ترى فيه ما وعدك به ربك وما أوعدهم، وإنهم في حقيقة حالهم بصدد انتظار مآلهم الخاسر. فلا تبتئس، وابشر .

27 ربيع الثاني 1434 - 09 مارس 2013

ســــورة الأحزاب

هذا هو الاسم الذي عرفت به عند كتاب المصاحف، وفـي كتـب التفسـير. سـميت بهـذا الاسم لأنها فصلت أخبـار أحـزاب مشـركي مكـة والمتحـالفين معهـم، لمـا قصـدوا الهجوم على المدينـة فـي عشـرة آلاف مقاتـل. فـرد الله كيـدهم وكفـى الله المـؤمنين القتال. وهي سـورة مدنيـة. ورتبتهـا حسـب ترتيـب المصـحف الثالثـة والثلاثـون، والتسعون حسب ترتيب النزول. نزلت قبل سورة المائدة وبعد سورة الأنفال.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ

الوكيل : القائم بالأمر المغني عن الموكل.

أدعياءكم : جمع دعي وهو الولد الذي نسبه أب غير أبيه لنفسه .

السبيل : الطريق الذي لا يضل سالكه.

أقسط : عدل، بل هو العدل الكامل.

جناح : إثم

بيان المعنى الإجمالي :

يا أيها النبي المكرم اثبت على ما أنت عليه من التقوى، واستحضار صلتك بالله ربك في كل قول أو فعل. وتيقظ لما يعرضه عليك الكافرون والمنافقون، فلا تسارع بطاعتهم فيما يدعونك إليه، فإنهم يصدرون عن خبث وغش. إن الله متصف بالعلم الذي لا يخفى معه شيء، الحكيم الذي تتكشف له الحقائق على ما هي عليه. فهو سبحانه يعلم سرائرهم ويحميك بوحيه. والزم المنهج الذي فصله لك الوحي من ربك، إن الله لا يغيب عنه شيء من أعمالكم في ظاهرها وفيما يصحبها من نوايا. وأحسن الاعتماد على الله، فإنه الوكيل الكافي لمن توكل عليه.

ما جعل ربك في باطن الإنسان إلا قلبا واحدا، فدعوى بعض الجاهلين أن بين جنبيه قلبين دعوى باطلة لا أساس لها. وكذلك ادعاؤهم أنه إذا قال الزوج لزوجه: أنت علي كظهر أمي تنقلب زوجه أما، هو أيضا باطل وغير صحيح. وكذلك ادعاؤهم أن الرجل إذا نسب غيره إلى نفسه ينقلب بذلك ولدا له" التبني" باطل وغير صحيح. هذه الثلاثة لا تعدو أن تكون أقوالا لا صلة لها بالواقع، وكل قول يقوله اللسان ويخالف الواقع، كذب مرفوض. فقول الله هو القول الحق، وهو الذي يهدي الناس إلى الطريق الذي يبلغهم النجاح. وبناء على ذلك فأنتم مطالبون بنسبة هؤلاء الذين عرفوا بينكم بنسبتهم إلى غير آبائهم، بأن تدعوهم بنسب آبائهم، فإن جهلتم آباءهم، فانسبوهم إلى الأخوة : أخوة الإيمان، أو بطريق مولى فلان أو بني فلان بناء على ما كان متعارفا عندهم من عقد الولاء الرابط برباط التناصر لا النسب. ومن أخطأ بلسانه دون قصد انتهاك التشريع، فلا إثم عليه. إن الله موصوف بالمغفرة والرحمة.

بيان المعنى العام :

1-4: يا أيها النبي اتق الله... وكفى بالله وكيلا .

يخاطب الله في هذه الآية سيدنا محمدا مناديا له. وتكرر نداؤه في هذه السورة خمس مرات، وما نادى الله رسوله إلا بوصف الرسالة أو النبوة، وفي ذلك تشريف له وتثبيت كونه نبيا من عند الله، مبلغ، أمين على ما يوحى إليه. وهو تأديب اجتماعي في خطاب النبي ﷺ أولا، ثم في طريقة مخاطبة العلماء وأولي الأمر. إنه بمجرد ما ولي الخلافة سيدنا أبو بكر ﷺ خوطب من الصحابة: يا خليفة رسول الله، ثم حولها عمر ﷺ إلى: يا أمير المؤمنين حتى لا تطول بالإضافات مع الزمن. نعم من جفاء البدو أنهم يخاطبون ذوي الهيئات بأسمائهم. وما كان العرب ينادي بعضهم البعض إلا بالكنية لا بالاسم: يا أبا عبد الله، يا أبا القاسم: يا أبا صالح. ونحو ذلك. يقول الشاعر :

أكنيه حين أناديه لأكـــرمة *** ولا ألقبـه والســوءاة اللقبـــا

نادى الله نبيه ليقول له: 1) ليأمره : اتق الله – 2) وينهاه - ولا تطع الكافرين والمنافقين - 3) ويأمره باتباع الوحي الذي أتاه من ربه - 4) وأن يتوكل على الله .

1) أمر الله نبيه بقوله (اتق الله)، والأمر قد يكـون بإحـداث مـا طلبـه الأمـر، كقولـك لمن لم يصل: قم فصل. وقد يكـون بطلـب المخاطـب أن يثبـت علـى مـا هـو عليـه ويواصله، كما تقول للسائر في الطريق سر، وتقـول للمكـرر للحفـظ: كـرر. فدعوتـه تعالى لرسول امرا له بتقوى الله، هو تصـريح بأنـه راض عـن سلوكه يـدعوه للثبـات عليه ومواصلته، وليكون مهيئا لنهيه عـن طاعـة الكـافرين والمنـافقين، فيتـألف منهمـا: يا أيها النبي لا تتق إلا الله.

2) نهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين. تـألف خبيـث بـين الكـافرين والمنـافقين. كـانوا يتصلون برسول الله ﷺ، ويعرضون عليه في مكر وخبـث مـا تـامروا بـه فـي صـورة نصح له وللمسلمين، فـأمره الله أن لا يتبـع مـا يشـيرون بـه عليـه. ولا تطـع إلا مـا يأمرك به ربك، ذلك أنـه سـبحانه هـو العلـيم بحقـائق الأمـور وعواقبهـا، ومـا هـو الصلاح والخير، وهو الحكيم الـذي يعلـم العواقـب الصـالحة، ويهـدي إليهـا. وعنـى بقوله: ان الله كان: ثبت له الوصف ثبوتا أزليا أبديا.

3) تصريح بما يحقق ترك المنهي عنه بالقيـام بضـده. فـأمر ﷺ، والمؤمنـون تبـع لـه، باتباع وتطبيق ما يتلقاه من وحي مـن ربـك. وفـي التعبيـر بكلمـة مـن ربـك مـن المزايا التي كررنا لفت الأنظار إليها .وأتبع هـذا الأمـر بمـا يحـرض علـى الامتثـال، بأن الله يعلم ما تعملون. يعلم ظاهره، ويعلـم مبانيـه، ويعلـم مالاتـه. واعتمـد علـى الله مفوضا له أمرك، مقتنعا بأنه يكفل لك ما يعود عليـك بالسـعادة. ويكفـي الإنسـان توكلـه على الله الأمان والخير.

هذه الآيات الثلاث يؤكد بعضها بعضا، مما يوحي بأنهـا تعـدّ لمـا سـيأتي بعـدها مـن أحكام. في تشريعها تغيير لما استقرت عليه الأعراف قبـل ذلـك. هـي تقـوي المـؤمنين على طاعة الله وتطبيق شرعه، وعدم الالتفات إلى شغب المشاغبين .

4 ما جعل الله لرجل...وهو يهدي السبيل .

تنفي الآية وقد تردد، حتـى وثـق بـه النـاس. كـانوا يظنـون أن لبعضـهم، لنباهتـه ويقظته، وتعمقه في الأمور، يظنون أن له قلبين، بمعنـى عقلـين يسـعف أحـدهما الآخـر فيتجلى لصاحب القلبين ما لا يـراه غيـره. ومـن الأسـماء التـي حفظـت لنـا أصـحابها كان يعتقد فيهم أن لهم قلبين، جميل بن معمر بـن أسـد . وبلـغ مـن غـروره أنـه كـان يقول للناس: لي قلبان أعمل بكل واحد منهما عمـلا أفضـل مـن عمـل محمـد. وكـذلك

عبد الله بن خطل، المهدر دمه يوم الفتح. فجاء الوحي من خالق النفس البشرية: أن اعتقاد قلبين لإنسان وهم لا حقيقة له هيأ السامعين لإبطال ما تعودوا عليه في العلاقات الاجتماعية.

بعد بيان زيف من ادعى ما هو على خلاف قوانين الله وسننه في الخلق المادي، عطف عليه ابطالا ثانيا؛ حاصله أنه جرى العرف الجاهلي، أن الزوج اذا أراد تحريم زوجه تحريما أبديا يقول لها: انت علي كظهر أمي، يشبه عشيرانه لزوجه بمشيانه أمه وظهرها للسماء، وهي صورة وقحة تدل على صفاقة صاحبها، إذ يفترض أن علاقته بزوجه على أشد ما يكون من النكارة، مشبهة بعلاقته بأمه وهو يركب ظهرها لقضاء الشهوة. ولذا كان منكرا من القول وزورا كما سيأتينا في سورة المجادلة آية 2 - فحرم الله هذا القول، وحكم بأنه لا تنقلب زوجه أما بقوله، كزيف قوله إن له قلبين. وسيأتي مزيد بيان في سورة المجادلة التي فصل فيها أحكام الظهار.

بعد أن هيأ القرآن النفوس لرفض ما كانوا يقبلونه، ولا يرون فيه حرجا، مع أنه باطل، من كون الرجل له قلبان، ومن أن المظاهر تنقلب زوجه أما، أتى بالمقصود الأصلي مما هيأ له ووطأه: وهو إبطال التبني.

كان العرب في الجاهلية يقبلون أن يلحق الرجل أحدا بنسبه، مع أنه لم يتخلق من مائه، ولا صلة بين خريطته الحيوانية وخريطة المتبنى. فيصبح بعرف المتبني هذا ابني مرتبطا به يحمل نسبه ويتوارثان، ويكون لكل منهما للآخر جميع الحقوق والواجبات الرابطة بين الأب وابنه. وقد كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، قد وهبها ابن أخيها غلاما اشتراه اسمه - زيد- فوهبته أم المؤمنين لرسول الله ﷺ.

كان زيد طفلا في الثامنة من عمره، إذ اغارت خيل من تهامة فسبته، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد. تحرق أهله عليه، وأخذوا يتقصون أخباره حتى علموا بأنه مقيم في مكة، فقدموا وعرضوا فداءه على رسول الله ﷺ، وخير النبي ﷺ زيدا بين البقاء عنده تحت الرق، وبين أن يلتحق بأسرته، فاختار البقاء. وعندها أشهد النبي ﷺ قريشا أن زيدا ابنه، يحمل اسمه ويتوارثان. فرضي أهله بذلك وانصرفوا. وبقي زيد عضوا من أسرة النبي ﷺ، فلما أكرمه الله بالرسالة كان زيد من أول الذين امنوا به. إن هذه الصلة على قوتها التي بلغت أن زيدا اختار البقاء عند رسول الله عبدا على الالتحاق بأهله، وتعلق رسول الله به حتى أشهد الناس جميعا أنه يتمتع بكامل حقوق البنوة؛ قد جاء التشريع ليثبت صلة البر، وينفي صلة الدم

فالله ما جعل الأدعياء أبناء، وهو ما ستزيده بقية الآية بيانا. جمع القرآن الزيوف الثلاثة وأشار إليها بقوله: "ذلكم" - القلبان لرجل واحد - وانقلاب المظاهر منها أما - وانقلاب المتبنى ابنا - هذه الثلاثة ليس لها حقيقة في الواقع. وهي لا تعدو أن تكون أقوالا كاذبة مخالفة للحقيقة الخارجية . وهو معنى [قولكم بأفواهكم]. وما يصدر عن اللسان دون أن يكون مطابقا للواقع كذب لا قيمة له، ولا يترتب عليه حكم ولا صلة حقيقية. وكلام الله هو الكلام الحق، فكل كلام جاء على خلاف ما نطق به الوحي كلام مرفوض لا يعول عليه. والله يهدي الناس إلى السبيل الموصلة إلى الغاية الآمنة.

ادعوهم لآبائهم...وكان الله غفورا رحيما.

تصريح بالتشريع الجديد الرافع لما كانوا عليه. انسبوهم، عندما تخاطبونهم، إلى آبائهم، وتحولوا عما كنتم عليه في دعائهم باسم متبنيهم . ويتأكد الامتثال بأن ذلك هو العدل، وما كنتم عليه جور وباطل . هذا ما شرعه الله .

ثم فصلت الآية الفروض التي يتبعها عدم الالتزام بهذا التشريع، فمنها أن يجهل الداعي اسم والد الذي كان متبنًى، فأرشده القرآن إلى دعائهم برابطة الأخوة، اعتمادا على أن الإسلام عقد بين المؤمنين رابطة دينية هي الأخوة في الدين قال تعالى: {إنما المؤمنون إخوة}[1] أو برابطة الولاء الذي هو التحالف الذي كان معروفا بين العرب، ويمثل رابطة لا تفصل الحليف عن أسرته ولا تدمجه إدماجا نسبيا، ولكنه عقد يتبعه التناصر والتعاون فيدعى يا أخا فلان أو بني فلان، يا مولى فلان أو بني فلان.

ومنها الخطأ غير المقصود. لما كان التعود والربط حاصلا في النفس بين الذات والاسم الذي كان يدعى به المتبنى، فقد يسبق اللسان إلى ندائه باسم متبنيه، الذي يستدعي مستوى من اليقظة والانتباه في بداية التشريع، فلذا خفف الله على من يسبق لسانه إلى دعوة المتبنى باسم متبنيه بدون قصد المخالفة للتشريع الجديد، فرفع الإثم على المخطئ. وثبت لله صفة الغفران والرحمة، فلكونه غفورا يغفر ذنب من تاب وأناب، وبصفته رحيما يعفو عمن أخطأ أو جهل.

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إل

---

[1] سورة الحجرات آية 10

أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ
مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا
غَلِيظًا (7) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8)

بيان معاني الألفاظ :

أولى: أقرب.

الكتاب : كتاب الله

مسطورا: مكتوب .

الميثاق: العهد المؤكد.

غليظا : قوي.

ليسأل سؤال تقرير .

صدقهم : صدق الأفعال واستقامتها.

بيان المعنى الإجمالي

بيان لمنزلة رسول الله ﷺ في امته: إنه أقــرب وأنفــع للمــؤمنين مــن أنفســهم التــي قــد تضللهم، ولكن الرسول يقــودهم إلــى خيــريْ الــدنيا والاخــرة. ومقــام لزواجــه المقــام الرفيع، كل واحدة منهن لها من واجب التعظيم والتقدير مــا يجــب لــلأم مــن ولــدها، ولا يجوز أن يتزوج أحد ممن دخل بها النبي ﷺ.

إن المؤاخاة التي سنها رسول الله ﷺ، إثــر هجــرة الصــحابة مــن مكــه إلــى المدينــة، وعنده عقد مؤاخاة بين الأنصــاري والمهــاجر، يتبعــه إرث كــل منهمــا للآخــر، رفــع هذا الحكم، ورجــع الأمــر إلــى أن صــلة الــرحم أولــى بــالميراث مــن غيرهــا مــن الصلات، حكم مقرر في كتاب الله . لكــن تبقــى المواســاة فيمــا عــدا الميــراث حكمــا مقررا كالمساعدة بالمال، والإيصاء والتعاون . سطر الله ذلك مثبتا له في كتابه.

واذكر ذلك الوقت الذي أخذ الله فيه الميثاق المؤكد والعهد الملــزم، مــن النبيــين ومنــك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابــن مــريم، يتضــمن هــذا العهــد تبليــغ الــوحي وتبيينه وعدم قبول أي مساومة فيه .أخذ هــذا العهــد مــن النبيــين ومنــك يــا محمــد، ومن نوح أول رسول، ومن إبــراهيم أبــي الأنبيــاء، الــذي يــزعم العــرب أنهــم علــى هديه، ومن موسى وعيسى ابن مريم اللذين يــؤمن بهمــا أهــل الكتــاب، أخــذ الله عهــدا مؤكدا قويا، ليرتب علــى ذلــك انقســام البشــر إلــى فــرقتين صــادق مثــاب، ونــاقض معاقب، فيسأل الفرقــة الأولــى هــل صــدقت فــي القيــام بالعهــد؟ فتجيــب بالإيجــاب

ويغمرها النعيم والثواب. وأما الفرقة الثانية التي نقضت الميثاق فقد أعد لها العذاب الذي راعى فيه أن يكون مؤلما كأشد ما يكون الإيلام.

بيان المعنى العام :

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...في الكتاب مسطورا﴾

هذه قاعدة في بيان صلة المؤمن برسول الله ﷺ وبموقع أزواجه في الأمة الإسلامية، وبعلاقة المؤمنين فيما بينهم. فاشتملت على أمور :

الأمر الأول: أن النبي ﷺ أشد قربا لكل مؤمن من نفسه، فإذا كانت نفس كل فرد تسعى لما يعود عليها بالخير، وما يحقق سعادتها، فإن النبي ﷺ أشد حرصا على كل فرد من أمته من نفسه، وإذا كانت النفس قد تزيغ أو تضللها الشهوات فتفسد على الإنسان حياته، فإن رسول الله ﷺ أشد حرصا، وأعمق حبا من كل نفس لصاحبها . وهذا المعنى يبين وجه ما ذهب إليه بعضهم : أن أرجى آية في القرآن هي قوله تعالى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[1] قائلا : إن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار. وهذه الولاية توجب حرمته والصلاة عليه وحبه. ولا يقصد منها ميراث المال ،و قد قال النبي ﷺ : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك دينا فعلي قضاؤه، ومن ترك مالا فهو لورثته[2].

الأمر الثاني : أن أزواجه اللاتي دخل بهن لهن حرمة الأمهات، فيحرم التزوج بأية واحدة منهن، ولهن من التعظيم والبر والاحترام ما يحق للأمهات. ويستوي في هذه الناحية الرجال والنساء. ولا يتعدى ذلك لميراث، ولا للتزوج من بناتهن.

الأمر الثالث: أن علاقة الرحم الحقيقية تتقدم على المؤاخاة التي شرعها النبي ﷺ لما انتقل بأصحابه إلى المدينة المنورة. إذ آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فمما حفظ من ذلك: مؤاخاته بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد ،وبين الزبير بن العوام وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري، رضي الله عنهم. فتوارث المتآخون بتلك المؤاخاة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية . فيكون معنى الآية: أن الذين ثبتت لهم صلة بالرحم أولى من الذين ثبتت صلتهم بالجعل . فالأخوة النابعة من قرب الرحم أولى وأحق بالميراث من قرابة المواساة التي شرعها رسول الله ﷺ إثر الهجرة. وأكد هذا التشريع بأنه مثبت في كتاب الله. ويحتمل أن يكون المراد بقوله في كتاب الله: ﴿ألم [illegible]

---

[1] سورة الضحى آية 5

[2] متفق عليه ح 2707ج3 فيض القدير

وقوله تعالى: (من المؤمنين والمهــاجرين) متعلــق بــأولى. والتقــدير (وأولــو الأرحــام) أولى بإرث ذوي أرحامهم، من المؤمنين والمهــاجرين الــذين لا تــربطهم علاقــة رحــم، وذلك حسبما كتبه الله ووثقه في كتابه.

(إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا)، هذه الآية تســتدرك مــا يمكــن أن يتوهمــه متــوهم، أن الله لما قطــع التــوارث بالمؤاخــاة، أنــه قطــع الانتفــاع المتبــادل بــين المهــاجرين والأنصار على ما كانوا عليه مــن المواســاة. فأثبتــت الآيــة تواصــل مــا استقر مــن التعاون والود وحرص كل مؤمن على مســاعدة أخيــه المــؤمن بالمــال، وســائر أنــواع المعروف كالوصية.

ثبت هذا التشريع الوارد في هذه السورة تشريعا مقــررا، وثابتــا بالكتابــة ثباتــا لا يتغيــر ولا ينسى. فأكدت هذه الآية توثيقا للأحكام التي حولت ما ألفه الناس وساروا عليه

7. وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ...ميثاقا غليظا.

اذكر ذلك الظرف الخاص، الذي أخــذ فيــه الله تعــالى الميثــاق والعهــد الــلازم، مــن وثوقهم بأنهم على الحــق، و مــن تبليــغ وحيــه، وتبيــين أحكامــه ومقاصــده، وتأييــده بالحجج، ومجاهدة الرافضــين مجاهــدة لا تقبــل المشــاطرة أو التنــازل. أخــذ الله هــذا الميثاق من جميع النبيين، وأخذه منــك، ومــن نــوح وإبــراهيم وموســى وعيســى ابــن مريم. وفي هذا السرد عطف بعض أسماء النبيين، وهــم مــن هــم عنايــة بهــم، إبــرازا لفضل سيدنا محمد بتقديمه، وإلزاما للعــرب الــذين يــدعون أنهــم علــى ديــن إبــراهيم، ولليهود الذين يدعون أنهم على دين موسى، وللمســيحيين الــذين هــم مصــدقون لعيســى؛ لأن الميثاق يتضمن فيما يتضمن نصــرة الحــق وتأييــده . ورفضــهم لمــا أنــزل علــى محمد ومحاربته نقض للميثاق المؤكد. قال تعــالى (وإذ أخــذ الله ميثــاق النبيــين لمــا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصــدق لمــا معكــم لتــؤمنن بــه ولتنصــرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قــالوا أقررنــا قــال فاشــهدوا وأنــا معكــم مــن الشاهدين)[1] وأكد القرآن ذكر أخذ الميثاق بإعادتــه ووصــفه بالغلظــة، أي عظــيم جليــل الشأن.

8. ليسأل الصادقين عن صدقهم...للكافرين عذابا أليما.

ذكرت الآية علة أخذ الميثاق الغليظ، أخذنا علــيهم هــذا الميثــاق وبعثنــا الرســل بهــديها لكي يجعل الله خلقه فرقتين: الفرقة الأولى هــي الفرقــة التــي صــدقت فــي الأخــذ بمــا جاء به المرسلون، فيسألها ربها عن موقفها مما بلغهــا الرســول، فتجيــب بأنهــا آمنــت

---

[1] سورة آل عمران آية 81

وصدقت في تطبيق شرعه، والتزمت بهديه فيتكرم عليها بثوابه وحسن جزائه، وفرقة يسألها ليسجل عليها كفرها فيسلط عليها ما أعده لها من عذاب أليم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

جنود : الأول بمعنى الجيش المتحد، والثاني بمعنى جماعة الملائكة.

الحناجر : جمع حنجرة منتهى الحلقوم .

زاغت الأبصار : مالت عن مواضعها فلا ترى ما تريد أن تراه من شدة الهول .

الابتلاء : إصابة الشدة.

زلزلوا : انزعجوا انزعاجا شديدا. غرورا

غرورا: أطمعنا بما سيحصل خلافه .

عورة : غير حصينة.

بيان المعنى الإجمالي :

يا أيها الذين آمنوا تذكروا دائما النعمة الكبرى التي خصصتكم بها، في ذلكم الظرف الذي هجمت عليكم جحافل الغزاة، فعاجلناهم بإرسال ريح شديدة بعثرت بهم وبمعداتهم .وأوكلنا إلى ملائكتنا أن يزعزعوا ثقتهم في قواهم وأن يهزموهم نفسيا، فانهزموا وفروا، والله لا يخفى عنه شيء مما قمتم به للدفاع عن الإسلام فسيجزيكم من فضله.

لقد هجموا عليكم من الشمال ومن الجنوب وحاصروكم. كانوا لكثرتهم، وما صحبوه من خيل وإبل، وسلاح، قد استولت عليكم الحيرة به، فالأبصار تجمدت منحرفة تكاد لا ترى ما هو أمامها، وانقبضت قلوبكم انقباضة كادت بها تخرج من حلوقكم،

وداخلتكم الهواجس والتقديرات وسارت بكم الظنون في متاهات المستقبل. في ذلك الظرف اهتز المسلمون اهتزازا شديدا كأن زلزالا نفضهم نفضا. ويتحرك المنافقون يضاعفون تلكم الأحاسيس، فيتحدثون بأن ما وعدنا الله ورسوله من انتصار الإسلام وبلوغه سائر أقطار الأرض، ما كان إلا خداعا لا حقيقة له.

و يبرز في المشهد طائفة أخرى من المنافقين أشد مكرا، فينادون الأنصار: يا أهل يثرب، ليس لكم مقام يفنيكم في مواقعكم هذه، خير لكم أن تعودوا إلى منازلكم وأن تحموها وتدفعوا الشر عن أهاليكم وأموالكم. وتأتي طائفة أخرى من المنافقين، وقد تقاسموا الأدوار، لإرباك الصف المتلاحم حول رسول الله. يظهرون أنهم لا يتحركون إلا بأمره، ولكنهم يطلبون منه الإذن ليعودوا إلى منازلهم التي هي غير محمية ويخشون أن تذهب أموالهم وتسبى أولادهم ونساؤهم. وهي كذبة فضحهم القرآن: ليست بيوتهم معرضة للخطر.

بيان المعنى العام:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا...بما تعملون بصيرا﴾

ينادي القرآن المؤمنين ليقبلوا على سماع ما تضمنه خطاب الله إليهم. يطلب منهم أن يكون ما حدث حيا في نفوسهم حاضرا في ذاكرتهم. يتأملون فيما تضمنه مما عرفوه ومما خفي عليهم وأطلعهم الله عليه، ليأخذوا عبرة من صنع الله في الأحداث، ومن ألطافه التي تحف بهم، وأن القدر الإلهي قد اختارهم ليكونوا هداة العالم، وأنه ليفوزوا بالنجاح في هذه المهمة يبتليهم ليصفي الجوهر النفيس فيهم ويذهب عنهم الزبد ورجس الشيطان.

اذكروا وتملوا نعمة الله عليكم، وأنتم في راحة بال قد اطمأننتم وذهب عنكم الخوف، وبؤتم بالنصر المبشر بما يتلوه من الانتصارات. هي الذكرى التي أمروا أن يجددوها في مشاعرهم فتكون حاضرة موحية. هي انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب التي سوف لا أتتبعها كما سردها أصحاب السيرة والمؤرخون، ولكنني أتابع النسق القرآني المعجز.

هي نعمة عظيمة بسببت الله العظيم، نزلت عليكم فشملتكم تحت مظلتها تعلمكم لتكتسبوا منها ثقة في عزكم بالإسلام، وفي عناية ربكم بكم. نزلت عليكم النعمة في ظرف زماني شديد، وفريد بلغة القرآن: صورة في لمحة خاطفة، وممتعة، ومجسمة للظرف، كانت صورته المتحركة تتابع حضورها: هو الظرف الذي جاءكم فيه الجنود وأحاطت بكم. من هم الجنود الذين جاؤوا؟ وما هي الأسباب التي حركتهم للانقضاض على المدينة؟

قصد رؤساء قبيلة النضير اليهودية مكة، بما لهم من مكر، وبما ربّوا عليه حتى أصبح طبيعة لهم سائرة معهم إلى اليوم من قدرة يشعلون بها نار الحروب، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا[1] واتصلوا بالأحابيش، وهم بنو المصطلق وبنو الهون فحرضوهم على الوفاء بعهد حلفهم لقريش، وتألف من الجميع جيش بعشرة آلاف مقاتل وداخلوا قادة غطفان فجهزوا ألف مقاتل، صور المتآمرون من قادة يهود أن مناعة المؤمنين في المدينة مختلة، بما التزم به لهم إخوانهم يهود بني قريظة، أنهم سينقضون من الداخل بما يربك الصف الإسلامي، وأن هذه ستكون المعركة الفاصلة والناجحة ضد الإسلام .كان ذلك في سنة أربع من الهجرة على الصحيح . ولم يتعد القادرون على حمل السلاح في المدينة ثلاثة آلاف مقاتل، فميزان القوى في العدد شائل للمعتدين، وكذلك السلاح. هذه صورة: غزوة الأحزاب .عسكرت الجيوش محاصرة المدينة .تحصن المسلمون وراء خندق يحول بين الغزاة وبين المدينة بإشارة من سلمان الفارسي ، شارك في حفره رسول الله وجميع المسلمين، وانجزوه في أيام قليلة .. حصلت مناوشات قبل أن يحزم الغزاة أمرهم للهجوم، تصور الآية انقلاب الوضع سريعا، أرسل الله على المحاصرين ريحا عاصفة شديدة، قلعت الأوتاد وسفت الرمال تداخل العيون وتقلب القدور، ونفرت الخيول والإبل فهاجت يهشم بعضها بعضا، فهلك كثير من مراكبهم، وأرسل الله ملائكته ينفثون الرعب في القلوب، ويقتلعون الثقة من النفوس، ويغرسون الخوف، فنادى فيهم أبو سفيان بالرحيل وركب ناقته، ورد الله كيدهم في نحرهم، وكفى المؤمنين القتال، وسجل القرآن منوها بالجهود التي بذلها المؤمنون، في حفر الخندق، وتأهبهم للدفاع عن النفس والدين. فأعلن أنه بصير بما عملوه، كتبه وسيجزي عنه.

10 -11 : إذ جاؤوكم من فوقكم ...زلزالا شديدا.

بعد تلكم الصورة الجامعة بين البداية والنهاية، في لمحة خاطفة. يعرض القرآن تفاصيل ما حدث. فيفصل أولا قوله: إذ جاءتكم جنود – فيرسم أن العدو أطبق عليهم من فوق ومن أسفل، كأنهم وقعوا بين طبقتي الرحى الطاحنة، ثم يضيف وقع الوضع في النفوس، فالأبصار قد انحرفت والهة لا ترى ما تتوجه إليه، واضطربت القلوب اضطرابا يكاد يحس صاحبه أن قلبه سيخرج من مكانه عبر حنجرته، يضغط المشهد ضغطا قويا: صهيل خيول الأعداء ورغاء إبلهم، وصناديد

---

[1] سورة المائدة آية 64

قريش يتحدون معتزين بما معهم من آلات الحرب من السيوف والرماح، تمتد خيامهم مد البصر. أكثر من أحد عشر ألف مقاتل منتخبين. يا للهول ! كاثرهم العدو، وهم لا ينتظرون مددا من الرجال، ولا من السلاح . إنهم بشر. أخذ تفكيرهم يسير في شعاب التوقعات، والتوقعات السيئة حسب المعطيات الظاهرة غالبة، ويتساءل كثير منهم: هل إن الإسلام سيفتن فتنة عواقبها مجهولة، ما عساه يفعل بهم المشركون وهم يكادون ينفجرون من الغيظ ؟ وكيف بهم إذا اقتحموا المعركة فخانتهم قريظة والمنافقون في أموالهم واسرهم. تلبستت الظنون المظلمة . وهم وإن كان إيمانهم يصور لهم أن الله سينصر دينه لا محالة، إلا أن هذه معركة لم يتبين لهم فيها خيط الفرج.

في هذا الزمان وفي ذلك المشهد كان وضع المسلمين في شدة وكرب، زلزلوا، واضطربوا اضطرابا شديدا. وتبدو الصورة والمسلمون حسب تربيتهم وتبعا لثقتهم في ربهم، كأنهم الأرض بصلابتها وقوتها يأتيها الزلزال فيجعلها تضطرب اضطرابا شديدا.

12. وإذ يقول المنافقون...إلا غرورا.

عامل آخر ضاعف الشدة، هو تثبيط المنافقين، والذين لم يستقر الإيمان في أرواحهم، هم يتهامسون بينهم همسا لا يخفونه خفاء كاملا عن المؤمنين؛ يقولون لقد وعدنا محمد أن الله ناصر دينه، ستكون له الغلبة وسينتشر في العالمين (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون)[1]. ثم يصرحون متهكمين: ما وعدنا إياه وعد خادع والحاصل خلافه..

13. وإذ قالت طائفة منهم... إن يريدون إلا فرارا.

ومشهد آخر خطير من التخذيل يفتتحه القرآن ب (وإذ)، تأتي جماعة من المنافقين ومرضى القلوب فيواجهون المقاتلين وهم من وراء الخندق مرابطون دفاعا عن المدينة، وحماية لها، وهم على أتم ما يكون الاستعداد لمقاومة الغزاة، فينادونهم: يا أهل يثرب ! لابد من الوقوف قليلا عند هذا النداء الماكر، لا ينادونهم: يا أهل المدينة، بل يا أهل يثرب. ويثرب هو اسم المدينة قبل الهجرة، ولما حل بها رسول الله ﷺ سماها: المدينة. يذكرهم المنافقون بالاسم القديم ليثيروا فيهم الحنين إلى الرابطة السابقة للإسلام، وليحرضوهم في خفاء إلى العودة إلى أهلهم. فهم أهلها والمهاجرون غرباء. خاطبوا الأنصار بأهل يثرب وقالوا لهم: إن هو الحكم التي

---

[1] سورة الأنبياء آية 10

تقيمون فيها ليست مواقع صـــالحة لكـــم، خيـــر لكـــم أن تعـــودوا إلـــى منـــازلكم لتقومـــوا بحمايتها ولتصونوا نساءكم وأطفالكم وأموالكم. كل كلمة فيهـــا غـــش تكشـــف عـــن قلـــوب مشحونة بالبغض والدس.

وفريق ثالث من هـــؤلاء المنـــافقين يـــأتي للنبـــي ﷺ مظهـــرا أنـــه لا يتحـــرك إلا بإذنـــه، طلبوا منه أن يأذن له في الرجوع إلى منازلهم، متعللين كـــذبا بـــأن موقـــع ديـــارهم موقـــع غير حصين لا يـــأمنون أن يهجـــم الغـــزاة عليهـــا، فيســـتولون علـــى الأمـــوال ويســـبون النساء والذراري . كذبهم الله بأن بيـــوتهم محصـــنة بالخنـــدق الـــذي أوقـــف المهـــاجمين. وعزيمة الجيش الإســـلامي ومعنوياتـــه تحمـــيهم، وهـــم فـــي أطـــراف المدينـــة، فليســـوا معرضين أولا للغزاة. إنهم لا يضمرون إلا شيئا واحـــدا، هـــو أن يفـــروا مـــن المعركـــة، وأن يكون فرارهم فاتحا لخروج غيرهم من صـــفوف الجهـــاد، ومـــا كـــان فـــرارهم مـــن ساحة القتال بهذه التعلة إلا لما يحملونه من بغض وكراهية للإسلام .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17)

بيان معاني الألفاظ

قطر : الناحية .

الفتنة: فتنة المسلمين والكيد لهم بما فرق أمرهم.

التلبث : اللبث، والمكث.

لا يولون الأدبار : لا يفرون.

مسؤولا : محاسبا على الوفاء به.

العصمة : الوقاية مما يكرهه المعصوم.

ولي: يتولى نفعهم

بيان المعنى الإجمالي :

مما يحقق كذب المستأذنين، وقصدهم الفرار، أنه لـــو اجتاحـــت جيـــوش الأعـــداء المدينـــة من جميع جوانبها، ثم طلب الغزاة منهم أن يبثـــوا الفتنـــة فـــي صـــفوف جـــيش الإســـلام،

لفعلوا، وهم لشدة بغضهم للإسلام فإن الغزاة لا يبقونهم في المدينة إلا وقتا قليلا، إذ يستولون على أموالهم، ويأسرونهم. إنها ليست الأولى منهم فإنهم قد خذلوا المسلمين في غزوة أحد، ولما انكشف أمرهم، أظهروا الندم والتوبة وعاهدوا الله ورسوله أنهم لا يفرون في المستقبل. وإذا كان من شأن المنافقين أنهم لا يحفظون عهودهم، فإن عهودهم مع الله لابد أن يحاسبوا عليها، ولن ينالوا العقاب المناسب لغدرهم.

أيقظهم، وقل لهم إنكم تقدمون التبريرات الكاذبة، وتفرون من المعركة ظنا منكم أن فراركم يحفظ عليكم حياتكم فلا تموتون ولا تقتلون. وهذا تقدير سخيف وسذاجة، فإن كل فرد لا بد أن يلقى حتفه بالموت أو القتل. الحياة الدنيا قصيرة فانية.

قل لهم أيضا: من الذي يستطيع أن يحميكم من تصرف الله ؟ فإذا أراد أن ينزل بكم ضرا فمن الذي يمنعكم من عذابه ؟ وإذا أراد أن ينزل عليكم رحمته، فمن يستطيع أن يمنع وصولها إليكم ؟إنهم لا يجدون وليا يصل بينهم وبين النفع، غير الله، ولا يجدون نصيرا ينصرهم في حربهم غيره .

بيان المعنى العام :

14. ولو دخلت عليهم من أقطارها.....إلا يسيرا.

تكشف الآية عن دخيلة المستأذنين الذين كذبهم الله "وما هي بعورة" فتصرح الآية إنهم لكرههم للإسلام وبغضهم له، يكون موقفهم: أنه لو فرض أن الغزاة دخلوا المدينة من جميع جهاتها، فجاست خيولهم خلال جميع الديار التي منها ديارهم، ثم طلب الغزاة منهم أن يبثوا الفتنة في صفوف المسلمين، بما يلهيهم عن المقاومة لأسرعوا لذلك، لأنهم من شدة حقدهم يقدمون خذلان المسلمين على ممتلكاتهم وأهليهم. لقد أعماهم الحقد فهم لا يقدرون الأمور حق قدرها، إن أمنهم وكذلك حريتهم لا يضمنها إلا المسلمون الذين هم أوفياء بعهودهم، ولما الغزاة فإنهم لو انتصروا فإنهم يستولون على أموالهم ولا يبقونهم في ديارهم إلا وقتا يسيرا ثم يأخذونهم أسرى أذلاء. هذا ما أداه لي التأمل في نص الآية . وقد عبر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على صعوبة فهمها، ولم يرتض إلا بعض ما ذكره الزمخشري، وأن ابن عطية أوضح منه. وجميعهم حملوا وما تلبثوا بها على معنى: ما أبطأوا بالفتنة إلا يسيرا من الوقت . ويعلق الشيخ ابن عاشور: يظهر أنه تهكم بهم .

15. ولقد كانوا عاهدوا الله ...وكان عهد الله مسؤولا.

هؤلاء الذين استأذنوا وكشفهم القرآن، أنهم كذبة لا يريدون إلا الفرار، ثم فضحتهم هذه الآية، ذلك أن بني سلمة المستأذنين، قد خذلوا المؤمنين في غزوة أحد، ثم

أظهروا توبتهم وعاهدوا الله عهدا موثقا أمام الرسول وأمام المسلمين، عقب توقيفهم على تخاذلهم، أنهم لا يفرون في المستقبل لأي سبب من الأسباب. ثم إنهم في هذا الظرف العصيب الذي تداعت فيه قوى الشرك الباغي، وتألبت لكسر الإسلام، يولون الأدبار ناقضين عهدهم متعللين، وهم كاذبون بخوفهم على الأموال والذراري. إنهم منافقون وشأن المنافق أنه لا يرعى عهوده، ولا يهمه الوفاء بها. وما علموا أن عهد الله يحاسب عليه المعاهد حسابا يتبعه الجزاء المناسب لإخلاف الوعد.

16 .قل لن ينفعكم الفرار...لا تمتعون إلا قليلا.

كاشفهم بالحقيقة التي خفيت عليهم لظلمة النفاق المغطي بصائرهم وقل لهم: إن قصدتم بالاستئذان أن تحصنوا أنفسكم من الموت أو القتل، فأنتم واهمون. إن الفرار لا ينفعكم في تحقيق ما قصدتم، ولا يترتب على الفرار أي نفع لكم، وأن كل فرد يموت حتف أنفه، أو يقتل، ولا خلود لأحد. وأنتم لا تعلمون متى سيحل انتهاء حياتكم الدنيا، وليست على كل حال إلا أياما قليلة، شأن الدنيا الفانية.

17 .قل من ذا الذي يعصمكم...من دون الله وليا ولا نصيرا

عرِّفهم بأن الله مالك أمرهم يتصرف فيهم كما يشاء، ولا يشاركه أحد في تنفيذ ما قدره وأراده لهم .قل لهم من الذي يستطيع أن يمنعكم ويحميكم من السوء الذي قدر أن يسلطه الله عليكم ؟لا أحد. وكذلك لا أحد يمنعكم من نزول الرحمة التي قدرها لكم.

واعلم يا محمد أنهم لا يجدون من دون الله، من يتولى نفعهم، ولا يجدون نصيرا ينصرهم غير الله في الحرب، فما ينسجونه من الحيل لا يفيدهم شيئا.

۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ

المعوقين: الباذلين جهدهم لمنع المجاهدين، وتثبيطهم.

هلم: أقبلوا.

البأس: القتال.

الشح: منع المقدور على بذله من مال أو عون.

جاء: حصل.

الخوف: القتال.

تدور أعينهم: متقلبة في سرعة إلى جميع الجهات فكأنها حركة دائرية.

سلقوكم: رفعوا أصواتهم

حداد: نافذة.

يودوا: أصلها يحبوا، والمراد أنهم يسعون لتحقيقه، شأن المحب للشيء.

بادون: مقيمون في البادية.

الأعراب: سكان البوادي.

الأنباء: جمع نبأ وهو الخبر.

أسوة: قدوة.

بيان المعنى الإجمالي:

يسعى المنافقون بكل ما لديهم من مكر وتلفيق للأخبار، أن يؤثروا في المجاهدين تأثيرا يمنعهم من القيام بواجبهم. ومن ناحية ثانية يدعون من توثقت بهم الصلة إلى الإقبال عليهم لينالوا مما أعدوه من مآكل ومشارب. يفعلون كل هذا في خفاء، والله مطلع عليهم ويخبر رسوله بما صدر عنهم. كما يعلم سبحانه أنهم لا يشاركون في القتال إلا مشاركة قليلة لا تغني. تمكن الشح من نفوسهم فلا يساعدونكم لا بمال ولا بإعانة لشدة بغضهم لكم. هذه صورة المنافقين. فإذا حضر القتال وكانوا عندئذ تراهم مضطربين تتحرك أعينهم في كل اتجاه وضعهم وضع الذي يعاني سكرات الموت. وفي المقابل تجدهم بعد ذهاب الخوف من الجهاد تطول ألسنتهم، وترتفع أصواتهم يلومونكم على مواقفكم من المشركين، المواقف التي أثارتهم فقدموا على المدينة غزاة. هم منافقون لأنهم لا يضمرون لكم أي خير ولا يقدمون لكم أي عون. أولئك المنافقون الذين يظهرون الإيمان، الله يعلم أنهم كفار، وأبطل كل أعمالهم التي ظاهرها الصلاح. إن نفيهم من جماعة الإسلام لا يؤثر.

يظنون أن الأحزاب ما زالوا محاصرين للمدينة فلذلك رفعوا أصواتهم بالملام. ولما تبين لهم ذهاب الأحزاب وانتهاء الحصار، ظنوا أنهم سيعودون، ولذلك هبلوا أنفسهم

ليخرجوا إلى البادية مع الأعراب، يتجسسون ليطلعوا على حقيقة أخباركم، ليبلغوها لأعدائكم، وتدبيرهم للخروج من المدينة مع الأعراب لا قيمة له، لأنهم لو بقوا في المدينة ما كانوا ليقاتلوا المهاجمين إلا قتالا لا قيمة له.

بيان المعنى العام:

18ـ قد يعلم الله المعوقين ـ ولا يأتون البأس إلا قليلا.

تحقق هذه الآية أن الله يعلم ولا يخفى عليه شيء من المكر المادي للمنافقين، لتعطيل من يريد الجهاد عن بلوغ قصده، وكذلك ما يدبرونه ويلفقونه من أراجيف ليتشككوا ويتخوفوا حتى يوقفوا الإقبال على اللحاق بالمجاهدين. هذا ضرب غير مصرح به كشفه الله لرسوله وأعلمه مؤكدا حصوله، حتى يعريهم مما يختفون وراءه من النفاق.

ونوع آخر صريح، يقولون لمن تربطهم به رابطة الصداقة القوية "لإخوانهم": أقبلوا علينا واغنموا ما هو حاضر عندنا من متع الحياة؛ فذلك خير لكم من حضور مشاهد القتال. فهم يعملون على التأثير بما لهم من صلات سابقة، وما يعدونه من مغريات حاضرة.

والله يرقبهم ويعلم أنهم لا يحضرون مع المؤمنين في مشاهد القتال إلا حضورا محدودا قليلا في زمنه، وفي أثره وغنائه.

19ـ أشحة عليكم ....وكان ذلك على الله يسيرا.

يواصل القرآن تعريتهم وفضحهم فيقول: إنهم يبخلون عليكم بكل عون من المال ومن كل ما يمكن أن يساعدكم، فلا تجدون منهم إلا بخلا وإمساكا عن العون والبذل.

وتصور هذه الآية إذا بوغتوا بحدوث القتال وحصوله، وهم عندك، فينكشف أمرهم، ولا يستطيعون إخفاء ما طبعوا عليه من الجبن، فيبدو ما يعتمل في خفايا صدورهم على ظواهرهم، وترى يا محمد عيونهم غير ثابتة مضطربة تتحرك حركة دائرية. صورتهم صورة المذعورين الواقفين تحت الشبابيك، تدور أعينهم مضطربة يمينا وشمالا ومن أسفل إلى فوق، علهم يجدون مخرجا مما هم فيه. فقدوا السيطرة على أنفسهم فهم كحال المغشي عليه وهو يعالج سكرات الموت حذرا وخوفا.

ثم هم بعد انتهاء المعركة تطول ألسنتهم وترتفع أصواتهم، إما باللوم والعتب على إثارة المشركين حتى قدمت جحافلهم الغازية، وإما بادعاء أنهم شاركوا في الجهاد، فلهم نصيبهم من الغنيمة، وإما بتطاولهم على المؤمنين بالأذى. وقد يكون كل ذلك وقع منهم. والحال أنهم لم يساعدوكم أي مساعدة، وما كانوا في وقت من الأوقات يخشون عليكم فهم كاذبون في ادعائهم أنهم كانوا يخافون عليكم.

بعد تتابع الأيات التي فضحتهم كاشفة عن حقيقتهم معرية لهم من كل ما استتروا به، أشار إليهم إشارة لإحضارهم ليصدر الحكم عليهم. أولئك لم يؤمنوا. نفي عنهم الإيمان، وأن حضورهم مع المؤمنين في مجامعهم على أنهم منهم، هو كذب وزور، وأن ما يقومون به مما ظاهره أنه من الأعمال الصالحة لا قيمة له ولا وزن عند الله. وأن الله لا يرتب لهم عليه اي أجر، سيبطل اعمالهم.

وإن نفيهم وإخراجهم من جماعة الإيمان يسيرٌ على الله، يعني أنه لا قيمة لهم، ووجودهم مع المؤمنين وزنه معدوم ايجابيا، بل أثره سلبي، فكان إقصاؤهم يسيرا.

20.يحسبون الأحزاب لم يذهبوا...ما قتلوا إلا قليلا.

ذكرنا فيما سبق أن الأحزاب قد اشتدت عليهم الرياح السافية شدة خلطت عليهم أمورهم، واقتنعوا في وقت قليل أنهم لا يقدرون على البقاء تحت قوة الدفاع المريع، وخلخلت الملائكة ثقتهم في أنفسهم فأسرعوا بالرجوع إلى ديارهم تحت جنح الظلام. وكان المنافقون يظنون أنهم ما زالوا معسكرين وراء الخندق، ينتظرون الساعة المواتية للانقضاض على المدينة. ولذلك رفعوا أصواتهم بالملام والعتب على المؤمنين .

وصورت لهم أنفسهم الحاقدة، بعد تيقنهم رجوع الجيوش الغازية، أنهم سيعودون لحصار المدينة من جديد. ولذا أخذوا يفكرون كيف يستعدون إلى الخروج إلى البادية مع الأعراب الرحل، حتى لا يمدوا المسلمين بأي مدد لا من المال ولا من الرجال. وأن يبذلوا كل جهودهم للتعرف على وضع الجيش الإسلامي، وأخباره ليبلغوها للغزاة.

يعلق القرآن على ذلك: مظهرا تفاهة وجودهم في المدينة، بأنهم لو كانوا فيها ورجع العدو، فهم لا يساعدون في قتال المغيرين إلا بالتافه الذي لا يؤثر في المعركة. فهم لا وزن لهم حضروا أو غابوا . بل يكون خروجهم للبادية رافعا لشيء من شرهم.

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ

صدق وعده: وفى به.

النحب: النذر الملتزم به، وقد يتجوز به فيطلق على الموت.

الغيظ: الحنق والغضب.

كفى: أغنى.

قويا: قادرا.

بيان المعنى الإجمالي:

هي الحقيقة التي أخرجت للعالم نمطا من الرجال تمت صياغتهم في ظرف وجيز، وهي المنة الكبرى على المؤمنين بربطهم برسول الله ﷺ، المثل في الكمال الإنساني في روحه وعقله وسمته وخلقه، وفي منهجه، بما يحقق السعادة في الدنيا وفي الآخرة. عاشوا معه، وتأثروا به ووجدوا فيه القدوة الحسنة، والمثل الكامل، فاقتبسوا منه ما اقتبسوا، كل على قدر طاقته، حتى كانوا قمة الرجال الكمل في التاريخ الإنساني. هو مثل أعلى لمن كان يرجو رضوان الله والفوز في الآخرة. ولمن يذكر ربه ذكرا يقربه منه.

وإليكم صورة من نمط هؤلاء الرجال، فإنهم لما رأوا جيوش الشرك تحاصر المدينة وبلغ عددهم أربع مرات عدد الجيش الإسلامي، مع قوة في السلاح، لما رأوا الأحزاب متأهبين أشد أهبة للقضاء على الإسلام وعلى المدينة ومن فيها. أعلنوا في وثوق تام: هذا الذي نشاهده هو ما وعدنا الله أن يحدث، وأن ننتصر عليهم، وهو الذي أعلمنا به رسول الله يوم أخبرنا: أن المشركين مع اليهود تحزبوا لغزو المدينة، وشرعنا عندها في حفر الخندق، وأعلمنا أننا سننتصر. وقالوا: صدق ربنا، فما وعدنا به حق ثابت، لا يخلف الله وعده. فهذا التهديد العظيم من الغزاة المتجبرين نصع إيمانهم، وزادوا تسليما وطاعة لما يأمرهم به الله ولما يطلبه منهم سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم أثنى القرآن على طائفة من الرجال صرحوا بأنهم يعاهدون الله على الصدق في الجهاد، حتى تتحقق لهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. ثم إن بعضهم عرض له الميدان الذي حقق فيه ما وعد به، وبعضهم ينتظر أن تتاح له الفرصة والعزم ثابت لم يتغير.

ثم ما قدره الله ليجزي الصادقين الثابتين الجزاء الحسن بسبب ما أبلوه، وليعذب المنافقين الذين صمموا على النفاق إلى الموت، ويتوب على المنافقين الذين استفاقوا فتابوا. والله غفور يمحو ذنوب التائبين، رحيم يثيبهم. والله سبحانه بقدرته رد الكافرين المهاجمين إلى الأمكنة التي انطلقوا منها خائبين . ولطف بالمؤمنين فنصرهم على أعدائهم وكفاهم القتال الذي يمكن أن تصحبه بعض الخسائر. وقد ثبتت لله منذ الأزل القوة التي لا تغلب، والعزة التي لا تضام.

بيان المعنى العام :

21.لقد كان لكم في رسول الله....وذكر الله كثيرا.

بعد أن تتبعت الآيات السابقة مواقف المنافقين، وتخاذلهم وتخذيلهم؛ حول القرآن بيانه للحديث عن المؤمنين الصامدين فافتتح هذا التحول بإعلان السر الذي سجل به الصحابة رضوان الله عليهم تلكم الصورة الرائعة من الثبات، والشجاعة والبذل. إنه الإسلام يسمو بالإنسان، ويرتقي به في وقت قصير جدا، الأمر الذي يستدعي حسب طرق التربية الأخرى تتابع أجيال ليتم مثل تلكم التحول. ما هو السر؟ هو في القدوة الحسنة التي بلغت حد الكمال الانساني من جميع الجوانب: الروحية منها، والفكرية والحياتية والخلقية، ولعل أحسن من فصل ذلك القاضي عياض في كتاب الشفاء . فتحول بالاقتداء برسول الله ﷺ جيل الصحابة تحولا تكونت به شخصيات أصبحت بدورها مثالا وقدوة. فما كان ﷺ يدعوهم إلى الحياة الأخرة بمفردها، ولا هو يعني بتنظيمهم دنيويا لتكون لهم القوة والمنعة، بل كان منهجه أن في كل عمل دنيوي نظرة إلى الحياة الآخرة، وتآلفت الحياتان في نفس صحابته، حتى ترى الواحد منهم معتزا بدينه وأمته عزة لا يرى، لأحد سوى الله، سلطانا عليه، وترى الواحد منهم إذا ذكر بآية من آيات ربه خضع واستكان، تجري دموعه سر الخشية في الله والحب لله. بذلك انتصروا .

في هذه اللفتة القرآنية يسطع المنهج الإصلاحي في الإسلام: هو في القدوة الحسنة، سواء في ذلك الإصلاح الديني أو الإصلاح الدنيوي. وكل داعيه للإصلاح لا يكون قدوة هو فاشل، يذهب جهده ضائعا، ومصير العمل الذي يحركه ارتداد إلى الوراء.

22.ولما رأى المؤمنون الأحزاب...إلا إيمانا وتسليما.

هذا فعل القدوة الحسنة .قارن صورة المنافقين وهم مرتبكون وجلون، كأنما يعانون سكرات الموت، ونفسياتهم الهابطة المتلونة متهالكة، على ما فصلته الآيات السابقة، قارن تلك الصورة بصورة المؤمنين حول رسول الله ﷺ . رأى الصحابة

رضوان الله عليهم، جيوشا جرارة وأسلحة وعتادا، لا يحجزهم عن الهجوم على المدينة إلا الخندق الذي حفروه. إنهم ليسوا متهورين حتى يخيل إليهم أنهم يستطيعون سحق المهاجمين بما لهم من قوة. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا "الآية 11" هم قدروا خطر الموقف حق قدره، ورجعوا إلى معين الإيمان يستمدون منه توجيها، وقالوا: هذا الذي نشاهده غير مفاجئ، فقد وعدنا الله ورسوله أنه سيفتح علينا فيه بنصر قريب، نعم نزل عليهم في سورة البقرة أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب "الآية 214" وهذا ما وعدنا رسوله : لقد أعلمهم أن الأحزاب تجمعوا وهم قادمون عليكم فاستعدوا للدفاع عن الإسلام، وإن الله سينصركم عليهم . وشرعوا في حفر الخندق الذي كان الخط الدفاعي الأول عن المدينة. أنجزوه في مدة قصيرة جدا لم تبلغ عشرة أيام والرسول ﷺ يعمل معهم. سرى من الإيمان فيض ثبت القلوب، وغسل ما تحدثت به أولا، وقالوا: صدق الله. فما وعدنا لا ريب فيه، وصدق رسوله أيضا. فزادتهم هذه التأملات نصاعة في إيمانهم وتسليما وانقيادا للطاعة .

الإيمان يقين . بمعنى أن الحاصل في العقل بلغ درجة مائة في المائة، وإذا كان كذلك فما معنى النصوص القرآنية والسنية التي ذكرت زيادة الإيمان كهذه الآية؟ الذي أفهمه أن اليقين يكون كامنا في العقل مثبتا لموضوعه ثباتا لا يقبل الزيادة ولا النقصان؛ ولكن هذا الحاصل الإيماني له مراتب في التوهج، وبالتالي في التأثير على ميادين أخرى يفعل فيها فعله. فالإيمان بالله وحده إلها لا شريك له، قدر مشترك بين المسلمين جميعا. ولكن الذي يواصل التأمل في الفعل الإلهي في الكون، ويتابع التعمق في تصرفه، ويجهد للكشف عن أسرار الخلق، ويصبر على البحث حتى تتجلى له خفايا وحقائق تبهر فكره بما لحظه من انسجام وارتباط ودقة متناهية. إنه في هذا الظرف الذي انبلجت فيه حقيقة يجد مفهوم الألوهية أشد حضورا وأبلغ نصاعة قبل أن ينكشف له ما كان مستورا. وتجد المؤمن يقبل على الذكر والصلاة في جوف الليل وعند سكون الكون. لا يقطع تأملاته صوت ناشز، ولا صورة لافتة، ويقف عند الآية يتملاها، وينغمس في أبعادها، وتأخذه كل مرتبة إلى مرتبة أرقى منها، وقد تذرف عينه الدمع للإحساس الذي ينعم به ولا يقدر أن يعبر عنه .إن إشراق إيمانه وحضوره لا شك أنه أقوى مما كان عليه في النهار وهو يشتغل في التجارة أو الصفق في الأسواق. فهذا هو معنى زيادة الإيمان .

والصحابة في هذا الظرف أيقظوا ما كان كامنا في قلوبهم من أن العزة لله، وأن

نور الرسول ﷺ وهم يعيشون معه ينضم إلى ثقتهم في الله، فتجمع من ذلك حضور الإيمان بأنهم منتصرون لا محالة، وهو معنى زيادة الإيمان. والله أعلم.

23.من المؤمنين رجال صدقوا...وما بدلوا تبديلا.

ثناء على المؤمنين، وتنويه بطائفة منهم "رجال"، ولا يدل الثناء عليهم أن غيرهم ليس على شاكلتهم، ولكن الآية تعرضت فقط لواقعة أثنى الله فيها على رجال كاملين: ثناء، أنهم من المؤمنين فوصف الإيمان هو الذي سلك بهم المسلك المنوه به، وثناء لأنهم عاهدوا الله عهدا بالثبات في ساحة القتال ثباتا يفضي بهم إما إلى النصر، وإما إلى الاستشهاد .ثم قسمهم إلى قسمين

الأول: من حضر الجهاد فوفى بما عاهد عليه الله من الثبات، فما ارتعد ولا هان ولا توقف عن المضي إلى النهاية التي التزم بها، وهو معنى قضى نحبه، أي وفى بنذره المؤكد. وهذا أصل كلمة النحب في العربية، تفيد النذر المؤكد. ولما كان الموت يشبه النذر المؤكد المحتم وقوعه فقد تطلق كلمة النحب على الموت، فيقال قضى نحبه، أي مات. ومن الذين عينهم المفسرون، أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنهم .فإنه لما لم يشهد غزوة بدر مع رسول الله ﷺ كبر عليه ذلك وقال: والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. فشهد غزوة أحد وأبلى البلاء الحسن حتى قتل، ووجد في بدنه أكثر من ثمانين جرحا رحمه الله.

والثاني: من لم يتغير عزمه وهو مصمم على الوفاء ولكنه ينتظر حضور المشهد الذي يكشف عن وفائه. وكلاهما مثني عليه لأنه ما بدل ما عاهد عليه الله تبديلا.

24.ليجزي الله الصادقين...كان غفورا رحيما.

هذه هي الغاية التي قررها الله سبحانه لكل فريق من الذين اضطرب بهم المشهد في هذه الغزوة، أجراها حسب علمه ليرتب على صدق الصادقين الجزاء الحسن، وليرتب على المنافقين الذين أقاموا على النفاق العذاب الذي يكون كفاء الشر الذي عملوه، وليرتب على النفاق الذي تطهر منه أهله بالندم والتوبة، مغفرته. يحقق ذلك أن الله متصف بالمغفرة والرحمة اتصافا أزليا سرمديا. وتعليق عذاب المنافقين بالمشيئة ليبين لهم أن خسرانهم للعاقبة ليس حتما لا مرد له، بل يمكن أن يرتفع عنهم وذلك إذا تابوا. فالقرآن يجلبهم إلى التوبة، بإمكان غفران ذنوبهم.

25.ورد الله الذين كفروا بغيظهم...وكان الله قويا عزيزا.

بعد أن وضحت الآية السابقة الغاية التي قدرت لكل فريق، تكفلت هذه الآية بتسجيل الصورة التي بها انتهى الهجوم. أرجع الله جنود الأحزاب وهم "الذين كفروا" إلى

المنطلقات التي خرجوا منها خائبين خاسرين، لم يتمكنوا من تحقيق أي خير مما حدثتهم أنفسهم به عند زحفهم، يأكل قلوبهم الغيظ الذي يلتهب في صدورهم، زحفوا على المدينة متوقعين أن ينتقصوا من المسلمين قتلا وأسرا، وأن يضربوا الإسلام الضربة القاضية، وأن يغنموا أموال المدينة، وأن يسبوا ما أمكنتهم سبيه من البشر، دفعتهم الكراهية لتدبير هذه الحملة، فخابت كل آمالهم، ووجدوا أنفسهم قد خسروا الأموال، ومات منهم من مات، وأجبروا على الفرار. عبر القرآن عن كل ذلك "بغيظهم لم ينالوا خيرا" ومع إظهار الشماتة بهم يصرح ما جناه المسلمون: أن الله كفاهم القتال، فلم يخسروا مالا ولا رجالا. وما تم هو فضل الله عليهم، فإن الله أسعد بقوته التي لا تغلب، وبعزته التي لا يقوم أمامها معاند، ما أنجزه في هذه المعركة.

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أنزل : أهبط .

ظاهروهم : أعانوهم وآزروهم.

الصياصي : جمع صيصة وهي الحصن .

القذف : الإلقاء السريع.

لم تطئوها : لم تنزلوا بها غزاة.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن رجع الغزاة إلى منطلقاتهم خائبين، وعاد النبي ﷺ إلى بيته ظهرا، نزل جبريل يعلمه: أن لا يستريح، ليخرج غازيا لبني قريظة الذين خانوا العهد وغدروا وأعانوا الأحزاب. واستجاب المسلمون لدعوة الجهاد، ونزلوا حول ديار بني قريظة الذين أغلقوا عليهم حصونهم، فحاصرهم المسلمون نحوا من خمس وعشرين ليلة، إلى أن انخذلوا ودخل الرعب في قلوبهم، فرضوا بأن ينزلوا من حصونهم، وأن يحكم فيهم سعد ابن معاذ ﷺ، وحكم سعد فقضى بقتل المقاتلة، وسبي الأموال والعيال والأطفال. ونفذ الحكم. ثم وعد الله المؤمنين أن هذا النصر ستتلوه انتصارات مثله، وأنهم سيرثون أراضي أخرى، وتتوسع أرض الإسلام إلى ما وراء الجزيرة العربية. وتمت البشارة والحمد لله.

بيان المعنى العام :

26←27 وأنزل الذين ظاهروهم ...على كل شيء قديرا.

تسجل هذه الآية ما تبع تولي الأحزاب مهزومين خائبين. أوى النبي ﷺ ظهرا إلى بيته، فنزل عليه جبريل يبلغه : أن الله يأمره أن يغزو بني قريظة الذين غدروا، ونقضوا العهد الموثق بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا الأحزاب بتدبير من حيي بن أخطب النضري. فنادى رسول الله ﷺ في الناس: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة ! كانت منازلهم وحصونهم بالجنوب الشرقي من المدينة. استجاب الصحابة للنداء وتوجهوا زرافات ووحدانا إلى بني قريظة . وحضر وقت العصر وهم في طريقهم؛ ففهم بعضهم الأمر على ظاهره، فلم يتوقف ليصلي العصر وواصل طريقه إلى أن وصل إلى مقصده بعد العشاء، وفهم فريق آخر أن نص النداء قصد به التأكيد وعدم التباطؤ، إذ لا مزية لأرض بني قريظة ليصلي العصر فيها، فتوقف وصلى، ثم واصل طريقه ولم يخطئ النبي ﷺ أيا منهما فكان ذلك دليلا على أن المجتهد إذا قاده اجتهاده، المبني على النص إلى حكم، أنه لا إثم عليه وهو مأجور، ولو تناقض الاجتهادان .

احتمى القرظيون بحصونهم، وحاصرهم المسلمون نحوا من خمس وعشرين ليلة، ونزل في قلوبهم الرعب، ويئسوا من أن يصلهم أي مدد، فتم الاتفاق بينهم وبين رسول الله ﷺ أن ينزلوا من حصونهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) ، راضين بأن يحكم فيهم سيدنا سعد بن معاذ الأوسي، آملين أن يصانعهم ويشفق عليهم لما كان بينهم وبين قبيلته (الأوس) من حلف قبل الإسلام . فحكم فيه سيدنا سعد: أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والعيال والأموال. وكان فيمن نزل من الحصون حيي بن أخطب النضري، ونفذ حكم سعد ﷺ . فقتلت المقاتلة "تقتلون فريقا" وأسر الآخرون "وتأسرون فريقا". "و دخلت أرضهم وأموالهم في ملك المسلمين " وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم "وبشر الله المؤمنين أن مد الإسلامي متواصل، وانهزام الشرك وأهله متجدد. فسيفتح عليكم أراضي أخرى لم تصلوا إليها بعد، كالعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس. ويحتمل أن يكون معنى لم تطأوها : لم تقاتلوا أهلها، كفتح خيبر والله أعلم .

وختام الآية يحمل بشارة إلى المسلمين حول رسول الله أن الله سيمدهم بنصره، ويقويهم بقوته .وأن قدرته سبحانه تنجز ما أراده.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

تعالين: أقبلن.

أسرحكن: السراح، الطلاق.

جميلا: مقبولا نفسيا لا يصحبه غضب.

الفاحشة: المعصية.

بيان المعنى الاجمالي:

نال المؤمنون في المدينة من غنائم بدر ومن بني قريظة والنضير، ما ظهر في توسعهم في النفقة على عيالهم. ولم يتغير شيء في بيت النبوة، فألح عليه أزواجه ليوسع عليهن في النفقة، وما كان النبيء ﷺ شحيحا، بل هو أكرم الناس، وكان همه في بث الدين والسعي فيما يرضي رب العالمين، وبالغن في الإلحاح فأنزل الله عليه هذه الآية، فعرض الأمر على كل واحدة منهن، إما أن تختار الحياة الدنيا، فيمتعها بعطية مالية، ويفارقها فراقا لا غضب معه ولا كراهية. ومن ترغب منهن في الإقامة معه على نفس الطريقة التي عاشت عليها من قبل، مفضلة طاعة الله وطاعة رسوله معاهدة على ذلك، آملة في حسن الثواب من الله فهي على علاقتها به. فكلهن عاهدن على اختيار الله والدار الآخرة على متاع الحياة الدنيا، والعيش مع الرسول عيشته المقتنعة باليسير، متعلقة آمالهن بثواب الدار الآخرة، وأن الله أعد لكل محسنة منهن أجرا عظيما يتجاوز الوصف.

ثم أعلمهن بمقتضيات العهد فناداهن بوصفهن زوجات النبي، يا نساء النبي من ترتكب منكن معصية، وهي عضو من بيت النبوة، يكون إثمها وعقابها مضاعفا، إذ علو مقامهن وكونهن أمهات للمؤمنين يفرض عليهن أن يكن قدوة في الطهر والسلوك الصالح، ولا يشفع في الآثمة أن كانت زوجة لرسول الله ﷺ.

بيان المعنى العام:

28-29 يا أيها النبي قل...منكن أجرا عظيما.

هذا هو النداء الثاني في هذه السورة للنبي ﷺ بوصف النبوة. قواه على تنفيذه بدعوته بوصف النبوة، لأن مضمون الآية أمر خطير في حياته. أمر بأن يعرض

على جميع نسائه أن يخترن بين أمرين لا ثالث لهما: إما البقاء عنده، مع عدم التوسع في الحياة الدنيا، وإما تمتيعهن وسفارقتهن . ما الذي حدث؟

ليكون معنى الآية أكثر جلاء نذكر ما قاله الرواة في سبب نزول الآية، وهو يكشف عن صلتها بالآيات السابقة .

لما فتح الله على المؤمنين المهاجرين أموال بني قريظة، حسب حكم سعد، الذي خص بها المهاجرين، وأن الأنصار راجعوه في حكمه فأجابهم: إني أريد أن يكون لهم أموال كما لكم أموال. توسع المهاجرون في النفقة، ونالت نساءهم من الوضع الجديد ؛ فأخذ نساء رسول الله ﷺ، يراجعنه في التوسعة عليهن في النفقة، يرغبن أن ينالهن ما نالته المهاجرات. وما تعلق قلب رسول الله ﷺ بمتاع الحياة الدنيا، لقد اختار لنفسه ولأهل بيته عيشة الكفاف، لا رفضا للدنيا، ولا لضيق ذات اليد، ولكن كان ذلك استعلاء عن التعلق بمتاع الدنيا الزائل، ولذا هو لم يتحول عن نظرته تلك لما أفاء الله عليه من الغنائم ومن أموال بني قريظة والنضير ما أفاء ،مصمم أن يبقى هو هو في جميع الظروف والأحوال، وأن يكون بيته على نفس الوضع، قد لا توقد فيه نار الشهر ونحوه، يتعلل بالماء والتمر. لم تكن الطيبات محرمة في شرعه، ولم يحرمها على نفسه، ولا أعرض عنها إن قدمت له. ولكنه يأنف أن تنزل مشاعره للتعلق بها والتفكر فيها، تفرح لتوفرها أو تتأسف لفقدانها .نفسه العالية على مستوى واحد متصلة بالله سعيدة بحضورها عنده . ساءه أن يقع الإلحاح عليه من نسائه أن يتحول عما ألفه وألفته نفسه، ولم يزجرهن، ولا أغلظ لهن القول .(روى الإمام مسلم بسنده إلى جابر بن عبد الله أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما دخلا على رسول الله ﷺ بعد أن استأذنا، فوجدا رسول الله جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا، فقال عمر لأقولن شيئا أضحك به النبي ﷺ. فقال :يا رسول لو رأيت بنت خارجة (زوجه) سألتني النفقة، فقمت إليها فوجأت عنقها(طعنتها او غمزتها في عنقها). فضحك رسول الله ﷺ وقال : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده .فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ أبدا، شيئا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين يوما. ثم نزلت عليه هذه الآية: {يا أيها النبي قل لأزواجك حتى بلغ للمحسنات منكن أجرا عظيما}. قال: فبدأ بعائشة، فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه، حتى تستشيري أبويك. قالت: وما هويا رسول الله ؟ فتلى عليها الآية. فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من

نسألك بالذي قلت، قال: لا تسألني امرأة منهن، إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا(العنت التعب والمشقة والمتعنت الذي يدخل غيره في مشقة ولا ييسر عليه) ولكن بعثني معلما وميسرا)[1] .

وأزواج النبي ﷺ اللواتي خيرهن تسع، خمس قرشيات :عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية ،وأربع غير قرشيات: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي الخيبرية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية. رضي الله عنهن .

عرض على كل واحدة على انفراد، أن تختار غير ملجأة تبعا لاختيارها، إما أن تؤثر ما في الحياة من ترف على الحياة التي تقدم فيها الاشتغال بالطاعات والصبر على الطريقة التي عشن عليها معه من قبل. عطف زينتها لضبط أن التوجه إلى مباهج الحياة هو في المأكل والمشرب واللباس. وأن كل من تؤثر الحياة الدنيا ومباهجها، يدعوها لتقبل على ما يترتب على اختيارها. يعطيها الرسول ﷺ ما يطيب خاطرها، كما جاء في قوله تعالى:(ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف.)[2] ثم يطلقها " أسرحكن" طلاقا لا يصاحبه بغض ولا كراهية.

وإما أن تؤثر رضى الله، والبقاء عند رسوله مع الصبر راضية نفسها بما يقدم لها، مريدة الفوز في الحياة الأخرة، مقيمة في بيت النبوة، واحدة من أسرته الكريمة .إن ما يترتب على الاختيار: أن جزاء كل واحدة قد تم إعداده على قدر ما قدمت من صالح العمل، وأحسنت الامتثال لما جاءت به الشريعة، وعلى جميع الأحوال فإن الأجر المعد لها يوم القيامة أجر عظيم يفوق الوصف.

30. يا نساء النبي من يأت منكن...وكان ذلك على الله يسيرا.

خير رسول الله ﷺ نساءه فاخترنه. وإذ التزمن بأن يكن أزواجه لا يرهقنه بمطالب الحياة، ويؤثرن نعيم الأخرة على متاع الحياة الدنيا، فقد ارتقوا إلى مرتبة رفيعة من الكمال الإنساني، وأصبحن أمهات للمؤمنين، يحملن الصورة العملية للدين الإسلامي، بما كن يأخذنه عن رسول الله ﷺ في مباشرته للحياة، وهي أوسع ما روي من السنة العملية. إن بلوغهن هذا المقام السامي يفرض عليهن سلوكا

---

[1] التسهيل لعلوم التنزيل ج4 ص116

[2] سورة البقرة اية236

يتناسب مع علي مقامهن، فنهتهن هذه الأيـة مفتتحـة بنـدائهن بــــ: يـا نسـاء النبـي ! ليكون ما يرد ســن توجيهـات، مـن متعلقـات كـونهن أزواجـا للنبـي عليـه الصـلاة والسلام، على أن هذا الوصف وصف اختصصن به ولا يشـاركهن فيـه أيـة امـرأة فـي الدنيا، فليحرصن على التأمل فيه، وتطبيق ما يهـدف إليـه، والشـعور بعظـم المسـؤولية .يقول الله لهن: إن كونكن نساء النبـي يحملكـن مسـؤولية عظمـى، لا تبـيح التـرخص ولا الاعتماد على هذه الصلة الزكية النبيلة . هـو مـنهج غيـر مـا عـرف عليـه نسـاء معظم قادة العـالم ورؤسـاء الـدول: أنهـم يبيحـون لنسـائهم مـا هـو ممنـوع علـى والأخريات، ويترخصن بمجـاوزة الحـدود وتخضـع الرعيـة محققـة مـا يـرغبن فـي تحقيقه. نساء النبي لسن من هـذا الـنمط .مـن تفعـل مـنهن فعـلا قبيحـا فاحشـة، أي محرما في شرع الله، فإنه لعلـو قـدرها لا يعفـى عنهـا ولكـن يضـاعف لهـا العـذاب ضعفين .فقوله يضاعف لها العذاب أصـلـه مـائتين فـي المائـة، وزاد ضـعفين، والتثنيـة تفيد التكثير لا بمعنى أربعمائـة فـي المائـة، بـل هـو عـذاب كثيـر، بمقـدار شـناعة الفاحشة المرتكبة، وبمقدار تأثيرهـا فـي المجتمـع. وكلمـة فاحشـة كلمـا ذكـرت فـي القرآن، فإن كانت منكرة (فاحشة) فهي المعصـية، يؤكـد ذلـك أن الله وصـفها بالبيـان، لأن فاحشة الزنا لا تكون بينة بـل مخفيـة، وإن كانـت معرفـة (الفاحشـة) فهـي الزنـا. وتسليط هذا العقاب الشديد يتم فعلا، لا تنفـع المرتكبـة للمعصـية مكانتهـا مـن رسـول الله ﷺ، وهو معنى: وكان ذلك على الله يسيرا. فكانـت هـذه الايـة عهـدا علـيهن. قـال أبو رافع كان عمر ابن الخطاب ﷺ كثيرا مـا يقـرأ سـورة يوسـف وسـورة الأحـزاب في الصبح، وكان إذا بلغ (يا نساء النبي) رفع بهـا صـوته. فسـئل عـن ذلـك، فقـال: أذكرهن العهد.

• وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يقنت : يطيع ويخضع بالعبودية.

أعتدنا : التيسير والإعداد.

رزق كريم : الجنة.

لا تخضعن : لا تلن.

مرض : الفسق والغزل

القول المعروف : الصواب الذي لا تنكره الشريعة، ولا يستقبح في العادة.

التبرج : إظهار الزينة والمحاسن للرجال.

الجاهلية : الأوضاع التي كان عليها العرب قبل الإسلام.

الرجس : أصله القذر، والمراد به هنا الذنوب والنقائص التي لا تلائم التقوى.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة محرضة لنساء النبي كي يجتهدن في القيام بما يرضي الله، ويمكن رسوله من الحياة الهنيئة التي تساعده على القيام بمهام الرسالة، وأن يعملن الأعمال الصالحة كما وضحته شريعة الله؛ حرضتهن بأن أجر كل واحدة تستجيب لهذه الدعوة، يضاعف لها أجرها لعلو مكانتها، ويمكنها مما أعده من المنازل العلية في الجنة.
ثم ناداهن لينبههنّ إلى ما يقتضيه رفيع مقامهن، الذي لا يساويه مقام أية امرأة أخرى. وإن أدب الخطاب يحتم عليهن أن يجزمن في كلامهن، ولا يبدين من الرقة الزائدة التي قد تصدر عن نفس كريمة لينة، ولكن بعض الذين قلوبهم مريضة التي لم تشف من عاهة سوء الخلق، وسوء الظن؛ يصور له الشيطان أن ذلك فتح لباب المغازلة، فيتجرأ على مخاطبتكن خطابا لا يليق بمقامكن العلي. وليكن حديثكن بما هو غير منكر في العادة ولا في الشرع. رقابة اجتماعية، ورقابة إلهية.
وبما أن كل مؤمن مأمور بتبليغ ما يعلمه من شرع الله على لسان رسوله، ولأنه يتاح لهن من الفرص ما لا يتاح لغيرهن، باعتبار أنهن يطلعن على الهدي النبوي في الأسرة، وأنهن يتعلمن من رسول الله ﷺ ما ينزل عليه من آيات القرآن وما يفتح له ربه من الحكمة في تدبير الأمور، تذكرتهن الآية بهذا الواجب. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعودون لنساء النبي يأخذون عنهن شرع الله وهدي رسوله. كما عليهن أن يكون ما يسمعنه وما يشاهدنه من رسول الله ﷺ حاضرا في أذهانهن حضورا يساعدهن على تحقيق ما طلب منهن. لقد جمع الله لكن من الطاقة ما ميزكن، والله خبير بما يجري في نفوسكن.

بيان المعنى العام:

31 ومن يقنت منكن ... رزقا كريما.

نبهت الآية السابقة نساء النبي وذكرتهن بمنزلتهن الرفيعة، لمّا يسر الله لهن أن كن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين، وأن مقامهن الرفيع يتبعه أن تكون المعصية من أية واحدة منهن منكرة لكونها معصية، ولصدورها ممن له ذلكم المقام وهو أسوة يقتدى به. فلو عدت الآية من ترتكب معصية واضحة أنها تعذب ضعف ما يعذب غيرها ممن ليس له ذلكم المقام وتلكم المنزلة، وحرضتهن هذه الآية على ما هو المؤمل منهن، فذكرت أن من تطع الله، ممتثلة لأوامره، منتهية عن نواهيه، متدرجة في التقرب إليه بالمنهج الذي تأخذه عن رسول الله ﷺ عبادة وخلقا وسلوكا، وتطع الرسول طاعة يجد بها في بيته السكينة والراحة التي ينشدها للقيام بثقل الرسالة، وأكد على جدهن في العمل الصالح المرضي، حرضتهن بأن أجر كل واحدة منهن هو أجر مضاعف، إن الله قد هيأ لهن المنزلة الرفيعة الكريمة في الجنة. ويمكن أن نفهم الآية على شمول الرزق الكريم (المتميز في جنسه) في الدنيا أيضا.

32 يا نساء النبي لستن كأحد ... وقلن قولا معروفا.

أعاد دعاءهن بالوصف المشرف يا نساء النبي ليرتب عليه بيان منزلتهن الرفيعة، وأنهن وإن كن نساء، فاختصاصهن برسول الله ﷺ أكسبهن مكانة لا تشاركهن فيها أي امرأة أخرى. إن النساء وإن كن يتفاضلن في قيمتهن الإيمانية والإنسانية فإنك لا تجد واحدة تساوي زوجات الرسول، مما يفرض عليهن أن يكن متقيات لله كأتم ما تكون التقوى؛ فليس قوله تعالى (إن اتقيتن) مقصودا به الشرط، بل المقصود به التحريض وإلهاب الحماس للتسابق في تقوى الله.

ثم فصلت الآية بعض المظاهر السلوكية التي يمكن أن تغفل عنها زوجات النبي، مما ميز الله بين الجنسين أن الأصل في أصوات الذكور أن تكون قوية خشنة، وأن الحبال الصوتية تساعدهن على أن تكون أصواتهن لينة ناعمة. فإذا أضافت الأنثى إلى أمر الجبلة قصد أن تزيد في رقة صوتها عملت الغريزة الجنسية في الرجل على تصور أن تلك الرقة فيها تودد له، فربما اجترأت نفسه على تجاوز الحديث إلى المغازلة .لما كان هذا المستوى من ترقيق الكلام قد يفضي بالذين في قلوبهم مرض، بضعف الوازع الديني، الذي يجد به الشيطان ما يجرئه على تجاوز الأدب في القول والظن .ونساء النبي يجب أن يكن فوق هذا المستوى الهابط لبعض الرجال، الذين يثيرهم سماع صوت المرأة الرخيم اللين، وإن كانت عفيفة.

33-34: وقرن في بيوتكن.....إن الله كان لطيفا خبيرا.

تابعت هذه الآية تقرير بعض الآداب التي طالب بها نساء النبي، فأمرهن:

أولا: أن يلازمن بيوتهن، وأن لا يخرجن إلا لضرورة وملازمة البيوت فهمتها أم المؤمنين سودة رضي الله عنها، على العموم في الأحوال فكانت لا تخرج لحج ولا عمرة، وسئلت عن ذلك فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي.

وإذا كانت هذه الملازمة للبيوت وعدم الخروج لغير ضرورة واجبة على نساء النبي، فإن النساء في ذلك العهد وما تلاه يطلب منهن طلبا غير محتم البقاء في بيوتهن. ومضى أمر المجتمعات الإسلامية في المدن على هذه الطريقة. إلى العشريات الأولى من القرن العشرين، ثم شاركت المرأة الرجل في الاقتصاد، وفي مختلف ضروب النشاط، الأمر الذي يفرض عليهن الخروج من بيوتهن .ولما كان الأمر بالنسبة لغير نساء النبي ليس على اللزوم فإن خروج الإناث للعمل لا مانع منه . ولكن على الأنثى عندما تخرج من بيتها أن لا تتجاوز ما هو نافع لنفسها وللأمة، إلى الإثارة الجنسية. فالخروج للمصلحة حلال وإشاعة التحلل والفساد حرام كبير .

ثانيا: أن لا يتبرجن، والتبرج عادةً كان عليها نساء الفترة التي سبقت الإسلام. تخرج المرأة مظهرة محاسن ثيابها وحليها، كاشفة عن بعض مفاتنها للرجال، ويعجبها أن تستقطب أنظارهم، وأن تلفت أعناقهم، وأن تظهر نوعا من الترفع، على أن ما جمعته يعلو بها إلى أن تكون مطمح أنظار الرجال. إن هذا من أخلاق الجاهلية السابقة للتحول الذي رفع أقدار الإنسان، فلا يرضى أن تكون قيمة الأنثى في جمالها، أو في غنجها، وصارخ أنوثتها. وسميت تلك الفترة بالجاهلية لجهل الناس بالله وبشرائعه.

ثالثا: أمرن بأن يحافظن على ماهن عليه من إقامة الصلاة، ليكن على صلة متجددة بالله، وبأن يؤدين ما يجب عليهن من زكاة أموالهن، و بصفة عامة أن يطعن الله ورسوله طاعة، تربطهن بشريعة الله وتبعدهن عن المعصية. وأن يجد النبي ﷺ البيت الذي لا تلهيه مشاكله عن القيام بالمهمة الشريفة التي أوكلت إليه.

ثم حرضهن على تطبيق ما أمرن به، بإعلامهن بالصورة التي يريد الله أن يكون عليها بيت النبوة، من السمو الأخلاقي والنظافة السلوكية، والتسامي عن زخارف الحياة الدنيا، والتعلق بما عند الله .يريد الله أن يكون بيت النبوة البيت الكامل المثالي، البيت الذي لا يتلوث بالمعصية، والتهاون بحدود الله فعلا أو تركا، وبذلك تشيع الطهارة الكاملة المؤكدة.

رابعا: أمرن أن يكون دورهن في المجتمع الإسلامي، دورا متمما لدور النبي ﷺ. إن النبي ﷺ يبلغ ما جاءه عن ربه، وكل من سمع منه شيئا، هو مكلف بتبليغه لغيره. وللرسول صلى الله عليه وسلم مجالس يحضرها عدد غير قليل من الصحابة، وليس من الممكن أن يحضرها الصحابة أجمعون، ويحضر، ﷺ من الوقائع ما يبين الحكم المنطبق عليها، وفي جميع الأحوال الشاهد مأمور بتبليغ ما سمعه ووعاه لمن لم يحضر. والنبي ﷺ يهدي في بيته بصفته أولية إلى الصورة المثالية للأسرة الإسلامية، ومن حضر هذه المشاهد من أزواجه رضي الله عنهن، يتولى تعليمهن، ويتلو عليهن ما أنزله الله عليه من آيات القرآن، وما يسعده به ربه من إدراك الحقائق على ما هي عليه فيعلن ما آتاه ربه من الحكمة، فهن مطالبات بأن يبلغن ما سمعن وما شاهدن. وقد فعلن رضوان الله عليهن. فكان الصحابة يرجعون إليهن للتعرف على سنة رسول الله ﷺ، وبخاصة في بيته، وفي الأحكام التي علمهن اياها، ما هو من خصائص النساء، وما هو أعم من ذلك. كما هن مطالبات أن يكن على ذكر مما رباه عليهن بالآيات والحكمة، هذا التذكر الذي جعل نور تعاليمه حاضرة دوما في أرواحهن، تيسر لهن سبل الخير، وتحقق إذهاب الرجس، والتطهير.

إن الله ثبت له وصف اللطف، فبألطافه تيسر لكن الحياة في بيته، وأن تكن أزواجا له، ورفعكن إلى مقام: أن تصبح كل واحدة منكن أما للمؤمنين والمؤمنات، يحق لها من الاحترام والتقدير ما أوجبه نحو الأمهات اللاتي ولدنهم. وأن تكن حملة لدين الله، وهو الخبير الذي لا تخفى عليه ما انطوت عليه الصدور، الذي لا تغيب عن علمه التطورات التي ستحدث في المستقبل.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (36)

بيان معاني الألفاظ:

مغفرة : محو الذنوب.

أجر عظيم : ثواب عظيم من فضله.

قضاء الأمر : تبيينه والإعلام به.

الخيرة : الاختيار بين القبول والرفض.

بيان المعنى الإجمالي :

عشر صفات هي جماع ما هدى الله اليه هـذه الأمـة، بواسطة الكتـاب والسـنة. حقـق فيها أن الفضل في الاتصاف بها لا يتأثر بذكورة ولا أنوثـة، فهمـا سـواء فـي التعـرض لفضل الله. ويستوي الجنسان في نيل المغفرة للذنوب، ونيل الثواب العظيم.

وأتبع القرآن التسوية بين الجنسين، بما يحتم على فـرد ذكـر أو أنثـى، أنـه إذا علـم أن الله حكم بحكـم، أو أن رسـوله حكـم بحكـم، أن يطيـع ولا يجعـل عقلـه أو عادتـه أو أهواءه محكمة تتخير فترفض ما تشاء وتقبـل مـا تشـاء. وأن مـن يعـص الله ورسـوله ويتبع عقيدة أو تقويما للأعمال غير مـا قـرره الله ورسـوله، فقـد حـاد عـن الطريـق المبلغ للنجاح والنجاة، ودخل في متاهات مضللة.

بيان المعنى العام :

35.إن المسلمين والمسلمات...وأجرا عظيما.

تتابعت في هذه الآية عشرة أوصاف، عطـف فـي كـل وصـف صـيغة التأنيـث علـى صيغة التذكير، ليعقب بالتسـوية بـين الجميـع دون أن يكـون للجـنس تـأثير.و يتبـادر سؤال: إذا كانت أحكام الدين تجري عامـة علـى الـذكور والإنـاث، وأنـه كلمـا ذكـر التشريع بصيغة التذكير يشمل الإنـاث قطعـا، فلمـاذا وقـع التنصـيص بالطريقـة التـي وردت عليها الآية ؟ وقد ذكـر بعـض المفسـرين روايـات متنوعـة الجامع بينهـا: أن بعض النساء أثرن هذه القضية التـي حاصـلها لمـا ذا لـم يـذكرن بخصوصـهن فـي القرآن؟

وقد يكون لتوجه الخطاب لنساء الرسـول ﷺ فـي الآيـات السـابقة، مـا أثـارهن لطلـب الجواب عن سؤالهن. فأتى الجواب بقرنهن فيمـا يمكـن أن يقـوم بـه المسـلم والمسـلمة من الخير، ثم بالتسوية بـين الـذكور والإنـاث فـي جـزاء لا يتـأثر بـالجنس أصـلا. فلنتتبع هذه الأوصاف واحدة واحدة:

الصفة الأولـى: المسـلمين والمسـلمات، وتشـمل هـذه الصـفة الإعـلان بالشـهادتين، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيـت. وتطبيـق مـا شـرعه رسـول الله من الأحكام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وضوابط السلوك.

الصفة الثانية: المؤمنين والمؤمنات. والإيمان يتحقق بالإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر. وإذا كان الإيمان مقدما في الاعتبار فلماذا ذكر ثانيا؟ ولعل الحكمة في ذلك أن أركان الإسلام هي التي يتم بها تكون المجتمع الإسلامي في الظاهر فتجري أحكامه. وأما الإيمان فهو أمر باطني لا يعلم إلا الله صدق صاحبه.

الصفة الثالثة: القانتين والقانتات. والقنوت يمثل الخضوع لله، بإخلاص العبادة له والخضوع لرسوله خضوعا يقترن بحبه والسعي في مرضاته.

الصفة الرابعة: الصادقين والصادقات. والصدق يشمل الصدق في الكلام، فلا يتحدث بما هو كذب مخالف للواقع. ويشمل كذلك الصدق في العزيمة بالوفاء بالعهود، فلا يخلف عهدا، بما يحقق الطمأنينة في الحياة الاجتماعية.

الصفة الخامسة: الصابرين والصابرات. بمعنى مقاومة المعوقات، والمضي لتحقيق ما عزم عليه بثبات، فتبعثه قوته النفسية على تحدي الصعاب لينال المراتب العليا في الحياة، وخاصة الصبر على دواعي الشهوة ودوافع الغرائز .

الصفة السادسة: الخاشعين والخاشعات. والخشوع حالة تصحب العبادة فترفعها إلى مستوى الشعور بالحضور بين يدي الله فتتعلق الروح والأشواق بالمعبود. كما يبعث الخشوع لله رقابة على الأعمال بما يتكون منه الخشوع من خوف الرفض. فيطرد الهواجس وأحاديث النفس والتلهي الصارف عن الله : أن تعبد الله كأنك تراه.

الصفة السابعة: المتصدقين والمتصدقات، وتشمل السماحة بإشراك المحتاجين فيما مكنه الله منه من أموال، بما يساعدهم على رفع الخصاصة، وذل الحاجة. وكذلك بعدم البخل بالعون المعنوي كالعلم والجاه. وشيوع التصدق في المجتمع يقوي الصلة بين أعضائه. ويرفع صاحبه عند الله مكانا عليا، روى الإمام مسلم بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا. قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا. قالت: فكانت أطولنا يدا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. علق عليه القاضي عياض: فانكشف بموت زينب أنه إنما أراد طول اليد بالصدقة، يعبر به عن الجود والكرم. يقال فلان: طويل اليد والباع[1].

الصفة الثامنة: الصائمين والصائمات، والصوم وإن كان يمثل ركنا من أركان الإسلام، داخل في قوله تعالى: " المسلمين لكنه أفرد بالذكر تنويها بهذه العبادة،

---

[1] إكمال الإكمال ج6 ص286

لجمعها لرياضات نفسية عالية؛ فزيادة على أنه مثل حـــي للعـــزم، هـــو عبـــادة أبعـــد مـــا تكون عن الرياء، ولذا ورد في الحديث القدسي الصحيح: الصوم لي وأنا أجزي به.

الصفة التاسعة: الحافظين فروجهم والحافظات، وليس المـــراد بـــه التنـــزه عـــن الإشـــباع الجنسي، إذ الرهبنة بدعة مسيحية مخالفـــة للمنهج الإســـلامي، بـــل إن الإســـلام يـــرى في الإشباع الجنسي بين الزوجين ما يترتب عليـــه الأجـــر، متـــى استحضـــرا الاســـتجابة للفطرة ولما أذن الله فيه. والفوضـــى الجنســـية مخربـــة للمجتمعـــات بمـــا يتبعهـــا مـــن اختلاط الأنساب، وانخرام البناء العائلي.

الصفة العاشرة: الذاكرين الله كثيرا والذاكرات. والـــذكر يشـــمل الـــذكر باللســـان لتحريـــك القلب إلى الإقبال على الله، وليـــرتبط عقـــل الـــذاكر وروحـــه بـــالله. كمـــا يشـــمل ذكـــر أوامر الله ونواهيه، عندما ينشط في الحياة، فلا تأخذه الغفلـــه الموقعـــة فـــي الإثـــم. وهـــو المروي عن سيدنا عمر ﷺ: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

رتب الله على هذه الصفات ما قدره فـــي ســـابق علمـــه، أنـــه هيـــأ لأصـــحابها المغفـــرة لذنوبهم، والأجر العظيم. فهما جانبان: جانب نظافة الصـــحائف مـــن لـــوث الإثـــم، فيلقـــى ربه نقي السوابق كأنه لم يفـــرط فـــي واجـــب كامـــل حياتـــه، ولـــم يقـــتحم معصـــية. والجانب الثاني هو تعمير صـــحائفه بالحســـنات، كمـــا قـــال تعـــالى: أولئـــك يبـــدل الله سيئاتهم حسنات [1]. وفضل الله عظيم، ورحمته وســـعت كـــل شـــيء. نســـأله ســـبحانه أن يجعلنا من المشمولين بهذا الوعد الكريم.

﴿ وما كان لمؤمن...فقد ضل ضلالا مبينا.

افتتحت الآية بهذه الصيغة الخاصة: وما كان لـــ، وهـــي صـــيغة تفيـــد نفـــي مـــدخولها من الوجود مبالغة في رفضه يفهـــم منهـــا أنـــه لا يتصـــور أن يجتمـــع الإيمـــان فـــي رجل أو امرأة في واقعة قضى الله ورسوله فيهـــا قضـــاء، ولـــزم حكمـــا،مع تصـــور ذلك المؤمن وتلك المؤمنة أنه مختار في الأخذ بالحكم أو رفضه.

هذا وقد نقلت روايات كثيرة فـــي ســـبب النـــزول، ونـــص الآيـــة أعـــم مـــن أي ســـبب خاص. وأن الآية تقرر منهج الإسلام الذي يلزم كل مـــؤمن وكـــل مؤمنـــة أن تقبـــل حكـــم رسول الله، ولا تجعل العقل أو العادة قيما على شرع الله.

---

[1] سورة الفرقان آية 70

لقد ابتلينا في عصرنا هذا بمن يزعم أنه لا يأخذ الحكم إلا من القرآن، وينسب نفسه باطلا إليه (قرآني) وهذه الآية تبطل زعمه وتكشف زيفه، وكذلك قوله تعالى: من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا [1].

قاعدة علمية : أن كل من بلغه ما اختاره الله من تشريع أو هداية للناس، أو ما فهمه الرسول عن ربه فبلغه للناس، أن كل من بلغه ما اختاره الله ورسوله، ثم أعرض عنه وحكم عقله أو هواه أو عاداته، يتحقق فيه أنه قد ضل ضلالا بينا واضحا. ذلك أن منهج الله ورسوله منهج واحد لا يختلف، وغير ذلك مسالك مختلفة متناقضة يضل من اتبعها ضلالا لا يتوقع لنفسه مخرجا منه.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ

أنعمت عليه : أعتقته.

أمسك عليك زوجك: لا تطلقها وواصل حياتك الزوجية معها.

مبديه : مظهره .

تخشى الناس : تكره ما يتحدث به المنافقون.

قضى : أتم وبلغ الغاية.

وطرا : الحاجة التي بها تم الزواج بينهما.

فرض الله له : قدره وأذن له فيه.

السنة : السيرة التي يلزمها صاحبها.

---

[1] سورة النساء آية 80

الذين خلوا من قبل: المرسلون السابقون.
قدرا: مقدرا على حكمة أرادها الله في ذلك الأمر..

بيان المعنى الإجمالي:

تذكر ما أذنا لك فيه، يوم جاءك زيد يستشيرك في طلاق زوجه، فنصحته بأن يبقي على علاقتهما ولا يطلقها. وأن يلتزم تقوى الله في معاملتها. وعبر عن زيد بالذي أنعم الله عليه: لهدايته للاسلام، وأنعمت عليه فأعتقته وربيته. وكنت في الوقت الذي تبذل نصحك، تعلم أن زيدا سيطلق زوجه، وأنك ستتزوجها بناء على ما أعلمك به جبريل. فأخفيت ذلك في نفسك ولم تبح به. وكنت تخشى أن يؤثر ذلك في نشر الدعوة بما يتهمك به المنافقون، ولما كان زواجك منها بإذن ربك فلا تخش أحدا إلا الله. ثم إن زيدا طلق زوجه فخطبها النبي ﷺ، وتزوج بها. ومن حكمة ما قدره رب العزة، أنه بزواج النبي ﷺ من زوج متبناه، ارتفع ما يجده من فعل ذلك من الحرج . لنا في رسول الله الأسوة الحسنة.

انتفى عن النبي أي حرج عندما تزوج من زينب، فلا هو ملوم ولا عتب عليه في أمر اذن له فيه ربه . وهذا أمر ليس خاصا به، بل تلك سنة الله مع المرسلين من قبله. وثبت أن أمره وشرعه وإذنه، قدر صادر عن علمه مقدر في الأزل لحكم يعلمها. إن رسل الله سهمتهم أن يبلغوا ما جاءهم من ربهم، ويشعرون دوما بأنه حاضر معهم لا يخفى عليه شيء من أمورهم، فهم يخشونه ولا يخشون أحدا سواه، وهو سبحانه الحسيب المطلع على كل خافية، المسجل لكل ما يصدر، فحساب الناس وتقديرهم لا قيمة له. وختم هذا المقطع بالتأكيد على أنه لا صلة أبوة بين النبي ﷺ وبين أي رجل من المؤمنين، ولكن صلة الرسول بأمته ثابتة بما يتبعها من رحمة وحرص على ما يسعدهم. وهو خاتم النبيين لا نبي بعده، فليس له ابن حتى يرث عنه النبوة. وكل ما قدره الله وأنجزه ونفذه مما ذكر في الآيات السابقة صادر عن العليم العلم الشامل .

بيان المعنى العام:

37 - وإذ تقول للذي أنعم الله عليه...وكان أمر الله مفعولا.

افتتاح الآية القرآنية بكلمة إذ، الظرف، وردت كثيرا في القرآن. ويربطها المفسرون بكلمة مقدرة: واذكر. ويرى الشيخ ابن عاشور أن المقدر لا يناسب أن يكون هنا اذكر؛ لأن ما يرد بعدُ، لا يلتئم مع ذكر اللسان؛ إذ لا تقصد الآية أن تذكر ما يأتي للناس، وإنما هي اذكر، بمعنى تذكر في نفسك هذه الحادثة. وتتمثل هذه الحادثة في الفصول الآتية:

الفصل الأول: رجل بين يدي النبي ﷺ يستشيره، عرفته الآية بأنــه هـو الـذي أنعـم الله عليه بنعمة الإيمان، وبنعمة الصلاح والهداية من ناحيـة. وبأنـك أنعمـت عليـه بـالعتق والتقريب من ناحية ثانية. وهو زيد بن حارثة الـذي كـان معـدودا ابنـا لرسـول الله ﷺ، وأنه لما أبطل الله التبني انقطعت هـذه الصـلة، وبقيـت صـلة الحـب. فكـان الصـحابة يدعونه : حب رسول الله.

كان يستشيره في طلاق زوجه التي زوجـه منهـا رسـول الله ﷺ: زينـب بنـت جحـش بنت عمته . والصلة الوثيقة برسول الله ﷺهـي التـي جعلتـه لا ينفـذ الطـلاق، لخـاطر سنح له دون أن يستشير من كان بالنسبة إليه أحب من الولـد لوالـده. جـاءه يشـكو إليـه أنه تكرر، كلما حصل سوء تفاهم بينهما، مما شـأنه أن يحـدث بـين الـزوجين، تتعـاظم عليه لما لها من نسب شريف، ومقـام اجتمـاعي منيـف. كسـرت بـذلك عزتـه. وممـا يمتن الروابط بينهما أن زوجـه لـم تنجـب منـه، ومعلـوم أن الإنجـاب يمـتن الصـلة ويجعل الزوج يقدر حق الولد في أن يعيش فـي حضـن أبويـه. أشـار عليـه النبـي ﷺ أن لا يسرع إلى الطلاق، فهي امرأة صـالحة. وأمـره أن يتقـي الله فيهـا فـلا يتجـاوز الحدود إذا هي نشزت عليه .

الفصل الثاني : سجل الله ما كان كامنا في نفـس رسـول الله ﷺ عنـدما استشـاره زيـد. فكشفت الآية أنه كان يخفي في نفسه ما أطلعه الله عليه، بطريقـة مـن الطـرق التـي لـم تحددها الآية، فهل رأى رؤيا منامية: أنه مـأذون لـه فـي التـزوج مـن زينـب بعـد أن يطلقها زوجها، أو أن جبريل أخبره انه مـأذون لـه فـي التـزوج مـن زينـب بعـد أن يطلقها زوجها؟ فقوله تعالى: **وتخفي في نفسك**: إخفـاء مـا أعلمـه الله بـه. ولـيس مـن الواجب عليه ولا من الحكمة أن يعلم زيدا أنه أخبر بأنه سيتزوجها من بعده.

هذا ما أخفاه النبي ﷺ ثم أضافت الآية: أن مـا أخفـاه النبـي ﷺ أمـر سـيتحقق، وأن الله سيظهره في الوجود.(**ما الله مبديه**).

وتخشى الناس-سجل القرآن ما كـان يجـري فـي ضـمير الرسـول ﷺ، وهـو ينصـح زيدا فعرف أنه ما قصر في النصح رغم انه علـم أنـه سـيتزوجها، وأن زيـدا مطلقهـا لا محالة. وأنه من ناحية أخرى كان متوقعا مـا سـيتخذه المنـافقون معـبرا فيـه، وأنهـم سيتحدثون بالأراجيف، ويثيرون ما كـان مقـررا فـي عوائـدهم أن المتبنـي لا يتـزوج زوج متبناه. كان هذا التصور يجري في نفسه، ويقدر آثاره على الدعوة.

والله أحق أن تخشاه - إن الله وحده هو الحقيق أن تخشـاه وتحـذر مـن الوقـوع فيمـا لا يرضاه. فكل ما أوحي إليك به امـض فـي تبليغـه والعمـل بـه، ولا تقـم وزنـا لمـا يرجف به المرجفون. وفي ذلك تقوية لنفسه ﷺ، وشد لعزيمته.

الفصل الثالث: تطوي القرآن بعض المراحل مما هو معلوم ضرورة كما هو شأنه؛ فيشير: أن زيدا كان مصمما على فراق زوجه، ولكنه فهم من الاستشارة أن النبي لم يعزم عليه، ولذا مضى إلى النهاية فطلقها.

فلما قضى زيد منها وطرا... صرحت الآية أن زيدا لم تبق له حاجة في الحياة الزوجية مع زينب، لتم قضاء ما كان يرغب فيه لما تزوجها، ولم يعد متعلقا بها، ولذا طلقها. يصرح القرآن أن الله تعالى زوجه زينب، فما كانت في حاجة لولي يمثلها لعقد زواجها. وهذا يوضح ما يروى أنها رضي الله عنها كانت تعد هذا وتذكر أنه من مزاياها على بقية أزواج الرسول ﷺ. كما روي أن الخاطب كان زيد ... فقد طلب منه أن يعرض على زينب ما عزم عليه من خطبتها. قال زيد: فجئتها فوليت ظهري توقيرا لرسول الله ﷺ وقلت: يا زينب أرسل رسول الله يذكرك. فقالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي. وقامت إلى مسجدها فصلت صلاة الاستخارة فرضيت.

الفصل الرابع: الكشف عن حكمة هذا التزويج. لكي لا يكون...وطرا. تقدم لنا في أول السورة عناية القرآن باقتلاع العادة الجاهلية في جعل النسب يتحقق بالإرادة الإنسانية. وأنه أمر مناف للواقع، وأن فيه تعديا على المتبنّى إذا كان صغير السن، فالحكم عليه بأنه ينسب في المستقبل لمن تبناه تعدٍّ صارخ على حقوقه، وإلزامه بما لم يكن له فيه رأي.

وإذا كان التبني قد بطل ولم يبق له اعتبار في تكوين الأسرة، فإن ذيوله لم تقتلع من النفوس، إذ بقي أنه لا يقبل اجتماعيا أن يتزوج الرجل بامرأة من تبناه. وهو رشح من اعتبار التبني ملحقا بالنسب. فلمحو هذا التصور الذي لم يخلص بعد من الرواسب الجاهلية، أذن الله لرسوله أن يتزوج امرأة متبناه بعد طلاقها ليمحو كل أثر من آثار التبني، ويذهب الحرج من الاعتبارات الفردية والاجتماعية.

إن ما أمر الله به، وما شرعه واجب التطبيق لا يتنزه أحد عن اتباعه ولا حرج فيه، وهو قدره بإرادته الأزلية التي تعلقت بأن يطلق زيد زوجه، وقد كان ابنا لرسول الله ﷺ بالتبني، وليبطل الله التبني، وأراد سبحانه أن يتزوجها النبي ﷺ بعد اكتمال عدتها، فهذا قدره، وأكد كونه قدرا له بقوله مقدورا؛ الذي لا يفيد إلا التأكيد لقوله قدرا. كما تقول: ظل ظليل.

38. ما كان على النبي من حرج...قدرا مقدورا.

ذكرت الآية السابقة أن الرسول ﷺ كان يخشى أن يحول المنافقون إقدامه على التزوج من زينب زوج متبناه السابق إلى طعن وتشكيك في نزاهته، يؤثرون بذلك

على ضعفاء الإيمان والمترددين، فيعطلوا انتشار الإسلام بأراجيفهم . وقد قطعت الآية السابقة ما كانوا يهدفون إليه. ثم أكدت ذلك هذه الآية، فصرحت أن النبي ﷺ لا يلام ولا يكون آثما إذا فعل ما قدره وأذنه له فيه ربه. إن النبوة لا تخرج الإنسان من خصائص إنسانيته. إن سنة الله الجارية على جميع المرسلين من عهد نوح إلى محمد، أن جميعهم مأذون لهم أن لا يترهبوا، ولا أن يتركوا الحياة جانبا. بل يقوون على تحمل أعباء الرسالة بعدم الكبت ولأخذهم حظهم من الدنيا دون أن يشغلوا به عما كلفوا به من مهام، على الوجه الأكمل .قال تعالى: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية}[1] إن السنة التي أجرى عليها سيرة المرسلين من أولهم إلى محمد، مراعى فيه الألطاف الإلهية التي تحف بأنبيائه، وتأذن لهم وتشرع لهم ما يقتلع العادات المتمكنة، من جذورها، ويمنهج لهم ما يثبت به تشريعه القائم على الحق.

39. الذين يبلغون رسالات الله ... وكفى بالله حسيبا.

جميع المرسلين يشتركون في الصفات المتميزة التي رفعتهم إلى مقام الرسالة.

أولا: هم يبلغون ما يأتيهم عنه، وينشرون الآيات التي نزلت عليهم.

وثانيا: إن استحضارهم لجلال الله في نفوسهم أشد ما يكون حضورا وتأثيرا. فهم يخشونه إجلالا نابعا من إدراكهم لكمالاته على مستوى لا يبلغه غيرهم .

وثالثا: لما عمرت نفوسهم بمخالطة خشية الله كأتم ما يكون، لم يبق فيها مكان لخشية أحد سوى الله. فلا يعيرون لرفض الكافرين، أو شغبهم أي اعتبار.

40. ما كان محمد أبا أحد من رجالكم...بكل شيء عليما.

هذه الآية تؤكد مضمون الآيات السابقة من أن التبني لا يثبت نسبا ولا يربط الرابطة الدموية بين الاثنين .وبذلك فإن محمدا ﷺ لما تزوج زينب بعد زيد متبناه، هو تحقيق لهذا التشريع، قالع لما استقر من العادات الجاهلية. فتفيد هذه الآية أن محمدا لا تربطه صلة الأبوة النسبية بأي رجل من رجال المجتمع الإسلامي، وإذ انتفى انتساب أي رجل لرسول الله انتساب الابن لأبيه، فإنه قد ثبت له شرف كونه رسولا من عند الله، والرسالة تقتضي أن يكون بينه وبين أمته الود والرحمة، مع الحرص على ما يحقق لهم الخير . قال تعالى : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم

[1] سورة الرعد اية 38

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)[1] فانتفاء الأبوة النسبية لا تنافي الأبوة الروحية، فتم استدراكها بالعطف مع لكن : لكن.

ومما يؤكد أن الله قدر أن لا يكون لمحمد لابن، أنه خصه بأن يكون خاتم الرسل جميعا، فلا تطمح نفس أحد من نسله لتظهر فيه النبوة من جديد، كما كان في نسل إبراهيم عليه السلام ويعقوب. ولذا فإن الله لما أراد أن يختم النبوة في بني إسرائيل بعث عيسى مصروفا عن التزوج. وكون رسول الله خاتم النبيين قضية ضرورية من ضروريات الدين، إنكارها إنكار للضروري الذي بلغ حد اليقين، فإنكاره هدم للدين يتبعه خروج مدعيه من الإسلام. ذلك أنه حسب القوانين العقلية الضروريات مثبتة لغيرها، ولا تحتاج لمثبت. ولو احتاج الضروري لمثبت لما تحقق شيء أنه من الدين.

ممن شكك في هذه الآية، وادعى النبوة في أوائل القرن الثالث عشر فرقة البابية التي نبعت في فارس، وتسربت إلى العراق . ثم خلفتها البهائية التي هي تواصل لمبادئ البابية. وهذه الفرقة التي لها أتباعها في الولايات المتحدة وفي الهند وفي بعض دول أسيا، فرقة ليس بينها وبين الإسلام أي صلة، وبذلك فإنه لا ينطبق على أتباعها أي حكم من الأحكام الإسلامية فلا توارث بينهم وبين المسلمين ولا يصح عقد زواج أحد طرفيه بهائي ولا يدفنون في مقابر المسلمين.

ولما قرر القرآن إلغاء التبني، وأذن لنبيه في الزواج من زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، ونفى أن يكون محمد أبا لأي ذكر من المؤمنين، فذلك هو الحق، سبحانه هو العليم العلم الشامل، فلا تغيب عنه المصلحة في الحاضر والآجل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

---

[1] سورة التوبة آية 128

بيان معاني الألفاظ :

البكرة : أول النهار .

الأصيل : العشي .

صلاة الله : ثناؤه على عبده في ملأ الملائكة.

صلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين.

التحية :أدب الخطاب في بداية اللقاء

يلقونه لقاء الله: الحضور المدرك للإنسان أمام ربه.

الأجر الكريم : الثواب النفيس في أنواع الأجر.

المبشر : المخبر بما يسر المخبر.

النذير : المخبر بما يخاف ويحذر.

الفضل : ما يزيده، على العطية، المعطي للمعطى له.

التوكل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين كي يشغلوا ألسنتهم بذكر الله كثيرا. وأن يسبحوه منزهين له عن كل نقص كامل أوقات النهار من الصباح إلى المساء. إن الذكر الكثير والتسبيح يتقبله الله فيثني على الذاكرين، وتتولى ملائكته الدعاء لهم بالخير والتوفيق. فتنزل عليهم ألطافه التي تهديهم إلى الطريق الأسلم وتضيء لهم الأنوار الكاشفة ليسيروا في حياتهم آمنين مطمئنين. وهذا الفضل وتلكم الهداية مظهر ما اتصف به الله منذ الأزل برحمته للمؤمنين. وتتعدى هذه الرحمة عنايته بهم في الدنيا إلى تكريمهم يوم القيامة. إنهم عندما يلقون ربهم للحساب، ينزل عليهم الطمأنينة فيسمعون تحية الإسلام " السلام عليكم ثم يعقب ذلك نوالهم الأجر الكريم والثواب الجزيل الذي يرضي طموحاتهم.

ثم توجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، فنوه بعالي صفاته وعدد منها، أنه رسول من عنده يجب اتباع هداه. وشاهد على من آمن واهتدى، وعلى من رفض وكفر. وشاهد على الأمم السابقة من وعى وحفظ ما بلغته الرسل، ومن غير وبدل. وهو المبشر بالطمأنينة والرضى والسعادة في الدارين ممن أقر بأركان الإيمان واستقام، وأنه منذر منبه من كفر أو تراخت عزيمته فاتبع هواه، بما عرض له نفسه من عقاب الله. وأنه بصفة عامة هو داع للبشرية جميعا ليبين طريق السلامة، ويبطل الشرك والتقاليد الضالة. وهو في الكون سراج منير أزال ما كان من الخلط والضياع. ثم أمره سبحانه أن يتولى بشارة المؤمنين بأنه سيوفيهم أجرهم، ويزيدهم

عليه فضلاً كبيرا من عنده، لا يعلم مقداره إلا الله . وقابل ما يطلبه منك المنافقون بالرفض، ولا تصانعهم، ولا تبتئس ولا تحزن من إذايتهم المبطنة، وترفع عن مستواهم الهابط فلا تقابل إذايتهم بالنقمة العاجلة منهم، وتوكل على الله فإنه سيكفيك شرهم وهو ولي التدبير لحمايتك من شرهم ولعقابهم.

41-يا أيها الذين امنو اذكروا الله ذكرا كثيرا.

إقبال على المؤمنين بندائهم نداء يوقظهم للاهتمام بما يرد عليهم. حاصل هذا النداء أنهم مدعوون إلى الإقبال على ذكر الله ذكرا كثيرا. حتى يكون المؤمن شاعرا بأنه مع الله في كل لحظة. لا ينقطع اتصاله به، مما يكون له نورا يضيء له مسالك الحياة، ويكون مناعة له من الوقوع في الآثام. لقد حذر النبي ﷺ من خروج اللسان عن الرقابة الحازمة إذ قال: وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. فإذا اشتغل اللسان بذكر الله انصرف عن اللغو وعما يثير الشقاق والبغضاء، وكتب له الأجر الذي يلقاه عند الله ولهذا كانت الكثرة هنا مأمورا بها. وكثرة الذكر ليس لها حد محدود. والأفضل أن يتنوع حتى يبتعد عن الرتابة التي تفصل اللسان عن العقل.

42-وسبحوه بكرة وأصيلا.

يصح أن يكون المراد من التسبيح الصلوات النوافل. ويمكن أن يكون معناه قول المؤمن: سبحان الله . وخص التسبيح بالتنبيه عليه، مع أنه داخل في الذكر، لما له من المزية. فالمؤمن يسبح الله ليتجلى في نفسه مفهوم الألوهية المنزه عن كل نقص المتصف بالكمال المطلق. فيحصل بـ "سبحان الله" الذكر مع التنزيه.
وقوله تعالى بكرة وأصيلا" يفيد تواصل التسبيح كامل أوقات يقظة الإنسان. فتم التعبير عن المواصلة للذكر بصيغتين "كثيرا - بكرة وأصيلا"

43-هو الذي يصلي عليكم وملائكته..بالمؤمنين رحيما.

بعد أن أمر القران المؤمنين في الآية السابقة بالذكر والتسبيح أعقبه بتبشيرهم في هذه الآية بما قدره لهم إذا هم استجابوا. هو الكريم الذي يثني عليكم في ملأ الملائكة بكثرة ذكركم وتسبيحكم، وينفعل الملائكة بهذا الثناء فيتوجهون إلى الله داعين لكم بالخير والسعادة. وبثناء الله عليكم الدال على رضى الرضا، وبالدعاء المقبول من الملائكة، يهديكم الهداية التي تخرجكم من الظلمات في التفكير وفي السلوك، فترفع الحجب عن الحق فيتوهج نوره في القلوب والمشاعر . وتقمع الدواعي للانحراف عن الهدى، وتحف بكم ألطافه . ومما ثبت لله منذ الأزل أنه

رحيم بالمؤمنين ،وهذا ما يدعو المؤمنين لحسن التوكل على الطاف ربهم توكلا يشحذ طاقات الخير فيهم.

44: تحيتهم ..أجرا كريما.

رتب الله الثناء العاجل، والدعاء المقبول من الملائكة، للذاكرين الله كثيرا. ثم بشرهم بالتكريم يوم يحشرون بين يديه . يفتتح تكريمهم بالسلام عليهم عند حضورهم، فتتجدد بسماع " السلام عليكم "ما كانوا عليه في الدنيا من التعبير عن الأمن للمخاطب وتطمينه بهذه التحية تحية الإسلام، ثم تترى عليهم النعم، فقد هيأ لهم مقدما الثواب والأجر النفيس في جزاء ذلك اليوم .

45-46: يا أيها النبي إنا أرسلناك...وسراجا منيرا.

هذا هو النداء الثالث بوصف النبوة ،ترتيب على النحو التالي:

النداء الأول: كان لتحريضه على التزام السلوك المستقل الأنقى المرتبط بالله كما يليق بشريف مقامه. يا أيها النبي اتق الله...الآيات .

النداء الثاني: كان لتنظيم شؤون أسرته وما التحق بذلك من متنوع التشريعات المرتبطة به.

النداء الثالث: هو ما بينه هذا النص، وإن كان الخطاب متوجها له. إلا أن مضمونه تعريف للناس أجمعين الحاضرين وقت نزول الآية، ومن سيوجد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بتعريفهم بصفاته الخاصة به التي توجب توقيره وطاعته، وإدراك للنعمة التي نالت البشرية ببعثته ﷺ ،وصفته بست صفات :

الصفة الأولى: أنه مرسل إلى البشرية من الله. وكونه مرسلا من الله يوجب على البشر اتباع الهدى الذي أتى به من عنده، وتوقيره، وتقدير المستوى الرفيع الذي خص به .

الصفة الثانية: أنه شاهد، وتشمل الشهادة نواح جليلة. فهو شاهد على أمة الدعوة: من هم الذين استجابوا ولم يبدلوا وأخلصوا وثبتوا، ومن الذين أعرضوا وكذبوا، ومن الذين بدلوا ولم يثبتوا، وهو شاهد على موقف الأمم السالفة من استجابتهم لدعوة رسلهم، وثباتهم على ما تلقوه أو تبديلهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه. وهو الحجة في تمييز ما هو ثابت من دياناتهم، وما هو مشروع لزمن محدد يرفع عند بلوغ أجله، كتشريع عيسى بعد موسى؛ واليهودية والنصرانية بعد نزول القرآن.

الصفة الثالثة: أنه مبشر، وهو الذي يعرف مخاطبه بالبشرى، أي بما سيلقاه من خير يترقب التحصيل عليه. والنبي ﷺ جمع بين الهداية إلى الخير، وما ينتظم به أمر

الحياة فرديا واجتماعيا، ولضاف إلى ذلك وعد المطيع بالعون في الدنيا، والطمأنينة وذهاب الحيرة والخوف. وهو مبشر بالفوز يوم القيامة للمؤمنين المتقين، وقد وردت في القرآن تسع عشرة آية تضمنت التبشير بحسن ثواب الآخرة.

الصفة الرابعة: هو نذير يوقظ المتصلبين في الكفر، والذين تراخت عزائمهم، وانقادوا لشهواتهم فاقتحموا المنكرات وما نهى الله عنه، ولم يقوموا بما هم مطالبون بالقيام به من الواجبات والفروض. فدعوته ﷺ عامة مصلحة للبشر جميعهم على اختلاف مؤهلاتهم وخصائصهم . يدعو من لانت قلوبهم للخير ببيان الصلاح فيما يبلغه عن الله، ويحرضهم بما أعد الله لهم من الكرامة والثواب فيتضاعف إقبالهم على ما يدعوهم إليه، ويدعو من غلبت عليهم العادات والشهوات بتحذيرهم من سوء عاقبة المنهج الذي اختاروه لأنفسهم، وما سينالونه من عقاب جزاء تمردهم .

الصفة الخامسة: أنه داع إلى الله بإذنه . تقول دعوت زيدا إلى خالد، أي أعلمته بأن يحضر عند خالد، والنبي ﷺ يدعو الناس إلى الله، وتعالى أن يكون الله في مكان محدد، فمعنى ذلك لطرائح الشرك، وإفراده بالعبادة، وتنبيه البشر إلى أن عليهم أن يطيعوا أوامره، وأن يجتنبوا ما نهاهم عنه، وأن يكونوا على صلة دائمة به سبحانه.

أعانه الله على تحمل هذا الأمر العظيم، تحويل الناس من اتباع شهواتهم، وما يرون فيه حظهم في الحياة، والارتفاع بهم من وهدة الخوف من غيره، إلى السمو للاقتراب منه. فيسره له بإذنه. وإذا صدر إذنه سبحانه طاع الكون كله بتحقيقه.

الصفة السادسة: أنه سراج منير . هذه الآية تجسم وضع العالم بعد البعثة المحمدية. لقد كان العالم كالمكان المظلم، لا تتبين حقائق موجوداته، يختلط النافع بالضار. قد تكون به الأفعى السامة القاتلة على الأريكة الناعمة، ولا يتميز منفذ الباب عن الجدار الصلد، فإذا اشتعل السراج أضاء بشعاعه أرجاء المكان، فتتبين الأشياء بما يساعد الناظر على معرفة الخصائص الذاتية لكل ما بلغه شعاعه. جاء نور الهداية الإسلامية عن طريق محمد عليه الصلاة والسلام، فتبين ضلال الشرك وزيف الآلهة المدعوة من دون الله، وتبين اختلاط ما عند الأحبار مما كتبوه بأيديهم، وما هو منزل على موسى عليه السلام، وكان الناس يرجعون إلى ما استقر أمره بالعادة والتقليد في علاقاتهم الاجتماعية، وضبط قيم الأفعال. فلما أنار الله بوحيه عقول البشر، هدمت الأصنام فانهارت، وتبين اختلاط ما يدعون أنه شريعة موسى، وقامت القيم على أساس من الوحي والعقل المستنير به فتبينت مسالك الحياة الضامنة لسعادة البشرية في حاضرها وفي مصيرها.

47- وبشر المؤمنين...فضلا كبيرا.

بعد أن أعلنت الآيات صفات محمد ﷺ التي تميز بها؛ توجه إليه الأمر أن يقوم بالبشارة للمؤمنين، مضمون هذه البشارة أنهم مستحقون لفضل من الله كبير. ولما كان الفضل هو الزيادة، فإن مما يوضح هذه البشارة المأمور بها قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[1] وقوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[2] وينبع هذا الأمر مزيد من الثواب له، لأن الاستجابة للأمر باب لنيل ثواب الطاعة ،وهو صلى الله عليه وسلم استجاب للأمر ونفذه.

48- ولا تطع الكافرين...وكفى بالله وكيلا.

بمقدار ما كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤيدون رسول الله ﷺ، بمقدار ما كان المنافقون يجتهدون في إذايته، ويتحيلون لإخفاء الحقيقة وتلبيسها بغير صورتها، وكانوا يعيشون معه مندسين في صفوف المؤمنين، وقد أطلعه الله على ما يبطنون من مكر وخبث. أمر الله نبيه أن لا يصانعهم مستجيبا لمطالبهم، ليرفضها. وأرشده إلى عدم الاكتراث بما يصدر منهم من باطل في صورة الحق، وأن يكلهم إلى عقاب آجل، وأن لا يحزن لذلك، وأن يمضي في سبيله، متوكلا على الله مفوضا تدبير أمرهم إليه، فإنه سيكفيك شرهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠

---

[1] سورة يونس آية 26

[2] سورة الأنعام آية 160

بيان معاني الألفاظ

المس : الوطء

العدة :المدة المحددة شرعا، التي يمكن للمرأة بعدها التزوج بزوج آخر.

تعتدونها : تعدون أيامها عليهن.

متعوهن : المتعة عطية يعطيها الزوج لمطلقته تطييبا لخاطرها.

أجورهن : مهورهن .

ملكت يمينك : المملوكة غير الحرة.

الفيء : ما يحصل من المال والسبي بدون قتال .

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين أن يعملوا بما تضمنته هذه الآية: أن لا يطالب أحد بالعدة التي انتهت علاقتها بزوجها إذا كان لم يدخل بها. لأن العدة شرعت لتيقن عدم علوق حمل بها من الزوج المطلق، فإذا لم يدخل بها فكونها غير حاملة منه أمر متيقن. وأن يمتعها الزوج بهدية تطييب خاطرها. وأن لا يتسلط عليها ولا يؤذيها، فبعد الطلاق تبقى أخوة الإسلام، فليرعها كل منهما رعاية تبطل وساوس الشيطان.

توجه الخطاب إثر ذلك إلى النبي ﷺ، ممتنا عليه بما يسره له. إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي ضممهن بيتك ودفعت لكل واحدة منهن صداقها، كما أحللنا لك ما ملكته من غير حرب من نساء غير المسلمين، وهو الفيء الذي يسر لك ربك الحصول عليه. وأحللنا لك أن تتزوج من بنات عمك، ومن بنات عماتك، ومن بنات خالك وبنات خالاتك بشرط أن يكن هاجرن إلى المدينة، وشرفن بوصف المهاجرة "أي قبل فتح مكة. وأحللنا لك أن تتزوج امرأة تهب لك نفسها بدون صداق، إذا توفرت رغبتك فيها. وتزوج الواهبة نفسها بدون صداق خصيصة لك لا يشاركك فيها أحد من المؤمنين. تحقق علمنا بما هو مفروض على المؤمنين في الزواج من الحرائر، والتسري من الإماء. فلا يشاركونك فيما حكمت باختصاصك به. إن ما خصصتك به ينفي عنك الحرج والعسر وييسر لك الأمر في كثير من المواقف. إن الله متصف بالمغفرة والرحمة فتحقق أنه ينفي الحرج.

بيان المعنى العام :

لا أيها الذين آمنو إذا نكحتم..وسرحوهن سراحا جميلا.

من الثوابت في الشريعة الإسلامية حفظ الأنساب. ولذلك شرعت العدة للمطلقة أو المتوفى عنها زوجها إذا تم الدخول بها. والعدة زمن محدد شرعا يتيقن إثره أن المرأة غير حامل من زواجها المنتهي. ولذا فإنه إذا عقد الرجل زواجه ولم يدخل

بالمرأة، يعني أنه لم يحصل بينهما علاقة جنسية، فإن مجرد العقد لا يلزم المرأة، والحالة تلك، أن تنتظر مدة. وليس للعاقد على زوجه أمد يلزمها فيه بعدم التزوج من غيره.

والحكم الآخر في المطلقة قبل الدخول بها أن على مطلقها أن يمتعها بما يطيب خاطرها حسب وضع كل منهما اجتماعيا وماديا. وقد تقدم الكلام على التمتيع في الآية 236 من سورة البقرة. وأن لا يتدخل في حريتها، ولا يضارها ولا يتبعها بسوء القول، فأخوة الدين باقية، وحظها مرعي[1] لا يسقط بالطلاق. قال ﷺ : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(50- يا أيها النبي إنا أحللنا لك.....وكان الله غفورا رحيما)

خطاب رابع للنبي ﷺ بنداته بوصف النبوة في هذه السورة .وهو خطاب يتضمن: امتنان الله عليه بما أحل له من نساء دخلن في عصمته أو سيدخلن. والفائدة الأولى منه أن تصرف النبي ﷺ في ذلك مأذون له فيه محدد من رب العالمين.

أولا : (إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) تقرير للرابطة الزوجية للنساء اللاتي كن في عصمته ويعاشرهن معاشرة الأزواج قبل نزول الآية. فقوله اللاتي آتيت أجورهن: يفيد أنه عقد عليهن عقدا مستوفيا للأركان والشروط، ودفع لهن مهورهن. وأن الله يؤكد حليتهن له، ويرد هذا على ما يطعن به المنافقون والذين في قلوبهم مرض قديما وحديثا، من تزوجه ﷺ بأكثر من أربع. لقد تم ذلك بإذن الله ورضاه، ولحكمة خص بها رسوله .

ثانيا: (ما ملكت يمينه) من الفيء- وتطلق هذه الصيغة على المرأة التي دخلت في ملكه من الفيء الذي ناله المسلمون من العدو من غير قتال. وينطبق هذا الوصف على مارية القبطية التي وهبها المقوقس له ﷺ فتسرى بها ،ولدت له ابنه إبراهيم.

ثالثا: من تربطه بأصولهن رابطة العمومة أو الخؤولة. فنصت الآية على أن الله أحل له التزوج من بنات الأعمام، وبنات العمات، وبنات الخال وبنات الخالات، بشرط أن يكن هاجرن إلى المدينة ولم يبقين بمكة إلى زمن الفتح. وأفرد النص القرآني في لفظ العم والخال (عمك - خالك) لأنه إذا أطلق في العربية أريد به الجنس الشامل للواحد والمتعدد. وجمع لفظ العمات والخالات، لأن اللفظ المفرد لا يطلق إلا على الواحدة المعينة.

ويستروح من التنصيص على بنات الأعمام والأخوال وبنات العمات والخالات، أن الزواج منهن غير منهي عنه شرعا، ولا مستنكر، لا بالنسبة للرسول ﷺ ولا للمؤمنين.

رابعا: صورة مفترضة، نصـت عليهـا الآيـة: أن تعـرض امـرأة علـى النبـي ﷺ أن يتخذها زوجة . عطفت على ما أحـل لـه، فأفـادت أن الأصـل فـي حكمهـا بالنسـبة للرسول هو الحلية ثم ضبط هذه القضية بجملة من الشروط والأحكام:

1)أن تكون المرأة العارضة مؤمنة، فـإذا كانـت كتابيـة فعرضـها مرفـوض، ولا يحـل له أن يتزوج بكتابية تعرض نفسها عليه، ومن باب أولى وأحرى المشركة .

2)أن يرغب النبي ﷺ في التزوج بها. وهذا الشـرط يبـين أن العـرض لا يجـب عليـه قبوله، خلافا لما كان مستقرا عنـد العـرب: أن المـرأة إذا وهبـت نفسـها تحـتم علـى المعروض عليه قبول العرض.

3) أن هذا الحكم هو مـن خصـائص النبـي ﷺ . (خالصـة لـك مـن دون المـؤمنين)، هبة المرأة نفسها لا ينعقد بها نكاح لغير النبي ﷺ . خالصة لك من دون المؤمنين.

(قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمـانهم) تأكيـد لمـا اخـتص بـه الرسول الله ﷺ من أحكام الـزواج والتسـري. فـإن الأحكـام التـي شـرعناها للمـؤمنين على لسانك، حكمها باق لا تغيير فيه، فلا يتطلـع أحـد مـن المـؤمنين أن يتـرخص فـي الأحكام المقررة من قبل .فعلم الله مؤكـد أن المصـلحة للفـرد والمجتمـع فـي الالتـزام بتلك الأحكام.

(لكي لا يكون عليك حرج وكان الله غفـورا رحيمـا) تنصـيص علـى العلـة التـي مـن أجلها بين وشرع من أول الآية إلى هنا. هي ألطاف بك يـا محمـد. تنفـي عنـك الشـدة، وتوسع عليك في حياتك توسعة تسعفك بالنجـاح فـي المهمـة الشـريفة التـي أوكلـت إليك.

إن ما أفهمه من هذا التعليل هو أن النبي ﷺ كان يواجـه مـن مقتضـيات نشـر الـدعوة، أن يتخذ قرارات ليست محققة لأغراض دنيوية، ولكـن ليكـون موقفـه أوفـق لنجاحـه، مما لا يظهر وجهه للناس .فالتوسعة عليه في التشريع تمكنـه مـن ذلـك. ولـذا فـإن مـا أحل له زيادة على أزواجه الطاهرات، لم ينفع نفسه بشـيء منـه، لمـا لـم يعـرض مـا يبرر.

وثبت أن الله متصف بالمغفرة والرحمـة. وقولـه ' وكـان الله غفـورا رحيمـا محقـق لنفي الحرج بصفة عامة، فلما اتصف بالمغفرة والستر للتجـاوزات فكـل مـن وقـع فـي حرج تبعه الوقوع في الاثم فليبادر إلـى التوبـة فـإن الله غفـور. ورفعـه للحـرج فـي الدين هو أثر من آثار رحمته الواسعة .فالخاتمة جـاءت أعـم وأشـمل ممـا سـبقها. والله أعلم.

• تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (52)

بيان معاني الألفاظ

ترجي : تؤخر

تؤوي : تضم وتقرب.

عزلت : أبعدت.

ابتغيت : أردت تقريبها بعد الإبعاد.

بيان المعنى الاجمالي :

شرع القرآن لرسوله الاختيار في مخالطته نساءه، فصرح القرآن أنه مأذون له في إبعاد من يشاء منهن، وفي تقريب من يشاء، كما هو مأذون له في تقريب من أبعدها. إن هذا الإذن الإلهي يحقق قبولهن لاختيارك رضا لا يتطلعن معه إلى خلاف ما قمت به، ويذهب الحزن عن كل واحدة منهن لم تحقق رغبتها ليقينها أن ذلك يرضي ربها، وينتهي هذا التشريع بأن تشعر كل واحدة منهن قربتها أو أبعدتها بالرضا. إن تحقق ذلك في الواقع لاشك فيه لأن الله يعلم ما تنطوي عليه القلوب، ولا شك أن الله عليم، وهو الحليم عما جرى في أنفسهن قبل نزول التشريع.

خوطب النبي ﷺ : أنه لا يحل له أن يتزوج بزوجة غير النساء التسع اللاتي كن في عصمته، وبنات عمك....... ولا أن يطلق إحداهن ليتزوج غيرها، ولو أعجب بعضها من الجمال والحسن. لكن الله أباح له أن يتسرى بمن تم ملكه عليها. والله رقيب ما يصدر من البشر بعد ما يشرع لهم تشريعه.

بيان المعنى العام

51. ترجي من تشاء منهن ...وكان الله عليما حليما.

بسطت الآية السابقة ما أحله الله لنبيه من النساء. وأكملت هذه الآية بعض ما يتعلق بذلك فقررت: أنه ﷺ مخير بين إبعاد من يشاء من نسائه في المخالطة الزوجية

وبين تقريب من يشاء منهن أيضا، على معنى أن له أن يقسم بينهن قسمة لكل واحدة منهن حقها في المبيت عندها واختصاصها به في يومها، وله أن لا يقسم .

كما له أن يعيد من عزلها وأبعدها، فيجدد علاقته بها والقسم لها؛ على معنى أن الإبعاد لا يوجب استمراره، وأكد هذا التخيير برفع الجناح والمؤاخذة عن الطريقة التي نفذ بها اختياره.

إن تنزيل التخيير قرآنا من عند الله يتفاعل مع ما في نفوسهن من قوة الإيمان، ورغبة فيما عند الله، مستشعرات أنهن يحصلن على ما هو خير وأبقى. فأشارت الآية في مفتتحها بقوله ذلك (ترجي من...فلا جناح عليك) أن هذا التشريع سيؤثر فيهن تأثيرا يجعل كل واحدة منهن شاعرة بسعادتها بإقامتها في بيتك، لا ترغب في شيء وراء ما هي عليه، وهو معنى" تقر أعينهن" وينتفي عنهن الحزن والأسى إذا كان اختيارك على خلاف ما يرغبن فيه، ولا شك أن أمهات المؤمنين كانت كل واحدة ترغب رغبة أكيدة أن تكون قريبة منك في جميع الأوقات، فإذا علمن أن ذلك بإذن مني زالت عوارض الحزن، وبذلك يتحقق رضاهن بالوضع الذي تختاره لهن، هن جميعا متساويات في هذه الأحاسيس. وقد ثبت أن النبي ﷺ وإن مكن من الاختيار، فإنه راعى العدل في القسم بين أمهات المؤمنين، تكرما منه وتعلقا بما هو أسمى. إلا أن سودة تنازلت عن حظها لعائشة تبعا لرغبتها الأكيدة في إدخال السرور على النبي ﷺ، لما تعلم من مكانتها عنده. وختام الآية يقمع المشاغبين الذين يتخذون من هذا التشريع مغمزا في علاقاته مع أسرته. إن الله عالم بما يجري في القلوب وما تخفيه المشاعر، فهو يعلم سمو تعلقهن بالله وتقديم رضوانه على جميع الحظوظ الدنيوية. ومن فضله سبحانه أنه لا يؤاخذ على خطرات القلوب والأفكار التي تجري، ما دامت تجد من صرامة الرقابة الإيمانية ما يمنعها عن البروز للخارج على وجه لا يرضي الله.

52. لا يحل لك النساء من بعد...على كل شيء رقيبا.

أتمت هذه الآية التشريع الذي خص نساء بيت النبوة، فأفادت أنه لا يحل للنبي ﷺ النساء بعد الأصناف المذكورة في الآية السابقة، أو بعد وقت نزول الآية، ويفهم منها أنه يحرم عليه أن يتزوج على التسع اللاتي عنده، واللاتي كان من كمالهن أن قرت أعينهن بما حكم به الله ورضينه .

(ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) ولا يحل لك أن تطلق إحداهن وتتزوج بدلها امرأة أخرى، ورويت أقوال متناقضة خلطت الآية عليها. وتلك الأوهام والأقوال لا محصل لها، باعتبار أن الآية تتحدث عما يحل للنبي ﷺ وما يحرم

عليه، وقد انتهى الجانب التطبيقي بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. فنرجع ما يفهم من ظاهر الآية. وهذا الشرط يفيد عموم المنع، فإنه إذا منع من التزوج من امرأة أعجبه جمالها، فمن لم يكن لها حظ من الجمال أولى بأن تدخل في النص.

(إلا ما ملكت يمينك) هذا الاستثناء بمعنى "لكن" فيكون المعنى لكن ما دخلت في ملكك من السبي: الرقيق، فإنه لا مانع أن تتخذها سرِّية لك.

وكل ما شرعه الله لعباده، وأمرهم به، هو لازم التنفيذ في جميع الظروف والأحوال، والله رقيب، عليم بكل حادث يحدث.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ

ناظرين: منتظرين.

إناه: حضور وقته.

طعمتم: أكلتم.

فانتشروا: غادروا مكان الدعوة.

الاستئناس: طلب الأنس.

حديثا: كل كلام يجري بين المجالسين.

الأذى: ما يكدر ويسوء

لا يستحيي: لا يترك قول الحق.

متاعا: ما يطلب من المواعين والمرافق.

الحجاب : الستر المرخى على باب البيت.

وبيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية المؤمنين أن يدخلوا إلى بيوت النبي ﷺ ويطيلوا الجلوس، يأتون رغبة في الأكل حتى قبل أن يبدأ إعداد الطعام، ويعجبهم المقام في بيوته فيجلسون يتبادلون أطراف الحديث . وبعضهم إذا دعي لتناول الطعام على مائدته ﷺ يطيل الجلوس ويأنس لما يجري بينه وبين الحاضرين من أحاديث .والنبي ﷺ مثقل بالمهمات الجسام باعتباره رسولا، ورئيس دولة، ومنشئ أمة، ولأهله عليه حقوق، ومن حقه هو أن يستريح ليوالي القيام بما أوكل إليه . إن دخولكم لبيوته رغبة في الطعام، وإطالة الجلوس، ومتابعة الحديث حتى بعد الانتهاء من الأكل، أمر يتأذى منه رسول الله ﷺ، ولكن لعلو أخلاقه، وقوة حيائه، كان يتحرج ولا يأمركم بالخروج من بيته .ولذا فالأدب يقتضي أنه إذا دعيتم فأجيبوا الدعوة، وإذا أخذتم حظكم من الطعام فليتجه كل منكم إلى عمله أو مستقره. اعلموا أن الله يؤدبكم وأنتم عبيده فهو سبحانه لا يستحي من أمركم بما هو حق ولا من تنبيهكم للابتعاد عما هو تعد وباطل.

ثم أمر الله نساء نبيه أن يحتجبن من غير المحارم، فلا يحل لهن أن يكشفن وجها ولا كفا، ويحرم على الرجال الأجانب النظر إلى أزواجه حتى الوجه والكفين. وأمرهم إذا أرادوا سؤال أزواجه شيئا من الماعون، أو شأنا من شؤون الدين، أن يخاطبوهن من وراء حجاب، ساتر يسترهن.

إن هذا التشريع يحقق هدفا نبيلا، هو أن تتعودوا ويتعودن على مراعاة ما خصهن الله به من امتياز رفعهن إلى مقام جعلهن أمهات لكم، فمع التعود على هذا الحاجز تألف النفوس ما لهن من حق، وما لرسول الله ﷺ من تقدير، فتزداد القلوب طهرا، وقدرة على طرد وسوسة النفس وحديث الشيطان.

إنه أمر شنيع أن يؤذي أحد رسول الله، إنه معرض لوعيد شديد. تخير الله رب العزة رسوله لتبليغ رسالته وهدايته للناس؛ فتوقيره ونصرته واجب حتم على المؤمنين.

ومن حقوقه صلى الله عليه وسلم أن لا يتزوج أحد بعده بأي امرأة دخل بها تحريما أبديا سرمديا. احذروا اقتحام تلكم الحدود فإنه أمر عظيم شناعته . كونوا موقنين بأن الله يعلم ما تظهرونه، وما تخفونه، فهو سبحانه المتصف بالعلم الأزلي الأبدي.

واستثنى القرآن من عموم الناس الرجال من ذوي الأرحام الذين يتصلون بأزواج الرسول بصفة كونهم آباءهن، أو أبناءهن، أو إخوتهن، أو أبناء إخوتهن، أو أبناء

أخوانهن، أو أعمامهن، أو أخوالهن. وكذلك العبيد الذين هم في ملكهن، أباح لهم جميعا أن يدخلوا عليهن ويخاطبوهن بدون حجاب. وكذلك النساء اللائي لهن علاقة بهن.

ثم ذكر نساء الرسول بأن عليهن أن يجتهدن في تقوى الله ليرتقين في مراتب الكمال التي يسرها الله لهن بفضل اتصالهن بالرسول عليه الصلاة والسلام. والله يراقبهن وهو الشهيد على كل شيء.

بيان المعنى العام.

53- يا أيها الذين امنوا لا تدخلوا...كان عند الله عظيما.

عني القرآن بتفصيل العقيدة وإقامة الحجة على الحق الذي بسطه؛ كما عني ببيان أصول أحكام العبادات والمعاملات والروابط الجازمة بين الأفراد وبينهم وبين الدولة؛ كما عني بإقامة نظام اجتماعي يسمو بمتبعيه من جفاء البداوة إلى لين الحضارة. تقدم لنا شيء من هذا في الاستئذان، وحرمة الإنسان في بيته، وتتعرض هذه الآية إلى الأمرين التاليين:

الأمر الأول: وهو يتعلق بالأدب مع رسول الله في بيته، وينسحب على بقية الأمة.

وليتضح المقصود من الآية بصفة أفضل، نعرض ما كان يجري عليه الأمر في العرف إذا دعا الداعي الناس ليطعموا عنده، أو يحضروا وليمة في بيته لمناسبة من المناسبات. كان البعض يقدمون إلى مكان الدعوة حتى قبل البدء في إعداد الطعام، ويجلسون يتبادلون الحديث.ثم يواصلون البقاء حتى بعد الأكل، والداعي صابر على ثقل هؤلاء. كما كان بعض الناس يدخلون إلى بيوت النبي ﷺ قصد الأكل من مائدته ويجلسون يتبادلون الأحاديث على النحو المذكور. روى البخاري بسنده إلى أنس ﵁ قال بُني على النبي ﷺ بزينب ابنة جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعيا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقلت: يا نبي الله ! ما أجد أحدا أدعوه. قال: ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله. كيف وجدت أهلك ؟ بارك الله لك. فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقا إلى بيت عائشة، فما أدري أخبرته، أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع، حتى إذا وضع رجله في اسكفة الباب داخلة وأخرى

خارجة أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب[1]. فجاء الحديث الصحيح على وزان الآية متضمنا لأمرين: أدب المدعوين، وتشريع الحجاب.

نادتهم الآية في الشطر الأول منها بوصف الإيمان: يا أيها الذين آمنوا!! لتوقظهم أن ما ستقاوله هو من مقتضيات الإيمان، وحتى لا يفهم الإيمان على أنه عقيدة أو عبادات فقط، بل هو منهج حياة يطوع حياة الفرد والجماعة إلى ما يسمو بهما إلى المستويات الإنسانية الرفيعة. فلنتبع الآية حتى نتوضح .

1)نهى المؤمنين أن يدخلوا الى بيوت النبي ﷺ، وخاصة إذا كان ذلك لانتظار أن يحضر الطعام . ترخصوا لأنفسهم ذلك لما عرف من كرمه وسماحته ﷺ. ورخص لهم أن يدخلوا إذا دعوا إلى الطعام. فليس النهي منعا لهم منعا باتا، ولكن ما يقتضيه الأدب من ناحية، وحتى لا يجعلوا من كرم خلقه سببا لاحراجه من ناحية أخرى، هو رسول الله تجمعت واجباته من نشر الدين، والعناية بشؤون الأمة، والعناية بأسرته، وله الحق أن يستريح من عناء الواجبات التي عهدت إليه.

2) إذا استجبتم لدعوة رسول الله فتناولتم الطعام على مائدته، فلا تثقلوا عليه بالجلوس الطويل إثر الطعام. وانتشروا، وما أبدع التعبير بقوله: فانتشروا، ليذهب كل منكم إلى وجهة بيته، أو تجارته، أو مركز عمله، من مختلف اهتماماتكم.

3) لا تطيلوا الجلوس، استئناسا بما يجري بينكم من أخبار وأحاديث، تنسون بها أنكم في بيت لصاحبه الحق في السكن والراحة.

إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم- إن السلوك الذي كان يصدر من بعضكم من الدخول الى بيوت الرسول للجلوس والحديث، ولانتظار الطعام حتى قبل أن يطبخ، ومن المكث بعد الأكل طويلا. هو سلوك كان النبي يتحرج منه، ولعلو أخلاقه كان يسكت ويتحمل، فلا تحسبوا سكوته رضى، وليكن لكم من الفطنة ما ينبهكم إلى ما ينبغي أن تسلكوه لتتوقّوا من إذايته التي أنتم حريصون على احترامها. إنه ﷺ يستحيي من تنبيهكم لتخرجوا من بيته. وهذا الأدب كما خوطب به الصحابة في عهد الرسول فكذلك هو أدب عام للأمة الإسلامية كلها عليها أن تتأدب به .

والله لا يستحيي من الحق - إن الله لا يستحيي من بيان الحق والتنبيه إليه، إن الرسول إذا تكرم فتنازل عن حقه، فإن منزلة المخلوقين بالنسبة للخالق ينتفي معها كل ما يعتبر أدبا في علاقة المخلوقين بعضهم ببعض. ولمستنبط الشيخ محمد

---

[1] فتح الباري ج10 ص148/149

الطاهر ابن عاشور رحمه الله من الآية، أن من الواجب أن لا يستحي أحد من إقامة الحق، وكذلك في معرفته، وفي إبلاغه، وفي الأخذ به، إلا ما كان من الحقوق الخاصة التي لأصحابها إسقاطها، مما لا يترتب عنه إسقاط حق للغير.

وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب - هذا المقطع متمم لقوله تعالى: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . آية 32 فمما ميزهن الله به أنه لا يحل لمن كان غير محرم لهن أن يرى منهن أي جزء لا الوجه ولا الكفين. وبناء على ذلك فإذا رغب أحدكم أن يسأل ما يرتفق به كالأواني أو أن يسأل عن الدين، وخاصة مما كنّ أعلم به من غيرهن، فإن التقدم إليهن بالسؤال يجب أن لا يكون مباشرة بل من وراء ستر.

ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن - هذا الحكم الموجب لضرب الحجاب بين نسائه ﷺ وبين الصحابة غير المحارم، له فائدة عظيمة: أنه يقوي الطهارة في قلوب المؤمنين وقلوبهن. إن الطهارة وإن كانت ثابتة بالمنزلة الرفيعة لما تأصل في قلوبهم وقلوبهن من تقوى الله، إلا أن إحاطتها بما يعمق الإحساس بتميزهن، يطرد الخواطر الشيطانية وإن ضعفت، وينمي الشعور بالمكانة التي جعلها الله لهن من اعتبار كل واحدة منهن في مرتبة الأم لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية في ذلكم العهد وما يتلوه من الأزمان. وبناء على ذلك فإن الحجاب الذي يوجب على نساء النبي ستر كامل بدنهن حتى الوجه والكفين، وأن لا يخاطبن إلا من وراء حجاب، هذا حكم خاص بنساء النبي عليه الصلاة والسلام - لستن كأحد من النساء

وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا- حكمان جديدان ختمت بهما الآية إذ يكملان ما تتابع فيها:

الحكم الأول :المنع المؤكد بأبلغ تعبير من إذايته ﷺ . ليس في الوجود مما يتصور منه أن ينزلق أحد إلى إذاية رسول الله ﷺ .إن احترامه واجب محتم بوصفه مبلغا عن الله، مختارا منه ليبين لكم ما يصلحكم في الدنيا والآخرة، احترامه بالقول والفعل، والذود عن علي مقامه من المقلة الذين شرفوا بكمالاته.

الحكم الثاني: التحريم القاطع لتزوج أي إنسان إحدى النساء التي دخل بها النبي ﷺ، لقد قررت الآية أنهن أمهات المؤمنين" وأزواجه أمهاتهم " فليطرد كل مؤمن عن نفسه أي خاطر من هذا النوع. روي أن بعض المنافقين صرح بما يطوي عليه قلبه من بغض وما يجري في تفكيره من وقاحة جاهلية لما قال: ما بال محمد يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه. وكبت الله أعداءه، وتم ما شرعه، فلم يجرؤ أحد على تزوج إحدى نسائه الطاهرات أمهات المؤمنين بعد

انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وختمت الآية بـإعلان النكـارة العظمـى بـأقوى تعبيـر، إذ جعل الله إثم إيذائه أو التزوج من إحدى نسـائه معـدودا عنـد الله العظـيم أمـرا عظيمـا في الشناعة. وكفاكم بذلك تخويفا وتهديدا.

54.إن تبدوا شيئا...بكل شيء عليما.

جرى القرآن في التحذير من المنكرات المحرمـة الشـنيعة، أنـه يتبعهـا بـأن علـم الله شامل للعظائم والدقائق، للظواهر والخفايا، ممـا يشـعر بـأن علـى الإنسـان أن يحتـاط من التصريح والتلميح، ومن متابعة وسوسة الشيطان. فالوعيـد شـديد، وعلـو مقـام نبيـه العلو الذي ليس بعده مزيد.

55.لاجناح عليهن في آبائهن... على كل شيء شهيدا

أوجبت الآية السابقة الحجاب على نساء الرسـول، ومنعـت الرجـال مـن مخـاطبتهن إلا من وراء حجاب. وحققت هذه الآية الحكـم، بأنـه لا يتنـاول الآبـاء والأبنـاء والإخـوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات، وكذلك الرقيـق المملـوك لهـن، وإن لـم يـذكر الأعمـام والأخوال فإن ذكر أبناء الإخـوة والأخـوات مغنـي بمسـاواتهم فـي الحكـم. واسـتثنت الآية النساء أيضا فلهن أن يخاطبن نسـاء النبـي دون حجـاب. وأشـارت خاتمـة الآيـة 'واتقين الله' إلى أن أمر الحجاب من التقوى المـأمور بهـا والمرعيـة بصـفة عامـة. وأكد عليهن الالتزام بما شرعه سبحانه، بأن الله شـهيد مطلـع علـى كـل مـا يحـدث في الكون. لا تخفى عليه خافية.

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

يصلون : الصلاة من الله الثناء، ومن الملائكة الدعاء.

اللعن : الإبعاد عن الرحمة والتحقير.

العذاب المهين : عذاب جهنم .

احتملوا : كلفوا أنفسهم حملا

بيان المعنى الإجمالي

هو شرف عظيم خص الله به نبيه محمدا ﷺ ، فهو يتولى بذاته الثناء عليه في العالمين ،وأرشد ملائكته أن يعرفوا له مقامه العالي وأن يتقربوا لربهم بالصلاة عليه، فيعلو مقامهم بذلك عند ربهم. وأمر أمة محمد ﷺ أن يتأسوا بربهم وبملائكته ويصلوا على نبيه دعاء يفوضون ما يشمله من التكريم إلى واسع الرحمة والجود. وأمروا أن يسلموا عليه فيقولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.
فتمو بتلك حسناتكم ويكفر الله بفضل الصلاة عليه من سيئاتكم ويقربكم منه، فتسعدوا بقربه.
وفي المقابل فإن الذين يؤذون الله بالافتراء عليه ووصفه بما لا يليق بكماله. أو الاعتراض على ما حكم به وقدره، وكذلك الذين يؤذون رسوله، بتكذيبه أو الطعن في شريعته، أو تحكيم عقولهم تحكيما برفض منها ما خالف هواهم، جزاؤهم لعنة من الله تطردهم من رحمته ومهانة تلحقهم في الدنيا والآخرة وعذاب يؤلمهم ويهينهم.
كما حذر القرآن من إذاية المؤمنين والمؤمنات، وتعظم شناعة إذايتهم إذا كانت نتيجة افتراء وسوء ظن مع أنه ما صدرت منهم نقيصة، ومن اكتسب منهم خطيئة فالقضاء هو الذي يتولى الحكم عليه، وتنفيذه ولا يحل نشر قالة السوء فيه. ومن لم يتعظ فليوقن أنه حمل نفسه أوزارا وآثاما عظيمة.

بيان المعنى العام

﴿إن الله وملائكته....وسلموا تسليما﴾

إن الله العظيم الجليل يثني على النبي ثناء ينبث في الكون كله، يثني عليه في الملأ الأعلى. قد أبدع سيد قطب رحمه الله إذ صور ما أوحى إليه هذه النص فقال: يا لها من مرتبة سنية تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه، ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجاؤه، ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم الأبدي الباقي - وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم اهـ. .الله أعلم حيث يجعل رسالاته، اختار محمدا ليختم به وحيه الهادي للبشرية فجمع فيه من الكمالات الإنسانية وبلغ به أعلى مرتبة بلغها إنسان، ثم نوه بشأنه، بخلقه فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، ووالى عنايته به فطهره وطهر أهل بيته، وعطف سبحانه على صلاته عليه صلاة ملائكته، وهم المقربون، ﴿الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾، أمرهم أن يوالوا الدعاء لرسوله وحبيبه ومصطفاه. هذا البساط الذي

الرفيع يهيب المؤمنين ليلتحقوا بموكب الملائكة فيتحدثون معهم في الصلاة على رسول الله محمد ﷺ .

ولما كانت الصلاة على رسول الله ﷺ عبادة، وشأن العبادة أن تكون محددة جارية على النحو الذي يرضي المعبود، تقدم الصحابة لما نزلت الآية فسألوا رسول الله ﷺ: يا رسول الله ! هذا السلام عليك قد علمناه فكيف نصلي عليك ؟ ويجتمع من الروايات أن صيغة الصلاة عليه: اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآله وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.- فصلاة المؤمنين هي الدعاء الذي يتجه به المؤمن إلى ربه، بأن يفيض من فضله وتكريمه ورحمته على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما يرضيه في حبيبه ومجتباه، فمحتوى هذا الدعاء مفوض إلى الله سبحانه لأن في هذا التفويض ما يجمع بين الأدب والسعة. وأما البركة فهي بتكثير الخيرات وتعظيم المثوبات والتطهير والتزكية. إن ذلك كله يعبر عن الحب العميق لينعم الداعي بأن الله رفع به نبيه إلى مقامات سامية من القرب والكمال والرضى. تسري هذه الصلاة في الأكوان والعوالم. وثناء على الله بأنه حميد محمود فاعل ما يستوجب به الحمد من النعم المتكاثرة والآلاء المتعاقبة- مجيد، كريم كثير الإحسان إلى جميع عبادك الصالحين. ومن محامدك وإحسانك أن توجه صلواتك وبركاتك على حبيبك نبي الرحمة وآله .

وأما السلام فيقول المؤمن: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. كما هو في التشهد. ومعنى التسليم عليه إكرامه وتعظيمه. فالسلام إنشاء السلام عليه، والتصلية دعاء .

وليس في الصلاة والسلام عليه حد محدود. ولكن المؤمن إذا صلى وسلم على النبي ﷺ نال ثواب الطاعة، ومنزلة القرب من رسوله. والأدب يقتضي أن يعقب ذكره بالصلاة والتسليم عليه، وكذلك عند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وعند قصد الدعاء، وعند الانتهاء منه. نسأله سبحانه أن يحشرنا تحت لوائه مقربين منه يوم القيامة.

57. إن الذين يؤذون ....عذابا مهينا.

بعد أن بينت الآيات السابقة ما أوجبه الله لنبيه ﷺ من التكريم والإعزاز، أكد ذلك بالتنصيص على جزاء من يؤذيه .وافتتحت الآية بالذين يؤذون الله. وإذاية الله، تعالى عن أن يتأثر بمخلوق، ولكن إذايته تتمثل في الطعن في كمالاته كادعاء شريك له، أو رميه بالنقص وبعد أفعاله عن الحكمة. أو وصفه بما لا يليق بجلاله.

وإذاية الرسول تكون بكـل مـا ينـاقض تـوقيره، بـالقول أو الفعـل، أو الإيمـاء .ومنـه الطعن في شريعته أو في أهله أو في أمته. وقـد تفـنن المنـافقون فـي إذايتـه بـالخفي والظاهر. فحقـت علـيهم اللعنـه بإبعـادهم عـن أن تشـملهم رحمـة الله، وأن يلحقهـم التحقير والمهانة في الـدنيا، وأن يكـون مصـيرهم يـوم القيامـة العـذاب الجـامع بـين الآلام النفسية، والجسدية.

58.والذين يؤذون المؤمنين..وإثما مبينا.

تقدم في هذه السورة آية 6 قوله تعـالى: النبـي أولـى بـالمؤمنين مـن أنفسـهم، فهـو يدافع عنهم كما أنه يهديهم .ولـذا عطـف القـرآن التحـذير مـن إذايـة المـؤمنين علـى التحذير من إذاية النبي ﷺ .فبسط مقدما ما ينكره العقـلاء مـن إقـدام المنحـرفين علـى تحمل الكذب والزور، فيؤذون المؤمنين والمؤمنـات، بتسـليط ألسـنتهم علـيهم طـاعنين في أخلاقهم وسلوكهم، مع أنهم لم يفعلوا شيئا مما يطعنون بـه. وحتـى لـو كـانوا فعلـوا ما يوجب عقابهم، فالشريعة لم تمكـن أحـدا مـن إطـلاق لسـانه فـي عـرض المـؤمن والمؤمنة، والقضاء هو الذي يتولى الإثبات، وهو وحـده الـذي يحكـم وينفـذ. وعطـف المؤمنات على المؤمنين وإن كان الحكـم واحـدا للتنصـيص علـى المسـاواة فـي هـذا، ولأن ألسنة السفهاء تتناول الإناث أكثر، ويتخذون من إذايـة الإنـاث مركبـا للطعـن فـي أوليائهم .

وتعرف الآية بجزائهم: أنهم لغباوتهم كلفوا أنفسهم حمـلا ثقـيلا . ومـاهو هـذا الحمـل ؟ هو أنهم معدودون في أهل البهتان بثقل ميزان آثامهم بجرم شديد عقابه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ

الجلباب : غطاء تضعه المرأة على رأسها ويتدلى أسفل من كتفيها.

الذين في قلوبهم مرض :الذين لم يتخلصوا تماما من رواسب الكفر. ومنهم الزناة .

المرجفون : الناشرون للأكاذيب التي تدخل الهلع على بعض المؤمنين..

نغرينك : نحرضك على عقابهم.

ثقفوا: أينما عثر عليهم.

أخذوا: امسكوا لتنفيذ العقاب فيهم.

وقتلوا : يكثر القتل فيهم

بيان المعنى الاجمالي :

نادى الله نبيه ليبلغ لنسائه وبناتـه ونسـاء المؤمنين، أن يقربوا جلبابهن من الوجـه والعنق، وأن لا يتركنه وراء ظهورهن تعبث به الريح، الأمر الذي يفهم منه أن لابسه غير متحفظـة، أن إدناءهن للجلباب، وسيرهن بوقار، ينبئ عن وقار، ويعرف بأن المرأة ليست بمحل الريبة، وهذا ما يجعل الشباب والشطار لا يتعرضون لهن بالإذاية والمراودة. وما سبق منهن قبل نزول الآية من عدم التحفظ على النحو الذي بينته الآية، فإن الله لا يؤاخذهن لأنه قوي المغفرة، عظيم الرحمة. أما المنافقون فهم أخلاق النبي ﷺ، ظنوا ترفعه عن سفاهتهم ضعفا، فتمردوا وصرفوا كل قواهم لإذاية الإسلام وأهله، من تدبير المكائد، والتعرض للنساء ومغازلتهن، ونشر الأخبار الزائفة التي تربك المجتمع وتقتلع منه الثقة بنفسه. فأنذرهم رب العزة إنذارا قويا مزلزلا: أنهم إن لم يقلعوا عن فسادهم، فسيحرض نبيه تحريضا ينتهي بإخراجهم من المدينة تجللهم اللعنة والصغار. سيسلطه عليهم فيلحقهم عقابه في أي مكان حلوا فيه، بأسرهم ويكثر فيهم القتل .وفهم المنافقون أن الأمر جد فانكفوا، ولذلك لم ينفذ النبي ﷺ ما جاء في الإنذار.

بيان المعنى العام :

﴿ يا أيها النبي ....وكان الله غفورا رحيما.

يا أيها النبي: هذا هو النداء الخامس والأخير في سورة الأحزاب. يتضمن أمر النبي ﷺ أن يبلغ أزواجه أمهات المؤمنين، وبناته، ونساء المؤمنين، هذا التشريع المهم .الذكر ليس أن الله يأمرهن أن يدنين عليهن من جلابيبهن. والجلباب ثوب أصغر من الرداء الذي يشمل البدن كله، وأكبر من القناع الذي يغطي الرأس، فهو ثوب ينسدل على جانبي الوجه والكتفين ويتدلى تحت ذلك قليلا. كانت الأنثى تلبسه إذا خرجت من بيتها. أمرهن بإدنائه عليهن. وقد اختلف المفسرون في بيان المراد من إدناء الجلباب. فروى الطبري عن ابن عباس: الهيئة المقصودة: هي تغطية الوجه من فوق الرأس ويبدين عينا واحدة. كما روي عن ابن عباس أيضا، إدناء الجلباب: أن تقنع به رأسها وتشده على الجبهة. وزاد القرطبي توضيحا فروى عن ابن عباس أنه يقول: أن تلويه فوق الجبين ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت

عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وذكر معظم المفسرين الذين تتبعت كلامهم، أن العلة التي نصت عليها الآية في إدناء الجلباب أن يعرفن فيتميزن عن الإماء اللاتي قد يتعرض لهن الشطار، فإذا أدنين عليهن من جلابيبهن، والإماء لا تلبسن الجلباب، وقين أنفسهن من تعرض الدعار.

وكررت النظر، وأطلت البحث فلم أطمئن إلى تفسير الآية على هذا النحو. وذلك لأمور:

الأمر الأول: أن رتبة هذه السورة حسب تاريخ النزول هي التسعون كما بيناه في مطالعها، وسورة النور رتبتها المائة، فهي متأخرة عنها. وقد ورد في سورة النور قوله تعالى، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها آية 31 وحققنا في تفسيرها أن للمرأة أن تكشف وجهها، بل هي مطالبة بكشفه في عبادتي الصلاة والحج. والشريعة لا تناقض فيها. ولم يرو أنها ناسخة لهذه الآية، فتعين حملها على أنه ليس بينهما تضارب.

الأمر الثاني: نص الآية "ونساء المؤمنين " والإماء المؤمنات من نساء المؤمنين فإخراجهن بدون دليل، وتقييد الطلب بالحرائر بعيد جدا.

الأمر الثالث: الاختلاف بين ستر الوجه إلا عينا واحدة، وبين ستر معظم الوجه إلا عينين، وإسناد القولين لابن عباس، مما يرجح أنهم أسقطوا على الآية العادات التي كانت سائدة في المنطقة التي كان يعيش فيها المفسر، وهي عادات كانت تابعة لظروف اجتماعية

الأمر الرابع: أنهم فرضوا أن النبي ﷺ كان يتغاضى عن الشباب الذين يتعرضون للإماء لمراودتهن. يقول القرطبي ليقع الفرق بينهن وبين الإماء فتعرف الحرائر بسترهن. اهـ هذا غير مقبول إذ حرص الإسلام على العفة يستوي فيه الأمر بين الحرائر والإماء، وقد أبطل الإسلام تسلط المالكين للرقاب عن دفع إمائهن للزنا.

ولذا فإن الآية تحمل في نظري، والله أعلم، أن على من تذكر أن يسترن بالجلباب رؤوسهن، ثم يدخلن طرفيه في جيوبهن(فتحة العنق التي يدخل منها الرأس في الثوب) فيسترن العنق والصدر، ولا يبقى الجلباب خلف ظهورهن تحركه الريح فينكشف العنق والأذان، وربما حتى أعالي الصدر. ويكن بسترهن على هذا النحو، يعرفن بالعفاف غير متهمات بريبة، فالصورة المنهي عنها أن تشد الأنثى جلبابها فوق رأسها وترخيه على ظهرها، يتحرك بالريح وحتى بالمشي، وقد يعبث الريح بخصلات شعرها وينحسر عن عنقها وأذنيها وأقراطها، ومن تخيل هذه الصورة تعطيه منظرا لأنثى تبدي نوعا من الدل والغنج، مما يثير غريزة الدعار من

الشباب. ويلتئم هذا الفهم مع العلة التي وقع النهي من أجلها في هذه السورة آية 33 :{ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى } . إن من صفاته الأزلية سبحانه أنه قوي المغفرة فما وقع منهن من عدم التحفظ قبل نزول الآية يغفره لهن، وهو الرحيم بعباده يشرع لهم ما فيه صلاحهم .

60 ← 61، لئن لم ينته المنافقون...وقتلوا تقتيلا.

أفهم من هذه الآية أنها إنذار أخير من الله للمنافقين والمترددين والمرجفين في المدينة، وإن كانت الأوصاف الثلاثة ما صدقها المنافقون ولكن كل صفة تبرز نوعا من مكرهم، من مجموعها يظهر هدفهم الخبيث: زعزعة مجتمع المدينة المنورة. ودلتني هذه الآية أيضا على أن القرارات الحاسمة في تصرفات الرسول ﷺ كانت تأتيه من الله، فإنه كان يتأذى من مكرهم وكان على علم تام بمخططاتهم، ولكن ما انتقم منهم ولا جازاهم عن سوء فعالهم.

عمل المنافقون والمترددون على بعث الفوضى والقلق في مجتمع المدينة، ونزع الطمأنينة من النفوس، وإشاعة الأخبار الزائفة، وترديدها بما يطوّغ لقبولها ثم اعتقاد صحتها لكثرة ما تعاد على الأسماع بصور مختلفة ومتقاربة ومتحدة في الهدف. إذا خرجت سرية للغزو أشاعوا أنها هزمت وأن معظم أفرادها قتلوا. يتناولون أعراض المؤمنين والمؤمنات ويرمونهم بكل منكر ويغازلون النساء. يؤولون أفعال الرسول ﷺ وقراراته أسوأ تأويل لينزعوا الثقة به، وهكذا. ومجتمع المدينة يشمل كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين لا يروج عليهم الأراجيف، ويشمل من لم يسْمُ إلى ذلك المستوى الرفيع من تحليل الأخبار، فيتأثرون كل على مقدار استعداداته. ومهام الرسول ﷺ متعددة وعميقة، فشغبهم يشغله عن صرف جهوده للدعوة وتحصين الدولة. فجاء التنبيه الأخير صارما من الله عز وجل، أنهم إن واصلوا خبثهمولم يقلعوا عن إذايتهم للرسول ﷺ وللمؤمنين، فإن الله يغريك بهم، ويحرضك على عقابهم والانتقام منهم، نقمة تجعلهم لا يستطيعون المقام معك في المدينة إلا مدة قليلة، وذلك يشير إلى شدة التسلط عليهم ومواصلته، فيتم التضييق عليهم تضييقا يفضي بهم إلى مغادرة سكنى المدينة، والخروج منها نهائيا. إن المدة القليلة بين تسلطك عليهم وبين خروجهم يكونون فيها مبعدين لا يتعامل معهم المؤمنون، يجللهم الصغار والحقارة. ويتمكن الخوف من قلوبهم ويفقدون الأمن، ففي أي مكان أو زمان يظفر بهم يتم أسرهم والتضييق عليهم، ويقتلون قتلا ذريعا لا يتمكن أي منهم من الانفلات.

وبهذا التحذير الشديد انقمع المنافقون، وكفوا عن الأذى، ولم ينفذ الرسول ﷺ ما أذن له في عقابهم، لأن القصد الأول هو استتباب الأمن في المدينة، وقد انكف المنافقون، لما تبين لهم أن الأمر جد.

وفي هذه المعاملة ما يعطي درسا لمن يتولى أمر المسلمين، أن يكون حازما في كل ما يتعلق بالأمن المادي والنفسي، ولا يتهاون في الضرب على أيدي من يحاولون خلخلة النظام والطمأنينة. وأن الحزم لا يقتضي التنفيذ حتما، بل المهم هو دفع الضرر، فإذا تم دفعه بإرهاب المفسدين فإنه لا يتجاوز ذلك إلى العقوبة الجماعية.

62. سنة الله ...ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ذلك سنة الله في تحصين الجماعة الإسلامية، فهو لا يعاجل أعداءهم الذين يؤذونهم بالعقاب، لكنهم إن واصلوا واستهانوا بهم، وعملوا على نسف الأمن، فإن عقابهم يكون عقابا شديدا، وينهزمون أذلاء منه. وسنة الله ماضية لا يطمع منافقو المدينة ولا من يأتي بعدهم، أن يستثنوا منها.

يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما يدريك : أي شيء يجعل لك دراية ومعرفة ؟.

سعيرا: نارا شديدة الإيقاد.

سادتنا : جمع سيد.

كبراءنا: ج كبير عظيم العشيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

يسأل الناس رسول الله ﷺ عن الساعة (يوم القيامة) إما سؤال خوف منها، أو سؤال تكذيب واستهزاء، أو سؤال حب معرفة. كان الجواب واحدا لجميعهم بأن الله اختص بعلمها ولا يطلع عليه أحدا. ولعل موعدها قريب، فعلى المؤمن أن يكون مستعدا لها.

ثم فصل القرآن ما سيلقاه الكافرون يوم القيامة، يلقون لعنة وإبعادا من رحمة الله، وقد هيأ لهم نارا تتوقد شديدة الحرارة لا يخرجون منها أبدا، وهم موكلون إلى أنفسهم لا يجدون من يعطف عليهم ولا من ينصرهم، في ذلك اليوم يقلب الملائكة وجوههم في النار. ويعصر الندم قلوبهم فيقولون مخاطبين أنفسهم: {يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول} ولم نكذب بيوم القيامة. حاولوا قبل أن يلقى بهم في النار أن يتنصلوا من المسؤولية، فقالوا ربنا إنا وقعنا تحت تلبيس سادتنا وكبرائنا الذين كانت بيدهم قيادتنا فقادونا إلى طريق الضلال عن الحق. ربنا سلّط عليهم العذاب مضاعفا لكفرهم ولإضلالنا. وقدّر لهم من اللعنات ما ينصب عليهم في كل موقف. وكما جاء في سورة الأعراف: "لكل ضعف".

بيان المعنى العام:

63- يسألك الناس عن الساعة ....لعل الساعة تكون قريبا.

الساعة من المغيبات التي تثير الناس للسؤال عن وقتها. فمتى ينتهي هذا العالم الذي نعيش فيه ؟ متى يتحول الناس من عمل لا يصحبه السؤال والجزاء، إلى وقت الكشف والجزاء؟ يسأل عنها بعضهم استبعادا لها، ومنكرين. ويسأل عنها البعض متبينين أحوالها مشفقين منها، ويسأل عنها آخرون تطلعا لمعرفة المغيبات، ويسأل عنها اليهود لمقاربة جواب الرسول بما عندهم في التوراة علهم يظفرون منه بما يقنع الدهماء بعدم صدقه.

تنوع السائلون تبعا لما حملهم على البحث، فكان الجواب جوابا واحدا لجميعهم: هي من علم الغيب الذي تفرد الله بعلمه. فلا مطمع لهم من معرفة وقتها بالتحديد، ولكن المهم أن يكونوا مستعدين لما يلقونه فيها، فتوجه الخطاب للنبي ﷺ بقوله: وما يدريك ؟ أي شيء يعرفك بوقتها أيكون قريبا أو يكون بعيدا. وإذا كان الرسول ﷺ لا يوجد شيء يعلمه بوقتها، وهو الذي يتلقى الوحي من ربه، فكل من سواه أبعد عن القرب من المعرفة.

64-65: إن الله لعن الكافرين... وليا ولا نصيرا.

أشارت الآية السابقة إلى أن المهم لمن يعقل أن يستعد للآخرة، وأن السؤال عن وقتها أو عما يجري فيها بكامل الدقة مضيعة للوقت والجهد لأنه من الغيب الذي تفرد الله بعلمه. وأشارت هذه الآية إلى ما يلقاه الكافرون يوم القيامة فأفادت: إن الله حكم بأن جزاءهم مقرر لاحق بهم لا محالة، يشمل جزاؤهم المذكور:

أولا :أن اللعنة التي سلطت عليهم في الدنيا ستصحبهم يوم القيامة، وأنهم في ذلك اليوم يحرمون من رحمة الله ويبعدون عن منازل الصالحين .

وثانيا، أنه أعد لهم نارا شديدة التوقد.

وثالثا، أن عذابهم عـذاب سـرمدي لا ينقطـع، يصـحبهم اليـأس مـن الخـروج مـن العذاب.

ورابعا أنه يصـحب يأسـهم مـن انقطـاع العـذاب عـنهم، أنهـم لا يجـدون نصـيرا ينصرهم ولا صديقا يخفف عنهم.

66. يوم تقلب وجوههم...وأطعنا الرسولا.

ما فصّل من العذاب في الآيـة السـابقة الـذي لا يجـدون مـن إنقـاذهم منـه وليـا ولا نصيرا، يقولون في ذلك اليوم الذي تشوي وجـوههم النـار مـن كـل جانـب، فيقلبهـا الملائكة تقليبا تجعلهم يحسون العذاب في كل جـزء مـن أجزائهـا، الوجـوه التـي هـي مجامع الحواس، وإيلامهم فيها أشد الإيـلام، ويبـدون نـدمهم الـذي يزيـد فـي عـذابهم؛ يقولون يا ليتنا، هو تمني ما فات ولا مطمع في رجوعـه، وكـان لهـم دور فـي ضـياعه عنهم؛ يتبين لهم أن ما جاءهم به محمد حق، ومـا أنـذرهم بـه صـدق، يجلـدون ذواتهـم بسياط الندم على عدم طـاعتهم لله وعـدم طـاعتهم لرسـوله، يـوم كـانوا مختـارين لا يحول بينهم وبين الحق إلا العناد.

67←68، وقالوا ربنا إنا أطعنا...والعنهم لعنا كثيرا.

تسجيل لمشهد من مشاهد يوم القيامة، ترتفـع أصـوات الكـافرين وقـد رأوا رأي العـين ما أعده الله لهم من العذاب الذي بينتـه الآيـة السـابقة، يحـاولون التنصـل مـن تبعـات أعمالهم فيقولون: ربنا ! استعطاف علـه يخفـف عـنهم شـيئا مـن العـذاب، ويُلقـون المسؤولية على ساداتهم (عظمـائهم) الـذين كـانوا يرضـخون لمـا يحددونـه لهـم فـي الدنيا، وكذلك على كبـراء القـوم الـذين كـانوا يـأمرونهم فيطيعـون، ولكـن مسـتواهم الاجتماعي دون مرتبة السادة، يعترفون بـأنهم كـانوا يطيعـونهم فـي تكـذيب الرسـول وإنكار يوم القيامة.

مهدوا لطلب الانتصاف من الذين كانوا سببا في إضلالهم، وليخففوا عن نفسهم المسؤولية إذ هم تابعون، والذي نظّر للكفر وأحاطه بما يزينه هم السادة والكبراء، ولذا هم يسألون الله أن يضاعف عذابهم جزاء كفرهم وجزاء التغرير بالأتباع، ولشدة حقدهم على من كانوا سببا في كفرهم وخسرانهم يوم القيامة، طلبوا أن يلعنهم الله ويبعدهم عن رحمته لعنا كثيرا يتجدد في كل موقف وفي كل وضعية من الوضعيات . طوي جوابهم عن تذمرهم واعتذاراتهم، وقد سجلته الآية (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون)[1]

---

[1] الأعراف آية38

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ

برأه الله: أظهر براءته

وجيه: صاحب مكانة رفيعة مرضي عنه.

القول السديد: القول الموافق للصواب والحق.

بيان المعنى الإجمالي:

ينبه الله المؤمنين حتى لا يكونوا في سلوكهم مع رسول الله ﷺ كسلوك يهود مع موسى، فقد آذوه بكثرة التشكي والتشكيك في نجاح ما يأمرهم به، ورموه بعيوب، وتولى الله إظهار براءته مما رموه به باطلا. وفوق ذلك منزلته: أنه من المقدمين بين البشر، مرضيٌ عنه مقبول الدعاء .

ثم أمر المؤمنين أن يكونوا يقظين لصلتهم بربهم، مما يجعلهم ملازمين لتقوى الله، وأن يحرصوا على مراقبة أقوالهم فلا يقولوا إلا ما هو موافق للحق والصدق، يمكن للفضيلة والخير، كنشر العلم، والذكر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وحرضهم سبحانه على الالتزام بالتقوى والقول السديد، بإظهار نتيجة ذلك، أعظم بها نتيجة، هي الفوز والنجاح العظيم في الدنيا والآخرة .

عرفنا القرآن بما تم في عالم التكوين العام الشامل للكون، منزلة الإنسان في الكون فجسمها، بأن الله عرض المسؤولية على السماوات والأرض والجبال لتقوم بها، فكان لسان حالها يعبر عن رفضها تحمل الأمانة لعجزها عن القيام بها حسب مؤهلاتها .وتفرد الإنسان بقبوله لتحمل أمانة توحيد الله، والتصرف في الكون حسبما تقتضيه شريعة الله، وفطرته وعقله، ليسمو إلى أرقى مرتبة بين الخلائق

إذا هو أدى الأمانة وأحسن تحملها، أو ينزل إلى أسفل سافلين إذا هو ضيع الأمانة وقطع صلته بمبدع الكون وتصرف تبعا لهواه. إن الإنسان المتهاون بما ائتمن عليه في الكون يكون ظالما أشد الظلم لقطعه صلته بالله، ولتعديه على ما لا يملكه وتصرفه فيه حسب هواه، وهو ينزل إلى هذا الدرك بسبب جهله بسوء عاقبة ظلمه.

إن تحمل الإنسان للأمانة تظهر عاقبته فيما سيسلط على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من العذاب الذين خانوا الأمانة واستهانوا بمسؤولياتهم ،وفيما سيلقاه المؤمنون من تكريم لا يشوبه نقص لأن الله تكفل بتوبته عليهم. والله متصف بأنه الغفور الرحيم.

بيان المعنى العام :

69ـ يا أيها الذين امنوا لا تكونوا...وكان عند الله وجيها.

تقدم في هذه السورة صور من جراءة الكافرين والمنافقين على رسول الله ﷺ، إلى أن هددوا بالإنذار الأخير (لئن لم ينته....)ونبه الله المؤمنين أن يرعوا حق رسول الله ﷺ، وأن يوقروه وأن يترفعوا عن جفاء الأعراب، ولا ينزلوا إلى المستوى الهابط الذي كان لبني إسرائيل مع سيدنا موسى عليه السلام .فقد آذوه بعصيانهم، وتشكيكهم في ترتيب النجح على ما يأمرهم به. قالوا له: {اذهب أنت وربك فقاتلا} وقالوا له لما أمرهم بذبح البقرة: أتتخذنا هزوا ورموه بقتل أخيه هارون، وحرضوا مومسا لترميه باغتصابها، ولما كان لا يتعرى رموه بأنه أبرص أو آدر. وقد نفى الله ما رموه به من العيوب، أو من التقصير والقصور. وسما إلى رتبة الرضى والقبول عند الله مفضلا على كثير من الخلائق.

70←71 يا أيها الذين امنوا اتقوا...فقد فازفوزا عظيما.

المنهج القرآني في الإصلاح: أنه يُتبِع النهي عن الفساد بالأمر بالصلاح، والإنذار بالتبشير، والتخويف بالتأمين. فبعد أن نهى المؤمنين عن الغفلة عما يقتضيه الأدب والتوقير لرسول الله ﷺ، وضح لهم ما يعينهم على الصلاح في جميع شؤونهم، فأمرهم أولا بتقوى الله التي تتحقق بالاستحضار الدائم لصلة الإنسان بالله، وأنه معهم لا تخفى عليه خافية من نواياهم وأعمالهم. وأن يراعوا فيما يُقبلون عليه وما يتركونه تطبيق شرعه. ثم خص من التقوى مراقبة اللسان بمزيد اليقظة والمراقبة، فليقصروا كلامهم على الأقوال السديدة الموافقة للحق والصواب، والخير والفضل، مما يشمل الذكر، وإسداء النصح، ونشر العلم، والنهي عن المنكرات بالحكمة والموعظة الحسنة، والذب عن الإسلام ورد مطاعن الطاعنين، وأيضا الانكفاف عن إذاية الآخرين، وهو من تقوى الله.

ومن فضل الله على الناس أنه يهديهم لما هو خيرهم، ثم يساعدهم على اتباعه بذكر ما يترتب على الاستقامة من ثواب عاجل وأجل. فقال تعالى : يصلح لكم أعمالكم . وهذه هي الهداية التي هي عبارة عن إسعاد المتقي المحافظ على منطقه بالألطاف التي تسلك به سبيل الخير وإلف صالح الأعمال. وفوق ذلك أنه لكرمه سبحانه يغفر لكم بالتقوى وحفظ اللسان ما فرط منكم من السيئات .

قاعدة عامة: من يلتزم في أقواله وأفعاله تطبيق ما جاء من الله وما هدى إليه رسوله، فألف طاعتهما ؛ إن هذا الربط ينتج النتيجة التالية: أنه تحقق فوزه ونجاحه في الدنيا والأخرى، بمستوى عظيم لا يعلم مداه ومقداره إلا الله سبحانه. جعلني الله وإياكم ممن هدي للتقوى والقول الطيب، وفوزنا برضاه.

72-إنا عرضنا الأمانة..... كان ظلوما جهولا.

تتميز هذه الآية بسعة مضامينها، وبعمق ما تدل عليه، وبجمعها للكائنات كلها بأخصر لفظ . تفتتح الآية باستحضار الجلال والكمال الإلهي والعظمة " إنا " فالمنطلق هو الحضور الإلهي المتحكم في الكون كله الذي أجراه على سنن في الخلق والتقدير لا يحيط بها علم الإنسان مهما سما. فلنتابع الآية لفظا لفظا.

1) عرضنا: العرض يقتضي شيئا معروضا لتبيّن تأهل المعروض عليه للقيام به، أو قصوره عن ذلك المستوى. عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: (أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني)[1] فهذا عرض للجهاد. وفي الآية عرض لتحمل الأمانة. وهو تجسيم يقرب به القرآن للحقيقة التي تمت، على مستوى مدارك البشر .

2) الأمانة : اختلف الناظرون في كتاب الله في تعيين الأمانة: من الإيمان، إلى أصول العبادات، إلى ما يؤتمن عليه الإنسان من حقوق غيره، إلى العمل، إلى الخلافة في الأرض...... والذي ترجح عندي: أن الأمانة، هي مجموع المؤهلات التي تميز بها الإنسان عن جميع الكائنات الأخرى، هذه المؤهلات التي جعلته مُمكّنا من إصلاح نفسه وإصلاح محيطه القريب والبعيد، كما هو ممكن من إفساد غيره ومحيطه وكل ما تصل إليه قُدْرته. فالأمانة هي أمانة علاقة واختيار: إما أن يكون راشدا في تصرفه في علاقاته، هذا الرشد الذي يهديه إليه عقله، وما ألهمه الله في فطرته، وما أمره به ونهاه عنه وأرشده على لسان رسله. وإما أن يزيغ عن الرشد إلى الفساد.

---

[1] فتح الباري ج 6ص204/203

تجري حياة الإنسان على سنن في الخلق، الدورة الدموية، الصلة بين دماغه وبين حالات الإحساس المثبتة في بدنه، الجهاز الهضمي وخصائصه، عظامه ولحمه وجلده، ونحو ذلك مما تسير عليه حياة الإنسان دون شعور منه ولا إرادة، وهو في وقوعه تحت هذه النواميس لا يختلف عن بقية الكائنات التي أودع فيها الباري سبحانه نظامها التي تسير عليه.

وجانب آخر في الإنسان، هو اختياره بين المسلك ونقيضه، مما يترتب عنه النتائج المتعاكسة حتى في بدنه، فهو يستطيع أن ينظم غذاءه، ويمرن عضلاته، فينمي قواه ويوفر لها السلامة. أو بالعكس فيعرض جسمه للترهل والأسقام. وهو في هذا الكون جزء بسيط عليه أن يرتب علاقته بالكون على أساس أنه مخلوق لخالق الكون كله، عليه أن يطبق النظام الذي عرفه به بواسطة عقله وشرع الله، في علاقته بخالقه وفي علاقته بكل جزء من أجزاء هذا الكون، ويحاسب على اختياراته، التي إن كانت صالحة بالجزاء الحسن، وبالعقاب إن كانت مفسدة بالعقاب. إن هذه الأمانة أي المسؤولية في كل لحظة من لحظات حياته وفي كل كبيرة وصغيرة من أعماله، ونتائجها المباشرة، وغير المباشرة، اختص بها الإنسان وهي منزلة تبلغ أعلى مراتب الشرف إذا هو أدى الأمانة التي تحملها على العدل فاستقام، أو تنزل إلى أدنى منازل الحطة بمقدار انحرافه عن الحق والعدل.

3) على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها تجسيم لعدم تأهل السماوات والأرض لتحمل أمانة الاختيار والمسؤولية في الالتزام بالصلاح. قد تثور الرياح فتهدم المنازل والقناطر وتغرق البواخر، وتقلع الأشجار وتبيد المزارع، وهي غير متحملة للأمانة وغير مسؤولة. ولو قاد الإنسان شيء من ذلك لعوقب عليه، وكذلك الأمطار بين الخصب أو الجفاف، وهطولها بكميات تفوق طاقة التحمل، كان لسان حالها ينبئ عن إشفاقها من تبعات الأمانة، فلم تتحملها. والتنصيص على الجبال وإن كانت جزءا من الأرض إلا أنه تم لما استقر في الذهن والخيال من قوتها وعظمتها، صرح بها لتبلغ الصورة مستوى رفيعا من الإحساس بها.

4) وحملها الإنسان تقبل رعي ما كلف به، بما أوتي من استعدادات للإصلاح والإفساد، للسمو والحطة، بعقله وفطرته، وقدرته على الاختيار بتحكيم عقله في غرائزه وشهواته، أو الانصياع لها وتغليبها على ما جاءه من عند الله. فتشمل الأمانة علاقته بالخالق، وعلاقته بكل فرد من إخوانه في البشرية، وعلاقته بمكونات السماء والأرض.

5) إنه كان ظلوما جهولا: تؤكد هـذه الخاتمـة أن الإنسـان الـذي اختـار الانحـدار إلـى أسفل سافلين، فاختار الكفر علـى الإيمـان، وطريـق الضـلالة علـى طريـق الهدايـة، والظلم على العدل والفسـاد علـى الإصـلاح هـو ظـالم أشـد الظلـم لنفسـه ولنوعـه ولمحيطه، وللحقيقة، إن الذي انحرف به أولا: هو ظلمـه لنفسـه بـالكفر وإقامتـه حجابـا بينه وبين ربه وهدايته؛ ثم تسلطه المفسد على مـا هـو بـين يديـه ممكّـنٌ مـن التـأثير فيه. وثانيا إنكاره إنكار الجهلة عاقبـة عـدم وفائـه بالأمانـة التـي حَمَلهـا. إنـه، أي إن الإنسان الذي لم يعِ بالأمانة، وليس مطلق الإنسان الشامل للصالح والمفسد.

73 ليعذب الله المنافقين...وكان الله غفورا رحيما.

أفصحت الآية عن عاقبة تحمل الإنسان للأمانـة: العاقبـة أن يتواصـل عـذاب المنـافقين والمنافقات، والمشـركين والمشـركات، الـذين تعـاونوا رجـالا ونسـاء للقضـاء علـى الإسلام في غزوة الخندق. فتسـجل علـيهم آثـامهم دون أن يهمـل شـيء منهـا. وفـي المقابل يتولى المؤمنين والمؤمنات الذين حملوا الأمانـة ووعوهـا، وأخلصـوا فـي القيـام بها، الجزاء الـذي يمحـو أثـر السـيئات ويضـاعف الحسـنات .(إن الحسـنات يـذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين.)[1] يؤكـد هـذا التصـرف الإلهـي: أن الله ثبـت اتصـافه أزليا بالمغفرة والرحمة .

أكملت تفسير سـورة الأحـزاب بعـد ظهـر يـوم السـبت25جمـادى الأولـى 1434 - 2013/4/6 أسأله أن يعينني على إتمامه.

[1] سورة هود آية 114

ســـــورة سبـــأ

هذا هو الاسم الذي عرفت به. ووجه تسميتها بذلك ذكر قصة سبأ في أثنائها. وهي سورة مكية. وهي السورة الرابعة والثلاثون حسب ترتيب المصحف. وهي السورة الثامنة والخمسون حسب ترتيب النزول، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ.

الولوج: الدخول .

يعرج: يصعد .

لاتاتينا الساعة: لا يأتينا يوم القيامة .إنكار للبعث.

بلى: كلمة تفيد نقض النفي السابق. لا تأتينا الساعة، نقضها تأتيكم الساعة .

العزوب: الخفاء .

السعي: الجد في فعل من الأفعال.

اياتنا: القران

معاجزين: يظنون أنهم يستطيعون الانفلات من العذاب ويعجز عن اللحاق بهم .

الرجز: أسوأ العذاب .

بيان المعنى الإجمالي :

ثبت لله الحمد والثناء الكامل مالك جميع ما في السماوات وما في الأرض، هو الذي أنشأها إنشاء راعى فيه الدقة ومقومات البقاء إلى الأجل الذي حدده، وهو المتفرد بالحمد في الآخرة، وليس لغيره أي حظ من الثناء، وهو سبحانه الحكيم الذي لا يغيب عن علمه ما هو حاضر وما سيتحقق في المستقبل فيراعي سبحانه الجميع بحكمته، وهو الخبير فكل ما يتصرف فيه يتصرف فيه بأبلغ إتقان..

بلغ علمه الشامل كل ما يدخل في الأرض من ماء وما يستكن فيها من حيوان وما يتقلها من هواء، والبذور المختلفة الأنواع. كما يعلم ما يخرج منها من نبات وأشجار وأنواع الحيوانات، وعلى نفس المستوى من العلم الدقيق يعلم ما ينزل من السماء من هداية وأمطار وأشعة وملائكة، وما يصعد منها من الملائكة وصحائف الأعمال والأبخرة، وهو سبحانه الرحيم بعباده يحيطهم بألطافه الحسية والمعنوية . ويغفر للمؤمنين ذنوبهم .

قابل الذين كفروا سعة علم الله وحكمته، بإنكار البعث وزعموا أنه لا حياة بعد الموت. أمر الله نبيه أن يرد عليهم مقالتهم مثبتا لنقيضها بكل تأكيد، أمر نبيه أن يقسم بربه أنها ستأتي عليهم فيوقظون من قبورهم، ويحشرون للحساب. لا يخفى عن الله وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا ما هو أعظم من ذلك. سجل ذلك تسجيلا لا يفلت منه شيء. لتكون العاقبة أن الذين آمنوا بالله على الوجه المطلوب وعملوا ما هو خير في الدنيا يجزيهم بغفرانه لتقصيرهم، ويرزقهم من أنواع النعيم والتكريم ما يتجاوز الوصف. والذين اجتهدوا في العناد، ورد ما نطق به القرآن ظانين أنهم يفرون من حصائد أعمالهم ولا يلحقهم العذاب، سينزل بهم أسوأ العذاب وأشده إيلاما.

بيان المعنى العام :

1 ـ الحمد لله ...وهو الحكيم الخبير .

خمس سور في القرآن افتتحت بهذا الافتتاح البديع: الحمد لله، وهي سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وهذه السورة، وسورة فاطر.

الحمد لله: الثناء الكامل ثابت لله وحده، وما استحق أحد سواه الحمد إلا بفضل ما وصل إليه منه سبحانه من خير أو هداية. ثم تابعت الآية توجيه الحقيقة التي سجلت في أولها، يوضح المستحق للحمد: أن ما في السماوات وما في الأرض ملك له. وإذا تأملت في تنظيم وتدقيق عالمي الأرض والسماوات، فإنه كلما تقدمت معرفتك في مكوناتها وفي علاقات بعضها ببعض وما هي عليه من جمال وتناسق،

تنبهر بأن كل جزئية من تلكم العوالم مرعية في خلق العوالم العظمى. ثم إن ما ينزل من السماء إلى الأرض فيتم التفاعل من الهداية الربانية على لسان الرسل، ومن الغيث المحيي. وهذا ما يتبعه حتما أن يفيض اللسان بما غمره من الاحساس بالإتقان البالغ أن يثني الثناء الكامل في حدود ما تتحمله اللغة على الخلاق سبحانه.
ثلث الآية بأن له وحده الحمد في الآخرة، وفي عرصات القيامة يتفرد بالحمد فلا محمود سواه لا حقيقة ولا مجازا، اذ تتعطل جميع القوى فلا تغني نفس عن نفس شيئا. يعبر عن كل ذلك ما اتصف به أزليا بأنه الحكيم الذي تتكشف له الغايات القريبة والبعيدة وما يترتب عليها وما يتولد منها فيرعى كل ذلك دون ترتيب زمني ولا إعمال فكر، وهو الخبير، علمه وإتقان صنعته متلازمان.

2. يعلم ما يلج في الأرض ...الرحيم الغفور.

اتصلت هذه الآية بسابقتها لتظهر استحقاقه تعالى للحمد الكامل والثناء الجميل. إنه سبحانه وهو مالك ما في الأرض وما في السماء؛ يظهر ملكه التام في تواصل تصرفه فيهما، وأن كل ما يجري فيهما لا يخرج عن علمه. وفصل هذا المعنى فقال: إنه يعلم علما تتكشف له به الظواهر والخفايا لكل ما يلج في الأرض حتى قطرة الماء التي تنفذ داخل التراب والهواء الذي يتخلل أجزاءها، والتطورات التي تحدث في عروق الأشجار وهي تتمثل ما تمتصه من ماء وغذاء. وهو سبحانه العليم بما يخرج منها كبيرا كان أو صغيرا، يعلم ما يتبحر من المياه وما يخرج من المعادن، وأنواع النباتات والأشجار. وما ينزل من السماء فكل قطرة من قطرات المطر معلومة عنده يمسكها متى شاء، وما ينزل من السماء من وحي ومن تقديرات تحملها الملائكة. فكل ما يجري في الكون مقدر بحكمته، وينفذ بخبرته، وهو الموصوف أزلا بواسع الرحمة. فما يصل إلى الإنسان من خيرات الأرض والسماء هو برحمته، وهو الذي يطمع المؤمنون من عباده في مغفرته وتجاوزه عن تقصيرهم، وعدم مؤاخذتهم بكل هفوة تصدر عنهم، فهو الغفور حقا.

3. وقال الذين كفروا ...إلا في كتاب مبين.

هذا النظام والدقة والتصرف المحكم التي تمت الإشارة إليها فيما مضى، تقتضي حتما جزاء الإنسان عن عمله، وإلا كان الخلق عبثا. ولكن الذين كفروا وألقى الكفر حجابا على بصائرهم، قالوا: لا تأتينا الساعة، لا بعث بعد موتنا، فأوحى الله لنبيه أن يواجههم بالرد الذي أتاه من خالق الأكوان، قل لهم: بلى. باطل ما ادعيتم، وأقسم بربي على ذلك قسما يثبت ما أقول: بكل تأكيد لتأتينكم .

ثم وجهت الآية إلى ما ينفي استبعاد البعث الذي ينبوء على أن تحلل الأجسام إلى ذرات وتحولها إلى صور أخرى ينفي البعث والإحياء بعد الموت. فأثبتت الآية أن ما بنوا عليه استبعادهم لقيام الساعة، أنه قد مرت أزمان وما بعث أي ميت من قبره، فأكدت الآية أن قيام الساعة من الغيب الذي تفرد الله بعلمه، ولا تأتيكم إلا بغتة. واستبعدوا اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وبعدها عن بعضها، قد تكون أجزاء من الجثة في السماء وأخرى في الأرض . فنبههم على قصور تصورهم : بأنه علم الله محيط بكل جزئية، في مكانها وتحولاتها، صغرت أو كبرت، وأكد هذه الحقيقة بأنه تعالى لا يعزب أي لا يخفى عليه صغير ولا كبير في أي مكان، لا من الأجسام ولا من الأفعال ،وحتى يقرب تصور هذا العلم الشامل الدقيق، مثله بأنه موثق في كتاب واضح لا اختلاط فيه.

وذكر القرآن أن الله ينشئ البشر نشأة أخرى: (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة)[3] (وأن عليه النشأة الأخرى)[4] فمن أنشأ النشأة الأولى قادر على إعادة ما أنشأ. ثم إن العلم تقدم اليوم فبان أن الحامض النووي يعرف بكل إنسان بعد موته ولو مرت قرون على موته.

4-5: ليجزي الذين آمنوا...إلى صراط العزيز الحميد.

تأكد أن الخلق لم يخلق عبثا، يستوي فيه الصالح والطالح، والخير والشرير، النافع لغيره والمضر به . والحياة قد تمضي فيموت المفسد وقد جنى من شره منافع جمة، ويموت الخير مضطهدا من الأشرار. وأن الله يحصي كل ما صدر عن المكلفين ولا يضيع من أعمالهم شيء، كل ذلك يفضي إلى غاية هي الجزاء العادل عما قدم كل من الفريقين؛ فالذين آمنوا وصلحت عقيدتهم وتصورهم للكون، ثم لم تناقض أفعالهم وأقوالهم عقيدتهم، فراعوا القيام بصالح الأعمال. أن أولئك الأخيار يكون جزاؤهم الذي يستحقونه مغفرة من ربهم لما عسى أن يكون منهم من تقصير، وبعد نفي كل النقائص والآثام من صحائفهم يجزون بنعيم تبعا لما يتفضل به عليهم ربهم، وهو وإن اختلفت درجاته فهو رزق وثواب نفيس لا يشعر المنعم بنقص ولا يأسف على فوت أي شيء.

وفي المقابل فإن الذين محضوا جهودهم للشر والفساد، ظانين أنهم سيفلتون من عذاب الله يعجزونه عن التمكن منهم وتنفيذ أحكامه فيهم. أولئك سيضبطون ضبطا

---

[3] سورة العنكبوت آية 20

[4] سورة النجم آية 47

لا يفلت منهم أحد يشار إليهم ليكون جزاؤهم عذاب جهنم، الذي هو أسوأ عذاب وأشده إيلاما .

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

ندلكم: نعرفكم .

الخلق الجديد: الحديث العهد بالوجود

التمزيق: تفكيك الأجزاء

افترى: ذكر خبر مختلق لم يسمعه المخبر ..

الضلال: خطأ الطريق الموصل إلى المقصود.

ما بين أيديهم: ما يواجهونه.

الكسف: القطعة.

الآية: الدليل.

المنيب: المعاود للنظر .

بيان المعنى الإجمالي :

تيقن الذين آتاهم الله القرآن فاختلط بعقولهم حتى أصبح علما لا مدخل للشك فيه، واضح الدلالة والمرامي؛ تيقنوا أن الذي أنزله الله عليك من ربك منحصر فيه الحق، النافي لكل باطل من التصورات، ومع كونه حقا هو يشتمل على قوة تؤثر في العقول فتهديها وفي السلوك فتصلحه، ليتم المسير في طريق الله المتصف بالعزة المستحق للحمد.

دبر الذين كانوا رؤوس الفكر لصد من يرد من العرب سائلين عن محمد وعن دينه أن يقولوا لهم : نحن مستعدون لندلكم على هذا الرجل الذي تبحثون عنه، ونعرفكم بما جاء به هو يدعو إلى أمر واحد يقول : إنكم إذا متم وتمزقت أجسامكم

وتحللت، أنكم تعودون لحياة من جديد، كـأن البلـى لـم يلحقكـم. إن مـا يـدعو إليـه يثبت أنه إما أن يكون قد اختلق أخبارا ونسبها إلـى الله، وإمـا أن يكـون بـه مـس مـن الجنون. كذبوا ما كذب على الله وهو أكمل الناس عقـلا، ولكـن الـذين أخـص صـفاتهم التكذيب بالبعث واقعون في العـذاب، ومغرقـون فـي الضـلال الـذي يبعـد بهـم عـن الحق بعدا كبيرا.

بيان المعنى العام:

6- ويرى الذين أوتوا العلم...العزيز الحميد.

عطف القرآن على الحقائق التي أكـدت وحدانيـة الله وإحكامـه للكـون، وتصـرفه فـي العباد بما يجزي به كل عامل بما عمل، مثبتـا أن مـا ذكـر مسكب فـي قلـوب الـذين أوتوا العلم القرآنـي اليقـين بأنـه حـق، ففهمـوا كـلام رب العـزة واسـتيقنت أنفسـهم بصدقه، وأن الحق منحصر فيه. ولأنـه يشـتمل علـى قـوة عجيبـه تنفـذ إلـى القلـوب فتهديها وإلى الطبـاع فتهـذبها، وإلـى السـلوك فتصـرفه عـن الشـر وتلزمـه الخيـر والصلاح. وذلك هو صراط الله العزيز الذي بعزتـه اعتـزوا، وبمـا والـى علـيهم مـن العناية والهداية انطلقت ألسنتهم بحمده والثنـاء عليـه. وهـو سـبحانه المتصـف بـالعزة والمستحق الحمد.

7-8: وقال الذين كفروا...في العذاب والضلال البعيد.

في مقابلة ذلكم الموقف الذي عبر عنـه القـرآن بالنسـبة للـذين احتـل هـدى القـرآن عقولهم وأرواحهم، عمل قادة الكفر على صد النـاس عـن الـدخول فـي الإسـلام، فكمـا أثروا في الدهماء الذين يثقون بهم، عملوا على التأثير فـي الوافـدين مـن العـرب الـذين بلغت مسامعهم دعوة الإسـلام، ويقـدمون إلـى الأسـواق وبمناسـبة المجـامع العامـة، يستطلعون أمر ما سمعوه ويتقصون حقيقته. اعـد الـذين كفـروا طريقـة تحـول بيـنهم وبين الإيمان. اتفقوا على أن يكون جوابهم للذين يسـألون عـن الإسـلام أن يقولـوا لهـم: هل تريدون أن ندلكم على رجل بلغ به الحال أنه يـدعي أنـه يخبـركم بعجيـب الأخبـار التي لا يصدقها عاقل، يبنكم أنكـم إذا مـتم ثـم تحللـت أجسـامكم وتنـاثرت أجزاؤهـا، أنكم تعودون للحياة خلقا جديدا مكتملي القـوى، ويتبعـون كلامهـم بأنـه رجـل لا يخلـو من أحد أمرين؛ إما أن يكـون قـد اختلـق كلامـا مـن عنـده ونسـبه إلـى الله، وهـو المفتري، وإما أن يكون مجنونا يهذي تبعا لاختلال مداركه

رد القرآن عليهم ما وصفوه بكلمة "بل " التي تفيد أن مـا تقـدمها باطـل وزيـف. وعبـر عنهم بالذين لا يؤمنون بـالآخرة، إبـرازا لمنشـأ ضـلالهم؛ هـم واقعـون فـي العـذاب

بإنكارهم البعث، وقد أوغلوا في الضلال، لأن الضال هو من أخطأ الطريق الموصل للمقصود، فكلما واصل سيره في طريقه الضال، ازداد بعدا عن الصواب.

9. أفلم يروا إلى ما بين أيديهم ... عبد منيب.

صيغت الآية على صورة التعجيب من غفلة الكافرين المنكرين للبعث، كيف استبعدوا إعادة الحياة للأجسام بعد موتها وتمزقها، ومشاهد الكون أمام أبصارهم. إنهم لو أبصروا الكون المحيط بهم من كل مكان، من أمامهم ومن خلفهم، وما يبدو فيه من مظاهر القدرة والإحكام. إنهم لو تدبروا فيما تنقله إليه أبصارهم، لأدركوا إمكان البعث، بل إن تنظيم الكون أهون من إعادة الأجسام .

ثم عقب التعجيب من غفلتهم بالتهديد بما يقع تحت أبصارهم، فإن الأرض التي يسيرون عليها قابلة لن تنفذ أمر ربها فيهم فتبتلعهم وتتخسف بهم كما وقع لقارون، وإن السماوات التي تمسكها القدرة الإلهية والنظام الذي يسير عليه الكواكب، إن الله قادر على أن ينزل عليهم قطعة من السماء فتسحقهم سحقا كما أصاب أهل الأيكة.

إن في نظام الكون وحسن تصرف الخلاق العليم فيه، وعجزهم عن حمايه أنفسهم من السماء والأرض الواقعين تحت قدرة الله، إن في ذلك لدليلا ينتفع به كل عبد من عباد الله، غير مصمم على الإنكار مغلق لعقله، بل هو يعيد النظر ويوالي التأمل، فتتكشف له الحقيقة بما رزقه الله من بصيرة أعملها ولم يهملها.

♦ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ

أوبي : التأويب الترجيع.

ألنا: طوعنا له الحديد بذهاب صلابته.

سابغات : دروعا سابغة.

قدر : اجعله على مقدار دقيق مضبوط.

السرد : صنع الدروع الحديدية .

القطر : النحاس المذاب .

الإسالة : جعل الشيء سائلا.

يعمل بين يديه : يخدمه ويطيعه.

من يزغ: من يعص أمرنا.

المحاريب : ج محراب وهو الحصن الذي يدفع منه العدو..

التماثيل : الصورة المجسمة من عمل النحات التي تحكي إنسانا أو حيوانا أو شيئا متخيلا كصورة الشيطان..

الجفان : جمع جفنة وهي القصعة .

قدور : جمع قدر، وهو الإناء الذي يطبخ فيه الطعام

راسيات : ثابتة على الأرض..

دلهم : الدلالة الإشعار بأمر خفي

دابة الأرض : الأرضة، السوس الذي ينخر الخشب .

المنسأة : العصا

بيان المعنى الإجمالي:

تحقق أن الله مكن داود من فضل كبير، جعله نبيا وآتاه الزبور، وأذن للجبال والطير أن يسبحن معه، ويذكرن إذا ذكر، يأنس بالكون ويأنس له ،وطوع له الحديد الصلب، وأمره أن يصنع منه الدروع الساترة والحامية لجميع البدن مع خفة الوزن ،وأن يتقن صناعته فينجزها على مثال مقدم. ثم أمر وأهله أن يعملوا الصالحات شكرا لله على ما أنعم به عليهم. وكما سخر الله لداود الجبال والطير تسبح معه، وألان له الحديد فصنع منه الدروع، فكذلك امتن الله على سليمان فطوع له الريح تساعده فتسير في الصباح مسيرة شهر وتعود في المساء مسيرة شهر، ومكنه من النحاس المذاب يجري متدفقا كأنه من عين جارية. وسخر له الجن يعملون له وينفذون أوامره، لا يستطيعون الانتقاض عليه أو التهاون بما يكلفهم به، يرقبهم الله ويعاقب أشد العقاب المتهاون.

يعملون لسليمان ما تتعلق به مشيئته من المنجزات العجيبة، يبنون له حصونا منيعة حول مدينته، وينحتون له تماثيل رائقة، ويصنعون له جفانا كبيرة كأنها الجوابي،

وقدورا ثابتة لا تزول عن مكانها لطبخ الطعام. ثم توجه الخطاب لداود وآله: أنعمت عليكم فاعملوا عملا صالحا لتكونوا شاكرين .إن الشكر يسمو بكم إذ الشاكرون قلة .

ثم إن سليمان جاء أجله فمات، وبقي جالسا على كرسيه، لا يظهر أنه قد مات. والجن يبذلون كل طاقاتهم لإنجاز الأعمال التي كلفوا بها، يخشون البطش بهم إن هم تراخوا. وفي لحظة يسقط سليمان بعد أن تهشمت عصاه بنخر السوس باطنها. مضى بين موته وسقوطه على الأرض زمن، والجن لا تعلم، وهي مسخرة تعمل. إن هذه الحادثة تكشف عن عدم قدرة الجن كشف الغيب، إذ لو كانت لهم القدرة على معرفة الغيب لعلموا موت سليمان بمجرد موته، ولما كانت لهم حاجة لمعرفة ذلك بسقوطه على الأرض.

بيان المعنى العام :

10 ـ11 ولقد آتينا داود .....بما تعملون بصير .

بكامل التأكيد تعلقت إرادتنا فنفذت للفترة ما أردناه. أن نمكن داود من فضل عظيم منا . فماهو هذا الفضل ؟ فصلته الآية فيما يلي :

أمرنا الجبال أن تشاركه تسبيحه وذكره، وكذلك خاطبنا الطير ، وهي مسخرة لنا بالمشاركة في التسبيح معه. وقد خفي على المفسرين صلة الآية بما سبقها. والذي ظهر لي: إن الآية السابقة هددت المنكرين للبعث بالخسف وإنزال الكسف من الأرض والسماء على أنها وسيلة عذاب يهدد بها الله وهذه الآية كشفت عن نوع آخر من التصرف الإلهي به يعين العبيد الصالحين، ويجعل بينهم وبينه انسجاما. فإذا خضع الكون كله محقا ومسحقا، أو عونا وتسبيحا، فإحياء الموتى والبعث من نوع التصرف الإلهي.

أكرم الله داود فمكنه من فضل شريف هو من عنده، وهذا الفضل المنكر يشمل إيتاءه النبوة والزبور، وفضل رباطة الجأش في الحرب، وفضل كونه أول مخترع للدروع في الخليقة، وأنواع أخرى كثيرة من فضله.

يا جبال أوبي معه والطير: قلنا للجبال سبحي مع داود فاستجابت، ورافقتها الطيور في جو السماء، وإذا الكون كله تسبيح وتمجيد يأتم لداود ويأتمر به داود. انظر الآيتين 79/80- من سورة الأنبياء

وألنا له الحديد .....: الحديد الصلب الذي لا يلين عادة إلا بقوة حرارية ملوية، تحول إلى عجينة لدى داود، تتشكل حسب ما تقتضيه صناعة الدروع حلقا خفيفة. كعجين التشكيل لدى الأطفال .و ذلك ليعمل منها دروعا سابغة تكسو البدن فلا تبقي

للسيف مضربا و لا للنبل منفذا. وأوصيناه أن يحكم الصناعة ويقدر لهما مقدما مثالا مضبوطا يخرجها عليه.

واعملوا صالحا: خطاب لداود وأهله ليلتزموا في حياتهم العمل الصالح الذي يؤثر في الكون والمحيط الخير. واعلموا أني مراقب لأعمالكم لا يخفى علي منها شيء، مما يحرضهم على الصلاح ظاهرا وباطنا.

12.ولسليمان الريح...من عذاب السعير.

عطف القرآن النعم التي آتاها الله سليمان على النعم التي آتاها داود المفصلة في الآية السابقة. وشملت هذه النعم:

1) تسخير الريح، والريح على لطافة مكونها: الهواء: تمثل قوة تتجاوز طاقة البشر، ولا يستطيع البشر أن يطوعها، وغاية ما يصل إليه أن يحتمي منها. فالريح الجامعة بين اللطافة والعنف، سخرها الله لسليمان ليتصرف فيها تصرفا يساعده على تحقيق أغراضه منها. ذكر القرآن أنه يخرج بقوتها صباحا فيصل بها إلى مسيرة شهر، ثم يعود بها مساء مسيرة شهر. كان ذلك من خوارق العادة التي لم يفصلها القرآن، والله لا يعجزه شيء.

وما روي من صور تحقق ذلك، لا يستند إلى خبر يقيني؛ فنقول: الله أعلم بالصورة التطبيقية لهذا التسخير، ولكنه تسخير لم يؤته أحد غيره.

2) جعلنا له النحاس سائلا يجري كأنه صادر من عين. وبسيلانه وكثرته وطوعه ليخرج منه متنوع الأشكال للحاجة أو الزينة

3) وسخرنا له عملة من الجن يعملون تحت إمرته، يخدمونه ويطيعونه، فينفذون أوامره، وينتجون بعملهم ومهارتهم ما لم يمكن منه البشر. ولما كان من شأن الجن التمرد على الناس وعدم الانقياد لهم، كانت الرقابة الإلهية تلاحقهم، وتنفيذ العقاب الشديد لمن يتهاون كعقاب النار الشديدة الاستعار في جهنم .

13. يعملون له ما يشاء...و قليل من عبادي الشكور.

فصلت الآية ما كان الجن ينفذونه لسليمان من الأشياء العجيبة المتقنة تبعا لمشيئته:

1) المحاريب : وهي الحصون التي يتحصن فيها المدافعون عن المدينة، وتطلق على القصور المحصنة. وإطلاقها على موقف الإمام في المساجد أمر غير معروف عند نزول الآية . والفن المعماري الذي أحدثها كان على أغلب الظن في القرن الثاني من الهجرة

2)التماثيل: جمع تمثال، وهي الصورة المجسمة التي تكون على صورة حيوان حقيقي أو خيالي أو على صورة إنسان كله أو بعضه، أو صورة متخيلة يبدع فيها

النحات لإبراز القوة، أو الجمال، ونحو ذلك. ولـم تكـن التماثيـل محرمـة فـي الشـرائع السابقة، وحرمها الإسلام قطعا لدابر وسائل الشـرك إذ كانـت بعـض الأصـنام تماثيـل، فتحريمها تحريم للوسائل لا المقاصد .

3)جفان كالجواب: قصاع عظيمة كأنها الجوابي التـي يتجمـع فيهـا المـاء، وهـي تـدل على كثرة الآكلين مـن الأتبـاع والخـدم والجيـوش، الـذين كـان سـليمان يـوفر لهـم قوانهم..

4)قدور راسيات: القدور جمع قدر : الآلـة التـي يطـبخ فيهـا الطعـام، راسـيات: مثبتـة لثقلها، وهي تتناسب مع الجفان الواسعة كالجوابي.

اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور: قلنا: يا آل داود قدروا النعم التي أنعمت بها عليكم، وقابلوها بالشكر، الشامل لشكر اللسان، وشكر الأعمال. ومن مراتب الشكر.

الأولى التواضع وعدم الاستكبار .ونبههم للحـرص علـى الشـكر بـأن الـذين يعرفـون حق النعمة فيشكرون المنعم، ويتخلقـون بـأخلاق الشـكر قلـة فـي البشـرية. وشـأن العزيز المتميز أن يكون قلـيلا. روي أن سـيدنا عمـر ◌ سـمع أحـدهم يـدعو: اللهـم اجعلني من القليل؛ فقـال لـه: مـا هـذا الـدعاء ؟ فقـال أردت:(وقليـل مـن عبـادي الشكور) فقال عمر: كل الناس أعلم من عمـر. ويمكـن فهـم الآيـة علـى أن الخطـاب موجه إلى رسول الله ﷺ تحريضا له ولأمته على الشكر.

14- فلما قضينا عليه ... في العذاب المهين

تواصل عمل الجن إلى أن نفذ الله قدره في سليمان فأماتـه، فـي الوقـت المحـدد لحياتـه. وبقي ميتا في مكانه، والعملـة ينجـزون مـا كلفهـم بـه، منشـغلين كعـادتهم ،يرقبـون سليمان وهو على كرسـيه، لـم يظهـر عليـه أي تغيـر . وفـي لحظـة خاطفـة يخـر سليمان وتنقسم العصا التي كانت تصاحبه. لم يمـت سـليمان فـي اللحظـة التـي خـر فيها، ولكن موته سبق ذلك، وانكسار العصـا كـان بسـبب نخرهـا بالأرضـة، السـوس الكامن في الخشب.

كما ذكرنا واصل الجن أعمالهم، ظانين أن سليمان حـي، فلمـا خـر مـن مكانـه وسـقط على الأرض ،عندها أدركوا أنه قد مات، وأن تسـخيرهم قـد انتهـى بنهايتـه. كـم لبـث سليمان ميتا، والأرضة تنخر عصاه حتـى أفرغتهـا مـن داخلهـا فخـر علـى الأرض؟ لما كان هذا أمرا غريبا أخذ الرواة يفرضـون فروضـا في المـدة التـي بقـي علـى هـذه الحال، وما وجدت فيها ما يمكن اعتمـاده . وأقـول: الاحتمـالات المعقولـة: أن الأرضـة كانت تنخر عصاه منذ مدة طويلة قبل موته ، هـو لـم يـتفطن، حتـى صـادف أنـه لـم يبق في داخلها كبير قوة، فلما مـات أجهـزت الديـدان علـى نخـر مـا بقـي ممسـكا،

فانقصمت العصا وسقط ،كما يحتمل أن الإرادة الإلهية تعلقت بإظهار فساد تصورات باطلة كان يعتقدها الناس، وهي أن الجن يعلمون الغيب، فبمجرد موت سليمان كثّر في عدد أفراد الأرضة، و في وقت غير كبير نخروها فسقط. وعلى جميع الافتراضات، تبين للناس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ إذ لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بوقت موت سليمان، بل إنهم لضعفهم عن معرفة ما لم يقم عليه الدليل الكاشف، مات سليمان أمامهم وما عرفوا موته إلا بسقوطه وانكسار عصاه. ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في السخرة يعملون الأعمال الشاقة المهينة.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18)

بيان معاني الألفاظ

سبأ: أمة سبأ.

الآية: الأمارة الدالة على ما راءها.

الطيبة: الحسنة في جنسها.

أعرضوا: قابلوا الهداية بالرفض..

سيل العرم: ما يبنى لمسك الماء ، السد.

أثل: شجر صحراوي يشبه الطرفاء.

السدر: شجر له شوك.

أكل: المأكول.

خمط: شجر الأراك، كل شجر له شوك وثمرته كريهة.

ظاهرة: قريب بعضها من بعض، أو خارجة عن المدن.

قدرنا: كانت الأبعاد بين القرى مضبوطة بكيفية توفر للمسافرين الراحة والنزول فيها.

بيان المعنى الإجمالي:

تفضل الله على أمة سبأ، كانت مساكنهم دليلا على سعة فضل الله، بما يسعد به من حياة ناعمة وأرزاق وافرة ،إذا دخلت ديارهم تجد الجنات عن يمينك وشمالك.

جمع الله لهم بين الأرض الخصبة، والري الوافر، والهواء النقي. وأذن لهم أن يرتفقوا بما أعطاهم ويأكلوا من ثمار جناتهم، وأمرهم أن يقوموا بشكره على ما يسره لهم بالعمل الصالح والسلوك النظيف، والإيمان الصادق. ولكنهم أعرضوا عن الشكر فكفروا النعمة وفسدت أخلاقهم، فأرسل الله عليهم السيل الجارف بانهيار السد: الذي جرف كل شيء من التربة الصالحة ومن الأشجار والنباتات، والأنعام وحتى من كان من البشر في تياره الهادر، وتحولت الجنات والمزارع إلى أرض قاحلة تتناثر فيها أشجار صحراوية طعم ما يجنى منها مرّ، وحتى السدر المتميز ورقه برائحة طيبة هو قليل .كان هذا الجزاء جزاء عادلا موازيا لشدة كفرهم، ولا نجازي بمثل هذا الجزاء إلا المتأصلين في الكفر.

ثم عدد من النعم التي أفاضها عليهم أن هداهم لتعمير الطرق التي تصلهم بقرى الشام بإنشاء قرى في ضواحي المدن لا تخفى على السائر لكونها مقامة على مرتفعات .و بذلك يواصلون سيرهم في راحة من دخول المدن ذات الحرارة، بجدون قرية في طريقهم عند الزوال ينزلون فيها آمنين، ويواصلون سفرهم فيجدون قرية عند نزول الليل. الوضع يدفعهم إلى السفر للنشاط التجاري، فتنضاف الى سعة الأرزاق، مما تنتجه أرضهم الطيبة، ما ينمي مكتسباتهم بواسطة التجارة .

بيان المعنى العام.

15. لقد كان لسبأ....ورب غفور.

تعرضت الآيات التالية لمشاهد من قصة أمة سبأ. وقد تقدم في سورة النمل آية 22 الصلة التي كانت بين سليمان وبين بلقيس ملكة سبأ. افتتحت بما من الله به عليهم من منن عظيمة، كان منها ما يصلح ليكون دليلا يعتبر به المعتبرون. أغدق عليهم كثيرا من النعم فيسر عليهم العيش في بلدهم، وحفهم بألطاف كثيرة .

كانت مساكنهم تحف بها الجنات، فحيثما نظرت يمنة أو يسرة، تجلت الجنات لنظرك، بما تلقيه هذه الكلمة 'جنات' في النفس من صور: الخضرة النضرة، ومن متنوع ما تحمله الأشجار من ثمار، ومن هواء رقيق، ومن أزهار فواحة . ومن رطوبة معتدلة، لا تقوى حتى تنقلب بركا، ولا تقل فتجدب الأرض وتمحل.

ولم يحرموا مما تنتجه الجنات، بل أذن لهم ليأكلوا منها تحف بهم الألطاف. فلا يسبب لهم أكلهم سقما، فإن ذلك من رزق رزقكم الله إياه، هو الرزاق فلا مزية لأحد عليكم.

وأضاف إلى ما سبق: أن البلدة التي يسكنونها قد حفت بها الطاف إلهية، في نقاء هوائها وخصب تربتها، وخلوصها من الأوبئة .وبارك الله في نتائجها. وعمها الأمن والرخاء. ووفر لأهلها ما هو أنفس من كل ذلك: يذكرهم الله أنه رب غفور،

فليتعلقوا به، وليطرقوا أبواب التوفيق للاستقامة من فضله . ولئنه غفر لهم ما فرط منهم قبل إيمان بلقيس.

16. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ... قليل .

قابلوا هذه النعم بالإعراض والرفض للهداية التي جاءتهم عقيدة وسلوكا. فعاقبهم الله بأن أرسل عليهم السيل الذي كان ماؤه محبوسا في السد، انهار في لحظة فجرف ماؤه الأشجار والتربة الخصبة، وحمل من كان في طريقه من الناس والأنعام. سمي بسيل العرم إما من العرامة بمعنى الشدة والقوة، أو إن للسيل الذي كان يحبس ماؤه في السد اسمه "العرم" كوادي مجردة ووادي النيل. وانكشفت سبأ عن أرض جرداء يتوالى عليها الجفاف، وحمل السيل التربة الخصبة. إنهم باعراضهم عن السلوك الذي هدوا إليه واتباعهم لشهواتهم تحولوا من حياة الجد والاستقامة، إلى حياة الرخاوة واللهو، وفترت عزائمهم، ولم يتعهدوا السد تعهدا يحفظ اداءه لوظيفته، فتاكل شيئا فشيئا فلقي مصير كل مهمل، الضياع والخراب.

وصف القرآن سبأ بعد انهيار السد، أرض قاحلة لا تنبت إلا الأشجار الصحراوية المتأقلمة مع الجفاف، فعوضهم عن الجنات المتنوعة الغلال، والمتداخلة في كل مكان، أشجارا صحراوية كشجر الأراك "خمط"، و"أثل"، شجر يشبه الطرفاء، وقليل من أشجار السدر، وشجر السدر له شوك يشبه شجر العناب، و السدر على قلة غذائه أفضل من النوعين الآخرين، ولكنه قليل ففهي للحياة القاسية .

وكلمة "بدل" تفيد أن ما عديت إليه بنفسها مدفوع، وما عدي بالباء مقبوض. فهم قد دفعوا الجنات المثمرة، وقبضوا الجنات القاحلة. وتقول بدل الله درهمك بدينار، فالدرهم مدفوع، والدينار مقبوض.. ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب فالخبيث مدفوع، والطيب مقبوض. وإطلاق جنتين على ما تحولوا إليه، هو على سبيل المشاكلة والتهكم؛ إذ كل ما فيها يمثل القحالة والجفاف. فهم في فضاء لا يجدون ما يأكلون إلا من هذه الأشجار التي طعمها مر .

17. ذلك جزيناهم ... إلا الكفور.

استحضروا في انفسكم ذلك الجزاء، من إرسال سيل العرم عليهم، ثم تحولهم من حياة مطمئنة رخية رغيدة، إلى حياة قاسية غليظة، بعد أنواع الفواكه اللذيذة، والثمار الشهية، شجر أفضله يلسع من يقطف منه بشوكه، ورغم ذلك هو قليل وجوده. ولا نجازي مثل هذا الجزاء من التحول من الضد إلى الضد، من الرخاء الناعم، إلى الشدة القاسية، إلا من كان كافرا شديد الكفر. فالجزاء من جنس العمل هو العدل

11- وجعلنا بينهم وبين ...وأياما آمنين

، ذكر القرآن نعما أخرى من بها على سبأ. أنه يسر للعمران أن ينتشر، فكانوا إذا سافروا قرى الشام للتجارة يجدون على طريقهم قرى ظاهرة، وعنى بقوله: ظاهرة، أنها مقامة على المرتفعات، لا تخفى على المسافر يراها حتى من بعيد، ويحتمل أن معنى كونها ظاهرة: أي مقامة في خارج المدن للمعبر عنه بالضواحي. وألهمهم ربهم في تعميرها، أن كانت الأبعاد بينها مساعدة للمسافرين، إذا خرجوا من قرية صباحا استقبلتهم قرية أخرى عند الظهيرة فيستريحون، ثم يواصلون سيرهم فما إن يرخي الليل ظلامه حتى يكونوا قد وصلوا إلى قرية أخرى ينزلون ويبيتون آمنين . فكأن لسان الحال يدعوهم إلى السير فيهما كيف شاؤوا لسبلا ، نهارا، الأمن موفور. ونماء الثروات كبير بما تنتجه أرضهم الخصبة، والتجارة الرائقة المأمونة.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)

بيان معاني الألفاظ

حفيظ: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه.

ذرة: بيضة النمل .

مثقال: وزن..

ظهير: معين.

فزع: أزال الفزع، مثل قشر العود أزال قشره، ومرض المريض.

العلي: علو الشأن البالغ منتهى الكمال في علمه.

الكبير: العظمة الحق بالحكمة والعدل

بيان المعنى الإجمالي:

بلغ من كفرهم بنعم الله وتحديهم لمن يعظهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم، أن استهانوا بفضل الله عليهم فقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، مما يدل على استخفافهم بها ووقاحتهم. فعاجلهم الله بالعقوبة فخرب القرى الظاهرة، وتشردوا، كالثوب الذي مزقته قطعا، في نواحي الأرض، ذهبت رابطتهم التي كانوا يعتزون بها، وقحلت الأرض بعد خصب . وبعد أن كانوا أمة قوية غنية، أصبحوا أحاديث يتحدث الناس بها. إن في قصة سبأ آيات توقظ الناس وتخرجهم من غفلتهم، يتبينون عاقبة بطر النعمة، والكفر.

اختبرهم إبليس فوجدهم مستعدين لقبول وسوسته، وظن أنه قادر على إغوائهم، واجتهد في تضليلهم ونجح في ذلك، واتبعوه في كل ما زينه لهم من الاستهانة بالنعم، ووصل بهم إلى الكفر .وهكذا شأن إبليس فإنه تحقيقا لما توعد به البشر من العمل على إضلالهم، وتعريضهم لسخط الله ومقته، ما يزال يوسوس في قلوب البشر ويحول بينهم وبين الإيمان والطاعة؛ ولكن فريقا من الناس الذين حصنوا أنفسهم بالإيمان خاب في إغوائهم .

إن الشيطان أحقر من أن يكون له السلطان الذي يستطيع به الفعل في الناس، ولكن هو معطى من المعطيات التي يتحقق بمجموعها ما سبق في علم الله أنه سيحدث، فيعلمه الله وقت حدوثه كعلمه به في الأزل. يعلم الذين لا يغويهم إبليس، وإيمانهم باليوم الآخر أقوى من وسوسته، ويعلم الذين يستجيبون لوسوسته فيغريهم بالتشكيك في الآخرة والحساب. وربك يا محمد لا يضيع عنده شيء من فعل الناس، فسوف يحاسبهم على ما قدموا.

قل لهم يا محمد موقظا لهم من غفلتهم الشديدة: ادعوا الذين زعمتم أنهم ينصرونكم ويغدقون عليكم الخير، من دون الله وكرروا دعاءكم لهم، الخيبة تكون جوابكم؛ إنهم لا يملكون وزن بيضة النمل من ملكوت السماوات والأرض. وكما أنهم لا يستقلون بملك تافه الأشياء فهم من باب أولى وأحرى لا يملكون ما يرفعهم إلى ما مقام الشراكة لله، أو مقام العون له. ومع انتفاء أن يكون لهم ملك ولا شركة ولا عون، فإنه أيضا لا يملكون ما تخيلوه من أن لهم دالة بها يشفعون في تقصير عابديهم . والشفاعة قاصرة يوم القيامة على الذين يأذن الله لهم في ذلك؛ في يوم تضطرب فيه القلوب، ويتعلق الشافعون والمشفوع لهم في خوف ووجل إلى صدور الإذن العالي . فإذا صدر الإذن زال الفزع وذهبت الاحتمالات، فمن أذن له

في الشفاعة اطمأن بالإذن، ومن أذن أنهم مشفوع فيهم أمنوا، ومن رفضت الشفاعة فيهم أيسوا . ويسأل الشافعون الملائكة المقربين ما ذا قال ربنا ؟ فكان الجواب قال ربنا: الحق الذي لا يخالطه احتمال ولا باطل. وقوله قول العلي الذي ينكشف له كل شيء على ما هو عليه، وهو العظيم المقتدر النافذة قدرته بالعدل والحكمة .

بيان المعنى العام:

19 فقالوا ربنا باعد ...لكل صبار شكور.

الذي عليه معظم المفسرين أن أهل سبا استخفوا بالنعم وكفروها، فدعوا ربهم أن يبدلهم من تقارب القرى، وما يتبعه من راحة، مسافات بعيدة تتعب وتنهك. وبذلك ظلموا أنفسهم باختيارهم لها النصب والتعب، وما يتصل بذلك من الخوف وقلة الأمن هذا مجمل ما ذكروه. وهذا الفهم حسب المقاييس المألوفة في البشر بعيد. فإن بطر النعمة يتصور بعدم شكر المنعم، والانغماس في اللذات، أما أن يكون بطر النعمة بطلب زوالها فهو على خلاف سنة البشر. ولعل المعنى يستقيم إذا تصورنا ما يجري في المجتمعات التي يتصلب فيها الكافرون، ويقوم أهل الصلاح بوعظهم، ومن الوسائل التي يبرزنها في وعظهم التذكير بالنعم التي أنعم الله بها على الموعوظين . ومن شراسة وجلافة الكفار، أنهم يردون على الوعاظ ردا خشنا لا أدب فيه. فإذا وعظوهم بالتدبر في نعمة الله عليهم وما يسره لهم من القرى المتتابعة في أسفارهم، مما يوفر لهم الراحة والأمن، قالوا لا حاجة لنا بهذه النعمة، ربنا باعد بين أسفارنا. فبلغوا من الشراسة والوقاحة مبلغا بعيدا. هو رد للنعمة وكفر بآلائه سبحانه عليهم.

لقد ظلموا أنفسهم، إنهم بمقالتهم هذه تأهلوا للمقت وسلب النعمة، فكان ظلمهم وتجاوزهم للحدود، آثاره مسلطة على أنفسهم. وفعلا تحولوا إلى أثر بعد عين، كانوا بشرا يضربون في الأرض، منعمين بما يسره الله لهم، فسحقهم القادر العزيز، أبادهم ولم يبق منهم إلا أخبار يتناقلها الناس، يتحدثون عنهم في أسمارهم بما كانوا عليه وما انقلبوا إليه .وخرب الله بلادهم وتفرقوا، فانتقض نسيجهم الاجتماعي، وبلغ تمزقهم الحد الأقصى من التفرق، وأصبحوا موعظة للناس يتأملون في ما يؤول إليه أمر من كفر بنعمة الله.

في قصة سبأ عبر جمة، آيات تدل على ما وراءها. إن الله إذا أراد أن ينعم على قوم يسر لهم الأسباب التي بها يبلغون مكانة متميزة من النعيم. وإن النعمة لا تدل على أن المنعم عليهم مرضي عنهم، وأن النعمة إذا لم يقابلها المنعم عليه بالشكر كان سببا في زوالها. وأن كفران النعم آثاره مدمرة تتجاوز ذهابها إلى عقاب

الكافرين لها بعذاب بقدرة رب العزة. وأن المتصرف في الكون والبشر هو الله. وأن على الإنسان أن لا يطمئن إذا كان في نعمة أنها ستتواصل إلى ما لانهاية له. فلا الخير بدائم ولا الشر بدائم .وأن الأمن من أعظم أسس العمران.

إن تلكم الآيات ينتفع بها كل من رزق قوة الصبر على التأمل في سنن الله، وروض نفسه على التحمل وعدم الجزع، وأفضى به تأمله إلى تعميق إيمانه، فازداد صلة بربه وتقديرا لنعمه؛ فهو شاكر لها، ذاكر لفضله سبحانه

20)ولقد صدق عليهم ...إلا فريقا من المؤمنين.

تأصل في إبليس قوتان:

القوة الأولى : قوة عداوته لبني آدم .قال تعالى مسجلا لوقاحة إبليس : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)[1] محض نشاطه لإغواء البشر، ابتداء من تزيين الشهوات، وبسط الأماني وتوسيع الآمال، وإلهاب الغرائز، وتوهين قوى الرقابة. ما يزال يحبب له التراخي في تطبيق شرع الله حتى ينتهي به إلى الكفر الرافض لسلطان الله وللبعث والحساب.

القوة الثانية: أنه لا يواجه الإنسان دفعة واحدة، فيحوله من الإيمان إلى الكفر، ومن الاستقامة إلى الانحلال دفعة واحدة، ولكنه يدرس دراسة خبيثة استعدادات الشخص لقبول الغواية، وجوانب الضعف التي يأتيه منها، فيبني على دراسته منهجا، متكاملا ينتقل فيه من مرحلة إلى أخرى، حتى يطوعه لإغوائه، فإذا انهارت قوى الخير فيه أجهز عليه ليقوده إلى ما أعده مقدما من الضلال.

تمثل هاتين القوتين قدرة إبليس على إضلال البشر. وتحقيق مخططاته التي ينحرفون بها من الإيمان إلى الكفر، ومن الاستقامة إلى الرذيلة والإثم .

و لقد صدق إبليس ظنه فحقق ما أعده من خطط الكفر والشر، على البشر الذين منهم أمة سبأ. واتبعوه في الكفر بالله، ثم في استهانتهم بما أنعم عليهم من الخيرات والأرزاق الوافرة، والأمن والمأوي. واتبعوا إبليس، واستثنت الآية فريقا من المؤمنين في كل عصر، تحطمت ومؤامرات الشيطان على قوة إيمانهم. فتكون الآية منبهة على عاقبة سبأ، وموقظة لأمة محمد حتى لا يلبس عليها إبليس ويغويها ويضلها.

---

[1] سورة ص آية 83

21- وما كان له عليهم ...على كل شيء حفيظ.

لا تظنوا أن إبليس له السلطان القاهر، وأن الأحداث تجري حسب مخططاته في الكون، هو أهون من ذلك؛ ولكن الله لما خلق البشر وجعلهم صنفا من مخلوقاته قابلا للخير والشر، وهديناه النجدين، وقدر أن فريقا ستكون عاقبته إلى الجنة، وفريقا ستكون عاقبته إلى السعير. ومكن كل فرد من الاختيار بين طريق الهدى وطريق الضلالة. وعلم الله الأزلي لا يتغير فهو يعلم ما سيجري في الكون وفي الأفراد علما يتحقق الوجود على وفقه، فله سبحانه علم أزلي، وعلم بالحادث عند حدوثه، ولا تغاير بين العلمين. فوسوسة الشيطان هي أحد الأسباب التي تمت به الغواية، فإذا تجمعت الأسباب التي منها اغواء الشيطان ووسوسته، وحرمان الشخص من الألطاف الإلهية، تحقق ما علمه الله في الأزل وما تم في وقت حدوثه.

لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها في شك- سجل القران من أحوال المتسلط عليهم من البشر، من تسلطه عليه مهزوم وهو الذي يؤمن بالأخرة، ومن تسلطه عليه نافذ وهو الذي لا يؤمن بالاخرة، لأن الحقيقة التي يتأثر بها الناس في سلوكهم، هي قضية الإيمان بالأخرة، فمن يؤمن بالأخرة تكون يقظته قوية فاعلة تكون له مناعة من وسوسة الشيطان، ومن لا يؤمن بالأخرة على العكس تكون يقظته منومة خامدة، فيستجيب لما يزينه له من الإثم والرذيلة والكفر .

وربك على كل شيء حفيظ – كل ما يحدث في الكون من أفعال ونوايا، يعلمها الله علما دقيقا على ما هي عليه، (وهو الذي يحفظها فلا تضيع)، **(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا)**[1].

22-23، قل ادعوا الذين زعمتم ...وهو العلي الكبير.

نفت الأية السابقة أن يكون لمن ادعوا أنهم شركاء الله أن يكون لهم أي ملك وإن كان تافها في السماوات والأرض، ولا مساعدة لرب العزة في تصريف أمور الكون.

أفادت هذه الأية أن ما تعلق به المشركون من أن ألهتهم تشفع لهم يوم القيامة، هو وهم من الأوهام لا حقيقة له، إنه لا ينتفع أحد من المذنبين بالشفاعة، ولا يتقدم احد من المقربين بالشفاعة، إلا لمن أذن له ،إلا من أذن له في الشفاعة، وأذن لمن شاء أن تشمله الشفاعة. فلا يشفع شافع إلا بعد الإذن له ليتقدم بالشفاعة، ولا يشفع الشافع

---

[1] سورة ال عمران اية 30

إلا لمن أذن الله له أن يشفع فيه، فليس للشفعاء قبول مطلق لشفاعتهم، ولا تشمل الشفاعة كل الناس .

الموقف موقف عظيم رهيب، فالكل في خوف وترقب، الطمأنينة بعيدة عن القلوب، لا الشافعون ولا المشفوع فيهم، يشعرون بالأمن .(لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)[1]

ولكن مع ذلك فهناك مقربون يشعرون بأن الله سيقبل شفاعتهم بعد أن يأذن لهم، وهناك من يرجون أن ينتفعوا بشفاعة الشافعين، وكلاهما على وجل وخوف من عدم الإذن إذ لا ملزم لله فهو الفاعل المختار . هم يستمرون على هذا الوضع النفسي حتى يصدر الإذن الإلهي في ذلك اليوم يتبين به الشافعون المقبولون من يتقدم بالشفاعة، ويشعر المذنبون بأنهم مهيؤون لقبول الشفاعة فيهم، فيذهب عن قلوب الفريقين ما كان من فزع وخوف، ويحصل في قلوب الآخرين اليأس من الشفاعة فيهم.

ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير. إنه حين يصدر الإذن العالي بالشفاعة يتساءل الشافعون ما ذا قال ربنا ؟ يسألون الملائكة المقربين، من أذن له في الشفاعة ومن هم المؤهلون للشفاعة فيهم ؟ فيكون الجواب: إن ما قاله ربنا هو الحق، القول الفصل الذي لا يعقبه قول، لأنه الحق والحق لا يتعدد. فيلهمْ كل شافع من يشفع فيه، ويلقي في قلوب المشفع فيهم نوعا من الطمأنينة بما سيشملهم من فضل الله .

وهو العلي الكبير. يعقبون على ما قاله ربنا بأنه الحق، الصادر عن العلي الموصوف بصفات الكمال التي يتصرف بها في خلقه ذلك اليوم تصرفا صادرا عن علم كامل، ولا يشاركه أحد فيما ينفذه، فلا قدرة إلا قدرته، هذه القدرة التي تلتئم مع الحكمة البالغة، والعدل التام، فتجزى الخلائق الجزاء الذي حكم به، خاضعين له سبحانه، لا ظلم اليوم .

• قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۞ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ

[1] سورة غافر اية16

أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ

السؤال : كناية عن الجزاء.

الفتح : الفصل والحكم بالحق.

ألحقتم : وصفوا بالألوهية بإلحاقكم لا لوصف ذاتي فيهم .

بيان المعنى الإجمالي :

تكرر الافتتاح بالأمر بالقول في هذه الآيات سبع مرات. إيذاء للاهتمام، والإيقاظ المخاطبين لرفع الغفلة عنهم .

أولا: قل ملجئا لهم: أن يدعوا الذين يزعمون أنهم يستحقون العبادة من دون الله. ليتبين لهم أنهم لا يتصرفون تصرف الملك في أقل جزء من السماوات والأرض، فهي خارجة عن ملكهم وعن سلطانهم وهم أحقر من أن يعينوا رب العزة في تصرفه. وهم لا يملكون الشفاعة في أحد من عابديهم، فإن الشفاعة لله، لمن يأذن له. في يوم ترعد فيه القلوب ويتملك الجميع خوف وفزع: الشافعون والمشفوع لهم، حتى إذا صدر الإذن العالي ذهب الخوف لتبين المؤذن لهم بالشفاعة، ومن هم أهل لأن يشفع فيهم. ويزول الفزع والخوف من قلوب الهالكين، ويحل محل الفزع اليأس من الرحمة.

ثانيا وثالثا : قل لهم: من الذي يتولى رزقكم من بركات السماء من مطر وشمس وكواكب، ومن خيرات الأرض ما تأكلون وما تشربون وما تلبسون والمساكن التي تحميكم من القر والحر؟ قل لهم قاطعا كل شغب منهم: الرزاق المتصرف الوحيد هو الله؛ ثم إنه بعد ذلك، فإما أن تكونوا على هدى متمكنين منه، وإما أن تكونوا أنتم مغرقين في الضلال الذي يغمركم من كل جانب، أو العكس.

رابعا :قل اسمعوا إلى ما تركز في عقولنا من مفهوم المسؤولية التي بها يرتفع الإنسان في مستوى إنسانيته .نعلن أنكم غير مسؤولين عما رميتمونا به من الإجرام بنكران الأصنام، ونحن غير مسؤولين عن أعمالكم .

خامسا: قل لهم : لما كان كل فريق يتحمل مسؤوليته، فإن ربنا سيجمعنا جميعا للحساب عنده ليقضي بالحق الفاصل فإنه هو الذي لا يغيب عنه شيء ولا يحيد عن العدل المطلق الذي هو من مقتضيات كماله.

سادسا: قل لهم: اعرضوا علي ما زعمتم باطلا أنها آلهة لاحقة بالله، لنشاهدها وهي لا ترى ولا تسمع ولا تتحرك، ولا تدفع عن نفسها. كل ما دعوتموه باطل تشهد به البداهة، والله وحده هو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم فكل تصرفاته مصطبغة بالعلم والدقة الكاملين. إنك يا محمد تميزت بأنا أرسلناك حاملا لوحينا، وأن رسالتك عامة لجميع البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم، في عصرك وفي العصور التالية إلى اخر الزمان. تبشر المؤمنين الصالحين، وتنذر الكفرة الفاسقين. ولكن أكثر الناس لجهلهم لم يهتدوا، والحق لا يوزن بكثرة العدد. إن الكافرين يسألونك ويسألون المؤمنين عن الوقت الذي سيحل فيه الحساب المنذر به .

سابعا: قل لهم: كل شيء مقدر في علم الله فاليوم الذي تنهزمون فيه وننتصر عليكم محدد وقته آت لا ريب فيه، واليوم الذي ستحاسبون فيه يوم القيامة مضبوط في علم الله، إن طلبتم تأخيره لا تجابون، وإن استعجلتم قدومه فلا يأتي إلا في الساعة المحددة له.

بيان المعنى العام.

24. قل من يرزقكم من السماء..أو في ضلال مبين.

تفتح الآية بكلمة "قل" للإشعار بأهمية ما سيذكر، ولأن المتلو عليهم إذا طرق أسماعهم هذا الأمر تهيؤوا للتأمل فيه . والسؤال واضح لا يقبل الجواب عنه إلا بنفس الوضوح الذي صيغ به. من الذي يرزقكم من السماء، من ينشئ السحب وينزل منها الأمطار، ومن يرسل الشمس بأشعتها المنيرة وبحرارتها وبمختلف الطاقات التي تحدثها في الكون، وكذلك القمر والنجوم، ومن يرزقكم من الأرض ما تأكلون وما تشربون وما تلبسون؟ هل للأصنام والأنصاب التي تعبدونها من دخل في كل ذلك؟ والسؤال لوضوحه وبداهته لا يحتمل إلا جوابا واحدا فقل لهم قاطعا لترددهم أو تجاهلهم: الله هو المنفرد بذلك. وينبني على ذلك أن الأمر لا يحتمل إلا أحد أمرين، إما أن نكون نحن متمكنين من الهدى وتكونون أنتم منغمسين في الضلال المغرق في الكفر أو العكس. وبعد المقدمة باختصاص الله بالرزق من السماوات والأرض وأن آلهتهم التي يدعون من دون الله عاجزة فقيرة، يتبين أنهم في ضلال مبين.

25. قل لا تسألون عما...عما تعملون.

قل لهم قولا آخر منصفا يقتلع مـا استقر في نفوسهم من عناد ومجادلـة: أنتم لا تجزون عما تعتقدون أنا أجرمنا فيه بإبطال ألوهيـة الأصـنام، والالتـزام بقـيم الإسلام، ونحن أيضا لا يلحقنا إثم من أعمالكم التي تتصرفون بهـا عقيـدة ومسلوكا. فتـدبروا فـي الأمر وانتم غير معجلين، لعلكم تدركون الحق.

26.قل يجمع بيننا...وهو الفتاح العليم.

قل لهم أيضا على نفس الدرجة من الاهتمـام والإيقـاظ: إنـا علـى طـريقين مختلفـين متضادين، ولا تظنوا أن الأمر يستمر هكذا إلى مـا لانهايـة ، فـإن ربنـا سـيجمع بيننـا، ولن يستطيع اي فريق أن يتخلـف، وسـيتولى سبحانه الفصـل بيننـا بـالحق والعـدل، وهو الفتاح للحق الذي تبلغ حكمته وعدله وكماله، فـي كـل اخـتلاط أو شـبهة فتـذوب الخيوط المضللة وإن كانـت ضـعيفة لأنـه لا يخفـى عليـه خافيـة . علـيم بالحاضـر والمآل والتطورات التي تغيب عن علم غيره سبحانه.

27.قل أروني ...بل هو الله العزيز الحكيم.

قل لهم أيضا: قدموا لنا الآلهة التي ليس لها من وصـف الألوهيـة إلا ادعـاؤكم أنهـا آلهة، فهو جعل باطل منكم، قدموهم لنا لنراها، وهي فـي حقيقـة أمرهـا حسـب دعـواكم لا تخرج عن كونها حجـارة أو مـواد نحـتَّ منهـا صـورا لا تسـمع، ولا تبصـر، ولا تتحرك. هي أعجز من أن تدافع عن نفسها. كـلا ! إن مـا تدعونـه باطـل لا حقيقـة لـه ولا شبهة في بطلانه بل الحقيقة الكاملة : إن المتفـرد بالألوهيـة هـو الله العزيـز الحكـيم لا آلهتكم، إذ أنه سبحانه المتفرد بالعزة يحقق فعلـه بذاتـه لا يحتـاج إلـى معـين كيفمـا كان والكل محتاج إليه. وهو الحكيم الذي يجري الأمـور حسـب الدقـه العلميـة التـي لا يغيب عنها ولا يخفى عليها أي شـيء فـي الحاضـر والمسـتقبل فـي ذات مـا يحدثـه ولا فيما سيترتب عليه .

28.وما أرسلناك إلا كافة...لا يعلمون.

بعد إبطال الشرك في الآيات السابقة بطـرق مختلفـة، عقـب ذلـك بإثبـات رسـالته ﷺ، وأنه مرسل من عند الله وهي الحقيقة المصاحبة للتوحيـد فـي الإسـلام المقومـة لشـطر من مفتاح الدخول في الدين. وأعلنت الآية اختصاصـه بأنـه مرسـل إلـى النـاس كافـة إلى جميع الأجناس والألوان والمـواطن. فكـل مـن اتصـف بصـفة الإنسـانية كلـف النبي ﷺ بإبلاغه شرع الله . ثم ذلك مما عهد به إلى كـل مـن دخـل فـي ديـن الإسـلام وسمع منه مباشرة أو وصله أي شيء مـن الـوحي أن يبلغـه لغيـره، كمـا أعلـن فـي

خطبة حجة الوداع: فليبلغ الشاهد الغائب .ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد. استدراك بقوله: ولكن أكثر الناس –ايرفع وهم أن يقدر الحق بكثرة أتباعه .إن مقياس الحق في ذاته .وأكثر الناس جاهلون بعيدون عن المعرفة الصادقة .

29←30:ويقولون متى ...ولا تستقدمون.

أنذر المشركون على لسان رسول الله ﷺ، وعلى لسان صحابته، أنذروا بأن أعمالهم مثبتة عند الله سيسلط عليهم عقابه العادل يوم القيامة، وأن الله سينصر دينه وسيحل بكم النكال على ما مكرتم بهذا الدين . سأل المشركون إنكارا واستخفافا بما وعدوا، فقالوا: متى سيتحقق هذا الوعد، أي متى يأتي يوم القيامة، أو متى ستنتصرون؟ فكان الجواب حاسما من الله العليم، وأنهم لتصلبهم في العناد يسألون عن الميعاد الذي ما ذكروا لهم أنهم يعرفونه. أثبت الله العليم بما سيحدث في المستقبل بأن ما وعدوا به، مما يشمل يوم القيامة، وانتصارات الإسلام، كل ذلك محدد أجله عند الله، وسوف يأتي لا محالة؛ ولا تستطيعون تأخيره عند حلوله، كما لا يتقدم بطلبكم استعجاله .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

رجع القول : المحاورة.

مجرمين : مشركين..

المكر : الاحتيال

الأنداد : الند المماثل .

الندامة: الحسرة على ما فات.

الأغلال: جمع غل وهو ما يوضع في رقبة الأسير من جلد أو حديد ويشد بسلسلة أو حبل بيد آسره .

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن مقالة الذين كفروا لما بلغ بهم النكران، أن جمعوا بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالات الأنبياء السابقين فأعلنوا أنهم لا يؤمنون بأي رسول منهم. ويعاجلهم القرآن بافتضاح أمرهم يوم يبدون لكل راء، وهم موقوفون، لا يتحركون والجدل بينهم على أشده وقد ذهب كل ما كان بينهم من صلات في الدنيا. يقول المستضعفون الذين كانوا تابعين للقادة الذين استكبروا بغير الحق، إنكم أضللتمونا ولولا تأثيركم الفاسد فينا لكنا مؤمنين، ويرد عليهم رؤوس الكفر أنحن صددناكم عن الهدى الذي جاءكم ؟ أبدا، ولكنكم كنتم مصممين على الشرك .ويرد عليهم المستضعفون: كذبتم بل إنكم كنتم تدبرون بالليل والنهار ما يحول بيننا وبين الإيمان وتغروننا بالثبات على عبادة الأصنام، دين الآباء، وهو تنصل من المسؤولية لا يغني شيئا عن الفريقين، فتمتلئ نفوسهم حسرة على ما فرطوا عندما يبدو لهم المصير الذي هم صائرون إليه وقد وضعت الأغلال في أعناقهم، وسيجزون جزاء عادلا، ولا يظلم ربك أحدا.

بيان المعنى العام

1 ـ وقال الذين كفروا...لولا أنتم لكنا مؤمنين .

معارضة المشركين للرسالة المحمدية أخذت أشكالا عدة، لأن كل ما يعترضون به على القرآن يتهاوى، فهم يتحولون من باطل إلى باطل. فقد تقدم منهم أن طلبوا أن يأتيهم بمثل ما أوتي موسى مثلا، وفي هذه الآية أعلنوا أنهم لا يؤمنون بالقرآن المتلو عليهم على أنه من عند الله، وهو مساو للكتب التي سبقته، فهم رافضون لجميع رسالات الله.

اختار القرآن أن يرد عليهم بتحقيق ما سيكون جزاؤهم عن تصلبهم في الكفر تصلبا نفوا به جميع الرسالات. لو تراهم. والخطاب لكل من يمكن منه الرؤية لافتضاح أمرهم، متعلق الرؤية مقدر لتذهب فيه النفس كل مذهب من الفظاعة، والظالمون موقوفون، ووصفهم بأنهم موقوفون يلقي في التصور أنهم مأسورون لا يتحركون ولا يستريحون .الحيرة تأكلهم يتحاورون حوارا سؤال يتبعه جواب هو نفس السؤال. ويصرح القرآن ببعض ما يجري بينهم من حوار هو حاصل بين الزعماء الذين كانت لهم القيادة والتأثير في الدنيا وبين الأتباع الذين كانوا يأتمرون بأوامرهم. وترمز الآية إلى الذل الذي أحاط بهم، فقد كانوا في الدنيا مُطاعين لا

يتجرا الضعفاء على مناقشتهم، واسمع إلى حوارهم في ذلك اليوم .يقول الذين كانوا مستضعفين يؤمرون فيطيعون، للمستكبرين الذين كانت القيادة بين ايديهم في الدنيا: أنتم تتحملون المسؤولية، إنه لولا إلزامكم لنا وتضليلكم وتأثيركم الفاسد، لولا ذلك لكنا مؤمنين.

32. قال الذين استكبروا...بل كنتم مجرمين.

يتوالى الحوار بين الفريقين، فيدفع المستكبرون الملامة عن انفسهم قائلين: أنحن صددناكم . استفهام إنكاري . ننكر مقالتكم ونكذبكم فيما جاء فيها، فنحن لم نمنعكم عن اتباع الهدى بعد أن وصلكم وسمعتم به، ولم نصدكم عنه، ولكن الحقيقه أنكم كنتم مصممين على الكفر والرفض للهداية التي جاءتكم .

33ـوقال الذين استضعفوا...هل يجزون إلا ما كانوا يعملون.

قال المستضعفون مكذبين للمستكبرين القادة: كلامكم باطل وتبرؤكم مما قمتم به فعلا مردود عليكم. إنكم كنتم تلحون علينا بالليل والنهار، لا تتركون بابا للتأثير فينا إلا سلكتموه. كنتم تحتالون علينا بمتنوع طرق المكر، وتغروننا بمختلف المغريات لنكفر بالله ونجعل له شركاء من الأصنام. ورأى الكافرون من المستضعفين والمستكبرين ما أعد لهم من العذاب الذي أيقنوا أنه لا مفر لهم منه فانطوت نفوسهم على الندم والتحسر على ما فرط ولا أمل في رجوع عقارب الساعة إلى الوراء، ارهقوا بالعذاب النفسي بين اليأس والحسرة .

ويبدو المشهد بعد ذلك الجدل بينهم، والحسرة التي استولت على بواطن الذين كفروا، يبدو المشهد وقد قيدوا من أعناقهم يسوقهم الملك الموكل بهم إلى مصيرهم التعيس. ولا يكون جزاؤهم إلا الجزاء المقدر بمساواته لسوء أعمالهم القلبية في العقيدة وسوء أفعالهم في تصرفاتهم الفاسدة والظالمة . والجزاء العادل صادر عن الله الذي لا يظلم أحدا.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ

كَفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ... قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ

المترف : المنعم البطال

يبسط الرزق : ييسره ويكثره.

يقدر يعسره ويضيقه.

زلفى : مصدر بمعنى التقريب، تقربكم تقريبا.

معاجزين . يهدفون إلى تعجيز الرسول ﷺ.

بيان المعنى الإجمالي

تسل يا محمد ولا يحزنك تصلبهم في الكفر. هذا شأن المترفين الذين استغرقوا في حياة النعيم مع الذين أرسلتهم قبلك ينذرونهم عاقبة كفرهم، فكلما جاء رسول إلى أهل قرية، ما كان موقفهم من هدايته إلا قولهم : إنا مصممون على الكفر برسالتكم. وأضافوا: نحن أكثر أموالا وأولادا من الذين اتبعوكم، وهذا دليل على رضا الله عنا، وأنه لا يعذبنا .قل لهم نفيا لما زعموه: إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، ولا رابطة بين رضا الله وسعة الرزق، ولا بين التضييق وعمل الإنسان بما هو مطالب به. ولكن أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة فيقعون في أوهام باطلة .ليست سعة أموالكم ولا كثرة أولادكم هي التي تجعل لكم منازل القرب والرضى عند الله؛ لكن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فأولئك الذين ستجازيهم الجزاء المضاعف على صالح أعمالهم يوم القيامة وأعددنا لهم منازل عالية في قصور الجنة، مع والفر الأمن.

في المقابل، إن الذين يتحركون بقوة ليضللوا الناس متوهمين أنهم يُعجِزُون الله ورسوله ويطمسون أنوار آياته، هؤلاء سيكونون حاضرين في العذاب المعد لهم.

قل يا محمد مؤكدا إن الله يبسط الرزق لعباده أو تقتضي حكمته التضييق لمصلحة المضيق عليه . وإن الله سيخلف على المنفقين في الأوجه التي أذن فيها ما أنفقوه إخلافا عاجلا في الدنيا وثوابا في الآخرة، أو جزاء أخرويا .

بيان المعنى العام

34- وما أرسلنا في قرية من نذير،إنا بما أرسلتم به كافرون.

يسلي الله نبيه بأن تصميم قريش على تكذيبه وتصلبهم في الكفر، هو ما لاقاه إخوانه المرسلون من قبله. فكلما دعا رسول الناس في مدينة من المدن، إلا قابله

المترفون المنعمون الأغنياء بقولهم: إنـا كـافرون بمـا تـدعون إليكـم أرسـلتم بـه ،ولا نصدقكم.

35.وقالوا نحن أكثر... وما نحن بمعذبين.

من استكبارهم، وعدم فطنتهم: أنهم قـالوا لرسـلهم: نحـن قـد أوتينـا الأمـوال الكثيـرة، نعيش في رغد من العيش، وأولادنا حولنا نعتز بهم ونكـاثر بهـم النـاس . ومـن تـبعكم مضيق عليهم فقراء، إن وضعنا يقوم دليلا على أننـا غيـر معرضـين للعـذاب، إذ لـو كنا محل سخط معرضين للعذاب ما بلغنا مـن النعـيم المبلـغ الـذي نحـن فيـه. إن الله يعلم رفضنا لرسالتكم فلوكان ساخطا علينـا لمـا مكننـا مـن الخيـرات التـي بسـطها علينا.

36.قل إن ربي يبسط...ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قل لهم يا محمد ولا يبطل تصورهم ويكشف عـن خطـئهم فـي تقـدير الأمـور، إن الله يوسع في الأرزاق، أو يضيق فيها ويجعلها عسـيرة علـى أصـحابها لـيس جـزاء علـى ما قدموا به من أعمال، ولكن مشـيئته المنظمـة للكـون، والمرتبـة للأسـباب والمسـببات في الدنيا هي التي يرتبط بها الرخاء أو الضيق. فكم من غنـي افتقـر، وكـم مـن فقيـر انقلب إلى رفاه وكثرة أموال. والربط بين الأعمـال والجـزاء هـو مـن قـوانين الآخـرة، لا من قوانين الدنيا. ولكن أكثـر النـاس مخطئـون جـاهلون بالأسباب الحقيقيـة التـي يبسط الله بها الرزق في الدنيا، أو يضـيق، ولـيس منهـا فـي شـيء صـلاح العقيـدة والفعال .

37. وما أموالكم ...وهم في الغرفات آمنون.

قل لهم أيضا :إن أموالكم وأولادكـم لـيس لهـا أي أثـر ولا اعتبـار فـي تقـريبكم منـا تقريبا دالا على الرضا والكرامة ،ولكن الـذين آمنـوا فتطهـرت عقيـدتهم مـن الشـرك، وصلحت فعالهم في الدنيا فاستقاموا على شـرع الله، فأولئـك مميـزون بـأن الله يجـزيهم الجزاء المضاعف، وهذا يتضمن أمرين:

أولهمـا: أنهم من المرضي عـنهم لأن مضـاعفة الجـزاء يخـتص بهـا الـذين عملـوا الحسنات، وأما من عمل السيئة فلا يجـزى إلا مثلهـا ولا يظلـم بترتيـب عقـاب عليهـا أكثر منها.

وثانيهما : أن قوله تعالى جزاء الضعف، فيه إشارة إلـى المراتـب المتفاوتـة فـي فضـل الله الذي قـدره جـزاء للمحسـنين مـن عشـرة أمثـال إلـى سـبعمائة ضـعف، والله يضاعف لمن يشاء . قال تعالى : (مثل الـذين ينفقـون أمـوالهم فـي سـبيل الله كمثـل

حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)[1]

ونقضا لما توهموه من أن سعة الأرزاق وكثرة الأولاد دليل رضا، نصت الآية على أن الذين امنوا وعملوا الصالحات هم وحدهم الذين يلاقون الرضا بمضاعفة الثواب، وهم في منازل مرفوعة، مع نعيم السكنى المشرفة فيما أعد لهم من القصور في جنة الخلد، حقق لهم الشعور بالأمن، فزال عنهم الخوف من انقطاع ما هم فيه من نعيم

38. والذين يسعون...في العذاب محضرون.

تؤكد هذه الآية مضمون الآية السابقة بالتنصيص على مآل الذين يسيرون في خط معاكس للفائزين بالرضوان. فتصمهم على أنهم يجرون لاهثين، بما تفيده كلمة يسعون من الجري اللاهث، وبذل أقصى الجهد، يسعون لتعمية الحقيقة التي تشع من اياتنا، ويعملون على مغالبة رسول الله ﷺ وتعجيزه، وبالتالي تعجيز القادر العظيم. إن كيدهم فاشل، ونهايتهم عذاب معد على وزان فسادهم .

39. قل ان ربي يبسط...وهو خير الرازقين.

تتفق هذه الآية مع مضمون الآية 36 : إن التوسيع على الناس في أرزاقهم أو التضييق عليهم، لا يرتبط بصلاح الشخص، ولا بفسقه . وتتميز بخصائص :

1) أن هذه الآية نسبت الموسع عليهم إلى ذاته العلية "من عباده" ويكفي الإنسان شرفا أن يكون عبدا لله .

2) يفهم منها أن التضييق مبني على حكمة راعى الله فيها مصلحة من قدر عليه رزقه، ويقدر له . إذ تفيد هذه الصياغة أن التضييق عليه هو له لا عليه، سيظهره له ربه بجزائه على الصبر، ومضاعفة الثواب يوم القيامة، وبصرف ما كان يمكن أن يقارن السعة من شرور في النفس أو في الأهل أو في الدين.

3) لتكون فاتحة الاية مقدمة للوعد الكريم من رب العالمين. ولمزيد الاهتمام بمضمونها افتتحت بكلمة قل: إنه سيخلف على المنفق ما أنفقه . فهو الرزاق، وهو الهادي للإنفاق، والإخلاف من الكريم الذي لا ينقص شيء من ملكه، يحقق بفضله مضاعفة ما تم إنفاقه في الوجوه التي أذن فيها عطاء دنيويا وثوابا أخرويا، أو ثوابا في الأخرة.

---

[1] سورة البقرة اية261

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ.

الولي: الحليف و الناصر .

يملك : يقدر على نفع

الذوق : تعبير عن قوة الإحساس بالألم .

الآيات البينات : آيات القرآن الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يوم يجمع الله كل المشركين الذين عبدوا الملائكة، ويسأل الله الملائكة أكنتم راضين بعبادة هؤلاء لكم. وجواب الملائكة واضح : ننزهك ربنا أن نتخذ وليا من دونك أو أن نبتغي النصرة من أحد سواك. إن هؤلاء كانوا يعبدون الجن. إنه في هذا اليوم تتقطع الروابط التي كانت بينكم فلا يستطيع العابد ولا المعبود أن ينفع الآخر بشي أو يضره. ويلفكم قضاء واحد: ليكن إحساسكم بعذاب النار بليغا، لأنكم كنتم تكذبون به.

إن موقفهم منك، إذا تلوت عليهم آيات الكتاب البينة، أنهم يجتهدون بمختلف الطرق ليرفضوا ما سمعوه. يقولون مرة لصرف الناس عن الإيمان: إن التالي عليكم رجل مثلكم قصده واضح: أن يحول بينكم وبين ما هو مقدس عند آبائكم. ويقولون مرة أخرى هذا الكلام الذي نسمعه لا يعدو أن يكون كذبا على الله أو كلاما مختلقا من محمد. وفي النهاية أجمع الكافرون على أنه سحر يلعب بالعقول و المدارك.

بيان المعنى العام :

40 ← 41. ويوم نحشرهم ... أكثرهم بهم مؤمنون.

بعد أن أبطل القرآن عقائد الكفرة وشبهاتهم في الآيات السابقة، أوعدهم محذرا من موقفهم يوم القيامة. فاذكر يا محمد افتضاح أمر المشركين، عندما يوقفون أمام ربهم ويسأل الله العليم بالحقائق، سؤالا يكشف عن بنائهم عقيدتهم على خيالات منفية.

تخاطب الآية صنفا من المشركين يجمعهم الله يـوم القيامــة، لا يسـتثني أحـدا "جميعـا"، عبدوا الملائكة، وعبدوا الجن، فيوقف الله الملائكـة ويسـألهم، أكـان هـؤلاء المشـركون يعبدونكم؟ وليس المقصود من السـؤال تحقـق العبـادة أو لا؛ فهـم قـد عبـدوهم فعـلا، ولكن المقصود وراء ذلـك، هـو رد دعـواهم أن الملائكـة كـانوا يـدعونهم لعبـادتهم راضين عنها، ويجيب الملائكة : سبحانك ! تنزيـه لـك أن يعبـد سـواك، لا نرضـى أن يكون لنا ولي وناصر سواك، فنحن نوالي مـن والاك ونعـادي مـن عـاداك، فـلا صـلة بيننا وبين المشركين. ولكن صلتهم كانت بالجن، الـذين كـانوا يوسوسـون لهـم، ويلقـون إليهم معلومات تخدعهم ليواصلوا عبادتهم. وقد تحيـر كثيـر مـن المفسـرين فـي عبـادة الجنة، وذلك لأن تسجيل أنـواع الشـرك لـم يكـن وافيـا، وتـأولوا الآيـة علـى أنهـم يسولون لهم المعاصي فيتبعونهم، فهي عبـادة مجـازا، ولكـن انكشـف اليـوم أن بعـض المشركين في زماننا يعبدون الشـيطان . فتبـارك الله رب العـالمين الـذي وسـع علمـه كل شيء.

42. فاليوم لا يملك بعضكم لبعض ..التي كنتم بها تكذبون.

خصا المشركون، فأعقب ذلك الحكم العادل، المتمثل في:

1) أن التناصر الذي كـان بيـنكم قـد انتهـى اليـوم، وتقطـع مـا كـان بيـنكم، فمـن عبدتموهم من الجن يتبـرؤون مـنكم، عـاجزون عـن نفعكـم، وأنـتم عـاجزون عـن تقديسهم الذي كنتم عليه في الدنيا. ولتمام تصـوير العجـز الحـق عجـزهم عـن الضـر مع يسر القيام بالضر.

2) أنجز العذاب وأسمعهم: ليكن إحساسكم بعـذاب النـار أشـد إحسـاس وأبلغـه، وهـو من العدالة الإلهية لأنهم كانوا يكذبون بعذاب يوم القيامة.

43. وإذا تتلى عليهم...إلا سحر مبين.

سجل للقرآن موقفهم من القـرآن عنـدما يتلـى علـيهم فعـلا ويسـمعونه مباشـرة مـن رسول الله ﷺالعجيب منهم أنهم إذا سمعوا آيـات القـرآن الواضـحة الدلالـة التـي تشـهد مضـامينها بصـدقها وسـموها، وبموافقتهـا للحـق والفطـرة ،صـمموا علـى الـرفض مبررين رفضهم بأمور:

1) أن محمدا التالي للقرآن رجل مثلكم وليس ملكـا، وغايتـه مكشـوفة؛ إنـه يريـد أن يبعدكم عن الآلهة التي ثبتـت ألوهيتهـا قـديما، التـي كـان يعبـدها آبـاؤكم، وآبـاؤكم محل ثقة بآرائهم ومعبوداتهم .

2) إن ما يتلوه لا يخرج عن كونه كذبا افتراه محمد ناسبا له إلى الله .

3) أحضر الذين كفروا بوصفهم، قال الــذين كفــروا، ليكــون الكفــر هــو الحامــل لهــم على مقالتهم، في الوقت الذي عجزوا عن معارضــته لكــون نــور الحــق باديــا عليــه، وقد هزهم ونفذ إلى مداركهم فلم تجــد فيــه مطعنــا ترفضــه بــه، فسالوا لتصــلبهم فــي الكفر: ما هذا إلا سحر واضح، لأنه يحول تصــوراتنا ويخرجنــا ممــا كنــا نعتقــده إلــى شيء آخر بعيد عنه.

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدراسة: القراءة بتأمل.

المعشار: العشر.

النكير: الإنكار.

الموعظة: كلام فيه تحذير من مكروه، وترغيب في ضده.

القيام: التأهب وأخذ الأمر بجد.

التفكر: تكلف الفكر، لتحصيل العلم.

الأجر: العوض عن عمل يرغب في التحصيل عليه دافع المقابل كان مالا أو منفعة.

يقذف بالحق: يظهر الحق ويهزم الباطل.

ما يبدئ الباطل وما يعيد: يضمحل الباطل اضمحلالا نهائيا.

قريب: عليم محيط.

بيان المعنى الإجمالي:

العجب من غباء المشركين، فهم لم يكونوا أهل كتاب يتدارســون مــا فيــه دراســة تبلــي عقولهم، ولم يأتهم قبلك نذير يوجههم إلى الخيــر ويحــذرهم مــن ســوء العاقبــة، فيكــون اعتمادهم على أحد الأمرين مبررا للإعراض.

إن تصلبهم في الكفر شأنهم فيه كشأن المكذبين من الأمم الماضية، قوة القرشيين لا تبلغ عشر قوتهم، وسلطت عليهم العقاب الماحق لما كذبوا. فكيف كان غضبي؟ هو فوق الوصف.

قل لهم: إنني أرغب في تحذيركم من الشر، وأدعوكم إلى ما يقابله من الخير (أعظكم) بأمر واحد: أن تجتهدوا فتقبلوا على الله بقلوب متفتحة مطهرة من كل الأفكار المسبقة، وأن تقبلوا على التعمق في التفكير، إما أن يختار كل واحد منكم صاحبا يألفه ولا ينازعه، أو أن تجتهدوا فرادى، ثم تتعمقون في التدبر حسب شروط التفكير المنتج؛ إن هذا المنهج سيصل بكم إلى أن محمدا صاحبكم الذي رضيتم خلقه وصدقه وأمانته وذكاءه، ونجاح تكبيره، لا يمكن أن يكون به مس من الجن، و يتبين لكم أنه إنما جاءكم لينذركم العذاب الشديد الذي لا منجاة منه لمن كفر.

قل لهم أيضا: إني ما تعلقت بدنياكم ولا حملتكم أجرا يثقل عليكم، ولا قليلا من أموالكم، فأنا أطمح لنيل رضا الله، الذي هو شهيد لا يخفى عنه شيء مما أنطوي عليه.

وقل لهم أيضا: إن ما تؤثر به النفس في عقيدة الإنسان وسلوكه ينتهي به إلى الضلالة، فتبعات الضلال يتحملها الضال وحده وجاءته من نفسه . وإن اهتديت، فذلكم الاهتداء هو بفضل ما أوحى به إلي ربي من الهداية وتوفيقه. إن ربي سميع لكل ما تحدثه النفس، وقريب قربا يحقق أن علمه محيط بالأشياء .

بيان المعنى العام :

44- وما آتيناهم من كتب...قبلك من نذير.

رفض الكفار ما بلغهم رسول الله ﷺ، وقد ذكرت الآيات السابقة مبررات رفضهم الزائفة. وتابعت هذه الآية تقطع كل عذر في رفضهم، فذكر القرآن أنه سبحانه لم ينزل عليهم قبل القرآن كتابا من عند الله يستندون إليه لرفض ما جاءهم باعتباره مناقضا لما عندهم، فهم أمة أمية، كان محمد أول رسول. ولو كانوا يعقلون لأقبلوا على القرآن مبتهجين، إذ يخرجهم من الضياع إلى وضع يكونون فيه حملة كتاب من عند الله . ولم يأتهم قبلك نذير مختص بهم ينذرهم فيستندوا لكلامه ويستغنوا به عن نذارتك. ويختارون البقاء على ما ألفوه .

45- وكذب الذين من قبلهم...فكيف كان نكير.

هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ : تذكر الآية أن الذين أرسلت إليهم الرسل قبل قومك كذبوهم، وكانوا أشد قوة من قومك ، لا تصل قدرات قومك ولا ثراؤهم إلى عشر

ما كان للأمم السابقة ،فكذب هؤلاء الماضـون الأقويـاء رسـلي، فسـأل الآيـة كيـف كان نكيري عليهم ؟ كيف كـان عقـابي لهـم علـى مـوقفهم مـن رسـلي ،هـو نكيـر وغضب و عقاب يفوق الوصف.

46.قل إنما أعظكم بواحدة...بين يدي عذاب شديد.

خمس آيات متوالية كل واحدة منها مفتتحة بقل ، منبهة بذلك لمضامينها.

الأولى: قل لهم لينتبهوا وليفتحوا عقولهم على ما سـيعرض علـيهم، هـو يعـرض علـيهم أمرا لا تعقيد فيه، ولا كثرة مشـتتة، هـو وعظهـم بموعظـة واحـدة تحـرك العقـول وتهدي السبيل،

أن تأخذوا الأمر بجد أن تقوموا لله، فتبعدوا عن أنفسكم كل مـا علـق بهـا وتعـودوا بهـا إلى فطرتها التي خلقها الله عليها، تغسـلوا عقـولكم ومشـاعركم ممـا التصـق بهـا فـي الحياة لتكون صافية نقية عن محيطها كـل غـبش، فتتجـردون مـن الأفكـار المسـبقة، أن تقوموا جادين على هذا التصور، إما اثنـين اثنـين، يختـار كـل مـنكم مـن يـأنس لفكره، ويثق في نظره، فيكون التعاون بـين الاثنـين مضـمونا للتعمـق وتقليـب النظـر لتكتشف الحقيقة، أو أن يقبل كل واحد منكم بجد يعـود إلـى نفسـه منفـردا، يتأمـل فـي هدوء، بعيدا عن العجلة، وعن الصخب واللغط، ثم تنتقلـون مـن مرحلـه الإعـداد هـذه، إلى التعمق مفكرين في صـاحبكم الـذي عـاش معكـم أيـام صـباه وشـبابه وكهولتـه، خبرتم أخلاقه فرضيتم خلقه وأمانته، ورجاحـة عقلـه وذكـاءه، وصـدقه وعفتـه، إنكـم تستمعون لما يبلغكم به عن الله من وحي كتابه، فما طـرق أسـماعكم كـلام يبلـغ مبلغـه من البيان والدقة والسلامة وحسن النظم، إنكـم إذا تـدبرتم فـي ذلـك فـرادى، أو مثنـى مثنى، فإنه لا بد أن تفضـي بكم تلكم المقدمات إلى التفكـر، إلـى انقـداح تلكـم الومضـة النورانية من الفكر الخالص، وعندها فإنكم مـستعلمون أنـه لا يمكـن أن يكـون مجنونـا، فالجنون يقترن به الخلـط والخـروج عـن المنطـق والمعقـول، انـه مقصـور علـى إيقاظكم ليعرفكم ما يترصدكم مـن خسـران ومقـت وعـذاب شـديد، فتنتشـلكم هدايتـه من العذاب الشديد .

47. قل ما سألتكم...وهو على كل شيء شهيد.

هذه هي الآية الثانية المفتتحة بـ " قـل ": طعنـوا فـي الرسـالة وفـي الرسـول وفـي الكتاب المنزل ما شاء لهم العناد ،وبـين القـرآن باطـل تلكـم المطـاعن فأسـقطها، ثـم فرضت هذه الآية أن يتعللوا سعيه من وراء دعوتـه إلـى اكتسـاب المـال، شـأن سـدنة الأصنام وبيوت العبادة الذين يفرضون على العابدين ضـرائب تفـتح لهـم أبـواب الخيـر

وتسبب لهم رضا المعبودين. يتبرأ فيها النبي ﷺ من طلب الدنيا والتعلق بما في أيدي الناس، وانتظار أجر على ما يقدمه لهم من هداية ينفي ذلك على أبلغ وجه، يأمره الله أن يقول لهم: إن كنت سألتكم أجرا في الماضي أو في الحاضر تدفعونه لي، فهو لكم استرجعوه مني، وهم يعلمون أنه ما طلب منهم شيئا من متاع الدنيا، وإذ انتفى أن يكون طالب مقابلا، فإن قيامه بالهداية ليس عبثا، ولكنه ينتظر ثواب ذلك وأجره من الله. ثم يعلن انه متعلق بربه الذي يعلم ما ظهر وما بطن، يعلم أنه ما أخذ شيئا، وأن نفسه الكريمة العالية مطهرة من التعلق بما في أيديهم..

48. قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب

هذه الآية الثالثة المفتتحة بـ "قل" تحقق ما جاء في الآية السابقة "إن أجري على الله" فإن أجره المضمون من عند الله ضمان الوعد ممن لا يخلف وعده؛ إن أجره ﷺ لا يقتصر على ما سيتفضل عليه من تكريم ورفع الدرجات، بل يقترن ذلك بأن ما جاء به سيظهره الله، ويقذف بقوة ما تضمنه من الحق، على الباطل الذي تتمسكون به فيتهاوى، وينتصر الدين الذي جئت به على الأوهام والضلالات المظلمة التي استولت عليكم .. ولا تسألوني متى سيتحقق ذلك؟ فإن ربي القريب مني الذي وعدني ما أنذرتكم به، هو وحده علام الغيوب، فما هو مخبأ في غيوب المستقبل منكشف عنده كأنه حاضر .

49. قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد

هذه الآية الرابعة المفتتحة بـ "قل" لهم أفيقوا من غفلاتكم، لقد جاء الحق، لم يعد الأمر جدلا ينتهي بغلق المجادلة والاحتجاج، ولكن الأمر معركة انتصر فيها الحق بالآيات المنزلة الثابتة في الصدور، المتلوة بالألسنة والقلوب، المؤثرة في منهج الحياة، الكاشفة عن العقيدة الصحيحة، فاستقرت في الحياة استقرارا نفى باطلكم نفيا لا مطمع له بعد ذلك في ظهور ولا في عودة، لقد اضمحل، وتحللت جميع قواه فلا مطمع له في عودة. وبهذا التحليل تكون الآية مؤكدة للآية السابقة قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب

50. قل إن ضللت...سميع قريب

هذه هي الآية الخامسة المفتتحة بـ "قل" اختتم بها إيقاظ كل من يحتمل أن يكون مخاطبا لتقرير قاعدة عامة، على الإنسان أن يتأمل فيها، ولتكون مقدمة بأجلى بيان إذ نسب فيها الضمير إلى النبي ﷺ، وهو المثل الأعلى في السمو الإنساني، قل لهم: إن منبع الضلال والشر، والفساد في العقيدة والسلوك، هو نفس الإنسان التي

بين جنبيه؛ إن النفس لأمارة بالسوء، هي مسكن الشيطان، ومنها ينطلق إلى العقل ليضاله، وإلى الغرائز ليلهبها حتى تقطع صلتها بالفضيلة. إن ضللت وانحرفت عن طريق الهداية، فأثار الضلال تقع على نفسي.

وإن اهتديت إلى الحق في العقيدة والاستقامة في السلوك، فإن ذلك لا يكون إلا باتباعي لما يوحي به إلي ربي، فالحق والخير والاهتداء والأمن، كلها باتباع وحي الله، وخسارة الإنسان بانفصاله عن وحي الله واستجابته لدواعي النفس الأمارة.

إن ربي سميع لما يجري في النفس من خواطر وعزمات، وسميع لكل ما يرف في الكون لا يتوقف سمعه على تموجات الهواء، وهو قريب قربا يؤكد علمه بكل ما يحدث. وفي هذه الخاتمة تهديد للضالين بأن الله مطلع على كل دقيقة من فعالهم، وهو تأمين للصالحين بأن ربهم قريب منهم، ولا كرامة أسمى من هذا القرب.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفزع : الخوف المفاجئ.

أخذوا : قبض عليهم.

فلا فوت : فلا خلاص من العقاب.

مكان قريب : المحشر.

التناوش: التناول.

يقذفون : يقولون بدون ترو.

أشياعهم : المشابهون لهم في النحلة ، أمثالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يامن تصح منه الرؤية ! لو تبصر هؤلاء العتاة المشركين من أهل مكة وهم مضطربون خائفون، لا يقدرون على الانفلات مما هم فيه، يتم إمساكهم كلما هموا بالخروج، وهم ينادون: آمنا به، آمنا به - وما أبعد الإيمان النافع عنهم. فهي كلمات تضيع بمجرد ما تخرج من أفواههم. كيف لا وقد كفروا بما قالوا: آمنا به، زمن التكليف. وكانوا يرمون ما يحمل الرسول على إبلاغهم إياه من الوحي قبل أن

يصل إليهم، كانوا يفرّون منه ويبتعدون عنه. إنهم في هـذا اليوم يشتهون أن يعـودوا إلى الدنيا، لو أن تنفعهم كلمة: امنـا. ويقوم اليأس في قلـوبهم مـن نيـل ممـا يشـتهونه، ذلك جزاؤهم العادل على شكهم المسبق.

بيان المعنى العام

51. ولو ترى إذ فزعوا ..من مكان قريب.

استحضار لمشهد رهيب؛ لو ترى، والخطاب لكل من تصـح منـه الرؤيـة إذ بلـغ الأمـر شهرة واضحة، فلا يخفى على أي راء؛ فما هـو المرئـي ؟ هـو مقـدر لتـذهب الـنفس في تقدير فظاعته ما شاءت. ثم تفصل الآية بعـض الصـور: الفـزع والخـوف قـد استولى عليهم فهم يرتجفون، إنهـم يضـطربون، كـل فـرد يتحـرك حركـة المسـتعد للفرار، فيؤخذ ويقيد قبل أن ينتقل من مكانـه، يؤخـذ مـن مكـان قريـب. فبمجـرد مـا يتحرك للهروب يطبق عليه أسر الملائكة الموكلين به.

52.و قالوا آمنا به. من مكان بعيد.

وقالوا: امنا به ولم يعيثـوا بمـا ذا امنـوا، كلمـة خرجـت مـن أفـواههم يصـح امنـا بمحمد، أو امنا بيوم البعث، توهما منهم أن ذلـك ينجـيهم وكـم هـو بعيـد عـنهم أن يصيبوا الإيمان، ويتناولوه اليوم، إن الإيمان كان نافعا فـي الـدنيا، أمـا اليـوم فقـد بعـد ما بينهم وبين زمن التكليف، الذي يترتب عليـه الفـوز أو الخسـران. فمـثلهم مثـل مـن يمد يده ليتناول شيئا هو بعيد عنه تمـام البعـد. ولتقريـب الصـورة مـثلهم كمثـل الـذي يمد يده إلى السماء ليتناول منها كوكبا.

53. وقد كفروا به ...بالغيب من مكان بعيد.

كشفت هذه الآية عن الوضع الذي كانوا عليه في الـدنيا. أنكـروا الـوحي النـازل علـى رسول الله ﷺ، وسجل القران في غير ما اية جـرامتهم علـى القـران وعلـى الرسـول، فقد كفروا بكل ما جاءهم وما وعدوا به وما توعـدوا عليـه، فهـذه صـورة الكفـر. أمـا الكيفية فكان الصـدود يحملهـم علـى الـرفض دون أن يتبينـوا مضـامينه، ويعرضـوه على عقولهم وعلى ما تنادي به فطرتهم، فمثلهم مثـل مـن يقـدم لـه النفـيس فيرفضـه قبل أن يعرف نفاسته، ولا يقترب منه، وينفـر منـه بعيـدا. أي إن الفاصـل بيـنهم وبـين هداية الوحي كان فاصلا بعيدا لأنهم قرروا مقدما أنهم لا يقتربون منه.

54. وحيل بينهم....إنهم كانوا في شك مريب.

تلخص هذه الآية حـالتهم بعـد تقريـرهم بسـوء مـا قـدموا، ومحـاولاتهم التنصـل، وتصورهم أن قولهم آمنا ينجيهم فيحمون أنفسـهم مـن العـذاب. إن مـا كـانوا يتمنونـه

بقوة، تتفتح له شهيتهم كانفتاح شهية الجائع إلى الطعام، في ذلك الظرف يحال بينهم وبين أطماعهم، فيقوم اليأس المعذب يرد كل أطماعهم إلى خيبة، وما أشد مرارة وقع ذلك عليهم ! ثم مثل هذا الحرمان الباغت في الدنيا فإن أمثالهم في الدنيا من الذين سلط عليهم العذاب واستؤصلوا، ثم ذلك بصفة مباغتة فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. وما ظلمهم الله، وهو الحكم العدل. إنهم كانوا مغرقين في الشك، أقبح صور الشك المفضي إلى الرفض، والانحراف المسلوك، مريب شك شديد في نوعه.

تم بحمد الله وحسن عونه بيان معاني سورة سبأ يوم الاثنين 12 جمادى الثانية 1434 – 22 أفريل 2013 تقبل الله عملي ويسر لي بلوغ إتمامه .

سورة فاطر

المشهور من أسمائها (سورة فاطر) أخذا من فاتحتها: الحمد لله فاطر وسميت في صحيح البخاري وسنن الترمذي : سورة الملائكة . إذ وصفت السورة في أولها صفة الملائكة بطريقة اختصت بها من بين سور القرآن ، وهي سورة مكية، نزلت جميع آياتها قبل الهجرة، وهي السورة الخامسة والثلاثون حسب ترتيب المصحف، وهي الثالثة والأربعون حسب ترتيب النزول .نزلت بعد سورة الفرقان، وقبل سورة مريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ

فاطر : خالق ومنشئ على غير مثال.

جاعل : مصور على كيفية مخصوصة.

أولي : أصحاب.

أجنحة : جمع جناح.

اذكروا : تذكروا بالقلب واللسان

أنى تؤفكون : إلى أي زمان أو مكان تصرفون .

وعد : الإخبار عن الشيء المستقبل .

الغارير : إيهام النفع فيما هو ضار .

الغرور : الشيطان.

بيان المعنى الاجمالي.

تفرد الله باستحقاق الحمد والثناء، هو الذي أنشأ السماء والأرض على غير مثال، وأحكم التقدير . جعل الملائكة مخلوقات له، تطيعه ولا تستطيع أن تعصيه. كلفهم بتبليغ ما يريد إبلاغه من الخير لأهل الأرض، ومن الوحي لرسله. لها قوة مثلها بالأجنحة التي تساعدها على القيام بالمهام المكلفة بها. وللملائكة مراتب فمنها ما ركب فيه اثنين من الأجنحة مضاعفا، أو ثلاثة أجنحة مضاعفة أو أربعة أجنحة مضاعفة أيضا. والأجنحة قوة للملائكة ليست مجسمة يعلمها خالقها. والله يزيد في قدرات الملائكة ... كما يزيد في الخلق من الكمالات والأنواع ما يشاء حسبما تقتضيه حكمته . إنه سبحانه متفرد بالقدرة الكاملة التي تنفذ كل ما يريده .

إن ما يمكن الله منه البشر من الخيرات لا يستطيع أي أحد أن يمنع وصوله لصاحبه، وكذلك ما يمسك الله من خيره عن البشر أفرادا أو جماعات فلا يستطيع أحد أن يسكر المحروم منه. إنه العزيز الذي يخضع له كل شيء، وتعالى عن الخضوع لأي شيء. وكل ما يحققه ربنا في الوجود فإنه يصدر عن الحكمة والعلم الكامل.

لا تحزن ولا تيأس، من تصلبهم في تكذيبك، فعلى هذا النوع من السلوك جرى أمر أقوام الرسل من قبلك. وإن جميعهم يعودون إلى الله ليحكم فيما فعلوه وما تركت عليها من سوء. ثم ينادي القرآن كل عاقل على وجه الأرض ليستيقظ من غفلته، اعلموا أن ما وعده الله سيتحقق قطعا. إنكم ستبعثون يوم القيامة وتحاسبون عما قدمتم، بالثواب أو العقاب. فلا تخدعكم مباهج الحياة الدنيا من مال وبنين وسلطان وصحة، ولا يغرنكم الشيطان بما يغريكم به من الإقبال على الملاذ والشهوات.

بيان المعنى العام :

1-الحمد لله فاطر... على كل شيء قدير.

الحمد الكامل والثناء البالغ أعظم مبلغ، هو لله وحده. فكل ما يثنى به على غيره حصل بفضل منه وهبه للمحمود. حق له الثناء فهو الذي أنشأ السماء والأرض على غير مثال سابق، ولا ترتيب في التصور . إن من ينظر في ملكوت السماء والأرض وما فيهما من دقة، وتقدير لكل كبير وصغير فيهما، وعلاقة كل كائن بغيره لا يملك إلا أن يحمد الله على ما خلق وأبدع، وقدر فأحسن التقدير .

ثم لفتت الآية العقول إلى شيء خفي عنها لا تستطيع معرفته إلا بما يعلمها به الخالق، والمناسبة بينهما أن كلا من خلق السماء والأرض يحتوي على أسرار لا يحيط بها إلا خالقها، الذي يتفضل على الإنسان بهدايته إلى كشف بعض تلكم الأسرار إما باتباع طرق التعرف المادية، كما في السماوات والأرض، أو بواسطة الوحي كتعريفنا بخصائص الملائكة، وكذلك الغيوب التي منها يوم القيامة.

أعلمتنا الآية أن الله قد خص الملائكة بخصائص. فلنتتبع ما كشفته :

أ) الملائكة جمع ملك. وعرف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الملائكة بعد أن عرض ما استقر عليه رأي صاحب المقاصد ولم يرتضه، فعرفها بقوله: أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القوة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى الأرض.

إن الجنس الذي افتتح به التعريف لم أرضه، لأن إدخالها تحت جنس الأجسام التي تقتضي تركيبا ماديا، ما وجدت في النصوص ما يشهد له. ولكن في نظري هي كائنات، موجودات خلقها الله لا دخل للتركيب ولا للمادة في تحقق وجودها، لم تمكن من الاختيار بل تمحضت للطاعة ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1]. ولذلك لا يتصور أن يصدر عنها إلا الخير. ولما كانوا يفعلون ما يؤمرون، فإن الله طوع لهم القوى العصية على الإنسان. أما القدرة على التشكل، وما ورد من ذلك في ظهور جبريل للنبي ﷺ على صور مختلفة، هو صحيح، ولكن الذي أطرحه هو أن ما يحصل في إدراك الرائي هل هو نتيجة تشكل المرئي حقيقة، أو هو نتيجة القوة الإدراكية. فقطرة الماء النازلة من السحاب يراها الرائي خيطا ممتدا من المصدر إلى الأرض، مع أنها في الحقيقة انتقال سريع لا يقدر البصر على الفصل بين الأمكنة المتلاحقة. فقد يكون تأثير الملك في بصر الرائي أنه يراه على شكل رجل أو على شكل جسم عظيم له أجنحة. وأرجح الفرض الثاني لأنه يحقق نفي الجسمية والأبعاد المكانية. ويجعل طبيعة الخلقة الملكية غير الطبيعة الإنسانية.

يكلف الله بعضهم بحمل رسالاته، فيتولون تبليغها إلى من يختارهم الله ليكونوا أنبياءه ورسله. وهم بذلك أمناء على الوحي، لا يتقدمون عن الوقت المحدد ولا يتأخرون عنه، ولا يحورون منه شيئا بالزيادة أو النقص.

---

[1] سورة التحريم آية 6

اثنين اثنين، ثلاثة ثلاثة، اربعة أربعة. وهل المراد أن هذا العدد حاصر أو مراد به التكثير . والمهم في نظري هو تبين المراد بالأجنحة. ويكاد المفسرون يربطون في تصور أجنحة الملائكة بالصورة المجسمة. ولا أعترض على من يقتصر على الظاهر، ولكني أرجح أن المراد بالأجنحة والله أعلم قوة يكون عليها الملك، فتفيد الآية أن قواهم وقدراتهم ليست على مرتبة سواء، فبعضهم أكمل قدرة من بعض، وأنهم جزء من التكوين العام للخلق. ربهم يحملهم القيام بمأموريات يؤدونها حسب استعداداتهم. ولا نستطيع أن نتصور أن خلق الملائكة له أي شبه بخلق الكائنات الأرضية، فإذا قال الله: لهم أجنحة، نثبت لهم أجنحة. لكن ليست من ريش ولا لحم ولا عظم ولا مثبتة في الجانب الأيمن أو الأيسر أو فوق الظهر ، وقد ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، وإسرافيل له اثنا عشر ألف جناح. وجبريل ينزل على رسول الله ﷺ مبلغا لوحي الله، في بيته أو في المسجد أو فوق راحلته من الصور العديدة التي كان ﷺ يتلقى عليها الوحي. إنه يحدث في نفسي تناقض إذا تصورت تجسيما فيها. هي كائنات محدثة حسب قانون إلهي غير قانون خلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان. فلتبعد عنك أيها المؤمن كل تصور مستخلص من مباشرتك للحياة، جردها عن الدم واللحم والعظم والريش والتحيز.

4) يزيد في الخلق ما يشاء: يصح ربط هذه الجملة بالحديث عن الملائكة فتفيد، أن ما ذكر من قواهم مصور بالأجنحة، قد يزيد القادر الحكيم في قدرات بعضهم عن الحد المذكور، مثنى وثلاث ورباع . كما يمكن فهم الآية على أنه يزيد في خلق الكائنات المعروفة لنا ما تتعلق به المشيئة، أو أن الله يزيد بعض المخلوقات من الكمالات ما يشاء من العلم والذكاء والفطنة والجمال. وحمله بعضهم على جمال الخط. وكلها تمثيل لا يقصد منه الحصر. فإن الله على كل شيء قدير، لا تظنوا إذا ابهرتم لجمال صورة، أو لقة وفصاحة ونباهة عالم، أن ذلك هو الكمال الذي ليس فوقه بعد، فالله يزيد في الخلق ما يشاء. والكل خلقه، والفضل فضله، وفضله لا يحد .

2: ما يفتح الله للناس...وهو العزيز الحكيم

ترتبط هذه الآية بخاتمة الآية السابقة بما أفادته، من أن الله سبحانه يزيد في الخلق ما يشاء . ومن ذلك أن كل خير يعطيه الله لعباده من علم وتقوى ومال وصحة وجمال وصلاح الذرية وأمن نفسي، ما انتفع به الأفراد أو ما تناله الجماعات، فإنه لا يستطيع أحد أن يمسكه فيحول بينه وبين من قدر الله له الخير . وفي المقابل إذا منع سبحانه أي نوع من أنواع الخير، وحبس أي لطف من ألطافه، فإنه لا يستطيع

أحد أن يمكن منه المحبوس عنه ، واختتمت الآية بما يفيد أن فتحه لأبواب الخير أو مسكه إياها هو من مقتضيات العزة، فهو العزيز ، إذا أراد السمح فلا يستطيع أحد أن يمنعه، وإذا أراد مسك رحمته نفذ ما أراد ولا يرقى أي كائن للاعتراض عليه. إن فعله سبحانه جار على مقتضى الحكمة، فالحكمة والعدل والكمال في تصرفه سبحانه.

3. يا أيها الناس...فأنى تؤفكون

نداء يوقظ الناس ويخرجهم من غفلاتهم؛ يأمرهم أن يذكروا نعم الله عليهم التي تفوق الحصر ، أن يتأملوا فيها ليذكروها ذكر الشاكرين المعترفين بفضله عليهم. ثم تنتقل الآية إلى مرحلة أرفع من الإيقاظ فيسألهم سؤال إنكار مفيد للنفي ما دخل عليه؛ إنه لا خالق غير الله؟ هو الخالق الفاعل الذي لا غنى لكم عنه. فكما خلقكم، هو وحده الذي يمكنكم من وسائل البقاء، في الرزق الذي يمكنكم منه مما يرد عليكم من السماء من الأمطار والأشعة والنور، وضبط الاتجاه، ومن الأرض مما تنبته أو تنميه من حيوانات البر والبحر . لا إله إلا هو. كل ما تدعون من دونه آلهة زائفة، فإلى أي زمان أو مكان تصرفون، فلا فعل إلا له وحده.

4. وإن يكذبوك ...ترجع الأمور.

ثم عطف القرآن التوجه إلى رسول الله ﷺ ليسليه، ويقوي عزيمته على المضي في تبليغ الوحي والهداية. لا تبتئس بتكذيبهم رغم جهدك ونصاعة حجتك، فإن هذا هو شأن المرسلين الذين سبقوك، دعوا أقوامهم للإيمان فكذبوهم. من سبق ومن حضر ومن سيأتي في المستقبل، الكل سيعودون إلى الله، وتتكشف أمورهم ويجزون على ما فعلوا، أو يحاسبون على مواقفهم من رسل الله . إن جميع الأحوال صائرة إليه.

5. يا أيها الناس...ولا يغرنكم بالله الغرور.

هذه الآية توقظ الناس جميعا. يخاطب الله بها المؤمنين ليثبتوا على الحق الذي هم عليه، ويخاطب بها الكافرين ليرتدعوا ويقلعوا عن كفرهم وفسادهم. يذكرهم بأن ما وعد الله به سيتحقق في المستقبل لا محالة. ما أخبر به عن جزاء الصالحين، وما وعد به من بعث الناس جميعا. لا تغتروا بما تغريكم به الحياة الدنيا من ملاء وترف، وسلطان، مما يشغلكم عن التفكير في المعاد، وعن الانتباه إلى أن كل نعيم زائل عقب اللحظة التي استمتعت فيها بما استمتعت به .ولا يغرنكم بالله الغرور: الشيطان، الذي يزين لكم مباهج الحياة وينسيكم ربكم، ويقلب الحقائق فيصور لكم

الزائل باقيا، لا يفنى .فينسيكم ربكم ويقطع الصلة النورانية التي تربطكم بجلاله، وتحفظكم من الزيغ والضلال . فيغرقكم في ظلام الشهوة ويحول بينكم وبين الاستقرار النفسي في الحياة الدنيا والرضوان الإلهي يوم القيامة.

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

السعير : النار الشديدة الاشتعال، والمراد بها جهنم.

التزيين : تحسين ما ليس بحسن. كلا أو بعضا

فلا تذهب نفسك: فلا تهلك نفسك.

الحسرة : هم النفس على فوات أمر .

بيان المعنى الإجمالي :

تأكدوا من أن الشيطان مصمم على عداوتكم حتى أصبحت طبعا فيه فتيقظوا لوسوسته، وقابلوا ما يكنه لكم من عداوة بعدائه معتصمين بما أنزل الله إليكم من هدايته. همه أن يقود من يتبعه إلى عذاب النار الموقدة في جهنم. وبذلك انقسم الناس إلى فريقين: فريق اتبع الشيطان فكفر ، فاستحق عذابا شديدا، وفريق عاداه واستقام في سلوكه، هو مستحق لمغفرة الله له عن تقصيره، وهيأ الله له ثوابا كبيرا يتجاوز كل مقدار .

من مكر الشيطان أنه يقلب القيم، وتصور الإنسان للخير والشر ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، إن الله يحجب ألطافه عمن يشاء فيضل، ويمنح عونه وهدايته لمن يشاء فيرشد. والله عليم ببواطن الأمور ، فلا تحزن عليهم حزنا يقضي عليك، إن الله لا يغيب عنه شيء من فعالهم ومما يدبرونه من الشر .

بيان المعنى العام :

1/ إن الشيطان لكم عدو...ليكونوا من أصحاب السعير.

بكل تأكيد، الشيطان منطو على عداوتكم، أشد ما تكون العداوة، يحمله بغضه للجنس البشري ليصرف كل خبثه ومكره ليضل الناس، ويبعدهم عن طريق ربهم، وعن سبل الخير، ويزين لهم الشر فيألفونه، ويرضونه حتى يزيل من فطرتهم رفضه.

وإذا كان هذا حاله فانتبهوا لمخططاته، وتحصنوا من مكره، واتخذوه عدوا ترفضون كل ما يحدثكم به، ويزينه لكم. يبغض منكم أن تلزموا مسالك التقوى، ويُسرُّ أشد السرور باتباعكم لشهواتكم، بحزن لوحدتكم، وينشرح لتفرقكم. هذا شأنه، فكونوا أعداء لما يدعوكم إليه، وعاكسوا وسوسته، وتحصنوا منه بمعرفة مداخل الشر التي ينفذ منها إلى عقولكم وقلوبكم. اتبعوا ما شرع لكم ربكم. إن الذين يطاوعونه ويتراخون، فيقبلون وسوسته والطرق التي يدعو إليها تتكون بينهم وبينه رابطة الانقياد والتبعية، إن هؤلاء الذين غطى على ركابتهم فأطاعوه، واستجابوا لدعوته، إنما يدعوهم في الحقيقة لتنتهي بهم مسالكه إلى أن يكونوا ملازمين لعذاب جهنم المستعرة نارها.

7. الذين كفروا لهم...وأجر كبير.

أتباع الشيطان هم أولا وبالذات الذين كفروا بالله وبشرعه. إن أخطر ما يوسوس به الشيطان هو التشكيك في العقيدة، للانتهاء بالشاكين إلى الرفض (الكفر) فصرحت هذه الآية بما قررته الآية السابقة :أنهم اختصوا بالعذاب الشديد الذي لا يعلم مداه وأنواعه إلا المتصرف في الخلق بالعدل، والله لا يغفر أن يشرك به. وفي مقابل الكافرين يرفع القرآن جزاء من جمع بين الإيمان بمقوماته، وبين تطبيق شرع الله الذي أتاهم على لسان رسول الله ﷺ فتطهروا من دنس الإثم، وزيغ الشهوة، والتسلط والظلم. وعدهم بالمغفرة لما قصروا فيه، أو غفلوا ثم انفتحت بصيرتهم فتابوا. ومع المغفرة التي تنقي صحائفهم من أدران الإثم، أجر كبير لا يعلم مقداره إلا رب العباد الرؤوف بهم .

8. أفمن زين له سوء عمله...عليم بما يصنعون.

نبهت الآية السابقة إلى تأصل عداوة الشيطان للإنسان، حتى أصبحت جزءا من طبيعته، مما يقتضي أن يكون حذرا من مكائده، ويعاكس ما يدعوه إليه. وكشفت هذه الآية عن قوة مكره. إنه بوسوسته يصل إلى قلب سليم القسم، قلبا يستقر به ما استقر في الفطرة، وما جاء به الشرع. إنه يزين القبيح حتى تألفه النفس فلا ترفضه. ويغلق باب التوبة باعتبار أنه غطى وجه القبيح في الفساد. ويلهيه عن الواجبات والحسن. فلا يشعر بداعية الإقدام عليه وإنجازه. فيبلغ الشيطان من التحكم في الإنسان أنه يقلب قيمه، فيرى الشر خيرا، والمعروف منكرا. وبذلك يطمئن إلى أنه لا يتحول عما دفعه إليه .

أفمن زين له سوء عمله، استفهام إنكاري أن يبلغ الشيطان بوسوسته ان يغطي على جوانب القبح والفساد، ثم يخرجها على أنها جوانب خير. وزيّن. مبني للمفعول، والفاعل المضمر هو الشيطان، فالتركيب في قوة، أفمن زين الشيطان له عمله، فرأى الحسن قبيحا؟ إياكم أن تظنوا انه يفعل ما يشاء له خبثه، وأنه قادر متصرف في عقول الناس، وبالتالي في مصائرهم .إن التصرف لله وحده، ولكنه سبحانه يحجب ألطافه ومساعداته على من يشاء، فيترك الإنسان لنفسه تبعا لتقلب شهواته عليه، وتعطيل قواه الفكرية عن التأمل في كتاب الكون، وفي الشرع الذي أنزله. إن الله بعدله يحرم هؤلاء عونه، وألطافه لينغمسون في الرذيلة والفساد، ويحرمهم اليقظة لسوء أعمالهم، وفي المقابل فإن الله بفضله ييسر للصالحين ألطافه، فيكشف عن بصائرهم حجاب الغفلة، فيرون الحق حقا والباطل باطلا بلا خلط. ثم يقذف في قلوبهم حب الخير، وبغض الشر. أما السؤال: لماذا حرم الله فريقا ألطافه، ويسرها لفريق آخر؟ إن ذلك من سر القدر الذي تضعف عقولنا عن إدراكه على التفصيل. (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

انه إذ تبين لك يا محمد حكمة تصرف الخالق بالعدل والحكمة، وتصلب الكافرين في كفرهم، وأن الشيطان أعمى بصائرهم، وأن كثيرا منهم لا يرجى له صلاح، فلا يكن حرصك على نشر الحق والفضيلة، ومقابلة سعيك بالرفض والعناد، مؤثرا في نفسك تأثيرا يعرضك للهلاك حزنا عليهم، فإن تتابع الحسرات عليهم بتتابع انحرافاتهم قد يطغى على قوى احتمالك .ويواصل القرآن تسلية رسول الله ﷺ بأن الله عليم بما يصنعونه. وفي التعبير [يصنعون] مزية تجسيم أن مكرهم يتراكم شيئا فشيئا كالشيء المصنوع يتابع الصانع مراحل إنجازه.

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

البلد الميت : القاحل الذي لا نبات فيه.

النشور : الحياة بعد الموت.

العزة : الشرف، والحصانة من أن ينال صاحبها سوء.

يصعد الكلم الطيب: يقبله ويجزي عنه..

الكلم الطيب :الكلام الذي يستحسن سماعه الاستحسان الشرعي.

المكر : تدبير إلحاق الضر في خفية حتى لا يأخذ حذره.

يبور : يفسد ولا يحقق ما أعد له.

الكتاب : علم الله أو اللوح المحفوظ المسجل فيه كل شيء.

بيان المعنى الإجمالي :

ترى الأرض هامدة قاحلة، وقد اختزنت في باطنها الحب والزريعة، فإذا أراد الله إحياءها جمع الأسباب من إرسال الرياح وسوق السحاب، وإنزال الماء من خلاله. فتتحرك الأرض ويخرج النبات من بطنها حيا كما كانت أصوله. وكذلك البعث يوم القيامة، فمتى أراد الله بعث البشر هيأ الأسباب التي يعقبها عودة الحياة للأجسام بعد موتها. من كان يعمل على أن يحصل على العزة، فليعلم مقدما: أن العزة كلها لله. لا يجدها طالبها لا في الأصنام العاجزة، ولا عند أصحاب السلطة، الذين يتذلل لهم ليحصل على رضاهم، ويخشى دائما أن يغضبوا عليه ويطردوه، فانتظار العزة منهم وهْم.

تنال العزة برضوان الله، الذي يصعد إليه ما يلفظ به الإنسان من ذكر وإصلاح بين الناس وتعليم. وكذلك بالعمل الصالح الذي يرفعه ربنا إلى مقام القبول عنده.

وفي المقابل فإن الذين يجتهدون في تدبير المخططات للإضرار بغيرهم، وينفذون ما استطاعوا مما دبروه من خبث، يجزون العذاب الشديد في جهنم، ويحبط الله مكرهم. تأملوا في خلقكم لتزدادوا إيمانا. كل فرد منكم مخلوق من تراب، سواء امتد نظره إلى أنه من نسل آدم، وآدم من تراب، أو تأمل في خلقه الذاتي بما يعلم معه أنه مكون من عناصر من الأرض دخلت في التركيب الجسمي لأبويه، ومنهما تم الإنجاب .ثم تحول إلى نطفة من بويضة الأم، والحيوان المنوي للأب . وهذا الخلق الذي أصله واحد اللقيحة، قدر الله أن يكون منه الذكر والأنثى، اللذين منهما يتم التكاثر البشري .إن الله لا يغيب عنه أي أمر من حمل الأم بجنينها والتطورات التي تجري عليه، وتاريخ وضعه والصورة التي يكون عليها عند ولادته. فإذا ابتدأ حياته فأيامه دقائق وثوان معلومة عند الله، فهو يعلم هل هذا المولود يستمر به

العمر إلى ما بعد السبعين، أو يموت قبل ذلك .؟كل ذلك موثق في علم الله لا يحدث في علمه أي تغيير. وقد سجله لله على ما يكون عليه منذ الأزل.

بيان المعنى العام :

9ـ والله الذي أرسل...كذلك النشور.

ظاهرة إنزال المطر من السحاب، وتأثيره في الأرض القاحلة التي لا نبات فيها، تكرر لفت الأنظار إليه في القرآن ليكون دليلا على إمكان البعث ومقربا لحصوله. فكما أن الله ينزل الماء على الأرض القاحلة فتنبت الأعشاب ويخضر أديمها، حسب قوانين أحكمها، فكذلك يحيي الله الموتى في الأجل الذي قدره، بإحداث أسباب يحكمها فتتزاوج الأرواح بالأجساد. ويتم البعث والنشور.

10ـ من كان يريد العزة...ومكر أولئك هو يبور.

أمر فطري في الإنسان أنه يأنف من الذل، ويبغي العزة حلا يقدر أحد على الاعتداء عليه. وإذا كان هذا أمرا فطريا فإن سبيل الوصول إلى العزة قد يعمى على الناس فيطلبون العزة من غير وجهها فلا يحصلون عليها. اعلموا أن العزة كلها ملك لله، ولما تفرد الله بملكها وغيره عار عنها، فمن يطلب العزة فليطلبها من الله سبحانه، وغيره فاقد لها، وفاقد الشيء لا يعطيه. فمن أراد أن تحصل له العزة فليطلبها منه، ومن تعلق بالأصنام فهو واهم لأنها عاجزة. ومن طلب العزة من الكبراء وأصحاب السلطان فهو واهم أيضا، لأن تعلقه بهم هو إذلال لنفسه من الدناية ورضوخ لكبريائهم. ولا يأمن أن ينقلبوا عليه فيكون ضررهم عليه أبلغ . ولا بد أن نشير إلى أن العزة المطلوبة تكون في الدنيا، وأشرفها عزة النفس، وتكون في الآخرة؛ وهذه يختص بها المؤمنون الذين يتلقونها من ربهم.

إن سبيل العزة هو الكلم الطيب والعمل الصالح. الكلم الطيب، قالوا: هو قول لا إله إلا الله. وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .وكل ذكر من تسبيح وتهليل وقراءة قرآن، ودعاء واستغفار. وأزيد على ذلك نشر المعرفة. والإصلاح بين الناس وإحياء السنة. والعمل الصالح يرفعه - أي إن العمل الصالح يرفعه الله إلى درجات القبول وحسن الثواب. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لا يقبل الله قولا إلا بعمل، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنية، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة[1] وفي هذه الآية تنبيه إلى أن عناية الإسلام بالأعمال الصالحة آكد من الأقوال الطيبة إلا كلمة التوحيد : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

---

[1] الجامع لاحكام القرآن ج17 ص330

والذين يمكرون السيئات – هذه الآية تحقق معنى الآية السابقة باعتبار أنها تعرضت إلى مقابل الذين يجمعون بين الكلم الطيب والعمل الصالح. فذكرت الآية الذين يجهدون أنفسهم ويعملون فكرهم، لتدبير إلحاق الضرر بالغير، على وجه لا يتفطن إليه. هؤلاء هم الذين يمكرون المكر السيء؛ ولما كان مكرهم متنوعا أشير إلى ذلك بقوله " يمكرون السيئات" جمعا، أنواع خبيثة من المكر . فقد اجتمعوا في دار الندوة لتدبير ما يقطعون به سبيل انتشار الدعوة، قال تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك)[1] وكانوا يدبرون ما يفتنون به المسلمين عن دينهم .

إن مكرهم هذا، والسيئات التي اقترفوها لا يفلتون من جزائها بالعذاب الأليم يوم القيامة في جهنم. مع ذلك فإن مكرهم يقدر الله إحباطه، وتعطيل ما مكروه. والبوار: أصله السلعة التي يعرضها التاجر ويبذل مجهودا لترويجها، فيخيب ولا يبيع منها شيئا، فصورت الآية سقوط مكرهم بالسلعة البائرة التي ينظر إليها صاحبها فيرى فيها مجهوده الضائع. الأمر الذي ينكده .

11.والله خلقكم من تراب..إن ذلك على الله يسير.

في هذه الآية تذكير بالتدبير العجيب في الخلق. وليكن نظر الإنسان أولا إلى نفسه. فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب. ثم إن كل إنسان خلق من مواد تمثلت في أجهزة الإنسان، كلها من عناصر الأرض على نسب مقدرة. وصرحت الآية بمبدأ المرجع في النطفة التي هي البييضة الملقحة بالحيوان المنوي. ومن هذه اللقيحة تنوع البشر إلى الذكور والإناث، فكان كل من الذكر والأنثى زوج للآخر. كلمة الزوج كما تطلق على بعل المرأة تطلق على المرأة، فالمرأة زوج الرجل والرجل زوج المرأة .ثم إن الإنجاب الذي الأصل فيه أن يتم بقضاء الشهوة الجنسية بعلمه الله: متى يتكون ويعلم تطوراته، كما يعلم متى يخرج إلى الدنيا إنسانا، وتلده أمه. كما أن الله يوجد البشر بإرادته، حسب علمه من بداية التكوين إلى الوضع، فكذلك المدة التي يبقى فيها حيا معلومة لله، وينفذ إرادته، فيعمر بعضهم، فيبلغ من العمر ما يفوق سبعين سنة، ويقطع حبل اتصال الحياة الفرد آخر فيموت قبل السبعين، ويكون عمره أنقص منها. وكل ذلك يعلمه ربنا قبل حصوله، ويتحقق على حسب ما استقر في علمه. وإحاطة علم الله بكل ذلك أمر يسير لا صعوبة فيه إذ هو المتحكم في الخلق، والمتحكم في أعمار مخلوقاته .

---

[1] سورة الأنفال آية30

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

بيان معاني الألفاظ

البحران : مثنى بحر وهو الماء المعنى الكثير.

فرات : خال من الأملاح .

سائغ شرابه : مقبول لا يرفض.

اجاج : شديد الملوحة

اللحم الطري : الحوت.

مواخر : تشق سطحه.

القطمير : القشرة في شق النواة.

خبير : عليم علما كاملا لا يدخله أي شك .

بيان المعنى الإجمالي :

مياه ممتدة على مساحات شاسعة؛ بحر عذب مار، تشربون منه فتستسيغونه ولا تنفرون منه، وبحر مالح ملوحة شديدة. وفي كل منهما خير كثير لكم، تصطادون منهما الأسماك التي تغذي أبدانكم بالبروتينات، وتستخرجون من البحر ما تتزينون به كاللؤلؤ والمرجان. بحر واحد يمكنكم من القوت، ومن الزينة .إنكم تشاهدون الفلك تشق صفحة الماء تنقلكم مع سلعكم، وتفتح لكم طرقا مختصرة للتواصل .هذه نعم استحضروها استحضارا يحملكم على شكر منعمها .

هو الله الذي يدخل الليل في النهار شيئا فشيئا والعكس، وينفذ تقديره في الشمس والقمر فلا يخرجان عن المسار الذي قدّره لهما، إلى أن يبلغا الأجل الذي حد لهما في الوجود. إن الذي تصرف في الكون أنواع التصرف المذكورة هو الله ربكم،

المالك الذي لا يشاركه في ملكه أحد. و الذين تدعونهم وتسألون منهم العطاء والعون عجزة، لا يسمعون كلامكم ولو فرض أنهم سمعوا فهم لا يقدرون على تحقيق ما تسألونه، وفوق ذلك يقفون أشد النفي يوم القيامة أنهم أسروكم بالشرك، وهذا الخبر عن الغيب ينبئكم به الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء ولو دق.

بيان المعنى العام :

12- وما يستوي البحران... ولعلكم تشكرون .

تلفت الآية للنظر إلى بديع صنع الله في الكون، فاختلاف الخصائص مع اتحاد المظهر يقوم شاهدا على التصرف الحكيم في الخلق. يقول العالم كريسي موريسون: وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام- فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان. وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء -أي المحيط - الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل، والنباتات، وأخيرا الإنسان نفسه .

أنتم تشاهدون الأنهار الكبيرة تجري بالماء العذب الذي يستسيغه الشارب ولا يرفضه ولا يغصُّ به، وتجدون بجانبه في مصبه ماء ملحا شديد الملوحة. ومن ناحية أخرى ترزقون من البحرين الأسماك التي تتخذونها قوتا، وهديتم إلى استخراج ما يكون حلية لكم، به تتجملون كاللؤلؤ والمرجان. وتشاهدون التقدير العجيب كيف تجري الفلك على سطح الماء تشقه سائرة محملة بالبشر والسلع؛ وذلك بفضل قوانين أحكمها الخلاق العليم حتى بلغت البواخر اليوم من الضخامة ما أصبحت به مدنا عائمة ذات طوابق. إن هذا التيسير يمكنكم من طلب فضل الله في الرزق، يسر لكم كل ذلك ليكون حاضرا في بصائركم وأبصاركم لتشكروا ربكم على جليل نعمه.

13- يولج الليل في النهار...من قطمير .

تقدم التنصيص على مضمون هذه الآية في سورة لقمان آية 28 ولا فرق بينهما إلا في تعدية فعل " يجري " إذ عدي في سورة لقمان بـ"إلى" "إلى أجل " وعدي في هذه السورة باللام "لأجل" وهما متقاربان، وإن كان الزمخشري دقق في الفرق بينهما مبرزا إعجاز القرآن في اختيار التعدية بما يناسب الغرض من الآية . والآية تذكر أيضا بأن كل كائن يجري لبلوغ أجله دون أن يشعر . وذلك مما يؤكد الاستعداد لهذه النهاية التي يعقبها الجزاء .

ذلكم العظيم المتعالي الذي فصلت الآيات السابقة آثار قدرته وحكمته. هو ربكم الذي تولاكم بعنايته حتى بلغتم المستوى الذي أنتم عليه، والملك له لا يشارك فيه أحد. وتحقيقا لذلك فإن الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون أقل شيء من الدنيا، وضرب المثل للقلة والتفاهة بالقشرة التي في شق النواة كالخيط الدقيق "قطمير" فإذا كانوا لا يملكون القطمير فإنه من باب أولى وأحرى لانتفاء قدرتهم على تحقيق طلباتكم.

14. إن تدعوهم لا يسمعوا...مثل خبير

فصلت هذه الآية عجز من اتخذوهم أربابا من دون الله، ووهن صلتهم بهم وعدم انتفاعهم بها وذلك في النواحي الثلاث الآتية:

1) إنكم تحسون بأنهم لا يسمعونكم عندما تخاطبونهم. والذي لا يسمع غير مؤهل لأن يعبد أو أن يطلب منه أي شيء، ولا يفعل ذلك عاقل.

2) وحتى على سبيل الفرض والتقدير كما يفرض المحال، لو سمعوا منكم ما استطاعوا أن يجيبوكم، ويحتمل نفي الإجابة عدم قدرتها على الرد لأنها لا تنطق. ويحتمل عجزها عن تنفيذ ما طلبتم منها.

3) سوف تعلن هذه الأصنام يوم القيامة تبرؤها منكم، وترفع عن نفسها اتهامكم لها بأنها أمرتكم بعبادتها وبشرككم، أو رضيته منكم.

هذا الذي كشفته لكم من عجز الأصنام، ومن تبرئها من المشركين، هو أمر بلغ درجة اليقين الأيقن أخبركم به من بلغ علمه أعلى درجات المعرفة والدقة. وليس له مثل يساويه في ذلك .

• يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ

يذهبكم : يهلككم.

بعزيز : بممتنع.

إن تدع : تستغيث وتطلب العون.

الحمل : يطلق على ما يحمل على الظهر من الأثقال، ويطلق مجازا على الآثام.

يخشون ربهم بالغيب : يخشونه في خلواتهم .

تزكى : تطهر من لوث الآثام.

الحرور : حر الشمس

بيان المعنى الإجمالي :

يا أيها الناس استيقظوا من غفلتكم. اعلموا أن ما رزقتم من قوة ومن حظوظ دنيوية هو من عطاء الله، فأنتم في الحقيقة فقراء، والله هو الغني المعطي، وهو المستحق للحمد والثناء على كمالاته . إنه إن تعلقت مشيئته بإبادتكم لا يبقى لكم أثر، ويعمر الكون بمخلوقات آخرين يوحدونه . وتنفيذ ذلك ليس بممتنع عليه .
قاعدة مرتبطة بالعدل الإلهي: لا تتحمل نفس حمل نفس أخرى مما ارتكبته من الآثام؛ ولو استغاثت المثقلة بالآثام بقريب منها كان في الدنيا مشفقا عليها ويساعدها، كالأم مع ولدها. فإنها لا تنتفع منه بشيء يوم القيامة، ولا تنفعه بشيء
إن تذارك وإيقاظك لما يترصد الزائغين عن طريق الله من عقاب، لا يحقق أثره من الصلاح، في أرواح الأفراد، إلا في الذين تصحبهم خشية الله والخوف من عقابه في خلواتهم فضلا عن وجودهم بين الناس .ومع ذلك حافظوا على صلواتهم فهؤلاء هم الذين ينتفعون بإنذارك .
وقاعدة أخرى أن من اعتنى بنفسه فسما بها وطهرها من الآثام والرذيلة، فإن نفع جهاده ذلك يعود لنفسه، فيحصل له الخير . وكل نفس صائرة إلى الله ليجزيها الجزاء العادل.
يمثل القرآن التضاد الكامل بين الإيمان والكفر، التضاد الذي يفرضه التضاد في المدركات التالية فالكافر كالأعمى، والمؤمن كالبصير . والكافر مغرق في الظلمات، والمؤمن يعيش في النور فتتبين له الحقائق والخير والمهالك، ليلتزم الهدي ويبتعد عن الشر . والمؤمن يعيش في طمأنينة وهدوء نفسي، وراحة، وقناعة، والكافر يعيش تحت وطأة حر الشهوات المتناقضة، والحرمان المهيج. والمؤمن حين يقرع سمعه آيات ربه يتأثر بها ويعدل سلوكه عليها، والكافر كالميت تحت التراب الذي أهيل عليه في قبره. إنك يا محمد تستطيع أن تسمع الأحياء ما يتأثرون به

ويصلحون أنفسهم، ولكنك لا تستطيع أن تجعل من مات وانطبق عليه قبره واعيا لما تقول. فلا تتأسف لتصلبهم في الكفر، فما كلفتك إلا بإنذارهم ليبصروا الحق ويقلعوا عن الكفر.

بيان المعنى العام:

15.يا أيها الناس أنتم...وهو الغني الحميد.

تخاطب هذه الآية الناس "يا أيها الناس" وخصصها بعض المفسرين بخطاب المشركين اعتمادا على ما تكرر في القرآن من مخاطبة المشركين ب " يا أيها الناس " والذي نرجحه أنها تخاطب المؤمنين والكافرين، كل فريق بما يليق به.

فهي تخاطب المؤمنين ليكونوا دوما ذاكرين لمضمونها، مما يزيدهم تعلقا بربهم ويدفعهم لشكره على نعمه، ومواصلة الالتجاء إليه مما يرقق عواطفهم.

وهي خطاب للكافرين يقتلع ما رسخ في نفوسهم: أن الدين في حاجة إليهم، باعتبار أن مركزهم الاجتماعي يؤثر في الأتباع وهم كثر، وأن الناس ينصرفون عن الدين بانصرافهم عنه، ويدخلون فيه إذا هم رضوه. فنقض كبرياءهم بتنبيههم إلى تأكد فقرهم، واحتياجهم إلى ما ينعم الله به عليهم، وأن الله غني عنهم لا يزيد في عليائه إيمانهم، ولا ينقص من سلطانه إعراضهم. وهو المستحق للحمد على كل حال، إذ حمده من موجبات كماله.

15-17،:يا أيها الناس أنتم الفقراء على الله بعزيز.

ثم هدد المشركين المغترين بما توفر لهم من قوة ومن حظوظ الدنيا، بأن الله هو الفعال لما يشاء، فإن شاء أن يرزقهم رزقهم، وشاء التضييق عليهم حرمهم. فلا تكون التوسعة عليهم مبعث غرور. بل إن الله إذا شاء أن يهلككم ويبيدكم، ويأتي بمخلوقات أخرين يخلفونكم في الأرض، فإنه هو القادر الفعال لما يريد. وذلك ليس بممتنع عليه.

18. ولا تزر وازرة وزر أخرى...و إلى الله المصير.

تسجل الآية قاعدة عامة: إن كل من أذنب ذنبا، يتحمل تبعاته، وإنه إذا استصرخ من يحمل عنه ثقل ذنوبه، لا يجد مجيبا يسرع لعونه، ولو كان المستغاث به ممن كانت تربطه به قرابة ويشفق عليه، وما ورد في القرآن من تحميل الأوزار لغير فاعلها كقوله تعالى: وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم[1]، فمحمله على أنهم أغووهم وزينوا لهم الضلال. فهم يحملون أوزار الإضلال، مع أوزار كفرهم.

---

[1] سورة العنكبوت اية 13

ويكون معنى الآية: ولا يحمل الله نفسا حملا؛ آثاما تعلقت بنفس اثمة أخرى، ولو استغاث الآثم بقريب من أقربائه الذين يشفقون عليه كالأم مع ولدها لتحمل شيئا من آثامه، فإنها لا تحمل من ذلك شيئا لا كبيرة ولا صغيرة، فتؤكد هذه الآية المسؤولية الفردية .

ثم سجلت الآية أن تذكيره ﷺ، وإنذاره بما يجمل المنذرين يستقيمون، ويقبلون الوحي المنزل عليه ويعملون به، لا ينجع ويؤتي ثماره إلا في الذين حلت خشية الله في قلوبهم، يخافونه في خلواتهم مستشعرين أن ربهم مطلع عليهم، فهم يحذرون من أن يكونوا في وقت من الأوقات على وضع منكر لا يرضى عنه الله، وعطف على الخشية من التلبس بالآثام، وإن كانوا بعيدين عن أعين الناس، عطف صفة أخرى لها مزيتها في صقال النفس لتكون متأثرة بالنذارة، وهي إقامة الصلاة التي هي ركن الدين العملي .

ومن اجتهد فكان يقظا دائما، عاملا على ما يسمو بنفسه ويطهرها من درن الآثام، وقذارة الرذيلة، فإن جهاده ذلك، ومتواصل حرصه، ينتفع به هو. ومن أعرض عن التأثر بالنذارة ولم يقلع عن طريق الفساد الذي سار فيه فجريرته على نفسه. ثم إن المصير الذي ينتهي إليه الناس كلهم، هو الله وحده. فلا تستطيع أي نفس الانفلات مما قدمته في الدنيا من شر، فهي منتهية إلى حكمه العادل.

19←23 وما يستوي الأعمى والبصير ...إن أنت إلا نذير.

أفادت هذه الآيات تأكيد حقيقة: إن التماثل في ظواهر الحياة لا يحقق استواء الناس في القيمة الانسانية. وهنا تلفت الآيات الأنظار إلى أن الكفر والإيمان مساران متضادان، ما يلقاه المؤمن في مساره هو ضد ما يلقاه الكافر في مسيرته.

الكافر أعمى والمؤمن بصير. فالكافر يسير في موكب الكون، فلا تصله المشاهد بما وراءها، فالأعمى يتعرف على الوجود بلمسه أو بعصاه، ويقف إحساسه عند ذلك الحد، وأما البصير فإنه يدرك المنظور، ويدرك ما يحيط به، ويدرك القوى التي فعلت فيه، ويربط مثلا بين هيكل البناء، والمهندس، والبناء، والنحات، والقائم بطلاء الجدران إلى اخره. وكذلك وضع الكافر ووضع المؤمن في إدراك الكون، يقف إدراك الكافر على الظاهرة الحاضرة، أما الإيمان فيعمق نظر المؤمن فيربط الظاهرة بمبدعها، وبغيرها من أجزاء الكون، ويحضره مصيرها الذي يمثل القانون الذي ينفذ به الباري سبحانه إرادته في الكون من التحولات الذاهبة إلى طرفي الكمال والعدم .

والكفر ظلمات، والإيمان نور. فالكافر مغشي عليه بظلمات كثيفة. إما أن يقنع نفسه راضيا بجواب: هو جهل مصدر الكون، وجهل بالغاية التي يسير إليها. وجهل بالعلة التي وجد من أجلها، لم كان الكون على هذا الوضع ؟ وجهل بما سيلقاه بعد موته، ظلمات متتالية. والمؤمن يمسك بخيط النور فالحقيقة يثق بها باستنادها إلى الله المدبر للكون كله، الميزان ثابت لا يتغير بتغير الأحزاب والممسك بالسلطة . يضيء له إيمانه منزلته في الكون، وتنير له العقيدة المآل بعد الموت .

المؤمن يحيا في ظل الإيمان، فيجد الهدوء في نفسه، ويلقي الإيمان في قلبه ثقة في ربه فإذا هو مطمئن. هو كالساكن في البلد الشديد الحر يجد في الظل راحته ويبعد عنه الضغط والدوار. والكافر تتنازع في نفسه دواعي الشهوات، وعدم الرضا، والخوف من المستقبل، تتصارع في ذاته كل التناقضات فتولد حرارة تقضي على الاستقرار النفسي .

و المؤمن حي يحس بكل ما يحيط به، يشعر بأن الله استخلفه في أرضه ليعمرها وليفعل فيها، وليجريها على العدل والحكمة. تهزه آيات الكون فيتفتح على عوالم راقية نقية تصله بمبدع الكون، وتتجلى له آيات قدرته في كل ما حوله، ويستمع إلى الوحي فيشرح له صدره ويحس به إحساسا ينفعل به ويقوّم به نظرته وسلوكه. وأما الكافر فلا يعدو إدراكه ظواهر الحياة الدنيا، وهو مقطوع عن الآخرة، وعن مبدع الأكوان.

إنك يا محمد تسعى بكل جهدك لتسمع الناس سماعا ينفذ إلى قلوبهم فيحييها ويخرجها من الغفلة، ويسلك بها الصراط المستقيم في العقيدة والعمل، ولكن التأثر بما تلقيه إليهم من الوحي هو بيد الله، فيمنح ألطافه لمن يشاء، فإذا حسها مرهف ينتقش في أسماعها وفي أرواحها الوحي الذي تبلغه فتهتدي؛ ويحرم الله ألطافه، من حرمه عونه فكأنه ميت أهيل عليه التراب في قبره فلا يسمع من حركة الحياة شيئا .

وختاما فإن دورك هو الإنذار لما غفلت عنه البصائر . أما الاهتداء فذلك بيد الله وحده، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

بشير: يبشر المؤمنين برضوان الله وحسن جزائه.

نذير: محذر لمن أعرض وكفر بالعذاب الأليم.

الأمة: الجماعة العظيمة من الناس، يجمع بينها أصول حضارية، ونسب وإن بعد.

البينات: المعجزات .

الزبر: جمع زبور مجموع مواعظ .

الكتاب المنير: الكتاب الجامع بين العقيدة والشريعة ينير الروح والسلوك.

الأخذ: الاستئصال .

النكير: شدة العقاب .

جدد: جمع جدة، وهي الطريقة تكون في الأرض والجبل متصلة طولا.

غرابيب: جمع غربيب اسم للشيء الحالك السواد..

التجارة: أعمالهم الصالحة.

تبور: لن تكسد بل تتضاعف أرباحها.

التوفية: إعطاء الأجر كاملا.

بيان المعنى الإجمالي:

إنا بعظمتنا أرسلناك محملا برسالتنا إلى البشرية، تبشر المستجيبين لها بالنعيم والسعادة، وتحذر الكافرين بالسخط والعذاب. وهذه سنة الله فما من أمة إلا بعثنا فيها من يوقظها لتستقيم عقيدة وسلوكا. لا تحزن يا محمد إن واصلوا تكذيبهم، فقد سبق أن أمما من قبلك كذبوا رسلي الذين جاؤوهم مؤيدين بالمعجزات، وبالمواعظ النافذة للقلوب المأمور بحفظها، والتي تفوق مضامينها ما يمكن للبشر التوفق لمثله أو النسج على منواله. ثم إني أبدتهم استئصالا منهيا، فتعجبوا من مستوى العذاب الذي أنزلته بهم

يسأل القرآن الناظرين لينبههم إلى السر العجيب في التقدير الإلهي، ألم تروا إلى السحب تسير فينزل منها الماء، وإذا تابعت رحلته تجده يتحول في النهاية إلى ثمرات مختلفة الألوان والشكل والمذاق. وكذلك سطح الأرض، تجد في الجبال طرائق مستطيلة مختلفة الألوان تكاد تفوق الحصر من الأبيض والأحمر والأسود الشديد السواد، والمركب منها. واختلفت ألوان البشر فبعضها أبيض، وبعضها أسود وبعضها أحمر، وبعضها أصفر، ومنها ما هو مركب من تلكم الألوان. واختلفت ألوان دواب الأرض الأهلية والوحشية، واختلفت ألوان الأنعام، نجده واضحا في ألوان الخيل. على هذا النحو من التأمل في خلق الله يكون العلماء أشد خشية لله من غيرهم لتعمقهم في التدبر في الخلق، ولوضوح معرفتهم بالله، فهم يقرنون الظواهر بمبدعها .

إن الذي يتصرف هذا التصرف لاشك أنه عزيز بطبعه كل شيء، فيخرج إلى الوجود حسب تقديره. ولا ييأس الذين كفروا فإنهم إذا أقلعوا عن كفرهم يجدون الله غفورا لذنوبهم .

ثم نوه القرآن بالذين اهتدوا هداية جعلتهم تالين لكتاب الله القرآن. ألسنتهم رطبة بآياته، ويقيمون الصلاة وينفقون مما آتاهم الله فيما يحسب الله أن ينفق فيه. تجود أيديهم بالخير سرا دون أن يطلع عليهم أحد، وكذلك جهرا. يقصدون أن يكونوا أسوة محرضين غيرهم على الصدقة، هؤلاء المنوه بهم يرجون أن يكون ما قدموه من صالح العمل رأس مال لن يلحقه غبن ولا خسارة. ينفقون ليمكنهم ربهم من أجرهم وافيا غير منقوص، بل يضاعفه لهم بفضله وبما صاحبه من الإخلاص. إن الله عظيم المغفرة لعباده المقصرين فلا يناقشهم الحساب بل يتجاوز ويتفضل، وهو الذي يشكر لكل مؤمن ما قام به من عمل صالح.

بيان المعنى العام .

24–26، إنا أرسلناك بالحق بشيرا ...فكيف كان نكير.

بنون العظمة وصيغة الحصور "إنا أرسلناك" خاطب الله محمدا ﷺ ليثبته باستناده في مهمته إلى رب العزة سبحانه، ولأن ما أنزل عليه هو الحق، فأنت في مرتبة رفيعة، تنشر الحق، وتقاوم به الباطل، وتدعو إلى الخير وتقاوم الشر، وتؤمّن للمبعوثين سلامة عاقبتهم بتبشيرك للمؤمنين برضوان الله والثواب العظيم والفوز يوم القيامة، فيقبلوا على سلوك طريق الهدى، ومن ناحية أخرى تحذر الكافرين من مواصلة رفضهم، بأن ما يترصدهم من سخط الله وعذابه واقع لا محالة ،وهذا فضلي على البشرية، فما من أمة إلا وأرسلنا فيها نذيرا يهزهم هزا كاشفا عن سوء

العاقبة لمن اعرض وكفر. وكل الأمم كما أخبر القرآن بعث الله فيها رسولا وضح العقيدة وبين الشريعة، وكلف المؤمنين به بمواصلة نشر هدايته إلى الأخلاف، فتهاون الأخلاف عن القيام بالأمانة. ولذلك تجد أصل التدين قدرا مشتركا بين الأمم، وإن كان بعضهم بقي متمسكا بأصول كثيرة وخلط في البعض، وبعضهم قد عمي فلم يبق في تصوره إلا صور باهتة.

25→26: وإن يكذبوك...فكيف نكير .

لا تحزن ولا تبتئس، وواصل التبشير والإنذار، وإن كذبوك فإن الذين أرسلت إليهم رسلي من قبلك واجههم أقوامهم بالتكذيب. تلكم الرسل الذين جاؤوا مؤيدين بمتنوع المؤيدات، بالمعجزات البينة الواضحة التي لا تختلط بالسحر، كنجاة إبراهيم من النار، وما ذكر من معجزات الرسل في القرآن، وبالزبر وهي المواعظ المأمور بحفظها وكتابتها تلقي في القلوب أسرار القرب من الله، والكتاب الذي ينير سبيل الاهتداء إلى صحيح العقيدة وقويم السلوك. ونصرت رسلي بعد أن أدوا مهامهم على أفضل طريق، وتصلب المرسل إليهم في الكفر، فأفنيتهم، فتعجبوا من شدة البأس الذي استأصلهم .

27.ألم تر أن الله أنزل ...وغرابيب سود.

إثارة للانتباه حتى لا تغطي الرتابة على المشهد العجيب في الكون، الذي يفضي بالتأمل فيه إلى تمكن الاعتقاد بعظيم القدرة الإلهية، وحسن التدبير. فالمخاطب بالآية كل من يصح منه الرؤية .يأخذ القرآن الإنسان السليم ببصره ليتابع التسلسل العجيب في الكون، على أن كل مرحلة تهيء لما بعدها، وتتصل بها اتصالا تبدو آثاره وإن خفي سر ذلك، إلا أنه ينبئ عن تقدير العزيز الحكيم .يرى كل إنسان قطرات الأمطار تنزل من السحاب على الأرض. نتتبع رحلة الماء النازل، فنراه في الطرف الآخر ثمارا مختلفة الألوان والأشكال. الماء واحد والتربة واحدة، والألوان مختلفة في الثمرة الواحدة في متتابع مراحل نموها إلى النضج، خضرة فصفرة. فالألوان متباينة عند النضج بين الأصفر والأحمر والذهبي والبني والأسود، والمزيج من أصول الألوان فيأخذ في الرمان لونا وفي البرتقال لونا آخر وهكذا.

ولا يقتصر هذا التنوع العجيب على الثمار بل تجده بصورة واضحة في الجبال وخاصة الشامخة في ارتفاعها التي منها يقتطع الرخام، تجد فيها طرائق متواصلة في طولها، ليست بقعا منعزلة، منها الأبيض، والأحمر والأسود، وأقحم بين سرد هذه الألوان: مختلف ألوانها، ليشير إلى أن الألوان في الطرائق الجبلية تتنوع

ألوانها إلى أعداد كبيرة .فقد رأيت في تاج محل بالهند رسوما بديعة لفنانين، صوروا على عضادتي المدخل وعلى القبر نسيجا من الزهور من قطع صغيرة من الرخام متداخلة، مطابقة للألوان الحقيقية للزهور . يذهب فيها اللون مثلا بين أصل الورقة وطرفها من القوة إلى الضعف حتى كأنها ملونة بالأصباغ المركبة بأيدي الفنانين المهرة .

28- ومن الناس والدواب...عزيز غفور.

التقدير الإلهي كما ظهر لكم في تتبع مراحل الماء النازل من السماء إلى الثمرات المختلفة الألوان، والطرائق المشكلة ألوانها تشكلا لا يتغير ولا يتحول. فإن من مظاهر تقديره سبحانه، اتحاد البشر في مقوماتهم الأساسية ثم اختلاف ألوانهم من الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والمركب منها، وكذلك الأمر في الدواب التي تدب على وجه الأرض الأليف منها والوحشي، الضار والنافع، اختلفت ألوانها اختلافا عجيبا .

على تلكم النحو من الاختلاف في النبات والجماد والإنسان والحيوان، الذي تتقله الأبصار ، وتتأمل فيه العقول، يختلف الناس في تأثرهم بتلكم المظاهر ، فأرفعهم هم العلماء الذين يتجلى لهم الإبداع في الخلق، ويحسون بالتناسق فيه، ويتقرر في عقولهم وأرواحهم أن كل ما يحدث في الكون هو من تقدير الله ونفاذ إرادته، فتمتلئ قلوبهم من خشيته .يقول ابن عطية: العلم رأس الخشية وسببها. وأخرج ابن أبي حاتم قال: قال ﷺ: أعلمكم بالله أشدكم خشية له

تختم الآية بما يؤكد المضامين السابقة كلها . إن التصرف الإلهي المفصل في الآيات السابقة تقوم شاهدا على أن الله عزيز تنفذ إرادته الحكيمة في الكون ولا يمكن أن يعترض تقديره أحد. وهو مع عزته يدعو المعرضين إلى الإقبال على الحق ليغفر لهم ما سلف من ذنوبهم.

29-30: إن الذين يتلون كتاب الله...إنه غفور شكور.

بعد أن نوه بالعلماء الذين يخشون الله، ثنى بالقائمين بالأعمال الصالحة فأثنى عليهم ووعدهم. افتتحت الآية بالذين يتلون كتاب الله، واختير التعبير بكتاب الله ترفيعا لشأن ما يتلونه وليرتب عليه ما رتب من فضل. وتلاوة كتاب الله مراتب فأعلاها التلاوة المتدبرة في معانيه، التي يتأثر معها التالي بما يقرؤه من عظات وأحكام وكشف عن حقائق، فيتدبر كل ذلك وينفعل له في عقيدته وسلوكه. ودون ذلك مراتب. ولا يعدم التالي غير المتدبر حظه من الأجر. اذ المواظبة على تلاوته حفظ

له وتأنيس للروح بآياته ،وعطف على تلاوة القرآن إقامة الصلاة عمود الدين، وأضاف الإنفاق في سبل الخير، وقدم الإنفاق في السر على الإنفاق علانية لأنه أعظم أجرا لكونه أبعد عن الرياء، ولأنه من ناحية ثانية يحفظ للمتصدق عليه كرامته . ومن بديع التعبير القرآني إدماج أن الرزق الذي ينفق منه هو في حقيقته من عند الله ،وهو يشير إلى رضاه سبحانه عن تصرف المتصدقين، جسم هذه الفضائل فجسم ما فيها من خير بتشبيهها برأس مال التاجر الذي لا يلحقه خسارة ولا تلف. بشرهم بذلك، وأن رأس مالهم من العمل الصالح لا يلحقه نقص ولا خسارة، ليحصلوا على الأجر الوافي الصادر عن الكريم. فهو لذلك لا ينقص من حقهم شيئا، بل يضاعفه من فضله. وقد صور القرآن هذه التضعيف بقوله : (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء)[1] وتشمل البشارة حتى المقصرين إذا هم تابوا، هم يرجون أن يتفضل عليهم ربهم . يثبت ذلك، أنه سبحانه غفور، يمحو الذنوب والسيئات، ويعفو عن التقصير والقصور، وهو شكور يشكر لعباده ما يقومون به من صالح الأعمال شكرا ينادي بحسن الثواب.

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

بين يديه : الكتب المتقدمة في الزمان عن القرآن.

الخبير : العالم بدقائق الأمور وخفاياها.

المقتصد : هو الآخذ بالوسط .

الفضل : الزيادة في الخير..

---

[1] سورة البقرة 261

الحزن : الأسف.

دار المقامة : دار الخلود

النصب : الإصابة

النصب : التعب.

اللغوب : الإعياء .

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذي خصصناك به يا محمد من الكتاب الذي هو كلامنا أوحيناه إليك، هو الحق الخالص، وما سواه حقه مشوب بباطل. وهو وإن تأخر زمانا فإنه مهيمن على الكتب التي سبقته. إن تفضيلك واختيارك لتبليغ أعظم كتاب، واختيار أمتك لحمل الهداية للعالمين، هو صادر منا، والله هو الخبير الذي يحيط علمه بالأشياء ظاهرا وباطنا، ولا تغيب عنه لحظة.

إن القرآن المنوه به، قد مكنا منه عطاء من لدنا لأمتك كما يرث الفرد الخيرات من مورثه. ذلك أني اصطفيت المؤمنين بك فجعلتهم القائمين على هذا العطاء يحفظونه ويبلغونه للبشرية إبلاغا لا ينقطع خيط مده. ثم إنهم في التأثر به على مراتب فالمرتبة الدنيا نور الإيمان باق، ولكن استقامتهم على الطريقة التي يجدونها في القرآن لم تكن على مستوى الالتزام، ففرطوا بارتكاب الآثام، وظلموا أنفسهم بذلك، ومنهم من لم يبلغ درجة الصفاء البالغة، ولم يسقط في طريق الشهوات، ومنهم من اعتبر الدنيا ميدان سباق لما يرضي الله فهو حريص على الخيرات، شديد اليقظة للالتزام بهديه .هذا المستوى هو وحده الفضل الكبير. الفضل الذي سيكون في الآخرة جنات إقامة يقيمون فيها، ظواهرهم تنادي بأنهم في أعلى مراتب النعيم، فما يشاهد من هيئات الملوك في الدنيا من أساور الذهب وتطريز ثيابهم الحريرية باللؤلؤ والحجارة الكريمة، ليس استثناء ولكنه مظهرهم الدائم عند ربهم. يترنمون بحمد الله على إزالة كل آثار الخوف والأسف. هو الذي مكننا من دار الإقامة التي لا نخرج منها، لا يلحقنا فيها تعب ولا إعياء.

بيان المعنى العام :

31 ـ والذي أوحينا إليك...لخبير بصير.

في هذه الآية تنويه بالقرآن الذي سما مقام التالين له إلى منازل الرضا في الآية السابقة. فسجلت أنه وحي من عند الله، وأنه اختارك يا محمد من بين الخلائق لتكون المبلغ له، وإن الحق منحصر فيه. فكل الكتب التي يتعلق بها بقية الناس ويعتمدونها في تدينهم، مشوبة بالباطل على نسب متفاوتة تبعا لما دخلها من

تحريف. ثم أضاف أنه قيم على الكتب السابقة فما أقره منها ثبت صدقه بشهادة القرآن وما نسخه انتهى العمل به، وما حكم بأنه محرف وجب رفضه، فهو مهيمن عليها جميعا. اختيارك للرسالة، وتشريف أمتك بأن كانت الحفيظة على القرآن كتاب الله، والتنويه بمن يستحق التنويه به من الناس. كل ذلك حق وصواب لأن المتصرف الذي قدر كل ذلك، هو الخبير بعباده الذي ينكشف له مستواهم الإنساني ونفاقهم وصلاحهم، وهو بصير بهم يعلم خفاياهم كظواهرهم

32.ثم أورثنا الكتاب...هو الفضل الكبير.

توالى الحديث عن القرآن من الآية 29 مبشرا التالين لآياته بتحقق رجائهم في النجاح، ومضاعفة أجورهم. ثم ارتقى منوها بالقرآن بأنه هو المتفرد بالحق ولا يأتيه الباطل .ثم ترقى مفصلا أثره في المؤمنين به، وأنهم ليسوا على مرتبة سواء. فتفيد الآية :

إن القرآن المنوه بالتالين له، المبشر والمتفرد بالحق، قدرنا فيه مزية أخرى لا يشاركه فيها كتاب من الكتب السابقة، أنا حفظناه بحفظنا، وقدرنا أن أمتك قد أورثناها هذا الكتاب القرآن، فجعلناهم المنتفعين به، لأني اصطفيتهم على الناس، وتعلقت إرادتي أن يكونوا حملة مشعل التوحيد والحق، الحافظين للقرآن على مر العصور. فالوراثة معناها هنا: هو تشبيه أمتك بالوارث الذي يرث خيرا من مورثه، ينتفع به ويؤثر في حياته، دون أن يكون قد بذل في تلك الخيرات مجهودا. إنهم باعتناقهم الإسلام ووضوح التوحيد في عقولهم ومداركهم، قد استحقوا ذلك، وإن كان هذا بتوفيق من الله، تسموا إلى أن يكونوا حملة هذا القرآن إلى البشرية. فالصحابة أخذوا عنك والتابعون أخذوا عن آبائهم، وأولادهم حملوا الكتاب عنهم، وواصلوا إبلاغه، وهكذا تتعاقب الأجيال وكل جيل يبلغه إلى من بعده سليما من كل تغيير. إنها مزية لم تكتب لأي أمة من الأمم السابقة، إذ عجزوا عن الاضطلاع بالمحافظة على صحتها وسلامتها من كل دخل. فالمسلمون حقا هم المصطفين تميزوا متفردين بحفظ القرآن في صدورهم، وفي مصاحفهم، وترسخ في نفوسهم غيرة على حفظه تجاوزت غيرتهم على أهليهم وأموالهم.

ثم فصلت الآية مراتب الآخذين بالقرآن الحافظين له حسب تأثيره في حياة كل فرد منهم، فإنهم وإن اشتركوا في حفظ القرآن، إلا أن تأثيره في سلوكهم، وقوة مراقبتهم الباطنية لتطبيق الكتاب الذي حموه، مختلفة رتبها القرآن على ثلاث مراتب:

الرتبة الدنيا والأكثر أفرادا، وهم الذين ظلموا أنفسهم، وظلم النفس بتهاون الرقابة، وضعف العزيمة على صد الشهوات وتزيين الشيطان اللذة العاجلة والمتعة الدنيوية،

هم قد ارتكبوا المعاصي ودخل إبليس في حياتهم بقوة، حتى أنساهم صقال ما تراكم على بواطنهم من درن الإثم، فأقاموا على بعض المعاصي، وإن كانوا لم يعقدوا الإيمان، وصلتهم بالقرآن. وهؤلاء يختلفون كثرة وقلة حسب غلبة ظاهرة الصلاح أو الفساد، في البيئات والمجتمعات والأعصار.

المرتبة الثانية: هي فوق هذه وهم الذين لم يتيقظوا اليقظة الدائمة والقوية لتحصين أنفسهم من الإثم، ومخالفة أحكام القرآن، فهم قد ارتكبوا بعض الذنوب، وكان أكثر أحوالهم الاستقامة، ولم يحرموا أنفسهم من فعل الصالحات. وقد يقيمون على الكبيرة أمدا ثم تتحرك نفسهم اللوامة فيتوبون. وهؤلاء هم الأكثرية حسب اختلاف العصور والبيئات أيضا.

المرتبة الثالثة: المرتبة النخبة الرفيعة، هم الذين تطهرت نفوسهم فكانت شفافيتها ناصعة، صلتهم بالله تحرك عقولهم ومداركهم، وتأثراتهم، يعيشون مع القرآن ويتخذونه هاديا لهم في نشاطهم في الحياة الدنيا. فهم يمثلون في كوكبة المتسابقين إلى الخير وإلى رضوان الله. يمثلون الطليعة السابقة لغيرهم من المرتبة الدنيا والمرتبة المتوسطة. إن سبقهم هذا كان بعون من الله إذ جعل نفوسهم أليفة الصلاح والتقوى.

ذلك هو الفضل الكبير- إن رتبة السابقين تمثل أعلى درجات الفضل، لأن الذين سبقوا إلى الخير والانضباط وأكثروا من فعل الخيرات، يجدون آثار ذلك في حياتهم الدنيا طمأنينة، يألفهم الناس ولا يحذرونهم. وفي الحياة الآخرة تقدمهم في مراتب الفوز.

33-جنات عدن..فيها حرير.

عطفت الآية جنات عدن على قوله ذلك الفضل الكبير. فأفادت أن الفضل الكبير يتمثل في الآخرة بدخولهم الجنات التي يقيمون فيها. تظهر عليهم آثار النعيم وخص بالذكر منها اللباس الذي قربه بما كانوا يرونه في الحياة الدنيا من لباس الملوك من الذهب في سواعدهم وتطريز ثيابهم باللؤلؤ والحجارة الكريمة، ولبس الحرير. والذي أجزم به أن الصورة لتقريب سمو النعيم في الآخرة بما هو لديهم في الدنيا، إذ أن أمور الآخرة مختلفة عن أمور الحياة الدنيا.

34←35.وقالوا الحمد لله الذي أذهب..ولا يمسنا فيها لغوب.

تحميم لاستلاء النفس بإحساس النعيم الذي هم فيه. ذلك أن شأن النفس إذا امتلأت رضى وسعادة أن تنطق بما ينفس عن قوة ما حصل فيها فتزداد بذلك راحة تجد

بعضهم في حالات القمة من السعادة يترنم ترنيمات معبرة عن عميق إحساسه، وبعضهم يتمثل بما ارتسم في ذهنه من آيات الإبداع من القرآن أو من الشعر إلى آخره . فهؤلاء المرضيُّ عنهم الذين اصطفاهم الله وأدخلهم جنة نعيمه ترنيمتهم التي تفيض من قلوبهم: الحمد لله الثناء الجميل لله . أزال عنا الأسف الذي كان يكدرنا في الحياة الدنيا وفي مواقف يوم القيامة. إن ما أفاضه علينا هو من فضل مغفرته وتكرمه بالترفيع فيما قدمناه إلى درجة القبول ثم الجزاء. أسكننا دار الخلود التي لا نبرحها ولا نخشى انتهاء مدة إقامتنا بها، مصدر ذلك من فضله وفضله لا يحد. نقيم إقامة لا يلحقنا، ولا يصيبنا فيها تعب مؤلم ولا إعياء موهن.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (37) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39)

بيان معاني الألفاظ :

يصطرخون : يصرخون صراخا شديدا

نعمركم : تطويل العمر .

النذير : محمد ﷺ.

فذوقوا العذاب : واصلوا الإحساس بالعذاب .

الظالمون : المعتدين على الحق، وأعظمه الشرك.

ذات الصدور : مضمراتها ونيات الناس .

المقت : البغض مع خزي وصغار .

خسار : خيبة العمل .

بيان المعنى الإجمالي :

صورة مقيتة مهينة للذين اختاروا الكفر، فكان كفرهم سببا لاستحقاقهم نار جهنم حتى غدت ملكا لهم. هم ملازمون للنار لا تسرع بإنهاء إحساسهم، فيموتوا بها موتا ينتهي معه عذابهم، ولا يجدون لحظة يضعف فيها إحساسهم. على هذا النحو

نجازي كل كافر فضل الشرك على التوحيد والفساد على التقوى. النار تلفحهم وهم يصرخون صراخا شديدا، عسى الله أن يسمع صراخهم فيستجيب لهم، يصرخون ربنا تفضل بإذنك حتى نخرج من النار ونعود إلى الحياة الدنيا مرة أخرى لنعمل صالحا ونثبت على توحيدك. ويكون الجواب قاطعا لآمالهم في العودة. لم أباغتكم بالعذاب، ولكني أطلت في أعماركم لتتكبروا وتقلعوا عن الكفر. وبعثت فيكم النذير محمدا صلى الله عليه وسلم أنذركم هذا العذاب فكذبتموه. أنتم ظلمتم أنفسكم بالكفر والمعاصي، فذوقوا جزاء ظلمكم. والظالمون لا يجدون نصيرا. تفرد الله بعلم غيب السماوات والأرض وأسرارهما، كما تفرد بعلم ما يجري في الضمائر وما ينطوي في النفوس من نوايا ومقاصد. وقد مكنكم من الأرض بما أودع فيكم من العقل ومن الحواس، لتنفذوا إلى معرفة الكون، وتطبقوا فيه ما يرضي عنه مالكه رب العالمين. فأنتم مستخلفون في الأرض غير مالكين لها مسؤولون عن عملكم فيها . فمن سار في الأرض بعقل مشرك بالله، غير منقاد لما يحبه، عاص لأوامره فإن استمراره على الكفر يسبب له مقت الله بمقدار ما يعمر في الأرض، وتكون حياته زيادة في خسرانه يوم القيامة

بيان المعنى العام .

36.والذين كفروا لهم نار...نجزي كل كفور.

تصور الآية عاقبة الذين كفروا صورة معاكسة لعاقبة المؤمنين، بها يزداد التفضل على المؤمنين وضوحا. فقد جعل الله للذين كفروا نار جهنم، اختصها بهم فملكوها. إن عذابها أعاذنا الله منها: أنه عذاب فوق ما يتصور البشر وما عرفوه في الدنيا. إن شأن نار الآخرة أنها لا تنهي حياتهم فيموتوا موتة يفقدون معها الإحساس ويستريحون بها من العذاب، بل تستمر النار تتوقد يحسون بآلامها أشد ما يكون الإحساس، دون أن ينخفض عذابهم لحظة. إنه على هذا النحو نجزي الكافرين بي في الدنيا جزاء عادلا .

37 وهم يصطرخون فيها. .فما للظالمين من نصير.

تصور الآية وضعهم في النار وهو يقاسون عذابها الشديد، تسمع صراخهم الذي يكاد يقطع حناجرهم، رافعين أصواتهم آملين أن يسمعوا، يصرخون: ربنا استعطافا لجلاله، تفضل بإذنك أن تخرجنا من النار، نعاهدك أننا نعمل صالحا لو أعدتنا إلى حياة التكليف، على عكس ما كنا نعمله في الحياة الأولى ، يعبرون عن ندمهم عما قدموا.

وعلم الله لا يغيب عنه شيء، فيسمعهم الجواب الذي يقرعهم ويوبخهم، ويطفي الأمل من نفوسهم، فيسمعون السؤال التالي: ألم نعمركم ؟ ألم نبق عليكم أحياء، ونطيل أعماركم حتى خرجتم من الصبا إلى الرشد والتكليف، وبعثت لكم رسولي يذكركم العاقبة التي تجأرون منها اليوم، وقد بين لكم وكرر على أسماعكم النذر التي تصلبتم في ردها وعدم اعتبارها، وتكذيب قائلها، مع أنها كانت كافية لو لم تصمموا على الكفر، كانت المدة والتذكير كافيين لتدركوا الحق، وتنفوا الشرك وتستقيموا على الطريقة. فذوقوا العذاب، أمر قصد به الإهانة، وإن كنتم تبغون من ينصركم؛ فإن الظالمين لا يستحقون النصرة، وهي قاعدة يرتبط بها الصلاح العام: الظالم لا ينصر، وإنما النصرة للمظلوم.

38. إن الله عالم ...بذات الصدور.

تثبت هذه الآية ما أشارت إليه الآيات السابقة من أنه سبحانه اجرى كل شؤون الحياة على الحكمة التامة التي لا تصدر إلا من ومع علمه كل شيء. فقد ربط بين كل الكائنات في العالم، فلا يغيب عنه شيء من أسرارها، ومن لخفى الخفايا مضمرات النفوس وخفي النوايا. هو يعلمها سبحانه .

39. هو الذي جعلكم خلائف ...كفرهم إلا خسارا.

فصلت هذه الآية قوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور). بقدرته وبحكمته جعلكم أيها الناس مستخلفين في الأرض، مكنكم من خيراتها، وأعطاكم عقولا وحواس تستطيعون بها كشف أسرارها لتطوعوها إلى ما يحقق مصالحكم. وربط نجاحكم في الدنيا بالتوحيد والاستقامة في السلوك، ومراقبة الله المطلع على ما في صدوركم.

إن هذه المنن الكثيرة تجعل كل فرد من أفراد البشر مسؤولا في هذه الدنيا . فمن كفر بالله، ظانا أنه غير داخل تحت سلطانه، متوهما أنه حر يفعل ما يشاء، والدنيا التي استخلفه فيها ملكه يتصرف فيهما كما تقوده شهواته، لا ينضبط بالصلاح والخير، إن كفره هذا لا يزيده إلا مقتا من الله، أي بغضا وهوانا . وإذا كان الكفر بمجرد حدوثه يعرض الكافر للمقت الإلهي، فما معنى لا يزيده كفره إلا مقتا ؟ فتأويل الآية أن مقت الله لهم يتواصل بتواصل كفرهم . كما أن استمرارهم في الحياة لا يحقق لهم أي مكسب بل يغرقهم في الضياع، ويزيد خسارتهم يوم القيامة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ

بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أروني : أنبئوني.

الشرك : النصيب المشترك به في ملك شيء .

يمسك : يحفظ.

من بعده : من بعد تركه الإمساك.

بيان المعنى الإجمالي

أخبروني عن الشركاء الذين زعمتم أن لهم صفة الألوهية بها يقاسمون الله التصرف. أعلموني أي شيء خلقوه من الأرض ولو كان صغيرا تافها. أخبروني هل يملكون من السماوات أي جزء منها يتقاسمونه مع الله. أخبروني هل مكنتهم من كتاب يبرر شركهم. كل ذلك باطل وغير موجود. ولكن الكبراء يعدون وعدا لا يتحقق منه أي شيء: أن الآلهة تمنعهم وتشفع فيهم، والأتباع يعدون بتصلبهم في الدفاع عن الأصنام لتبقى لهم الألوهية. وكل ذلك غرور لا يتحقق منه شيء.
إن الله هو وحده المتفرد بالألوهية، فهو الذي يسير السماوات والأرض في مساراتها دون أن تصطدم ببعضها أو يختل سيرها. ومن ناحية ثانية إذا أراد أن يختل سيرها وتتهاوى فيفسد الكون، لا توجد قدرة تستطيع أن تعيد انتظامها بعد الله.

بيان المعنى العام :

40/قل أرأيتم شركاءكم...بعضهم بعضا إلا غرورا.

بعد أن هددت الآية السابقة المشركين وأنهم لا ينالون من كفرهم إلا مقت الله وخسران العاقبة؛ عطف القرآن بأمر النبي ﷺ أن يبكتهم ويلجئهم إلى الاعتراف بالعجز عن تبرير عبادتهم لغير الله .
تفتتح الآية بقوله :قل أرأيتم . هذه الصيغة في قوة أخبروني، ولكم المجال تبئوني عن شركائكم، هؤلاء الشركاء الذين ليس لهم من قوة الشركة إلا بدعواكم أنهم شركاء، ولذا نسبهم إليهم، فمن البداية تنفي الآية عنهم الشركة. فهي دعوى باطلة من الأساس يدعونها آلهة من دون الله .ثم فصلت الآية السؤال الملجئ الطاعن في دعواهم الشركة، بمطالبتهم طلبا يعجزون عنه فتبطل دعواهم وتتعرى من كل سند. إذا كانوا آلهة فالإله لا بد أن يكون خالقا، لها قدرة على الإنجاز والإحداث؛ فهل خلقوا شيئا من الأرض مما تحويه الأرض في باطنها ومما هو

على ظهرها، ولو كان تافها ؟ ثم لنتقل بهم إلى عوالم السماوات، ألهم شرك في سير الكواكب، واختلاف الليل والنهار، وتصريف السحب وإنزال الماء منها، والسحب وبروقها ورعودها. وسواء أكانوا يعتقدون أن لها شركا في السماوات أو لم يكونوا يعتقدون ذلك، ففي بيان عجزها عن ذلك ما يعمم كل الاحتمالات الواقعة والتي يمكن أن يقول بها بعض المشركين في المستقبل. ولما انتفى أن يكون لأصنامهم تأثير الألوهية في الأرض وفي السماء، فكذلك نفت الآية معجزة لهم أن يثبتوا أن الله آتاهم كتابا اعتمدوه، فتمكنوا من ظفرهم فيه بآية تثبت شرك شركائهم.

انتقلت الآية بكلمة: بل – لتبطل كل الخيالات السابقة والدعاوى والمبررات الساقطة، لتظهر أنهم ليس لهم تعلق إلا بمواعيد هم اختلقوها يتبادلونها بينهم، ليس لها أي مصداقية، فالقادة يعدون أتباعهم بأن الآلهة تحميهم وتشفع لهم، وتساعدهم على تحقيق ما يأملون، والدهماء الأتباع يعدون رؤساء الكفر بأنهم مصممون على الوفاء للآلهة والذود عنها لتكون كلمتها العليا .فكل منهما مغرور.

41- إن الله يمسك السماوات... إنه كان حليما غفورا.

أحالت هذه الآية المخاطبين ليتأملوا في انتظام سير الكون. الشمس والقمر في مساراتهما المنتظمة، والأرض في حركتها الدائبة، والتوازن بينها في أبعادها وفي كتلها، مما يثبت أن الله قد رتب نظامها ترتيبا لا يختل، وعلى تلك التنظيم والجاذبية بقيت واستمرت على هيئاتها التي هي عليها في الكون. اعلموا أن الذي حمى من الاختلال هو يد القدرة الإلهية والحكمة والدقة في الصنع، والإرادة التي قدرت تتابع ذلك المسار. ولتنتبهوا فإنه في الوقت الذي تتعلق إرادته بتعطيل ذلك الترتيب والنظام، فاختلت النسب والمقادير، فهل يستطيع أحد من بعد تركه الحفاظ عليها، أن يتقدم فيبقيها على الحالة التي هي عليها ؟ لا أحد يقدر على ذلك. وإذا كان أمر انتظام الكون بيده سبحانه وحده، فإن تمرد المشركين ومع تأجيل تسليط العقاب عليهم، يبينه أنه سبحانه متصف بالحلم فلا يسرع بالعقوبة، وأنه يمهل المسرفين والمشركين عليهم يعلموا ويؤمنوا.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا
جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

جهد أيمانهم : أبلغها وآكدها.

نفورا : بعدا واستبشاعا.

المكر : تدبير الأذى مع الحرص على إخفائه.

حاق : نزل وأحاط.

ينظرون : ينتظرون.

سنة : عادة

تبديلا: تغييرا.

بيان المعنى الإجمالي:

سجل القرآن على كفار قريش عدم وفائهم، واحترامهم لالتزاماتهم، فقد كانوا أقسموا بالأيمان المؤكدة، قبل البعثة، أنهم لو أرسل إليهم نذير، فإنهم سيطيعونه، ويكونون صورة أتقى وأفضل من الأمم التي جاءتهم رسل فاختلفوا وتفرقوا عليهم. ولكنهم لما جاءهم النذير محمد، تضاعف نفورهم من الحق بعامل الاستكبار، وبالمكر الخبيث في السر لإذاية الرسول وصحبه. والمكر السيء، سينطبق على الماكرين، وينجي الله المؤمنين.

ما يرتقب هؤلاء المشركون المستكبرون ؟ إنه ليس لهم إلا مآل واحد، أنه سيجري عليهم نفس ما جرى على الأمم الذين سبقوهم، وسنة الله في المؤاخذة والاستئصال صادرة عن كامل عدله، ولذا فإنك لا تجد لها تغييرا، ولا تتحول عن طريقها المرسوم .

ما لهم متصلبون في كفرهم. ألم يسيروا في أرض الله، بل قد ساروا في تجارتهم إلى الشام أو إلى اليمن وشاهدوا آثار تدمير القادر العظيم لأمم سبقوهم، وكانوا أشد قوة منهم. وهل تعجز القوة البشرية القدرة الإلهية، وهل يوجد في الكون من السماء إلى الأرض من يحول بين الله وبين تنفيذ ما أراده ؟إنه سبحانه العليم القدير .

إن الله لو عاجل الكفرة بالعقاب الذي يستحقونه بمجرد ما يحصل منهم التمرد، فإن الحياة ستمحق من وجه الأرض، ولكن جرى تدبيره الحكيم أنه يمهلهم ويؤخرهم إلى الأجل الذي قدر فيه تلكم الفناء .فعندما يأتي الأجل المضبوط، فإن الله ينفذ وعيده، وهو البصير بأحوال خلقه ورحمته بعباده موفورة .

بيان المعنى العام :

42-43- وأقسموا بالله جهد أيمانهم..لسنة الله تحويلا.

هذه الآية تذكر تناقض حال المشركين بين وضعهم قبل أن يبعث الله فيهم رسوله، وبين وضعهم بعد أن جاءهم الهدى.

هم في الحالة الأولى كانوا مشركين، ومتصلبين في الشرك، وكانوا كما وصفهم القرآن قوما خصمين، تطاوعهم ألسنتهم لمخاصمة كل من يحاول صرفهم عما هم عليه. تشير الآية إلى أنهم جادلوا في الجاهلية بعض من كان يزعم أنه على دين من عند الله، وأنهم لاستكبارهم كانوا ينتقدون الذين دعوهم إلى ترك الشرك وأن يقبلوا دينهم وينضموا إليهم، فكان من شدتهم في الجدل أن اعترضوا على الذين دعوهم، وقالوا لهم :إنه لم يأتهم نذير يدعوهم إلى دين سماوي، وتشير الآية إلى أنهم هاجموا من دعوهم باختلافهم وتشتتهم، وأقسموا أنهم لو جاءهم من ينذرهم ويحرك قلوبهم ويحذرهم سوء العاقبة، فإنهم يقبلون عليه إقبال المطيع الطاعة التامة، ولا يختلفون عليه . فيكونون أهدى وأفضل اتباعا وتطبيقا لما جاء به، من أية أمة من الأمم.

و تصف الآية موقفهم في الحالة الثانية، بعد أن أقسموا قسما مؤكدا، أن يستجيبوا لدعوة النذير الذي يأتيهم ويكونوا أشد قبولا لهدايته من الأمم التي دعتهم للإقلاع عن الشرك واتباع دينه، أنه لما جاءهم محمد وهو منهم، ينذرهم، ويكشف لهم ما يؤول إليهم حالهم من الخزي إذا هم لم يتبعوا هدى الله الذي أتاهم به، ضاعفوا من نفورهم من هدي السماء بسبب استكبارهم عن الحق في الأرض، أي في مكة، وبسبب خبثهم، وما دبروا لرسول الله ﷺ وأصحابه من مكر وإذاية في مكر خفي.

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . إن وراء تدبيرهم السيء، وإعدادهم المخططات لإذاية الرسول والصحابة، وراء ذلك القدر الإلهي العادل الذي أفشل مخططاتهم، بل عرضهم للأذى الذي أعدوه لغيرهم. وفي هذه الخاتمة إيقاظ للناس أن من يخادع، ويعمل على الإضرار بغيره، ويبالغ في التخفي حتى لا يأخذ المخدوع حذره، ظانا أنه لطبق على من مكر به وأنه سيضره لا محالة، ليتيقن هذا الخادع أن مكره سينقلب عليه ويسلم المخدوع.

ماذا ينتظر المشركون المستكبرون الماكرون ؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن تجري عليهم العادة التي جرى عليها أمر الله مع أمثالهم من السابقين، فيتساوى جزاؤهم مع جزائهم. اعلموا أن ما أجرى عليه الله سبحانه من الربط بين الأفعال والجزاء، هو طريق مستمر لا يتخلف، ولا يتغير، ولا يتحول. وختام الآية [ولا تجد لسنتنا تحويلا] يجري مجل مجرى المثل للتعبير عن التواصل الذي لا يلحقه استثناء.

44- أولم يسيروا في الأرض...كان عليما قديرا.

ما لهم مصممون على الكفر والاستكبار ! ألم يسيروا في الأرض ويقطعوا المراحل جيئة وذهابا بين مكة والشام، وبينها وبين اليمن ؟ ألم يشاهدوا بأعينهم الآثار الدالة على استئصال المستكبرين الكافرين قبلهم. لقد كانت الأقوام التي سلط عليها العقاب اكثر قوة منهم، فاضمحلوا رغم ذلك، ولم تفدهم قوتهم شيئا. وإذا كانت القوة البشرية تنهار ولا تقاوم تنفيذ الله لإرادته، ولا يوجد شيء في الأرض ولا في السماء يمكنه أن يحول بين إرادته المطلقة وبين نفاذها، فتجعله عاجزا، فليحذر المستكبرون سوء العاقبة. تعالى ربنا إنه قد ثبتت له صفة العلم فلا يغيب عنه خفايا ما تتعلق إرادته بسحقه ولا ما يتحصن به الماكرون ظاهرا أو باطنا. وثبتت له القدرة التامة التي لا تغالب.

45- ولو يؤاخذ الله الناس ...كان بعباده بصيرا.

هددت الآيات السابقة المشركين المستكبرين، وحققت هذه الآية أن الله يمهل الكفرة الآثمين، فلا يطمئنوا فيحملوا تأخير عذابهم على رفعه عنهم، إن ذلك غفلة منهم عن سنن الله المطردة: أنه لا يعاجل المذنب بالعقوبة بمجرد ما يقترفها، ولكن حكمته جعلت لكل شيء أجلا، مقدرا عنده لا يسبق الاستئصال أجله ولا يتأخر عنه. إنه لو أراد مؤاخذة الناس بمجرد ما يكتسبون الخطيئة، فإنه لا يبقى على الأرض حي يتحرك.

ولا تسألوا كيف يسحق الله الحياة من وجه الأرض، الدواب والصالحين؟ الجواب إن الله بصير بعباده، هم عبيده وهو أعلم كيف يقضي حكمه فيهم، وعقولكم أضعف من أن تستوعب التدبير الإلهي في الكون.

تم بحمد الله وحسن عونه تفسير سورة فاطر يوم الجمعة 22جمادى الثانية 1434 2013/5/03 أعانني الله على إكماله -

سورة يـس

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به، أخذ اسمها من الحرفين اللذين افتتحت بهما، واختصت بذلك بين سور القرآن. وهي سورة مكية .السادسة والثلاثون حسب ترتيب المصحف. واختلف في ترتيبها حسب تاريخ النزول فعند ابن النديم هي السابعة والثلاثون؛ نزلت بعد سورة الجن، وقبل سورة الأعراف. وعند البقاعي هي الحادية والأربعون.

ورد في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة أوردها القرطبي رحمه الله في تفسيره. فعن معقل بن يسار : اقرؤوا سورة يس على موتاكم. وعن أم الدرداء فقال النبي ﷺ: ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه. وروى الترمذي عن أنس ﵁، قال: قال النبي ﷺ :إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس. ولم يبلغ حديث منها درجة الصحة .ولكن يستأنس من مجموعها ما لهذه السورة من المزايا .والله ذو الفضل العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحكيم : المتقن، والموصوف بأعلى درجات الحكمة.

غافلون: الغفلة الذهول. ويقصد منه الإهمال والإعراض .

حق: ثبت.

القول : ما قدره الله فيهم .

القول: ما ثبت حول الحق أحد التصديق والتكذيب.

الأغلال: جمع غل حديد اليدين.

مقمحون: مرفوعة رؤوسهم عاجزون عن تحريكها.

أغشيناهم: جعلنا على أبصارهم حجابا يمنع من الرؤية.

بيان المعنى الإجمالي

حرفان افتتحت بهما السورة، عطف عليهما قسم بالقرآن البالغ من الحكمة أعلى مقام، وهو مع ذلك موضع للحكمة مقرر لها. والمقسم عليه: أن محمدا منتخب ليكون واحدا من رسل الله إلى البشرية. ويثبت القرآن أن العناية الإلهية رافقته وجعلته متمكنا من الطريق السوي الذي لا عوج فيه، الواضح الذي يبلغ به الغاية من أقصر طريق.

إن هذا القرآن المقسم به تنزيل من الله ليس لمحمد ولا للملك أي دخل فيه، وهما أمناء على تبليغه كما أراد الله أن يصل إلى الناس.

مهمتك يا محمد أن تنذر قوما وتوقظهم من غفلتهم، بعد أن ضاعت منهم الهداية الإلهية لتطاول الأحقاب. فيعلموا أن ما أتاهم به محمد، هو ما تولى إبراهيم وإسماعيل التنبيه إليه. وهم في هذه الفترة، بينك وبينهما، لم يأتهم نذير قبلك. إنهم ذاهلون عن الحق، لكسبهم طول الذهول شدة الإعراض.

ثبت في علمي أن أكثرهم لا يؤمنون بك، فصدق علمي فيهم وعلم الله لا يتبدل. وتعلقه تعلق انكشاف لا تعلق تأثير.

تصلبهم في الكفر بلغ درجة تماثل الأسرى الذين وضع في أعناقهم الأغلال تضغط عليها، بصفة ترتفع أعناقهم وتنخفض أبصارهم. فلا يدركون شيئا مما عن أيمانهم ولا عن شمائلهم، ولا مما هو أمامهم. ولا يصل إليهم شيء مما هو وراءهم، فهم عمي كأنما عصبت عيونهم بغشاء صفيق لا تنفذ منه أي صورة من الواقع الحق. هذا وضعهم من آيات الله المنزلة وفي كتاب الكون، حرموا التدبر فيها وما يترتب على ذلك من الاهتداء.

لا تحزن لتصلبهم في الكفر. إنهم لا يتأثرون بما تدعوهم إليه، فاستوى عندهم إنذارك وعدم إنذارك لهم. هم مقيمون على الشرك والضلال.

بيان المعنى العام

1–4 يس. على صراط مستقيم

افتتحت السورة بحرفين: يا - سين. وبذلك هي تشترك مع السور الأخرى المفتتحة بالحروف المقطعة. فأجرى كثير من المفسرين عليها ما قيل في نظائرها من سور

القران. كما بيناه في سورة البقرة. وحملها بعضـهم على أنهمـا: اسـم مـن الأسـماء الحسنى لله تعالى. ورأى آخرون انهما اسـم لمحمـد ﷺ .وذهـب اخـرون إلـى أن[يـا] حرف نداء، وسين مقصود به الانسان : يا إنسان. وهذا الإنسان هو محمد ﷺ .

هذا وقد اختار كثير من النـاس اسـم ياسـين لبنـيهم. ولا اعلـم انـه أطلـق علـى الإناث. وروي عن مالك أنه لا يرضى التسمية به.

وعطف على هذا الافتتاح [يس] قسما القـران الحكـيم، وإنـه حقـا لحكـيم باعتبـار مـا جمعه من الحكمة والغوص على المعاني الصـادقة البعيـدة. ولأنـه بلـغ غايـة الإتقـان. فبناؤه محكم، ونسيجه محكم، ومضامينه هي عين الحكمة. وهو لذلك معجز.

كانت هذه الفاتحة والقسم المصاحب لها مثبتة بأقوى ما يكـون الإثبـات انـك يـا محمـد أحد الذين اخترتهم لحمل رسالتي للعـالمين. وإنـك مـتمكن مـن الطريـق الـذي يبلغـك قصدك من اخصر طريق ودون التواء أو اعوجـاج أو حيـرة. يبلـغ سـالكه إلـى الفـوز بالطمأنينة في الحياة الدنيا والرضوان من الله يوم القيامة. وذلك هو الفوز المبين.

5.تنزيل العزيز الرحيم

ثم أضاف للتنويه بـالقرآن المقسـم به:أنـه تنزيـل مـن الله، لا دخـل لمحمـد فيـه، ولا للملك، لا في لفظه ولا في معناه. هو منزل علـى قلبـك مـن الله العزيـز الـذي يطـوع كل شيء لإرادته. طوّع اللغة العربية لتحمـل كلامـه. وجعـل نسـجه نسـجا معجـزا لا يرقى أي بليغ للقرب من مستواه. وهو مظهـر رحمتـه بمـا اشـتمل عليـه من هدايـة تعين البشر على التعاون فيما بينهم. وعلـى النجـاح فـي تعميـر الأرض. وتكشـف لهـم المنهج الخلقي الذي يكسبهم راحة الضـمير، وتشـرع للعمـل الـذي يقـربهم مـن ربهـم فيسعدوا في الأخرة كما سعدوا في الدنيا.

6.لتنذر قوما ...فهم غافلون.

يهدف ذلكم التنزيل الى إنذار الناس؛ الى إيقاظهم الى أن مـا هـم عليـه يسبب لهـم فـي الدنيا الاضطراب والفوضى، والخوف والبغضاء، ويحـرمهم مـن رضـى الله فـي الـدنيا والاخرة.

فكانت مهمة الرسول ﷺ أولا:

تحويلهم من الوضع الذي هم عليه، في علاقـتهم ببعضـهم، وبـالكون. فيقطـع مـا بيـنهم وما بين العقيدة العمياء الضالة، والأخلاق الفاسدة، والظلم والاستبداد والاستكبار.

ومن إعجاز القران التنبيه إلى الانفصـال بيـنهم وبـين ابـائهم فـي مضـمون الإنـذار؛ ليبطل ما كانوا يعتمدون عليه في عقيدتهم وفـي تصـوراتهم وفـي سـلوكهم مـن تبريـر

انحرافهم، بأنهم يقلدون آباءهم بما لهم من حرمة وتقدير في نفوسهم، فسجل عليهم أن آباءهم ضيعوا شريعة إبراهيم، وابنه اسماعيل. وتوالت الأحقاب، وطالت الأمد دون أن يبعث الله من ينذرهم ويجدد ما اندرس. إنك يا محمد مكلف بهذه المهمة من هداية الله .

ويحتمل أنك مكلف بإنذارهم الإنذار الذي أنذر آباؤهم. وفي هذا الاحتمال تحريض لهم على اتباعه، لأن ما يدعوهم إليه هو الحق الذي دعى إليه آباؤهم الأولون، وسارت حياتهم على نهجه. وهو مناقض لما تراكم من الأوهام التي رسخت الشرك، وما يتبعه من فساد النظام الاجتماعي .فهم غافلون عن إدراك الحق، ومعرضون تبعا لذلك.

7. لقد حق القول ...فهم لا يؤمنون.

إن ما يحدث في الكون لا يحدث لله علما متجددا. ولكنه انكشاف لما ثبت في العلم الأزلي القديم فيكون الواقع هو ما علمه الله دون أي تغيير . ولما بعث الله محمدا ع لينذر قريشا أولا: فإنه عالم أن أكثرهم يصدون مستكبرين، ولا يقبلون ما نزل إليهم. وأن الأقلية تتبعه فيبارك الله فيهم، ويفوزون بالقيام على نشر دين الله في الآفاق. وهم المهاجرون الذين أثنى الله عليهم في كتابه بما هم أهله من الرتبة العالية في الكمال الإنساني. لقد تحقق ما ثبت في علم الله أزلا أن أكثرهم لا يؤمنون. وعلم الله سبحانه قد انكشف الواقع على وفقه، ولا تبديل في علم الله.

8.إنا جعلنا في أعناقهم ..فهم مقمحون.

الآية تحتمل معنيين :

أولهما: تصور تمكن الكفر في عقولهم، فهم تحت صرامة حكمه فيهم لا يلتفتون إلى حجة تأتيهم، ولا إلى هداية من شأنها تحريك المشاعر. إن وضعهم شبيه بوضع الأسرى الذين أحاط الغل برقابهم، وشدت أيديهم فيه، وأجبرهم الغل على أن تبقى رؤوسهم مرفوعة ثابتة، وأبصارهم منخفضة، لا يستطيعون رؤية ما يحيط بهم.

ثانيهما: أن الآية تصور الوضع الذي يكونون عليه يوم القيامة. وعلى هذا الاحتمال فالآية وعيد، كقوله تعالى:(إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون)[1]

---

[1] سورة غافر آية 71

9﴿وجعلنا من بين أيديهم...فهم لا يبصرون﴾

تجسم الآية عدم قبولهم للهداية الربانية. فهم لتصلبهم في الكفر، وشدة عزيمتهم على المضي فيه، مثلهم مثل المحصور بين سدين: جدارين عازلين، يتعذر تجاوزهما، أمامهم سد، وخلفهم سد. منقطعون عن الكون، فلا يستطيعون معرفة ما يجري وراء السدين. وفي ذلك تجسيم لعزمهم المتصلب على رفض ما يأتيهم من الآيات - سواء ما يأتيهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، وما هو مشاهد في الكون مما يقوم دليلاً على الخالق المتفرد الحكيم.

لقد بلغ إعراضهم حداً أقرب ما يمثل به: أن الله جعل على أبصارهم غشاء لا ينفذ منه نور ولا صورة من الخارج. هم ومن فقد بصره سواء.

10﴿وسواء عليهم ...لا يؤمنون﴾

فهمتُ من هذه الآية : أنها تسلي النبي ﷺ .إذا كان مهتما شديد الاهتمام بنجاحه فيما شرفه الله به من نشر الإسلام وإيمان قومه، واهتدائهم إلى العقيدة الصحيحة، والسلوك الراشد. وقد تملكه الحزن من تصلبهم في الكفر وإعراضهم الشديد عن قبول الحق الذي جاء به. هوّن الله عليه شيئا مما كان يحس به لما خاطبه بقوله : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾[1] وهذه الآية تقول له: إنك قمت بما يجب عليك ولم تأل جهداً، وإنهم لتصلبهم في الكفر والعناد يستوي إنذارك لهم وعدم إنذارهم .

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ۚ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

---

[1] سور الكهف آية 6

بيان معاني الألفاظ

الذكر : القرآن.

خشية الرحمن : تقواه.

الأجر الكريم : أفضل أنواع الثواب.

اضرب لهم مثلا: اعرض عليهم صورة تشبه وضعهم

عززنا : قوينا.

التطير : ربط الخير أو الشر في المستقبل بمسار الطائر. وأغلب ما يطلق على التشاؤم.

لنرجمنكم : بكل تأكيد نقتلكم رميا بالحجارة.

بيان المعنى الإجمالي :

ليكون تذكيرك محققا غايته، فإنه لابد أن يكون في القابل له استعداد لاتباع ما احتوى عليه القرآن من حق وبيان. ولا يصادم جليل وقعه تصميم مسبق على رفضه. فمن كان على هذه الشاكلة، واستقر في ضميره الخشية من الله في السر والعلانية، فذكّره، وبشّره بأن ربه سيقربه منه تقريبا يغفر به ذنوبه، ويجزيه أحسن الجزاء على ما قدم من حسنات .إنا نتصرف في الأموات فنحييهم في الأجل الذي قدرنا أن يتم فيه البعث. وسيحضرون ليجدوا كل ما فعلوه في حياتهم موثقا. وكذلك ما استمرت آثاره في الكون مترتبة عما فعلوه من خير أوشر. وقد ضبطنا ضبطا محكما وسجلنا كل عمل قاموا به، وثقناه في كتاب لا اختلاط فيه.

قدّم للمكذبين بدعوتك، الرافضين للإسلام، مثلا يعتبرون به، فيقيسون به وضعهم، وذلك بما سبق أن حصل لأصحاب القرية. وهم سكان أنطاكية عند معظم المفسرين. لما جاءهم المرسلون من عند الله بدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح. بعثنا لهم أولا رسولين فكذبوهما. فأيدناهما برسول ثالث. أكدوا لهم: أنهم مرسلون إليهم من عند الله. فكان ردهم: نحن وأنتم سواء، كلنا بشر نتساوى في خصائصنا. لا فضل لكم علينا، ولذا فإننا لا نصدقكم في ما تدعون من أن الله ميزكم علينا، وأوجب علينا اتباعكم. فأنتم تكذبون.

كان رد المرسلين على استكبارهم: نُشهد الله ربنا، الذي لا يتصور أن نتجرأ عليه، ونقول عليه ما لم يقل، هو يعلم أنا مرسلون إليكم .ولو افترينا عليه لعاجلنا بالعقوبة الماحقة. تنحصر مهمتنا فيما ألزمنا به: إبلاغكم شرعه إبلاغا واضحا لا لبس فيه ولا غموض.

كان جوابهم : إنه من اليوم الذي حللتم بيننا أصبنا بالمصائب المتوالية التي ما حلت بنا إلا لمقامكم المشؤوم فينا. اعلموا أنه إذا لم تنتهوا من الدعوة لرسالتكم، وتكفوا

عن إسماعنا ما لا نصدقكم فيه، فإننا سنرجمكم، وسنسلط عليكم من العذاب أشده، وأبلغه إيلاما.

كان رد المرسلين: تشاؤمكم وما حصل لكم نابع من ذواتكم، من كفركم ومن رفضكم للحق، وإفراد الله بالعبادة، وانحراف سلوككم عن الصراط المستقيم ،إنكم قوم تأصل فيكم الخروج عن الاعتدال، وجاوزتم ما يرشد إليه المنطق والعقل، وأخذتم بتحكيم هواكم وشهواتكم .

بيان المعنى العام .

11. إنما تنذر من اتبع...وأجر كريم

إذا كانت الآية السابقة سوت بين إنذار المصممين على الكفر وعدم إنذارهم، وأن إنذارك لا يفيدهم، ولا يرجى منهم قبول الإسلام، فإن هذه الآية فتحت للنبي ﷺ أبواب الأمل في نجاحه في مهمته، والاهتداء به. إنك يا محمد لا تستطيع أن تنذر إنذارا يهتدي به المخاطب إلا إذا كان من الذين تنفتح قلوبهم لاتباع الحق، الذين يقبلون على ما تبلغهم بقلوب واعية مصدقة، فاستقر نور القرآن في مشاعرهم، الذين يستحضرون دوما عظمة الخالق، ويخشون أن يراهم في وضع لا يرضيه. السر والعلانية عندهم سواء. بشر من اتبع القرآن وراقب الله على جميع الأحوال، بالمغفرة لما فرط منه قبل إيمانه. ومن التقصير التابع لضعف الإنسان ،وبالأجر الكريم : الثواب الذي يناله يكون مقترنا بحسن الثناء والتكريم .

12. إنا نحن نحيي الموتى ....في إمام مبين

تتضمن الآية شقين: أولهما التذكير بالبعث والتأكيد عليه؛ وأن الموت ومنسيع ينتهي بعودة الحياة للنفس ليحاسبوا عما قدموا. ومناسبة ذلك لما تقدم: أن الآية السابقة بشرت بالمغفرة والأجر الكريم. وذلك يكون يوم القيامة.

ثانيهما: أن الملائكة تحصي على كل إنسان عمله، من الخير أو الشر. ثم تحصي عليه الآثار التي ترتبت على عمله بعد انقضائه. ذلك أن الأعمال على نوعين: منها ما يحدث وينتهي أثره في الحين. وبعض الأعمال يبقى أثره بعد الانتهاء منه. فمن كتب مثلا كتابا يرشد إلى الهدى، ويحبب الخير، ويصفي النفس من درن الفواحش، تكون تلكم الآثار مسترسلة مع الزمن مساعدة على نشر الفضيلة لمن ينظر فيه نظر التأمل، فاعلة في الأفراد والمجتمع الصلاح، فإن الله بفضله يعطي لكاتبه من الأجر، ما تحقق من عمله ولو بعد قرون، وبالعكس فمن كتب كتابا مضللا، فإن كل من قرأه وتأثر به ينال صاحب الكتاب نصيبه من الإثم على الضلال الذي زينه وحببه للناس. وكذلك من حبس من ماله صدقة جارية على فعل البر، أو علم علما

فتح به البصائر، أو أنشأ معهدا للتعليم، أو بنى أو أسهم في بناء مسجد يذكر فيه اسم الله.

لا ينحصر التوثيق في الأعمال التي يستمر أثرها الصالح، ولا في الأعمال الشريرة، بل إن علم الله شامل لكل شيء يقع في الكون، مثبت عنده في كتاب واضح لا خلط فيه. هل هذا التدوين في الكتاب تجسيم وتقريب لعلم الله، أو هو اللوح المحفوظ المسجل به كل كبيرة وصغيرة ؟الاحتمالان متقاربان.

13 +15. واضرب لهم مثلا...إن أنتم إلا تكذبون.

التوضيح والتأثير بضرب المثل طريقة من طرق البيان . محصلها أن يشبه المتكلم الحالة التي يريد من السامع أن يتأمل فيها فيجسمها له بتشبيهها بحالة تقرب منها ليقيس ما سيحصل للمشبه على المشبه به. حتى يكون ذلك داعية للاتعاظ، وأقرب للفهم. وتوضيحا لذلك أقول: تجد شابا مولعا بجمع الحيات السامة، ويحاول تطويعها تطويعا يمكنه من التحكم فيها. فتقول له مذكرا: إن مروض الأسود غضب عليه يوما، أحد تلكم الوحوش فانقض عليه فهشم عظامه ثم افترسه.

المثل الذي جاء به القرآن يتعلق بأصحاب القرية الذين فصل الحديث عنهم. ماهي القرية ؟ ومن هم المرسلون إليها؟ القرآن لم يعرف تعريفا عينيا لا هذا لا ذاك. وذلك لعدم توقف الموعظة على معرفة ذلك. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن الزهري أن القرية: أنطاكية. مستندين في ذلك إلى روايات مستخرجة من الإنجيل .والمرسلون هم برنابا وشاول المدعو (بولس) ثم عزرا وبسيلا أو شمعون . ويذكرون أن أهالي أنطاكية قابلوا بولس وبرنابا بمقاومة شرسة .وأنه عززهم وأيدهم شمعون، وأكدوا لسكان انطاكية أنهم مرسلون من عند الله، ومبعوثون من الحواريين أصحاب عيسى ﷺ . فقابل أهل انطاكية المرسلين الذين دعوهم لتوحيد الله وعبادته، ونبذ كل معبود سواه، وإن يطبقوا ما جاؤوهم به، قابلوا دعوتهم بمثل ما قابل مشركو مكة محمدا ﷺ . قالوا لهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا، ولم ينزل الله عليكم شريعته ولا وحيه، وادعاؤكم أنكم تحملون رسالة من الرحمن دعوى كاذبة.

16–17+ قالوا ربنا يعلم...وما علينا إلا البلاغ المبين .

تبرأ المرسلون من أن يبلغ بهم التجاسر أن يكذبوا على الله .و أقسموا: أن الله يعلم أنهم صادقون مرسلون حقا من عنده. وأردفوا: لم نكلف بقسركم جبرا على اتباعنا .تنحصر مهمتنا في إبلاغكم الحق الذي شرفنا ربنا بعرضه عليكم بينا واضحا. تنساق اليه الفطرة السليمة.

18.قالوا إنا تطيرنا....عذاب أليم.

أثار مظهر صدق المرسلين ما ضاعف عناد أهل القرية. فتحولوا من المواجهة بالحجة، إلى استناد عدم قبول دعوتهم، أنهم تشاءموا بحلولهم بينهم .فصوروا للأتباع من الدهماء أن كل مصيبة حلت بواحد منهم مرجعها إلى وجود المرسلين بين أظهرهم، وإقامة الرسل بقريتهم. وهو ما راج على المستضعفين .فإن شأن الحياة أن كل مجتمع لابد أن يصاب أحد أفراده بما لا يلائمه. وربط ذلك بحلول المرسلين في القرية يقبله ضعفاء العقول. ثم هددوهم: أنهم إن لم يسرعوا بالخروج من القرية فلا أمن لهم وأنهم سيعتكون عليهم برميهم بالحجارة إلى الموت. ولم تبق بينهم وبين الرسل مهادنة. سيتصرفون معهم بالعنف الذي يعذبهم فيرحلون، أو ينقطعوا عن دعوتهم ويسكتون.

19.قالوا طائركم... أنتم قوم مسرفون

رد عليهم الرسل ردا يوقظ العقل، ويطرد الخيال والأوهام. انتبهوا فإن ما حل بكم من المصائب مرده فساد في نفوسكم، هو اتباعكم لأهوائكم، وعدم تحليل الأمور تحليلا يعتمد الترابط بين الأسباب والمسببات .تصلّبتمْ في الكفر، ولم تفتحوا عقولكم للتعمق في المواعظ التي عرضناها عليكم . إنه ما عرضنا عليكم إلا ما ينفعكم في الحاضر والمآل. ينقذكم من التيه والضلال، ويربطكم بالخلاق العظيم. إنكم قوم تعودتم تجاوز الاعتدال إلى التطرف، وتنويم العقل. أتتشاءمون بالتذكير إذا ذُكّرتم، أتقلبون التذكير الهادف إلى جلب الخير لكم، إلى موجب تشاؤم وحذر منه .وهذه صورة أقرب ما يكون من جدل أهل مكة لرسول الله ﷺ كما سجلته كتب السيرة.

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ

أقصى المدينة : طرفها.

يسعى : مسرعا في سيره.

الاتباع: الامتثال.

الانقاذ : التخليص من مازق.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع رجل صالح يسكن أطراف المدينة بما توعد به أهل مدينته المرسلين، فأسرع ليقوم بدوره في الدفاع عن الحق. وخاطب قومه قائلا لهم: يا بني جلدتي اتبعوا المرسلين ولا تعاندوهم. انتبهوا فإنهم يبذلون قصارى جهدهم ومحضوا حياتهم ونشاطهم لفائدتكم دون أن يطلبوا منكم أجرا مقابل ما يبذلونه لخيركم . مضمون ما جاؤوكم به هو الهدى الموصل إلى السلامة .وخاطب نفسه أمامهم فقال: ما الذي يصرفني عن عبادة الذي خلقني، وأنكم جميعا ستعودون إليه ليحاسبكم عما قدمتم .

كيف أتخذ آلهة من دونه، والحال أنها لا تستطيع أن تشفع في، إذا أرادني ربي بضر، أو تنقذني من المحنة بعد أن تصيبني. الهتكم عجزة. إني لو عبدتها أكون قد انحرفت عن طريق الهداية الطريق المستقيم ودخلت في متاهات لا مخرج منها.

إني امنت بربكم فاسمعوا مقالتي، واتبعوني ترشدوا.

غضبوا من كلامه وقتلوه. فأسرعت ملائكة الرحمن بروحه إلى الجنة .وبمجرد ما دخلها وشاهد ما أنعم الله به عليه من مغفرة لذنوبه، ومن تكريم يتجاوز الوصف تمنى أن يعلم قومه بما هو فيه من نعيم، حتى يقلعوا عن كفرهم ويسرعوا بالإيمان، وبالعمل بما يرضي ربهم الرحمن .

بيان المعنى العام:

20 ←21: وجاء رجل ...وهم مهتدون.

تدخل حركية مفاجئة في المثل .وبعد أن كان الحوار بين المرسلين وبين الرافضين يدخل عنصر جديد، هو من أهل القرية وليس رسولا، وهو مؤمن لطمأن لما جاء به الرسل، وقد بلغته التهديدات التي قابل بها أهل القرية المرسلين، فخشي أن ينتقلوا من التهديد الى الفعل. أسرع لينصر المرسلين .

ها هو بين رؤساء المدينة يعرفهم ويعرفونه .فخاطبهم ناصحا بقوله: يا قومي ! وفي ندائهم بيا قومي ما يقربهم اليه، ويعرض أولا أنه حريص على ما يجلب لهم الخير للرابطة الجامعة بينهم .ويدعوهم إلى الامتثال باعتقاد وقبول ما جاءهم من هداية .

22-24 ومالي لا أعبد ...لفي ضلال مبين.

ثم أضاف إلى الناحية العاطفية [يا قومي] مرجحا آخر عقليا نظريا. اتبعوا هؤلاء الرسل لأمرين:

أولا: أنهم يجتهدون لفضل الاجتهاد لنفعكم، دون أن يطالبوا منكم أي أجر على الخير الذي قدموه لكم. فانتفى أن يكون لهم أي فائدة مادية مما تحملوه من عمل دائب متواصل، وصبر على البيان .

ثانيا: أنكم إذا تأملتم في مضمون ما جاؤوكم به تجدون أنهم يدعونكم إلى طريق الرشد الذي ينفعكم في دنياكم وأخراكم.

وأضاف إلى نصحه هذا: بمخاطبته لنفسه، وهو واحد منهم، بقوله: ما الذي يبعدني عن عبادة الذي أنشأني ومكنني بما غرسه في نفسي من مبادئ طبعني عليها، وبها تستقيم حياتي. ولما استوى معهم في تلكم الفطرة فهو يقصد إلى أن الإيمان تستجيب له النفس بطبيعة خلقها فعليهم أن يؤمنوا. وادمج في لطف أنهم سيرجعون إلى الذي خلقهم ليحاسبهم. ثم ترقى إلى إبطال عقيدة الأصنام قائلا كأنه يخاطب نفسه: كيف أعمد إلى سواه فأتخذه إلها. لننظر هل تقدر هذه الالهة، إن أراد مدبر الكون أن يلحق بي ضرا في نفسي أو في رزقي، هل تستطيع أن تشفع لديه ليبعد عني المكروه قبل حصوله، أو أن يخلصني من كرب وقعت فيه. إنها عاجزة فلماذا أعبدها. إني إن عبدتها من دونه مع عجزها أكن مغرقا في الضلال ،انحرفت عن الفطرة، وعن العقل ودخلت في متاهات لا مخرج منها.

ثم صرح بنتيجة نسجه البديع من نصحه لقومه، وبيان ما تقتضيه الفطرة، وما يحكم به العقل المنصف، فأعلن لهم: إني آمنت بالله ربكم الذي تولاكم بعنايته، وتفضل عليكم برزقه ورعايته، فافتحوا آذانكم للحقيقة التي أصدع بها.

26-27 قيل ادخل الجنة.. من المكرمين

هذا هو المشهد الأخير من المثل المضروب. يعلن أن نهاية هذا الرجل الصالح المؤيد للحق كانت دخول الجنة. وطوى القرآن الحديث صراحة عن موقف قومه الكفار المتصلبين في كفرهم منه. فيفهم من التعجيل بدخوله الجنة، أنهم أسرعوا إلى إسكات صوته الذي أزعجهم ونقض ما ألفوه من الضلال. فقتلوه .فإدخاله الجنة عقب مناقشته ونصحه لهم يدل على استشهاده. إذ مرتبة الشهداء عند ربهم أعلى المراتب وأزكاها في جنات النعيم.

كانت أمانيه وقد فاز بدخوله الجنة أن يعلم قومه بتطهير نفسه من كل تقصير أو قصور، وأنه أصبح نقي الصفحات لم تسجل فيها إلا الحسنات، وأن يعلموا ما

أفاض عليه ربه من نعيم، وما في الجنة من تكريم يفوق الوصف، حتى يؤمنوا ويوحدوا. قال هذا وقد تطهرت نفسه من كل غل ونقمة حتى على الذين قتلوه. قال تعالى في أهل الجنة: {ونزعنا ما في صدورهم من غل}[1]

• وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصيحة: الصياح مرة واحدة.

الخمود : أصله انطفاء النار وذهاب توقدها تماما.

الحسرة : شدة الندم المشوب بالتلهف على ما فات.

موت الأرض : جفافها فتكون مجرودة من النبات.

إحياء الأرض : إخراج النبات من بطنها أخضر حيا.

بيان المعنى الإجمالي :

ظن أهل القرية أنه لو تحقق إنذار الرسل إليهم، فإنهم مستعدون لمقاومة جند الله النازلين عليهم من السماء. هم مخطئون. فاستأصلناهم دون أن تنزل عليهم جنود من السماء يحاربونهم، ولا يتصور أننا نفعل ذلك. ولكن لما جاء أجل إهلاكهم، قضينا عليهم بصيحة واحدة، فإذا هم أموات لا حراك لهم. بعد أن أهلكوا، لم يبق إلا التحسر والأسف على خاتمتهم التعيسة، التي يشتركون فيها مع المكذبين من العباد، الذين كلما جاءهم رسول، قابلوه بالاستهزاء . فتكون عاقبتهم الهلاك.

[1] سورة الأعراف آية 43

ما لهم لم يعلموا العلم الذي يرشدهم ويفتح بصائرهم، حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة التي كذبت رسلها عبر القرون، فأهلكهم الله إهلاكا لا عودة بعده إلى الحياة الدنيا. ومع استئصالهم في الدنيا، فإنهم سيبعثون للحساب على ما قدموا، لا يفلت منهم أحد من هذا المصير .

يقوم تصرفنا في الأرض المشاهد لديهم على أن البعث حق. تكون الأرض جرداء لا نبات فيها ولا زرع، وبمجرد ما تتعلق إرادتنا بإحيائها تفعل الأسباب فتحيي وتكسوها الخضرة وينبت الزرع الذي من حبه يقتاتون. ولأثر حسن التقدير في الأرض، فأنشأ سبحانه جنات مختلفة الأنواع من النخل الباسقة إلى الكروم التي تفرش على السطح ما لم تقمها الأعمدة. وحفظ رواءها بتدفق الماء من العيون، كل ذلك فضل من الله على البشر ليقتاتوا من تلكم الثمار التي هي من فضل الله لا من إنتاج الإنسان. ما بالهم غافلون أفلا يشكرون ربهم على ما رزقهم، تنزه ربنا عن كل نقص فهو الذي خلق النوعين الذكور والإناث، خلقها مما دخل في تكوينها من أجزاء الأرض، ومن ذوات الجنسين، ومن مكونات لا يعلمها الإنسان القاصر كالروح التي تكون بها الحياة .

بيان المعنى العام .

28->29.وما أنزلنا على قومه...فإذا هم خامدون.

كانت نهاية العبد الصالح الناصح، ما ذكرته الأبيات السابقة. وكشفت هاتان الأيتان عن مآل أصحاب القرية المستكبرين. تشير الأيتان إلى أنهم كانوا معتدين نفوسهم متحدّين للمرسلين، كان لسان حالهم، أو مقالهم فعلا: نحن أقوياء ونعرف كيف ندافع عن أنفسنا إذا قدمت جنود ربك لاستئصالنا .صرح القرآن بأنهم أحقر من أن يرسل الله عليهم جندا من السماء ليقضي عليهم.مؤكدا أنه لا يتصور أن ينزل عليهم جنودا من السماء يحاربونهم ويقاتلونهم فيتغلبون عليهم . ما كانت إبادتهم إلا بصيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم، فتحولوا في لحظة بتلك الصيحة الواحدة إلى ما يشبه الرماد بعد أن ينطفئ لهب النار المتوقدة . تراهم قبل أن يصعقوا يرفعون أصواتهم متهيجين متحدين، فإذا هم بعد الصيحة ركام من الموتى تتناثر جثثهم في كل مكان من القرية .

30. يا حسرة على العباد ...كانوا به يستهزئون.

هذا نداء يجري على ألسنة البلغاء، يقصد به تنبيه المخاطب بالنداء حتى يتيقظ ذهنه لما يرد عليه ،والمتكلم يريد أن يصور للسامع الوضع العام، فلا يجد شيئا حاضرا يمكن أن ينادى إلا الحسرة والأسف والتلهف على النفع الفائت. الحسرة

على العباد الذين فوتوا على أنفسهم النفع حتى فات أوانه .جاءتهم الرسل وهم في سعة من أمرهم، دعوهم إلى توحيد الله، والاستقامة في السلوك، فعوض أن يتدبروا فيما دعوا إليه، قابلوا الإنذار بالاستهزاء بالرسل وبما جاءوا به .

31.. ألم يروا كم أهلكنا...أنهم إليهم لا يرجعون.

تثير الآية انتباه المخاطبين ليكون إحضار مشهد الذين سبقوهم فكذبوا وعوقبوا مثيرا لهم ليحتاطوا لأنفسهم، حتى لا تنسحب عليهم سنة الله في استئصال المكذبين.

تفيد الآية التعجيب من عدم علمهم بما حاق بالأمم السابقة على امتداد التاريخ، الذين أهلكهم الله إهلاكا لا مطمع بعده للعودة إلى الحياة الدنيا.

32.وإن كل لما جميع لدينا محضرون.

ومن المؤكد أن كل المهلكين لا يقتصر الانتقام منهم على ما حصل لهم في الدنيا، بل إنهم جميعا، لا يفلت منهم أحد، سيحضرون لدينا لحسابهم .ولعذاب الآخرة أشد.

33.وآية لهم الأرض ...فمنه يأكلون.

بعد أن ضرب لكفار قريش مثلا من أصحاب القرية، وكشف عاقبتهم لما كذبوا الرسل، لفت أنظارهم إلى دليل من أدلة تصرف الله في الكون. هم يرقبون الأرض التي حولهم: أنها تكون جرداء، لا نبات فيها ولا حياة، موحشة تسفي الرياح لهيبها، فبمجرد ما تتعلق الإرادة الإلهية بإحيائها يرتب الأسباب التي بها تحيى فيكسو النبات أديمها، ويخرج من باطنها الزروع التي من حبها قوام غذاء الإنسان، فيعوضون بها ما ذهب من الوحدات الحرارية . وهكذا يكون المشهد من بدايته إلى نهاية يتعاقب فيه الموت والحياة، والوجود والعدم ثم الوجود .وفي ذلك أوضح دليل على إمكانية البعث يوم القيامة.

34-35. وجعلنا فيها جنات...أفلا يشكرون.

إذا كانت تحلية الأرض بالغطاء النباتي تحصل سريعا، وفي ذلك عبرة وآية، فإن ما بثه الباري سبحانه في الأرض من الجنات التي تتنوع أشجارها من النخيل الباسقة إلى الكروم التي تمتد أغصانها على الأرض أو تعرش، وإخراج الماء من العيون الجارية تروي الجنات وتبقي على خضرتها ونضارتها.

كل ذلك مرتب لنفع الإنسان، يسر له أن يأكل من الثمار التي تنتجها، هذه الثمار التي يجنيها الإنسان ويتنعم بلذيذ طعمها، وبما تحويه من غذاء، هي منحة من الله،

فما كان ليد الإنسان وعمله دور في وجودها. هي من عناية الله فليقدر فضل الله عليه، أفلا يكون من واجبهم أن يشكروا الله ويثنوا عليه على ما رزقهم.

كما يمكن فهم الآية على أن " ما" موصولة " أي والذي عملته أيديهم، تحريضا لهم على العمل في الأرض حتى تؤتي الأرض أفضل النتائج .

36ـسبحان الذي خلق...و مما لا يعلمون.

تنزه الله الخالق المبدع عن كل نقص، فقد رتب السنن التي أجرى عليها الإنبات وتفجير المياه من باطن الأرض عيونا جارية، وأعطى لكل نبتة وزهرة، وغصن، وشجرة، وعذق نخل، وكل تحول في الثمار من تكونها الأولي زهرة ملقحة إلى بلوغها حد النضج شكلا ولونا ومذاقا ،كل ذلك بخلقه وتقديره.

وتعالى متقدسا عن كل نقص، فقد خلق كل زوج من البشر والحيوان، ذكوره وإناثه. وميز كلا من الجنسين بخصائص بالتقائهما تتكون الخلية الأولى. هذه الخلية التي دخل في تركيبها عناصر من الأرض، تمثلتها أجهزة الجسم، وحولتها تحولات قد يدرك بعض الناس تبعا للتقدم العلمي شيئا من تلكم التحولات، وما تأثرت به حتى وصلت إلى تغذية مركبات الخلية، ثم دخلت في نموها إلى أن تكاملت إنسانا أو حيوانا مكتمل الخلق .ومهما بلغ الإنسان من العلم، ومهما سمت المعرفة الإنسانية، فإن جوانب عديدة ما تزال غامضة يلفها الجهل و من أشدها بعدا عن إدراك الإنسان الروح التي تسري في الكائن فإذا هو حي فاعل، وتسلب منه فإذا هو كتلة من اللحم والعظم إن كان من الحيوانات التي لها هيكل عظمي ولحم نابت عليه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

السلخ : أصله إزالة جلد الحيوان .والمراد به إزالة ضوء النهار .

تجري: تسير سيرا سريعا.

المستقر : مكان القرار، أو زمنه.

الفلك : الدائرة المفروضة في الخلاء الجوي، المقدر أن يسير فيها الكوكب.

الذريات : نسل الإنسان .

صريخ: صياح المستغيث طلبا للنجدة .

الإنقاذ : التخليص من ورطة .

بيان المعنى الإجمالي :

حرك القرآن انتباه البشر وعقولهم ليظروا في كتاب الكون، فيقتنعوا بأن هذا العالم مسير تسييرا متقنا ودقيقا من خالقه. يكونون نشطين يتحركون فوق سطح الأرض وقد كساها الضوء إهابا أظهر محتوياتها ،فتتصرف يد القدرة الإلهية فتنزع هذا الإهاب المضيء فتعم الظلمة. وليتأملوا في الشمس هذا الكوكب العملاق، يجري إلى أن يبلغ نهاية المدى المقدر له فيتوقف، ولا يبقى من النظام المشاهد الآن شيئا. ذلك الجري المضبوط المنطلق مع الشمس من يوم خلقت، ما تم ذلك إلا بتقدير محكم من العزيز الذي يستجيب كل شيء لإرادته ولا يعوق معوق تصرفه، أجرى سيرها حسب علمه الدقيق.

وكذلك القمر قدر الله له مساره وضبطه ضبطا محكما، كل منزلة من منازله تهدي الناس لضبط حسابهم، ومعرفة عدد الشهور والأيام والسنوات. يبدو في السماء كوكبا مضيئا جميلا، ثم يأخذه المحاق شيئا حتى يصير خيطا لا نضارة فيه كالعرجون بعد أن تم جني رطبه وترك مدة كاد يلحقه فيها البلى

النظام الكوني في حركة الشمس والقمر نظام ثابت، كل كوكب يدور في فلكه الخاص به . فلا يتأتى للشمس أن تدرك القمر فتأخذ مكانه في فلكه، وكذلك العكس، ولا يتأتى لليل أن يتسلط بظلمته على النهار فيحجبه. كل كوكب سابح كما تسبح السفينة في المحيط حسبما ضبطه الخلاق العليم .

من الأدلة على تفرد الله بالتدبير، هداية الإنسان لصنع الفلك، الذي ما كان أن ينجح فيه، لولا أن كل شيء في الكون يسير على نظام دقيق وقوانين محكمة. الفلك الذي يحملكم ويحمل ذريـاتكم، ويحمل أثقالكم. يشحن بالبشر والسلع فيخترق البحار ويصل بين الأبعاد . وهداكم كذلك إلى تسخير ما تركبون وتحملون أثقالكم عليه، من الحيوانات كالإبل والخيل والبغال والحمير، ومن وسائل النقل الأخرى التي اهتدى الإنسان لصنعها بتصريف قوانين الخلق، وتجميعها على مقادير كامنة في سر الصنع الإلهي .على الإنسان أن لا يجهل فيظن نفسه متحكما في الكون، فإنه

وهو راكب في الفلك يمخر عباب البحر مثلا، فإن العناية الإلهية تصحبه فيصل إلى غايته، أو يقدر الله إهلاكه فيزمجر البحر وتشتد العاصفة وتعلو الأمواج ثم تنقض كالصواعق، فيبتلع البحر السفينة ومن فيها. ولا ينفعهم صراخ ولا يجدون منقذا، فالرحمة الإلهية وحدها هي التي تنجي السفن وأصحابها.

بيان المعنى العام :

37.وآية لهم الليل ...مظلمون

على القرآن يلفت الأنظار إلى مشاهد الكون في تقلباته، حتى لا تغطي الرتابة على ما في ذلك من أسرار. في هذه الآية تجسيم لما يشهده كل إنسان، ويمر على بصره كل يوم. يكون الإنسان يقظا وأمامه الأرض وقد لبست ثوبا مشرقا أظهر كل الموجودات على ظهرها، الجبال وحبات الرمل الدقيق، ثم يسلخ ذلك الثوب المنير، فتحل محله الظلمة، ويلف الكون سواد يحجب كل ما كان منكشفا.

في هذا التتابع المنتظم، وفي القوانين التي جرى عليها تتابع الليل النهار وما يترتب على ذلك، ما يقوم دليلا واضحا يقنع العقول بأن وراء هذه التغيرات خالق مقتدر، ويقرب هذا المشهد خروج الناس يوم المعاد . أما البحث في أن الأصل في الأرض النور أو الظلمة، فهو أمر خارج عن مضمون الآية. لا تنفيه الآية ولا تؤكده.

38.والشمس تجري ...العزيز العليم

ظاهرة الليل والنهار لفت القرآن إليها الأنظار، على أنها آية من آيات التصرف الإلهي في الكون. ثم عمق النظر فلفت الأنظار لتتأمل كوكب الشمس. الشمس التي تكبر كتلتها كتلة الأرض بما قدره العلماء مليونا ومائتي ألف ضعف. الشمس بهذه الضخامة تجري مع المجموعة التي تدور حولها في الفضاء الكوني بسرعة قدرها الفلكيون باثني عشر ميلا في الثانية.

سعة الفضاء الكوني وضخامة كتل المجموعة، وهي تجري دون أن تختل حركتها أو يصطدم كوكب بآخر، والقوانين التي تسيرها، تحرك العقل البشري ليقتنع بأن المحرك لها، هو العزيز الذي لا يرد له حكم، ولا يعوق مراده معوق، ولا يخفى عليه شيء يفجأ، فيفرض التعديل أو العجز . وهو الذي وسع علمه كل كبيرة وصغيرة، بعزته المقرونة بعلمه، تابعت الشمس سيرها بسرعة من يوم خلقت، وما تزال تسير على ذلك النحو، حتى تبلغ اللحظة التي قدر لها أن تسكن وتستقر، ولا يكون الكون بعد سكونها هو الكون مع سيرها.

39- والقمر قدرناه... كالعرجون القديم.

والكوكب الثاني الذي يتابع البشر أحواله في السماء، هو كوكب القمر يذكر القرآن: أنه مقدر بنظام محكم، ومقدر بذلك حساب الأشهر والأيام والليالي والفصول، والمد والجزر. قدر منازل سيره التي يسير فيها، حتى صار كالعرجون الذي نزع منه تمره ومضى عليه زمن بلي فيه .وهكذا يكون القمر في أول أيام الشهر وفي آخرها خيطا ضئيلا. ويمكن أن يدل التعبير " حتى صار كالعرجون القديم" إلى ما حققه العلماء من أن كوكب القمر كوكب غير نابض بالحركة الداخلية المتفاعلة في باطنه.

40- لا الشمس ينبغي لها...وكل في فلك يسبحون.

لا يملك الإنسان غير الغافل بعد ما أثاره في مداركه عرض تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس وتحرك القمر إلا أن يبقى لحظات يستمتع فيها بحسن التقدير وحكمة الخلاق العظيم. ويعمق القرآن إحساسه هذا فيخبره أن ما عرض عليه ثابت متصل سائر مع الزمن: لا يتأتى للشمس أن تدرك القمر فتصطدم به، أو أن تحوله عن مساره وتأخذ مكانه، وكذلك العكس. فلا القمر يأخذ مكان الشمس ويسير في مدارها. كما لا يتأتى لليل أن يسبق النهار فيستمر الظلام في الكون. ما يشاهد من تعاقب الليل والنهار أمر مقدر لا يتخلف الكل يسير في الفضاء الكوني الرحب سيرا مطردا لا يحيد عنه. إن المسافة بين الأجرام السماوية مسافات هائلة .فهي بين المجموعة الشمسية، وأقرب نجم من نجوم السماء مقدرة بأربع سنوات ضوئية، وسرعة الضوء تقدر بثلاثمائة ألف كلم في الثانية .فإذا ضربت ذلك 365 عدد الأيام في 24 ساعة في 60 دقيقة في 60 ثانية تجد رقما هائلا.، وهذا أقرب نجم، وراءه مجرات أضخم وأبعد .وكم يبدو الإنسان ضئيلا. في هذا الكون المترامي الأطراف المنظم تنظيما دقيقا ينادي بأنه من صنع من أجرى صنعه على مقتضى الحكمة، وتتكشف الحكمة شيئا فشيئا تبعا للتقدم العلمي .والعقل البشري أضعف من أن يحيط علمه بكل دقائق الخلق، بل يتابع الفرضيات ليتأيد بعضها، ويسقط البعض الآخر ليخلفه افتراض آخر . فيزداد الذين آمنوا إيمانا.

41-44-وآية لهم أنا حملنا ...ومتاعا إلى حين.

تتصل الآيات الأربع ببعضها، لتكشف عن صورة من صور التقدير الإلهي في الكون، هذا التقدير الذي إذا تأمل فيه الإنسان كان له دليلا على ما يلفت اليقين في العقيدة الموحدة لله المتصف بالكمال . يمكننا فهم الآيات على طريقتين:

الطريقة الأولى التي أخذ بها حذاق المفسرين: ذكرت الآيات بنعمة الله على البشرية إذ أوحى الله إلى نوح عليه السلام أن يحمل في سفينته التي ألهم صنعها، من آمن به من أهله ومن الناس. ومن هؤلاء المحمولين تناسل البشر ، فهم كما قال الله تعالى: (ذرية من حملنا مع نوح)[1] فالمحمولون من المؤمنين امتد بهم عمران الكون، وما البشر الموجودون في زمن البعثة، وخاصة القرشيين إلا ممن تناسل منهم. ومن الدقة التعبيرية في القرآن قرنْ فلك نوح بوصف مشحون، ليعبر عما حملته سفينته من أنواع المخلوقات: زوجين اثنين. فتصوروا أنواع الكائنات التي عمر الله بها الكون وقد أخذت مكانها في الفلك، والتي كانت ستنقرض عندما يغمر الماء الكرة الأرضية. وعطف القرآن نعمة خلق الإبل التي بفضل خصائصها الخلقية، كانت صالحة للأسفار واختراق الصحاري. فكما ينتقلون بواسطة السفن، ينتقلون بواسطة الإبل فتحملهم وتحمل أثقالهم. ثم عاد القرآن لإظهار المنة. إن السفن مهما عظمت، إذا كانت في وسط لجج البحر، تبدو ضئيلة جداً، تضعف عن مقاومة العواصف البحرية الشديدة. إن سلامة الراكبين لا تتأتى لهم إلا برحمة من الله، الرحمة وحدها هي التي تنقذ ركاب السفينة، من تحطمها وغرقهم في البحر. الغرق الذي إذا كان في عظم المحيط، لا يسمع للمستغيثين صوت استغاثة، ولا يجدون من يخلصهم مما آل إليه أمرهم .فالألطاف الإلهية وحدها هي التي تحقق لهم تواصل الحياة إلى الأجل المقدر عنده.

الطريقة الثانية التي بدت لي في فهم الآية: نبه القرآن على أن في اهتداء الإنسان لقوانين الماء ودفعه، والهيئة التي يكون عليها تركيب الفلك، وفعل الرياح في أشرعتها، ثم فعل قوة المحركات التي توصل إليها المهندسون لتسيير السفن على سطح البحار، التي بلغت من الضخامة أنها تنقل مئات الأطنان مما لا يتأتى لوسيلة نقل أخرى، في ذلك دليل على أن كل شيء في الكون راعى الخلاق الحكيم في صنعه قوانين مضبوطة دقيقة، يستطيع الإنسان بتطويعها أن يعمر الكون ويحقق التواصل بين أجزائه .فالسفن تحمل البشر والسلع؛ ونص القرآن على حمل الذرية إشارة إلى أن هذا الاهتداء مستمر نفعه يشمل الحاضرين ويشمل ذرياتهم .

وكما هدى الإنسان لصنع السفن وتطويرها فكذلك هداه إلى تطويع الحيوانات الناقلة: الخيل والإبل والحمير والبغال، ثم الآلة بعد ذلك، من كل ما يركبه الإنسان فينقله في آفاق الأرض ويحمل أثقاله.

---

[1] سورة الإسراء آية 3

ونبه على تمام المنة في الاستعانة بالسفن، فذكر أنهم لا يخرجون عن تحكم القدرة الإلهية فيهم، فلا يطغى الإنسان أو يظن أنه أصبح مالك الكون، فإن الإرادة الإلهية إذا تعلقت بإهلاك السفن ومن فيها، يتم ذلك في لحظات. يهيج البحر، وتهجم العاصفة، وتعلو الأمواج، فتنقلب الباخرة الضخمة بأبراجها ومحركاتها إلى مستوى بيضة دجاج فارغة، يبتلعها البحر فلا يسمع صراخ ركابها ولا يجدون مخلصا، إذا أخطأتهم رحمة الله .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ينظرون: من النظرة أي الترقب . أي لا يؤخرون لحظة.

الصيحة : الصوت الشديد

تأخذهم : تستأصلهم.

يخصمون : يختصمون يتحاورون ويتدافعون.

توصية : توصية أهلهم على ما يحذرون عليه.

بيان المعنى الإجمالي:

تفيد الآيات تصلب المشركين في الكفر، فإذا نصحهم رسول الله ﷺ وقال لهم: حصنوا أنفسكم بتقوى الله حتى لا يسلط عليكم ما سلط على من سبقكم من المكذبين، وما سيكون عليه أمر المكذبين في الآخرة؛ إنكم ترجون باتباعي أن يرحمكم الله. قابلوا نصحه بالإعراض.

أفسد الكفر أخلاق المشركين؛ فهم إذا دعاهم المسلمون ليصلوا ذوي قراباتهم والفقراء من المسلمين بشيء من المال يخفف عنهم الخصاصة، وذكروا بأن الله هو الذي تفضل عليهم فوسع عليهم في الرزق كان جوابهم أتطلبون منا أن نطعم من لو أراد الله أن يطعمه على زعمكم لأطعمه، فاطلبوا منه أن يطعم فقراءكم لقد تمكن

منكم الضياع والضلال. يسأل المشركون مستهزئين مستبعدين تحقق ما أوعدهم: متى يأتي ما توعدنا به يا محمد؟ يجيبهم القرآن: إن حياتكم قصيرة جداً، وما هي إلا صيحة واحدة تسحقكم وأنتم غافلون تختصمون تبعاً لحرص كل فرد منكم على مغالبة غيره ليفوز بالحظ الأوفر. تنتهي الحياة فلا يستطيع أي فرد منكم أن يوصي برعاية ماله ولا أطفاله. ولا هو عائد إلى أهله إذ يكونون جميعاً قد التهموا من الحياة.

بيان المعنى العام :

45-46، وإذا قيل لهم اتقوا ...عنها معرضين.

تفيد الآيتان تصلب المشركين في الكفر، تصلباً حرمهم من الانتفاع بما في كتاب الكون من آيات، كما حرمهم الانتفاع بما يبلغهم إياه رسول الله ﷺ. فإذا قال لهم ناصحاً: كونوا وقاية لأنفسكم من أن يحل بكم ما حل بالأمم السابقة من السحق والدمار، وكونوا وقاية لأنفسكم من عذاب الآخرة وبذلك ترجون أن يرحمكم الله بتكفير ذنوبكم وهدايتكم الصراط المستقيم. يقول لهم هذا ناصحاً لا يبغي لنفسه من وراء ذلك مكسباً. كلما وعظهم وتلطف معهم وتلى عليهم آيات القرآن، قابلوا ذلك بالإعراض وعدم التأمل ..

47.وإذا قيل أنفقوا...إلا في ضلال مبين.

صورة أخرى من تصلبهم الذي أفضى بهم إلى التخلي عما كانوا يفتخرون به. من المعلوم أن المجتمع العربي طبع على بعض الأخلاق الفاضلة في الجاهلية، وإن كانوا لم يسموا بها إلى رتبة حب الفضيلة، بل كانوا يقوسون بها حباً في الفخر، فالعرب أندى الناس يداً، وأكثرهم كرماً ،وكان أثرياؤهم لا يبخلون على معارفهم وأقربائهم من أن ينالوا من فضل أموالهم، فلما سبق المستضعفون إلى الإسلام قطعوا عنهم ما كانوا يعطونهم ،وإذ ذكروا بما تحتمه القرابة، ونبل السماح، وفقر المحاويج، وأن ما يتمتعون به من سعة في المال هو من رزق الله، أجابوا في صلف منكرين أن يعطوا الذين لو شاء الله أعطاهم . فهم بهذا الجواب يستهزئون بما قررته العقيدة الإسلامية، من أن الله وحده هو المتصرف في الكون، يقولون لما كان المتصرف الله، فليفض من أرزاقه على المستضعفين الفقراء، واختار القرآن من أنواع شحهم الشح بالطعام، ليدل بذلك على أن الكفر استأصل من قلوبهم رحمة الجياع. وأضافوا إلى بخلهم وإمساكهم أن خاطبوا المسلمين الذين دعوهم إلى المسامحة والإنفاق بأنه قد تمكن فيهم الضلال الواضح.. وفقدوا الصواب .

48 .ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

تسجل الآية تصلب المشركين في الكفر، فعوض أن يتأملوا فيما يدعوهم إليه الإسلام، أنكروا صدق الرسول فيما جاءهم به، وما تهددهم به من النقمة ،و سألوا سؤال المكذب الذي لا يهتم: متى يتحقق ما وعدتنا به ؟ والوعد يطلق على الخير وعلى الشر، والسياق يوضحه، أما الوعيد فلا يطلق إلا على الشر. وألحقوا بالسؤال ما يفيد شكهم في صدق المؤمنين .

49←50 ما ينظرون إلا صيحة...ولا إلى أهلهم يرجعون.

تولى الله إجابتهم عن سؤالهم. إن ما وعدهم الرسول حق لا شك فيه وهم لا يترقبون إلا شيئا واحدا تستولي عليهم فتهلكهم صيحة واحدة تأتيهم فجأة عن غير توقع. تبلغ من قوتها أنها تذهلهم فلا يستطيعون أن يوصوا أهليهم بما يحذرون عليه من الأموال والأولاد. وتهلكهم فلا يعودون على ما كانوا فيه. ولا يرجعون إلى أهليهم لانقطاع الحياة الدنيا.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصور : القرن الذي ينفخ فيه لدعوة الجند .

الأجداث : جمع جدث : القبر .

ينسلون :يسرعون في مشيهم.

في شغل : يشغلهم ما هم فيه من نعيم عن تتبع أحوال وأخبار المعذبين .

فاكهون : مسرورن .

ياويلنا : التحسر على ما أصابهم.

المرقد : قبورهم التي دفنوا فيها بعد الموت

ظلال : جمع ظل .

الأرائك : جمع أريكة وهو السرير الذي يكتنف جانبيه ستائر وتغطي أعلاه، وهي الحجلة

الاتكاء : جلوس الراحة، هيئة بين الجلوس العادي، وبين الاضطجاع.

الفاكهة : الثمار اللذيذة.

ما يدعون : ما يتمنون .

امتازوا : تميزوا منفردين .

بيان المعنى الإجمالي :

تكشف الآية عن طريقة بعث الموتى من قبورهم، فتقربه للأذهان، بحال استجابة الجيش للنفير عندما ينفخ في البوق، فتراهم يسرعون إلى مواقعهم استجابة لصوته البالغ مسامعهم أينما كانوا. وفجأة يقومون من قبورهم يخرجون فزعين مسرعين لصوت النداء. ليقفوا أمام ربهم. تستملكهم الحيرة ينادون حظهم التعيس، ويندبون خسارتهم، ويسألون أنفسهم: من هزنا هذه الهزة التي أخرجتنا من الهمود الذي كنا عليه أزمانا ؟ ثم يوقظ الله نفوسهم تتدرك أن ما هم فيه، هو ما أخبرهم به المرسلون مما وعدهم الله به أنهم مبعوثون من بعد الموت. ثم تبلغ بهم الحسرة على تكذيبهم الرسل، فلا يملكون إلا أن يعلنوا: لقد صدق المرسلون فيما أخبرونا به عن الله. والخسران كل الخسران أنا لم نصدقهم. وواصلنا إنكار البعث. كل ذلك يتم في لحظة هي صيحة واحدة تحيي كل فرد منهم، وبكل سرعة وفجأة يكونون جميعا حاضرين بين يدي الله للحساب .

إنه هذا اليوم يوم عظيم، يبدو فيه العدل الإلهي على أكمل صورة، ينزع الله من النفوس كل محاولة للمراوغة، فتشعر بأن ما تلقاه هو قضاء عادل لا ظلم فيه .لأنه جزاء وفاق لما في العمل من الفساد والشر .

و يصور القرآن ما يلقاه المؤمنون الذين ملكهم الله الجنة فهم أصحابها، يغمرهم النعيم بكيفية تشغلهم عن أي أمر آخر خارج عما هم مسرورون به غاية السرور، يجمع الله بينهم وبين أزواجهم، يتفيأون ظلال الجنة التي تتكاثف معهم تكاثفا لا يبغون أن تكون أكثر دفئا ولا بردا، يمكنهم ربهم من الراحة الكاملة التي تظهر في مجالسهم هيئة ومكانا .

تحدثت الآية عن مآكلهم بأنها ترقى إلى مذاق الفاكهة اللذيذة الطعم الخفيفة الهضم الملائمة للجسم والإحساس، بل إن كل ما يخطر ببالهم يجدونه حاضرا لديهم بدون طلب، وفوق ذلك يحسون بمخاطبة ربهم لهم، خطاب تكريم وتأمين، تمتلئ حواسهم بسلام طيب مبارك من ربهم قولا فعليا نابعا من رحمته. وفي مقابل السلام للسعداء الصالحين، يتوجه الأمر التكويني للأشقياء الذي يحدث أثره بمجرد

صحوره: امتازوا عن المؤمنين فلا صلة بينكم وبينهم، فادخلوا جهنم دار قراركم بسبب إجرامكم الذي صاحبكم كامل حياتكم الدنيا.

بيان المعنى العام :

51-53 ونفخ في الصور...لدينا محضرون

بعد أن أثبتت الآية السابقة أن جميع الخلائق يفعمون تحت وقع الصيحة فيهلكون، أفادت هذه الآية أن تلك الصعقة لا يترتب عليها فناء لا يعقبه حياة، كما يزعم المشركون، ولكن تعقبها نفخة أخرى، عبر عنها بالنفخ في الصور. وهو تقريب للناس بما عهدوه في حياتهم: أن الجند يكونون منتشرين، تأخذهم الراحة فيسترخون، وما هو إلا أن ينفخ في بوق النفير حتى ينهضوا إلى سلاحهم ومراكزهم لأخذ الأمر بالجد، ويلتحقوا بمراكزهم .والصيحة التي تعقبها بداية الحياة الثانية لا تسبقها ظروف تهيء الموتى للبعث، ولكنها تحدث فجأة عبرت كلمة إذا عن هذا المفهوم المضمر في الكلام. يقومون من قبورهم لا يتخلف أحد، يسرعون في إجابتهم للداعي، ليكونوا حاضرين جميعا بين يدي الله، لا يبطئ منهم أحد ولا يتخلف.

54فاليوم لا تظلم نفس...ما كنتم تعملون.

يستحضر القرآن يوم القيامة كأنه لتحققه مشاهد عند نزول الآية. وتعلن الآية أنه يوم يتحقق فيه العدل الكامل، فإنه وإن كان عقاب الكافرين شديدا، فإن شدته لا تخرج عن حدود العدل، ولا يظلم أي فرد من المحاسبين. أي شيء مهما كان تافها. يحقق ذلك أن الجزاء على وزان العمل. والمقدر لما في الأعمال من الفساد هو العليم بحقائق الأشياء .

55 إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون

لما كانت الصيحة يتبعث إثرها كل البشر الأخيار منهم والأشرار؛ وحققت الآية السابقة جزاء الأشرار عن كل ما قاموا به من سوء، عرفت هذه الآية مصير الأخيار . فهم بصفة عامة قد أحاط بهم النعيم فامتلأت نفوسهم سرورا امتلاء ألهاهم ما فيه من غبطة عن كل أمر آخر خارج عما حباهم به ربهم من كرامة .يقرب لك ذلك أن الإنسان في حياته الدنيا قد يمر بظرف يتحقق له فيه مما تعلقت به آماله زمنا طويلا، فتجده في تلك اللحظة وقد غمرته السعادة، يذهل عن كل ما حوله، ويكاد يطير فرحا، يذهل عن محيطه وعن كل الشواغل التي كانت تتقاسم فكره. فعلى هذا الوزان يكون إحساس المنعمين بدخول الجنة مشغولين بنعيمهم الذي لم

يبق لأي صارف أن يحولهم عما هم فيه. وحققت الآية هذا النعيم بأن الإحساس به قد كاد ينقلب إلى إحساس مادي يجد طعمه مذاقا هو مذاق الفاكهة بالنسبة للأطعمة.

56.هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون.

يجمع الله بين الأزواج الذين كتبت لهم السعادة فيجدد الله بينهم ما كانوا يشعرون به في الدنيا من السكن والود، كما يمكن المكرمين بما هيأ لكل منهم من الحور العين، كما فصلته سورة الواقعة: (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون)[1] وأحوال الأخرة مغايرة لأحوال الدنيا في التركيب النفسي، والعواطف. يمكنهم ربهم من الأوضاع الملائمة نفسيا وبدنيا، يسعدهم محيط مناسب يتلاءم معهم فهم في ظلال لا يرغبون أن تكون أكثر دفئا ولا أقل حرا، جلستهم جلسة المنعمين متكئين على الأرائك.

57.لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون.

ويجمل القرآن ما ينالونه من لذائذ المطعوم والمشروب، أن ما ينالونه هو في مستوى الفاكهة لذة وخفة. وكلما خطر ببالهم وتحدثت به نفوسهم، يجدونه حاضرا بين أيديهم دون حاجة إلى سؤال.

58.سلام قولا من رب رحيم.

ويبلغ النعيم أقصى مداه، ويسمو إلى المرتبة العليا، وذلك بسماعهم سلاما فعليا، يوقنون أنه من عند ربهم، سواء أكان ذلك ناشئا عن شعور باطني، أومن إخبار الملائكة به. ويمثل ذلك حالة الرضى الكامل من ربهم عنهم. والرحمة التي غمرهم بها، هي الرحمة الصادرة من الموصوف بالرحمة الكاملة الشاملة التي لا يبقى معها عتب .

59. وامتازوا اليوم أيها المجرمون.

ويبدو تكريم السلام أعز وأبلغ بمقابلته بما يقال للكافرين: امتازوا بمكانكم فلا صلة بينكم وبين أصحاب الجنة، والأمر أمر تكويني يحدث مضمونه بمجرد التوجه به. ليبتعدوا عن الجنة وكونوا في النار في هذا اليوم نتيجة ما كنتم عليه من الإجرام والفساد.

---

[1] سورة الواقعة ، الآيات 22-24

• أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

العهد: الوصاية .

جبلا: الجموع العظيمة من الخلائق.

نختم على أفواههم : نعطل قدرتهم على الكلام .

لطمسنا على أعينهم : جعلنا جلود وجوههم متصلة .

المسخ : تحويل أجسامهم عن صورتها إلى صورة من نوع آخر.

المكانة : المكان.

بيان المعنى الإجمالي:

توبيخ وإنكار على بني آدم عدم وفائهم بوصية الله لهم وعهده المؤكد الذي ترسخ بما يشهد به مضمون رسالات الله ويشهد به العقل، أن لا يعبدوا الشيطان باتباع ما يوسوس به من ضلالات العقيدة والسلوك وذلك لأنه مصمم على عداوتكم فلا يقودكم إلا إلى ما يدمركم؛ وأن يفردوا ربهم بالعبادة بما بلغتكم إياه على لسان رسله لأنه هو الصراط الذي يبلغكم السلامة والنجاح. أفيقوا وانظروا فيما تصل إليه أسماعكم وأبصاركم ويتكرر حدوثه في الحاضر والتاريخ، أن الشيطان أضل خلقا كثيرا وأهلكهم، فما لكم تتبعون مع هذا دعاءه، أليست لكم عقول تميزون بها بين ما ينفعكم وما يضركم.؟ ثم تبدو في المشهد جهنم حاضرة تستعر، فيؤمروا أمرا تكوينيا: احترقوا فيها اليوم بسبب ما كنتم مصممين عليه من الكفر .

في هذا اليوم الذي كانوا يُكذبون به، وينطلقون في الحياة مستجيبين لشهواتهم ووساوس الشيطان، يعقد الباري ألسنتهم فلا تستطيع الكلام، ومع هذا هم قد وقفوا ليسألوا، فينطق الله أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فيبدو ما كانوا يكسبون بصلة

لا تقبل التشكيك أو الاعتذار. إن قدرتنا لا يعجزها شيء، فلو شئنا أن نسلط عليهم العذاب في الدنيا لجعلنا جلدة أعينهم مطموسة، فيحاولون المضي في الطريق الذي ألفوه فلا يبصرونه، ولا يهتدون إليه ولا مطمع لهم في عودة البصر. ولو شئنا أن نحولهم ماسخين لهم قردة وخنازير ونحو ذلك لفعلنا فيلبثون في مكانهم لا يتحولون عنه إذ فقدوا كل ما شحنوا به عقولهم وذاكرتهم.

بيان المعنى العام:

60.ألم أعهد إليكم...عدو مبين

خطاب توجه إلى البشر الذين عمهم المحشر في انتظار مصيرهم. وهم ما عدا الفائزين الذين سبقوا إلى الكرامة بجنة الخلد الذين فصلت الآيات السابقة النعيم الذي هم فيه .يخاطبهم في صيغة سؤال يقررهم ليوبخهم، ويتأكد التوبيخ والإنكار بنسبتهم إلى آدم الذي جرب اتباع نصيحة الشيطان فأخرج من الجنة .

يوبخهم لأنه رزقهم عقولا تميز بين الخير والشر، وتدرك عاقبة كل منهما، وبعث فيهم رسلا يبصرونهم بالحق، فتجمع من الطريقين ما تركز منه وصية الله إليهم أن يبتعدوا عن عبادة الشيطان. وتشمل عبادته عبادة ما يأمر به من الخضوع للأصنام، وهو الشرك، وتشمل عبادته ما يوسوس به من الشر، وما يزينه من الشهوات الصارفة عن الخير والاستقامة السلوكية. ويؤكد التوبيخ بأنهم اتبعوا ما دعاهم إليه مع أن عداوته واضحة، لا لبس فيها ولا خفاء لمن يعقل، لبني آدم، أعلنها من اليوم الذي أطرد فيه من الجنة .

61. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم

إن عهد الله للبشر ينحل إلى شعبتين: شعبة نهي عن عبادة الشيطان واتباع المهالك التي يدعو إليها ، وشعبة إفراد الله بالعبادة والتزام الطريق الواضح المتميز الذي بينه الرسل، الطريق الذي يبلغ بكم السلامة والنجاح . هذا صراط مستقيم .

62.ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون

تتابع النهي والأمر والتعليل لإنقاذ البشر من تضليل الشيطان؛ ثم أيقظهم إلى التدبر في سفر الحاضر والتاريخ الذي تكرر فيه وما يزال يتكرر على أبصارهم وأسماعهم، عاقبة جموع كثيرة استجابت لإغوائه فضلت وهلكت وأنكر عليهم تعطيل عقولهم عن إدراك ما هو حاضر أمامهم، فكأنهم لا عقل لهم

63←64. هذه جهنم ...بما كنتم تكفرون.

بعد التقريع والتوبيخ، تبدو جهنم ماثلة أمام أعينهم، يشير إليها القرآن: هذه جهنم-التي أعلمكم المرسلون بها، وأنذروكم عذابها. يتبع استحضارها الأمر بأن يصلوا نارها. والاصطلاء أصله أن يكون طلبا للدفء في الشتاء بالاقتراب من نار الموقد في البيت أو في البرية، فأمروا بالاصطلاء بها تهكما بهم وإذلالا، وهو الأمر التكويني الذي يحصل معه دخولهم النار والعذاب بنارها بسبب ما كانوا يقومون به من شر وفساد.

65. اليوم نختم ...بما كانوا يكسبون.

مشهد عجيب من مشاهد يوم القيامة .في هذا اليوم تخرس ألسنتهم ويختم على أفواههم: يطبع عليها فلا تستطيع أن تنطق بكلمة ،ويأخذ دور اللسان في الإفصاح الأيدي التي كانوا بها يبطشون ويعتدون، ويشيرون فيستهزئون، ويتعاهدون على مقاومة دين الله، وتفصح الأرجل عن سعيها الآثم، ولا تناقض بين هذه الآية وما ورد في سورة النور: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون}[1] ذلك أن هذه الآية تكشف وضع المشركين، وآية سورة النور تفصح عن وضع المنافقين الذين كانت ألسنتهم تناقض ما يعتقدون إمعانا في التخفي .

66←67.ولو نشاء لطمسنا...مضيا ولا يرجعون.

بينت الآية السابقة قدرة الله على إلجاء المشركين يوم القيامة للاعتراف بالحق، والكشف عما صنعوه من الخبث والفساد. وتلفت هذه الآية ما يمكن أن تتساءل عنه النفس، لماذا لم يعجل الله ذلك في الدنيا حتى يستريح العالم من الفساد ويخسأ الشيطان ؟ فنبهت هذه الآية أن قدرة الله متصلة بحكمته، فإنه قد بنى عالم الدنيا على تمكين الإنسان من الاختيار، وأنه مسؤول عما يختار. وأن المسؤولية تظهر آثارها العادلة يوم القيامة . يؤكد ذلك أنه لو تعلقت إرادته سبحانه بأن يعاجل العقوبة على كل منكر يقوم به الإنسان لفعل. فيطمس على أبصارهم فلا نرى شيئا، تذهب الحدقة والأهداب وتكون جلدة متصلة على مكان العين، فيفزعون قاصدين الطريق الموصل إلى المأمن، ولكن اهتداءهم أبعد ما يكون وقد ذهبت الأبصار. ولو تعلقت مشيئته سبحانه بأن يحول دواتهم إلى نوع آخر كالقردة والخنازير والضباع لفعل .فتذهب قدراتهم الفكرية الهادية إلى المضي في سبيلهم أو الرجوع إلى المكان الذي أتوا منه.

---

[1] سورة النور، آية 24

و يمكن أن تفهم الآية على أنه كشف عن الأوضاع الممكنة يوم القيامة التي لا يعجز الباري تنفيذها. فلو شاء أن يلبسهم الحيرة فيفقد هم القدرة على النظر فيستبقون الصراط على جهنم فلا يهتدون وتأخذهم كلاليبها. ولو شاء الله أن يعاجلهم بمسخهم محولا لخلقتهم عن الصورة الإنسانية إلى صورة أخرى كجعلهم قردة أو خنازير فتكون حيرتهم أشد ما يكون للفعل . و على التخريج الأول مضى معظم المفسرين .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

بيان معاني الألفاظ:

نعمره : نطيل عمره .

ننكسه في الخلق : نحول خلقه من القوة إلى الوهن والضعف .

وما علمناه الشعر : ما أوحينا إليه شعرا علمناه إياه.

ويحق القول : يتحقق الوعيد الذي أنذر به الكافرون .

الأنعام : الغنم والمعز، والبقر والإبل .

ذللناها: طوعناها وسخرناها لإرادة الإنسان..

بيان المعنى الإجمالي :

يقرب لكم التصرف الإلهي في أحوال خلق الإنسان، الذي ذكر منه في الآيات السابقة أنه يطمس على الأعين فلا تبصر، وتتحير تبعا لذلك فلا تهتدي لطريق، وإمكان المسخ، بما تشاهدونه في الحياة البشرية، أن من يبقي الله عليه حياته إلى زمن التعمير، ثمانية عقود فأكثر، تحول حاله من قوة إلى ضعف في البدن حتى يصل إلى العجز وفي القوى العقلية حتى يصل إلى الخرف .يؤكد ذلك أن الله إذا شاء شيئا فعله.

إن ما أبانت عنه الآية من مصير الكافرين يوم القيامة ليس من الصور الشعرية، ولكنها الحقيقة، فالنبي ﷺ علمه الله القرآن ولم يعلمه الشعر. وما يتأتى له أن يسير مع الخيال المجنح. فالقرآن منحصر في كونه ذكرا يؤثر في كل من أوتي عقلا، يبصره القرآن بمكانته في الكون ومصيره. ويحق الوعيد على الذين واصلوا الكفر.

ما بال المشركين لم يتأملوا فيما رزقناهم، في الأنعام التي خلقناها بقدرتنا على غير مثال ولا يتولد مسببات عن أسباب، وملكناها لهم بواسطة ما أودعناه في خلقتها من التناسل والتكاثر. طوعنا الإبل والبقر والغنم والمعز لخدمة الإنسان وتحقيق أغراضه منها .يركبون ظهورها فتقطع بهم أبعاد الصحراء، تحملهم وتحمل أثقالهم، ويأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها، ومنافع كثيرة عرفها الإنسان وأخرى سيكتشفها . ما لهم لا يشكرون نعمة المنعم ويعترفون بفضله، مالهم يشركون به أصناما لا تمدهم بأي نعمة.

إنه من عجيب أمر المشركين أنهم صنعوا لأنفسهم آلهة، علقوا آمالهم بها راجين أن ينصروهم في الأزمات ومنها يوم القيامة لو حصل ما ينذرهم به محمد. اتخذوهم آلهة مع أنهم عجزة لا يستطيعون نصرهم، بل الواقع أن العابدين هم الذين يتولون نصرة المعبودين. فيحمونهم بحراستهم والقيام على جميع شؤونهم. لا تحزن يا محمد من وقاحتهم وما يصدر عنهم من سوء القول فإننا سوف نحاسبهم على ما كانوا يسرون في قلوبهم المريضة من عدائك، وتدبير النيل منك ومن صحابتك، وما كانوا يصرحون به، لا يغيب عنا من سيئاتهم شيء سينالون جزاءهم.

بيان المعنى العام :

68- ومن نعمره ننكسه في الخلق...أفلا تعقلون

هذه قضية ربط فيها القرآن بين التعمير بطول أمد حياة الإنسان فيتجاوز العقود الثمانية، وبين تنفيذ القدر الإلهي فيه، فيتحول من قوة في البدن إلى وهن، ومن توقد ذهني وذاكرة لا يكاد يفلت شيء مما تسجله إلى ذهول وغلبة النسيان، وضياع كثير من المحفوظ، فيعيده شيئا فشيئا إلى حالة صباه الباكر. وفي ذلك ما يؤكد ما جاء في الآيات السابقة من قدرة الله على التصرف بطمس الأعين والمسخ. فإن حالة التحول المغلوب عليها عند التعمير، تقرب ما حققته الآيات من التصرف الإلهي المذكور. عجبا لكم كيف لا تعملون عقولكم فتنكرون خضوع أحوال الكائنات كلها، لقدرة الله .

هذا هو الفهم الأقرب في نظري، وهو الذي جرى عليه معظم المفسرين. وحمل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، على أن المعنى أنه إذا امتدت بهم الحياة فسيدركون انتصار الإسلام، وانقلاب حالتهم من الاعتزاز بالكفر بين الناس إلى ذل وضعف .

69. وما علمناه الشعر...وقرآن مبين.

هذه الآية تقتضي وقوفا على صلتها بما قبلها، فجعلها الشيخ ابن عاشور معطوفة على قوله تعالى: ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[1] - والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بأكثر من 20 آية يبعد هذا الاحتمال . وخرجها على إمكان أن تكون مستأنفة، وهو لا يكشف عن ارتباط الآية بما قبلها . وسأبين بحول الله وجه الارتباط لاحقا .

قوله تعالى : وما علمناه الشعر، هو كاشف عن قوله تعالى : وعلمك ما لم تكن تعلم.[2] إن ما أودع في قلب الرسول ﷺ وعقله هو من تعليم الله إياه، هذا التعليم الذي اختص به على أنه تعليم لا يشاركه فيه أي إنسان. لتبيينه أتم بيان، نفى عنه ما يشتبه فيه أنه منه، ثم أثبت له خصائصه الذاتية .نفى عنه أن يكون شعرا. ذلك أن الشعراء في عصر النبوة كانوا المقدمين في مراتب التعبير ، تحفظ أقوالهم، وتعتز بهم قبائلهم، ويسير كلامهم في المجتمع سيرا يملك الإعجاب ويحرص على الرواية. فنفى الله عن رسوله أن يكون ما علمه من القرآن شعرا. وسجل القرآن اختلاط الأمر على المشركين، لما بهرهم أسلوبه وأعجزهم بيانه، فقالوا إنه شاعر. بل قالوا أضغاث أحلام بل هو شاعر. سورة الأنبياء اية 5 -ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون[3] -أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون[4]

-وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون[5]- ونفي الشعر عن القرآن حرك الطاعنين في القرآن فقالوا إن القرآن اشتمل على الشعر واقتضبوا من بعض الآيات ما يكون شطر بيت أو بيتا كاملا . وقد تولى أئمة من علماء الدين كالباقلاني والزمخشري والسكاكي وابن العربي تفنيد هذه الدعوى بناء على أن الوزن غير مقصود فيما

---

[1] سورة يس ، الاية 48

[2] سورة النساء اية 113

[3] سورة الصافات اية 36

[4] سورة الطور اية 30

[5] سورة الحاقة اية 41

انتظموه من الأيات. وحاول الشيخ محمد الطاهر ان يرد هذا المطعن بأدلة بعضها لا يذعن له الخصم الطاعن .

وفي نظري فإن الذي جلب اعتراض المشركين وإشكال المحققين من علماء الإسلام، هو جريهم على أن المراد من نفي الشعر عن القرآن ظاهرة الوزن. ولا يقوم الشعر بالوزن وحده، وما بلغ الشعراء من قوة التأثير بأشعارهم ورودها موزونة. فعلماء العربية والأصول والحديث وغيرها انشأوا مطولات موزونة بلغ بعضها الألف بيت وأكثر، وما عدت من الشعر في شيء . وهذا يظهر أن قوة التأثير الشعري في كلام العرب ما تأتي لهم من الوزن على بحور الشعر، وإنما تأتي لهم من الصور البديعة المتخيلة التي تستولي على فكر السامع ومشاعره، والتي فيها يتكاثر الشعراء ويتفاوتون في التجويد. انظر إلى قول المتنبي في بدر بن عمار :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه *** لمن ادخرت الصارم المسلولا

أراد المتنبي أن يشيد بشجاعة بدر بن عمار فصور لولا واقفا رافعا صوته يهزم كل ما في الأسد من شراسة وتوحش حتى مرغه في التراب خاضعا ذليلا. ثم يصيف لهذه الصورة التي قطعها في كلمات متوازنة "أمعفر" الليث " الهزبر بصوته" فيوقظك بسؤاله ليعمق إحساسك بتلك الصورة البديعة، فيسأل لمن ادخرت الصارم المسلول. يجعلك تتصور أنه يخضع كل قوي بسوطه ولا حاجة له بالسيف المسلول من غمده، وهي صورة شعرية جميلة ليس فيها شيء من الحقيقة .

ويعد شوقي مبيننا بالإصلاح في الأزهر فيفتتح قصيدته الرائعة بقوله:

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا *** وانثر على سمع الزمان الجوهرا.

وهي صورة بديعة خيالية أن يجعل للدنيا فما فيصيح فيه بالتهنئة التي يتردد صداها في كل ركن من أركان الأرض وفي كل مدينة وقرية وبيت، فيحس بنغمات التهنئة كل سامع ويرددها لامعة جميلة كحبات الجوهر تتناثرت في سمع الزمان. وهي أيضا صورة خيالية ليس فيها شيء من الحقيقة .

ولنعد إلى الاية وموقعها من الايات السابقة. تذكر القرآن أن الأفواه تخرس، والأيدي تنطق، والأرجل تتحدث، لتعلن حقيقة ما فعله أصحابها في الدنيا. وأن العيون تطمس، أصحابها في حيرة لا يهتدون إلى السبيل الذي ألفوه، وأن المتعالين المستكبرين يتحولون إلى قردة أو ضباع .هذه صورة ليست صورة شعرية خيالية بل هي الحقيقة كل الحقيقة التي تتم يوم القيامة. أو يمكن أن تحدث في الوجود إذا أراد الله ذلك. فالرسول ﷺ علمه ربه قرآنا ليس شعرا يمتعك بخيالاته، ولكن هو

ذكر يدخل شعاب العقول فيهديها، وقوته تلازم تاليه فكلما غم الأمر عاد القرآن يذكر ويوقظ، وهو مع ذلك يقرأ فيبين، ويرفع عنك الحيرة والغموض ، ويكشف لك موقعك في الكون ومآلك الذي أنت صائر إليه. في نظم بلغ حد الإعجاز، تقصر العقول عن بلوغ ما وسعه نظمه، فهو جديد مع كل عصر، يجيب البشر عن تساؤلاتهم مهما سموا في رتب الحضارة .

هو يهدف إلى إيقاظ من أوتي عقلا مستقيما غير منحرف ليتقي المهالك، وعبر عنه بالحي، تعريضا بالكافرين بأنهم لما أعرضوا عن القرآن والانتفاع بآياته، هم كالموتى الذين لا ينتفعون بما هو حولهم من موجبات الانتفاع . فيكون معنى الآية: لتنذر من كان حيا فيزداد به حياة بامتثال ما جاء به فيفوز، ومن كان ميتا فلا ينتفع بإنذار، فيحق عليه الوعيد .

[71 ـ ألم يروا أنا خلقنا...لها مالكون]

ينذر القرآن من كان عقله يتحرك وينظر في كتاب الكون ليقف على حسن التدبير والتيسير .فبعد أن رفع الحجاب عما ينتظر المشركين من عقاب وعذاب، أيقظ البشر للتأمل في الأنعام التي منها ثرواتهم، وتدخل في حياتهم غذاء ولباسا وحتى سكنا .

الأنعام من بقر وإبل وغنم ومعز ، أنشأتها فأحكمت خلقها لكم، خلقتها على غير مثال سابق بقدرتي . يقر الناظر بأن خلقها لم يكن بواسطة وإنما هي القدرة الإلهية تعلقت بإيجادها فوجدت . فهو إيجاد من صنع الله بدون أسباب، وهو معنى قوله بيدي، إذ جرى الأسلوب اللغوي على أن نسبة الفعل لليدين يقصد منه أن المنسوب له الفعل لم يستعن على إنجاز فعله بغيره . والله منزه عن أن تكون له يد يحركها وينجز بها . ومن فضل الله على الناس أن ملكهم تلك الأنعام .وركب في خلقتها التأنس وعدم التوحش والفرار من الإنسان .

[72 ـ 73 .وذللناها لهم...أفلا يشكرون]

طبعها الله على الانقياد للإنسان، وطوعها لتنفيذ ما يريده منها. فترى الولد الصغير يقود البعير الضخم ويتحكم في مسيره، يبرك لأنفسه ويقوم لزجره. ، أخضعها للركوب وحمل الأمتعة، والأثقال، يسيرها راكبها إلى حيث يقصد فلا تمتنع عليه . ومن لحومها يأكلون. ومن ألبانها يشربون، ثم عمم بعد التخصيص ليشمل فضله ما ينتفع به البشر من الأنعام بما ينسجونه من صوفها ووبرها وشعرها كساء أو بيوتا خفيفة يأوون إليها في أسفارهم. وأسمدة تخصب الأرض وتضاعف الإنتاج، وغير ذلك مما يكشفه العلم كالاعتماد عليها لتكثير الأمصال الواقية.

هذه النعم المتنوعة والكثيرة المذكور منها والتي سيكتشفها العلم، تدعو المتأمل فيها إلى الاعتراف بأن ذلك كله من خلق الله، وليس لهم فيها سبب لا في إيجادها ولا في تطويعها، مما يقتضي أن يقابلها المنتفعون بها بشكر منعمها .ولكن العجب من المشركين أن الشرك طمس فكرهم، واقتلع أخلاقهم، فلم يشكروا المنعم، ومضوا ينتفعون غافلين عن مسديها يشركون به من لا يمدهم بشيء منها .

74-75 واتخذوا من دون ....جند محضرون

تصريح بما تضمنه الإنكار عليهم في الآية السابقة من عدم الشكر. فعدم الشكر أفضى بهم إلى اتخاذ آلهة، صنعوها من خيالهم وجعلوها أربابا، راجين أن تكون لهم نصيرا يوم القيامة، على فرض وقوعه. ما أشد بلاهتهم يأملون النصر ممن مظاهر عجزه عن الدفاع عن نفسه شاهدة معلنة، إنه من البديهي أنهم لا يستطيعون نصرهم بل إن العكس هو الظاهر للعيان فهم قد جندوا أنفسهم لنصر آلهتهم يدافعون عن تأهلها للعبادة، وهي لا تنطق، ورفعوا عنها ما يتراكم عليها من الغبار، ووضعوا عليها حراسا تمنع من يريد الإضرار بها .

16 . فلا يحزنك قولهم .وما يعلنون.

تنوعت مقالات المشركين الوقحة: آذوا رسول الله ﷺ، وأصحابه الأكرمين بما دربت عليه ألسنتهم من الكذب والفحش والسوء من القول، وتجرؤوا على الله فكفروا به وأشركوا به آلهة قسموها بمقدار ما سخروا من رب العباد. وقد طبع الله محمدا ﷺ على كريم الشيم ونبيل الأخلاق، ومرهف الإحساس .كان يتأذى مما يصدر عنهم، ويشعر بالألم الشديد لكفرهم ووقاحتهم. وكان الله به رحيما، لتخيره لختم رسالته للعالمين، فكان سبحانه يواصل تأييده له ويشد من عزمه، فوجه له هذا الطلب: أن لا يحزن ولا يغتم، وكيف يطلب منه ذلك وهو واقع لا محالة، فيكون المعنى لا تهتم بما يصدر منهم فإني مؤيدك تأييدا لا يستطيعون معه أن يوهنوا أمرك، فامض في سبيلك ولا تلتفت لما يقولون، فإني لهم بالمرصاد أعلم ما يسرون وما يدبرون من سوء، وما يعلنون .أي إني ساعاقبهم على قبيح أقوالهم وفعالهم .

والوقف على قوله: فلا يحزنك قولهم، حسن وليس بواجب.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ

توقدون ﴿٨٠﴾ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴿٨١﴾ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿٨٢﴾ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ

خصيم : شديد الخصومة، لا يذعن للحق .
رميم: بلي من تقادم الزمن عليه
الملكوت : مبالغة في الملك .

بيان المعنى الإجمالي

يعمل رؤوس الكفر على التأثير على الدهماء ليروجوا إنكارهم للبعث فيقنعوا ضعاف العقول، فجاء أحدهم إلى النبي ﷺ وبيده عظم مضى عليه زمن طويل حتى ذهبت صلابته، ففتته وذراه، ثم قال لرسول الله ﷺ : من يحيي هذه العظام البالية؟ تولى القرآن إجابتهم بما يقطع شغبهم ويكشف عن غبائهم: يحييها الذي أنشأها أول مرة فإعادتها أهون من ابتداء خلقها لو كنتم تعقلون. ولا يضيع من خصائص أصحابها شيء إذ أن الخلق قد تم تبعا للعلم السابق لا بالمصادفة. بين أيديكم في مشاهد الكون ما يرفع عنكم حجاب الغفلة، فأنتم تشاهدون أن إذا قدح عود أخضر من شجر العفار بعود أخضر من شجر المرخ انقدحت النار فالتحول من الرطوبة التي يسيل منها الماء إلى الجفاف الأكمل النار، في لحظة واحدة يدلكم على أن ترتيب الوجود يتم بالإرادة المطلقة التي لا يوقفها شيء. تنبهوا إلى أن الذي خلق السماوات والأرض وما تحويه من العناصر والكائنات، ألا يكون قادرا على خلق أمثالكم لتبعثوا وتحاسبوا. بلى بكل تأكيد هو القادر الذي لا يفوته أي جزئية من خصائصكم فيعيدكم كما كنتم، إنه هو المتفرد بخلق كل موجود خلقا مستجيبا للعلم الشامل .

شأنه المتفرد به في الخلق، أنه يأذن امرا أمرا تكوينيا لما تعلقت إرادته بإيجاده فيوجد بدون مقدمات ولا مادة ولا ترتيب مسبق، سبحانه تنزه عن كل نقص وعن كل تشبيه وتصور. هو الملك المالك لكل شيء ملكا تاما إيجادا وتطويرا وإعداما، وإعادة إذا أراد . فسترجعون إلى حكمه وقضائه يوم البعث.

بيان المعنى العام

77 أولم ير الإنسان أنا...هو خصيم مبين .

تسول الأيتان جرأة بعض المشركين، ولجاجهم، وعملهم على التأثير في الدهماء .فقد روي أنه أقبل أبي بن خلف، أو العاصي بن وائل، أو أبو جهل، وكل واحد منهم رأس من رؤوس الشرك، على النبي ﷺ، أقبل وبيده عظم قد طال أمد موت صاحبه حتى بلي وذهبت صلابته، وتحدى الرسول ﷺ، ففتته ثم قال: من يحيي العظام بعد تناثرها أجزاء مفرقة في الأرض ؟ افتتحت الآية بظاهرة تنفي موجبات التشكيك، وتقتلع أسباب الحيرة في البعث يوم القيامة ألم يعلم كل إنسان أنه خلق من نطفة من ماء مهين، ثم تطور إلى أن بلغ المستوى الذي يكون فيه خصيما شديد الشكيمة في الخصام، يلتف على الحق فيعمل على إسقاطه ليحقق لنفسه الغلبة .إن المسافة بين النطفة وبين الإنسان الشديد العنيد المجادل، مسافة كبيرة جدا، فإذا كانت تلكم الأطوار قد مر منها كل كائن، فإحياء العظام بعد بلاها أقرب في التصور .

78. وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم

ثم تصوره هذه الآية في صورة المتناقض قصير النظر، إذ اتخذ من صورة العظم البالي فأظهر به استحالة البعث، وغفل عن المراحل التي مر بها من يوم علق برحم أمه إلى أن بلغ المستوى الذي هو عليه، فقال : من يقدر على إحياء العظام البالية؟

79 قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم.

قل له يا محمد قولا ينقض تشبيهه، ويظهر غفلته وغباءه، يحيي العظام الذي خلقها أول مرة لا على مثال .وبلغ خلقه من الدقة أرقى مستوى؛ فكان مظهر العلم العليم الذي لا يفوته أي جزئية حتى كان الخلق على ذلكم المستوى من الحكمة الجامع لقوانين ثابتة، عرف البشر بعضها وما تزال أسرار أخرى يجهدون لكشفها.

80 الذي جعل لكم...فإذا أنتم منه توقدون.

هو الله العليم القادر الذي تبدو مظاهر قدرته في كل شيء .فيودع في الكائن من القوانين ما ينتقل به من الضد إلى الضد، فمما هو معروف لهم: أنهم إذا أخذوا عودا أخضر من شجر العفار، وعودا أخضر من شجر المرخ فحكوا أحدهما بالآخر، وهما ما يزالان أخضرين، انقدحت النار؛ فيعرضون لمسقط الزند ما هو قابل للالتهاب بسرعة من تبن أو كتان مبلل بالزيت فيحصلون على النار للدفء أو الطبخ . فالعود من الشجر الأخضر يمثل الرطوبة، والنار تمثل غاية الجفاف،

فخروج هذا من ذلك يقوم شاهدا على القدرة التي لا يعجزها شيء، ويقرب تحول العظام النخرة إلى الحياة على الحالة التي كانت عليها (البعث) يوم القيامة .

81.أوليس الذي خلق...وهو الخلاق العليم.

تفتح الآية باستفهام تقريري يلجئ المنكرين إلى الإذعان بعد إيغالهم وعرض صورة واضحة تكون أصلا لكشف حقيقة ذهلوا عنها . فالسؤال عن مشاهد أمام أبصارهم، وهو خلق السماوات والأرض، إنهم لا يستطيعون أن ينسبوا خلقها لآلهتهم ولا إلى أي قوة أخرى، ويلجأون تبعا لذلك للإقرار بأن خالقهما هو الله العزيز الحكيم . وخلق هذه الكائنات العظيمة بما تحويه من مختلف القوى والأنواع يثبت أنه قادر على أن يخلق مثل البشر الذين ماتوا : على أن يخلق مثلهم " ولما كان السؤال واردا على صيغة النفي، كان الجواب بكلمة " بلى" التي تدل على نفي النفي. أي إنه بكل تأكيد قادر على ذلك. وأفصحت خاتمة الآية على توجيه هذه القدرة الإلهية، بأنه سبحانه المتفرد بالخلق الكثير المتتابع، الذي ينشئ خلقه لا بصدفة إليه، ولكن تبعا للعلم الدقيق بالجزئيات والعلاقات.

82. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

كل الصور التي تعلق بالذهن في الكيفية التي يتم عليها الخلق، هي صور موهومة مخالفة لما يتم في واقع الأمر. وليس هناك إلا صورة واحدة صرح بها القرآن في هذه الآية: شأنه سبحانه إذا أراد أن يخلق أي كائن ويبرزه للوجود: أن يأذن بالأمر التكويني، فإذا المخلوق يخرج للوجود على النحو الذي قدره، ضبطه بجميع خصائصه. فهو سبحانه لا يباشر الصنع بآلة ولا بواسطة، ولا من مادة، كما هو الشأن في البشر إذا ما أرادوا صنع أي شيء تتتابع المراحل من تفكير، ومادة، ومعالجة، وتجربة تقوم وتحسن شيئا فشيئا لتبلغ المستوى المقبول.

83.فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

بما بسطه القرآن على أسماعكم من مظاهر التصرف الحكيم، والخلق البديع، والقدرة الكاملة، والعلم الشامل الصحيح والدقيق، ينشأ الإفصاح والاعتراف بأنه منزه عن كل نقص. ثابت له كل كمال ثبوتا ذاتيا لا ينفك. وكل كائن دق أو عظم من الذرة إلى الكواكب والسماوات والأرض، الكل مملوك له ملكا تاما، أوجده بقدرته وإرادته، وهو الذي ينهي وجوده متى أراد، وهو الذي يعيده حسبما قدر في الأزل، فقد أدركتم أيها البشر أنكم ستعودون إلى الوقوف بين يديه ليقضي فيكم قضاءه والله أعلم.

سورة الصافات

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب السنة. وتسميتها بـ " الصافات " مأخوذ من أول اية. وهي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف السابعة والثلاثون، وحسب النزول السادسة والخمسون. نزلت تالية لسورة الأنعام وقبل سورة لقمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)

بيان معاني الألفاظ:

الصافات : الجماعات المصطفة في نظام .

الزجر : حث المخاطب حتى لا يتباطأ في إنجاز ما هو مطالب به.

التاليات :المرددة قراءة .

الدنيا : القريبة من الأرض

المارد : الخارج عن الطاعة.

الملأ: الجماعة ذات الشأن والقدر. الملائكة .

الأعلى :علو في شرف المقام.

القذف : الرجم.

جانب : جهة

دحورا: طردا يصحبه مذلة.

الواصب : الدائم .

اتبعه : تبعه.

شهاب : النيزك.

ثاقب . مخرب لبنية الشيطان المحاول استراق السمع

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بملائكة قدسه، فذكرها بأوصاف هي من كمالاتها منوها بها. أقسم وهي على وضع هي فيه مهيأة لقبول الأوامر الإلهية لتنفيذها كحال الجيوش عندما تصطف لتقبل الأوامر من قادتها. وأقسم بها وهي تنفذ ما أراد تنفيذه فتحث السحب مثلا لتسوقها إلى المواقع التي قدر فيها انزال مائها. أقسم بها وهي مستغرقة في التسبيح والتحميد والتمجيد والذكر. أكد بهذه الأقسام الثلاثة أن إلهكم أيها الناس هو إله واحد لا شريك له. وكما أكد الوحدة الإلهية بالقسم فكذلك أكدها بلفت الأنظار إلى الكون أرضه وسماواته. والتحولات التي تجري فيه كل يوم من انتقال مكان شروق الشمس وغروبها. فإذا هي مشارق منتظمة متتابعة، يرعاها ربها بحسن تقديره.

تأملوا في السماء الدنيا القريبة منكم، تجدون أننا بكمال قدرتنا وتقديرنا وإتقاننا، قد زينا وجهها بالكواكب اللامعة المنتظمة تملأ عين الناظر من جمالها. وقدرنا فيها وظيفة أخرى تقوم بها، هي حراستها من الشياطين العصاة المتمردين تمرد أبيهم إبليس. هؤلاء الشياطين الذين منعناهم من الاستماع إلى الملأ الأعلى: الملائكة، الذين كل ما يجري بينهم لا زيف فيه ولا باطل، يحاول العصاة من الشياطين المتمردون الاقتراب من الملائكة، رجاء أن يحصل لهم شيء من الحق الذي سيحدث ليموهوا بذلك على أتباعهم أنهم صادقون في كل ما يخبرونهم به ويدعونهم إليه اعتمادا على ضم صدق ما يجري في الملأ الأعلى إلى ضلالاتهم. ولكن محاولتهم فاشلة، ذلك أن الله أوكل كواكب السماء الدنيا بحفظها من استراق السمع ويُقذفون من جميع الجهات ويطردون محتقرين مذمومين. وقد أعددنا للشياطين عذابا دائما. بمجرد ما يحاول أحدهم أن يخطف بسرعة شيئا مما يجري في الملأ الأعلى يتبعه في سرعة أشد من سرعته، شهاب من الشهب فيفسد تركيبه، ولا يظفر بالاطلاع على أي حقيقة

بيان المعنى العام :

1 ـ 4 . والصافات صفا...إن إلهكم لواحد.

تضمن هذا المقطع قسما 1 2 3 ومقسما عليه 4

جاء القسم في صيغة أوصاف لموصوف مقدر .

1) الصافات- وصف يمكن أن يكون وصفا للملائكة، وهي على وضع من الانتظام يشبه وضع البشر عندما يكونون مستعدين لقبول الأوامر في مواقع الجد ،ويمكن أن يكون القسم بالجيوش الإسلامية عندما تكون مصطفة على تمام الاستعداد في مواقع الجهاد، أو في مواطن العبادة الجماعية. ولا مانع من قصد النوعين، فكلاهما بمرتبة رفيعة عند الله، أهلتهم للتنويه من رب العزة فعبر عن تميزهم بأن أقسم بهم

2) الزاجرات -يمكن أن يفهم القسم بالملائكة عندما يتولون إنجاز ما أراد الله تكوينه في عالم الشهادة، كزجر السحب لتسير إلى الأرض التي قدر أن يسقيها، أو حث العناصر التي بتجمعها ينشئ الباري ما تعلقت إرادته بإنشائه، ويمكن حملها على آيات القرآن التي تزجر الناس عن اتباع الهوى ووساوس الشيطان.

3) التاليات ذكرا- قسم بمن يقرأ، فهو قسم بالملائكة عندما يتلون ما أنزل عليهم من عند الله لتبليغه لرسله، وعندما يرددون ما علّمهم ربهم من التسبيح والتقديس والتمجيد وأنواع الذكر، الذين هم منغمسون فيه بطبعهم. كما يمكن حمل "التاليات" على الجماعات التي تجتمع في مجالس الذكر.

وليس في القسم بها تعظيم، ولكن التنويه بها في حالات الكمال التي وصفت بها، مما يدعو المتأملين في القرآن إلى النسج على منوالها للفوز بالرضا من الله.

4) إن إلهكم لواحد- هذا هو المقسم عليه . قضية أن الإله لا يمكن أن يكون إلا واحدا. وأن اعتقاد الشركة تناقض حقيقة الألوهية، ويتبعها خراب التصور الفكري، وفساد العقيدة... ،واضطراب الأحوال الفردية والاجتماعية. سواء أكان الإشراك في أحط مفاهيمه، أعني تأليه الأصنام، كما كان عليه أهل الجاهلية، أم كان اعتقاد قدرة المخلوق على النفع أو الضر فينقاد الإنسان خاضعا واهن العزيمة أو معلقا رجاءه بغير الله طامعا ذليلا.

(رب السماوات...ورب المشارق

تعريف بالإله الواحد، واستدلال عليه. هو المنشئ للسماوات والأرض، ولا يمكن لعاقل أن يدعي شيئا من الأصنام مشاركا في هذا الخلق العظيم. فدل إيجادها على تفرده بالألوهية. ومع خلق الكون المشاهد فإن تصرفه في هذا الكون بتغيير أحواله كل يوم دون أن يحدث اختلال أو فساد دليل آخر متجدد على تفرد سبحانه بالألوهية. فتحول مكان طلوع الشمس، ومكان غروبها كل يوم دليل على إحكام الصنع والتسيير، والوحدانية أيضا. إذ لو تعددت الآلهة لاختل النظام. فهو رب المشارق، بالنظر لاختلاف مطالع الشمس وأماكن غروبها، ولذلك جمع لفظ المشارق والمغارب.

6-إنا زينا السماء بزينة الكواكب.

إن هذا البناء البديع للسماء يدعو إلى التأمل فيما أودع فيه من الحكمة والإتقان في الصنع. فالجاذبية بين الكواكب تكوّن نظاما يثبّت كل كوكب في مداره، ويمكنه في الآن نفسه من الحركة المنتظمة. والسماء على سعتها راعى الخلاق العليم فيها أن تملأ نفس الناظرين فيها من جمالها، وتناسب ما انبث فيها من الكواكب اللامعة .لقد حجب التلوث ذلك المنظر العجيب للسماء عن الأبصار. وإذا قدر لك أن تكون بعيدا عن تلوث المدن، والسماء صاحية، والجو ساكن هادئ، فمتع بصرك في قبه السماء لتستمتع بآثار قدرة الخلاق العليم، التي جمعت بين العظمة التي لا يدرك حدودها إلا خالقها، وبين الجمال والعناية بالزينة على مستوى العناية بالإتقان، ودقة التقدير

7-إلى وحفظا من كل ..ولهم عذاب واصب.

وظيفة أخرى قدرها للكواكب المنتظمة في السماء الدنيا القريبة، وظيفة حراسة السماء من تلصص الشياطين، الذين طبعوا على التمرد والخبث، هم ما يزالون يحاولون أن يستمعوا لما يجري في الملأ الأعلى ليروجوه، ويكون سندا في الاطمئنان لهم، والثقة بما يخبرون به من الأباطيل .فيتم مكرهم في خداع البشر، إنها محاولات متتابعة، ينطلقون فيها عن اقتناع من أن طبيعة تركيبهم من اختراق الأبعاد والوصول إلى السماء الدنيا، من ناحية، ومن ناحية أخرى ما نمى فيهم من أبيهم إبليس من قدرة على فهم ما يجري بين الملائكة مما يتلقونه عن رب العزة من الحق التام، هم مقتنعون بأنهم يستطيعون بالعاملين المذكورين من تسجيل شيء مما يجري في الملأ الأعلى .ولكنهم بمجرد ما يقتربون من المنطقة الحرام يلاحقهم شهاب من شهب السماء فيحرقهم، أو يفسد تركيبهم فيدفعهم دفعا بكل احتقار .ويحقق الله صون ما حجبه عن الشياطين، فهي محاولات فاشلة، لا يسمعون أي شيء مما يجري في الملأ الأعلى. ولكنهم لشدة خبثهم وتأصل عدائهم الذرية ادم، لا ينفكون عن المحاولات وشهب السماء دائما لهم بالمرصاد. كيف يتم ذلك ؟ هذا من الغيبيات التي نقتصر في تبينها في الحدود التي ذكرها القرآن. وما وراءها يتجاوز مداركنا والبحث عنه لا يبلغ بالباحث إلى غايته. فهم يقذفون بالشهب من كل جانب دحورا إبعادا باحتقار، ولوقاحتهم وجراءتهم تحقق لهم عذاب دائم، مرجومون في الدنيا بالشهب، ولعذاب الآخرة أشد .

10. إلا من خطف، عذاب واصب

يؤكد القرآن أن من وقع في سمعه مسموعا مخطوفا غير تام ولا واضح، لا يعتد به ولا يحقق له أي غرض، إذ يلحقه الشهاب المضرب لتركيبه فلا يحصل من محاولته إلا على الاحتراق المخرب لكيانه .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ

استفتهم : اسألهم عن رأيهم .

أشد خلقا : أصعب خلقا.

لازب : الطين الذي اختمر حتى أصبح قابلا للالتصاق بغير .وفسر عتيق حتى أسود .

يسخرون : يستهزئون .

يستسخرون :يبالغون في السخرية.

داخرون : صاغرون أذلاء .

زجرة صيحة تبعثهم

بيان المعنى الإجمالي :

إلجاء للمتصلبين في إنكار البعث ليذعنوا بما يقتضيه الدليل العقلي. هل إن إعادتهم إلى الحياة للبعث أشد وأعسر من خلق السماوات والأرض وما يعمرهما من المخلوقات كالملائكة والإنس والجن. فإذا كانت قد تم خلقها من غير مادة ولا مثال سابق، فالبعث من التراب أيسر لا محالة. وتأملهم في أصل خلقتهم يلجئهم أيضا إلى الاعتراف بالبعث. فأصل البشر طين طال أمد تخمره حتى اسود وأصبح قابلا للالتصاق بغيره. والتراب الذي استبعدوا بعث الحياة فيه هو أحد عنصري الطين اللازب.

ثم سجل القرآن تعجب للنبي ﷺ من رفضهم، كما سجل عليهم تناعتهم بالاستهزاء بالبعث، وعجيب آخر من أمرهم: أنهم إذا ذكروا فوعظوا بما يدعو إلى الاتعاظ والخشية، كانت عقولهم وأرواحهم محجوبة عن قبول الحق، فهم لا يتعظون. وإذا جاءتهم الآيات الدالة على صدق الرسول قابلوها بالسخرية، وبأن ما شاهدوه هو نوع سحر بين لا شك فيه غالط أبصارهم وخدعها. ثم كشفوا عن سبب رفضهم: أن عقولهم لا تقبل أن يعودوا إلى الحياة بعد

أن تحللت أجسامهم، وجردت عظامهم مما كان يكسوها، ثم انقلب الكل إلى تراب. وهل يمكن أن تعود الحياة لآبائنا الذي مضى على موتهم زمن بعيد؟ أجابهم الحق سبحانه، امرا رسوله أن يقول لهم: نعم ستبعثون وأنتم أذلاء صاغرون .يتم ذلك بصيحة واحدة تحثكم على الإسراع فتسرعون، وتعود لكم جميع مداركك، فتبصرون فجأة حقيقة البعث واقعة لا ريب فيها.

بيان المعنى العام

11.فاستفتهم..من طين لازب.

اسأل هؤلاء المعاندين المنكرين للبعث يوم القيامة، استبعادا لإمكان تحققه .اسألهم سؤالا يلجئهم إلى الاعتراف بما رفضوه؛ هل إن إعادتهم كما كانوا في الدنيا، أذلك أصعب وأبعد تصورا في تقديرهم من خلق الأرض والسماوات ومن فيهما من الملائكة والإنس والجن والكواكب، وما يعمرهما مما هو معلوم لهم أو مغيب لا يعلمه إلا الله؟لقد تم خلق ذلك على غير مثال وبدون مادة للصنع. إنهم إذا كانوا يملكون أدنى درجة من الإنصاف لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأن البعث أيسر من ذلك. ثم أضافت الآية ما يزعزع تصلبهم في الإنكار بتذكيرهم بأصل خلقهم، تعلقت القدرة الإلهية بتحويل الطين الذي طال أمد تخمره حتى اسود، وأصبح قابلا للالتصاق بغيره؛ فتم من هذا الطين خلقكم. ولما كان الطين ترابا كان هذا التذكير مبطلا استبعادهم في قولهم أئذا كنا ترابا

12.بل عجبت ...ويسخرون.

ينقل القرآن المحاجة من واد إلى واد اخر . فيخاطب رسوله ﷺ مسجلا ما حصل في نفسه: تملكك العجب من عناد قومك، إذ هم أهل فطنة بما تميز الجنس العربي من سرعة الخاطر وحدة الذهن، وحضور البديهة، ومع هذه الصفات تصدر منهم ما يسجل عليهم الأمور الاتية

أولا: أنكروا البعث، وأعلنوا أن عقولهم تحيل أن يعود الناس الى الحياة بعد الموت، وأضافوا إلى إنكارهم مواصلة الاستهزاء بعقيدة البعث .فأضافوا إلى المجادلة التلبس بخلق السفهاء الذين يعمدون إلى الحرب النفسية بالتاملل ليؤثروا في الدهماء.

13.وإذا ذكروا لا يذكرون.

ثانيا: وهو مما يثير العجب أيضا، أنهم إذا ذكروا بما يؤثر في العقول لواضح بيانه، وفي المشاعر بانسجامه مع الفطرة، التذكير الذي كان من المفروض أن

يلتصق بهم ويحولهم إلى ما هو أفضل وأرقى، يقوم التصلب في الكفر حاجزا مانعا من التأثر، فلا يذكرون شيئا مما سمعوا ورأوا.

14.وإذا رأوا آية يستسخرون.

ثالثا : أنهم إذا رأوا بأبصارهم دليلا خارقا للعادة يؤيد الرسول ﷺ فيما أثبته :أنه مبعوث من عند الله، قابلوا ما الأصل أن يرفع العناد ويخضع المشاهدين فيصدقوا ويؤمنوا، قابلوا ذلك بالمبالغة في السخرية والاستهزاء، زاعمين أنه سحر مبين .كما جاء في قوله تعالى: [اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر][1]

15.وقالوا إن هذا لسحر مبين.

رابعا: وهو مما يدعو للعجب من صفاقتهم، أنهم قابلوا الآيات وقابلوا الإعجاز القرآني نظما ومضمونا، وتذكيرهم بما حصل للمكذبين للرسل من قبلهم، وتحقيق أمر البعث حتى لا يكون الخلق عبثا، جمعوا كل ذلك وعبروا عنه: إنه لا يخرج ما عرض علينا عن السحر البين الذي يخدع العقول والأبصار.

16–17« أئذا متنا...أو آباؤنا الأولون.

ثم سجل القرآن ما زعموا أنه يسندهم في الرفض، فقالوا: كيف يتصور البعث بعد أن تتحلل أجسامنا، ونتحول إلى تراب ؟ إنكارا له، وزد على ذلك آباؤنا الذين مضى على موتهم أزمان أن يبعثوا معنا.

18–19« : قل نعم...ينظرون.

جاء الجواب عن استفهامهم، واستبعادهم من رب العزة، فأمر رسوله، وقوله تعالى هو الحق، أن يقول لهم: نعم بكل تأكيد ستبعثون، وأدمج في تحقق بعثهم الحالة التي يكونون عليها، أنهم يبعثون أذلاء يعلوهم الصغار.

-سيتم بعثكم بصيحة واحدة تزجركم زجرا، فتخرجون من قبوركم مسرعين، ويصف القرآن وضعهم بعد البعث، إن الحاصل أمر سريع مفاجئ، هم جميعا في لحظة واحدة تعود إليهم مداركهم، فينظروا الوضع الذي صاروا إليه.

وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

---

[1] سورة القمر آية 2/1

إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الويل : سوء الحال .

يوم الدين: يوم الجزاء.

الفصل : تمييز الحق من الباطل.

الحشر : جمع المتفرقين إلى مكان واحد.

الأزواج : يحتمل أن يكن حلائل الرجال، ويحتمل أن يكون ما هو من صنفهم.

الهداية : الدليل على الطريق لمن يجهله.

الاستسلام : الخضوع وترك المدافعة.

طاغين : متكبرين عن قبول الهداية.

أغويناكم : ساعدناكم على الضلال.

غاوين :مسعين في الضلال

بيان المعنى الإجمالي :

أدركوا الحقيقة الصادقة، فقالوا: يا لسوء حظنا، يا خسارتنا وهلاكنا ! هذا يوم الجزاء . ويسمعون صوت الملائكة يزيدهم تعاسة يقول لهم : هذا يوم الفصل الذي قضى فيه قضاء باتا. اليوم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ويأذن الله ملائكته أن يجمعوا المشركين وأزواجهم، وما كانوا يعبدونه من دون الله، الأصنام وغيرها، فدلوهم على طريق الجحيم ،ويدفعون إلى جهنم، وإذا بالإذن العالي من رب العباد يأمر بإيقافهم حتى يحاسبوا، فيعرف كل فرد ما عمل في دنياه من سوء عقيدة وسلوكا. ثم يُسألون أولا سؤال توبيخ وتعجيب، ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم في الدنيا ! كان كل واحد منكم ينصر أخاه الكافر على ظلمه وعلى كيده للإسلام. ومن أين لهم أن يتناصروا؟! إذ كل فرد منهم مستسلم مذعن ذليل.

وفي هذا الظرف ينشب حوار بين السادة والضعفاء، يروم المستضعفون تحميل السادة مسؤولية كفرهم، فقالوا لهم: إنكم كنتم تأتوننا في الدنيا بقوة لتصدونا عن الإيمان. ودافع السادة عن أنفسهم فردوا عليهم: الواقع خلاف ذلك، فإنكم اخترتم الكفر وما كان لنا عليكم تسلط يجبركم على الكفر. بل إن الطغيان والاستكبار عن قبول الهدى كان مقوما من مقوماتكم. فحق علينا وعليكم وثبت ما قاله ربنا من تسليط العذاب والمهانة، لنحس بذلك أكمل الإحساس. نعم إنا حببنا لكم طريق الضلال، لأنا كنا عليه لتكونوا مثلنا، أضللناكم لأننا كنا ضالين. وتأتي النتيجة : إن المستضعفين والكبراء يشتركون في أصل العذاب وفي ذوقهم الام الجحيم. إني أنا الله على هذا النحو من إلجاء الكافرين إلى مصيرهم في جهنم أفعل بالمشركين.

بيان المعنى العام :

20. وقالوا ياويلنا...كنتم به تكذبون.

نظروا فيما حولهم فتبينوا أنهم تحولوا من عالم إلى عالم اخر، من العالم الذي كانوا يكذبون فيه بوقوع هذا اليوم، إلى اليقين بتحققه، فقالوا يا ويلنا، يا خسارتنا وسوء حالنا، حالة اليائس الذي يندب حظه. هذا يوم الدين: يحتمل أنهم صرحوا بما استيقنوه فقالوا: هذا يوم الجزاء. كما يحتمل أنه من قول الملائكة بعد أن ندبوا حظهم، فقالوا لهم : هذا يوم الجزاء، الذي تنالون فيه جزاء ما قدمتموه في الدنيا.

الظاهر أنه كلام تنطق به الملائكة إثر مناداة الكافرين بالويل والهلاك، فيخاطبونهم بقولهم: هذا هو يوم الفصل. اليوم الذي يفصل فيه فلا تأخير ولا تأجيل. هو يوم القضاء الذي يعقبه التنفيذ . هو اليوم الذي واصلتم التكذيب به، ويحتمل ان يكون ذلك من قول الكافرين لأنفسهم، إذ يستيقظ في نفوسهم ما كان يخبرهم به المرسلون.

22—24: احشروا الذين ظلموا...إنهم مسؤولون.

بعد أن عرفوا أو عرّفوا أن هذا اليوم هو يوم الفصل الذي تصدر فيه الأحكام الباتة. أذن الله لملائكته أن يجمعوا الذين ظلموا بالإقامة على الشرك، ويسوقوهم مع أزواجهم اللائي وافقنهم على رفض الدين، والتصريح بهن مفيد أن المسؤولية يتحملها الذكور والإناث على حد سواء، ولذا فإن النساء اللائي خالفن أزواجهن فامن لا ينالهن ما ينال أزواجهن الكفرة. ويضم اليهم المعبودات من الأصنام والتماثيل التي عبدت من دون الله، وذلك إمعانا في الإذلال تبعا لما كانوا يعتزون به في الدنيا. اجمعوهم وأسرعوا بهم إلى طريق الجحيم .وإن كان أصل الهداية الدلالة على طريق الصواب والخير، إلا أنه أطلق لفظ الهداية على دلالتهم إلى الطريق الذي يبلغون به جهنم، تهكما بهم.

-إنهم سائرون يتدافعون إلى الجحيم، فيصدر الأمر الإلهي بأن يوقفوهم، إنهم لا يدخلون جهنم إلا بعد أن يحاسبوا على ما عملوا، ويتوجه السؤال لهم عن شركهم وعن الفساد الذي لوثوا به الكون..

25-←26: مالكم لا تناصرون..مستسلمون.

يقفون وقلوبهم وجلة، فيسمعون نداء التوبيخ والتقريع: ما لكم لا تناصرون ! ما الذي حولكم عما كنتم عليه في الدنيا من إسراعكم لنصرة بعضكم بعضا، باستعمال قوتكم لنصرة الباطل، وحبك المؤامرات التي تتقاسمون فيها الأدوار للإضرار بالإسلام والمسلمين. ويصرح القرآن بوضعهم الذي يكونون عليه: هم اليوم مستسلمون، خاضعون أذلاء؛ كل فرد مشغول بهمومه، خذل بعضهم بعضا.

27-←28: واقبل بعضهم..عن اليمين.

تذكرهم الآية السابقة بعلاقاتهم في الدنيا. فتقدم المستضعفون الدهماء إلى رؤوس الكفر، كل فريق يسأل الفريق الاخر سؤالا يرمي إلى تحميله مسؤولية الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا .فجرى بينهم الحوار التالي:

قال الأتباع: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين واستشكل المفسرون ما يدل عليه هذا الإلزام. فخرجوه على أن قالوا: إنكم كنتم تأتوننا من جانب الخير لتشوهوه لنا وتصدونا عنه وتضلونا. وذلك أن كلمة اليمين مرتبطة بالخير عرفا كارتباط كلمة الشمال بالعسر والحطة. وخرج على ان معنى كنتم تأتوننا عن اليمين. على أنه كنتم تأتوننا متقوين علينا مرغمين لنا ومستضعفين. ومن ذلك قول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد **** تلقاها عرابة باليمين.

أي تلقاها عرابة بقوة وعزيمة، ولا يقصد أنه تلقاها بيده اليمنى. وتخريجات أخرى لم نتعرض لها لوضوح الآية على التخريجين.

29-←30 :قالوا بل..كنتم قوما طاغين

دافع الذين كانوا سادة في الدنيا فقالوا جوابا عن تحميلهم المسؤولية: كذبتم فلم نُدخل الكفر في قلوبكم ولم نُلزمكم به، بل كنتم صادين عن اتباع الرسول غير متفتحين على الإيمان. وما كان الإيمان يمثل مقوما من تفكيركم .هذا أولا. وثانيا فإنه ما كان لنا عليكم من قدرة تقهركم وتكرهكم على الكفر. ولكن الحقيقة هي أنكم كنتم متكبرين عن قبول الدعوة من رجل منكم جاءكم لينقذكم، فأبيتم عليه مستكبرين عن الحق .

31←33:فحق علينا قول...مشتركون.

ثم اعترفوا باستحقاقهم جميعا للعذاب الأتباع والكبراء، والكفر الذي هو سبب العذاب قاسم مشترك بين الجميع، فثبت وتحقق علينا ما قاله ربنا: إنا جميعا معرضون للعذاب الذي يكون إحساسنا به على أشد ما يكون الإحساس.

- نعترف بأنا دعوناكم إلى الضلال، وحببنا إليكم الانصراف عن الرشد. فأغويناكم أضللناكم وأغريناكم بالضلال، إنا كنا ممعنين في الضلال، فما اخترنا لكم إلا ما اخترناه لأنفسنا لتكونوا مثلنا، فرضيتم به فتحملوا نتيجة اختياركم.

33.فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون.

هذا كلام صدر عن الحق سبحانه، يعرف به الرسول والمؤمنين بما قضى به فيهم سادة وأتباعا .هم يشتركون في أصل العذاب وإن كان عذاب الغاوين المغوين أشد كما تدل عليه نصوص أخرى.

34.إنا كذلك نفعل بالمجرمين.

على هذا النحو من الجزاء ومن إذلالهم وتعذيبهم، يصدر حكمنا وينفذ في المجرمين الكافرين.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

المخلصين : الذين أخلصهم الله لعبادته.

سرر :جمع سرير، من أثاث الراحة أوسع من الكرسي، لا يضيق بحركات الجالس ولا بهيئات جلوسه.

الكأس : الوعاء الذي يشرب منه الخمر .

معين: جار مطرد.

لا فيها غول: منفي عنها ما يصحب شرب الخمر من الصداع، أو الارتخاء.

ينزفون: نزف البئر إذا نزح ماءها كله. فخمر الجنة لا تذهب العقل.

قاصرات الطرف: نساء لا يتجاوزن بأبصارهن مجلس الأنس الذي ينعم فيه كل فرد من أهل الجنة

عين: جمع عيناء، وهي التي اتسعت حدقة عينها في جمال وتناسب.

بيض مكنون: بيض النعام في نقاوته وصفائه، المخفي بين الرمل والريش الناعم.

بيان المعنى الإجمالي:

استقر موقفهم على رفض عقيدة التوحيد، فإذا قال لهم رسول الله ﷺ: لا إله إلا الله، استكبروا وعدوا أنفسهم أعظم من الخضوع لإله واحد. ويقول بعضهم لبعض، ويشيعون في الأوساط: إنهم لا يتابعون رجلا شاعرا تصور صورا خيالية، أو مجنونا. كل ما رموه به هو بريء منه لأن ما جاءهم به هو الحق، وهو يتفق مع المرسلين قبله، يصدقهم في كونهم مبعوثين من عند الله، لا خلاف بينه وبينهم في أصول العقيدة.

يسمعون خطاب التهديد: إنكم ستعذبون عذابا يبلغ ألمه أقصى إحساسكم. وما نظلمكم ولكن تجزون بما كنتم تعملون من ضلال العقيدة وسيء الفعال.

وإذ بسط القرآن جزاء المشركين، عقب ذلك بالجهة المقابلة. فاستدرك مبرزا عباد الله الذين أخلصوا له في عقيدتهم وسلوكهم. أولئك المخلصون استحقوا رزقا معلوما عند الله. يقربه بأنه يشمل فواكه متنوعة يصحبها التكريم، من أدب المعاملة وحسن الخطاب عند التقديم. هم في أفضل منزل وأرفع بيئة، في جنات النعيم، مرتاحون على سرر يأنس المنعم برؤية من يحب أن يراه. يطوف عليهم الغلمان بكؤوس لا ينقص خمرها الأبيض النقي. كلها لذة لمن يشربها. وكلما شرب منه لا يلحقه منه دوار ولا مغص، ولا تخدرهم وتذهب بيقظتهم الفكرية. وتحضر مجالس كل فرد منهم جواري لا تتعلق أبصارهن بغير المنعم الذين هن عنده. بلغت عيونهن من الجمال والحور أعلى مرتبة.

بيان المعنى العام:

35-74: إنهم كانوا إذا ... وصدق المرسلين

ثبتوا في الدنيا ثباتا لا يتحولون عنه: أنه إذا قال لهم رسول الله ﷺ: لا إله إلا الله، الله واحد وما عداه من معبوداتكم ليس لهما شيء من صفات الألوهية، ولا استحقاق للعبادة، يرون أنفسهم أعظم من الإقرار بهذا المبدأ. يقول بعضهم لبعض، كما

يعلنون في المجامع، عدم قبولهم لمبدأ التوحيد، معللين رفضهم بسؤال فيه إنكار وتعجب حاصله : كيف نترك الهتنا التي هي قوام تصورنا، لأجل كلام رجل إما أن يكون شاعرا يتحدث بأمور خيالية، أو هو مجنون مختل المدارك .رد الله عليهم قولهم ونفى نفيا قاطعا أن يكون محمد شاعرا أو مجنونا، كل من يتأمل مضمون ما دعا إليه، يدرك قطعا أن ما جاء به هو الحق الذي لا صلة له بالباطل، وتأكيدا لصدقه : أنه مصدّق للرسل الذين تقدموه يعترف برسالتهم، ويتفق معهم في أصول العقيدة، ويثبت أو يخبر بنسخ ما انتهى أمد العمل به .

38-39 إنكم لذائقو ....ما كنتم تعملون.

خاطبهم الله تعالى بواسطة ملائكته: إنكم لمعذبون العذاب المؤلم لا محالة، وإن إحساسكم به سيكون كأشد ما يكون الإحساس، كما تدل عليه كلمة لذائقون، فإن حاسة الذوق قوية .و ما تلقونه هو جزاء وفاق، لا ظلم فيه، ولا نكال أعظم من ذنوبكم التي اقترفتموها، من الإشراك بالله ومن الظلم، وإيذاء رسول الله ﷺ، والتعدي على صحابته، ووأد البنات، وغصب الأموال، والزنا وجميع ما أتوه من قبيح الفعال .

40. إلا عباد الله المخلصين .

وقع استثناؤهم استثناء بمعنى لكن، في قوة الاستدراك. أتبع سبحانه أحوال الصالحين من عباده يوم القيامة، بعد أن حقق تعذيب الكافرين على شركهم وسيء أعمالهم .فاكرمهم :

أولا: بوصفهم أنهم عباد الله ورضا الله سبحانه عنهم بنسبتهم إليه تعد من الفضل ما كرّموا به. يقول الإمام الشافعي ﷺ :

ومما زادني شرفا وفخرا *** وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي *** وأن ارسلت احمد لي نبيا

ووصفهم بكونهم المخلصين الذين تمحضوا لعبادته وطاعته .

41-43 أولئك لهم رزق...وهم مكرمون.

ثانيا: أن الله قدر لهم رزقا معلوما فهمت منه أنه معلوم عنده، لا يحيط بخصائصه البشر، فليس هو من رزق الدنيا. وفرته لإدراك المخاطبين بأنه فواكه، ومعلوم أن الفاكهة ألذ أنواع الطعام، وأيسرها هضما، وأمتعها مذاقا. لا يقدم لهم الطعام تلبية للحاجة إلى الطعام، فإن أجسامهم تختلف عن الصورة الدنيوية. فهي لا تحترق فيها القوى انتجدد بالطعام، مما ترتب عنه أن الحياة الدنيا كلها هدم وبناء داخل الذات

وخارجه. فلما كتب لهم الخلود كان بناء أجسامهم طبعا حسبما يقتضيه الخلود، لا يلحقهم فناء جزئي ولا كلي. ويؤكد القرآن على الجانب النفسي، فهم عندما يقدم لهم طعامهم يلاحظ دوما أنهم مكرمون .

43-49- في جنات النعيم ...بيض مكنون.

ثالثا: يتتابع في هذه الآيات السبع تفصيل ما يقرب للمؤمنين جزاءهم يوم القيامة، فهم مقيمون في الجنات التي يحس المقيم فيها بكل نوع من أنواع النعيم، فمهما جنح بأحدهم الخيال في تصور ما أعد لهم لم يبلغ التصور الدقيق، لأن قوة الملاءمة تجعلهم لا يحسون بنقص نفسي ولا مادي.. هم في الجنة يجدون الراحة الكاملة في مجالسهم، فلا هم على الأرض، ولا على كراسي تضيق بتقلبهم أو بالهيئة التي تكون أكثر ملاءمة. وأن الحواجز التي تحجب المشاهدة معدومة في الجنة، فأنسهم ببعضهم البعض موفور . ويقرب هذا خاصية لأصحاب الجنة، ما أصبح شائعا اليوم من التواصل بين أطراف الأرض بواسطة أجهزة الاتصال الحديثة، فالفرد في جنوب الأرض يستطيع مشاهدة أهله وأصدقائه في المحيط المتجمد الشمالي، وهو في بيته .

يطوف الولدان الموكلون بخدمتهم، وأنسهم، يطوفون عليهم بكؤوس الخمر التي كلما شربوا منها عادت كهيئتها الأولى، لا ينقص منها شيء، فكل ما في الجنة مرتبط بصفة الخلود وعدم النقص والفناء. ثم أخذت الآية تصف الخمر بما اختصت به مما يجعلها غير الخمر المعروفة في الدنيا. فهي بيضاء وصفة البياض يلازمها النقاء والصفاء إذ اللون الأبيض يكشف كل دخيل عليه. ولا يجد شاربها ألما ولا دوارا ولا تشنجا ولا ارتخاء. فخمر الدنيا تتحكم في بدن شاربها ومداركه، وخمر الجنة لا يجد منها شاربها إلا لذة كبيرة ترضي ذوقه. إن هذه اللذة التي تتسرب في شعاب كيانه تفارق ما يتبع خمر الدنيا من صداع في الرأس أو مغص. والتخدير الكامل وذهاب اليقظة العقلية. وكما قلنا إن بناء الجنة كله على الخلود، لا يلحقه نقص ولا زوال.

وتحضر مجالس كل فرد منهم، الجواري اللاتي جمعن بين إخلاص الود، فعيونهن لا تتجاوز المنعّم الذي هن حوله، لأنه ملأ نفوسهن غبطة ورضا، وبين صفاء البشرة صفاء يلقي عليهن مسحة من البريق واللمعان. إن كلمة "بيض" تدل على بيض النعام الذي من شأنه أن يُكنّ بيضه في الرمل بعد أن يفرش لها من ناعم ريشه فتكتسب من تلك العناية صفاء ولمعانا. وذكر المفسرون أن التشبيه: كأنهن بيض مكنون يتبعه أن لونهن، بياض مشوب بصفرة، أخذا من لون بيض النعام.

وهذا بعيد عندي. ذلك أن التشبيه لا يلزم فيه التساوي بين المشبه والمشبه به في جميع الصفات. فتشبيههن ببيض النعام لا يؤخذ منه إلا الصفاء واللمعان، وما زاد على ذلك من الصلابة والصفرة لا مدخل له في التشبيه. وما يزال الشعراء يشببون بورد الخدود الجامع بين الجمال والحيوية. وما دخلت الصفرة في تشبيههم إلا للدلالة على شدة تعلق المحبوبة بالشاعر، يفارق النوم جفونها وتسهر مع ذكراه، فتصبح ولون بشرتها مشوب بصفرة. على أن كلمة عين ارتبطت في القرآن بكلمة حور، ولا توصف بها المرأة إلا إذا كان بشرتها بيضاء نقية. جاء في القاموس وشرحه: أو الحور شدة بياضها وشدة سوادها في شدة بياض الجسد ،ولا تكون الأدماء حوراء [1].

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ:

القرين : الصاحب الملازم .

المصدق : الموقن.

المدين : المجازى وأغلب ما يكون في السوء.

سواء الجحيم : وسطها.

ترديني : توقعني في الهلاك.

بيان المعنى الإجمالي :

يسجل القرآن مجلسا من مجالس الأنس بين المنعمين في الجنة، أخذوا يتساءلون عن أمور مضت في الدنيا. قال أحدهم إني كان لي قرين يلازمني، ولما علم بإسلامي بذل كل جهده لأرتد، كان يقول لي: أعجب لك كيف تصدق أننا إذا متنا وتحللت أجسامنا وتفتت عظامنا واختلطت بالتراب، أن نعود إلى الحياة ونجازى

---

[1] تاج العروس ج 11 ص100

عن أعمالنا. وعرض على إخوانه أن يطلعوا على أهل النار، ويسر الله لهم ذلك فرأى قرينه في وسط النار. خاطبه بقوله: قسما بالله إنك عملت كل ما في وسعك لأكفر بالإسلام فأهلك. ولكن فضل الله عليّ أنقذني من إلحاحك، ولولا فضله سبحانه علي لكنت مُحضرا في جهنم مثلك. ثم قال لهم وقد غمرت السعادة كل مداركه فقال: أنحن خالدون لا نموت ولكن الموتة الأولى قد مضت، وأننا لا نعذب. حقا إن هذا الذي نحن فيه هو الفوز العظيم. لنيل مثل ما ناله هؤلاء السعداء فليعمل العاملون الخير الذي يبلغهم مثل منازلهم.

بيان المعنى العام :

50 فأقبل بعضهم.. يتساءلون.

لون اخر من ألوان النعيم التي يكرم بها الله الفائزين بالجنة. إضافة إلى ما تقدم من أنواع النعيم المادي، يتمثل ذلك في مجالس الأنس، وما يدور فيها من أحاديث. والظاهرة الأولى المسجلة أن استماعهم لبعضهم يجري على المستوى الرفيع من الأدب. أقبل بعضهم على بعض. من نكد المجالس الإعراض عن المتحدث أو مقاطعته. يقول الشاعر :

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت *** كان الحلم رد جوابه
وتراه يصغي للحديث بسمعه *** وبقلبه ولعله أدرى به

فالمجالس على هذا المستوى من الأدب، يقبل الإخوان على الاستماع من محدثهم، ويشارك كل فرد بما عنده، فلا ينفرد أحدهم بالحديث.

من أحاديثهم: أن بعضهم يثير من الحوادث ما يجدد الله علوقه بذهنه من أمور الدنيا. ويغيب عنه نهاية الأمر مآله. ويسجل القرآن من ذلك الحادثة التالية:

51-53 قال قائل منهم ...أئنا لمدينون.

قول أحدهم: كان لي في الدنيا قرين بيننا تلازم، يهتم كل منا بصاحبه، وكنت اهتديت إلى الإيمان بمحمد ﷺ .

فكان يعجبُ منكرا علي أن أكون من المصدقين بمضامين الرسالة التي منها، أننا نبعث يوم القيامة بعد أن نموت وتتحلل أجسامنا وتتحول إلى تراب، وكذلك عظامنا، وأننا نوقف بعد ذلك التحول لنجازى على ما قدمنا في الدنيا.

54-55: قال هل أنتم...سواء الجحيم

مما يكرم به أهل الجنة: أنهم إذا رغبوا في شيء أجيبوا تفضلا من الله عليهم. فهذا رغب أن يعلم مصير قرينه، وحسب المعطيات أنه سيكون من أهل النار. فقال لإخوانه : هل ترغبون في الاطلاع على أهل جهنم لنرى هل هو من بينهم.

مكنته الملائكة من الاطلاع على أهل النار، وميز له قرينه في الدنيا، فرآه يصلى النار في وسط جهنم .

56←57: قال تالله ...من المحضرين

لما رآه في وسط الجحيم، قام بتوبيخه على ما كان يلح به عليه في الدنيا، ويحاوله من صده عن مواصلة التمسك بالإسلام، وأقسم له قسما مغلظا: إنك بذلت كل ما في وسعك لتهلكني، ويكون جزائي مثل جزائك.

إن الذي أنقذني من إغوائك، وعطل تأثيرك علي هو فضل الله علي بتثبيتي على الإيمان، ولولا ذلك الفضل والتثبيت لكنت مثلك من المحضرين معك في النار .

58←59: أفما نحن بميتين...بمعذبين

الذي عليه معظم المفسرين أن هذه الآية تواصل تسجيل ما قاله من دعا إخوانه للاطلاع على مصير قرينه. فيكون التقدير أنه بعد أن اطلع على وضع قرينه فاض شعوره بالسعادة التي هو فيها فلم يستطع إلا أن يعبر عن ذلك فقال: أنحن خالدون فلا نذوق الموت أبداً! لكن الموتة الأولى التي مضت هي كل علاقتنا بالموت. وأننا لا نعذب ؟ كأنه يقول: ما أعظم سعادتنا ! حقا إن ما بلغناه هو الفوز العظيم.

ويمكن أن تفهم الآية على أنه من خطابه لقرينه مونبا له يقول له: أين ما كنت تقوله من أنها موتة لا قيام بعدها ولا عذاب ولا حساب .

61: لمثل هذا فليعمل العاملون

يمكن أن تفهم على أن الله سبحانه أنزل عقب تعريفه بما يجري يوم القيامة، بتحريض البشر على أن يعملوا العمل الذي ينالون به مثل ما حظي به المتنعمون من قوله تعالى : أولئك لهم رزق معلوم .... ويمكن أن يفهم على أنه من تمام القصة في حديثه مع إخوانه.

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

النزل : الطعام المهيأ للضيف.

تخرج : تنبت.

طلعها : أطلق على ما تخرجه من الثمار كلمة الطلع الخاصة بالنخل.

شوب : خلطا.

الحميم : القيح السائل من الدمل .

الإهراع : الإسراع.

بيان المعنى الإجمالي :

أيهما أفضل فواكه أهل الجنة وما يطلبونه، أم شجرة الزقوم في جهنم. هذه الشجرة التي فتن بها الظالمون المشركون. فزادتهم كفرا وعنادا. هي شجرة تنبت في قعر جهنم، ثمرتها بشعة جدا كأنها رؤوس الشياطين. يحدث الله فيهم شراهة شديدة فيقبلون على الأكل منها لا ينفكون حتى تمتلئ بطونهم. ثم تحدث فيهم داعية الشرب، فيسقون من قيح وصديد شديد الحرارة أنتن ما يكون منظرا ولخبثه. ثم يعودون إلى أماكنهم في الجحيم. بأيديهم واختياراتهم نالوا ما نالوه من العذاب والمهانة، إنهم وجدوا آباءهم ضالين تشهد الفطرة والعقل بفساد عقيدتهم، وبالرغم من ذلك قلدوهم وأسرعوا للسير على منهجهم. وقد سار أكثر الأمم السابقة على النحو الذي سار عليه كفار قريش، بالرغم من أنا أرسلنا إليهم رسلنا لينذروهم عاقبة الكفر. انظر إلى عاقبتهم، تقوم آثار المنذرين المكذبين شاهدة على ما لحقهم من عذاب. ويستثنى من الأولين عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله فقد فازوا.

بيان المعنى العام :

62. أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم

يهدف القرآن إلى التأثير على الناس حتى يؤمنوا فيصلحوا عقيدتهم وأعمالهم. وفصلت الآيات السابقة شيئا من نعيم أهل الجنة مما يبعث على المسعى لنواله. ولتأكيد ذلك عرض هذه المقارنة بين ما يقدم لأهل الجنة وما يقدم لأهل جهنم فقال: أذلك الذي ذكر أنه يقدم كرامة لأهل الجنة من الفواكه وكل ما يخطر ببالهم خير أم شجرة الزقوم التي تقدم لأهل النار "وشجرة الزقوم لم تكن حقيقتها معروفة عند قريش. وذكر أنها شجرة تنبت في الأراضي القاحلة شجرة مرة مسمومة، لها لبن إن مس جسم أحد تورم ومات منه في أغلب الأحيان. وإن اتحدت شجرة جهنم معها في الاسم فهي غيرها في الواقع. وقد ذكرت في سورة الواقعة، مجملة ثم فصلت في سورة الدخان وفي هذه السورة.

63-65 إنا جعلناها ... كأنه رؤوس الشياطين

ذكر القرآن خصائصها التي منها :

1)أنها كانت سببا لفتنة الكفار فزادتهم حيرة، إذ اتخذ بعضهم هذا الخبر وسيلة التندر، وللتأثير على الدهماء، استبعادا أن تنبت النار شجرا، ووصفهم بالظالمين لأنهم ظلموا بشركهم، وظلموا لأنهم حصروا القدرة الإلهية في تصوراتهم الدنيوية

2)أنها تنبت في قعر جهنم، طبيعتها نارية تتشعب أصولها وعروقها في الطبقات السفلى للجحيم، وهو ما يجعل ما تخرجه من طبيعة المكان الذي استقرت فيه.

3) طلعها ما تخرجه من الثمر أشبه ما يكون برؤوس الشياطين، ويفهم هذا التعبير، إما على أنه من أسوأ ما يكون منظرا، تبعا لما استقر في خيال الناس أن الشياطين أقبح المناظر وأبشعها، فإذا أرادوا التعبير عن قبح وجه، قالوا له وجه شيطان، وإذا أرادوا التعبير عن حسنه ولطفه، قال: له وجه ملك .وكذلك إذا صور المصورون جاؤوا بأقبح ما في خيالهم، ويمكن أن يكون ثمرها قرب بصورة أفعى لها أعراف على عنقها قبيحة المنظر هائلة، ويمكن أن يراد برؤوس الشياطين ثمر الأستن، شجرة تنبت في بادية اليمن سموا ثمره رؤوس الشياطين لبشاعة منظره.

66 فإنهم لآكلون منها فمالؤون منها البطون

يحدث الله في طباع أهل جهنم شراهة للأكل منها على قبحها ونتنها، وكلما أكلوا زادوا شراهة ومواصلة حتى تمتلئ بطونهم فيعذبون من طعمها ثم من ثقلها وقد امتلأت البطون .

67 -68- ثم إن لهم عليها...لإلى الجحيم.

تنبعث داعية العطش ليشربوا، فلا يجدون إلا شرابا من حميم هو لون القيح ونتنه شديد الحرارة يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم .

لما كانت شجرة الزقوم نابتة في قعر جهنم، فإنهم يدفعون إليها ليأكلوا من ثمارها ثم يشربوا من الحميم على حسب ما وصفه، ثم يعودون إلى منازلهم الخاصة في الجحيم التي تحرق بهم .

69-70- إنهم ألفوا آباءهم..يهرعون.

ما الذي أوقعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والمهانة ؟ لقد جاءهم الرسل هداة يكشفون لهم طريق الحق، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والفساد. السبب في ذلك هو التقليد . وجدوا آباءهم سائرين في طريق الضلال، فعطلوا عقولهم، وأعرضوا عن

التأمل في الهدى الذي بلّغهم إياه رسل الله. وألزموا أنفسهم اتباع خطى الآباء بل إنهم كانوا يسيرون في طريق الضلال هذا مسرعين غير ملتفتين لأي شيء .

71-73، ولقد ضل قبلهم...عاقبة المنذرين

على هذا النحو من اتباع الآباء وعدم التأمل فيما جاء به الرسل من الحق الواضح الذي تشهد له الفطرة، ويقتضيه العقل، وقع في الضلال بالتقليد أكثر الأمم السابقة . بالرغم من أننا أرسلنا فيهم رسلا يهدونهم ويبينون لهم، وينذرونهم سوء العاقبة إذا هم لم يؤمنوا. ولا تغرنكم كثرة المكذبين فإن الكثرة لا تقوم أمارة على الحق ولا مميزة بينه وبين الباطل .فصدق الحق ينبع من ذاته.

- إن آثار الأمم التي عتت واستؤصلت لما كذبت رسلها حاضرة أمامكم تشهدونها في أسفاركم، فاعتبروا بالعاقبة الخاسرة التي آلوا إليها .

74. إلا عباد الله المخلصين

لكن الذين أخلصوا دينهم لله ولم يشركوا به شيئا، صدقوا الرسل المنذرين ففازوا برضوان الله وحسن جزائه.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

نجيناه : خلصناه من الكرب الذي هو فيه.

الكرب العظيم : الطوفان

بيان المعنى الإجمالي :

نداء النجاء واستغاثة من نوح ﷺ توجه به إلى ربه، أجاب الله نداءه فسلمه ونصره على أعدائه وأكرمه، وهو خير مدعو ومجيب. فصلت الاستجابة: أنه نجاه وأهله من الطوفان، وقدر أن يكون سكان الأرض بعده من ذريته. وأبقى ذكره سائرا مع الدهر ثناء عليه وإكبارا. سلام من الله ومن عباده الصالحين على نوح سلام مستمر مع الزمن. إنه على هذا النحو من التكريم نجزي من كان الإحسان قوام أعماله.

واعظم ثناء عليه أنه كان من المؤمنين الذين أضاء الإيمان مداركهم وحياتهم . وفوق ذلك دمرنا المعاندين الكفرة أعداءه فأغرقناهم أجمعين لم ينج منهم أحد.

بيان المعنى العام :

75- ولقد نادانا نوح...المجيبون

تضمنت الاية 71 أن الله أرسل رسله في الأمم السابقة، فجاءت هذه الآية وما يتلوها تخبر عن ثلاثة من رسل الله [نوح وإبراهيم ويوسف] ثم عن ثلاثة من أنبياء الله [لوط وإلياس ويونس] ليكون في قصصهم تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيت له على مواصلة الدعوة، وإنذار للمشركين بعرض صور من نقمة الله على القوم المكذبين .

تبدأ قصة نوح بنداء توجه فيه إلى ربه ليسعفه بعد أن بذل كل إمكاناته لنشر التوحيد. ذكرت تلكم الدعوات في سور من القرآن منها: تكذيب قومه،إن قومي كذبون، انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا) [1] . أعقب الله استغاثة نوح بإجابة استغاثته. وأي إجابة ! إنها تفوق ما كان يأمله نوح من ندائه، إذ الاستجابة كانت من أفضل مجيب وأقدره وأكمله .فلنعم المجيبون. حققنا له مراده ونصرناه على أعدائه. وانتقمنا منهم أبلغ ما يكون الانتقام.

76->79: ونجيناه وأهله...على نوح في العالمين

أفصحت هذه الآيات عما اشتملت عليه الإجابة من خير مجيب:

أ-نجيناه ونجينا أهله ، منتان التلفتا فلم يتضرر من الطوفان، الذي أخذ قومه حتى من أعالي الجبال، ونجى كذلك أهله: زوجه والصالحين من أولاده. فلم يمسسهم سوء، وسلموا من المياه العاتية والاختناق بالغرق. وذلك هو الكرب العظيم .

ب- وقدرنا تقديرا محققا: أن انحصر سكان الأرض في ذريته، فكلهم من نسل نوح وذريته. وإنه لشرف لنوح أن يضاهي ادم عليه فكان الأب الثاني للبشرية

جـ- ونعمة أخرى تضاف إلى ما تقدم أن الله بارك في عمله، فبقي اسمه مذكورا أبد الدهر ويرى الزمخشري أن الله أبقى على نوح هذه الكلمة سلام على نوح في العالمين " فالأمم والملائكة والجن كلهم يسلمون على نوح واستمر ذلك مع الزمن يطوي القرون دون أن يجمع الناس على تركه .فوصل بين الآيتين في المضمون . ويمكن فهم الآية على أن الله ابقى الثناء الحسن والذكر الجميل على نوح في

---

[1] سورة نوح اية 22/21

العالمين .ثم أضاف إلى ذلك السلام منه سبحانه وهو الرضا والتقريب، وثبته في العالمين .

81 -82• إنه من عبادنا الآخرين

ثم وجهت الآية معللة ومبينة السبب الذي من أجله بلغ نوح هذا المقام الزكي، شهد الله له بأنه كان من المنغمسين في الإحسان. الإحسان الذي يدخل في كل شيء، إحسان في العبادة: أن تعبد الله كأنك تراه، وإحسان في المعاملة بالصبر على الأذى، وإحسان في الدعوة، وأصلها وما تبطله الملال. وإحسان في معاملة أهله فما كان قاسيا حتى مع من أعلن عصيانه كما في قصة محاولته لابنه أن يؤمن ويركب السفينة. وفوق ذلك كان من الذين آمنوا أكمل الإيمان وأضاءت أنواره جميع مداركهم، وبذلك صرح القرآن بأنه (من عبادنا)ونسبة الإنسان إلى الله على أنه عبد له، هو أعظم شرف وتزكية لمن ناله.

82. ثم أغرقنا الآخرين.

يسدل الستار على قصة نوح بإعلان النهاية: ثم أغرقنا الآخرينتفرد نوح وأسرته بالنجاة، وابتلع اليم الآخرين. وفي التعبير بالآخرين احتقار لهم، وإبراز أن الناس صنفان المؤمنون المؤهلون للتكريم، وصنف آخر كأنه ليس من الناس.

• وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ

من شيعته :ممن شايعه على أصول الدين، فهي انتساب فكري وعقدي.

قلب سليم :لم يعلق به أي مرض من أمراض القلوب.

الإفك الكذب.

تريدون :تبغون عبادتها.

تولوا عنه مدبرين :انصرفوا عنه وتركوه وراءهم.

راغ :مال إليهم في حذر وتخف.

ضربا باليمين : يضربها بكل ما أوتي من قوة .

يزفون : مسرعين.

تنحتون : تصورونه في الأجسام الصلبة .

بيان المعنى الاجمالي :

بين نوح وإبراهيم صلات وثيقة في العقيدة والمبادئ، يبرز ذلك بوضوح عندما أقدم إبراهيم يصحبه قلب سليم من كل أمراض القلوب. طهر قلبه من الشرك ومن السفالات الخلقية. أنكر على قومه عبادتهم للأصنام، فمعبوداتكم التي تعبدونها من دون الله باطل وزيف. خبروني عن ظنكم السيء في حقيقة رب العالمين، الذي بفضله وُجد كل كائن، والذي بفضله تيسر لكل كائن أسباب البقاء، رب العالمين، وما وجد منهم إلا الاعراض .فأخذ يفكر مصوبا نظره نحو السماء مغرقا في التفكير ، ولما سألوه عن حاله قال: إني سقيم، كان ذلك في يوم عيد لهم فتركوه ظنا منهم أنه لا يقدر على حضور الحفل، وجد نفسه في المعبد وحيدا مع آلهتهم والطعام أمامها، فعرض عليها باستهزاء أن تأكل ما قدم لها، ثم سألها متغيظا: ما لكم لا تتكلمون؟ ثم أخذ يضربها بكل قواه فحطمها. بلغهم الخبر فأقبلوا مسرعين، وتبين لهم بعد البحث أن الفاعل: هو إبراهيم. قال لهم إبراهيم وهو ثابت الجنان: عجبا لكم أتعبدون منحوتات من صنع أيديكم. والله خلقكم وخلق المادة التي منها عملتم آلهتكم. إن الله وحده الحقيق بالعبادة .

بيان المعنى العام :

83 وإن من شيعته لإبراهيم

ربطت الآية بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، منوهة بنوح: أن إبراهيم من الذين شايعوه على أصول العقيدة والقيم. وإن كان لكل شريعة مميزات خاصة، شأن الشرائع الإلهية في نسبة بعضها إلى بعض تتفق في أمور وتختلف في نواح. فظهر سر الانتقال من قصة نوح إلى قصة إبراهيم.

84 إذ جاء ...بقلب سليم

ظهر الارتباط بينهما في الوقت الذي أقبل فيه إبراهيم على ربه يحمل بين جنبيه قلبا سليما أخلص لله، وطرد كل تصور ينافي توحيده .. ونقى قلبه من أمراض القلوب كالحسد والبغض والكبر والرياء والغرور. ثبتت تلكم القيم في نفسه ثباتا قويا، جسمها القرآن فجعله كأنه جاء بها مصاحبة له.

85-87، إذ قال لأبيه ...فما ظنكم برب العالمين.

قلبه السليم جعله محصنا من جميع أمراض القلوب الظاهرة عند غيره. فلذلك لما شاهد من قومه عبادة غير الله أسرع بسؤالهم سؤال إنكار عليهم عبادتهم لغير الله، ولذلك وصل سؤاله الإنكاري الأول بسؤال إنكاري ثان. فحصل من مجموع السؤالين: أي شيء تعبدونه، أتبغون عبادة ألهة من دون الله باطلا، وإفكا وكذبا.

كان الحاصل في أذهانهم صورة باطلة لا تستحق أن تسمى عقيدة، فلذلك قال لهم فما هو ظنكم برب العالمين ما هو ظنكم الشيء برب العالمين. واختار التعبير بـ رب العالمين ليثير المعاني التي تبرز خطأهم. فلما كان هو الذي تولى كل شيء في العالم بألطافه وعنايته حتى استقام وجوده، وأن كل كائن هو في حاجة لإمداده حتى يواصل وجوده، فبان بذلك أنه المستحق وحده للشكر على تفضله، وعبادته عبادة المحتاج لمعبوده .فإني أنكر عليكم ظنكم السخيف، وأن تجعلوا له شركاء عجزه . صيغت هذه الحقيقة في قالب استفهام إنكاري لأنه أبلغ في إثارة الذهن.

88-89، فنظر نظرة....سقيم.

لم تسجل القصة من محاورة إبراهيم لقومه إلا ما ذكر . ويفيد هذا المقطع أنه تأمل في طريقة يقتلع بها الشرك وعبادة الأصنام، وأنه بقي يفكر وسرح ذهنه في مختلف الاحتمالات، مقدرا نجاعتها، وما يمكن أن يترتب عنها. وشأن المفكر أن يمد بصره في الفضاء الرحب فيجد في ذلك عونا له على الظفر بالحلول المشاكل التي اعترضته. فقوله تعالى، فنظر نظرة في النجوم يترجح أنه مد بصره إلى السماء مفكرا، وبينما هو على هذه الحال سأله قومه: ما بالك واجما مستغرقا ؟ فأجاب: إني سقيم فهم منها قومه أنه مريض منهك القوى، وما كان هذا مراده، بل يريد: إني سقيم من شرككم وعنادكم وتصلبكم في ذلك. خاصة وقد عرف القرآن إبراهيم بأنه جاء ربه بقلب سليم على ما بيناه.

90.فتولوا عنه مدبرين.

كان قومه على ميعاد يوم عيد، أعد مكان خاص للاحتفال به، ولما عبر لهم عن سقمه، وفهموا منه أنه لا يقدر على التنقل، تركوه وراءهم في المعبد، وانصرفوا لعيدهم.

91-93، فراغ إلى آلهتهم..ضربا باليمين.

وجد إبراهيم نفسه وحيدا في المعبد، وأمام كل صنم أنواع من الأطعمة التي يتقرب بها العُبّاد، والتي تنتهي في بطون السدنة. فمال إليها حذرا من أن تكون بعض

العيون ترمقه. الا تأكلون ؟ أنواع الأكل أمامها ولم تأكل، فعرض عليها لن تأكل وحثها على ذلك. ثم صعد اللهجة: مالكم لا تنطقون إذا كنتم آلهة فمالكم لا تعبرون عما في نفوسكم وما ترغبون فيه وما لا ترغبون. حرك حواره معهم تغيظه على جمودهم وبما أن الحياة لا تجري فيها لا بالأكل ولا بالتفكير والنطق، وهي قائمة أمامه وقد أضلت قومه. اندفع نحوها بكل غضب وحذر ليهشمها قبل أن يتفطن إليه أحد.

فمال على الهتهم وقد تمكن منها، وأخذ يضربها بكل ما أوتي من قوة ضربا هشمها، وتركها قطعا متناثرة.

94. فاقبلوا إليه يزفون.

بلغ خبر وضع الآلهة لقومه وهم محتفلون بالعيد، أثارهم أيما إثارة، وأقبلوا مسرعين. وكان منظرا فظيعا حسب اعتقادهم، وقاموا ببحث انتهوا إلى أن الفاعل هو إبراهيم

95-96: قال أتعبدون...وما تعملون.

اقتصرت القصة في هذه السورة على أنهم أحضروا إبراهيم وسألوه، وأنه أجابهم برباطة جأش، واحتقار لعبادتهم هذه المنحوتات التي هي من صنع أيديهم. وسألهم سؤال إنكار كيف يتعصبون لمعبودات لا حقيقة لها، إلا أنها منحوتات في خشب أو حجارة، هم نحتوها وأعطوها صورها التي أسعفهم بها خيالهم. فمن سفاهة الرأي أن يعبد الصانع ما يصنعه. إن الحقيق بالعبادة هو الله الذي خلقكم وأقدركم على العمل في مواد هي من خلقه أيضا . فالله هو الحقيق بالعبادة .

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

بيان معاني الألفاظ

الجحيم : النار الشديدة.

الأسفلين : المغلوبين.

البشارة : الإخبار بما يسر.

حليم : قوي الذكاء رصين في تفكيره، ملتزم بالأخلاق الفاضلة.

أسلما: سلم واستسلم وأسلم معناها واحد، انقاد له.

تله : صرعه.

للجبين : على الجبين وهو أحد جانبي الجبهة

صدق الرؤيا : فعل ما يحققها في الخارج.

البلاء المبين : الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم.

الذبح : المذبوح كبشا أو غيره .

باركنا : زدناه في الخير من وجوه عدة.

محسن : عمل بما هو حسن.

ظالم : مشرك.

بيان المعنى الإجمالي

استقر رأي قوم إبراهيم على أن يبنوا له بنيانا يشعلون فيه النار فتتوقد أشد ما يكون التوقد، ثم يلقونه فيها، وبهذا لا يبقى من إبراهيم أي أثر. وأعدوا ما أرادوا من الكيد له، فنجاه الله من النار وخرج سالما فغلبهم ماديا كما غلبهم بالحجة. ولما وصلوا إلى هذا الحد من المقاومة أذن له ربه في الهجرة، فأخبر أهله أنه سيغادر أرض قومه، ويتوجه إلى حيث يهديه الله. خرج معه من كان يعيش معه فقط وابتدأت الغربة القاسية، فتوجه إلى ربه داعيا أن يؤنسه بولد يكون عميق الصلاح، يواصل مسيرته بعد موته. استجاب الله دعاءه وبشره بأنه سيولد له غلام يجمع بين الذكاء وسمو الأخلاق والاتزان في التدبير .ولد له إسماعيل؛ فلما كبر وبلغ أنه يساعده في الحياة بيديه وبرأيه، رأى إبراهيم رؤيا مفادها: أن الله يأمره بذبح هذا الولد الصالح والرفيق. عرض الرؤيا على إسماعيل: إني رأيت في المنام أني مأمور بذبحك، فانظر معي في الأمر، وأخبرني بما تراه. ظهر حلم الولد في أسمى مظاهره. الإيمان والطاعة هما الأساس، وانضاف لهما الشجاعة والصبر . يا أبت:

هذا أمر الله فافعل ما تؤمر، كن مطمئنا فسترى أني سأكون صابرا إن شاء الله. استسلم الوالد لأمر الله واستعد لذبح ابنه، واستسلم الولد لينفذ في رقبته الأمر الإلهي. فصرع الوالد ولده على جبينه، وبدت رقبته. في تلك اللحظة ناديناه بواسطة ملك: يا إبراهيم ! صوت تجاوب في الفضاء الساكن، صوت حق، ثم أضاف قد حققت ما أمرت به في منامك، وبلغت بذلك أسمى ما يمكن أن يبلغه الإنسان في الطاعة. وعلى وزان سمو طاعتك سأجزيك جزاء المحسنين من عبادي. إن هذا هو الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. وحتى يتحقق الذبح قدر الله أن يحضر بين يدي إبراهيم كبشا أو نحوه، وذبحه إبراهيم بإذن من ربه فداء لولده، وأصبح هذا الذبح سنة ظهرت في شريعة محمد ﷺ وبهذا بقي ذكر إبراهيم في الأجيال التالية سلام على إبراهيم من رب العالمين ومن المؤمنين سنة في التشهد في الإسلام وفي الصلاة على رسول الله ، وعلى هذا النحو من الجزاء الكبير المستمر نجزي المحسنين، ونوه بإبراهيم بأنه كان من زمرة المؤمنين الصادقين. ثم سجل القرآن تفضلا آخر على إبراهيم بعد أن نجح فيما ابتلاه الله به، فبشره سبحانه بولد اسمه إسحق سيكون نبيا ومن القوم الصالحين . وحقق الله أنه بارك وكثر الخير في إبراهيم وفي ولده إسحق .ولكن الفضل والتكريم لا يورث منهما، بل من ذريتهما من سار على الهدى فيجزى جزاء المحسنين، ومنهم من انحرف فيجزى حسب ظلمه وفساده .

بيان المعنى العام :

97 -98: قالوا ابنوا..فجعلناهم الأسفلين.

عجزوا عن مقارعته بالحجة، ولم يبق لهم متمسك يبرر عبادتهم للأصنام وقد تبين عجزها نظرا وفعلا. وهم متصلبون في كفرهم، مستبدون في تعاملهم، وشأن المستبدين إذا ضاقت بهم سبل العقل الملزم، أن يلجأوا إلى القسوة والعسف والتسلط المادي القاهر. فلذلك اتفق رأيهم على إزالته من الوجود بأقسى طريقة: أن يبنوا له بناء يوقدون فيه النار (قد يكون فرنا) حتى تبلغ أعلى درجات حرارتها، ثم يقذفوه فيها. ونفذوا ما فكروا فيه. ويخرج إبراهيم سالما من الجحيم، فسُقط في أيديهم؛ وأيسوا من القضاء عليه، وكما كان وضعهم في المحاجة الوضع السافل المغلوب، فكذلك الأمر في المقاومة المادية كانوا مغلوبين، علا عليهم إبراهيم منفردا، بفضل عناية ربه .

99-100 ﴿وقال إني ... رب هب لي من الصالحين﴾

بعد أن بلغت بهم القساوة والكراهية الحد الذي رموا به في الجحيم، يئس إبراهيم من اهتداء قومه .وأعلن عزمه على الهجرة إلى حيث أمره ربه. وهل أخبر بذلك قومه أو أخبر بذلك أهله الذين قدر أن يخرج بهم معه؟ يحتمل هذا وذاك. وأردف أنه واثق من أن ربه سيهديه في هجرته إلى ما فيه صلاحه دنيا وأخرى، وذلك حسبما عوده به ربه من حسن التوجيه والتأييد، وبحسن اعتماده هداه ليبني في مكة الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض. وليعمر ذلك الوادي الذي لا زرع فيه، وليكون نسله القومة على ذلكم البيت .

- وضع الوضع الجديد: ترك قومه وراءه، وأصبح غريبا في الأرض ليس معه إلا من أخذ معه من أهله، ولم ينجب ولدا يشاركه القيام بأعباء الحياة، ويرى فيه استمراره في الوجود بما يحمل من قيم الحق والعدل والتقوى. فابتهل إلى ربه أن يرزقه ولدا، وأن يكون من عباد الله الصالحين، فإن تمام نعمة الإنجاب أن يكون الولد صالحا.

101 .فبشرناه بغلام حليم

استجاب الله دعاءه، وأعلمه بذلك مبشرا له بأن سيولد له ولد ذكر يجمع بين الذكاء والنباهة، والعقل الرصين المتأمل، والتحلي بمكارم الأخلاق، وحسن المعشر، وهو المراد بالحلم. والحلم صفة عزيزة، وصف الله بها إبراهيم وابنه إسماعيل، ووصف بها قوم شعيب شعيبا .وهذا المبشر به هو ابنه إسماعيل عليه السلام، جد النبي ﷺ،

102 .فلما بلغ ...من الصابرين﴾

طوى القرآن تحقق البشارة، فقد ولد له ولد. ودرج في صباه إلى أن بلغ الدرجة على السعي مع والده، يعينه على تحمل أعباء الحياة بساعده بقوة بدنه وبرأيه، فتمكن الاتصال بين الوالد وولده، ملأ عليه حياته حبا وإعجابا. وإذا بإبراهيم عليه السلام يرى في منامه أن الله يأمره بأن يذبح ولده. رؤيا منامية، هو مأمور أن ينفذها. لأن إبراهيم مكلف بتنفيذ ما يصله عن طريق جبريل في اليقظة، أو ما يراه في منامه،

لا شك أن الرؤيا كانت أشد ما يكون على إبراهيم. الولد ولد صالح يبهج النفس، ويرضي الوالد الذي يأمل فيه أن يرث علمه وتقواه وحسن سلوكه. والولد وحيده لا ثاني له، ويبتلى بأن يتولى هو بيده ذبحه. عرض الرؤيا على ابنه: بما ينبي صيغة فيها التقريب والتحنن. ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ . عرض الأمر عليه لأنه ما كان مأمورا أن يختل ابنه ويذبحه، ولا هو مأمور بأن يلزمه بالانقياد له، بل هو

أمر يبلغه إبراهيم لمن تعلق به الأمر، ليرى قبوله أو رفضه .كما وقع لنوح عليه السلام مع ابنه فقد دعاه ليؤمن ويركب معه في السفينة فأبى، فلم يجبره .
كان جواب الولد على وزان عرض الوالد: يا أبت ، صيغة فيها التقريب والتودد. إن الله أمر وأمره سبحانه يجب أن ينفذ، فقم بما أمرك الله . وأكد قبوله لأمر الله بقوله: ستجدني ، ستتحقق في الواقع أني وطنت نفسي على قبول ذلك، من الذين كان الصبر خلقا لهم.

103.فلما أسلما...كذلك نجزي المحسنين

عقب حصول الاقتناع من الوالد وولده، وقبول الوالد أمر ربه مستسلما غير رافض ولا معترض، وقبول الولد ذلك أيضا مستسلما لقضاء الله، ابتدأ التنفيذ، فصرع إبراهيم ولده على جبينه فظهرت الرقبة مكان الذبح .
-فلما أسلما وتله للجبين ، كان المشهد فريدا في تاريخ الإنسانية، تصوروا ما يوحي به من عظمة الطاعة، وقوة الإخلاص. في تلك اللحظة ينطلق صوت ينادي إبراهيم، هو نداء بإذن الله أوكل الله به ملكا تجاوب في الفضاء الرحب، رفع إبراهيم إلى مقام عال: خصه الله بندائه باسمه.يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . قمت بالعمل الذي يحقق الرؤيا في الخارج. إنا بعظمتنا وقدرتنا نجزي على هذا النحو الرفيع من السمو الذي ظهر فيه إبراهيم وابنه نجزي المحسنين من عبادنا جزاء يسمو إلى هذا المستوى. وفيه أيضا تنويه بإبراهيم وابنه إذ كان جزاؤهما بإنزال الفرج بعد الشدة بسبب إحسانهما.

106.إن هذا لهو البلاء المبين

هذا تنويه آخر بإبراهيم، فإن ما جرى على إبراهيم، مما صورته الآيات من وقت مهاجرتهم إلى زمن القيام بتنفيذ الأمر، لهو اختبار شديد بين، كيف يقوى الإيمان على عواطف الأبوة، وعلى غريزة حب الحياة، وعلى الظروف التي جعلت الاختبار قاسيا على إبراهيم. ولكن المؤمنين يجدون في ابتلاء إبراهيم وإسماعيل صورة تقويهم على تحمل الابتلاءات، فإنها مهما عظمت لا تبلغ ما ابتلي به إبراهيم .

107.وفديناه بذبح عظيم

من تمام اللطف ومظاهر الفرج، أن الله بعد أن حفظ للولد حياته وللوالد ولده، وهب لإبراهيم ذبيحة يقوم بذبحها فداء لإسماعيل .فقد صدق الرؤيا في الذبح الذي ارتضاه الله أن يكون فداء لإسماعيل، وأن ذلك سيكون سنة في الإسلام إحياء

للمشهد، وتذكيرا بنعمه الله وفضله. لم يعين القران الذبيح أهو كبش، أو وعل، أو تيس .إذ التعيين لا يهم ووصف الذبح بأنه عظيم، إما بالنظر إلى كمال خلقته ووفرة لحمه، وإما للمعاني التي يمثلها هذا الذبح إذ قد كان فداه لاسماعيل الذي جاء من نسله سيدنا محمد ﷺ.

108-111 وتركنا عليه في من عبادنا المؤمنين

افتتحت قصة إبراهيم بأنه من شيعة نوح عليه السلام . وتأكد ذلك باتفاق الخاتمتين لقصتيهما فهذه الأيات هي نظير 78/ 81/80/79- ويلاحظ أنه قيل في نوح سلام على نوح في العالمين، وفي إبراهيم سلام على ابراهيم ذلك من إعجاز القران فإن نوحا مذكور في العالمين جميعا، بينما ابراهيم فلا يذكره إلا أهل الديانات التي تناسلت أنبياؤهم منه

112. وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين

نوه الله بإبراهيم بنجاحه فيما ابتلاه. أفاض عليه من الفضل في جميع مراحل حياته، فكان أهلا لتواصل الفيض الإلهي، فأضاف أن قال: وبشرناه بإسحق على أنه سيولد له ولد ذكر اخر اسمه اسحق، وأنه سيسميه إسحق. وأنه سيسمو إلى مرتبة النبوة، وأنه سيكون من القوم الصالحين. ولما كان نبيا فإنه لابد أن يكون من الصالحين، إذ مرتبة النبوة فيها الصلاح وزيادة. وقد يكون في التنبيه على صلاحه تنويه بالصلاح، وأن كملة البشر ينوه بهم من ناحية صلاحهم، فهي مرتبة نفيسة على الإنسان أن يعمل على بلوغها.

وهذه الأية ترجح ترجيحا يكاد يبلغ درجة اليقين أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق، لأن الحديث عن البشارة بإسحق كانت بعد الابتلاء بذبح إسماعيل. وهي لاحقة للكرامات التي نالها إبراهيم من ربه بعد فوزه في الابتلاء.

113.وباركنا عليه سمبين

بارك الله في إبراهيم ومنحه أنواعا من الخير مضاعفة. فسر ذريته إسماعيل ومحمد ﷺ، وبارك على إسحق وكثر خيره، فتناسل منه يعقوب وموسى وهارون، وكثير من أنبياء بني إسرائيل وعيسى عليهم السلام .

أعقب هذا التنويه بإبراهيم وإسحق، والثناء عليهما بالصدق، والإخبار بأنه بارك عليهما، أعقبه بأن ذريتهما تعامل بميزان ما تقدّم من صالح الأعمال أو بالفساد الذي تألفه. فبعض ذريتهما محسن يثنى عليه ويجازى بما يجازى به المحسنون، وبعض ذريتهما مشرك ظالم، يحاسب ويجازى حساب المشركين الظالمين.

تشير الآية إلى قاعدة من قواعد التصور الإسلامي: أن الفرد لا يرتفع مقامه بنسبه، ولكن بما يقدمه من خير لنفسه وللبشرية عقيدة وسلوكا. وكذلك الأصول لا تتأذى بفساد ما تناسل منها ولا تنحط قيمتها بذلك، فمن ذرية إبراهيم محسنون صالحون أنبياء ورسل وعلماء متقون، وساعون لتحقيق الخير لغيرهم سيجزون جزاء المحسنين، ومن ذريتهما مشركون فاسدون كانوا شرا على أنفسهم وعلى محيطهم، فسيجري حسابهم على ما قدموا .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

[illegible] النعمة الثقيلة .

المستبين: الواضح وضوحا تاما.

بيان المعنى الإجمالي :

القصة الثالثة هي قصة موسى عليه السلام وأخيه هارون، من الله عليهما بنعم عظيمة المقدار . فرفعهما إلى مقام النبوة، ويسر لهما طريق النجاة من الغم الشديد: ظلم فرعون وحياة الذل، وفتح البحر عندما حاصر جند فرعون موسى وقومه، وكتب لهم النصر في جميع المعارك التي خاضوها بقيادة موسى عليه السلام فكانوا الغالبين لأعدائهم، ولم ينهزموا إلا عندما خالفوا أوامره. ومكن الله موسى وأخاه من التوراة الكتاب البين الواضح. وفتح بصائرهما على الطريق المفضي إلى سعادة الدارين من أحصر طريق لا عوج فيه. وأبقى ذكرهما الحسن سائرا بعد موتهما. وسلام من الله معبر عن الأمن والرضا والتقريب ورفع المنزلة. وعلى هذا النحو من التكريم وحسن الجزاء نجزي المحسنين من عبادي الصالحين. وتختم القصة بشهادة الله فيهما أنهما من زمرة الذين صفت عقيدتهم وقوي إيمانهم.

بيان المعنى العام :

114 ← 116 : ولقد مننا على موسى...هم الغالبين.

الآية معطوفة على قصة نوح، ولقد نادانا نوح، وهي القصة الثالثة المسلية لرسول الله ﷺ والمطمئنة للمؤمنين أن العاقبة لهم، والمنذرة للمشركين أن سنن الله واحدة في نصر رسله وهزم أعدائه. تفتتح القصة بالتأكيد على أن الله مكن موسى وأخاه هارون من نعم عظيمة ونبيلة، أولاها نعمة رفعهما إلى مقام النبوة، ثم عرضت الآيات التالية تفصيل المنن.

- أن الله شملهما مع قومهما برحمته فنجاهما ونجى معهما قومهما من الكرب العظيم. نجاهما من ظلم فرعون وزبانيته. ونجى قوم موسى من المهانة التي كانت مسلطة عليهم. ورفع عن موسى وأخيه عميق الاستياء من الذل الممسلط على قومهما. ونجى الجميع من طلب فرعون وكادوا يأخذونهم بعد أن حاصرهم الجند وليس أمامهم ملجأ إلا البحر. ونجاهم من الغرق إذ فتح لهم طريقا يبسا.

-ويذكر التاريخ أن قوم موسى حالفهم النصر على جميع أعدائهم يوم كانوا يأتمرون بأمره، ويلتزمون بتوجيهه وما يحدده لهم .وما انهزموا إلا لما خالفوا ما حدده لهم .

117 :وآتيناهما ...الصراط المستقيم

المنة الثالثة: أن الله أتاهما كتابا مسجلا لوحيه، بيّنا في مقاصده وأغراضه، وتشريعه. وكان إيتاء موسى الكتاب مباشرة، وإيتاؤه لهارون باعتبار أنه عضده في نشره، وفي رجوع بني إسرائيل له عند مغيب موسى.

- المنة الرابعة: شهادة الله بأنهما سارا في موكب المرسلين الذين هداهم إلى الصراط المستقيم المبلغ للسلامة في الدنيا والآخرة من أقصر طريق. الأمر الذي ضمن لمن يتبعهما الفوز بالنجاة في الدنيا والآخرة.

119 ← 121 :وتركنا عليهما ..نجزي المحسنين .

المنة الخامسة: أن الله كتب لهما تواصل الثناء عليهما سائرا مع عباد الله المؤمنين.

– المنة السادسة : السلام والأمن، تحية من الله عليهما مشعرة بالرضا والتقريب والرفع إلى المقامات العليا .

– أجراهما على سنن نوح وإبراهيم، فعلى وزان جزائهما نجزي المحسنين.

122. إنهما من عبادنا المؤمنين

و النعمة هي شهادة الله بعمق إيمانهما فهما في موكب المؤمنين السائر موصولا بالله.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

بعل: إله الكنعانيين .

محضرون : لا يفلتون من العذاب.

بيان المعنى الإجمالي:

بكل تأكيد إن إلياس: إيليا، هو من المرسلين الذين أرسلتهم لإصلاح الناس، ظهرت رسالته في الوقت الذي قال فيه لقومه منكرا عليهم :ما لكم لا تتقون الله، ولا ترعون رضاه ثم سألهم سؤال إنكار وتوبيخ؛ أتدعون بعلا إلها وتتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي منته عظيمة عليكم: أحسن صوركم، وأكمل اجهزتكم. هو الذي تولاكم بعنايته فبلغتم المستوى الذي أنتم عليه، وهو رب آبائكم فالتوحيد هو الدين الذي كان عليه آباؤكم، ووفاؤكم لهم يقتضي أن توحدوا الله وتدعون بعلا. فتصلبوا في كفرهم وكذبوه، فسيساقون إلى العذاب يوم القيامة لا مفر لهم منه. ونجح في التأثير على عباد الله الذين أخلصوا لله فاتبعوه وخالفوا قومهم. وختمت القصة بما ختمت به القصص الأخرى .وآل ياسين هم آل إلياس على أنه يسمى بهما (إلياس، وياسين) وعلى أنه ابن ياسين فيشمل السلام إلياس ومن أعانه على القضاء على بعل وسدنته .

بيان المعنى العام:

123.وإن إلياس لمن المرسلين

بكل تأكيد إن إلياس هو أحد المرسلين، أرسلته لإقامة التوحيد، من هو إلياس؟

اختلف فيه المفسرون، فقيل هو إيليا، من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة موسى ولما جاء في التوراة، فهو لم يأت بشريعة جديدة، بعثه الله لبني إسرائيل الذين انحرفوا فعبدوا غير الله ليعود بهم إلى عبادة الله وحده وتطبيق التوراة في حياتهم .وذهب بعضهم إلى أنه إدريس على أن إدريس ينطق إدراس وبتغييرات صار

إلياس وآخرون إلى أنه ابن ياسين، ومن شأن العربية في نطقها بالأسماء غير العربية أن تطوعها للأوزان العربية.

124 ←125 . إذ قال لقومه...وتذرون أحسن الخالقين.

خاطب قومه المشركين من بني إسرائيل منكرا عليهم، مستفهما، أتكفرون بالله ولا تتقونه سبحانه. كشف من أول الأمر عن مهمته: أنه داعية إلى توحيد الله وتطبيق أحكام التوراة، وليثير خشية عقاب الله في ضمائرهم. ثم أظهر اهتمامه أولا بتحويلهم عن عبادة بعل. فقال لهم منكرا موبخا: أتدعون بعلا إلها تتقربون إليه وتعبدونه، وتتركون عبادة الله الحقيق بالعبادة، لأنه هو الذي خلقكم في أحسن صورة، وأتقن أجهزتكم التي بها أنتم بشر.

وبعل هذا الذي عبدوه، هو أكبر أصنام الكنعانيين الذين تأثر بهم الإسرائيليون واتخذوا إلههم إلها لهم. ويجعلونه رمزا للذكورة والقوة. مثلوه بصورة إنسان له رأس عجل وله قرنان ويحيط بعنقه إكليل وهو جالس مادا يديه. كانت صورته هذه من نحاس مجوف تعلو بناء كالتنور، يوقدون فيه النار حتى يحمى النحاس إلى درجة عالية. ومن شأنهم أن يتقربوا إليه بوضع القرابين على يديه الممدودتين، فتذوب القرابين من شدة الحرارة ولا يبقى لها أثر، فيظنون أنه أكلها وتقبل القرابين من أصحابها.

126 . الله ربكم ورب آبائكم الأولين.

الله وحده هو الذي تولاكم، وتولى آباءكم بعنايته، ووالى ألطافه عليكم، وعلى آبائكم الأولين،، ما كان لكم أن تبلغوا ما أنتم عليه لولا فضله. وذكّرهم بآبائهم الأولين، لأن اليهود أشد الناس حرصا على الانتساب لإسحاق ويعقوب، ويرون أنهم مميزون عن بقية البشر بذلك الانتساب، فتذكيرهم بآبائهم الأولين إلزام لهم بأن يتبعوهم في عبادة الله وحده.

127 . فكذبوه...لمحضرون.

قابلوا الجهد الذي بذله لإقناعهم بالعقيدة الحق، وأنه مبعوث من عند الله، قابل معظمهم ذلك بالتكذيب فسوف يكونون حاضرين في العذاب يوم القيامة لا ينفعهم نسبهم، ولكنه نجح في إصلاح الفريق الذي أخلص لله وطرد وساوس الشيطان وشهوات النفس.

128 ←132 . إلا عباد الله المخلصين...من عبادنا المؤمنين.

يطّرد فيها ما ذكر في خاتمة قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون. إلا أنه يلاحظ أن السلام كان في هذه الخاتمة على آل ياسين، ووجه على أن إلياس

يدعى أيضا ياسين. كما خرج على أن ياسين هو أبو إلياس. فالمقصود السلام على إلياس وذويه من آل أبيه الذين قاموا بإعانته وتحطيم بعل وقتل سدنته. وفي هذه القصة ما يفيد أن سنة الله في المكذبين أنه يجازيهم يوم القيامة عن تكذيبهم، وأما في الدنيا فقد يستأصلهم بعذابه، وقد يؤجلهم لحكمة له في ذلك. ولم يستأصل قريشا، فكان منهم ومن ذريتهم حملة الشريعة والناشرين للإسلام في الآفاق.

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ

العجوز: امرأته.

مصبحين : وقت الصباح.

بيان المعنى الإجمالي :

إن لوطا ﷺ بعثه الله بشريعة إبراهيم الموحدة، وقاوم الفساد المستشري في القوم الذين كان يسكن معهم. فقد كانوا يأتون الذكران ويتجاهرون بذلك. فاذكر ذلك الظرف الشديد الذي نجيناه وأهله المؤمنين به من العذاب إلا زوجه فقد بقيت مع قومها وتم تدميرهم جميعا بانقلاب الأرض وإرسال الحجارة. كان من الواجب عليكم أيها القرشيون أن تتعظوا بمآلهم، فإنكم تمرون على ديارهم الخربة في الصباح والمساء في رحلتكم إلى الشام للتجارة. فما لكم لا تحركون عقولكم لتعتبروا؟!

بيان المعنى العام :

133-136: وإن لوطا...ثم دمرنا الآخرين.

كما أكد رسالة إلياس أكد رسالة لوط، وهو تأكيد يدعو إلى التأمل في قصته والاعتبار بها. وقد تكررت قصة لوط وقومه في القرآن. واذكر إذ نجيناه وكذلك أهله فقد شملتهم بركته فلم يصب أحد منهم بالعذاب، إلا امرأته بقيت في العذاب مع قومها، لأنها كانت مع قومها ضد زوجها.

- بعد أن نجى الله لوطا ومن كان معه من المؤمنين سلط على قومه عذابا دمرهم فخسف بهم الأرض وجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من سجيل مزقتهم شر ممزق. قال تعالى { لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. فأخذتهم الصيحة

مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآية للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم)[1]

137-138: وإنكم لتمرون... أفلا تعقلون

هزت الآية قريشا ليتيقظوا وليعتبروا، فإنهم يمرون ببحيرة قوم لوط التي بها آثار ديارهم الخربة، يمرون بها صباحا ومساء في رحلتهم إلى الشام للتجارة، فكان من الواجب عليهم أن يتعظوا بما جرى على قوم لوط، ويستقيموا على طريقة الإسلام. ما لكم لم تعتبروا ! أفقدتم قدراتكم العقلية.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أبق: صيغة تطلق عند فرار العبد من عند سيده.

المدحضين: المغلوبين الذين يلقى بهم في البحر.

مليم: من ألام إذا فعل ما يوجب اللوم.

العراء: الأرض التي لا شجر فيها.

اليقطين: فصيلة من النباتات تنبسط على الأرض، منها البطيخ والدباء (القرع) والقثاء.

بيان المعنى الإجمالي:

بكل تأكيد يونس أحد رسلي. واذكر يا محمد قصته إذ فر إلى الفلك المشحون دون إذن مني، فركبه مصاحبا للمسافرين على ظهر السفينة. أحس ربان السفينة بأن المركب سيغرق إن بقيت حمولته على ما هي عليه، واتفقوا على أن يجري بينهم القرعة فمن خرجت قرعته بأن يلقى به في البحر، نفذ فيه ذلك. وكان من بين الخاسرين في القرعة يونس فألقي به في البحر، وعقب ذلك أن حوتا عظيما فتح فاه

---

[1] سورة الحجر، 72-76.

وابتلعه كلقمة وكان شاعرا بأنه ملوم على ما فعل. وقد تداركه الله بلطفه لأنه كان يذكر الله كثيرا ويسبحه في كل وقت وفي وقت الشدة، فقذفه الحوت.

قذفه الحوت على شاطئ أرض عراء لا نبات فيها ولا شجر. متأثرا بدنه بالمحيط غير المناسب الذي كان فيه. فتوالت ألطاف ربه عليه، وأنبت عليه شجرة من فصيلة القرع تستره ويتغذى منها، وشفي من سقمه، وقوي بدنه وملكاته على تحمل الرسالة فبعثه الله إلى قوم عددهم كثير مائة ألف بل أكثر من ذلك. ونجح في مهمته فسعد بإيمانهم، وشاهد العون الإلهي الذي شملهم والاطمئنان والرفاه الذي عقب إيمانهم. وواصلوا حياتهم في نعيم إلى الوقت الذي لا بد أن ينتهي فيه متاع الدنيا .

بيان المعنى العام :

139. وإن يونس لمن المرسلين.

تثبت الآية بكل تأكيد أن يونس عليه السلام هو أحد رسل الله. وهذا على نحو ما أثبتته الآيات السابقة لإلياس وللوط . فالأنبياء الثلاثة افتتحت قصتهم بالتأكيد على سمو مقامهم وأنهم من المرسلين.

140. إذ أبق إلى الفلك المشحون.

علق كثير من المفسرين هذه الآية بقوله: إنه لمن المرسلين، أي ظهرت نبوته عند إباقه . ولم أجد هذا رشيقا. وأرجح أنه بعد أن أثبت القرآن نبوته، قال الله لمحمد: اذكر قصة إباقه وما جرى عليه .وأصل الإباق أن العبد (الرقيق) يهرب من سيده الذي ملكه. والذي أفهمه أن يونس عليه السلام بعد أن رفعه الله إلى مقام النبوة، أخذ يدعو قومه إلى توحيد الله، فلم يجيبوه، فاستعجل وخرج مغاضبا لهم. والنبي ليس له أن يهاجر إلا بعد أن يأتيه الإذن من الله. وفي هذه القصة تعليم لرسول الله ﷺ : أن مقام الرسالة يقتضي أن الرسول لا يقدم على الهجرة إلا بعد الإذن الإلهي. وهكذا قص علينا القرآن في نوح وإبراهيم وموسى، فما خرج منهم واحد قبل صدور الإذن له بالهجرة، فخروج يونس بدون إذن إلهي عبر عنه بالإباق . كان خروجه من بين قومه إلى فلك وجده قد تم شحنه، وأنه على باب الإقلاع، فركبه وسارت السفينة بركابها.

141. فساهم فكان من المدحضين.

في أثناء الرحلة البحرية تغيرت الظروف، وتبين للربان أن الفلك سيغرق إذا بقي حاملا لجميع الركاب. واتفقوا على أن تجري بينهم القرعة للتخفيف من الثقل، ومرت القرعة بالسوية بينهم على أن من يخرج له سهم إلقائه في البحر ينفذ ذلك

فيه. أفرد المفسرون يونس عليه السلام بأنه هو الذي خرج عليه سهم التخلص منه، ولكن نص الآية يفيد أن عددا من ضمنهم يونس كانوا من المغلوبين، إذ لو انفرد يونس لقيل كان مدحضا.

142.فالتقمه الحوت وهو مليم.

بمجرد ما رمي به البحر، فغر حوت عظيم فمه فابتلعه كأنه لقمة. وهو في وضعه هذا يتبعه اللوم لهجرته بدون إذن من ربه.

143–144 :فلولا أنه كان من المسبحين..يوم يبعثون.

جاء الفرج بعد الشدة ،ويمن الله ليونس أن يلفظه الحوت ويخرج من بطنه حيا، والسر في ذلك أنه كان من الذاكرين لله كثيرا في حياته، حتى إنه في ذلك الوقت الحرج جدا، وهو في بطن الحوت كان يذكر ربه بما ألهمه إليه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. ولولا أنه كان في حياته من المواظبين على ذكر الله وتسبيحه لبقي في بطن الحوت وكان قبرا له لا يخرج منه إلا عندما يخرج البشر من قبورهم يوم البعث.

و في هذه الآية تنبيه للمؤمنين أن الله يقرب الذاكرين من منازل لطفه، فاذكروا الله في الرخاء تجدوه معكم في الشدة والضيق.

145–146 : فنبذناه بالعراء..يقطين.

تصرفت قدرتنا فرفضه الحوت ولم يهضمه، وألقاه على شاطئ أرض عراء ليس فيها شجرة. وكانت الفترة التي بقي فيها في بطن الحوت قد أثرت في أجهزته، فكان سقيما مريضا، بعيدا عن النشاط. وكل ما ذكر في مدة بقائه في بطن الحوت لا دليل عليه، وإنما هي تصورات ذاتية، لا يلتفت إليها، ذكرها أصحابها ثم نقلت ونشرت على أنها مقصودة من النص. ولطفنا به فأنبتنا عليه في هذه الأرض العراء شجرة من فصيلة النباتات التي تنسحب على الأرض ولا ساق لها، كالبطيخ والقثاء، والدباء المعروف بالقرع. قد تكون النبتة التي نمت ومدت فروعها عليه، صالحة لستره ولغذائه.

147. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون.

طوى القرآن ما تيسر ليونس حتى عاد له نشاطه، وقوي بدنه على تحمل الرسالة، فكلفه الله عند ذلك بأن يتوجه بالدعوة إلى جماعة كثيرة العدد من البشر مائة ألف، بل تزيد. ومائة ألف طريقة في الدلالة على الكثرة، وتحقق ذلك بقوله تعالى: بل يزيدون

148. فآمنوا...إلى حين

تفيد الآية أنه نجح في القيام بما كلف به، وأن الألطاف الإلهية ساعدته، فآمن القوم الذين بعث فيهم. وتبع إيمانهم أن الله أغدق عليهم من نعمه، متعهم بالإيمان وبالاستقرار الفردي والاجتماعي، وبصفة عامة بالشعور بالسعادة. وذلك إلى وقت مقدر لأن نعيم الدنيا غير باق بقاء سرمديا، أي ليس هو نعيم الآخرة.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (157) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159)

بيان معاني الألفاظ

إفكهم : كذبهم

سلطان : حجة.

مبين :موضح للحق.

الجنة :الجماعة من الجن .

النسب: القرابة العمودية الآباء والجدود...والأفقية الأعمام والإخوة....

بيان المعنى الإجمالي :

اسألهم سؤال من يطلب الجواب من المسؤول، وهو في هذا المقام لبيان جهله وغبائه وكذبه. وقد لون القرآن الأسئلة لينقض كل دليل يمكن أن يستندوا إليه.

فالسؤال الأول، أتقولون إن لله البنات التي هي المرتبة المنحطة في عرفكم، وانفردتم أنتم بالذكور التي هي موجب اعتزاز ؟

وثانيا هل إنهم كانوا حاضرين عند خلق الله للملائكة فشاهدوا أن الله خلقهم إناثا. إنه من الكذب على الله ونسبة الباطل المناقض للمعقول ادعاؤهم أن الله قد ولد له. وهذا من أقبح الأقوال المخالفة للحق. إنهم كذبة في قولهم هذا .أتقولون إن الله اختار البنات على البنين، فما أفسد حكمكم، وكيف ذهبت عقولكم فصرحتم بهذا الكذب. أليست لكم عقول بها تتبيّنون الزيف من الحق. أعندكم دليل نزل عليكم من السماء، فقدموا لنا كتابكم هذا إن كنتم صادقين. ما ولده خيالهم المريض، زعمهم أن الله

تخير بنات الطبقة الرفيعة من الجن، فتزوج منهن وأنجب الملائكة، فبين الله والجن نسب. وهذا من أظهر الباطل فإن الجنة ذاتهم يعلمون أنهم سيحضرون جميعا للحساب، يوم القيامة ويجزون عما قدموا، فكيف يحدث أنسباءه ! إن ذلك من سخف القول.

بيان المعنى العام :

149.فاستفتهم ...وله البنون.

أوقفهم يا محمد، واطلب منهم أن يكشفوا عن مباني ما يروجون من الباطل الذي ليس له أي أساس من المنطق ولا يمكن أن يقول به عاقل. استفتهم عن قولهم الساقط المتهافت: أن لربك الذي لطف بك وبكل كائن وأعانه على بلوغ المستوى الذي هو عليه، بما تفيده كلمة الرب حسب اشتقاقها، أن ربك اختص بالإناث، وأنهم اختصوا بالذكور. وذلك بناء على منطقهم، أن الأنثى في المرتبة الدنيا، وأن الذكور أرفع مرتبة. فحسب منطقهم المتناقض يعجز الله فلا يكون له إلا البنات، وتظهر قوتهم فيستأثرون بالذكور. إن قولهم ساقط حسب طبيعة تفكيرهم.

150. أم خلقنا الملائكة...شاهدون.

واذهب في إسقاط أسطورتهم أن الملائكة إناثا، فاسألهم هل إنهم حضروا مشهد خلق الملائكة فعاينوا أن الله خلق الملائكة إناثا. فانتفى دليل المشاهدة ضروريا.

151←152: ألا إنهم من إفكهم ...وإنهم لكاذبون.

وتنقض الأيتان أسطورتهم من الناحية العقلية، فتفتتح الآية الأولى بكلمة "ألا" التي توقظ السامع فترسم في ذهنه أن كلامهم كله كذب وبهتان لا يستند إلى برهان. يقولون إن الله ولد ذرية، كذبوا شر كذبة، فهو العلي الغني المطلق، الكل عبيده.

153←155. اصطفى البنات...تذكرون.

فلو فرضنا أن الله اتخذ ولدا، فلماذا اختار واصطفى الإناث على الذكور، مع أنه حسب مقاييسكم الاجتماعية من رزق الذكور هو أعلى شأنا في المجتمع، وأكثر حظا. أمركم عجب في السُّخف والغباء، مالكم تحكمون هذا الحكم الباطل، وكيف حكمتم به، ألكم عقول أم إن عقولكم سلبت منكم ؟

156←157 أم لكم سلطان مبين...إن كنتم صادقين.

على ماذا استندتم، أتملكون حجة عقلية واضحة الدلالة أو خبرا من السماء أنبأكم، أن الله خلق الملائكة إناثا. فاعرضوا علينا الكتاب الذي أنزل عليكم الذي وجدتم فيه

ما تزعمون، والأمر في قوله فأتوا بكتابكم، هو أمر تعجيزي، لا يطلب من المأمور أن يستجيب ولكن لإظهار عجزه، وبالتالي كذبه وأنه غير صادق.

158- ومما اختلقوه، وكونوا منه أسطورة من توليد خيالهم، ادعاؤهم أنه وقع تزاوج بين الله وبين بنات الأمر الماجدة من الجن، فتولد من ذلك الملائكة. جعلوا بينه وبين الجنة نسبا، وحمله بعضهم على أن المراد بالجنة هنا الشيطان، عقيدة فاسدة انتشرت في بلاد فارس وما جاورها مفادها: أن الله خطر له خاطر من الشر فتكون منه إله الشر. وهذا محمل بعيد لا ينظر إليه، لأن هذه العقيدة التي تقول بالثنوية وهي غير معروفة أصلا عند القرشيين. هذه المزاعم والأكاذيب ينفي أن يكون لها أي حظ من الحق، هو أن الجنة الذين يزعمون أنهم من أسرة الله يعلمون أنهم سيحضرون يوم القيامة للحساب والعذاب. فتناقض سخيف أن يكونوا أنسباء الله، يوقفهم ويعذبهم.

159 . سبحان الله عما يصفون.

تنزه الله تنزها ينفي كل هذه المقالات الفاسدة والاعتقادات الضالة، ويبطل كل الأوصاف التي ألحقوها برب العالمين. وفي ذلك تعليم للمؤمنين كيف يواجهون مثل هذه الأكاذيب والخيالات. فعليهم أن يصرحوا بأنهم ينزهون الله عن كل نقص.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿160﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿161﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿162﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿163﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿164﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿165﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿166﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿167﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿168﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿169﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿170﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاتن : المضل.

صال الجحيم : الذين يصلون الجحيم.

ذكرا : كتابا

بيان المعنى الإجمالي :

لكن عباد المخلصين ناجون من العذاب. بكل تأكيد يسقط مكركم أنتم مع ما تعبدون على قلعة الإيمان، فلا تستطيعون فتنة المؤمنين ولا التأثير فيهم، لهم من نور الإيمان ما يكشف ثم يرفض ما تروجونه من الأباطيل. ويقتصر إفسادكم على الذين

اختاروا أن تكون عاقبتهم الجحيم يصلونها. ثم أعلن الملائكه ردا لمقالاتهم واعتزازا بما اهتدوا إليه فقالوا، إن كل واحد منا معشر الملائكة له مقام معلوم لا يتجاوزه، سعيد بأن يؤدي في مقامه ذلك الطاعة في الحدود التي حددها لنا ربنا. النظام هو الظاهرة التي عليها وضعنا، والتسبيح والتقديس لرب العالمين هو أليفنا لا نفتر عنه.

لقد دأب القرشيون على القول: لو كان عندنا كتاب من الرسل الأولين موجه إلينا لكنا عباد الله المتميزين بالإخلاص الكامل، ولفقنا اليهود والنصارى في دعواهم الاعتزاز بكتابهم. ولكنهم بمجرد ما جاءهم كتاب هو أهدى من جميع الكتب السابقة مضمونا وصياغة، تصلبوا في الكفر به. هنذدهم بأنهم سوف يعلمون في المستقبل ما سيحل بهم من العذاب والنكال.

بيان المعنى العام :

160-إلا عباد الله المخلصين

في الآية السابقة تنصيص على أن الكفرة محضرون للحساب والعذاب، واستثنت منهم هذه الآية استثناء منقطعا بمعنى "لكن" أي لكن عباد الله المنسوبين إليه نسبة التقريب والتشريف، المخلصين في تقديسه وتنزيهه ناجون لا ينالهم العذاب الموعود به الكافرين يوم القيامة.

161-<163 . فإنكم وما تعبدون...صال الجحيم

بكل تأكيد أنتم أيها المشركون، مع الهتكم، أنتم عاجزون عن إضلال أي فرد ممن سبقت لهم منا الحسنى. إنه لا تأثير لكم في الصرف عن عبادة الله وعدم تنزيهه، وإلصاق ما هو منفي عنه عقلا وواقعا، إلا الذين اختاروا لأنفسهم الضلال، ونسبوا لله البنات من الجن، وأعدوا أنفسهم ليصلوا نار الجحيم، أي من آثروا طريق الفساد والكفر والكذب على الله الذي يبلغهم الجحيم يوم القيامة.

164 -<166 : وما منا إلا...لنحن المسبحون.

هذا من تمام كلام الملائكة، الذي يبدأ من قوله تعالى سبحان الله عما يصفون: ولقد علمت الملائكة وشهدوا: أن المشركين افتروا على الله الكذب، واختلقوا من أوهامهم النسبة بين الله والجن، وقال الملائكة: سبحان الله ننزهه عما يقولون ويكذبون، واستثنوا عباد الله المخلصين فأثبتوا أنهم مبرؤون مما يقول الكفرة. وقالوا للمشركين إنه بناء على تحقق ذلك فإنكم مع الهتكم لا تقدرون أن تفتنوا أحدا وتضلوه، وتأثيركم مقصور على من كان مثلكم من الذين اختاروا سلوك طريق

الضلالة، وآثروا اتباع الوساوس، وعطلوا عقولهم. كيف يكون بيننا وبين الله العلي الأعلى نسب، وما نحن إلا عبيده لا نملك شيئا من أمرنا، هو الذي هدانا وهو الحقيق بأن نخضع له ونذل له سبحانه . لكل منا مقام من الطاعة ومن العمل معلوم لا يتجاوزه ولا ينقص منه. نحن خاضعون لجلاله خاشعون لعظمته، منفذون لأوامره. ثم أخبروا بأنهم الصافون؛ وقد ذهب المفسرون في بيان ذلك أنهم يقومون صفوفا. ولما كانت الملائكة أجساما نورانية لا نعلم كيفيتها ولا هي مما يدخل تحت تصورنا، فيكون معنى صافون: منتظمين لا تجد في جمعنا على كثرة عددنا أي مظهر من مظاهر الفوضى فليست الصفوف سطورا منتظمة. والتنظام كمال والفوضى نقص. وقد أراد الله من خلق الملائكة أن يكونوا مطيعين لا يعصون. إننا نسبح ربنا وننزهه ففي ذلك متعتنا.

ويمكن أن يكون الكلام كلام محمد ☆ يقول: ما من أحد من المسلمين الصالحين إلا له مقام معلوم في الجنة على قدر عمله وإخلاصه، ثم نوه بالمؤمنين أن الإسلام دخل عقولهم فنظمها فانتظمت فعالهم تبعا لذلك، وخاصة في الصلاة إذ هم يعنون بانتظام صفوفهم، وأن لا يبقوا فيها فرجا ولا نبوا. ونحن المسلمين نواظب على تسبيح الله وتنزيهه عما يقوله الكفرة الملحدون.

167 ← 170: وإن كانوا ليقولون...فسوف يعلمون.

بعد أن تتبع القرآن كثيرا من مفترياتهم، ومن أضاليلهم، ومن أساطيرهم، فأبطلها وأقام الحجة عليهم، انتقل القرآن للتنديد بتناقضهم، والتشهير بمقالاتهم التي قالوها فلم يفوا بها. كانوا قبل أن ينزل الله القرآن على محمد ☆، يتحدثون في مجالسهم، متحرقين أن الله لم يبعث فينا رسولا، ولو أنزل علينا كتابا من الرسل السابقين مثل موسى وعيسى. لو جاءنا رسول يخاطبنا بكتاب من عند الله، إذ الرسل السابقون ما كانوا معنيين بنا، لو جاءنا رسول لأسرعنا للإيمان به إيمانا يرفعنا إلى أن نكون عباد الله حقا المخلصين له كامل الإخلاص. لا يقاس مستوى إخلاصنا بإخلاص الأمم الأخرى. وجاءهم الرسول منهم يعرفونه بكل الصفات النبيلة السامية، وبكتاب هو أفضل الكتب على الإطلاق، مضمونا، وصيغة. فتنكروا لكل أمانيهم وكفروا به، وتعصبوا في كفرهم وتصلبوا فكانوا من أشد الناس كفرا. كما جاء في قوله تعالى: وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيء)[1] يهددهم القرآن تهديدا في عدم تفصيله، ما يفيد فظاعته. سيحل بهم لا محالة في المستقبل كما تفيده "سوف".

---

[1] سورة فاطر آية 42

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

كلمتنا : كلامنا.

تول عنهم : أعرض عنهم ولا تتأثر حزنا بإعراضهم.

حين : وقت قليل.

أبصرهم :تأمل أحوالهم.

بساحتهم : وسط مجمعهم .

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد سبق كلامنا في الأزل بوعدنا لعبادنا المقربين المرسلين: إن النصر لهم وحدهم، وإن الهزيمة تنزل على أعدائهم. ووعدنا لعبادنا المجاهدين من جند الله: إنهم هم الغالبون لأعدائهم، المفوزون بالظفر على أعدائهم. فأعرض ولا تبتئس بما يفعلون، فلن يطول بهم الأمر، وسيتحقق الوعيد فيهم ،وراقبهم ببصرك المتأمل في أحوالهم، فإنك تجد أن مجتمعهم مجتمع منحل أيل إلى الفساد، وستشاهد عاقبتهم فيسرك الله بذهاب أمرهم، وسيبصرون تلاشيهم فيتنكون.

قابل المشركون التهديد بعدم المبالاة بل طلبوا أن يتحقق الوعيد. وإنه لأمر عجب أن يطلبوا نزول العذاب الإلهي الماحق بهم، مثلهم كمثل منذر أنذر قومه استعداد جيش للإغارة عليهم، فلم يقوموا بواجب الاستعداد للجهاد، وإذا بالجيش المغير ينزل فجأة صباحا بوسط مجمعهم، ويتحكم في جميع السبل فتحل بهم الهزيمة النكراء. فما أسوأ صباح المنذرين.

بيان المعنى العام:

171←173 : ولقد سبقت كلمتنا...الغالبون.

بكل تأكيد ثبت منذ الأزل، بكلامنا الذي لا يحتمل النقض ولا التعطيل، الموجه لعبادنا الفائزين بتقريبهم منا بما تفيده كلمة "عبادنا" الذين اخترناهم لتحمل رسالتنا لهداية العالمين، ثبت يقينا فاطمئنوا لتحقق الوعد: إنهم هم المنصورون على

أعدائهم. وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ باعتباره خاتما للمرسلين، أنه منصور لا محالة، وأن الهزيمة لاحقة بأعدائه. ثم ثنى القرآن بتبشير المؤمنين المجاهدين: أنهم جند الله جلجلنما قبلهُم الله فنسبهم لذاته العلية تكريما لهم وتنويها بما يقومون به، أن الغلبة لهم في مقامات الحجاج لأن الدين الذي يدافعون عنه ويحتجون له، هو دين العقل، فحجتهم دائما يسندها العقل، والمخالفون لهم يدفعهم الهوى والظنون، والنصر لهم وحدهم في المعارك الفاصلة في ميادين القتال، ما داموا يمثلون الإسلام فعلا، لا انتسابا فارغا.

174.فتول عنهم حتى حين.

لمّا ثبت أنك بعناية ربك وأن الله ناصرك، فأعرض عنهم إعراضا يجعلك لا تتأثر بمواقفهم الرذيلة، ولا تتنكّد بسوء صنيعهم وتصلبهم في الكفر، إنه لن يطول الأمر بهم فإلى مدة قريبة سوف ينهزمون.

175.وأبصرهم فسوف يبصرون.

تتبع أحوالهم متأملا فيها، فإن الكفر يسير بهم في طريق الانحلال والفساد، يتبين لك من متابعتك المتعمقة أنهم صائرون حسب سنن الله إلى التلاشي والانهزام، وأنهم سيبصرون عاقبتهم مع الندم على ما فرطوا.

176.أفبعذابنا يستعجلون.

لمّا توعدهم القرآن بقرب تحقق الوعيد فيهم، قابلوا هذا التهديد حسبما اعتادوا من الاستكبار والتحدي، قابلوه بطلب أن ينزله الله بهم قريبا تكذيبا للوعيد. وإنه لمن عجيب أمرهم أن يستعجلوا عذاب الله.

177. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين.

هذا تمثيل بديع يجسم ما سيحل بهم كأنه واقع مشاهد أمامك أيها التالي لكتاب الله. مثلهم كمثل ناصح أمين لقومه، أنذرهم جيشا قادما للإغارة عليهم، وحرّضهم على الاستعداد للجهاد، فلم يلتفتوا إلى نصحه.

ولمّا كانوا ما يزالون في حال الدعة صباحا، إذا بالمغيرين تمكنوا في لحظة خاطفة من احتلال وسط المُجمّع، وتحكموا من كل السبل الرابطة، وفتكوا بهم. وعلى هذا النحو سينزل بهم عذابنا ،أنذروا به، يأتيهم مباغتا، يعطل كل قواهم في لحظة واحدة، يمحقهم .

178 -179، وتول عنهم ...فسوف يبصرون،

يمكن أن تكون تأكيدا للآيتين 174و 175- ويمكن أن يكون التولي تحول عنهم عمن بقي من المشركين بعد نزول العذاب الذي استعجلوه بهم. كما يحتمل أن يقصد بحين إلى وقت فتح مكة، أو إلى يوم القيامة.

180سبحان ربك...عما يصفون،

مطلع بديع يرتبط بكل ما سجله على المشركين أثناء السورة من تجاوزاتهم وخيالاتهم وجراءتهم على الله، يعطف عليها لينقضها ويعلن تنزهه سبحانه عن كل نقص في ذاته، وأن اختياره لك يا محمد كان اختيارا مبنيا على علمه الكامل الشامل، إنه ربك والي عليك رعايته حتى بلغت المستوى الرفيع لتكون خاتما لرسالاته في الأرض .هو رب العزة، صاحب العزة التي لا يلحقها عجز، وهو رب ما يرزقه من العزة لأي إنسان .فعزة الملوك والرؤساء والعلماء، وقواد الجيوش المنتصرين ونحوهم، هي مملوكة له، تفضل بما قدره لكل واحد منهم بالمقدار الذي تقتضيه الحكمة. فبان أن الكمال المطلق ثابت لربك العزيز الذي لا يُغلَب، المانح العزة لمن يشاء، على أن العزة الحقيقية بعد الله هي لرسوله وللمؤمنين. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. فهم الذين لا يخضعون إلا لله، ولا يرجون فضلا إلا منه، ولا يتقربون تقربا يعتزون به من أحد سواه. تنزه ربك عن كل ما يحاول أن يلصقه به المشركون والكافرون والمعطلون. أن هذا التصور المنزه هو الذي يبعث في الإنسان العزة الحقيقية، ويعلي مقامه، ويسمو به عن دركات ذل العبودية لغيره .

181. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

إن سبيل الرقي إلى التصور الصحيح عن الله لا يبلغ العقل مهما أوتي من ذكاء وفطنة المستوى الذي يكون فيه التصور تاما واضحا بعيدا عن كل شائبة ودخيلة . وكذلك السلوك لا يكون محصنا من دواعي الشهوة ووساوس الشيطان، كل ذلك لا يتحقق إلا بفضل رسل الله الذين يطوعون النفوس للخير، ويجعلونها تشمئز من الشر والرذيلة، يجد الإنسان منهم العون والتوجيه والرفق، وهم بكلامهم أو بفعالهم يجسّمون المثل المحتذى، فسلام الله عليهم كفاء ما قدموا للإنسانية من خير.

و الحمد الكامل والثناء الجميل، والاعتراف بالفضل اختص به رب العالمين، فما من كائن إلا لسان حاله إن لم ينطق لسانه، هو معترف بالثناء على الله، وأن ما لحقه من خير ونعمة فهو من الله.

وإنه لحقيق بالمؤمنين أن يرددوا هذه الخاتمة لجمعها لتلكم المفاهيم العالية، حتى تكون معانيها حاضرة في عقولهم وأرواحهم .

روى ابو سعيد الخدري ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول اخر صلاته أو حين ينصرف : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)

وعن علي ﷺ : (من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل اخر مجلسه حين يريد أن يقوم: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

ســــــورة ص

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من أول آية فيها[صاد] بسكون الدال. هي سورة مكية بإجماع .ترتيبها حسب ترتيب المصحف الثامنة والثلاثون. وحسب ترتيب النزول الثامنة والثلاثون. نزلت بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف. روي مما يفيد أنها نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات.

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (1) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (2) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (3) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (5) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (6) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (7) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (8)

بيان معاني الألفاظ.

ذي الذكر : تذكير الناس بما هم عنه غافلون.

العزة : المعازة والمغالبة .

لفي شقاق بعيد: متجذرون في العناد والخصام.

قرنا: أمة.

نادوا: دعوا الله.

مناص: النجاء .

عجاب : يثير أشد العجب.

انطلق :اذاعوا مقالتهم يتحركون بها في المجامع.

الملا: أشرافهم، وأصحاب الجاه والسؤدد فيهم .

أن امشوا : واصلوا السير على ما أنتم عليه.

اصبروا: الثبات والملازمة.

اختلاق: كذب مخترع لا شبهة لقائله فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت بحرف واحد يقرأ (صاد) الذي يقال فيه ما بسط في أول سورة البقرة، وألحق به قسما بالقرآن الموصوف بأن التذكير صفة لازمة له ليرفع عن القلوب غفلاتها، و يذكرها بكل ما هي في حاجة إليه مما يصلح شأنها في الدنيا والآخرة، مع هذا المستوى الذي هو عليه لم ينتفع به الذين كفروا لأنهم استكبروا عن هدايته معتزين بما تجمع لهم من تجبر في الأرض مصممين على العناد، اغتروا بذلك، وهي قوة تنهار أمام النقمة الإلهية. فلينظر هؤلاء الكافرون في كتاب التاريخ، فقد أهلكنا قبلهم أمما كثيرة استكبرت وعصت، أهلكناهم وأبدناهم، ولم تنفعهم التوبة بعد فوات أوانها .فكانت استغاثتهم في الوقت الذي لا تنفع فيه استغاثة ولا توبة . وأبدوا عجبهم من كون المنذر واحدا منهم يشاركهم في خصائصهم الإنسانية وفي الانتساب إلى نفس العرق والنوع الإنساني. وهذا من تصلبهم في العناد، لأن كونه واحدا منهم مرجح لتصديقه لا للتعجب منه، لأنه بهذه الصلة يكون حريصا على نفعهم لا على غشهم. ويكونون أعرف بأخلاقه وشمائله. ومما دفعهم إلى العجب أيضا أن مضمون دعوته توحيد الإله، ورفض التعدد. ثم أخذ المقدمون في الرتبة الاجتماعية يحرض بعضهم بعضا ويحرضون الأتباع على مواصلة التشبث بالشرك، وأن يثبتوا على عبادة الأصنام متحملين في ذلك كل ابتلاء. زاعمين أن الطعن في الآلهة هو أمر تم تدبيره وإعداده، وإرادة تنفيذ ه. ما سمعنا بما يدعيه من تفرد الإله المعبود في أقرب الأديان زمنا منه، فعيسى يدعو إلى التثليث، ودينه آخر دين، فما يدعيه من الوحدانية وما يطعن به في تعدد الآلهة هو كذب لا سند له اخترعه من عنده. ثم واصلوا مؤيدين شركهم، رافضين لرسالته بقولهم نتساءل، كيف اختاره الله من بيننا لينزل الذكر عليه، يعني ولا مزية له واضحة ؟ لنضرب عن متابعة شغبهم. فالحقيقة أنهم انغمسوا في الشك في أمر هذا الذكر زعموا أنه: سحر أساطير، كذب، شعر، كهانة؛ أعرض عنهم. فإنهم واصلوا تكذيبهم لأنه لم يصبهم عذابي إلى اليوم، مما يتضمن تهديدا أن حلول العذاب بهم غير بعيد

بيان المعنى العام :

1.ص والقرآن ذي الذكر

افتتحت الآية بـ (ص) الذي يقرأ هكذا " صاد" وهو جزء من الآية، وليس آية مثل نظائره من السور التي افتتحت بحرف واحد، فلم يعتبر ذلك الحرف آية، كـ (ن) ،

والقرآ ويقال فيه ما ذكر في فواتح السور التي ابتدئت بحروف مقطعة، مما ذكر في سورة البقرة.

ذو الذكر - صاحب الذكر وما أضيف لفظ ذو رفعا وذي جرا، يدل على أن مدخولها مهتم به حظه رفيع منوه به . كما تقول ذو علم أو ذو تقى أو ذو مال.

والقرآن - قسم بالقرآن الذي من صفاته الكاشفة عن حقيقته أنه الموصوف بالشرف وعلو المنزلة، و أنه يذكر الناس بما تضمنه من كل ما هم في حاجة إليه من العقيدة والتشريع. يوقظ عقولهم وأرواحهم ويحميهم من الغفلة والضياع.

وجواب القسم مقدر: أي والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز، يهدي العقول التي لا تكابر في الحق.

2-بل الذين كفروا في عزة وشقاق

انتقال من التنويه بالقرآن، الذي صفته أنه مذكر للناس، إلى رفع اشتباه وهو أنه إذا كان على هذا المستوى من إصلاح البشرية فما بال الذين كفروا لم يتعظوا به ولم يصلحهم؟ فصرحت الآية بأن علة عدم تذكرهم بالقرآن، هو أولا فساد في نفوسهم إذ استولى عليهم الكبر، وأخذتهم العزة الموهومة بمكانتهم في الكون، وثانيا أنه تولد عن كبرهم، تأصل العناد فيهم وتمكن الخلاف من نفوسهم فغدا طبعا لهم.

3-كم أهلكنا...ولات حين مناص

هذا وعيد محذر للمعتزين المعاندين، بما جمعوا من القوة وأعراض الحياة الدنيا، ينذرهم بأن مآلهم سيكون كمآل أمم كثيرة مضوا قبلهم في الحياة،واستكبروا وعاندوا، فأهلكناهم، وحق عليهم العذاب، واستغاثوا عندما استيقنوا حلول العذاب، ولكن فات الوقت، فلات حين مناص: فليس الوقت وقت نجاء من العذاب.

4-وعجبوا أن جاءهم...ساحر كذاب

وتملكهم العجب أن كان النذير المنبه لهم من سوء العاقبة، إذا هم لم يصلحوا شأنهم في العقيدة والسلوك، أن كان النذير واحدا منهم. ومن بديع النسج القرآني وصف المنذر بأنه منهم، الذي يدل حسب طبيعة الأشياء أن يكونوا أطوع له لما تحمله القرابة من حرص على النفع فتبرير إعراضهم بأنه واحد منهم يحقق ما ذكر من استكبارهم وتصميمهم على العصيان. ودفعهم كفرهم إلى أن يتهموه بأنه ساحر كذاب. ساحر في زعمهم لأنه استطاع أن يؤثر في عقيدة بعض الناس فحولهم بكلامه عما كانوا مقتنعين به، وكذاب لأنه يدعي أنه مرسل من عند الله. وذلك حسبما فصلته آيات أخرى: أن الرسول لا بد أن يكون من غير جنس البشر .

5.أجعل الآلهة...لشيء عجاب.

اخذوا يبررون رفضهم: أنه قلب للحقيقة ورفع للواقع، جعل الآلهة إلهاً واحداً، وما عداه باطل وزيف. إن هذا امر يثير أشد العجب، لأنهم مضوا على الشرك أمداً، فهذا محل اقتناع جماعي قبلة الأخلاف عن الأسلاف.

6-7: وانطلق الملأ...إلا اختلاق.

واصل أشراف القوم وسادتهم، ما كانوا عليه من تمجيد لآلهتهم، يحرض بعضهم بعضا على الثبات على عقيدتهم، وبهذا يكون الانطلاق انطلاقا مجازيا. كما يمكن أن يفهم على أنه انطلاق حقيقي، بناء على ما روي انه لما احتضر أبو طالب عم النبي ﷺ. قال أشراف قريش: إنه من القبيح علينا أن نبالغ في إذاية محمد بعد موت أبي طالب فلننطلق إلى أبي طالب نعرض عليه أمرا: هو إنصافه لمحمد، تركه يعبد إلهه في بيته، ولا يتعرض إلى آلهتنا بسوء، فاجتمعوا عنده وحضر النبي ﷺ، وقال له عمه: إن هؤلاء قومك قد أنصفوك، وعرض عليه مقالتهم. فأجاب النبي ﷺ : فليكن العرض غير ذلك. قال: وما هو ؟ يعطونني كلمة تدين بها لهم العرب والعجم. قالوا وما هي ؟ قال: لا إله إلا الله. فنفروا وقال بعضهم لبعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم. فيكون الانطلاق عبارة عن خروجهم من بيت أبي طالب

ثم تظاهروا بالفطنة، وقالوا: إن ما يدعو إليه من تسفيه آلهتنا، وعلو إلهه أمر مدبر. أعد له بطريقة فيها مكر، ونحن قد تفطنا لمكره. كيف لا، وإنه ما سمعنا بمثل قوله في الملة الآخرة، في آخر الأديان نزولا، فالنصارى يثبتون تعدد الآلهة. أو ما سمعنا بمثل ما يدعو إليه فيما تناقله الناس من أول أمرهم إلى الآن. فتكييف دعوته إلى التوحيد: أنها دعوة مختلقة لا أصل لها.

8.أأنزل عليه الذكر ...بل لما يذوقوا عذاب.

تصرح هذه الآية بسلم القيم الذي يعتقدونه ويعبر عن المكانة التي يحتلها كل فرد تبعا له. فسلم القيم عندهم لا يعود إلى ما في الفرد من مزايا إنسانية ذاتية، كالذكاء والاستقامة وكمال الأخلاق، ولكنه يعود إلى الثراء والجاه والعصبية . وبناء على ذلك تملكهم العجب أن يختار الله من بينهم محمدا لينزل عليه وحيه ويكلفه بإبلاغ رسالته وإنذار الناس. فزيادة على استبعاد أن يكلف الله برسالته إنسانا لا ملكا، فإنه من غير المعقول عندهم أن يختار من بين الناس من ليس في القمة حسب مقاييسهم." بل هم في شك من ذكري" حقيقة أمرهم انهم افترضوا افتراضات عدة، وأن رفضهم له أوقعهم في شك ولبس. فمرة قالوا إنه شعر،

وأخرى أساطير الأولين، ومرة كهانة، وأنه سحر. فهم مترددون تبعا لتصلبهم في الكفر والرفض، لم يستطيعوا أن يستقروا على رأي. إن الذي جرأهم على هذا الخبط، أني لمّا أنزل عليهم العذاب إلى الآن. فكلمة " لما " تفيد النفي مثل" لم " وتتميز بأن النفي محدود بزمن التكلم لا ينسحب على المستقبل . فيفيد توقع التحقق في المستقبل . وبهذا تكون الآية متضمنة نوعا من التهديد: أن الله سيسلط عليهم عذابه في المستقبل فيحسون به أبلغ الإحساس.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ

الخزائن : جمع خزانة الظرف الذي يحفظ فيه المال أو الطعام.

رحمة ربك : رفق ربك وعنايته..

العزيز : من لا يعطل تنفيذ إرادته أي شيء.

أصحاب ليكة: أهل مدين

ما ينظر : ينتظر .

فواق: المدة بين الحلبتين .

بيان المعنى الإجمالي :

عرف القرآن بجراءتهم مع فقرهم وعجزهم. أيملكون خزائن الرحمة الإلهية ليتصرفوا تمكينا ومنعا من تلك الخزائن التي يملكها العزيز الذي لا يرد له أمره، الواسع الفضل كثير المواهب. واسألهم أهم يملكون الأرض والسماوات وما بينهما، وإذا كانوا كذلك ليصعدوا إلى العرش ليدبروا أمر الكون فيمكنوا من الرسالة من شاؤوا ويصرفوها عمن أرادوا صرفها عنه. هم جند كثير عدده، مهزوم من الأحزاب المتألبين على الرسل الذين، لا تختلف نهايتهم، هي الانكسار. ثم عدد القرآن ست أمم كذبوا واستكبروا هم قوم نوح وقوم عاد وقوم فرعون الذين ظنوا أن قوتهم مركزة لا تهدم، وثمود وقوم لوط وأصحاب ليكة بمدين، أولئك هم الذين

تحزبوا لوقف المد الإيماني فانهزموا وأبيدوا. اشتركوا في تكذيب الرسل وتأييد الباطل، فتأهلوا للعذاب المقدر لهم الذي أبادهم. وهؤلاء الذين يكذبونك من قريش مصممين على الشرك، مالهم قريب، ينتظرون أن تأخذهم صيحة واحدة تبيدهم دون تأجيل ولا إمهال.

بيان المعنى العام:

9 أم عندهم خزائن..العزيز الوهاب

إضراب عن الكلام السابق والانتقال إلى توجيه سؤال إنكار لهم، هل يملكون خزائن رحمة ربك يا محمد، الخزائن التي هي ملك لله وحده، لا تمتد إليها أي يد لتأخذ منها. على معنى أن النبوة هي فضل من رحمة الله التي تفرد هو بالتصرف فيها، ولا يملكون منها شيئا حتى يمكنوا منها من شاؤوا، ويصرفوها عمن شاؤوا، ويتخيروا للنبوة كبراءهم، والمقدمين عندهم في المرتبة الاجتماعية. إن خزائن الرحمة التي منها النبوة لا يملكها إلا ربك يا محمد الذي واصل العناية بك حتى بلغك مرتبة ختم الرسالة، فهو العزيز إذا تعلقت إرادته بأمر نفذه ولا يعطل إرادته أي قوة. وهو الوهاب للنعم تبعا لسعة فضله.

10 أم لهم ملك السماوات..في الأسباب

تشهر هذه الآية بجراءتهم، فاستفهمت استفهاما تهكميا، أهم يملكون السماوات والأرض وما بينهما، ويتصرفون فيها، وحينئذ فليرتقوا صعدا في الحبال الموصلة إلى العرش حتى يدبروا أمر العالم فيحرموا من شاؤوا، وينعموا على من شاؤوا، وينتدبوا للنبوة من هو في خيالهم أولى بها ويمنعوها ممن لا يرقى عندهم لعلي رتبتها. والأمر في فليرتقوا أمر تعجيزي يكشف عن عجزهم عن تلكم المرتبة.

11 جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب.

ثنى معرفا بقيمتهم، بعد أن استهزأ بهم بأمرهم بأن يصعدوا إلى منتهى العرش ليحكموا في الكون كيف شاؤوا. هم جند متألف من عدد كثير، مهزوم في النهاية ،شأنهم شأن جملة أحزاب الكفر الذين لا تخرج عاقبتهم عن النمط الخاسر الذي قدره الله لنهايتهم.

12-13 كذبت قبله قوم..أولئك الأحزاب

عدد القرآن ستة من الأمم المكذبة بأعيانهم، فذكر قوم نوح الذين كانوا أول من تم استئصالهم، وثنى بعاد، وثلث بفرعون واصفا له بأنه ذو الأوتاد، والوتد عود غليظ مذبب طرفه يغرس في الأرض فيشد فيه الحبل الماسك بطرف من أطراف الخباء، ويمكن أن يكون القصد من وصفه من أنه ذو الأوتاد الإشارة لعظمة ملكه وقوة

ثبوته. ويمكن أن يفهم على أنه إشارة إلى الأهرام التي تمثل قوة الحضارة التي بلغتها مصر تحت حكم الفراعنة. التي ما كان لها أن تتم على الشكل التي هي عليه، إلا اعتمادا على مستوى علمي في رفع الأثقال، وهندسة البناء، ودراسة خصائص المواد التي تم منها البناءات الضخمة، وكل ذلك يدل على بلوغ مستوى رفيع في الهندسة والكفاءات الصناعية. وتمت إبادتهم رغم ذلك لما كذبوا موسى الله. وعزموا على مواصلة إذاية المؤمنين به، وذكر بعد ذلك ثمود، وقوم لوط، وأصحاب ليكة من أهل مدين. وقد سبق الحديث عنهم وعن نهايتهم في المواقع القرآنية التي فصلت أخبارهم .

أولئك الأحزاب: تشير إليهم بأنهم تفصيل لما أجمل في الآية 11 جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب .

14. إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب.

تؤكد هذه الآية ما ورد في الآيتين 13/12 - على أنه ليست لهم إلا صفة واحدة هي التكذيب لرسل الله، فصورهم القرآن بذلك صورة من تأهل بما قدمه للحكم العادل من الله، وتم التصريح به (فحق عقاب) فوجب لذلك أن أعاقبهم وفي ذلك تعريض بالتهديد لمشركي مكة أن يكون لهم نفس المصير إن لم يرتدعوا.

15. وما ينظر... ما لها من فواق.

تهديد قوي لمشركي مكة على أنهم لا ينتظرون إلا شيئا واحدا، أي ليس بينهم وبين تنفيذ الوعيد فيهم، إلا حدوث صيحة واحدة لا تعاد، ليس بعدها إمهال .وجسم الإمهال بما جرت عليه عادتهم: أنهم كانوا إذا أرادوا حلب الناقة، أرسلوا فصيلها ليرضعها فتدر باللبن، ثم يفصلوه عنها وقد در الضرع فيحلبونها ثم يرسلون عليها الفصيل ثانية، فالزمن الفاصل بين الحلبتين يطلق عليه (فواق) فالصيحة المهلكة ليس بعدها إمهال .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20)

بيان معاني الألفاظ

قطنا: نصيبنا .

الأيد :القوة.

أواب: صيغة مبالغة في الأوب أي الرجوع إلى الله .

يسبحن : يمجدن وينزهن ومن ذلك قول سبحان الله.

الإشراق : وقت الضحى، وقت وضوح إشراق الكون بضوء الشمس.

بيان المعنى الاجمالي:

من وقاحة المشركين وتحديهم معلنين تكذيبهم لرسول الله فيما أخبر به من أمر الجزاء، طلبهم أن يعجل الله لهم جزاءهم السيء في الدنيا قبل الاخرة. لأنهم لا يصدقون بأنهم مجزيون عن شركهم. وأمره أن يتذكر ما كان أوحي به إليه من أمر داود ﷺ . هذا الرجل القوي البنية الرقيق الحس الكثير الرجوع إلى ربه تقربا وتطبيقا للسلوك الذي يرضيه. هذا الرجل الذي مننا عليه فسخرنا الجبال تسبح لأجل تسبيحه في العشي وعندما يصفو شعاع الشمس في وقت الضحى ،وكذلك الطير جمعناها للتسبيح معه.

ومكن الله لملكه فلا يختل لا بسبب خارجي ولا داخلي. وأجرى الله الحكمة الكاشفة عن عمق الحق في تفكيره وكلامه. ويسر له القول السليم في مبانيه الواضح في دلالاته فاذا تكلم أوضح وأقنع فلا كلام بعد خطابه.

بيان المعنى العام .

16 وقالوا ربنا...يوم الحساب

حققت الآية السابقة أن مآلهم صيحة واحدة تفنيهم بدون إمهال. فقابلوا ذلكم التهديد بالاستهزاء قائلين بصيغة التهكم: ربنا عجل لنا القسط الذي كتبته لنا الآن قبل يوم القيامة. ولم يقولوا ذلك رغبة في العذاب، وإنما قالوه تكذيبا لرسول الله ﷺ، واستهزاء وسخرية، ولتقين أنه لا بعث ولا جزاء.

17 ـ واصبر على ما يقولون...إنه أواب.

أمر الله رسوله أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يكون له من قوة الاحتمال والاعتزاز بحمل شرف الرسالة، ما يوهن مقاومة المشركين له المقاومة المادية والمقاومة النفسية. فلا تلتفت إلى سخيف أقوالهم، واثبت على ما أنت عليه فإنك منصور. ولذا أمر الله رسوله أن لا يحزن ولا يجزع من تصلبهم وأن يصبر على الدعوة.

وعقب التأكيد عليه بالصبر بأن طلب منه أن يتذكر ما تم لداود عليه السلام، وستبين بحول الله في تمام قصته وجه عطف قصته على الأمر بالصبر ، ولنتابع قصة داود مرحلة مرحلة كما عرضها القرآن:

1)على القرآن بالإطار العام الذي تسير فيه أحداث القصة، فعرض الشخصية الأولى فيها (داود) على أنه رجل قوي البنية قوة واضحة، لأن ذا الأيد صاحب القوة أكمل في الدلالة من قول: إنه قوي. ومع القوة البدنية هو يحمل بين جنبيه روحا بلغت غاية الرقة، أبعد ما يكون من العنف والصلابة، رجل أواب كثير الرجوع إلى الله تملأ خشية الله قلبه، فهو يعود إلى ربه طالبا للقرب منه، وتحصينا لنفسه من الانفلات مع القوة التي رزقها، وعملا بما يرضيه .فأشرقت ملامح الشخصية التي تدور حولها الأحداث: بنية صلبة شديدة، ونفس لينة خاشعة.

18 -19، إنا سخرنا الجبال ..كل له أواب

واصلت هذه الآية تفصيل ملامح شخصية داود فأفادت: أن الله ربط بينه وبين الكون، وأتم الانسجام بينه وبين الجبال، وجمع الطير التي من شأنها أن تسبح في الفضاء الرحب بحرية فإذا سبح اجتمعت وكفت عن الحركة وانطلقت معه مسبحة، (انظر الآية 79 من سورة الأنبياء). فهي تسبح لأجل تسبيحه .فدخل في إطار القصة الصوت والحركية بالتفاعل بين داود وبين الجبال والطير. كما أدخلت الآية تعاقب الزمن لتزداد الحركية والتفاعل وضوحا، هي تسبح معه في العشي، وعندما يقوى ضياء الشمس عند الضحى. فالإشراق هو وقت الضحى بعد ارتفاع الشمس وسطوع ضوئها، والفعل أشرقت الشمس. وأما الشروق فهو وقت انفلات حاجب الشمس من الأفق. والفعل شرقت الشمس.

20. وشددنا ملكه....وفصل الخطاب

من ملامح شخصية داود : أنه كان ملكا قد استتب الأمن في مملكته، وأنه أحاط حدوده بما يقمع كل من تحدثه نفسه بانتهاكها أو التعدي على جزء منها، وأنه قد استطاع أن يؤلف بين رعاياه بعدله فلا تحدث نفس أحد من رعاياه بالانقضاض عليه لما حصن به ملكه من القوة والتنظيم، ومن رضا الشعب على حكمه. ومكنه الله من الحكمة فتنج بصيرته إلى إدراك الحق والعمل به وإبرازه للناس. إذ الحكمة هي الإدراك الذي لا خلل فيه، والقول المعبر عن ذلك التصور السليم الكاشف عن الحق، الذي لا يشغله بعض الظواهر المضللة عن الحقيقة الكامنة. كما آتاه الله فصل الخطاب، وقد فسر فصل الخطاب بتفسيرات كثيرة، والذي أرتضيه:

أن الناس إذا جرى بينهم الحديث وكانوا على مستوى رفيع من التفكير، فإنك تجد كل فرد يكمل ما يعرضه غيره. وقد يكون لبعضهم من العمق في التفكير، ومن وضوح البيان ما يجعل كلامه بالغا إلى عمق الحقيقة موضحا لمداخلها كاشفا عن خفي جوانبها، فبعد عرضه يتم فصل القول فيها ولا يتواصل. وهو فصل الخطاب الذي هو رشح فطنة وفصاحة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ : الخبر .

الخصم :يطلق على الواحد والمتعدد.

تسور : اعتلى على السور .

المحراب : البيت المتخذ للعبادة .

فزع: ذعر من أمر مفاجئ.

بغى: اعتدى وظلم.

تشطط : جار وظلم .

سواء الصراط : الحق الواضح.

أكفلنيها : هبها لي .

عزني : غلبني .

خر : هوى إلى الأرض.

الزلفى: القربى .

حسن المآب: حسن العودة بالدخول إلى الجنة.

خليفة : موكل إليك إنفاذ شريعتي في عبادي وفي أرضي .

الأرض: الأرض التي يسكنها الإسرائيليون في تلك الحقبة .

الهوى : الخروج عن الحق اتباعا لشهوة النفس.

سبيل الله : الطريق الموصل لمرضاة الله .

نسوا يوم الحساب: لم يدخلوه في اعتبارهم.

بيان المعنى الإجمالي:

شوق القرآن محمدا ﷺ لم للخبر المهم القائم على الخصمين اللذين تسلقا الحائط، فنزلا على داود وهو مستغرق في عبادته. دخلا عليه، ففزع من دخولهما وقد أقفل دونه الأبواب وأقام الحرس حتى لا يصل إليه أحد يقطعه عما استغرق فيه من العبادة والتقرب إلى الله. طمأناه بأنهما أقدما عليه ليفصل بينهما في خصومة يتظلم فيها أحدهما من تعدي أخيه عليه. وشددا عليه ليحكم بينهما بالعدل ولا يميل عنه، وأن يدلهما على الطريق الحق الذي لا عوج فيه ولا ميل. صور المتظلم القضية: أنه يملك نعجة واحدة، وأن اخاه يملك تسعا وتسعين نعجة فطلب مني أن أملكه نعجتي، وكاد يغلبني في الحجاج والخصام، حتى أسكتني. بعد أن سمع كلام المتظلم، وصادقه الخصم على عرضه. أصدر داود الحكم بأن صاحب التسع والتسعين ظالم لأخيه، وليس له حق في الاستيلاء على نعجة أخيه. ثم وعظهما ليستل ما علق في نفسيهما من آثار الخصومة، بأن ما وقع هو شأن الخلطاء، أن كثيرا منهم يؤثرون أنفسهم بكل خير بغيا وظلما. وأن الله عصم من هذا الانحراف من انشرح صدره للإيمان، ويسره لعمل الخير حتى أصبح أليفا له. وهؤلاء المنصفون هم من الفئة الخيرة الصالحة، وهم قلة أعزاء. وما إن أتم كلامه حتى غابا عن نظره ولم يبق لهما أثر. فطن داود أنهما ملكان بعثهما الله ليصورا له عمليا ما قام به، عندما نظر من كوة فرأى امرأة أوريا عارية، وقد حباها الله من الجمال والوسامة ما جعل صورتها ترتسم في عقله ارتسام الإعجاب كأشد ما يكون الإعجاب، وفطنت له فأرخت شعرها على جسمها فتضاعفت وسامتها. بقيت صورة المرأة الجميلة عالقة بنفسه وسأل عنها فتبين أنها امرأة أحد من قواده، وما زال يتابع أخبارها حتى علم أن زوجها استشهد في القتال، فخطبها لنفسه وضمها لنسائه وجواريه التسع والتسعين. مضى دون أن يتفطن إلى أنه اتبع ما تدعوه شهوته حتى حققها، وإن كان لم يفعل محرما، ولكن عقله ومداركه تعلقت بهذه

المرأة التي أراد ضمها إلى نسائه، وهو في وقت الانتظار مشغول بها لا تفارق صورتها خياله. أرهقته المحاكمة المعروضة عليه في خطئه، وغلب على ظنه أن الله ابتلاه بها، ولم يستيقظ لما كان يجب عليه من طرد الصورة من نفسه وطرد كل الواردات الشاغلة؛ فطلب من ربه أن يغفر له ذنبه، وأن يمحو ما كتب في صحائفه من غفلة عنه وتعلق بامرأة ملكت عليه نصيبا من فكره غير قليل. وقرن استغفاره بالتقرب العملي بالسجود والتضرع إلى الله، فقبل الله توبته، وأبقى على مكانته من القرب الذي هو مرتبة الرسل والأنبياء، وأن عاقبته ستكون يوم القيامة في منازل المقربين في جنات النعيم. ثم خاطبه ربه مذكرا، فناداه: يا داود ؟ إنا اخترناك لتكون خليفة على عبادي وفي أرضي لتحكم بين الناس وتفصل خصومتهم وتجري الحق فيهم. احكم بين الناس بالحق الذي أبلغتك إياه، وإياك أن تنقاد إلى هواك وما تزينه لك نفسك. فهما طريقان: طريق موصل لمرضاتي الطريق الذي يحكم صاحبه شرع الله، ويقمع دواعي الشهوة، وطريق الهوى المؤدي في البعد عن طريق الله والوقوع في الضلال. احذر العاقبة فإن الذين يبتعدون عن طريق الله ليختصوا بالعذاب الشديد بسبب إعراضهم إعراضا ناشئا عن نسيانهم يوم الحساب الذي يجري فيه كل إنسان عما قدم.

بيان المعنى العام

21 -22. وهل أتاك نبأ الخصم...سواء الصراط.

القسم الثاني بعد أن أتم القرآن ما يتعلق بشخصية داود انتقل إلى حادثة معما وقع له دعى العرض من إيراد القصة. ولمزيد من الإثارة افتتح هذا المشهد بسؤال تعجيبي، يثير عجب رسول الله ﷺ، وكذلك كل تال، من الحادثة التي سيعرض القرآن تفاصيلها فيما يلي

كان داود مستغرقا في العبادة في محرابه المغلق بابه، المحروس من الخارج حراسة تمنع أي وارد من الدخول عليه . ويا للمفاجأة ! رجلان متخاصمان تسلقا الحائط.

22 دخلا عليه محرابه، وما كان يتوقع أن يدخل عليه أحد، فكان للمفاجأة وقعها عليه، وفزع منهما. وفزعه هو من طبيعة التركيب النفسي البشري، فلا يعتبر نقصا موجبا للاعتراض أو التساؤل

أسرعا بطمأنته، وقالا له: لا تخف منا، نحن لا نضمر لك سوءا. وإنما دخلنا عليك لتقضي بيننا. لخصمنا، والتجأنا إليك لتحكم بيننا حكما يراعي الحق الكامل، أخرجنا من الالتباس الذي وقعنا فيه، رغم أن روابطنا القوية لم يكن بيننا عداء سابق ولا

قصد للانتقام، ولكن بغى بعضنا وظلم البعض الأخر. فالروابط لم تنفك بيننا ولكن نريد أن تقيمنا على العدل حتى يذهب ما بيننا من الخلاف. نطلب منك أن لا تجور علينا في الحكم فتميل إلى أحدنا، كل واحد منا يرغب أن تهديه إلى الطريق المستقيم الذي يمكنه من حقه. تمت هذه المقدمة قبل التقاضي، واقتلعت الفزع الذي كان في نفس داود.

23. إن هذا اخي له تسع ...وعزني في الخطاب.

تقدم أحدهما حرصا قائلا: إن هذا القادم معي هو أخي وسع الله عليه فهو يملك تسعا وتسعين نعجة، وأما أنا فإني لا أملك إلا نعجة واحدة. فطلب مني أن أضمها إليه وأن أتنازل له عنها **أكفلنيها** ولما أبيت عليه، تتابعت حججه وعلا صوته، وغلبني وأعجزني عن ممانعته. فبسط ظلامته بكل وضوح.

24. قال لقد ظلمك...وخر راكعا وأناب.

الذي يدل عليه سياق القصة أن الطرف الثاني صادق على الدعوى، ولم يجادل أخاه. واستبان الحكم لداود أن صاحب التسع والتسعين ظالم لأخيه، في خلقه جشع. فصرح داود بالحكم وعلله ليكون المحكوم عليه مقتنعا فيسل بذلك ما يمكن أن يبقى في نفسه من التغيظ بإصدار الحكم على خلاف ما كان يبغي أن يصل إليه من تبرير عمله.

حقق أولا أن سؤاله التنازل عن نعجته الوحيدة ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين هو ظلم وشراهة لا مبرر لها إلا حب الاستئثار. ثم هون عليه الحكم، وهون على أخيه قبول الحكم، بأن ما تم بينهما ليس غريبا في باب العلاقات بين الشركاء والخلطاء؛ فإن كثيرا منهم يبغي بعضهم على بعض متناسين ما كان بينهم من التكامل والود. وأنه لا يسلم من هذه الأثرة إلا من جمع بين الإيمان والتطبيق لموجبات الإيمان. فالإيمان نور يبصر بمواقع الإثم فلا تتغلب دواعي حب الذات، وبالعمل يتمرن المطيع على الخير ويألفه. ثم أردف: إن الجامعين بين الفضيلتين صفاء العقيدة وسلامتها وصحتها، والمواظبة على العمل الصالح، هم الكمل من الناس، ولكن عددهم بالنسبة للضالين أو المفرطين، عددهم قليل. قال تعالى: **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وقليل من عبادي الشكور**. فعلى من وجد من ربه العون على الهداية إلى العقيدة الصحيحة، وأعين على العمل الصالح أن يوالي الشكر لربه، وأن يشعر بالنعمة العظمى التي يسرها الله له، **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**. صدر الحكم البات العادل، وقد ذهب معظم المفسرين إلى أن اللذين

تسورا المحراب، وعرضا قضيتهما عليه، هما ملكان قدما عليه في الصورة البشرية. أتياه بأمر من الله . و ما كان حديثهما معه ولا الخصومة التي عرضاها وكل ما جاء في القصة، ما كان ذلك إلا تمثيلا، وصورة لا واقعا، كانت محبوكة الإخراج، حتى يظن المتابع أن أمرهما في التخاصم في النعاج لمر حقيقي. واتخذت هذه التمثيلية مع داود لتكون له درسا عمليا كما سيأتي .ويقوم ذلك مستندا لاتخاذ التمثيل طريقا إلى التربية وتحسيس المشاهد بما يؤثر في نفسه ويقيمه على الطريق المستقيم .

يروى. أنه بمجرد ما أصدر حكمه، تبسما وغابا عن بصره، وتفطن داود عندها إلى أنهما لم يكونا إلا ملكين أرسلهما الله ليُجسّ إحساسا واضحا بما أقدم عليه. إذ روي أن داود نظر من كوة فوقع بصره على أنثى عارية فاتنة، وتفطنت أنه ينظر إليها فأرسلت شعرها على بدنها فكساها وضاعف جمالها، علقت صورتها بقلبه. سأل عنها فتبين أنها زوجة أوريا أحد قادة الجند .ثم أن زوجها قتل في معركة، فتقدم داود وخطبها لنفسه وضمها إلى نسائه .

إن شدة تعلقه بها، ومتابعة أخبارها إلى وفاة زوجها، ثم تزوجها تحقيقا لما تعلقت به شهوته، كل ذلك كان موجبا للومه والعتب عليه. و كانت التمثيلية موقظة له، لما جسّم له ما أقدم عليه في واقع غيره. ذلك أن الإنسان إذا نظر في أمر نفسه تنازعت قواه العقلية مع نوازع نفسه فضعفت الأولى. أما إذا نظر في أمر غيره تكون قواه العقلية محررة من تأثير العواطف النفسية، فتتجلى له الحقيقة بصورة أشد وضوحا.

كان داود بمنزلة التقريب والتكريم من ربه، وهي مرتبة من النعيم لا يبلغ أحد أن يحس بها الإحساس الكامل إلا الأنبياء والمرسلون . وهي مرتبة ينطبق عليها حسنات الأبرار سيئات المقربين. إن تعلقه بزوجة أوريا ومتابعة ذلك إلى أن تزوج بها، ألهته لا شك في ذلك عن تأملاته وقطعت إلى حد صلته بربه في فترات. مر ذلك وهو غافل عما وقع فيه وذهب سادرا فيه، إلى أن أقدم عليه الملكان وجسما له ما وقع فيه وما ألهاه عن ربه، وتفطن إلى أن مقامه الرفيع يفرض عليه أن يطرد أثر الصورة التي وقعت عليها عينه لا أن يتابعها إلى النهاية .ثار في عقله وروحه كل ذلك، فظن أنه فتن بتلك النظرة ومتابعتها، وأنه اختبر بها فلم يقاومها مقاومة تطردها وتعفي على آثارها من أول الأمر. هذا، والله أعلم معنى :وظن داود أنما فتناه. وقد أوضح ابن عطية رحمه الله وجه استعمال ظن في هذا المقام، فقال: حقيقة الظن حضور أمرين في الذهن يغلب أحدهما على الآخر. وتطلق العرب (الظن) على العلم غير المستند إلى الحواس، وهذا العلم لا يبلغ مرتبة اليقين التام

أبدا. فإطلاق الظن بمعنى اليقين تخليط بعيد عن الدقة. هذه الآية بينها وبين اليقين درجة. وهو كلام نفيس دعمه بالقرآن والشعر، لخصته منه.

قامت في باطنه صورة ما أقدم عليه ولا بسه، ورروحه روح طاهرة نقية تخيرها الله لحمل رسالته، ففزع إلى الاستغفار والتوبة، وتوجه إلى ربه سائلا أن يغفر له ما وقع فيه، وفي يقينه أنه يتوجه إلى الذي رعاه بفضله وأيده في ضعفه ونقله صعدا في رتب الكمال، وذلك ما يشير إليه: فاستغفر ربه. فكانت هذه تجربة روحية قرنها بتجربة حسية فخر راكعا فقوله خر تفيد أنه هوى نحو الأرض، ولم يبق واقفا .وهذا الوضع له مرتبتان: انحناء الظهر مستويا مع الأرض، والنزول إلى الأرض. والأول هو الركوع، والثاني هو السجود. وقوله فخر راكعا مرجح لأن يكون داود انحنى راكعا تذللا لله. ومن نظر إلى أن كمال الخضوع يكون بوضع الجبهة على الأرض رأى أنه أطلق لفظ راكعا على مفهوم السجود مجازا إذ يشملهما الانحناء من القيام، وتمام الخرور يكون ببلوغ الأرض.

<u>تنبيه : ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أن التالي للقرآن يسجد عند بلوغه كلمة: وأناب.</u>

اعتمد مالك وأبو حنيفة على ما أخرجه أبو يعلى والترمذي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: رأيتني أكتب سورة (ص) فلما بلغت هذه الآية سجد القلم، ورأيتني في منام آخر وشجرة تقرأ سورة (ص) فلما بلغت هنا سجدت وقالت: اللهم اكتب لي بها أجرا، واحطط بها عني وزرا، وارزقني بها شكرا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود .قال ﷺ : وسجدت أنت يا أبا سعيد ؟ فقلت: لا. فقال: أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة .ثم تلا رسول الله ﷺ الآيات حتى بلغ [وأناب] سجد وقال كما قالت الشجرة. وليست من عزائم السجود عند الإمام الشافعي.

إلى هنا انتهى تسجيل ما وقع لداود. وواصل القرآن معقبا على هذه القصة، فذكر:

أولا: أن داود أناب إلى ربه وتاب، والإنابة بمعنى التوبة أمر خفي. فالإعلان عنها من قبل الله هو إعلان عن صدق صاحبها وعن قبولها .

25 فغفرنا له ذلك...وحسن مآب.

ثم سجل القرآن ثانيا ما عقب التوبة: أنه غفر له ما كان موجب عتب عليه، فأزاله حتى أصبح كأن لم يكن.

وثالثا: حقق ما سيجده يوم القيامة بأنه في المكان الرفيع مقرب منه، وينتهي إلى المرجع الأحسن الذي تتعلق به الآمال وتسعى للوصول إليه: الجنة. وهو حسن المآب، يوم يعود الناس جميعا إلى ربهم للجزاء.

وإذ أتممت متابعة قصة داود، فإنه يلوح لي أن علاقتها بما سبقها، قد تكون تحريض مشركي مكة على التوبة واتباع صراط الله، وتحقيق سعة فضل الله وأنه يقبل توبة التائبين فيمحي آثار ما كان قبلها. فداود لما تاب توبة نصوحا رفع إلى مكان علي عنده .

26-ياداود إنا جعلناك...بما نسوا يوم الحساب.

نداء موقظ لداود ينبئه على ما أفاده من التجربة التي ذكرت في القصة التمثيلية. يعرفه بمكانته. وبمقدار ما يكون الفرد شاعرا بمرتبته العالية تكون رقابته لما يصدر عنه أكمل مما يدعوه إلى المقام الأرفع. يقول الله لداود: إنا جعلناك خليفة تحكم في البشر الذين هم عبادي، وفي الأرض التي ينشطون فيها، الأرض التي يسكنها بنو إسرائيل. إن هذا المستوى من المسؤولية: أنك تتولى الحكم في عبادي وفي أرضي يفرض عليك أن تكون يقظا أشد ما تكون اليقظة لتحكم بين الناس بصارم الحق. ذلك أنك مرجع للمظلومين، فإذا كنت عادلا ملتزما بالحق سار عمالك على خطاك والصفوا من هم إلى نظرهم. ولما كان الحق هو الفطرة التي استقرت في نفس البشر، فإن الهوى والشهوة والعواطف تحجب بريقها وتعميها، فتأكيدا للحكم بالحق أنهاك عن اتباع هوى النفس، وما تزينه لك عواطفك وما تحثك عليه شهواتك. إن الهوى يكون حجابا على الضمير ينومه، ويشلُّ حركته، لتنطلق النفس الأمارة بالسوء متفردة بالقيادة، وتنحرف بصاحبها عن السبيل الموصل لمرضاة الله .احذر العاقبة فإن الذين ينحرفون عن سبيل الله اختصوا بالعذاب الأليم النفسي والجسمي، لأنهم أهملوا يوم الحساب إهمال من نسيه وأسقطه من ذاكرته. ويوم الحساب هو يوم القيامة الذي يحاسب فيه كل فرد عما قدم من خير أوشر ليلقى جزاءه العادل .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ

باطلا : بدون غاية وإنما لمجرد التلهي والعبث.

ويل له: كلمة تقال للتعجيب من سوء حالة المتحدث عنه .

التقوى: يقظة في الروح تجعل صاحبها يلتزم بالخير ويبتعد عن الشر.
الفجر: جمع فاجر وهو الخارج عن حدود التقوى.
مبارك: كثيرة خيراته.
التدبر: التأمل.
التذكر: استحضار الذهن ما سبق أن عرفه.
أولو الألباب: أصحاب العقول الفاعلة.

بيان المعنى الإجمالي:

طبع الله خلق السماوات والأرض وما بينهما على الحكمة البالغة والدقة التامة، فكل صغير وكبير قدره بمقدار في ذاته وفي علاقته ببقية أجزاء الكون، واستخلف الإنسان فيه. وما أنجز هذا الخلق عبثا لغير غاية، ليعيش الناس ويموتوا. إن هذا التفكير البسيط هو ظن الذين استولى الكفر على مداركهم فأضلهم، سينتهي بهم الأمر إلى نار جهنم.

أيظنون أننا بالرغم من حكمتنا البالغة نسوي بين المتقين المستقيمين، وبين الفجار المنغمسين في الرذيلة، فيكون الوجود قاصرا على هذه الحياة الدنيا التي كثيرا ما يصول الباطل على الحق، ويفوز الفجرة بكثير من الخيرات. إن ذلك مما لا يقبله العقل الراشد والحكمة الإلهية الظاهرة في كل مكونات الحياة.

إنه الكتاب العظيم الذي أنزلناه إليك لتبلغه للناس، لا تحد خيراته وفضائله يضمن سعادة الدنيا والآخرة. أنزلناه ليتدبره الناس ويتأملوا في مضامينه، فتستقيم عقولهم على منهاجه، وليكون مذكرا لهم، كلما تلوه، بتدبر للحقائق التي تدخل في حجاب النسيان أو في دائرة الغفلة فيوقظ قلوبهم لاستحضارها.

بيان المعنى العام:

27. وما خلقنا السماء...فويل للذين كفروا من النار.

وحقيقة يثبتها القرآن ويذكر بها، ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا. ما خلقناهما لمجرد الخلق، دون أن يكون لنا غاية وحكمة من خلقهما. إن ما بنينا عليه نظام دقيق، وتناسب مكوناتهما، والتفاعل فيما بينهما التفاعل الذي يتأثر فيه كل كوكب بغيره من الكواكب، والذي يتأثر به الإنسان في موقعه من الكون، فكل ظاهرة إلا وهي مضبوطة مقدما في تاريخ ظهورها، وفي آثارها القريبة والبعيدة. وإن العقل البشري ليقف عاجزا عن بلوغ كل الخصائص والتفاعلات والتأثرات لأبسط المخلوقات في هذه العوالم.

إنه من التبسيط الغبي أن يظن ظان أن هذا التنظيم المحكم وهذا الترابط، وتسليط الإنسان وإقداره على الانتفاع بما هو مودع في الكون، وأن الإنسان مع ذلك له أن يسير في تصرفه على دواعي هواه وشهواته، سيرا فوضويا غير مسؤول، وأنه غير محاسب على أعماله، إن هذا التصور مع الضبط والدقة والنظام التي جرى عليها الخلق، يمثل تناقضا يرفضه العقل حسب صارم أولياته. ولكن الذين كفروا تبعا للحجاب الذي حجب عقولهم عن التدبر برز لهم القول بأن الخلق خلق لا غاية له، يستوي فيه الخير والشر. إن ظنهم هذا سيلقون جزاءهم عنه، ويل لهم سيلحقهم أشد السوء، الذي هو عذابهم في نار جهنم.

28. أم نجعل الذين آمنوا...كالفجار.

انتقال للكلام باستفهام إنكاري بما يؤكد مضمون الآية السابقة. ما تظنون؟ أتظنون أننا نسوي بين المتقين الذين يراقبون ربهم في جميع تصرفاتهم، يقبلون على الطاعة وتطبيق الأوامر بكل جد ورغبة، ويبتعدون عن النواهي حذرين منها نافرين لها ،حضور اتصالهم بربهم يشع في نفوسهم حب الخير وييسر للإقبال عليه، أنسوي بين هؤلاء وبين من كان الإجرام حليف عقولهم، ألفوا الشر فلا تنكره طباعهم، ومردوا على الرذيلة فاستهانوا بها ؟ إن الله الذي من صفاته الحكمة البالغة، لا يمكن أن يتصور عاقل أنه يسوي بين الفريقين تسوية مستمرة دائمة. الفريقان يعيشان في الحياة الدنيا، وقد تجد من الأتقياء من هو منعم وتجد من هو محروم من سعة الرزق أو الصحة أو نحو ذلك، وكذلك الفجار تجد فيهم الموسع عليه في حياته، وتجد المضيق عليه. فلو كان الوجود قاصرا على الحياة الدنيا لأدى ذلك إلى التسوية بين الأخيار والأشرار ،وهو ما ينافي الحكمة. فثبت أن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى يفوز فيها المتقون بحسن الثواب، ويساق المجرمون إلى سوء العذاب.

29. كتاب أنزلناه ليتذكر أولوا الألباب.

افتتحت الآية بالتنويه بالقرآن " كتاب " أي عظيم نفعه رفيع مقداره، أنزلناه بعنايتنا موجها إليك أولا يا محمد، فهو المتلقي له أولا من رب العالمين. وقد قدر أن يكون جامعا لخيرات كثيرة، لا تقف عند حد، ما يزال عطاؤه منظورا بتطور البشرية محققا لهدايتهم، وفتح آفاق الخير والرشاد لهم. إن ما تضمنه من خير يتحقق بتدبر آياته فيسعد تاليه المطبق لما جاء فيه بالسعادة الدنيوية والفوز في الآخرة بالجنة ورضوان الله. يتحقق ذلك بتلاوة آياته تلاوة تتجاوز الظواهر القريبة إلى ما وراءها

من الحكم والمعاني، وليتذكر أصحاب العقول بـه مـا غفلـوا عنـه أو دخـل فـي دائـرة النسيان. يقول الحسن البصري ﷺ : قد قـرأ هـذا القـرآن عبيـد وصـبيان لا علـم لهـم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحـدهم ليقـول والله لقـد قـرأت القـرآن فما أسقطت منه حرفا. وقد أسقطه، والله، كله. مـا يُـرى للقـرآن عليـه أثرٌ فـي خلـق ولا عمل. والله ما هو بحفظ حروفه وإضـاعة حـدوده .والله مـا هـؤلاء بالحكمـاء ولا الوزعة .لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنـا مـن العلمـاء المتـدبرين وأعـذنا من القراء المتكبرين.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

أواب: كثير الرجوع إلى الله بالذكر والتوبة.

الصافنات: الخيل النشيطة التي تقف على ثلاثة قوائم وترفع الرابعة فتمس الأرض بطرفها

الجياد: جمع جواد وهو الفرس ذو الصفات النفيسة.

الخير: المال النفيس.

توارت بالحجاب: غابت الشمس في الأفق.

طفق: شرع.

السوق: جمع ساق.

الأعناق: جمع عنق.

بيان المعنى الإجمالي:

تواصلت النعم من الله على داود، فوهب له سليمان ولده مـن زوجتـه التـي فـتن بهـا، وورث نبوته وملكه، وكان أوابا كثير الرجوع إلى ربه .

من صور أوبته إلى ربه، أن ساسة خيله عرضـتها عليـه، وهـي أتـم مـا تكـون عليـه نشاطا وقوة ونضارة شـباب. استعرضـها مبتهجـا، وواصـل الابتهـاج بهـذا المنظـر، وكرائم الخيل تمر أمامه تصهل وتمرح، ألهاه جمال المشهد عـن ذكـر ربـه زمنـا، ثـم

تفطن إلى انقطاع صلته بمولاه، فأمر الساسة أن يعيدوها إلى اصطبلاتها. وأقبل على العبادة مفتتحا بطلب المغفرة عن اشتغاله بالخيل اشتغالا ملأ عليه نفسه، وقطعه عن الذكر والعبادة، وبقي على عبادته إلى أن غابت الشمس. وأذن لهم أن يردوها عليه فشرع يمسح أعناقها وسوقها بيده حبا فيها وتحننا عليها.

بكل تأكيد تمت فتنته في ملكه كما ابتلي في ماله. انتفض عليه ثائر تمكن من أن يزيحه عن كرسيه، ويخلفه فيه، ولم يكن لهذا الثائر المؤهلات التي تساعده على حسن التصرف في المملكة. فقاومه بما أمكنه من الخطط والقوة المادية، وتفطن بعد ذلك إلى ضم الوسائل المادية إلى حسن الاعتماد على الله وتطهير النفس مما وقعت فيه من التقصير. وابتهل إلى الله أن يغفر له تقصيره، وأن لا يبتليه ثانية بخروج ملكه عنه.

بيان المعنى العام :

30ـووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب

عاد القرآن لعرض ما أنعم الله به على داود .فأضاف إلى ما سبق أنه وهب له سليمان، ورث نبوته وملكه. ومن أجل النعم على الإنسان أن يرى صفات الكمال تتواصل في نسله. وأدمج في ذلك الإطار الذي ستجري فيه قصة سليمان. أن أحداثها تدور حول رجل شهد الله فيه أولا: أنه نعم العبد، أثنى عليه الذي يتجاوز علمه الظواهر. فوصفه بأنه عبد لا يستكبر عن حقيقة العبودية لله. وثانيا بأن صلته بربه صلة مسترسلة لا تنقطع، فهو يعود إلى ربه ذاكرا مستحضرا ما يقربه منه حذرا من عصيانه، وكثير الأوبة له بالتوبة.

31-->33: إذ عرض عليه..بالسوق والأعناق .

صورة من صور أوبته الكثيرة، أنه عرضت عليه الخيل التي كان يحبها ويعتني بها، ويتخير الكرام الفارهة منها، عرضت عليه الخيل وهي نشيطة على أتم ما يكون من الشبع والرواء، أخذ ينظر إليها مشغولا بها متعلقا بهذا المنظر الذي أبهجه كأشد ما يكون الابتهاج. ويثور في ذلك الوقت داعي للعبادة التي طبع عليها، ويندم من اشتغاله بخيله وانقطاعه عن ذكر ربه، فيأمر القومة على الخيل أن يقطعوا هذا الاستعراض، وأن يعودوا بالخيل إلى اصطبلاتها، ويقبل على ربه مستغفرا تائبا من هذا الإقبال المفرط الذي شغله عن ذكر ربه، ويستمر في ابتهالاته إلى أن غابت الشمس وذهب ضوءها. وعندها أمر القومة بإعادتها، فقربها إليه، وأخذ يمسح سوقها وأعناقها حبا فيها وتكريما لها.

وبقي بيان التركيب أحببت حب الخير، فإن أصله: إني أحببت الخير حبا، فقدم حبا على كلمة الخير ليكون تمييزا على معنى: أنني أحببت، فيتساءل السامع ما هذا الحب العالق بنفسه، فيقول حب الخير، وهو أمكن في الدلالة على المعنى المراد. والخير هو الخيل، أو المال. وقالها: أسفا بعد أن أمر سائسه الخيل بإدخالها، وصرفها عنه. أي إن شدة تعلقي بها استغرق مني وقتا وأنا لاه عن ذكر ربي.

34- ولقد فتنا سليمان...ثم أناب.

بكل تأكيد فتنا سليمان. وفتنة الإنسان عبارة عن اضطراب حاله، بحيث تخرج حياته عن حالة الاستقرار إلى وضع يهدره هدرا، ويقتضي منه مصابرة، ومغالبة للظروف التي حفت به . وقد يخرج من الفتنة منتصرا وقد يخرج منها منهزما. قد يفتن الإنسان بحب المال، فتستولي عليه هذه العاطفة حتى تملك عليه فكره وحياته، وعوض أن يكون المال مساعدا له على انتظام أمره، ينقلب هو خادما له، وقد يفتن الرجل بامرأة فتسلبه عقله وهناءه، ونشاطه، فإذا هو لا يفكر إلا فيها، ولا يعيش إلا من أجلها، تلهيه عن عبادة ربه كما تلهيه عن علاقاته الاجتماعية السابقة، وقد ينتصر في مقاومة دواعي الفتنة فيخضعها لعقله ويسيطر على وضعه فلا يفلت من بين يديه. وقد يكون رئيس الدولة آمنا في سلطته، فيتسلط عليه منتفض يهز أركان سلطانه، قد يقاومه ويتغلب عليه، وقد ينهزم فيخلع وينتهي أمره إما إلى القتل أو الفرار.

فسليمان عليه السلام آتاه الله النبوة، وابتلي بغفلته عن ذكر ربه، ثم تفطن، ولم تغفر ثائبا وقبلت توبته . وآتاه الله الملك ففهمت من قوله تعالى: ولقد فتنا سليمان الآية 34 أنه قد واجه اضطرابات زعزعت أركان ملكه. وتمكن الخارج عليه أن يسلبه الكرسي الذي كان يجلس عليه ويدير منه أمر مملكته. ولكن هذا الخارج لم يكن له المستوى السياسي والفكري الذي يمكنه من تسيير أمر الدولة باقتدار، فهو جسد بلا مواهب مؤهلة للاضطلاع بالحكم. قد يكون هذا الابتلاء لتخليصه من آثار تقصير وقع فيه، طوى القرآن ذكره، وأنه أناب إلى الله تائبا مخلصا في توبته .وقد يفهم من العطف بثم أنه اعتمد أولا في مقاومة الذي افتك منه عرشه على المقاومة بالقوة القتالية والخطط الحربية، وأنه تفطن بعد الصدمة الأولى فرجع إلى ربه تائبا ضارعا أن يتقبل توبته، وأن يغفر له ما فرط منه، وليس لنا أن نعين نوع التقصير الذي وقع فيه وقد طواه القرآن ولم يذكره.

35- قال رب اغفر لي...إنك أنت الوهاب

وتوجه إلى ربه داعيا أن يغفر له تقصيره، مغفرة تمحو آثارها من صحائفه، وأن يحفظ عليه ملكه حفظا يحميه من كل متسلط ومنازع. فلا يتأتى لأي أحد أن يكون

له ملكه من بعده في حياته كما هو المناسب في الدعاء إثر فتنته في ملكه. تتبعت كلام المفسرين من قبلي فوجدت معظمهم يؤولون الآية على أن سليمان دعا أن لا يبلغ أحد من الخلق بعده المستوى الذي بلغه من السلطان والملك، وأن لا يجتمع ما أوتيه من الملك لأحد من الناس إلى أن يرث الله الأرض. واضطروا للإجابة عن إشكالات كثيرة، منها هل يعتبر هذا من سليمان حسدا ؟ ونسب إلى الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: سليمان أحسد مني، وأجابوا: أنه إنما سأل ذلك لأن مثل ما أوتيه من الملك بدون تأييد النبوة يفضي بصاحبه إلى العجز عن تسيير الأمور، وإلى الاختلال الاجتماعي وفساد أمر الأمة. ونظير ذلك من الإشكالات والإجابات، وهي في نظري إجابات ظاهرة الصنعة بادية منها. ويغني عنها ما رجحناه أنه دعا أن لا يفتن مرة أخرى بانتقاض الثائرين عليه.

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

رخاء : لينة.

أصاب : قصد.

بيان المعنى الإجمالي:

فيوض الكرم الإلهي تتعدى سؤال السائلين. أجاب الله دعاء سليمان وقبل توبته ورد عليه ملكه، ثم جعل الريح مطاوعة لأمره يسيرها حسب السرعة والاتجاه واللين الذي يرغب فيه مما يحقق قصده. كما سخر له مهرة الصناع، والجن فشيدوا له المباني الرائعة، وغاصوا أعماق البحار فأخرجوا له اللؤلؤ، ومكنه من مردتهم فصفدها مقرونة في السلاسل. يا سليمان هذا الذي بين يديك هو عطاؤنا الواسع العظيم، تصرف فيه كيف شئت؛ وسع على من شئت، وأمسك ما أردت الإمساك، إنه لا سؤال عليك في اختياراتك .وفوق كل ذلك إن له عندنا المكانة الرفيعة المقربة منا وحسن المعاد يوم القيامة.

بيان المعنى العام:

36 – 40: فسخرنا له الريح تجري...وحسن مآب .

كانت توبة سليمان توبة نقية بالغة الحد الذي يرضي الله، فرتب عليها قبول دعائه، وأضاف إلى ما سأله من فيض كرمه مواهب ما كانت تخطر لسليمان على بال.

أولا: سخر له الريح. وشأن الريح أنها تتقلب، وليس لأحد عليها سلطان في سرعتها ولا في توجهها، ولا في ثباتها على الوجهة التي هي عليها. فجعل قيادها بيد سليمان تطاوعه، فتجري متحركة بأمره اللفظي أو الإرادي، تجري هادئة لينة لا يضطرب ما تأتي عليه. فكانت تساعد سفنه على السير إلى وجهتها الموافقة لقصده. فحيث أصاب أي حيث قصد. ومن ذلك قولهم أصاب الصواب فأخطأ الصواب، أي قصد الصواب فأخطأ الجواب.

ثانيا: سخر الله لسليمان الجن: ويمكن أن يفهم من لفظ الجن: أنهم المهرة من الإنس والجن، إذ يطلق على الماهر في فنه. كما يمكن أن يقتصر به على الجن، وحقق الله له بهذا التسخير أن الحذاق من الصناع الذين هم مسخرون له يقومون ببناء ما يريد على الشكل الذي يريد. ويغوصون في قاع البحر ليخرجوا له اللؤلؤ.

كما سلطه على بعض الجن فقرنهم مجموعين في الأغلال. ويمكن أن يفهم ذلك على أن بعض الجن كانوا متمردين، فكان سليمان مسلطا عليهم يجمعهم في السلاسل لا يستطيعون الفرار أو التمرد . كما يمكن في تظري أن يكون بعض مردة الجن، يتسلطون بما لهم من خبث على الصناع والغواصين والبنائين ليصرفوهم عن العمل أو يشوشوا عليهم، فأوتي سليمان من السلطة عليهم ما يقيدهم تقييدا يمنعهم من الفساد والإفساد.

هذا الذي بين يديك هو عطاؤنا الواسع العظيم؛ منحناك إياه من فضلنا لك. أن تتصرف فيه حسب تقديرك، تمكن منه وتنعم به على من تشاء، وتمنع منه من تشاء. لا حساب عليك فيما تختار وتنفذ.

خلاصة ما تقدم أن ما اتيناه لسليمان في الدنيا هو مقدمة لما هو أجل منه، وهو نظير الاية 25 في التنويه بداود ﷺ .

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

النصب : المشقة والتعب.

العذاب : الألم.

اركض: اضرب الأرض برجلك.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر يا محمد عبدنا المقرب منا أيوب لما توجه إلينا مناديا داعيا: ربي ! انه قد طال بي البلاء فأعياني وتواصل ألمي، حاول الشيطان أن ينفذ إلى صبري ليحوله إلى قنوط من الشفاء من الامي وتعبي. عرفه ربه أن دواءه من كل ما يجد تحت رجليه فليركض الأرض برجله ينبع منها ماء بارد، ليغتسل منه ويشرب فيشفى من كل ما يجد. فعل ما أرشد اليه، وشفي شفاء تاما. وإذ انفتح باب الألطاف أكرمه بجمعه مع أهله، وضاعف عددهم بما ولد له من الأولاد والأحفاد .فتجلت الرحمة واضحة. وكان ما تتابع على أيوب من البلاء، والصبر عليه، وعدم القنوط من رحمة الله، والابتهال إليه، واستجابة ندائه وتمكينه من أكثر مما دعا به، ما يجعل أصحاب العقول النقية تتأسى به. وكان أيوب في حرج بعد شفائه كان أقسم على أحد ممن هو تحت سلطته أن يضربه اسواطا. وكان يحبه ويشفق عليه .ليبر بيمينه ويؤذي من يحبه بالضرب، أو يحنث في يمينه .أفتاه الله بما يجمع به بين البر وعدم الايلام .وذلك بأن يأخذ مجموعة من القضبان بعدد الضربات التى أقسم على تنفيذها، ويضرب بها ضربة واحدة يبر بذلك في يمينه ولا يؤلم من يشفق عليه.

اثني على أيوب نعم العبد هو، إنه كثير الرجوع إلي.

بيان المعنى العام:

41—44:واذكر عبدنا أيوب... نعم العبد إنه أواب

واذكر يا محمد عبدنا الذي قربناه، ورفعنا مقامه بما ينبئك عنه إضافته إلينا عبدنا* منسوب إلينا رضيناه مقربا لنا، ليكون لك أسوة تساعدك على الصبر والثبات على تصلب قريش في رفضهم للإسلام. تأمل منه في هذا الظرف الذي بلغ فيه وضعه أقصى ما يمكن تحمله. نادى ربه موقنا أنه الملجأ الأخير له، قائلا في ندائه إني مسني الشيطان بتعب وإعياء. مما يشير إلى الوهن الجسمي العام الذي حل بداود وما صحب هذا الإعياء من الالم

وقف المفسرون عند قوله أصابني الشيطان، باعتبار أن الفاعل هو الله وليس للشيطان من قدرة على الفعل. ولعل القصد منه: أن الشيطان، لما توالى على داود الوهن والألم، اللذين أصيب بهما في بدنه، ومن شأن الانسان أنه يضعف عند توالي البلاء، وأن يجد الشيطان من ضعفه هذا مدخلا للوسوسة يقطع بها صبره على البلاء، ويحوله من الأمل إلى اليأس والقنوط، فشكا أيوب إلى ربه حالة الضعف

التي كرر الشيطان محاولته التحول منها، ليتزل به عن مستوى الصبر الذي كان مثلا رفيعا له.

ضراعة المتقين يعقبها استجابة رب العالمين. تبع نداءه استجابة الله لدعائه، فأوحى إليه أن دواءه من أدوائه قريب منه: اضرب المكان الذي أنت فيه برجلك ينبع لك الماء، فاغتسل به، واشرب منه، يتم شفاؤك مما تجده في باطنك، وما تتألم منه في ظاهرك، وتعود لك سلامتك التي كنت عليها، معافى من كل الأسقام.

نعمة تالية لنعمة الشفاء من المقام الذي طال أمده، وابتهل إلى الله أن يلطف به، لطف به فشفاه وجمع بينه وبين أهله، ولم يذكر في القرآن أين كانوا، ولا كيف تم جمعهم حوله. ولكنها نعمة العافية التي تكون أتم بجمع الشمل. وقدر الله أن يحوله من العبد الصابر إلى العبد الشاكر. وفضل الله لا يحد فضاعف أهله بالذرية والأحفاد. وذلك مظهر من مظاهر رحمتنا التي وسعت كل شيء، وفي إسناد الرحمة تنصيصا على أنها من الله ما يشعر بعظمها وسعتها وصحبة الألطاف لها، ولتكون الحالة التي تحول إليها ذكرى للذين رزقوا عقولا صافية، فيستفيدوا مما جرى على أيوب: أن الصبر والتعلق بالفضل الإلهي، والتدرع بالصبر، وإخلاص الدعاء يعقبه الفرج ، ومضاعفة الخيرات.

تتابعت الألطاف على أيوب عليه السلام . والذي يفهم من ظاهر النص أن أيوب حلف ليضربن أحدا من الذين له عليهم سلطة أسواطا .ذكر المفسرون أن المحلوف عليها زوجه، وأن يمينه كانت بضرب مائة سوط. وأن يمينه صدرت منه في حالة غضب إذ كان يحب زوجه التي كانت بارة به، أعانته على تحمل كل الأذى الذي ألم به ولم تضجر من مساعدته، وعز عليه أن يضربها، كما تعلق شديد التعلق بالبر بيمينه، خاصة بعد ما توالت عليه الألطاف، وكون المحلوف عليها زوجه لا يوجد في النص القرآني ما يؤكده، وكون الأسواط مائة كذلك. ويحتمل أن يكون المحلوف عليه عبده، ويحتمل أن يكون العدد أكثر من المائة أو أقل. ولكن اليقيني أن أيوب تحرج من اليمين. وأن الله أفتاه ترخصا بأن يأخذ حزمة من العيدان يجمعها في كفه ويضرب بها ضربة واحدة لا تؤذي ولا تؤلم، ويبر من يمينه ولا يحنث.

إنا وجدناه صابرا – هذه الألطاف التي تتابعت على أيوب، من شفائه من أسقامه، ومن جمعه بأهله ومباركتهم، كانت جزاء على صبره. ففاز برضا ربه، وتفريج كربه، وإسباغ النعم عليه مما سأله ومما لم يسأله. أثني عليه وأنا رب العزة، فحق أن يكون العبد الكامل العبودية لي. بلغ ذلك لأنه كان أوابا يعود لي ولا ينفصل

عني. قال سفيان الثوري: أثنى الله على عبدين ابتليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر. ثناء واحدا فقال لأيوب وسليمان: إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب.

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (48) هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (54)

بيان معاني الألفاظ:

أولي الأيدي : أصحاب القوة في الدين.

الأبصار : جمع بصر يعني به أصحاب البصيرة المتأملين في شرع الله.

أخلصناهم : جعلنا بواطنهم نقية من النقائص.

خالصة ذكرى الدار : استحضار موصول يوم القيامة.

عدن : الإقامة.

أتراب : جمع ترب، وهو المساوي في العمر.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر في نفسك هؤلاء العباد الذين قربتهم ونسبتهم لنفسي لتتخذ منهم أسوة، إبراهيم الذي صبر على هداية قومه وأذاهم حتى جمعوا أمرهم على إلقائه في النار فنجاه الله منها، فاصبر كما صبر وكن واثقا أن الله سيحميك كما حماه. واذكر نسله إسحق ويعقوب اللذين سارا على خطاه، فقد نقينا ضمائرهم من كل شائبة رجس وميل إلى إثم، بسبب خلوص ذكرهم للدار الآخرة واستحضارهم لها في جميع الأوقات. وإني اصطفيتهم واخترتهم فهم بالمنزلة الرفيعة عندي من الخيرة المتميزين من خلقي، واذكر هؤلاء الأنبياء الثلاثة أيضا، اذكر اسماعيل الذي منه تناسل العرب وكانت خاتم الرسل من ذريته، واذكر اليسع وذا الكفل، وكل واحد منهم هو من الأخيار المفضلين عندي.

تحقق ما قدمناه إن هذا القرآن ذكر جامع لكل خير. وبكل تأكيد فاز المتقون لله بالعاقبة الحسنة، هي جنات أعدت لاستقبالهم يجدونها تنتظرهم. فإذا دخلوها توفرت

الراحة والنعيم كلما سألوا شيئا حضر بين أيديهم، فواكه كثيرة متنوعة وشراب سائغ هو فوق الوصف. يأنسون في الجنة بزوجات صالحات جمعن الحسن، وكل واحدة منهن متعلقة بزوجها ترى فيه الرجل الجامع لكل صفات الحسن والفضل الإنساني لا يتعلق خاطرها ولا بصرها بغيره، وكذلك هي نظرة المنعم عليه لهن. تساوت أعمارهن وعمره. هذا الذي فصلناه هو ما هو موعود لكم لتجدوه يوم الحساب. إن هذا رزقنا هو دائم متواصل لا ينفد.

بيان المعنى العام:

45-47- واذكر عبادنا...لمن المصطفين الأخيار.

هو موكب الرسل يتواصل عرضه في هذه السورة، فقد افتتح هذا الموكب بداود، وأمر الرسول ﷺ أن يذكره تأسيا به، تحقيقا لقوله تعالى: فبهداهم اقتده. فعطفت هذه الآية ثلاثة من عباد الله الذين قربهم ونسبهم إلى نفسه [عبادنا] تعبيرا عن رضاه عنهم، وهؤلاء الثلاثة تتصل نسبهم بإبراهيم ﷺ، فإسحق هو ابن إبراهيم من زوجه هاجر، ويعقوب هو ابن إسحاق. أمر أن يكونوا حاضرين في قلبه نظرا إلى أنهم جمعوا بين مزايا أهلتهم ليكونوا نجوما لامعة في تاريخ البشرية يذكرون فيجد فيهم الذاكر منارة يقتدى بها. هم أهل القوة التي لا تضعف في طاعة الله، وهم أصحاب البصائر المتفتحة على هدى الله وآياته، فعقولهم يقظة تربط ما يشاهدونه بمبدعه وبالنظام العام في الكون.

ثم أثنى عليهم بأن الله سما بهم إلى درجة أنه نقى بواطنهم من شوائب النقص، فما كان للمادة ولا لأعراض الدنيا مكانة في نفوسهم. تحقق ذلك بسبب خلوص تعلقهم بذكرى الدار الآخرة. ولما كان هذا جعلا إلهيا، فيكون ذلك إيماء إلى العصمة التي كتبها لأنبيائه ورسله. فهم لا يقعون في الخطيئة إما على معنى أن الله خلق فيهم قوة دافعة للإثم تحصنهم من ارتكاب أي معصية، على معنى أن نفوسهم تشمئز من كل أمر لا يرضى الله عنه وتتعلق فقط بما يزيدهم قربا منه. وإما على معنى أن الهداية صحبتهم حتى ألفتها عقولهم ومداركهم، فغدت ملكة من الملكات التي عليها يسيرون، وعنها يصدرون. ثم إن مكانتهم الحقيقية هي التي قدرها الله لهم عنده، فهي المنزلة الرفيعة لختارهم الله من بين الخلائق، وقد جمعوا في نفوسهم وفي فعالهم ضروب الخير، فهم أخيار وصفوة البشر.

48- واذكر إسماعيل...وكل من الأخيار.

وعطف على الثلاثة المصطفين الأخيار ثلاثة. هم إسماعيل جد النبي ﷺ، ومعظم العرب من نسله، وعطف عليه اليسع، وذا الكفل، وحسب النص القرآني هما من

الأنبياء. والقرآن لم يفصل من أمرهما شيء. واعتمد بعض المفسرين روايات لا تستند إلى طريق صحيح. ويكفي في بيان مكانتهم وسموهم شهادة الله فيهم بأنهم من عباده الأخيار. والخيرة مبنية على صفاء عقيدتهم، ونقاء سلوكهم، ونصحهم للناس.

49.هذا ذكر ...لحسن مآب

افتتحت الآية باسم الاشارة هذا وهي طريقة متبعة عند الانتقال من عرض إلى عرض. يثبت المتكلم ما مضى بقوله هذا، ويعد السامع لما يرد عليه بعد. وأخبر عن اسم الإشارة بأن هذا ذكر. والراجح أن المقصود بالذكر القرآن. استحضر القرآن بما يحويه من خير لا يحد، وهداية مسترسلة ماضية مع البشرية مهما اختلفت بها الظروف والأحوال، وربط بين الدنيا والآخرة. وعطف عليه كون القرآن ذكرا تحقيق أن العاقبة الحسنة والمعاد السعيد هو للمتقين، الذين كان حضورهم مع الله ملازما، يحبونه ولا يغيب عنهم أنهم عباده محاسبون عن أعمالهم، يسرع بهم ذلك إلى فعل الخير، ويلجمهم عن فعل الشر.

50. جنات عدن ...الأبواب.

بينت الآية حسن المآب: جنات إقامة سرمدية، لا يخشون انقطاع الكرامة التي أفاضها عليهم ربهم. يحسون بالتكريم من أول الأمر، إذ يجدون أنها قد استعدت لهم قبل أن يدخلوها، كأنها تنتظرهم، فقوله أبوابها مفتحة لهم، مستعدة لاستقبالهم مرحبة بهم.

51 - 54: متكئين يدعون فيها...ما له من نفاد.

من هذه الآية يأخذ القرآن في تفصيل أنواع النعيم الذي يحظى به أهل الجنة. فهم شاعرون بالراحة التامة، فجلستهم جلسة المرفهين الذين لا يشغلهم شاغل. يأمرون فيلبى طلبهم، ويمر بخاطرهم خاطر فيجدونه حاضرا بين أيديهم. تكثر الفواكه بين أيديهم كمية وتنوعا. وعبر عن غذائهم بالفواكه لتقريب لذتها للناس. ذلك أن شأن الفاكهة في الدنيا أنها أطيب المأكولات، مذاقا وخفة. وإن كان طعام أهل الجنة مما يتناسب مع حياتهم السرمدية مع البعد عن النقائص التي تصحب كل أمر من أمور الدنيا. وذكر الطعام يستدعي ذكر الشراب، وليذهب الخيال في تصور شراب أهل الجنة مذاقا واستساغة، كل مذهب، والحقيقة أنه خير من ذلك. ولا وجه لتخصيصه بالخمر .

تحدثت الآية عن الأنس الذي سيستمتع به أهل الجنة، فعندهم نساء الطوت نفوسهن إعجابا وحبا لمن هن عنده. لا تجدها تنظر لغير رفيقها في الجنة، إذ هو يملأ عليها

حسنها، وهو أمر متبادل فإنهن لجمالهن ولخلقهن، ولأنوثتهن البالغة يملأن على المنعمين إحساسهم فلا يلتفتون إلى غيرهن. بمعنى أن الشعور بالحاجة تذهب من مدارك هؤلاء وهؤلاء. ولما كانت الوسامة تبلغ أقصاها في سن معينة، تكون قبلها أنقص وتأخذ بعدها في التولي، أخبر القرآن بأنهن على سن واحدة مع أزواجهن.

إن هذا الحاضر أمامكم، باعتبار أن الخطاب سيكون في الجنة والخطاب من الملائكة أو من رب العزة، هو ما توعدون ليوم الحساب والجزاء .وإما باعتبار أن الجزاء المفصل هو محقق فأشير إليه كأنه حاضر في الدنيا أمامهم هذا مما توعدون ليكون لكم جزاء يوم الحساب .

إن ما وصف من أنواع النعيم، والخيرات التي تتصرفون فيها، هي رزقنا الذي لا ينفد، ولا ينتهي. ذلك أن حدوثه مرتبط بالإرادة الإلهية، وثبتت إرادته بتجدد الأرزاق للمؤمنين المكرمين.

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطغاة : جمع طاغ المجاوز الحد في الكبر والشر.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

غساق : سائل أشد ما يكون نتنا وأسوأ ما يكون طعما.

الفوج : الجماعة الكثيرة من الناس.

الاقتحام : الدخول في الشدة.

لا مرحبا : دعاء يفيد التبرم بالداخل .

بيان المعنى الإجمالي:

يقيم القرآن صورة لعذاب الطغاة، مقابلة لصورة النعيم في الجنة للمتقين. السمة العامة لجزائهم أن يعودوا إلى شر عودة، يحترقون بنار جهنم، هي فراشهم وما أسوأه من فراش . ليكن إحساسهم بعذاب جهنم على أشد ما يكون. ماء حار يقطع الأمعاء، وسائل من صديد خبيث الطعم كريه الرائحة. وأنواع أخرمن العذاب من جنس العذاب المذكور، حتى إذا تعودوا على نوع من العذاب تسلط عليهم نوع اخر

يكون أشد إيلاما. وينظرون فإذا جماعة عظيمة مدفوعة دفعا تدخل جهنم في شدة وكرب، فيقول بعضهم لبعض متبرما مبغضا لدخولهم معهم: هذا فوج مقتحم معكم لجهنم، لا مرحبا بهم، هم من السفلة الذين نرفضهم أن يكونوا معنا، يزيدوننا ضيقا بأجسامهم، وأذى بصياحهم وأنينهم .ويجيبهم الفوج : أنتم الأحق بأن يقال لكم: لا مرحبا بكم ولا قبول، إننا صالوا النار بسبب إغوائكم لنا وتلبيسكم علينا. ثم توجهوا إلى الله داعين أن يضاعف عذاب هؤلاء الرؤساء الذين أضلونا في الحياة الدنيا، حتى كنا من أهل النار.

بيان المعنى العام.

55-56، هذا وإن للطاغين...فبئس المهاد.

تنبيه انتقل الكلام من موضوع إلى موضوع اخر بكلمة هذا فبعد أن رغب المؤمنين في مواصلة ما يقتضيه منهم الإيمان بتفصيل الجزاء الذي ينتظرهم في الجنة، تحول القران لبيان مآل الطغاة، فبني الكلام على أساس التقابل بين الفريقين. إذا كان مآل المتقين خير مآب، فإن الطغاة مآلهم شر مآل، وعودتهم إثر البعث شر عودة. سيصلون حريق جهنم، تكون لهم فراشا، وما أسوأه من فراش. النار الموقدة من تحتهم .

57-58، هذا فليذوقوه...من شكله ازواج.

هذا المآب الشر مُحضر غير غائب، فليذوقوا عذابه، ليحسوا بآلامه، ماء حار وسائل كريه أشد ما يكون نتنا، وأقذر منظرا، وأبشع طعما. حميم وغساق :
وعذاب اخر يتجرعونه من شكل العذاب الأول في القساوة والاذاية، أزواج أي أصناف يجمعها كلها أنها عذاب، تنوعت حتى لا تتعود أجسامهم نوعا من العذاب فيضعف الإحساس بالألم.

59، هذا فوج مقتحم...إنهم صالوا النار.

تقدم في القران صورة المنعمين في الجنة وما يدور بينهم في مجالسهم، تلك المجالس التي تضاعف شعورهم بالسعادة. وفي الأيات التالية يسجل القران ما يدور بين أهل النار. نظر الطغاة المستكبرون وهم في جهنم، فإذا جماعة عظيمة مدفوعة إلى جهنم تقتحمها بعسر وشدة. هم من الأتباع المستضعفين الذين كانوا يتحكمون فيهم في الدنيا. فيصرخون جميعا بقولهم: لا مرحبا بهم. نرفضهم ولا نرغب فيهم ولا يجدون منا تكريما ولا أنسا. ولهذا الرفض أسباب: منها أن الكبر الذي صاحبهم في الدنيا يبقى أثره في الأخرة ليهانوا ويعذبوا به. فهم عندما يجدون الأتباع معهم

في منزلة سواء، تتكسر كبرياؤهم فعبروا عن رفضهم لهم. ومنها أن جهنم تضيق بالنازلين فيها ليتضاعف عذابهم، فهؤلاء الداخلون سيزيدون الضيق حدة، ومنها أن الداخلين هم من المعذبين الذي يصلون النار فيسلط عليهم ضروب النكال والعذاب، وتتطلق حناجرهم بالصياح والصراخ، فيتضاعف الصخب والأنين .

60. قالوا بل أنتم ...فبئس القرار

كان الطغاة يسلطون على المستضعفين الأتباع بذامتهم واحتقارهم فلا يستطيعون رد التعدي. أما في جهنم فبمجرد ما عبروا عن رفضهم واحتقارهم، ردوا عليهم مستهينين بهم. أنتم لا مرحبا بكم، لا نعتز بكم ونرفضكم، إن تعييركم لنا بأننا صالوا النار ، فهذا الجزاء السيء أنتم سببه، أنتم قدمتم لنا في الدنيا من التسلط وصنوف المغريات ما رفضنا به الطريق المستقيم ودعوة الرسل. فكان جزاؤنا هذا الجزاء وما أسوأه من جزاء، هيأتموه لنا بسوء قيادتكم وفساد تدبيركم .

61. قالوا ربنا من قدم...في النار

ثم أضافوا داعين في صورة تذلل "ربنا" ليكون الدعاء أرجى في القبول: من عمل على تقديم ما نحن فيه من العذاب والمهانة بتغريره بنا وتزيينه لما جاءت به الرسل، فسلط عليه عذابا مضاعفا في النار. ليتميزوا في جهنم كما تميزوا في الدنيا. وهذا نظير ما جاء في سورة الأعراف : (قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار)[1]

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (70)

بيان معاني الألفاظ

زاغت : مالت عن جهتهم فلم تزهم.

السخري : المستهزأ به .

---

[1] سورة الأعراف ، آية 38.

القهار: المخضع كل شيء لحكم إرادته وتقديره.

نبأ: خبر هام.

الملأ: الجماعة ذات الشأن.

بيان المعنى الإجمالي:

يتذكر الطغاة جماعة من فقراء المؤمنين الذين ما كان لهم مركز اجتماعي رفيع، وكانوا يحسبونهم تبعا لذلك أنهم ما جمعوا بين الفقر وعدم النصير، والكفر بالآلهة، إلا لأنهم شرار أشقياء. قد اتخذناهم محل سخرية واستهزاء. ما لنا لا نراهم ؟أهم غير موجودين هنا؟ بل أهم موجودون في النار ولكن مالت أبصارنا عن المكان الذي هم فيه. إن كل ما سبق أن سجلناه من مقاولات وخصام المخلدين في النار هو الحق الذي سيظهر.

قل لهم قولا يلفت أنظارهم، ويسترعي أسماعهم: إني لا أحملكم كرها على الحق، وإنما أنذركم فقط ما ستلقونه إن لم تحصنوا أنفسكم بالإيمان. لستم في هذه الحياة متروكين لخياراتكم غير مسؤولين عنها. والمتصرف فيكم حاضرا ومآلا، هو الله وحده الذي يخضع كل شيء لإرادته أحب أم أبى. وما تعبدون من دونه ليس لها شيء من الألوهية والتصرف. هو رب السماوات والأرض وما بينهما، أنشأها من عدم ومكنها بألطافه لتبلغ المستوى الذي هي عليه. وقل لهم أيضا: إن هذا القرآن نبأ عظيم فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة، يفتح عقولكم ويقدركم على النجاح في عمران الكون. خسارتكم الكبرى من إعراضكم عنه، فلم تستفيدوا منه وهو أمامكم. يؤكد عظمته أنه وحي من الله العليم بحقائق الأمور على ما هي عليه. ويثبت لكم أنه وحي أني أعلمكم بما يجري في الملأ الأعلى من مقاولات ليس لي سبيل إلى العلم بها إلا بفضل ما يوحي به إلي. ذلك الوحي الذي يلزمني أن أكون نذيرا مبينا للعواقب الخاسرة لمن يكفر به.

بيان المعنى العام:

62-64: وقالوا ما لنا...أهل النار.

تنبعث ذاكرة المعذبين المستكبرين مستحضرة جماعة من فقراء المؤمنين الذين لم تكن لهم عصبية قبلية تفرض احترامهم، فيقول الطغاة بعضهم لبعض: ما الذي حصل حتى إننا لا نرى جماعة كنا نحسبهم أشقياء، باتباعهم للإسلام وتركهم دين قريش القبيلة القوية العزيزة، وبفقرهم وبصفة عامة بوضعهم الاجتماعي المهين. كنا نعدهم من شرار الناس لما اجتمع فيهم من النقائص، على معنى أن من لم يكن له حظ في الدنيا فلا حظ له في الآخرة. قال تعالى: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا

وما نحن بمعذبين)[1] لقد اتخذناهم موطن سخرية واستهزاء، بل إن أبصارنا كانت تتجاوزهم احتقارا لهم وترفعا عليهم. فيكون النص مبينا علاقتهم بهم، وتعجبهم من عدم رؤيتهم في النار.

وتفهم الآية على قراءة نافع وغيره "أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار" بقطع همزة "أتخذناهم" فيكون النص مبينا ندامة الطغاة من موقفهم من المستضعفين من المؤمنين في الدنيا. على معنى أكان تحقيرنا لهم في الدنيا خطأ لأنهم ليسوا أهلا للسخرية، أم كان ترفعنا عليهم وأبصارنا تعلو عليهم وإن نظرت إليهم فلا تعدو إلا شزرا نظرة احتقار، وهذا خطأ ثان. وقال الحسن البصري إنهم فعلوا الفعلين القبيحين معهم.

ويمكن فهم الآية ما لنا لا نرى رجالا كنا نحسبهم أشرارا خاسرين دنياهم وأخرتهم لفقرهم وكفرهم بآلهتنا، اتخذنا هؤلاء الرجال موضع سخرية، فهم لا يعرفون أين هم موجودون في الآخرة، ثم أضربوا فقالوا: بل إن أبصارنا لم تقع عليهم لعدم معرفتها بمكانهم في النار.

بكل تأكيد إن الذي سجلناه عليهم، وفصلناه، حق ثابت أنهم سيتكلمون به ويجري بينهم، وعبر عن مقاولاتهم بالخصام تبعا لتلقي الطغاة المستضعفين شر قبول، ورد المستضعفين عليه بل أنتم لا مرحبا بكم. وهذا الخصام يجري بين الخالدين في النار، لأن التعبير بـ "أهل النار" يفيد قوة الملازمة بينهم وبين النار

65—66: قل إنما أنا منذر...العزيز الغفار.

ما سبق هذه الآية من عرض ما يلقاه الطغاة والكفرة يوم الحساب والجزاء، قل لهم: وواجههم بهذه الحقيقة: إن ما أبلغكم إياه، وتحذيري لكم من سوء العاقبة إن لم تؤمنوا وتصلحوا أنفسكم، إنما أقوم به لأن ربي لم يكلفني إلا بإنذاركم، حتى لا تكونوا غافلين عن المصير المقرر لكل المعرضين عن هدايته. واعلموا أنه لا إله يستحق العبودية ويتقرب إليه إلا الله، فهو الواحد في ألوهيته وصفاته لا خالق غيره. وهو الذي يخضع كل كائن لقدرته، فلا يستطيع التمرد عليه أو الانفلات من قبضته. هو رب السماوات والأرض، وما بينهما، أنشأها من عدم، ووالى عليها ألطافه وعنايته حتى بلغت المستوى الذي تشاهدونه، عزيز في تصرفه فلا ترقى أي قوة لإلزامه أو التأثير عليه. وهو سبحانه متفضل بالمغفرة على من تاب من عبيده،

---

[1] سورة سبأ آية 35

وأقلع عن الشر، فاغتنموا هذا الكمال المتصف به وآمنوا بمنع ما سبق لكم أن اقترفتموه.

67-68: قل هو نبأ...عنه معرضون.

افتتحت الآية بما افتتحت الآية 65 بكلمة "قل"، إبرازا للاهتمام بمدخولها، حتى تعيه الأسماع وتلتفت إليه الأنظار. تشجيع و واجههم بهذا المضمون: أن القرآن نبأ عظيم، بما تضمنه من صلاح في العقيدة والنفس والعمران، ومن الفوز في الآخرة. أنتم أيها المشركون أعرضتم عن التدبر فيه، فلم تدركوا عظمته، وفاتكم خير كثير

69.ما كان لي من علم..إذ يختصمون.

عظمته تكمن أنه منزل من عند الله، يثبت ذلك أني أخبركم عن معلومات تتعلق بالملأ الأعلى الملائكة وآدم قبل أن ينزل من السماء إلى الأرض، وإبليس. أخبركم عن مواقفهم المختلفة، وما يصرح به كل فريق، من مضامين تمثل نقاشا في بعض الأحوال. فلما كان بعض التقاول فيه خصام، عبر عن الجميع بالخصام. إذ ليس من شأن الملأ الأعلى أن يحدث فيه مقاولات. سيظهر شيء من هذه المقاولات بعد آية واحدة: إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة الآيات.....

70. إن يوحى إلي...أنا نذير مبين.

اعلموا أن ما أبلغكم من القرآن وما يتضمنه من وعيد ووصف لما يلقاه المجرمون في الآخرة أو في قصصهم في الدنيا، وما يجري بينهم في الجحيم، وقصة آدم وعزم إبليس وتصريحه بأنه يجمع كل ما أوتي من مكر لإضلالكم وإغوائكم، كل ذلك لأجل إنذاركم، لطفا من ربي بكم لتهتدوا وتصلحوا حياتكم الدنيوية والأخروية. وقد كلفني ربي أن أفصل لكم القول وأبين لكم المضمون.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

سويته: أتممت خلقه وعدلته.

من روحي : من الروح التي أتفرد بملكها وأعلم حقيقتها.
رجيم : مطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى.
اللعنة : الإبعاد من رحمة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر يا محمد قصة خلق آدم ليكون الناس على ذكر منها. تبدأ القصة من إعلام الله ملائكته: إني خالق بشرا بمواصفاته الخاصة، وإمكاناته، مبتدئا خلقه من طين، فإذا أتممت خلقه، وعدلته جسديا، وأسريت فيه الحياة التي هي من روحي. أتفرد بملكها وبمعرفة حقيقتها. فتحركت أجهزته للعمل؛ فعندها قعوا له ساجدين، وبمجرد ما ظهر آدم بشرا سويا نفذ الملائكة أمر ربهم، فسجدوا جميعا. إلا إبليس الذي كان مشمولا بالأمر وكان يعيش مع الملائكة، عد نفسه أعظم من أن ينفذ الأمر، وكان منطويا على الكفر. أوكل الله بعض ملائكته لإيقافه بالسؤال عن سبب امتناعه من السجود لمن توليت خلقه بعنايتي في كل مرحلة من مراحل تكونه، أهو تعاظم واستكبار بدون موجب، أم يظن نفسه أعلى من آدم. أجاب إبليس بأنه خير من آدم لأن ابتداء خلقه كان من نار وابتداء خلق آدم كان من تراب، والنار أرفع وأسمى من التراب. صدر الحكم عليه إثر إقراره. أمره أن يخرج من الجنة ومن الملأ الأعلى الذي كان يعيش معهم، أن يخرج مطرودا مهانا. وأن اللعنة واليأس من رحمة الله تلحقه إلى يوم الجزاء الذي يلقى فيه جزاء كفره وتمرده، وضلاله وإضلاله.

بيان المعنى العام :

71-72 :إذ قال ربك للملائكة...فقعوا له ساجدين.

اذكر يا محمد ما وقع في هذا الظرف الذي قال فيه الله للملائكة إني قدرت خلق بشر من طين. فإذا أتممت خلقه وعدلته، وأذنت للروح التي هي من أمري أن تسري فيه. فتمشت الحياة فيه وأخذت أجهزته المختلفة تقوم بدورها، فأصبح حساسا مفكرا، مزودا باستعدادات تهيئه للخلافة في الأرض. فعندها اسجدوا له.
وقصة خلق آدم تكررت في القرآن، ذلك أنها قصة توقظ الإنسان إلى أن الشيطان يتهدده بإغوائه، ويعمل على إضلاله، بتقبيح الحسن وتحسين القبيح، والإملاء في الآمال، والإنسان قد يغفل عن هذا العدو الماكر غير الظاهر، المتحالف مع دواعي النفس وشهواتها.
وسجود الملائكة لآدم لا إشكال فيه لأنه ليس سجود عبادة، إذ المعبود هو الآذن بالسجود: الله رب العالمين. ولا يفهم السجود على أنه وضع الجبهة على الأرض، فالملائكة مخلوقات روحانية ليس بينها وبين المادة من سبب، فهي تحية إكبار

وإجلال لهذا المخلوق العجيب، الذي يرقى إلى أن يكون من جنسه المرسلون هداة العالم وخيرة الخلق، ويتسفل حتى يكون صنو الشيطان، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنه والناس.

73 – 74: فسجد الملائكة...وكان من الكافرين.

ثم خلق آدم، سواه ربه ونفخ فيه من روحه، وأخذت أجيزته تعمل عملها، وحان الوقت لينفذ الملائكة أمر ربهم، فسجدوا فعلا وأدوا التحية على النحو الذي فهموه من الأمر، مبتهجين أن أتيحت لهم فرصة جديدة لعبادة ربهم . سجدوا جميعا لم يتخلف أي واحد منهم. وبدا في المظهر العام المتحد فردا غير ساجد، هو إبليس فظاهرة الاستكبار بادية عليه، عد نفسه أعظم وأكبر من أن يسجد لآدم وأن يحييه تحية الإجلال التي أمره بها ربه. ويسجل القرآن أنه كان من الكافرين عندما امتنع من السجود. او كان منطويا على جذور الكفر التي ظهرت في الخارج بمناسبة الأمر بالسجود. وكُفْرُ إبليس لم يكن متولدا عن العصيان للأمر، إذ المعصية لا تحول بمفردها العاصي عن الإيمان إلى الكفر. ولكنه كان معترضا على الله، ناسبا له الخطأ في الأمر بالسجود لآدم . واعتقاد النقص في الذات الإلهية كفر.

75.قال يا إبليس...أم كنت من العالين.

أوكل الله ملكا يقرر إبليس ليظهر سبب امتناعه من السجود، وبذلك ينفي الغموض عن سبب تركه للسجود، ويظهر موجب الحكم عليه. فسأله عن السبب الذي منعه من السجود لآدم الذي خلقته بعنايتي، متحولا من مرتبة إلى مرتبة أخرى، حتى بلغ مرتبة نفخ الروح، الجوهر الخفي الذي لا يعلم حقيقته إلا أنا. إذ إيجاد آدم لم يكن حسب القوانين التي أعطاها للكون، يجري بيد اللاحق على سنن السابق، وإنما توليت العناية به في جميع مراحل تكونه حتى اصبح بشرا سويا. هذا معنى خلقت بيدي، إذ لا يصح مسه اليد إلى الله. هل كان الحاصل لك استكبارك على طاعة أمري، وذلك أنه لا يقبل أن تكون مأمورا بالسجود تعاظما منك. أم تعتقد نفسك أعلى من آدم، وبالتالي أرفع من أن ترضع لأمري؟. فعلى الاحتمال الأول لا يوجد في إبليس أي موجب للكبر، ولكنها أوهام ودعوى فارغة ومرض نفسي. وعلى الاحتمال الثاني اعتقاده انه فعلا أرفع من آدم وبالتالي لا يسجد، وأمره بالسجود مع علو منزلته خطأ من الأمر. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

76.قال أنا خير منه...من طين.

صرح بأن امتناعه من السجود ليس استكبار وانتفاخا، ولكنها الحقيقة التي ادعاها: أن من حقه الامتناع من السجود. ويبرر ذلك بأنه خير من آدم، إذ أن عناصر

التكوين تقتضي ذلك، فإبليس مخلوق من نـــار، وادم مخلـــوق مـــن طـــين. والنـــار أرقـــى، واشرف من الطين. وكلمة "من" في الخلقـــين تفيـــد الابتـــداء، أي إن خلـــق إبلـــيس ابتـــدأ من عنصر ناري، ثم أضيف له ما أضيف حتـــى استقل كيانـــه. وادم ابتـــدئ خلقـــه مـــن عنصر ترابي ثم اضيف له ما أضيف من العناصـــر حتـــى كـــان إنســـانا. وبـــالنظر إلـــى مبدأ الخلق فيهما استنتج إبليس انه خيـــر مـــن ادم. وكانـــت خطيئتـــه الكبـــرى أنـــه عبـــد مأمور، وعلى العبد الطاعة. هذا أولا. وثانيا فـــإن ابتـــداء الخلـــق لا يســـتقل بالتـــأثير فـــي الكائن، بل إنه بعد أن جمع عناصـــر أخـــرى أصـــبح شـــيئا اخـــر. فـــإبليس لـــيس نـــارا تتوقد، وادم ليس قطعة من طين يابس تصلصل.

77→78: قال فاخرج ...إلى يوم الدين.

بعد أن صرح إبليس بما هو كامن في نفسه أستحق الحكـــم عليـــه باعترافـــه. هـــذا الحكـــم الذي تضمن:

أولا: أمره بالخروج من الجنة ومن جـــوار الملائكـــة والعـــيش معهـــم الـــذي كـــان عليـــه قبل ذلك.

ثانيا: أن خروجه هذا ليس خروج انتقال ولكنه خروج طرد ومهانة، رجيم.

ثالثا: أن اللعنة والإبعاد والحرمان مـــن رحمـــة الله تصـــب عليـــه صـــبا، تصـــحبه فـــي الحياة الدنيا. ويوم الدين يوم الجزاء ســـيلقى جـــزاء عصـــيانه وكفـــره، ومـــا محـــض لـــه نفسه من شر وفساد.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

انظرني : أمهلني.

يوم يبعثون : يوم القيامة.

فبعزتك : بقدرتك غير المحدودة التي لا يحول بينها وبين تنفيذ ما تعلقت به أي حائل.

الاغواء : الإضلال.

من المتكلفين : من المتصنعين الذي يطمحون إلى التحلي بما ليس لهم.
نبأه صدق ما أخبر به القرآن.
حين في المستقبل

بيان المعنى الاجمالي :

طلب إبليس من ربه بكل تذلل وخضوع، وقد تبخر كبره، أن يؤخر حياته إلى يوم القيامة. أعلمه الله أنه تقرر في علم الله أنه سيبقى متحركا خبيثا إلى الأجل المحدد في علم الله. عندما ينتهي دوره على أنه أحد العوامل المؤثرة في التكليف والاختيار للناس. لما علم إبليس أن الله سيبقيه إلى الأجل المحدد عنده اطمأن إلى أنه سيعيش مع الجنس البشري، وأقسم بعزة الله أنه سيغوي البشر جميعا ويضلهم عن العقيدة الحق وعن السلوك الراشد، إلا الذين أخلصوا دينهم لله وطهرتهم من الزيغ. أثبت الله تعالى أنه يوجب الحق في كل ما يجري في الكون، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق الثابت .بكل تأكيد لأملأن جهنم منك ومن ذريتك ومعاونيك ومن البشر الذين يتبعون طريقك.

قل يا محمد للمشركين إلجاء لهم ليقروا بالحقيقة المتضمنة:

أولا: أني ما طلبت منكم في يوم من الأيام ثوابا ماديا مقابل ما أدعوكم إليه.

ثانيا: أني نشأت بينكم فما رأيتم مني من وقت شبابي إلى الآن أن لي طموحات تجعلني أتصنع ما ليس في .فدعوا ما ترمونني به من أني غير صادق فيما أقول لكم.

ثالثا: أنه تنزيل رب العالمين. القرآن والوحي الذي بلغتكم إياه لا يقصد منه إلا تذكير البشرية قاطبة لتصلح عقلها وعقيدتها وسلوكها. وسيظهر لكم في المستقبل تأثير القرآن في العالمين.

بيان المعنى العام :

79: قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون.

ذهب ما كان ينطوي عليه إبليس من كبر، وانكشفت له حقيقته، وتبين له صغاره، وتيقن أنه لا يستطيع أن يتحرك إلا إذا مكنه الله من التحرك؛ فقال: رب أظهر التذلل والخضوع، أخرني إلى يوم يبعثون . لا تفنيني وامدد لي في حياتي إلى يوم تبعث فيه الناس يوم القيامة.

80 ــ 81: قال فإنك...الوقت المعلوم.

أعلمه الله بواسطة الملك الموكل بذلك: أني حكمت بأن تواصل حياتك. فأجابه إلى الشطر من دعوته، وهو الإنظار .وأما الشطر الثاني وهو أن يبقى حيا فاعلا إلى

يوم القيامة فلم يجبه، وأن أجله سينقضي في الوقت المعلوم عند الله. لأنه سيقضى يوم ينتهي التصارع بين الخير الذي يدعو إليه المرسلون، وبين الشر الذي يحركه إبليس ويزينه للناس. وفي ذلك إيماء خفي إلى أن بقاء إبليس وتسلطه على الناس لم يكن استجابة لدعائه، ولكن ذلك كان أمرا مقررا في سابق علم الله، تحقيقا للتكليف ولابتلاء الإنسان بالاختيار.

82-83- قال فبعزتك..منهم المخلصين

أقسم إبليس بعزة الله وسلطانه وقهره، أنه عازم على إضلال البشر جميعا، بناء على ما أحس به في نفسه من قدرات شريرة خبيثة، وعلى ما علمه عن طبيعة التركيب الإنساني ودور شهواته وغرائزه في سلوكه. ولذلك استثنى عباد الله الذين أخلصوا لله، وطهرتهم من الزيغ والضلال.

84-85- قال فالحق..منهم أجمعين

قال تعالى فالحق: إني أوجب الحق وأثبته، والحق أقول، لا أقول إلا الحق، وهو تأكيد لقوله: فالحق. ما هو هذا الحق المؤكد؟ بكل تأكيد لأملأن جهنم منك ومن ذريتك وأتباعك من جنسك، ومن الذين استجابوا لإغوائك وانحرفوا عن صراطي المستقيم.

86. قل ما أسألكم ...وما أنا من المتكلفين

قل للمشركين المتصلبين لتلجئهم إلى الاعتراف بالحقيقة التي باشروها وجربوها: هذه الحقيقة أني ما سألتكم ولا طلبت منكم أجرا ومقابلا، ولا أثقلت عليكم أن تمكنوني من مثوبة على ما أقدمه لكم من نصح، وما أعمل ليلا نهارا لأقنعكم به. فاشهدوا أني ما كلفتكم في مقابل الدين الذي أبلغكم أحكامه، وأبين لكم أصوله ونظامه أي فائدة مادية. كما أنكم جربتموني وعرفتم خلقي من يوم ولدت بينكم، فما رأيتموني في يوم من الأيام من الذين يرومون أن يتحلوا بما ليس عنده. والتكلف كما روي في بعض الآثار: للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم. إن آفة التكلف تظهر مع قوة الشباب ومراحل الكهولة الأولى. أما وقد جاوزت الأربعين فإنه لا يتصور أن أكون من المتكلفين الآن مع تنزهي عن التكلف من قبل. وإذا كنت لم أسألكم أجرا، ولا أنا من المدعين ما ليس في طوعها فإن رميكم إياي بالكذب باطل من القول منفي عقلا. فكانت هذه الآية مثبتة صدق الرسول حسب القوانين المعتادة في الاجتماع الإنساني.

87. إن هو إلا ذكر للعالمين

فإذا كان القرآن والوحي الذي بلغتكم مضامينه والذي لا أطلب عليكم منه أجرا، وما أنا من الذين يظهرون أنفسهم بما ليس فيهم، فإن ذلك الوحي المنزل قرآنا

وغيره ليس إلا ذكرا للعالمين جميعا، لا لقريش وحدها، ولا للحاضرين وقت التنزيل، وإنما هو رسالة الله للبشرية عامة في جميع أطوارها، وأينما كانت، تذكرهم بالحقائق التي تصلح منهم آلة التفكير، وتصلح العقيدة وتصلح السلوك.

88. ولتعلمن نبأه بعد حين.

وستعلمون صدق هذه الحقيقة من تأثير القرآن في الحضارة الإنسانية، وفي العقل البشري عامة في المستقبل. وفي ذلك تطمين لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، أن الدين سينتشر في الآفاق، وسيهدي الله به أمما كثيرة .

4 شوال 1434 2013/08/12

سورة الزمر

هذا هو الاسم الذي عرفت به عند كتاب المصاحف. سميت بهذا الاسم لوقوع لفظ: الزمر: فيها وحدها. وروي اسم آخر لها في بعض كتب التفسير "سورة الغرف" لاختصاصها أيضا بهذه الكلمة في القرآن. وهي سورة مكية كلها، على الأرجح. وترتيبها حسب ترتيب المصحف التاسعة والثلاثون. وهي التاسعة والخمسون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة سبأ، وقبل سورة غافر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولياء : جمع ولي بمعنى معبود.

الزلفى: منزلة القرب.

كفار: المتصلب في الكفر.

بيان المعنى الإجمالي:

تفتتح السورة بالتنويه بالقرآن بكونه منزلا من الله، وبكون تنزيله متتابعا، وبأن منزله هو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم الذي يعلم حقائق الأشياء على ما هي عليه ويوجدها على أفضل وجه. ولما كان القرآن كلامه فهو جامع بين العزة الغالبة بما تضمنه من الحق، وبين الحكمة بتعريفه للبشر بحقائق الوجود والمعاد، وعلى الشريعة الهادية لسعادة الدارين. إنا أنزلنا القرآن موجها إليك ملتبسا بالحق مختلطا به، فقم بشكر ربك بواسطة العبادة لذاته عبادة تختص به ولا يخالطها غيره. ألا فانتبهوا واعلموا أن الدين الخالص من كل شائبة شرك، المستحق له هو الله وحده،

واحذروا الأوهام التي وسوس بها الشيطان من عبادة الأوثان على أنها وسيلة ووسطاء تقرب العابد من المعبود. إن الله سوف يحكم بينهم في اختلاف طرائقهم في عبادة الوسائط، فيكشف لهم ضلالهم جميعا، وسيستمرون على ضلالهم إلى آخر لحظة من حياتهم لأن الله حرمهم هدايته وتوفيقه، وتركهم لأنفسهم ولوساوس الشيطان تنخر عقولهم وتفسد أرواحهم بسبب تصلبهم في الكفر، وكذبهم على الله في دعواهم أن الله أمرهم بتقديس الوسائط. من تلكم الوسائط نسب العرب لله اللات والعزى ومناة، وزعموا أنها بنات الله. ما أشد غباءهم! إن الله في عرشه وجلاله لو أراد أن يتخذ أولادا يتبناهم ويتسببهم لنفسه، لاختار أفضل ما يمكن أن يتصور، فكيف يتخذ الأحجار الصماء والإناث، مع أنكم تقولون: إن الإناث أحط من الذكران، فنسبتم بغباءكم إلى الله الأحط في مادته والأحط في جنسه. تنزه الله عما تقولون، فهو الواحد الذي لا يعقل أن يكون له ولد. هو الذي يخضع كل شيء لحكمه وينفذ فيه إرادته رضي أم أبى.

بيان المعنى العام

1.تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

بداية فريدة افتتحت بها هذه السورة، فيها بيان لحقيقة يجب أن تكون حاضرة في عقول الناس ومشاعرهم، هي أن هذا القرآن هو كتاب، فصفة الكتابة والجمع والضبط ركن من أركان حقيقته، ليس لمحمد فيه إلا البلاغ، ثم التبيين بالقول والفعل. اذا أردت ضبطه بما يميزه فاعلم انه تنزيل متعاقب منجم، من الله العزيز الحكيم. وفي قرن اسم الجلالة بالوصفين "العزيز الحكيم" تنبيه إلى أن هذا الكتاب يوصف بما وصف به منزله، العزة والحكمة. أما أنه عزيز فذلك لأنه بقوة الحق الذي يتضمنه غالب لكل مكذب به، حجته الغالبة من ذاته، ومن مضامينه. وأما أنه حكيم فلأن القران يشتمل على الحكمة التي تكشف للناس الحقائق التي لا يصلون إليها إلا بواسطته كالمغيبات، وعلى الحكمة فيما شرعه للناس في الحقوق والأخلاق والسلوك.

2.إنا أنزلنا...مخلصا له الدين.

إنا بعظمتنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب المنوه به العزيز الحكيم، على معنى أننا اخترناك لتحمل هذه المهمة العظيمة، هي تلقي الكتاب، ولذلك أعيد لفظ الكتاب ولم تأت الاية على صيغة: "إنا أنزلناه بالحق" متلبسا بالحق أي إن الحق مختلط به، انتفى عنه الباطل فلا يمكن أن يلتصق به. ولا يلحقه النقض والفساد لا في الحال ولا في المستقبل. ثم ربط هذا التنزيل للكتاب المنوه به، بالإقبال على عبادة الله

عبادة تتصف بالخلوص من كل شائبة شرك ورياء وبتصفية السر. أي اعبد الله عبادة تبغي بها، الخضوع لجلاله والتقرب إليه. إنه لا تبلغ العبادة حقيقتها إلا إذا كانت الخيوط التي تجمعك بالمعبود خيوطا نورانية لا يخالطها كدر وضعف من التفات النفس إلى أمر آخر. إن الأمر الآخر هو ظلام يعتم على صفاء الإخلاص فيذهب شفافيته. وكلمة الدين التي تعلق بها الإخلاص تشمل كل عمل يقوم به الإنسان. تشمل العبادة المشروعة من صلاة وزكاة وصوم وحج، والأفعال الخيرية من صدقة وعون وهداية وإرشاد وجهاد، وتشمل الأفعال الدنيوية التي تنقلب عبادة بما يصحبها من نية ترفعها من مستوى الأفعال الطبيعية، إلى ربطها بالخالق ونية النفع بها في دائرة الاستخلاف في الحدود التي حددها فتنقلب عبادات يتبعها الأجر. يوضحه ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم بسنده إلى أبي ذر ، قال: قال النبي ﷺ : وفي بضع أحكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له فيه أجر. علق عليه عياض بقوله: وفيه أن المباح يتصرف بالنية إلى الطاعة[1] كما روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: أما لو أن أحدكم يقول حين يأتي أهله، بسم الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما في ذلك أو قضي ولد لم يضره الشيطان أبدا[2].

3. ألا لله الدين الخالص...من هو كاذب كفار.

انتبهوا لما سيرد عليكم فإنه من الأهمية بمكان. تفرد الله بأنه المستحق للعبادة الخالصة غير المشوبة بما يناقضها. وذلك مراتب:

أن يعبد الله لأنه حقيق بالعبادة، لا ينظر العابد إلى ما يترتب على عمله من ثوابه، وإنما يهمه شيء واحد هو أن يكون محل الرضا من ربه بعبادته. وهذه مرتبة سامية قد يصل إليها الإنسان بعد مجاهدة للنفس، وبحسن توفيق من الله. ودون هذه المرتبة أن يعبد الله طمعا في ثوابه واتقاء لغضبه وعقابه. وحظ النفس في هذا ضئيل ولكنه موجود. وهو لا يناقض العبادة لأن كل عابد هو غير واثق أن الله تقبل عمله وتعرض للثواب، فهو مواصل للقيام بالعبادة على جميع الأحوال. ودون هذه المرتبة أن يعبد الله، ويجد في نفسه ميلا أن يراه الناس في طريق الخير، إلى المساجد مثلا أو يشارك في أفعال البر، أو طبيب يخصص يوما لمعالجة الفقراء

---

[1] إكمال الإكمال ج3 ص145

[2] فتح الباري ج11ص136

مجانا ونحو ذلك، فهذا إذا كانت الخاطرة الذهنية لا تناقض فعل الخير على معنى أنه لا يقلع عن فعل الخير إذا لم يكن بمرأى من الناس فهذا لا ينافي الإخلاص. قال مالك: وإنما هذا شيء يكون في القلب لا يملك، وذلك من وسوسه الشيطان ليمنعه من العمل؛ فمن وجد ذلك فلا يكسله عن التمادي في فعل الخير، ولا يؤيسنه من الأجر، وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع، ويجدد النية فإن هذا غير مؤاخذ به إن شاء الله. وأما إذا كان تقديره لنظر الناس له وهو يفعل الخير، أو لحديثهم عنه مساويا أو أرجح من قصد العبادة، فالإخلاص مفقود، ولا طمع لصاحبه في الثواب أو في القبول.

وعرجت الآية على شبهة كانت فاشية في المجتمعات الجاهلية. كان بعض المشركين يعبدون الأصنام، كاللات والعزى ومناة والجن، وبعضهم يعبدون الملائكة. ويبررون ماهم عليه فيقولون: إن مرتبتنا منحطة، لا نسمو إلى عبادة الله مباشرة، فنتخذ وسائط بيننا وبين الله من المقربين عنده، حتى نفوز بالقرب من الله ويرضوانه بفضل تلك الوسائط. وتعالى الله أن يقبل وسائط بينه وبين عبيده، وهو شرك والعياذ بالله.

فالله يحكم بينهم: يمكن أن تفهم الآية على أن الله يحكم بينهم يوم القيامة بإظهار أن كل من عبد غير الله ضال، وهالك. فهو حكم بين مختلف الفرق التي تدعي كل واحدة منها أنها سلكت طريق الصواب، الحكم عليها جميعا بالضلال والفساد.

كما يمكن أن تفهم الآية على أن الله يصدر حكمه بين العابدين والمعبودين حكما يتناسب مع كل نوع. يحكم بالإلقاء في الجحيم، على العابدين ومعبوداتهم من أصنام ومن رضي منهم بأن يعبد من دون الله. ويحكم على عباده الصالحين الذين ما دعوا وما رضوا ليكونوا وسائط بين المشركين وبينه، يحكم عليهم بدخول الجنة ونيل تكريمه وثوابه.

إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار: يفيد المقطع السابق أن الذين اتخذوا من دونه أولياء تعمد تقريبهم إليه أنهم يواصلون كفرهم إلى اليوم الذي يصدر فيهم حكمه. فجاءت هذه الآية مؤكدة بالمنطوق لما هو مفهوم من المقطع السابق. إن مواصلة حياتهم على الضلال هو امر تابع لقاعدة معاملة الله للكافرين، أنه سبحانه لا يمن على المتصلبين في الكفر للذين يعرضون عن الاستماع لما يأتي به رسله، النافرين من التأمل، لا يمن عليهم بمنحهم الطاقة التي تفتح قلوبهم للخير، وعقولهم لتقبل الهداية. مكن الله البشر جميعا من الالات التي تصل بينهم وبين الحق، من سمع وبصر، ومن إبلاغ الرسل الحق الذي جاءهم من عند الله وبيانه. ولكن الذين اتخذوا

من دونه أولياء، رفضوا الاستماع إلى ما بينه لهم رسل الله: أن ما يعبدونه من دون الله باطل وزيف، وغلبوا ما يلقيه الشيطان في نفوسهم على وحي الله وبيان الرسل، فحرمهم الله من ألطافه التي تساعدهم على اتباع الخير والبعد عن الشر. أولئك الذين جمعوا بين الكذب على الله بدعواهم أن الله أمرهم بعباداتهم وبتمسكهم في الكفر.

4.لو أراد الله...هو الله الواحد القهار.

تواصل هذه الآية إبطال ما تعرضت له الآية السابقة. كان المشركون يعتقدون أنه بين الله وبين أصنامهم نسب فالثلاثة بنات الله: اللات والعزى ومناة . ولذلك هم يعبدونهم ليقربوهم من الله زلفى. تذكر الآية أن الله لو أراد أن يتخذ على طريق البنوة أولادا، لتخير من مخلوقاته الأسمى والأقوى شرفا، ومن له من المزايا مما يرجح اختياره. فمن أبطل الباطل أن يجعلوا أولاد الله الذين يتقربون بهم ثلاثة تجمع بين انحطاط كونها أحجارا، وبين كونها إناثا، على حسب قيم المشركين الذين يعتقدون أن الإناث أحط من الذكران. ولذلك عقب هذا الفرض المنفي بقوله: سبحانه، تنزه الله تنزها ذاتيا عن تصور ما ألحقه به الكفارون الكاذبون. ثم واصلت الآية بما يحقق التنزيه المستفاد من قوله "سبحانه" بأن الله واحد لا يتصور أن يكون له تعلق ذاتي بمخلوق من مخلوقاته، ولا أن يسمو كائن إلى أن يكون له نسب به، وهو القهار لكل كائن لا يستطيع أن يخرج عن سلطانه وهو ما ينافي علاقة التبني التي تقوم على لاحب العواطف من الرحمة والحب لا على القهر.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝

بيان معاني الألفاظ:

يكور : التكوير اللف واللي.

يجري : يسير سيرا سريعا.

مسمى : معين.

سخر : طوعهما تطويعا لا يتأتى لهما الخروج عنه.

الأزواج : الأنواع .

تصرف : الإبعاد.

الوزر : أصل معناه الثقل، وأطلق على الاثم .

وازرة : نفس

بيان المعنى الإجمالي:

استدلال على وحدانيته ونفي الولد عنه، ذلك لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأجراها على قوانين ثابتة، موحدة لا اختلاف فيها. يسلط الليل على النهار فيتبعه على سطح الكرة الأرضية ففي كل لحظة تظهر الظلمة في مكان، ويسلط النهار على الليل فيظهر في النقطة المقابلة لها ضوء النهار. وطوع بقدرته وحكمته الشمس والقمر لأداء وظائفهما في الكون. وكل منهما يسير إلى الغاية التي رسمها لهما رب العالمين، فيتوقف السير، وتقوم القيامة. فيحق هو العزيز الذي تتحقق إرادته ولا يعطلها اي معطل. وهو الذي يفتح لكم أبواب مغفرته لتتوبوا إليه فيمحو عنكم ما سلف. تأملوا في هذا البشر الذي يتكاثر على سطح الأرض نشأ من شخص واحد هو آدم، قدر الله كل جزئية فيه وقدر أجهزته والترابط المحكم بينها على غير مثال سبق، وفوق ذلك خلق من آدم زوجه حواء، ومكنكم من الانتفاع بالأزواج من الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز.

يتولى سبحانه العناية بكم في بطون أمهاتكم، يحولكم من وضع إلى وضع، ومن مستوى إلى مستوى أعلى منه، مع أنكم في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن، وتعالى أن يتأثر علمه وفعله بظلمة أو نور.

إن ذلك الذي تصرف وسخر وخلق هو الله ربكم، اختص بالملك فلا يشاركه أحد في ملكه، ويتبع تفرده بالملك تفرده بالألوهية. فكيف تصرفون وتبعدون عن عبادته وتوحيده !

إنه من رحمة الله ما يسره لعباده من الهداية بما أوحاه لرسله، وبما مكنهم من قوة العقل. إن من كفر منكم فكفره لا يضر الله شيئا لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى طاعتكم، ولكنه مع ذلك لا يرضى منكم أن تكفروا نعمه فتشركوا به. ومعنى لا

يرضى لعباده الكفر لأنه يعاقبهم على كفرهم، وفي المقابل هو يرضى لعباده أن يشكروا نعمه الشكر الذي أساسه الإيمان بأنه هو وحده الخالق المتفضل، ورضاه هو ثوابه وتكريمه. ثم إنه لا تتحمل نفس آثام نفس أخرى. وفوق ذلك ستعودون جميعا إلى حكمه، فيعلمكم ويخبركم بحقيقة ما عملتم في الدنيا. هذه الحقائق التي كان بعضكم يكتمها في صدره ولا يكشفها. والله يعلم ما يقصده كل عامل، وسيجازيه حسب قصده.

بيان المعنى العام:

5. خلق السماوات والأرض. العزيز الغفار.

هو القهار فلا يخرج أي شيء عن قدرته، سخر الكون تسخيرا أجراه حسب حكمته، خلق السماوات والأرض، وقدر أن يكونا في خلقهما مرتبطين ارتباطا كاملا بالحق. تلحظ أيها الإنسان أن الحكمة شملت كل جزئية من جزئيات الكون، وليس فيه عبث أو إنجاز كيفما اتفق، بل جرت كلها على الدقة التامة والحساب المضبوط. يقول سيد قطب رحمه الله: وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض، وفي الناموس الذي يحكم الكون. والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي بوحدة الإرادة القادرة المدبرة. وما كشفه الإنسان حتى اليوم، من دلائل الوحدة فيه الكفاية. فقد اتضح أن الكون المعروف للبشر مؤلف كله من ذرات متحدة في ماهيتها، وأنها بدورها تتألف من إشعاعات ذات طبيعة واحدة. وقد اتضح كذلك أن جميع الذرات وجميع الأجرام التي تتألف منها، سواء في ذلك الأرض التي تسكنها أم الكواكب والنجوم الأخرى في حركة دائمة، وأن هذه الحركة قانون ثابت لا يتخلف لافي الذرة الصغيرة ولا في النجم الهائل. واتضح أن لهذه الحركة نظاما ثابتا هو الآخر يوحي بوحدة الخلق ووحدة التدبير. وفي كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة في تصميم الوجود. ويكشف عن حق ثابت في هذا التصميم لا يتقلب مع هوى، ولا ينحرف مع ميل، ولا يتخلف لحظة ولا يحيد[1].

يكوّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل - مما يلفت النظر لفتا يعمق الإيمان، ويدخل على النفس بهجة الحق وجمال الصدق، هذا التعبير القرآني في تعاقب الليل والنهار. إن ما تلحظه العين المجردة أن الليل يبسط ظلامه على النهار، والعكس، وهذه الصورة التي ينقلها لنا البصر غير صادقة، ثبتت بصفة قطعية كروية الأرض، وأنها تدور حول نفسها، وفي كل لحظة يكون جزء منها مواجها

---

[1] في ظلال القرآن ج24ص 12

للشمس وهو النهار، والجزء المقابل محجوبا عنها هو الليل. وهكذا في حركة دائبة تتم معا يتم دورانهما على الكرة الأرضية، يكور النهار على الليل ويكور النهار على الليل. فالقرآن ليس كتابا يشرح الحقائق الكونية، فذلك مما كلف الله به الإنسان لمّا استخلفه في الأرض، ولكن العلم الإلهي الدقيق بما خلق، يتبعه أن التعبير القرآني يكون صادقا، مما يحرك النظر المضني في البحث عن أسرار كلامه سبحانه لتتكشف الحقيقة المضمرة.

وسخر الشمس والقمر : ارتباط النهار بالشمس، وارتباط الليل بظهور القمر، مناسبة للحديث عنهما. فالظاهر، الأولى أن كليهما قد طوعه الله ليقوم بوظيفته في الكون، كتجديد طاقات الأرض بالشمس، والدفء، والطاقة المنبعثة التي حركت العلماء للانتفاع بها. والقمر وتأثيره في المد والجزر وضبط الأوقات وغير ذلك. أودع سبحانه القوانين التي بها تكونت والتي بها تمضي في الوجود وفي التأثير على البشر والحيوان والنبات والتراب. هما يتحركان حسب تلكم القوانين ويسيران سيرا حثيثا، ينتهي سيرهما عند الأجل الذي قدر لبقائهما .فتتوقف حركتهما ويفسد الكون وتكون القيامة.

ألا هو العزيز الغفار: انتبهوا هو وحده المتصف بالعزة، فالكوكبان العظيمان سخرهما وأجبرهما على السير حسب القوانين التي أودعها فيهما. وتسخيرهما دليل على أن كل شيء مسخر لعظمته لا يخرج عما ضبطه له، ولا يقوم أي شيء يمنعه عن التصرف، أو يعدل ما قرره. وفي هذا تهديد للكافرين أنهم لا يملكون من أمرهم شيئا، ومقاليدهم بيد العزيز. وهو الغفار، وهو بهذا الوصف يدعو عباده للتحول عن الشر إلى الخير، وأنه يمحي ما سبق لهم من سيئات وانحراف عن الحق إذا هم تابوا ورجعوا إلى الاستقامة.

6: خلقكم من نفس واحدة...فأنى تصرفون.

بعد أن لفت الأنظار إلى دليل خلق السماوات والأرض على نظام محكم وقوانين ثابتة لا تحيد عنها إلى الأجل المقدر لها، عطف عليها خلق البشر جميعا لافتا الانتباه إلى أن هذه الأمم المتكاثرة، والخلائق التي تتضاعف أعدادها مع الزمن، أصلها واحد هو ادم .ويمثل خلق ادم اية عظمى على قدرة الخلاق العليم. نفس واحدة أوجدها على غير مثال، جمع فيها بين المادة والروح، وبين العقل والشهوة، ونظم كل جزء من أجزائها حسب قوانين دقيقة، وربط بينها ربطا عجيبا يتأثر الفكر بالوضع المادي، ويتأثر الوضع المادي بالوضع الروحي والفكري. بناء يشهد بالحكمة والقدرة والتدبير للخلاق العليم. ثم إن هذه النفس الواحدة قدر أن يخلق من

جزء من أجزائها ما تكون به زوجا بعد أن كانت فردا. وتكاثر البشر منحدرين من هذا الزوج ليقوموا بعمران الأرض إلى الأجل المسمى أيضا.

وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج: هذا الإنزال يحتمل أن يكون معناه، أن الله أنزلها من السماء لتتكاثر على وجه الأرض، ولن تكون أليفة للإنسان لا تستعصي عليه بل تخدمه وتمكنه من منافعها العديدة. ويحتمل أن يكون الإنزال تناظرا إلى نزول أصولها من سفينة نوح عليه السلام، بعد أن أخذ من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى، والثمانية أزواج المراد بها الأنواع الشاملة للغنم والمعز والبقر والإبل.

يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث: يستمر خلقكم ويتواصل في أطوار متلاحقة كل طور مبني على الطور الذي يليه حتى يكتمل ظهور الخصائص الكامنة في رأس الخلية الأولى المكونة من بيضة المرأة ولقاح المذكر 23 كرموزوما من كل واحد. إنه في اللحظة التي يتم فيها التخصيب تكون الخلية لا ترى إلا بالمجهر، ثم تتطور وتنمو شيئا فشيئا إلى أن تأخذ الأجهزة المختلفة في العمل. وهو في كل طور يرعاه ربه وهو في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، الغلاف الذي تكونه يد القدرة لحمايته وليكون واسطة غذائه من الوريد السري. وذلك لأن الظلمة والنور لا تأثير لهما في علم الله بوضع الجنين في كل مرحلة من مراحل تكونه.

ذلكم الله ربكم له الملك - ذلكم: الذي تعين تعينا في الأذهان بما أجري عليه من الصفات والتأثير والتصرف، هو الله الفرد العلم المختص بهذا الاسم، ثم أضافت الآية تسجيل أنه ربكم جميعا، بما تفيده كلمة الرب حسب اشتقاقها، سر أنه تولاكم وتولى كل كائن برعايته وإمداده. المتفرد بالملك، إذ ملكه دائم لا ينقطع، ولا يختلف في حال عن حال أخرى. أما ما يدعيه الناس من الملك، فهو ملك يلحقه الفناء، ويجري عليه التحولات بين الضعف والقوة، والاهتزاز والاستقرار. ثم يفنى من يدعون الملك وتفنى الأشياء التي كانوا بها يعتزون. فالملك الحقيقي الكامل غير المتغير اختص به الله.

لا إله إلا هو فأنى تصرفون لما ثبت لله الملك الحقيقي الدائم، فإنه يأتي ذلك، أنه لا إله بحق إلا هو سبحانه، انحصرت فيه الألوهية، وكل الآلهة الأخرى زائفة لا تملك ملكا دائما ولا تتصرف تصرفا متواصلا . فكيف تصرفون وتبعدون عن توحيده وعن عبادته، وعن اعتقاد الرجوع إلى حكمه والخضوع لسلطانه. فكيف تغترون بتضليل المضللين وتشكيك المشككين؟ إنكار عليهم تعطيل عقولهم وانقيادهم لأئمة الكفر والشياطين.

7- إن العناية الإلهية المظيمة بإصلاح أمر الناس، وبعث الرسل لهدايتهم، وتمكينهم من قوى العقل والنظر لتتبيّن الحقائق فلا تختلط بالباطل. والإنكار عليهم في انصرافهم عن التوحيد كما جاء في الآية السابقة: فأنى تصرفون. كل ذلك هو من فضله ورحمته بالبشرية حتى يسعدوا في الدارين. والله غني عن إيمانهم وعن كفرهم. تخاطب الآية الكفرة: إنهم إن اختاروا الكفر وثبتوا عليه فإنهم لا يضرون الله شيئا، إذ هو غني عن إيمانكم وعبادتكم لا ينتفع منها بشيء، وإنما النفع لأنفسكم. كما أنه سبحانه لا يتأثر ولا ينتفع بإيمان المؤمنين وشكر الشاكرين .إلا إنه وقع إدماج مفهوم جديد، هو أن الله وإن كان لا ينتفع بالإيمان ولا يضره الكفر وهو الغني الغنى المطلق، إلا أنه لا يرضى لعباده أن يكفروا به، ويرضى لعباده أن يشكروه ويعترفوا بفضله، ويعملوا وفق ما يقتضيه الشكر من طرد كل شرك، وفعل الخير والابتعاد عن الشر. وإنه إذا كان لا يقع في الوجود شيء على عكس الإرادة الإلهية، فالكفر واقع بإرادته، فكيف يريد الكفر ولا يرضى به؟ والذي استقر عندي في النظر: أن الله خلق الجنس البشري، وأراد أن يكون مختارا غير مجبر، وهذا الاختيار تتبعه المسؤولية عن الأعمال. أراد الله لكل إنسان أن يكون مختارا بين الإيمان والكفر، ولا يجبره ولا يقسره على أحدهما. فإذا اختار الإيمان فقد تحققت الإرادة الإلهية في الاختيار الذي هو مناط التكليف .وإذا اختار الكفر فقد تحققت الإرادة الإلهية في الاختيار الذي هو مناط التكليف. فقوله تعالى مثلا: ولو شاء الله ما فعلوه[1] -ولوشاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا [2]- وما كان على هذا النحو في القرآن أفهمه على أن الله لوشاء أن يمنع البشر من قتل أولادهم لفعل، وعندها لا يقع إلا ما أراد. ولكنه أراد أن يجعلهم مختارين بين أن يقتلوا أولادهم وأن لا يقتلوهم. وكذلك لو شاء ربك أن يقسر البشر كلهم على الإيمان لفعل، ولكنه مكنهم من الاختيار بين الإيمان والكفر، ثم يحاسبهم على ما اختاروه. فالإرادة هي وصف سابق على فعل الفاعل. وأما الرضا فهو استحسان ورضوان من الله للإيمان بعد الفعل. فبعد أن يؤمن المؤمن، يرتب عليه تكريمه وثوابه. وأما الكفر فإنه بعد وقوعه يكون صاحبه مسخوطا عند الله لا يرضى به ويعاقبه.

وذهب الماتريدية وبعض الأشاعرة إلى أن الإرادة والمشيئة والرضا شيء واحد، فجعلوا قوله تعالى مؤولا: ولا يرضى لعباده الكفر، أي لعباده المؤمنين. والمسألة من دقائق علم الكلام سالت فيها أقلام، والله أعلم بالصواب.

---

[1] سورة الأنعام137

[2] سورة يونس اية99

ولا تزر وازرة وزر أخرى : لا تحمل نفس وزر نفس أخرى. تطمئن هذه الآية المؤمنين أنه إذا كان المشركون في مكة عند نزول الآية كثيرة، فإن إثمهم وما يمكن أن ينزل عليهم من عذاب لا يمس المؤمنين. كما أنها تحقق قضية أساسية في التفكير الإسلامي أن المسؤولية فردية، فنوح عليه السلام لم ينفع ابنه الكافر من مقام والده العالي الرسول الكريم، وحكم عليه بأنه عمل غير صالح، وإبراهيم عليه السلام لم يضره أن كان آزر مشركا. وتبقى المسؤولية في مطالبة المؤمن بأن يدعو إلى الخير وينهى عن الشر.

ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور : هذه مرتبة أخرى فوق كون الله غنيا عنكم، أنه قرر أن تعودوا إليه ليوقفكم على ما دوّن من أعمالكم القلبية، ومن أعمالكم الظاهرة. عبر عن هذا التوقيف بقوله ينبئكم، أي يخبركم فتعود ذاكرتكم إلى استحضار ما عملت، وإما أن يكون توقيفهم بواسطة ملائكة موكلين بذلك فيعلنون لهم أعمالهم. ثم إن هذا الإنباء ليس إنباء ظاهريا للصورة التي وقعت في الخارج، ولكن يكشف لكم أعمالكم حسب القصد والنية التي صاحبت تلك الأعمال. وذلك لأن الله يعلم ما تخفيه الصدور المشتملة على القلوب، والمقصود بها القوة الباطنية التي تصحب الأعمال، والتي يسعى المنافقون إلى إخفائها.

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ

التخويل : الإعطاء بدون قصد عوض.

النسيان : ذهول الحافظة عما سبق لها علمه.

الأنداد : جمع ندّ الكفء.

التمتع : الانتفاع المؤقت.

قانت : عابد.

آناء : ساعات.

يوفى : يعطى الصابرون أجرهم تاما لانقص فيه

الصابرون : الذين قويت عزائمهم على تحمل المصائب فلا يضطربون ولا يضجرون.

بيان المعنى الإجمالي :

شأن الإنسان الذي لم يصلح الإيمان اخلاقه وفكره، أنه اذا أطبق عليه العسر ولم يجد منه مخرجا، أنه يتوجه الى الله داعيا ضارعا عائدا إليه ليكشف ضره. ثم إنه بعد أن يكشف الله عنه ضره، ويمكنه من فضله ونعمته، ينسى موقفه السابق، وأنه التزم بأنه سيستقيم اذا سلم من الوضع الذي هو فيه؛ ويعود الى ما كان عليه قبل الضر، فيعود لعبادة الأصنام ليكون ضالا، مضلا لغيره. قل له [هذا النموذج] يا محمد مهددا: استمتع بما مكنك منه الله، فإنه انتفاع موقت شأن كل أعراض الحياة الدنيا تزول عن قريب، وإنك خاسر فإن مصيرك الى النار وعاقبتك هي عذاب جهنم. وازنوا بين هذا النموذج الهالك، وبين الإنسان العابد الذي يطيل قيام الليل ساجدا لربه وقائما، يحذر ويخاف أن لا يفوز يوم القيامة بدخول الجنة، فيؤثر الخوف في سلوكه ابتعادا عن مواقعة الإثم، وإسراعا بالتوبة، ولا ييأس من رحمة الله فهو راج بما يجتهد فيه من فعل الخيرات، أن يتقبله الله بعفوه ويدخله جنته، فيكون عامل الرجاء دافعا له للمزيد من الخير. إن الفوارق عظيمة بين النموذجين، كأنهما ليسا من جنس واحد. هبط نموذج حتى كاد ينـدمج في زمرة الشياطين، وسما الاخر حتى كاد يلتحق بالملائكة. لا يدرك هذه المفاهيم الا من رزق عقلا صقله بجودة النظر وعمق التأمل فصفا.

مضمون هذه الآية معتنى به كثيرا، يخاطب الله رسوله بقوله: ﴿قل﴾، ثم يسند الكلام الى ذاته العلية، لينبه المبلغين انه كلام الله موجه اليهم. يناديهم مقربا لهم من ذاته، ﴿يا عبادي﴾ وفي ذلك من التشريف المقام السامي، ويكون هذا للتشريف والتقريب محرضا لهم على مواصلة التقوى لله الحقيق بأن تتقوه، لأنه ربكم الذي سابغ فضله والطافه متواصلة عليكم . ومما يؤكد التقوى أن من أتى بالحسنة سيجزى عنها حسنة لا يقدر مقدارها يوم القيامة.

وتومئ هذه الآية الى ان نفاسة التقوى توجب أن يكون لها المقام الأول، فإذا لم تستطيعوا أن تتقوا الله حق تقاته في مكة، فإن باب الهجرة مفتوح، وأرض الله لا تضيق بكم، فيهيئهم الآية لهجرة الحبشة . والهجرة تعتمد على العزيمة القوية التي لا تتردد ولا تضجر، تقتضي أن يكون المهاجر صابرا على ترك الموطن

المغروس حبّه في الفؤاد، وأن يتخلى عن كثير من مصالحه المرتبطة بالبيئة التي خرج منها، وأن يذلل الصعوبات التي سيلاقيها. ولذلك اختص الصابرون بأن أجرهم يعظم بما يتجاوز الحساب سعة وعمقا.

بيان المعنى العام:

8.وإذا مس الإنسان...من أصحاب النار.

تعرض الآية صورة تناقض النفس الإنسانية عارية، معرّية مواقفه بين حالتي الضر والرخاء. هو الإنسان عندما يمتحن بالضر في جسمه أو في ولده أو في ماله، فتنطلق فطرته من كابوس الأنانية والدعاوى المضللة، وتواجه الحقيقة الواقعية، ولا تجد من ينتشلها مما وقعت فيه، وتدرك أنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة في مواجهة المصاب، فتلجأ إلى ربها داعية كشف الضر، والعون ليفتح لها منافذ الفرج. وفي جانب آخر من الإطار تعرض الآية صورة الإنسان نفسه بعد أن كان متهالكا ضعيفا ضارعا، تعرضه وقد منحه الله من فضله ورحم تضرعه، وفتح له منافذ السعة والفرج، فعوفي مما أصابه، واستقرت حياته تصوره ذاهلا عن وضعه السابق، يتعلق بالقوى الزائفة التي لم تفده عند ضره، يجعلها سنده ناسيا أنه قبل قليل انكشفت له على أنها ليست فاعلة ولا تغنيه من بأس الله شيئا. تجده عند المشركين الذين يعودون إلى معبوداتهم يتقربون إليها ويجعلونها أندادا مساوية لله قصدهم وهمهم أن يضلوا الناس عن سبيل الله، وهذا يمثل القمة في التناقض وهو المقصود الأول للآية. كما تجد شيئا منه عند ضعفاء الإيمان، يعود المصاب بالضر بعد المحنة للتقرب لأصحاب الجاه، أو الدعم المالي، أو الحزب السياسي. ولا يكتفي بذلك بل تجده يدعو الناس ليسيروا في نفس طريقه، ويصرفهم عن منهج الله.

يتوجه القرآن لرسول الله ليأمره أن يقول لكل فرد من هؤلاء المتناقضين مهددا، وخاصة المشركين. قل لكل فرد منهم: تنعمْ واستمتعْ بما فتح له كفرك بالله، غير معجل لك العذاب، ولكن ذلك إلى أجل قريب. إذ أن مدة الحياة الدنيوية، أو مدة السلامة التي منحها لك ربك مدة قليلة: إنك خاسر الخسران الأكبر، فإن مصيرك يوم القيامة هو إلى جهنم، ذلك أنك ابتُليت وعافاك الله، لتستقيم، تصلح عقيدتك، وتعدل سلوكك، فعدت إلى ما كنت عليه وتنكرت لما عاهدت الله عليه من الإنابة له، وإخلاص العبادة.

9. أمن هو قانت...يتذكر أولوا الألباب.

نموذجان من البشر. النموذج الذي عرضته الآية السابقة الذي يدعو ربه ضارعا عند الضر، ثم يعود إلى ما كان عليه ليتمتع بكفره قليلا. والنموذج الثاني الذي

تعرضه هذه الآية: هو المطيع العابد، الذي يوقظه تعلقه بالله إلى مغادرة فراشه ساعات من الليل فيلبي أشواقه إلى الاتصال بربه، في تلك الأوقات التي تقوى فيها عزيمته فتتغلب على داعية الراحة والنوم، وتخصيص التنويه بساعات الليل، لما في عبادة الليل من أسرار، تكون فيها الروح أكثر تفتحا وإخلاصا. وأتبعت الآية قيامه للعبادة بالتنصيص على حالين يبيان ما يتضمنه القنوت، من كونه جامعا بين السجود والقيام -وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد- وفي ذلك ما يكشف عن أحواله الظاهرية، وأردفت ببيان ما ينطوي عليه قلبه وروحه مما لا يظهر أثره في الخارج، فبينت في هذا النموذج أنه مشدود بين قطبي الخوف والرجاء. هو مقبل على عبادة ربه وهو حذِرٌ من أن يرفض عمله ولا يسمو إلى درجة القبول، وأن تكون سيئاته تطغى على جوانب الخير وصالح عمله، وأن لا يكون له حظ في الآخرة. وهو في الآن نفسه يأمل راجيا أن يتقبل الله صالح عمله، وأن يعفو عن سيئاته، وأن يجعله من الذين كتب لهم السعادة في الآخرة ودخول الجنة مع الأبرار. فبالخوف يتزجر عن المعاصي، والرجاء يحثه على الإكثار من فعل الخيرات، وعلى التمادي في طريق الصلاح بتوقي المحارم ودوام الذكر وفعل الخير، فتأنس نفسه مسالك الصالحين.

قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب: قل لهم يا محمد قولا يوقظهم للتأمل في النموذجين السابقين. وبالغ في إيقاظهم بسؤالهم سؤال إنكار أن يكون النموذج الثاني نموذج القانت الخائف الراجي، مساويا للنموذج الآخر في الآية السابقة؟!

وفي هذا السؤال توجيه لإدراك أثر العلم في صلاح النفس البشرية، وإلى أثر الجهل في انحرافها وفسادها. فبمقدار ما يتعمق علم الإنسان، وينفذ إلى حقائق الكون، ويتضح في عقله وروحه الكمال الإلهي، وفضل الله ورحمته بالعالمين، وبتأملاته في التشريع الاسلامي، وتتبعه للنظام الاجتماعي الاسلامي الراعي لبناء الأمة، وبالتزامه بالقيم الخلقية عن تحليل واقتناع، يقبل الإنسان على الخير ويشمئز من الشر، وينفع مجتمعه وأسرته ونفسه ويجد التوازن الداخلي الذي تقترن به السعادة.

أما المقابل للذين يعلمون فهم الذين لا يعلمون، الذين أظلم الجهل عقولهم وأرواحهم، فتمردت غرائزهم وشهواتهم وأصبحوا منقادين لغواية الشيطان ووسوسة إبليس، تجدهم أقرب إلى الشر والأنانية والخبث.

ولكن حب المتعة العاجلة، و الاغتـرار بـالبهرج ودواعـي الشـهوة هـو الـذي يطمـس على العقول ويحجب النور عنها فلا تدرك مـا فـي العلـم مـن نفـع. فعقـولهم معطلـة، ولا يدرك قيمة العلم حقا إلا من أوتي صفاء في القريحة وذكاء وفطنة.

10. قل يا عبادي الذين...بغير حساب.

هذه ثلاث آيات تمت صياغتها على نحو يكاد يكون متحـدا، ينبـئ عـن الاهتمـام الكبيـر بمضامينها وهي:

الآية الثالثة والخمسون في سورة الإسـراء: قـل لعبـادي يقولـوا التـي هـي أحسـن. وهذه الآية : قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم. والآيـة 53 مـن هـذه السـورة : قـل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله.

أولا: كل واحدة منها افتتحت بكلمة قل مخاطبا بها النبـي ﷺ، وهـي تـدل علـى أن مـا سيرد بعدها محل اهتمام كبير يلفت الأنظار إليه بهذا الاستفتاح.

ثانيا: أن الموجه له المضمون " عبادي" الدالـة علـى تقـريبهم وتشـريفهم بنسـبتهم إلـى ذاته العلية. وهو ما يحتم عليهم أن يكونوا حريصين على الوفاء بما يدعوهم إليه.

ثالثا: أن الرسول ﷺ يبلغهم ما أوحي به إليه مـع التـذكير بأنـه توجيـه إلهـي لا ينسبه إلى نفسه ويخاطب به على أن الله أوحى بـه إليـه ليبلغـه علـى صـفة الخطـاب التـي تلقاها. فلا يصح أن يقول يا عبادي الذين أسـرفوا علـى أنفسـهم، أو يـا عبـادي الـذين آمنوا إلا رب العباد سبحانه.

رابعا: أن الآية الأولى في سورة الإسراء هـي الثالثـة والخمسـون، وأن الآيـة الأخيـرة في سـورة الزمـر هـي الثالثـة والخمسـون، وأن آيـة سـورة الزمـر التـي ندرسـها توسطت، فكانت بموقعها هذا تعمق ما جاء في الآيتين.

خامسا :العناية بالإحسان في المواقع الثلاثة. (قـل لعبـادي يقولـوا التـي هـي أحسـن)[1] في (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) فـي الزمـر 10 (واتبعـوا أحسـن مـا أنـزل إليكم من ربكم) وهي معطوفة على الآية 53 في الزمر داخلة في مضمون "قل".

فلنتأمل في شرحها:

قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم : خصـص النـداء بعبـاده المشـرفين بإضـافتهم إلـى ذاته العلية الذين تحقق منهم الإيمان حتى صـار هـو المعـروف بهـم. إن المنزلـة التـي سجلها القرآن لهـم بالإضـافة وبصـلة الإيمـان، توجـب نفاسـتها أن يحرصـوا تمـام الحرص على تغـذيتها بمـا يجعلهـا مشـعة فـي عقـولهم وأرواحهـم، منسـحبة علـى

[1] سورة الإسراء، الآية 53

سلوكهم، فأمروا بمواصلة ما هم عليه من تقوى الله .التقوى التي تجعل خيط الارتباط مصاحبا لهم بنير توجههم، بصفة مستمرة لا تنقطع، اذ التقوى هي لربهم بصفة الربوبية المشعرة باستحضارهم لتواصل الطافه وامداده وعونه.

للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة: ترغيب لعباده المؤمنين في التقوى، حاصلها أن الذين استجابوا للأمر "اتقوا ربكم" فالتزموا في حياتهم الدنيا فعل الطاعات، والابتعاد من مقارفة الآثام والسيئات، وتنزهوا عن الشبهات ،سيجزون حسنة تتجاوز الوصف والتقدير. بما يفيده تنوين حسنة، أنها غير معينة ولا محددة ليسرح الفكر في تصور أبعادها مقدارا ووصفا. ثم إنه في إخراجها مخرج القواعد العامة الصالحة لانطباقها على مختلف الصور. ما يؤكد الترغيب بتحقق الجزاء بصفة خاصة وبصفة عامة.

وارض الله واسعة: هيأت الآية حسب المفاصل - يا عبادي- الذين آمنوا- اتقوا ربكم - للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة - هيأ كل ذلك العزائم لقبول الهجرة .ففي قوله تعالى: وارض الله واسعة- معالجة لوضع متأزم كان عليه المسلمون، ولضيق ضاغط عليهم في حياتهم الاجتماعية وهم في مكة. وتبعا للضر الذي لحقهم من المشركين ليصرفوهم عن إيمانهم. تقول لهم الآية إن ارض الله لا تضيق بكم، وأنه إن حاول المشركون إذايتكم وحرمانكم من حقوقكم الاجتماعية، فلا تعجزوا . وأرضي واسعة تقبلكم وعوني معكم يسعدكم بالتأييد. وفي ذلك إعداد لهم لهجرة الحبشة التي التجأ إلى ملكها المهاجرون الأولون فخرج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة، ومعهم أولادهم الصغار. وبقي الرسول وبعض من صحابته في مكة يتابعون نشر دين الله، إلى أن أذن الله لرسوله في الهجرة الى المدينة بعد أن تهيأ المناخ المناسب لينغرس الإسلام في المدينة، ويتميز المجتمع الإسلامي بخصائصه.

إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب : إن الصابرين على الأذى الذين قويت عزائمهم فلا يضطربون، ولا يضجرون، ويكونون أقوى من المصائب التي نزلت بهم، اعتمادا على ما عمرت به قلوبهم من الإيمان ومن الرجاء في فضل الله، وبقوتهم النفسية هذه تنفتح لهم في المضائق مخارج تحولهم من العسر إلى اليسر ومن الشدة إلى الفرج .هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإنهم سيعطون أجرهم كاملا غير منقوص بغير حساب. كناية عن عظمة ما يكرمهم به ربهم به من الجزاء والثواب، إنه جزاء لا يحاط به، ولا يعلم مقداره إلا معطيه، فهو يتجاوز العد والحساب ،جزاؤهم محصور في هذه الكثرة اللامتناهية .

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

بيان معاني الألفاظ:

ظلل: جمع ظلة وهي ما يحجب الإنسان من أشعة الشمس.

خوف به: يجعلهم خائفين.

بيان المعنى الإجمالي:

نبئهم وقل لهم: إن ربي أمرني أن أعبده عبادة خالصة لوجهه لا يخالطها رياء ولا شرك. وأمرت أن أعبده عبادة أكون بها أكمل المسلمين إسلاما وأعلاهم في العبودية مقاما. المسلمون جميعا من أمتي ومن الأمم السابقين، ومن رسل الله الأكرمين. وقل لهم إني مستحضر دوما لجلال خالقي. فأنا أخشى عذاب يوم عظيم لا يقاس به أي يوم آخر. وفي ذلك ما يدعو المؤمنين للاقتداء به في تلكم الكمالات. قل لهم منبئا عن هذه الشهادة السامية مني: إني فعلا [أعبد الله مخلصا له ديني]. لقد اهتديت ولا يضرني إذا أنتم واصلتم ضلالكم واتبعتم ما تمليه عليكم شهواتكم. وستعلمون مصيركم. إن مصيركم هو مصير الخاسرين، الذين بلغ خسرانهم أعلى مستوى، إذ هم قد خسروا أنفسهم فأهلكوها وأعدوا لها جهنم مصيرا. وكذلك خسروا أزواجهم وذرياتهم إذ أعدوهم لنار جهنم بطاعتهم لهم فيما كانوا يضلونهم. وإن هم لم يطيعوهم وآمنوا فقد خسروهم إذ تنقطع الصلات بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ولا يوجد خسران أعظم من خسرانهم على جميع الوجوه.

ثم جسمت الآية لهب جهنم وهي تطبق على أهلها بأنها كالمظلة التي يتقلب فيها الإنسان لتقيه من حر الشمس، وأي مظلة هي إنها اللهب الحارق المؤلم تلكم اللهب الذي يحيط بهم من جميع الجوانب. ثم يناديهم نداء الرأفة والرحمة ليقلعوا عن كفرهم ويتمسكوا بالتقوى.

بيان المعنى العام

11- قل إني أمرت ... له الدين.

أمرت الآية السابقة عباد الله المؤمنين بالتقوى ووعدتهم الجزاء الفائق لكل حساب. وفي ذلك تحريض لهم على التشبث بها والحرص على مراعاتها في متنوع

لنشاطاتهم الدنيوية والأخروية، واكملت هذه الآية التاكيد عليها بإظهار الصورة الرفيعة لها، هي صورة التقوى التي أمر بها النبي ﷺ، وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. فأمر ﷺ أن يقول للمؤمنين: إن الله أمرني أن أعبده عبادة خالصة لوجهه الكريم لا يخالطها ما هو غريب عنها، فأجعل عبادتي وتوجهي مفردا ذاته العلية. وهو ما يومئ إلى أن التقوى التي أمروا بها ينبغي أن تسمو لتبلغ المستوى الذي أمر به في الإخلاص لربه.

12.و امرت لأن اكون اول المسلمين

وأمرت ايضا أن أجتهد في التقوى والإخلاص لأكون في مقدمة المسلمين وأقوى المسلمين إسلاما، كأنه يقول ولمرت بذلك لأكون الحائز على أرفع مستوى بين المسلمين جميعا. ولما كان الإسلام دين الأنبياء والرسل جميعا، فإن هذه الآية تكون أيضا كناية عن المنزلة التي خص بها النبي ﷺ، فهو أفضل رسل الله جميعا، تبعا لفيوض الهداية التي أكرمه بها ربه، وخصه بها.

13.قل إني أخاف... يوم عظيم

هذه الآية تنبئ عن قوله ﷺ : وإني لأخشاكم لله، إنه ﷺ أعرف الناس بحق ربه، يستحضر جلاله في كل حين. وهذا الاستحضار يحصنه من الوقوع في الإثم .إنه يخشى ربه ولا يعصيه .إن المعصية تعرض صاحبها لعذاب يوم عظيم .هو اليوم الذي لا تملك فيه أي نفس شيئا والأمر يومئذ لله

14. قل الله اعبد مخلصا له ديني

أعيد المفهوم الوارد في الآية 11 مع اختلاف بسيط بينهما، فالآية 11 أفادت أن الله أمره أن يكون مخلصا لله في دينه، وهذه الآية تسجيل من الله أن محمدا ﷺ طبق الأمر على الوجه المرضي لربه. ولمر أن يعلنه في الناس، تأكيدا لكون ﷺ الأسوة التي يتحتم الاقتداء بها.

15. فاعبدوا ما شئتم من دونه .

يحتمل المقصود منها التهديد كقوله تعالى: اعملوا ما شئتم[1] كما يحتمل أن يكون المقصود منها التسوية، الدالة على أن المتكلم لا يكترث بموقف المخاطب، إيماء إلى أنه لا قيمة له، إنه لا يضرني عبادتكم لما تختارونه من الضلال حسب هواكم ومشيئتكم .

---

[1] سورة فصلت اية 40

15.قل إن الخاسرين...الخسران المبين

بعد أن سجل عليهم أن النبي ﷺ أمر بأن يعلن لهم : أنه لا يكترث بهم إن هم اتبعوا هواهم فعبدوا ما شاؤوا. أتبع ذلك بأمره ﷺ، أن يحذرهم من اتباعهم لهواهم في عبادة غير الله .إنهم بذلك يكونون في قمة الخسران، أخسر الخاسرين الذين خسروا أنفسهم، فعرضوها للعذاب المحتوم، وللخزي والمهانة، وخسروا أزواجهم وذرياتهم، لأنهم إن كانوا عبدوا غير الله فقد كان تأثيرهم فيهم سببا في هلاكهم أعظم الهلاك، وإن كانوا مؤمنين لم يسقطوا فيما سقط فيه أباؤهم خسروهم، باعتبار أن الصلات تنقطع يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين، وبين المنعمين والمعذبين، فلا شك إن خسارتهم لأنفسهم بسوء مصيرهم خسارتهم لأهلهم معا هي أعظم خسارة وأبينها على جميع الاحتمالات.

16.لهم من فوقهم ظلل...فاتقون.

تفصل الآية العذاب الذي يلقونه في جهنم . اختصوا بطبقات من النار تعلوهم كما تعلو المظلة من يكون تحتها من حر الشمس، وفي إطلاق الظلل على ما يعلوهم من نار جهنم ضرب من التهكم. وإذا كانت الظلل في الأصل إنما تطلق على ما يعلو الرؤوس، فما وجه إطلاقه على ما تحتهم ؟ قد يكون ذلك على وجه المشاكلة، وقد يكون بالنظر إلى من تحتهم في طبقات جهنم.

ذلك يخوف الله به عباده... ذلك العذاب الذي توعد الله به، وذلك التشخيص لهوله، يلقي في قلوب الناس جميعا الخوف منه ليحذروه. والقرآن يحرك الناس إلى الخير بعاملي التهديد والرحمة. فوصف عذاب حر جهنم وإطباقه على أهلها يردعهم عن الكفر بالتخويف، وتقريبه بندائهم: يا عبادي ينشر في قلوبهم الأمل ليستجيبوا لندائه اللطيف. أن يجعلوا حماية لأنفسهم من غضبه بالتقوى وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطاغوت :مختلف أنواع الأصنام.

أناب: رجع وتاب.

البشرى : الإخبار بنفع.

حق: تحقق وثبت في الواقع...

غرف: جمع غرفة البيت المقام على بيت آخر، طوابق من البناء.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل القرآن للتنويه بالفائزين، فعرفهم بأنهم الذين نقّوا قلوبهم وعقولهم وأرواحهم من عبادة الأصنام، وتابوا من كل شرك ومن كل معصية؛ فرجعوا إلى الدائرة الوضيئة دائرة القرب من الله .استحقوا بذلك الاختصاص بالبشارة، ولأنهم مرنوا عقولهم على النقد فلا يميلون مع كل داع وقائل، ولكنهم يزنون ما يسمعون فتنساق نفوسهم إلى الأكمل والأفضل. أولئك الذين جمعوا تلكم الخصال قد هداهم الله، واختصوا بالعقول النافذة الى الحقيقة.

أانت يا محمد مالك أمر المشركين؟ فمن وجبت له النار أفأنت تنقذه مما وقع فيه؟ إنك لا تستطيع أن تنقذ من النار من وقع فيها فأطبقت عليه. وفي المقابل فإن الذين انغرست التقوى في قلوبهم، ومارسوا حياتهم على ما تقتضيه، أعد الله لهم بناءات ذات طوابق، تتخللها الأنهار الجارية، وعدهم الله بذلك وعدا لا يتصور عدم تحققه.

بيان المعنى العام :

17 -18- والذين اجتنبوا الطاغوت ـهم أولو الألباب.

عرفت الآية السابقة بالخاسرين ليكون الناس على بينة من سوء مآلهم. وانتقل القرآن للتنويه بالفائزين، فعرف بهم وبين خصائصهم التي بها فازوا ونجحوا وهم:

1) الذين اجتنبوا الطاغوت: كلمة الطاغوت على الأصنام المعبودة من دون الله، وتطلق على الشيطان، وعلى الأشرار المستكبرين الضالين المضلين. والمعنى الأول أقرب وأولى بحمل الآية عليه لأن الآية تنوه بنقاء عقيدتهم، فهم قد اجتنبوا عبادة الأصنام وابتعدوا عنها.

2) أنهم أنابوا إلى الله، طهروا نفوسهم من الإثم والخطيئة، وتعلقوا بما يرضي الله، فهم قد سلكوا مسلكا يفضي بهم إلى القرب من الله. فتابوا من الفساد الأكبر "الشرك" ومن كل المعاصي التي نهى عنها الرب سبحانه.

إنهم بجمعهم بين نقاء العقيدة وحسن السلوك، استحقوا أن يختصوا بالبشرى، وأن يعجل لهم الخبر بالخير الذي سينالهم.

ولذا أمر النبي ﷺ أن يعجل لهم البشارة، وأولها أن الله نسبهم لذاته العلية تقريبا لهم وتنويها بهم "عبادي"

3) تمر الأقوال على أسماعهم فلا يتأثرون إلا بأحسنها وأفضلها مضمونا وعاقبة، حملها بعضهم على القرآن وهو صحيح، لكن فيه تضييق، فالأولى أن يحمل الكلام على الذين لهم عقول نقادة تعرف الخير وتميل إليه.

4)انطبعت نفوسهم بالخير فهم لا يقفون عند الاستحسان والتذوق، ولكن يتبعون ما تفاعلوا معه بالانقياد والتطبيق.

تميزوا بالخصال الأربعة، فاستحقوا أن يصرح القرآن بمكانتهم، وأن يشير إليهم فاستحضرهم بملامحهم مصرحا، بأنهم الذين اختصوا بالإيثار الشديد على هداية الله، وفاضت تأكد النعم على عقولهم تصفت وبلغوا أرفع مستوى بين أصحاب العقول.

19.أفمن حق...تنقذ من في النار

هذه الآية متصلة بالآية السابقة التي بشرت ونوّهت، وهي تفيد أيضا تأكيد ما استحقوه بتسجيل ما هو معدّ للفريق المقابل. فالهمزة المفتتح بها هي للإنكار بالنظر إلى تمام الآية أفأنت تنقذ من في النار" ويكون معنى الآية :أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه وتخلصه ؟ وجرد لفظ حق من التاء لأن الفاعل "كلمة "أضيف إلى العذاب، مع إمكان الاستغناء عنه، ومراعاة للفصل بين الفعل "حق" والفاعل " كلمة " بالجار والمجرور " عليه " وكلمة العذاب وعيد الله بعذابهم .

والخطاب في قوله: (أفأنت تنقذ من في النار) ، موجه إلى رسول الله ﷺ، ذلك أنه كان شديد الحرص على هدايتهم، يأسف من تصلبهم في الكفر، فيقول له القرآن مالك تلح إلى هذه الدرجة، أتظن أنك تستطيع أن تنقذ من أحاطت به النار ؟ إذ من المعلوم أن من وقع في النار وشوته من جميع جوانبه لا مجال لإنقاذه.

20. لكن الذين اتقوا...لا يخلف الميعاد.

افتتحت الآية بكلمة لكن " لتنبه التالي إلى أن مضمون الآية التي سيتلوها، أنها على نقيض ما دلت عليه الآية المتقدمة التي حققت أن أصحاب النار لا منقذ لهم مما هم فيه. فأفادت هذه الآية أن الذين رسخت في قلوبهم ملكة التقوى اختصوا في مقابل الفريق الآخر " من حق عليه كلمة العذاب " بأن الله أعد لهم طوابق من البناءات، مع سعتها وإشرافها تتخللها الأنهار الجارية .وعدهم الله وعده، الذي لا يتصور عدم تنفيذه .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا
مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ (21) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا
مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

بيان معاني الألفاظ:

فسلكه: أدخله ونظمه.

ينابيع: جمع ينبوع عيونا ومسالك.

يهيج: يغلظ ويرتفع.

حطاما: فتاتا.

شرح صدره للإسلام: فتح عقله وروحه لقبول هدي الإسلام.

نور من ربه: الهدى النازل من ربه.

قساوة القلب: عدم تأثره بالمواعظ .

اقشعر الجلد: تقبض من شدة الخوف.

لان: انبسط سرورا.

بيان المعنى الاجمالي:

تنبه الاية إلى حكمة الله في تصرفه في الكون، تنبه كل من يصح منه الروية أن يتأمل في الأطوار التي تتابع بتقدير سابق – أن الله وحده هو الذي جمع الظروف التي بها نزل الماء من السماء، ثم إنه قدر لهذا الماء النازل المسالك التي يتبعها في الأرض وفي الحبة المحتضنة في التراب، وجعل منه ينابيع عيونا وأنهارا بها ينتظم الري، ثم يخرج به زروعا مختلفة الألوان مشكلة الأنواع، ثم تبلغ النباتات أشدها فتتهيأ بعد أن ينضج ما تحمله من حبات تخلفها، تتهيأ باصفرارها وذهاب خضرتها إلى الموت والتفتت. في هذه المراحل المترابطة والمتتابعة ما يصلح ليكون ذكرى وتنبيها لمن أوتي عقلا يتجاوز الظواهر إلى ما وراءها؛ فيعلم أن الكون كله مبني على نظام وحسن تقدير، وأن هذه النباتات التي برزت من باطن الأرض نظير خروج الإنسان من بطن أمه، تطورت إلى أن تحطمت وفنيت، ثم

استمدت حياتها لأخذ الحياة من جديد، فكذلك الإنسان يبلغ غاية قوته ثم يضعف إلى أن يموت، ثم يبعث إلى الحياة من جديد عندما يوفر المولى سبحانه الظروف التي تنشأ إثرها النشأة الأخرة.

ثم لفتت الآية الأنظار إلى نموذجين من البشر : النموذج الأول هو الذي أقبل على الإسلام إقبال القبول والأنس بما قرره من عقيدة وأخلاق وسلوك، فوجد الراحة النفسية والبدنية كلما توالى عليه سماع الوحي. ما يزال موقفه هذا يثبّت في نفسه حب الخير والحق حتى انطبع به فكان قابلا متمكنا من نور ربه يسعده ويهديه. والنموذج الثاني نموذج الذي عزم على رفض كل ما يبلغه من الحق والهدى من القرآن والوحي، تراكم على قلبه الكفر والعناد، حتى أصبح قاسيا لا ينفذ إليه من أنوار الوحي هداية ولا إرشاد. استحق الويل والعذاب. إن هؤلاء القساة القلوب منغمسون في الضلال الشديد، الواضح، لعمى قلوبهم.

الله العظيم تولى إنزال أحسن الحديث، وأفضل الكلام، على رسوله محمد ﷺ لينشره في العالمين. هو كتاب محفوظ بالكتابة كما هو محفوظ في الصدور. تعددت أغراضه من العقيدة إلى الغيب إلى التشريع إلى النظام الاجتماعي إلى علاقة الإنسان بالكون بكل ما يحويه إلى القصص المؤيدة لمضامينه . وهو في كل ذلك بالغ أعلى مستوى من الهداية والبيان تتشابه آياته في ذلك. وتتكرر لتثبيت مضامينها ثم هي مع ذلك لها وقع الجدة مع تكررها. إنه القرآن معجزة الإسلام يحرك مشاعر الذين يخشون ربهم، فيهزها هزا يجعلها حذرة خائفة كأشد ما يكون الخوف، ثم يبشرها ويفتح لها أبواب الأمل فإذا هي منبسطة يغمرها الرضا والأمن. إن ذلك الكتاب هو هدى الله يهدي به من يشاء من الذين أقبلوا عليه تلاوة وتفهما وعملا . ومن حرم الهداية القرآنية فأعرض عنه فلن يجد سبيل النجاح والأمن والسلامة في أي شيء اخر.

بيان المعنى العام :

1 ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء..لذكرى لأولي الألباب.

افتتحت الآية باستفهام تقريري، لإثارة الذهن بالاستفهام، وتأكيد حصول مدلوله، والخطاب صالح ليتناول كل من يصح منه الرؤية. وهذه الصورة العجيبة المنظورة في تواصل تُعدّ كل مرحلة إلى المرحلة التالية. وقد يغفل الإنسان عن الربط، الارتباط الذي كشف العلم عن قوانينه فلنتتبعها مرحلة مرحلة.

1) أن الله هو وحده الذي تصرف وجمع الأسباب التي بتوفرها انزل الماء من السماء،

2) أنه قدر الطريقة التي يسلكها الماء ليتم به الدور المقدر، من تخلله للأرض، فيكون مسالك كالعروق في الأجساد. ومن تحريك الزريعة لامتصاصه لتبدأ مرحلة الحياة.

3) أنه قدر في الجين الخاص لكل حبة من الحبات الأطوار التي ستتبعها، كيف تفلق الحبة لترسي بجذورها في الأرض تمتص الماء ومقومات حياتها من عناصر التربة، وترفع رأسها لتتقبل أشعة الشمس التي تتفاعل معها تفاعلا عجيبا.
4) أن حبات الزريعة المبثوثة في الأرض، تأخذ فوق سطح الأرض أشكالا متنوعة وألوانا مختلفة . تكسو الأرض ببساط بديع متناسق . بين الأخضر والأحمر والأصفر والأقحواني والأبيض....
5) تتلو مرحلة الإزهار بلوغ الزروع غاية نموها ويأخذ الماء الذي امتصته ونمت به في الجفاف، وعندها يتم التكون للحبوب، التي ستقوم بدورها في استمرار النوع .و في هذه المرحلة المشابهة لمرحلة الشيخوخة في الانسان تذهب الألوان لبعضها صفرة معدة للموت.
6) تذهب كل بقية من الماء فيسرع التحطم للنباتات وتتفتت .
إن في ذلك تنبيها وتذكيرا لأصحاب العقول اليقظة التي يستوقفها المعروض فتتأمل فيه وتعتبر به. ومن جملة ما في تلك الظواهر، ما يثبت أن وراء هذا التنظيم المحكم قدرة إلهيه أحكمت كل مرحلة وهيأتها للمرحلة التي تليها. فهي ظاهرة تدل أن الكون لا عبث فيه، وإنما هو من تقدير العزيز الحكيم. وقد وصل أولو الألباب اليوم إلى أن كل حبة من الحبات تحمل في ذاتها برنامج تطورها على جميع الاحتمالات، وليس للمصادفة من مكان. فالأطوار التي تمر بها الحبة، سواء تشربت الرطوبة أو بقيت جافة، وما تحويه الأرض من عناصر، ومقدار ما تأخذه من أشعة الشمس، ومدة كل طور من أطوار النمو، وما سيعقبه، كل ذلك مكتوب في جين الحبة.
وهذه الظواهر تقوم دليلا على البعث، فإذا كانت الحبة بعد يبسها وتحطم أصلها تعود إلى الحياة عند توفر ظروف الإحياء، فكذلك البشر سيبعثون من قبورهم عند توفر ظروف البعث التي هي تحت تصرف الخلاق العليم.

22.أفمن شرح الله صدره...في ضلال مبين.

سؤال يثير في السامع البحث في المقارنة بين هذين النموذجين من البشر . نموذج الذي سمع الوحي النازل على رسول الله فهش له، وزاده التأمل في مضامينه قبولا له، مثله القرآن بمن انفتح صدره، بأن وجد راحة لما يدعو إليه الإسلام، يوضح ذلك أن السامع إذا عرضت عليه أخبار سارة يجد في نفسه قبولا لها، تكون نبضات قلبه منتظمة لا يشعر بانقباض جسماني . يتلاءم مع الخبر ويستسيغه، وبالعكس فإنه إذا أخبر بما يحزنه ويؤلمه مما يرفضه يجد كأن قلبه يضغط عليه، ويظهر

ذلك في نبضات قلبه. فمن وجد بين فكره وبين ما يدعو إليه الإسلام انسجاما وتوافقا، فإنه ينفتح للمزيد من التعرف على الإسلام وعلى ما يدعو إليه ويرشد، فهو قد تمكن من النور الإلهي الذي يضيء له مسارب الحياة، ويسعده بالحلول الرضية للاشكالات التي تقلقه لولا نور الإسلام.

أما النموذج الثاني فتفتتح الآية عرضه بكلمة: ويل الدالة على العذاب والخسران، فيرتسم من البداية التحول إلى نموذج مناقض للنموذج الأول، ثم شرحته بأنه الذي قسا قلبه، كان غليظا لا تنفذ إليه الأنوار، ولا يتأثر بالمواعظ، ولا يلين لسماع الحق فضلا عن اتباعه، وذلك بسبب ما تراكم عليه من العناد ومن الرفض، تجده إذا ذكر الله وفضله وهداه يصد عن ذلك صدودا، وما يزال على تلك الحال إلى أن يطبع على قلبه فيفقد التأثر بالحق، ويمر كلام الله على سمعه فلا ينفذ إلى وعيه. ويل له وعذاب وخسران، فقد أهلك نفسه وخسر الراحة والطمأنينة في الحياة الدنيا، وأعد لنفسه سوء المصير يوم القيامة في جهنم.أولئك القاسية قلوبهم منغمسون في الضلال الواضح الشديد الذي لا يخفى فساده.

3.2.الله نزل أحسن الحديث...و من يضلل الله فما له من هاد.

تفتتح الآية باسم الله العظيم "الله" فتستحضر جلاله تنبيها على أن ما يرد فيها له وصف الرفعة والعظمة والمنزلة الفريدة. (نزل أحسن الحديث) فتلتقي الآية بفاتحة السورة: تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. وهو تأكيد يبطل دعوى المشركين أن القرآن من كلام محمد، ويحقق للعالمين على تعاقب الأعصار أن هذا الكتاب هو كلام الله نزله على رسوله، لهدايتهم إلى الحق.

أحسن الحديث : يعانق هذا المقطع الآية 18 المنوهة بعباده الخلص المهديين "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" واختير لفظ الحديث للدلالة على القرآن إيماء إلى أنه كلام جديد نزل من رب العزة لا كما يزعم المشركون "أساطير الأولين اكتتبها" وكونه أحسن الحديث يوضحه: أن الكلام يتفاوت بصياغته أو بمضامينه. أما صياغته فإنك إن تأملت القرآن تجده قد بلغ حد الإعجاز في نظمه، وتحدى البشر كلهم فأعجزهم، وما هو إلا أن يقتبس البليغ أو الشاعر آية أو مقطعا حتى تجد إشعاعها وحسنها يعلو على بقية كلامه ،وأما بالنسبة لمضامينه فإنك تجد فيه التصور الصحيح للمعبود، وللكون ولمنزلة الإنسان فيه، وللمبدإ والمعاد، ولأفضل طريقة في اتصال العابد بالمعبود، ولصلة الناس فيما بينهم في المعاملات، والأخلاق. ولعلاقته بكل مخلوق في هذا العالم. ثم الربط بين الحكم العالية ومتى

الله في الخليقة بما قصه من أخبار السابقين. وما بثه في تضاعيف حديثه من حكم تمثل القوانين العامة التي لا تتخلف.

كتابا : في تمييزه بكونه كتابا إشارة إلى أن القرآن قصد أن يكون مكتوبا، بما يضمن سلامة نصه، فتم حفظ القرآن بثلاثة عوامل لم تتوفر لغيره من الكتب السماوية:

- عامل كتابته فكان النبي ﷺ بمجرد ما ينزل عليه يدعو أحد كتبة الوحي لتوثيق ما تلقاه من ربه.
- والعامل الثاني تعلق المؤمنين بحفظه وهو أسر إلهامي ربط فيه رب العزة بين المؤمنين وكتابهم فحرصوا أن يحفظوه في صدورهم، فكانت نسخ القرآن يتم التثبت من سلامتها بالمحفوظ العام.
- والعامل الثالث إنزاله بلغة حمل في مقوماتها الذاتية أنها تستطيع أن تساير تطور الإنسان مع ثبات بنيتها، وكل الكتب السابقة نزلت بلغات لحقها الموت والفناء، فلا يوجد من يفهم اللغات التي نزل بها الوحي. وما بين أيدي أتباعها لا يعدو أن يكون ترجمة تمثل فهم المترجم لا مراد منزلها.

متشابها: وكون القرآن متشابها فيه إشارة إلى تساوي آياته في الجمال، والهداية. فإنك إذا تتبعت كلام الأدباء والبلغاء تجدهم تارة يرتفعون إلى منازل عالية في الفن القولي، وتارة يسفون وينزلون إلى مستويات ضعيفة .أما القرآن فسواء أكان تأملك في بسطه للعقيدة أو للتشريع أو للقصص تجده على مستوى واحد من الدقة والجمال والإعجاز.

مثاني- جمع مثنى أي اثنين اثنين، وهو تسجيل لظاهرة التكرار في القرآن. إذ أنزله الله على فترة امتدت ثلاثا وعشرين سنة، أخذ قلوبا كانت بعيدة عن الهدى، وفي وسط اجتماعي لا صلة صحيحة بينه وبين الله، تواضع فيه المجتمع على قيم وأخلاق نبعت من الهوى والقوة، فكان الوحي يصلحها شيئا فشيئا، يكرر عليها ما يقلع ما ترسخ في العقول من مألوفات ثم إن التالي لكتاب الله، قد يضعف في نفسه أثر التوجيه الخاص بانتقال القرآن في عرض أغراضه. فيعيد القرآن على قلبه التذكير ليثبت ويتمكن. وإنك لتجد من سر القرآن عجبا حسبما يشير إليه وصف مثاني فإن المؤمن يقرأ مثلا سورة الفاتحة ويكررها سبع عشرة مرة في اليوم، ومع هذا تجده يأنس بها كلما كررها ويتابعها كأنه يقرأها أنفا.

تقشعر منه جلود.. : يعبر هذا عن قوة التأثير القرآني في العقول، الذي يكون من آثاره ظواهر على الجسم. يبلغ العرض القرآني تارة مستوى يجعل التالي كأنه

يعيش فعلا المشهد الذي يصوره القران، فينقبض جلده، أو تدمع عينه. وقد يلين العرض ويشيع الرحمة الإلهية ويبعث الآمال متحركة حتى تكاد تلامس الوعد وتقبض عليه، فيشيع السرور والرضا في مشاعره، فيأنس به ويهدأ.
فالقشعريرة تتصل بالخوف من المؤاخذة بما فرط، واللين يرتبط بالتصور لفسيح الرحمة كقوله (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها. يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) . كما سيأتينا عند بيان معانيها في هذه السورة.
ذلك هدى الله....: تم فيما سبق من الآية تفصيل خصائص القران، وإذ تجمعت أشير إليها في مستواها العالي بقوله ' ذلك هدى الله هي الوسيلة التي تكشف للإنسان الطريق الذي يوصله إلى الخير، ويحقق له سعادته في الدنيا والآخرة، على معنى أن من انحرف عن ذلك الطريق يضل ويتيه في متاهات كلما أوغل فيها صرفته عن غايته وهلك. فمن تفتح لهداه وطوع غرائزه وشهواته لذلك الهدي أسعده ربه بالألطاف التي تؤلف بينه وبين هدى الله، فيدخل تحت من شاء الله هدايتهم. ومن رفض ذلكم الهدى وعاند، وأقام بين القران وعقله حجابا، فمنع الهدى أن يصل إلى عقله وروحه، فإنه لا يجد طريقا أخر يبلغ به الهدى والنجاح، والسعادة .

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون (24) كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (25) فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (26) ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (27) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون (28) ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (29) إنك ميت وإنهم ميتون (30) ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (31)

بيان معاني الألفاظ:

يتقي: يتكلف ويجتهد بما يصون وجهه من العذاب.

ذوقوا: الذوق يقصد به أشد ما يكون به الإحساس.

الخزي: الذل والصغار.

غير ذي عوج: غير مختل المعاني ولا النظم.

ضرب الله: شبه صورة بصورة.

متشاكسون: على أشد ما يكون من الاختلاف، وليس في أخلاقهم سماحة.

سلما: خالصا.

بيان المعنى الإجمالي:

لا يجد من حُرِم الهداية ما يصون به نفسه يوم القيامة من ألم العذاب إلا وجهه، أي يواجه عذابا لا حاجز دونه ولا مخفف له. ويسمع صوتا يشمت به فيقول له: ليكن إحساسك بالعذاب شديدا على وزن ما اخترته في حياتك ونفسك معرضا عن هدي الله. إنهم سائرون في الضلال الذي مضت عليه الأمم السابقة الذين أهلكوا من قبلهم واطمأنوا الى أن مستواهم الاجتماعي وما بين أيديهم من ثروات يحميهم ويبقى لهم. وعلى حين غفلة منهم تأتيهم العذاب بغتة من الجهة التي ما كانوا يظنون أن العذاب يأتيهم منها. فكان الاحساس به مؤلما أشد الإيلام مذلا لهم. كان ذلك جزاءهم في الحياة الدنيا، وهذا النكال الدنيوي لا يعفيهم من عذاب يوم القيامة الذي سيكون أعظم وأشد. ولكن الجهل ربط على قلوبهم فأعماهم عن مصائرهم.

أبلغهم يا محمد هذا المثل البديع الموضح لوضع المشرك ووضع الموحد. مثل المشرك كمثل العبد الذي تعدد مُلّاكه واختلفوا، إن أرضى أحدهم أغضب الآخرين فهو في حيرة من أمره، شقي في حياته. ومثل المؤمن الموحد كمثل العبد الذي له مالك واحد يعرف ما يرضيه وما يسخطه، فإن أطاعه فاز برضاه واطمأن. فأي العبدين أكثر سعادة. الجواب بين والمثل واضح، فالشرك شقاء والتوحيد سعادة. اختص الله باستحقاق الثناء والحمد. ولكن أكثر المشركين جهلة مقلدون والقلة معاندون قدموا مصالح الدنيا على الحق الواضح.

يُذكّر القرآن بالحقيقة التي كتبها على جميع البشر من هو في أرفع مقام محمد ﷺ، ومن كان على الشرك والضلال، هو الموت الذي لا يفلت منه إنسان. وفي ذلك ما يرفع انزعاج المؤمن من الموت في السلم أو في الحرب. والحقيقة الثانية أنكم ستعودون الى الله فيفصل بينكم الخصومات التي مر فيها الظالم غالبا في الحياة الدنيا.

بيان المعنى العام:

24- أفمن يتقي ... ما كنتم تكسبون.

حسبت الآية وضع الذين فقدوا هداية الله فخسروا خسارة لا أشد منها. هذه الصورة تمثل فيمن واجه العذاب ففقد كل ما يمكن أن يحمي نفسه به ويصد الموارد

المهلك، لا يجد آلة ولا جهازا يحميه، ولا يتحكم حتى في يديه اللتين من شأنهما التعرض للخطر الداهم، فصوره القرآن على أنه إذا أراد أن يصرف العذاب صرفه بوجهه، مما يفيد أن أعز شيء وأنفسه الذي يحرص الإنسان بفطرته على حمايته من كل مكروه، وهو الوجه، يصبح هو الواقي من العذاب، على معنى أن العذاب لا راد له ولا ملطف.

ويقترن بالعذاب العنيف المهاجم الساحق، عذاب نفسي هو تحطيم لمعنوياتهم، فيستمع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وظلموا غيرهم، والكون بانفلاتهم من الحدود التي حددها القرآن والشريعة، يستمعون إلى صوت يقول لهم: لتكن إحساساتكم بالعذاب على أبلغ وأشد ما يكون الاحساس، حتى يتحقق التوازن بين ما اكتسبتم، ونفذتم في الحياة باختياركم، ما كنتم تكسبون من صور الأعمال في الدنيا فالجزاء جزاء عادل فلا تتبرموا منه، ولا تطلبوا تخفيفا.

والآية تقدم موازنة بين من يحيط به العذاب ويحرم كل صون وعون، وبين من رضي عنه ربه فجمع له بين التكريم والنعيم.

25-26، كذب الذين من قبلهم...لو كانوا يعلمون.

يواصل القرآن تهديد المشركين المكذبين، فيحشرهم مع الذين كذبوا رسل الله من قبلهم، وإذ استووا في التكذيب فسيحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم الذين قص القرآن أخبارهم. إنهم كذبوا وظنوا أنهم في مأمن من العذاب، محصنين بما لهم من قوة ومنعة من أن يساموا الذل والهوان. وبينما كانوا مطمئنين أتاهم العذاب بغتة، وأتاهم من الجهة التي ما كانوا يتوقعون أن يأتيهم منها العذاب. وكان العذاب عنيفا بلغ الإحساس به أشد ما يكون الإحساس، تحول لاستكبارهم واعتزازهم إلى ذل وصغار ليس بعده ذل، لصق بهم ولزمهم في الحياة الدنيا. واعلموا أن ما تعجل للكافرين من العذاب في الدنيا، ليس منجيا لهم من عذاب يوم القيامة الذي سيكون أعظم وأبلغ من الإذلال والإيلام المسلط عليهم في حياتهم الدنيا.

وتختم الآية بقوله: لو كانوا يعلمون. فتقرر أن الجهل قد استولى على عقولهم فهم لا يعلمون حقيقة السلطان الإلهي، ولا ما قرره من جزاء للمشركين، ولا هول ذلك الجزاء، فمضوا سادرين في ضلالهم إلى أن بغتهم في الدنيا وسيلقونه يوم القيامة.

27.ولقد ضربنا...لعلهم يتذكرون.

القرآن قوي التأثير في نفوس الذين يتأملون في هديه. ومن الفن القولي الذي يحقق ذلك، ما تجده في تضاعيفه من ضرب الأمثال . إن ما يقرره من الحقائق العقلية المجردة والمغيبات البعيدة عن التصور العادي، يتم إقناع الأذهان به بواسطة

الجمع بينه وبين نظائر قريبة من التصور العـام، فـإذا المقارنـة تجلـي البعيـد، وتجعلـه قريبا واضحا. والمثل من ناحية أخرى يوقظ الذهن لينتبـه إلـى أن مـا بـين يديـه مـن المسلمات المعلومة القريبة هـو كاشـف عمـا كـان يتصـوره بعيـدا. وتنوعـت أمثـال القرآن بتنوع ما قصد تقريبه وتوضيحه مـن مضـامينه، كـل ذلـك ليهيّـئ للنـاس مـا يتبعه تذكرهم ما غفلوا عنه فيُجليه مستحضرا له بعـد أن طـواه النسـيان، ويرفـع عـن قسم آخر نواحي الغموض فيتجلي ما كان بعيدا عن الأفهام .

28ـقرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون.

تلكم الكتاب الذي أنزلناه وضربنا فيه الأمثـال المسـمعة بتـذكير مـا نسـي، وفهـم مـا غمض؛ من صفاته أنـه: قـرآن مقـروء يصـل إليـه كـل عاقـل. وعربـي تـدركون بسليقتكم مقاصده وأغراضه ميسر للفهـم، هـو بلغـتكم التـي بهـا تعتـزون. وغيـر ذي عوج متنف عنه كل انحراف. فـلا تجـدون فـي مـا يعرضـه تناقضـا ولا اختلافـا، ولا يكشف الزمن عن خلل فيه. وما من بليـغ إلا وتجـد فـي كلامـه إسـفافا ونـزولا عـن المستوى الرفيع، ولكن القرآن لما كـان منـزلا مـن عنـد الله فإنـك لا تجـد فيـه تلكـم الهنات فنظمه رفيع عال مستقيم .

بتلكم المزايا التي جمعها، منْ سمعه بقلب واع غيـر معـرض، يكـون مـؤهلا لأن تحـل التقوى قلبه، بما يتبعها من صالح العمل ومستقيم السلوك.

29ـضرب الله مثلا ...بل أكثرهم لا يعلمون.

هيـأت الآيـة السـابقة المتلقـين للقـرآن فلفتـت أنظـارهم إلـى أمثـال القـرآن، فكان البساط متناسـبا لضـرب مثـل بـديع فـي تأليفـه. فافتتحـت الآيـة بـأن هـذا المثـل مـن الوضـع الإلهـي العميـق، فاضـربه يـا محمـد للنـاس ليكـون مقربـا لقاعـدة هـذا الـدين الـذي هـو التوحيـد ونفـي الشـرك. حاصـل هـذا المثـل: قـل لقومك ليتأملوا وضع عبدين:

أحـدهما مملـوك لشـركاء مختلفـين فـي مطـالبهم، وفيمـا يريـدون مـن العبـد أن يقوم به، وفـي طريقـة تعاملـه، وفـي طريقـة معـاملتهم لـه. أخلاقهـم بعيـدة عـن السماحة. إن أرضـى أحـدهم لقـي مـن الآخـرين كـل عنـت. كـل واحـد يريـد أن يقسره علـى الطريقـة التـي يرضـاها وعلـى القيـام بالأعمـال التـي يرغـب فيهـا، فهو متحير في أمره، قلق من وضعه، تضاعفت همومه، وتكدرت حياته.

وثانيهما مملوك خلص لمالك واحد، يعـرف مـا يرضـي عنـه مالكـه، ومـا يسـخطه، يستقر نفسيا أن أطاع مالكه، ويرتاح لعلاقته الموحدة التي لا تناقض فيها.

ضرب الله هذا المثل للمشركين الذين يعبدون الهة عديدة، ولا تتعدد الالهة في عقيدتهم إلا لأن لكل واحد ميدانه الذي يتحكم فيه، وكل فرد منهم باعتباره إلها لا يرضى إلا أن يختص بالعابد وأن ينفرد بقرابيته. ولا يجد طريقه تكشف له خصائص كل إله التناقض بين مفهوم الألوهيه وبين مفهوم الاشتراك. فنظيره المشبه به العبد الملوك لشركاء متشاكسين. وضرب الله المثل الأخر للمؤمن الموحد الذي افرد الله بالعبودية وأنه الإله الذي لا شريك له، أوامره محددة بينة لا اختلاط فيها، والمنهج الذي يرضى عنه واضح لا غموض ولا اختلاف فيه.

فهل يستوي حالهما، وأي العبدين يكون أسعد بالرضا والطمأنينة والوضوح في الحياة؟ . ظهرت الحقيقة ظهورا لا يقبل الجدال. ولا يمكن إلا أن يكون الجواب واحدا: توحيد الله. هو ما أراده القران من ضرب هذا المثل. ولله الحمد على ما بين وأوضح وهدى وقطع لحاج المشركين وكشف غفلتهم وبعدهم عن الفطرة.

بل أكثرهم لا يعلمون انتقال إلى تشنيع ما هم عليه من الشرك. هو حاصل الجهل والتقليد، فأكثرهم أشركوا اعتمادا على التقليد الأعمى، هم مغرقون في الجهل. ومن دقة القرآن إسناده الجهل لأكثرهم . أما زعماؤهم ورؤوس الكفر فهم دفعوا إلى الشرك ليخلص لهم الجاه والتسلط .

30. إنك ميت وإنهم ميتون.

هذه الآية تتضمن أولا: ردا على المشركين وفضحا لمستواهم الخلقي، فقد قالوا: نتربص به ريب المنون، والموت حقيقة لا يفلت منها أحد، فتربصهم موت محمد يدل على غبائهم وحطتهم .فالموت سيصيبك ويصيبهم، إلا أن الفارق أنك تأمل أن يهتدوا ويقلعوا عن الشرك. أما هم فلبلادة حسهم يظنون أن الحق الذي جاءك من عند الله سيتوقف بموتك. وثانيا: هي مهيئة لقوله تعالى بعد، ثم إنكم عند ربكم تختصمون .

وثالثا: فيها إيقاظ للمؤمنين أن يغتنموا حياته ﷺ ليفيدوا منها.

ورابعا: ما يوطن المؤمنين للموت وعدم الانزعاج مما لا مفر منه.

31. ثم إنكم. تختصمون.

ومنتهون إلى الوقوف بين يدي الله ليحكم بينكم حكمه العادل والبات ايما وقعتم فيه من خصام : هو ما كان بين المشركين والمؤمنين، مما ظلم فيه المشركون المؤمنين في عقيدتهم، وفي أموالهم، وفي كرامتهم، وفي أجسامهم. فينصف الله المؤمنين ويسلط على الظلمة جزاءهم العادل. وسحب بعض المفسرين الآية على الخصومات التي وقعت بين المؤمنين، فتعرض يوم القيامة عرضا يفصل فيها

بالعدل. قال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين، وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم! فليحذر المؤمنون الخلاف الذي يفضي بالبعض للتسلط على غيره، فإنه لا يضيع حق، ويوفى كل فرد حسابه عند ربه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (37)﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالصدق : بالقرآن.

المثوى: المقر.

الانتقام : المكافأة على الشر بما يردع صاحبه.

بيان المعنى الإجمالي:

إن أشد الناس ظلما وانحرافا عن الحق من كذب على الله فنسب له ما هو مستحيل، كقولهم له شريك أو ولد أو اتخذ من الملائكة بناتا، ونحو ذلك من الأباطيل. وفي رتبة مساوية من كذب بالقرآن بعد أن جاءه وبلغه. ليس للكافرين مقام إلا في جهنم. وفي المقابل فإن أعلى الناس منزلة هو محمد الذي جاء بالقرآن، ويتميز الذين اتبعوه فصدقوه، فهم المتقون حقا. وجزاء المتقين أن الله يعطي لكل فرد منهم ما يشاء من أنواع النعيم، فيغمر نفسه الرضا الكامل بما أتاه ربه. ذلك الجزاء العظيم غير المحدود هو جزاء المحسنين من عباد الله. صدقوا ليرتب لهم ربهم على ذلك محو أسوأ ما عملوا حتى الشرك الذي كانوا عليه قبل أن يصدقوا، ومن باب أولى أن يكفر عنهم بقية سيئاتهم. وبعد تنظيف صحائفهم يمن عليهم بالثواب ويوفيهم أجورهم بوزان أحسن أعمالهم، ويلحق ما كان دون الأحسن بالأحسن تفضلا منه وتكرما. بكل تأكيد سيكفيك الله يا محمد مكرهم، ويحبط مخططاتهم، فأنت عبدي، ولا يستطيعون أن يضروك، ومن عباوتهم أنهم يخوفونك بأس الذين عبدوهم من

دون الله المكلف عن التشنيع بآلهتهم وربوبيتهم. لقد أصموا آذانهم عن التأمل في الوحي فحرموا الهداية الإلهية، ولا هداية إلا هداية الله. وفي المقابل فإن من تفتح على الهداية الإلهية وتأمل في الوحي وخلطه قلبه، قد كون لنفسه حماية من الضلال. أقروا بأن الله عزيز لا يعطل مراده شيء، ينفذ حكمه في كل جزئية من جزئيات الكون ولا راد لحكمه. ظهرت قدرته على الانتقام من المجرمين المكذبين، كما تشاهدون نقمته في آثار الأمم التي قص عليكم القرآن أخبارهم.

بيان المعنى العام :

32. فمن أظلم ممن كذب على الله... مثوى للكافرين.

إنه لا يوجد أبلغ ظلما وأعظم فسادا وأقبح وقاحة، من الذي كذب على الله فنسب له الشريك، ونسب له الولد، ونفى أن يرسل أحدا من البشر، وكذب بقدرته على إحياء الموتى والبعث والنشور، ونحو هذا من الأكاذيب والأقوال التي لا سند لها. وقرن بالكذب على الله تكذيب محمد الذي جاء بالقرآن حجة وهاديا. كذب بالقرآن بمجرد ما سمعه، في الوقت الذي جاءه لم يعمل فيه نظرا ولا فكرا دون تأمل في معانيه ومبانيه. فما ظنكم بمن هذا حاله ؟ إنه كافر بالله وبالقرآن، فليس له إلا جزاء واحد هو أن يكون مقره الذي ينتهي إليه: جهنم. هي قراره وقرار الكافرين أمثاله. واختار القرآن صيغة الاستفهام للتعبير عن مآلهم: أليس في جهنم؟ لما لها من خصائص بها يستيقظ الذهن فتلجئ المخاطب إلى الإقرار، فيبدو العدل الإلهي أتم وأكمل. ولا يجد المخاطب جوابا غير ما يريد القرآن إظهاره.

33. والذي جاء بالصدق وصدق به... أولئك هم المتقون.

وفي مقابل أسوأ الناس وأظلمهم نوه القرآن بالمتميزين من البشر، وأعلاهم رتبة وأرفعهم مقاما محمد ﷺ، بما عهد إليه من تقبل القرآن وتحمل إبلاغه للناس، وهو الذي جاء بالصدق. ومعه الذي صدق به، وهو كل من سمع القرآن فآمن به ودخل نور الإيمان في شعاب نفسه، فأخلص عقله للتوحيد وصفت مشاعره بما خالطها من الإيمان فانتفى كل ما يناقضه، وصدق بكل ما جاء به القرآن، فعزم على الاهتداء به والتزامه منهجا وحيدا في الحياة. ولما تميزوا بهذا التميز الواضح كانوا أحرياء بالإشارة إليهم وانفرادهم بأنهم هم المتقون حقا.

34. لهم ما يشاؤون عند ربهم... المحسنين.

بعد أن نوه بهم القرآن وحصر كمال التقوى فيهم، صرح بجزائهم الذي ينفردون به ويستحقونه. لهم كل ما يشاؤون، ما يرغبون فيه وما تتعلق به أمانيهم، يحقق لهم ربهم الذي شملتهم ألطافه في الدنيا، وتكون ألطافه وفضله وخيره مضاعفا يوم

الجزاء. ولا شك أن الجنة مراتب فمرتبة الأنبياء والرسل لا تدانيها مراتب بقية الناس، وللمجاهدين والشهداء عند ربهم منازل لا يصل إليها غيرهم، وهكذا ... فكيف يتحقق لكل مؤمن ما يرغب فيه ويأمله ؟ قد يكون توجيه ذلك أن الله يجعل كل مُكرَّم راضيا بما آتاه، ولا يطمح إلى مرتبة فوق المرتبة التي هو فيها . وبهذا يكون شعوره بالسعادة غير منقوص .

ذلك جزاء المحسنين : ما صح من عظيم الثواب والتكريم، هو جزاء للمتقين بسبب إحسانهم، والإحسان هو المستوى الأكمل لكل صلاح، فالإحسان في العبادة كما قال ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه.

35 ليكفر الله عنهم...بما كانوا يعملون.

صدقوا فكانوا من المتقين ليرتب ربهم على ذلك تكفير أسوا أعمالهم. فمن صدق بعد الشرك يذهب تصديقه بالإثم العظيم. أعلمهم ربهم بأن تصديقهم يكفر ما سبق لهم من الشرك ليدخل الطمأنينة في قلوبهم بمحو آثاره، فلا يبقى عالقا بصحائفهم شيء منه. وهو معنى قوله ﷺ : (إن الإسلام يجب ما كان قبله.)[1] وإذا كان تصديقهم يمحو أسوأ ما عملوه فمحوه لما هو دون ذلك من باب أولى. وقد يفهم منه بشارة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين صدقوه وآمنوا به وجاهدوا معه، أن الله يكفر عنهم أسوأ ما عملوا من الكبائر بعد إسلامهم، تبعا لما خصهم الله به من فضل الصحبة رضي الله عنهم أجمعين .

وبعد تنقية صحائفهم وتطهيرها من دنس الشرك وقتام الآثام، يبشرهم بأنه يجزيهم بأحسن ما قدموا من أعمال .وقد يفهم من الآية أن الله يجري ما كان دون الأحسن من الأعمال على مستوى أحسن الأعمال. فيجعل ثوابها متساويا تفضلا منه.

36 أليس الله بكاف عبده...فما له من هاد.

كما حققت الآية السابقة حسن ثواب رسول الله ﷺ وثواب الذين آمنوا به، يوم القيامة، أكدت هذه الآية أن الله حاميه فلا يضره كيدهم ومؤامراتهم، إذ هو عبده المشرف بنسبته إلى ذاته العلية، لا يسلمه إلى أعدائه ويصونه بحفظه صونا يكفيه كل ضر منهم .

كما عمد المشركون إلى تخويف النبي ﷺ من تبعات إهانة أصنامهم التي يعبدونها من دون الله، بأن لها قدرة عجيبة على إفساد من يتعرض لها بسوء .ولما ذهب خالد بن الوليد لهدم العزى بعد فتح مكة قال له سادنها، القائم على المعبد التي هي

---

[1] مسند احمد ج4 ص199

فيه: أحذركها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شيء. فعمد خالد إليها فهشم أنفها إلى أن كسرها بالفأس. فظن بعضهم أنها نزلت بهذه المناسبة، لكن الخطاب في سياق الآية هو لرسول الله ﷺ .

36 من يضلل الله فيحرمه ألطافه، ويتركه لنفسه لا يلقى منه عونا، فيعرض عما أنزله الله تبعا لتصلبه في مواصلة ما هو عليه من الفساد في العقيدة، ومن السلوك المنحرف، وقطع كل نظر في هداية الله، فإنه لا يجد هاديا غيره، فينغمس في الضلال، إن الحق والباطل طريقان لا ثالث لهما، فمن أعرض عن الحق وقع في الباطل .

37.ومن يهد الله فماله من مضل .بعزيز ذي انتقام.

وفي المقابل فإن من يهديه الله فيحيطه بألطافه، ويقبل عقله على النظر في آيات الله في كتابه، وفي الأنفس، وفي الآفاق، فإن روحه تتطبع بما يتأمل فيه من الهدى، ويألفه حتى يرسخ فيه الخير رسوخا ينفي كل مدخل للشر. فلا نجد تبعا لذلك من يقدر أن يضله ليحوله على النهج الطيب الذي سار فيه.

هذا تقرير لحقيقة صيغت صياغة سؤال تقريري ليكون المخاطبون أشد وعيا لها. مبكل تأكيد، إن الله متصف بالعزة، فلا يتصور أن تتسلط عليه أي قوة، أو تحول بينه وبين ما يريد، بل الكل خاضع له. فله العزة الكاملة التي لا يلحقها نقص ولا استثناء. فتنعطف هذه الآية على ما سبقها من كونه كافيا لعبده، مثبتا له بما يدفع عنه كل تخويف وتهويل، لا مضل لمن هداه، لتؤكد تحقق ذلك كله استنادا إلى عزته.

وتختم الآية بتهديد المشركين والمناوئين لرسول الله ﷺ وللإسلام بأن الله موصوف بالقدرة الكاملة على الانتقام من الضالين، كما هو معلوم عندهم من العقوبات الماحقة التي سلطها على الأقوام الضالين السابقين.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفرأيتم : أخبرتم.

كاشفات : مزيلات.

ممسكات : مانعات.

حسبي : كاف.

التوكل : تفويض الموكل أمره إلى الموكل .

مكانتكم : حالتكم .

بيان المعنى الإجمالي :

لو حركت عقولهم بالسؤال من الذي نفذت قدرته فخلق السماوات والأرض، فإنهم لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله خلقهما. ورتب على هذه الإشارة، إبطال ما يعتقدونه من تأثير آلهتهم، فقل لهم ما هو ظنكم أعلنوه في الأصنام الذين تدعونهم من دون الله ألهم أي تأثير؟ فإذا أراد الله أن يضرني فهل يستطيع أي منهم حمايتي من ضر، وإن أرادني برحمة منه وخير هل يستطيع أحد منهم أن يقبض الرحمة عني؟ والجواب واحد: لا يستطيعون من ذلك شيئا فمن قصر عن الإيجاد قصر عن التصرف فيما لم يوجده. أعلن للناس جميعا اعتقادك بأن الله كافيك كل أمرك، وأنك معتمد عليه، وهو سبحانه الذي يعتمد عليه ويتوكل المتوكلون الصادقون .

قل لهم يا محمد قولا ينبههم ويهددهم: إني مواصل مهمتي في دعوتكم إلى الحق، ومواصل سلوكي حسبما هداني إليه ربي. وسوف يدهمكم الواقع فتعلمون من تكون عاقبته الخسارة التي ما بعدها خسارة. من يسلط عليه عذاب يذله ويخزيه في الدنيا، يستولي عليه عذاب يوم القيامة، الدائم الذي لا انقطاع له.

أكرمناك يا محمد وشرفناك فأنزلنا القرآن إليك لتبلغه وتبينه للناس جميعا، فصلاحهم وسلامتهم في هداه. ولذلك فإن من تمسك به والتزم ما جاء به ضمن السلامة والأمن لنفسه، ومن ضل عنه وسلك طريقا مغايرا لما جاء به. فخسارته على نفسه . وإنك لست مرغما لأحد على الإيمان .

بيان المعنى العام :

38- ولئن سألتهم من خلق... يتوكل المتوكلون.

إنك لو سألتهم من الذي خلق السماوات والأرض، فإنه بكل تأكيد لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله الذي خلقهما. إن الأصنام التي يعبدونها من دون الله ليست إلا أجزاء من الأرض نحتوها أو من أخشاب أشجارها، ثم نصبوها وعبدوها. فالبديهة تقتضي أنه لا مدخل لها في خلق السماوات والأرض.

قل لهم: أبرزوا ظنونكم وما تخفونه في ضمائركم، ظنوكم فيما تعبدونه من دون الله، ما هو تأثيرها؟ هل يستطيع أحد من الأصنام التي تعبدونها أن يكشف ضري ويحميني مما قدر الله أن يصيبني به في بدني أو في مالي أو في أسرتي ؟ وبالعكس فإنه إذا يسر لي عطاء رحمته وفسح لي أسباب التوفيق فهل من معبوداتكم من يستطيع أن يحول بيني وبين ما قدره الله لي من الخير ؟ فبعد أن الجأهم ليقروا بأن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض ألزمهم بأن يقروا أنه إذا كان وحده المنشئ للخلق فإنه من الضروري أن يكون المتصرف وحده فيما خلق ،أبكمهم بما يقتضيه المنطق والعقل، وقطع شبهاتهم .

قل حسبي...انتقل القرآن من إبطال أي حجة يحتجون بها إلى أمر رسوله أن يعلن: إني مسند كل ما يهمني إلى ربي، هو الله الذي يكفيني كل أمر من أمور حياتي الدنيوية والأخروية وهو المتولي لجميع أموري، هي عقيدة راسخة في نفسي، يعلن بها لتكون معلومة عند الجميع، وليلقنها للمؤمنين حتى يشتوا عليها عقولهم وأرواحهم. إنه سبحانه هو الحقيق وحده بأن يتوكل عليه المتوكلون الصادقون .

39-40: قل يا قوم اعملوا...عذاب مقيم.

ما كان النبي ﷺ فظا غليظا، فإنه رغم ما أوذي وما قوبل به من التكذيب والازدراء هداه ربه كيف يلين لهم فأمره أن يدعوهم، بقوله لهم: "يا قومي" مذكرا لهم بالروابط التي تربطهم به، التي يرعاها فيجتهد في توجيههم إلى ما فيه خير لهم، وأن تهديده إياهم يقصد منه أن يلويهم عن الفساد والضلال، واصلوا عملكم على الحالة التي أنتم عليها، فإذا كانت الأدلة والمواعظ لم تفدكم وتصلبتم على ما أنتم عليه منحرفين عن الهدى، فاعلموا أولا: أني مواصل ما اهتديت إليه لا أتأثر بشغبكم " إني عامل " أواصل دعوتكم وتطبيقي ما جاءني من ربي، وأحذركم أنكم ستلقون يقينا نتائج ضلالكم، فسينكشف لكم المصير ، فتعلمون علم المعاينة من يأتيه، من حيث لا يعلم، عذاب يبغته ويخزيه في الدنيا، فيذهب بما كنتم معتزين به وبظلكم، وستتم لي الغلبة بعز عزيز ،ويحل عليه عذاب لا يرتفع أمده، وذلك عذاب الآخرة .

41- إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...وما أنت عليهم بوكيل

لما هددهم برفق في الآية السابقة، ما يترصدهم إن واصلوا التشبث بضلالهم مما يحصل في المستقبل، جاءت هذه الآية لتثبته على الحق الذي هو عليه، وتنوه به، وتعرف بجليل مقامه واختيار ربه له. إنا بعظمتنا وعلمنا الواسع اخترناك لتحمل هدايتنا، فأنزلنا عليك الكتاب الكامل الجامع لكل خير ، لتبلغه للناس قاطبة، مباشرة

أو بواسطة تعليمه لمن يتولى إيصاله إليهم، بما أن أرواحهم في حاجة إليه كحاجة أبدانهم للماء والهواء. إنه ملتبس بالحق، فهو الحق والحق هو.

و مما يترتب على تلكم الحقيقة أن الاهتداء غير الهداية. فالقرآن كاشف عن الحق، ومحمد ﷺ يصل بينهم وبين ذلكم الكتاب؛ ثم إن من اهتدى من المبلغين بمضامينه فإن النفع يكسبه لنفسه طمأنينة في الدنيا، ورفعا للتساؤلات التي لا تجد لها جوابا إلا القرآن، وتقويما لسلوكه وعلاقاته بالكون وببقية الكائنات. وفي المقابل من انحرف من الناس عن هدايته وسلك طرقا أخرى يتيه فيها ويبعد عن الطريق الموصل الأمن، فإنه يتحمل خسارته.

وبصفة عامة فإنه ما عليك إلا البلاغ ولست ملزما لأحد بأن يهتدي، فقد بنيت مسؤولية الإنسان في الحياة على الاختيار، فهو غير مجبر لا على الإيمان والطاعة، ولا على والكفر والعصيان .فأنت لا ترغم أحدا.

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

بيان معاني الألفاظ :

يتوفى: يميت .

يمسك : يمنعها من العودة.

يرسل : يرد إليها الحياة كاملة.

مسمى : معين عنده مقدما.

الاشمئزاز : شدة الكراهية، نفروا وانقبضوا.

يستبشرون: تظهر آثار البشر على وجوههم.

بيان المعنى الاجمالي

تفرد الله بالتصرف في حياة الإنسان. ينفخ فيه الروح فتسري فيه الحياة، ثم إن بقاءها بظهور آثارها هو من تصرفه وحده. فمتى أراد أن يقبض الحياة إليه قبضا

نهائيا لا عودة لها في الدنيا فعل، ومتى أراد أن يقبض بعض خصائصها عطلها تعطيلا موقتا في النوم، ثم يحرك ما تعطل وهكذا إلى الأجل الذي قدره، فلا يزيد عنه الإنسان لحظة ولا ينقص من أجله المقدر لحظة. إن في هذا التصرف العجيب لأدلة على القدرة والحكمة والتصرف لمن يحرك فكره للتدبر في هذا المجال.

بل اتخذ المشركون شفعاء ينفعونهم بشفاعتهم حسب زعمهم. ما أشد غباءهم كيف يعتمدون على شفاعة من لا يملك أي شيء ولا يملك حتى ذاته، والأنكى أنه لا عقل له فلا هو يفهم معنى للشفاعة حتى يقوم بها.

ولما تمكن داء الشرك في قلوبهم، تجدهم إذا سمعوا ذكر الله وحده في الشهادة أو في القرآن امتلأوا غيظا، فيظهر الاشمئزاز على صفحة وجوههم تقطيبا وغيضا، وإذا سمعوا في مجالسهم ذكر اللات والعزى وبقية الأصنام تهللت وجوههم واستبشروا .

بيان المعنى العام ·

42-الله يتوفى الأنفس ...لقوم يتفكرون.

خلق الله الإنسان خلقا عجيبا، جسم يشتمل على أجهزة بنيت على إحكام بالغ في تركيبها وفي سيرها، وفي وظائفها، وفي اتصال كل جهاز بغيره وتأثيره فيه. أجهزة بدنية جسمانية، كجهاز التنفس، وجهاز الهضم، وجهاز الإدراك الحسي من سمع وبصر وذوق وشم ولمس. وبجانبها جهاز الإدراك العقلي، وجهاز الإدراك الروحي. هذه الأجهزة يقوم كل جهاز بوظائفه، وإذا سلم أداؤها من الخلل والعيوب كانت الحياة سوية. وكلها مرتبطة بالبدن. إن الذي أبدع صنعها ومكن كل جهاز من أداء مهماته هو الله العزيز العليم. وكما تصرف سبحانه بالإيجاد فإنه يتصرف بالإعدام. وتصرفه هذا على مستويين:

المستوى الأول: أن ينزع قوة جميع الأجهزة ويسحبها من الجسم. وهو الموت، فتكون صورة البدن باقية ولكن كل جهاز فيها معطل. يأخذها ولا يردها لمن كانت حالة فيه في اللحظة التي قدرها معدما. ووكل الله بهذا ملك الموت كما ورد في قوله تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾[1] فالمتوفي بكسر الفاء المشددة هو الله المالك الآذن، وملك الموت متوفي بكسر الفاء باعتبار أنه مباشر. والإنسان متوفى بفتح الفاء المشددة .

---

[1] سورة السجدة آية 11

المستوى الثاني: سلب بعض الأجهزة لتتعطل إلى أمد محدود تتجدد فيه قواها. ثم يردها إلى المواطن التي كانت تعمل فيها لتؤدي وظائفها التي تعطلت، وهي حالة النوم. أجهزة التنفس تشتغل وتقوم بدورها وتتفاعل مع القلب والدم وتغذي كل جزء من أجزاء البدن حتى الدماغ .و كذلك تتواصل عملية الهضم. والتحولات التي تدخل على ما أكله الانسان أو شربه. ولكن أجهزة الاحساس بما حوله تتعطل، فلا يرى من هم بجانبه، ولا يسمع أصواتهم وهكذا . والجسم هو ولكنه غير متفاعل مع المحيط. ثم إن الله يعيد للذات نشاط تلك القوى بعد فترة النوم، يعيدها إعادة غير أبدية، ولكن إلى الوقت الذي عينه للموت، فيعطل جميع الأجهزة تعطيلا لا عودة بعده في الدنيا.

إن هذا التصرف المحكم المقدر تقديرا دقيقا يقوم دليلا على تفرد اله بالخلق، وإخضاع كل كائن لما قدره له. فلينظر الانسان كيف نظم الخالق أمر الحياة ودبر تحولاتها. وما تزال الروح حقيقتها، نفخها أو سلبها وما يرتبط بها من شؤون الحياة من السر الذي يتجاوز مداركنا اختص الله بعلم ذلك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) نتأمل الآثار فتزيدنا ايمانا بقدرة وحكمة الواحد الأحد القهار. فليحرك البشر فكرهم للتعقل والتدبر في بديع صنع الله .

43-44: أم اتخذوا من دون الله.....ثم اليه ترجعون.

لم مؤذنة بالانتقال من الاستدلال على تفرده سبحانه بالتصرف بالحياة والموت، إلى تشويه ما اعتقدوه، وبنوا عليه مصيرهم، فإنهم لجهلهم اتخذوا شفعاء تشفع لهم وتكفر عنهم سيئاتهم، وتركوا المسيطر على الأمر كله، الله الذي بيده الأمر .قل لهم يا محمد مظهرا غباوتهم: أتتخذونهم شفعاء والحال أنهم حجارة لا تملك أي شيء، هي لا تملك نفسها ولا تتصرف في أي كائن ولو كان تافها، وأكثر من ذلك هي جمادات لا تعقل، وليس لها أي حظ من الإدراك، فهي بطبيعتها لا تفهم للشفاعة معنى، فكيف يرجى منها أن تقوم بها؟!

وأردف إبطال عقيدتهم في الشفاعة بإثبات أن الذي يملك الشفاعة كل الشفاعة فيقبلها أو يردها هو الله وحده. إذ أن الشفاعة تابعة للملك، وهو سبحانه مالك السماوات والأرض وما فيهما، فلا يستطيع أن يتقدم أي كان لتحويل ما قضى به . وفوق ذلك أنكم جميعا تعودون إلى حكمه وقضائه، فلا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن له يوم القيامة، فلا أثر لأصنامهم في إسعافهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

45. وإذا ذكر الله وحده اشمأزت...إذا هم يستبشرون

تشوه هذه الآية تصور المشركين، وتفضح شيئا من تناقصهم. يقولون: ما نعبد الأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى[1] وهم إن سئلوا من خلق السماوات والأرض يعترفون بأنه الله وحده هو الخالق. ثم إنهم إذا ذكر الله وحده في شهادة المؤمنين " لا إله إلا الله " وفيما يتلوه النبي ﷺ من آيات القرآن ويطرق مسامعهم، ظهرت آثار الرفض وانقبضت وجوههم من شدة الكراهية للتوحيد. ولتمكن حب الأصنام في نفوسهم تراهم ينشرحون إذا ذكرت الأصنام بأسمائها ولم يذكر اسم الله معها في مجالسهم. فإذا كان ذكر اسم الله وحده ينفرهم فتبدو الكراهية على وجوههم فذلك دليل على تصلبهم في الشرك وإقفال عقولهم عن قبول الحق.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿46﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿47﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿48﴾

بيان معاني الألفاظ

فاطر : مبدع السماوات والأرض وموجدهما على غير مثال.

الغيب : ما غاب على الناس.

الشهادة : ما يقع تحت حواسهم.

ما في الأرض : يشمل ذواتهم وأهليهم وأموالهم.

يحتسبون : يظنّون.

حاق : أحاط.

ما كانوا به يستهزئون : عذاب الآخرة.

بيان المعنى الاجمالي

توالت الأدلة، وواصل النبي ﷺ وعظهم وتفصيل ما أنزل إليه وبيانه، فما زادهم إلا نفورا واستكبارا، مما أثر في نفسه ﷺ، فأرشده القرآن أن يتوجه بالدعاء قائلا: اللهم بديع السموات والأرض، العليم بالظاهر والخفايا علما مستويا، أشهدك ربي على

---

[1] سورة الزمر الآية 3

ما عانيت من تصلبهم وعنادهم، فأنت الله الحكم العدل تحكم بين عبادك، تحكم بيني وبينهم فيما اختلفنا فيه، فتجزي كل فاعل بما فعل.

سوف يظهر حكم الله فيهم، سوف يحقق ما أوعدهم من الخزي والعذاب. سيكون وضعهم يوم القيامة حين يواجهون ذلك، انهم يتمنون أن لو يمكنهم الافتداء من العذاب بكل غال ونفيس وعزيز. إنهم يودون لو كانوا يملكون ما في الأرض جميعا بل ومثله معه، ليقدموه كله بديلا من المصير الذي بدا لهم حاضرا. ظهر لهم جزاء جميع سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، حتى ما استهانوا به وما كانوا يظنون أنهم سيحاسبون عليه. سيطبق عليهم جزاء سوء أعمالهم من كل جانب فلا يجدون عنه مخرجا.

بيان المعنى العام :

46 قل الله فاطر السماوات والأرض...في ما كانوا فيه يختلفون

توالى في السورة عرض وجوه الاحتجاج، وضروب الأدلة من الآفاق ومن أنفسهم، والاستناد إلى الفطرة والمسلمات التي تشترك في إبطال الشرك، ودحض شبهه، ألان النبي ﷺ لهم القول مذكرا إيهم أنه قومه، كل همه أن ييسر لهم الخير ويبعدهم عن الشر، ولا شر أعظم من الشرك. وتعصبوا وتصلبوا، وما كان موقفهم العنيد بالهين على رسول الله ﷺ، لشدة حرصه على هداهم. فأوحى الله إليه هذه الآية جامعة بين السلوى، وبين التأكيد على أنه وفى بما أمر به. قل، متوجها بهذا النداء: اللهم يا الله يا من أبدع هذا الكون بسامي خلق السماوات والأرض خلقا على غير مثال، ولا من مادة سابقة. تجلت قدرتك وحكمتك مسطورة في كتاب الكون، ومع علمك كل شيء تعلم ما هو مغيب عنا كعلمك بما نشاهده فلا يغيب عن علمك لا ظاهر ولا خفي. يخضع لعزتك البشر جميعا، فاحكم ربنا بيننا وبين هؤلاء المتمردين، نحن وإياهم عبيدك، وقد جاروا علينا، وخالفونا، كما تعلم، عنادا وتمسكا محظوظ الدنيا. احكم بيننا في الدنيا حكما يخضد شوكتهم، وينصرنا عليهم، واحكم بيننا في الآخرة حكمك العادل الذي يجزي كل فاعل بما فعل. ولا شك أن هذا الدعاء ينفس على رسول الله كربه.

47 ولو أن للذين ظلموا...ما لم يكونوا يحتسبون.

تجسم الآية هول الحكم المذكور في الآية السابقة. إنه عندما يصدر الحكم العادل من رب العزة يوم القيامة، يكون وضع الظالمين في عقيدتهم وسلوكهم أنهم يتمنون لو كانوا يملكون ما في الأرض جميعا، ثم يقدمونه فداء لأنفسهم من أهوال العذاب التي تحققوا بأنها مطبقة عليهم. فالآية تجسم فظاعة ما سيلقونه من العذاب الذي يجعلهم

يودون أن يفتدوا منه بكل عزيز وغال، لو كانوا يملكون، بأهليهم وأموالهم وإن وسعت ما في الأرض، وهو تجسيم أيضا لليأس الذي يضاعف نكدهم. وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يدخل في حسابهم، ولم يحسبوا به أنفسهم مما يفوق كل تصور وكل خيال.

48-وبدا لهم سيئات ما كسبوا...ما كانوا به يستهزئون.

وظهر لهم حاضرا وواضحا الأعمال والمواقف السيئة التي ما كانوا يظنون أنهم سيلقون جزاءها لتهاونهم بالأوامر والنواهي، وجراءتهم في الإقدام على الأعمال حسبما تدعوه إليه شهواتهم، إذ كانوا سادرين في الضلال غافلين عن تسجيل كل ما اكتسبوه، قال تعالى: (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)[1] وأحاط بهم من كل جهة العذاب الذي كانوا يقابلون التهديد به بالاستهزاء والسخرية . فلا يجدون مخرجا منه .

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

خولناه : ملكناه.

فتنة : ابتلاء واختبار.

بمعجزين : بغالبين لنا فيفلتون .

يقدر : يضيق.

بيان المعنى الاجمالي:

حالة المشركين حالة تناقض. فقدوا نور الإيمان فأصبحوا يقومون بالشيء وضده دون أن يتفطنوا. فتجدهم إذا أصابهم ضر في المال أو الأهل أو المكاسب، ولم يجدوا منه مخرجا التجأوا بالدعاء إلينا لكشف ضرهم. وإذا ملكناهم نعمة من فضلنا

---

[1] سورة الكهف آية 49

قابلوها بالجحود ونسبوها لما هم عليه من فطنة وكياسة. عقيدتهم هذه زائفة وباطلة نتيجة جهلهم: إن ما مكناهم منه من النعم هو اختبار لهم فمن شكر متع بما أوتيه في الدنيا، ويجد ثواب شكره يوم القيامة . والعكس بالعكس. وعلى نفس منهجهم وقع الكفرة السابقون كقارون، قالوا مثل قولهم فلم يفدهم ما بين أيديهم وذاقوا خسرانه في الدنيا وعقابه يوم القيامة. لقوا من الله جزاء أعمالهم السيئة، وعقيدتهم الفاسدة. وكذلك مشركو مكة سيكون مآلهم كمآل من سبقهم تسلط عليهم جزاء سيئاتهم ولا يستطيعون الانفلات من قدرنا المحتوم. مما لهم جهلوا الحقيقة الناطقة في مشاهد الحياة: إن الله يوسع رزق من يشاء ويضيق رزق من يشاء . ولا يعود ذلك لعوامل ذاتية وحدها ولكنه التوفيق والألطاف التي يسعد بها أو يحرم منها. وفي ذلك أدلة على انفراده سبحانه بالتصرف، والحكمة .

بيان المعنى العام :

49 فإذا مس الإنسان ضر ....ولكن أكثرهم لا يعلمون

الغفلات التي يعيش عليها المشركون متعددة تيلكهم دون أن يتفطنوا . غفلوا في الآية السابقة عن المعاد، ولم يحتاطوا ليزنوا أفعالهم بميزان الشرع، فكان مآلهم سوء المصير واليأس.

ومن غفلاتهم عن الحق ما أوقعهم في التناقض الذي تكشفه هذه الآية .هو أن كل إنسان مشرك بالله، لم يضئ الإيمان تفكيره وتقديره للأمور، إذا مسه الضر في نفسه أو ماله أو في ذريته، وانغلقت في وجهه أبواب الفرج التجأ إلينا ودعانا لكشف ضره، مع أنه لما كان في سعة من أمره إذا ذكر الله وحده نفر مشمئزا كارها كما سجلته الآية 45 - فهذا تناقض أول، وبجانبه تناقض اخر، أن ذلك المستغيث إذا مكناه من نعمة، ما كانت لتصل إليه إلا بتيسيرنا لأسبابها، كفر بفضلنا عليه وصرح قائلا: إنه لا سبب حقق ما هو بين يدي من النعمة، سر المال أو الصحة أو الجاه أو السلطان، أو الذرية الناجحة في نشاطها، ليس لذلك إلا سبب واحد هو ما أنا عليه من الذكاء والكياسة، ومن التفطن لمواطن النجاح، فقدراتي الذهنية، وتجاربي، واختياري للمأكولات الصحية، والرياضة البدنية، وحسن توجيهي لذريتي هو العامل الوحيد فيما تحقق لي من نجاح .

بل هو فتنة - تصوره هذا باطل وغير صحيح، إن ما رزقناه هو في الحقيقة اختبار له ليظهر أثر التكليف، هل يشكر فضل ربه عليه موقنا أنه لولا عونه وحسن تقديره، وتيسير الأسباب ما وصل إلى شيء من ذلك ؟ أو يقذف به في كفران فضل الذي بيده العطاء والمنع فينسب كل شيء لنفسه؟

إن الحقيقة التي سيّرنا عليها أمر الحياة الدنيا يجهلها كثير من الناس. فهم لا يعلمون أن الإنسان مبتلى بالخير وبالشر. قال تعالى : (ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم)[1] وقال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)[2]

50.قد قالها الذين من قبلهم....ما كانوا يكسبون.

الكفر سلسلة واحدة تتكرر في الوجود، ولا يعتبر اللاحق بما حل بمن سبق. فقبل مشركي مكة اتخذ موقفهم هذا أقوام صرحوا بنفس مقالهم الجاحد، واعتزوا بما أوتوه من النعمة ونسبوها لأنفسهم، فذابت تلكم النعم كما يذوب الجليد بأشعة الشمس. وما استطاعت قواهم التي وثقوا فيها أن تحميهم لتبقي على ما اكتسبوه. قص القرآن علينا ما اعتز به قارون من المال وكفره بنعمة الله عليه وصرح بمصيره الخاسر، الذي جعل من كان يغبطه يحمد الله على أنه لم يكن مثله .

51.فأصابهم سيئات ما كسبوا...وما هم بمعجزين.

صرحت الآية بمفهوم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)، أصابهم القدر الإلهي الذي لا يرد بجزاء سيئات ما اكتسبوا من الجحود والكفران لنعم الله. وتلكم هي سنة الله تجري في الكون، فإن مشركي مكة المستكبرين الظالمين بشركهم وتعديهم على الحق وأهله، لا يفلتون. سيصيبهم بقدرتنا وعدلنا جزاء سيئات ما كسبوه بإراداتهم من الشر والفساد، لا يستطيعون الفرار من قبضتنا، وهم عاجزون عن مغالبة قدرنا المحتوم الذي لا راد له.

52.أولم يعلموا أن الله يبسط ....لآيات لقوم يؤمنون.

هل جعلوا على عقولهم حجابا يحول بينهم وبين النظر في الحقيقة التالية رغم ظهورها فأبقوا على أنفسهم في طبقات الجهل؟ مشاهد الحياة تنادي أمامهم بتلك الحقيقة: إن الله هو الذي يسعد من يشاء بالعون وتيسير الأسباب فيبسط لمن يشاء في رزقه، ويوفر له من متاع الدنيا ما قدره، ويحرم آخر فيمنعه عونه، فتجده يكد ولا يحصل من كده على شيء له بال، رزقه ضيق يكاد لا يتجاوز الحد الأدنى الذي يبقي على حياته وحياة من يعول. ولو اختبرتهما بمقاييس الذكاء والاستقامة ربما وجدت البون شاسعا بين الشخصين، فالاختبار إيجابي في المضيق عليه، وسلبي في الموسع عليه. إن في هذا التصرف ما يقوم دليلا على أن الملك لله، وأنه

---

[1] سورة النمل آية 41

[2] سورة الأنبياء آية 35

يعطي من ملكه ما يشاء لمن يشاء، ويمنع ما يشاء من يشاء . الواجب على المؤمن أن يجتهد في الحياة، وأن يرضى بالنتيجة التي يصل إليها فلا ييأس ولا يقنط، فذلك رزقه الذي قدره له ربه، لا يوسعه الحرص الشديد والشعور بتعاسة الحرمان. وإنما عليه أن يعمل ويجتهد ويطلب من ربه التوفيق في نشاطه.

• قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴿٥٣﴾ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴿٥٤﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴿٥٥﴾ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿٥٦﴾ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴿٥٧﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ

أسرفوا: أكثروا من الذنوب والمعاصي.

لا تقنطوا : لا تيأسوا.

أنيبوا : توبوا.

الحسرة: الندامة الشديدة.

التفريط : التضييع، والتقصير.

جنب الله: في النواحي المتعلقة بذات الله .

الساخرون : المفرطين لا عن غفلة ولكن عن استهزاء.

الكرة : الرجعة .

بيان المعنى الإجمالي

قل يا محمد مبلغا أمري لعبادي الذين جاوزوا الحدود في اقتحام ما نهيتهم عنه والتفريط فيما أمرتهم به، قل لهم: إياكم أن تيأسوا من رحمة الله. فإن رحمتي وسعت كل شيء، وإني قادر على غفران جميع الذنوب مهما عظمت وكثرت فلا يبقى لها أثر ظاهر يسود صفحات أصحابها. يؤكد لكم ذلك أني أنا الغفور الرحيم، وعليكم لتفوزوا برحمتي ومغفرتي أن تعودوا إلى ربكم عودة توحدونه وتطبقون

شرعه، معتنقين الإسلام مخلصين لعلي ذاته. أسرعوا بالتوبة من قبل أن يحل عليكم العذاب، وعندها لا تجدون نصيرا ينقذكم منه. والتزموا متبعين أحسن ما أنزلته إليكم، وهو القرآن عقيدة وتشريعا وأدبا. أسرعوا بالتمسك به من قبل أن يأتيكم العذاب في الوقت الذي أنتم مطمئنون فيه غافلون عنه. فإن عذاب الله لا يأتي إلا بغتة. سواء في ذلك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

أعظكم حتى لا يقول الإنسان المسرف على نفسه غير التائب، أن يقول احضروي يا حسرات ويا أسى على ما لم أقم به من واجب الطاعة والامتثال نحو الله، أو يقول معتذرا العذر الغبي {لو أن الله هداني لكنت من المهتدين}، أو يقول حين يظهر له العذاب متمنيا أماني خائبة قطعا، لو أعود إلى الدنيا فأومن وأستقيم، وأكون من المحسنين الصالحين. وكل ذلك مما يضاعف عذابه جراء إهماله لتفريطه في وقت السعة .

بيان المعنى العام :

53-قل يا عبادي الذين أسرفوا..إنه هو الغفور الرحيم

أمر علي من الله الكريم، الغفور الرحيم، لأفضل خلقه، وأكرم رسله، أن يقوم بتبليغ نص ندائه لعباده. أنهم وإن أجرموا وعصوا فهم دائما عباده لا يطردهم طردا ينفيهم عن العبودية لعلي ذاته، إن هذه الإضافة هي أعظم شرف وأبلغ كرامة لهم.

يتوجه نص النداء لكل إنسان باعتباره عبدا له سبحانه. الإنسان الذي أغواه الشيطان، ووسوست له نفسه الأمارة فأشرك، أو عصى ربه وخالف أمره، واقتحم ما نهاه عنه، فسار في طريق الضلال أشواطا. أكثر من الذنوب والمعاصي وتراكم علي روحه من ظلامها ما حجب بصيرته عن الهدى. في هذا الضياع والظلام يؤمر محمد ﷺ أن يبلغ هؤلاء، الذين سمعوا الزواجر وكشف لهم عاقبة العصيان، مما لعله أن يقنطهم ويدخل في مشاعرهم اليأس من النجاة. أن يبلغ نداءه سبحانه لهم: لا تقنطوا من رحمتي أنا الله الكريم العفو الغفور؛ رحمتي وسعت كل شيء. إن الله لسعة فضله ورأفته بعباده، قادر على مغفرة جميع الذنوب وإن كثرت وعظمت. وذلك تبعا لصفتين من صفاته القديمة الملازمة لعلي ذاته: هو الغفور الستار للذنوب، يسحب عليها من مغفرته ما يخفيها به فلا يظهر لها أثر، كأن لم تكن. وهو الرحيم الذي يرحم عباده الذين يلتجئون إليه فيحولهم من اليأس إلى فسيح الأمل، ويفتح لهم مسالك الفرج .

٥٤. وأنيبوا إلى ربكم...ثم لا تنصرون.

الآية معطوفة على قوله: "لا تقنطوا من رحمة الله"، عطفا يفيد أن تحقق المغفرة والرحمة لابد من الجمع فيه بين الرجاء وبين التوبة، بالتحول عن الطريق، وعن السلوك الذي كانوا عليه، والاتجاه إلى طريق الله وتطبيق شرعه، وبين اعتناق الإسلام بالنسبة لمن كان ضلالهم في الشرك. أسلموا له، فلتكن عقيدتكم أنه هو الله الواحد الأحد، وأنه كلف عباده أن يعبدوه تطبيقا لشرعه الذي عرفهم به نبيه محمد ﷺ. إن التوبة وما عطف عليها لا تفيد صاحبها إلا إذا طهر بها نفسه قبل حلول العذاب. أما بعد نزول العقاب فلا تنفع التوبة. وفيه إيذان وتهديد بأن العذاب قريب منهم فليبادروا بالتوبة قبل مجيئه. وسوف لا تجدون نصيرا ينصركم بعد حلول العذاب الموعود به.

الآيتان تخاطبان البشر جميعا، إن كونهم مخلوقين لله عبيدا له مملوكين له يبقى على خيط يربطهم به، وإن تجاوزوا الحدود في التنكر لفضل الله عليهم والاستهانة بما ضبطه لهم من تشريع، وما أقام عليه الآيات البينات في العقيدة. إن هذا الخيط سوف يبقى ممتدا رابطا لكل مخلوق بخالقه، يحركه ليتعلق به ويعود إلى رحاب فضله. وأول خيط ينضم إلى خيط الخلق، هو خيط الإيمان بوحدة الخالق ذاتا وتصرفا، وبانضمام الإيمان إلى الخالقية يقوى الارتباط، هو العروة الوثقى التي ختمت بها آية الكرسي : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها). ثم يتكون حول الحبلين الجامعين حبل الخالقية وحبل الإيمان نسيج يشمل الإنسان كله ويسحب عليه الرحمة التي يتبعها سعادة الدنيا والآخرة، وذلك بتطبيق شرع الله وهديه في الحياة وحسن الخلافة في الأرض في علاقته بالكون، وبإخوانه في البشرية وبإخوانه المؤمنين. وبمقدار ما يكون هذا النسيج ملتحما لا ثغرات فيه يتم التوازن في الذات البشرية، والآثام تحدث في النسيج خللا وثقوبا تعرض المتهاون إلى التعري بمقدار ما أفسد. وفي هذا المستوى يفتح القرآن للنفس الآثمة باب التوبة التي ترقع الخلل الذي حصل في الغطاء الإيماني والعملي. هذه التوبة التي لا تتحقق إلا إذا تيقظ الإنسان الآثم إلى خطئه، وعمل على إصلاحه بالتوبة في الوقت الذي تفيد التوبة، وذلك في الدنيا قبل خروج الروح. فإذا لم يستيقظ وأقبل على ربه بإيمان مختلط بين الخير والشر، مع عدم تنظيفه للشر بالتوبة، فأمره إلى ربه إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه بما يطهره من قذارة الآثام التي مات غير تائب منها .

55.واتبعوا أحسن ...وأنتم لا تشعرون.

بعد أن أمرهم بأن يتحولوا من اليأس إلى الأمل والرجاء، وأن يعودوا إلى التعلق به وحده، وأن يسلموا تصديقا لمحمد ﷺ وإخلاصا لعلي ذاته. أوضح لهم أن نجاتهم تلك، تكون بالتزامهم واتباعهم لأحسن ما نزل عليهم من ربهم الذي تولاهم بكريم دعونه، وبيان تفاصيل شريعته. وهذا الأحسن هو القرآن الذي جمع الله فيه الهداية كلها، عقيدة وسلوكا. أسرعوا من قبل أن يحل عليكم عذابه، الذي يأتي بغتة دون سابق إعلام، فيطبق على الضالين في الوقت الذي يظنون فيه أنهم آمنون، يستوي في المفاجأة، عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

56 -58.أن تقول نفس يا حسرتا....فأكون من المحسنين.

أمرتكم بما أمرتكم به، أوضحت لكم طريق النجاة والفوز، لئلا يذهب عنكم وقت الاختيار، أنتم اليوم في سعة من أمركم فانقذوا أنفسكم قبل فوات الأوان، وعندها تصرخ النفس المفرطة: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله. تشعر عندها بالحسرة البالغة والندامة الشديدة، فتنادي عوامل الأسف لتحضر، لعلها تنفس الكرب التي هي فيه، إذ لم يبق لها ملطف إلا إبداء الأسف. الندامة على تهاوني تهاونا ضيعت به ما كان علي أن أقوم به من طاعة الله والتزام حدوده. والوقت وقت الحق فلا نفاق ولا تخفي فتصرخ النفس الأسفة، بأنها فرطت تفريطا لم يكن نالتجا عن غفله أو نسيان، ولكن سخرية واستهزاء بما جاءها، وقد تمكن الاستعلاء والسخرية منا. فهم في هذه الآية في موقف الاعتراف والحسرة.

أو تقول بعد إظهار الحسرة كلاما تحاول به التنصل من سيء ما قدموا وهو ما كانوا يحاولون به في الدنيا قطع الدعوة عن أسماعهم، وإفحام النبي ﷺ، على أن الأمر كله بيد الله كما يقول، فلو شاء الله هدايتهم لهداهم . فيظهرونه ليتضاعف عذابهم، لأنهم يقولونه للتصلب فيما هم عليه من الشرك . فموقف النفس هذا موقف الاعتذار البليد .

أو تقول بعد الحسرة والاعتذار مظهرة للتمني أن ترجع إلى الحياة الدنيا لتؤمن وتستقيم وتعمل الصالحات لتنقذ نفسها من العذاب . وموقف النفس هذا موقف التمني الذي لا يتحقق أبدا .

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ

خَٰسِرُونَ ﴿٦٢﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

التكبر :شدة الكبر وإظهار التعاظم.

مثوى : مكان إقامة دائم.

المفاز : مصدر بمعنى الفوز والفلاح، ويقصد به الجنة.

الوكيل : القائم على الأمر الكفيل بإكماله .

المقاليد : مفاتيح الخزائن.

آيات الله :دلائل وجوده وكماله.

بيان المعنى الإجمالي:

يسفه القرآن كل ما قدمه الخائب الخاسر من المعاذير والتعلات، فيدمغه ويقول له سبحانه: قد بلغتك آيات كتابي فاخترت تكذيبها وصددت عنها، وحملك الكبر والتعاظم عن اتباع ديني، ورجحت مختارا أن تكون مع الكافرين تتأيد بهم. وسيتميز الذين كذبوا على الله فنسبوا له ما لم يشرعه ونسبوا له الشركاء والبنات والولد، ستكون وجوههم عليها قتام وظلمة تنفر منهم . وبكمل تأكيد فإن مقرهم الذي لا يبرحونه جهنم جزاء تكبرهم على الحق. ويمن الله على المتقين فينجيهم بدخولهم الجنة دار الفوز، التي لا تلحقهم فيها أي مساءة ولا حزن . فهم في كرامة وسرور دائمين فضلا من الله ونعمة. ثم ذكر القرآن حقائق ثلاث على المؤمن أن يكون مستحضرا لها لا تغيب عن وعيه ليصح فهمه للوجود.1(الله وحده هو الخالق وليس لأحد سواه القدرة على الخلق -2(هو المتصرف في كل شيء لا معقب لما يختاره وينفذه) 3(جميع خزائن الخير المعنوي والحسي بيده وحده) إن الجاحدين لهذه الحقائق الثلاث هم الخاسرون حقا في دنياهم وأخراهم .

بيان المعنى العام :

59بلى قد جاءتك آياتي ....وكنت من الكافرين.

افتتحت الآية بحرف "بلى" الدال على نفي مفهوم في الكلام السابق إبطالا له وإثباتا لضده. جاء في الآية 57 (لو أن الله هداني لكنت من المتقين)، فتم الرد عليه ردا ناقضا نقضا عاما بقوله: بلى، ثم أتبعه بتفصيل النقض وحدة وحدة. ينقض قوله: لو أن الله هداني، بأن الله قد بعث لك رسوله معه القرآن وآيات صدقه فأعرضت عنها وكذبت بها، فاخترت طريق الغواية. وبنقض قوله: (على ما فرطت في جنب الله).

قولك باطل وإنك كاذب في قولك: فرطت كأنك لم تكن قاصـدا الإعـراض عـن هدايـة الله، إن الحقيقة أنك اسـتكبرت واسـتعليت. وبـنقض قولـه لكنـت مـن المتقـين، بأنـك اخترت الكفر، بل أكثر مـن ذلـك اختـرت أن تكـون فـي جماعـة الكـافرين متقويـا بكفرهم. فيخلص من ذلك بلى: إن الله أنـزل عليـك آيـات القـرآن هاديـة وبلغهـا إيـاك رسوله، فقابلت هدايته بالتكذيب والاسـتكبار، واختيـار الانتسـاب إلـى القـوم الكـافرين اعتزازا بهم.

60.وينجي الله الذين اتقوا...ولا هم يحزنون.

ردت الآية السـابقة علـى الكـافرين معـاذيرهم الكاذبـة، ويظهـر ذلـك يـوم القيامـة. وعطف القرآن على ذلك خطابا لرسوله ﷺ، ولكل مـن يصـح منـه الرؤيـة تبعـا، أنـه سيشاهد الذين كذبوا على الله، كمن جعل له ولـدا أو شـريكا أو بناتـا، وكمـن يقـول إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنـا بهـا، ونحـو ذلـك، سيشـاهدون متميـزين بسـمة خاصـة، وجوههم تكون مسودة. وهل المـراد أن لونهـا سـيكون مسـودا؟ أو المقصـود أن يعلـو وجوههم قتام وظلمة. كما وصفت بقوله: (ووجوه عليهـا غبـرة ترهقهـا قتـرة.)[1] قـال الراغب: وذلك شبه دخان يغشى الوجـه مـن الكـذب. وهـذا مـا أرجحـه، لأن سـواد الوجه ليس علامة قبح، ولا مظهر عقوبة، فعدد غيـر قليـل مـن الـزنج لهـم حـظ مـن الجمال والوسامة غير قليل، وفازت بعـض فتيـاتهم بلقـب ملكـة جمـال العـالم، تفـوقن على البيض والسمر، والصفر والحمر.

أليس في جهنم ...تقرير فـي صـورة سـؤال يلـزم المخاطـب بمضـمونه .إن الـذين استكبروا وتعاظموا ورأوا أنفسهم أرفـع مـن اتبـاع محمـد ﷺ والخضـوع لأحكـام الله أن مقامهم ومستقرهم جهنم التي يجتمع عليهم فيهـا العـذاب والمهانـة. وفـي هـذه الآيـة تهديد لمن يشرع حسب هواه وينسب رأيه لله. نقل الشـيخ محمـد الطـاهر ابـن عاشـور رحمه الله عن أئمـة المالكيـة: أن الحكـم المقـيس غيـر المنصـوص عليـه للمسـتنبط يجوز أن يقال فيه: هذا دين الله، ولا يقال: هذا قول الله.

61. وينجي الله الذين اتقوا...ولا هم يحزنون.

أعقب القرآن وصف حال المستكبرين من الكدر الظـاهر علـى وجـوهم، ومـن مقـامهم في جهنم إقامة دائمة، أعقب ذلك بما كتبه للمتقـين، فـأعلم أنـه سـبحانه يرعـى المتقـين رعاية تنجيهم من كـل الأسـواء والمخـازي التـي تلحـق أهـل النـار. بتخليصهم منهـا بدخولهم الجنة دار الفوز والنجاح والنعيم المقيم. يحـل علـيهم الأمـن الـذي قـدره لهـم،

---

[1] سورة عبس آية 41

فلا يمسهم أي سوء يعكر عليهم نعيمهم، لا في ذواتهم ولا في محيطهم، وبذلك ينتفي عنهم الحزن والأسى انتفاء دائما.

62. الله خالق كل شيء.... على كل شيء وكيل.

تثبت هذه الأيات أصولا ثلاثة متشابكة:

الأصل الأول: إن الله هو خالق كل شيء، إن جميع الكائنات سواء عاجزة عن الإيجاد بقدراتها المستقلة. وكل ما هو موجود في الكون في السموات أوفي الأرض هو الذي أوجده. ولا ينفي هذا مسؤولية الإنسان عن أعماله، فإن المسؤولية تابعة للاختيار الذي مكن الله منه الإنسان، يجري في مناطق التفكير الإقبال والإحجام، ثم يختار المكلف أحدهما فتتوجه إرادته إلى الفعل أو الكف. وهو في هذا المستوى محاسب على ما رجحه، وتقدم لتنفيذه. والله لم يجبره على أحدهما بل أوجد في نفس المكلف الاختيار الذي يحاسبه عليه، بعد ما بين له بواسطة رسله طريق الهداية. إن هذه الأية تركز وتؤكد أن البشر عبيد لله، وأن ما بهم من نعمة فمن الله، ولا تستطيع الالهة التي يتقربون إليها أن تمكنهم من أي شيء، فليعتمدوا عليه ويفردوه بالعبادة والسؤال.

الأصل الثاني: أن التصرف في الكون هو بيد الله وحده، لا معقب لما ضبطه ونفذه. فنظام الكون عامة، وتسييره على ذلكم النظام هو تحت تصرفه وحده، وما قدره من الجزاء والعون والتيسير هو بيده وحده، فليتجه البشر إليه وحده بالسؤال والدعاء بالتوفيق، بعد أن تبين لهم أنه وحده المتصرف.

63. له مقاليد السماوات...أولئك هم الخاسرون.

الأصل الثالث: أن كل ما هو موجود من الخيرات، من الخيرات المعنوية ومن الأمور والأشياء التي بها قوام حياة الإنسان وصلاحه، مما هو معدود كالمخزونات النفيسة، التي قفل عليها بمفتاح لا يمكن الاستفادة منها إلا بحل قفلها بذلك المفتاح، إن مفاتيح تلك الخزائن بيد الله، كما جاء في قوله تعالى: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم}[1] فشملت الأية الهداية التي يكلف بها من يشاء ممن يختارهم لتلكم المهمة، وكل القوى التي بها ينتظم سير العالم وتيسر للبشر حياتهم في هذا الكون ماديا. كل ذلك بيد الله وحده، فاختصاص محمد ﷺ بختم الرسالة، ونشر الحق وهزم الباطل هو من توابع ملكه وحده لمنابع الخير.

---

[1] سورة الحجر اية 21

إنه إذا ثبت يقينا تفرد الله بالخلق، والتصرف، وأن خزائن الخير بيده وحده، فإنه من لوازم ذلك عقلا أن الذين كفروا بالدلائل الواضحة على تلك الخصائص الثلاث، ومضوا غير ملتفتين إليها، وحجبوا عقولهم عن التأمل فيها، إن هؤلاء الذين جحدوا آيات الله اختصوا بأنهم هم الخاسرون حقا.

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

ليحبطن :يذهب ما كان فيه من خير يثاب عليه.

الله فاعبد : اعبده وحده لا تعبد غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد بعض آلهتهم ويعبدون هم إلهه. إنه عرض سخيف غبي مرفوض رفضا تاما. كيف تأمروني أيها الذين استولى على عقولكم الجهل فأصبحتم لا تدركون ما يترتب على أقوالكم، أن أعبد غير الله.

بكل تأكيد، حقيقة توحيد الله وعدم الإشراك به، حقيقة ثبتت بالآيات البينات، وبالوحي الذي تواصل وتكرر إليك وإلى المرسلين من قبلك، وأن الشرك يحبط كل عمل خير ويمحوه، وينتهي بصاحبه إلى الخسران الذي لا يبقى له على أي حسنة. لا تعبد أحدا إلا الله وحده، وكن شاكرا لفضله على ما وفقك ويسرك له من الهداية.

بيان المعنى العام :

64.قل أفغير الله تأمروني...أيها الجاهلون.

نقض النبي ﷺ جميع شبهات المشركين، وأبطل كل ما احتجوا به، فغاظوا ولم يجدوا ما يبررون به شركهم، فعمدوا إلى إغراء النبي ﷺ باتخاذ حل وسط يقرب مسافة ما بينهم من الاختلاف : أن يقدس بعض آلهتهم فيعبدها، ويقدسون هم إلهه، فتجتمع الكلمة. فقطعهم عن النظر في هذا العرض، وصرح بأنه مرفوض رفضا كليا، وأنكر عليهم إنكارا غليظا أن يأمروه بعبادة غير الله. إذ لا يعقل أن يكون بعد ما بسطه من دلائل التوحيد أن يساوموه في تلكم المبدأ. ثم عنفهم بأن عرضهم عرض الجاهلين الذي لا علم لهم. لقد استولى على عقولكم الجهل فأصبحتم لا تقدرون ما يترتب على أقوالكم من تناقض يستحيل تصوره.

65←66 ولقد أوحي إليك ...وكن من الشاكرين.

ثم بالغ في تيئيسهم، وكشف سخفهم بالإعراض عنهم، وإعلان الحقيقة المتكررة مع الزمن، الحقيقة التي هو وحي من الله، وحي توجه به رب العزة إليك وتوجه به إلى الرسل قبلك. وحي هو خيط جامع بين جميع المرسلين من نوح إلى كل رسول جاء من بعده، وإليك: أن الشرك يقضي على كل عمل خير وينقضه نقضا لا يبقي له أثرا، وبالتالي يكون المشرك خسر الخسارة التي ما بعدها خسارة. يذوب كل صلاح قدمه كما يذوب الجليد بوهج الشمس. فإذا كانت هذه الحقيقة تكررت على سمعك وعلى الرسل من قبلك، فمحاولة المشركين زعزعة التوحيد الثابت الأركان في قلبك هو ضرب من البلادة والغباء. وليعلم البشر أن الشرك يقترن به قطع الصلة بالله وحرمان المشرك من الرحمة حرمانا أبديا سرمديا. وهذا ينسحب على كل إنسان وحتى على سبيل الفرض المحال أعلى الناس درجة في القرب مني .

اترك كل أقوالهم واثبت على إفراد الله بالعبادة، واشكره على ما وفقك إليه، وعلى ما خصك به من نعم كنت بها خاتما لرسالاته إلى البشرية.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ

حق قدره: تقدره الحق.

قبضته : المرة من القبض.

بيمينه : بقدرته.

الصور: أصله بوق ينفخ فيه فيحضر كل فرد من الجيش عند سماع صوته.
صعق: خر ميتا.
أشرقت الأرض: انتشار الضوء ووضوح الرؤية.
وضع الكتاب: أحضرت صحائف الأعمال.
الشهداء: الذين يشهدون.
وفيت: إعطاء الشيء وافيا غير منقوص.
ما عملت: جزاء عملها.
زمرا: جمع زمرة، الفوج المتبوع بفوج آخر.
الخزنة: جمع خازن، وهم الوكلاء بجهنم.
آيات ربكم: الأقوال الموحى بها إلى رسلهم من ربهم.
كلمة العذاب: الوعيد.
المثوى: محل الإقامة.

بيان المعنى الإجمالي:

قصرت عقول المشركين عن فهم عظمة القدرة الإلهية فاستعظموا أن يكون مالكا للسماوات والأرض ولذخائرها. فحقق القرآن أن السماوات والأرض على ما هي عليه من أبعاد يعجز العقل البشري عن تحديدها، سوف يطوي سبحانه تلك الأبعاد يوم القيامة فتطيعه، وتحقق قدرته ما أراد، فهي شبيهة بالقابض على شيء بيمينه لا يفلت منه شيء، ولا يخرج عن قبضته. تنزه ربنا وتعالى عما يتصوره المشركون. ومما يتصل بإفناء الكون أنه ينفخ في الصور، بوق خاص لا يعلمه إلا الله، نفخة أولى يخر بسماعها كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله. ثم بعد أمد قدره الله يعاد النفخ في البوق فتنبعث الكائنات التي صعقت في النفخة الأولى ومن مات قبل ذلك، تبعث للحياة فجأة، وقد توفر لها جميع مداركها فهي قائمة تنظر، وتتعرف.

يقوم المبعوثون على أرض المحشر التي هي غير أرض الدنيا، وقد أشرقت بنور من رب العزة لا يخفى معه أي كائن، ويجمع الباري سبحانه كل وسائل المحاكمة العادلة للموقوفين. سجلات الأعمال، الأنبياء والمرسلون، الملائكة الحفظة. فلا يستطيع أي فرد الإنكار ولا التأويل والاعتذار، ويتم القضاء العادل من الله الحكم العدل. ويستوفي كل فرد جزاء ما قدم، ويرتفع الظلم تماما، ولا يخفى على الله شيء من أعمالهم لا في ظاهرها ولا في النوايا التي انبعثت منها الأعمال، فيذهب كل زيف غطى الحق في الدنيا.

صدر الحكم العادل، فدفع المحكوم عليهم جماعات متتابعة، دفعوا إلى جهنم. ثم إنهم عندما وصلوا إليها استقبلتهم مشوقة إليهم، ففتحت لهم أبوابها. وكان تقريع حفظتها لهم أول ما يؤلمهم. قالوا لهم: ألم يبعث الله لكم رسلا تعرفونهم، نشأوا بين أظهركم، تعرفون صدقهم وشهامتهم واستقامتهم، أبلغوكم ما نزل عليهم من الآيات البينات الدالة على التوحيد والخير، وحذروكم العذاب الذي وجدتموه في يومكم هذا ابتداء من الوقوف موقف الذل إلى الحساب والحكم. كان جوابهم فعلا قد وقع كل ذلك، ولكننا أعرضنا واستكبرنا وكذبنا، فحق علينا العذاب الذي وُعدنا به الذي نحن فيه. أما وقد استوفيت جميع الإجراءات، صدر الأمر الذي لا يقدرون على رفضه: ادخلوا أبواب جهنم، لتخلدوا فيها وتقيموا إقامة أبدية. وإنها أسوأ إقامة للمتكبرين عن قبول هداية المرسلين .

بيان المعنى العام :

67. وما قدروا الله...وتعالى عما يشركون.

لفتت الأيتان 63/62 الأنظار إلى تفرد الله بالخلق، وأنه مختص بالتصرف في مكنونات خزائن السماوات والأرض. وزيفت ما يعبدونه من دون الله. فكان من عناد المشركين أن شككوا في انفراد القدرة الإلهية بهذه القوة التي بها يتصرف في كل شيء في الكون مستعظمين ذلك. فبينت هذه الآية أن قصور المشركين الذهني، وعدم تأملهم في آيات الله في القرآن والآفاق، هو داؤهم الذي ترتب عنه هذا الإنكار، وأعماهم عن قدرته سبحانه التي لا تحد بحدود. تثبت الآية بكل تأكيد: أن بقاء نظام الكون أرضه وسماواته هو بقدرته يجريه إلى أجله الذي أجله له. فإذا جاء يوم القيامة ترى الأرض وما تحويه، والسماوات على سعة آفاقها واستداداتها، ترى كل تلك الضخامة وتلك الأبعاد قد طويت، تحكمت فيها القدرة الإلهية فاختل تركيبها، وذهبت القوانين التي كانت تقضي بامتدادها. ذهبت جاذبية الأرض فانهار كل ما تحمله على ظهرها أو في باطنها، وخسف الشمس والقمر وبقية الكواكب، المجرات فتقلصت الأبعاد، وانقادت لحكم خالقها فأصبحت طائعة لما أراده منها فهي تحت تصرفه وقدرته. نفذت فيها الإرادة وحققت القدرة ما تعلقت به الإرادة الحكيمة. فهي كشيء ضئيل يقبض عليه باليمين. إنه لا يمكن أن نفهم الآية على أن لله يمينا يمسك بها، ولكن الآية تصور بما تساعد عليه اللغة القدرة العظيمة لله التي تصرفت في السماوات والأرض تصرف من يمسك الشيء بيمينه فلا يفلت من يده.

إن ذلكم التصرف العظيم، والقدرة التي تهوّن كل عصيٍّ على البشر، تدعو كل كائن أن يسبح منزها ربه عن كل نقص. وأن يقرن التسبيح بالحمد والثناء على كمالاته، تعالى سبحانه عما يقوله المشركون، وعما يتصوره الجاهلون.

68.ونفخ في الصور...قيام ينظرون.

فصلت الآية بعض ما يحدث في الكون عند تعلق الإرادة بإفناء الكون وطي السماوات والأرض واختلال نظامهما. قرّب ما يحدث للبشر بصورة الجيش عند تفرق أفراده، فإذا ينفخ في بوق يعلو صوته ويبلغ مسامع كل فرد فيستجيبون له ويحضرون في مواقعهم. إلا أن هذا الصوت المدوي ينبعث مرتين مرة للإفناء، فبمجرد ما ينفذ الصوت إلى الأسماع يموت كل سامع له في الأرض أو في السماء. واستثنى القرآن إلا من شاء الله. والمستثنى لم يعين، ولا مجازف بتعيينه فالله أعلم بمراده، ولا يتعلق بمعرفته على التحديد كبير فائدة. ذكر السدي أن المستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم إن الله يميتهم بعد النفخة الأولى .
ثم ينفخ فيه النفخة الثانية بعد مدة من النفخة الأولى على ما يفيده العطف بحرف "ثم". والأمد بين النفختين لا دليل على تعيينه، إلا أن هذه النفخة يترتب عليها عكس ما ترتب على النفخة الأولى، فعندها تسري الحياة في جميع الموتى من مات بالصعقة الأولى، ومن مات قبل ذلك. وفي لحظة واحدة يقومون فجأة تعود إليهم جميع حواسهم ومداركهم. تتقلب أبصارهم فيما حولهم.

69-70 وأشرقت الأرض...بما يفعلون.

يقف الذين سرت فيهم الحياة من أهل السماوات والأرض على أرض المحشر. وهي قطعا غير الأرض التي كان يعيش على ظهرها البشر في الدنيا، لأن تلك قد طويت وذهبت. ولكنها الموقف الجامع لجميع الخلائق يقفون فيه. وقد أشرقت الأرض بنور عظيم منبعث منه يلقي بضيائه، فينكشف كل شيء انكشافا لا ساتر له. نور من الله لا بواسطة كوكب ولا بقوة أخرى .
بلغ المشهد من الوضوح المادي ما تهيأ به لكشف كل ما عمل المبعوثون على إخفائه وستره. تحضر صحائف الأعمال، مسجل بها تسجيلا دقيقا ما عمله كل فرد من خير أو شر. ويزداد المشهد مهابة بحضور الأنبياء والمرسلين ليشهدوا على أممهم، فلا يستطيع اي موقوف إنكار أنه بلغه الوحي والهداية على لسان رسوله. ويحضر الشهداء، الملائكة الذين وكلوا بمراقبة أعمال كل فرد في حياته وتسجيلها. لحضرت السجلات التي لا يستطيع صاحبها إنكار شيء منها، حضر الأنبياء والرسل يشهدون بأنهم بلغوا، حضرت الملائكة الذين كانوا موكلين بكتابة كل ما صدر عن المسؤول. توفرت أركان الحكم العادل الذي لا ظلم فيه، مشرقا كإشراق الأرض التي يجري فيها الحكم. هو الحكم الحق العادل الذي لا يظلم فيه أحد. ينتصف المظلومون من الظالمين. ويُخزى المشركون والكفرة بشركهم. يوفي الله

العادل كل نفس بجزاء ما كسبت من الخير أو الشر في دار التكليف، في علاقاتها بالله وبالرسل وبالكون وببعضهم البعض، وفوق كل ذلك: إن الله يعلم الحقيقة علما لا يخفى عليه شيء من النوايا أو الظواهر.

فعلى كل إنسان أن يستعد لهذا اليوم الذي تنشر فيه صحائف الأعمال، وتكشف النوايا، يوفى الظالمون جزاءهم نكالا ونقمة، ويوفى الصالحون أجورهم كرامة وعزة وما يظلم ربك أحدا، جعلني الله وإياكم ممن اهتدى ووسعته رحمته.

71 ->72 وسيق الذين كفروا ...فبئس مثوى المتكبرين.

تنفذ الأحكام العادلة إثر صدورها، فيتحول الذين كفروا عن موقف الحكم ويساقون سوقا من خلفهم، يتوالى عليهم في مسيرتهم الإزعاج والمهانة، بسبب كفرهم إلى جهنم جماعات تتلوها جماعات. يصلون إلى جهنم دار إقامتهم التي ما كانوا يعرفونها معرفة المشاهدة. كانت جهنم منتظرة لهم، فبمجرد ما يبلغون حدودها تفتح أبوابها جميعا فيفاجؤون بمنظرها المفزع وبشدة لهيبها. وتنطلق خزنة جهنم الموكلون بها يقررونهم ليصرحوا بسبب مصيرهم إليها. يسألونهم بما يعمق خزيهم، يقولون لهم: لماذا صرتم إلى هنا، أتنكرون أن الله قد بعث لكم رسلا نشأوا بين أظهركم، تعرفون صدقهم واستقامتهم، وكمال أخلاقهم، بذلوا جهدهم لبيان الآيات التي أنزلها عليها ربكم، فهم يقرأونها على مسامعكم ويتولون تفصيل ما تضمنته من هدى، وتولوا إنذاركم: أنكم إن لم تؤمنوا وتستقيموا فسيكون مصيركم هذا اليوم الذي كشف فيه حسابكم وحكم عليكم بالجحيم ؟ قرّعوهم بما ضاعف الندم المهزي لنفسياتهم، ولم يجدوا بدا من الاعتراف. فقالوا بلى! جاءتنا الرسل ولكنا أعرضنا عنهم استكبارا وعنادا وتعلقا شديدا بمغريات الحياة الدنيا، فحق علينا الجزاء الذي أنذرونا به، وصدقوا فيما أوعدونا به . وقفوا أمام الحكم العدل، وكشفت صحائف أعمالهم، وتأكدت مسؤوليتهم عما قدموا، وصدر الحكم، وساقهم الموكلون بهم لينفذ فيهم الحكم، وقبل التنفيذ أعلنوا صراحة عن كامل مسؤوليتهم؛ فسمعوا صوت التنفيذ العاجل: ادخلوا أبواب جهنم لتستقبلكم نارها وسعيرها، فإنكم مقيمون بها إقامة لا ترفع عنكم .إن مقركم في جهنم هو أسوأ مقر.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

بيان معاني الألفاظ :

طبتم : دعاء لهم بما يوافق، بتطييب أوضاعهم طيبا يجعلهم في أكمل وضع وأليقه.

صدقنا وعده : حقق لنا وعده.

وأورثنا: مكننا بفضله من مقامنا تمكينا لا زوال عنه.

نتبوأ : نحل ونسكن في فسيح الجنة حيث نريد .

حافين : محدقين حاضرين حوله .

بيان المعنى الإجمالي :

بعد صدور الحكم العادل الفصل المكرّم للمتقين بفوزهم، يسوق مراكبهم الموكلون بهم إلى مصيرهم، إلى الجنة جماعات جماعات مؤلفة قلوبهم. حتى إذا وصلوا إليها شاهدوا من الفضل والنعيم ما يتجاوز الوصف. وقد تفتحت لهم أبوابها شأن الأعزة لا يقفون عند الأبواب بل يجدونها مفتوحة معدة لاستقبالهم. يسمعون من خزنة الجنة هذا السلام الرخي الندي: سلام عليكم وأمن دائم لكم طبتم فذهب عنكم كل رجس وكل أثر من آثار المعاصي. فادخلوا الجنة خالدين فيها بينكم وبينها تمام التناسب من الطهر. وعندها يتوجه المكرمون لله فيقولون: الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا، وجعل مأوانا في الجنة ننتقل فيها حيث نشاء، ما أكرم أجر العاملين أجرا.

وترى يا محمد وأنت في موقع الشرف والإشراف الملائكة محيطين بعرش الله منغمسين في التسبيح. فقد تم القضاء الذي كله حق بين المخلوقات. والصوت الذي يعلو في المشهد: الحمد لله رب العالمين.

بيان المعنى العام :

73. وسيق الذين اتقوا ربهم...فادخلوها خالدين

يلاحظ أن التعبير عن تحول المكرمين بالجنة أتى على وزان الذين كفروا، فكلاهما سوق، وجماعات جماعات. والذي يبدو والله أعلم أن سوق الكافرين سوق عسف وعذاب ومهانة، حفاة يدفعون دفعا، كما يدفع بالمقبوض عليهم من المحاربين المفسدين في الأرض. وسوق المكرمين سوق مراكبهم إلى الجنة شأن من يشرف ويكرم في الدنيا. وللدار الآخرة خير .

حتى إذا جاؤوها : بدا لهم ما أعد لهم من الكرامة والنعيم، ومن الفضل الذي لا يحد، مما يفوق الوصف وتقصر عن الوفاء بكنهه اللغة .ولذا عبر بأن الحال أن

أبوابها مفتحة تنتظرهم كما جاء في قوله تعالى: {جنــات عــدن مفتحــة لهــم الأبــواب}[1] وتبدأ مظاهر حسن الوفادة والتقدير بمخاطبة خزنــة الجنــة لهــم: الأمــن علــيكم تطهــرتم وطبتم من دنس المعاصـي ودرن الخطايا ،صفحتكم بيضـــاء نقيــة تشــاكل المصــير الــذي حللتم فيه. ادخلوا الجنة خالدين لا تخشون مفارقتها أبدا

74.وقالوا الحمد لله .....فنعم أجر العاملين.

هذه النفوس التي زكيت وتطهرت وسمت، هــي نفــوس متعلقــة بــالله مستشــعرة فضــله تأنس بالتوجه إليه بالثناء، فبمجرد حلولهم بالجنة توجهوا إلــى علــي مقــام ربهــم بالثنــاء الذي هو أهله ومستحقه فقالوا الحمد لله الذي حقق لنــا مــا وعــده ومكننــا تمكينــا أبــديا من أرض الجنة ننتقل فيها حيث نشاء دون تضييق ولا منــع .ثــم امــتلأت نفوســهم مــن الرضا باستحضار ما هم فيه من نعيم فعبروا عنــه تعبيــر الشــكر : مــا أحســن وأكمــل أجر العاملين أجرا.

75. وترى الملائكة حافين...الحمد لله رب العالمين.

ويختم المشهد كمــا تخــتم الســورة بالمقــام العزيــز لســيدنا محمــد ﷺ، فيخاطبــه رب العزة: إنك تكون يــا محمــد بالمقــام المشــرف الــذي تشــاهد فيــه الملائكــة محــدقين بالعرش، منغمسين في نعيم التسبيح والتمجيد لــربهم الــذي تتــوالى علــيهم منــه العنايــة والألطاف، وتم القضاء بين الخلائق جميعا، وتسمع قــولا يمــلأ صــداه المشــهد وتســري نغماته الندية الوضية في الآذان والفضاءات الشاســعة غيــر المحــدودة : الحمــد والثنــاء والمجد والسناء لله رب العالمين.

15 شوال 1434 الموافق لـــ 22 /2013/08

[1] سورة ص آية 50

ســــورة المؤمن

روي تسمية هذه السورة بأحد الأسماء الأربعة التالية. ففي صحيح الترمذي عن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ (من قرأ حم المؤمن ...) ووجه تسميتها بذلك الجمع بين فاتحتها وما ذكر فيها من قصة مؤمن آل فرعون بصفة صريحة. وفي مصاحف المشرق (المؤمن) وفي مصاحف المغرب (غافر) أخذا من فاتحتها: الحمد لله غافر الذنب. كما كانت تسمى بسورة الطَّوْل أخذا من قوله فيها (شديد العقاب ذي الطول) وهي سورة مكية وترتيبها حسب ترتيب المصحف الأربعون، وحسب ترتيب النزول الستون. نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت. وهي السورة الأولى من السور المفتتحة ب حم، وهي سبع ويدعى مجموعها (آل حم) كما جمعت بلفظ الحواميم .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ

التوب : الرجوع إلى أمر الله .

الطول: الفضل، أو القدرة.

يجادل: يثير الشبه الباطلة ويطعن.

الغرور: ظن الشيء على خلاف حقيقته.

تقلبهم في البلاد : تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار في الدنيا.

الأحزاب : جمع حزب الجماعة المتفقة على عمل أو اعتقاد.

همّت: عزمت.

ليأخذوه: ليسلطوا عليه العذاب.

فأخذتهم: نكلت بهم.

ليدحضوا به الحق: ليبطلوه.

كلمت ربك: وعيده الذي أنذر به المرسلون أقوامهم

التفسير الإجمالي

هذه هي السورة الأولى من السور السبع المتوالية المفتتحة بـ "حم" في القرآن، ويقال فيها ما قيل في نظائرها. القرآن منزل من عند الله. ما على الرسول إلا البلاغ. بلغ من قوة الحجة أنه عزيز عزة منزله، يعجز المعارضون عن إبطال حججه. انتفى عنه كل مخالفة للواقع بما أنه أنزل من العليم. اتصف سبحانه منزله بأنه الغفور الماحي للذنوب ،القابل لتوبة التائبين فيجمع لهم بين ثواب التوبة وتنقية الصفحات من درن الآثام. وهو أيضا شديد العقاب لمن أعرض وتصلب في كفره، وهو صاحب القدرة التامة بها ينال المكرمون الخير، ويتسلط العقاب على المستكبرين الكفرة. تفرد بالالوهية، وإليه وحده دون سواه مصير المكلفين ليجزي الذي أحسنوا واستغفروا وتابوا ويعذب الذين أعرضوا.

ان آيات ربك لوضوحها وقوتها لا يجادل فيها ويحاول إبطالها إلا الذين تمكن الكفر من عقولهم، وأظلمت أرواحهم. فإياك أيها المؤمن أن تغتر بما أوتوه من متاع الحياة الدنيا، فتتوقع أن الرخاء في الدنيا سيتبعه سعادة في الآخرة. إن تكذيبهم لرسولي محمد كان سنة المرسل إليهم في تاريخ البشرية. فقد كذب قبلهم قوم نوح وكذبت الأحزاب، بل إن كل أمة منهم أعدت المؤامرات للإيقاع برسولها، ولبسوا الحق بالباطل فخدعوا الدهماء بزيفهم فصرفوهم عن الحق، فنكلت بهم تنكيلا. فانظر كيف كانت شدة عقابي ! وكما حق عليهم الوعيد في الدنيا، فإن وعيدهم بعذاب النار يوم القيامة لا يفلتون منه.

بيان المعنى العام:

1 حم

افتتحت السورة بحرفين - حا- ميم- وقد تقدم الكلام على هذه الفواتح في القرآن .

2 تنزيل الكتاب...العزيز العليم

فاتحة هذه السورة قريبة من فاتحة سورة الزمر . ففي السورتين تنويه بالقرآن، والتأكيد على أنه منزل من عند الله العزيز العليم. وذكر الوصفين: العزيز تنبيه

على أن كلامه تضمن من الحجج الصادقة، ومن الحق الواضح ما جعله أقوى من أن يبطله الجاحدون أو يحرفه المغرضون .وبوصف العليم تنبيه على أن منزله يعلم الغيب والحاضر، فمن أراد أن يكون مطمئنا في معلوماته فإن هذا الكتاب لا يوقع متبعه في الجهل ولا في الضلالة .

«غافر الذنب...إليه المصير»

واصلت هذه الآية تسجيل الصفات الأزلية لله فذكرت أوصافا أربعة:

أ-غافر الذنب. صفة أزلية ملازمة دالة على أنه هو الذي يمحو الذنوب كأن صاحبها لم يقترفها. فيذهب ما في صفحته من سوء وسواد. تنسحب هذه الصفة على الماضي والحاضر والمستقبل.

ب- قابل التوب. يقبل توبة التائبين. فيثيبهم على حسن توبتهم باعتبار التوبة استجابة للأمر بواسطة العزم والتنفيذ فهي طاعة بدون شك. وبذلك جمع القرآن بين وصفين ثابتين أزليين لله. المغفرة والتوبة. وإن كان حسب الترتيب في الوقوع تسبق التوبة الغفران، إلا أن نكتة التقديم تعجيل البشارة بالمغفرة . ويحصل بهما معا إدراك الإنسان لسعة فضل الله، فهو يمحو سيئاته، ثم يسجل تلك حسنات في صحائفه. والله ذو الفضل العظيم. وقد روي أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب ؓ فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة ؟فقال نعم ! اعمل ولا تيأس ثم تلا هذه الآية إلى قوله تعالى:(وقابل التوب) ونقل الزمخشري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه افتقد رجلا ذي بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: إنه تتابع في هذا الشراب .فقال عمر لكاتبه: اكتب، من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. بسم الله الرحمن الرحيم. حم إلى قوله تعالى إليه المصير، وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه. فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا، وإذا رأيتم أخاكم قد زل فسددوه ووفقوه، وادعوا له أن الله يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه.

ج- شديد العقاب : هذا هو الوصف الثالث في الآية، وهو جار على المنهج القرآني في الجمع بين البشارة والتهديد. إصلاحا للنفوس المختلفة. والله موصوف بالرحمة الواسعة لمن لانت نفسه للتقوى وموصوف بشدة العقاب لمن استكبر وولى معرضا عن هدايته.

د- ذو الطول : وكلمة الطول يمكن فهمها على أن الله قادر على تعجيل العذاب لهم في الدنيا. فيكون مدلولها مقترنا بالوصف المتقدم {شديد العقاب} فيكون التحذير قد تم بوصفين، والبشارة بوصفين .ويمكن حمل ذي الطول على سعة القدرة الإلهية فيمحو الذنوب ويبدلها حسنات، وينكل بالمجرمين .وهو القادر في الحالين القدرة التي تنفذ ما أرادت في الثواب أو العذاب.

تأكد التصرف الإلهي في المكلفين بأنه هو الإله الواحد لا يشاركه أحد في ملكه، صرحت الآية في خاتمتها بالتصوير على البعث وأن الناس جميعا صائرون إلى حكمه فيظهر تصرفه بالمغفرة والتوبة، وبشدة العقاب.

4. ما يجادل في آيات الله...تقلبهم في البلاد.

سجل القرآن على الكفرة أنهم حاولوا الاعتراض على القرآن وقصدوا إلى الطعن فيه، كقولهم: {إنما يعلمه بشر}، طلبهم أن ينزل القرآن كتابا مكتوبا من السماء، وقولهم: كاهن وشاعر . هي تلفيقات باطلة كاشفة عن عنادهم .ولما كان القرآن منزلا من العليم كما بيناه في الآية السابقة، فلا يشغب فيه بالجدال إلا من طمس الكفر على بصيرته، وتصلب في العناد. وهذا نظير قوله تعالى: {ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق}[1]

لما كان من منة الله انه لا يحرم الكافرين من متاع الحياة الدنيا، وأنه يمهلهم بما يمكنهم من زخرفها، وبما أن الأنظار تتجه لمن يرفل في النعيم، بحسن المساكن وكثرة الأولاد، وتنوع الأموال، ووفرة الخدم والأتباع، وقد جمعت قريش بتجارتها الموفقة ما جمعت، فلذلك نبه القرآن المؤمنين أن لا يعجبوا بما أوتيه الكفرة المجادلون من النعيم الزائل عن قريب. وأن لا يظنوا أن الإمهال رضا، ولا أن مصيرهم سيكون على نحو ما هم عليه في الدنيا، فإن ذلك فتنة.

5. كذبت قبلهم قوم نوح...فكيف كان عقاب .

هذه الآية تكشف عن سنن الأمم الماضية في تكذيب رسلهم ومقاومتهم، وعن سنة الله في المكذبين. فسجلت الآية أن موقف قريش بتكذيبهم لك قد سبقهم إلى مثل عنادهم وصدودهم عن الحق قوم نوح والأحزاب الذين ذكروا في سورة ص

{كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ذو الأوتاد (12) وثمود وقوم لوط وأصحاب ليكة أولئك الأحزاب (13)} ولم يقتصروا على التكذيب، بل تجاوزوه إلى عزمهم على الانتقام من رسولهم بالتعذيب والقتل، فحاكوا المؤامرات وكانت عين

---

[1] سورة الكهف آية56

الله ترصدهم فنكلت بهم مستأصلا. وفي ذلك تلويح بأن العذاب سينزل بقريش إذا همّوا بقتل رسول الله ﷺ . وكذلك كان فإنهم لما عزموا على قتله أحاطه الله بألطافه حتى وصل إلى المدينة، وركز فيها أركان الدولة الإسلامية، وانتقم الله من قريش في غزوة بدر وما تلاها حتى فتح المسلمون مكة.

و جادلوا بالباطل : زوروا الحقيقة فقلبوها إلى باطل وزيف، عن قصد، وصوروها بصورة الكلام المعقول الذي لا يستطيع الكشف عن حقيقته الدهماء، ووصلوا بذلك إلى إبطال الحجج الصحيحة التي تضمنتها الآيات المنزلة. لم أمهلهم بل أخذتهم فنكلت بهم . فتأمل كيف كان عقابي، الدرجة المبيدة من النكال، كما تشاهده في آثار ديار قوم لوط وثمود.

6. وكذلك حقت ..... أصحاب النار.

و كما نفذ الوعيد على الكافرين المكذبين من الأمم السابقة فتم استئصالهم وتخريب ديارهم، فكذلك صدق وعيد ربك على الذين كفروا في كل زمان أن مصيرهم إلى النار. أوعدهم رسلهم بذلك وصدق وعيد الله عليهم في الآخرة .

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ

الجحيم : اللهب الشديد .

و سعت :لك الرحمة الشاملة والعلم الذي لا يخرج عنه شيء.

عدن: الإقامة والخلود.

بيان المعنى الإجمالي :

الملائكة الذين أوكل الله إليهم حمل عرشه، والملائكة المحيطون به، وهم جميع على قرب معنوي شديد من رب العزة، وهم مستغرقون في التسبيح والتمجيد، صفا إيمانهم ، رسخ، ألهمهم الله أن يقسموا بين دعائهم، تمجيد الذات الإلهية بأن رحمته لا حد لها، فقد شملت كل حي في الدنيا، وأن علمه تعلق بكل ما هو كائن من الجماد والحيوان والإنسان، والمادة

والمعاني. ألهمهم أن يطلبوا المغفرة للذين تابوا من المؤمنين، فالتزموا ما شرعته وانتهوا عما نهيتهم عنه وساروا في حياتهم على الطريق الذي بينته لهم على لسان رسولك. ربنا احفظهم بوقاية تحميهم من لهب النار الموقدة نار جهنم في الآخرة. ثم واصلوا دعاءهم للمؤمنين التائبين أن يدخلهم جنات الإقامة والخلود، وأن يلحق بهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فيقربهم من منازلهم، وإن كانوا لم يبلغوا من الصلاح مبلغهم، لتتم نعمتك عليهم، فإنك ربنا أنت الموصوف بالعزة التي لا يعجزها شيء، الحكيم الذي يجري الأمور على أتم ما يكون. واجعل ربنا بينهم وبين كل ما يسوؤهم، من الأسف والحزن، وقاية تحميهم. فإن من تحميه من الأسف والحزن وتُحل في نفسه الرضا هو الفائز حقا الفوز العظيم.

بيان المعنى العام :

7-الذين يحملون العرش .....وقهم عذاب الجحيم.

ذكر في فاتحة هذه السورة خمسة أوصاف لازمة لله- العزيز -العليم- غافر الذنب -قابل التوب -ذي الفضل العظيم .وبهذه الصفات يطمع المؤمنون في تكريم ربهم والفوز برضوانه. فأكدت هذه الآية أن رجاءهم محقق. فإنه زيادة على ما وصف الله به نفسه، فإنه ألهم ملائكته المقربين الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم.

أشد الملائكة قربا من ربهم هم حملة عرشه ومن حوله. ولما كان الله منزها عن المكان وعن الحدود، فإنه لا يصح بحال من الأحوال ما يقال من تجسيم لعرشه وأبعاده المكانية وتشخيص قوائم له من نفائس الجواهر. كل ذلك لا تلتفتْ إليه أيها المؤمن واجزم بأن الله له عرش لا يعلم كنهه إلا هو. هو عظيم يتجاوز في عظمته التصور والخيال. وأن الله أوكل بعرشه ملائكة مقربين يحملونه، والحامل كالمحمول ليس من نوع الثقل المادي الذي هو نتيجة جاذبية الأرض لما فوقها. فنزه ربك عن مسارح الخيال البعيد بعدا تماما عن الحقيقة. بل المناقض للعقل .

الذين يحملون العرش، والملائكة الذين هم حول العرش، مستغرقون في تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، مدركون لعظمته، انغرس الإيمان فيهم، فهم بنوره الذي لا تشوبه شائبة من الذهول أو عدم الوضوح، تفتح لهم آفاق المعرفة، ويحصلون على لذة التسبيح والتمجيد والعبادة خالصة. وإذا كان من المعلوم ضرورة أن الملائكة مؤمنون فنسبة الإيمان لهم هو للتنويه بشرف قيمة الإيمان. هؤلاء الملائكة الموصوفون بتلك الصفات ألهمهم ربهم أن يطلبوا من فضله ورحمته أن يغفر للمؤمنين التائبين ما اقترفوه من ذنوب، وأن يرفع عنهم إثم ما فرط منهم .ألهمهم أن يفتتحوا الدعاء بنداء ربهم: ربنا لإظهار التقرب وإبراز التضرع بما يُطمِع في

الإجابة. وبسطوا لدعائهم التنويه بما وُصفت به الذات العلية مما يناسب قبول دعائهم، أن رحمته سبحانه، وسعت كل إنسان وحيوان، ووسعت الكافرين والمؤمنين في الدنيا، فما من كائن حي إلا وللرحمة نوع من التعلق به. وكذلك سعة علمه تبلغ كل موجود حتى الجمادات فصدقُ إيمان المؤمنين الذين يدعون لهم معلوم عنده سبحانه علما لا لبس فيه. يدعون للمؤمنين التائبين أن يغفر الله لهم ذنوبهم التي تابوا منها، ثم أثنوا عليهم بما يكون أرجى لقبول دعائهم، بأن هؤلاء التائبين طبقوا في حياتهم أوامرك واجتنبوا نواهيك، فاجعل لهم وقاية تحميهم من عذاب لهب النار الموقودة نار جهنم .

8.ربنا وادخلهم...إنك أنت العزيز الحكيم.

واصلوا دعاءهم، وكرروا التضرع بقولهم: ربنا، اقترن الوقاية من المهانة وعذاب الجحيم، بتحقيق الثواب وحسن المصير. وذلك بإدخالهم جنات الإقامة والخلود، التي سبق لجلالك أن وعدتهم بها على لسان رسلك، فإنك لا تخلف الميعاد. وألحقْ بهم الصالحين من آبائهم ومن أزواجهم، ومن ذرياتهم .فهمُ من هذه الآية أن الله ألهم ملائكته هذا الدعاء، وهو ذو الفضل العظيم، ليتم النعمة على الفوزين من المؤمنين فلا يحرمهم قرب أهليهم وذويهم: الآباء والأزواج والذرية، وإن كانوا لم يبلغوا من صالح العمل ما بلغه أصحاب المقامات العليا في الجنة .وبسطوا لقبول دعائهم الثناء على ربهم بأنه عزيز لا يثقله شيء ولا يستعصي عليه، وأنه حكيم يعامل المحسن بالإحسان .

9.وقهم السيئات...هو الفوز العظيم

قد ينكد النعمة تذكر الهفوات والزلات، وقد يهونها رتابة التكرار فيضعف الشعور بها، وقد يحصل في النفس أن الله وإن قبل المذنبين بعفوه وتوبته، فقد يحيي في نفوسهم اللوم على ما فرطوا. فدعا الملائكة أن يطهر نفوس المؤمنين التائبين من جميع تلكم المؤلمات، وهم بنعمة الله يتقلبون بفضل الله في الجنة. إن النفوس التي تطهرت من الإثم ومن تذكره، ومن الحزن لارتكابه، لا تبلغ ذلك الصفاء إلا برحمة من الله. وهذا النعيم بين امتلاء النفوس بأن الله راض عنهم تمام الرضا، وما تهيأ لهم في الجنة هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۞ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا

بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (11) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

بيان معاني الألفاظ:

مقت الله: التنكيل بهم وأصله شدة البغض.

أكبر: أشد خطرا.

مقتكم أنفسكم: إضماركم بأنفسكم شأن المبغض لها.

سبيل: وسيلة تمكننا من الخروج من جهنم.

دعي الله: ذكر وأعلن بما هو عليه من الكمال.

الآيات: دلائل وجوده وكماله.

تنزيل الرزق: تنزيل الماء من السحب.

الإنابة: التوبة.

فادعوا الله: اذكروه وناجوه متضرعين، واعبدوه.

كره الكافرون: أبغضوا، وعملوا على صدكم.

بيان المعنى الإجمالي:

ينادي الملائكة الذين كفروا من بعيد، وهم يصلون نار جهنم، فيقرّعونهم: إن تنكيل الله بكم في هذا اليوم، هو أشد من سوء معاملتكم لأنفسكم في الحياة الدنيا بإعراضكم عن الهدى وإيثاركم الشرك. كان الرسل يدعونكم إلى الإيمان فيُغضبكم لما يصلح نفوسكم حبب إليكم الكفر. فأنتم الذين أوقعتم أنفسكم في الهلاك. رفعوا ابتهالاتهم إلى الله معترفين بقدرته التي تصرفت فيهم حياة وموتا مرتين، وقالوا ربنا إننا نعترف بذنوبنا اعتراف النادم على ما فرطنا، فهل هناك وسيلة نخرج بها من الوضع الذي نحن فيه؟

كان جوابهم تعليلا للمصير الذي آلوا إليه. ذلكم العذاب المسلط عليكم هو جزاء موقفكم من رب العزة، فقد بلغ تعنتكم واستكباركم أنكم كنتم تمتعضون إذا ذكر الله بصفاته من الوحدانية والجلال، وتعلنون كفركم به. وإن ذكر أمثالكم شركهم بالله ونوهوا بالآلهة الباطلة استبشرتم وآمنتم بكلامهم. فالحكم الذي به دخلتم جهنم هو حكم الله العلي الذي لا ظلم في حكمه حتى ينقضه، الكبير الكامل كمالا مطلقا فلا نقص في حكمه حتى يرفعه، تفرد ربنا بالحكم الحق.

هو وحده الذي يلطف بكم فيحرك أذهانكم للتأمل في آياته المثبتة في كتاب الكون، وهو الذي ينزل من السماء الأمطار بقصد نفعكم، فيتبع هذه النعمة الأرزاق المتنوعة. إنه لا يتذكر في ذلك فيزداد إيمانا وينطلق لسانه بالشكر إلا التائب. إنه بعد أن قامت الآيات هادية لكم، فاذكروا الله، اعبدوه وتوجهوا إليه لقضاء حوائجكم حالة كونكم مخلصين له العبادة. وإن كان هذا المستوى يغيض الكافرين فيعملون على فتنتكم فاثبتوا.

بيان المعنى العام :

10 .إن الذين كفروا ينادون.....فتكفرون.

الصورة المقابلة لابتهالات المقربين من الملائكة أن يسبغ نعمه وفضله على المؤمنين التائبين، صورة علاقة الملائكة بالذين كفروا. فقوله تعالى: ينادون المنادون هم الملائكة، والمنادون هم الذين كفروا وأطبقت عليهم جهنم. يناديهم الملائكة من مكان بعيد: بكل تأكيد إن مقت الله لكم اليوم بالتنكيل بكم في جهنم، هو أعظم وأشد خطرا من موقفكم من دعوة الرسول في الدنيا. فإنكم بإعراضكم وكفركم حرمتم في الدنيا الرضا النفسي، والفهم الصحيح للكون، والرشد في السلوك، فأهلكتم أنفسكم بذلكم الانحراف. كما أهلكتم أنفسكم بتعريضها لمقت الله وغضبه، في الوقت الذي كنتم تدعون إلى اتباع الإيمان فاخترتم الكفر. واليوم عذاب الآخرة أشد.

11 . قالوا ربنا أمتنا ...إلى خروج من سبيل.

نداء الملائكة لهم، وإن كان تقريعا وتوبيخا، أطمعهم في تخفيف العذاب، فتوجهوا متذللين إلى الله بوصف الربوبية علّه يرحمهم. وقدموا بين سؤالهم اعترافهم بأن تقدير الله نفذ فيهم، وأنهم لا يستطيعون الخروج عما أحكمه، هم خضعوا له فأماتهم مرتين وأحياهم مرتين. وفي إثبات الموت مرتين توقف. ووجّه بأن العناصر التي كانت مبدأ لوجودهم المستخلصة من الأغذية التي تناولها الأبوان، وتكونت منها الخلية الأولى من بييضة الأنثى والحيوان المنوي للذكر كانت عناصر ميتة، فقدر الله أن يحييها واستمرت الحياة متطورة إلى الموت، فكانت الموتة الثانية توقف جميع الأجهزة التي تولدت من تلكم الخلية الأولى. ثم بعد الموت بعثوا للحياة من جديد يوم البعث .و إننا اليوم نعترف بأننا أذنبنا ذنوبا كثيرة من الشرك، وما يتبعه من فاسد السلوك والظلم. ظنوا أن اعترافهم وتوبتهم بعد دخولهم جهنم قد يفيدهم، فسألوا هل هناك سبيل للخروج من جهنم كيفما كان؟ غلبهم اليأس والقنوط، ولم يتبين لهم طريق للنجاة مما هم فيه فتوجهوا بهذا السؤال.

12. ذلك بأنه إذا دعي...العلي الكبير

اختار القرآن أن يعرف بأن الجواب كان تيئيسا لهم من الخروج، بتذكيرهم بسبب كونهم في النار، السبب الذي لم يرتفع. وأن توبتهم واعترافهم بذنوبهم يوم القيامة لا يعتبر اعترافا ولا توبة، لأنهم شاهدوا الحقيقة عيانا بصفة رافعة للتكاليف. فذكروا بما كان منهم في الدنيا، إن عذابكم سببه أنكم كنتم في الدنيا متصلبين في الشرك، رافضين رفضا باتا أن تسمعوا أي حديث عن جلال الله وكماله، فكلما ذكره المؤمنون وذكر في القرآن جددتم إعلان كفركم به. وإن سمعتم ما يقتضي الكفر به، وإنكار وحدانيته في الخلق والتصرف، استبشرتم وجددتم الإيمان بالشركاء. ذكروا بإصرارهم على الشرك ورفض التوحيد.

فالحكم الذي صدر وأنتم مقتضاه في جهنم، هو حكم الله الموصوف بأنه العلي علوا تنزه به عن الظلم، ولا يظلم ربك أحدا، ولا يغمط حقا، ولا يغيب عنه أي جانب من الحقيقة حتى ينقص حكمه فيكم . وهو الكبير فعظمته وجلاله وكماله تؤكد أن ما حكم به هو الحق، ولا حق غير ما حكم به فحكمه ماض فيكم أبدا.

13. هو الذي يريكم...وما يتذكر إلا من ينيب

الآيات الدالة على وحدانية الله، وتفرده بالتصرف منبثة في كتاب الكون، تتكرر مظاهرها مع الزمن ولا تنقطع. وإذا كانت هذه الآيات هي من صنع الله، فإن يقظة الناظر للتأمل فيها والاعتبار بها، وعدم الغفلة عنها هو من لطف الله الذي يحرك قوى الإحساس والعقل للملاحظة المتنوعة باليقين بقدرة الله وحكمته. ونصت الآية على مظهر من مظاهر آياته إنزال الماء من السحب. الماء الذي اقتضت حكمته ربط الإنسان به، فهو رزق في ذاته وهو سبب ما يترتب على إنزال الماء من الخيرات التي لا تحصى. ولكن ذلك لا يبعث العقل على التفكر، ومتابعة النعم إيجادا وفعلا في الحياة، إلا الذين تابوا من الشرك وأنابوا إلى ربهم، فصفت أرواحهم، وأصبح كل مشهد من مشاهد الفضل الإلهي يحركهم للتعرف عليه، فتنمو إيمانهم، وتنطلق بالشكر ألسنتهم.

14. فادعوا الله ...ولو كره الكافرون

قامت الآيات الدالة على وجوده ووحدانيته، وعظيم فضله، فداوموا على ذكره في ضمائركم وبألسنتكم كما يقتضيه الكمال والجلال، واستغيثوا به، وتوجهوا إليه بالدعاء لقضاء حوائجكم، على أكمل حالة من حالاتكم: حالة كونكم مخلصين له في العبادة، مطهرين أنفسكم من أن تتعلق بأحد غيره . اثبتوا على هذا المستوى الرفيع، وتحدوا بغض الكافرين وكراهيتهم لكم، وعملهم على فتنتكم.

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ
التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ
الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)
وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ (20)

بيان معاني الألفاظ:

الدرجات: يقصد بها مجده وعظمته.

يلقي الروح: يعطي الوحي.

الإنذار: إخبار محذر مما يسوء.

يوم التلاقي: يوم الحشر.

يوم الآزفة: يوم القيامة القريب وقوعه.

الحناجر: جمع حنجرة الحلقوم.

كاظمين: ممسكين على قلوبهم لكيلا تخرج.

الحميم: المحب المشفق.

خائنة الأعين: النظرة المشعرة بما يسوء.

بيان المعنى الإجمالي:

المحقوق بالعبادة والاستغاثة والدعاء، هو الذي علا مجده وسمت عظمته، مالك العرش أعظم مخلوق، هو الذي يعطي الوحي الناشئ عن إذنه، عطاء مترتبا عن اصطفائه من يشاء لهذا العطاء، ليتولى هذا الرسول الموحى إليه إنذار البشر يوم التلاقي الذي تلتقي فيه جميع الخلائق على أرض المحشر. اليوم الذي يكون فيه الكفرة بارزين لا يخفى شيء من ظواهرهم ولا من سرائرهم، منكشفين انكشافا كاملا. هذا اليوم الذي نادى فيه بصوت جهير يخشع له الجميع: لمن الملك اليوم؟ أين الملوك المستكبرون وما كانوا يتسلطون به على الخلق من مظاهر العظمة والقهر؟ ويعلو الجواب واضحا بينا: الملك اليوم تفرد به الله الواحد الأحد، القهار للجبابرة والمستكبرين، والكفرة المتمردين.

في هذا اليوم يأخذ كل موقوف جزاءه الموازن لكسبه في الدنيا، حسب عزيمته وإرادته. في هذا اليوم لا أثر للظلم ولا للاشتباه في الحق. إذ الحاكم المتصرف، الله الذي لا تخفى عليه خافية. ويتم حساب الخلق بسرعة فيرتبط كل عمل بجزائه.

أنذرهم يا محمد ما يترصدهم يوم القيامة القريب حلوله . في هذا اليوم تضطرب قلوب الكافرين اضطرابا يجعلهم يحسون أنها خرجت من صدورهم والتحمت بحلوقهم، يحاولون كتم أنفاسهم حفاظا على قلوبهم المختنقين بمكانها. إن الظالمين بالشرك وبمعصية الرسول، لا يجدون في ذلك اليوم صديقا يواسيهم، ولا شفيعا مقبول الشفاعة يخلصهم.

الله منفرد بكونه يقضي بين الموقوفين المسؤال يوم القيامة، قضاءه حق ليس فيه شبهة باطل. وأصنامكم التي تدعونها كما هي مدفوعة عن الشفاعة لا يتصور منها أن تقضي مع كونها جامدة عاجزة، إن قضاء الله مستند إلى علمه الدقيق بكل أقوالكم ما أسررتموه، وما أعلنتموه. وبكل فعالكم ما كان منها ظاهرا، وما أخفيتموه عن الأعين .والحكم المستند للعلم الكامل هو الحكم الذي لا ظلم فيه .

بيان المعنى العام

15←16 : رفيع الدرجات...لله الواحد القهار.

ادعوا الله .هو في أعلى وأرفع ما يتصور من المجد والعظمة؛ هذا في ذاته وهو كذلك في ملكه فهو رب العرش الذي هو أعظم مخلوق. فإقبالكم على عبادته ودعائه بإخلاص هو مقتضى هذا التصور. وطمعكم في نيل الخيرات منه طمع راجح الإجابة تبعا لذلك.

يلقي الروح من أمره. الروح للسر الذي تنبعث به الحياة، وقصد بالروح هنا: الوحي الذي به يحيا الناس الحياة المعنوية كما تحيا المادة بنفخ الروح فيها، فالوحي يصلح عقولهم، ويسمو بأرواحهم، فيتدرجون بفضله في معارج الكمال. وفي هذا التعبير(يلقي) إيماء إلى أن السمو إلى تلقي الوحي لا يحدث عن مجاهدة ورياضة، ولكنه فضل من الله يلقيه على من يشاء من عباده الذين اصطفاهم فأقدرهم على تلقيه، بأمره، فهو الذي يختار وهو الذي يأمر وينفذ . ويمكن أن نفهم الآية على أنه يوحي إلى الرسل بعض ما تعلقت إرادته باطلاعهم عليه فكلمة (من) تبعيضية. وفي النبوة صلاح للبشر وهداية للخلق، وذلك يتم بالدعوة إلى الخير، وبالتنبيه على الفساد والشر لاجتنابه. ومع عمل الأنبياء على تحبيب الاستقامة والخير للناس، فإنهم ينذرونهم ما يتعرضون له

من المقت والعذاب إن هم أعرضوا ولم يستجيبوا لداعي الله، ينذرونهم حضورهم يوم التلاقي ،اليوم الذي تلتقي فيه جميع الخلائق في أرض المحشر، ويقفون للحساب أمام ربهم.

هذا اليوم الذي يكون فيه الكافرون بارزين ظاهرين، تنكشف ظواهرهم، وبواطنهم. لا يغيب عن علم الله شيء مما فعلوه في الدنيا مما كانوا يستترون به ويخفونه. ينادي في هذا اليوم بصوت جهير، يخشع له كل من سمعه، ويتضاءل كل من كان معتزا بسلطانه من الملوك المتجبرين الطغاة، وما عشش في الأوهام من سلطان للآلهة على مر العصور. ينادي لمن الملك في هذا اليوم ؟ أين الذين لأعوا الملك فتجبروا على الناس، أين مظاهر استكبارهم وخيلائهم ؟ وكما كان السؤال بصوت جهير خشع له كل الحاضرين في أرض المحشر، كان الجواب الملك اليوم لله الواحد الأحد، لا شريك له ، القهار للمتعاظمين وللظالمين.

17. اليوم تجزى كل نفس...سريع الحساب

اليوم الذي تفرد الله فيه بالملك والتصرف في الخلائق، في هذا اليوم يتم جزاء كل نفس بما وجهت إليه عزمها وأنجزته مختارة. وهو يوم لا مجال فيه للظلم، فكل نفس تجزى حسبما قدمت، وهي معترفة به، فلا يبقى في نفس المحكوم عليه استشعار أنه غير مؤهل للحكم المسلط عليه. وقد يثور في نفس بعض السامعين، كيف يتم حساب الخلائق منذ ادم إلى فناء الكون، وكم يقتضي ذلك من الزمان ؟ فحققت الآية أن الله يقضي قضاءه العادل في وقت وجيز لأنه عالم بكل ما اكتسبه أي فرد من الخلائق، منكشف له تمام الانكشاف، وهو القادر على كل شيء، فكما مكن كل كائن من رزقه في كل لحظة من حياته، فلا يعجزه أن يحاسبهم جميعا، فيربط في لحظة بين العمل المقدم في الدنيا، وبين الجزاء المقدر، ويظهر الحكم بالسرعة المقدرة، والاعتراف من قبل المحكومين بعدالته.

18. وأنذرهم يوم الآزفة ...ولا شفيع يطاع.

الله لطيف بعباده رحيم بهم، بعث رسله ليصرف الناس عن الكفر إلى الإيمان، وأوكل لرسله أن ينذروا أقوامهم بتعريفهم سوء المصير إذا هم لم يقبلوا هداية الله. فأمر الله محمدا ع أن ينذر قومه ويحذرهم يوم القيامة. إن القيامة قريبة بالنظر إلى عمر الكون الذي لا يعلم مبدأه إلا الله، وعرفهم بأهوال هذا اليوم، فإن قلوب المعرضين عن الهداية تضطرب اضطرابا تكاد تخرج من مواقعها لتندس في الحناجر، يكادون يختنقون بها، يحاولون ردها إلى مواقعها فيعجزون،

يبلغ بهم مستوى الاضطراب والجزع حد الاختناق بما يصحبه من آلام، ينضاف إلى وضع قلوبهم ذلك أنهم يحاولون كبت أنفاسهم حتى لا تتقلت القلوب من الحناجر حناجرهم .فهم في أشد ما يكون من الكرب. إن الذين ظلموا الحقيقة فأشركوا بالله، وكذّبوا رسله، لا يجدون في ذلك اليوم صديقا مشفقا محبا يسعدهم بتوهين شيء مما حل بهم، ولا يجدون شفيعا له منزلة تقبل بها شفاعته، يتوسط لهم ليخرجهم مما هم فيه من العذاب .

19-20: يعلم خائنة الأعين...هو السميع البصير.

هو سبحانه يقضي بالحق، لأن علمه علم لا يفلت منه شيء، فهو يعلم ما تشير به النظرات الخائنة .فكثيرا ما يستهزئ ويسخر الإنسان بإشارة عينه، ويشير بها إلى تعريض غيره للأذى، والعيون كلام خفي، وكما يكون في إيقاع الشر بالغير ، فكذلك يكون لدعوة فاجرة واقتحام العفاف .

ويعلم سبحانه ما تخفيه الصدور من الحسد والبغض، وترتيب الأذى والكفر، مما يترتب عليه مختلف أنواع الشرور والكفر والآثام.

فعندما يقف المكلف للسؤال يكون ما صدر عنه من خفي الإشارات معلوما لله كعلمه بما تخفيه الصدور، لا يفلت من علمه سبحانه أمر ظاهر ولا خفي، فحكمه يمثل العدل المطلق تحقيقا لقوله: اليوم تجزى كل نفس ما كسبت.

والله يقضي بالحق... أبرزت الآية اسم الجلالة في فاتحتها تأكيدا لصدق مضمونها. الله المتصف بالكمال المطلق يحكم ويقضي قضاء ملتبسا بالحق، فقضاؤه هو الحق، والحق هو قضاؤه. ثم بينت الآية زيف آلهتهم، وأنها لا مدخل لها في القضاء الذي هو مرتبط بالعلم الذي يستوي فيه الظاهر والخفي الباطن. هي لعجزها وكونها جمادات لا مدخل لها في القضاء إذن فهي معزولة عن القضاء كعزلها عن الشفاعة. إن الله سميع ينفذ علمه لجميع المسموعات فما كان يجري في السر بين الكفرة، مما يتهامسون به معلوم عند الله علما واضحا. وكذلك ما يصدر عنهم من أفعال ما أعلنوه وما تخفّوا به يعلمه الله علما مساويا للظاهر .

• أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

أشد قوة: قوة معنوية بكثرة عددها ووفرة الوسائل .

الآثار: ما يبقى دالا على الوضع السابق الذاهب.

الأخذ : الاستئصال .

الذنوب : المعاصي.

واق : مدافع وحاجز.

قوي : لا يعجزه شيء ولا يعطل إرادته.

شديد العقاب : وصف يناسب شدة ما حل بهم.

بيان المعنى الاجمالي

وجه القرآن سؤالا لقريش على لسان رسول الله ﷺ ليتذكروا ويقروا؛ حاصله: ألم يسيروا في الأرض مسافرين إلى الشام وإلى اليمن، إن في مسالكهم تلك تقوم مشاهد تنبئ عن عاقبة الذين كانوا يعمرون تلك الأماكن في سابق الأزمان، كانوا يملكون القصور ويحتمون بالحصون، وتركوا من آثار العمران ما يشهد بالمستوى الحضاري الذي كانوا عليه. فأذنبوا بالشرك والمعاصي فأهلكهم الله بسبب ما ارتكبوه من آثام، ولم يجدوا واقيا يقيهم العذاب النازل. أهلكوا لأن كل أمة منهم جاءها رسولها مصحوبا بالآيات البينة الواضحة المقنعة، فكان موقفهم منه الكفر بما جاء به، فاستأصلهم الله وأبادهم. إن قوة الله لا يقوم أمامها شيء وعقابه هو أشد العقاب المكذبين.

بيان المعنى العام

21ـ أولم يسيروا في الأرض...من الله من واق.

ينوع القرآن طرق التأثير في المعرضين، فبعد أن أنذرهم عذاب الآخرة، وفصل شيئا من أهواله، ثنى بإنذارهم نكال الدنيا. فكانت طريقته في ذلك أن أثار سؤال تقرير لشيء يعلموه يقينا ولكنهم لم يستفيدوا منه عبرة تثنيهم عما هم عليه. ألم يسيروا في الأرض شمالا إلى الشام وجنوبا إلى اليمن، فتقوم أمامهم عاقبة الذين كانوا قبلهم. بكل تأكيد كان هؤلاء السابقون أشد منهم قوة، كانوا قوة بعددهم، وبما جمعه مجتمعهم من خيرات تغنيهم عن غيرهم. وبلغت حضارتهم أن قامت من معالمها آثار عظيمة في أرضهم من الحصون والقصور، تنبئ عن المستوى الرفيع الذي وصلوا إليه. فلما كفروا وكذبوا الرسل معرضين عن هداية الله، استأصلهم الله بسبب ما ارتكبوه من الذنوب والآثام. وما وجدوا من عذاب الله واقيا يقيهم نفاذه فيهم لا من الخارج ولا من قوتهم الذاتية.

21- ذلك بأنهم كانت...قوي شديد العقاب

ذلك الاستئصال كان بسبب أن الرسل كانت تتابع، كل أمة من تلكم الأمم جاءها رسولها مؤيدا بالآيات البينات، ظهورا وقوة إقناع، فأعرضوا وكذبوا وواصلوا عبادتهم لغير الله، فاستأصلهم الله رغم ما أوتوه من قوة وحضارة أعظم مما أوتيته قريش. إن الله هو القوي حقا فاستئصالهم وإهلاكهم ميسور والله لا يعجزه شيء، وصورة العقاب المسلط عليهم تنبئ عن شدة عقابه لمن تصلب في كفره وعناده، فلتحذر قريش أن يحل بهم مثل ما حل بالأمم التي يمرون على آثارها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

بيان معاني الألفاظ

سلطان مبين: حجة ظاهرة هي ما أوتيه من المعجزات.

ضلال: ضياع، لا يترتب عليه ما قصدوا.

وليدع ربه: لا اكترث بدعائه ربه.

أخاف أن يبدل: أظن أنه يبدل.

يظهر: ينشر الفساد فيتغلب على الحياة.

العائذ: الملتجئ إلى قوة تعصمه.

بيان المعنى الإجمالي:

كما أرسلنا رسلا إلى الأقوام الذين تمرون على ديارهم في رحلاتكم، وأنهم لما كذبت كل أمة رسولها سلطنا عليهم العذاب الماحق، فكذلك فعلنا بقوم فرعون. فقد أرسلنا موسى مؤيدا بآياتنا الواضحة والحجج القوية إلى فرعون وهامان وقارون، فقال لما عرضت عليهم الآيات: هذا سحر، وهو كاذب في دعوى النبوة. ولما أعجزهم الحق الصادر من عندنا، ركنوا إلى الكيد، فقالوا لنقتل ذكرانهم ونبقي على نسائهم للخدمة والمتعة، فتتكسر نفسيتهم ويخضعوا. وكانت عاقبة هذا التدبير

ضياعا لم يعنهم شيئا. يبدو أن مكرهم مات في المهد، ولذا تقدم فرعون عارضا الحل الصارم الذي ينفذ به شعبه في ظنه من موسى، فقال لهم: دعوني أقتل موسى ونستريح منه، ولا أبالي إذا كان يستنصر بربه فإنه لا ينصره، إنه حسب تحليلي للأمور أن أمره سيؤول إلى تبديل ديننا ونشر الفساد والخلاف والتمرد في الشعب. وقد يكون أن موسى بلغه تهديد فرعون بقتله، ورأى من قومه إشفاقا عليه لما يعلمون من طغيان فرعون فشد على قلوبهم بقوله: إني ملتجئ إلى ربي وربكم ليعصمني من شره، ومن شر كل متكبر لا يخضع للحق، ولا يؤمن بأن الله سيحاسبه على فساده، فكونوا مثلي معتمدين على نصره.

بيان المعنى العام :

23-24: ولقد أرسلنا موسى...فقالوا ساحر كذاب

بكل تأكيد تمت في الوجود قصة موسى ﷺ، المتضمنة أنى أنا الذي أرسلته مؤيدا بالمعجزات الواضحة البينة القوية التي لا يعقل ردها. أرسلناه إلى فرعون صاحب مصر، الحاكم فيها بأمره، وإلى هامان وقارون اللذين كان لهما التأثير الكبير في ضبط السياسة وفي المواقف من الأمور الحادثة الخطيرة. فلما شاهدوا تلك الآيات عجلوا برميه بالسحر لما انقلبت العصا حية، وباتهامه بالكذب لما قال لهم: (إني رسول رب العالمين)، وذكرت قصة فرعون وهامان وقارون إتماما للإيقاظ الذي تم بدعوتهم إلى التأمل في أحوال الأمم السابقة التي يمرون عليها في رحلتي الصيف والشتاء. وما كانوا يمرون على أرض مصر. فذكرهم بهذه القصة ليهددهم بنافذ قدرته التي أهلك بها فرعون وزبانيته، وليبشر المؤمنين بأن العاقبة لهم.

25.فلما جاءهم الحق...إلا في ضلال مبين.

تبع دعوة موسى فرعون وقومه، وإظهار الحجج المثبتة لنبوته، والحكمة في التشريع الذي أعلم به، وكل ذلك حق ثابت من عند الله الكامل تبعه أن دبروا مكيدة يردون بها هذا الحق الذي ما استطاعوا إسقاطه بالمنطق، كانت مكيدتهم تسليط القسوة على بني إسرائيل بقتل الذكور، واستحياء النساء للخدمة والتسري. كما فعلوا من قبل حين توقعوا أن يخرج منهم رجل يقيم أمرهم وينتصر على المتسلطين، إنه كيد لم يحقق ما أعدوه له، كيد قدر الله بقوته وعزته إبطاله، فلم يبلغوا ما أرادوا من الانهزام النفسي لبني إسرائيل. ذلك أن شأن الجبابرة المستكبرين، أنهم يرهبون من هم تحت تسلطهم ليقضوا على عزتهم النفسية، ليتحكموا في حياتهم كما يشاؤون .

26. وقال فرعون ذروني ...أن يظهر في الأرض الفساد.

مات الكيد الذي دبروه في المهد، ولذا اختصر فرعون بفكرة أخرى ظن أنه ينتقم بها من موسى ويستريح من دعوته، فقال فرعون: لا تعترضوا على فيما أعرضه، فإنه

الرأي الحاسم. اتركوني أنفذ في موسى القتل ونستريح منه، ولا أبالي إذا كان يستنصر بربه، فإني مسؤول عن سلامة شعبي، وبقاء موسى ينشر دعوته سيفضي إلى تبديل دينكم الذي عليكم أن تدافعوا عنه بكل ما أوتيتم، أو أن ينشر تعاليمه فتفسد فيكم وعلاقاتكم، ويفسد ما كان يقوم عليه مجتمع مصر من السلم والوئام والطاعة.

27.وقال موسى إني عذت بربي وربكم ...لا يؤمن بيوم الحساب .

صرح فرعون بأنه عزم على قتل موسى، ومن القريب جدا أن يكون موسى عليه السلام قد سمع بما يكيده له فرعون، وقد يكون فرعون قصد إلى تسريب عزمه إلى موسى ليخاف العاقبة ويقلع عن دعواه، وماذا يكون موقف رسول عرف ربه وأحبه، وعمر قلبه وفكره بما يبلغه مرضاته؟ ليس له إلا موقف واحد، هو أن يلتجئ إليه ليسعفه بعونه. ومع ذلك هو يريد أن يغرس هذا التعلق السامي في قلوب أتباعه المؤمنين، فخاطبهم بقوله: إني واثق من أن الله ربي وربكم ينصرني، ويحول بين فرعون وتنفيذ تهديده. إنه ملاذي الذي يحميني من كل متكبر؛ ختم الكبر على قلبه فحرمه رؤية الحق والإذعان له. بلغ من فساد دخيلته أنه لا يؤمن بأن الله سيحاسبه على ما قدم. هو منكر للبعث يرى أن لا حياة إلا هذه الأيام القليلة التي يعيشها الإنسان على ظهر الأرض. إنه رغم جراءته على الله بطغيانه وتكذيبه لرسوله، فأنا مطمئن إلى أن ربي وربكم سيحميني منه. وهو يشير إلى قومه ليسيروا على الاعتماد على ربهم سبحانه ليقيهم مكر الكفرة المتجبرين .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ

جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

بيان معاني الألفاظ :

مسرف : متجاوز الحد. أي مبالغ في أفحش الكذب.

في الأرض : أرض مصر .

ظاهرين : غالبين.

البأس : القوة المخضعة للمعاند.

سبيل الرشاد: طريق الصلاح الآمن .

الأحزاب : الأمم التي تحزبت ضد رسلها فدمرت.

الدأب : العادة.

التناد : يوم البعث الممتد من الحساب إلى الجزاء .

ولى مدبرا: رجع من حيث أتى لأنه اعترضه ما يكره .

العاصم : المانع والحافظ.

المسرف : المفرط في فعل لا خير فيه.

المرتاب: قوي الشك.

المجادلة : تكرير الاحتجاج..

بغير سلطان : بغير حجة صحيحة عنادا.

كبر مقتا :جدالهم مبغوض يترتب عليه سوء العقاب .

الطبع : الختم.

المتكبر : المبالغ في الكبر.

الجبار : المتسلط على الناس بالإكراه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه قصة الرجل المؤمن القبطي من آل فرعون وأقربائه، سمع كلام موسى فأعمل فيه فكره، واهتدى بعون من ربه على أنه صادق وكتم إيمانه. وعزم أن يدفع عن موسى الأذى، فقال: بلغني تهديدكم موسى بالقتل، فما فعل من موسى من شر حتى تعزموا على قتله ؟ غاية ما صدر منه أنه قال: ربي الذي يسعدني بعونه هو الله،

وأيد كلامه بحجج ظاهرة. ثم إنه لا يخلو حاله من أحد أمرين : إما أن يكون كاذبا فيفقد ثقة الناس بأقواله ولا يستطيع أن يؤثر، وإما أن يكون صادقا، ومعاكستكم له وتكذيبه تعرضكم لبعض البلايا التي حذركم منها. إن الله لا يهدي ولا يؤيد من تجرأ على أقبح الكذب وأشنعه الكذب على الله، فهو كذاب شديد الكذب.

يا قومي، إنه يهمني ما يهمكم، فكما تشاهدون، أنتم غالبون على أرض مصر ثبتت ملككم. وهذا الرجل يحذركم من عذاب الله، وتبديل قوتكم ضعفا وتمزقا. ولا يوجد من ينصرنا من عذاب الله إن جاءنا، فلنكون لأنفسنا وقاية من العذاب ولا نؤذيه. خشي فرعون أن يؤثر كلام الرجل المؤمن ولا يتم له ما قرره، وأعلنه من قتل موسى، فأكد أنه لا رأي صواب إلا الرأي الذي صدع به ،وإني ما أدلكم إلا على الطريق الآمن الجامع للخير

رغم ذلك واصل مؤمن آل فرعون موعظته لقومه. فقال لهم: إني أحبكم وأخاف أن يلحقكم أي أذى، أخاف عليكم أن يهلككم ما أهلك الأحزاب. كل حزب منهم عاند وكفر فسلط الله عليه ما استأصله به. على العادة التي جرت في قوم نوح وقوم عاد، وقوم ثمود، والأقوام الذين جاؤوا من بعدهم وساروا على نهجهم. وإهلاك المكذبين ليس ظلما والشرك ظلم عظيم، والله لا يريد ظلمكم بعقابكم ولا يريد أن يظهر الشرك في العالم. ثم خاطبهم بنفس التودد. فقال لهم: يا قومي إني أخاف عليكم ما تلاقونه يوم التنادي، يوم القيامة الذي تكثر فيه نداءات الاستغاثة وطلب الشفاعة، وطلب تخفيف العذاب، ونداء المؤمنين لمن في النار مذكرين لهم بما سلف من عتوهم، ونداء أهل النار معارفهم في الجنة ليرحموهم. إنه اليوم الذي تودون الهروب والعودة إلى الوراء بعدا من الأهوال، ولكن قضاء الله يكون نافذا ولا تجدون من عذاب الله حاميا يحميكم. ومن يعاند الحق فيحرم الألطاف الإلهية يطبق عليه الضلال، إذ من حرم تلك الألطاف لا يجد هاديا. لا تسيروا في الطريق الذي سلكه آباؤكم في موقفهم من يوسف، شكوا في صدقه رغم الآيات الواضحة التي تصدقه، ثم تجاوزوا ذلك إلى الحكم على كل رسول يأتي من بعده أنه رسول كاذب لم يبعثه الله. إنه على ذلك النحو من الضلال يضل الله ويحرم ألطافه على كل مبالغ في الشك كثير الارتياب. أولئك المسرفون الذين من ملامحهم أنهم يجادلون، ويجادلون بالأوهام، فكلما دمغتهم حجة عملوا بكل قواهم على إبطال جوانب الحق فيها. وجدلهم لا يستند لا إلى وحي ولا إلى منطق. إن هؤلاء المجادلين ممقوتون، يبغضهم الله على معنى أنه لا يرخي عليهم أستار رحمته، ويعاقبهم أشد العقاب. وكذلك يبغضهم المؤمنون للتنافي بين البحث عن الجدل بالباطل الذي هم عليه،

وبين عشق الحق والشوق إليه الذي عليه المؤمنون، وعلى هذا النحو من الحرمان من نور الهدى يتم طبع قلب كل متكبر يدفع الحق بالباطل، ويتجبر على الناس ويرضخهم لإرادته.

بيان المعنى العام :

28. وقال رجل مؤمن من آل فرعون...من هو مسرف كذاب.

هذه قصة الرجل الذي سميت به السورة " المؤمن " ومن خلال عرض القصة نتبين أن الرجل كان مؤمنا في باطنه، سمع ما عرضه موسى عليه السلام وأعمل فيه فكره فلطف الله به وأعانه على قبول الحق فآمن ،كان يكتم إيمانه عن قومه تقية وخوفا من بطشهم به، وليتمكن من الدفاع عن موسى فيسمع فرعون وقومه إلى وجهة نظره التي يمكن أن تدفع الأذى عن موسى . وأنه قبطي يحصن بما له من صلة وثيقة بآل فرعون لأنه واحد منهم .والظاهر أن مقالته المسجلة لم تكن في مجلس فرعون، ولكن قوة صدق مقالته، وكونه من آل فرعون يسرت انتشارها بين الناس .ماذا قال ؟ ابتدأ كلامه باستفهام إنكاري عن تفكيرهم في قتل موسى، إن القتل عقوبة تنهي حياة من كان شرا على الناس، وموسى لم يفعل شيئا فيه اعتداء على غيره، وغاية ما أخذتموه به، أنه يقول: ربي الذي يتولاني برعايته وحفظه الله، وأن ما جاءكم به لم يكن كلاما خاليا من السند المثبت له يلقي بالفتنة بين الناس، ولكنه كان مستندا إلى الأدلة البينة والحجج الواضحة المصدقة له، ولذا فإنه لا يوجد ما يبرر العزم على قتله. وبعد أن ألان لهم القول مما يدفع حنقهم ويسقط رأي فرعون بإظهار أنه موقف متشنج لا يليق بالعقلاء، ثنى بتشكيكهم في سلامة ما كانوا قبلوه من قتل موسى، فأضاف: إن أمر موسى لا يخلو من أحد احتمالين:

الاحتمال الأول أن يكون كاذبا في دعواه الرسالة، وهو يتحمل نتيجة كذبه فيخسر ثقة الناس فيه ولا يضركم كذبه شيئا.

الاحتمال الثاني: أن يكون صادقا فتكونون معرضين لأن يحل عليكم بعض ما توعدكم به. لأن العذاب الذي توعدهم به موسى لم يكن عذابا مستأصلا سريعا، وإنما يأتي واحدا بعد آخر. فيظهر صدقه من العذاب الأول. ومن حكمة مؤمن آل فرعون أنه قدم احتمال الكذب على احتمال الصدق ليأنسوا له ولا يرمونه بأنه مصدق لموسى يدافع عنه وأنه من شيعته .

وإنه حسبما يثبته موسى في دعوته: أن الله لا يؤيد ولا يلطف فيهدي من كان مبالغا في الكذب، فإن الكذب على الله هو من أكثر أنواع الكذب سوءا وفحشا. وكذاب عطف على مسرف مؤكد له. ويمكن أن تفهم خاتمة الآية على أنها من كلام الله

ناسب أن يذكر بها البشر تذكيرا عاما، وليثبت أن هذا الرجل المؤمن قد أيده الله وزكاه لأنه تقي صالح، وليس مسرفا كذابا.

29. يا قوم لكم الملك...وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

كان اللين ظاهرة في كلام هذا الرجل المؤمن فواصل حديثه على نفس النمق، فبعد أن قدم لهم رأيه بطريقة لا تثير عنادهم، ناداهم بالصلة الجامعة بينه وبينهم يا قومي: على أنه واحد منهم يحرص على ما يبقي النصر عندهم ويسعدهم، لننظر في وضعنا وما نحن عليه في بلدنا. يا قومي إنكم تتصرفون في أرض مصر تملكونها بدون منازع، أخضعتم كل المعوقات واستتب لكم الملك، إن هذا الرجل يحذركم زوال ملككم إذا أنتم قابلتم دعوة ربكم بالرفض، وإذا أراد الله أن ينزل بنا بأسه ويذيقنا عذابه، ويرفع ما خولنا، فهل نجد قوة تنصرنا وتحمينا من عذاب الله إن جاءنا. أليس من الحكمة أن نتقي العذاب قبل حلوله؟

أثر كلام المؤمن في قومه. خشي فرعون أن يتبعوه، ويعرضوا عن رأيه الذي قدمه في قتل موسى، فقاطع كلام الرجل الناصح، وقال مستكبرا، شأن الطغاة الذين لا يقبلون الرأي المخالف لرأيهم دون نظر في مستنداته: قال لهم: ليس هناك إلا رأي واحد، ولا طريق إلا الطريق الذي بينته لكم: قتل موسى. إني حريص على هدايتكم للرأي الصواب والطريق الأسلم عاقبة

30←32..وقال الذي آمن..فما له من هاد.

استرسل مؤمن آل فرعون في نصحه، غير آبه باعتراض فرعون وعنجهيته، فنادى قومه كما افتتح حديثه معهم: يا قومي إني غير مطمئن على أمنكم، إني خائف أن يصيبكم مثل ما أصاب المكذبين للرسل. فقد كان لكل حزب تمرد وكذب الرسل، يومٌ تم فيه إهلاكه بضربة واحدة ومحوه من الوجود. أذكركم بالعادة والطريقة التي تم بها استئصال الأحزاب حزب قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين تتابعوا من بعدهم وساروا على طريقتهم. اعلموا أن الله لا يحب الظلم ولا يرضى عنه وأقبح أنواع الظلم الشرك بالله ثم الاعتداء على رسله. والله الكامل لا يريد أن يظلم أحدا من عبيده. فإصراركم على تكذيب موسى يتبعه عدله سبحانه فيجزيكم عن كفركم وعما تعدونه لإذاية رسوله.

كرر نداءهم مقربا لهم من نفسه ممحضا نصحه لهم، مظهرا شدة اهتمامه بقومه فهو يخاف عليهم ما يخافه على نفسه، فيذكرهم بما يترصدهم يوم التنادي، اليوم الذي تتنوع فيه النداءات فمن مستغيث ينادي ولا مجيب، أو مستشفع ومتضرع

انب إلى ربه، ومن السلام والتهاني، ومن نداء أصحاب الأعراف، ومن نداء أصحاب الجنة من كانوا يعرفونهم في الدنيا من الكفرة وهم في جهنم. في سوق يوم القيامة تختلط النداءات وتتداخل الأدعية . ثم أبدل من يوم التناد ما يزيدهم وضوحا بالتصريح بما يلعونه في هذا اليوم، هو يوم تهمّون بالرجوع فارين، من حيث ما أتيتم لما يستقبلكم من العذاب والأهوال. ولكن لا تجدون حافظا يحفظكم وينقذكم من عذاب الله. قمت بما يفرضه علي واجب النصح لكم، ولكن من يتصلب في الكفر، ويعاند ولا ينظر في آيات ربه، لا يمنحه الله ألطافه. ومن حرم الألطاف الإلهية لا تجد له هاديا يهديه، بل يستمر سادرا في ضلاله الذي اختاره لنفسه.

34. ولقد جاءكم يوسف من قبل ...مرتاب.

واصل مؤمن آل فرعون نصحه فذكرهم بقوله: إنه بكل تأكيد قد جاءكم يوسف من قبل، حل بين أظهر آبائكم هاديا داعيا لعبادة الله مؤيدا بالحجج البينة والمعجزات الواضحة، شأن كل رسول يبعثه الله إلى الناس، يتأيد من صدق وسمو مضمون رسالته، ويتأيد بمعجزات تكون بمثابة الشهادة بصدقه من الله المتفرد بخرق العادة. واختلف المفسرون اختلافا بينا في تعيين يوسف المذكّر به، هل هو يوسف المفصل محنته في سورة يوسف أو هو يوسف آخر. والقرآن لم يقص علينا من أمر يوسف أنه رسول ولا ما عانى من قومه. ولم يذكر أمر الشك في رسالته إلا إجمالا في تذكير مؤمن فرعون هذا.

والذي ترجح عندي أن مؤمن بني إسرائيل قد زعزع إنكار قومه، وأنهم تحولوا من الرفض الكامل لموسى الله رفضا يبرر قتله، حولهم إلى الشك في رسالته، فأراد بذكره لقصة يوسف تنبيههم إلى ما وقع فيه آباؤهم من الشك الذي أفضى بهم إلى فساد التفكير، ورفض كل رسالة تأتي من عند الله في المستقبل. ذكر لهم أن يوسف الله قد جاء بشرع وتأيد بالآيات البينات، وأنه لا يجب أن يكون هو يوسف بن يعقوب. والراجح أنه سميه، واسمه يدل على أنه من بني إسرائيل. وأنبياء بني إسرائيل كثر. والله يقول: {ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك}[1] وما كان ليذكرهم مؤمن آل فرعون برسول مجهول. ولكن لا بد أن تكون أخباره ما تزال مذكورة في قومه. فأراد أن يذكرهم بأن آباءهم قد وقفوا من يوسف الرسول موقف الشك. وأن تعصبهم هو الذي جعلهم لا يؤمنون به إلى أن توفاه الله. وأن شكهم رغم ما عرضه عليهم من الآيات البينة تواصل بعد موته فنفوا أن يبعث

---

[1] سورة النساء آية 164

الله رسولا بعده. وهو حكم اعتباطي يدل على انحراف تفكيرهم وفساد أحكامهم. إذ كيف يُقبلُ من عاقل أن يحكم بنفي إرسال الرسل في المستقبل إذا هو شك في الرسول الحاضر. وأن السبب في ضلالهم عن الحق هو إسرافهم في مسايرة الاحتمالات الباطلة، وتمكن الشك من عقولهم، فكان شكهم شكا مدمرا، لأن الشك الفاتح لأبواب اليقين هو الشك الذي يتجاوز به الشاك الموضوع المشكوك فيه إلى ما يحيط بالموضوع من المعطيات ليصل إلى اليقين النافي لكل التساؤلات، احذروا أن تسيروا على الطريقة التي سلكها اباؤكم. فإن الله قد أضلهم على النحو الذي يحرم كل مسرف في شكه، الرافض للتأمل فيما يُبلِّغه اليقين، يحرمه من العون والألطاف، فينطلق في عماه لا يبصر الحق ولا ينتفع به.

35: الذين يجادلون...قلب متكبر جبار.

واصلت الاية التشنيع على المسرفين فأجرت عليهم من الصفات الكاشفة، أنهم يجادلون، أي إنهم كلما قدمت لهم حجة دامغة لباطلهم عملوا على إبطالها سفسطة ومكابرة من قبول الحق. وإن مجادلتهم مهتزة لا يؤيدها وحي ولا عقل. إن الجدل بالباطل لإزهاق الحق ممقوت عند الله مقتا كبيرا، مبغوض ومعاقب عليه أشد العقاب. وكذلك هو ممقوت عند المؤمنين الخيرة الذين أدعوكم لتكونوا منهم، فالجدل بالباطل لا يجامع الإيمان. إنه على هذا النحو يجعل قلوب المتكبرين المتعالين على الناس وعلى الحق، الذين يدفعهم كبرهم إلى التجبر على الناس، وكسر إرادتهم إذلالا لهم وظلما، يجعل قلوبهم مغلقة بغلاف مانع من نفاذ أي شعاع من النور، كأنها غلفت بذلكم الغلاف الصفيق ثم ختم عليها ختما لا فتح بعده.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (36) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (37) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (38) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)

بيان معاني الألفاظ.

صرحا: بناء مرتفعا عاليا.

الأسباب : جمع سبب، وهو ما يوصل إلى المقصود.

الاطلاع: المشاهدة من علو .

لأظنه : لتيقن.

تباب : الخسران.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن المكيدة التي حاول بها فرعون أن يلهي الناس عن تعاليم موسى وعن نصائح مؤمن آل فرعون، فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا يرتفع حتى يبلغ أعلى ما يمكن أن يبلغه الارتفاع، وذلك حتى يتمكن من ولوج أبواب السماوات ليشرف على إله موسى إن كان له وجود، مع يقينه أن موسى من الكاذبين .زين له استكباره وهواه هذه المكيدة ليتلهى بها الشعب، وتصبح حديث أسمارهم، وينصرفون عن تعاليم موسى ونصائح مؤمن آل فرعون. ولكن مكيدته لم تحقق له ما أراد، وكانت عاقبته الهلاك والدمار .

واصل مؤمن آل فرعون نصائحه لقومه داعيا أن يتبعوا ما يدعوهم إليه، كل همه أن يهديهم إلى الطريق الصالح الأمن. قال لهم: إن هذه الحياة الدنيا المغرية لا تعدو أن تكون نعمها وقتية زائلة. وإن الحياة الباقية التي لا يلحقها زوال هي الدار الآخرة. هيئوا أنفسكم لها، واعلموا أن من عمل منكم سيئة يكون جزاؤها مع كفره على مقدار ما ترتب عنها من فساد .وأما من انشرح قلبه للإيمان وعمل صالحا، كيفما كان وفي أي زمان، ذكرا كان أو أنثى، فإنه سيدخل الجنة ليجد فيها جزاء لا يحد له مقدار ولا يلحقه زوال.

بيان المعنى العام:

36→37 وقال فرعون يا هامان...وما مكيد فرعون إلا في تباب.

إيراد هذا المقطع متوسطا بين نصائح مؤمن آل فرعون، يستروح منه أنه قد هز بصدق لهجته فرعون، وأدخل الاضطراب على تدبيره، فعمد إلى تلهية الناس عن دعوة موسى، وعن حجج المؤمن الذي نفذ قوله الصادق والواضح إلى العقول، خاصة وأنه قدم نفسه على أنه واحد منهم، يكرر أنه ما حمله على عرض ما عرضه إلا حبه لهم وخشيته أن يصيبهم سوء . ففكر فرعون في مكيدة كما تم التصريح بذلك في الآية 37 "وما كيد فرعون إلا في تباب" فما هي هذه المكيدة ؟

قد يكون فرعون أراد أن يظهر لشعبه أنه واثق من أن دعوى موسى لا أساس لها من الصحة، وأنه سيصعد إلى السماء ليأتيهم بالحجة الدامغة: أنه بحث في السماء، والإله الذي يدعو إليه موسى لا وجود له. والقرآن لم يذكر شيئا عن انجاز هذا الصرح الذاهب في

السماء علوا، واقتصر على أن فرعون أمر وزيره هامان ببنائه. طلب منه أن يبني له بناء عاليا كأبعد ما يكون الارتفاع، وقال موجها لأمره هذا: إنه يريد أن يفتح بذلك الطرق التي تبلغه ما يريد، ثم أوضح مراده ابغي ولوج أبواب السماوات، فأشرف على رب موسى الذي يدعونا للإيمان به، ثم أضاف: إني أظنه كاذبا فيما يدعي، فأنا واثق مقدما بأن الإله الذي يدعو إليه موسى غير موجود.

وعلى هذا النحو من سطحية تفكيره وعدم عمقه، وتزيينه للباطل للتضليل، زين لفرعون عمله السيء فخاله حسنا، ووقف حاجزا مانعا قومه من سبيل الهدى. لبر تدبيره هذا لكيد لموسى وليشكك رعيته في صدقه. وال كيده هذا إلى هلاك نفسه؛ فإنه حسب ظني لم يتحقق له ما أراده من بناء الصرح ومن تلهية الناس به إذ لم يرد له ذكر، ولا يوجد له أثر بين المباني العظيمة التي صمدت على تقلبات الزمان. فأمره لهامان وإعلانه به غايته أن يتحدث به الناس تلهيه لهم عن دعوة موسى، وعن نصائح مؤمن ال فرعون. فتكون لفرعون مهلة يدبر فيها ما يقطع على موسى السبل التي يحاول ان يؤثر بها في المجتمع .

38–و قال الذي امن يا قوم...بغير حساب.

واصل مؤمن ال فرعون وعظ قومه مقربا لهم إلى نفسه دائما: يا قومي - سيروا على الطريقة التي أبينها لكم، واتبعوا ما انصحكم به، فإن كل همي ان أفتح بصائركم على طريق الصلاح والنجاح والأمن.

39–يا قوم إنما هذا الحياة...فيها بغير حسابه

ابتدأ عرضه بكشف حقيقة الحياتين الدنيا والأخرة، فالحياة الدنيا تضلل الناظر فيها بما يصحبها من شهوات فتجعله يظن أن السعادة لا تعدوها. يقول لهم :تأملوا فإن كل ما تظنون أنكم تنعمون به في الحياة الدنيا هو زائل عن قرب، خذ لذلك مثلا قريبا: إن ما تستلذه من الطعام لا يتجاوز الإحساس به اللحظة التي يمر فيها من فمك الى بطنك ثم ينقطع الإحساس به، وهكذا كل أمورها. فالإخلاد إليها هو أصل الشر ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله ،و أما الحياة الاخرة فهي النعيم المقيم الذي لا يزول.

ومن ناحية أخرى فإن جزاء العمل السيء مساو له، عقوبته على مقدار ما ترتب عنه من فساد، وأما الأعمال الصالحات التي صدرت عن قلب مؤمن موقن بوحدانية الله الكامل الكمال المطلق، الحقيق بالعبادة، الأعمال التي يرضى عنها رب العباد، وتنفع المجتمع والأفراد، وتتطهر من هوى النفس ودواعي الشيطان والفساد، إن

جزاءها يتجاوز كل مقدار، إذ هو جنة الخلد. يمكنهم ربهم من كل ما يخطر ببالهم من دون حساب، لا يخشون أن ينتهي ما أعد لهم من أنواع الكرامة. كل إنسان ذكر أو أنثى في أي مكان وفي أي زمان، آمن واتقى ينال هذا الجزاء فضلا من الله ووعدا صادقا لا يتخلف.

• وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا جرم : لامحالة، أولا بد .

ليس له دعوة : لا تنفع دعوته.

المسرفون : المفرطون في الكفر والمعاصي.

حاق : نزل وأحاط.

بيان المعنى الإجمالي:

يا قومي إن أمركم لعجيب. إني أواصل دعاءكم لما ينجيكم من الضلال وخسران العاقبة، وفي المقابل تدعونني إلى ما يوجب النار والعذاب. تلحون علي لأكفر بالله، وأجعل له شركاء ليس لهم أي تأثير حتى يحصل علمي بهم. فهم والعدم سواء؛ في الوقت الذي أحرضكم على الإيمان بالله العزيز الذي لا معطل لما يريده، الغفار لذنوب عباده التائبين. لامحالة إن ما تدعونني للإيمان به لا يملك تأثيرا لا في الدنيا ولا في الآخرة .وأننا جميعا سينتهي الحكم فينا جميعا لله .و أن المفرطين بالكفر وفعل الشر سيكونون خالدين في النار لا يخرجون منها.

كونوا على يقين أنه سيأتي يوم تتذكّرون فيه ما كنت حذرتكم منه. وإن أنتم أعددتم مؤامرة تنتقمون بها مني فإني لا أخشاكم، إني مفوض كل أمري إلى ربي الذي يتولاني بعنايته وحفظه، فأنا مطمئن لا خائف. إن الله لا يخفى عليه شيء من أمر عباده.

حفظه الله من مؤامراتهم ومن أنواع السوء التي عزموا أن يلحقوها به. ونزل عذاب الله محيطا بفرعون وقومه. أوكل الله بهم ملائكته بعد غرقهم ليعرضوهم صباح مساء على النار. ويوم القيامة يصدر عليهم الحكم البات: أدخلوا فرعون وقومه جهنم ليذوقوا فيها أشد أنواع العذاب.

بيان المعنى العام

41—42: ويا قومي ما لي أدعوكم ...وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار.

الذي يظهر من نسق الكلام، وإن كان مطويا أن قومه راودوه ليقلع عن دعوته، وأن يعود إلى تقديس معبوداتهم، وما هم عليه. فيقول لهم: عجب لكم تقابلون نصحي لكم وعملي على نجاتكم من سخط الله وعقابه، ومن خسران آخرتكم، بدعوتي إلى الكفر بالله لأكون من أصحاب النار. عجب لكم كيف تدعونني أن أجعل لله الواحد شركاء في الألوهية، والحال أنها ليس لها شيء من خصائص الألوهية حتى أعلمها وأرتب على ذلك تقديسها. فتسميتها آلهة أوهام ليست لها أدنى نصيب من الحق يعلم فينظر فيه. عجب لكم تقابلون دعوتي إلى فضل الله العزيز الذي يُعزُّ من يؤمن به بإصلاح عقيدته وتصوره للكون وفوزه في العاقبة، وهو الذي يغفر ذنوب عباده التائبين، تقابلون ذلك بدعوتي إلى الكفر.

43: لا جرم أنما تدعونني ...هم أصحاب النار.

لا محالة أن ما تدعونني إليه من اعتقاد ألوهية أصنامكم وعبادتها، وطلب التأييد منها وتحقيق الرغبات في الدنيا وفي الآخرة، ما تدعونني إليه أوهام منكم، فما تدعونهم آلهة ما دعوكم يوما لتؤمنوا بهم، وشأن الإله أن يدعو العباد إلى طاعته. فهي ليست آلهة وليست لها قدرة على الاستجابة للدعاء، ولا نفع لمن يتعلق بها. ثم واصل مؤكدا عجز أصنامهم وعدم نفعها لمن يتعلق بها، فركز أن الحق الذي يجيب ويسمع الدعاء، ويسعف الذين يدعونه بطلباتهم هو الله إله موسى الذي إليه الملجأ في الدنيا وفي الآخرة. وحكم الله في الآخرة العادل أنه خص المسرفين بكفرهم، وغلبة شرهم من المجرمين الآثمين، أنهم سيكون بينهم وبين النار رابطة لا تنفك، تكون دار خلودهم فيها، لا يجدون عنها حولا.

44. فستذكرون ما أقول لكم..إن الله بصير بالعباد.

حاول المؤمن بكل ما يملك من بيان وحجج أن يصرف قومه عن اتباع فرعون، ويحولهم إلى الإيمان بموسى عليه السلام، ولكنه لم يبدُ له بارقة أمل فيهم لاتباع نصائحه والتأمل في براهينه، فأنذرهم أنه لا بد أن يأتي يوم يتحقق فيه ما أنذرهم به، وقال لهم :عندها ستتذكرون أقوالي .إني معتمد على ربي أفوض أمري إليه، فهو الذي يحميني من شركم، إن ربي عليم بعباده لا يخفى عليه من أمرهم شيء، على معنى أن رعايته وتأييده معي في كل وقت. فأنا مطمئن غير خائف.

45. فوقاه الله..وحاق بآل فرعون سوء العذاب

فعلا دبر قومه وخططوا ما يزنون به هذا المؤمن الناصح .وعزموا على تنفيذ ما دبروا، ولكن عين الله التي ترعاه كانت له درعا واقيا من مختلف ما عزموا عليه من الأذاية. وإكمالا للنعمة جمع إلى إنجائه من مكرهم، إنزال العذاب المحيط الذي لا مخرج منه على قوم فرعون. انتهى أمرهم إلى أن غرقوا وابتلعتهم أمواج البحر في الوقت الذي كانوا ينظرون إلى موسى ومن تبعه ناجين يسيرون على الشاطئ آمنين. فاجتمع عليهم عذاب الغرق، والغيظ المخزي. عبّر القرآن عن ذلك بقوله {وحاق بآل فرعون سوء العذاب} .

46. النار يعرضون عليها....أشد العذاب

سوء العذاب المذكور في خاتمة الآية السابقة، بينه في هذه الآية :النار المحرقة يعرضون عليها صباحا وعشيا، فتفيد الآية على هذا الوجه أنه بمجرد غرقهم وكل بهم ملائكة العذاب يمرون بهم على جهنم في الصباح والعشي تلفحهم بنارها وما بين ذلك مطوي، يتناسب مع هذا العرض .ويمكن أن يفهم ذلك على أنه مواصلة للعذاب من الصباح إلى العشي. فالمقصود أن الغرقى مع فرعون تعذب أرواحهم بمجرد غرقهم بإيقافهم على النار. هذا العذاب يتواصل من يوم غرقهم إلى يوم القيامة .

ويوم القيامة يصدر الحكم الذي لا يقبل النقض: أدخلوا فرعون وقومه جهنم ليذوقوا أشد أنواع العذاب. وعذاب جهنم دركات . أعاذنا الله منها بفضله ورحمته.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ

التحاج: الاحتجاج من جانبين.

الضعفاء : التابعون من الدهماء .

الذين استكبروا : من يظنون أنفسهم أعلى منهم وسادة لهم.

التبع: اسم لمن يتبع غيره واحدا كان أو متعددا.

مغنون: دافعون ورادُّون.

نصيبا: قسط.

خزنة جهنم الملائكة الموكلون بما تحويه جهنم.

البينات: المفاهيم المعقولة المقبولة، والحجج الواضحة.

ضلال : ضياع، غير متقبل.

الأشهاد : الحفظة من الملائكة.

اللعنة: الإبعاد والطرد من رحمة الله.

سوء الدار :جهنم.

بيان المعنى الإجمالي

تحتج كل مجموعة من المجموعات التي في جهنم على غيرها. يقول الذين كانوا تابعين في الدنيا للسادة والكبراء، ولا رأي لهم في أمور الدولة، يقولون لسادتهم هل تستطيعون أن تخففوا عنا نصيبا من العذاب الشديد الذي نعانيه؟ ويكون جواب السادة استوينا في العذاب نقاسي ما تقاسون. قد صدر الحكم العادل من الله وتم الحكم ونفذ. حل اليأس في قلوب الجميع تابعين ومتبوعين.

وإذ حل اليأس من قدرة بعضهم أن ينفع البعض، استغاثوا بخزنة جهنم، الملائكة الموكلين بحفظها وتنفيذ ما قدره الله وحكم به فيها وفي من يحل بها. طلبوا منهم أن يدعوا الله ليرفع يوما من عذاب جهنم، كان جواب الملائكة في صورة سؤال توبيخي وتنديم وتحسير، هل جاءتكم رسلكم بالعقيدة الواضحة والشريعة البينة والحجج الكاشفة ينذرونكم عذاب جهنم ؟ أجابوا: بلى! قد جاءونا بكل ما قلتم .

فقالت لهم خزنة جهنم: إنه لا عذر لكم، فتولوا بأنفسكم دعاء ربكم، ودعاء الكافرين لا يستجاب له، ضائع لا أثر له.

إنه بكل تأكيد ننصر بعظمتنا رسلنا والمؤمنين فنجعلهم الغالبين. يشملهم تأييدنا في الحياة الدنيا فنهزم أعداءهم ونبددهم، وننصرهم يوم القيامة فيفوزون بالكرامة في الجنة، في ذلك اليوم الذي يتقدم فيه الأشهاد من الرسل والحفظة من الملائكة والمؤمنين من هذه الأمة. إنه في ذلكم اليوم لا ينفع الظالمون ما يقدمونه من المعاذير، التي لا تغني عنهم شيئا. فقد استحقوا الطرد من رحمة الله، واختصوا بجهنم أسوأ دار للإقامة.

بيان المعنى العام:

47–48- وإذ يتحاجون في النار ...قد حكم بين العباد.

واذكر هذه الحقيقة التي ستظهر يوم القيامة بين نزلاء النار، وهم ركام في جهنم. بعضهم كانوا ضعفاء في الحياة الدنيا لا يؤثرون في القرارات، إذ كانوا تابعين لسادتهم وكبرائهم يأتمرون بأوامرهم وينفذون ما يرسمونه لهم. لازمهم هذا التقليد والطاعة لهم في النار، فتوجهوا لمن كانوا سادتهم في الدنيا قائلين: إننا كنا تابعين لكم في الدنيا، لاعتقادنا أنكم أهل التدبير في الأزمات، فهل تستطيعون اليوم أن تكفونا قسطا من النار. أي هل تستطيعون أن تخففوا عنا نصيبا من العذاب الشديد الذي نعانيه ؟ فمحمل الآية هنا على أنهم يرجون أن يجدوا عند رؤسائهم ما كانوا يقومون به في الدنيا. ويمكن أن تحمل الآية على معنى تحميلهم المسؤولية وتوبيخهم على غشهم لهم في الدنيا، فهم لا يرجون منهم تخفيفا للعذاب لتبيُّن عجزهم.

كان جواب المستكبرين في الدنيا: إننا جميعا نلقى جزاءنا من العذاب الذي لا مخرج لنا منه. تبخرت أوهامنا فنحن جميعا نواجه مصيرنا: هذا المصير المستند إلى الحكم العادل الذي لا ظلم فيه. إن الله حكم بين العباد جميعا، نال كل فرد جزاءه، مؤمنا كان أو كافرا وصدر عليه الحكم ونفذ. فهو اليأس من كل تحول عما هم فيه.

49- قال الذين استكبروا...قد حكم بين العباد.

بعد خيبة أمل المستضعفين في قدرة رؤسائهم على نفعهم، واستوى التابعون والمتبوعون في اليأس من تخفيف العذاب. بدا لهم أن يتوجهوا جميعا لخزنة جهنم: الملائكة الموكلين بإجراء ما قدره الله فيها من وقودها وعذاب من يدخلها حسب الحكم الصادر، ظنا منهم لقربهم من الله هم أرجى أن ينتفعوا بشفاعتهم،

فسألوهم أن يدعوا ربهم، طالبين من فضله أن يخفف عنهم عذاب يوم يستريحوا فيه من عذاب جهنم، تعود إليهم أنفاسهم فيه.

49-50، وقال الذين في النار لخزنة جهنم ...إلا في ضلال

سمع خزنة جهنم توسلاتهم فأجابوهم :قبل كل شيء، هل أتتكم رسل من الله قاموا أحسن قيام ببيان العقيدة، والأحكام التي يتبعها الفوز والنعيم لمن طبقها أحسن تطبيق، والعذاب والنكال لمن استهان بها ومضى في حياته مطيعا لشهواته ونزغات الشياطين. يهدف خزنة جهنم من هذا الجواب توبيخهم، وتنديمهم على ما أضاعوه.

لم يكن لهم بد من الاعتراف بالحقيقة، بلى قد جاءتنا رسلنا وبينوا لنا الحق ولوضحوه لنا. فأجابهم خزنة جهنم: إنكم والحالة هذه لم تفاجأوا بالعذاب. فأنتم قد علمتم مآلكم في الأخرة، ولذا فإنا لا نجد لكم عذرا يخفف عنكم ما أنتم فيه. فتوجهوا بأنفسكم إلى الله طلبا للتخفيف وادعوه. ودعاؤكم لا ينفعكم فإن دعاء الكافرين غير متقبل. ماله الضياع كأن لم يكن.

51-52، إنا لننصر رسلنا...ولهم سوء الدار.

بكل تأكيد نتصرف بعظمتنا، فننصر رسلنا والذين امنوا بهم .هو النصر بظهور ما يدعون إليه من الحق على ما يتمسك به المعاندون من الباطل، فتسقط حججهم وشبهاتهم، ونفوزهم يوم القيامة بالجنة ونعيمها، في ذلك اليوم الذي يقوم الأشهاد لأداء شهاداتهم، من النبيين والملائكة الموكلين بالتسجيل، والمؤمنين من هذه الأمة. على أن الرسل بلغوا ما كلفوا بتبليغه من الهدى. وبالمقابل فقد توعدت الآية المكذبين الرافضين بالهزيمة وسقوط شبهاتهم والحلال أمرهم في الدنيا. وبالخزي يوم القيامة. يختم الله على أفواههم فلا يستطيعون الاعتذار عما ارتكبوه من الموبقات، وما يعتذرون به لا ينفعهم، إذ تظهر الحقيقة عارية لا لبس فيها، ويطردهم الله يوم القيامة من رحمته لا ينالهم ولو القليل منها، ويختصون بالدار السيئة التي لا أسوأ مقام منها، وهي جهنم دار خلدهم .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْبَصِيرُ ۝ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

الصدور: ضمائرهم وعقولهم.

الكبر: انفعال نفسي يجعل صاحبه معتقدا أنه أرفع من حقيقته.

استعذ بالله: اطلب من الله أن يحصنك من مكر كبرهم.

أكبر: أعظم.

بيان المعنى الإجمالي:

من صور نصر الله لرسله ما تفضل به على موسى، فبعد أن كان فرعون يطارده جمع الله له الهدى في العقيدة والسلوك والتشريع، وكون له من قومه أمة تحمل التشريع مؤتمنة على التوراة المنزلة الجامعة بين الهداية للصراط المستقيم وبين تحريك العقول للتدبر فيها واستنباط ما يصلح بها شأن الناس. إني منجز لك وعدي يا محمد فاصبر ولا تستبطئ ما وعدتك به. فإن وعد الله لا يخلف، وواصل التسبيح والتنزيه لله والاستغفار من العشي إلى الصباح، أي في جميع الأوقات. لا تأبه بالمشركين الذين محضوا كل تفكيرهم للجدل، وطمس الحق والمراوغة والسفسطة. هم يجادلون ليسقطوا الحق ويطمسوا الأدلة المؤيدة لما جئت به، يحاولون ذلك وليس معهم حجة غالبة لا من العقل ولا من الوحي، ولكن الكبر والتعاظم استولى على مداركهم فهم يودون أن لو كانت لهم النبوة، وثقة الناس بهم ليترأسوا عليهم، وكل ما زينه لهم كبرهم لا يبلغون تحقيقه، إنهم يمكرون بك ليؤذوك، فالتجئ إلى الله ليحميك من مكرهم، فإنه سبحانه السميع لكل ما يصدر منهم البصير بحقائق الأمور.

أنكروا البعث واستبعدوه، وأمامهم كتاب الكون شاهد على القدرة الإلهية التي لا يستعصي عليها شيء. فإن خلق السماوات والأرض بعظمتها ودقة قوانين الخلق فيها، لا يقاس بإعادة خلق الإنس الضئيل التافه. ولكن الذين يمرون على مشاهد الكون دون تأمل فيها يحكم الجهل قبضته على عقولهم.

بيان المعنى العام:

53-54 ولقد آتينا موسى الهدى...وذكرى لأولي الألباب.

تذكيرا لنصر الله لرسله الوارد في الآية 51 سحبت هذه الآية مآل إليه أمر موسى الذي كان مطاردا من فرعون. كان عاقبة أمره أن مكنه الله من تبين طريق الهدى في العقيدة وفي منزلة الإنسان في الكون، وآتاه الله التوراة التي أورثها بني إسرائيل ليحفظوا التشريع الذي جاءت به، ويصيروا على القيم الخلقية المؤكدة للبناء

الاجتماعي .فأي نصر مكن الله منه موسى! أغرق فرعون وأنقذ بني إسرائيل على يديه من الذل والاستعباد، وكون منهم أمة بقيت قرونا مرجعا لهداية الله. فجعل من التوراة طريق الهدى، والمرجع الذي يعود إليه أصحاب العقول الذكية والنظيفة ليستنبطوا منها الحلول للمشاكل العارضة.

55فاصبر إن وعد الله حق...والإبكار.

ما تقدم من وعد الله بنصرة رسله، وتحقق ذلك في موسى، يؤكد لمحمد ﷺ أنه منصور لا محالة، وان عليه أن لا يستبطئ النصر فإنه منصور قطعا. وإن الله وعده بذلك وعدا مؤكدا، ووعد الله حق لا ينقض ولا يبطل. وأشارت الآية إشارة لطيفة إلى قرب تحقق الوعد، بأمره بما يتحتم عليه عقب تحققه كما جاء في سورة النصر، فأمر ﷺ بالتسبيح والتنزيه، ودوام الاستغفار، يصحبه ذلك كامل يومه في جميع الأوقات من العشي الذي تقدم فيه الظلمة إلى الصباح الباكر وما بينهما.

أمر الله نبيه بالاستغفار لذنبه، وحمله الناظرون في الآية على محامل عديدة، منها أن هذه الآية نزلت قبل أن يعلمه ربه بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في سورة الفتح آية 2- ومنها أنه ﷺ ما يزال يرتقي من مرتبة في القرب إلى مرتبة أعلى منها، فإذا نظر إلى المرتبة السابقة كانت أنقص بالنسبة للمرتبة التي وصل إليها، فيستغفر ربه ليوحد له في الأجر على مرتبة الكمال الأخيرة التي بلغها. ومنها أن النبي ﷺ كان يقوم على أمور الدولة الإسلامية من تنظيم أمر المسلمين، والفصل بين نزاعاتهم، وتجهيز الجيوش، ومتابعة أخبار العدو، كما كان يقوم على حاجات اسرته، وكان يزور المرضى ويشهد الجنائز، ويخفف عن المكروبين كرباتهم، وهو في هذه الحالات ينقطع عن استحضار صلته بالله ذكرا بلسانه وحضورا قلبيا مخلصا لا يشاركه شيء، فعدت تلك الفترات التي يقوم فيها بما فرض عليه بالنسبة للأوضاع الذي يكون مستغرقا في تمجيد ربه وتسبيحه كأنها حالات نقص تقتضي منه أن يستغفر كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم عن الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله مائة مرة إكمال الإكمال ج 7ص129) والغيم ما يغشى به يقال غامت السماء إذا أطبقها الغيم .

56إن الذين يجادلون في آيات الله... هو السميع البصير.

أمر النبي ﷺ أن يتدرع بالصبر، وأن الله ناصره في الدنيا والآخرة، ومن الصبر الذي عليه أن يوطن نفسه عليه مجادلة المشركين، التي ينطلقون فيها من المكابرة ومن تصميمهم على رد كل ما يأتيهم من الهدى، هم يجادلون جدلا ليس له سند من

حجة عقلية، ولا وحي منزل، يجادلون بهواهم وبالباطل وبالتمويه. ليس في عقولهم حقيقة يناضلون عنها ويثبتونها، بل ليس في عقولهم إلا شيء واحد هو الكبر والتعاظم، على معنى أنهم يجادلونك تبعا لما انطوت عليه نفوسهم من التعاظم، وظنهم انهم أرفع من أن يتبعوا الحق الذي أتيتهم به، تعلقا بالرئاسة والتقدم وأن لا يكون أحد فوقهم، هم يرفضون تكبرا أن ينقادوا لأمر الله، وإن كانت نبوة فلا يقبلون إلا أن تكون لهم. إن هذا الكبر الذي عشش في عقولهم لا يبلغون تحقيقه، لا في رئاسة ولا في نبوة. فستنتصر عليهم وتهزمهم، وتسقطهم من المرتبة التي نصبّوا أنفسهم فيها باطلا.

إن كبرهم يبعث غيظهم عليك فهم يدبرون ما يؤذونك به، فاعتصم بالله والتجئ إليه، فإنه هو السميع لدعائك، ولما يمكرون بك في الخفاء مما لا تطلع عليه، وهو البصير بوضعك، وبوضع مخططاتهم، فإنه سبحانه سيحبطها ويحميك وينصرك عليهم.

57.لخلق السماوات... أكثر الناس لا يعلمون.

مما يسوء به المشركون ويجادلون، ادعاؤهم استحالة البعث وإنكارهم إحياء الأموات، (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد)[1] فأفادت الآية شدة غفلتهم عن ظواهر الكون المشاهدة أمامهم .إن الله خلق السماوات والأرض ومن عليها، وإن هذا الكون العظيم المترامي الأطراف الذي لا يعلم حقيقته إلا الله، والذي أنجز بالدقة الكاملة في كل جزئية من جزئياته، إذا قيس بإعادة خلق الناس تبدو إعادة خلقهم شيئا تافها بالنسبة لخلق السماوات والأرض. ولكن أكثر الناس لا يتأملون في كتاب الكون، فهم بذلك جهال لا يقدرون الأشياء حق قدرها.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ

---

[1] سورة سبأ اية 7

وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

لاريب فيها: لابد من مجيئها.

الساعة: يوم البعث.

داخرين: صاغرين، أذلاء.

بيان المعنى الإجمالي:

مقارنة توضح حقيقة المؤمنين والكافرين، والبعد الشاسع بينهما. مثل الكافر كالأعمى، الاختلال في ذاته بفقده البصر، فينكر المشاهدات جميعها وما يترتب عليها، والمؤمن كالبصير الذي تبعثه المبصرات على التأمل فيها وتهديه إلى أن قدرة الله ليس لها حدود، وكما أنه لا مساواة بينهما من حيث الإدراك فكذلك تختلف أفعالهما. فالمؤمن يستقيم عقله وتتهذب حواسه وشهواته، بينما الكافر ينصرف إلى الشر والسيء من الأعمال. ولكن القليل من الناس هم الذين يتذكرون وينتفعون بالتأمل.

نتيجة لكل ما تقدم إن الساعة "**يوم البعث**" لا شك أنها آتية لامحالة. ولكن العقول التي لم يفتحها الإيمان تنكر ذلك اتباعا لشهواتها. فهم ينكرون اتيانها، لأن استحضار قدومها ينكد عليهم ما انطلقوا فيه من التسيب والفساد.

قال ربكم قولا يوجب الإذعان له من ناحية، ويتبعه الشعور بالرحمة والفضل. محصل القول: ادعوني طالبين تحقيق رغائبكم المشروعة، فإني أجيب دعواتكم إما منجزا وإما بادخار امتثالكم أجرا يوم القيامة. وقوموا بعبادتي مخلصين أوف لكم أجوركم. إن الذين يترفعون عن دعاء الله ليسعدهم بعونه، والذين يترفعون عن عبادته جزاؤهم محقق، هو دخولهم جهنم أذلاء.

كما يتفضل عليكم سبحانه بقبول دعائكم، فإن منته قد نالتكم في الحاضر والماضي.

رتب سبحانه الكون على أن الليل يخلف النهار والعكس. لاءم بينكم وبين الليل فجعله ظرفا تجدون فيه السكينة والراحة من عناء النهار وتتجدد قواكم، وجعل النهار مشرقا بضوئه يتبين لكم فيه ما حولكم بما يمكنكم من القيام بدوركم في

الخلافة .كل ذلك ينادي بسعة فضل الله، والعجيب أن معظم الناس يغفلون عن فضله ولا يشكرونه على نعمه.

ذلكم المشار إليه هو المرتب بحكمته لنظام الكون الليل والنهار، وأثرهما في حياة الإنسان. هو الله الذي تولاكم بعنايته فأعد لكم ما يلفكم الوضع الذي أنتم عليه في يسر من جميع النواحي المادية والروحية والعقلية. وهو الذي خلق كل شيء فهو الحقيق بالتفرد بالألوهية، وما سواه باطل وزيف. إنه بعد ثبوت هذه الحقائق فإلى أي وجهة تتصرفون؟ وعلى ذلكم النحو من الضلال والانصراف يتصرف إلى الباطل الذين ينكرون آيات الله عنادا.

بيان المعنى العام :

58.وما يستوي الأعمى والبصير ...قليلا ما يتذكرون

تأكيد لمضمون الآية السابقة، فإن المشركين المنكرين للبعث مع أن مشاهد الكون دالة بوضوح على أن القادر على خلق السماوات والأرض قادر على خلق الإنسان الذي لا يقاس بعظم خلقهما. فأعقب ذلك المفهوم ببيان مثل المنكرين هم كمثل الأعمى الذي لا يدرك المشاهد العظيمة لفقده البصر، وأن المؤمنين كمن سلمت حاسة بصره، وتكون النتيجة أنهم لا يستوون، وطوى التصريح بفضل البصير لشدة وضوحه. ثم أضاف لتأكيد فضيلة المؤمنين، بأنهم وهم قد اهتدوا فصلحت أعمالهم وزكت، لا يستوون مع الذين كفروا ففقدوا النور الهادي للصراط المستقيم وصدرت أعمالهم عن نفوس غلب عليها الشر فساءت. واستدركت الآية أنه بالرغم من وضوح الأمثلة المسوقة وضوحا مشرقا، فإن كثيرا من الناس، وهم المشركون في وقت نزول الآية لا يتعمقون في التفكير ولا يتابعون الفكرة بما انبنت عليها وما تؤول إليه، فتفكيرهم بسيط محدود، ولذلك لم ينتفعوا من الأدلة المنبثة في كتاب الكون والأدلة التي يرشد إليها العقل.

59.إن الساعة لآتية...لا يؤمنون

بعد أن توالت الآيات الدالة على أن البعث حق، وقع التصريح بذلك: إن الساعة يوم يبعث الناس من قبورهم أمر مؤكد لا شك فيه. وإذا كان ثابتا مؤكدا لا نسلك فيه فلماذا يصر المشركون على الشك فيه بل على نفيه ؟ فكان الجواب أن أكثر الناس فقدوا الإيمان الذي يهدي ويكشف الحقائق، وينفي الأوهام. فعدم إيمانهم هو الذي طمس عقولهم فلم تنفعهم الآيات البينات على كونه حقا، لا من كتاب الكون، ولا من البراهين العقلية ولا من الوحي.

(60). وقال ربكم ادعوني...جهنم داخرين.

هذا قول حق سجله القرآن لا مرية فيه، صدر من الله العزيز الحكيم يطلب من الناس بوصفه ربهم الحقيق بالطاعة أن يدعوه، هو قول كريم يَبْعث الأمل والرحمة والفضل. حاصل هذا الخطاب: يا عبادي ادعوني. والدعاء يطلق بمعنى العبادة ويطلق بمعنى سؤال الحاجات من مطالب الخير في الدنيا والآخرة. والآية تشملهما. يدعو الله البشر ليعبدوه موحدين فيستجيب لهم بمعنى يثيبهم، ويرفع درجاتهم. ويدعو الله البشرَ مخلصين ليتفضل عليهم بما هم في حاجة إليه، من أنواع الخير، ورفع الكرب في الدنيا، ومن المغفرة وقبول التوبة وتخفيف الحساب، والفوز برضوانه وبالجنة يوم القيامة.

وسواء أحملنا الدعاء على الطاعة الخالصة، أم على طلب العون لتحصيل المرغوب، فكلاهما لا يصدر إلا عن نفس مؤمنة معترفة بالحاجة وموقنة بأن السعادة كل السعادة قبول خضوعها لجلاله عبادة أو طلبا. ولذلك عقب الأمر بالدعاء بمآل الذين يستكبرون عن عبادته ويرون أنهم في غنى عن فضله، ولا يخضعون لجلاله، أن الله يهملهم ويذلهم فيدخلهم جهنم دار العذاب وهم صاغرون.

61). الله الذي جعل ...لا يشكرون.

واصل القرآن تذكير الناس بفواضل فضله، وعظيم رحمته. فبعد أن وعدهم الاستجابة لدعائهم وهي منة تتحقق في المستقبل، لفت أنظارهم إلى ما يؤكد هذا الوعد بما يشاهدونه من عنايته بهم في الماضي والحاضر .الله وحده هو الذي تصرف تصرفا محكما، فجعل الليل ينسجم مع الحاجات الإنسانية والحيوانية، قدر بواسطة الظلمة التي تعم نصف الكرة الأرضية في كل لحظة، أن يتمكن الأحياء في ذلك الشطر من السكون الهادئ، الذي يعيد للأعصاب في الليل ما يوفر لها الراحة فتتجدد بالنوم القوى، ويتم الإقبال على اليوم الجديد بنشاط. وذلك بعد أن أعياهم ملاحقة الحياة، بالإحساس بها أو بتصريفها تصريفا يحقق رغباتهم.

و في مقابلة سكونهم بالليل قدر أن ينتشر الضياء في النهار، فتدرك الأبصار ما حولها، وينطلق الناس لتحقيق مهمة الخلافة في الأرض. وابرازا لعظيم المنة جعل النهار مبصرا، مع أن المبصر هم البشر. تأملوا فإن الله هو صاحب الفضل العظيم، راعى بعلمه وحكمته ما يلائم الإنسان وبنى عليه نظام الوجود .إن على الإنسان أن يستحضر دوما تلكم العناية، ويشكرها . ولكن العجيب: أن أغلب الناس طمس الكفر بصائرهم، فيمرون غافلين عن المسنن الإلهية، لا يتوجهون لله المنعم بها بالشكر، والاعتراف بالفضل.

62.ذلكم الله ربكم...فأنى تؤفكون.

اسم الإشارة يدل على الذات الإلهية المستحضر معها مفهوم الكمال، وقد سبق في الآيتين المنن التي تفضل بها. ثم أجرى على اسم الإشارة ما يميزه تمييزا وافيا، وذلك بالأخبار الأربعة التالية : (الله) العلم الفرد المختص بالعظمة والجلال والوحدانية(ربكم) الذي تولاكم بنعمه وألطافه المتتابعة عليكم (خالق كل شيء) فكل ما في الوجود مما تنعمون به في حياتكم من خلقه وفضله(لا إله إلا هو) فكما تفرد بالخلق تفرد بالألوهية، لا إله غيره ولا رب سواه.

وإذ تجمعت هذه الأخبار الأربعة فوجبت له، فأي وجهة أخرى تنصرفون إليها غير وجهته؟ كلها زيف وباطل، كيف تعبدون غيره أو ترجون سواه!

63.كذلك يؤفك ...بآيات الله يجحدون.

إن الذين انصرفوا عن عبادة الله وأشركوا به بلغوا أبعد غاية في الضلال، وفي الانصراف عن الحق إلى الباطل. وعلى نحو انصرافهم وضياعهم ينصرف الذين جحدوا آيات الله، الآيات اليقينية من الوحي ومن مشاهد الكون.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرارا : مستقرة غير مضطربة.

تبارك : كثرت خيراته.

البينات : الأدلة والحجج الواضحة من العقل والوحي.

أن أسلم : أن أنقاد قولا وعملا.

طفلا: الصغير من بني آدم يطلق على الواحد والجمع.

الأشد: القوة في البدن.

شيوخ: جمع شيخ وهو من تجاوز الخمسين من العمر.

بيان للمعنى الإجمالي:

كل إنسان يسير على سطح الأرض ويضع متاعه وحاجاته في المكان الذي يتخيره فتبقى حيث أراد. ولا يكاد الإنسان يلتفت إلى سر ذلك ولا إلى الحكمة التي جعلت بقاءه على الأرض ميسرا على ذلك النحو. وفي جاذبية الأرض للإنسان ولحاجاته ما يقوم دليلا على أن كل ذلك بفضله ولطفه بالبشرية .وكذلك السماء عمرها الله بالكواكب والمجرات وربط بينهما برباط الجاذبية فلا تخرج عن مسارها فأحكم بناءها. ومع ذلك فإن فضله تجاوز الضروريات للكماليات، فراعى أن تكون صورة خلقكم أحسن صورة على وجه الأرض. يتسابق الرسامون في إبراز الجمال الإنساني في لوحاتهم، ولم تبلغ أي لوحة منتهاها في الجمال، جمال الإنسان الحقيقي، وهو الذي مكنكم من طيبات الرزق غذاء ولباسا، حسن مذاق وجمال مظهر ومهابة. إن الذي جمع كل هذه النعم فمتعكم بها هو الله ربكم. فما أكثر خيراته! ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، فكونوا شاكرين لربكم. تفرد بأنه الحي حياة تليق بذاته العلية، هو حي في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل لا يلحقه فناء، لم يسبق حياته عدم، بخلاف بقية الأحياء الموجودات فهي وجدت بعد أن لم تكن، وتفنى عند بلوغها أجلها. وبناء على ذلك فهو الحقيق بالألوهية المقتضية لتفرده بالعبادة، فاعبدوه وادعوه مخلصين، تنزهونه عن كل شرك خفي أو ظاهر. وله الحمد الكامل والثناء الجميل، هو وحده رب الكائنات جميعا.

قل لهم قولا فصلا: إنه قد حصل في عقلي وروحي اليقين الأيقن بالنظر حسب قوانين النظر العقلي، وبواسطة مشاهداتي في الكون أن الله وحده هو رب الكائنات، وأن أخصه بالعبادة، وأن لا أعبد الآلهة التي تدعونها من دونه، كما تأكد ذلك عندي بالوحي، بآيات القرآن البينة .وهذه الهداية جاءتني من ربي الذي تولاني بعنايته فهدى عقلي، ثم أوحى إلي، وأمرت أن أنقاد إلى رب العالمين قولا وعملا. هو الذي خلقكم فابتدأ خلقكم من تراب من عناصر الأرض، ثم تحولتم إلى نطفة لتمتزج فيها لقاح الذكر ببيضة الأنثى، فواصلت النطفة مسيرتها إلى أن علقت بجدار الرحم، وتكامل تصويركم حتى الولادة فأمضيتم زمنا في الطفولة ثم تبلغون كامل قوتكم،ثم تأخذون في الانحدار شيئا فشيئا .ويتم ما قدرته فمنكم من لا يبلغ إلا بعض الأطوار وتنتهي حياته، ومنكم من يبلغ أقصى ما قدرته له من العمر .وهذا الصنع العجيب

يعرّفه لكم أن الله إذا أراد إحداث شيء تتعلق إرادته بإحداثه، فلا يمتنع ولا يتأخر.

هذا التصرف يرجى أن تتعقلوه.

بيان المعنى العام:

64. الله الذي جعل لكم ...فتبارك الله رب العالمين

يوالي القرآن تذكير البشر بالنعم الإلهية التي قد يغفل الإنسان عن تقديرها، لطول تكرر مشاهدتها، إذ تغطي الرتابة على ما تدل عليه من عظيم المنة وعجيب الصنع. تلفت الآية الأنظار إلى قانون من قوانين الكون، عبر عنه في الأرض بالقرار، وفي السماء بالبناء، ويضع القرآن إلى قانون الأرض أنه جعل لنا، فهو مراعى فيه ما يتلاءم معنا نحن البشر الذين نعيش على وجه الأرض. فهمه السابقون على أن الأرض قارة لا مضطربة، أو على أنها بنيت على وضع تكون بها قرارا للإنسان تلائمه بجعلها يابسة غير سائلة. وهما محملان لا مانع من فهم الآية عليهما. والأولى في نظري أن نفهم الآية على أساس قانون الجاذبية الذي جعله الباري متناسبا مع الإنسان وحاجاته إذ لو كان قانون الجاذبية أقوى لكانت معاناته في تنقله على وجه الأرض شديدة، بل لا يستطيع أن يعمر الأرض، ولو كانت الجاذبية أخف لما استطاع أن يثبت ويستقر عليها بيسر. وقد شاهدنا النازلين على كوكب القمر، وجاذبيته أخف من جاذبية الأرض، كيف أنهما لم يقدرا على تنفيذ مهمتهما إلا بفضل التدريبات وما صحبهما من أجهزة. ففضل عظيم وحكمة بالغة في الربط بين الإنسان وبين جاذبية الأرض لتكون للجنس البشري قرارا.

أما السماء فالجاذبية بين الكواكب لم يراع فيها حياة الإنسان، بل تعلقت الإرادة الإلهية بأن تكون متماسكة مبنية بناء لا يختل، ولذلك لم يربط القرآن بناءها بالبشرية بل قال: **والسماء بناء** إن الكواكب والمجرات على ضخامة أحجامها ربط الخلاق الحكيم بينها فسارت في مساراتها منتظمة إلى الأمد المحدد لها، وأعظم ببنائها بناء، والمسافات بينها تقدر بالسنوات الضوئية فتبارك الله أحسن الخالقين.

-إن من يتأمل ما أوجده الله على سطح الأرض ويقارن بينه، لا يجد مخلوقا أحسن صورة من الإنسان. خذ لذلك مثلا: نجد من أجمل الحيوانات الحصان، والعندليب والظبي، تصور إنسانا فمه على شكل واحد من هذه، ثم يكون أنفه لا تستقر عليه العين، فمن تكريم الإنسان أن صور الله الخلية الأولى بتطويرا يلمع به ما عليه الإنسان من وسامة وجمال. ولو درست الخلية جزيئا لا يستطيع العلماء تقديره لتشوهت خلقته. ومع حسن الإيجاد تخير له أمتع ما يكون من الإمداد. فما خلقه سبحانه من أنواع الغذاء ومواد اللباس، وما هدى إليه الإنسان من قدرة على تطوير

ذلكم الرزق الوافر، ومعالجته بما يبلغ به مستويات رفيعة من الطيب وحسن المذاق، وجمال المنظر، كل ذلك ينادي بعظيم الفضل والعناية بالإنسان.

- ذلكم الذي نبهكم إلى بعض أنواع فضله الله العظيم الكريم، هو ربكم الذي يرعاكم بحسن رعايته، فيما تنتبهون إليه وفيما خفي عنكم فيحرككم للتأمل فيه. فثناء عليه هو أهله ومستحقه، كثرت خيراته وتنوعت فضائله. هو رب العالمين جميعا البشر وكل المخلوقات. صرح القرآن بصورة من صور الثناء على الذات العلية تعليما لنا وإرشادا.

65هو الحي...الحمد لله رب العالمين

هو الحي - الحياة كمال الموجودات، والله متصف وحده بالحياة الحقيقية التي لا يشبها نقص ولا يسبقها. فكل الأحياء لم يكونوا موجودين ثم وجد كل واحد في الأجل المقدر له، وكذلك كل حي ماله إلى الموت والفناء، والحياة الأزلية السرمدية اختص بها الله. ولما كانت حياته أزلية أبدية فهو وحده المستحق للألوهية. وكل ما نسب إلى الألوهية من الأصنام وغيرها معدوم في وقت من الأوقات ولا بد، ومع انعدامه لا يصلح للألوهية لا إله إلا هو" هو الرب الموجد القائم وحده على موجوداته بدون شريك، فادعوه: اعبدوه عبادة لا تجعلون فيها حظا لأي كان، مطهرة من الشرك الخفي والظاهر، اعبدوه لأنه هو وحده الحقيق بالعبادة.

مخلصين له الدين أخلصوا له في العبادة وأفردوه بالطاعة.

وإذ بلغ التعبير القرآني أسمى مراتب البيان في الكشف عن كمال الألوهية، ختم ذلك بإنشاء الثناء على الله رب العالمين " الحمد لله رب العالمين هو وحده المستحق للحمد، وهو رب الكائنات كلها لا تستغني عن إمداده.

66قل إني نهيت أن أعبد الذين...أن أسلم لرب العالمين

قل للمشركين قولا يدخل اليأس في قلوبهم من التأثير عليك، ويعلن اليقين الأيقن الصادق الذي غرسه الله في عقلك وروحك. تأمله ﷺ قبل البعثة في كتاب الكون، وصفاء عقله، وتوفيق الله له من أول أمره، ثبت يقينه أنه لا يستحق العبادة أحد من الأصنام التي كان يعظمها قومه ويعبدونها. ثم انضاف إلى تلك الأدلة العقلية، ما أوحى الله به إليه من الآيات القرآنية التي تفرد الله بالعبادة، فتظافرت مع ما رسخ في عقله من حقيقة الوحدانية لله، وبطلان كل ما دعي من دونه. فتألف من مجموعهما ما يبعده عن عبادة غير الله. ليس المراد أن الله نهاه عن عبادة الأصنام فانتهى. ولكن المراد أنه بعناية الله به فتح له عقله إلى الآيات الدالة على زيف الهتهم قبل البعثة، وأكد بطلانها بالوحي فما استقر في عقله وروحه إلا عبادة الله

الواحد الأحد، قبل البعثة بدليل العقل من المنطق وكتاب الكون، وبعد البعثة بذلك مع الوحي. وبهذا فلا يأمل قومه أن يلين معهم في هذا الجانب. وجاءني الأمر الذي يحتم الطاعة والامتثال، مضمونه: أن أنقاد انقيادا بالقول والعمل لرب العالمين، الحقيق بالطاعة إذ هو الذي تولى كل صغيرة وكبيرة في الكون بعنايته .

67. هو الذي خلقكم من تراب...ولعلكم تعقلون.

يتوهم كثير من الناس أنهم مستقلون في وجودهم يتحكمون في مصائرهم، دعوى ينفخ فيها إبليس ليفصلهم عن موجدهم رب العالمين. فلفت القرآن أنظار البشر إلى التطور الذي يجري عليهم الذي به تحققت ذواتهم، مع أنهم لا يتحكمون في القليل ولا في الكثير منه، مما يدل يقينا على تفرد الله بالتصرف فيهم، وعدم استغنائهم عنه. ذكرهم بأن خلقهم ابتدأ من عناصر الأرض التي تكونت منها أقواتهم فتحولت بعد هضمها إلى مقومات دخلت في الخلية الأولى، فتكونت منها النطفة التي تابعت مسيرتها في قناة فالوب فعلقت بجدار الرحم، إلى أن تكامل تصويركم شيئا فشيئا، حتى إذا بلغ الجنين أمده نزل إلى الأرض إنسانا طفلا، ثم ينمو إلى أن يشتد عوده ويصل إلى قمة قوته شابا وكهلا، ثم تتحولون قسرا إلى سن الشيخوخة، وتأخذ قواكم في الضعف شيئا فشيئا. وإنكم في رحلتكم هذه لا تتحكمون في مضيها إلى منتهاها الشيخوخة، فمنكم من يتوفى في مرحلة من مراحل التطور السابق، ومنكم من يتواصل وجوده إلى أن يبلغ الأجل المعين فلا يزيد عليه لحظة ولا ينقص منه لحظة . كل ذلك يرجى منكم أن تعقلوه فتؤمنوا بربكم .

68.هو الذي يحيي ...له كن فيكون.

من عجيب صنع الله أنه حول التراب الذي منه أصل تكونكم إلى كائن حي، والحياة من أعظم المنن الإلهية، فاعلموا أن وجودكم أحياء هو من عطاء ربكم، وهو الذي ينهي حياتكم حسب تقديره. فكيف يتم التصرف في هذين القطبين ؟ هو من عجيب صنع الله لا يحتاج في ذلك إلى معالجة ولا إلى تدبير، يقرب ذلك لعقولكم: أنه إذا قضى أي أمر وتعلقت إرادته به، سواء في ذلك حياتكم أم بقية التصرفات في الكون، يأمر فينفذ أمره ويتحقق دون ممانعة ولا تأخير .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ثُمَّ

قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ

أنى: كيف، سؤال مع استبعاد.

بالكتاب : بالقرآن.

الأغلال : جمع غل، محيط بالعنق يوصل به ما يقاد به المجرم أو الأسير.

يسحبون : يجرون.

الحميم : الذائب الشديد الحر من النار .

يسجرون : توقد النار بهم.

ضلوا عنا : غابوا.

الفرح: المسرة ورضا الإنسان بوضعه.

المرح: ما يظهر على الفارح من آثار فرحه.

المثوى : الإقامة الدائمة.

بيان المعنى الإجمالي:

تقرير في صيغة السؤال لتكون الإثارة أتم. ألم تعلم وضع الذين يبذلون كل طاقاتهم إذا جاءتهم الآيات البينات من الله ليجادلوا فيها بالباطل، ويحرفوا النظر إلى إثارة شبهات لا دخل لها في الاحتجاج. إلى أي جهة ينصرفون ؟ ليست لهم وجهة إلا الضياع. هؤلاء المجادلون هم الذين صمموا على تكذيب القرآن وتكذيب كل الرسل الذين وافقت تعاليمهم ما أنزل على محمد، إنهم رفضوا الإيمان بالبعث، يهددهم القرآن أنهم سيعلمون أن البعث حق، وذلك في الوقت التي تكون الأغلال الحديدية محيطة بأعناقهم وقد ربطت بسلاسل ثقيلة يجرون بها إلى جهنم كلما رفعهم اللهب نزلت بهم السلاسل إلى قعر الجحيم ليكونوا وقودا للنار .

وفوق ذلك يسلط عليهم الذل والمهانة فيسألهم الملك الموكل بعذابهم سؤال تقريع، أين شركاؤكم الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله تزعمون أنهم يشفعون لكم فادعوهم. أجابوا إجابة الحزين الفاقد لكل سند: لم نجدهم، بل الحقيقة أننا لم نكن

تدعو من دون الله شيئا نافعا. وعلى هذا النحو يتم إضلال الكافرين. كما أن أنواع العذاب المفصل سابقا ما كان منه ماديا أو نفسيا بسبب عن فرحكم ورضاكم الرضا التام بما أنتم عليه من الباطل، وبسبب مرحكم استكبارا واستهزاء بالمؤمنين وضحكا منهم.

يقال لهم ادخلوا جهنم من أبوابها المفتحة لقبولكم مسى قعرها! أين ستقيمون إقامة لا تغادرونها أبدا .إن إقامتهم في جهنم هي أسوأ ما يتصور من الإقامات.

اصبر يا محمد ولا تستعجل ما وعدتك به فإنه حق لا ريب فيه. ووعد الله لا يتخلف أبدا. واعلم أن بعض ما وعدتك به من النصر ستراه في حياتك، كما تم يوم بدر . وما لم يتحقق في حياتك فإن أعداءك لا مفر لهم من العودة إلى حكمنا فنجزيهم عما قدموا إما في الدنيا كالانتصارات التي تمت للإسلام بعد وفاته ﷺ، وإما يوم القيامة.

بيان المعنى العام

69 ألم تر إلى الذين يجادلون.. أنى يصرفون

تكرر في هذه السورة فضح جدال المشركين خمس مرات ' الآيات 4-5-35-56- وتم تبكيتهم وتهديدهم. وتستفتح هذه الآية بتعجيب كل متأمل في وضعهم الفكري، فهم بمجرد ما تتلى عليهم الآيات البينات، الواردة من الله العليم الحكيم، يجهدون أنفسهم ليقدموا ما يبطلها ويشككوا في صدقها. عجبا لهم إلى أي جهة يصرفون أنفسهم إليها. هم عارضوا الحق بسفسطة وقلب للحقائق وتحويل المنطق العقلي إلى الجدل الباطل. والخطاب موجه إلى النبي ﷺ أولا، ثم لكل متأمل في مواقفهم الجدلية من آيات الله الهادية البينة.

70 ، 72 الذين كذبوا بالكتاب.. يسجرون

من هم هؤلاء المجادلون بالباطل ؟ عرفتهم الآية بأنهم الذين بادروا بتكذيب كون القرآن منزلا من عند الله رغم أنهم تحدوا به وعجزوا، ولكن واصلوا التكذيب جدلا، وكما كذبوا بالقرآن فإنهم قد كذبوا بما جاءت به الرسل السابقون: فإنهم أما أعلمهم الرسول ﷺ بأن الله سيبعثهم للحساب يوم القيامة، وأن هذا قدر متفق عليه بين جميع الرسل، سألوا أهل الكتاب فصدقوا فكفروا بالرسل جميعا. هددهم القرآن بأن البعث لاشك فيه، وتوعدهم بأنهم سيعلمون أنه حق بما يسلطه عليهم من العذاب.

سيتحقق علمهم بالبعث، ولكن علمهم به سيكونون فيه على الوضع المتوعد به: الأغلال الحديدية محيطة بأعناقهم، يُجرُّون إلى مصيرهم في جهنم وقد ربطت

الأغلال بسلاسل الحديد الثقيل فكلما رفعهم اللهب أعادتهم السلاسل إلى قعر جهنم، فينقلبون إلى وقود للنار يزداد بأجسامهم حرها ووقودها .

73-74. ثم قيل لهم أين ...يضل الله الكافرين.

وفوق ذلك العذاب عذاب نفسي. إذ يخاطبهم، الملك الموكول بتنفيذ العذاب فيهم، إعلانا لفضحهم، بقوله: أين الأصنام التي كنتم تشركون بها، وتدعون أنها آلهة من دون الله تشفع لكم؟ فهذا أوان حضورها فادعوها. كان جوابهم جواب المنهارة آماله الذي تبين له أنه كان ضالا ضلالا مبينا: ضلوا عنا، غابوا عنا ولم نجد لهم أثرا. ثم اعترفوا مضطربين عن قولهم: غابوا عنا، وأعلنوا أنهم أدركوا الحقيقة البينة: أنهم كانوا يقيمون آلهة غير فاعلة وليست شيئا يعتد به. فكأنهم تعلقوا بالعدم. وعلى هذا النحو الذي ضل به المجادلون في آيات الله، يضل الله جميع الكافرين، هو ضلال ينتهي إلى الندامة واليأس والافتضاح.

75.ذلكم بما كنتم...تمرحون.

ذلكم-الذي تبين لي أن اسم الإشارة يستحضر كل ما مضى في الآيات السابقة من تفصيل أنواع العذاب البدني والنفسي. يستحضره الملك ويذكرهم به ثم يردف بقوله: كان هذا جزاءكم:

أولا: بسبب ما كنتم عليه من الرضا التام لرفضكم الحق، فكنتم فرحين بشرككم وظلمكم للمؤمنين، كنتم مبتهجين بما أنتم عليه لا تراجعون أنفسكم ولا تنظرون في الوحي الذي يخاطبكم.

وثانيا: بسبب إظهاركم ما كنتم عليه من الفرح الباطني، إظهاره تطاولا، وتكبرا، واستهزاء وضحكا مثيرا.

76.ادخلوا أبواب جهنم..مثوى المتكبرين.

ويقال لهم: ادخلوا أبواب جهنم، وهو قول يصحبه التنفيذ، فأبواب جهنم هو المقصد الذي يدفعون إليه دفعا أي، جهنم، ويعرفون أن إقامتهم فيها إقامة دائمة لا مخرج لهم منها. واستحضروا سوء مصيرهم. فإن إقامتهم تلك أسوأ إقامة مخصصة للمتكبرين المستخفين بالحق. بمقدار ما انتفخوا في الدنيا واستكبروا، يبلغ إذلالهم إلى أحط منزلة وأسوأ حالة.

77. فاصبر إن وعد الله حق...فإلينا يرجعون.

كن واثقا يا محمد أن الله وعدك النصر، وأنه سينصرك لا محالة، فاصبر ولا تستعجل الوعد، إن تصرفه سبحانه مؤسس على الحكمة. واصل نشر الهداية التي أوحينا بها إليك، وكن ثابتا على ذلك رغم ما تلاقيه من عنادهم ومكرهم.

فإما نرينك بعض الذي نعدهم- عرف الله رسوله أن ما وعده لا يخلو حاله من أمرين:

أحدهما: أن يتحقق في حياتك الوعد، فترى بعينيك النصر يُعلي دعوتك ويهزم أعداءك. كما تم في بدر وفي فتح مكة، إلى سنة الوفود التي أقبلت فيها القبائل العربية معاهدة على الإسلام طائعة .

ثانيهما: أن نتوفينك قبل أن ترى انهزامهم جميعا وانتصارك عليهم جميعا، فاعلم أنهم صائرون إلي لا يخرجون عن قبضتنا وإني سأجزيهم عما قدموا .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

بيان معاني الألفاظ:

بآية : بمعجزة.

هنالك : في ذلك الوقت.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم

المنافع : الشيء الذي ينتفع به .

حاجة :ما قصدتم التحصيل عليه.

بيان المعنى الإجمالي:

أرشد الله رسوله ليتذرع بالصبر ووعده النصر في الآية السابقة ،وذكره في هذه بأنه أرسل رسلا من قبله قص أخبار بعضهم عليه، ولم يقصص أخبار بعض آخر، وفيه إيماء إلى التذكير بأن العاقبة كانت لهم. ويقويه على مواجهة مكر المكذبين باقتراحهم معجزات من نوع خاص على هواهم، فأعلمه أن ما كان لأي رسول أن يقدم معجزة يتحدى بها المكذبين حسب اختياره. ولكن الله هو الذي يؤيد بحكمته رسوله بالمعجزة التي يقدر أنها أصلح ،وأنه إذا جاء الوقت الذي ينفذ فيه ما قدره الله يظهر القضاء الحق بتكسير المبطلين وخسارتهم خسارة تستصفي كل ما عندهم شأن التاجر الذي ذهب كل ماله .

من منته سبحانه عليكم أن جعل لكم الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز، سخرها لكم، تركبون بعضها [الإبل] وتأكلون من لحومها، وتشربون من ألبانها، وتنسجون من أصوافها وأوبارها، وتنتفعون بأثمانها إلى غير ذلك .وتبلغكم ما تعزمون تحقيقه في تجاراتكم، كما يسر لكم سفن البحر تتنقلون فيها مع تجاراتكم. مكنكم الله من رؤية هذه النعم لتستدلوا بها على انفراده بالربوبية والفضل والتدبير. فهل تستطيعون إنكار أي نعمة من تلكم النعم الكثيرة، أو أن تنسبوها لغيره؟ فانتفعوا بها بما يربطكم بخالقكم .

بيان المعنى العام :

78 ولقد أرسلنا رسلا من قبلك...وخسر هنالك المبطلون.

من الجدل الذي جادل به المشركون غير المبني على النظر ولا العلم، إنكارهم أن يبعث الله رجلا منهم ليبلغهم وحيه؛ فأثبتت هذه الآية أن الله أرسل قبلك يا محمد رسلا، وهم كُثر لم نقصص عليك أخبار جميعهم في القرآن بل منهم من أنزلنا عليك وحيا يعرف بهم، وقسم آخر لم أعرفك بهم. إذ لا ينبني على إعلامك بهم كبير فائدة، ففي ما ذكر كفاية. والرسل الذين ذكروا في القرآن بأسمائهم هم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحق، يعقوب، يوسف، هود، صالح، شعيب، موسى، هارون، عيسى، يونس، عليهم السلام، ومحمد ﷺ خاتمتهم . كما ذكر اثنا عشر نبيا بأسمائهم: آدم، داود، سليمان، أيوب، زكرياء، يحيى، إلياس، اليسع، إدريس، ذو الكفل، ذو القرنين، لقمان .ومن علمهم من القرآن وجب عليه الإيمان بكل واحد منهم، ومن نفى رسالة أحدهم بعد اطلاعه على رسالته في القرآن بعد جاحدا ليقيني، يخرجه إنكاره من الإيمان. وأما من لم يعرف وأنكر جهلا فلا يضره .

ومن جدلهم بالباطل أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات يعينونها تصدقه {وقالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى}[1]وكما ورد في الآيات 90 91 92 93- من سورة الإسراء. فقلبوا الأمر وجعلوا أنفسهم يتحكمون في الإرادة الإلهية لتؤيد رسوله بما يشتهون ويقترحون. فردت هذه الآية شغبهم، وأكدت أن الرُسُل السابقين ما كان لأحد منهم، ولا يتصور منه أن يأتي بآية حسب مقترحات قومه ولا حسب رغبته، ولكن الله يأذن فيطوع لرسوله آية يخضع لها المبعوث إليهم، ويتحدّون بها فيعجزون عن الإتيان بمثلها .

---

[1] سورة القصص آية 48

فإذا جاء أمر الله.يمهل الله الكافرين يتحدون ويستكبرون ويؤذون، ظانين أنهم في مأمن من العقاب، وأنهم غالبون. وفي الوقت الذي ما كانوا يتوقعون فيه شرا، يبرز التقدير الإلهي الذي لا مرد له في الانتصاف من المكذبين الذين كانوا يشككون ويقترحون الاقتراحات على هواهم، فيظهر قضاء الله المظهر للحق الهازم للباطل. وتجسم العاقبة أن المبطلين خسروا كل شيء وذهب كل ما كانوا يعتزون به من قوة. يستحضر وضعهم مقارنا بوضع التاجر الذي بذل جهده، وانفسحت آماله، فكانت عاقبته الخسارة وذهاب المكاسب . فحصل له الضر من حيث أراد تحصيل النفع.

79←81 الله الذي جعل لكم الأنعام...فأي آيات الله تنكرون.

استئناف لعرض منن أخرى من فضل الله. افتتحت الآية باسم الجلالة المتفرد بالإيجاد والتمكين. فهو سبحانه الذي جعل لكم الأنعام الغنم والمعز والبقر والإبل. يتضمن النص أمرين اختص الله بالتفضل بكل منهما. الجعل بالتسخير، والجعل للبشر "لكم" بالملاءمة بين تلكم الأنعام وبين حاجات الإنسان منها. ثم أخذت الآية تفصل شيئا من تلكم المنن. لتركبوا بعضها [الإبل] فمن بمعنى بعض. ولتأكلوا من لحومها. ولكم فيها منافع أخرى: ألبانها وأصوافها وأوبارها، وجلودها، وأثمانها. وتتأثلون منها أموالا تدخرونها .وتبلغكم ما تقصدون التحصيل عليه من الأبعاد التي ما كنتم بالغيها إلا بشق الأنفس .تقطعون بها الصحاري تحملكم وتحمل تجاراتكم، للتجارات التي تعدون لها وترتبون في عقولكم ما تحملونه معكم، وما تستوردونه مما ينفق في البلد المحمولة إليه .

و ربطت الآية في المنة ما يسره للعرب المخاطبين بهذه الآيات، ربط الإبل سفن الصحراء، بالسفن البحرية التي كانت وسيلة لهم في نشاطهم التجاري والانتقال وخاصة عبر البحر الأحمر، إلى الحبشة واليمن.

يريكم آيات قدرته، وآيات عنايته بكم، والطافه، وحسن تقديره. إذ ذكر في الآيات السابقة بنعمة الليل والنهار، وملاءمة الأرض للاستقرار على ظهرها. وعنايته بكم في أطوار خلقكم، وجعل الأنعام مسخرة للإنسان ينتفع بها بمتنوع الانتفاعات. إنكم تشاهدون هذه الآيات في كتاب الكون، وهي أدلة لكم لتؤمنوا بربكم، وتوحدوه وتعبدوه. فهل تجدون آية من تلك الآيات تستطيعون نكران وجودها، أو نسبتها لأحد غيره ؟

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

فرحوا: ازدهوا.

حاق: أحاط إحاطة ضيقة.

ما أغنى عنهم: ما أفادهم ولا عصمهم.

البأس: الشدة في المكروه.

سنة الله: طريقة حكمته في تصريف الأمور.

بيان المعنى الإجمالي:

يسألهم القرآن سؤال تقرير وتقريع، ألم يقطعوا المفاوز من اليمن إلى الشام، ويقفوا في أسفارهم على عاقبة المكذبين من قبلهم. كانوا على مستوى حضاري أرفع من مستواهم. يدل على ذلك بقايا قصورهم وحصونهم وجناتهم. فما أفادهم ما جمعوه من قوة، وما حصنهم من عذاب الله. ثم ذلك، لما جاءتهم رسلهم بالأدلة البينة على أن الحياة الدنيا مطية للحياة الآخرة، وأن عليهم أن يصلحوا عقيدتهم وعملهم ليفوزوا فيها. كان موقفهم من الهداية أن قارنوا بين مكتسباتهم العلمية وما حققت لهم من تقدم، واقتنعوا بأن ما جاءتهم به الرسل سخيف، وفرحوا بما هم عليه. فأحاط بهم العذاب إحاطة لم يجدوا منه متنفسا وتم استئصالهم.

وسجل القرآن لحظاتهم الأخيرة. إنهم لما شاهدوا العذاب نازلا أدركوا ضلالهم فقالوا: آمنا بالله وحده، وكفرنا بجميع الآلهة التي كنا ندعوها من دونه. ويعلق القرآن على إيمانهم الاضطراري، أنه إيمان لا ينفعهم لما رأوا العذاب الشديد يحيط بهم. وهذه هي سنة الله وطريقته الحكيمة السائرة في جميع الأعصار مع جميع العباد. وخسر في ذلك الوقت الكافرون خسارة ذهبت بكل ما جمعوه وتأثلوه.

بيان المعنى العام:

82: أفلم يسيروا...بما كنا به مشركين

عرضت الآيات السابقة متنوع النعم والمنن التي من الله بها على عباده، والتي تقتضي أن يوحدوه، ويفردوه بالعبادة. وهذه الآية تفيد لفت أنظارهم إلى ما يشاهدونه في أسفارهم من آثار الأمم التي كذبت رسلها كيف كانت عاقبتها، الاستئصال والتدمير وانقطاعها من الوجود. وذلك ليعتبروا ويقلعوا عن التكذيب. جاءت صياغة الآية على طريقة السؤال: أفلم يسيروا في الأرض لتجمع بين الإثارة والتقرير.

فهذه الآية تحركهم إلى الاعتبار بعاقبة المكذبين من الأمم السالفة، العاقبة التي يشاهدون آثارها في أسفارهم، مما يحذرهم المصير الذي آلوا إليه. ومما يضاعف التأثير فيهم ويخوفهم، أن تلك الأمم كانت على حظ من القوة أكثر من حظهم. فبقايا قصورهم، وحصونهم، ومصانعهم وجناتهم، تشهد بالمستوى الحضاري الذي بلغوه، وهو يفوق المستوى الذي عليه المكيُّون. وشاهدوا أن تلك الأمم ما أغنى عنهم، وما حصنهم من عذاب الله، ما جمعوه وما حققوه من المكاسب العلمية والمادية.

فلما جاءتهم رسلهم... هذا المقطع يوضح قوله: فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. أبان كيف تمّ ذلك ولم تقدهم تحصيناتهم وقوتهم. فبمجرد ما جاءتهم رسلهم بالآيات البينات والحجج الواضحة، استهانوا بها واعتبروها لا قيمة لها، وقارنوا بين الوحي الإلهي وما يدعو إليه من الموازنة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، لتكون الحياة الدنيا طريقا للسعادة الحقيقة يوم القيامة، استهانوا بذلك ونظروا إلى ما جمعوه من علوم الدنيا، وما حققت لهم من سيطرة وتحكم في خيرات الكون، فازدهوا بما عندهم من العلم، واعتبروا أن ما جاءتهم به الرسل لا يسمو إلى ما هم عليه من العلم. وكابروا وتصلبوا في رفضهم، فأحاط بهم الاستئصال والعذاب إحاطة لا يجدون منه متنفسا. هذا العذاب الذي كانوا يستهزئون بالرسل عندما أوعدوهم به.

84-85: فلما رأوا بأسنا...وخسر هنالك الكافرون

سجل القرآن ما تحقق على الأقوام المستأصلة. إنهم لما شاهدوا عذابنا الماحق، أعلنوا عندها إيمانهم بوحدانية الله ورفضهم الآلهة الأخرى التي كانوا يتعلقون بها ويعبدونها. فلم يكن إيمانهم إيمان اختيار محقق للتكاليف، وإنما كان إيمان اضطرار،

والله يقول:(لا إكراه في الدين)[1] ولما كان إيمانهم إيمان اضطرار لم ينتفعوا به وأطبق عليهم العذاب.

وعلى هذه الطريقة جرت حكمة الله في تنفيذ عقاب الكافرين المتعصبين في كفرهم في جميع الأعصار. وانتهت السورة بتعبير عام يكون عبرة: خسر في ذلك الوقت، وقت نزول البأس والعذاب، خسر الكافرون كل ما ظنوا أنه يفيدهم.

يوم الاثنين 10 ذو القعدة 1434 - 2013/09/16

[1] سورة البقرة آية255

سورة فصلت

بهذا الاسم عرفت في المغرب العربي، أخذ اسمها من الآية الثانية، كما سموا السورة السابقة بسورة غافر. وسميت بسورة "حم السجدة" في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي. لأنها السورة الوحيدة المفتتحة بحم وفيها سجدة، واسمها في معظم مصاحف المشرق والتفسير سورة " السجدة" كما نقل أنها تسمى "سورة المصابيح" لقوله تعالى فيها:(وزينا السماء الدنيا مصابيح)[1] وسورة الأقوات لقوله تعالى فيها:(وقدر فيها أقواتها)[2] وهي سورة مكية باتفاق. هي الحادية والأربعون حسب ترتيب المصحف. والحادية والستون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿2﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿3﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿4﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿5﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿6﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿7﴾

بيان معاني الألفاظ :

فصلت : وضحت أياته فانتفى عنها اللبس.

بشير : المخبر بما يسر سامعه.

أكنة: جمع كنان وهو الغطاء.

الوقر ثقل السمع، صمم.

الحجاب : الساتر لما وراءه.

---

[1] سورة فصلت، اية 12.

[2] سورة فصلت، اية 10.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه ثاني سورة من السور المتتابعة المفتتحة بـ"حم" يقال فيها ما سبق في نظائرها من الحروف المقطعة في سورة البقرة وما تلاها. تنزيل عظيم، من الموصوف بالرحمة الواسعة الشاملة. أنزل القرآن تُحفظ آياته في كتاب، وتتلى قراءة بلغة عربية فصيحة، ليهتدي به القوم المهيؤون للعلم . يبشر المؤمنين به المطبقين لهديه بالسعادة في الدنيا والآخرة، وينذر المعرضين عنه بسوء الحاضر والمصير . اختار أكثرهم الإعراض عنه فكانوا بمثابة الصم الذين لا يسمعون، وصرحوا بعدائهم لما جاء به فقالوا: عقولنا مقفل عليها في صناديق لا يصل إليها شيء مما تجهد نفسك لدعوتنا إليه، وفي آذاننا ثقل شديد فهي صماء لا تسمع أقوالك، وبصفة عامة فإنه قد ضرب بيننا وبينك بحجاب لا تصل إلينا ولا نراك. اعمل ما شئت فلن تؤثر فينا . واعلم أننا عقدنا العزم لنكون عاملين على ما يوقف مد رسالتك، وتصور ما سيحصل لك.

لا تتأثر يا محمد بشر استهم، وقل لهم: {ما أنا إلا مثلكم} في البشرية، لا أدعي أني مسيطر عليكم أو متحكم فيكم، ولكني أفضلكم، بأن ربي اختارني لتحمل وحيه الذي يقوم على أن إلهكم لا يكون إلا واحدا. انهضوا لاتباع الطريق المستقيم الذي يوصلكم به. واطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبكم من الشرك ومن المعاصي بالتوبة. وليعلم المشركون أن الله قد أعد لهم الويل: العذاب الأليم. المشركون الذين لا يعينون بالصدقة على المحاويج، لا تلين قلوبهم لأنهم متصلبون في الكفر بيوم القيامة.

بيان المعنى العام

1.حم

يقال فيه ما قيل في الحروف المقطعة المفتتح بها بعض السور القرآنية. وهذه هي السورة الثانية من السور السبعة المفتتحة بـ: حم .

2.تنزيل من الرحمن الرحيم

ثَبَتَ هذه الآية أن القرآن تنزيل عظيم، لم يكن لمحمد فيه دخل إلا بالتبليغ والبيان. نزل بكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته، جبريل عليه السلام من الله الموصوف بالرحمة الواسعة. رحمهم بهذا الكتاب ليخرجهم من ظلمات الحيرة والضلال، إلى نور اليقين والهدى .

3—4.كتاب فصلت آياته...فهم لا يسمعون.

أجرى على هذا التنزيل الأخبار التالية :

أ - كتاب: يكون أولا وحيا يسمعه النبي ﷺ، ويقرأه، ثم يأمر أحد كتبة الوحي بتسجيله، فاجتمع فيه من أول يوم بالنسبة لكل آية من آياته، الحفظ، ثم التسجيل بالكتابة.

ب -فصلت آياته: كان نصه واضحا بينا، لا لبس فيه. ومن حاول من المكابرين تأويله التأويل الذي لا يتفق مع روحه ونصه، يعجز عن بلوغ الغاية من مكره ويظهر سقطه .

ج - قرآنا عربيا: تنويه بلغته التي هي أوسع اللغات، وأقدرها على تحمل المفاهيم وإبلاغها، فما توجد لغة أقدر من اللغة العربية على حمل الهداية السماوية للبشرية، مع استمرارها عبر الأزمان على المستوى الذي كانت عليه وتمكنها من مخاطبة البشر والتأثير عليهم، على مختلف درجاتهم الفكرية والثقافية.

لقوم يعلمون: القرآن في ذاته موصوف بما تقدم، نزل لقوم متهيئين للمعرفة والانتفاع بما جاء فيه. فمن وقف منه موقف الرافض دون أن ينظر فيه أو يتدبر في معانيه لا ينتفع به لعيب فيه لا لخلل في القرآن.

د - بشيرا: هو مبشر بالخير للمستقيمين الذين يألفونه ويطبقون ما جاء به، وتنوعت طرق التبشير في القرآن، من الطمأنينة الراضية إلى الفوز يوم القيامة.

هـ - يوقظ للتحصن من أمر مخوف، ببيانه، كما جاء في تفصيل ما توعد به الكافرين من خزي الدنيا، ومن عذاب الآخرة. وما حذر فيه العصاة من غضب الله وعقابه.

فأعرض أكثرهم - تسجيل لموقف القرشيين من القرآن، بمجرد ما جاءهم الهدى أعرض أكثرهم عنه. فرفضوا هدايته قبل أن يتأملوا فيها أو يجربوها. ولم يلقوا بالا لما جذبهم إليه من البشارات، ولم يحذروا الشر فيحتاطوا له ويحصنوا أنفسهم منه .

فهم لا يسمعون: تجسيم لقوة إعراضهم. لما وصف المنزل بكونه قرآنا ينفذ إلى العقول المستعدة للمعرفة، كان موقفهم الرفض، فاستووا في التأثر به مع الصم الذين تعطلت حاسة السمع عندهم.

5-وقالوا قلوبنا في أكنة...إننا عاملون

واصل القرآن تفصيل موقفهم من القرآن بتسجيل تصريحاتهم التي عبروا بها عما يكنون للإسلام من عدم الاكتراث والانصراف عنه. قالوا: اعلم يا محمد أن عقولنا التي بها نفكر ونفهم يحيط بها غطاء سميك لا ينفذ معه أي شيء مما تدعونا إليه، سواء أكان من العقيدة أم من السلوك والعلاقات الاجتماعية، وكذلك من القرآن التي تقدمه معجزة لصدقك. وآذاننا صماء لا تسمع ما تقول، واعلم أنه قام بيننا وبينك حجاب

عازل فلا يرى أحدنا الآخر. وهو تجسيم لشدة بغضهم للإسلام وتصلبهم في معاداته. وأنهوا ردهم بالجمع بين عدم مبالاتهم بحرصه، فقالوا: واصل عملك فإنه لا يهمنا، ولا تطمع أن تحصل على نتيجة تقر عينك. ونحذرك بأننا عاملون، حذفوا متعلق عملهم مبالغة في التهديد لتستذهب النفس في تصور أعمالهم، وهم خبثاء، صورا من الكيد المادي والنفسي.

6-7 قل إنما أنا بشر...وهم بالآخرة هم كافرون.

كانت مواجهتهم للدعوة عنيفة ترمي إلى زرع اليأس في قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأسعفه التأييد الإلهي يثبته. كانت ردة فعلهم قوية حسبما سجلته الآية السابقة، ومن شأن المواجهة بمثل هذه الدرجة أن تهدم الثقة بالنفس، فأمره ربه بقوله، قل: انما انا بشر مثلكم. إن الصراع لما احتدم إلى هذه الدرجة، فالمهزوم هو الذي يترك الساحة وينصرف بأكله الأسى مغلوبا على أمره. كأن الآية تقول لرسول الله: واصل الدعوة، وأعد على مسامعهم الحقيقة التي تحملها، وتحدثهم، كرر عليهم: إني بشر مثلكم، ولست ملكا. فكل ما تشغبون به من التشكيك في رفض تكليف الله رسولا من البشر بالهداية ليس فيه شيء من الحق ولكنه الهوى الذي لا قيمة له. ولكني لست مثلكم في كل شيء، فإن الناحية التي فضلني بها ربي، أنه يوحي إلي: أنما لا إله إلا الله وإن الحكم الحق لا يكون إلا واحدا. ولو أمرهم بالاستقامة على طريق الحق، الذي لا تتلاعب به الأهواء والشهوات. ولخلصوا لربكم الواحد في جميع أعمالكم، وقد عشتم ردحا من حياتكم على ضلال تلوثتم بالآثام والمعاصي، فاستغفروا ربكم، اطلبوا منه أن يغفر لكم ما قدمتم، وفي ضمن ذلك التوبة من الكفر والعصيان.

إن هذه الآية تعطي منهجا لأصحاب المبادئ الرفيعة والقصد إلى الإصلاح، إن عليهم أن لا يتأثروا بردة الفعل الأولى العنيفة من الذين يريدون إصلاحهم، وعليهم أن يمضوا في سبيلهم وليكرروا على أسماع مخاطبيهم الحق الذي يؤمنون به فإن الباطل له صولته ولكن الحق يدمغه فيزهقه.

وويل للمشركين هددهم بما يترصدهم من عذاب أليم أعده الله لهم جزاء شركهم. وشنع عليهم شحهم بالمال، فهم قد أمسكوا أيديهم عن عون المستضعفين من المسلمين. إذ الزكاة بمعنى أحد أركان الإسلام غير مقصودة في الآية، لأنها لم تفصل أحكامها في العهد المكي، والسورة مكية. وقرن بين التشنيع عليهم والتسجيل بأنهم كافرون بيوم القيامة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

بيان معاني الألفاظ:

الأجر : الجزاء الصالح.

ممنون : المنة تذكير المعطى بفضل المعطي .

أندادا: جمع ندّ وهو المثل.

رواسي: ثوابت.

البركة : الخير النافع.

استوى: قصد قصدا خالصا.

ائتيا: الاتيان الحصول والوقوع.

قضاهن : أوجدهن مبدعا.

بيان المعنى الإجمالي :

يبشر القرآن المؤمنين الذين أخلصوا لله وعملوا ملتزمين شرعه، أن الله يوفيهم يوم القيامة أجورهم، دون أن يؤذيهم المن والتذكير .

قل للمشركين موبخا لهم: كيف تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، وضبط في تكوينها جميع القوانين المحكمة، وتجعلون له مساوين في الألوهية، مع أن الذين تدعونهم عجزة لم يخلقوا شيئا. إن المستحق للألوهية هو الله الذي تولى كل عنصر من عناصر العالم برعايته حتى بلغ المستوى الذي هو عليه. ومع خلقه للأرض في يومين، فقد جعل فوق الأرض جبالا راسيات ثابتة، وكثّر خيرات الأرض، وقدر الأقوات التي تنتجها، لائم بين تلك الأقوات وبين حاجات الإنسان وحاجات كل نوع من أنواع الحيوانات، وأتم كل ذلك في أربعة أيام ليتبين بذلك السائلون عن الخلق الإلهي .وفوق خلق الأرض وأسمى منها مرتبة قصده سبحانه إلى خلق السماء، وكانت دخانا. جسّم خلقه للسماوات والأرض بما يقرب للأذهان الحقيقة المعجزة،

أذن للسماوات وللأرض أن يخرجا إلى الوجود الحقيقي، تنفذ فيهما الإرادة الحكيمة بدون تردد ولا انتظار. فكان واقع حالهما الاستجابة للإرادة وانبثق الكون. فرتب مبدعا السماوات في يومين. وحسب تقديره تم إحداثها على قوانين ونواميس معقولة، لكل سماء نواميسها وخصائصها وما يعمرها وعلاقتها بغيرها من السماوات. ومن كمال الصنع أن جعل السماء الدنيا مرصعة بالنجوم كأنها المصابيح، ومع الجمال تقوم بدورها في الحفظ للكيان العام، ومن الشياطين. كل ذلك من تقدير العزيز الذي تنفذ إرادته فلا ترد، العليم العلم الكامل الذي لا يغيب عن علمه الواقع الحاضر، وما سيحدث في المستقبل، فرتب لكل حادث أمره قبل وجوده.

بيان المعنى العام:

8 إن الذين امنوا..لهم أجر غير ممنون

في مقابل ما توعد به المشركين الذين يشحون بأموالهم، وعد الذين جمعوا بين صفاء العقيدة وصالح الأعمال، فكان تأثيرهم في الكون التأثير الحسن، وأخلصوا لله، وعدهم بالجزاء الصالح كفاء ما قدموه، ينعمون به دون أن يمن عليهم أحد بما هم فيه من نعيم .وكما قيل: طعم الآلاء أحلى من المن، وهي أمر من الآلاء عند المن.

9 قل أئنكم لتكفرون.. ذلك رب العالمين

قل للمشركين موبخا : استفهمهم استفهام تقريع لا يقتضي جوابا،عما تأكد حصوله منهم: كيف تكفرون بالذي بقدرته وإرادته تم خلق الأرض في يومين .وقد ذهب المفسرون في بيان اليومين اللذين تم فيهما الخلق مذاهب عديدة، خاصة وقد واجهتهم مشكلة، أن تحديد الأيام حسب المصطلح: المدة المقدرة بأربع وعشرين ساعة، نتيجة دوران الأرض حول نفسها، والأرض لم تخلق بعد. والذي نطمئن إليه أن القرآن يفهمنا أن الإرادة الإلهية تعلقت بخلق الأرض على مراحل لا دفعة واحدة، عبر عنها بيومين . فقد تقدم لنا في سورة يس : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)[1] فخلق الأرض لم يتم بالأمر التكويني الجامع السريع. واليوم ليس هو اليوم الاصطلاحي، وإنما هو يوم لا يعلمه إلا الله كما جاء في قوله تعالى: (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)[2] وكما جاء في قوله : (في يوم كان

---

[1] سورة يس، الآية 82

[2] سورة الحج آية 47

مقداره خمسين ألف سنة)[1] وفي إعلامنا انه خلق الأرض في يومين تعليم لنا، أن العمل المتقن يتطلب وقتا لا بطء فيه ولا عجلة. ومع كمال التقدير والأسرار التي لا تُعدُّ في خلق الأرض، تجعلون أيها المشركون لله الخالق آلهة هي مثله في استحقاق العبودية. إن ما تذهبون إليه باطل وخور وغباء. ذلك العظيم الذي خلق الأرض في يومين هو رب العالمين جميعا، وما سواه ليس له دخل في الخلق، ومع انتفاء الخالقية تنتفي الألوهية قطعا.

10. وجعل فيها رواسي ...سواء للسائلين.

عطف على خلق الأرض في يومين، بعض المظاهر في الأرض التي تستوقف النظر وتنادي بعظمة الخالق، جعل سبحانه الجبال الراسية الثابتة فوق سطح الأرض، بما تتميز به من قوة، وبما نوع فيها من الخصائص. فبعضها ترتفع قممه عالية فتكون مكسوة بالثلوج كامل السنة، وبعضها تغطي بصخور مختلفة الألوان والأشكال، وبعضها يكسوه الخلاق بالأشجار الباسقة والنباتات المختلفة الألوان، وبعضها يبدو جاثما صلبا صلدا، وبعضها تنطلق من قمته فوهة بركانية. ومن حكمة الخلق أن بارك سبحانه في الأقوات التي تخرج من الأرض، فتعطي لكل حيوان ما يحتاجه لبقاء نوعه، وللبشر ما تتقوم به حياتهم، وتستلذه أذواقهم. وكل نوع من تلك الأنواع قدره في تكوينه، وفيما يأخذه من عناصر الأرض تقديرا محكما. وقد تم ذلك في (أربعة أيام) .ونقول في الأيام الأربعة ما قلناه في اليومين. وفرض المفسرون أن الأيام الأربعة تشمل يومي خلق الأرض، (واليومين) اللذين قدر فيهما الأقوات، فيكون المجموع أربعة أيام. وهم مأخوذون بما جاء في التوراة أن الله خلق الكون في ستة أيام ثم استراح يوم السبت. فلذلك جعلوا يوم السبت يوم راحة. وقد تبين أن الأيام ليست أيام الأسبوع. وتعالى الله أن يلحقه إعياء حتى يحتاج للاستراحة.

سواء للسائلين - أربعة أيام كاملة لا نقص فيها. جعل ذلك، وبارك، وقدر ليعرفه السائلون عن الخلق الإلهي.

11. ثم استوى ...قالتا أتينا طائعين.

العطف بـ" ثم" هو للتفاوت في الرتبة لا لتأخر خلق السماوات زمنا. فالمعنى أنه فوق خلق الأرض وما ذكر فيها وأعلى منزلة، خلق السماوات ولذلك عبر القرآن بقوله ثم استوى المفيد أنه قصد قصدا خاصا متوجها إلى خلق السماوات. وعرفنا

---

[1] سورة المعارج اية 4

أن المادة الأولى كانت عبارة عن شيء شبيه بالدخان، قربه إلى مستوانا المعرفي بأنه كائنٌ متخلخلٌ مظلمٌ. الدخان أقرب شيء إليه. ولكن متى وجد هذا الدخان، وكيف تم تحوله هنالك من علم الله الذي لم يطلعنا عليه.

فقال لها وللأرض... ما كان التوجه للأرض والسماء بهذا اللفظ ،وما كانتا موجودتين فعلا عند توجه الأمر التكويني. ولكن المراد، والله أعلم، أن الإرادة التي تخضع لها الكائنات جميعا توجهت إلى الدخان ليتكون منه السماوات والأرض على المقادير التي ضبطت مقدما في علم الله. وإن كل الكائنات بمجرد ما تتوجه الإرادة لفعل شيء فيها يحصل فيها ما يحركها لتحقق الإرادة بواسطة القدرة الفاعلة. وعبر عن هذا المفهوم بقوله: {ائتيا طوعا أوكرها}. لتتمّ في ذات الدخان التفاعلات التي تتولد منها حتما السماوات، التي هي غير الدخان طبعا، وليس لهذا الدخان اختيار في تحقق التحول أو عدم تحققه. تتحقق الإرادة. وتنفّذ القدرة ما تعلقت به الإرادة، وهو معنى قوله: {قالتا أتينا طائعين}. أخذت التفاعلات التي قدرها تعمل على تكوين السماوات والأرض. وتم ذلك في يومين وكذلك في بناء الأرض حسبما ذكر في الآية السابقة. إن شأن التأثير أن يجد في الكائن المؤثر فيه مقاومة، تضعف أو تقوى، يتم ذلك حتى بالفرار من المؤثر. وهذا في العلاقات بين الحوادث، أما علاقة المحدثات بالإرادة الإلهية ففي تركيبها طواعية القبول والتنفيذ لما تعلقت به الإرادة. سواء في ذلك إحداثها أو التحويل في ذاتها وفي خصائصها.

12 فقضاهن سبع سماوات...تقدير العزيز العليم

وتم ذلك في السماوات في يومين أيضا .فأوجد سبع سماوات، لكل سماء كيانها، وقوانينها الخاصة بها. ولا تسأل كيف إن السماوات على واسع أبعادها، وعظيم ما حوته من المجرات والكواكب كيف استوت مع الأرض في عدد الأيام، وذلك لأني بينت لك سابقا، أن الأيام ليست الأيام المحددة بأربع وعشرين ساعة. وتقديم القرآن الحديث عن خلق الأرض لا يدل على أن خلقها سابق على خلق السماوات. ولكن لما كان القصد الأول هو الاعتبار الذي يترتب عنه قبول الإسلام دينا حقا منزلا من عند الله، والأرض أقرب للمعاندين، قدم الحديث عن الأرض لذلك. والقرآن يهدي إلى سبق خلق السماوات. قال تعالى: {والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها }[1]

---

[1] سورة النازعات آية30/31

وأوحى في كل سماء أمرها...سخر الله كل سماء لتتفاعل العناصر فيها تفاعلا يتم به ما أراده الله من الصفة التي تكون عليها، وما يجري فيها، وما تحويه من كواكب وكائنات هو أعلم بها، وما يربطها بغيرها من السماوات من الجاذبية والتفاعل. وخصت الآية الحديث عن الظاهرة التي تبدو للإنسان من صفحة السماء. فذكر ما عمرت به السماء الدنيا من النجوم التي تتلألأ في السماء كأنها مصابيح، راعى في انتثارها، وترتيبها وسطوع ضوئها الناحية الجمالية، فكانت زينة للسماء يسرح فيها النظر مستمتعا بجمالها. وقدّر أن تكون تلك المصابيح حافظة للسماء. سبق أنها راجمة للشياطين في سورة الصافات.

وقد يكون الحفظ هنا أعم من رجم الشياطين، فقد يكون لمنازلها وكتلها ما يحفظ بناء السماء .فالله أعلم بمراده .

ما لفتت إليها الآيات السابقة من الإبداع والخلق، ثم بتقدير دقيق لكل جزئية من تلك العوالم، قدّرها ونفّذها العزيز الذي لا يرد له أمر ولا يعطل إرادته معطل، العليم عظيمٌ علمه يستوي في ذلك المجرة الهائلة والذرة الصغيرة، وهو المتصف بالحكمة البالغة، راعى في خلقه قوانين أحكمها وأودعها في مخلوقاته، ورتب نواميس، عليها يجري أمر الكون فجرى على ما قدر .فتبارك الله أحسن الخالقين.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنذرتكم : الإنذار التخويف.

صاعقة: صوت شديد من الجو وقد تصحبه نار تنزل من السحب مع لمع البرق.

الاستكبار : المبالغة في الكبر، والتعاظم.

الصرصر : الريح العاصفة التي يكون لها دوي .

نحسات: جمع نحس السوء والضر الشديد .

الخزي : الذل .

أخزى : أشد إهانة وإذلالا.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد ما عرض على مشركي مكة من الأدلة التي يجب أن يهتدوا بها لو كانوا غير متصلبين في الكفر. أنذرهم بأنهم إن استمروا على عنادهم فقل لهم: ستلقون النكال والعذاب الماحق كما لقيه المعاندون عاد وثمود. حرص هود على هداية عاد قومه الذين أرسل إليهم، حرصا شديدا دعاهم إلى عبادة الله وحده، فاستكبروا واعتقدوا أنه لا يوازيهم أحد في العظمة، وقالوا لا يوجد من هو أقوى منا، فقد جمعنا بين حسن التدبير، وكثرة الأموال، ومناعة الحصون. لم يتوبوا وواصلوا إقامتهم على الكفر. ما أشد غفلتهم ! ألم يعلموا أن الله الذي أوجدهم وخلقهم، هو الذي خولهم من القوة ما خولهم، فالقدرة الكاملة له سبحانه. واستمروا على جحد آياتنا المنبثة في أنفسهم وفي الكون. فاستحقوا أن يرتب الله على موقفهم العذاب المتمثل في ريح عاتية يصحبها دوي كأنه صفير، تواصلت عليهم أياما، كانت أيام شؤم عليهم، فأذاقهم الله العذاب المهين -وأعد لهم يوم القيامة عذابا أبلغ إذلالا. ولا يجدون من ينصرهم،لا بإخراجهم مما هم فيه، ولا بالشفاعة فيهم.

بيان المعنى العام

13 -14 :فإن أعرضوا فقل...فإنا بما أرسلتم به كافرون.

بعد ذلك البيان الذي حقق تفرد الله بالتصرف في الكون سماواته وأرضه، والذي يقتضي أن يخضعوا للحق الوارد فيه ويؤمنوا برسالتك، ولكن من الاحتمال البعيد حسب المعقول، لو كانوا يعقلون أن يستمروا على إعراضهم مكابرين. وإن استمروا فقل لهم: تم الأمر فقد أنذرتكم عذابا شديدا مفاجئا كما تم لمن قبلكم، مثل عذاب عاد الذين أهلكوا بريح استأصلتهم، وثمود الذين دمروا بالصاعقة. فأطلق على العذاب المستأصل بالريح لفظ الصاعقة فجمع بينهما إذ انتهى أمرهما إلى المحق. حق عليهم العذاب في الوقت الذي جاءتهم الرسل: هود وصالح، جمعا بلفظ الرسل، لضخامة ما قاما به من الدعوة للحق. وفي العربية قد يعامل المثنى معاملة الجمع لنكتة. بينت الآية عظيم مجهودهما، وشديد حرصهما على تحقيق الهداية، وجسمت ذلك بأنهما قد أتيا قومهما من أمامهم، ومن خلفهم، بدعوانهم إلى إفراد الله بالعبادة. فليس المقصود المعنى الحقيقي من قوله: من بين أيديهم، ومن خلفهم. وإنما هو تمثيل يجسم شدة الحرص وبذل غاية الطوق.

اتفق رد قوم هود وقوم صالح على دعوتهما إلى توحيد الله والإخلاص له. قالوا لوشاء ربنا أن يبلغنا شرعه، ويوضح لنا ما يبتغيه منا عقيدة وسلوكا، فإنه يبعث لنا ملائكة لا بشرا . فدعواكما أنكما مبعوثان من عند الله افتراء على الله ولا نصدقكما في ذلك. ونحن كافرون بما أرسلتما به، مما حاولتما إقناعنا به، أنه من عند الله.

15 فأما عاد فاستكبروا..بآياتنا يجحدون.

بعد أن تم تخويفهم بأن مآلهم سيكون مآل عاد وثمود، أخذ القرآن في تفصيل ما وقع لعاد أولا.

كشف القرآن عن الانحراف الذي وقعت فيه عاد. وهو داء خلقي يهلك من اتصف به، ويحجب عقله عن المواعظ، ويجعل صاحبه يعيش في خيال مضلل. هو داء الكبر الذي يعظم فيخيل لصاحبه أن له من المزايا ما يفوق الحقيقة، ويستر عنه عيوبه فلا يفيق إلى إصلاحها. استكبروا في الأرض التي كانوا يسكنونها واحتقروا الضعفاء. وقوله تعالى: بغير الحق. وصف بشنيع اتصافهم بالكبر، فإن الكبر لا يكون أبدا بالحق. لأن المستكبر يغالط نفسه، يضخم مزاياه، ويطمس نقائصه. وكل إنسان مهما جمع من الكمالات هو منطو على نقائص كثيرة، يغطيها الكبر فلا يعمل على إصلاحها. سجل القرآن ما صرحوا به لما قالوا: من أشد منا قوة ؟ أعجبوا بما تجمع لهم من قوة أبدان، وكثرة أموال، وعدة سلاح، وتدرب على فنون القتال. استخفوا بالناس جميعا، واعتقدوا أنه لا يوجد في الكون من يقدر عليهم أو يساويهم، وأنهم حصنوا أنفسهم من كل بلية .

أولم يروا.. أنكر القرآن عليهم إنكارا في صيغة سؤال ليوقظهم من غفلتهم. ألم يعلموا أن الله الذي خلقهم، فحولهم من ضعف إلى قوة، ثم من قوة إلى ضعف، وأنه يتحكم فيهم في كل لحظة من لحظات حياتهم، فأين قدرتهم من قدرة الله التي بها خلقوا والتي بها ينتقص من قواهم شيئا فشيئا وهم يشاهدون ؟ ولكن الإصرار على إنكار الواقع، والمكابرة فيه التي تجعل المكابر يجحد ما يراه ويسمعه، هو الذي جعلهم يجحدون الآيات البينات المثبتة في أنفسهم وفي الكون المثبتة لوجود الله، وتفرده بالخلق، والحكمة الكاملة في تصرفه.

16 فأرسلنا عليهم ريحا..وهم لا ينصرون.

رتب الله على جحدهم لآياته، واستكبارهم واحتقارهم لغيرهم، وظنهم أنه لا يوجد من يساويهم في قوتهم، ورفضهم لتوحيد الله وطاعته، رتب على ذلك تقديره لإبادتهم. فصّل طريقة محقهم: أنه سلط عليهم ريحا عنيفة كأشد ما يكون العنف،

سريعة كأقوى ما تكون السرعة تكوي في اندفاعها، تواصلت عليهم أياما ترفعهم من أماكنهم إلى أعالي الجو ثم تلقيهم جثثا هامدة ممزقة، وتقتلع الأشجار والمنازل والقلاع التي كانوا بها يتحصنون. فكانت أيام نحس، يتتابع فيها في كل لحظة ما يمزقهم ويقضي عليهم وعلى حضارتهم. لم يستأصلهم في لحظة، والله قادر على ذلك، ولكنه قدر أن يذيقهم العذاب: أن يجعل إحساسهم بالعذاب إحساسا بالغا، وإنه لعذاب يجمع إلى الآلام المادية، الآلام المعنوية فقدر أن يجعلهم وهم يتعذبون يشعرون بالخزي والذل والمهانة. وبكل تأكيد فإن عذاب الآخرة أبلغ خزيا وإهانة، وهذا يقابل تعاظمهم في الدنيا وادعاءهم أنه لا أقوى منهم، ويفقدون النصير، فلا شافع لهم، ولا من يخفف عنهم العذاب.

تعالت قدرة ربنا، فإنه لما طغت عاد، وقالت من أشد منا قوة، قدر لسحقها ألطف شيء، هو الهواء، حركه بقدرته حركة اقتلعتهم مع حصونهم ومبانيهم وجناتهم، وكانوا أضعف من الهواء الذي يستنشقه كل لحظة ولا نشعر بدخوله ولا بخروجه للطافته. فليعتبر كل مستكبر أنه أضعف من الهواء إذا أراد الله أن يكون منه قوة.

وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴿17﴾ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿18﴾ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴿19﴾ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿20﴾ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴿21﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴿22﴾ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴿23﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴿24﴾

بيان معاني الألفاظ

هديناهم : أرشدناهم إلى طريق الهدى بواسطة رسولهم.

أخذتهم : تمكنت منهم الصاعقة كما يتمكن من الشيء الآخذ له باليد.

الهون : المذل .

أعداء الله : مشركو قريش

يحشر : يجمع الناس في مكان، مضمن معنى نرسل.
يوزعون: تنظيمهم لرفع الفوضى .
أرداكم : أهلككم.
يستعتبوا : يطلبوا الصفح والعتبى
بيان المعنى الاجمالي:
كما أهلك قوم هود بريح صرصر، أهلك الضالين من قوم صالح بصاعقة مهينة أبادتهم، بعد أن بعث لهم صالحا (ع)، الذي بذل كل جهده ليشرح لهم الحق في العقيدة والصلاح في السلوك، ففضلوا الطريق الضال الذي هم عليه. فتم سحقهم بسبب ما اعتقدوا وفعلوا. وأنجى الله الذين امنوا برسولهم واتبعوا هداه من قوم هود ومن قوم صالح، الملتزمين تقوى الله في سلوكهم .
واذكر يا محمد لقريش منذرا يوم يحشر الله جميع الكفرة المعادين لله ولرسوله، فينطلقون متدافعين تردعهم الملائكة ويعيدونهم إلى النظام، يسيرون إلى النار إلى أن يبلغوها.
بعد أن شهد عليهم سمعهم، بما تلا عليهم الرسول من كتاب الله وما وعظهم به، وشهدت أبصارهم بما نقلته إليهم من مشاهد الكون الدالة على الحكمة والتفرد بالخلق لله. وشهدت عليهم جلودهم بجميع أعمالهم التي باشروها، والجلود تحيط بكل جزء من أجزاء بدنهم. وكانت شهادة الجلود شديدة عليهم فضحتهم، فقالوا لجلودهم لائمين "لماذا شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله" الذي لا يرد حكمه، هو سبحانه هو الذي أنطق كل شيء فنطق. إنه الله الذي أوجدكم أول مرة فهل استطعتم أن تمتنعوا ؟ وهو الذي عدتم إليه ليجزيكم.
إثر لومهم لجلودهم على شهادتها التي لم تبق لهم حجة ولا اعتذار، وبعد سماعهم لإجابتها عن ذلك، انطلق صوت مؤنب لهم، قد يكون صوت ملك العذاب الموكل بهم، فقال لهم: لماذا تلومون جلودكم، مع أنكم كنتم مجاهرين بالشرك، لا تتورعون عن اقتراف المعاصي، فماكنتم تبغون الستر وعدم الانكشاف ولا تخافون من أن تشهد عليكم أسماعكم وأبصاركم وجلودكم .
إن الذي أهلككم ليس شهادة حواسكم ولكنه فساد عقيدتكم إذ كنتم تظنون أن الله لا يعلم ما تقومون به من أعمال، إن ظنكم ذلك واعتقادكم أنه لا حساب ولا عقاب، هو الذي أوقعكم فيما وقعتم فيه، وخسرتم أخرتكم. فإن صبرتم على الوضع الذي أنتم فيه، فأنتم مقيمون إقامة سرمدية في النار، وإن حاولتم الاعتذار فعذركم مرفوض.

بيان المعنى العام :

17.و أما ثمود فهديناهم...بما كانوا يكسبون.

تفصل الآية أخبار استئصال ثمود كما فصلت أخبار استئصال عاد. تعلقت إرادة الله بهداية ثمود بعد أن تعمقوا في الضلال، ولم ينتفعوا بعقولهم، ولم تقدهم آيات الكون، فبعث الله فيهم رسوله صالحا ﷺ . بذل صالح جهده ليقلعوا عن عبادة الأصنام، ويتحولوا عن سلوكهم الظالم، فلم يجيبوه وتبين له أنهم أحبوا ما هم عليه حبا شديدا. اختل سلم القيم عندهم فأصبحوا يفضلون الباطل على الحق، كأن عقولهم تعطلت لا تفرق بين المهالك والطريق المستقيم. إنهم إذ تصلبوا في هواهم تعلقت إرادة الله باستئصالهم، فلم يفلتوا من عذاب الصاعقة التي أرسلت عليهم فأبادتهم وأذلتهم فأصبحوا أشلاء ممزقة. وكان ذلك جزاء لما اختاروه لأنفسهم ومارسوا عليه حياتهم.

18.ونجينا الذي امنوا وكانوا يتقون.

صرحت الآية بالعدل الإلهي الذي جازى كل فريق بما يستحقه، فأهلك الكافرين من قوم عاد بريح صرصر، وأباد المغرقين في الضلال من قوم ثمود بالصاعقة، ونجى الذي امنوا وعملوا بمقتضى إيمانهم فصحبتهم تقوى الله. فصلح منهم الظاهر والباطن.

19-20: ويوم نحشر أعداء الله...بما كانوا يعملون.

و اذكر يا محمد محذرا كفار قريش بما قدره الله يوم القيامة. في ذلك اليوم يحشر الله ويجمع كل الذين أعلنوا عداءهم لله ولرسوله، ويجتمع منهم في المحشر عدد كبير جدا، فيتدافعون ولا يدرون إلى أي وجهة يتجهون، ويتداخلون فوضى، فتردعهم الملائكة وتعيدهم للنظام. ينتهي هذا التدافع والردع إلى أن يصلوا إلى النار. حتى إذا ما بلغوا حدود جهنم فلا تسأل عن وضعهم المقيت وعن اضطرابهم. يكونون في هذا المشهد وقد شهد عليهم يوم كانوا في الحساب سمعهم ردا لتلجلجهم وكذبهم في قولهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير ، وما سمعنا هداية، وما حضرنا مجالس المؤامرات للكيد للإسلام، فيشهد عليهم سمعهم: أن الرسول بلغهم آيات القرآن، ووعظهم فأحسن الموعظة، ولكنكم كنتم تصدون عن السماع. وأنهم سمعوا وحضروا تلكم المشاهد للكيد. وعندما يقولون ما عرضت علينا الآيات، فتشهد أبصارهم أن الكون كان مفتوحا أمامهم وأنهم نقلوا آيات الله وصور إبداع صنعه، ويوم ينكرون أنهم ما شاهدوا تعذيب المؤمنين، ويدعون أنهم ما ترصدوا لرسول الله والمؤمنين ليحاصروهم وينفذوا فيهم مؤامراتهم، تكذبهم أبصارهم أيضا. وتشهد

جلودهم، وهي مجامع الإحساس تغطي سائر الأعضاء، تشهد عليهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

21. وقالوا لجلودهم لم شهدتم...وإليه ترجعون،

إن شهادة الجلود كانت أثقل الشهادات أثرا في فضحهم. ذلك أنها تشهد على كل عمل قاموا به في الحياة الدنيا، من استمتاع بالمنكرات، في بطشهم وفي اغتصابهم للحقوق، وفي لذائهم الجنسية، وفي لمزهم وهمزهم للمؤمنين. إلى أخر ما فعلوه من مناكرهم. فيتوجهون إلى الجلود منكرين عليها هذه الشهادة التي أغرقتهم وأعجزتهم، والتي يترتب عليها تعذيب الجلود أيضا؛ فتجيب الجلود بكل تلقائية: أنطقنا الله فما كان لنا اختيار. إنه هو الله الذي أنطق كل شيء. إنه كما أنطق الإنسان بلسانه فقد أنطق كل الكائنات بتسبيحه مثلا. قال تعالى: (وإن من شيء، إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[1] ألم تخضعوا لتقديره وإرادته وقدرته. فهو قد خلقكم عندما أنشأكم من عدم، فخضعتم لما قدره وأراده ونفذه. وكما خلقكم فقد قدر رجوعكم إليه ليجزيكم، وقد فعل.

22. وما كنتم تستترون...كثيرا مما كنتم تعملون،

يحتمل أن يكون مدلول الآية من كلام الله توبيخا لهم، أو من كلام ملك وُكل بأن يقول لهم، وهذا هو الأقرب: ما كنتم في الدنيا تستترون وتخفون عقيدتكم الفاسدة وقبيح أفعالكم، حتى يحجب ذلك عن أسماعكم وأبصاركم وجلودكم، خشية أن تكون في يوم من الأيام شاهدة عليكم، بل كنتم تجاهرون بالشرك وتحتجون له، وتتحللون في فعالكم من القوم التي دعاكم إليها الدين، وماكنتم تؤمنون بالبعث حتى تتخذوا له الحيطة .ولكنكم تصلبتم في الكفر حتى حسبتم أن الله لا يعلم كثيرا من أفعالكم، وخاصة التي ظاهرها الخير وباطنها الشر لأنها رشح نفس غير مؤمنة لا تقصد إلا لما يرضي هواها من الشهرة والتأثير في الناس التأثير السيء حتى يقاوموا الدين.

23-24. وذلكم ظنكم....فماهم من المعتبين

إن هذا الظن الذي ظننتموه بالله، وحسبانكم أنه لا يبعثكم للجزاء، هو الذي تسبب عنه هلاككم. فشهادة جلودكم عليكم ليست هي المثبتة لفسادكم، ولكن الله عليم بما اقترفتم، وشهادة حواسكم وجلودكم هي للتشهير بكم. إنكم صرتم خاسرين لاعتقادكم

---

[1] سورة الإسراء آية 44

أنكم لا تبعثون وأن أعمالكم تخفى عن ربكم الذي هو المنشئ لكم والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

هم في النار يحترقون بها، ماكثون فيها، وليس لهم مخرج منها، فإن صبروا على عذابها فهم باقون فيها لا يخفف صبرهم من عذابهم. وإن سألوا الصفح فهم يائسون من أن يقبل الله منهم اعتذاراتهم، أو أن يصفح عنهم .

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

قيض: أتاح وهيأ.

القرناء : جمع قرين وهو الصاحب الملازم.

التزيين : التحسين.

ما بين أيديهم : ما يتعلق بالدنيا.

وما خلفهم : المغيبات.

حق عليهم القول : تحقق فيهم مقتضى القول وعيد العذاب.

الغوا فيه : شوشوا على تاليه.

الخلد : البقاء الأبدي.

بيان المعنى الإجمالي

يتفتح الضال على طرق الضلال ويألفها، فيهيئ له القدر من كان على شاكلته، ليتعاونا على الإثم والخطيئة. يألف كل منهما الآخر، ويزين له الفساد ويحببه له، ويدعوه إليه وييسره له. يعينه على إشباع شهواته وغرائزه، وينفي كل عقيدة تمنعه من الشر فلا بعث ولا حساب. ويكونون بذلك عرضة لتحقق الوعيد الساحق الذي حل بالأمم التي كانت على شاكلتهم من الجن والإنس. بكل تأكيد هم خاسرون لأنفسهم وذلك أعظم خسارة. وكان من مكرهم أن حرضوا أتباعهم من الدهماء على

التشويش على رسول الله ﷺ عندما يتلو القرآن، وذلك بالصياح والصفير، والكلام الفارغ، حتى لا يصل نصه واضحا إلى المستمعين. وقالوا لهم: إنهم بذلك يرجون علبة محمد فيتوقف عن إشاعة القرآن الذي أعجزهم ليخاف تأثيره في الناس. نبيأوا بسبب فساد عقيدتهم، وسيء أفعالهم، وبغضهم للقرآن، لينفذ فيهم قضاء الله. إن الله قدر أن يعذب الكافرين عذابا شديدا يحسون به إحساسا بالغا في الدنيا، وأن يجزيهم عن فعالهم السيئة. ذلك العذاب الذي هو جزاء من عادى الله ورسوله وشرعه، استحقوا النار التي يخلدون فيها ولا يجدون منها مخرجا، هي جزاؤهم بما استمروا عليه من جحد الآيات البينات، وتصلبهم في الكفر.

سجل القرآن تغيّظ الأتباع على رؤوس الكفر وهم في جهنم، فتوسلوا إلى ربهم أن يريهم القياديين من الجن والإنس في الدنيا، اللذين عملا بما لهما من الرئاسة وقوة الوسوسة على إضلالهم. ربنا إننا نريد أن ننتقم منهما بأن نرفسهما تحت أقدمنا ليكونا من الأشد سفالة ومهانة. جزاء ما غالطونا وأوهمونا من الباطل فأضلونا عن سبيلك وصرنا إلى ما نحن فيه.

بيان المعنى العام

25. وقيضنا لهم قرناء...إنهم كانوا خاسرين.

كشف القرآن عن ظروفهم التي أدت إلى ما هم عليه من الكفر والفساد. جرت سنن الله في البشرية أن من يرغب في الخير ييسر له أسبابه المعينة عليه، ومن يرغب في الشر يحرمه أسباب الخير فيألف من كان على شاكلته في الخبث والشر. وبناء على ذلك فإذا اختار الإنسان لنفسه طريق الضلال تحصل بينه وبين الأشرار جاذبية فيكون له من قرناء السوء أصحاب يتلازمون، وينبسط كل فرد منهم إلى الآخر في سلوكه الضال.

إن قرين السوء يضلل صاحبه، فيحبب له الكفر والفسوق، ويقوي تعلقه بما يشبع غرائزه، ويزين له الخطيئة فيألفها ولا يلوم نفسه على إتيانها. إنه بصفة عامة يكون قابلا للشر والفساد فإذا تهيأت فرصة اندمج فيه، يزين قرين السوء مباهج الحياة الدنيا الآثمة، ويزين له الكفر ونكران يوم البعث.

وعندما تتطبع النفوس بالخطيئة والشر، تتهيأ للعقوبة، فينفذ الله فيهم الوعيد الذي سلط على من كان قبلهم من الأمم الضالة من الجن والإنس. بكل تأكيد تحقق خسرانهم لأنفسهم، بتسليط العذاب عليها، العذاب السرمدي.

26. وقال الذين كفروا لا تسمعوا...لعلكم تغلبون.

شرقوا بالقرآن، وكانت خشية سادتهم كل الخشية أن يصل إلى مسامع الناس، إذ في جزالته وجماله وتفوق بيانه، وفي مضامينه التي تألفها الفطرة، ما يؤثر في سامعه

قطعا .فدعوا أتباعهم من الدهماء أن يشوشوا على النبي ﷺ عندما يتلو القرآن بالصفير والصياح، ورفع أصواتهم بالكلام اللغو الذي لا معنى له. المهم أن يضيع القرآن وسط صخبهم، فيعزلون الناس عن سماعه. وعللوا ذلك بما يحرضهم على التشغيب، بأن هذه الطريقة هي التي يرجى منها أن يغلبوا محمدا.

27←28 فلنذيقن الذين كفروا...بما كانوا بآياتنا يجحدون.

وعيد يزلزل قلوب الذين كفروا من مشركي مكة، بكل تأكيد بنزل عليهم عذابا شديدا يحسونه كأشد ما يكون الإحساس، في الدنيا بالقتل، والذل، وتفرق الكلمة، مع التأكيد على أن عذاب الدنيا لا يخفف عنهم المؤاخذة يوم القيامة. هو جزاؤهم عن شركهم ومعاصيهم المساوي لسيء أفعالهم. ذلك الجزاء السيء هو جزاء الذي عادوا الله ورسوله، هي النار التي قدرنا أن يكونوا خالدين فيها، يتضاعف عذابهم فيها بسبب استمرارهم على جحد آيات الله من القرآن ومن الكون.

29.وقال الذين كفروا...ليكونا من الأسفلين.

سجل القرآن ما طلبه عامة الكافرين من ربهم وهم في النار. طلبوا من الله أن يكشف لهم عن اللذين توليا إضلالهم من الجن والإنس، وأبعدوهم عن قبول الإيمان، أن يحضرهما حتى يكونا مشاهدين، لننتقم منهما أشد الانتقام، ندوسهما بأرجلنا ونذلهما، لنمحو ما كانا عليه من الاستكبار، حتى يكونا أسفل منا وأحط قيمة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ

استقاموا: ثبتوا على اتباع ما أمروا به، واجتناب ما نهوا عنه .

الخوف : غم في النفس ينشأ عن توقع المكروه.

الحزن: غم في النفس لفوات محبوب أو حصول مكروه.

ما تدعون: ما تتمنون.

نزلا: رزق الضيف من التكريم .

دعا إلى الله: طلب من غيره أن يتبع منهج الله وأن يخصه بالعبادة.

ولي: الحليف المناصر .

حميم: القريب .

يلقاها: يجعل لاقيا لها.

حظ: نصيب خير .

بيان المعنى الإجمالي :

ينوه القرآن بالمفوزين مصرحا بما اختصوا به من كامل الصفات، هم المعتزون بإيمانهم ،يعلنونه للناس قائلين: ربنا الله لا رب لنا سواه. هو الذي يوالي علينا ألطافه وفضله، ثم كانت لهم مرتبة أخرى هي يقظتهم الدائمة التي تجعلهم يسيرون في طريق وسط لا عوج له، ولا إفراط ولا تفريط. ينبئهم ربهم أن ملائكة الرحمة تتنزل عليهم تؤانسهم وتلقي السكينة في قلوبهم، وتؤكد لهم أنه قد انتفى عنهم موجبات الخوف فلا يستقبلون إلا خيرا، وكذلك موجبات الحزن فلم يفتهم أمر محبوب، ثم ذكروهم بما كان لهم من صلات بهم في الدنيا أمدتهم بالعون على الخير، وبرفع حسناتهم إلى ربهم. ويبشروهم بأنهم سيجدون في الآخرة حاضرا كل ما تشتهيه أنفسهم، كل ما يخطر ببالهم من أنواع النعيم. لا يضيق عليهم في شيء، فهم نزلاء الجنة، نزلوا ضيوفا على الرحمن قد أعد لهم أرزاق الضيف المكرم ممن لا ينقص من ملكه شيء، إنه هو الغفور الذي تكرم فمحا كل سيئاتهم فلم يبق في صحائفهم نقص، ورحمهم فضاعف حسناتهم وجزاهم بأحسن ما كانوا يعملون. ثم زاد القرآن تنويها بأنه لا يوجد قول أحسن من قولهم: كل واحد منهم يدعو إلى اتباع الطريق الذي يرضى عنه الله. وقرن القول بالعمل، وأعلن في اعتزاز : إنني من المسلمين، الذين أسلموا وجههم لله، وأنه جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده .

أمران متقابلان تمام المقابلة: الحسنة في القول والفعل، والسيئة في الفعل والسلوك لا يتلاقيان ولا مساواة بينهما؛ فالحسنة في المقام العالي، والسيئة في المقام الساقط الهابط. وبناء على ما بينهما من تضاد فالطريقة التي تنفع الإنسان في دنياه وفي معاده أن يقابل السيئة من القول أو الفعل، يقابلها بالفعل الأحسن، والكلمة الأفضل. التأدب بهذا الأدب يحول من كان يغلي قلبه عليك عداوة، يحوله إلى قريب لك شديد القرب لا يرضى أن يمسك مكروه.

إن هذا المستوى الرفيع بعدم الإسراع إلى الرد العصبي والغضبي، والتجمل بالأناة لا يبلغه إلا الذين وطنوا أنفسهم على الصبر، والتحكم في غرائزهم، ووزن ردودهم بميزان العقل. وإنه من وصل إلى هذا المستوى فهو صاحب حظ عظيم وخير كثير.

بيان المعنى العام.

الآيات الذين قالوا ربنا الله...التي كنتم توعدون.

يصلح القرآن البشر بالترغيب والترهيب. الترغيب بالتبشير بفضل الله الذي يكرم الصالحين ويضاعف أجرهم بما يتجاوز ما قدموه من خير. والترهيب بتفصيل صور مما سيناله الكفار والعصاة من عقاب. أنذرت الآيات السابقة المشركين بما يترصدهم في الدنيا من هزيمة وذل، ومآلهم في الآخرة في نار جهنم خالدين فيها. واعتنت هذه الآية بتفصيل جزاء الصالحين.

افتتحت بتحديد الصلاح الذي يهدف الدين إلى غرسه في المجتمعات البشرية، وذلك بالجمع بين قطبين:

القطب الأول: صلاح العقيدة. الإيمان بالله خالقا للكون مشرعا للبشر ما يتحتم عليهم تطبيقه في الحياة الدنيا، محاسب للنفس عما قدموه من عمل وقصد. مع الاعتزاز بالإيمان اعتزازا يجعلهم يصرحون بإيمانهم ويعلنونه في كلمة جامعة ربنا الله . لا رب لنا سواه. وهو الذي تولانا برعايته وعنايته من الخلق الأول إلى أن بلغنا ما بلغناه في الحياة.

القطب الثاني: الاستقامة التي تتحقق بيقظة المؤمن إلى صلته بخالقه. يدعوه هذا الحضور إلى القيام بما أمر به على الوجه الذي أمر به. ويعصمه من دواعي الإثم والشهوات. الاستقامة تجعل الإنسان بعيدا عن الغلو، يعمل على أن يكون الخليفة الصالح في الأرض، يعمرها، ويقيم العدل في علاقاته مع البشر ومع الكون. لا تستغرق العبادة الخالصة أوقاته، رهبنة تجعله لا يقوم بدوره في رقي أمته، ومضاعفة خيراتها. ومن ناحية أخرى لا يتراخى في القيام بواجباته العبادية، فلا يميل إلى أحد الطرفين ميلا يهمل أو يضعف الطرف الآخر. فالمسلم الذي ينوه به القرآن ويبشره هو البعيد عن التطرف.

وإذ تبينت الملامح التي يريد الإسلام أن يصوغ عليها أفراد هذه الأمة ومجتمعها، فقد ثنى ببيان ما وعدهم به من فضل وحسن جزاء فصرح بأمر من الغيب.

معلوم أن الملائكة عباد مطهرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، خلقوا ممحضين للخير، وليس لهم اختيار يتبعه التكليف والحساب، فهم يمثلون

الخير والطهر الخالصين. يأتي معهم الخير والطمأنينة لمن يؤمرون بمصاحبته.
أخبر القرآن أن الملائكة تتنزل على الموحدين المستقيمين، وتكون معهم مؤيدة مقررة للأمن النفسي الجميل. قيل إن تنزلهم يكون عند الموت وفي القبر ويوم يبعثون.
ويمكن حمل الآية على أن التنزل في الدنيا أيضا، يجعل المؤمن شاعرا بأمن نفسي، يلقون في قلوبهم ما يزيل خوفهم وينشر الطمأنينة ويساعدون داعية الخير لدفعهم إلى ما يرضي ربهم، عكس ما يلقيه الشيطان في قلوب أوليائه، القرناء المذكورين في الآية السابقة .
، المحمل الأول هو الأقرب. ويلقون إليهم ما يشرح صدورهم لحسن المآل، لا تخافوا فما تستقبلونه خير خالص، ولا تحزنوا فإنه لم يفتكم أمر تجدون من فوته ألما. وإذ انتفى المنغص المتمثل في الخوف والحزن، عمروا قلوب المؤمنين بالبشارة: ابشروا بقرب تمتعكم بالجنة التي تكرر وعدكم بها.

31-32←نحن أولياؤكم..نزلا من غفور رحيم.

ثم أضافوا تأنيسا للمؤمنين فقالوا: نحن كنا معكم مؤيدين في الدنيا، نيسر لكم أسباب التقوى ونقويكم على طرد وسوسة الشيطان، فصلتنا بكم صلة قديمة موصولة، كنا نرفع لربنا صلاتكم طرفي النهار، ونكتب حسناتكم فورا، وننتظر توبتكم قبل تسجيل سيئاتكم، ونحن نواصل تأنيسكم ورعايتكم في الآخرة . ثم بشروهم بأن الله أعد لهم في الآخرة كل تكرمة، فأنتم مستحقون لنيل ما تشتهيه نفوسكم، وما يخطر ببالكم. يحصل لكم كل ذلك حالة كونه رزقا من الله الذي قبلكم في الجنة ضيوفا على مائدة كرمه. وهو الغفور الذي محا كل نقائصكم، ورحمكم فضاعف حسناتكم.
ثناء جميل من الله المتفضل على الموحدين المستقيمين، أنه إذا قوست الأقوال فلا أحسن من قولهم. كيف لا يكون ذلك كذلك، وهم بأقوالهم يدعون الناس إلى التعلق بالله، والإخلاص له، ونبذ الشرك وتحطيم شبهات المبطلين. ليسود الخير وينهزم الشر. فهم يجاهدون بألسنتهم لتكون كلمة الله هي العليا، وتسود الفضيلة. ويربي القرآن المؤمنين ليكونوا أمة لا تناقض بين سلوكها وأقوالها، فالمنوه بهم هم الذين جمعوا إلى القول الداعي إلى الصلاح والفضيلة، جمعوا إلى ذلك العمل ليكونوا أسوة خير بفعالهم وأقوالهم معا. والتناقض بين القول والعمل يطفئ نور القول ويمحق تأثيره.
يقولون وهم معتزون بما هم عليه، فيعلنون: انا من المسلمين. بعد أن استقرت هذه الحقيقة في عقولهم: إن الإسلام معتقدنا و مذهبنا. ولما كان الأذان فيه دعوة لأداء

الصلاة جماعة، يكون الأذان داخلا في مفهوم الآية، ولهذا نصح المؤذن بأن يقول عقب الأذان: انني من المسلمين.

4 تنولا تستوي الحسنة ...ولي حميم

تتابع النظم القرآني مسجلا ثم منوها بالمؤمنين المستقيمين فبلغ في الآية السابقة أن أقوالهم الداعية إلى الخير هي أسمى الأقوال وأحسنها. مواصل الإرشاد إلى الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون الكمل من الجفاة والكفار .فابتدأ الإرشاد بنظم مقابلة بين حقيقتين متناقضتين: الحسنة من جانب والسيئة من جانب آخر. وكلمة الحسنة تثير في النفس معاني كثيرة ترجع إلى الكمالات الإنسانية، منها: الدعوة إلى الله، والدلالة على الخير، والإحسان في القول، والعفو عن الجفاة، والاستقامة كما بيناها قريبا. والسيئة تشمل النقائص الخلقية والسلوكية وكل ما هو قبيح، كالبذاءة، والتعدي على الأعراض، والفحش، والسباب، ونحو ذلك. فافتتحت الآية بنفي المساواة بين الحسنة والسيئة، على معنى أن الحسنة في المنزلة الممدوحة الرفيعة، والسيئة في المنزلة المذمومة الساقطة. وعطفت السيئة بكلمة "لا" ليقدر الكلام بناء على ذلك: لا تستوي الحسنة والسيئة، ولا تستوي السيئة والحسنة. فتنتفي المساواة بصفة مؤكدة.

-اتبع الجانب القيمي بتأكيد عدم المساواة بين الحسنة والسيئة، بالتوجيه والإرشاد إلى طريقة الاستفادة من ذلك. فتوجه الخطاب أولا إلى رسول الله ﷺ، ومنه إلى جميع المؤمنين باعتبار أنه أسوتهم الحسنة، ادفع السيئة بالتي هي أحسن. ومن بديع الصياغة القرآنية، أنه أمر أن يدفع السيئة من القول أو الفعل. بالطريقة التي أحسن في الدفع، فتشمل الأفعال، والأقوال، والتغاضي، والمؤمن بما ربي عليه من السمو يهتدي إلى الطريقة التي هي أحسن من غيرها. أي يختار الطريقة التي هي خير وأحسن ويفضلها على الطريقة الحسنة.

إن هذا المنهج في العلاقات البشرية، يحصل به الخير، ما لا يحصل بإفراغ شحنة الغضب سريعا بما هو مكافئ للتعدي الحاصل. إن الذي حمله عداؤه على إذايتك، ينقلب بحسن معاملتك وجميل ردك، إلى متعلق بك كأنه صديق قريب. إن التخلق بهذا الأدب القرآني يقتلع العداوة من قلب من تم الاحسان إليه، وينتهي الأمر حسب طبيعة التكوين الإنساني إلى الحياء من مواقفه السابقة. إن العداوة التي يشحنها الشيطان ويلهبها تمزق العلاقات الاجتماعية وتحول الطاقات من البناء إلى الهدم، والله استخلفنا في الأرض للتعاون على عمارة الكون ونعمل صالحا.

35. وما يلقاها إلا الذين صبروا...ذو حظ عظيم.

إن التأدب بالأدب الذي جاء في الآية السابقة، هو مستوى رفيع لا يصل إليه الإنسان إلا إذا وطن نفسه على الصبر، وعدم العجلة. ذلك أن شأن الإنسان العادي أن يستجيب للإثارة ليكون رد فعله على قدرها، فإذا تحكم عقله في عواطفه، وربى نفسه على الأناة وعدم العجلة والنظر في المآلات، استعد تبعا لذلك أن يكون الصبر خلقا له. فيخرج رده من غليان العاطفة وثورتها إلى الهدوء الفاعل، ويكون قراره قرار العقل البصير. وبهذا فإن الذي يتأدب بأدب هذه الآية هو الوحيد الذي كان حظه من الخير عظيما، فأصبح الصبر سجية له.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ

نزغ نخس، عبر به عن اتصال قوة الشيطان بمدارك الإنسان.

الآيات: الأدلة.

استكبروا: صدر عنهم ما يفيد تمكن الكبر منهم.

التسبيح: تنزيه الله عن كل ما لا يليق بعظمته.

يسأمون: يضجرون.

الخشوع: التذلل.

اهتزت: تحركت.

ربت: ارتفعت.

يلحدون: الإلحاد أصله الميل عن الاستقامة، والمقصود به الانصراف عن التأمل في الآيات الكونية.

بيان المعنى الإجمالي

لما هُدي النبي ﷺ إلى الصبر وعدم رد الفعل السريع الغاضب، فرض كما يفرض المحال أن يحاول الشيطان صرفه عن هذا المستوى بخواطر تدعوه إلى سرعة الانتقام. وهذا كثيرا ما يحصل للمؤمنين، فكشفت لهم الآية عن الطريقة المحصنة من تلك الخواطر، بأن يقول المؤمن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله يسمع ابتهاله، عليم بما ينطوي عليه من الخير.

من الأدلة البينة على تفرد الله بالخلق والتدبير تعاقب الليل والنهار بصفة منتظمة، وخلق الشمس والقمر. وإن كان هذان الكوكبان يؤثران في حياة البشر والحيوان والنبات والمد والجزر، فإنهما لا يستحقان العبادة. وإياكم أن تعبدوهما وتسجدوا لهما. إن الحقيق الوحيد بالسجود والعبادة هو الله، الذي تصرف فخلقهن على تقدير حكيم، إن من يعبد الله لا يمكن أن يعبد غيره ولا أن يجعل واسطة بينه وبين الله كما يدعي مشركو مكة . وإن استكبر المشركون من الانصياع لأمر الله بالانصراف عن عبادة الشمس والقمر، فإن الله غني عن طاعتهم. وإن لله ملائكة استغرقوا في التسبيح والتمجيد حياتهم، لا يلحقهم ملل من ذلك.

ودليل آخر من كتاب الكون تأمل فيه أيها الإنسان، إنك ترى بعينيك الأرض وهي منكسرة منزوعة الكساء، تسفو الرياح أديمها، فماهي إلا أن ينزل الله الماء عليها حتى تتحرك، يتخلل الماء باطنها فيعلو أديمها، وتتشرب البزور الرطوبة فتمد عروقها إلى الباطن بحثا عن الغذاء وتمد رؤوسها إلى السماء لتأخذ حظها من أشعة الشمس. وإذا وجه البسيطة مكسو بمختلف الألوان والأشكال. إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر طبعا على إحياء البشر. إنه طور من أطوار الحياة يمر على الانتظار وهي مشوقة إليه. عجب كيف ينكر الإنسان إمكان إحياء الموتى.

إن الذين يحرفون آيات الله، ويطمسون حقائقها، ويعملون على تغيير مقاصدها، منكشفون عندنا سنجزيهم عن كل ما فعلوه جزاء وفاقا. تصوروا العاقبة: عاقبة من يلقى في النار مهانا، وعاقبة من يقدم على ربه مطمئنا آمنا من غضبه وعقابه، أيهما خير ؟ تركت لكم الخيار في الدنيا لتعملوا ما شئتم من الخير أو الشر فإنني أنا الله بصير بما تعملون لا يخفى علي شيء من أفعالكم ومقصودكم، سأجزيكم بها الجزاء العادل.

بيان المعنى العام

36 وإما ينزغنك من الشيطان نزغ...هو السميع العليم

يخاطب القرآن بهذه الآية النبي ﷺ، بعد أن أرشده إلى مقابلة السيئة بالتي هي أحسن، وأن يترفع عن مجاراة السفهاء، متدرعا بالصبر. يخاطبه بأنه إن تصور وفرض كما يفرض المحال، أن الإساءة أثارتك، وتحدثت في نفسك بالانتقام من

المسيء ورد الفعل على مستوى إساءته، فاعلم أن هذا هو من محاولات الشيطان أن يخرجك عن مقام خلقك العالي إلى الأخذ بحقك المساوي لاستجابات كثير من الناس. ولما كان هذا الخطاب يشمل الأمة قطعا، فتحققه إنما هو لغير رسول الله، لأن الله عصمه من الشيطان، ولكن في توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ، تنبيه شديد للمؤمنين حتى لا يصطادهم الشيطان في حبائله. إن إحباط محاولات الشيطان رد الفعل العاطفي، تكون بالاستعاذة بالله، أن يقول المؤمن إذا غضب من الإساءة وحدثته نفسه بالانتقام السريع، أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وعد محقق من الله الذي يسمع ابتهال المؤمنين، العليم بما تنطوي عليه نفوسهم من التقوى، أن يسعفهم بتحصينهم من نزغه.

37ـ ومن آياته الليل والنهار...إن كنتم إياه تعبدون.

تذكير بالدلائل التي تثبت تفرد الله بالخلق والتدبير. فلفت الأنظار إلى مظاهر تتكرر على الأبصار كل يوم، ولعل في رتابتها ما يرفع قوة دلالتها، مع أنها أدلة عظيمة لمن يتأمل فيها، وميادين فسيحة للفكر والمعرفة. من هذه الأدلة الليل والنهار، وتعاقبهما بصفة منتظمة وبحساب دقيق يتداولان كل جزء من أجزاء الكون. والشمس والقمر، بالنظر إلى كونهما كوكبين مضيئين ترتبط الحياة بهما من نواح عديدة، وبالنظر إلى انتظام سيرهما، مجالات للتدبر والاستدلال على أن موجدهما هو القادر الذي لا يعجزه شيء.

إن التأمل في عظمة خلق الشمس والقمر، قد دفع طائفة من البشر لما لم يدركوا سر خلقهما وتدبير أمرهما، إلى اعتقاد ألوهيتهما، فعبدوهما وأظهروا الخضوع لهما بالسجود. فعقب لفت الأنظار إليهما، بالتنبيه على أن المخلوقات مهما عظمت لا تبلغ مستوى التأليه، وأن على الإنسان الذي رفع الله قدره، أن لا يسجد خاضعا إلا لله الذي خلقهما وخلق ما هو أعظم منهما، وختمت الآية بإفراد الله بالعبادة والإخلاص لعلي ذاته، فإنه لا يصح أن يعبد أحد سواه.

إثر قوله :تعبدون يسجد التالي للقرآن سجدة التلاوة عند مالك ومعظم أصحابه، وكذا هو مروي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود. وعند أبي حنيفة السجود إثر قوله بعد: وهم لا يسأمون . وهو مروي عن ابن عمر وابن عباس وسعيد ابن المسيب وعن الشافعي روايتان.

38ـ فإن استكبروا فالذين...وهم لا يسأمون.

أمر البشر أمرا جازما أن يفردوا الله بالعبادة، وفي ذلك شرف لهم. فإن استكبروا عن تطبيق الأمر الإلهي، وترفعوا أن ينصاعوا لحكم الله، فإن الله غني عن

سجودهم وعبادتهم، ولا يضرون إلا أنفسهم، وإن الملائكة الذين رفع الله مقامهم فجعلهم في الملأ الأعلى المطهر من الإثم، خاضعون الخضوع الكامل لله، مستغرقون في تسبيحه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، يستوعب تسبيحهم جميع الأوقات، وكلما واصلوا التسبيح زادوا أُنسًا به وانتفت عنهم السآمة، على معنى أنهم لا يجدون لذة تساوي تسبيح ربهم .

39 ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض ....إنه على كل شيء قدير﴾

واحدة أخرى من الأدلة المنبثة في الكون المثبتة لتفرد الله بالخلق والتدبير. تختلف هذه الآية عن الليل والنهار والشمس والقمر من جهة أن الآيات الأربع الأولى، نظرا لتكررها وانتظام حدوثها دون أن يشتاق الإنسان إليها قد لا يتأمل الإنسان فيها. أما آية وضع الأرض قبل نزول الغيث وبعده، فهي ظاهرة ترتبط بها حياة الإنسان، ويشتاق إلى المطر إذا انحبست . ولذلك توجه الخطاب إلى كل من تصح منه الرؤية ﴿أنك ترى﴾ ما ذا ترى؟ ترى الأرض في وضعها الأول خاشعة، كأنها منكسرة منزوعة اللباس لا تحمل خيرا ولا بهجة. وبمجرد ما ينزل الله عليها رحمته من السماء ماء، تتحرك حركة عجيبة، فيعلو أديمها بما يتخلل باطنها من الماء، وتكسى بمختلف أنواع النباتات المشكلة الألوان، وتبدو وكأنها مزهوة بما جمعت من جمال وخيرات. انتبهوا! إن الذي أحيى الأرض بعد جدبها وموت كل شيء في باطنها، بمجرد ما ينزل الماء تتشربه البزور فتمد جذورها في الباطن للقتات، وتظهر رأسها لتأخذ حظها من أشعة الشمس، فيكون النماء المتواصل والحياة الواضحة. إنه على هذا النحو يتم إحياء الموتى، إن قدرة الله لا تحدها حدود. إنك إن نظرت إلى المنظر العام للأرض، في حالة جدبها بعد أن حصدت الشمس الحارقة كل نبات على ظهرها، وفي حالة ريها بالماء وإحياء ما في باطنها، أو نظرت إلى الحبة الواحدة كيف يتم رجوع الحياة إليها لتأخذ دورة جديدة .سواء أنظرت إلى هذا أو ذاك فإن المشهد ناطق بأن قدرة الله على إحياء الموتى قدرة كاملة، إن البعث آت لا ريب فيه، فليستعد الإنسان للحياة الباقية .

40 ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا...بما تعملون بصير﴾

تابع القرآن من مفتتح السورة إلى الآيات السابقة لفت الأنظار إلى الأدلة على وحدانية الله وتفرده بالخلق والتصرف، وساق تلكم الآيات تباعا ليهدي البشر إلى الحق، وهو العليم بموقف عباده من آياته، يعلم أن بعضهم لا يتحرك للتأمل في تلكم الآيات، ويواصل تصلبه في الكفر . فالإلحاد في الآيات معناه الانصراف عن التأمل

فيها، ومحاولة الطعن فيها وتشكيك السامعين لها. يهددهم بأنهم مكشوفون عنده، مطلع على خفاياهم وما يقصدونه من إشاعة الكفر، وفي ذلك تهديد بما قدر لهم من جزاء كفاء إلحادهم في آياته .لا يخفون علينا: نحن بالمرصاد لهم.

أفمن يلقى في النار... تفصيل للتهديد الوارد في الآية السابقة. المصير إلى الله يجري على الصالحين والكفرة. ولكن الجزاء مختلف، فانظروا إلى المآلين: مآل من يلقى في النار مع الإهانة كما تلقى الفضلات، ومآل الذي يقدم على ربه مكرما آمنا من غضبه وعقابه. أيهما خير عاقبة ؟

أعاد التهديد بقوله : اعملوا ما شئتم . تهديد ووعيد. بكل تأكيد إن الله بصير بحقيقة ما تعملون، يعلم ظواهر أعمالكم، ويعلم مقاصدكم الخبيثة، وسيجزيكم عنها.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ

الذكر : القرآن.

فصلت : بينت.

الأعجمي : منسوب إلى أعجم وهو الذي لا يفصح باللغة العربية.

الشفاء : أصله، زوال المرض، والمقصود ذهاب الحيرة وحصول اليقين.

عمى : أصله عدم البصر، والمقصود عدم الاهتداء.

بيان المعنى الإجمالي

يقول الله لرسوله: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم خاسرون الخسارة الكبرى في حاضرهم ومآلهم. كيف لا، والقرآن قد سما في أوصافه إلى أعلى مستوى من الكلام لفظا ومعنى، فخسارة من صد عنه ولم ينتفع بهداه خسارة عظمى. إنه كتاب حق لا صلة بينه وبين الباطل. نزله الحكيم فكله حكمة، ونزله الحميد فمن شأن

المتبع لهدايته أن تحصل له المنافع التي لا تحد، التي جاءته من اتباع ما جاء فيه، فينطلق قلبه ولسانه بحمد منزله.

سلى القران النبي ﷺ عن حزنه بسبب وقاحة المشركين في مطاعنهم على القران، فصلا بأن ما يسمعه من المشركين من الأذى للدين وللقران وللوحي هو نظير ما سمعه الرسل من قبله من أقوامهم، فلا تحزن ولا تبتئس، واعلم أن ربك غفور يستر ذنوب عباده الصالحين ويمحوها. وهو سبحانه المتمكن من تسليط العذاب الشديد الإيلام لمن أعرض عن ذكره واذاك.

و لفضح عقلية المشركين، وأنهم ما يرمون من محاجتهم تبين الحقيقة، وإنما محاولة الطعن في القران، إنه لو فرض أن نزل القران بلغة أعجمية على رسول الله، لطعنوا فيه وقالوا: لولا جاءت اياته مفصلة بينة بلغة نفهمها، ما هذا الخلط ؟ رسول عربي، وكتاب أعجمي ينزل عليه.

قل لهم قولا يكشف عن أسباب عدم اهتدائهم بالقران والطعن فيه: إن العيب والنقص ليس في القران، ولكنه في ذواتهم. ذلك أن آثاره في المؤمنين به آثار كلها خير وبركة يهديهم إلى الحق، ويشفي صدورهم من وساوس الشيطان وزلازل الشك. بينما اثاره في الذين لا يؤمنون على العكس من ذلك ,يصم اذانهم، ويحجب بصائرهم فلا تترك شيئا من أنواره، وتبعدهم عنه بعدا فلا يصل إليهم شيء من خيراته.

بيان المعنى العام:

41-47-إن الذين كفروا بالذكر...تنزيل من حكيم حميد.

فاتحة الاية متصلة بقوله تعالى في الاية السابقة: (إن الذين يلحدون في اياتنا)، أبدلت منهم بدل بعض من كل (إن الذين كفروا بالذكر) ويكون الخبر ما يفهم مما أتي به خبرا عن المبدل منه (لا يخفون علينا) فيمكن أن يقدر الخبر: هالكون في الدنيا والآخرة. وبهذا تكون هذه الاية مؤكدة للتهديد الوارد في الاية السابقة. فهم مهددون بالعقوبة التي لا تترك قليلا ولا كثيرا من إلحادهم، ومهددون لأنهم كفروا بالقران الموصوف بالأوصاف الاتية، التي ما كان لهم معها أن ينكروه. فما هي الأوصاف التي جمعتها هذه الآية؟ تتبعها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله، وفصلها إلى ستة أوصاف، وهو كلام نفيس أقتبسه منه.

الوصف الأول: أنه ذكر، يذكر الناس كلهم بما يغفلون عنه، من الأمور التي من شأن الغفلة عنها فوات فوزهم.

الوصف الثاني: أنه ذكر بتحول العرب من أمة مغمورة إلى أمة قيادة العالم، ينشرون في الدنيا هداه، وتصبح لغتهم لغة العلم. كما قال تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك.)[1]

الوصف الثالث: أنه كتاب عزيز . نفيس، حجته ظاهرة ومن يعارضه مهزوم.

الوصف الرابع: بعيد عنه الباطل، بعدا لا يخالطه لا في ظاهر ولا في باطن. فمن أي جهة قصده المبطلون دفعوا. وجسم ذلك بقوله: من بين يديه ولا من خلفه – لأنه يدفع الباطل دفعا ذاتيا. يقول الزمخشري: ألم يطعن فيه الطاعنون؟ قلت بلى ولكن الله قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلاتهم ومطاعنهم فمحقوها.

الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة، وهي المعرفة الحقيقية التي لا تقبل النقض، لأنه تنزيل الحكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة.

الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، محمود حمدا كثيرا على فضله ونعمته على البشرية بإنزاله. لما يشتمل عليه من الخيرات التي بها تستقيم وتسعد حياة متبعيه في الدنيا والآخرة.

43- ما يقال لك إلا ما قد قيل.. وذو عقاب أليم

بعد أن دفع تجرؤ المشركين على القرآن، ونبه إلى سموه عما يعترض به الملحدون، راعى القرآن أن يتوجه بالتسلية لرسول الله ﷺ. فإنه كان يدرك ويحس من نفاسة القرآن ما يفوق ما يدركه ويحس به غيره. فكان الطعن في القرآن يؤلمه أشد الألم. فسلاه ربه بأن هذه هي سنة المعاندين الكفرة الملحدين مع الرسل جميعا، هوّن عليك، فإن جميع الرسل سمعوا من قومهم مثل ما تسمع من قريش من الأذى والمطاعن . كما يمكن أن تفهم الآية على أن ما أوحي إليك يتفق مع الأصول التي أوحي بها للمرسلين قبلك: التي جماعها: إن ربك لذو مغفرة ورحمة لأنبيائه وأوليائه، وذو عقاب أليم لأعدائهم .

فإذا اتبعنا التفسير الأول: أن مشركي مكة استووا مع المشركين من الأمم السابقة، فيكون قوله تعالى: إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . يفيد أن الله وعد وأوعد. وعد رسوله وهو ربه بأنه هو المالك لغفران الذنوب وإزالة آثارها كأن لم تكن، والبشارة بالنسبة لأمته واضحة. وأما بالنسبة له ﷺ، فإنا قد بينا سابقا أن النبي ﷺ يرتقي كل يوم في مدارج الكمال فيكون وضعه القديم ناقصا عن المستوى الذي

بلغه، فمن إكرام الله لرسوله أن جعل كل أحواله السابقة على المستوى الرفيع اللاحق.

وأوعد بأن عقابه للملحدين عقاب يحسون بألمه أشد الإحساس.

44 .ولو جعلناه قرآنا أعجميا...أولئك ينادون من مكان بعيد.

تبدأ الآية بفرض، لو جعلنا القرآن نازلا بلغة غير لغة العرب. فإن مشركي مكة لا يعدمهم الاعتراض عليه. فكما قالوا في القرآن النازل بلغتهم المتحدي لهم : أساطير الأولين، وسحر، وإفك افتراه، (ولو نشاء لقلنا مثل هذا...). فلو نزل بلغة أعجمية، لغة لا ينطق بها محمد ولا يفهم معانيها، فإنهم يقلبون اعتراضهم فيقولون: لولا نزلت اياته بلغة نفهمها، لولا فصلت وبينت اياته. وهو فرض مقابل قوله تعالى: (ولو نزلناه على بعض الاعجميين فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنين)[1] يكون حاصل اعتراضهم :كيف يكون قرانا نازلا من عند الله، المنزل عليه عربي، والنص بلغة أعجمية، أأعجمي وعربي. إنه تناقض غير مقبول. وهذا الجدل يحقق ما وصف الله به قريشا: (بل هم قوم خصمون)[2]

حققت الآية السابقة تصلب المشركين في الكفر، ومبالغتهم في الطعن في القران لتباعا لهواهم. فأمر الرسول ﷺ أن يقول معلنا: إن سمو القران وخيراته وبركاته لاتحد، ولكن آثاره تختلف فبالنسبة للذين آمنوا تنفذ إلى عقولهم بفعل الإيمان فتتفاعل مع مضامينه، يجدون فيه الهدى إلى الطريق الأرشد في العقيدة، وفي ضبط العلاقات الاجتماعية ضبطا يحقق النمو والأمن، ويجدون فيه أيضا ما يشفي صدورهم من الشك ويطرد وساوس الشيطان. وتكون آثاره على العكس من ذلك بالنسبة للذين لم ينفذ نور الإيمان إلى عقولهم، فحُجبتْ عن هداه

أولا: تتعطل أسماعهم عنه ويشغلون عنه، ويستولي عليهم العناد.

ثانيا: تحجب بصائرهم عن أنواره، فهم عمي لا يتبينون مقاصده، ولا ينتفعون ببيانه، شأنهم شأن العمي الذين لا يتأثرون بما تزخر به الحياة من مباهج وخيرات.

ثالثا: إنهم لقصدهم الصدود عنه، يكون شأنهم شأن الذي ينادى من مكان بعيد، فلا يدرك صوت المنادي والمسافة بينه وبين الصوت مسافة شاسعة.

ومع هذه التكييفات الثلاثة لوضعهم ينكشف بها سر إعراضهم وعدم انتفاعهم بالقران. وإلصاقهم به ما هو بعيد عنه، تبعا لجهلهم به.

---

[1] سورة الشعراء آية 199/198

[2] سورة الزخرف آية 58

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ

كلمة ربك : ما قدره من إمهالهم.

سبقت: تقدمت في علمه.

الأجل المسمى: الأجل المعين في علم الله.

المريب: الشك.

بيان المعنى الإجمالي

بكل تأكيد أتينا موسى الكتاب التوراة، فكان موقف المبعوث إليهم مختلفا منه، كذب بعضهم، وتأول بعضهم التأويلات البعيدة، وضيّعه بعض حتى أصبحت الظاهرة بالنسبة إلى التوراة هي الاختلاف. وإنه لولا أن الله قدر في سابق علمه الوقت الذي ينفذ فيه حكمه في الصالحين وحكمه في الكافرين لعجل لهم الجزاء المُرْدي. وإن الكافرين منغمسون في الشك من صدق القرآن. وما يزيدهم شكهم إلا قلقا واضطرابا.

من عمل عملا صالحا في قصده، وفي طريقة أدائه، فإن نفع ذلك يعود إليه، من أساء قصدا وعملا يجزى على مقدار إساءته. وربك يا محمد لا يظلم أحدا.

بيان المعنى العام

45- ولقد اتينا موسى الكتاب ...لفي شك منه مريب

تقدم في الآية 43 أن الكفر ملة واحدة، وموقفهم من هداية الله لا تختلف. فصرح في هذه الآية بما يذكر بموسى عليه السلام وبموقف الناس مما أتاه الله من الوحي . أفادت الآية أن الله اتى موسى الكتاب: التوراة، فكان موقف الناس منها موقفا مختلفا، كفر بها فرعون وبعض بني إسرائيل كقارون وعبدة العجل. وامن بها بعضهم ولكن عمدوا إلى تحريفها وتأويلها وطوعوها لهواهم. وأضاعوا نصها. وفي هذا ما يسلي النبي ﷺ إذ الاختلاف في القرآن كان اختلافا بين المؤمنين به الحريصين على الاحتفاظ بنصه، الراجعين لرسول الله لفهم ما يشكل عليهم، المجتهدين لتطويع هواهم لما جاء به، وبين الكافرين الرافضين.

ولولا كلمة من ربك.. تقرر في علمه سبحانه كل ما يقع في الكون، وما سيجري عليه أمر الدنيا في كل كبيرة وصغيرة، تبعا للحكمة التي قد تخفى علينا .فقد تقرر في علمه أنه لا يقضي على الرافضين للقرآن بمجرد رفضهم، ولا يسلط عليهم ما سلط على المكذبين لموسى من الاستئصال، ولكن تقرر في علمه أن يؤجل عقاب الكافرين ويمهلهم إمهالا لا ينفي عقاب المصرين على الكفر إلى الممات، بل يسوقهم إلى العذاب المقدر لهم يوم القيامة .ويمهل البعض فيسلط عليهم رسوله والمؤمنين كما تم لرؤوس الكفر في بدر، ويمهل فريقا آخر ليتوبوا ويكونوا عونا للإسلام ومجاهدين صادقين لنشر هداه في العالمين.

وبكل تأكيد هتك الشك في البعث وفي صدق الرسول عقول المشركين، هم يعيشون منغمسين في ذلك الشك الكبير الذي نخر أرواحهم.

46من عمل صالحا...وما ربك بظلام للعبيد.

تشير الآية إلى قانون عام أجرى الله عليه أسر البشر في حياتهم. حاصل هذا القانون العام:

أولا: أن من عمل عملا صالحا، صلحت منه النية فتمحضت للخير، وصلحت الصورة العملية بتطبيقه لشرع الله الذي تلقاه من ربه، فإن نفع فعله الصالح يكون لنفسه .يجد به طمأنينة في نفسه، ويلقى ثوابه مدخرا عند ربه.

ثانيا: أن من اختار الفعل السيء الضار الملوث بالشر، فإن آثار فعله ستعلو ذاته وتسحقها تحت انحرافه. يجد قلقا في روحه، وكراهية من الناس لفساده، وعقابا يوم القيامة في آخرته.

في تعبير وجيز يصلح أن يكون قاعدة عامة يستنجد بها الفكر، والدعاة، تلقي الطمأنينة في قلوب البشر جميعا. ما ربك الذي تولاك بعنايته، وأفاض عليك من فضله، وميزك بما خصك به يا محمد، إن ربك لا يتصور منه ان يظلم أحدا، فلا يظلم المحسن فينقص من أجره، لأنه غني كريم .ولا يظلم المسيء، فإن عذبه فهو كفاء ما قدم . فعدل الله كامل وصفة واجبة.

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ

مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ

يُرَدّ : يفوض علم الساعة لله.

أكمامها : جمع كمّ، وهو وعاء التمر .

آذناك: أعلمناك.

ضل: غاب.

لا محيص : لا ملجأ.

يسأم : يمل .

دعاء: طلب.

القنوط : أشد اليأس .

الحسنى : الحالة الحسنى.

عذاب غليظ: صعب شديد

بيان المعنى الإجمالي .

يسأل المشركون عن اللحظة التي ينتهي فيها العالم، فأجيبوا بأن علمها عند الله وحده، ولم يُمكّن أحد من ذلك. ولماذا يلحون لمعرفة الساعة ؟ فأشياء قريبة منهم تقصر عقولهم عن معرفتها، فالنخل تخرج أكمامها ولا يدري أحد كيف تتكون الثمار، ولا يعلم أحد متى تحمل الأنثى، ولا متى تضع حملها. والله وحده هو العليم بكل شيء. واذكر يوم يناديهم ربهم فيخاطبهم خطابا علنيا: أين شركائي الذين كنتم تسمونهم بي وتعبدونهم؟ أجابوا قائلين: أعلمناك، ونقر لك ما منا من أحد يشهد بأنها آلهة. وغابت عنهم الأصنام التي كانوا يدعونها ويعبدونها في الدنيا. و تيقنوا أنه لا مفر لهم من المصير الذي تقرر لهم.

حب الخير متجذر في فطرة الإنسان، ولكن الذين خوت أرواحهم من الإيمان يتعلقون بخيرات الدنيا، يلحون في طلبها ويلحون، ولا يملون من الطلب والسعي اللاهث. و من مسه منهم ضر ولو كان خفيفا تظلم الدنيا في عينيه، ويستولي عليه اليأس والقنوط.

ثم إنه إذا لطف الله به وأزال ضره، وفرج كربته أبطرته النعمة وقال: هذا حقي فما نفقت تجارتي مثلا إلا بفضل ذكائي وخبرتي، وما شفيت من مرضي إلا لأني اخترت الطبيب الماهر وأتمتع بجسم قوي وهكذا. وإذا ذكر بالآخرة سارع إلى

إنكارها، ويبلغ به الصلف والكبرياء أن يدعي قائما وضعه الأخروي على وضعه الدنيوي، فيصرح بأنه لو بعث فإنه سيجد عند ربه أحسن الجزاء كحالته في الدنيا.
بكل تأكيد سنكشف للذين كفروا صحائف أعمالهم يوم القيامة فيجزيهم عما قدموا، ثم ينفذ فيهم الحكم العادل، عذاب شديد كأبلغ ما تكون الشدة.
إن طغيان الإنسان لأمر عجيب، فإذا أنعم الله عليه ، وحقق له ما يأمله ، أعرض عن شكر الله وعن الاعتراف له بالفضل وابتعد عن الاتصال به، و إذا مسه الشر الذي يحذره يجزع أشد الجزع، ويتوجه بالدعاء الذي لا يتجاوز وقت الضر.

بيان المعنى العام

47-48: إليه يرد علم الساعة...ما لهم من محيص

إن من أبلغ ما يحرج الكافرين تذكيرهم بيوم القيامة، ووقوفهم للحساب بين يدي الله، فكان من جدلهم فيه إلقاء السؤال التالي: متى تكون الساعة ؟ فأثبتت الآية أن تاريخ حلول الساعة لا يعلمه إلا الله، نفوض العلم بتاريخها إليه، وليست هذه الوحيدة التي يجهلها الناس وتاريخها غير معلوم لهم، نبهتهم الآية إلى بعض من مظاهر حياتهم، فلاحتهم التي يباشرونها، لا يعلم أي فلاح ما تحويه أكمام النخل من ثمرات، لا عددها، ولا صلاحها، ولا اللحظة التي يبدأ كل كم في التفتح لقبول اللقاح. ولا يعلم أحد متى تحمل الأنثى، فاللقاء الجنسي وإن كان سببا للحمل، إلا أنه متى يكون مخصبا للبييضة، ومتى لا يكون، وما هو نوع الجنين من أول لحظة، وما هي خصائصه الخلقية والنفسية والعقلية، كل ذلك من الغيب الذي اختص الله بعلمه. و كذلك اللحظة التي تضع فيها الحامل المولود. وبذلك يصرف القران الفكر البشري عن البحث عما هو مغيب عنه، ولا يمكن أن يصل إلى معرفته، ليمحض فكره وبحثه إلى المجاهيل الكثيرة التي يمكن له اكتشاف أسرارها.
بعد أن أيأسهم من معرفة وقت يوم القيامة، قال لرسوله اذكر لهم شيئا مما يلقونه فيه، في هذا اليوم يخاطب الله الكافرين عبدة الأوثان، خطابا علنا يسمعه أهل المشهد ، يقول لهم: أين شركائي الذين كنتم تسوون بيني وبينهم في الدنيا وتزعمون أنهم آلهة؟ و يكون جوابهم: أعلمناك ونقر لك ما منا من أحد يشهد أن لك شريكا، يتنصلون يومها مما كانوا يعتقدونه ويجادلون فيه ويفرون معترفين بكذبهم في الدنيا، عندما كانوا يعلنون أن الأصنام حقيقة بالعبادة، ويعبدونها. كما يمكن أن تفهم الآية على أنهم يقولون: نظرنا فلم نشاهد واحدا منها. فلم يجدوا ما كانوا يعبدون في الدنيا. و ضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل، غابوا عن المشهد فلا أثر لهم، إما لأنه عجل بهم إلى النار، وإما لأنهم هلكوا مع ما هلك في الدنيا. و حصل

في أذهانهم توهم الفرار من الموقف، فتبينوا أنهم لا يجدون مفرا، يقال حاص الرجل: إذا راغ يطلب النجاة.

49. لا يسأم الإنسان ...فيؤوس قنوط.

شأن الإنسان أن تصيبه السآمة والملل من التكرار، ولكنه تبعا لما طبع عليه من حب كل ما هو خير من مال وصحة وجاه وبنين وعلم وكل ما يحقق رغباته، تجده كلما جاءه الخير طلب المزيد، إنه لا يكتفي بما عنده. وبالمقابل فإنه إذا مسه أدنى ضر حسبما تشير إليه كلمة مس، من ضعف الإصابة، فإنه لا يتحمله، ويجزع ولا يصبر، وينزعج إلى حد اليأس من ارتفاع الشر بل يصل إلى حد القنوط بفقده لكل أمل في الفرج. والناس في فرحهم بالخير وحب المزيد يتفاوتون على درجات، إن حب الخير إذا كان لا يطمس على الروح بما يشغلها عن علاقتها بربها وعن الشكر للواهب المنعم المتفضل، فهذا محمود، خاصة وإن الإنسان مستخلف في عمارة الأرض، مما يقتضي أن يفرح بنجاحاته، ومهمته في الكون ليس لها حدود. فكلما حقق هدفا انفتحت أمامه أهداف أخرى، وكلما عمر ونجح شاكرا لأنعم ربه، يكون محققا لإرادة الله في استخلافه لعمارة الكون. مثابا عن اجتهاده مستجيبا لأمر ربه، قال تعالى:(وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)[1] فتكون الآية تنعي أولا، على الكفرة الذين حصروا همهم في جمع أكثر ما يمكن من الخيرات، ويعتبرون أنه ليس وراء المغانم الدنيوية مطمح لهم. لا يشكرون الله على نعمه، ولا يؤدون واجب الشكر قولا وفعلا في تقوية الروابط الاجتماعية. وهم المعنيون بأنه إذا مسهم الضر يئسوا من الفرج، وقنطوا من عودة الخير.

50. ولئن أذقناه...من عذاب غليظ.

ثم تكشف هذه الآية عن نوع آخر من أخلاق الإنسان الكافر أولا، والغافل عن مقتضيات إيمانه ثانيا، كما سنتبينه من تتبع الآية :

أولا: إذا تفضل الله فرحم عبده الكافر بعد عسر، فشفي بعد مرض، أو توسع رزقه بعد ضيق، أو ارتفع عنه الظلم، ولا تغفل عن قوله تعالى: منّا . فإنه ما كان ليتحول وضعه من السوء إلى الخير إلا بفضل الله، إذ مقلب الأحوال هو وحده المتصرف. إنه إذا كان كافرا يقول: من حقي أن يذهب عني السوء، إن ما رزقته من خبرة وذكاء، لا بد أن أحقق به ما وصلت إليه من مكاسب. وإنه لولا الطبيب الماهر وقوتي البدنية ما كنت لأشفى ونحو ذلك. وإذا ذُكّر بالساعة وواجب الشكر

---

[1] سورة القصص اية 77

للمنعم يقول: الراجح عندي أن الساعة لا حقيقة لها، وعلى فرض أن نبعث فإني سأجد العاقبة الحسنة، فإن وضعي في الآخرة سيكون مثل وضعي في الدنيا، إذ المعقول أن يستمر ما أنا عليه في الدنيا .

ثانيا: إذا تفضل الله فرحم عبده المؤمن، فإن صفاء الإيمان على درجات، فالمؤمن النقي التقي، يرفع يديه وقلبه إلى خالقه بالشكر على ألطافه وفضله. و يعتبر ما حصل له من ضر، وما عقبه من خير بلاء يوقظه إلى مراقبة سلوكه، وشحذ عزيمته على مضاعفة فعل الخير. و المراتب دون هذه كثيرة تصل عند بعضهم إلى التسويف، سأفعل الخير، أو إن الله غني عن عذابنا، أو يعتبر الإيمان كافيا للنجاة من العذاب ومن سخط الله، و يؤول النصوص الواردة في الرجاء تأويلا يفرح به إبليس ليواصل إضلاله .فالآية صالحة للقسمين .

ثم توقظ هذه الآية الذين لم ينتبهوا إلى ما في البلايا، وما في الفرج بعد الشدة، إلى أنها أحوال تحرك الإنسان للتوبة و لمحاسبة نفسه. فليعلم كل مسرف على نفسه من الكفر، إلى ارتكاب المعاصي، أن كل ما قدمه في الحياة مسجل لا يضيع منه شيء، ثم إن الله يوقفه يوم القيامة ليذكره بسوء فعاله، و ليس هو الوقوف للتوبيخ بالتذكير فقط، ولكن ليجزيه عما فعله جزاء يحس بألم عذابه أشد الإحساس.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإعراض : الغفلة عن شكر المنعم،

نأى : بعد عن التفكر في نعم الله عليه .

بجانبه: منفصلا عن الله ، متكبرا،

الدعاء : الابتهال إلى الله لكشف الضر.

[illegible] : العصيان،

الآفاق : جمع أفق، الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها.

على كل شيء شهيد : مطلع ومهيمن على كل شيء،

مريب: الشك .

محيط: محيط علمه

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الإنسان الفاقد للإيمان عجيب، هو متناقض، فإذا أنعم الله عليه بالرزق والعافية وانتظام أمر حياته، أعرض عن شكر الواهب المتفضل، وابتعد عنه. و بمجرد ما يمسه شر من الشرور، مرض او ضيق في الرزق أو بلية في الأهل، ونحو ذلك، تجده منزعجا جدا يدعو لا صبر عنده. مما يضاعف وقع الشر على نفسه.

قل لهم: اخبروني؛ لنفترض ان القرآن والوحي الذي أتيت به هو من عند الله، أليس الواجب عليكم والحالة هذه أن تتأملوا فيه وأن تنظروا في حقيقته، ولا تسارعوا برفضه. إنكم إذا سارعتم بالكفر به والحالة هذه تكونون قد ضللتم وعصيتم. تيقنوا أن القرآن والشرع الإسلامي ستقوم الأدلة على صدقه في جميع أنحاء الدنيا، وكل يوم يمر تقوم شواهد مثبتة أن الوحي الذي أتيت به حق صادق. وكما تقوم شواهد الكون بصدقه، ينادي التأمل في ذواتكم بكون الله الخالق الواحد هو المتصرف في الكون .إنها شواهد يذعن لها كل عاقل في الدنيا.

إن حكمة ربك وحسن تقديره طبع بها كل كائن ، فالكل يشهد ببديع صنعه، وأنه هو المهيمن عليه سبحانه . ألا يكفيك ذلك دليلا على تفرده بالخلق و التدبير. ألا إن المشركين منغمسون في الشك المخرب لتفكيرهم و حياتهم. إن هذا هو وضعهم. أعلنه، وأنا الله المطلع على كل شيء اطلاعا لا يفلت منه صغير ولا كبير.

بيان المعنى العام :

51- وإذا أنعمنا على الإنسان...فذو دعاء عريض.

تتصل هذه الآية بالتي قبلها اتصالا وثيقا، وتكاد تكون تجسيما للصورة التي تفهم منها، فهي تكشف عن نفسية الإنسان الكافر أولا، والمؤمن العاصي ثانيا.

1)فبالنسبة للكافر تفيد أنه إذا تفضل الله عليه بنعمه الزائدة على الحاجة، فتوسعت أرزاقه، وكثرت أنواع الخيرات لديه، أعرض عن الإيمان وزاده الخير عتوا وكبرا. وابتعد بنفسه عن كل مشهد يرضي الله أو يعبر عن الاعتراف به . و إذا مسه أقل ضر تجده مقبلا بالدعاء طالبا كشف الضر . و ربما أن أدعيتهم هي مما ترسب من الثقافة العامة التي أصلها من عادات سالفة قبل أن تستولي عليهم عبادة الأصنام، وصف دعاءهم بالعريض أي الواسع، فإنهم إذ يدعون يرددون جميع ما حفظوه مما يتصل بكربهم الخاص وبغيره.

2) و بالنسبة للمؤمنين، فإن الإيمان درجات، فبعض المؤمنين يجعلهم الإيمان حاضرين مع الله في كل لحظة، إن غفلوا تذكروا فإذا هم مبصرون. وبعضهم استولت عليه الدنيا ، يجري لاهثا وراء ما يغتصبه منها، بقدر تعاسته، وسعادته بما يتجمع له منها. و بذلك تجد أصحاب هذا المستوى كلما أقبلت عليهم الدنيا زادوا تعلقا بها، وبعدا عن رياض الصالحين. و تجدهم أيضا إذا مسهم أي ضر ينزعجون أشد الانزعاج، ويدعون الله بكل لسان وبكل حرارة ليكشف ما بهم من ضر . ودون هذا المستوى مراتب كثيرة يقرب بعضها من مرتبة الصالحين، ويقرب قسم اخر من مرتبة المسرفين.

52. قل ارايتم..وفي شقاق بعيد.

ارايتم: اخبروني. تعالوا نحتكم إلى قوانين القبول والرفض كما يقتضيه النظر العقلي. إن هذا القران الذي تلوته عليكم، لا تستطيعون أن تنفوا احتمال أن يكون من عند الله .وهذا الاحتمال يقتضي منكم أن لا تسارعوا برفضه، بل تتدبروا فيه، وتزنوا ما فيه من حق. فإذا كان الحق فيه واضحا راجحا امنتم به . وإن وجدتموه على العكس ، كان لكم أن ترفضوه . و لكنكم وقفتم منه موقف الكفر والرفض بدون تبين، فأنتم ضالون أشد الضلال. عاصون عصيانا كبيرا، لرفضكم له قبل البحث وقبل التأمل في مضامينه وفي نسجه.

53. سنريهم أياتنا.. إنه بكل شيء محيط.

إن استنزالهم للنظر حسب قواعد النظر العقلي، وفرض الأمر وخلافه، ليس ناتجا من تردد في صدق القران، ولكن هذا المنهج يزلزل صدهم، ويحدث ثغرة في الحاجز الذي ضربوه على مداركهم، ثم يُجهز القران على عنادهم بأن معيار الحق والباطل: أن الباطل تكون له صولة ثم ينطفئ ويتلاشى، وأما الحق فهو كالفجر يبدو ضوؤه خافتا ثم يمتد ويتضاعف نوره، وحسب هذا المعيار فإن القران يؤكد إن صدق القران وما يحمله من حق سيزداد جلاء مع الأيام . سيرى العرب أولا ايات صدقه، ويراها ثانيا بقية البشر. و كذلك الشرع الذي جئت به.

لعل أنصع اية هي انتشار الإسلام في افاق الدنيا. إن المعطيات المقارنة لانتشار الإسلام ما كانت تدل إلا على أن الإسلام سيبقى في حدود جزيرة العرب. ولكن انتشاره السريع والواسع، وما صحب الفتوح من تأييد، في ذلك ايات على أنه لا يقاس بما عرفه البشر في تاريخهم الطويل، وإنما هو على أعلى درجة من الحق. واية ثانية: أن الذين اعتنقوه أصبحوا مدافعين عنه بأموالهم وأنفسهم، وما عرف هذا

لأي توجيه في حياة البشر لا من المفكرين ولا من الفلاسفة. خذ لذلك مثلا الشيوعية لفتت أبصار الناس مشرقا ومغربا، ولكنها لم تعمّر إلا قليلا حتى أصبح المؤمنون بها والدعاة لها أول من قوض أركانها وهدم بنيانها، وتنكرت لمبادئها حتى الدول التي ما تزال تقحم اسم الاشتراكية في التعريف بقوميتها.

وثالثا نزل القرآن على رجل أمي في بيئة بعيدة عن ترف الحضارة والتعمق العلمي. و من عهد النبوة إلى الآن تقدم العلم التجريبي في اكتشافاته تقدما عظيما، وما وجد المؤمن بالقرآن نفسه في حرج في الجمع بين الإيمان بالقرآن، وبين ما تكتشفه المعرفة الإنسانية من أسرار الكون. بل كلما تقدم العلم وجد المؤمن النص القرآني قد صيغ صياغة معجزة يفهمه بها البشر حسب مستواهم العلمي، دون أن يقع في حيرة بين مقتضيات إيمانه وبين مكتشفات العلم، فكان التقدم العلمي التجريبي معمقا لإيمان المؤمنين وفاتحا لعقول كثير من العلماء ليعلنوا انبهارهم بذلك، ويدخلوا في دين الله عن اقتناع .

ولا تقل أسرار الذات البشرية عن أسرار المادة ، عرف العلم تطور الجنين فكانت كشوفه متفقة مع ما سجله القرآن . وجدوا القرآن يدعوهم إلى التعمق في ذات الإنسان فإن فيها عجائب تهدي للإيمان قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1] إن تركيب الدماغ البشري مثلا وصلة كل جزء من أجزاء الجسم وكل حاسة به، وتسييره لها جميعا، بطريقة في اليقظة، و بطريقة أخرى في النوم، لينادي بتفرد الله بالخلق والحكمة. و كشفت المجاهر الإلكترونية للإنسان تكوين الإهاب الحاوي للدماغ، ومزايا خلايا كل جهة من الجهات، وجذع المخ وارتباط الحياة به، ونحو ذلك. وما كشف العلم إلا القليل من النظام الذي أحكمه الباري سبحانه ، فيزداد المؤمن إيمانا ويتبين أنه الحق . ويتبين بصفة أجلى وأتم حسب النواميس التي يجري عليها الخلق من الذرة إلى المجرة أن الله واحد لا شريك له مؤلفه هو الخالق للإنسان والكون، إذ النظام المسيطر الذي يتجلى كل يوم بصفة أوضح يحتّم العقل أنه صادر من قادر عليم خبير، وسع علمه كل شيء . تعالى أن يكون له ولد أو شريك، وهو الحق الذي ينادي به القرآن ويكرر عليه الأدلة.

أولم يكف بربك... سؤال تقريري يلزم بتأكيد ما تضمنته الآية في مقدمتها، مضمون هذا السؤال أولم يكف للناظر في صدق القرآن وفي صدق الشريعة التي أنزلناها عليك ، أن الله هو وحده المطلع العليم بأسرار كل كائن. في كل جزئية من

[1] سورة الذاريات آية 21

جزئيات هذا الكون، وفي الوحدات الكبرى، وفي النواميس العامة التي جرى عليها الخلق، تلمس يد القدرة والإبداع والحكمة الإلهية فيها جميعا. لا يمكن للعقل أن يفهم أسرارها إلا إذا اعتقد أن الله هو المهيمن عليها جميعا.

54. ألا إنهم في مرية من لقاء...بكل شيء محيط.

افتتحت الآية بـ[ألا] كأنه يقول للسامع استيقظ حتى تخرج من البحث والسؤال لماذا تصلب المشركون في شركهم ورفضوا الدين الإسلامي؟ إن الداء الذي أفسد عقولهم، وحجب عنهم الإيمان، هو أنهم منغمسون في الشك من الوقوف بين يدي ربهم للحساب يوم القيامة. تذكرهم بذلك وتدعوهم إليه. فتزلزل تصميمهم على الإنكار، ثم يعودون لتصور مقتضيات ما يترتب على الاعتراف بيوم القيامة من رفض الشرك، والتزام التشريع الذي يضبط أفعالهم، فيحجمون. فهم حسب النزاع الذي يجري في بواطنهم هم في شك، هم في ريبهم يترددون.

ألا – تنبيه ثان يقرر المضمون التالي. إن علم الله محيط بكل شيء لا يخفى عنه ما يعلنون ولا ما يبطنون. ما يصرحون به من الكفر، وما يجري في عقولهم. وعلمه سبحانه هو علم يرتب عليه آثاره يوم القيامة من الحساب والجزاء.

22 ذو القعدة 1434-2013/9/28

سورة الشورى

جرى تسميتها بهذا الاسم في كثير من المصاحف وكتب التفسير أخذا من الآية38، الآية الوحيدة في القرآن التي ذكر فيها لفظ الشورى. كما سميت عند كثير من السلف بسورة " حم عسق" أخذا من فاتحتها .وبهذا الاسم الأخير ترجمها البخاري والترمذي، و هي سورة مكية، ولختلف في بعض من آياتها مما سننبه عليه في موضعه. رتبتها في المصحف الثانية والأربعون. وحسب ترتيب النزول التاسعة والستون نزلت تالية لسورة الكهف وقبل سورة إبراهيم. وهي ثالثة السور المفتتحة بـ" حم"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

العلي: السامي في كماله سموا لا يقرب منه أحد .

يتفطرن : يتصدعن ويتشققن.

أم القرى : مكة .

يوم الجمع: يوم القيامة .

لا ريب فيه : لا يتصور فيه شك.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السورة بالحروف المقطعة كما افتتحت سورة البقرة .إنه على النحو الذي أوحينا إليك يواصل ربك الوحي إليك كما أوحى إلى الرسل الذين جاؤوا من قبلك.
إن الذي تولى ذلك هو الله المتصف بالعزة فهو يتم الفضل على من اختاره ولا يتصور أن يعترض أحد على اختياره إذ هو العزيز، كما أنه حكيم فالرسل الذين اختارهم لتحمل الرسالة هم أشرف البشرية وأولاهم بتحملها لأنه حكيم.
له وحده الملك الحقيقي لكل ما تحويه السماوات والأرض. لا يشاركه أحد في ملكه.
وهو الذي سما في عظمته وكماله، وهو العظيم الذي لا يثقله شيء. يكاد يبلغ أثر صلف المشركين ووقاحتهم وجراءتهم على الله أن تتشقق السماوات من فوقهن، وأن يفنى العالم كله. وأخبر الله أن ملائكته مستغرقون في التسبيح والتمجيد لذاته العلية لأنهم عرفوا ربهم فكان تمجيده والثناء عليه قمة ما يسعدهم. ومع ذلك يستغفرون لمن في الأرض حتى لا يعاجلهم بعقوبته، انطلقوا في ذلك لمعرفتهم أن من صفات الله الثابتة أنه هو الغفار للذنوب، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالعقوبة.
في مقابل الملائكة المستغرقين في التسبيح والحمد والاستغفار. يشنع القرآن بالذين أنكروا ما الله أهل له من الوحدانية والتصرف ، واستندوا إلى أصنام يستنصرون بها تصوروها بأوهامهم قادرة على عونهم ، فاخترعوا لها طقوسا وعظموها، لا تحزن يا محمد لضلالاتهم، فالله يرقبهم ويحصي عليهم عما يجري في بواطنهم، وما يفعلونه من سوء ثم يحاسبهم. وأنت مهمتك ابلاغ ما أوحيت به إليك، وقد فعلت . وليست مهمتك أن تجبرهم على الإيمان.
وعلى ذلك النحو من الإيحاء اخترناك فأوحينا إليك قرآنا بلسان عربي، لتعيه ثم تنذر به سكان مكة، والقبائل التي حولها، وهم المعنيون أولا بالدعوة حتى ينقذوا أنفسهم من العذاب والخزي. ولتنذرهم أيضا أهوال يوم الجمع يوم الحساب الذي لا ريب ولا شك في حصوله، وفيه يفترق الناس فرقتين: فرقة ناجية في الجنة، وفرقة هالكة في النار الموقدة.
هذه هي إرادة الله، أن يكون الإنسان مكلفا محاسبا على ما قدم، ولوشاء الله أن يجعل الإنسان معصورا على الحق والخير كما خلق الملائكة لفعل. ولكن إرادته تعلقت بأن يجعل الناس على فرقتين: فرقة تهتدي إلى الحق بتفتحها على الوحي وعدم رفضه مقدما فأدخلها في رحمته، يسعدون في الدنيا ويفوزون يوم القيامة، وفرقة ظالمة نفسها بالكفر وباتباع الشهوات، والإعراض عن منهج الله فهي إلى العذاب والمهانة، لا تجد وليا يحتضنها ويدافع عنها ولا تجد نصيرا ينصرها .

بيان المعنى العام

1 -2: حم عسق

افتتحت السورة بخمسة أحرف تتلى مقطعة : حا، ميم ، عين ، سين، قاف. يقال فيها ما قيل في الحروف المقطعة في باقي السور ابتداء من سورة البقرة. و هذه السورة هي السورة الثالثة من السور المفتتحة ب[حم]. واختصت باتباع الحرفين[حم]"بحروف أخرى "عسق " بينما "حم" في باقي السور السبع لا يتصل بها اي حرف.

3-كذلك يوحي إليك ...العزيز الحكيم

على هذا النحو من الوحي في صورته ومضامينه يوحي إليك، باعتبار أنه اصطفاك لتحمل هدايته وشرعه وإبلاغهما للعالمين، كما اصطفى من سبقك من الرسل الذين جاؤوا قبلك. من الذي يوحي ؟ الله العلم الفرد الذي لا يشاركه أحد في ذاته، ولا في اسمه هذا [الله]ثم أتبع اسم الله بما يوضح ما اختص به، أنه هو العزيز الذي لا يعترض على ما يفعل، ولا يتصور أن يقوم مخلوق بمنعه من تنفيذ ما قدر وأراد. و مع عزته وأنه لا يسأل عما يفعل، فإن متصف بالحكمة البالغة، فما قدره ونفذه صادر على صورة بلغت غاية الحكمة. فأفادت الآية أن الله اختار الرسل من بين البشر، فهم في أسمى مراتب البشرية، وأنه لا يستطيع أحد أن يعترض على ذلكم الاختيار، وأنه اختيار حكيم لا يمكن أن يوجد اختيار أفضل منه.

4لله ملك السماوات..العلي العظيم

تفرد الله بملك السماوات والأرض وما حوته. وهذا الخلق العجيب المحكم يقوم شاهدا على عزته وحكمته، فتكون هذه الآية دليلا على ما جاء في الآية السابقة. ثم أضافت دلالة أخرى، وهو أنه سبحانه هو العلي السامي في كمالاته، يشهد لذلك كمال الخلق في هذا الكون، وقيامه على كل حدث يحدث فيه، وفي ذلك دليل آخر على عظمته ، فهل يقدر على خلق الكون وتسييره غير العظيم الكامل في عظمته ؟

5-يكاد السماوات يتفطرن...الغفور الرحيم

يمكن فهمُ هذه الآية على طرق:

1: الطريقة الأولى: أنها مكملة لما في جاء في الآية السابقة من وصف الله بالعظمة، فالسماوات على عظم ما تحويه من الكواكب و المجرات التي لا يعلم حقيقتها على وجه الدقة إلا مبدعها سبحانه ، والتي تهول أبعادها الحاسبين . ملكوت السماوات يكاد ينشق من استحضاره لعظمة الله. يكاد يبدأ الانشقاق من الأعالي، وانشقاق الأسافل أيسر وأهون . فهو العلي العظيم .

2 الطريقة الثانية: أن هذه الآية متفقة مع ما جاء في سورة مريم:(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا(88) لقد جئتم شيئا ادا(89) يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا(90)) أي إن جراءة المشركين على الله و حديثهم عن جلاله بما هو من أقبح ما يكون من الوقاحة ، يكاد السماوات على عظمها تتشقق من ذلك، كما تحدثت هذه سورة مريم من نسبة الولد لله .

الطريقة الثالثة :يكاد السماوات يتشققن بكثرة ما يعمرهن من الملائكة وتصاويف الأقدار .وهو محمل بعيد في نظري، لأن الملائكة وتصاريف القدر ليست ثقلا حتى يكاد السماوات يتشققن منه.

والملائكة يسبحون ... تفصل شيئا مما يدل عليه قوله في الآية السابقة: له ما في السماوات ، ومن خلق السماوات الملائكة، فعرف هذا المقطع بهم، هم يسبحون الله وينزهونه حامدين لجلاله، معترفين بما أفاضه عليهم من ألطاف ولمنها تيسيرهم لتسبيحه وتحميده. يمثل هذه الوصف قمة حب الله والتعلق به ، فهم يجدون كل سعادتهم في تمجيده وذكره بما يليق به ، وصياغته تفيد استمرار التسبيح والحمد، كما جاء في الآية الأخرى:(يسبحون الليل والنهار لا يفترون)[1] ومع تسبيحهم وتمجيدهم لله ،هداهم ربهم إلى قرن التسبيح والتمجيد بالاستغفار للمومنين من أهل الأرض، وذلك لما بينهم من وثيق الصلة بصفاء العقيدة وتقديس الله جل جلاله. وقد يمكن فهم الآية على أنه لما كانت جراءة المشركين على الله تكاد تتشق منها السماوات، يتوجه الملائكة بالاستغفار لمن في الأرض حتى لا ينفجر الكون ويأخذ العذاب جميع سكان الأرض.

ونبه في خاتمة الآية أن الله يتقبل استغفارهم لأن المغفرة من صفاته الخاصة به ، ولأنه هو الرحيم، لا يعاجل بالعقوبة ولكن يمهل العصاة ليتوبوا، أو أن يجعل من ذرياتهم من يكون ناشرا للدين ،عاملا به.

6. والذين اتخذوا من دونه ...بوكيل .

في الطرف الأعلى الملائكة يسبحون ويحمدون، ويستغفرون .ويقابلهم في الطرف الأسفل الذين استندوا إلى أصنام، توهموا فيها قدرات، ثم وصل به الوهم إلى اتخاذها آلهة يرتبطون بها. كن واثقا من أن الله يرقبهم ولا يذهب عن علمه شيء من انحرافاتهم، ما حل في ضمائرهم، وما يقومون به من طقوس. ولا يأخذك الحزن والأسى من ضلالاتهم، وسوء

[1] سورة الانبياء اية 20

فعالهم، فإنه ما عليك إلا البلاغ، وما أنت بوكيل عليهم تلزمهم بالهدى الذي أوحيناه إليك ونجبرهم عليه.

7-وكذلك أوحينا...و فريق في السعير.

وعلى ذلك النحو من الوحي، أوحينا إليك قرآنا، تقرأه، ويقرأه الناس، وتتجدد قراءته فتتجدد بها هداية القلوب، وتحصل بها الطمأنينة، وترتبط المؤمن التالي بقيمه وبربه . سمي قرآنا ، صيغ من القراءة مختتمة بالألف والنون الدالة على المبالغة. وأردنا أن يكون بلسان عربي، ذلك أن جميع اللغات تتطور فينسخ حاضرها ماضيها، ولا تمر حقبة، تطول أو تقصر، حتى تكون اللغة الأصلية مهجورة وغير مفهومة. وتميزت العربية بجمعها بين الحياة فلا تعجز عن التعبير عن مكتسبات الحضارة، وباحتفاظها بأصولها فالجيل اللاحق مهما بعد ما بين أصوله وبين الزمن الذي هو فيه، يفهم اللغة العربية كما فهمها أسلافه.

لتنذر أم القرى... قرآن أوحيناه إليك لتقوم بإنذار أهل مكة ومن حولها. ومع الإنذار البشارة فالقرآن يجمع بين الإنذار من العذاب والبشارة بالخير والسعادة، واقتصر على الإنذار لأنه الأهم حسب وضعية المخاطبين لمّا كان أكثرهم مشركين. ولا تقتصر الدعوة على أهل مكة وما حولها، كخزاعة وكنانة وقريش الظواهر الساكنون خارج مكة ، بل هي دعوة إنسانية عامة قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾[1] وتنذرهم أيضا يوم القيامة، اليوم الذي تجتمع فيه الخلائق للحساب، هو يوم آت لا شك في قدومه وحضور الخلائق فيه . ما يقع في يوم الجمع هذا ؟ تظهر النتائج ، ففريق ينعمون في دار الكرامة الجنة ، وفريق يعذبون في النار المستعرة شديدة التوقد.

8-ولو شاء الله لجعلهم...من ولي ولا نصير.

تصريح بإرادة الله التي بنى عليها أمر الإنسان في الأرض. التي بينت يوم أنزل الله آدم إلى الأرض كما تقدم لنا في سورة البقرة : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون38 والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون 39﴾ هذه مشيئته ، وهذا قدره، ولو شاء أن يجعلهم قابلين للهدى عاجزين عن الإثم والكفر لفعل، ولكن إرادته أن يكون الإنسان مكلفا، رزقه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، وبعث إليه رسله يساعدونه ويبصرونه ليهتدي إلى الحق. لم تتعلق إرادة الله بأن يقصرهم على

---

[1] سورة سبأ آية 28

الهدى، ولكنه جعلهم مختارين مكلفين .وبناء على ذلك يدخل الذين استجابوا لربهم، وأعملوا عقولهم، غير مصممين على الرفض من أول الأمر، ومكنهم الله من الطاقة فآمنوا وصلحت أعمالهم ، يُدخلهم في رحمته الواسعة استقامة في الدنيا، وحسن ثواب الآخرة. وفي المقابل فإن الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، ورفضهم الهدى، وإيثارهم لشهواتهم يحرمهم من رحمته ، ولا يجدون عند حسابهم ولياً يدافع عنهم ، ولا نصيرا ينصرهم يخفف عنهم شيئا من الخزي والعذاب.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

أولياء : ولاية المعبودية .

توكلي: كافيني منكم .

أنيب أرجع إليه وحده و لا أعتمد على أحد سواه.

فاطر: مبدع على غير مثال.

أزواجا: جمع زوج وهو ما يكون به الواحد اثنين، فالرجل زوج المرأة والمرأة زوج الرجل.

يذرؤكم : يبثكم ويكثركم .

مقاليد : خيرات.

يبسط : يوسع.

يقدر : يضيق.

شرع : أوضح وبين.

أقيموا :احرصوا على العمل به.

لا تتفرقوا: لا تختلفوا.

كبر : شق، وثقل.

الاجتباء: التقريب.

بيان المعنى الإجمالي

بعد أن حقق أن المشركين لا يجدون وليا ولا نصيرا ، كشف عن السبب، هو أنهم اتخذوا وولّدوا من خيالاتهم أنصارا ينصرونهم من دون الله فعبدوهم ، و هم ضالون الضلالة الكاملة، لأنه لا ولي ولا نصير إلا الله، إن الله هو وحده الذي يتصرف فيحيي الموتى ليبعثهم إلى الحساب يوم القيامة، وهو القادر الذي لا تحد قدرته. فلا يكون وليا بحق إلا الله، وما عداه من الأولياء زيف وضلال.

اعلموا أن كل ما تختلفون فيه، إذا أردتم أن تعرفوا ما يزيل الخلاف ويظهر الصواب، فعودوا إلى الله، إن رسوله ووحيه هو الفيصل في كل خلاف. ذلك العليم بحقائق الأشياء ولا يغيب عنه شيء هو الله، وهو ربي الذي حباني بألطافه وعونه وهدايته، فأنا متوكل عليه في كل لحظة من حياتي، وإني أعود إليه دائما ليهديني سواء السبيل.

هو الذي خلق فأبدع السماوات والأرض. من دلائل ألوهيته أنه جعل لكم من نوعكم أزواجا فخلق الذكر والأنثى من نوع واحد ليأنس كل منهما بالآخر وليتعاونا على تحمل رسالة الحياة . وكذلك خلق من الأنعام أزواجا ذكورا و إناثا. وقدّر أن تتكاثر ذرياتكم وتتوالى أجيالكم، وكذلك قدر أن تتكاثر الأنعام ويتوالى نسلها. اعلموا أن الله واحد في ذاته وفي صفاته لا يوجد أي شيء يماثله، وكل ما تتصوروه فالله مخالف لما تصورته.

هو المتفرد بملك ما تحويه السماوات والأرض من الخيرات والأرزاق، يتحكم فيها كما يشاء، يوسع الرزق على من يشاء التوسعة عليه، ويضيقه على من يشاء تضييقه عليه. وتصرفه سبحانه يجري وفق علمه المحيط بكل شيء فلا مصادفة.

اعلموا أن الدين الذي أنزلته إليكم يتفق في أصوله ومبادئه مع ما وصى الله به نوحا وكذلك ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. فالأنبياء صدروا عن الحق، والحق واحد لا يختلف. أمرتُ كل المرسل إليهم من الأمم أن يستجيبوا استجابة كاملة لما يأمرهم به الدين من توحيد الله، و الإيمان بيوم القيامة وكل ما عرفهم به رسلهم من الغيب، وأن يلتزموا في سلوكهم بالقيم الخلقية التي أمروا بها. ونهيتهم عن الاختلاف في الدين، فالدين جاء ليوحد البشرية لا ليفرقها، والاختلاف يتبع الهوى الذي نهوا عن اتباعه .

إن المشركين لتصلبهم في الكفر واستكبارهم شق عليهم اتباع ما ندعوهم إليه في العقيدة والعلاقات الاجتماعية.

ورفضوا اتباع الرسول المختار المصطفى من الله، توهموا أن السمو الإنساني يقترن وجوبا بوفرة المال، وكثرة الأولاد، وقوة العصبية. وتبعا لهذا التصور الساذج رفضوا الرسول لكونه لا يتوفر فيه ذلك. هذا وهم خاطئ فإن الله المطلع على حقائق الأشياء، يختار من بين البشر من يشاء من عباده ليتحمل الوحي والتبليغ، لما للرسول المختار من مزايا نفسية وخلقية يسمو بها للمقام الرفيع، الذي هو تقبل وحي الله الثقيل. والذين يتبعونه يفضلون بقية الناس لأنهم أنابوا إلى الله وتعلقوا به، وكلما مالوا عن طريقه أسرعوا بالعودة.

بيان المعنى العام:

9-أم اتخذوا من دونه...على كل شيء قدير.

أم بمعنى بل، اختتمت الآية السابقة بأن الذين ظلموا أنفسهم بالشرك لا ولي لهم، فحولت هذه الآية مجرى الكلام إلى فضح وضعهم بأنهم لما فقدوا ولاية الله لهم، اتخذوا، بسوء تعبيرهم وفساد تفكيرهم، أولياء معبودات صنعوها بخيالهم وعبدوها، لها وإن ادعوا أنها أولياء تؤيدهم وتدافع عنهم، ولكنها أولياء زائفة لا حقيقة لها ولا تقف إلى جانب عابديها وقفة التأييد لعجزها. فبان عقليا: أن الله وحده هو الناصر والولي لا ناصر غيره ولا ولي سواه، وأنه هو الذي يحيي الموتى فيجازيهم، وأصنامهم عاجزة لا تتصرف بالإحياء، فأنى لها أن تكون لها نصرة في ذلك اليوم الذي تفرد الله فيه بالإحياء، ولا يستطيعون أن ينسبوا لأصنامهم هذا، والله هو الولي لأنه الوحيد الذي يتصرف في الكون كله بقدرته التي لا تحدها حدود.

10-وما اختلفتم فيه من شيء...وإليه أنيب

تتابع القواعد التي تعطي للمؤمن منهجا يرضاه الله في الحياة. بينت الآية السابقة أن الله هو الولي لا ولي غيره، ولا يعتمد المؤمن في حياته إلا عليه. وتضيف هذه الآية قاعدة أخرى، هي قاعدة المرجع الذي يعود إليه المختلفون، فيرتفع بالرجوع إليه الخلاف، لأن الحقيقة الكاملة عنده، والخلاف عام، ويمكن أن يقع:

ا : بين المؤمنين وغيرهم في شؤون العقيدة خاصة، واليهود يعتمدون على ما عندهم في التوراة من التصور للذات الإلهية ولصفاته، ومن شؤون الغيب. وبعض ما في التوراة لا يقبله المسلمون باعتبار ما تكرر في النص التوراتي الباقي بين أيديهم من تجسيم، ومن تحديد. فكلما وقع خلاف بينكم وبين غيركم من جميع الطوائف فالحكم الصادق هو حكم الله الذي بينه على لسان رسوله في كتابه.

ب: بين المؤمنين لتقسيمهم في موضوعات عدة، وكلما وقع خلاف بينكم عودوا إلى حكم الله فيه. يُعلمُ حكم الله برفع الأمر إلى رسوله ﷺ . قال تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[1]

ذلكم - المشار إليه هو الله العظيم الذي بيده وحده الأمر، العليم بالحقائق على ما هي عليه، هو ربي الذي تولاني بتأييده وفضله، توكلت عليه وحده في جميع أموري، فهداني سواء السبيل. ولا أعود في المستقبل في كل مهمه إلا إليه، إني لا أجد طلبي إلا عنده، وبهذا تكون الصورة المثالية لمن لكم فيه أسوة حسنة محمد رسول الله ﷺ، دليلا على ما صدّرت به الآية من العودة إلى الله عند الاختلاف.

11 ـ فاطر السماوات...وهو السميع البصير.

أبدع السماوات والأرض على غير مثال فتكونتا، مما يؤكد قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ الآية9- خلق لكم إتماما للنعمة أزواجا . لنلحظ هذا التقدير العجيب ولا نغفل عنه . خلق للرجل امرأة، وللمرأة رجلا ليتكاملا ويتآنسا، فالأزواج جمع زوج، ويطلق في العربية على ما يصير به الفرد اثنين، وكل واحد منهما زوج للآخر. فتخصيص لفظ الزوج برجل المرأة، وتأنيث المرأة زوجة، غير جار على فصيح اللغة العربية. و جعل الأنثى من جنس الذكر حتى يكون الاندماج بينهما طبيعيا. فقوله من أنفسكم أي من نوعكم. وخلق لكم أيضا من الأنعام أزواجا ذكورا وإناثا.

يذرؤكم – يبثكم بصفة متواصلة ويكثركم في هذا الجعل المرتبط بالأرض، فتتوالى أجيالكم، ويتوالى نسل الأنعام ، وهو من تمام النعمة والألطاف التي قدرها سبحانه لكم .

ليس كمثله شيء -نفى النص أن يكون لله مثل ولا شبيه بصفة مؤكدة على أبلغ وجه. فالكاف الداخلة على مثل هي بمعنى مثل، وهي داخلة في حيز النفي. وهذه الآية قاطعة في نفي كل تصور يثيره الخيال ليقرب الذات الإلهية من تصورات الناس . ذلك أن الناس قد ضلوا ضلالا كبيرا في تنزيه الله، فالعرب قد جعلوا له شركاء في الألوهية، واليونان نحتوا صورا خيالية لله، واليهود فهموا التوراة وأضافوا من خيالاتهم ما يتآلف منه صورة لله. والإسلام ينزه الله عن كل شبيه، وعن كل تصور يعلق بخيال الإنسان بأتم بيان. والمبالغة في تنزيه الله عن كل

---

[1] سورة النساء آية 65

تصور، أو أن يكون له مساو في الألوهية، أو في أي صفة من صفاته على النحو الكامل الذي اتصف به، هذا التصور لا يوجب تعطيلا للذات الإلهية عن الفعل والتأثير والتقدير، يوضحه ما ختمت الآية بأنه السميع الذي لا يغيب عن علمه أي حركة ولا حرف ولا كلمة مما يجري في الكون، وكذلك هو بصير يرى الموجودات وتقلباتها وتحولاتها لا يغيب عنه شيء مهما دق. وبهذا فوصفه سبحانه بالسميع البصير هو سمع وبصر موجبان للعلم الكامل الدقيق دون حاسه ولا مواجهة ولا قرب ولا بعد.

12 - له مقاليد السماوات...بكل شيء عليم

هو المنفرد بملك خزائن السماوات و الأرض وما فيها، مفاتيحها بيده وحده. بذلك لذلك أنه يوسع على من يشاء بما قدره من رزقه .وكل ما يطلب الإنسان التحصيل عليه هو من رزق الله، وهو سبحانه الذي يضيق على آخرين فلا يصل إليهم من رزقه إلا القليل . ولا تسأل لم وسع على هذا وضيق على الآخر ؟ فإن كل تصرف في الكون تابع لعلمه الواسع الذي ينزل كل شيء منزلته.

13 - شرع لكم من الدين...ويهدي إليه من ينيب

شرع الله لكم، فأوضح المبادئ والقواعد، وسن لكم الأحكام التي كلفكم بالالتزام بها في حياتكم العقدية والعملية. إن شرعه سبحانه هذا هو مثل ما وصى به نوحا .والمماثلة في أصل العناية بهداية البشر إلى الحق. بتصفية عقيدتهم من لوث الشرك، وفي القواعد العامة التي هي جماع الخير للبشرية، والانخرام واحد منها يعطل البشر، ويقعد بهم عن النجاح في خلافتهم في الأرض، ثم إن المنهج التفصيلي تطور مع رسل الله إلى أن بلغ غايته، وتمت الصورة المرضية التي تهيأ البشر لقبولها، والسير عليها هي الدين الإسلامي .

واقتصرت الآية على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، لحوالب رعاها القرآن، وفي الكشف عنها ما يزيد النص القرآني عمقا، ويجلي الإعجاز . ففي البداية جمع بين طرفي الرسالة لأهل الأرض :ما وصى به نوحا أول رسالة من الله للبشرية، والذي أوحينا إليك بها ختمت الرسالات. وعطف عليهما إبراهيم، وهو أبو الرسالات الموحدة الباقية. وحافظ العرب على شيء من دينه كإقامة الحج والختان....وعطف عليه موسى بما أن شريعته أوسع الشرائع المذكورة في عهد التنزيل، وعيسى آخر رسول بشر بمحمد. فتكون هذه اللطائف تسعد الذوق ويجد فيها متعة. و قد تولى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله إبراز نكت أخرى في الآية على هذه الشاكلة .

أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. هي وصية تمثل الأساس في الهداية الربانية على لسان الرسل، أمر كل واحد لمته أن يقيموا الدين الذي جاؤوهم به . وما جاؤوهم به، منه ما هو متفق مع بقية الأديان السماوية، خاصة ما يتعلق بالعقيدة، وبالبعث، وبالتقوى، و منه تشريعات تناسب الطور الذي عليه الأمة المرسل إليها في ذلك الوقت، كما قال عيسى عليه السلام: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم}[1] فكل رسول أكد على أمته أن يحرصوا على العمل بما أوحي له. وكما أمرهم بالحرص على القيام بكل ما شرعه ،اعتنى بنهيهم عن التفرق في الدين، بالتأويلات البعيدة ، وتطويع الشريعة لأغراض الحكام المستبدين، واللجاج في الخصومة في الأمور الدينية لجاجا مفضيا إلى التنازع .

كبر على المشركين ... كانت فاتحة الآية منسجمة مع الفطرة و مستجيبة للمنهج العقلي. فلماذا لم يسارع المشركون إلى الإيمان ؟ تجهم المشركون وثقل عليهم أن يستجيبوا لما تدعوهم إليه من التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والتجمل بزكي الأخلاق، بالرغم من أن العقل ينادي بذلك. استعظموا أن يختار الله إنسانا ولا يبعث ملكا، وأن يختار لرسالته من لم يكن من أصحاب المال الوفير، أو العصبية الغالبة. وأن لا يمكن الرسول من كتاب ينزله عليه مرة واحدة ، ومن مضمون رسالته التي تدعوهم لترك الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد ،وتؤكد لهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومحاسبون. فكان ما ذكر هو جماع ما اعترضوا به ولم يستطيعوا أن يهضموه.

الله يجتبي ... رد عليهم استبعادهم لبعث محمد، وإنكارهم تخييره واصطفاءه على من هم في نظرهم أولى بالرسالة والزعامة. فكان الرد أن الاصطفاء والاختيار والتقريب من الله لا يخضع لقيمكم، ولكن الله يختار من البشر من هو أقدر على تحمل الوحي وإبلاغه، وقد اختار محمدا لأنه أولى الناس بهذه المهمة. ثم إن الله يهدي إلى القرب منه والتحصيل على ثوابه، من ينيب إليه تائبا واتصاله به على أتم ما يكون قوة ووضوحا.

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ

---

[1] سورة آل عمران آية 50

بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ۝ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ۝

بيان معاني الألفاظ :

استقم : التزم المنهج الذي أمرت به ولا تنحرف عنه.

لا تتبع أهواءهم : لا تجارهم في أهوائهم.

داحضة : باطلة زائلة.

بيان المعنى الإجمالي

تفرق أتباع الديانات السابقة عكس ما أمروا به من وحدة الكلمة. و العجب أنهم ما تفرقوا إلا من بعد ما بذل رسلهم جهودا مضنية، حققوا لهم بها أن التفرق مضر بهم منهي عنه. فعلوا ذلك متجاوزين للحق، يعمل كل فريق على إخضاع الفريق الآخر لسيادته. إنهم بتجاوزهم هذا تأهلوا لأن يحل بهم العذاب، ولكن الله سبق في علمه وتقديره أن لا يعاجل بالعقوبة الخارجين عن حدوده. وإن أخلافهم الذين كانوا ورثة للكتاب الإنجيل والتوراة أضافوا إلى تفرقهم في أصل دياناتهم أن اختلفوا في أمر رسول الله ﷺ وادعوا أنهم يشكون في كونه الرسول المبشر به شكا موجبا للريبة في صدقه .

إنه تبعا لما تقرر في الآيات السابقة، عليك أن تواصل الدعوة إلى الإسلام، وكن في حياتك مستقيما ممثلا لما جئت به. و لا تتأثر بما يدعونك إليه من أهوائهم التي لا سند لها من عقل ولا من شرع. وأعلمهم بالأصول الآتية وقل لهم :

1:إني معتقد أن التوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل المنزل على عيسى كتب سماوية.

2: إني مأمور بأن أجري العدل فيكم، فلا أنحاز لمن يشايعني، ولا أظلم أحدا لأنه أعلن عن عدائي،

3: إن الله الواحد الأحد هو ربي وربكم يختلف البشر في أنسابهم وأعراقهم وألوانهم ولكن الله هو رب الجميع. فلماذا نتعادى ونحن مربون لرب واحد.

4:المسؤولية فردية ، فكل فرد مسؤول عما صنع ، ولا يتحمل وزر غيره.

5: وإذ قامت هذه المسلمات فلم يبق بيننا وبينكم حجاج ، ولا جدال. وإن أبيتم إلا الكفر فإن الله سيجمعنا يوم القيامة ليحكم بيننا.

تواصل بُغض المشركين للإسلام، وزادهم انتشاره تغيظا. وأخذوا يموهون على الدهماء ليصرفوهم عنه. ويبسطون حججا بعيدة عن المعقول. إن حججهم لا تقوم على أساس يفضح الله ما فيها من زيف ومناقضة للحق، واستحقوا أن يبعدوا من رحمه الله شأن المغضوب عليه، و من حرم الرحمة يلقى العذاب شديدا.

بيان المعنى العام :

14.وما تفرقوا ...لفي شك منه مريب

أمر الله جميع الأمم المرسل إليهم بواسطة رسلهم أن يتوحدوا ولا يختلفوا، ونهاهم عن الاختلاف، وبين لهم أن الاختلاف يؤدي إلى التفرق والعداء ،كما دلت عليه الآية السابقة. و يقدر في بداية هذه الآية أنهم تفرقوا.

والعجب أنهم تفرقوا وتعادوا من بعد ما قرر لهم الرسل سوء عاقبة التفرق ومفاسده، تقريرا واضحا حصل به العلم، و سبب ذلك ليس البحث عن الحق ولكن لأن كل فريق يحاول أن يتجاوز حقوقه ويظلم الفريق الآخر ليطوعه لإرادته.

إن تنكرهم لما حصل لهم من العلم من النهي عن التفرق في الدين، أمر منكر قبيح يؤهلهم لتحل بهم العقوبة العاجلة، ولكن سبق في علم الله أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ويمهلهم إما إلى أجل محدد في الدنيا، وقد عذب الله أقواما بسبب اختلافهم وتفرقهم، وإما إلى يوم القيامة ليلقوا ما قدر لهم من عذاب. والتأخير لهذا الأجل أو ذاك تابع للحكمة التي بها يصرف سبحانه شؤون العالمين .

وإن الذين أورثوا... تحدثت الآية في صدرها عن اختلاف أتباع الرسل بعد أن نهاهم رسلهم عن التفرق. وواصلت هذه الآية موقف أتباع الرسل وتفرقهم من محمد عليه الصلاة و السلام. فاليهود والنصارى الذين تلقوا الدعوة إلى الإسلام، رغم أنهم ورثوا الكتاب الذي يدعون أنه مستمسكون به وهو ينهاهم عن التفرق، كان موقفهم من الإسلام موقف الفرقة. بعضهم وجد ما في القرآن وما في كتبهم يصدر من مشكاة واحدة، وأن محمدا هو الرسول المبشر به، تنطبق عليه الأوصاف المعرفة به ،فآمنوا وحسن إيمانهم، وفريق آخر حكموا شهواتهم ومصالحهم العاجلة من الرئاسة والمال فتذرعوا بالشك لرفض الإسلام.

و تعمقوا في الشك، إلى أن أوقعهم شكهم في اتهامهم رسول الله بأنه ليس رسولا، دون أن يكون لهم سند.

15.فلذلك فادع...وإليه المصير .

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة . يقول الله لرسوله لأجل ما فصلناه لك من إقامة للدين ومواقف المشركين وأهل الكتاب من الإسلام ومن التعلق بالتفرق، وتمكن

الشبهات من عقولهم. لكل ذلك واصل الدعوة إلى الله، وهذه قاعدة من قواعد النجاح؛ فكل داعية إلى الحق، إذا واجه تصلبا من المنحرفين، عليه أن يواصل الدعوة ولا يتوقف، لدراسة المخالفين وما يظهر عليهم من تصميم. واقرن بين الدعوة باللسان، وبيان الحق الواصل لك عبر الوحي، اقرن ذلك بالاستقامة بأن تكون المثل الذي يحتذى في الطهارة والنقاء ووضوح السلوك، حسب ما أمرت به لتكن حياتك وعلاقاتك صورة لما تدعو إليه، وإياك أن تلين في الحق، أو أن تتبع ما يدعونك إليه من الانحرافات في العقيدة أو السلوك، تلك الانحرافات النابعة من الهوى وما تزينه الشهوة الهابطة.

ليكن تصريحك بما يأتي واضحا نافذا حتى يرتفع كل غبش .

1)تحقق إيماني بكل الكتب التي أنزلها الله، فأنا معترف بصدقها جميعا على الوجه الذي أنزلت عليه. إنه سبحانه أوحى لموسى التوراة ولعيسى الانجيل وهما كتابان أنزلهما الله لهداية المخاطبين بهما .

2)وأمرني ربي أن أقيم العدل بينكم ، فعداوتكم لي لا تؤثر في بما يدفعني إلى الجور في معاملتكم .

3)وأمرت بأن أصرح لكم: إن عقيدتي هي أن الله الواحد هو ربنا، وهو ربكم. فدعوى اليهود أن الله هو إله إسرائيل أولا، كلام باطل. وكذلك دعوى النصارى أن الله هو إله من يؤمن بأن عيسى صلب تكفيرا عن الخطأ، كلام خيالي لا أساس له .

4)لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، كل فرد منا مسؤول عما عمل ، ومجزي بما صنع. فدعوى اليهود أنهم يعذبون بمقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل، ودعوى النصارى أن الإيمان بأن المسيح قدم بدنه للقتل والصلب تكفيرا لذنوب البشر، كل ذلك لا يعدو الأوهام والتضليل. والمسؤوليه الفردية حقيقة منصفة أثبتها النبي ﷺ، وعليها قام التكليف .

5)كشفت لكم عن تلكم المسلمات التي لا يمكن أن يختلف فيها عاقلان، وهوما قامت عليه رسالتي . و لم يبق موطن يمكن لكم أن تخالفوا فيه حتى لمستند بدليل وحجه لتناقشوني فيها. فإن أنتم لم تقبلوا ما أرسلت به وما بينته لكم فقد زال محل الاحتجاج الذي تقدمون فيه حجة وأقدم لكم فيه حجة ونتجادل. واعلموا أن الله سيجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيتبين المحق والمبطل، و في ذلكم اليوم يظهر عيانا ما أنتم عليه من الضلال. إننا جميعا صائرون إليه ليحكم بيننا وهو خير الحاكمين. وهذه الآية تمثل فترة من مسيرة الدعوة، هي المناسبة لذلك الوقت. حتى إذا ظهر الدين، وقاومه اليهود بتحريض المشركين في غزوة الأحزاب، وخيانتهم للعهد الموثق بينهم وبين المسلمين، اقتضى موقفهم القرار الذي أخذه النبي ﷺ.

16.و الذين يحاجون في الله...ولهم عذاب شديد.

إن الذين يعملون على تسديد الحجج الوهمية من المشركين أو من أهل الكتاب حججهم لا ثبات لها، باطلة زائفة. يعملون على إيقاف المد الإسلامي ودخول الناس في دين الله. فكان المشركون ينشرون ما يلبسون به على الدهماء، بالتنويه بأصنامهم، والتشكيك في البعث بعد تحلل الأجسام، وأن هذا الدين سيؤلب على قريش الرافضين للدين، ويذهب ما هم فيه من أمن .كما كان أن أهل الكتاب يوهمونهم أن رسولهم أولى بالاتباع لتقدم زمنه، ونحو ذلك .

وداحضة: أصل استعمالها في الرِّجل إذا زلت فلم يثبت صاحبها قائما. جُسِّم بطلان حججهم بتشبيهه بالرجل التي لم تثبت فصرع صاحبها، و ظهر بطلانها بتزايد عدد المسلمين، وأن من دخل فيه لا يخرج منه، وما تكرر في القرآن من إبطال شبهاتهم. والله سيعاملهم معاملة الممقوتين المبغضين، فلا مطمع لهم في رحمته، وإذ تحقق أنهم يائسون من رحمة الله ، فإن العذاب الذي سيسلط عليهم يكون شديدا.

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ

ما يدريك: أي شيء يعلمك.

الاستعجال : طلب التعجيل .

الإشفاق :الخوف نتيجة حب المشفق عليه.

لطيف بر بهم، رفيق بعباده محسن إليهم.

حرث الآخرة : العمل الذي يرجو ثوابه يوم القيامة.

نصيب الحق الذي يناله كل واحد من المتقاسمين.

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق القرآن أن الله هو منزل القرآن ومنزل كتبه على رسله مقترنة بالحق، وهو سبحانه الذي أنزل العدل فرسمه في الفطرة البشرية، وأنزل الوصية به وحيا

مؤكدا. و إن الساعة آتية لا ريب فيها، و لا مانع من أن تعرف أنها ستكون قريبا، ولكن علمها على التحديد عند الله. ثم إن موقف الناس منها على ضربين :
موقف الذين لا يؤمنون بقدومها وتحققها، بل ينكرونها، فهؤلاء لجهلهم واستكبارهم يطلبون تعجيلها، استهزاء وتحديا، إذ يرون أنها مستحيلة فعدم قيام الساعة يبطل ما تؤكده من أنها إحدى الحقائق الغيبية التي يجب الإيمان بها .
وموقف الذين امنوا، يكشف لهم إيمانهم أهوالها فهم مشفقون على أنفسهم مما يقدره الله فيها من رضا أو من سخط، ومن تكريم أو عذاب. موقنون بأن الساعة إحدى ركائز الإيمان بالغيب الذي أخبر به رسول الله ﷺ. إن الذين ينكرون الساعة ويحاولون إلقاء الشبهات ، وصرف الدهماء عن الإيمان بها، قد ساروا في الضلال إلى أبعد حد.
الله يلطف بعباده كلهم، يصلهم منه في رفق كل نعمة ظاهرة أو خفية. لا يحجب جميع نعمه عن أي فرد من عباده. فالمحروم حرمانا كاملا غير متصور. ثم إن تمكين كل فرد من النعم إنما يتم حسب مشيئته، فلا يرزق أي فرد شيئا إلا بإرادة الله وفضله لا مصادفة ولا غفلة. و رزق العباد كلهم بمتنوع الأرزاق لا يثقل عليه، فهو القوي القوة غير المحدودة، و هو العزيز الذي لا يحول بينه وبين تنفيذ مشيئته أي حائل. و بناء على ذلك فإن من كان قصده بما يقوم به من أعمال نيل رضوان ربه وحسن الثواب يوم القيامة، فإن الله يبارك له سعيه، ويوفقه للمضي في سبيل الخير. و أما من كان غاية ما يرغب في التحصيل عليه، هو نيل حظوظ دنيوية، دون أن يخطر على باله أنه محاسب بين يدي ربه، وأنه مستغن عن عونه، فإنه ينال في دنياه ما سبق أن قدره الله له. ولا يجد لأعماله أي أثر طيب يوم القيامة.

بيان المعنى العام:

17-الله الذي أنزل..لعل الساعة قريب

تضمنت الآية- 15- الأمر بالاستقامة وعدم الميل مع أهواء أهل الشرك، والإيمان بما أنزل الله من الكتب، وأن يلتزم العدل. و أن المصير إلى الله. فجاءت هذه الآية مؤكدة لما أفادته تلك. مثيرة لبعض مباني ذلكم الهدي. فأكدت أولا:
أن الكتب منزلة من عند الله، ملتبسة بالحق، ومقترنة به، والحق لا يعدوها.
وأكدت ثانيا الأمر بالاستقامة والالتزام بالعدل، فأثبتت أن الله هو الذي أنزل الميزان. والميزان يطلق ويراد منه العدل، فيكون إحساس الإنسان بالعدل أمرا فطر الله عليه الإنسان الذي لم تفسد طبيعته الإنسانية بدواعي الهوى، وحث عليه في

هديه لجميع الرسل. و لما كان الميزان الذي له كفتان ويعلم بـه حـق كـل طـرف فـي الماديات فالآية تشمله وليست قاصرة عليه.

ولكدت ثالثا: لسر البعث؛ وما يعلمك أن الساعة قريب؟ وهذه الصيغة تطلق والمخاطب بها غير معين، كل من يصلح ليعلم، وهي تفيد إمكان حصول العلم بما بعده . والساعة هي يوم القيامة فالكلام في قوة لعلك تعلم قريبا حصول يوم القيامة. وهذه الخاتمة فيها إيماء بتهديد للمشركين الذين يستبعدون يوم القيامة.

لطيفة : عن ابن عباس ، أن ما ورد في القرآن من خطاب بـ "ما يدريك" فإنه لم يعقب بما يزيل إبهامه كأمر الساعة في هذه الآية. وما ورد بـ "ما أدراك" فقد تبعه تبيينه من الله .

18. يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها...في ضلال بعيد.

إنه بمقدار ما تكون معرفة الشيء بينة يكون تقدير آثاره أكمل وأتم، فمن عرف مضار شيء ما، تجده يحذر أن تحل به تلك الأضرار. فيرتب لنفسه مناعة أو يجتنبه. و من جهلها يقع في المهالك نتيجة جهله. و المشركون لجهلهم بالساعة وإنكارهم مجيئها تراهم يستهينون بها، بل يطلبون من الرسول تعجيلها استهزاء، ويرمون من وراء ذلك إقامة دليل على عدم صدقه في الإنذار بها.

و أما المؤمنون وقد فصل لهم الوحي بعض أهوالها، وتبعا لما سمعوه من رسول الله ﷺ عنها، تراهم مشفقين على أنفسهم يوم حضورهم ذلك المشهد. و هم موقنون أنها حق آتية لا ريب فيها، ويحذرون أن لا يكونوا مفروزين برضا ربهم يومها.

ألا إن الذين... توقظ هذه الفاتحة السامعين للحقيقة التي ستعرض عليهم: إن الذين يشكون في الساعة، ويحاولون إدخال الشك عند الآخرين أيضا، بما يقدمونه من شبهات، هم مغرقون في الضلال. تمكن الضلال منهم حتى أصبحوا كأنهم ابتعدوا في طريق الضلال بعدا يجعلهم لا يسمعون نداءات الصواب التي تعمل على إرجاعهم إلى الجادة.

19. الله لطيف ...وهو القوي العزيز.

فاتحة هذه الآية تمثل التصور الذي يجب على كل مكلف أن يعتقده في الذات الإلهية. فالله سبحانه بيده الخير، ولا خير يصل إلى الإنسان إلا بفضله ورفقه به. وهذا الخير يشمل كل النعم عظيمها ودقيقها، ما يشعر الإنسان به وما لا يشعر به ، خذ لذلك مثلا جريان نفسك في كل لحظة، وتدفق دمك إلى كل جزء من أجزاء جسمك، عمل حواسك دون أن تحس بما تم داخل كيانك. كيف انتقلت صورة المرئي مثلا إلى موطن الرؤية من الدماغ، كيف ربطت هذه الجزئية التي ارتسمت

بنظيراتها في الذاكرة وما لها من ممبزات؟ عملية معقدة شديد التعقيد، تمت في لحظة وتحققت المعرفة، وذلك بفضل اللطف الإلهي بك. ومن الجزئيات غير المشعور بها، إلى النعمتين العظيمتين العقل والإيمان، ما لا يعد ولا يحصى من النعم الإلهية وصلت في رفق ولين إلى جميع العباد، وشرّفهم فضلاً منه ونعمة، فنسبهم إلى ذاته العلية عباده وكل النعم المشعور بها وغير المشعور بها ينال منها المؤمن والكافر والبر والفاجر . ولما كان الخير كله بيده ، وأنه يرزق منه عباده ، حقق أن قسمة الأرزاق على عبيده بيده، وكل فرد يصل إليه ما شاء الله أن يصل إليه من الرزق. فالمحروم بتاتا لا وجود له وغير متصور . و المرزوقون يسر لهم الرزق على مستويات، وكل رزق ناله أحدهم فهو بمشيئته وإرادته، لم يحصل عن مصادفة ولا غفلة. وتصور الآدميين من بدء الخليقة إلى الآن، وتصور ما حصل لكل فرد منهم من متنوع الأرزاق في كل لحظة من اللحظات يقرب لك فهم: أن الله هو القوي القوة التي ليست لها حدود، بلّغ الأرزاق لكل فرد دون أن يثقل عليه ذلك، وحرم من حرم من بعض الأرزاق ، وكل ذلك جار على مقتضى الحكمة لا مانع لما أعطى ولا معطي لمن حرم وهو ما يفسر وصفه بالعزيز.

20 من كان يريد حرث...من نصيب.

الرزق كله من عند الله ، وهو الذي يمكن كل فرد من عباده بما يشاء من رزقه، والبشر في سعيهم للتعرض للرزق الإلهي ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: هم الذين يجعلون غايتهم من النشاط الذي يقومون به بلوغ الأجر والثواب في الآخرة. جسمت الآية السعي بالعمل إلى نيل ثواب الآخرة بمن يحرث الأرض ليحصل على نماء ما تنبته من خيرات ، كما وقع التمثيل لذلك في المضاعفة في قوله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾[1] إن من يخلص في عمله لله يقدر له الله العون فيجني من عمله النجاح ويصحبه التوفيق، ويبشر هذا أن من سعى سعي الآخرة، أنه يصحبه توفيق من الله ليسهل عليه القيام بالأعمال المرضية من رب العالمين المقدر لها حسن الثواب.

القسم الثاني: هم الغافلون عن الدار الآخرة ، كل همهم ما يحصلون عليه من حظوظ الدنيا ، إن قصر اهتماماتهم على الحياة الدنيا وإغفال الآخرة لا يحرمهم

---

[1] سورة البقرة 261

حظهم من الحياة الدنيا المقدر لهم ، فحرصهم لا يحصلون معه إلا على ما شاء الله أن يرزقهم من الدنيا ، و لكنهم لا يجدون من عملهم أي حظ في الآخرة.
والآية لا يفهم منها التضاد بين الحياة الدنيا والحياة الأخرة، فإن الذي يعمل لنيل حظه من الدنيا مستشعرا أن كل ما يرزق من خير هو من فضل الله، ويستحضر ملتزما الحدود التي حددتها الشريعة في الكسب مقصده والتزامه يرفع عمله إلى مستوى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها ثواب الأخرة بفضل الله.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

روضات : جمع روضة أرض خصبة بها ماء وشجر وخضرة.

يبشر: يخبر بما يسر.

الأجر :جزاء العامل عما قدم.

المودة: المعاملة الحسنة التي تكون بين المتحابين.

القربى : قرابة النسب .

يقترف: يكتسب.

الحسنة : المحكوم بحسنه لموافقته الشرع.

بكلمته : من القرآن والوحي.

ذات الصدور : النوايا الكامنة في العقل .

بيان المعنى الإجمالي :

انتقال لتوبيخ المشركين على صدودهم عن الهداية، ولكشف سبب ضلالهم المتبين عن سخافة عقولهم، وفقدانهم لأي سند معقول. ألهُمْ شركاء من الشياطين ومن أسلافهم الضالين قدموا لهم مجموعة من الضلالات حببت إليهم عبادة الأصنام، والإقبال على متاع الحياة الدنيا وإنكار الآخرة. فاتخذوا ذلك دينا لم يأذن الله في أي شيء منه، ولا يقول به عقل راشد؟ ولولا أن الله قدر عدم تسليط عقوبته عليهم عاجلا لكانوا قد سحقوا، ولكن القدر الإلهي الحكيم أخر ذلك إلى يوم القيامة. والظالمون بالشرك مستحقون لعذاب أليم .

يرى كل من تصح منه الرؤية أولئك المشركين وهم على أشد ما يكون من الفزع والخوف، وقد افتضحوا، فعرض ما اكتسبوه من سيئات العقيدة والأعمال. و خوفهم وإشفاقهم لا ينقذهم، فهم صائرون حتما إلى جهنم.

وفي المقابل فإنه في الوقت الذي يكون فيه المشركون ينتظرون مصيرهم في جهنم، في قسوة العذاب النفسي، يكون المؤمنون ينعمون في روضات متنوعة في الجنة، لا تقمع لهم مشيئة، ولا يحرمون من أي شيء يبغونه. كُتب لهم ذلك عند ربهم وقد نالوا مرضاته. إن ما فصل من جزائهم هو الفضل الكبير.

ما فصل من الجزاء في الجنة ذلك هو بشارة عجلها الله لعباده المؤمنين العاملين بما شرعه لهم. قل للمشركين :إني لا أطلب منكم أي جزاء مادي ولا أكلفكم شيئا، ولكن لما كنت قريبا منكم ونحن جميعا قريشيون . ونظامنا الاجتماعي يفرض عليكم أن تعاملونني بالود ولا تتقدموا لإذايتي، فإني أسألكم أن تعاملونني حسب أعرافنا بالمودة وعدم الإذاية.

إن من يبذل وسعه لفعل العمل الحسن شرعا، فإن الله يتقبله منه ويضاعف له مثوبته، بكل تأكيد الله يعفو عن نقائص عباده المؤمنين، ويشكر لهم ما قدموه من أعمال حسنة بمضاعفة الأجر .

أيقولون إن محمدا افترى على الله ما ينسبه إليه؟! ما أشد وقاحتهم وأعظم جهلهم! إن الله القوي العزيز لو افتريت عليه فإنه قادر بمشيئته أن يختم على قلبك فلا تستطيع الإبانة ،وتتوقف حالا عن المواصلة. فتواصلُ دعوتك، وانتشار الإسلام بسبب ما يتتابع من الوحي لك ناقض لأقوالهم مبطل لاتهاماتهم .

و يمحو الله الباطل فيذهب بدون أن يترك أثرا، ويقرر ويثبت الحق بفصل وحيه وقرآنه، وكل ما يجري في باطن العقل البشري معلوم له سبحانه على أكمل وجه.

بيان المعنى العام.

21. أم لهم شركاء شرعوا...لهم عذاب أليم

بعد أن أثبت القرآن أن المشركين في ضلال بعيد، وأن من يريد حرث الدنيا محروم من كل ثواب يوم القيامة. افتتحت هذه الآية ب " أم" تنبيها على الانتقال من ذلك المستوى إلى مستوى آخر، بما يتضمن سؤال توبيخ وتقريع على ضلالهم، وسخف تفكيرهم. على أي شيء يعتمدون إذ انفصلوا عن هداية الله ؟ أيعتمدون على شركائهم في الضلال من الشياطين ومن أسلافهم الغاوين ،الذين رتّبوا لهم جملة من التوجيهات تدفعهم إلى اعتقاد ألوهية أصنامهم، وانكار البعث، ومحض نشاطهم للعمل الدنيوي، فكوّنوا لهم من ذلك منهجا يسيرون عليه في حياتهم، هو الدين عندهم، أي إنهم ملتزمون به التزام المتدين بدينه . فأعقبه القرآن بقوله: ما لم يأذن به الله . تعالى الله أن يأذن به. هو منهج في العقيدة والمعاملات والسلوك لا يستند إلى وحي الله ، ولا إلى الحقائق المتولدة عن العقل المستقيم حسب قوانين التفكير . إن ما انحرفوا إليه يؤهلهم لينزل بهم العذاب العاجل، ولكن الله قدر في سابق علمه، حسب حكمته أن يؤخر عذابهم إلى الأجل الذي قدره في إمهالهم .

إن إمهالهم لا يفهم منه نجاتهم مما اقترفوا، فإن الله حكم أنهم سيذوقون العذاب الأليم جزاء شركهم، وتمردهم على رسول الله، إما في الدنيا، وإما يوم القيامة.

22.ترى الذين ظلموا...هو الفضل الكبير.

عرضت الآية حالة المشركين يوم القيامة، وحالة المؤمنين.

أما حالة المشركين فوصفتهم قبل دخولهم النار ، مفتضحين يراهم كل الحاضرين في المحشر ، يرونهم وهم يَرْتعدون خائفين وجلين، مشفقين من المصير الذي لا يرون عنه محيصا . بدا لهم ما كسبوه من سيئات العقيدة والأعمال، وما يقابلها من الجزاء الذي سيسلط عليهم حتما. وهو واقع بهم .

وأما حالة المؤمنين الذين استقرت العقيدة في قلوبهم، وبرزت على سلوكهم عملا صالحا ، فإنهم سيكونون في روضات الجنات، وتفيد الصورة التي ترتسم في الذهن حسب النص، أن الجنة التي حلوا فيها تتخللها وحدات جامعة بين الخضرة والأشجار والمياه المتدفقة تزيد بتنوعها روعة وجمالا. فرتب القرآن جزاءهم في ثلاث رتب متسامية: كونهم حالين في روضات الجنات؛ يحصل لهم ما يحقق لهم ما يشاؤون ويرغبون فيه، وهذه التكرمة من الثواب والنعيم لهم يختصون بها محفوظة عند ربهم.

ذلك الذي فصلناه في ثوابهم وتكريمهم هو الشرف البالغ، وهو فضلنا عليهم. ويدل هذا على مرتبة أوما إليها النص، وهي أنهم محل الرضا. إذ الموقف يبين وضع الغضب الذي لا يكون لصاحبه إلا المقت، ووضع الفضل الذي يكون صاحبه مؤهلا للتكرمة والنعيم من لدن رب العالمين.

23-ذلك الذي يبشر...غفور شكور.

ما وصف من الجزاء الكريم، قصد من عرضه التعجيل بتبشير عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يدخل السرور عليهم. وقد غلب في القرآن إطلاق صيغة "عباده" للإيماء إلى أنهم مقربون منوه بهم.

قل لا أسألكم.... افتتاح النص بكلمة "قل" مشعر بالاهتمام بمضمونه. قل للمشركين قولا لعله يؤثر في عنادهم، ليكفون عن الكيد للدعوة وعن الإذاية: إني لا أطلب منكم مقابلا على ما أقدمه لكم من الهداية، وما جعلته كل اهتمامي وسعيي. إني لست طالب مال، ولا أكلفكم أي نوع من المساعدات المالية. وانضم بهذا الجزء إلى قوة الدعوة في مضمونها، قوة الاستغناء وعدم الطمع فيما عندهم. وبقي ركن آخر يتقوى به النبي ﷺ في القيام بنشر الدين، هو أن الروابط الاجتماعية في المجتمع العربي، كانت تقوم على العصبية التي عنى ابن خلدون بتفصيلها في المقدمة تفصيلا وافيا. فكانت هذه الناحية ملحظ الاهتمام الذي صيغت به الآية مفتتحة بـ[قل] إني قريب منكم نحن قريشيون، وما من بطن من بطون قريش إلا ولي صلة به. وهذه الروابط المرعية في عرفنا الاجتماعي، أدعوكم إلى اعتبارها، مما يفرض أن تعاملوني معاملة القريب لقريبه معاملة الود والمحبة، لا معاملة البغض والعداء. فقوله تعالى "إلا" استثناء منقطع بمعنى لكن، و[في القربى] في، تدل على التعليل كقوله تعالى "جاهدوا في الله"، لأجل الله، في القربى لأجل القرابة الجامعة بيني وبينكم. فيتخلص من النص: لا أسألكم عونا ماليا، ولكن أسألكم أن تراعوا في معاملتكم لي ما تفرضه رابطة القرابة من الود.

وحول بعض المفسرين مضمون الآية، إلى دعوة النبي ﷺ المؤمنين إلى حسن معاملة ذوي قرابته. وحب قرابة النبي ﷺ شارة الإسلام فلا يبغضهم إلا منافق، وبمقدار ما ينشرح الصدر لحب سيدنا رسول الله ﷺ ينشرح لكل ما يتعلق به، وذوو قرابته في مقام الأولوية المطلقة، ولكن الآية ليس هذا مساقها .وهذا الفهم دفع بهم إلى اعتبار أنها آية مدنية. وهذا الفهم يفوت ما أرجحه من أن هذه الآية ليست مستأنفة استئنافا بعيدا عن السياق العام، وأن وضعها في هذا الموضع من القرآن ليس هو بسبب وقت نزولها كما ظن، إنها نزلت على رسول صلى الله عليه وسلم

إثر نزول الآية السابقة ، فوضعها في هذا الموضع لذلك. إني أرجح أنها متصلة بالآية "15" فلذلك فادع واستقم كما أمرت وقل امنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بيننا وبينكم. فأضيف بهذه الآية مرغب اخر من أصول النظام الاجتماعي عندهم.

ومن يقترف حسنة... الاقتراف : الاكتساب ، والقرفة الكسب، ويقال : هو يقرف لعياله: أي يكسب لهم [1]. فهي ليست مختصة بارتكاب السوء. فمعنى الآية من يبذل جهده ليكون فعله على الصورة الحسنة الجارية على ميزان الشرع قصدا وأداء ، وارتبطت الحسنة بالجزاء المقدر لها من رب العباد. فيفهم من الزيادة مضاعفة الأجر والثواب فضلا من الله، وتتفاضل الأعمال في حسنها بمقدار ما يترتب عليها من الثواب، فظهر بهذا معنى نزد له فيها حسنا: أي ثوابا. وتختم الآية بما يحقق ما سبق. إن الله غفور شكور .فهو سبحانه لما اتصف به من فضل من مغفرة التقصير ،يكون هذا محققا لمن فعل حسنة يشوبها بعض النقص أن يتجاوز الله على ذلك النقص، وهو شكور يرتب على الفعل الثواب والعطاء ،تقديرا لما قام به المؤمن من حسنات .

24. أم يقولون ...بذات الصدور.

تفتح الآية بـ[أم] للتنبيه على تحول الغرض ليستيقظ الفكر للتأمل، مع تضمنها معنى السؤال التوبيخي. الكلام المستحق للرفض والتوبيخ، هو قولهم الرافض لصدق الوحي: قولهم :هذا الكلام الذي يبثه محمد أنه تلقاه من عند الله، هو افتراء على الله وكذب . اتهامهم هذا باطل من التأمل في كلامهم .ذلك أنهم أثبتوا وجود الله، وأن الله متصف بصفات الألوهية من القدرة والإرادة ،وأنه الكامل الذي لا يلحقه نقص .فإذا كان محمد تجرأ فافترى على الله الكذب فإن الله لا يهمله يتقول عليه ، وينسب إليه ما لم يقل ويثبت له تشريعا لم يأمر به، ويستمر على هذه الحال، بل في كل يوم يزيد أتباعه ، ويقوى أثر أقواله في نفوس البشر، إن هذا أمر خطير جدا فلو كان ما أقدم عليه محمد هو افتراء فإن الله قادر على أن يحول بينك وبين مواصلة الكذب عليه . من ذلك أنه يختم على قلبك فلا تستطيع أن تتكلم بكلمة، فتتابع الوحي يبطل اتهامهم وينقضه.

ويمح الله الباطل. إن من سنن الله أنه لا يترك الباطل يصول صولاته ويمد عروقه في المجتمعات إلى ما لا نهاية ، بل يقذف بالحق عليه فيدمغه فيزهقه ، ويزيل

---

[1] تاج العروس ج 24ص248

أثره، وحذفت واو يمحو تخفيفا في النطق وتبعه للخسط النطق. و يتم محو الباطل تبعا لعزته تعالى، فلا يمكن تصور أن القادر العزيز، يترك المفترين عليه يفترون ولا يحرك ساكنا مغلوبا على أمره، تعالى الله عن باطل أقوالهم. ويثبت الله الحق بوحيه الصادق فلا يضره إفك المبطلين.

ومما يؤكد ذلك أنه ثبت أن علم الله شامل للظواهر والخفايا ، وأنه العالم بما يظهر في الخارج ، وما يجري في الزوايا وما يتحرك في العقول ، فلا يمكن أن يتصور أن يغيب عنه شيء وخاصة الافتراء عليه .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

العفو : عدم مؤاخذة الجاني بجنايته.

السيئات : الجرائم.

الاستجابة : الإجابة على أبلغ وجه.

البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى.

قدر : مقدار .

الغيث : المطر النازل بعد الجفاف.

قنطوا: يئسوا.

ينشر رحمته : يوسع في بركات الغيث ومنافعه.

الولي : الذي يتولى عباده بإحسانه .

من آياته : من أدلته التي نصبها على تفرده بالألوهية.

بث : وزع.

جمعهم : حشرهم للجزاء

بيان المعنى الإجمالي :

عناية القرآن بإصلاح الناس واتباعهم الحق هي الأصل فهو يهديهم ليتوبوا إلى طريق الصلاح. والله الكريم الرحيم يدعو عباده للتوبة سواء أكانت معصيتهم المعصية الكبرى أم كبائر الذنوب، ويعلمهم أن يقبل توبتهم فتكون عنده، ومتى اهتدى إليها الإنسان فإنه لا يردها. ويعفو عن عقوبة السيئات عند التوبة أو الإكثار من فعل الخير، أو القيام بالحج مع مراعاة أحكامه وآدابه، و نحو ذلك. و قبوله التوبة والعفو عن السيئات تتم مع علمه الكامل بكل فعل صدر من أي إنسان، ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفر لهم حظوظهم من العطاء والثواب، ولا يقصر ثوابهم على مقدار ما فيه من حسن بل يضاعف الحسنات من فضله لاجزاء، وفي المقابل فإن الظالمين لهم عذاب شديد لازم لهم .

والله أجرى أمر توزيع الأرزاق سعة وتضييقا تبعا لحكمته، إذ لو مكن كل فرد من الرزق بدون حدود، لتجاوزوا حد الاعتدال والاقتصاد إلى التبذير والإسراف. وعالم قائم على التبذير يؤدي حتما إلى اختلاله وفساده .

تفرد سبحانه بإنزال الغيث بعد أن يكون اليأس قد خالط القلوب . فتنتشر رحمته التي ينال منها البشر والحيوان والنبات. وهو سبحانه المتولي لخلقه بالرعاية والألطاف وهو المستحق للحمد والثناء على فضله.

من الدلائل الواضحة على تفرد الله بالقدرة والتسيير، ما تشاهدونه من بديع الصنع في خلق السماوات والأرض، و من تعميرهما بمتنوع الدواب. و الذي خلق ووزع حسب ما يناسب كل نوع قادر أن يجمع البشر يوم القيامة للحساب.

بيان المعنى العام :

25. وهو الذي يقبل التوبة.. ويعلم ما تفعلون.

يتصل مضمون الآية بجوانب مما تقدم في الآيات السابقة. منها قوله تعالى في الآية 23 (إن الله غفور شكور)، وبقوله (إنه عليم بذات الصدور) الآية 24 يتبين ذلك من متابعة ثري محتواها. تفتح الآية بقوله: (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) فيفتح لمن أذنب وتجاوز الخير إلى الشر أنه لا يرفض تحوله إلى الخير، التحول الحق كما يدل عليه إنه عليم بذات الصدور وذلك لأنه الغفور .

و التوبة تتم بتوفر أركانها . بالإقلاع والانفصال التام عن السيئة ، الخطيئة. وبالندم على ما فات منه بجرامته زمنا يعصي ربه، وهو مطلع عليه. و بالعزم على تطهير نفسه في المستقبل من الإثم الذي تاب منه تطهيرا كاملا يتبعه الاحتراز من المعصية والإقبال على الطاعة. و بالتحلل من حقوق العباد الذين ظلمهم حقوقهم

المادية أو الأدبية. يقول سري المقطي: التوبة الإقلاع عن الذنوب والإقبال بالقلب إلى علام الغيوب . فمراقبة الإنسان لعقله وما تتحرك إليه قصوده ونواياه بتوجيهه ذلك إلى الخير حتى يألفه، هو المحقق لحسن إدراك التائب: إنه عليم بذات الصدور. وذكر الزمخشري عن جابر بن عبد الله ﷺ: أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ فقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر. فلما فرغ من صلاته قال له علي كرم الله وجهه: يا هذا، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفروض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. و التعبير بقوله: يقبل التوبة عن عباده أبلغ من قوله يقبل التوبة من عباده، لكونهما تدل على أن الله أخذ التوبة عنده وفصلها عن صاحبها، وهو منتهى القبول.

ويعفو عن السيئات . فلا يؤاخذ مرتكب السيئات بترتيب عقوبة المعصية وهو عام. و جمعا بين النصوص فإن هذا العام لا يتناول الشرك، لقوله تعالى: إ إن الله لا يغفر أن يشرك به)[1] و من أسباب العفو الحج المبرور والشهادة في سبيل الله، ورفع السيئات بكثرة الحسنات، والتوبة.

ويعلم ما تفعلون تحقق الآية أنه يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، لا عن غفلة ولا عن نسيان، ولكن لسعة فضله وعظيم رحمته.

26.ويستجيب الذين آمنوا...عذاب شديد.

تحقق الآية أن الله يستجيب للمؤمنين فيحقق لهم رجاءهم ويقبل توبتهم. كما يمكن أن تفهم الآية على أن المؤمنين يستجيبون لله بإسراعهم إلى الطاعة. و أنه يعطيهم فوق ما أملوا، وأكثر نوايا مما فعلوا من الصالحات.

وفي المقابل فإنه سبحانه أعد للكافرين عذابا شديدا ، وربط بينهم وبينه حتى صار هذا العذاب لشدة التصاقه بهم كأنه حق من حقوقهم .

27.ولو بسط الله الرزق لعباده...خبير بصير.

لا نستطيع أن نفهم الآية على قاعدة مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة أحادا، ويمثلون لهذا بقولهم ركب الناس دوابهم، بمعنى أن كل شخص ركب دابته، فهذه الآية ليست من هذا القبيل ناظرة إلى أثر الغنى في الأفراد وأنه يثير البغي

---

[1] سورة النساء آية 48

والتعدي، ولكنها ناظرة إلى استخلاف الناس في الأرض ، ومسؤوليتهم في عمارة الأرض ، التي لا تكون إلا بالتعاون الناشئ عن الشعور بالحاجة إلى الآخر ، بحيث يحس الإنسان بعجزه وحاجته إلى غيره. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)[1] وقوله تعالى:(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)[2] فتفيد الآية أن الله لو قدّر أن يجعل كل فرد مبسوطا له في رزقه غير محتاج إلى غيره ، لوقع تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرّى. وهذا المعنى هو الذي أثبته الراغب أولا في مادة " بغى " ص55ونقله الزبيدي عن الجوهري، قال : البغي كل مجاوزة وإفراط على القدر الذي هو حد الشيء (تاج العروس ج37ص185/186) أي إنه لو عم الثراء ونال كل فرد من أفراد البشر سعة في الرزق تغنيه ، فإن النتيجة أنهم يتجاوزون الاقتصاد، ويفسد التوازن الذي هو سر بقاء الكون إلى الأجل الذي حدده له رب العالمين. ولا أفهم من الآية أنه لو بسط الله الرزق لعباده لظلم واعتدى بعضهم على بعض. لأن انتشار الثراء انتشارا عاما لا يرتبط به حتما التعدي.

ولكن سنة الله في الرزق: أنه ينزل من عنده بمقدار يبقي على انتظام الكون وتعاون البشر ؛ فلا مساواة بين الجميع في الغنى ولا في الفقر. ولكن مشيئته التابعة لحكمته يتم بها توزيع الرزق. ولما كانت آثار سعة الرزق أو الخصاصة والتضييق على النفس البشرية، خفية ولا يستطيع أحد أن يقدرها مقدما إلا الله ، ختمت الآية بذكر صفته سبحانه: خبير يعلم الخفايا والتطورات التي تحدث في النفس وإن كانت غير موجودة الآن. وهو الذي تتكشف له جميع تلك الآثار فهو بصير بها.

28. وهو الذي ينزل الغيث ...وهو الولي الحميد.

وهو سبحانه المتفرد بإنزال الغيث، فهو يحجبه أو يرسله متى شاء. ومن ظن أنه من أثر الأنواء فهو مخطئ ، لأن تقلب الأنواء سبب من أسباب نزول الغيث، يقلبها الله كما يشاء فيهيئها إلى ظروف ملائمة لنزول الغيث. أو ظروف ملائمة لتمزق السحب. يدلك لهذا أنه إذا توالى الجفاف وتجرد وجه الأرض من النبات فهل يستطيع أحد أن يحرك تلك الأنواء على النحو المناسب لإدرار السحب ، فلو كان الغيث لغيره لأنزله، ولكن الغيث بيده وحده سبحانه فهو يمسكه، حتى إذا قارب القنوط واليأس التمكن من قلوب الناس، وظنوا الهلاك، أنزل غيثه فأحيا به

---

[1] سورة الزخرف آية 32

[2] سورة الحجرات آية 13

الأرض بعد موتها. وتنتشر آثار الغيث من رحمته الواسعة فتشمل البشر والحيوان والنبات، فتصبح الأرض مخضرة.

وهو الولي الذي يرعى مواليه فيحسن إليهم، المستحق للحمد والثناء على فيوض نعمه، ومتتابع خيراته.

29.ومن اياته خلق...إذا يشاء قدير.

في الآيتين السابقتين ما يثير الذهن إلى ربط مضمونيهما بالمتصرف الواحد الأحد. فأعقبهما بالتصريح بما يشمل ما جاء فيهما وفي غيرهما من مظاهر الكون، فذكر خلق السماوات والأرض. ولفت الأنظار إلى أن هذا الخلق المحكم العجيب دليل على القدرة والحكمة. وكذا ما توزع على أديم الأرض من دواب تتحرك، فاختصاص كل نوع من تلك الدواب بما يلائمه من المناخ المتنوع الذي خلقه رب العالمين. هو أيضا آيات على القدرة والعلم والحكمة. وإذا كانت الدواب عمرت بها الأرض، ولا نعلم دواب في السماوات. فذلك بالنظر إلى الارتباط بين السماوات والأرض. فلولا الشمس مثلا وأشعتها المحدثة في الأرض ما به قوام النبات وغذاء التربة وغير ذلك، لما نبت على وجه الأرض نبات وما كانت الحياة لتتحقق.

وإذا كانت قدرته سبحانه أثرت في الأرض فعمرتها بالحياة من مختلف الأنواع فقدرته سبحانه على جمع البشر يوم القيامة، بإحيائهم من جديد إذ تعلقت مشيئته، لظهر وأولى من ابتداء الخلق حسب تجارب الإنسان، وإن كان الخلق والبعث بالنسبة له تعالى على مرتبة سواء.

وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (34)

بيان معاني الألفاظ:

كسبت ايديكم : أقوالكم وأفعالكم.

مصيبة : حادثة مضرة.

المعجز : الغالب غيره بانفلاته من قبضته.

ولي : المتولي بالرحمة

الجواري : السفن التي تجري في البحر.

الأعلام : جمع علم وهو الجبل، السفن العظيمة.
رواكد : جمع راكدة، ساكنة لا تتنقل.
على ظهره : على سطحه.
يوبقهن : يهلكهن بالغرق.

بيان المعنى الإجمالي

كل مصيبة تصيبكم في أجسامكم أو في أموالكم، هي جزاء عن معاصيكم التي قصدتم إليها وملتم بها. و رحمة الله واسعة فهو لا يعاقبكم عن كل معصية صدرت منكم، بل إنه لعظيم فضله يعفو عن كثير من الذنوب. و إذا أخر الله عقوبتكم، أو تجاوز عن بعض ذنوبكم فإياكم أن تظنوا أن بوسعكم أن تفلتوا من قبضته، وتسليط العقاب الرادع لكم متى تعلقت إرادته بذلك. أينما كنتم في الأرض فإنكم لا تفلتون من تنفيذ إرادته فيكم. و إنه ليس لكم أي ولي يدافع عنكم ولا نصير ينصركم فيحميكم مما قرره سبحانه فيكم .

إنه من الأدلة الواضحة على تفرده سبحانه بالتدبير والتصرف والحكمة، ما تشاهدونه في البحار من السفن التي تحملكم وتحمل أثقالكم ،عظمت أجرامها وسعتها فتراها طافية جارية في البحر كأنها جبال متنقلة. و من يسيرها ويجريها ؟ هو الله بسبب الرياح التي يحركها. وإذا شاء سبحانه أن يسكن الرياح جمدت تلك السفن على سطح البحر ثابتة لا تتحرك . سخر سبحانه هذه الرياح لتبلغ سفنكم الغاية التي إليها تقصدون .وفي ذلك آيات بينة وأدلة ظاهرة ، ينتفع بها كل من تحلى بالصبر والشكر .وهو القادر أن يقوي في الرياح قوة عاصفة تهلك السفن وحامليها، يسلط عليكم الهلاك بسبب ذنوبكم ، ويعفو عن كثير منها بفضله.

بيان المعنى العام .

30. وما أصابكم ..ويعفو عن كثير.

قد يرتكب الإنسان المعصية، فيكون مؤهلا ليعاقبه الله عليها. وهذا العقاب يوم القيامة محقق إذا لم يعف سبحانه عن المعصية. و أما في الدنيا فإن المصائب الدنيوية تذكر مرتكب المعصية، بأن الله عجل له العقوبة في الدنيا، وإن كانت عقوبة الدنيا لا توجب حتما سقوط عقاب الآخرة. كما أنه لا يتحتم أن تكون كل معصية يعاقب عليها. و ذلك لأن ما يعفو عنه الله كثير.

صاغ القرآن النص مفتتحا بكلمة "ما" وهي تحتمل أن تكون اسم موصول ، أي الذي أصابكم من ضرر هو بسبب ما كسبت أيديكم وعلى هذا الفهم قرئت الآية (بما كسبت أيديكم) . ويحتمل أن تكون مضمنة معنى الشرط وعلى هذا قرئت الآية

فيما كسبت أيديكم . و المعنى لا يختلف، أي إن بعض ما يصيبكم من مصائب في الدنيا هو بسبب ما كسبت أيديكم كسب الأيدي: ما قصدتم ونفذتم من شركي أقوالكم أو أفعالكم. و من لطف الله ما أبرزته الآية بإتباع العقاب بالعفو عن كثير من التجاوزات. ولولا هذا اللطف لتأهل كل عاص إلى العقوبة العاجلة وهلك. فالله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ويطهره من بعضها بالعفو. و الله ذو الفضل العظيم.

31 -وما أنتم بمعجزين...من ولي ولا نصير.

ختمت الآية السابقة بأنه سبحانه يعفو عن كثير من الذنوب إنه يعفو أو لا يعجل لكم بالعقوبة ، فلا تظنوا أنكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضته .وإذا صح ما روي أن القرشيين قحطوا سبع سنين متوالية، فسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله ليغيثهم ،ومطروا إثر ذلك .فهذه الآية تنبيه لهم أنه إن عفا عنهم فلا يطمئنوا إلى كشف المؤاخذة . فهم في قبضة الرحمن . و لا يخرج عن تصرفه أي إنسان في أي أرض كان، ولو كانوا في مكة وحول الكعبة. وليس لكم أيضا أي ملجأ يقيكم عذابه، أو ينصركم بأي نوع من أنواع النصر . فتحقق أنكم في قبضته لستم بمعجزين.

32 -34- ومن آياته الجواري...ويعف عن كثير.

تقوم في هذا العالم أدلة كثيرة شاهدة على تفرد الله بالخلق وحسن التسيير، والرحمة والنقمة. فمن تلكم الأدلة الكثيرة، السفن الجارية في البحر، تحمل البشر والسلع وتنتقل بحمولتها واصلة بين أطراف الأرض. قد تعظم تلكم السفن فتراها جارية على سطح الماء كالجبال تشق مياه البحار والمحيطات. ثم دعا الناس للتأمل في القوة المسيرة لتلك السفن في عصر نزول الآية، فالناظر يجد أن تلك السفن العظيمة كالجبال يسيرها الهواء المتحرك "الرياح" فإذا سكنت الرياح تبقى ثابتة في مكانها لا تتحرك. إن في هذا التصرف العجيب لأدلة على تصرف القدرة الإلهية. ينتفع بهذه الأدلة من جمع بين الصبر على التأمل ولا يمر بمظاهر الحياة غافلا ،وبين الشكر لنعمة الله لأنه أيقن أن كل نعمة من فضل الله وأنه حقيق بالشكر. ولسا من فقد نعمة التأمل ونعمة الاهتداء إلى الشكر، فيمر على هذه الآيات غافلا عن أسرارها. كما أنه سبحانه قادر على إهلاك تلك السفن وما تحمله فتغرق في قاع البحر، بسبب ما قصدوا إليه من المعاصي وقاموا به فعلا. والله عفو متفضل فلا يؤاخذ المذنبين أخذا عاجلا بكل معصية، بل إنه سبحانه يعفو عن كثير من الذنوب.

و في عصرنا هذا، فإن دفع السفن بالمحركات يقوم دليلا على النظام المحكم للخلق، ذلك أن العلماء اكتشفوا القوانين التي سير الله عليها كل شيء. وانتفعوا بتلكم

القوانين، وبنوا السفن و المحركات التي تسيرها على تلكم الضوابط. ولو لا ذلك التقدير الثابت ما استطاع العلم أن يتقدم خطوة واحدة.

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)

بيان معاني الألفاظ:

الفواحش : جمع فاحشة وهي الفعلة الشنيعة.

الشورى : التشاور.

من سبيل : موجب للمؤاخذة.

البغي : الاعتداء

مرد : رد.

من سبيل : طريق للرجوع إلى الحياة الدنيا.

بيان المعنى الاجمالي .

إن التصرف المحكم المذكور، يجبر الكافرين الذين يعملون على خلق التأويلات الباطلة، على الاعتراف بأنهم لا يجدون ملجأ ينقذهم مما قدره الله من الأحكام في أنفسهم وفي الكون.

إن ما حصل لكم من مكاسب الدنيا، هو في حقيقته متعة وقتية تزول سريعا. و لكن ما أعده الله للمتقين يتميز بأن نوعه خير من كل متاع الدنيا، وهو باق غير زائل، و هو ما يستحقه الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح، وتوكلوا على ربهم مفوضين إليه أمرهم راضين بما قسمه لهم، و هم الذين يبتعدون عن الأعمال المنهي عنها نهيا يترتب عليه الإثم الكبير، ويبتعدون عن الفعال الشنيعة، وهم مع ذلك يتحكمون في أرجاعهم عندما يغضبون، و هم أيضا مقبلون على طاعة ربهم، ويقيمون الصلاة بأدائها على الوجه الكامل المستحضر لوقوفهم بين يدي ربهم مناجين له. و هم الذين توثقت صلتهم ببعضهم، فمبدأ الشورى في الأمور الهامة الخاصة منها والعامة مرجعهم يعتمدون عليه، ويطبقون ما يصلون إليه بواسطته. تطهرت نفوسهم من الشح والأثرة، فهم ينفقون من الرزق الذي مكناهم منه بأريحية. ولأنهم لاعتزازهم بإيمانهم يدفعون الظلم وينصر بعضهم بعضا، فأمرهم واحد.

والقاعدة أن من انتصر ممن ظلمه أنه لا يتجاوز القدر الذي ظلم به. و لكن الذي يعفو عمن ظلمه، ويعمل على إزالة رواسب العداء فإن الله قد تكفل بأجره وهو ذو الفضل العظيم. والله لا يحب الظالمين فلا يدخلهم في رحمته وكرامته.

والذي انتصر لنفسه فرد على الظالم اعتداءه فلا ملامة عليه ولا عقاب، ولا مؤاخذة. ينفرد بالمؤاخذة والعقاب الذين يظلمون الناس ويتعدون بغير حق على حقوقهم، ويتجبرون في الأرض فيخرجون عن سنن الحق والعدل. إن هؤلاء الظلمة المفسدين اختصوا بأن لهم العذاب الأليم الذين يحسون به أشد الاحساس.

وإن المؤمنين الذين تحملوا الأذى من المشركين وصبروا عليه الصبر الإيجابي لا صبر الاستسلام ، هؤلاء بلغ مستواهم الإنساني مقاما رفيعا وهم أولو العزم ، كما نوه القران بأولي العزم من الرسل .

إن من يصمم على الاعراض عن الهداية الربانية يحرمه الله من توفيقه ولا يسعفه بالألطاف التي تبصره بالحق، ومن حرم هذه الألطاف الإلهية فإنه لا يجد وليا غير الله يهديه فيستمر على ضلاله إلى أن يؤاخذ بما قدم.

بيان المعنى العام .

35ـ ويعلم الذين يجادلون...ما لهم من محيص.

نبهت الآية السابقة إلى آية من آيات الله، وهي السفن في البحر، هي بحمولتها من البشر والسلع تنفذ فيها إرادة الله. فهي إما أن تواصل سيرها سليمة إلى الوجهة التي تقصدها، وإما أن تسكن فلا تتحرك، وإما أن تهيج العواصف الهوجاء فيبتلعها قاع البحر. فأثبتت أنهم مع سفنهم ومتاعهم والعون تحت تصرف الله. ولكن المشركين يقدمون التأويلات ويفرضون الفروض التي لا أساس لها، رغبة منهم في الجدل الباطل . وصرفا لأتباعهم عن الاعتبار بحكمة الله وعموم تقديره. فأعلنت هذه الآية أن مظاهر التصرف في الآية السابقة ينفذ حتما إلى عقول المشركين، و يعلم الذين يجادلون في آيات الله، أنه قد انطبق عليهم التقدير الإلهي، فهم محصورون في حدوده ، لا يجدون مخرجا مما قدر لهم . وأصل المحيص أن يتحرك المحصور تحركا متخبطا للبحث عن مخرج مما هو فيه فلا يجده. فسلامتهم، أو سكون السفن بهم ، أو غرقهم ،هو مآلهم في أسفارهم ولا يمكنهم أن يتمردوا على ما قدر لهم .

36ـ فما أوتيتم من شيء...وعلى ربهم يتوكلون.

تعددت الآيات والنعم في الآيات السابقة من بسط الرزق، وإنزال الغيث ، وما بث في الكون من دواب ، والسفن التي تصل بين أطراف الأرض، كل هذه النعم التي تنهلون بها ، وتعلقون بها آمالكم وتبتهجون بها؛ إن ما تحصلون عليه منها، لا يعدو أن يكون حاصلا تتمتعون به متاعا محدودا وفانيا، شأن كل ما يصل للإنسان في الدنيا. وإن المدخر عند الله، هو خير وأفضل من كل متاع الدنيا، وهو أيضا عطاء باق لا يفنى، ادخره سبحانه للذين من صفاتهم :

1 ـ أنهم جمعوا بين الإيمان ، فلم يشركوا بربهم أحدا، وبين كونهم لا يعتمدون إلا عليه ليقينهم أن كل الأمور بيده.

37ـ الذين استجابوا ... ومما رزقناهم ينفقون

أتبع للذين آمنوا الذين من صفاتهم أنهم على ربهم يتوكلون، بتسجيل أن من صفاتهم أيضا:

2-أنهم يبتعدون عن كبائر الآثام التي اعتنى الشارع الحكيم بدعوة الناس إلى اجتنابها لما يترتب عليها من فساد عظيم، كالسرقة، والزنا، والغيبة ،والسرقة، والتعدي على الأعراض بالقذف والكذب وقتل النفس ...

3- وهم الذين يتحكمون في أرجاعهم فإذا ما استثيروا فغضبوا، لا يكون رد فعلهم عنيفا وسريعا، بل يتغلبون بعقولهم على نار الغيظ فيغفرون للمتعدين من إخوانهم المؤمنين تجاوزاتهم .وهذا مستوى رفيع من التعقل، بعدم الاندفاع مع العواطف المشبوبة . يمكن من حسن النظر إلى المستقبل.

38 .والذين استجابوا لربهم...ينفقون.

-4 و هم الذين جمعوا بين الصفات الأربع: الاستجابة لأمر ربهم، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون. فلنتتبع هذه البيانة .

أ-الاستجابة تدل على قوة الإجابة، ويتم ذلك بالإسراع دون تردد إلى تنفيذ ما أمروا به، تعلق الأمر بالعبادة، أو الجهاد، أو بذل الأموال، أو السلوك، وبصفة عامة كل ما يأمرهم به الوحي الرباني .

ب - إقامة الصلاة بأدائها في أوقاتها، مستحضرا أنه يناجي ربه، ويتصل به معرضا عن شواغل الدنيا، وصارفا لحديث النفس القاطع للصلة الراقية بالله.

جـ- أن دأبهم هو التعاون الفكري بينهم، تقوم علاقاتهم على الود الذي يتبعه أن كل فرد منهم يجتهد لينصح لأخيه، ويغسل من نفسه داء الأنانية التي تجعل صاحبها يعمل على إظهار تميزه. كل فرد ينتفع وينفع بالتجارب الماضية، وبما لفكره من نبضات نيرة تلقي بأشعتها على المستقبل لتتكشف البواطن الخفية التي تحمي من الشر والتعثر، وتقرب من النجاح وتزيح المعوقات.

د- أن نفوسهم الطيبة قد تطهرت من داء الشح، والتعلق بالمال، فهم يستحضرون أن ما بين أيديهم من أموال، هو من رزق الله ومن فضله عليهم، وبذلك تطاوعهم نفوسهم للإنفاق ويكون عليهم ميسورا.

39 .والذين إذا أصابهم ...هم ينتصرون.

وهم الذين إذا سلط عليهم الظلم، كان لهم من عزة نفوسهم ما يدفعون به الظلم، وينتصرون لحرمتهم المنتهكة من الظلمة المعتدين، وبإبائهم للضيم يقطعون على الظلمة تمردهم واستهتارهم بغيرهم. والانتصار يكون بالطرق المشروعة، التي أصلها الرفع للقضاء إن كان المظلوم بمحلة تنفذ فيها الأحكام العادلة. ولذلك يرى جمهور العلماء أن المؤمن اذا بغى على مؤمن وظلمه فلا يجوز للآخر أن ينتصف منه، مثال ذلك أن يخون إنسان آخر، ثم يتمكن المعتدى عليه من خيانة الأول، فمذهب مالك رحمه الله تعالى: ألا يفعل. وقد قال ﷺ: ولا تخن من خانك. الحديث خرجه ابو داود والترمذي.

40. و جزاء سيئة...انه لا يحب الظالمين.

هذه الآية مركبة من ثلاث جمل: وجزاء سيئة سيئة مثلها- فمن عفا وأصلح فأجره على الله - إنه لا يحب الظالمين.

الجملة الأولى: أفادت الجملة الأولى: أن من اعتدى على غيره فأساء إليه وآذاه، فإن للمعتدى عليه أن يرد الإذاية السيئة بمثلها ولا يتجاوز. والمماثلة قد تكون ممكنة كقتل القاتل، أو إتلاف عضو مثل العضو المعتدى عليه. وتعويض المثلي كالمصنوعات الآلية، وما يكال أو يوزن أو يعد في التعامل العرفي، وقد يتعذر ذلك فيصار إلى المشابهة المقاربة للإذاية عرفا. و ذلك كإتلاف المقومات التي يمكن معرفة قيمتها، ولا يوجد لها مثيل، فيقتصر على القيمة وفي تحديد تطبيقات هذه الآية على الواقع مجال للنظر الفقهي تحقيقا للعدالة.

الجملة الثانية: مركبة من امرين العفو، و الإصلاح. أما العفو فمعناه ترك المؤاخذة. وأما الإصلاح فبعمل ينبئ عن ذهاب ما في نفس المعتدي عليه من أثار الاعتداء. و هو ما أشارت إليه الآية(ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم). و الظاهر أن هذا يختلف باختلاف نفسية المعتدين، فمنهم النبيل الذي يوقعه الإحسان في التأنيب الذاتي ويحمله على إكرام العافي. ومنهم اللئيم الذي يتمرد بالعفو .وهذا يكون رد الإساءة بمثلها أولى . ومن أوقع العفو في محله يسمو أجره إلى مرتبة أنه مكفول عند الله لا يضيع .وقد روى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم :إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له أجر عند الله فليقم .فيقوم خلق .فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا .

الجملة الثالثة تفهم الآية على أن المقصود بها، تنبيه من انتصر لظلمه أن لا يتجاوز حد المماثلة . فإنه لو تجاوزها انقلب ظالما، والله لا يحبه، فيكون معرضا لعقاب الله. كما يمكن أن نفهم الآية على أنها معطوفة على كلام مقدر: إن الله يحب العافين ولا يحب الظالمين . فتكون الجملة تحريضا على العفو والعافي مأجور، وتهديدا لمن ظلم مؤمنا بأنه عرض نفسه ليكون مبغضا من الله، مستحقا للعقوبة على ظلمه .

41. ولمن انتصر من بعد ...من سبيل .

بعد أن تعرضت الآية السابقة إلى ما يمكن أن يقع بين الناس في تعاملاتهم من إذاية أحدهم لغيره، وأنه لا يلام المعتدى عليه من رد السيئة بمثلها، ولا يتجاوز في الإساءة فالتجاوز ظلم والظالم مبغض عند الله مبعد من رحمته، وأن العافي مأجور

عند الله .أضافت هذه الآية تدقيقا بتقريرها ، أن رد السيئة بمثلها، ومن انتصر لنفسه من الذي ظلمه، إن هذه الفئة لا يتوجه لها لوم ولا عقاب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

42. إنما السبيل على الذين...عذاب أليم

يختص باستحقاق اللوم والعقاب في الدنيا والآخرة الذين يظلمون الناس بالتعدي على حقوقهم أو كرامتهم. إن الظلم لا يقتصر فساده على المظلوم، وإنما هو يعتبر عامل فساد في الأرض، لما يحدثه الظلم من اختلال في النظام الاجتماعي، وتفكك في الروابط الاجتماعية. وتحقيقا لآثاره السيئة أتبعت الآية الظلم بأنه مجانب للحق دائما .إن الله العظيم الآمر بالعدل، الذي استخلف الانسان في الأرض يعمرها ، والظلم معطل لعمارتها، يتوعد الظالم بعقاب أليم.

43.ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور.

بكل تأكيد إن من تغلب على عواطفه، فلم يجز السيئة بمثلها ، وعفا عمن ظلمه وفوض أمره إلى الله، فإنه قد ارتقى إلى مستوى رفيع من قوة الإرادة . ذلك أن الصابر على الأذى المتبع صبره بغفران إذاية المعتدي، هو من أصحاب العزم الذين قويت إرادتهم ومضت عزيمتهم تهتك كل المقاومات للمضي في طريقها لصالح. أثنى الله على أصحاب العزم من الرسل قال تعالى: {فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل}[1] والغائصون على تحقيق مقاصد الشريعة يعملون الآية إذا لم يتمرد المعفو عنهم فيضاعفون ظلمهم ففي هذه الحالة يكون توقيفهم عند حدهم، وجزاؤهم بالمثل أولى كسرا لتجبرهم، واستهانتهم بكرامة الناس وحقوقهم، واغترارهم بالعفو .

اذا أنت اكرمت الكريم ملكته *** وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

44.ومن يضلل الله...إلى مرد من سبيل.

بصرت الآيات السابقة البشر إلى الطريقة الهادية للنجاح في الحياة، كما حذرتهم العواقب السيئة لمن لم يحترمها. وإذ تبينت الحقيقة واضحة ، فإن الله لم يقصر البشر على اتباع طريق الهدى ، ولكن ترك لهم الاختيار ، فمن اختار طريق الهداية أسعفه الله بالطافه ليمضي في طريقه الراشد ، ومن اختار طريق الضلالة ، مولّيا ظهره للمنهج الرباني حرم الألطاف التي تثبته على الهدى . فمعنى ومن يضلل الله :يتركه لنفسه ، فإنك لا تجد له وليا هاديا يهتم به ويرشده ، فيستمر على

---

[1] سورة الاحقاف اية35

ضلاله .إن تلكم الألطاف بيد الله وحده، وهو سبحانه لا يتيحها إلا لمن عزم على الخير وعلى الاستعانة بالله ، و من انصرف عن التعرض لهدايته فلا تجد أحدا يهديه بعد حرمانه منها بسبب إعراضه.

أبرزت الآية بعد ذلك صورة المخذولين يوم القيامة الذين فقدوا في الدنيا الولي الهادي، تراهم يا محمد، أو كل من يصح منه الرؤية باعتبار أن ما سيرد افتضح فكل من تتصور منه الرؤية يراه، ما هذه الصورة التي لا تخفى لشناعتها ؟ هي صورة الظالمين في عرصات القيامة ، وقد تأكد لديهم مصيرهم الخاسر والعذاب الذي يترصدهم ، يعيدون ويكررون في لهفة: هل هناك من طريق للعودة إلى الحياة الدنيا لنصلح ما فرطنا فيه ؟

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

يعرضون :تمر بهم ملائكة العذاب، على النار .

خاشعين : -خاضعين مستسلمين أذلاء.

من طرف خفي :بتحريك ضعيف لأجفانهم، يسترقون النظر .

مقيم :دائم.

الاستجابة : الإجابة المؤكدة بطاعة الله.

ملجأ: من شيء يقيكم العذاب.

نكير :إنكار لما اقترفتموه .

بيان المعنى الاجمالي :

كل من يمكنه الرؤية يرى الذين ظلموا بشركهم وتكذيبهم، يراهم والملائكة يعرضونهم على النار الموقدة، فيستولي عليهم اليأس، ويغشاهم الذل، يسترقون

النظر بين القبضة والأخرى، آملين أن يكون العذاب قد ابتعد عنهم فيعودون بالخيبة. ويحرك أسماعهم تقريع المؤمنين لهم بقولهم: إن الخاسرين حقا في هذا اليوم هم الظالمون بالشرك والتكذيب، خسروا أنفسهم فصب عليها العذاب صبا، وخسروا أهليهم إذ لا تبقى أي صلة نسب بينهم. لا بنوة ولا أبوة ولا زوجية ولا عصبية. ويحقق مالك يوم الدين الله رب العالمين أنهم منغمسون في العذاب لا يبرحونه.

ذهبت عنهم الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها تنصرهم، فلا يوجد ناصر يوم القيامة إلا الله. ومن يحرم هداية الله تنسد في وجهه جميع الطرق

اسرعوا بإنقاذ أنفسكم، وطبقوا شرعه، ما دام في الوقت فسحة، قبل أن يحل يوم شديد لا راد له، يأتيكم من الله، فلا تجدون مكانا يقيكم العذاب الذي وصف لكم، ولا يقدر أحد منكم على إنكار شي مما عمل في الدنيا.

لا تغتم يا محمد إن واصل المشركون إعراضهم عن اتباع ما أنزل إليك وواصلوا إقامتهم على الشرك وسلوك طريق الضلال، فما كلفناك أن تجبرهم على الإيمان بك، والذي كلفناك به هو تبليغهم ما أنزل إليك، وقد فعلت. إن شأن الإنسان الذي لم يستقم عقله بالإيمان أنه إذا وصلت إليه رحمتنا التي وسعت كل شيء من صحة ومال وذرية واستقامة أمر، أنه يفرح بذلك فرحا ينكر معه واهب النعم وينسب كل شيء صالح الى نفسه، على أنه من حسن تدبيره ونكائه، وفي المقابل إذا أصابه ما يؤلمه ويسوؤه، وهو في الحقيقة نتيجة لما قام به سيء الفعال، فإنه يزداد كفرا، عوض أن يعود لنفسه بالنقد والإصلاح.

بيان المعنى العام

15 .وتراهم يعرضون عليها ..في عذاب مقيم.

هذه حالة اخرى من أحوال الظالمين بكفرهم، يتصورها كل راء، تكشف صورتهم مبرزة الخطوط الكبرى لما يلقونه يوم القيامة . تراهم والملائكة يعرضونهم على النار، قد استولى عليهم اليأس والندم وانكسرت نفوسهم تنطق مظاهرهم بما هم عليهم من الذل، يسترقون النظر للعذاب الماثل أمامهم، شأن الفار يجري، ويلتفت تارة لينظر إلى ملاحقه أين هو منه. ومما يضاعف عذابهم ما يدخل أسماعهم من تعليق المؤمنين عليهم، إذ يقول المؤمنون الذين كانوا محل استهزاء من الظالمين في الدنيا، يقولون بصوت جهير: إن الخاسرين حقا، هم الذين تعروا ففقدوا كل ما ينفع، وتجردوا من كل صالح، ولم يبق معهم شيء، بل إن وضعهم أسوأ من التاجر الذي ذهبت أمواله وافلس، لأنهم خسروا أنفسهم التي كانوا يحرصون كل الحرص على ترفيهها وتنعيمها واستجابة شهواتها، فإذا هي

اليوم في العذاب والنكال والمهانة، وخسروا أهليهم خلا انتساب بينهم. و تختم الآية بكلمة الفصل من رب العزة جاءت تذييلاً لكل ما سبق: ألا- انتبهوا واعلموا: أن الظالمين بسبب شركهم وتكذيبهم منغمسون في العذاب الدائم الذي لا يزول.

46. وما كان لهم ...من سبيل .

و يحقق ثانيا أنهم لا يجدون في هذا اليوم وليا ينصرهم، ويقف إلى جانبهم بالتأييد والدفاع، كما كانوا يظنون أن آلهتهم تنفعهم بذلك. إنه لا ناصر في هذا اليوم إلا الله. و من يحرمه الله ألطافه تنسد أمامه جميع الطرق، ويكون محصورا في يأسه لا يجد مخرجا مما هو فيه لا هداية في الدنيا، ولا مفر يوم القيامة.

47.استجيبوا لربكم...وما لكم من نكير.

ما تقدم في الآيات السابقة من تفصيل ما يلقاه الظالمون، المقصد الأهم منه هو أن يقلع الظالمون عن ظلمهم وأن يتحولوا من ظلام الكفر إلى الإيمان، فدعاهم القرآن بالأمر الجازم أن يطيعوا الله وأن يطبقوا شرعه الذي بلغهم، ونبههم إلى انه ما زالت أمامهم فسحة ليصلحوا شأنهم، فليسرعوا من قبل أن يأتي يوم شديد يأتيكم هذا اليوم من الله الذي لا معقب لحكمه ولا يرد ما نفذه . إنه يوم لا يجد فيه أي ظالم أي ملجأ يتقي فيه من عذاب الله، فالعذاب ينزل عليه حتما. ولا يمكنه أن ينكر شيئا مما اقترفه في الدنيا أو يقدم عنه عذرا.

48 فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا...فإن الإنسان لكفور.

بعد ذلك الأمر الجازم "استجيبوا" وتنبيههم إلى أن ما يزال في الوقت فسحة لإنقاذ أنفسهم . عقبه بتسلية الرسول ﷺ إذا هم واصلوا تصلبهم في الكفر . لا تبتئس و لا تحزن إذا هم لم يؤمنوا و أعرضوا عنك وواصلوا إقامتهم على الشرك والضلال .إنا ما أرسلناك لتكون متسلطا عليهم قاهرا لهم على اتباعك . تحفظهم جبرا من طريق الضلال. مهمتك محصورة في إبلاغهم ما أنزلناه إليك و بيانه. فقد أديت ما أنت مكلف به و أمين عليه .إنهم إن أعرضوا عن اتباعك . فهذا ليس أمرا غريبا في المواقف البشرية . فقد كفر بي أكثر الناس وأعرضوا عن عبادتي واتبعوا شهواتهم وما يدعوهم إليه الشيطان .

إنا إذا أوصلنا إلى الإنسان نعمة من خيراتنا غير المحدودة من الصحة والغنى والأمن، والذرية والمنزلة الاجتماعية فاستمتع بها وسعد وأحس بها أشد الإحساس "أذقنا" استولى عليه الفرح بما هو فيه من رخاء وظروف مواتية، فرحا يخرجه من الاعتراف بفضل واهب النعم إلى الاستخفاف بفضله وكفران نعمته ونسبتها إلى

نفسه، فيتضاعف زهوُهُ ،وفي المقابل فإنه إذا أصابه ما يسوؤه من مرض وفقر وخوف و سقوط منزلة و عقوق للذرية ،وهي في حقيقة أمرها جزاء ما اقترفوه من ذنوب ،و ما تجاوزوا به حدود الله فظلموا، وسيء فعالهم؛ ولكن الإنسان لا يتأمل تأمل العقل الكاشف عن الأسباب الحقيقية، فيصلح نفسه، بل يمضي في كفره وجحوده لنعم الله عليه مع أن ما يسوؤه قليل بالنسبة للنعم التي يعيش في ظلالها. هذا هو شأن الإنسان إذا لم يشرق قلبه بالإيمان وتستنير بصيرته بالتعلق بالله.

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

يزوجهم: يقرنهم.

العقيم: الذي لا يولد له كان رجلا أو امرأة.

الوحي: الإشارة الخفية.

علي: عظيم القدر أسمى من أن يحيط به الخيال.

حكيم: الذي لا يخفى عنه قليل و لا كثير في تصرفه.

الروح: القرآن لأنه به تحيا النفوس وتسلم.

من أمرنا: من شأننا العظيم فكان كلاما معجزا.

جعلناه: جعلنا الكتاب.

بيان المعنى الإجمالي:

تفرد الله بملك السماوات والأرض و ما فيهما ،يدلك لذلك أنه هو وحده المتصرف في الإيجاد، ولا يتدخل أحد سواه في الخلق . خذ لذلك مثلا . من طبيعة الإنسان أنه حريص على أن يخلفه نسله. يتزوج لتحقيق ذلك، ولكن الإنجاب لا يتبع إرادة

المنجبين. فهو سبحانه يهب إناثا فقط لمن يشاء ، ويهب ذكورا فقط لمن يشاء، ويهب لمن يشاء ذكورا وإناثا، ويحرم من يشاء من الإنجاب فيكون عقيما. فالرغبة الفطرية والسعي لا يحققان ما يريده الإنسان. إذ الخلق بيد الله وحده، لأنه العليم بخفايا الأمور وهو القدير على تنفيذ ما علم كما علم.

إنه لا يتهيأ لأي بشر أن يكلمه الله إلا بأحد الطرق الثلاثة '1' أن يوحي إليه وحيا يحس الموحى إليه في نفسه يقينا أنه تلقى كلاما من عند الله ،'2' أن يكلمه بكلام يسمعه دون أن يرى المتكلم '3'أن يرسل رسولا من ملائكته يحمّله الوحي الذي يريد فيبلغ الملك ذلك الوحي إلى النبي أو الرسول. إن الله أسمى من كل تصور، تعالى في جلاله يتصرف في الكون بالحكمة البالغة ، لأن الحكمة وصف أزلي ثابت فهو الحكيم الكامل .

و على سنتنا تلك التي جرت مع المرسلين أوحينا إليك يا محمد القران الذي أحيا النفوس فتحركت سامية إلى الحق، وتفتحت على الخير والهدى، إن ما بلغته اليوم هو من فضل الله عليك، وتقريبك واختيارك، فإنك ماكنت تدري قبل ذلك شيئا من حقيقة القران وما كنت تدري تفاصيل الايمان ، ولكننا أردنا أن نجعل ما أوحيناه إليك نورا مضيئا نهدي به من نشاء من عبادنا الذين أقبلوا على الوحي والتقين منه عاملين به راغبين رغبة أكيدة أن يكونوا ممثلين لهديه، فتمنُّ عليهم بالطافنا، و بكل تأكيد، لك يا محمد دور في هدايتهم إلى الطريق المستقيم المنجي: طريق الله المالك لما في السماوات وما في الأرض، ولذلك فإنه وحده الخبير بما يصلح الناس في العاجل والأجل، وكل ما حصل صائر إليه سبحانه مثبت عنده فيجزي عنه بالعدل

بيان المعنى العام

49 - 50 لله ملك السماوات والأرض...إنه عليم قدير.

تتابعت الأيات داعية للنظر في ايات الله المنبثة في الكون الدالة على كمال التصرف والحكمة . فعبرت هذه الاية عما جاء فيها بإعلان الحقيقة التي يذكر بها القران حتى تستقر في القلوب والعقول، هي أن الله تفرد بملك السماوات والأرض لا يشاركه أحد في ملكيته لهما، ويقوم الدليل على ذلك بأنه هو الخالق وحده وغيره عاجز عن الخلق، يشهد لذلك ما تلاحظونه في أقرب شيء لكم، فهو الذي ييسر للمرأة أن تحمل وتلد أنثى ويتكرر الحمل أو لا يتكرر ولكنها لا تنجب إلا إناثا. أو تحمل ذكرا ويتكرر كذلك الحمل او لا يتكرر ولكن لا تنجب إلا ذكورا، او يتكرر الحمل فتلد من الجنسين ذكورا وإناثا. و يحصل اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة ولكن يكون أحدهما أو كلاهما عقيما فلا ينجبان ولدا. إن هذا التصرف في أقرب

شيء للإنسان، مع شدة تعلقه به، وعجزه عن تحقيق رغبته، ينادي بأن الخالق هو الله، وهو المالك لجميع الأمور. إن ما يحدث ليس وليد المصادفة ولكنه برز للوجود حسب ما سطره الله في علمه، وحسبما تعلقت قدرته، فهو العليم القدير. و علمُ الإنسان الذي ارتبط الإنجاب به محدود في الدائرة التي مكنه الله منها، وكذلك قدرته. إنه من اليوم الذي يتم فيه تلقيح البيضة يتحقق ما علمه الله من كونهما ذكرا أو أنثى، ويتطور حتى يبلغ وقت وضعه حسب علم الله، أو يلفظه الرحم قبل أوانه. و ليتأمل التالي في هذا النص معمقا، ليستكشف أن ما التصق بالذهن الجماعي من الاستبشار بولادة الذكور دون الإناث، هو من رواسب الجاهلية. فلولا الإناث ما تواصل الوجود الإنساني على الأرض. وتأملوا في قوله تعالى: {يهب لمن يشاء إناثا} فهن هبة من الله، وكفى بالمرء سوء أدب أن يسخط هبة ربه. بل إن الآية قدمت في الامتنان الإناث على الذكور. وختام الآية يشير إلى أن ما يسعد الأسرة بما يولد لها لا يعلمه إلا الله، فهو وحده العليم بما يحصل في المستقبل .فعلى المؤمن أن يحمد الله على ما رزقه، وأن يرضى بما قدره له .

51. وما كان لبشر..إنه علي حكيم.

تنعطف هذه الآية على ما ثبت في فاتحتها من أن ما تلقاه النبي ﷺ هو وحي من الله " حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم" آية3 وقوله: " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا" آية7- وهذه الحقيقة عارضها المشركون أشد معارضة ، وطلبوا أن ينزل الله ملكا، أو ينزل كتابا مخطوطا يقرأونه، ونحو ذلك من أنواع الجدال بالباطل ، والشبهات التي يُروّجونها على الدهماء .

فأفادت الآية أنه لا يتأتى لبشر أن يكلمه الله إلا بطريقة من طرق ثلاث:

* أ- الوحي
*ب - من وراء حجاب
* ج – أن يرسل رسولا يوحي له فيبلّغ الرسول ما أوحاه الله إليه

أولا: الوحي: مبنى الوحي على الخفاء، فيوحي الناظر مثلا بلحظه معاني يفهمها مخاطبه دون أن ينطق بكلمة، إما بالرضا أو السخط، و الحب أو الجفاء، و التهديد أو الأمن. كقول الشاعر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا ** نحن سكوت والهوى يتكلم

والوحي الإلهي ،عبارة عن معان يحدثها سبحانه في فكر الإنسان ، يصحبها وثوق بأن الحاصل حق لا شك فيه وارد من عند الله موثوق أبلغ من شعوره بأنه ينطق ، و تحدث في لحظة واحدة في الشعور، ثم يفصل العقل مضامينها. ويحدث هذا

الوحي لأنبياء الله و رسله، كما يسعد به بعض الأصفياء. روى البخاري ومسلم والترمذي واللفظ للبخاري بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:(لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون(بفتح الدال المشددة) فإن يك من أمتي أحد فإنه عمر)[1]

ثانيا: من وراء حجاب يحس المخاطب بأنه يسمع كلاما من شيء يخلقه الله، دون أن يرى المخاطب المتكلم، ويحس معه إحساسا صادقا يقينيا أنه يسمع كلاما من عند الله، دون أن يتوسط في ذلك ملك، كما تم لموسى عليه السلام في الطور. وكما تم لمحمد ﷺ ليلة المعراج . قال تعالى: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى لعبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى)[2]

ثالثا: أن يكلف الله الملك بتبليغ كلام يعيه عن رب العزة، فيتلقاه الرسول منه ويثبت في ذاكرته. يتحمل الملك جبريل أو غيره رسالة فيوصلها إلى النبي في لحظة يكون فيها الرسول بين الوضع الإنساني، وبين الوضع الملكي. وهو معنى قوله: (فيوحي بإذنه ما يشاء) .أي إن الله يرسل ملكا رسولا محصلا بكلام يأذنه الله بتحمله ليوصله إلى الرسول. فالملك يعي عن الله مراده فينتقش في نفسه في صورة كلام، ويبلغه للرسول فيثبت في قلبه مؤداه بما يساويه ألفاظا وحروفا. و إن ما نقرأه من القرآن هو كلام الله. قرب ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني قائلا: (إن كلام الله الأزلي مقروء بألسنتنا، محفوظ في قلوبنا، مسموع بآذاننا، مكتوب في مصاحفنا، غير حال في شيء من ذلك .كما أن الله معلوم بقلوبنا، مذكور بألسنتنا، معبود في محاريبنا، وهو غير حال في شيء من ذلك. و القراءة والقارئ مخلوقان، كما أن العلم والمعرفة مخلوقان، والمعلوم والمعروف قديمان) . فالكلام النفسي القائم بذات الله قديم بلا حروف، ولا تقديم، ولا تأخير، ولا أي وصف من متعلقات كلام المحدثين، وما يدل عليه الكلام النفسي هو الذي نقرأه، وهو مساو في مضمونه للكلام النفسي دون أن تكون له أي خاصية منه.

إنه سبحانه علي: تعالى أن يكون على صفة من صفات المخلوقين ، رفيع منزه عن كل ما يتصوره الخيال. كل ما تصرف فيه يدل على الحكمة الكاملة فلا تجد ثغرة ولا نقصا ناشئا عن غفلة. و مخاطبته في كل طرف على صفة من الصفات الثلاث هو تابع لحكمته، لا مدخل للمصادفة في أفعاله.

---

[1] فتح الباري ج8ص50/49

[2] سورة النجم آية8/11

52 وكذلك أوحينا إليك ..صراط مستقيم.

وعلى ذلك النحو من مخاطبة الرسل، أوحينا إليك ما أوحيناه ، فأنت لست بدعا من الرسل، ولكن هي منة الله مع من اصطفاهم من عباده لتلقي وحيه. فأوحينا إليك روحا من أمرنا، أي أوحينا إليك القرآن الذي به تحيا به العقول والأرواح، كما أن الجسم يكون جثة لا تفعل ،حتى إذا حلت فيه الروح صلح للحياة .وكذلك الأرواح والعقول تكون حائرة تتجاذبها المتناقضات، وتعمى عليها السبل المبلغة للنجاح، فبالقرآن وبما أوحاه الله من طرق العبادة، وأحكام المعاملات والتوجيهات الرشيدة التي صدرت عنه سبحانه تحيا النفوس، وتكون على الوضع الأمثل الذي تسعد به في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

ثم نوهت الآية بذلكم الوحي وحققت أنه من عند الله الكامل، وأن شرف محمد أنه مبلغ عن الله. وليس منشئا، فإنه على رفيع قدره ما كان يدري، قبل أن ينزل عليه الوحي، نص القرآن المعجز في لفظه، الجامع للهدى في مضامينه. فمحمد عليه الصلاة والسلام ليس له دخل في نص القرآن، الذي تلقاه وبلغه دون زيادة ولا نقصان. كما أنه ما كان يدري قبل نزول الوحي المنظومة العقدية كاملة، وما اتضحت معالمها إلا بواسطة الوحي. نعم، كان النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه مؤمنا بالله، ولكن الإيمان غير منحصر في الإيمان بوجود الله، وصورة الكمال الإلهي أتمها الوحي، وقدمها واضحة نقية من كل شائبة ،كما أن الغيب ما علم إلا من الوحي، كالحشر والنشر، والجنة والنار، والميزان والقدر. ومع أنك ما كنت تدري حقيقة القرآن، فإننا جعلناه نورا يكشف الحق، ويظهر عوج الباطل وسقطه، نهدي به من نشاء من عبادنا ،الذين أقبلوا عليه مستمسكين بهداه ،وفتحوا عقولهم وقلوبهم لنهجه الراشد. واجتهدوا في تطبيق أحكامه و إجرائها على علاقاتهم بالناس وبالكون.

، عطف القرآن على مكانة القرآن العظيمة والمتميزة، دور رسول الله ﷺ في نشر الهداية، وإقناع البشر بالخير وتنفيرهم من الشر. إنك بكل تأكيد يا محمد تهدي البشر، بقوة حجتك، ووضوح رؤيتك، وبلاغة منطقك، وقوة ذكائك، تهديهم إلى الطريق السالك الذي لا عوج له، الذي يبلغ به سالكه من أخصر طريق الغاية التي هي الفوز في الدنيا والآخرة.

53 صراط الله ...ألا إلى الله تصير الأمور.

بلغ القرآن على ربط الرسول بربه، فالطريق المستقيم الذي يهدي إليه محمد ﷺ هو طريق الله، المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي لا يخفى عنه شيء

من مكوناتهما، العليم بما يصلح الإنسان ويفتح لـه مسالك النجاح والفوز برضوان ربه .

ألا إلى الله. بهذه الجملة الجامعة القاطعه لكل جدال، ختمت السورة مفتتحة ب"ألا" الموقظة للانتباه، منذرة بوعيد الخارجين عن حدود الله مبشرة الطائعين الصالحين، وذلك بالتأكيد أن كل ما وقع في الدنيا من خير أوشر مرفوع إلى الله لا يهمل منه شيء ، فسوف تظهر الحقائق يوم القيامة كما ظهرت في الدنيا . بشارة للمؤمنين أن زكي أعمالهم صائرة إلى علمه سبحانه موثقة، وهم مجزيون عنها .

17ذو الحجة 1434-2013/10/22

سورة الزخرف

هذا هو الاسم الذي سميت به في المصاحف و في كتب التفسير، و وجه تسميتها، أن كلمة "زخرف" لم تذكر إلا فيها، ولم تتكرر مرة أخرى في باقي السور. نزلت على رسول الله ﷺ قبل الهجرة، رتبتها حسب ترتيب المصحف الثالثة والأربعون، وحسب ترتيب النزول الثانية والستون نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الدخان، وهي الرابعة من الحواميم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

جعلناه: الجعل الإيجاد والتكوين.

تعقلون : تفهمون أغراضه ومقاصده.

ام الكتاب : علم الله المثبت في اللوح المحفوظ.

علي : رفيع الشأن .

حكيم : جامع للحكمة التي بها صلاح الناس.

نضرب : نصرف عنكم إنزال القرآن.

الذكر : القرآن.

صفحا: صرفا نبعده عنكم.

الاولين : الأمم السابقة.

البطش : الإضرار القوي.

مضى مثل الأولين : انقرض، فاستأصلنا الأولين الأشد بطشا.

بيان المعنى الإجمالي .

هذه هي السورة الرابعة من الحواميم السبع .افتتحت بحرفين حا. ميم . تبعهما قسم بالكتاب الواضح الذي هو القرآن، والمقسم عليه هو القرآن. فبالنظر إلى أن نصه مأمور بكتابته، هو كتاب، وبالنظر إلى دعوة المؤمنين لحفظه في قلوبهم وقراءته بالاعتماد على ذلك هو قرآن. جعل الله هذا القرآن باللغة العربية لما تفردت به يوم نزول الوحي من المزايا المساعدة على تحمل واسع معانيه ، وصلوحيتها لتجاوز زمن نزوله إلى أبد الآبدين . ولما كان واضحا بطبيعته عربيا بلغتكم فبذلك يترجح فهمكم لنصه ، وتأثر عقولكم بهديه.

إن القرآن ثابت لدينا في اللوح المحفوظ لا يدخله التحريف، ولا الزيادة ولا النقص كتاب سما عن جميع الكتب عليّ الشأن ،جامع للحكمة المرشدة للبشر في جميع الأزمنة والظروف .

أتريدون بإعراضكم عن التأمل في القرآن أن أصرف إنزاله عنكم صرفا كليا ؟ إن كنتم قوما مبالغين في تجاوز الحق والانغماس في الباطل.

لا تحزن يا محمد من إعراض قومك، فقد أرسلنا قبلك في الأمم السابقة أنبياء كثيرين، واتحدت مواقفهم من أنبيائهم، فكلما جاءهم نبي بالهدى والحق قابلوه بالاستهزاء واسترسلوا في سخريتهم. لم نهملهم وسلطنا عليهم ما استأصلهم من الوجود رغم أنهم كانوا أشد إصرارا من قومك، وعلى هذا النحو جرى الأمر فيما مضى، وسيصيب قومك ما أصابهم.

بيان المعنى العام.

1.حم.

افتتحت السورة بحرفين ،حا ميم، و هي السورة الرابعة المفتتحة بهما. ويقال فيها ما قيل في السور المفتتحة بالحروف المقطعة.

2.والكتاب المبين.

قسم بالكتاب المبين، و هو الكلام المعجز الذي أنزل على رسول الله ﷺ ، الذي تعبدنا الله بلفظه ومضامينه عقيدة وتشريعا، وجعله حجة باقية إلى أبد الآبدين، وأطلق عليه لفظ الكتاب وإن كان نزل وحيا لفظيا، لأن النبي ﷺ كان مأمورا بأن يسجل كتابة عقب تلقيه، كل نص نزل عليه. فاتخذ ﷺ من الصحابة كتبة للوحي مطبقا بذلك أمر ربه، ثم إن تلك النصوص المكتوبة جمعت في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وتطابقت مع المحفوظ في ذاكرة الصحابة رضوان الله عليهم تطابقا كليا لم يقع التردد في أي كلمة منه. واستمر حفظ القرآن من أي اختلال عبر القرون

بواسطتي الكتابة والنقل بالحفظ . و ما وقع في عهد عثمان ﷺ إنما هو استنساخ نسخ منه، وإرسالها إلى الآفاق لتعتمد. فعثمان قام بدور الناشر وليس الجامع كما يروجه بعض الجهلة.

إذن أقسم الله بالكتاب الموصوف بكونه مبينا، وهذا الوصف يحتمل أن يقصد به أنه واضح في ذاته، كما يمكن أن يقصد به أنه مبين لطريق الهدى بما أزاح من شبهات الضلالة، وأبان للبشرية ما تحتاج إليه في عقيدتها وتشريعها وسلوكها.

3.إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

تمثل هذه الآية المقسم عليه ، إنا جعلناه قرآنا عربيا .فأقسم سبحانه بالكتاب: القرآن ،على أنه أراد جعله قرآنا .فالمقسم به والمقسم عليه شيء واحد. وذلك إشارة إلى عزة القرآن و كماله، فالبلاغة تقتضي أنه إذا أريد أن يقسم على القرآن كان أفضل ما يقسم به هو القرآن ذاته.

وفي جعله قرآنا يفيد، أنه يمكن أن يقرأ من الكتاب ويدون كتاب من حفظ القارئ، وذلك من خواص القرآن، فلم يوفق أهل أي دين من الأديان إلى حفظ نص كتابهم في صدورهم . ومع تيسير حفظه في الصدور جعله عربيا، بلغة العرب التي جمعت من المزايا في عصر التنزيل ما لم تجمعه لغة أخرى من الدقة والاتساع في الدلالات بأخصر طريق.

و لما كان بلغتهم، وكان نسجه بينا واضحا، وكان نصه لا يقتضي جهدا للتثبت منه أنه قرآن، تجمع من ذلك ما يرجح أن يفهمه المنزل بلغتهم، وينفذ إلى مداركهم فيقيمها على نهجه. فحسب طبيعته تلك وخصائصه يكون رجاء فهمه والاهتداء به راجحا.

4. وإنه في أم الكتاب لعلي حكيم

مواصلة للثناء على القرآن والتنويه به. إن القرآن مثبت في اللوح المحفوظ قال تعالى: (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)[1] قدرنا أن يكون القرآن لا يلحقه التغيير ولا التبديل، وإنه لعليُّ الشأن تفرد بالإعجاز، وسما على كل الكتب لفظا ومعنى. وهو حكيم صالح لهداية البشرية على اختلاف ظروفها ومستواها الحضاري.

5. أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين

استفهام إنكاري، مؤداه: أتسعون إلى أن أصرف عنكم إنزال القرآن صرفا بليغا، لتواصل إعراضكم عنه، وصدودكم عن سماعه، ومجادلتكم له بالباطل ؟ أفعل هذا

---

[1] سورة البروج آية 21/20

بكم إن كنتم قوما تمكن الإسراف في الضر منكم، وتجاوز الحدود. وفي قراءة النص بإن الشرطية " إن كنتم قوما مسرفين "ما يشير إلى أن إسرافهم ما كان من حقه أن يصدر منهم ، وأن في القران ما يهديهم إلى الرشد .وعلى قراءة "أن كنتم قوما مسرفين" تكون الخاتمة تعليلا للاستفهام .

6 - 8: وكم أرسلنا من نبي ...ومضى مثل الأولين.

هددت الآية السابقة مشركي مكة ، لقوة إعراضهم. وكانت مواقفهم تلك موجبة لأسى النبي ﷺ ، فخاطبه ربه في هذه الآية بما يسليه، و يخفف عنه أساه. فذكره أنه سبحانه قد أرسل قبله في الأمم السابقة أنبياء كثيرين ليقوموا بهدايتهم إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم . و كان موقف المبعوث إليهم موقفا واحدا متكررا، أنهم يقابلون جدية ما يأتيهم به الأنبياء بالسخرية والاستهزاء .فلا تحزن من إعراض قومك وسخريتهم فإنها سنة المكذبين. و مما يثبتك يا محمد أنا أهلكنا تلك الأمم مع أنهم كانوا أشد بطشا، وأقدر على الإضرار. ولكن ذلك الشر البالغ الذي كانوا عليه انتهى إلى انقراضهم وذهابهم من الوجود.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

المهاد: موطأة ميسرة للإقامة .

سبل : طرق سالكة.

تهتدون: الهداية الدلالة على المكان المقصود.

الإنشار: الإحياء .

الأزواج : ذكور الحيوان وإناثه.

الركوب : اعتلاء الدابة للسير عليها.

استوى :علا واستقر .

التسخير: التذليل والتطويع.

مقرنين: المقرن الغالب الضابط للأمر المستولي عليه

منقلبون: راجعون.

بيان المعنى الإجمالي:

إنك إن سألتهم يا محمد سؤالا دقيقا: من خلق السماوات والأرض ؟ فألجئتهم إلى الإجابة، وتواصل حصرهم في الموضوع، ودفع ما يقدمونه من شبهات فإنهم سيضطرون إلى الاعتراف بأن الخالق لهما هو الله المتصف بالعزة، الذي يخضع كل شيء لإرادته، العليم علما مستويا بالماضي والحاضر والمآل، لا يغيب عنه من أمر خلقه قليل ولا كثير.

تميز ربنا بصفات الكمال، فمنها:

أنه هو الذي مهد الأرض لسكنى الإنسان، ويسر انتقال البشر بين أركانها بواسطة الطرق السابلة، وذلك مما يرجع اهتداءكم إلى الانتفاع بما يسره الله لكم.

أنه هو الذي نزل من السماء ماء، وتحكم في مقاديره تحكما يحمي الأرض وسكانها من الطوفان. فأحيا بذلك الماء النازل من السماء وجه الأرض بالنبات، وما عليها من حيوان وإنسان، ومصانع. و يقوم ذلك دليلا على البعث فكما أحيا الأرض بعد موتها كذلك يبعثكم يوم القيامة.

و إنه هو الذي خلق من كل شيء زوجين ليتم التكاثر وتواصل النعمة. ومن نعمه أن جعل لكم ظهور الخيل والحمير والإبل لتركبوها، وبنى الكون على قوانين وأقدركم على الاستفادة منها فأنشأتم السفن لتركبوها أيضا. و لتعلوا عليها متمكنين من توجيهها إلى الوجهة التي تقصدون فتبلغكم. وهداكم لتستيقظوا في حال ملابستكم لتلكم النعم، فتقدروها أحسن التقدير وتعبروا عن شكر مفيضها قائلين: تنزه ربنا عن كل نقص، فما أكمل خلقه وما أعظم منته! فهو الذي طوع لنا هذه الوسائل. و جهدنا وقدرتنا لا تستطيع تحقيق ما حققه لنا. ونعترف أنها نعم زائلة وأننا راجعون إليه يوم القيامة.

بيان المعنى العام:

9. ولئن سألتهم.. خلقهن العزيز العليم

الاستدلال بهذه الآية دقيق. ذلك أن المشركين لاهون بعبادة أصنامهم، يتقربون إليها، ونسجوا حولها من أوهامهم ما رفعها إلى درجة التقديس. و توارثوا ذلك من أسلافهم فاستقرت في نفوسهم هالة حجبت أنظارهم عن التفكير في سلامة ما يعتقدون. وصدمهم الإسلام بدعوته إلى توحيد الله ونفي الشرك، فزلزلهم مولكنهم

كما قال الله فيهم : {بل هم قوم خصمون}[1] كانوا يجادلون بالباطل ليزهقوا به الحق ،وكان النبي ﷺ يستدل عليهم بما يلجئهم إلى الاستسلام والتسليم بخطئهم وفساد عقيدتهم .ومن طرقه أنه كان يلقي عليهم الأسئلة التي تلجئهم إلى التسليم بما كان يقصد إلزامهم به من ورائها. فذكر القران في مناسبات أربع أنك تستطيع أن تلجئهم إلى الاعتراف بتفرد الله بالخلق {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله }[2] ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله}[3] ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله}[4] وهذه الأية التي نتابع معانيها . و لا لأنهم أنه بمجرد ما يلقي عليهم السؤال يعترفون بالحقيقة، فهم قوم تدربوا على اللجاج والخصام، فالوجه أن النبي ﷺ ينطلق من هذه الحقيقة ويضيق عليهم الخناق، حتى يُقرُّوا بأن الله هو خالق السماوات والأرض. لأنهم لا يستطيعون بعد توالي الأسئلة ومجابهتهم بالواقع أن يواصلوا التمسك بالشبه. فهم لا ينهارون إلا بعد حصرهم والتضييق عليهم بإسقاط شبهاتهم واحدة بعد واحدة. وبهذا يكون اعترافهم في هذه الأية بأنه خلقهن العزيز العليم، لا يصدر منهم جوابا عن خلق السماوات والأرض فقط، بل تتوالى الأسئلة بحكمة، حتى يذعنوا إلى أن الله هو الخالق، وأنه خلقها لأنه عزيز يخضع كل شيء لإرادته، ولا يخرج عن طاعته. و تم بناؤهما على الوضع الذي هما عليه لأنه عليم بدقائق الصنع فلا يحدث خلل فيما أنجزه . و يبقى إقامتهم على الشرك لا مستند له إلا العناد.

10 الذي جعل لكم الأرض ..لعلكم تهتدون.

بعد أن أثبت الحقيقة الأولى: أن الله هو خالق للسماوات والأرض وأحكم خلقها لعزته وعلمه، ثنى بتفصيل ما قدره فيها من نعم راعى فيها تيسير الحياة والتعاون الاجتماعي بين ساكنيها .

أولا: لفت الأنظار إلى أنه قدر أن تكون الأرض ممهدة لسكنى البشر، تراميت سهولها، كأنها فراش، و يمر السير بين أقطارها، والتواصل بين الجماعات البشرية، ليتبادلوا المنافع ويحصل بينهم التعاون على التقدم بالحضارة. إنه يتأكد الرجاء بهذا التقدير أن تهتدوا لتلكم المسالك، وأن تحققوا الغايات من السير فيها.

[1] الزخرف 58

[2] سورة العنكبوت اية61

[3] سورة لقمان أية 24

[4] سورة الزمر اية38

11 والذي نزل من السماء.. كذلك تخرجون

ثانيا: إنه سبحانه هو الذي تصرف في الأرض بما يصلحها بعد خلقها ، فأنزل من السماء مياه الأمطار ، بمقادير مضبوطة تنشر الحياة ولا تفسد الأرض .ينزل الماء من السماء ، تأملوا في آثاره: تسري الحياة في الأرض الجرداء، ويتحرك فيها كل شيء، ترعى الحيوانات وتتوالد، ويفلح الإنسان الأرض فيحيلها بمتنوع الأقوات، والماء ركن أساس في الصناعة فلا صناعة بدون ماء ، ومن إعجاز القرآن قوله ميتة فكان التحول في البلدة النازل فيها ماء السماء يشمل جميع المظاهر النباتية والحيوانية والإنسانية والصناعية .وكما تتحول البلدة من وضع هامد لا حراك به، إلى وضع كله حركة وحياة متدفقة، فكذلك يتم يوم القيامة إخراجكم من قبوركم. فاندمج في العرض تحقيق البعث الذي يلح المشركون على رفضه وإنكاره.

12 –13 :والذي خلق الأزواج كلها...وما كنا له مقرنين

ثالثا، ورابعا: إنه سبحانه هو الذي خلق من كل نوع زوجين ليتحقق تواصل التكاثر في الكون. والأرض واحدة والأنعام التي ينتفع بها الإنسان تختلف خصائصها ومنافعها، فالتقدير الحكيم والقدرة العظيمة تم به ذلكم التنوع الملبي لحاجات الإنسان. وكما خلق الأنعام فإنه هو الذي بنى الكون على سنن ثابتة وقواعد محكمة في الخلق ، وساعد الإنسان ليكتشف تلكم القوانين، ثم يستفيد منها فينشئ الفلك، ثم يستعين بها للانتقال في المسالك التي لمّح بها في الآية السابقة، فيبلغ قصده محمولا غير منهوك النشاط .

إنه هداكم لتروضوا الخيل والبغال والحمير والإبل لتستقروا على ظهورها، وكذلك الفلك فألهمكم الصناعة الدقيقة التي بها أيضا يتم استقراركم وثباتكم رغم عدم ثبات وجه البحر بالأمواج.

ثم هداكم لتكون صلتكم بالمنعم عليكم صلة حية متجددة كلما لابستكم نعمه، فتستحضروا فضله عند ركوبكم ظهور الأنعام وهي طوع إرادتكم وقيادتكم ،وعند استوائكم في الفلك الذي يعلو سطح البحر، وأسفله من الماء ما يبتلعكم أنتم والفلك الذي يحملكم، لتستحضروا تلكم النعم، وتتبينوا أن عناية الله بكم عناية رحيمة مساعدة. فإذا جرى ذلك في مشاعركم وهز قلوبكم تعلنون بلسانكم شكره على تفضله، وتثنون على جميل كرمه وواسع عطائه.

ولقننا طريقة الشكر فقولوا: {سبحان الذي سخر لنا هذا} .تنزه ربنا عن كل نقص، قدر فأحسن التقدير، ولطف تكرما فأعان ويسر، وليس به حاجة إلينا، ولكننا نحن

المحتاجون إلى عونه وفضله. سخر لنا هذا الذي نركبه ونسير على ظهره، ونعترف بأنا عاجزون غير مطيقين تسخير أي طاقة من تلك الطاقات.

14-وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

و يصحب هذا الاعتراف طبعا، تذكر أنها نعم زائلة، وأنكم ستعودون إلى ربكم ليحسن جزاءكم إذا أنتم شكرتم نعمه حق الشكر قولا وفعلا.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ

كفور: شديد الكفر.

مبين: واضح كفره.

الأصفاء: إعطاء الصفوة ، وهي الخيار من الشيء .

ضرب مثلا: جعله شبها.

ظل: صار.

مسودا: متغيظا مجللا بالحزن والكآبة.

الكظيم : الممسك عن الكلام من الكرب الذي هو فيه.

ينشأ : ينبت ويكبر

الحلية : ما يتزين به من الحلي.

الخصام : المحاجة والدخول في الحوار.

غير مبين : لا يبين غرضه بوضوح.

بيان المعنى الإجمالي :

من تناقض المشركين الواضح الفاضح، أنهم اعترفوا بأن الملائكة عبيده مخلوقون له، ثم ادعوا أنها جزء منه لأنها بناته من شريفات الجن. إن هذه المقالة منهم تكشف عن كون كفر الإنسان يكون شديدا واضحا إذا لم يستنر بنور الإيمان.

ثم يضاعف القرآن الإنكار عليهم، كاشفا عن تناقضهم منكرا عليهم سخفهم، كيف يقول عاقل إن الله خلق الملائكة إناثا واتخذهن بنات له. فكيف يخلق ثم يجعل المخلوق منتسبا له وشأن الولد أن يكون مثل والده الثم كيف تجعلون له البنات مع

أنكم تدعون أن الله اختار لكم البنين لأنهم أفضل وأرفع مقاما في عرفكم الجاهلي؟ فآثركم على نفسه ، وأخذ هو الدون سواء أكان قولكم أنهن بنات الله نسبا أم تبنيا . وواصل التشنيع عليهم في مقالتهم تلك، بأن أحدهم إذا علم أن زوجه وضعت من جنس ما جعله شبيها لما للرحمن ، أي أنثى يتغيظ ويغتم ويخرس لسانه من شدة حزنه، ورفضه لما ولد له.

ومما يبرز أن ما روجوه باطل أنهم نسبوا لله العلي الأعلى من ينشأ في حياة اللين والحلي ولا يستطيع أن يقوم بالدفاع وقدرته على الحجاج ضعيفة لا تغني شيئا . فنسبوا لله الجانب الضعيف في الحرب وفي الحياة المدنية، ما أكذبهم حينما جعلوا الملائكة المقربين من الله المكرمين من الرحمن إناثا! هل أحضروا يوم خلقهم الله فشهدوا أنهم إناث. سيسجل في صحائفهم ما روجوه، ثم يوقفون يوم القيامة لينالوا عقابهم على افترائهم.

بيان المعنى العام :

15. جعلوا له .. لكفور مبين.

سجل القرآن مقالات المشركين مشنعا بتناقضهم، كأنهم لا عقول لهم يزنون بها ما يصدر عنهم. اعترفوا بأن الله خالق السماوات والأرض، واعترفوا بأن الملائكة عباده، بمعنى أنها مخلوقة له و مملوكة. و جعلوا جعلا لا سند له أن الملائكة جزء من الله، هن بناته من شريفات الجن. فكيف يكونون جزءا منه وهم عبيده. إن الإنسان إذا لم يستنر بنور الإيمان، يكون كفره شديدا، و واضحا.

16.أم اتخذوا ...بالبنين.

افتتحت الآية بـ[أم] لتنبيه السامع إلى الانتقال من التسجيل لكفرهم إلى الاستدلال على بطلانه. والاستفهام إنكاري، ينكر عليهم مقالتهم : كيف يتخذ مما خلق بنات، فكون المخلوق بينه وبين خالقه نسب هو من اللامعقول. وكونه يتخذ بناتا تعتقدون أنها أحط من الذكور ، واختار لكم الذكور الأفضل حسب تصوركم الاجتماعي، وقنع وهو العظيم الكامل بالأحط تناقض أخسر ، وغباء. فالاستفهام دال على التعجيب والتجهيل. و كلمة اتخذ تقطع عليهم التأويل لأن الاتخاذ كما يكون بالنسب يكون بالتبني لئلا يقولوا قصدنا أنه تبناهن. فكلاهما نقص منسوب لله الكامل الكمال المطلق.

17.وإذا بشر أحدهم ...وهو كظيم

حققت هذه الآية ما تواطؤوا عليه في عرفهم الاجتماعي. وواصلت كشف سفههم، ذلك أن أي فرد منهم يبشر ، وإطلاق التبشير تهكم لأنه لا يكون إلا فيما يدخل

السرور وهم يعتبرون ولادة الأنثى كارثة على والدها ، إذا بشر بأن زوجه ولدت أنثى التي جعلوها شبيها لله باعتبار أنها جزء منه، امتلأ غيظا واربد وجهه تأسفا، وبضيق عليه الكرب أنفاسه ، ويخرس لسانه فلا يتكلم .يذكر أحد الأعراب وضعت له زوجه أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا *** يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا *** ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

هكذا يكون الكفر موقعا لصاحبه في تناقض يحط قيمته ويظهر سخفه.

18.أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين.

أنكرت عليهم الآية السابقة نسبة البنات إلى الله، مع أنهم يسخطون أن تكون لهم بنات، و يجللهم الحزن والأسى من مصيبة الأنثى. ثم واصل الإنكار عليهم في هذه الآية؛ أو تجعلون أن الله اتخذ من ترتبط حياتها من أول وجودها بالزينة، ولا تسمو إلى عزائم الأمور. وإذا جد الجد للنصر والنزال انكشف ضعفهن. و كذلك وضعهن في الحجاج و المجادلة لإظهار الحق و إسقاط الباطل، يضعفن على الانتصار بالقول. فهن إذا خاصمن لم يكن قادرات على الغلب والنصر .

ومما ينبغي أن يعلم أن كل ما جاء في الآيتين هو إلزام للمشركين حسب أعرافهم وتصوراتهم. وليس تقريرا لذلك التصور .

19. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد....ويسألون.

يواصل القرآن تزييف عقائدهم في الملائكة ، ويبطل ما يروجونه في عقول الدهماء . فافتتحت الآية بأن ما يدعونه من كون الملائكة إناثا هو جعل منهم وكذب وفرية لا سند لها. فالملائكة التي جعلوها إناثا هي طائفة مكرمة عند الرحمن الذين شرفهم بتقريبهم عنده، واختار اسم الرحمن لما يشير الاسم من الرحمة بهم. إنّ جعل المشركين كلام باطل من نسج خيالهم المأفون . هل أشهدهم الله وأحضرهم عندما خلق الملائكة ، وهو سؤال إنكاري توبيخي. فهم كذبة أخبروا عن شيء لم يشهدوه ولم يحيطوا به علما. ثم هددهم بأن مقالتهم لا تذهب أدراج الرياح، بل سيدونها الملائكة الموكلون بهم لتسود بها صحائفهم، ثم يسألون عنها يوم القيامة السؤال الذي يتبعه العقاب المناسب.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا

آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يخرصون : يظنون ظنا غير مستند إلى أساس .

مستمسكون : ثابتون بقوة عليه .

أمة : دين.

مترفوها: الذين ربوا في النعيم حتى انحلوا خلقيا.

انتقمنا : استأصلناهم.

فانظر : فتأمل وتفكر .

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن أقوالهم المبنية على أوهامهم ، فقالوا: لو شاء الرحمن أن لا نعبد الأصنام ويحول بيننا وبين عبادتهم لفعل ، فجعلوا إمهالهم وعدم مؤاخذتهم دليل رضا من الله عن شركهم . و لا مستند لهم فمن أين علموا ذلك؟ ما يقولونه ظنون كاذبة لا دليل عليها من العقل، ولا من النقل فهل آتيناهم كتابا منزلا من عندنا من قبل القرآن يخبرهم برضانا عن عبادتهم الأصنام فهم مستمسكون بنصه ؟ وإذ حاججهم وأظهر زيفهم قالوا: نحن أوفياء لآبائنا .فقد وجدناهم مستمسكين بعبادة الأصنام ، فنحن نتبع ونقتدي بما أثر عنهم .وكفى بهذا سخفا. قل لهم قولا لينا معقولا: هل أنتم مصممون على اتباع آبائكم ولو جئتكم بدين هو أفضل هداية وإرشادا مما كان عليه آباؤكم ، فتتبعوني ؟ كان جوابهم حاسما كجواب الذين سبقوهم إنا بما تدعون أنكم أرسلتم به كافرون .فانقطع معك الكلام. فسلط عليهم نقمته واستأصلهم فلم يبق لهم أثرا كما ذكر ذلك في كثير من آيات القرآن. فتأمل في العاقبة المهلكة التي آل إليها أمرهم.

بيان المعنى العام :

20.وقالوا لو شاء الرحمن...إن هم إلا يخرصون.

تابع القرآن إبطال دعاوى المشركين. فكما أبطل بأنصع بيان، تصوراتهم للملائكة في الآيات السابقة ، ثنى في هذه الآية بالإجهاز على الشرك وعبادة الأصنام . إنهم

حسب منهجهم في التمسك بالشبهات، والجدال بالباطل قالوا لمحمد ﷺ ، وهو يقيم عليهم الحجة مهدما للشرك وعبادة الأصنام لقطعه عن تجديد دعوتهم للإيمان، قالوا له: لو كان الله يريد أن لا نعبد الأصنام لمنعنا من عبادتهم لأنه هو المتصرف في الكون، فلما لم يحل بيننا وبين ما نهيتنا عنه فإن ذلك يدل على أن الله لا يريد منا ترك عبادة الأصنام. وهذا متمسك المتهاونين بإقامة ما أوجب عليهم الشارع الكريم، فيقول التاركون للصلاة: لو شاء الله أن نصلي لهدانا للصلاة، ويقول مثل هذا شارب الخمر وهكذا ...

يبطل القرآن هذه المغسطة، و يكشف عن زيفها فيقول: من أين لهم أن الله لم يشأ هدايتهم ؟ فالله سبحانه قد شاء من كل البشر أن يسلكوا الطريق المستقيم، فبعث رسله يخاطبون العقل والضمير بالاستقامة وفعل الخير والابتعاد عن الشر، وترك للناس الاختيار ليحاسبهم عن اختيارهم .والاختيار هو شرف الإنسان .بينما بقية الكائنات تسير في الطريق الذي قدره لها وهي غير مسؤولة .ودعواهم أن الله لم يشأ هدايتهم دعوى لا دليل عليها، وإنما هي ظنون كاذبة.

21.أم آتيناهم كتابا...مستمسكون.

أم - كما تقرر في نظائرها هي للانتقال من مضمون إلى مضمون آخر ، فهي تُعِدُّ السامع لهذا التحول ، ويقدر بعدها همزة استفهام إنكاري: أيعتمدون على كتاب نزل عليهم قبل القرآن يدعوهم إلى عبادة الأصنام فهم يتمسكون بما ورد فيه أشد التمسك ويلتزمون بما جاء فيه ؟ و كما انتفى أن يكون لهم دليل من العقل انتفى أن يكون لهم دليل من التنزيل الإلهي، وكلاهما في إثبات الحقيقة سواء. فلم يبق لهم إلا أوهام باطلة من نسج الخيال.

22. بل قالوا إنا وجدنا...على آثارهم مهتدون.

انتقال من إبطال دعواهم رضا الله عن عبادتهم الأصنام ، بعد أن أبطل القرآن شبهتهم ، إلى إبطال مقالة أخرى لهم ، يروجونها و يؤثرون بها على الدهماء. قالوا نسلم لكم أنه لا علم لنا بأن الله لم يرض عن عبادتنا الأصنام، وأنه لم يمكنا من كتاب قبل القرآن يكون لنا متمسكا في عبادتها . و لكن نحن نقدس آباءنا، ونحن أوفياء لهم، قد وجدناهم يعبدون الأصنام ويتقربون لها ويقيمون الطقوس التي يسترضونها بها، ونحن سائرون على آثارهم. وهذا من سفه عقولهم ، إذ بعث الله فيهم محمدا بالقرآن المعجز ، وبتشريع يمكنهم من سعادة الحياة في الدارين، ومع هذا يتبعون دين آبائهم مع ظهور بطلانه ومخالفته للعقل.

23. وكذلك ما أرسلنا...على آثارهم مقتدون.

لا تحزن يا محمد من مراوغة المشركين، ورفضهم للحق الواضح الذي أتيت به، فإنه على النحو الذي عاملك به قومك، قد سبق للمرسلين من قبلك، أنه كلما أرسلنا في قرية نذيرا ينبههم إلى ما يترصدهم من خسران، فإن المترفين المنعمين منهم، رؤساءهم الذين انساقوا لشهواتهم حتى تحكمت فيهم، يردون على رسلهم بمثل رد قومك: يقولون: إنا وجدنا آباءنا على دين، وإنا متبعون لآثارهم. فهذه شنشنة الضالين المنغمسين في المادة .يزعجهم هديك الذي يحول سلوكهم وحياتهم من حياة الدعة والمتعة إلى حياة الجد والقيم.

24. قل أولو جئتكم...بما أرسلتم به كافرون.

قل لهم قولا يلطف عنادهم، ويفتح لهم شهية الاستماع إليك، قل لهم: هل أنتم مصممون على اتباع ما وجدتم عليه آباءكم من عبادة الأصنام، وضوابط الحياة، وإن كان ما أعرضه عليكم، عندما تقارنونه بما كان عليه آباؤكم، وتتأملون فيه وتحكمون عقولكم، تجدونه أفضل وأسعد من دين آبائكم ،وبالتالي هو خير لكم؟
قالوا كما قال من سبقوهم جوابا عن ذلكم العرض قولا يقطع الرجاء في استماعهم للهدى الذي أخبرهم أنه سيأتيهم به، قالوا بكل تأكيد إنا بما أرسلتم به، وما تزعمون أنه أوحي به إليكم، إنا به كافرون رافضون.

25. فانتقمنا منهم...كان عاقبة المكذبين.

تبع تصلبهم في الكفر ، وإعلانهم أنهم لا يقبلون هداية الرسل ولو كانت خيرا مما هم عليه، أن العزيز الجبار انتقم منهم فسلط عليهم عقابه الذي استأصلهم. كما جاء في مواضع كثيرة من القرآن. وإن مشركي قومك معرضون لمثل ما تعرض له من سبقهم. فتأمل في ما أفضى إليه أمرهم، وليكن ذلك عبرة لمن يعتبر.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

براء: بريء.

فطرني : أبدعني.

في عقبه : في ذريته المنتسبين إليه.

يرجعون :يعودون إلى التوحيد إذ هم انحرفوا عنه.

متعت هؤلاء : متعت مشركي العرب بما يسرت لهم من الخيرات في جوار الكعبة.

الحق : القرآن.

مبين : صفة من كمالات الرسول أنه فصيح واضح الإبانة لما جاء به.

القريتين : مكة و الطائف.

عظيم : سيد في قريته.

سخريا : مجبور على العمل بدون اختياره.

خير مما يجمعون : من الأموال.

بيان المعنى الاجمالي :

اذكر لقومك إعلان أبيهم ابراهيم، لما قال لقومه: إنني بريء مما تعبدون من دون الله، إني طهرت نفسي من عبادة الأصنام. ولكنني سعدت بما هداني ربي إليه، وسيواصل هدايتي . وعمل ابراهيم على تثبيت كلمة التوحيد في ذريته حتى يتواصل التوحيد في نسله إلى يوم القيامة. و تأكد بذلك رجاؤه أن ينتبه بعض المنحرفين عن التوحيد فيعودون إليه.

أهملوا وصية أبيهم ابراهيم، ولم أعاجلهم بالعقوبة بل يسرت لهم أسباب النعيم في حياتهم، كما يسرتها لآبائهم، إلى أن جاءهم الحق المذكر لهم بوصية إبراهيم، على لسان رسول صادق، وضح ما جاء به فأحسن توضيحه وبيانه. ولما جاءهم الحق كان جوابهم هذا سحر، وعلى كل الأحوال والتقادير، فنحن مصممون على رفضه ولا نؤمن بشيء مما دعوتنا إليه ونحن مقيمون على عبادة الأصنام.

و تبعا لاستيلاء القيم المادية عليهم، قالوا، هلا نزل القرآن على رجل من إحدى القريتين: مكة أو الطائف له من المكانة المتميزة والعظمة في أنظار قومه لسعة ماله وكثرة أتباعه. ما هذه الوقاحة التي جاهروا بها ألا يستحيون ! (أهم يقسمون رحمة ربك) التي يملكها ولا يملك أحد منهم أي شيء منها. أبلغ بهم عمى البصيرة

أن لا ينظروا {كيف قسمنا بينهم معايشهم في الحياة الدنيا} بعضهم موسع عليه وبعضهم مضيق عليه، وهم ليسوا على مستوى واحد من الغنى أو الفقر، ومن الذكاء أو الغباء، ومن القدرة على التسيير أو العجز عنه. وكان هذا التفاوت سببا في تسخير بعضهم بعضا لخدمته، فيتعاونون على التقدم بالعمران والحضارة. ورحمة ربك يا محمد التي اختصك بها من الرسالة والتوفيق خير من كل ما جمعوه من المال والرئاسة. فأنت أعظم منهم جميعا.

بيان المعنى العام :

26 -27: وإذ قال إبراهيم ...فإنه سيهدين.

واذكر يا محمد مقالة إبراهيم لتذكر بها قومك. الذين انتهوا في لجاجهم إلى قولهم: {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} ذكرهم بأن إبراهيم الذي يعتزون بالانتساب إليه، وهو أبوهم، أنه أعلن في قومه عقيدته قائلا: إني يا قومي بريء مما تعبدون من دون الله. عقيدتي غير ملوثة بالشرك الذي أنتم عليه. و لكني مرتبط بالذي أبدعني فإنه قد هداني إلى التوحيد ونبذ الشرك، وكشف لي عن الطريق المستقيم، وسيواصل هدايته لي.

إنه لو كان قومك يعقلون لكان الأولى بهم أن يتبعوا أباهم إبراهيم، فحتى دعوى اتباعهم لآبائهم، رجحوا في الاتباع ، الضلال من آبائهم. ويفهم من ذلك توبيخ المشركين تفضيلهم الشرك على التوحيد.

28.وجعلها كلمة باقية...لعلهم يرجعون.

تمسك إبراهيم عليه السلام بالتوحيد تمسك عميق في نفسه عليه السلام ، جعله يسعى بكل قواته إلى تثبيت مفهومه في قلوب أسرته. أبان لهم وأقنعهم بحقيقة التوحيد حتى رسخت في ذريته فتأثر بها أبناؤه ومن خلفهم، أنه لم ينقطع من عهد إبراهيم التوحيد فيما تناسل منه. جعل كلمة التوحيد مسترسلة في عقبه: وهم أولاد الأولاد الذكور، وصى بنيه الأقربين إسماعيل وإسحق ومن ولد له معهما ، كما وصى بها يعقوب وقال تعالى : {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} ونجد يوسف عليه السلام في سجنه يقدم الدعوة إلى التوحيد على كل حديث مع رفاقه في السجن. كان إبراهيم لشدة ما ألح وتحوط في تثبيت كلمة التوحيد، راجيا قوي الرجاء أن يعود من انحرف من ذريته عن كلمة التوحيد، أن يعود إليها إذا ما ذكر بها.

29ـ بل متعت هؤلاء...ورسول مبين.

افتتحت الآية بكلمة "بل"لتنبيه السامع إلى أن خيط الكلام قد انتقل من إبراهيم عليه السلام، وجده المتواصل في إقامة التوحيد، إلى ذكر العرب الذين هم من ذريته. متعت قريشا بإقامتهم في مكة، ويسرت لهم ضروبا من النعيم، أطعمتهم وهم يسكنون واديا غير ذي زرع، وأمنت خوفهم، ويسرت لهم القيام بتجاراتهم، التي كانت تدر عليهم أرباحا غير قليلة، بين طرفي الجزيرة العربية. و كما رزقت الحاضرين زمن البعثة رزقت آباءهم من قبلهم، ولم استأصلهم حتى بلغهم القرآن رسول أعطى الفصاحة، و وضوح العبارة، وحسن التأتي لقصده، والقدرة على تجلية الغامض حتى لم يبق أي مفهوم معنى غير واضح.

30 ـ 31. ولما جاءهم الحق... من القريتين عظيم.

سجلت الآية موقفهم من الرسول الذي جاءهم يذكرهم عهد أبيهم إبراهيم، ويبين لهم الحق: الكلمة التي وصاهم بها. و عوض أن يستفيقوا، ويراجعوا عقيدتهم وسلوكهم؛ قالوا: ما جئتنا به سحر؛ لأنك تفرق به بين المرء وزوجه، وبين الوالد والولد. ثم عبروا عن تصلبهم في الرفض فقالوا: لنيأس من اتباعنا لك، فسواء أكنت ساحرا، أم كاذبا، أم ناقلا لأخبار الأولين التي تملى عليك بكرة وأصيلا، فإنه على جميع الأحوال والتقادير نحن مصممون على الكفر بما جئت به.

ثم عللوا رفضهم بأن القيادة تقتضي أن يكون القائد عظيما في قريته، تنفذ شخصيته في المحيطين به ، ولا بد أن يكون متميزا بعصبية عزيزة تنصره بأن يكون من مكة أو من الطائف (القريتين). ولا يبلغ هذا المستوى عندهم إلا من أوتي مالا واسعا. شأنهم شأن المعترضين على من يختارهم الله للمهمات لما فيهم من كمالات ذاتية. لاستيلاء الجهل عليهم لا يتأهل عندهم للقيادة إلا من كان ثريا ،كما قال اليهود لما قيل لهم: ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾[1]

32ـأهم يقسمون رحمة ربك ....خير مما يجمعون.

إنكار عليهم مقالتهم: لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. لقد استكبروا في أنفسهم، وتطاولوا إلى ما ليس من شأنهم ولا لهم فيه دخل. إن الاصطفاء لتحمل الرسالة مرتبة عظيمة يختار الله لها من ميزه بكمالات تؤهله لتحملها، وذلك من رحمة الله به . ورحمة الله يتصرف فيها وحده سبحانه ، ولا

---

[1] سورة البقرة آية 247

دخل للبشر في ذلك. كيف تطاولوا حتى اعترضوا على قسمته تعالى لرحمته ؟ هذه الرحمة التي تشمل الرسالة، والحكمة، والعلم، والتوفيق، كما تشمل جميع أنواع الرزق الدنيوي. فلينظروا ليجدوا أن ما استدلوا به على العظمة من وفرة الأموال، ليس ذلك للإنسان، ولكن الله يرزق من يشاء بالمقدار الذي يشاء، ولو كان الأمر للإنسان لكان جميع الناس أغنياء. فمن الناس من وسع عليه رزقه، ومنهم من ضيق عليه رزقه. ولم نسو بينهم في الرزق بل رفعنا بعضهم فوق بعض درجات، كما غايرنا بين منازلهم فمنهم القوي والضعيف، والواسع الأفاق ،والضيق التفكير، يقاد ولا يقود .فالموسع عليه حاجاته كثيرة ، ونشاطه متنوع ،ويستعين بعدد وافر من الناس ليجروا له أشغاله . و حتى ذلك الغني الذي يسخر غيره للعمل عنده، هو من ناحية أخرى مسخرٌ لذلك العامل، يبيع له إنتاجه، ويستعين رجال الأعمال بالإطارات العالية المتكونة في مختلف الاختصاصات ليستفيدوا من خبراتهم في تسيير مشاريعهم، وتعريفهم بأفضل الطرق في الاستثمار. هكذا أراد سبحانه أن تكون خلافة الإنسان في الكون بالتعاون بين أفراده وجماعاته .

الناس للناس من بدو وحاضرة *** بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ورحمة ربك يا محمد التي اختصك بها من اصطفائك للرسالة وختمها بك خير من كل ما جمعوا من مال وسؤدد وقوة. ويقرب الله نبيه في هذا الخطاب، ورحمة ربك بإضافة الرب لمحمد، وهو رب العباد جميعا، في ذلك من الإيناس ومن التنويه ما لا يخفى. وكذلك ما يشعر به كلمة الرب من العناية و الرعاية.

وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمة واحدة : جماعة من البشر بينها ما يوحدها

الزخرف : الزينة .

معارج: جمع معراج المصاعد إلى العلالي .

يظهرون : يعلون.

يعش : مضارع عشا، إذا أصيب بظلمة في عينه. وعشى عنه صرف عنه.

نقيض : نهيء له شيطانا يلازمه.

المشرقين : المشرق والمغرب.

بيان المعنى الإجمالي .

يتعلق البشر بمتاع الحياة الدنيا وزخارفها، وهذا التعلق جعلهم يربطون بين السمو والمكانة العالية للإنسان، وبين ما يملكه من مال و ما عنده من ثروة. فأرشدهم الله إلى أن من أخص صفات متاع الحياة الدنيا الزوال، وأنه يصرف المتعلقين بها عن الخير، بل يصرفهم عن الاستعداد للحياة الأخرة. و لذا فإنه بلطف الله بعباده وتقديره أن لا يعم الكفر، لم يمكن الذين يكفرون بالرحمن من الأرزاق الواسعة، مع أنه قادر على ذلك، وأنها لا تغني عنهم من عذاب الله شيئا. إنه لو شاء لجعل للكافرين لبيوتهم سقفا من فضة ، وبيوتا ذات طوابق يعلون سطوحها مشرفين، وليسّر لهم بيوتا متعددة الغرف كل غرفة مستقلة ببابها ومفارشها وسرورها التي يجلسون عليها مجالس الراحة والدعة ، ولجمع لهم بين الفضة والذهب والزخرفة والزينة بما يخلب ابصار المتعلقين بجمال الحياة الدنيا .ولكن كل ذلك متاع أخص صفاته الزوال. و النعيم المقيم هو ما كتبه الله لعباده المتقين في الأخرة، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن من يمر على أيات القران دون تأمل في مضامينها قاصدا عدم الاكتراث بها ، يحرمه الله هدايتها ، وعندها يهيء له الرحمن شيطانا يلازمه ويوسوس له.

وماذا يفعل الشياطين بمن يلازمونهم من العاشين عن ذكر الرحمن ؟ يزينون لهم الفساد والشر ، ويضللونهم بما يقلب الحقائق فيعتقدون الخير شرا والشر خيرا ،وهم يظنون أن تفكيرهم هو الحق .

يواصل الشياطين إغواء قرنائهم، إذا لم يقطعوا صلاتهم بهم ويقبلوا على كتاب الله. تستمر تلكم الصلة إلى يوم البعث، يوم تتكشف الحقائق، فيقول المغوي لشيطانه، تعست بمخالطتك، أتمنى أني لم أعرفك وأنك كنت بعيدا عني بعد المشرق من المغرب. ما أسوأك وأفسدك من قرين ! تمنوا أن لم تكن لهم صلة بشياطينهم وقد رأوا مصيرهم . فقمعهم النداء المثبت لليأس في قلوبهم: لن ينفعكم التنصل والتبرؤ من الشياطين في هذا اليوم، فقد فاتكم الوقت الذي تنفعكم فيه التوبة، وانكشف اليوم ظلمكم انكشافا ينفي كل اعتذار. لا ينفعكم لأنكم مشتركون في

الضلالة في الدنيا واليوم أنتم مشتركون في العذاب. يبلغ عذاب كل فريق منكم ما يتجاوز طاقات تحمله.

بيان المعنى العام

33 ـ 35 ولولا أن يكون الناس...عند ربك للمتقين.

مظاهر النعيم، والثروة والمال، تلهي الناس وتشغلهم، وتؤثر فيهم، ولكن الذين رزقوا الحكمة والسعة في عقولهم، والنفاذ في تفكيرهم إلى ما يبلغون به إلى لب الحق، يفضلون على تلكم المظاهر، الكمالات الإنسانية من دين وتقوى وعلم وذكاء، ولكن معظم الناس يتعلقون بالنعيم المادي، ولا يربطون المسببات بأسبابها، ويخدعون بما يقترن بالشيء فيجعلونه سببا. فلما كانوا يلحظون من المجتمعات تعظيم الغنى وأصحاب المال، خصوهم بالكمال، وانحط في نظرهم كل قيمة أخرى. فهم يفضلونهم على أصحاب النفوس الزكية الصالحة. تذكرتهم الآية السابقة بأن المال يقسمه الله بين عباده لحكم يعلمها وليس بينها وبين السمو الإنساني أي رابطة. فمن الأغنياء شرفاء و فاسدون، ومن الفقراء كذلك شرفاء و منحطون.

و لما كان الله رحيما بعباده، لم يقدر أن يكون الشر غالبا مسيطرا، وقدر أن يبقى في المجموعات البشرية صالحون، ولو مكن الكفار من الثروات الطائلة والمظاهر الفاخرة في المتاع والسكنى واللباس، لعم الكفر وخدع الناس بتلك المظاهر مقدرين أن عبادة الأصنام سبب الثروة والخيرات الدنيوية. لولا ما يترتب على بسط الرزق على المشركين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن، لجعلنا سقوف بيوتهم من فضة، ولمكّناهم من مدارج يصعدون عليها أي أن تكون بيوتهم ذات طوابق فيرتقون بمصاعد ليشرفوا على مشاهد الكون تحتهم ، ولجعلنا لبيوتهم أبوابا مما يدل على كثرة الغرف ، وأثاثا نصر منه على السرر جمع سرير يجدون في الجلوس عليها الراحة المناسبة لأجسادهم، وزخرفا: والزخرف يطلق ويراد به الذهب، ويطلق ويراد به الزينة والفنون الجمالية في تزيين البيوت.

إن هذا الوصف يبعث في النفس صورة من النعيم المادي لا يجمعها إلا مالك السماوات والأرض الذي يهون عنده الذهب والفضة والزخارف والمباني الرفيعة، وقد يتطلع لها التالي وتدغدغ خياله. فيأتي عليها القرآن من قواعدها ليستفيق الإنسان من خياله الخادع، وينسفها ذاكرا أنها لا تعدو أن تكون متاعا يستمتع به الإنسان، تفنى كل لحظة ليعقبها الفناء التام بذهاب جميع الآثار، ويتبين في النهاية أنها سراب خادع. و الأخرة عند ربك لا يملكها غيره أعدها للمتقين الصالحين من عباده.

36-و من يعش....فهو له قرين.

هداية القران لائحة ، تفتح البصائر والعقول والقلوب، لتجد فيها مراتع تسمو بها إلى افاق رفيعة تربطها بالخير وتبعدها عن الشر، وتصل بينها وبين الطريق المستقيم فتبدو لها الغايات واضحه من البداية. يفوز بذلك من يتأمل في كتاب الله، ويأنس بمضامينه وينفعل به، وكلما زاد تأملا زاد قلبه إشراقا. وبالمقابل فإن من يُعرض عن القران ولا يتأمل في بيانه، ولا يتعمق في مضامينه، مستلهم للقران، وايات القران تمر على أسماعهم دون أن تحرك عقولهم، كمن يمر على المشاهد وهو ضعيف البصر لاه لا يتأمل فيها، فلا يرتسم في نفسه شيء منها. فقوله تعالى: ومن يعش - ومن كان نظره في أيات القران كنظر الأعشى يمر عليها دون أن يتبينها ، ولا يتأثر بها ولا تنفذ معانيها إلى عقله ، روحه، يكون بذلك قد اختار البعد عن هدايته، وترجح عنده السير في طريق الضلال، لأن القران كتاب مبين فعدم تأثره به هو نتيجة عزم على الانصراف عنه وعدم الاحتفال به . والله لا يقسره على اتباع الحق ، بل يجري عليه سننه في الخليقة ، فمن اختار الهدى وطريق الخير ، هيأ الله له من الألطاف ما يواصل به مسيرته التي اختارها لنفسه . ومن يختار الانصراف عن ذكر الرحمن القران الحكيم، لا يحول بينه وبين ما عزم عليه، يهيئ له شيطانا يكون قرينا له، يملي له في الشهوات ويساعده على البعد عن طريق الحق . لأن الشيطان إذا وجد فراغا في العقيدة أسرع لتعميرها بوسوسته، وينعقد بينه وبين المنصرف صحبة تجعله يلازمه ولا ينفك عنه. ومن بديع التعبير في هذه الأية تعبير القران عن ملازمة الشيطان له بقوله :نقيض - فكلمة نقيض مشتقة من القيض ، وهو قشر البيضة الحافظ لما في باطنها ، الشيطان يلازم المنصرف عن تدبر أيات القران ، يحيط به من جميع الجوانب ولا يتركه لحظة وأكد الملازمة بقوله تعالى :فهو له قرين .

37-وإنهم ليصدونهم ...انهم مهتدون.

وإن الشياطين ليصدون الذين يعشون عن ذكر الرحمن عن اتباع الطريق الأمنة المبلغة للهدف ،بمعنى انهم يقربون لهم ملاهي تأخذهم عن سواء الطريق لينحرفوا عنها ويتيهوا في الضلال . ومن شدة مكر الشياطين وتضليلهم أن قلبوا الحقائق في أنظارهم فجعلوهم يعتقدون الضلال صوابا والشر خيرا.

38-حتى إذا جاءانا...فبئس القرين.

يتواصل تأثير الشيطان في العاشين عن ذكر الرحمن ، وكل خطوة تتبعها خطوة أخرى ، فإذا لم يتب العاشي ويقبل على كتاب الله تفهما وتطبيقا . يأتيان معا يوم القيامة للحساب ، وعندها يتبين المضلَّل سوء عاقبته ، ويلتفت إلى قرينه الغاوي

فيقول متبرما من صحبته قائلا: يا ليت ! أتمنى لو لم يقع ما فات ولا يمكن تحقق أمنيتي ، أتمنى أن لولم تكن لي بك صلة ، ما عرفتك ولا عرفتني . ليتك كنت بعيدا علي أشد البعد، بعد المشرق عن المغرب. فالمشرقين تثنية المشرق والمغرب تغليبا للمشرق، كقولهم القمران للشمس والقمر ، ثم يعبر عن إحساسه بتلك الصحبة فيقول: إنك بئس القرين جلبت لي الخسارة والتعاسة .

ولن ينفعكم...مشتركون.

عبر العاشون عن ذكر الرحمن في الآية السابقة ،عبروا عن سخطهم عن قرنائهم الشياطين الذين زينوا لهم طريق الضلال، وعن ندمهم الشديد لما عرفوا مصيرهم يوم القيامة. قد يفهم من كلامهم أنهم يلقون التبعة على قرنائهم، فمعنتهم هذه الآية مبينة أن حسرتهم على ما مضى هو في يوم لا ينفع فيه ندم. وعلل استحقاقهم للعذاب واليأس بقوله :إذ ظلمتم أي بسبب ظلمكم المحقق المكشوف في هذا اليوم، لأنكم بسبب ذلك الظلم منكم باتباع الشياطين والصدود عن القرآن، وظلم الشياطين بصرف خيثهم لتواصلوا طريق الضلال الذي زينوه لكم . فأنتم مشتركون مع الشياطين في العذاب لا ينفعكم تنصلٌ ولا لوم.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

نذهبن بك : ننقلك من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة بالموت ،نتوفينك.

الاقتدار : شدة القدرة .

الاستمساك : قوة المسك .

ذكر : شرف لك ولقومك.

بيان المعنى الاجمالي:

لا تحمل يا محمد نفسك فوق طاقتها ، افأنت تستطيع أن تحول الناس الذين أصموا اذانهم عن سماع الوحي ، وأغمضوا أبصارهم عن النظر في الشواهد المعلنة عن

صدقك ، والذين انغمسوا في الضلالة فلا ينفذ إلى قلوبهم شعاع من نور الهداية ؟ أتستطيع أن تحولهم عن وضعهم الذي يعملون كل يوم على تكوينه لإنهم يزيدون مع الزمن بعدا من الحق الذي أنت عليه وتدعوهم إليه.

لا تستبطئ يا محمد وعيدنا للمشركين ، فإنا سننتقم منهم سواء بعد وفاتك أو في حياتك فتراهم ممزقين شر ممزق لا ينفلتون من عذابنا المقدر لهم. وإن القرآن المنزل عليك لبيني لك ولقومك شرفا. فبالقران يذكرون ويأخذون منزلتهم في الحضارة الإنسانية. ولولا القرآن لما كان للعرب شأن في تاريخ البشرية، ولا عرفوا هم ولا لغتهم. وسوف تسألون عن هذا الكتاب العزيز، يسأل المشركون عن تفريطهم، ويسأل المؤمنون عن وفائهم له فيجزون خير الجزاء يوم القيامة.

ثم أسقط القرآن عبادة الأصنام زيادة على ما تقدم من مخالفته للعقل، ولأنه لا دليل عليه من كتاب منزل، بعرض سؤال يسأله النبي ﷺ لعلماء أهل الكتاب، هل يجدون فيما أنزل عليهم ما يدعوهم إلى عبادة الأصنام. ولا يكون جوابهم إلا بالنفي المطلق، فيسقط كل مستند للمشركين في عبادتهم.

بيان المعنى العام

40 أفأنت تسمع الصم ...في ضلال مبين.

كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيمان المشركين من قريش ، حرصا شديدا ، لم يفتر عن التذكير ، ولم ينثن عن الدعوة والتبيين ، كان موقنا أن الله ناصر دينه ،وأن هدايته ستنفذ إلى القلوب فتزيل منها الشك وتعمرها باليقين. كان بهذا اليقين الثابت في نفسه يجدّ ويجتهد املا غير يائس. و في المقابل لم يجد من قريش إلا الإعراض والمكابرة. تقول له هذه الآية في صيغة سؤال إنكار : عجب لك يا محمد أفأنت بحرصك تقدر على أن تقلب الأصم سميعا أو الأعمى بصيرا أو المغرق في الضلالة الذي سد على نفسه كل منافذ الهدى مهتديا ! فالآية تصور الذين لا يصيخون أسماعهم لما يتلى عليهم من آيات الله بالصم، إذا كانت آذانهم لا تبلغهم ايات القرآن، فسمعهم هو كالصمم، وكذلك بصرهم. وكذلك تصلبهم فيما هم عليه.

41-42 فإما نذهبن ...عليهم مقتدرون.

شنعت الآية السابقة على الكفرة تصلبهم وإعراضهم، وفيها مقدمة لتسلية النبي ﷺ، والتصريح بأنه لم يخفق في أداء الرسالة. ثم واصل هذا المفهوم بأن الله سينصره ويزيده على اعدائه . يتحقق ذلك إما بعد وفاته ، فينتقم الله منهم ويسلط عليهم من عذابه ما هو كفاء صدهم عن الإيمان وإيذاء الرسول وصحابته. وفيه تهديد ووعيد

لقريش، أن تمنيهم موته بقولهم: (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون)[1] لا يريحهم وسيلقون جزاء إعراضهم. فإنا بكل تأكيد منتقمون منهم نذيقهم ألوانا من العذاب.

ينتظر المشركين أحد أمرين: الفرض الأول أن نتوفاك فنسلط عليهم أشد العذاب، والفرض الثاني: وإما أن نريك العذاب الذي وعدناهم فتشاهدهم ممزقين منهزمين يتبعهم العذاب ويعجزون عن الانفلات منه . فإننا على تحقيق ذلك قادرون أتم القدرة. والوعد يطلق على الخير والشر حسب المفعول الذي وقع عليه .وإذا لم يذكر مفعوله انصرف إلى الخير .فأفادت الآية تحقق الانتقام منهم سواء أكنت حيا أو ميتا، فلا تستبطئ أنت ولا المؤمنون وعيدنا الذي أعلمناهم به .

43 فاستمسك بالذي أوحي إليك ...على صراط مستقيم

إنه سواء أحصل في المستقبل أن عجلنا لك الظفر عليهم، أو توفيناك فانتقمنا منهم، فعلى جميع التقادير واصل ما أنت عليه من التمسك القوي بما أوحينا إليك من الهدى والثبات على نشر الدعوة . اثبت على ما أنت عليه فإنك متمكن من الطريق الذي لا عوج له، السالك بك إلى الهدى والخير والفوز في العاقبة.

44- وإنه لذكر ...وسوف تسألون.

ثم خص ما أوحي إليه بالتنويه به ، ولفت الأنظار إلى آثاره المباركة ، فصرح بأن ما أنزل على رسول الله من الهدى في القران، قدرنا أن يكون شرفا لك ولقومك، فينتشر في آفاق الأرض وتعلو بسببه قيمة العرب المسلمين وقيمة لغتهم،. فكل من دخل في دين الله يجتهد لمعرفتهم ومعرفة لغتهم. ولولا القران والإسلام لما كان لهم حظ في تاريخ الإنسانية، ولا ذكر في تطور الحضارة العالمية. ثم ثنى بأن المخاطبين جميعا بهذه الآية من المؤمنين والكافرين، سيسألهم ربهم يوم القيامة عن موقفهم من هذا الكتاب العزيز. فيسأل الكافرين به سؤالا يبرر ما يجزون به ، ويسأل المؤمنين به سؤالا يزيدهم كرامة وحظوة عند ربهم .

ولمع في ذهني التعريض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والإيماء إلى تحذير المؤمنين من مسايرتهم في خطئهم . ظن اليهود أن الله شرفهم بإرسال موسى فهم مصحوبا بالتوراة، ولذلك فهم لا يعذبون يوم القيامة إلا بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل. وزعم النصارى أن من امن بأن عيسى اعطى جسده للتعذيب ليكفر عن الخطأ الإنساني، وأن من امن بذلك يفوز يوم القيامة بالنعيم الأبدي. كلاهما مخطئ

---
[1] سورة الطور آية 30

ضال مضلل. لأن الجزاء يتبع عمل الإنسان، استخلفه الله في الأرض ليعمل ويحاسب على عمله القلبي والعضلي، وصلاح البشر لا يتبع انتسابهم وإنما يتبع أثرهم في الوجود، هذا قانون الكون وهذا هو العدالة والخروج عن ذلك ظلم. تعالى الله أن يخرج تقديره عن الحكمة والعدل .

45- واسأل من أرسلنا ...آلهة يعبدون.

كان العرب يثقون في أهل الكتاب، وخاصة اليهود، ويقدرون أنهم على علم عظيم، وكانوا يعودون إليهم بحثا عن أخبار الماضين. فبعد أن أسقط القرآن كل ما اعتمده المشركون لعبادة الأصنام من الشبهات العقلية ، ومن التقليد للآباء ، جاءت هذه الآية تنفي أن يكون لعبادة الأصنام أي سند في التاريخ .فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل أمامهم أحبار يهود ، هل جعل لكم ربكم آلهة تعبدونهم من دونه؟ ولا يستطيع اليهود ولا النصارى إلا أن يعلنوا أن عبادة الأصنام خراب للعقيدة وفساد. فليس المراد من الآية أن يسأل المرسلين لأنهم قد طواهم التاريخ ، ولأن سؤاله ليس لمعرفة ما عندهم في أمر هو من أيقن اليقينيات عنده ، ولكن السؤال هو لأتباعهم ليخبروا المشركين الذين لهم ثقة بعلمهم .

وفي إطلاق اسم الرحمن على الله في الآية تورك على المشركين إذا أنكروا اسم الرحمن ، ففي النص إيماء إلى أن اسم الرحمن معروف في الكتب السابقة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ

وملئه : عظماء قومه.

يضحكون :يقصد بالضحك الاستخفاف والاستهزاء وإن لم يكن هناك ضحك مادي.

الأخذ :الإصابة .

يرجعون : يذعنون.

بما عهد عندك : بما خصك به من التكريم ومن تسخير الأشياء لك.

ينكثون : أصل النكث نقض فتل الحبل، والمراد به إخلاف ما وعدوا به من الإيمان.

المهين : الذليل الضعيف.

يبين : يفصح بوضوح عن مراده .

ألقي : نزل عليه من السماء.

أساورة :ما يلبس في المعصم من الحلي .

مقترنين : مقرنون به ملازمون له.

استخف : أثر في عقولهم الضعيفة فزادت سخفا.

فسقين : كافرين.

آسفونا : أغضبونا.

سلفا : الذي يسبق غيره في الوجود. من يأتي بعدهم يلقى مثل جزائهم.

مثلا :عبرة.

بيان المعنى الإجمالي

بكل تأكيد أرسلنا موسى معززا بآياتنا إلى فرعون وكبراء قومه الذين كانوا حوله. فأعلمهم أنه رسول رب الكائنات جميعا وأن عليهم أن يطيعوه فيما يبلغهم عن رب العالمين. فقابلوا دعوته بالسخرية والاستهزاء، وضحكوا منه. عرض عليهم الآيات المؤيد بها، وكل آية عندما نعرض هي قوية في ذاتها أبلغ قوة، حتى يظن أنه أكبر من الآية السابقة التي تحدى بها. وسلطنا عليهم أنواعا من العذاب .ما شأنه أن يؤثر فيهم فيحصل الرجاء منهم للرجوع عن كفرهم إلى الإيمان . ولما توالت الآيات بما زعزع صمودهم في الكفر طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف الضر عنهم ، بما أنه مكرم من ربه مخصوص بمناقب تحقق بها ما أوعدهم به، ووعدوه أنهم بكل تأكيد سيهتدون إلى اتباع ما جاء به . وكشف الله عنهم العذاب بدعاء موسى، ولكنهم فسدوا فسادا جعلهم حتى بعد تبين كرامة موسى واستجابة دعائه، وما قطعوه من وعد مؤكد، جعلهم ينكثون ما وعدوا به وواصلوا ما هم عليه من الكفر. وأعلن فرعون في قومه إعلانا كلف دعاته أن ينشروه في الأسواق والمجامع. انتبهوا ولا

يقرركم موسى، ألنا تقرون بأني المنفرد بملك مصر وحضارتها العظيمة، ألا تقرون بأن الأنهار التي تخلل مزارعكم وتضمن استمرار أقواتكم أتحكم فيها وأنا الذي أسيرها؟ ألستم تشهدون كل ذلك و ترونه بأعينكم ؟ قارنوا بين عظمتي وبين هذا الرجل الذليل الضعيف، البعيد عن الفصاحة الذي لا يكاد يفهم كلامه. لولا أنزل ربه عليه أسورة من ذهب تمكن مهابته في عيون الناس، لو ساعده بالملائكة التي يدعي وجودها فتكون معه مؤذنة بعلي مقامه! كل ذلك لم يوجد منه شيء. أثر كلامه في عقول قومه وانحط بهم إلى مستوى من الضعف والسذاجة فصدقوه وأطاعوه في مواصلة ما هم عليه، بكل تأكيد هم قوم مغرقون في الكفر. إنه تبعا لتصلبهم في الكفر ونكثهم لعهودهم، حل عليهم غضبنا، أي إننا حجبنا عنهم رحمتنا وانتقمنا منهم فأغرقناهم، ابتلعهم البحر ولم ينج منهم أحد. فجعلنا مصيرهم من المحق مصير الذين يأتون من بعدهم، وجعلناهم أحاديث لمن بعدهم يعتبر بها المعتبرون. وفي ذلك تهديد لقريش.

بيان المعنى العام

46. ولقد أرسلنا موسى...رب العالمين.

مما يقوي ما ذهبت إليه أن المقصود في الآية السابقة سؤال علماء أهل الكتاب، تعقيبها بتفصيل قصة موسى ثم بقصة عيسى. وفي تفاصيل هذه القصة المعروضة في هذه السورة نظائر من مواقف المشركين ، سبقهم إليها فرعون وملؤه.

تفتتح القصة بالتأكيد على أن الله أرسل موسى عليه السلام، مما يفيد الاهتمام بما ورد فيها. كان موسى عليه السلام مصحوبا مؤيدا بآياتنا، بجملة من الأدلة المعجزة المثبتة لنبوته. أرسله الله إلى فرعون ملك مصر الجبار، وإلى طغاة قومه الذين كانوا يزينون له ظلمه وجبروته. كانت قاعدة رسالته إعلانه أنه مرسل من رب الكون كله. رب فرعون، ورب الملأ من قومه، ورب المصريين، ورب الناس أجمعين، ورب كل ما عمر الأرض والسماوات من كائنات.

47-48. فلما جاءهم بآياتنا... لعلهم يرجعون.

عرض موسى عليه السلام المعجزات المؤيدة، التي تظهر أن الذي مكنه منها وهي تتجاوز قدرات البشر حسب العادات والسنن، ما مكنه منها مع التحدي بالإتيان بمثلها وعجزهم، إلا ليتيقن من شاهدها أن تلك دليل على أن الله اختاره لتحمل رسالته. وأن عليهم أن يصدقوه فيما جاء به. وكان رد المرسل إليهم أن سخروا منه، عبر عن استهزائهم منه بالضحك باعتبار أن المبالغ في الاستهزاء بالشيء،

يضحك منه ، مما يدل على أن استهزاءهم كان قويا فاجأ موسى عليه السلام كما تدل عليه كلمة إذا.

قابل فرعون وقومه، الآيات التي أظهرها الله على يد موسى عليه السلام بالتصلب في عنادهم. رغم أن الآيات المؤيدة لموسى كانت عظيمة جدا، من شأنها أن تقنع بقوتها من شاهدها، فيعود الى الرشد. حسب الظاهر كل آية من الآيات هي أعظم من الآية التي سبقتها. واستشكل أن تكون كل آية هي أكبر من السابقة. فخرجه الزمخشري، وتبعه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أن الآيات متساوية في العظم غير متفاوتة، ولكن لعظمها كلما تأملت في آية قلت هي أكبر من سابقتها، فهو تعبير قصد به تجسيم عظم الآيات لا تسجيل التفاوت بينها. وهذا كقول المرندس الكلابي :

متى لا قيت منهم تقل لاقيت سيدهم*** مثل النجوم التي يسري بها الساري

فكل فرد لاقيته و نظرت في كمالاته وحده ، قلت هو سيد القوم بإطلاق . مع أنهم متساوون أو متقاربون في الكمال.

ويحتمل عندي أن تكون الآية تحدثت عن شقين من الآيات: شق الآيات التي أظهرها موسى عقب دعوته لفرعون في مجلس واحد. كانت الآية الأولى: عرضه العقيدة والاحتجاج عليها بالعقل والنظر في الكون بما أفحم فرعون.

وثانيا بانقلاب العصا حية. وقد ظهرت في شيء خارج عن ذات موسى. ثم أدخل يده في جيبه فإذا هي بيضاء مشرقة نقية مع أنه كان أسمر البشرة. فهذه الآية هي تحول في ذاته، وهي أعظم من تحول العصا أفعى، لأنهم قبلوا أن يتحدوه في تحول العصا، وأحضر فرعون السحرة. فالآية الأولى كانت وضوح الحجة التي أفحمت فرعون وملأه ولم يستطيعوا ردها. والثانية انقلاب العصا حية، والثالثة إدخال يده في جيبه. وإنما عدت الآيات التالية أعظم وذلك بالنظر إلى التأثير في فرعون، إذ لا يخضع فرعون إلا للمادي المحسوس. ولما بقية الآيات فهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز " عذاب القحط " فهي داخلة تحت قوله تعالى في هذه الآية: وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون؛ سلط الله عليهم العذاب بتلك الآيات الست، التي من شأنها حسب المقاييس البشرية، أن ترجعهم عن كفرهم، ويذعنون للحق الذي أتاهم به موسى. وأتوقف في جعل انفلاق البحر داخلا في الآيات المقصودة هنا، لأن العذاب كان يرمي إلى غاية، هي رجاء أن يذعنوا. وانشقاق البحر كان للاستئصال والهلاك المقدر والمدمر.

49.وقالوا يا أيها الساحر.. إننا لمهتدون.

فعل العذاب فعله في زعزعة عقيدتهم ، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه لرفع العذاب عنهم ، خاطبوه بـ يا أيها الساحر : لأنهم الصقوا به من أول الأمر هذا الوصف، فواصلوا نداءه به ، أو لأن الساحر في مصر زمن رسالة موسى كان يمثل العالم الماهر لاستعظامهم السحر فهو مساو لقولهم: يا أيها العالم، طلبوا منه أن يتوجه إلى ربه بالدعاء. وصيغة السؤال تدل على أن الكفر ما زال متمكنا من قلوبهم لقولهم : ربك، ثم تعليلهم بقولهم : بما عهد عندك بما اخبرتنا به أنه وعدك وعدا مؤكدا أنه يكشف عنا العذاب إذا آمنا بك .فإننا عازمون على اتباعك فإن أنت دعوته فكشف عنا العذاب لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل .

50.فلما كشفنا عنهم...ينكثون.

قالوا ذلك وهم مضمرون إخلاف وعدهم، وكان موسى عليه السلام لا يضيع فرصة تقربه من النجاح في مهمته ، فدعا ربه أن يكشف عنهم العذاب الذي ذاقوا بسببه صنوفا من البلاء : الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع ، والدم ، والجدب. واستجاب له ربه وكشف عنهم العذاب ، وعادت حياتهم إلى ما كانت عليه سخية رخية .ويفاجأ موسى بنكثهم لما عاهدوه عليه ولم يوفوا به وواصلوا كفرهم ، والتنكيل ببني إسرائيل الذين سخروهم لخدمتهم .

51. ونادى فرعون في قومه...أفلا تبصرون.

ما جرى بين موسى وفرعون وملئه، من وعدهم الرجوع عن كفرهم إذا هو دعا ربه وكشف عنهم البلاء .وهو أمر ما كان يعلم به قومه .وخشي فرعون لما ظهرت مكانة موسى عند ربه، وأنه أنزل عليهم العذاب لعصيانهم لرسالته ، وكشف عنهم لما دعا ربه بكشفه ، خشي أن يعلم به الدهماء فتعظم في عيونهم رسالة موسى ويترجح أنه صادق ، فأمر دعاته أن يسيروا في الأسواق وفي المجامع ليذكروا رعيته بعظمته. قال فرعون مستكبرا متعاظما من ناحية ، ومقربتهم إليه من ناحية أخرى، فهم قومه يعزهم ويسعى فيما يعود عليهم بالخير . قال لهم مذكرا: ألا تقرون أن مصر بما تحويه من خيرات، وما وصلت إليه من المستوى الحضاري الرفيع هي ملكي ؟ وأن هذه الأنهار التي بها حياة زروعكم ومواشيكم أتحكم فيها ، فهي تنساب بأوامري وتنظيماتي . ألا تبصرون هذه القوة التي بين يدي، والتفاركم لي ؟

52.أم أنا خير من هذا...ولا يكاد يبين.

لننتقل إلى ما هو أجلى وأوضح. إياكم أن تغتروا بموسى، وقارنوا بيني وبينه ليتبين لكم من هو الأفضل والأكمل لتتبعوه وتلوذوا به. قارنوا بين عظمتي وما أنا

عليه من مقام الملك، وبين هذا الذي من أخص صفاته أنه ذليل ضعيف، عييٌ غير فصيح، لا يكاد يفهم عنه سامعه ما يريد أن يقوله. فمن كبره لم يسم موسى عليه السلام ، وإنما أشار إليه إشارة تحقير هذا ووصفه بنزوله عن مرتبة الملك وعن البيوتات الشريفة في مصر . والذي يترجح :أن فرعون يذكر قومه بما يعرفونه عن موسى قبل الرسالة. أما بعد الرسالة فقد زالت حبسة لسانه ، إذ دعا ربه : واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . ولهذا كانت كل الآيات التي تحدثت عن رسالة موسى تنسب الحجاج إليه لا إلى هارون.

53.فلولا ألقي عليه أساورة ...مقترنين.

لو كان ما يدعيه حقا من أن الله اختاره ، وبعثه برسالته ،وأنه إله قادر على كل شيء ، فلماذا لم ينزل عليه أساورة من ذهب يعلن بها مقامه الرفيع ، حسب ما كان يجري في عاداتهم أن الملوك يلبسون في أيديهم أساور فخمة من ذهب تلقي المهابة في عيون الناس. وافتتاح الآية ب لولا إشارة إلى ما في هذه الشارة من قوة يحض على إظهارها. وأن موسى يدعي أن الله عنده ملائكة مطهرون، فلماذا لم يصحبه ربه بطائفة من الملائكة يكونون معه في كل وقت، فيظهر أنه مرتبط بالملأ الأعلى الذي يريد أن يثبته. فإذا لم يأت بهذه الآيات فهو غير صادق فيما يدعي.

54.فاستخف قومه..فاسقين.

إن ما قدمه فرعون لقومه من الطعون في أمر موسى ،يدل على أنه أفسد عقول قومه ، فسدت وضعفت ، ولذلك خاطبهم ببهرج من القول أثر على عقولهم فساروا في الطريق الذي يريد أن يسيروا فيه ، مكذبين لموسى معتقدين أن فرعون ملك مصر وربهم وكل خير ينالهم هو بسببه . بكل تأكيد استقر الكفر فيهم.

55-56 فلما آسفونا ...ومثلا للآخرين.

أبان لهم موسى عليه السلام بالحجج البينة أن ما هم عليه من الشرك ضلال وفساد، وأن عليهم أن يعبدوا الله الوحد الأحد ،وأراهم من الآيات العظيمة ما أراهم، وسلط الله عليهم من العقوبات الرادعة ما جعلهم يستغيثون في كل مرة لكشف الضر عنهم ،ووعدوا بالإقلاع عما هم عليه فأخلفوا . ثم أعلن فرعون أنه ملك رب كل خير يناله قومه هو منه، وأنه لا يقبل أن يقرن في عظمته بموسى. تسلسل منهم ما أوجب غضبنا عليهم، بمعنى أخرجناهم من دائرة الرحمة إلى دائرة الانتصاف منهم بعدلنا وقوتنا. فترتب على ذلك أنا انتقمنا منهم. ذلك الانتقام المسجل في القرآن، كيف أطبق عليهم البحر ولم ينج منهم أحد. فجعلنا ما حل بهم صورة

ظاهرة من قوة الانتقام تنسحب على من يأتي بعدهم، وجعلنا ما حل بهم عجيب الشأن سائرا مسير الأمثال يحدثون به في مجالسهم، و عبرة لمن يأتي بعدهم، تتحدث به الأجيال اللاحقة للموعظة.

وفي تفاصيل قصة موسى وما ختمت به تهديد لمشركي مكة أنهم سيلقون من الانتقام الشديد ، نظير ما لحق بقوم فرعون.

• وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

يصدون : بضم الصاد يعرضون، وبالكسر يضجون ويصخبون.

الجدال :المحاورة بمغالطة قصد التغلب على المحاور.

خصمون : الخصم المتمسك بالخصام لجاجا و عنادا .

مثلا: آية و عبرة.

يخلفون : يسكنون الأرض بدلكم.

لعلم للساعة : مؤذن بقرب الساعة.

الحكمة : استقامة في الفكر يتبعها معرفة الحق وتمييزه عن الباطل.

من بينهم : من بين الذين جاءهم عيسى.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن فصلت قصة موسى عليه السلام وتحولت إلى قصة عيسى عليه السلام لتثبت أنه كموسى يقرر أنه لا يستحق العبودية إلا الله، قابلوا كلامك هذا بالصخب، أو بإعلان الإعراض عن القرآن. وقالوا خبرنا هل ابن عيسى أفضل من آلهتنا أو

هم متساوون، فاذا كان عيسى قد عبد، ومن عبد على ما تريد أن تثبته ماله النار، فليستو مآل آلهتنا بمآل عيسى. وإذا كان المعبود من دون الله لا يكون ماله الخزي والعذاب ، فتكون آلهتنا كعيسى ناجين . هم يريدون الاحتجاج عليك بالتسوية بين عيسى والهتهم، وهم لا يقولون بذلك ويعتقدون أن عبادة آبائهم للأصنام تبرر متابعتهم وعيسى لا يستحق العبادة. هم يحتجون بما يرفضونه، لأنهم قوم دربوا على الخصام ولا يربطهم منطق ولا عقل. والحقيقة أن عيسى عبد مخلوق لله أجرى عليه ما أجرى على البشر من عوارض الفناء المتلاحق. نعم إن الله أكرمه بالرسالة وباظهار المعجزات على يديه، وجعله عبرة لبني إسرائيل تذكرهم بتفرد الله بالتصرف كما شاء ، ولنه يوقظ بني إسرائيل ليقوموا بما أمروا به من التوحيد الخالص.

إنكم كما ضللتم في قولكم إن عيسى إله، فكذلك ضللتم في ادعائكم أن الملائكة بنات الله من زوجاته شريفات الجن. بنيتم ظنكم على أن الملائكة يسكنون في السماء، إن سكناهم في السماء هو تبع للتقدير الإلهي ولو شاء الله أن يسكنهم الأرض بدلكم لأسكنهم فهم عباد الله أيضا. ولا أثر لمكان حياتهم في خروجهم عن كونهم حوادث.

وإن بعثة عيسى مؤذنة بأن ما مضى من عمر الكون هو أكثر بكثير مما بقي، فانتهاء الكون وما يصحبه من البعث قريب. إياكم أن تشكوا في يوم القيامة واتبعوا ما أرسلته إليكم من الهدى. إن هذا الذي بلغتكم هو الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يهلك. موصل إلى الغاية مع السلامة. واحذروا كيد الشيطان الذي يجتهد بما أوتي من خبث ومكر، ليمنعكم من اتباع ذلكم الصراط المستقيم ، وتذكروا أنه عدو لكم واضح العداوة، معاندته في شقاء أي فرد من بني الإنسان.

لما جاء عيسى مؤيدا بالبينات، دعا قومه للحق الذي جاء به، وقال لهم قد أتيتكم بالحكمة، بالإنجيل والشرائع الهادية للعقول. وكلفت أيضا بأن أبين لكم وجه الحق في بعض ما اختلفتم فيه وتفرقتم، تبعا لظواهر واحتمالات. إن الأساس الذي يصلح شأنكم ويحولكم إلى الخير هو تقوى الله باستحضار جلاله في نفوسكم، والاستقامة في حياتكم . اتبعوني وأطيعوني حتى لا تضلوا في التعرف على الحق الذي يرضيه. واعتقدوا أن الله واحد هو ربي وربكم فأخلصوا له في العبادة، هذا الطريق الذي أدعوكم إليه هو الطريق المستقيم المنجي. فيما أحدده لكم إقبالا أو تركا. اختلف الذين تحزبوا أحزابا من بين الذين بعث إليهم عيسى عليه السلام ، فبعضهم آمن به، وبعضهم كفر به وعمل على إذايته .ثم إن الذين آمنوا به تحزبوا لما

افترقوا في الآفاق . وإنه كل حزب عيسى على طريقته ، فالهلاك والخسران للذين أشركوا بالله سيصيبهم عذاب أليم .

بيان المعنى العام

57. ولما ضرب ابن مريم...يصدون.

ترتبط هذه الآية بالآية 45 [واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا] وقلنا هناك إن المقصود به سؤال علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وتوالت الآيات العشر من46 إلى 56 تتحدث عن قصة موسى ﷺ، وإذ تم ما قصد من تفصيله في قصة موسى انتقل القرآن للحديث عن عيسى ﷺ. وكان موقف قريش، قوم النبي ﷺ لما ذكر عيسى، موقفا مغايرا لموقفهم وهم يسمعون قصة موسى. والذي يظهر لي أن القرآن في سرده لقصة موسى كان يتفق مع ما يذكره اليهود عن موسى ويصحح بعض الأخطاء التي أضافها كتبة اليهود بعد أن ضاعت التوراة ونسوا لغتها. أما بالنسبة لعيسى ﷺ فقد حرف أتباعه رسالته تحريفا جذريا، ومعظم فرق النصارى، كانوا يروجون أن المسيح ابن الله. ويقوم التثليث مميزا لهم عن بقية الديانات (الله- المسيح- روح القدس) ثلاثة في واحد. فبمجرد ما ذكر ﷺ ابن مريم (المسيح ﷺ) كمثل على أنه أكد أن لا معبود إلا الله حتى يفاجأ بضجة من المشركين [إذا قومك منه يصدون] على القراءة بكسر الصاد أي تعلو أصواتهم و يكثر صخبهم. وقرئت الآية: (يصُدون) يعلنون صدودهم عن القرآن، على أنه متناقض وهو بذلك لا يقبل عقلا.

ما الذي استفز قريشا، وما الذي جعلهم يظنون أنهم في موقف قوة برفع أصواتهم، أو بإعلانهم تناقض القرآن ؟

58.وقالوا آلهتنا...بل هم قوم خصمون.

يقولون :إن عيسى قد عبده النصارى كما عبدنا نحن الأصنام ، فإذا كان كل معبود من دون الله مرفوض عندك ومآله جهنم، فإنه ينبني على ذلك أن عيسى ليس من عباد الله الصالحين المقدمين يوم القيامة ، وإن مآله جهنم ، مع أنك تثني عليه وتذكر أنه رسول بشّر بك، فقد ظهر تناقضك وتهافت القرآن الذي تقيمه حجة على صدقك. قالوا: نسألك أيهما خير آلهتنا أم عيسى ؟ يريدون تقرير النبي ﷺ ليعترف أن عيسى وآلهتهم سواء، كل منهما عبد، فما يجري على عيسى يجري على آلهتهم. يُبطل القرآن بصفة إجمالية ما ظنوا أنهم بلغوا به إفحام النبي ﷺ به فيقول: ما ضربوا لك مثل عيسى إلا قصد الجدل بالباطل ليبطلوا به الحق، فهم لا يعترفون بمساواة عيسى لآلهتهم، إذ هم يكفرون بعيسى كما يكفرون بك. إنهم لا يرمون من

اعتراضهم وصخبهم إلا ترويج الباطل بالصخب ولي الأدلة إلى ما ينسجم مع ضلالهم، وتقديمهم في الخصام ما لا يؤمنون به ، هدفهم استغفال ضعفاء العقول الذين تروج عليهم الظواهر الباطلة ،فهم قوم دُربوا على الخصام ومهروا فيه .وإثر هذا الرد لطريقتهم في الجدال يمضي القران برد تفصيلي.

59.إن هو إلا عبد...مثلا لبني إسرائيل.

بعد أن أظهر القران أن كل هم المشركين الجدال والخصام ، وأن كلامهم مدخول، هم لا يقرون بمضمونه، انتقل لبيان الحقيقة في أمر عيسى عليه السلام . إنه لا يخرج عن كونه عبدا لله، خلقه في بطن أمه، وأجرى عليه من أعراض البشرية في النمو في بطنها، ثم بعد أن انفصل عنها يأكل كما يأكل الناس ، وتعمل أجهزته في غذائه كما تعمل أجهزة بقية البشر ، من تحويل إلى طاقة ثم إفراز الباقي. ويستيقظ وينام كبقية البشر، إلى اخر التحولات التي تجري عليه مما ينفي أن يكون إلها. إذ من التناقض أن يكون متقلبا بين أحوال تفنى كل حالة لتخلفها غيرها، وأن يكون متصفا بالبقاء الأبدي في ان واحد. أجرى عليه كل أعراض البشرية التي تدل على أنه مخلوق لله، وعبد من عباده. وللتحقيق فانه من عبادنا المميزين أنعمنا عليه بنعمة تلقي وحيا. وخصصناه أيضا بأن يكون عبرة لبني إسرائيل، يظهر فيهم، واحد منهم بمعجزة خلقه من أم بتول لم يقربها ذكر، ليعودوا إلى رشدهم ويجددوا عهدهم بالتوراة، التي أضاعوها، و التي أراد الله أن يخفف عنهم شيئا من أحكامها بواسطة عيسى عليه السلام.

60.ولو نشاء لجعلنا...يخلفون.

كما ضل من رفع مقام عيسى إلى مقام الألوهية لكونه ولد من امرأة لم يقربها ذكر، كذلك ضل فريق من الناس ومنهم مشركو مكة ، لما ظنوا أن الله لما أسكن الملائكة في الملأ الأعلى ، ظنوا انه بسبب ذلك هم بنات الله من سروات الجن . أبطل هذه العقيدة الضالة بتحقيق أن سكنى الملائكة ليس بسبب طبيعة خلقهم، ولكن إرادتنا هي التي جعلتهم في المحل الذي هم فيه، ولو تعلقت إرادتنا بإسكانهم الأرض بدلكم لفعلنا. فإرادتنا وتقديرنا، هو السبب في أن عيسى مولود من أم بدون أب، وأن الملائكة لا يسكنون الأرض.

61–64: وإنه لعلم للساعة ...هذا صراط مستقيم.

تفتح الآية بكلمة " إنه" والضمير صالح لأن يعود إلى عيسى بوجه تواصل الحديث عنه. معنى ذلك: أنه معرف بأن الساعة ليست بعيدة، وأن ما بقي من عمر

الكون قليل. ويحتمل عود الضمير إلى القرآن، ومعنى ذلك أنه أعلم الناس بوقوع الساعة. وإذ تأملت في الكتب الثلاثة :التوراة والإنجيل والقرآن، فإنك لا تجد كتابا منها أولى أمر يوم القيامة ، والبعث ما أولاه القرآن من العناية والتفصيل والتحذير . فإياكم أن تشكوا فيها أو تكذبوا بها .

واتبعوني هذا صراط مستقيم ياء المتكلم[اتبعوني] يصح أن تفهم على أنها معبرة عن الذات العلية سبحانه ، يؤكد أمره أن يتبع البشر هدايته التي أنزلها على لسان رسوله. كما يصح أن تكون معبرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر أن يقول لهم اتبعوني والتزموا ما جئتكم به عن الله .

إن القرآن، أو الإسلام، أو ما جئتكم به، هو الطريق المستقيم الذي يبلغكم السلامة، ويضمن لكم النجاة في الحاضر والمآل.

وإذ تميز طريق الإسلام أو طريق القرآن بأنه هو الطريق المستقيم المؤمن لسالكه، نبهوا إلى أن الشيطان يقف في طريقهم ذلك، ويجتهد ليحول بينكم وبين سلوكه ، بما يعرض عليكم من شبهات ، وما يدغدغ به نفوسكم من شهوات. فاحذروا غوايته، واعلموا أن عداوته لكم عداوة مكينة واضحة بينة ، لم يخفها من يوم خلق أبيكم آدم، واستمر يهلك ذريته .

بعد اعتراض قريش على ضرب عيسى مثلا ، وتشغيبهم بما توهموا أنهم انتصروا على محمد ﷺ ونقضوا دعوته، وكل ذلك من سلطان الشيطان عليهم . انتقل الكلام للمقصود الأصلي ، وهو إثبات أن عيسى جاء بتوحيد الله . لنتتبع خطاب عيسى ﷺ للمبعوث إليهم وموقفهم منه :

جاء عيسى مرسلا من ربه مؤيدا بالمعجزات البينات التي ينقاد إلى صاحبها كل من لم يصمم على العناد. فاتحهم بقوله جئت أحمل إليكم الحكمة التي تتفتح بها عقولكم فلا تؤثر فيها الشبهات، تستقيم عقولكم وتصلح أحكامكم وتسمو إنسانيتكم، هذا أولا. وثانيا لأبين بعض ما تفرقت فيه كلمتكم، وتشابه عليكم، الأمر الذي تبعه الخلاف والشقاق. ومن حكمته أنه لم يعرض عليهم من أول الأمر الفصل في كل ما اختلفوا فيه، ولكن يتدرج معهم. ثم طلب منهم طلبا مؤكدا أن يوقظوا ضمائرهم ويربطوها بما يرضي الله ، ويستحضروا جلاله وأوامره ونواهيه بصفة دائمة تدفعهم إلى الطاعة وتحول بينهم وبين المعاصي. ولما كان الهوى يميل بالأحكام إلى ما يلائم النفس، أردف الأمر بالتقوى بطاعته فيما يبين ليطمئنوا أن ما يسيرون عليه هو الهدى. واعلموا أن الله هو ربي، فأنا عبده شرفي في كوني مربوبا له، وأنكم تستوون معي في كوننا جميعا مربوبين إليه سبحانه. وفي تقديم نفسه بقوله:

ربي قطع الطريق عن الغلو الذي وصل بهم إلى اتخاذه إلهاً. ولما كان الله ربنا فإن الربوبية تقتضي إفراده بالعبادة، فأقبلوا على عبادة ربكم، وسيروا على هذا المنهج في مستقبل أعماركم، فهو صراط يبلغ صاحبه ساحل الأمان .

65- فاختلف الأحزاب ... من عذاب يوم أليم

تكشف الآية عن موقف المبعوث إليهم: الدهماء. انقسموا إلى حزبين رئيسيين: قسم آمن بعيسى وقسم كذبه وأغرى به السلطة لتقسو عليه. ثم إن الذين آمنوا به تفرقوا أحزابا، همّ كل حزب أن يغلب الأحزاب الأخرى ، يسود الخلاف علاقاتهم ، وتعمل العواطف في تهييجهم ، وتنبعث التصورات الخيالية يقويها حب كل حزب للانفراد بدغدغة العواطف لما تفرقوا في أنحاء العالم. اختلف أعقابهم في تصور حقيقة المسيح : أهو الله ، أم هو ابن لله ، أم هو ثالث ثلاثة واحد في ثلاثة، عبروا عنها بالأقانيم الأب والابن وروح القدس . ولما انتهى اختلافهم إلى الشرك، توعدهم الله بأن الذين ظلموا بالشرك، ويل لهم هلاك وخيبة وعذاب يحسون بألمه أشد الإحساس.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

بيان معاني الألفاظ

ينظرون : ينتظرون.

بغتة: فجاة، دون ترقب.

لا يشعرون : غافلون مشتغلون بأمور دنياهم.

الأخلاء : جمع خليل وهو الصاحب الملازم.

عدو : مبغض.

تحبرون : تسرون سرورا يظهر على وجوهكم.

صحاف : إناء يقدم فيه الطعام أو الفاكهة.

الأكواب : جمع كوب، إناء للشراب مستطيل الشكل قصير العنق فمه في أعلاه.
تلذ :لذ أحس باللذة.
لذة الأعين : انشراح النفس بما تراه .
بيان المعنى الاجمالي :
ما ينتظر المشركون بالله ؟ يترقبون أن تقوم الساعة فتأخذهم على حين غفلة منهم وهم لاهون عنها. الأصدقاء المتلازمون الذين كانوا في الدنيا بعيدين عن الاستقامة تنقلب صداقتهم عداوة يوم القيامة. وأما المؤمنون الذين كانت تعمر التقوى قلوبهم، فإن ودهم سيزداد وثوقا في ذلكم اليوم.
ينادي الرب سبحانه الناجين بقوله : يا عبادي ' تقريبا لهم وتكريما فيعلمهم أنه لا يحل الخوف قلوبهم بعد اليوم هم آمنون . كما أن كل ما مضى لا يلتفتون إليه كشيء عزيز ذهب، خلت قلوبهم من الحزن. إن عباده هم الذين كمل إيمانهم واستقاموا على الطريقة التي شرعها.
يأذن لهم إذن التكرمة : ادخلوا الجنة مع أزواجكم الذين كنتم تأنسون بهم مستلقون فيها جميع أنواع النعيم . ستجدون من سخرناه لكم ليناولكم في صحاف من ذهب ما تشتهون من المآكل، وفي أكواب من ذهب أيضا ما ترغبون فيه من أنواع الشراب. وبصفة عامة تجاب جميع رغباتكم النفسية ويقدم لكم ما تقر به عيونكم، وفوق ذلك أنتم في الجنة خالدون. تلك الجنة التي أنتم فيها، حصلت لكم بلا منة جزاء بما قدمتم من صالح الأعمال. تأكلون بعضا من فاكهتها، فكلما قطفتم منها شيئا عوض مكانه في الحين.
بيان المعنى العام :
66.هل ينظرون..وهم لا يشعرون.
ما الذي يترقب المشركون حصوله بعد أن أشركوا بالله، وجعلوا المسيح إلها ؟ إنهم لا ينتظرون إلا شيئا واحدا، أن تحل الساعة ويأتي يوم القيامة. هذه الساعة التي تأتيهم بصفة مباغتة، دون أن يتأهبوا لها، تأتيهم وهم لاهون بشؤون الدنيا فتأخذهم إلى مصيرهم المذكور ' عذاب يوم أليم ' وينسحب هذا على مشركي مكة ، فتكون الآية صالحة لتكون جسرا يربط قصة عيسى والأحزاب الذين تحزبوا ممن يزعمون أنهم على شريعته ، وبين وعيد المشركين المفصل في الآيات التالية ، ووعد المؤمنين بضروب التكرمة والنعيم .
67.الأخلاء يومئذ بعضهم..إلا المتقين.
التعارف بين البشر من سنن الخليقة، ويصل هذا التعارف إلى مرتبة من الود يكون فيها الطرفان متلازمين، وكل طرف يعتبر خليلا للطرف الآخر. يفضي إليه بسره،

ويمده بالعون لتيسير أمور حياته. الأخلاء المتلازمون المتحابون ستكون علاقتهم يوم القيامة على النحو التالي .

الأخلاء الذين كانت تقوم حياتهم على الإقبال على الحياة الدنيا ومتاعها، ينقلب ودهم بغضا وعداوة ، يوضحه لما لم يكن لارتباطهم بالله أي مراعاة في العلاقة بينهما ، يتمحض ودهم فيما يتلاءم مع مطالبهم التي لا حظ فيها لتذكر الخالق ، وينكشف لهم يومها كيف أن كل خليل كان لخليله مساعدا على البعد عن رضوان الله ، ويتبين له جزاؤه السيء ، ويجد أن خليله أعانه على المعصية . فتنقلب المحبة والود عداوة وبغضا.

وأما المتقون الذين كانت صلتهم بالله حاضرة نقية مشعة، يتعاونون فيما بينهم على البر وما يرضى الله، فكل خليل يجد أن خليله أعانه على الخير فيأنس كل خليل بخليله إذ أعانه على الاستقامة والصلاح.

68 - 70 : يا عبادي لا خوف ...وأزواجكم تحبرون.

بعد أن ذكر أن المتقين مخالفون في العلاقة بينهم لعلاقة الأخلاء المشركين ، تابع القرآن التنويه بهم وتقريبهم؛ استحضرهم فناداهم بنسبته إليه ، وهو غاية الشرف التي يطمح إليها الإنسان بين يدي الله ، أن يرضى عنه وينسبه لنفسه" يا عبادي". يسكب في نفوسهم شحنة من الطمأنينة والرضا . لا خوف عليكم، تحقق أمنكم في هذا اليوم، فكل ما ستلقونه حسن جدا. ولا أنتم تحزنون على شيء فات، فأعمالكم في الدنيا محل الرضا لصلاحها، أو لفضلي عليكم بالتوبة والمغفرة. من هم عباد الله الذين حل عليهم الأمن وذهب عنهم الحزن؟ هم الذين تحقق منهم الإيمان والتصديق الكامل بآياتنا التي أنزلناها في القرآن الحكيم، وخالطت مشاعرهم فأسلموا وجوههم لله، وطبقوا مقتضيات الإيمان فأحبوا الطاعة وأبغضوا المعصية. يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ، تحقيقا لما ذكر في الآية السابقة أن الأخلاء المتقين من كمال سعادتهم استمرار الود بينهم ،ويضاف إلى الإذن المبشر بالفوز أن أنوار النعيم والسرور تظهر على وجوههم .

70 – 73: يطاف عليهم بصحاف من ذهب ...كثيرة منها تأكلون.

بعد أن أذن الله لهم في دخول الجنة مع أزواجهم إتماما للنعمة بالأنس وكمال السرور، أخذ القرآن يفصل ما يلقونه في الجنة.

سخر الله لهم من يخدمهم، فيقدمون لهم أنواع المآكل والفواكه في صحاف من ذهب، وضروب المشارب في أكواب من ذهب أيضا. ولا تسل عن حسن الظروف وجمالها، فإن الذهب يُطوع لمختلف أنواع الزخرفة وتكون فيه أتم من غيره .

وتتحدث نفوس المنعمين بأطايب ما عرفته في الدنيا وما يتولد فيها من مخالطة الفضل العظيم في الجنة. قد تشتهي نفوسهم سماع الأصوات الجميلة، والأنس بالأحباب والأهل والخلان، ولوزان الألحان المنعشة، وفهم ما استعصى عليهم فهمه في الدنيا، ونحو ذلك فيوفر الكريم بفضله ما يشتهون، وكما يتمكنون مما تشتهيه أنفسهم من الأمور المعنوية ، فكذلك يعرض عليهم ما تلذه الأعين مما تنشرح له النفس، كالصور الجميلة ، والحلل الأنيقة المرتبة الأشكال والألوان، وكذلك ما تستلذه من الطعام والشراب .

ويختلف نعيم الجنة عن نعيم الدنيا في أمر جوهري، هو أن نعيم الجنة يكدره الشعور بذهابه وفنائه وعدم دوامه. يطمئنهم ربهم فيخاطبهم مشيرا إلى الجنة التي هم فيها، ولكن للمستوى الرفيع العالي التي هي عليه ، أشار إليها إشارة البعيد " تلك الجنة " كانت لكم حقا بلا منة عليكم ، كما يأخذ الوارث مال مورثه، ثم استحقاقكم لها بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال، واجتهدتم في قمع الشهوات وترجيح رضوان الله. يؤكد المتفضل سبحانه دوام ما هم فيه، فيذكرهم أن ثمار الجنة كثيرة يأكلون بعضها ، إذ تبدو للناظرين كلما قطف منها شيء يتجدد ما يخلفه.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ

المجرمون: المشركون.

لا يفتر: لا ينقص ولا يخفف.

مبلسون : آيسون .

مالك : اسم الملك الموكل بجهنم.

ليقض : ليميتنا.

أم أبرموا أمرا: أم أحكموا تدبير كيد.

الأمر : العمل العظيم الخطير

بيان المعنى الإجمالي :

في مقابل نعيم أهل الجنة يصور القرآن عذاب المشركين، أنهم مستقرون في عذاب جهنم استقرارا أبديا. لا يخفف عنهم العذاب، وهم يائسون من تحولهم عما هم فيه. إننا ما ظلمناهم بما سلطناه عليهم من النكال، لأنه جزاء وفاق لظلمهم بالشرك وإذاية الرسول ﷺ ، وأصحابه. واستحضرت صورة ندائهم وهم في العذاب، لمالك الملك الموكل بالنار . رجوه أن يشفع لهم عند ربه كي يعجل لهم بالموت. فأجابهم إنكم ماكثون مقيمون في جهنم لا تخرجون منها ولا تموتون. ثم قرعهم الله بقوله لقد وصلنا لكم الحق على لسان رسولنا ، ولكن أكثركم كان يرفض الحق ويكرهه.
أئنهم دبروا وأحكموا مراحل الخطة للمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إننا أعددنا ما يذهب بمكرهم ويحبط خططهم .أبلغت بهم الغفلة أن ظنوا أننا لا نسمع ما يدبرونه في أنفسهم من خطط، وأننا لا نسمع ما يتحدثون به فيما بينهم بصوت منخفض لا يبلغ من وراءهم ؟ ظنهم كاذب وهم جاهلون للحقيقة التي بنينا عليها مراقبة البشر. إن رسلنا الملائكة الحفظة حاضرون عندهم يسجلون كل كبيرة وصغيرة تصدر عنهم، وسيواجهون بها يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

74 ـ 75. إن المجرمين في عذاب..وهم فيه مبلسون.

مقابلة نعيم أهل الجنة بعذاب المشركين، مقابلة تزيد التصوير وضوحا. وعبر عنهم بالمجرمين الدال على إشراكهم من ناحية، وعلى ما دفعهم إليه الشرك من الإجرام، ومنكرات الأفعال. إن المشركين الذين قبحت فعالهم مستقرون في عذاب جهنم لا يبرحونها خالدون خلودا أبديا. لا يخفف عنهم العذاب فلا يرون لحظة أسعد من لحظة، وهم يائسون من الفرج، وتحولهم عن وضعهم.

76. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين.

الصورة مرعبة، فلا تظنوا أن في ذلك قسوة عليهم، وتجاوزا لحدود العدل. إننا لم نظلمهم بتسليط العذاب المستمر في جهنم وعلى قدر واحد، وخلق اليأس في نفوسهم من الفرج، لأنهم هم الذين ظلموا الظلم الذي يستحقون به ذلك العذاب. كفروا بالله رغم ما أنعم عليهم ، كذبوا رسوله وآذوه مع أنه قدم لهم الهداية وأوضحها وحرص على هداهم ، إن الله أمهلهم ليتوبوا فزادوا طغيانا وكفرا. عرفهم بمآلهم إذا هم لم يرتدعوا فسخروا منه. لقد تقدم منهم الظلم.

77.ونادوا يا مالك...إنكم ماكثون.

نادوا الملك الموكل بجهنم ومن فيها، واسمه "مالك" طلبوا منه أن يرفع عنهم رجاء لربه، وفي التعبير بربك، مما يفيد أن تكريم الله لمالك، على أنه وسيلة قد يقرب الاستجابة. طلبوا منه أن يسأل الله أن يميتهم فينقطع إحساسهم بالعذاب الذي لا يطاق. لم يرفع مالك شفاعته لسابق علمه أنهم خالدون خلودا أبديا . لا يرون في جهنم حياة رحية ولا يرون موتا يريحهم مما هم فيه. فواجههم بما يؤكد يأسهم : إنكم ماكثون في العذاب ،لا موت ، ولا خروج من جهنم .

78.لقد جئناكم...للحق كارهون

بكل تأكيد قد جئناكم، نحن الملائكة، بالنظر إلى أنهم أسرة واحدة، وإن كان الذي جاء بالحق هو جبريل. وحمل الآية على أن ضمير العظمة في "جئناكم " لله سبحانه فهو الذي أرسل الحق وبلغه إليهم بواسطة الملك وبواسطة محمد ﷺ. والحق الذي بلغه إليهم لا يلتبس بالباطل ولا يغمض على المتلقي له. ولكنهم رفضوه لأن أكثرهم يكرهون الحق. إنه يبطل آلهتهم ويفرض التوحيد ، وهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، و يحذرهم يوم القيامة والحساب وهم يكرهون ذلك ، ويقمع اتباعهم للشهوات ، وهم يكرهون الاستقامة . ودقق القرآن بقوله " ولكن أكثرهم" لأن بعضهم لا يكره الحق مقتا له، ولكنه يخشى على مكانته الاجتماعية أن تنهار ، وأن لا تبقى له قوة التأثير في الأتباع والدهماء.

79.أم أبرموا أمرا...مبرمون

ينتقل في نفس السياق لمعنى جديد فيحرك السامع من أول الأمر لينتبه بكلمة "أم" فيسجل أولا بواسطة استفهام تقريري مشوب بالتهديد هل إن المشركين أعدوا خطة كيد، وأحكموا مراحلها ؟ فليعلموا أنا مطلعون على خططهم ومكرهم، وقد أعددنا ما ينقض خطتهم ويفشل مكرهم. قد تشير الآية إلى ما دبره المشركون في دار الندوة من قتل النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة شبان أقوياء من جميع بطون المشركين فيضربونه ضربة واحدة، فلا يستطيع أهله بنو هاشم أن يطالبوا بالقصاص، ويكتفوا بالدية، وهو أمر هين .

80. أم يحسبون...لديهم يكتبون

أيظنون أنهم يستطيعون أن يكتموا ما دبروه من كيد فلا نعلم به، فهم لغبائهم يظنون أن الله غير مطلع على ما يجري في سرهم، وهم يدبرون المكائد في بواطنهم، وغير مطلع على ما يتحدثون به بين بعضهم حديثا خفيا، وهو حديث النجوى. بلى

نفي لظنهم إنا نسمع ونطلع على ما يجري في بواطنهم من مكر، وما يتحدثون به في خفاء وحذر من أن يطلع عليه، إن رسلنا من الملائكة الحفظة الموكلين بتقصي ما يصدر عنهم، حاضرون يسجلون كل خاطرة من خواطرهم، وكل كلمة من حديثهم .

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الالفاظ

سبحان: تنزه أكمل التنزه.

يخوضو : يتحدثون حديثا لا يقف عند حد.

ذرهم : اتركهم ولا تهتم بهم.

فانى : إلى أي مكان.

يؤفكون : يصرفون.

قيله : مقول محمد.

صفح :أعرض وترك.

بيان المعنى الاجمالي :

قل للمشركين قولا يقطع لجاجهم : إني أقدس الله ربي ، وأعظمه ، وأقوم بكل ما يرضيه ، إنه لو كان لله ولد كما تقولون وتدعون أن عيسى ابنه ، لكنت أول العابدين لهذا الولد ،لأن ابن الإله لا يكون إلا إلها. ولكن دعوى البنوة كلام يخالف الواقع ، ويناقض مقتضيات العقل، ودعوى باطلة من أساسها لا تستند إلى منطق ولا إلى نقل تنزه سبحانه عما يلصقه به الجاهلون من أوصاف ، فهو الرب الكامل

خالق السموات ومسيرها ، خالق الأرض وما عليها، وهو رب العرش العظيم الذي هو أعظم من خلق السماوات والأرض الظاهرة لنا. فكيف ينسب لله العظيم ابن ؟ اتركهم يا محمد وشأنهم ، يتحدثون ويتواصل انشغالهم بباطل القول، ويلهون عن الجد ، يتواصل منهم ذلك إلى أن يلقوا اليوم الذي أوعدهم به القرآن، يوم القيامة .
إنه هو الله المتفرد بالألوهية في عوالم السماء لا يشاركه في ذلك أحد. وهو المتفرد بتدبير الأرض ومن يعيش على ظهرها. وهو الحكيم البالغ الحكمة العليم الذي لا تخفى عليه خافية. خلق وسير كل شيء حسب قوانين مضبوطة ، وعلم كامل بالمالات التي تصير إليه .
كثرت خيرات ربنا، الذي تفرد بملك السماوات والأرض وما بينهما، لا يغيب عنه من أمرها شيء، ويعلم الأجل الذي ينتهي فيه وجود هذا الكون، هي ساعة فنائه، وبعد فنائه ستعود الخلائق إليه ليحكم فيهم حكمه العادل.
من التصورات الباطلة عند المشركين، ظنهم أن الأصنام تشفع لهم. وهو ظن كاذب إنه لا يملك الشفاعة إلا من أقر وامن بالحق النازل عليك. وهو يعلم من هو أهل للشفاعة فيه.
إنك إن سألتهم وضيقت عليه بدفع شبهاتهم فسيصلون إلى الاعتراف بأن الله هو الذي خلقهم. فإلى أي نا حية يصرفون، إنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه.
وقال الرسول قوله(قيله) لما قاسى من عنادهم وتكذيبهم وتعاونهم على الشرك ، هذا القول رفع به شكواه منهم إليه : يارب إن هؤلاء المشركين في مكة قوم متصلبون في الكفر لا يؤمنون مهما أقمت عليهم من الحجج.
يا محمد اتركهم في عمايتهم ، وواصل إبلاغ ما كلفت به فسوف يعلمون المصير الذي سيؤولون إليه .

بيان المعنى العام :

81—83: قل إن كان للرحمن ...يوعدون.

الذي ترجح عندي بعد التأمل أن هذه الاية متصلة بقوله تعالى : {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون} اية 57 هذه الأية التي واصل القران ما يتعلق بها، ببيان حقيقة عيسى عليه السلام وما جاء به، واختلاف الأحزاب ، وجزاء المختلفين المشركين. مواصلا تفصيل جزاء المشركين، ونعيم الأبرار. ثم عاد التوجيه القراني إلى نفي ما ادعوه من كون عيسى ابنا لله وهي صورة من الصور النافية للتوحيد الذي هو المنطلق في قوله تعالى : {واسئل من ارسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون} . وهذه الحجة طريفة في النفي

ونقض قول للخصم، مع إظهار أن المتكلم لا يتعصب لرأيه ولكن ينقاد للحق، مما يحتم على الطرف المقابل أن يتحلى بهذا الأدب في البحث عن الحقيقة.

قل يا محمد :إنكم تدعون أن عيسى ابن لله، اعلموا أنه إذا كان لكم أي دليل على إثبات بنوة عيسى لله فقدموه، وإن أثبتم ذلك فأنا أول من يعبد هذا الابن، لأنه باعتبار كونه ابنا يجب أن يكون إلها، وحق الإله أن يعبد. ولكن ما قدمتم لتصوركم هذا سندا لا من العقل ولا من النقل، فكلامكم هذا متهاو لا أساس له، وبينت لكم أنه مناقض للعقل. وقريب من هذا قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج لما قال له الحجاج : أما والله لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى . أجابه: لو كنت أعلم أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك.

ثم أمر ﷺ أن يتبع نفيه لكون عيسى ولدا بطريقة جديدة، بالتصريح بتنزيه الله عن النقص بكل أشكاله بكلمة "سبحان" التي هي علم على التنزيه. واتخاذ للولد يدفع إليه الفناء اللاحق بالأصل، فهو يريد أن يستمر في الوجود بواسطة نسله، والله باق. تعالى أن يلحقه فناء. وهو رب السماوات والأرض، هذه الكواكب العظيمة التي خلقها ونظمها وسيرها فأحسن تسييرها، وهو رب العرش الذي هو أعظم من السماوات والأرض، و يتجاوز التصور البشري .فتنزه من خلق وملك هذا الكون العظيم ،أن يكون في حاجة إلى ولد، وتنزه عن كل ما يصفه به المشركون.

اتركهم ولا تهتم بهم، وهم يتحدثون ويكثر لغطهم في الباطل، ويلعبون بعيدين عن حياة الجد، ليستمروا على ذلك إلى أن يلقوا مصيرهم في اليوم الموعود، يوم القيامة، اليوم الذي تتكشف فيه الحقائق ويندمون، دون أن ينفعهم الندم.

84 -85: وهو الذي في السماء ...وإليه ترجعون.

هو وحده المتفرد بالألوهية في السماء ، يدير عوالمها ، ويبقي عليها ما شاء لها البقاء، لا يشاركه في ذلك ملك ولا أحد، وهو المتوحد في تدبير عالم الأرض. وهو سبحانه الحكيم الذي يجري شؤون الكون وتحولاته وعلاقاته حسب الوجه الذي لا يغفل صغيرة ولا كبيرة ، ويعطي لكل شيء قانونه الدقيق. وإنه سبحانه الواسع العلم الذي وسع علمه الماضي والحاضر والمستقبل ، فلا يغيب عن علمه أي جزئية، أو تطور، أو تأثر أو تأثير .

كثرت خيرات ربنا كثرة تتجاوز الحصر، فتأمل أيها الإنسان في صفات ربك العظيم الذي له وحده ملك السماوات والأرض ، وما بينهما ، إن عمرك أقصر من أن تستطيع تعداد ما يدخل في ملكه، ولو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد قبل أن تنفد كلمات ربي. ثم إنه كما خلقها، وأعطاها سنن تطورها واستمرارها، فإنه

يعلم بدقة متى سينتهي وجودها، ويلحقها الفناء كأن لم تكن. كما اختص سبحانه بأنه بعد افنائكم ستعودون إليه ليحاسبكم عما قدمتم ويجزيكم بعدله ، وفضله . فهو المالك للكون في الدنيا، وهو كذلك المتفرد بالملك في عوالم الآخرة.

86ولا يملك الذين ...وهم يعلمون.

ابطال آخر لعقيدة المشركين الذين يدعون أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، لها مكانة عنده فهي تشفع لهم، ويلقون بفضل شفاعتهم حسن الجزاء، فنفى أن يكونوا يملكون الشفاعة التي هي مرتبة لا تليق بهم .لكن الذين شهدوا بالحق، شهدوا أن الله واحد لا شريك له، وأن كل من خرج عن هذه العقيدة خاسر خسرانا أبديا: (إن الله لا يغفر أن يشرك به)[1]. فهؤلاء الذين شهدوا بالحق، وعرفوه والتزموا بما يترتب عليه ، وخلصت عقيدتهم من كل شائبة شرك، وهم يعلمون أن من أشرك بالله لا أمل له في النجاة ، فهؤلاء يتقدمون إلى ربهم بالشفاعة فيكرمون بقبول شفاعتهم.

87ولئن سألتهم ...فأنى يؤفكون.

إنك إذا سألتهم يا محمد سؤالا واضحا لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، من خلقكم ؟ فإن جوابهم سيكون اعترافا بأن الله هو الذي خلقهم. فإلى أي وجهة يريدون أن ينصرفوا. إلى أي ملجأ يريدون أن يذهبوا بأنفسهم بعد أن تبين أن الله خالقهم. وكما سبق لي فإن إقرارهم هذا لا يكون إلا بعد أن يلجئهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة حججه ، وذكائه، والتضييق عليهم بإبطال شبهاتهم .

88وقيله ياربــلا يؤمنون.

افتتحت الآية بـ(قيله) وهو مصدر قال بمعنى اسم المفعول .اي مقوله ﷺ. فالآية تسجل ما يقوله ﷺ، وقد أضجره عنادهم وتلددهم .اذ كلما الجأهم بواضح الحجة وبكتهم نقضوا واستهزأوا .أصنامهم لا حياة فيها ولا تسمع ولا تبصر . احتجوا ببنوة عيسى فحطم ذلك حتى وصل به الأمر إلى افتراض أنه يعبده ليكر على حجتهم بالإبطال. وضيق عليهم ليعترفوا أن الله خالقهم. ومع كل هذه الجهود هم متصلبون في شركهم. فشكا لربه شكوى الملتجي المتحسر المفوض أمره إليه. إن هؤلاء المشركين قوم تساندوا فيما بينهم على عدم الإيمان، والاسترسال في الكفر .

---

[1] سورة النساء آية 176

89) فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون

رتب القرآن على تفويض الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه ليسعده بالتوفيق إلى الحل الذي يرضى به عنه، فهداه إلى أن يواصل مهمته دون أن يتأثر بإعراضهم . فيصفح عنهم ، صفح الإعراض والمتاركة، وقل لهم أمري سلام .إنه إذا كنتم مصممين على منهجكم من اللجاج والخصام وقلب الحقائق ، فأنا لا أسايركم في طريقتكم، وسوف تعلمون ما يحل بكم .ولم يبين ما يحل بهم لتذهب النفس في تصوره ما تشاء من الهول .

كمل تفسير سورة الزخرف بحمد الله وحسن عونه عشية يوم الأحد 29 ذي الحجة1434-2013/11/03.

سورة الدّخان

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير ، ووجه تسميتها أن كلمة(الدخان) ذكرت فيها ، على أنه آية من آيات الله، أيدت النبي ﷺ، على ما سيأتي في تفسيرها في قوله تعالى : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين الآية 10-نزلت على رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة ، رتبتها حسب ترتيب المصحف الرابعة والأربعون، وحسب ترتيب النزول الثالثة والستون. نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية ، وهي السورة الخامسة من الحواميم

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بين معاني الألفاظ :

المنذر : من يخبر بأمر ضار ليتقيه المخاطب.

مباركة : الكثيرة الخير لما يمكن الله فيها عباده مما ينفعهم دنيا وأخرى.

يفرق : يفصل بالقضاء.

الأمر الحكيم :الأمر الذي أحكمه الله وأتقنه.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة الخامسة من الحواميم على النحو الذي افتتحت به السورة السابقة "الزخرف " وأقسم بالكتاب المبين ، لتثبيت أن الله تولى بعنايته إنزال القرآن من اللوح المحفوظ ، إلى الموقع الذي يستطيع فيه جبريل أن ينقل إلى رسول الله ﷺ ما يؤذن له فيه بإبلاغه، فاختار لذلك أفضل وقت في ليلة مباركة هي ليلة القدر .

أنزل كتابه لأنه سبحانه هو الموصوف بالمنذر، يوقظهم حتى لا يقعوا فيما يرديهم في دنياهم وعاقبة أمرهم. في هذه الليلة يفصل بقضائنا كل أمر ضبطناه بحكمتنا وقدرناه تقديرا، ما كان من الأمور العامة أو من الوحي للرسول ﷺ. أو لما يهدي إليه البشر موفرا له الألطاف ليقوموا بما يسعدهم. إنا كنا مرسلين للناس ما يرحمهم ويخرجهم من حيرة الشك، وضلال الطريق. فربك يا محمد هو السميع لكل حركة تحدث في الكون مهما لطفت، وما يصحبها من قصد نعلمه ولا يخفى علينا. هو سبحانه الذي يولي عنايته بالسماوات والأرض وما بينهما. وبتلك العناية الموصولة يتمكن كل مكون من مكوناتها من أداء وظيفته حسبما قدره، وأحكمه. إن كانت مداركم سليمة فلا مناص من اليقين بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما.

وهو ربكم ورب آبائكم من قبلكم، هو الذي ضخ الحياة التي أوجدتكم، وأوجدتهم، وهو الذي يميت من بلغ أجله المقدر عنده. فهل للأصنام من دخل في الحياة أو الموت؟

بيان المعنى العام :

1 -2 حم والكتاب المبين.

هذه هي السورة الخامسة من الحواميم .افتتحت فاتحة مساوية لسورة الزخرف. فيقال في تفسيرها ما أثبتناه هناك.

إنا أنزلناه... إنا كنا منذرين

هذا هو المقسم عليه . أن القرآن منزل من عند الله كلماته وحروفه وتركيبها، وأن إنزاله كان في ليلة شرفت بذلك الحدث الفريد في تاريخ الكون اختاره خالق الكون العليم بالأسرار ، فقدر فيها من البركات والخيرات الشيء الكثير . ومعنى إنزاله فيها: أن القرآن كلام الله المثبت في اللوح المحفوظ ، فلما كانت الليلة المنوه بها نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء التي يمكن فيها لجبريل ملك الوحي أن ينقل إلى النبي ، ما يؤذن له بنقله. ويمكن أن يراد بذلك أن أول آية من القرآن حملها جبريل إلى النبي ﷺ كانت في هذه الليلة من رمضان، فاعتبر ابتداء إنزاله إنزالا له.

وقد اختلف في تعيين هذه الليلة. فمن قائل هي ليلة القدر، أو هي ليلة النصف من شعبان، يقول الإمام ابن العربي : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال إنها ليلة النصف من شعبان، وهو باطل ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) فنص أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عبر عن زمانية الليل هاهنا بقوله: (في ليلة مباركة) فمن زعم أنه في غيره ، فقد

أعظم الفرية على الله ، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه ، لا في فضلها، ولافي نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليه. أحكام القران ج4 ص1678-
التحقيق هو ما ذهب إليه ابن العربي، والمعتمد أيضا أن الله بارك في نظيرتها كل عام، وأن العباد يتعرضون فيها لفضل كبير ، وثواب مضاعف. ويكفيك في فضلها أنها الليلة التي أذن فيها رب العزة أن يسعد الناس قاطبه بتمكينهم من هدايته التي ضمن حفظها؛ فكانت مرجعا لهم على مر الأحقاب. روى الإمام مالك في موطئه بسنده إلى عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال: (تحروا ليلة القدر في السبع الأواخر –ح 892) إنا أنزلناه القرآن لأن من صفاتنا العلية: أن من صفاتنا إنذار البشر، وتنبيههم إلى الأخطار التي يتعرضون إليها في اخرتهم، وفي حياتهم الاجتماعية في دنياهم، ليأخذوا حذرهم منها. واكتفى بالإنذار عن ذكر البشارة لأن وضع البشرية في وقت نزول الآية كان متطلبا للإنذار أكثر.

4.فيها يفرق كل أمر حكيم.

في هذه الليلة المباركة العظيمة الخيرات، يفصل ويقضى كل أمر حكيم. أي إن الله جعل ظهور تقديره لينفذه الموكلون به من الملائكة في تلك الليلة. وتحتمل كلمة كل أن يراد بها الشمول التام لجميع الأمور، كما يمكن أن يفهم منها الكثرة فقط. كما تقول عن مساحات العرض الكبيرة: فيها كل ما تطلب. والأمر الحكيم ، هو الأمر الصادر من الحكيم الذي اتقنه وراعى فيه كل الخصائص والنظم الدالة على حكمته سبحانه. ومنها الأمور العامة في تسيير الكون التي توكل إلى الملائكة، ومنها ما كان ينفذ إلى رسول الله ﷺ، ومنها ما يوفق إليه البشر. وتدقيق ذلك من علم الله.

5.أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين.

زاد الأمر الحكيم فخامة بقوله: (أمرا من عندنا) صادرا عن عنايتنا، مشرفا بذلك. (إنا كنا مرسلين). تثبت هذه الجملة أن الله أراد ونفذ إرسال المرسلين. فما عنده في اللوح المحفوظ مما أراد أن يبلغه لهداية الناس أوكل به المرسلين ليقوموا بهذه المهمة الأمر الذي يفرض على البشر أن يستجيبوا لما جاءهم.

6.رحمة من ربك إنه هو السميع العليم

أرسلنا الرسل، من أجل رحمة عبادنا، حتى لا يقعوا في الحيرة ولا في الضلال. ليتولوا بعدما إنذارهم حتى يتجنبوا ما يفضي بهم إلى الخسران في دنياهم وآخرتهم. وليجدوا من البشارة ما يخفف عليهم الاستجابة ويحرضهم على الطاعة وفعل الخير. هذه الرحمة تفضل بها ربك يا محمد ؛ وهو ربك وربهم في الحقيقة، ولكن

أضيف كلمة الرب إليه صلى الله عليه وسلم رفعا لمقامه . وتقريبا له، ولإظهار أن الرحمة تمت بواسطته، فهو الرحمة المهداة.(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين إنه هو السميع العليم).(الحياة حركة) و كل ما يجري من الحوادث في الكون ويظهر، هو نتيجة حركة، قد تبلغ من الخفاء ما يجعل قدرات الإنسان لا تستطيع تسجيلها. إن حركة النمل تحدث صوتا، وكذلك حركة الخلية، وحتى ما يجري داخلها، ولكننا عاجزون عن سماع صوت الحركة إذا لم تبلغ مستوى معينا. فإعلان الآية وصف الله بـ"السميع" يعرفنا بأن كل الحركات التي هي ملازمة للحياة يسمعها رب العزة. وهو" العليم" بما يصحب تلك الحركات بالنسبة المكلفين من قصود طيبة أو خبيثة (العليم) فكانت هذه الخاتمة مؤكدة لما تتابع من أول السورة؛ محقق للربوبية والإرسال .

7.رب السماوات...كنتم موقنين

تضمن وصفه بالسميع العليم صلة الكون كله به، فصرحت هذه الآية بذلك. إنه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي تولاها بعنايته. فهذه الآية تثبت أمرا زائدا على الخلق، يدل عليه التعبير بقوله: "رب السماوات..." فبعد الخلق تتابعت عناية الله بها قال تعالى:(ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)[1] وقال تعالى:(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا)[2] فكونه تعالى مراعيا للسماوات والأرض وما بينهما أمر مشاهد لا يحتاج إلى دليل .وختم الآية بقوله "إن كنتم موقنين"، للدلالة على أنهم إن لم يوقنوا بتدبير الله لأمر السماوات والأرض وما بينهما، مع أنه مشاهد لهم في كل لحظة، فهم قد حجبوا مداركهم عن بلوغ اليقين على أنه مدبر السماوات والأرض وما بينهما، فهم كالنعامة إذا طاردها الصيادون فضيقوا عليها، تدس رأسها في التراب فلا ترى شيئا ، فتظن أنهم قد انصرفوا عنها.

8. لا إله إلا هو...آبائكم الأولين

تفرد بالألوهية الفاعلة ، ومن أعظم مظاهر تصرفه سبحانه ، أنه هو وحده الذي يعطي الحياة وهو الذي يسلبها فيميت. وإنها لظاهرة تعصف بكل الشبهات لوضوحها وتكررها. فلا الجسم المشتمل على جميع الأجهزة يستطيع أحد أن يضخ فيه الحياة ، ويقف الأهل والخلان والأتباع مستسلمين ، كما أن الحي لا يستطيع أحد أن يسلب عنه الحياة، تجده مريضا في حال غيبوبة كاملة، وقد أيقن الأطباء

---

[1] سورة الحج اية 65

[2] سورة فاطر اية 41

بقرب وفاته ولكن حياته بيد خالقها باقية ما أراد وقدر. فجمعت هذه الآية تصرف الله في ذوات البشر إلى تصرفه في السماوات والأرض وما بينهما. إنه سبحانه ربكم ورب آبائكم لحيي الجميع وأمات الجميع أو سيميتهم، ولا يفلت عن قدرته شيء. فهل لآبائهم الأولين الذين استخلموا أن يخرجوا عن طريقتهم، أن يحدثوا موتا أو حياة؟!

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

ارتقب : انتظر ما سيأتي قريبا

يغشى الناس: يحيط بهم.

أنى لهم الذكرى : ما أبعد الذكرى عنهم.

المعلم : الذي يعلمه غيره .

نبطش : نسلط عليهم العذاب القوي الذي لا مرد له.

بيان المعنى الإجمالي :

أضرب عن الاستدلال ،وتحول الكلام للكشف عن حقيقتهم . إنهم مغرقون في الشك لاهون يلعبون منصرفون عن النظر ، بعيدون عن الجد . انتظر يا محمد ما سيحل بهم ، اليوم الذي تجلب السماء عليهم دخانا بينا ، يغشى أبدانهم ومساكنهم وكل نواحي أرضهم . فيضجوا من شدته قائلين : هذا عذاب أليم لا يطاق . ثم يلتجئون إلى ربهم قائلين (ربنا ارفع عنا العذاب) . إنا مؤمنون بك وبرسولك . ما أبعدهم عن مستوى التذكر النافع ! فقد بعثنا إليهم رسولنا أبان لهم الحق ورفع الشبهات .ثم إنهم لم يتأملوا فيما أتاهم به وأعرضوا عنه ، وقالوا هو يكرر علينا ما تلقاه من غلام يعلم كتب الأولين ، وقالوا مرة إنه مجنون يخلط بدعوته للتوحيد ، وأنه مرسل من عند الله . إنا مذرفع العذاب عنهم مدة قليلة ليظهر عدم وفائهم بالتزاماتهم، ويعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك والتكذيب. ونبطش بهم فننتقم منهم النقمة الكبرى يوم بدر. إننا منتقمون لا تستطيع أي قوة أن تصد انتقامنا.

بيان المعنى العام :

9. بل هم في شك يلعبون

(بل) لتنبيه المخاطب أن نسق الحديث قد تحول عما كان إلى مضامين جديدة، إنهم أبعد ما يكون أن يتأملوا فيما لفتت الآيات إليه أنظارهم، لأنهم مغرقون في الشك، الذي استولى على مداركهم فصرفوها عن جد النظر إلى اللعب والاستهزاء

10-16: فارتقب يوم ...منتقمون.

انتظر يا محمد أمرا يريبك، قريب وقوعه، انتظر (يوم تأتي السماء بدخان مبين). الدخان معروف ما يرتفع في الجو مع اشتعال الحطب، أو خمود اللهب. واختلف المفسرون في تعيين هذا اليوم بعد اتفاقهم على أنه لم يحدث يوم نزول الآية لقوله تعالى: فارتقب .

الراجح أنه يحدث في الدنيا ، ذكروا: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتدت عليه إذاية قريش وصدهم عن الدين ، دعا عليهم : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف. وأن الله استجاب له وتوالى الجدب، حتى إن الناظر كان ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان من الجوع .ثم إن قريشا استغاثت عند رسول الله ليدعو لهم يكشف ما حل بهم من البلاء ، فدعا لهم فمطروا .

وحمل بعضهم الدخان على التراب الذي تسفوه الرياح لبعد زمن نزول المطر، ويرتفع إلى السماء ليكون طبقة من الغبار تحجبها. وهذا ما حل بقريش بسبب القحط. ويطلق الدخان على الغبار في اللغة.

والذي يترجح عندي أن الله سلط عليهم الدخان، الذي سمم الجو، وأخذ بأنفاسهم، وضيق عليهم الحياة تضييقا شديدا، لقوله تعالى: دخان مبين، فهو دخان واضح.

يغشى الناس ،ينزل عليهم من السماء فيعم أبدانهم ومساكنهم ويدخل في كل ناحية، إلى أن يضجوا ويقولوا: "هذا عذاب أليم". كما يقول أحدهم يوم البرد: هذا برد شديد. ويحتمل أن يكون من كلام رب العزة تسجيلا لشدته.

واصل القرآن تصوير وقع العذاب المرتقب عليهم، وما يترتب عليه. لما اشتد عليهم أمر الحياة مع الدخان رقت نفوسهم، وتهدمت كبرياؤهم، واستجابوا لنداء الفطرة، فاتجهوا إلى الله داعين: (ربنا ارفع عنا العذاب إنا مؤمنون) بك إن رحمتنا وكشفت عنا العذاب.

ما أبعد أن يكونوا صادقين، تنفذ الذكرى إلى قلوبهم وتحولها من الرفض إلى القبول ومن الكفر إلى الإيمان. إن دلالة الدخان على أن الدين حق دلالة دون دلالة الآيات التي تأيد بها رسول الله ﷺ. بلغها لهم ، وبينها فلم يبق فيها خفاء ولا احتمال .ثم

بعد جهده وحرصه على أن ينقذهم مما هم فيه ،أعرضوا عنه وقالوا: إن غلاما يعرف الكتب السابقة كان يعلمه ،فليس بينه وبين الله صلة، وقالوا مرة إنه مجنون . به مس في عقله فادعى أنه متصل بالله .

-قدرنا أن نكشف عنكم العذاب إلى أمد محدود ،وذلك لما سبق في علم الله ، أنهم لجأوا إليه لشدة وقع الدخان عليهم ، وبقيت نفوسهم منطوية على الخبث والتكذيب . إنا نعلم أنكم ستعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك عن قريب. كل ما ذكر هو لم يقع بعد وهو من أنباء الغيب ،وقد تحقق في الواقع ما عرضته هذه الآيات من ذلك.

- كما أنبأ رسوله من تسليط عذاب عليهم في صورة دخان ، وأنه سيكشفه عندما يلتجوون إليه ، أنبأه بأنه سينتقم منهم انتقاما أشد وأنكى (يوم يبطش بهم البطشة الكبرى). وهي على ما ذهب إليه المفسرون بطشة يوم بدر التي لقي فيها قادة الشرك مصرعهم .

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

فتنا : امتحناهم باختلال أحوالهم.

كريم :النفيس الفائق في صنفه . رسول من خيرة الرسل .

أن أدوا إلى عباد الله : أرسل معي بني إسرائيل . وخل بيني وبينهم.

رسول أمين : رسول مؤتمن على ما امرت به.

أن لا تعلوا : امتثلوا لما يأمركم به.

السلطان : الحجة .

عذت بربي : جعلت ربي ملجأ لي .

الرجم : الرمي بالحجارة تباعا.

فاعتزلون : متاركة صريحة.

البحر : البحر الأحمر .

رهوا: منفتحا.

نعمة : أنواعا ينعم بها أصحابها ، وتعطيهم راحة في حياتهم ولذة .

فاكهين : تجاوزت النعم الحاجة فتمرتهم ويسرت لهم الفكاهة والمرح.

منظرين : غير ممهلين إلى يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي:

لقد اختبرنا قبل قومك ، قوم فرعون بما يظهر ما ينطوون عليهم من الكبر والكفر. وجاءهم من عندنا رسول نبيل من أولي العزم. كمال أدبه وقوة حجته مما يدعو إلى الإيمان به. بلغهم أصول الإيمان: {قال فرعون وما رب العالمين ? قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين}. وطلب منهم أن يرسلوا معه بني إسرائيل، كفاهم ما قاسوا من استعبادكم لهم. واعلموا أني رسول من عند الله أمين على ما كلفني بإبلاغه إليكم. وأحذركم أن تستكبروا على أمر الله ولا تطيعوه. وإني مؤيد بحجج باهرة واضحة أنها من عند الله .وإن مستجير بربي وربكم أن تمسوني بسوء ، وأن ترجموني بالحجارة كما هو شأنكم فيمن خالف دينكم . فإن أصررتم وأبيتم الإيمان فاعتزلوني خلوا بيني وبين قومي. أيس موسى عليه السلام من فرعون وملئه الذين ربوا على الكفر والإجرام. فتوجه مستغيثا بربه أن يهديه الطريقة التي يمكن بها إنقاذ قومه.

أجاب الله دعاءه، وأمره أن يجمع قومه، ويسري بهم ليلا إلى جانب البحر الأحمر. وأعلمه أن فرعون سيتبعه ليحول بينه وبين الخروج من أرض مصر . وأن يلج البحر بعد أن يضربه بعصاه ، وأن لا يضربه ثانية بعد أن يصل إلى العدوة المقابلة، وأن فرعون سيدخله وهو منفتح . فإذا بلغ وسطه انطبق عليه جانبا البحر ويغرق مع جنده. لقد تركوا خلفهم أموالا كثيرة جنات تسقيها العيون العذبة، وزروع زرعوها وما حصدوها ، وبلد رتبوا الحياة فيه ترتيبا جيدا في مسالكه ومساكنه وكل ما يجعل الإقامة مريحة ومناسبة. وضروبا من النعيم تجاوزت الحاجة إلى التفكه والمرح، وعلى هذا النحو تركوا كل ذلك. و مكن الله منها قوما غير ورثة فرعون من نسله. هلك فرعون فما أحس به ولا أسف عليه شيء من الكون، ونفذ فيه القضاء سريعا دون انتظار لتفاهته .

بيان المعنى العام :

17-18. ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون...رسول أمين.

نحقق أنا ابتلينا قبل قومك قريش، ابتلينا قوم فرعون، وهذا الابتلاء يشمل اختبارهم بإرسال موسى إليهم لتظهر طاعتهم أو صدودهم، أي إننا عاملناهم معاملة المختبر لتظهر حقيقتهم، فيكون جزاؤهم مناسبا لموقفهم من رسولنا. جاءهم رسول نبيل من أولي العزم، وعرض عليهم أن يؤمنوا به ، وأن يخلوا بينه وبين قومه بني إسرائيل الذين استعبدهم القبط وأذلوهم. ويشير قوله: عباد الله إلى أن استعبادهم لهم ظلم، فهم عباد الله وليسوا عبادا لكم، أحرار ملكتم رقابهم بغير حق. فيفهم من النص أن موسى عليه السلام طلب من فرعون وقومه أمرين: الإيمان، ورفع ظلم الاستعباد عن قومه، والتخلية بينه وبينهم ليتبعوه ويقوم بتربيتهم تربية ترفع عنهم رواسب ذل الاستعباد. وأكد عليهم أمر الاستجابة لما دعاهم إليه، لأنه رسول من عند الله ، أمين على ما أوحاه له، لا يزيد فيه ولا ينقص منه.

19 -20: ألا تعلوا...وربكم أن ترجمون.

علا فرعون في الأرض ، وادعى الألوهية كما سبق لنا في سورة الزخرف، والعلو والاستكبار حجاب يحول بين الإنسان وبين قبول الحق، وهو أول معصية ظهرت في الخليقة عندما استكبر إبليس وظن انه أعلى من أن يمتثل لأمر ربه بالسجود لآدم. ولذلك تحصن موسى عليه السلام من هذا الداء المعروف به فرعون، فذكرهم بنهيه أن يظنوا أنفسهم أعلى من طاعة الله، وطوعهم لمتابعته بأنه مصحوب بحجة قوية واضحة، لا يمكن لأحد أن يشكك فيها، هي المعجزة التي تأيد بها عندما كلف بالرسالة في جبل الطور.

وإني متحصن بربي وربكم المتحكم فينا جميعا، فإياكم أن تقذفوني بالحجارة، فإني مستجير بربي وربكم، ومن أجاره رب العزة فهو محمي بحمايته ، ليحذر من يتجرأ على من هو محمي به، فالله العظيم يدافع عمن أجاره .فألقى في روعهم الخوف من أن يعتدوا عليه بتوثيقه وقذفه بالحجارة إلى أن يموت، كما هو شأنهم مع من يخالف دينهم.

21. وإن لم تؤمنوا بي فاعتزلون.

وإن أصررتم على عدم الإيمان بي عندما أعرض عليكم ما أيدني به ربي من المعجزات، اعتزلوني وأعتزلكم، ومكنوني من قومي بني إسرائيل.

22.فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون.

بعد أن قدم موسى كل المؤيدات لرسالته ، واستعمل طرق الإقناع المتنوعة ليؤمنوا ويخلوا بينه وبين بني إسرائيل ، لم يجد منهم إلا الاستمرار على الكفر وعلى استعباد

قومه الذين كلف بإنقاذهم .ولما أيس من اهتدائهم توجه إلى ربه بالدعاء :إن هؤلاء فرعون وقومه قوم مجرمون .ألفوا الإجرام ، واستقر الشر في نفوسهم. مما يفيد أنه طلب من ربه العون .وصيغة الاستغاثة تفيض بالاضطرار .

23- 24: فأسر بعبادي ..إنهم جند مغرقون.

جاءه الفرج بعد الشدة، وعرفه العليم الخبير بالخطة التي ينفذها .أمره أولا أن يجمع قومه ، ويشير التعبير الى أن عهد الذل والاستعباد قد ولى ،بعد جمعهم وراء رسولهم ، فهم مكرمون منسوبون إلى الذات العلية(عبادي)

وثانيا : أن يتخذ ظلام الليل ساترا من أعين زبانية فرعون ، فيسير بقومه ليلا ، ليتمكن من قطع أطول مسافة بين مكان إقامته وبين البحر قبل أن يتبعه فرعون ، فيسبقه موسى إلى البحر .

وثالثا: أن لا ينزعج إذا ما شاهد فرعون وجحافل جيوشه يتبعونه للقبض عليه.

ورابعا: أن يترك البحر على حالته، منفذا واسعا يبسا، وأن لا يضربه بعصاه بعد أن يبلغ مع قومه الساحل المقابل . وقد فصل القرآن في سورة الشعراء: كيف أنه ضرب البحر بعصاه، (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم)، وأطبق ماؤه على فرعون وجنده الآيات 66/61

وخامسا : أنه حم القضاء، فسيغرق فرعون وجنده في البحر ولا ينجو منهم أحد.

25--29 كم تركوا من جنات..وما كانوا منظرين.

دخل فرعون وجنده، من المسالك التي بقيت مفتوحة، فلما كانوا جميعا في وسطه أطبق عليهم، وغرق في البحر الأحمر فرعون وجنده وهلكوا. وتلفت الآية الأنظار لتنفذ إلى محل الاعتبار . أن ما ملكوه من أسباب الدنيا والنعيم تركوها خلفهم ولم تقدهم. تركوا أموالا كثيرة وجنات باسقة ، وعيونا جارية ، وزروعا زرعوها وما حصدوها . ومقاما كريما . نظموا مكان إقامتهم، بلدهم تنظيما جيدا في المسالك، وفي الأسواق والمتاجر والمصانع، والمساكن. وكم تركوا من نعمة، رخاء في العيش بما يتجاوز الحاجة، فتيسر لهم التفكه والمزاح والمرح. على هذا النحو ذهبوا وتركوا ما جمعوه من أسباب العيش الرخي .

ومكن الله من تلكم الخيرات قوما أخرين، ورثوها عنهم. ذلك أن فرعون لم تكن له الا بنت (طوسير) تزوجها (منفطا) أحد أسراء فرعون. فخلفت أباها (منفطا) على عرش مصر . ولما لم ينتقل الملك إلى نسل منفطا الذكور، إذ لم يعقب ذكرا، عبر عن الوارثين بكونهم قوما اخرين ليسوا من سلالة الفراعنة .

تكبر فرعون وتجبر، وادعى الألوهية، وعظمه قومه تعظيما رفعوه به إلى مقام الألوهية، وهو وضيع عند الله تافه لا قيمة له، فما بكت عليه السماء والأرض، تعبير يدل على أنه هلك وما وقع الإحساس بفقده، أو الأسف عليه لا في السماء ولا في الأرض، ونفذ فيه القضاء دون انتظار ولا تأخير في الأجل الذي عينه الله لإفنائه.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ

عاليا: متكبرا جبارا.

منشرين: مبعوثين يوم القيامة.

من المسرفين : المفرطين في الشر

قوم تبع: سكان جميع بلاد اليمن حمير وسبأ وحضرموت، الداخلون تحت حكم تبع

بيان المعنى الإجمالي

امتن الله على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من العذاب الجامع بين الإيلام والإهانة، العذاب الذي كان يمثله فرعون الطاغية الذي بلغ به الاستكبار أن ظن نفسه أرفع من الناس أجمعين، وأسرف في فعل الشر. اختار الله بني إسرائيل ليكونوا حملة رسالة موسى عليه السلام، والله عليم بما خلق. (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين)[1] وختم سبحانه الاختيار بأمة محمد ﷺ التي لا تعتمد على نسب ولا عرق ولكن لحملها الشريعة الخاتمة بعقيدتها وقيمها. (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[2]

---

[1] سورة الصف آية 5

[2] سورة آل عمران آية 110

لقد مكن الله بني إسرائيل من آيات معجزات ، أيدهم بهما وأراهم من فضله الشيء الكثير ، ليختبرهم اختبارا واضحا ،هل يقومون بواجب الشكر ؟

إن هؤلاء المشركين من القرشيين لينكرون بكل قواهم البعث. ويقولون: لا يجري علينا إلا موتة واحدة ، تتحلل أجسامنا بعدها وتتفتت عظامنا، ولا يعمل أن نعود للحياة ونبعث يوم النشور. ثم تحدوا النبي ﷺ وصحابته، فقالوا لهم إن كانت الحياة ممكنة بعد الموت فأحيوا لنا آباءنا، وائتونا بهم إن كنتم صادقين في دعواكم وقوع الحياة بعد الموت. وهذا من محاجتهم بالباطل فالحياة بعد الموت تتم في الآخرة لافي الدنيا. استكبروا في أنفسهم، وظنوا أنهم لقوتهم يصمدون، سألهم القرآن سؤال تقرير يبطل ظنهم: هل هم أشد قوة من قوم تبع ومن قبلهم من الأمم التي أهلكناهم بسبب إجرامهم، الشرك وفعل الشر. وشتان ما بين قوتهم وقوة تلك الأمم ، فهم أقرب إلى الإبادة منهم .

بيان المعنى العام :

30-41 :وقد نجينا بني إسرائيل ....عاليا من المسرفين.

امتنان مؤكد على بني إسرائيل بعد أن نفذ القضاء في فرعون وجنده، ونجى موسى وقومه. نجاهم الله من العذاب الذي يجمع بين الأذى البدني ، والأذى النفسي . إذ كان الإسرائيليون في مصر مسخرين للخدمة والأعمال الشاقة، ويصحبهم الإذلال من مستخدميهم بصنوف من الإذلال منها قتل أبنائهم واستحياء نسائهم.

من فرعون. مما يلوح بأن فرعون بلغ من الشر أن كان هو نفس العذاب المهين . رشح منه تلكم الاعتداء والتعذيب لأنه كان مستكبرا، يظن أنه فوق البشر جميعا ، وقد دفعه هذا التعالي الزائف إلى الإسراف في الشر .

32-33: ولقد اخترناهم..بلاء مبين.

بكل تأكيد اخترنا بني إسرائيل على أهل زمانهم ، فبعثنا فيهم موسى ، وأتبعناه بعدد من الرسل والأنبياء . حتى حتمنا الاختيار (بخير أمة أخرجت للناس)، لا تعتمد على النسب وإنما على جملة القيم التي تفرد بها دينهم دين الإسلام. وهي القيم التي يتحقق بها مفهوم الإنسانية، من التوحيد الخالص إلى قيم السلوك الجامعة للخير والصلاح. ولا يظن أن الله اختار بني إسرائيل اختيارا أبديا لمزية في دمائهم. فقد قرعهم القرآن وبين فسادهم وانحرافهم وجرائمهم على الله وعلى الحق. وإسراعهم إلى الفساد في الأرض .{كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين}[1] .

---

[1] سورة المائدة آية 64

و مكن الله بني إسرائيل من الآيات والمعجزات الدالة على عنايته بهم ،وهي في الآن نفسه اختبار لهم ليتبين هل قابلوا النعم بالشكر ؟ لقد ظللهم الغمام في صحراء التيه وأنزل عليهم المن والسلوى، وغلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة.

34 -36 إن هؤلاء ليقولون...إن كنتم صادقين

انتقل القرآن ليناقش المشركين ويُبيّن خطل رأيهم ،وفساد تصورهم. بعد أن هددهم في قوله : يوم نبطش البطشه الكبرى آية 16- وعرض عليهم سنته سبحانه في المستكبرين بما قصه من أمر فرعون الذي انتهى بهلاكه تافها لا قيمة له وأنهم لا يخرجون عن الطريقة التي يمهل بها المعاندين ، ثم يأخذهم أخذة واحدة تستأصلهم. ناقشهم القرآن مسجلا باطل أقوالهم ، فقوله إن هؤلاء ليقولون ،أي إن المشركين ليعلنون في عناد: إنهم لا يموتون إلا الموتة الأولى التي تقع في الدنيا ، وبعدها لا حياة ولا موت ،أي لا يجري على ذواتهم شيء بعد الموت إلا تحلل أجسامهم، وتفتت عظامهم ، ولا شيء وراء ذلك، وبصفة أخص لا يتصور أن يعقب الموتة الأولى نشور نبعث فيه أحياء. ثم تحدوا النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الذين كانوا يحذرونهم عذاب يوم القيامة: إن كانت هناك حياة بعد الموت فأحيوا لنا آباءنا. وهذا مظهر من عنادهم وقلب الحقائق .إن البعث لا يكون في الدنيا وإنما هو في يوم القيامة . فلا صلة بين البعث وإحياء آبائهم.

37.أهم خير ...إنهم كانوا مجرمين

مقارنة بين قوة قوم تبع الذين كان يضرب القرشيون المثل بهم في القوة والمنعة وامتداد السلطان، وبين قوة قريش. سألهم القرآن سؤال تقرير، هل إن المشركين بمكة وما بين أيديهم من قوة وما لهم من سلطان في الأرض ، هو خير من قوم تبع؟ وكذلك الأمم القوية التي يتناقلون أخبارها؟ وهو سؤال لا يتطلب جوابا، لبداهة الجواب إنهم لا يستطيعون أن يقيسوا أنفسهم بتلك الأمم التي كان لها ذكر وعظمة ودور في التاريخ .روى الإمام الطبري في تاريخه قال :زعم أهل اليمن أن تبعا سار غازيا مغربا حتى بلغ أذربيجان ولقي الترك فهزمهم ، ثم انكفأ راجعا إلى اليمن . وهابته الملوك وعظمته وأهدت إليه. ثم إنه قسم ليغزون الصين، ومر بيمينه ودخلها وقتل مقاتلتها، واكتسح ما وجد فيها قال ويزعمون: أن مسيره إليها ومقامه بها ، ورجعته منها في سبع سنين[1].

[1] مختصر من تاريخ الطبري ج 1 ص566/567

قوم تبع والأمم التي سبقتهم وكان لهـا دور فـي التـاريخ، وسـلطان مديـد، أهلكهـم الله جميعا لتأصل الإجرام فيهم، بالشرك والفساد الاجتمـاعي. وفـي ذلـك تهديـد للمشـركين أن مآلهم سيكون نفس المآل.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالحق : مقارنا للحق ليتبين الحق بخلقهما.

الأثيم: الكثير الآثام .

المهل : دردي الزيت.

الحميم : الماء البالغ أشد الحرارة .

الغليان : شدة تأثر الشيء بحرارة النار .

العتل : القود بعنف .

سواء الشيء : وسطه

يوم الفصل : يوم الحكم .يوم القيامة .

ميقاتهم : وقت القضاء فيهم القضاء البات.

يوم لا يغني : يوم لا يدفع مولى مكروها عن وليه، ولا ينفعه.

شيئا : قليلا من الإغناء.

الأثيم : المغرق في العصيان وارتكاب الآثام.

سواء : وسط.

تمترون : تشكون في أمر البعث.

بيان المعنى الإجمالي:

جرى خلق السماوات والأرض وما بينهما على نظام دقيق، وتوازن لا يختل، وبذلك حفظهما من الفساد؛ وكان خلقهما محققا لإرادة علية ولم يقم التكوين على إرادة مجرد الخلق كيفما اتفق، بل كان لغاية قدرها ونفذ لها خلقه. ولكن أكثر الناس جهلة لم ينظروا نظر العاقل العالم في ذلك. وكذلك الإنسان ما خلق لمجرد الإيجاد، ولكن خلق ليقوم بوظيفته المحددة في الحياة، ولو خلق ليلهو ويستمتع وينتهي ما يتعلق بوجوده بمجرد موته ، يستوي حينئذ الصالح والطالح والمؤمن والكافر، ولكان خلقا معصولا عن سنة الحكمة الجادة ، ولكان بالتالي خلقا عبثا . ولذا فإن البشر جميعا سيؤولون إلى يوم الفصل ، يوم القيامة المقدر وقته ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجزي كل فرد بما يستحق .إنه يوم يحضره الناس جميعا لا يستثنى منهم أحد. هو اليوم الذي لا يقدر أحد على نفع غيره أو دفع الضرر عنه، فلا القرابة، ولا الصداقة، ولا الموالاة، تصرف الضرر أو تجلب النفع. ولا يجد الإنسان يومها نصيرا .واستثنى سبحانه الذين رحمهم فقدر أن تكون شفاعتهم مقبولة ، ومن قدر رحمته به لينتفع بشفاعة الشافع المأذون له. إنه سبحانه عزيز لا يقدر أحد أن يتدخل في حكمه ، وهو الرحيم بعباده يضع رحمته حسب حكمته .

أخذ القرآن يصف عذاب المشركين المعروفين بأنهم أثمون عصاة ، فقال تعالى: إننا أعتدنا لهم شجرة الزقوم ليأكلوا من ثمرها .إنها حارة كأشد ما تكون الحرارة. مثلها بالدردي المحمي تغلي في بطون الآثمين .يا ملائكة العذاب خذوا الأثيم بقوة وعنف وجروه جرا إلى وسط الجحيم، ثم قدموا له أول جزاء. صبوا على رأسه عذاب الحرارة التي تعم بدنه . وقولوا له: إنك أنت العزيز الكريم، تهكما به وسخرية وهو ذليل في هذا الوضع المهين. إن ما جرى عليكم، وما أنتم عليه في وسط الجحيم، هو ما كنتم تشكون فيه، وتدعون أنه لا قيامة ولا حساب.

بيان المعنى العام :

38 -39 . وما خلقنا السماء..لا يعلمون

هذا الكون مشاهد أمامكم، السماوات والأرض وما بينهما ،ظاهرة النظام والدقة مسطورة في كل جزئية من جزئياته ،ولو اختل ذلك النظام لفسدت السماوات والأرض ومن فيها. كل عاقل يشهد بذلك، والواقع ينادي بأن كل ما خلقه الله ملتبس بالحق مقارن له ومظهر . والإنسان جزء من هذا الكون لا يخرج عما ألزمه به خالقه. وعندما يخرج فإما أن ينتقض النظام ولا يترتب عليه شيء، وإما أن يجزى الخارج عن النظام جزاء بمقدار ما خرج وأفسد. فالفرض الأول يفضي إلى أن

الخالق يعبث عندما يسوي بين الصالح والفاسد، والجاري على النظام الذي أوجبه والخارج عنه. والكون يشهد أن الخروج عن النظام الذي سطره يتبعه حتما فساد الكون. والفرض الثاني أن الخارج عن النظام الذي ألزم به يجازى بمقدار ما ترتب على فعله من فساد، ولما كان ذلك لا يتحقق في الدنيا، وقدر أن يمهل الخارجين عن الحق الذي سطره، وأن يمهليم إلى يوم يجزون فيه جزاء عادلا، فلم يستو الخبيث والطيب، وبرزت الحكمة في البعث والجزاء.

إن هذه الظاهرة تنادي بالحكمة في الخلق، وأن الإنسان جزء من هذا الكون يجري عليه القانون العام. فإنكار يوم القيامة يفضي إلى أن الخالق عابث والعبث نقص تعالى سبحانه أن يلحقه نقص.

40—42 إن يوم الفصل...إنه هو العزيز الرحيم

إن يوم القيامة هو اليوم الذي تفصل فيه قضايا البشر جميعا، يُقَوّمُ فيه ما عملوا من خير أو شر، هو وقت محدد لا يتأخر ساعة ولا يستقدم. يحضر الناس فيه جميعا لا يستثنى أحد. هو يوم مغاير لمقاييس الحياة الدنيا . ذهبت الموالاة والصداقات، ففي الدنيا يساعد القريب قريبه، ويدافع عنه، ويحول بينه وبين السوء ما أمكنه. يجد كل قريب في قريبه حصنا يستند إليه. ولكن يوم القيامة كل امرئ مشغول بأمره، لا قرابة ولا صداقة ولا عصبية. وكذلك لا يتقدم أحد لنصرة غيره ومد يد العون له لتحويله من وضعه إلى وضع أفضل.

تبشر الآية المؤمنين الصالحين باستثنائهم من هذا الفراغ المحيط الرافع لجميع الصلات. استثنى القرآن الذين رحمهم الله من الشافعين الذين أكرمهم الله ،فأذن لهم في الشفاعة، وقرر قبولها منهم، قال تعالى(لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)[1] وكذلك المشفوعين الذين رضي عنهم وأمنوا سخطه قال تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)[2] فقدر سبحانه الاستجابة لشفاعة الشفيع وللمشفوع فيه .وتتقدم الملائكة للشفاعة في صالحي المؤمنين حسب ما أثبته الله في القرآن:(نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)[3] . إن قبول شفاعة الشافعين والتفضل على المشفوع فيهم بالشفاعة ، هو من توابع عزته غير ملزم وإنما هو تفضل ، ورحمته وسعت كل شيء ، فإذا تعلقت رحمته بشيء سعد برحمته وفاز .

---

[1] سورة سبا اية23

[2] سورة الأنبياء اية28

[3] سورة فصلت اية31

43—50 إن شجرة الزقوم ...ما كنتم به تمترون

ذكرت شجرة الزقوم ثلاث مرات في القرآن . تقدم ذكرها في سورة الصافات الأيات 62/69- وذكرت هنا، وستذكر في سورة الواقعة. ربط القرآن بينها وبين الآكلين منها، ربطا جعل الآكلين منها يعرفون بها،(طعام الأثيم) والآكل من ثمرها عرف بأخص صفاته ، وهو الذي استولى عليه الإثم والمعصية حتى أصبح إثما وشرا يتحرك.

وصفت الآية ما يأكله الطاعم من ثمرها ، بأنه يتحول إلى سائل حار :أشد ما تكون الحرارة تتضم عليه البطون، هو كالدردي المحمي ، ومعلوم أن قابلية الدردي للحرارة أشد من قابلية الماء ، إذ الماء تنتهي قوة الحرارة التي تتخلله إلى مائة درجة ، بينما الزيت ترتفع درجة الحرارة فيه إلى ثلاثة أضعاف ذلك . وبذلك كان تمزيقه للأنسجة أشد تخريبا. وأن سريان الحرارة تكون بطريقة متوازية بالنسبة إلى جميع الأجزاء.

- واصل القرآن تسجيل ما يلقاه المعذب، المقدر له الأكل من ثمر شجرة الزقوم. يقال للملائكة، امسكوه بعنف، وشدوا خناقه، وقودوه مدفوعا بغلظة إلى وسط الجحيم.

-وأمروا أن يعذبوه عذابا آخر، فوق الدفع والعنف في سوقه إلى وسط الجحيم ، أن يصبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، الحرارة التي تفوق حرارة ما هو معروف في الدنيا. و الصب هو للمادة المعذب بها لا للعذاب .فأفادت الآية بذلك تجسيم العذاب أنه أصبح هو ذاته مصبوبا.

- يصحب الشحنة من العذاب التي تعم بدنه باطنا وظاهرا، مخاطبته مخاطبة الإذلال والتشفي مع التهكم يقال له : ذق ، ليكن إحساسك إحساسا قويا بما قدم لك . إنك أهل لذلك، فأنت عزيز كريم، تهكما أي أنت الذليل المهين. فيجتمع عليه العذاب البدني والعذاب النفسي .

- تختم الآية : إن هذا الذي تذوقونه ، وجرى عليكم ، هو الأمر المعلوم عندنا الذي عرفناكم به لتحذروه ، وتؤمنوا، ولكنكم كنتم تشكون في إمكان البعث والجزاء.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ

الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

مقام: مكان الإقامة.

الأمين : الآمن ساكنه.

السندس : الديباج الرقيق النفيس ،ويلبس عادة مما يلي الجسد.

الإستبرق : الديباج المتين ، ويلبس ظاهرا.

الحور: جمع حوراء، شدة بياض العين وشدة سوادها في شدة بياض الجسد .

عين : واسعات الأعين حسانها.

يدعون: يأذنون بإحضار .

الفاكهة : ما يرغب في أكله لحسن مذاقه، من الثمار وغيرها.

بيان المعنى الإجمالي:

قدر الله للمتقين أن يتوفر لهم في مكان إقامتهم يوم القيامة كل أسباب النعيم، هم آمنون ذهب الخوف من تصورهم. يملكون جنات تنتشر فيها الأشجار المثمرة والخضرة الجميلة، ترويها عيون دافقة. لباسهم الملاصق لأجسامهم حرير ناعم رقيق ، ولباسهم الظاهر حرير متقن النسج قوي . يجدون في مجالسهم الأنس فهم متقابلون ينظر بعضهم إلى بعض نظرة المودة. جعل الله للمتقين في الجنة أزواجا على حظ كبير من الجمال ، يتميزن بعيون حوراء وبشرة بيضاء نقية. يأذنون بإحضار ما يشاؤون من أنواع الفاكهة ، فيجدونه بين أيديهم. يتناولون ما يرغبون فيه وهم آمنون من كل المضاعفات السيئة . كتب الله لهم الخلود ، فلا يموتون إلا موتة واحدة هي التي مضت في الدنيا ، ولا يعاد عليهم الموت مرة ثانية. وتمحضوا لدول النعيم والكرامة ، فقد وقاهم ربهم عذاب الجحيم. وكل ذلك العطاء هو من فضل ربك عليك للذين آمنوا بك والتزموا .وما ينالونه هو الفوز العظيم والنجاح الذي ليس فوقه مرتبة أعلى. يسرنا القرآن بلسانك ليتضاعف تأثيره وليكون سببا لتذكرهم. ارتقب يا محمد نصر الله وما سيحل بهم، فإنهم أيضا يرتقبون هزيمتهم والوعيد المتصل.

بيان المعنى العام:

51-53- إن المتقين في مقام أمين ...متقابلين

هذا منهج القرآن، أنه يتبع آيات الشدة والعذاب، بآيـــات للجـــزاء والنعـــيم والفضـــل، فبعـــد أن وصف الأثيم في طعامه ومقامه، وإهانته، وصـــفت الآيـــة مـــا يســـعد بـــه رب العـــزة المتقين.

أولا : هم في مكان تتوفر فيه الأمن ، وذهب الخوف ،ويعد الأمن أول شروط العيش الهني ، إذ بالطمأنينة يستمتع الامن ببقية أنواع النعيم .

ثانيا: يقيمون في جنات تكسوها الخضرة، وتنتشر فيها الأشجار المثمرة، وتتخللها العيون الجارية، فلا تعرف الجفاف ولا ضراوة الطقس .فهذا وصف مكان إقامتهم ، وهو أفضل ما يتصور .

ثالثا : عني القرآن بوصف لباسهم ،يلبي أجسادهم لباس من حرير ناعم رقيق، ويلبسون فوق ذلك لباسا من حرير متين النسج من الديباج القوي .

رابعا : توفر لهم الأنس والرضا النفسي ، فمجالسهم عامرة بإخوانهم ، يستمتعون بما يجري بينهم من حديث يلذ السامعون ، وينظر بعضهم إلى بعض نظرة ملؤها الود والحب.

54. كذلك وزوجناهم بحور عين .

خامسا: جُعلت لهم أزواج، يخلقهن الله من فضله في الجنة، يتميزن بسعة حدقة العين، وشدة بياض بياضها وشدة سواد سوادها، مع صفاء البشرة وبياضها. يتم بهن الأنس لما يحملنه من الأدب والتودد.

55. يدعون فيها...آمنين

سادسا :يأذنون فيطاعون ، ويأتي لهم القائمون على الخدمة بكل نوع يطلبونه من الفاكهة، آمنين من أن يعقب الأكل منها أي تعب، أومغص، أوثقل ،وآمنين من انقطاعها، أو فساد مضاعفات الأكل منها .

56. لايذوقون فيها الموت...ووقاهم عذاب الجحيم .

سابعا : كتب لهم الخلود وعلموا بذلك ، فهم لا يذوقون فيها الموت ، وقد تأكد عدم موتهم بقوله : لا يذوقون فيها الموتة إلا الموتة الاولى . والموتة الأولى قد ذهبت في الماضي ،وذوق ما فات وطواه الزمن مستحيل ، فهو تعبير بليغ عن عدم موتهم ثانية . ووقاهم ربهم عذاب جهنم

57. فضلا من ربك ...الفوز العظيم.

كل ما ذكر من أنواع النعيم، وسبل الخيرات، والكرم والأمن؛ كل ذلك من فضل ربك .وأفهم من هذا الربط ،أن الجزاء يتجاوز قيمة ما في الأعمال من خير ، ولا يبلغ أي فرد رتبة الكمال في أداء حق المعبود، وفضل الله لكماله محقق للعفو والصفح ، فيضاعف الثواب ويكرم ، وهو الرؤوف الرحيم . ويرعاك يا محمد فهو ربك الذي والى عنايته بك، فيتفضل على المتقين من أمتك. وإذ بلغ التكريم أعلى

مستوى ، وتعبير تميزا ولضحا بما فصلته الآيات السابقة ، فأحضر في الذهن ليشير إليه حتى ينسحب عليه حقيقته التي هي كمال ما يتصوره الإنسان، ذلك الفوز العظيم، والنجاح الذي لا يشوبه نقص ولو قل .

58.فإنما يسرناه بلسانك..لعلهم يتذكرون

الذي فهمته :أن هذا الحصر فيه تنويه بما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من قوة التأثير ، وخصه الله بذلك ، فلا يدانيه أحد في هذه المزية . كان ينطق بالقرآن، فتساعده نبرات صوته، وما أودع الله حباله الصوتية من تحريك للعقول والمدارك على تيسير بلوغ مضامين القرآن للقلوب. وهو مستوى يقرب فهمه أن أحدنا يكون قد تلا من القرآن ما يسره له الله، وقد يسمع قارئا فإذا نبرات صوته، تحرك الذهن لمعاني ما كان أدركها من قبل. وقد حصل لي هذا الأمر مرات في صلاة التراويح. وروت كتب السيرة أن كثيرا من القرشيين كانوا يحاولون الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن. وكان رؤوس الكفر يعملون على التشويش عليه وهو يقرأ ليقطعوا ذلك التأثير الذي هو من عطاء الله . فإذا أضفنا إلى ذلك أن وعي النبي صلى الله عليه وسلم للمعاني وهو يتلو يبلغ مستوى لا يدانيه فيه أحد، فإن من الأسرار الثابتة، أن وعي المتكلم بما يقول يقوي تأثير كلامه في المستمعين. فناسب أن تختم الآية بإظهار علة تيسير القرآن بلسانه، الذي هو حصول التذكر .

59. فارتقب إنهم مرتقبون

انتظر ما سيحل بهم، فقد قضى الأمر، وحدد زمن إصابتهم بنقمتنا، فلا تستعجل لهم، سترى تحقق ما وعدناك من النصر عليهم. وكما تترقب النصر الآتي لا محالة، فهم يترقبون العذاب والهزيمة. وفي جعلهم مترقبين تحقيق لما سيحل بهم مع إبرازه في صورة تهكمية.

4 محرم 1435 · 2013/11/8

ســـــورة الجاثية

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به، ووجه تسميتها به، أن كلمة جاثية الواردة في الآية 28- وترى كل أمة جاثية. ذكرت في ذلك الموضع و لم تتكرر في القرآن. وتسمى (سورة شريعة) لوقوع لفظ شريعة فيها دون غيرها في القرآن (ثم جعلناك على شريعة من الأمر)آية 18-نزلت على رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والأربعون. وحسب ترتيب النزول الرابعة والستون نزلت بعد سورة الدخان وقبل سورة الأحقاف . وهي السورة السادسة من الحواميم .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

البث : التوزيع.

دابة: كل ما يدب على الأرض غير الإنسان.

تصريف الرياح: تقليبها وتحولاتها في مهابها و آثار ذلك.

الرزق : كل ما يأتي من السماء، من الأشعة والمطر ، فينمي الخيرات.

التلاوة : القراءة.

الحديث : القرآن.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه هي السورة السادسة من آل حم .افتتحت بالحروف المقطعة وتلاها تنزيل الكتاب الذي مر نظيره في أول سورة الزمر .لفت القرآن الأنظار .

أولا: إلى ما في السماوات والأرض من آيات بينات دالة على تفرد الله بالخلق وبالحكمة، بالتأمل فيها يتعمق الإيمان في القلوب.

وثانيا: إلى ما في خلق البشر وخلق الحيوانات من عجائب التقدير، وما أعطى لكل نوع من الخصائص مما يقوم دليلا يثبت اليقين بالإيمان .

وثالثا إلى تعاقب الليل والنهار وإلى إنزال الأرزاق من السماء من أشعة الشمس التي تدخل في تركيب النباتات ، وماء الأمطار الذي يحيي به كل شيء حتى الأرض ، تكون قاحلة جرداء فتهتز وتكسوها الخضرة اليانعة. وتحول جريان الرياح، وقوة اندفاعها أو ضعفها، أو سكونها. في كل ذلك أدلة للذين يحركون عقولهم للنظر، ويعيشون على وجه الأرض عيشة العقلاء، لا عيشة البهائم التي تمر بها المشاهد فلا تدرك شيئا من أسرارها.

عجب أمر المشركين في تصلبهم في الكفر وعدم الإيمان بالآيات التي لفت القرآن أنظارهم إليها ،الآيات المبثة في الكون وفي الأنفس ، والذي كان التعريف بها تعريفا هو أسمى ما يمكن أن يبلغه كلام ، هو تعريف القرآن ، فهل يمكن بعد ذلك إن لم يهتكوا به أن يؤمنوا . هم ميؤوس بعد كفرهم بما تلي عليهم أن تتفتح قلوبهم للإيمان.

بيان المعنى العام :

1- 2: حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم

هذه هي السورة السادسة من الحواميم ،افتتحت بـ(حم) ويقال فيه مثل ما قيل في نظيره من الحروف المقطعة المفتتح بها ، ثم بمثل ما افتتحت به سورة الزمر، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .فيقال في تفسيرها ما أثبتناه هناك.

إن في السماوات...لآيات للمؤمنين

تثبت هذه الآية أن شأن المؤمن أن يكون يقظا لمشاهد الكون، ولا تستولي عليه رتابة مشاهدتها باستمرار فيمر عنها لاهيا، لا يتعمق فيما وراء المظهر المتكرر. كلما طويت صفحة من صفحات كتاب الكون يتأمل في كل حرف من حروفها وكلمة من كلماتها. يجد بالتأمل فيها والوقوف على جزئياتها أنها قائمة على قوانين ثابتة، راعت الحكمة فيها علاقة كل جزئية ببقية الجزئيات ، فتفاعلت في انسجام ينادي أن وراء هذه الصنعة المتصفة بالدقة ،والاستمرار ، مبدع كامل لا يغيب عن علمه شيء .قد يفتح كتاب الكون للمتأمل بعض الأسرار فينبهر أمام العلم الذي لم يغب عنه كبيرة ولا صغيرة .فيؤمن إن كان غير مؤمن ويزداد إيمانه صفاء إن كان مؤمنا. ويجد أن العلم والإيمان مقترنان. ينقذ الإيمان من الشك والرفض، ومن

الحيرة والظلام. ويدفعه العلم إلى التعمق في فهمه لكل جزئية في ضوء أن الحكمة منبثة ومسجلة فلا فوضى ولا مصادفة. ولكنه نسق يرعاه الله رب العالمين . صدقت الآية « في السماوات والأرض آيات للمؤمنين».

١-وفي خلقكم وما يبث..لقوم يوقنون

ينتقل القرآن في ترتيب عجيب من عالم السماوات والأرض، والإنسان في ذلك متفصل مشاهد، إلى عالم آخر يكون فيه مشاهدا ومشاهدا، ثم مقاربا. فيلفت القرآن الأنظار إلى التأمل في خلق الإنسان ذاته، من علم الأجنة بفروعه المتنوعة، إلى علم الطب، الى علوم التغذية، إلى العلوم النفسية، إلى الجوانب الروحية، إلى الجوانب السلوكية مؤثرة ومتأثرة، إلى قوانين الاجتماع والسياسة. واذا قلنا مثلا علم الطب فإنه علوم واختصاصات ،وكل اختصاص يتحلل إلى جوانب عديدة ، ولو سألت أي عالم كبير في الطب في ميدان اختصاصه هل فتح كل المجاهيل، وتحكم في موضوعه بدقة بحيث لا يغيب عنه شيء ؟ فإنه يجيبك بكل تواضع ما أبعدنا عن هذا المستوى ! ولكن القدر المشترك أن كل ما يتعمق فيه يجده مبنيا على الدقة والحكمة ينبئ أن الذي خلق هذا الإنسان هو العالم الحكيم .

و بجانب الإنسان الحيوان الحي العاقل ، بجانبه عالم الأحياء يشترك معها في أصل الحياة ، ولكن لكل جنس من الأجناس وكل نوع من الأنواع خصائص وقوانين. من الخلية التي تتحرك إلى النمل والزواحف، التي تمشي على اربع. لكل نوع من الأنواع جينومه الخاص به، ومسلكه في التكاثر والتطور .

إن التأمل فيما قدمناه مما لفتت الآية نظرنا إليه، يثبت يقينيا أن الخالق للإنسان والحيوان بهذه الحكمة البالغة هو الله الموصوف بصفات الكمال من العلم القديم والقدرة العظيمة والحكمة الباهرة. وقد قيل قديما عجبا لطبيب لا يؤمن .

٢- واختلاف الليل.. لقوم يعقلون

ثم في تقلب الليل والنهار ، وهي ظاهرة تحدث عنها القرآن في النظام العجيب الذي تجري عليه، وفي تأثيرها في الإنسان، نشاطا وراحة، وفي تأثيرها في الكون حرارة في النهار، وبردا في الليل ، وتأثيرا في المد والجزر ، ونظام اختفاء الكواكب وظهورها.

وفي ظاهرة نزول الرزق من السماء، من ذلك ما يصلنا من أشعة الشمس التي بها تتجدد قوى الأرض، وتعطي للأشجار الحياة وتتدخل في نموها. وقوى أخرى ما تزال حبيسة في علم الغيب، قد يصل الإنسان لاكتشافها في يوم من الأيام ،ونزول الماء من السماء الذي به يحصل الإنسان على رزقه وقوته الذي به حياته،

والأرض ذاتها تحيا أيضا بما ينزل من السماء من ماء، وحركة الرياح التي تؤثر حفافا وتبعد السحب ،أو رطوبة فتحتلب من السحب ماءها. وتحول مجرى الرياح، وقوة جريانها، وتلقيحها للزهور ، وغير ذلك ، مما يؤكد أن المبدع للعوالم ، يقدر في كل ظاهرة وجزئية انسجامها مع الكون كله. وفي ذلك أدلة للذين نفذت قدراتهم العقلية إلى ما وراء الظاهرة السطحية، فأدركوا شيئا من تلك الأسرار، واطمأنوا إلى أنهم جزء من هذا الكون منسجمون معه يجدون أمنهم وطمأنينتهم في إيمانهم .

تلك آيات الله ...وآياته لقوم يؤمنون

استحضرت الآية ما تقدم قبلها من الآيات التي لفت القرآن لها الأنظار، فأشار إليه تبعا لذلك، فهي أدلة مرتبطة بخالقها الذي أقرها وأحكم خلقها وتصريفها على النحو المشاهد المدرك القابل للتعمق فيه . يتعلق بهذه الإشارة أننا نتلو عليك قرآنا، ما يعبر عنها ويدل عليها . تنزل الآيات ملتبسة بالحق ، هي مصادقة مطابقة للواقع ومظهرة له.

عجيب أمر المشركين ! كيف لم تحركهم الآيات المتلوة عليك حركة تكسبهم الإيمان، وتخرجهم من العناد والكفر. هل يوجد حديث بعد سماعه يمكن أن يبلغ من نصاعة بيانه ووضوح حجته مبلغ القرآن، وهل وراء الآيات التي لفت القرآن الأنظار إليها، أمر آخر يعمل في القلوب فيهديها على المستوى الذي لفتت إليه تلكم الآيات المبثوثة في الكون وفي الأنفس، فيؤمنوا به . ويفهم من ذلك اليأس من إيمانهم.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ ﴾

بيان معاني الألفاظ :

ويل : هلاك ، وشر ، ومصائب وهم.

أفاك : القوي في الكذب .

الأثيم : المبالغ في ارتكاب المعاصي والآثام.

آيات الله : القرآن.

الاصرار : التزام الشيء والعزم على عدم الانفكاك عنه.

بشرهم : أنذرهم إنذارا محققا وقوعه على طريقة التهكم .

علم : عرف.

لا يغني عنهم : لا يدفع عنهم ولا ينفعهم.

ما كسبوا : أموالهم .

الرجز : أشد العذاب .

بيان المعنى الإجمالي :

هلاك وشر محقق لكل كذاب، يختلق الحديث، ويبالغ في ذلك، ويقتحم الآثام والمعاصي حتى أصبح ذلك أليف نفسه. يسمع آيات الله يتلوها النبي صلى الله عليه وسلم بنبرات صوته المؤثرة وصدقه. وعوض أن يتأثر بها، يصر على ما هو عليه من الكفر، مستكبرا عن الإذعان للحق الذي فيها. فحق له أنه سيعذب العذاب المؤلم جدا. ومن فساده وخبثه أنه إذا عرف شيئا من آياتنا القرآنية حولها إلى مناسبة للسخرية والاستهزاء. أولئك الذين كشفنا عن سوء دخائلهم، لهم عذاب يهينهم جدا. يتبعهم هذا العذاب عذاب جهنم فلا يفلتون منه. ولا يدفع عنهم ما جمعوه من أموال وأتباع ، ولا يعينهم ما اتخذوه من الأوثان على أن يكونوا نصراء لهم، وهددهم بأنهم استحقوا العذاب العظيم في الدنيا أيضا .

هذا القرآن الحاضر الذي لا يغيب الذي جمع كل مسالك الهداية ،هو الهدى ذاته. والذين كفروا بآياته وأعرضوا عن عناية ربهم بهم بواسطته، استحقوا عذابا من أشد أنواع العذاب إيلاما.

بيان المعنى العام:

7 - 10: ويل لكل أفاك...ولهم عذاب عظيم.

بعد أن لفت القرآن أنظار مستمعيه إلى التأمل في كتاب الكون والذات، وقابل المشركون ذلك بالإعراض، تابع تهديدهم الذي افتتحه بتحقيق أن الشر والهلاك سيحيط بكل كذاب ألف الكذب، وأكثر من ارتكاب الآثام والمعاصي، يطرق سمعه آيات القرآن ، متلوة بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي يزيدها بصدقه ونبرات صوته ،وضوحا وتأثيرا . لم يرتعش قلبه، ولم ينظر فيما سمعه، بل واصل إصراره وتمسكه بما هو عليه من الكفر. فاستوى مع من لم يسمعها، مدفوعا إلى هذا الإعراض بما رسخ في نفسه من الاستكبار عن الإيمان والإذعان لما في الآيات

من حق واضح. واستعمل القرآن كلمة بشره عوض أنذره تهكما بهم وازدراء لقيمتهم. أخبرهم خبرا مؤكدا منذرا.
والتهكم كقول الشاعر: " تحية بينهم ضرب وجيع"
وفي هذه الأيات نحول من ايات الكون إلى ايات القرآن. فتكون أدلة الهداية تنبع من التأمل في كتاب الكون، والنفس، و القرآن.
وتشديع اخر على المشركين، الذين ضموا إلى إعراضهم ، أنهم إذا عرفوا شيئا من ايات القران، توجه تفكيرهم إلى العبث ، والاستهزاء بها ليصرفوا الدهماء عنها.
لقد تميزوا بالخبث والفساد، وكشفهم البيان القرآني، فاصبحوا حاضرين بما يجللهم من الكذب والإثم مستحقين للعذاب المؤكد حصوله .و أن عاقبتهم ستكون العذاب المؤلم جدا.
ثم أوضح القرآن العذاب المهين . بتحقيق أن العذاب هو عذاب جهنم الذي يتبعهم وهم غافلون عنه ، مثلهم والأمن يطمئنهم إذا نظروا إلى أمامهم ، ولكن العذاب يتبعهم وهو غافلون عنه فيأخذهم أخذا لا مفر منه. لا يدفع عنهم ما كسبوه في الدنيا من مال وقوة وأتباع ولا يعينهم من عبدوهم وعقدوا صلة الاعتماد عليهم والثقة بهم. ولهم عذاب عظيم استحقوه بذلك.

11 . هذا هدى والذين...رجز أليم.

القرآن بما سبق من الحديث عنه، وبقربه من المبلغ والمبلغ ، حاضر غير غائب، فأشير إليه تبعا لذلك: هذا، أي هذا القرآن هو الجامع للهدى الكامل، الطريق السوي المبلغ إلى الغاية مع تمام الوضوح ، وعدم التردد أو الغموض. ولما تفرد بالهداية حتى أصبح الهدى عينه، فإن الذين كفروا به وأعرضوا عنه، واختاروا رغم ذلك معارضته والكيد لرسول الله وصحابته، سيلقون حتما جزاءهم: عذابا من رجز أليم، والرجز هو أشد العذاب، ووصفه بأنه أليم شديد. ذلك أن كل عذاب مؤلم، ولكن الإحساس قد يكون في بعض الأنواع أشد. وقد قدر سبحانه أن يكون إحساسهم بعذابه بالغا أعلى درجات الإحساس .

• ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

بأمره :بقدرته و إذانه.

لتبتغوا : تتمكنوا من فضل الله بالتجارة و الصيد، ثم الحج و الجهاد.

لا يرجون : لا يتوقعون .

أيام الله : الأيام التي ينتصر فيها لأوليائه على أعدائه.

بيان المعنى الإجمالي :

الله وحده هو الذي سخر لكم البحر على قوته وعظمته وأهواله فيسره لكم لإجراء الفلك على ظهره بحسن تدبيره، كما مكنكم من الخيرات المودعة فيه لتصلوا إليها بفضله، كالأسماك قوتا، والطاقات في قاعه، واللؤلؤ للزينة وغير ذلك. إنها نعم تدعوكم لمواصلة الشكر .

كما سخر لكم بفضل منه كل ما في السماوات والأرض من خيرات، ما يأتيكم بدون جهد، وما تبلغونه بفضل ما أقامه من قوانين ثابتة، وبما من عليكم من الذكاء والمهارات العملية، إن في اقداركم على الانتفاع بمذخورات الكون ما يقوم دليلا على حكيم التصرف لله الواحد الأحد ، فتحه للقوم الذين يعملون فكرهم ويتعمقون.

قل يا محمد للذين رسخ الإيمان في قلوبهم ، واعتزوا به :لا تؤاخذوا الذين يتجاوزون حدود الأدب معكم ويؤذونكم من الذين فقدوا الرجاء في نصر الله لدينه وأوليائه . ليتحققوا أنه سيُجزى كل فاعل بما فعل ، فالمؤمنون مجزيون على صبرهم وتغلبهم على حب الانتقام العاجل، وسيجزى المؤذون المنفصلون عن الله بعقابهم على ما اكتسبوه من الإثم. إنه من عمل صالحا فإن خير عمله يعود إليه بفضل ربه حسن ثواب وعونا في الدنيا، ومن عمل عملا قبيحا فسيعود عليه ما عمله خسرانا و عذابا ،وسترجعون جميعا إلى ربكم فينصف كل مظلوم من ظالمه.

بيان المعنى العام

12/13 الله الذي سخر لكم...لقوم يتفكرون

الله العلم الفرد لا شريك له ،هو الذي سخر لكم البحر ، فأجرى فيه من القوانين ما يتلاءم مع قدراتكم الفكرية والعلمية ،والصناعية ، فكان من مجموع ذلك ما مكنكم من إجراء الفلك العظيمة على ظهره تنقل تجاراتكم ، و تمكنكم من بلوغ ما قرب وما بعد من الآفاق ، للنزهة ،او التعلم، او البر كالحج والجهاد ،ويسر لكم البحر

بمخزوناته من القوت كصيد الأسماك، والطاقة بما أودع في قاعه من ثروات كالغاز والبترول، وما يمكن ان يكتشفه العلم. ولا بد من ملاحظة قوله " لكم " فإن المنة في هذه الآية وما يتلوها مراعاتكم في الخلق لتنتفعوا به. ولما قدر في الخلق تلكم الملاءمة بين الخلق وبينكم ، فجدير أن تقربكم هذه النعم من مواصلة شكره على نعمه .

وهذه الدقائق التي لفت إليها الأنظار في البحر، تدعو التأمل في الكون كله ، فالكون كله مسخر للإنسان ينتفع بما فيه من قوى وخيرات .فما في السماوات وما في الأرض، ما يصل إليكم بدون جهد كالأمطار وأشعة الشمس، وأنوار النجوم الهادية، والقمر، وما تصلون إلى الاستفادة منه في الأرض بما تبذلونه من جهد عقلي وبدني، كل تلك الخيرات جميعها من عطاء الله وفضله.

بكل تأكيد في كل تلكم النعم التي ظهرت لكم والتي يتوالى ظهورها للبشرية فتستفيد منها بمقدار ما يستفيدون به من قوانين الخلق ، كالطاقة المتجددة التي يسير فيها العالم اليوم بخطى متواصلة ، والأثير الناقل للأصوات والصور ، وأسرار الاتصال بين كل جزء من أجزاء العالم بغيره في نفس اللحظة،، في كل ذلك أدلة مظهرة أن هذا العالم ما كان أن يكون على النحو الذي عليه لو كانت المصادفة أوجدته، فهو مستند إلى العليم الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه. وعلى الإنسان أن يحرك فكره لمعرفة القوانين وتوليد منافعه منها.

14- قل للذين آمنوا يغفروا..بما كانوا يكسبون.

كان المشركون يعتزون بقدراتهم المالية والعصبية، وما كان لهم من القيم الخلقية ، ومن الآداب الاجتماعية ما يوجههم إلى حسن المعاملة ،وانضاف إلى ذلك شدة مقتهم للدين الجديد ولرسوله وللمؤمنين . فتعرض المؤمنون وهم يعيشون في هذا الوسط الجاهلي، تعرضوا إلى أنواع من الأذى. وقد أكسبهم الدين عزة في النفس وإباء للضيم، وهم المتمسكون بالحق ،و قومهم منغمسون في الضلال. والاحتكاك الاجتماعي يثير السفهاء والمستكبرون للتعدي على المؤمنين. والمؤمنون في مكة قلة، والعصبية الجاهلية تثور إذا مس واحد منها بسوء، ولو كان هو المتسبب، وبعض رؤوس الكفر ربما يتخذون أي دفاع عن النفس من المؤمنين ذريعة لشنها حربا عليهم ، في وقت كان فيه ميزان القوى راجحا للمشركين. وروي أن بعض المسلمين غضب واستشار رسول الله صلى عليه وسلم أن ينتصف ممن ظلمه، فأشار عليه بالتجاوز، ونزلت الآية. قل للذين آمنوا قولا نزل عليهم من ربهم

المراعي لمصالحهم العليم بما هو خير لهم في الحاضر والمآل. قل لهم : اغفروا تجاوزوا عن الذين لا يرقبون الأيام التي ينصر الله فيها دينه ، وحملته.

يغفروا: هم مأمورون بالتجاوز، فهو في قوة ليغفروا. ومن مقتضيات وقوفهم عند أوامر ربهم أنهم يغفرون فعلا.

والذين لا يرجون أيام الله ، هم المشركون من أهل مكة ، الذين لا يتوقعون أن الله ينصر دينه وأولياءه ،اعتزازا بقوتهم وتفوقهم العددي على المسلمين .

ليجزي قوما بما كانوا يكسبون. ليجزي أي قوم يتقومون بما يصدر عنهم من خير أو شر ، بما كسبته أيديهم وما عملوا ، فيجزي الأبرار الصابرين أحسن الجزاء وأوفاه نصرا في الدنيا وثوابا جزيلا يوم القيامة ، ويجزي الأشرار شر الجزاء قهرا وذلا في الدنيا وعذابا مهينا يوم القيامة .

15ـمن عمل صالحا فلنفسه...إلى ربكم ترجعون.

صرحت الآية بما تكرر التنبيه إليه في القرآن ، من أن المسؤولية يتحملها الإنسان بفعله واختياره ، وأن الجزاء من جنس العمل فمن عمل صالحا كان جزاؤه تكريما ينعم به هو . ومن عمل سوءا وشرا فإنه يتحمل عاقبة فساده وشره. ولما كان الجزاء قد لا يتم في الحياة الدنيا، فكم من مجرمين قضوا حياتهم في عز ونعيم ، وكم من خيرين سلط عليهم الظلم وماتوا في السجون تحت العذاب. حققت الآية أن الجزاء لا يتخلف، فجميع الناس لا يستثنى منهم أحد سيلقون جزاءهم. فإنكم جميعا ترجعون إلى الله، تصيرون إلى حكمه العادل يوم القيامة، فينفذ في كل فريق جزاءه حسبما قدم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿16﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿17﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿18﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿19﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿20﴾

بيان معاني الألفاظ

الكتاب : التوراة.

الحكم: الحكم فصل القضاء.

الشريعة : الطريقة والمنهاج.

من الأمر : من أمر الدين.

الأهواء : المحبة والميل العاطفي غير المستند إلى المنطق.

الاغناء : جعل الغير غنيا غير محتاج.

بصائر :جمع بصيرة، وهي إدراك العقل الأمور على حقيقتها

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن النعم التي مكن منهـا بنـي إسـرائيل، فقـد آتـاهم الله التـوراة فيهـا هـدى ونور، ومكنهم من حكم أنفسهم بأنفسهم بعد مـا كـانوا مسـخرين مظلـومين مـن القـبط في مصر، وبعث فيهم كثيرا من الأنبياء كلمـا خفـت صـوت الـوحي الأول، أو حصـل فيهم تطور يستدعي تشريعا بعث الله فيهم نبيا. فكـانوا علـى صـلة مسـتمرة بهدايـة الله، ورزقهم من الطيبات في صحراء التيه : المن والسـلوى ، ويسـر لهـم المسـكنى بـأرض الشام كثيرة الخيرات. وفضلهم في ذلك الوقـت علـى العـالمين جميعـا، ببعثـة موسـى عليه السلام فيهم. وآتاهم مـا هـو واضـح مـن التشـريع والآداب والحجـاج .فعاشـوا بفضل ربهم عليهم في أتم نعمة وأحسن حال .ولكن حل الخـلاف بيـنهم بعـد مـا جـاءهم العلم الذي كان من المعقول أن يزيدهم تماسكا ومضيا علـى طـريقهم الـذي فـازوا بـه. وكان كل فريق متصلبا في رأيه، والله يظهر يوم القيامـة أسـباب الاخـتلاف لـيعلم مـن كان قصده صلاح أمته، ومن كان قصده تحقيق أغراض خاصة له.

وفوق ما قصصناه عليك مما مننا به على بنـي إسـرائيل، أنـا جعلنـاك متمكنـا متمسـكا بمنهج من الدين الحق ، فالزم ما مكناك منـه ، ولا تتبـع مـا يـدعونك إليـه المشـركون من تقديس ما كان عليه اباؤهم وموافقتك لهـم علـى عـاداتهم النابعـة مـن أهـوائهم ، لا سند لها لا من شرع ولا من عقل ، وإنمـا هـي مـن رشـح الجهـل الـذي هـم عليـه وبعدهم عـن العلـم الصـادق .إنهـم لا ينفعونـك، ولا يسـتطيعون أن يـدفعوا عنـك أي مؤاخذة من الله .إنك على طريقة وهـم علـى طريقـة معاكسـة .هـم ظـالمون بشـركهم وباستكبارهم وبتحديهم على الفضيلة ، والظـالمون يسـند بعضـهم بعضـا، وأنـت بعيـد عن الظلم .والله هو المتولي للمتقين المسعد بعونه لهم وأنت أولهم.

هذا القرآن الذي مكناك بواسطته مـن الشـريعة يفـتح البصـائر، فتـدرك الوجـود علـى حقيقته، ويمحو الحيرة التي استبدت بـالعقول . يهـديهم إلـى الطريـق الوسـط الـذي لا يميل مع الأهواء، ولا ينقاد للشـهوات، ولا يقمـع التطلعـات الخيـرة لكـل فـرد، وهـو رحمة للقلوب يتلوه اليائس فيجـد فيـه الـروح ،ويتلـوه المطمـئن فيضـاعف أمنـه ،ولا

ينتفع به على ما وصف إلا الموقنون بأنه من عند الله . والشاكون فيه هو عليهم عمى.

وبيان المعنى العام :

17/16.ولقد آتينا موسى الكتاب...فيما كانوا فيه يختلفون.

انتقل القرآن ليعرض تسجيلا لواقع بني إسرائيل، فابتدأ بما مكنهم منه من المدن والفضل. ومعظم قصص موسى تتحدث أولا عن بني إسرائيل قبل إرسال موسى، وافتتح هذا العرض بمنن الله على بني إسرائيل، أنهم كانوا بخير حتى اختلفوا فيما جاءهم من العلم، وفيه دعوة لقريش حتى لا يكون حظهم من الهدى الذي جاءهم به محمد أقل من حظ اليهود.

ابتدأ العرض بتأكيد أن الله مكن بني إسرائيل .

أولا: من التوراة كتابا منزلا من عند الله.

وثانيا :أتاهم الحكم . قال تعالى :إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار[1] - كما قص علينا القرآن قصة داود وسليمان إذ كانا يحكمان في الحرث [2]– وفي سورة ص من آية 17 إلى الآية26 يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، وجعل فيهم ملوكا يفصلون في القضايا ،بعد أن كانوا تحت السلطان المتعسف في مصر. فالذي يظهر لي أن تفسير الحكم بالحكمة بعيد.

وثالثا: تتابعت الأنبياء فيهم. فكانوا أكثر الأمم أنبياء إلى أن ختموا بعيسى عليه السلام الذي كان رسولا.

ورابعا: رزقهم من الطيبات، رزقهم المن والسلوى وهم في الصحراء القاحلة. وأسكنهم أرض الشام التي تتميز بخصب أرضها وتنوع محاصيلها، ونفاق تجارتها، موقعها الجغرافي ساعدها على أن تكون جسرا بين المشرق برا وبين ما وراء البحر الأبيض المتوسط غربا.

وأما تفضيلهم على العالمين، فهي النعمة الخامسة، وذلك ببعثة موسى الكليم فيهم دون غيرهم من البشر في ذلك العهد، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته . فلا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الله ميزهم لرفعة في جنسهم على بقية الأجناس، ولكن لحكمة يعلمها هو وحده. وقد يكون أن ما كانوا عليه من الذل والقهر في مصر، وما

[1] سورة المائدة آية44

[2] سورة الأنبياء آية 78

يصحب ذلك عادة من التحلل الخلقي والاجتماعي، قد حولهم الوحي إلى أمة متماسكة قوية، ملكت الأرض وأقامت العدل. ثم انحرفت عن الدين فتمزقت وذهب أمرها، وانقطع تواصل لغتها فماتت لغة التوراة، وتخلت في الشعب اليهودي شعوب أخرى. فيكون تفضيلهم على العالمين في ذلك الزمان شاهدا على أن التشريع الإلهي يحيي الشعوب، ويرفع شأنها. وفي ذلك تنبيه لمشركي مكة أن ما جاءهم به رسول الله ﷺ يحولهم إلى أمة قوية عزيزة، يجمعون بين استقامة التفكير، وصحة العقيدة، والتمكين في الأرض.

والنعمة السادسة، أن الله مكنهم بلطف من الآيات البينات والأدلة الواضحة، والحجج المقنعة؛ بفضل ما في التوراة من وحي وبفضل تعليم موسى وتربيته الحكيمة، فتمكنوا فكريا وعمليا من المنهج الذي يبقي على تلكم القوة الناشئة، والتي استمرت دهرا لما كان أمرهم واحدا متحدين غير متنازعين. ودب إلى المجتمع الإسرائيلي داء الاختلاف فاختلفوا كأشد ما يكون الاختلاف، بعد ما عاشوا متوحدين ومنتصرين. وقد قص الله علينا في سورة البقرة موقفهم من طالوت الذي أخبرهم به نبيهم أنه هو الملك عليهم، وأنهم بعد هذا العلم الذي جاءهم من نبيهم أظهروا الرفض، وقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال آية 245. حسدوه أن يسمو إلى مرتبة ملك بني إسرائيل، وهو فقير، وأن يتولى قيادة الجيوش. فاختلاف بني إسرائيل لم يكن اختلافا طلبا للحق، وسعي كل طرف إلى النظرية التي يراها أولى بالتمسك بها لما فيها من صلاح وخير. ولكن اختلافهم كان صادرا عن نفوس امتلأت بالأنانية وحب الذات، ومعاكسة الغير لتحقيق مآرب شخصية. وهذا هو البغي والفساد الذي ما دب إلى كيان أمة من الأمم إلا تبعه التمزق والخسران. وكذلك لما جاءهم عيسى ﷺ بالبينات اختلفوا عليه حسدا، ولم يؤمن به إلا الحواريون، وشجعوا بيلاطس الحاكم الروماني على قتله. هذا ما وجدته في القرآن من اختلافاتهم بعد ما جاءهم الحق. وأخبر القرآن أنه سيفصل بينهم في خلافاتهم، التي لقوة تمسك كل فريق برأيه، أهلكتهم ومزقتهم شر ممزق. وأنه سبحانه سيظهر الحقيقة ويجزي كل فريق بما يستحقه من الجزاء، بعد انكشاف أهداف المختلفين. وفي هذا المقطع تنبيه للمؤمنين أن يبتعدوا عن الخلاف الصادر عن هوى وحب في القلب.

18-19: ثم جعلناك على شريعة...ولي المتقين

ثم، فوق ما آتيناه بني إسرائيل من الخيرات، أننا جعلناك يا محمد متمكنا من شريعة عظيمة، هي منهج عام وطريقة شاملة من أمر الدين، مؤيدة بالحجج التي

يشهد لها العقل، تبلغ بك مرضاة ربك وما يحبه لعباده ، فدم على اتباعها والتمسك بها وواصل حياتك على ما جاء فيها. ولا تتبع ما هو معرى من المنطق مخالف للعقل، ومستند إلى الهوى المتقلب، والميول المنبعثة من العواطف التائهة ،ميول الجهال الفاقدين للعلم ، كل ما عندهم تقليد أعمى، وإرضاء للشهوات .

دعا رؤساء الكفر من مشركي قريش النبي ﷺ أن يهادنهم ، ويعود لدين آبائهم، فنهاه في الآية السابقة عن اتباعهم لأنهم جهلة لا يعلمون ، وأضاف في هذه الآية تحذيرا مؤكدا لذلك المعنى من ناحية أخرى، أنهم عاجزون عن دفع ما يترتب على ذلك من أي عقاب لا يعلمه إلا الله. فيدل الكلام على أن اتباع أهوائهم موقعة في غضب الله ومقته.

ثم قوى التأكيد في مخالفة المشركين بأن المشركين الظلمة بشركهم، وبغيهم على الضعفاء، وبتمسكهم بالقوة المادية في حياتهم، هم لا يعقدون صلات ولا يتعاونون إلا مع من كان على شاكلتهم في الظلم والخروج عن القيم الخلقية ، وأنت يامحمد على خلق عظيم لا تناسب بينك وبينهم فلا يجوز أن تتبعهم، إنما يتبعهم أولياؤهم. وذيلت الآية بأن الله ناصر المتقين وحاضر معهم يسعدهم في حياتهم ، وأنت أول المتقين

20هذا بصائر للناس ...لقوم يؤمنون.

تنويه بالقرآن الذي بفضله كان النبي ﷺ على شريعة من الأمر كما ثبت في الآية السابقة، والقرآن حاضر دائما فلذلك أشير إليه ب"هذا" أتبعه بأنه يفتح بصائر الناس، فإذا هم به يدركون حقيقة الوجود، وارتباط الكون بمبدعه، وأصل الإنسان ونهايته والعلاقات الاجتماعية، تزول الحيرة التي صحبت الناس في محاولاتهم فهمها، وهو هدى يهدي من تمسك به وأيقن بأحقيته للطريق الذي تكون به حياته آمنة مطمئنة، لا تميل به الأهواء فتضله، ولا يفقد الثقة فيتهاوى. وهو رحمة من الله لعباده تتوثق به العلاقات البشرية فتسمو إلى مستوى رفيع من الأخوة والتعاون، ويجد الموقن به آيات الرحمة التي تقلع من نفسه القنوط واليأس (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)[1]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

---

[1] سورة الزمر آية53

وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

اجترحوا السيئات: اكتسبوا السيئات بما فعلوا .

سواء : مماثلة كاملة.

الحق : اسم جامع لما شأنه أن يثبت.

ختم : أغلق وطبع طبعا لا يقبل معه الفتح.

غشاوة: غطاء مانع من وصول المؤثرات.

بيان المعنى الإجمالي:

ظن المشركون الذين اكتسبوا العقيدة الباطلة، والأعمال الآثمة، والسلوك القبيح، وكانوا على حظ من بحبوحة العيش والرفاهية وقوة العصبية، أن مماتهم سيكون على نفس المستوى من النعيم الذي قضوا عليه حياتهم، وأن المؤمنين الذين هم دونهم في مكتسبات الحياة الدنيا من مال وجاه، وقد صلحت عقيدتهم بالإيمان وأعمالهم بالالتزام سيكونون مهينين على نفس المستوى الضعيف عند الممات. سفه القرآن ظنونهم، وأكد أن الأمر على العكس من ذلك. وشطب على ظنونهم بأنها ظنون سيئة لا قيمة لها ولا قوام.

إن الله خلق السماوات والأرض وأجرى الخلق على قوانين العدل والنظام ، والإنسان جزء من هذا الكون ،ولا يعقل أن يكون فوضويا فيه، يفعل ما يشاء ، فمن كمال العدل الإلهي أن قدر لكل فعل جزاء ، فمن أصلح جوزي عن صلاحه ، ومن أفسد وتجاوز الحدود جوزي عن فساده بمقدار ما أفسد وبمقدار ما يسترجع المظلوم ظلامته ،ولا يظلم ربك احدا.

أرأيت يا محمد ،وكل من يصح منه الرؤية هذا النمط من البشر، الذين قصدوا لجعل إلههم الذي يطيعونه ويأتمرون بأمره ، جعلوا إلههم شهواتهم وهواهم ،ومن اتخذ إلهه هوى نفسه وصمم على طاعته ،فإن الله يخذله ويسلبه عونه ، ولا يمكنه من ألطافه . فيحرمه الهداية ويضل مع علمه بأنه ضال بما عرفه الرسول من الحق. ويوالي مسيرته في طريقه حتى، ينقلب أصم لا يسمع آيات الله، ويصبح

قلبه في غلاف متين مغلق أشد ما يكون، مختوم عليه بخاتم لا يقبل معه الفتح، ينسحب على بصره ساتر صفيق يحجب عنه مشاهد الكون. إن من واصل طريق الضلالة حتى بلغ ما جمعته الآية هل يمكن أن يطمع أن يهديه أحد بعد ما حرمه الله عونه و ألطافه؟

من خيالات المنكرين للبعث ما صرحوا به من أنه لا توجد إلا حياة واحدة هي حياتنا في الدنيا، وأنه لا بعث، ولا حياة أخرى للجزاء. المشاهد أننا نحن البشر يتعاقب علينا الموت والحياة، نحيا، ثم نموت ويخلفنا نسلنا وهكذا، والدهر، الزمان هو الذي يهري الحياة فنموت. إن كلامهم هذا مجرد أوهام ليس صادرا عن علم، وهي ظنون وخيالات، وإلا فإن الدهر ليس إلا تقديرا يقدره الفكر في استمرار الوجود، وليس قوة فاعلة حتى تستطيع إفناء البشر.

بيان المعنى العام:

21.أم حسب الذين...ساء ما يحكمون

[أم] التي افتتحت بها الآية توقظ التالي إلى أن الكلام قد تحول من السياق الذي كان فيه إلى سياق جديد. ومساق الآية استفهام انكاري ، سجل ظن المشركين وأنكره مبطلا له . لظن الذين اكتسبوا السيئات بأعمالهم الخبيثة ، وانحراف عقيدتهم، وتجاوزهم لحدود الآداب والأخلاق ، أحسبوا أن يساووا الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة التي يراعون فيها أوامر ربهم والمنهج الذي سطره لهم في الحياة؟!

ادعى المشركون أن الحياة الدنيا مقدمة للحياة الآخرة، التي وإن كانوا لا يؤمنون بها ولكنهم قالوه استهزاء بالمؤمنين، ظنوا أن وضعهم المادي في الحياة الدنيا المرفه القوي العزيز، سيصحبهم في الآخرة وأن وضع المؤمنين الضعيف الفقير سيصحبهم في الآخرة أيضا .وأن الحياة الدنيا والحياة الآخرة سواء ، فمن كان قويا عزيزا في الدنيا يكون قويا عزيزا في الآخرة ، والعكس بالعكس .

رد القرآن عليهم: إن هذا زعم باطل فحال المؤمنين في الدنيا هو حال الذين جمعوا بين فضيلتين: فضيلة الإيمان الذي دفعوا به الشك ووثقوا بما حل في عقولهم عقيدة راسخة، وفضيلة مراعاة ما يقتضيه إيمانهم من مراقبة الله في أعمالهم. فأعمالهم صالحة في باطنها وفي ظاهرها. فهم في حياتهم الدنيا مطمئنون. يغمرهم الرضا النفسي، وحسن العلاقة مع البشر ومع الكون. وهم عند موتهم يصحبهم الوضع الذي ساروا عليه في الحياة.(يـا أيتهـا النفس المطمئنـة ارجعي إلـى ربـك راضيـة

مرضية)[1] تصحب شفاههم عند النزع ابتسامة النظر إلى ما يكشف لهم ما أعد لهم من خير.

وأما الذين أشركوا فعرفهم، بأنهم اجترحوا بما تلفيه الكاسة في ظلالها من التعدي بالمخالب والأنياب شأن الوحوش، فهم يمزقون الفضيلة ويعتدون. اجترحوا السيئات وكسبوها ذخيرة قبيحة. ألفوا الشر وعادوا الإحسان في فعالهم وفي ضمائرهم.

وإن البعد بين الحياتين بعد شاسع، بين السمو المتعالي الرفيع للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين السقوط الهاوي إلى الرذيلة في حياة الذين اجترحوا السيئات، بين الحياة المطمئنة والحياة المضطربة.

إنهم قد نظروا إلى الجوانب المادية من سعة العيش والقوة والعصبية، وفقدان المؤمنين لذلك، وظنوا أن الأمر يتواصل في الممات ليكون كل فريق يموت على ما هو عليه. وهذا الذي ردت عليهم الآية فيه؛ أنهم لا يكونون في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة إلا على أسوأ حال عكس ما يظنون، وسيتواصل مماتهم على النحو الحقيقي لحياتهم.

وبجملة واحدة تختم الآية بما يعصف بكل تصوراتهم فينتهي العرض: ساء ما يحكمون. حكم سيء في قيمته باطل في حقيقته، ينفيه المستقبل.

فهم كثير من الصالحين أن الآية تحتوي على إيماء للمؤمنين الذين يجترحون السيئات. فإنه وإن سلمت عقيدتهم، فإن اقتحامهم للمنهيات يعتبرون به قد اجترحوا السيئات. روي أن تميما الداري رضي الله عنه كان يصلي ذات ليلة عند مقام إبراهيم فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويردد إلى الصباح: ساء ما يحكمون. وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت؟

22. وخلق الله السماوات... وهم لا يظلمون.

تأكد ما جاء في الآية السابقة من تسفيه ظنون المجترحين للإثم: أن وضعهم عند الممات سيكون أفضل من وضع المؤمنين المستضعفين. وذلك بالنظر في النظام العادل الذي بنى الله عليه الكون. إن الله خلق السماوات والأرض جارية على قوانين الحكمة والعدل، منظمة تنظيما لا تجور معه قوة على قوة أخرى، ولا تخرج عما قدر لها في سير العوالم. وإن هذا القانون العام لا يخرج البشر عنه. ولذا فإن من يخرج عن حدود الله ويجترح السيئات، ويحدث في الكون شرخا بسوء عمله

---

[1] سورة الفجر آية 28

يجزى على فساده ، ويعاقب على ما اكتسب من اثم، جزاء عادلا مقدرا عند الله ، بما كسب بعقاب مساو لما احدثه من فساد . ونبه في ختام الاية ان العدل هو أصل من الأصول التي يجب أن يفهم عليها التصرف الإلهي ، فإذا عاقب هو لا يظلم مثقال ذرة ، لا في العقاب المسلط ، ولا في رفع ظلامة المظلوم .

23. أفرأيت من اتخذ...أفلا تذكرون.

صيغة تكررت في القرآن تفيد التشهير والتعجيب . والمخاطب بها يصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم، والأولى أنه كل من يصح منه الرؤية. اشتهرت حالة هذا الصنف من الناس ، وأمرهم عجيب . محصل هذه الصورة الداعية للعجب: هل ابصرت من صمم على ان يجعل معبوده الذي يتبعه هواه ، ما تزينه له نفسه ، وما يلائم عواطفه ، وما يشبع شهواته، هو مطيع لها ، يجري لاهثا لتحقيق ما تدعوه اليه .فأنت اذا تأملت فيه وجدته قد خلع عن نفسه ما يتميز به الجنس الإنساني من تحكيم العقل. قال صلى الله عليه وسلم : العاجز من أتبع نفسه هواها أخرجه الترمذي وأحمد. ونسب إلى عبد الملك بن مروان قوله

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى *** إلى كل ما فيه عليك ملام

ثم واصلت الآية الكشف عن الجوانب المفسدة لإنسانيته، إنه انحرف عن الطريق المستقيم، واتبع طريق الضلالة الذي يضيع فيه ويعمى عن الهدف الصالح، تصلبه في العناد ، وضعف أمام شهواته . يعرض عن الأدلة اليقينية . حرمه الله الطاقة إذ قرر في نفسه المكابرة واتباع هواه .والعجب أن الرسول صلى الله عليه وسلم فتح له باب العلم والمعرفة فهو متمكن من العلم ولكن الاستكبار والمكابرة والانقياد للشهوات أضلته .

إن تصلبه في اتباع شهواته ، يجعله كلما واصل سبيل المتعة يزداد انغماسا في ضلاله ، ويألف ما رضيه ، حتى يصبح سمعه أصم عن نداء الحق ،وقلبه كأنه أدخل في بوتقة وأغلق عليه ثم طبع فوق ذلك بختم لا يقبل الفتح ،ويفقد الإحساس بمشاهد الكون وما تدل عليه، فلا هو يسمع آيات الله تتلى ولا ينهض قلبه بالتذكر والاعتبار . ولا يرى في الكون ما يدله على ما وراء الظواهر من حكمة مبدعة، وهل يستطيع أحد وهل تتمكن أي قوة أن تهديه بعد إضلال الله له الإضلال المجسم كما تقدم ؟ وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ عن أسفه لمواصلة المشركين شركهم، وصدودهم عن الحق الذي جاء به.

24. وقالوا ما هي إلا حياتنا...إن هم إلا يظنون.

ومن مقالات الكفار في جدالهم للرسول صلى الله عليه وسلم في أمر البعث، الذي بذلوا كل جهدهم لإنكاره ،وإقامة أدلتهم الوضيعة على ذلك من مقالتهم أن الأمر

الجاري على البشر لا يخرج عن الموت والحياة، يتعاقبان يولد المولود ثم يموت بعد أن يخلفه نسله. لا توجد إلا حياة واحدة هي حياتنا في هذه الدنيا، وأما حياة أخرى بعد الموت فلا. وإن الذي يقضي على الحياة ويذهب بالأحياء هو تهري الأحياء بعامل الزمن، فتمر الأيام والليالي والسنون على الإنسان فتنهك قواه شيئا فشيئا إلى أن تفنيه، وإذا فني فلا عودة بعد ذلك. إن دعواهم أن الدهر هو المفني كلام ليس لهم عليه دليل وإنما هي أوهام لا علم لهم، فإذا كان الإفناء للموجود مرجحا موته على بقائه حيا، فإنه لا بد من قوة تسحق هذا الموجود وتكون أقوى منه. وطلوع النهار وظلام الليل، والدورة الشمسية لا تأثير لها في الحياة، فلا تأثير لها في الموت.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا ريب: حق لا يقبل التشكيك فيه.

المبطلون: الآتون بالباطل في العقيدة والتفكير.

الأمة: الجماعة الذين يؤلف بينهم دين.

جاثية: باركة على ركبتيها، غير مستقرة، مستعدة للقيام.

نستنسخ: نكتب أعمالكم كما وقعت.

الفوز: نيل المبتغى.

بيان المعنى الإجمالي :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو على قريش آيات القرآن البينة المثبتة للبعث. وكان موقف قريش من تلك الحجج الإلهية أن قالوا: ائتوا بآبائنا نسألهم عن صدق ما تدعون. القرآن يدعوهم إلى الإيمان بالبعث يوم القيامة، وردهم كان طلب البعث في الدنيا.

قل لهم واثقا: إن الله هو الذي يحييكم في بطون أمهاتكم، ثم يتصرف فيكم فيميتكم عند حلول آجالكم، ثم بنفس القدرة والتدبير يبعثكم جميعا إلى يوم القيامة للجزاء. إنه يوم آت لا شك فيه، ولكن العلة التي تبعها إنكار وقوعه هو أن أكثر الناس لم يحيطوا علما بأدلة وقوعه. وكل من يصح منه الرؤية يرى هذا المشهد يوم القيامة: أفراد كل أمة من الأمم التي جمعها دين واحد، ترى كل فرد منها باركا على ركبتيه مستعدا لإجابة الداعي الذي يدعوه ليقرأ ما سجل في صحيفته، وليجزي عما قدم.

هذا الكتاب الذي وجدتم فيه أعمالكم موثقة كما تمت في حياتكم، هو الكتاب الذي أمرنا الملائكة بضبطه ، إنه يُعرف بما عملتم ، ينطق بالحق بدون زيادة ولا نقص صورة مطابقة لأعمالكم ، التي أمرنا الكتبة بتثبيتها في صحائفكم .

تظهر الصحائف حقيقة كل فرد من حيث صلاحه، أو فساده. فأما الذين كانوا على عقيدة صحيحة نقية، وعملوا الأعمال التي تترتب عليها الآثار الصالحة المرضية، فيفتح لهم ربهم أبواب رحمته ليلقوا من النعيم والتكريم ما يليق برحمته الواسعة. وفي المقابل فإن الذين كفروا يواجهون بسؤال فيه توبيخ وإنكار وتقرير: ألم تكن تبلغكم آيات القرآن بواسطة رسولنا واضحة بينة، فخلتم أنفسكم أعظم من الاستجابة إليها وبذلك واصلتم حياتكم على الرذيلة والإجرام.

كلما ذكركم القرآن بأن البعث حق والساعة حق آتية لا ريب فيها، قلتم: ما نفهم ما تقولون. ما هي هذه الساعة التي تهددوننا بها ؟ لا حجة لكم عليها، وحتى إن جاريناكم فكلامكم يفيد ظنا، بعيدا عن اليقين، وأنتم تريدون إسباغ صفة اليقين عليها.

بيان المعنى العام :

25 وإذا تتلى عليهم ...إن كنتم صادقين

سجل القرآن على المشركين طريقتهم في مناقضة القرآن. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم آيات القرآن بينة واضحة مثبتة للبعث. ولا شك أنها لنصاعتها ووضوحها كانت تزلزلهم، ولما كانوا قوما دربوا على الخصومة والحجاج بالباطل لم يجدوا حجة يدحضون بها بيان القرآن إلا أمرا واحدا ظنوه

حجة لهم، قالوا لرسول الله وللمؤمنين: ان كان البعث حقا فائتونا بآبائنا الذين ماتوا. وهم يعلمون أن البعث ليس في الدنيا، فكان قولهم هذا مكابرة حتى لا يظهروا بمظهر العاجز المفحم.

26.قل الله يحييكم..ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تلقين من الله لنبيه أن يواجه المشركين بقوة ووثوق، قل لهم: الله العليم الفرد هو وحده الذي يحييكم فيخلقكم و يبعث فيكم الروح في بطون أمهاتكم، ثم يبقيكم إلى الأجل الذي قدره فيميتكم، ثم بعد ذلك يجمعكم أحياء إلى يوم القيامة. إنه يوم لا يقبل أن يشك فيه، ولا يوجد دليل واحد ينفيه، أو يفرض عدم قدومه. ولكن العلة في إنكاره هي جهل كثير من الناس بدلائل أحقيته.

27. ولله ملك السموات والأرض..يخسر المبطلون.

التصرف المذكور في الآية السابقة، يحققه أن الله تفرد بملك السماوات والأرض في ابتداء أمرها، ثم فيما يجري عليها بتدبيره، ثم في المآل الذي قدره لها. هذا المآل النهائي هو يوم تقوم الساعة، يوم القيامة. في هذا اليوم يجد الذين ألفوا الباطل في العقيدة والقول والعمل، ومنهم المنكرون للبعث، يجدون أنفسهم خاسرين، لا يحملون معهم أي شيء يساعدهم في ذلك اليوم. ذهب عملهم باطلا، ويبقى الباطل معلقا بهم يلقون جزاءهم عليه.

28. وترى كل أمة جاثية..ما كنتم تعملون.

عرضت الآية مشهد يوم القيامة وكأنه حاضر منظور. ترى، خطاب لكل من يتصور منه الرؤية، فما ذا يرى ؟ يرى كل أمة جمعها دين بواسطة رسولهم، يراها، وكل فرد من أفرادها بارك على ركبتيه، غير مطمئن، مستعد لإجابة من يدعوه. لما ذا كان على هذا الوضع؟ كل فرد حصل في يقينه أنه سيدعى إلى كتاب الأمة المنزل ليعرض أعماله عليه، على هذا الفهم حمله بعض المفسرين . والأولى أن يكون الكتاب هو كتاب كل فرد الذي سجل فيه أعماله. قال تعالى: (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)[1] . ويقال له: اليوم تلقى جزاء ما كنت تعمل جزاء عادلا.

29. هذا كتابنا ينطق ...ما كنتم تعملون.

دعوا ليجدوا كتابهم وصحائفهم شاهدة عليهم، سوثق فيها كل ما عملوه من خير أو شر. ويقال لهم: هذا الذي يشهد عليكم ويستعرض كل عمل قمتم به في حياتكم، هو

---

[1] سورة الإسراء آية 14

كتابنا الذي أمرنا بأن يوثق فيه كل عمل عملتموه. إنه ينطق بالحق دون زيادة ولا نقصان ولا تغيير لا في الظاهر ولا في الباطن. إنا أمرنا الملائكة الموكلين بكم أن يكتبوا كل ما كنتم تعملون.

30 – 31.فأما الذين آمنوا...وكنتم مجرمين.

فصلت الآية ما جاء مجملا في قوله : ترى كل أمة جاثية ، فابتدأ التفصيل بالحديث عن الناجين فقال :

فأما الذين تحقق إيمانهم، وصفت عقيدتهم، وصدقوا بما جاء به رسولهم من عند الله، وقرنوا العقيدة المثبتة لله ولكمالاته وليوم القيامة ، قرنوا ذلك بالأعمال الصالحة الملتزمة بالخير المجانبة للشر ، فإن الله يفتح لهم أبواب رحمته فيدخلهم فيها ، فهم ينعمون في رحمته الشاملة لكل فضل. وفعلا فإن هذه النهاية هي النجاح والفوز المبين الذي ما بعده نجاح ولا فوز أعظم منه.

أما الجناح الثاني، فهم الذين كفروا وجحدوا ما جاءهم به رسولهم، فيواجهون بسؤال فيه إنكار عليهم مواقفهم، وتقرير لهم، وتوبيخ عن كفرهم. ألم تكن آياتي القرآنية تتلى عليكم، وتبلغ أسماعكم، ويوضحها لكم رسولكم ؟ فكان موقفكم منها الاستكبار الذي طغى عليكم فحجب بصائركم عن الحق، وبذلك واصلتم حياتكم على اقتراف المنكرات، وتأصل الإجرام فيكم.

32.وإذا قيل إن وعد الله ...نحن بمستيقنين.

بداية هذه الآية تفيد التذكير بما تكرر التأكيد عليه من أمر يوم القيامة، وقدوم ساعة الإحياء من القبور والحساب. فقوله: إذا قيل: مُذكر بالأقوال الكثيرة في القرآن في هذا الموضوع. ما هو هذا المقول المكرر؟ إن وعد الله في بعث الناس إلى الحساب حق ثابت، وأن ساعة القيامة والحساب أمر لا يقبل الشك. كلما تكرر عليكم هذه الحقيقة أجبتم أيها الكافرون: ما ندري ما هي الساعة التي تتحدثون عنها؟ أمر وليد خيالكم . وأنتم تريدون أن نسبغوا عليها مستوى اليقين، وما أبعدها عن اليقين، فحتى إذا جاملناكم فغاية ما يفيد كلامكم ظن مجينها، ولكننا نحن لا يقين لدينا. والأمر حسبما تدعون يقيني.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا

هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

حاق : أحاط.

النسيان : الترك المؤبد.

اللقاء : وجدان الشيء في مكان.

المأوى : مسكن الشخص الذي يأوي إليه.

غرتكم : خدعتكم.

بيان المعنى الإجمالي:

تظهر للمشركين أعمالهم بقبحها وسوئها، فيدركون أنهم سيلقون جزاءهم عنها، ويحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم جزاء استهزائهم بالمؤمنين وبالقرآن. ثم يسمعون صوتا ينكل بهم، يقال لهم: اليوم نترككم في المصير الذي صرتم إليه تركا أبديا، نظير موقفكم من هذا اليوم، إذ صرتم في حياتكم لا تلتفتون إليه ولا يخطر على بالكم. ومنزلكم الذي تعودون إليه هو النار، ولا تجدون نصيرا ينصركم، آيسين من مغادرتها. لتستحضروا ما قررت لكم من أنواع العذاب لتعلموا أنه جزاء موقفكم من آيات القرآن موقف الاستهزاء والسخرية. خدعتكم الحياة الدنيا وظننتم أنه ليس وراء نعيمها نعيم آخر مع أنكم كنتم تشاهدون أنها زائلة منقلبة. إنه في هذا اليوم لا مطمع لكم في الخروج من النار، ولا يؤذن لكم في تقديم ما يعتبكم به ربكم فيرضى عنكم.

الثناء والحمد لله وحده على ما تفضل عليكم به من البيان المنقذ لكم من الضلالة، وعلى ما وعدكم من خيرات، وعلى رعايته الموصولة بكم، هو رب السماوات والأرض وما فيهما من الملائكة والبشر. وله وحده العظمة في الكون كله سماواته وأرضه، وهو المتصف بالعزة يتحقق كل ما يريد، وينجزه بحكمته على أتم وجه وأكمله.

بيان المعنى العام:

33. وبدا لهم سيئات ما كسبوا... به يستهزئون.

ذكر في الآية السابقة أن المشركين ما وجدوا دليلا يثبت مجيء يوم القيامة وما يتبعه من حساب وجزاء، ولما كانوا لا يوقنون إلا بما يشاهدون، فإنهم يوم القيامة تظهر لهم أعمالهم السيئة مسجلة في صحائفهم، مقرونة بما يستحقونه من العذاب

جزاء ما عملوا. ويحيط بهم من كل جانب جزاء سخريتهم من ضعفاء المؤمنين، ومما يعرضه القرآن من حقائق يوم القيامة، كاستهزائهم بالزقوم».

34ـ وقيل اليوم ننساكم..وما لكم من ناصرين.

القول المذكور في الآية موجه إلى المعذبين، مصحوب بإهانة، إذ لم يسند القول لا إلى الملائكة ولا إلى الله، إذ هم أحط من أن يتوجه رب العزة أو ملائكته إليهم ولو كان مضمون القول ما قدر لهم من نكال، وما ذا يسمعون ؟ يقال لهم : اليوم نتركم في العذاب ونبقيكم في جهنم إبقاء سرمديا . كالشيء المنسي الذي لا يؤبه به، ليس له قيمة ولا تعلق به حتى يذكر. إن خلودكم في النار جزاء وفاق لإعراضكم عن يومكم هذا الذي تقاسون ويلاته. وفي إجماله ما يترك للنفس مجالا لتصور ما يجدونه في ذلك اليوم من شر العذاب. ومنزلكم الذي ترجعون إليه ليحتضنكم وتجدون فيه قراركم هو النار. ولا تجدون نصيرا يخرجكم من العذاب أو يأسى لكم.

35ـ ذلكم بأنكم ..ولا هم يستعتبون.

ذلكم، الإشارة إلى كل ما جاء في الآية السابقة من نسيانكم في العذاب، وأن النار هي دار إقامتكم التي لا تبرحونها، هو بسبب أنكم كنتم لا تأخذون آيات القرآن مأخذ الجد ، وتستهزئون بها وتسخرون منها ،وغرتكم الحياة الدنيا فحسبتم أن نعيمها هو النعيم الذي ليس وراءه نعيم ، وأن ما كان لكم من القوة يحميكم ، وأن حياتكم في الدنيا هي الحياة التي لا حياة بعدها . ولم تتفطنوا إلى ما طبع به نعيمها من الزوال السريع. فكنتم سائرين فيها سير المغرور الذي لا يتفطن لما في المظاهر من خداع. يتميز هذا اليوم بأنه يوم باق سرمدي، متواصل ما فيه، فأنتم لا تخرجون من النار، وأنتم لا يسمح لكم باسترضاء ربكم وطلب عفوه، لأنه تقرر أنه ليس لكم أي حظ من رضاه.

36ــ37.فلله الحمد رب السماوات..وهو العزيز الحكيم

تختم السورة بإعلان اختصاص الله بالحمد والثناء. حمد على ما أبان من معالم الحق التي تتابعت في هذه السورة، وعلى ما نبه إليه من أمور الغيب حتى يعتصم المؤمن من الوقوع فيما يغضبه، و حمد على ما أعده للمؤمنين من منازل الكرامة. ثناء على عظمته وجلاله وتصرفه في الكون، فهو رب السماوات التي أحسن خلقها، وقدر قوانينها ويسرها لنفع الإنسان ، وهو رب الأرض وما أودعه فيها مما

به تيسرت الحياة مما لا يحصر من انواع الفضل . وهو رب سكان السماوات، وسكان الأرض . فعليهم أن يدركوا فضله ويولوا الثناء عليه وحمده.

إن دعوتهم لحمده هو للسمو بأرواحهم، وتزكية نفوسهم، هو غني عنهم غير محتاج لحمدهم، ويقترن دوما بربوبيته للسماء والأرض والعالمين ، استحضار عزته التي بها طوع كل شيء لإرادته ، واستحضار حكمته . فقد كانت ظاهرة الدقة سارية في كل جزئية من جزئيات الكون .

أكملت بحمد الله وحسن عونه الجزء الخامس والعشرين ليلة الخميس العاشر من شهر المحرم 1435-13/11/14

الفهرس

ســـــــــــورة الزمر: 471

ســـــــــــورة غافر (المؤمن): 531